إميل أو التربية

جان جاك روسو

ترجمة عادل زعيتر

إميل أو التربية

تأليف
جان جاك روسو

ترجمة
عادل زعيتر

هنــداوي

إميل أو التربية

جان جاك روسو

Émile ou de l’Éducation

Jean Jacques Rousseau

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩٠٧ ٣

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الفرنسية عام ١٧٦٢.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة المترجم	٩
مقدمة المؤلف	١٥
الجزء الأول	١٩
الجزء الثاني	٦٧
الجزء الثالث	١٧٥
الجزء الرابع	٢٣١
الجزء الخامس	٤٠٥

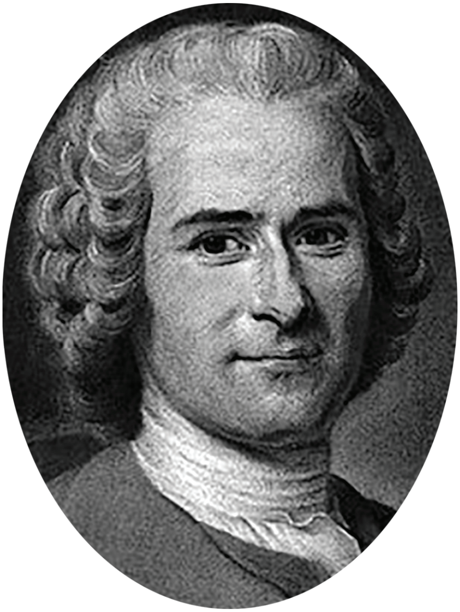

جان جاك روسو.

مقدمة المترجم

أُقدِّم ترجمةَ «إميل أو التَّربية» لجان جاك رُوسُّو.

ذهبَ ابنُ جنيفَ البائسُ «رُوسُّو» إلى باريسَ سنة ١٧٤١، وكان في التَّاسعةِ والعشرين من سِنيه، وذلك بعد أعوامٍ من الشَّقاء قضاها متنقِّلًا بين مُدُنٍ وأريافٍ من سويسرة وإيطالية وفرنسة جادًّا في كَسْبِ عيشه. وفي باريسَ يَنزِل بفندق سان كِنْتَان الحقير؛ حيث يقع نظرُه على خادمة الفندق الريفيَّة الساذجة «تِريز لوفاسُّور» التي كان النَّاسُ يَسخرون بها لبلاهتها، ويرِقُّ لها «روسُّو» فيتخذها رفيقةً له عن حُبٍّ وعاطفة، ويغادران الفندق وتدوم حياتهما معًا ستًّا وعشرين سنة.

والحقُّ أن تريزَ كانت كثيرةَ الغباوة، وكانت لا تُحسن شيئًا من القراءة والكتابة، ومع ذلك كان «رُوسُّو» كثيرَ الإعجاب بها، ناظرًا إليها بعين الحُبِّ راضيًا بجمالها وحسن صوتها، متجاوزًا عن عيوبها وفقرها، مُغضيًا عما يفصله عنها من عبقرية ونبوغ، وقد دامت حاله هذه نحوها اثنتي عشْرة سنة.

وتغيَّرَ حُبُّ «تريزَ» له مع الزَّمن، وصارت لا تُبالي به ولا تُفكِّر فيه، وطلبت منه الفِراق قبل موته بتسع سنين؛ فقد ولدت له خمسة أولاد، وسلَّمهم إلى ملجأ اللقطاء، وذلك من غير أن يترك ما يدلُّ على أصلهم في المستقبل، ويعتذر «روسُّو» عن ذلك بفقره واضطراره إلى كسب عيشه بكدِّه، وإن كان يهدف في الحقيقة إلى الحياة الحرة الطليقة التي لا تشغلُ باله بوَلَد، وفي ذلك من الابتعاد عن الإنسانية والمروءة والشعور بالواجب ما لا يخفى، وقد أراد «روسُّو» أن يكفِّر عن هذه الخطيئة التي لا تُغتفَر بوضع كتاب «إميل أو التَّربية» العظيم

الشأن، وقد ذكر روسُّو في «اعترافاته» أنه صرَّحَ رسميًّا بزواجه بـ «تريز» بعد معاشرته إياها ربع قرن، وقد صرفها بذلك عن طلبها الفِراق، فظلَّت رفيقةً له إلى أن مات، وإن لازمها الغَمُّ والألم حُزنًا على أطفالها أولئك.

ذهب «رُوسُّو» إلى باريس كما قلنا، وفي هذه المدينة قضى حياةً عسيرة؛ فقد كان يتعيَّش من استنساخ القطع الموسيقية فيها مع قبوله في رِداه المجتمع الراقي، ثُمَّ يذهب إلى البندقية سكرتيرًا لسفير فرنسة، ثُمَّ يعود إلى باريس ويرتبط بأواصر الصداقة في دِيدِرُو الذي كان من رجال الشعب أيضًا، فيقضي حياةً شاقةً مثلَه في باريس.

وبينا كان ذلك حال رُوسُّو في سنة ١٧٤٩، وقد كان ابنًا للسابع والثلاثين من عُمُره، نشرت أكاديمية ديجون إعلان مسابقة في موضوع: «هل أدَّى تقدُّم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها؟» وكان صديقه دِيدِرُو في سجن فنسن وقتئذٍ بسبب «رسالته عن العُمْي»، فاطَّلع على ذلك الإعلان حين ذهابه إلى زيارته، فعَنَّ له وهو في الطريق أن يشترك في المسابقة، ويُكلِّم ديدرو في الأمر فيشير عليه بالتزام جانب إفساد العلوم والفنون للأخلاق لما في هذا من طرافةٍ وتوجيه نظر، ولِما ينطوي التزام جانب إصلاحِهما للأخلاق من ابتذال.

ويُعمِل «روسُّو» ذهنَهُ ويجمعُ قواه، ويكتب في الموضوع، ويُقيمُ الدليل على أنَّ العلوم والفنون أفسدت الأخلاق وأوجبت شقاء الإنسان، ويدَّعي أنَّ التَّرف والحضارة من نتائج العلوم والفنون، وأنَّهما عِلةُ فساد الأخلاق؛ فقال بالرجوع إلى الحال الطبيعية.

وكتب «روسُّو» رسالته تلك بقلم حارٍّ وعاطفةٍ جارفة، فجاءت مبتكرةً في مجتمعٍ بلغ الغاية من المدنية، مخالِفةً لما عليه الجمهور؛ فنال «روسُّو» بها الجائزة، ويُعدُّ «رُوسُّو» في رسالته تلك كالمحامي الذي يلتزم طَرَفًا واحدًا في المرافعات، فيصعُب تصديقُ جِديَّته في تمثيلِ دوْره؛ ولذلك تتجلَّى رسالتُه تلك في كونها مِفتاحًا لنشوء «روسُّو» الذهني، وفي كونها مرحلةً مؤديةً إلى «العَقد الاجتماعي» و«إميل أو التَّربية».

ويذيع صيت «رُوسُّو» بتلك الرسالة بعد خمول ذكر، ويُعجبُ بها كُتَّابٌ ويحمل عليها آخرون، ويجيب «رُوسُّو» عن النقد الموجَّه إليه بأنه لم يُرِد الرجوعَ بالنَّاس إلى الوراء، وإنَّما أراد العود إلى الفضائل والابتعاد عن الترف والرذائل وسيادة المساواة بين الأنام.

وفي سنة ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون مسابقةً أخرى عنوانها: «ما أصل التفاوت بين النَّاس، وهل أجازه القانون الطبيعي؟» ويشترك «روسُّو» في المسابقة، ولكنه لم ينل الجائزة لشدة حمله على الاستبداد، وفي هذه الرسالة يستحسن «روسُّو» حالًا من الهمجية

متوسطةً بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية، يحافظ النَّاس بها على البساطة ومنافع الطبيعة، وتسود فيها المساواة.

وفي سنة ١٧٥٥ نَشر رُوسُّو رسالةَ «الاقتصاد السياسي»، فرأى أنَّ الدولة هيئةٌ تهدف إلى سعادة جميع أعضائها، وجعل جميع وِجْهات نظره في الجباية تابعةً لهذا الهدف، وذهب إلى أن الكماليات وحدَها هي ما يجبُ أن يكون تابعًا للضرائب، وإلى وجوب فرض ضرائب فادحة على أمور الترف، وإلى عدم وضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح.

ومن مطالعة كتاب «الاقتصاد السياسي» يُرَى أن رُوسُّو كادَ يَبلغُ به مرحلةَ النُّضجِ في آرائه السِّياسيَّة، فكان هذا مُبشِّرًا بكتاب «العَقْد الاجتماعي» وكتاب «إميل أو التَّربية» اللذين ظهرا سنة ١٧٦٢.

حَمَلَ روسُّو «في العَقْد الاجتماعي» على الرِّقِّ والتفاوت، وناضلَ عن حقوق الإنسان، وقال: إنَّ هدف كلِّ نظام اجتماعيٍّ وسياسيٍّ هو حفظ حقوق كل فرد، وإنَّ الشَّعب وحدَه هو صاحب السِّيادة، وكان يهدف إلى النِّظام الجمهوري، فتحقَّق هذا النِّظام بالثَّورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين اتُّخِذَ «العَقدُ الاجتماعي» إنجيلَ هذه الثورة.

ولم يقُلْ «روسُّو» بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة، ويقوم مذهبه على كونِ الإنسان صالحًا بطبيعته، محبًّا للعدل والنظام، فأفسده المجتمع وجعله بائسًا، والمجتمع سيئٌ لأنه لا يُساوي بين النَّاس والمنافع، والتملُّك جائرٌ لأنه مقتطعٌ من المُلْك الشائع الذي يجب أن يكون خاصًّا بالإنسانية وحدَها، فيجب أن يُقضَى على المجتمع إذَن، وأن يُرجَع إلى الطبيعة، وهنالك يتَّفِقُ النَّاس بعَقدٍ اجتماعيٍّ على إقامة مجتمع يرضى به الجميع، فيقيمون بذلك حكومةً تمنح الجميع ذات الحقوق، فتقوم سيادةُ الشعب مقامَ سيادة المَلِك، وتُنظِّمُ الثروة والتَّربية والديانة.

وفي كتاب «إميل» ظهر «روسُّو» الفيلسوف المربِّي بجانب «روسُّو» الفيلسوف الاجتماعي، ويُعدُّ «روسُّو» بهذا الكتاب مؤسِّسَ التَّربية الحديثة؛ ففيه ألقى دروسًا ممتعةً في تربية الأطفال، ومذاهب التَّربية والفضيلة والحياة الزَّوجيَّة، وقد نال كتاب «إميل» من بُعْدِ الصيت ما أصبح معه مُعَوَّلَ علماء التَّربية، وما عُدَّ معه إنجيلَ التعليم والتَّربية، حتى إن الفيلسوف الألماني الكبير «كَنْتَ» تأثَّر به كثيرًا، و«كَنْتُ» حينما أخذ يطالعه أبى مغادرةَ منزله إلى نزهته اليومية قبل الفراغ من قراءته، و«كَنْتُ» مَن تَعْلَم تمسُّكه بنزهته تلك وعدمَ عدولِه عنها إلا لأمرٍ جَلَل.

لقد عانى «روسُّو» من ألوان الشقاء ما يُعاني أتعسُ النَّاس، وقد أتاح له بؤسه حياةً زاخرةً بالتجرِبة والاختبار، ولكنَّ عبقريًّا مثل «روسُّو» إذا ما جرَّب واختبر نَفَذَ في الحقائق نفوذًا لا يتيسَّر لغيره من البشر إلا نادرًا، ويكون العبقريُّ أبلغَ تمييزًا إذا ما اقترنَ تقليبُه الأمور بما يتفق له من اطِّلاعٍ واسعٍ على كُتُب غيره؛ فبذلك يمزج ما جرَّب بما قرأ مزجًا عجيبًا، فيُبرِز ما تمَّ له على شكلٍ كاملِ الجِدَّة والإبداع، وهذا ما حدث لـ «روسُّو».

أبصر «روسُّو» أن الإنسان يُولَد صالحًا خالصًا من المساوئ، فلا يحوِّله عن صلاحه إلا الإنسان الذي يعيش معه والبيئة التي تكتنفه، فقام هدفه على إنقاذ الإنسان من بؤرته، وهذا لا يكون إلا بالعمل الذي يَحُلُّ به معضِلات الحياة، فيشعر بالحياة التي يقضيها كاملة، وهذا لا يتم إلا بالتَّربية.

ففي «إميل أو التَّربية» أوضح «روسُّو» كيف يُنشَّأُ الولدُ تنشئةً طبيعيةً منذ نعومة أظفاره حتى العشرين من سِنيه، فيصيرُ صالحًا للزواج، وهو قد وَقَفَ أجزاء الكتاب الأربعة الأُولى على هذا الغرض، كما وقف الجزء الخامس منه على تنشئة الزوجة التي تصلح أن تكون شريكةً له في الحياة فيسعدُ بها وتسعدُ به.

وإن ما انطوى عليه كتاب «إميل» من آراءٍ عمليةٍ ونظريةٍ انتهى إليها «روسُّو» باختباره أثَّرَ به في عالَم التَّربية مِثْلَ تأثيره في الثورة الفرنسية، وعالَمِ السياسة بكتابه «العَقد الاجتماعي»، وفي كتاب «إميل» ثار «روسُّو» على مناهج التعليم القديمة وأساليب التَّربية العتيقة، وبشَّرَ بمذهبٍ جديدٍ في التهذيب تبشيرًا عُدَّ به رائدَ التَّربية الحديثة وقائدَها، فَغدَا «إميلُ» منارًا لمن يريد أن يكون مُربيًّا ومصدَرًا لا ينضُبُ له مَعينٌ لمن يرغب أن يَضربَ بسهم وافر في ميدان التهذيب والتعليم على اختلاف مراحلهما، ابتدائيةً كانت هذه المراحل أو ثانويةً أو عالية، لا فرقَ في ذلك بين شرق الأرض وغربها.

ولا تَقُل إنَّ الكتاب وُضع منذ نحو قرنَين، وهو خاصٌّ بالزَّمن الذي أُلِّفَ فيه؛ فـ «روسُّو» من العباقرة الذين يَنفُذون ببصائرهم حُجُبَ المستقبل، وكتابُ «إميل» أُلِّف للأجيال التي تأتي بعد مؤلِّفه، وسيبقى معتمَدًا لدى جهابذة التعليم والتَّربية، يُعوِّلون عليه ويهتدون به في طُرُقهم التَّعليمية ومذاهبهم التهذيبيَّة، وليس من المبالغة أن يُقال إنه خيرُ كتابٍ ظهر حتى الآن في موضوعه، وإن علماء التَّربية في العصر الحاضر مَدِينون له في أساليبهم، وإن التَّربية الحديثة من آثاره.

حقًّا، لم يَقُم كتابٌ في التَّربية مقامَ «إميل» لإمام التَّربية والاجتماع «روسُّو»، وقد تُرجِم هذا السِّفرُ الخالدُ الجليلُ غيرَ مرَّة إلى معظم اللغات الأوروبية منذ وضعه، وأصل الكتاب صعبُ العبارة كثيرُ الإبهام والغموض في مجموعه، فأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ لإزالة كثير من تعقيده في ترجمتي هذه مع التزامي حَرْفية النَّقل، كما أرجو أن يقتطف العرب من فوائده التعليمية والتهذيبية التي لا حصر لها مثلما اقتطفَتْ أممُ العالَم كلُّها.

عادل زعيتر
نابلس

مقدمة المؤلف

بُدِئ بهذه المجموعة من التَّأمُّلات والملاحظات الخالية من التَّرتيب، ومن النَّسق تقريبًا، إرضاءً لأمٍّ صالحةٍ تَعرِف أن تفكِّر، ولم أُرِد في البُداءة غيرَ وضعِ رسالةٍ مؤلَّفة من بضعِ صَفَحات، ويجتذبني موضوعي على الرَّغم مني فتغدو هذه الرِّسالة، من غير أن يُحَسَّ، مؤلَّفًا بلغ الضخامة بما يشتمل عليه لا ريبَ، ولكن بالغَ الصِّغر بالنسبة إلى المادة التي يتناولها، وقد ترددتُ زمنًا طويلًا في نشره، وقد جعلني أشعر حين العمل فيه غالبًا، بأنه لا يكفي أن تُكتب كراريس قليلة لإمكان تأليف كتاب، وأرى بعد جهودٍ غير مُجديةٍ بذلتُها في سبيل تقويمه أنَّ الواجب يقضي بتقديمه كما هو، مُقدِّرًا أنَّ مِن المهمِّ تحويلَ الانتباه العام إلى هذه النَّاحية، وأنَّ أفكاري إذا ما كانت فاسدةً لم أُضِع وقتي تمامًا عند إبرازي ما يوجب أفكارًا صالحة، ولا ينبغي للرَّجل الذي يُلقي من عزلته إلى الجمهور أوراقَه بلا مادحٍ أو مكافحٍ أن يخشى قبولَ أغاليطه من غير تمحيصٍ عند زَلَلِه، حتى عند عدم عِلمِه بما يُفَكَّرُ فيها أو يُقال عنها.

وسأتكلم قليلًا عن أهمية التَّربية الصَّالحة، ولن أقف عند إثباتي كونَ التَّربية المعتادة فاسدة؛ فقد قام بهذا ألفُ رجلٍ قبلي، ولا أرغب مُطلقًا في شحن كتابي بأمورٍ يَعْرِفها جميعُ النَّاس، وكلُّ ما ألاحظُ هو أنه لم يخرجْ منذ أمَدٍ بعيدٍ غيرُ صراخٍ ضِدَّ المِنهاج القائم، وذلك من غير أن يَعُنَّ لأحدٍ اقتراحُ ما هو أصلح، ويَنزَعُ أدبُ عصرنا وعرفانُه إلى الهدم أكثر من البناء بمراحل، ويُلتزَمُ جانب اللوم بلهجة أستاذ، ولا بدَّ في الاقتراح من اتخاذِ سبيلٍ آخَر أقلَّ مطابقةً لزهوِ الفيلسوف، ولا يزال منسيًّا فنُّ تكوين الرِّجال الذي هو أوَّلُ جميع المنافع مع كثرة الكتب التي ليس لها غرضٌ غيرَ النَّفع العام كما يُقال، وبقيَ موضوعي تامَّ الجِدَّة بعد كتاب لُوك، وأخشى كثيرًا أن يبقى هكذا بعد كتابي أيضًا.

ولا تُعرَف الطفولةُ مُطلقًا، وإذا ما اتُّبع فاسدُ الأفكار عنها وُقِع في الضَّلال كما أُوغِل في السَّير، ويستمسك أحكمُ الكتَّاب بما يجب أن يعلَمه الرِّجالُ غيرَ ناظرين إلى ما يُمكِن الأولادَ أن يتعلموه، وهم يبحثون عن الرَّجل في الولد دائمًا غيرَ مُفكِّرين في أمر الولد قبل أن يكون رجلًا، وهذه الدِّراسة أكثرُ ما أعكفُ عليه، حتى إذا ما كان جميع منهاجي وهميًّا زائفًا أمكنت الاستفادةُ من ملاحظاتي دائمًا، أجَلْ، قد أكون سيئ البصرِ كثيرًا فيما يجب أن يُصنَع، ولكنني أعتقد أنني أبصرتُ جيِّدًا ما يجب أن يُتناوَل من موضوع، وابدءوا إذن بدراسة تلاميذكم أحسنَ من قَبْل؛ وذلك لأنكم لا تعرفونهم مُطلَقًا لا رَيب، وإذا ما قرأتم هذا الكتاب بهذه النظرة حقًّا لم تكن مطالعتكم إياه خاليةً من فائدةٍ لكم كما أعتقد.

وإذا نُظِرَ إلى ما يُدعَى بالقِسم المنهاجي، الذي ليس سوى سيرِ الطَّبيعة، وُجِدَ أنَّه أكثر ما يتيه به القارئ، ولا مِراء في أنَّني سأهاجَم من هذه النَّاحية، وقد يكون هذا على حق، وسيُظَنُّ أن رؤى حالمٍ تُطالَعُ أكثرَ من مطالعة رسالة في التَّربية، وما يُصنَع؟ لم أكتب حولَ أفكار الآخرين، بل عن أفكاري، ولا أرى كبقية الرِّجال مُطلقًا، وهذا ما أُلام عليه منذ زمنٍ طويل، ولكن هل أستطيع أن أمنحَ نفسي عينَينِ أُخريَينِ أو أن أنتحِلَ أفكارًا أخرى؟ كلَّا، وإنَّما أستطيع ألَّا ألتزمَ آرائي وألَّا أعتقدَ أنني أكثرُ حكمةً من جميع النَّاس، وإنَّما أستطيع أن أرتابَ من شعوري لا أن أغيِّرَه، وهذا كلُّ ما أستطيع فعله، وهذا ما أفعله، وإذا حدث أحيانًا أن اتخذتُ لهجةً جازمة، فليس هذا لتُفْرَضَ على القارئ، وإنَّما لأخاطبه كما أفكِّر، ولمَ أَعرِضُ في قالب من الشَّك ما لا أشُكُّ فيه من ناحيتي مطلقًا؟ أقول ما يَمرُّ في ذهني تمامًا.

وإنِّي إذ أَعْرِضُ إحساسي طليقًا، وقلَّمَا أقصد به إلزامًا، أُضيفُ إليه ما لديَّ من أسبابٍ دائمًا، وذلك حتى تُوزَن هذه الأسباب فيُحكَمَ في أمري، ولكنني وإن كنت لا أريد الإصرار على الدفاع عن أفكاري، لا أجدني أقلَّ التزامًا لعرضها؛ وذلك لأنَّ المبادئ التي أكون بها على رأيٍ مخالفٍ لرأي الآخرين ليست خَلية، وهي من المبادئ التي يجب أن يُعرَف ما تنطوي عليه من صحةٍ وفساد، والتي تُوجِب سعادةَ الجنس البشري أو شقاءه.

وما فتئ النَّاسُ يقولون لي: «اقترحْ ما يُمكن فعلُه.» وهذا كما لو كان يُقال لي: «اقترحْ فِعلَ ما يُفعل، أو اقترحْ، على الأقل، خيرًا يَزدوجُ والشَّرَّ القائم.» فمشروعٌ مثل هذا يكون في بعض الموضوعات أعرقَ في الوهم من مشروعاتي بدرجات؛ وذلك لأن الخير يَفسُد في هذا الازدواج، ولا يُشفَى الشر، وكنتُ أفضِّلُ اتِّباعَ المنهاج القائم في كلِّ شيء على انتحال منهاجٍ

نصفِ صالح، لِمَا يكون به قليلُ تناقضٍ في الرَّجل، ولِمَا لا يستطيع الرَّجل أن يهدف به إلى غرضَين متباينَيْن في وقتٍ واحد. ويا أيها الآباء والأمهات، إنَّ ما يمكن فِعْله هو ما تريدون فِعْله، أَفَعَلَيَّ أن أعتمدَ على إرادتكم؟

وفي كل نوعٍ من المشاريع يُنظَر إلى أمرين بعين الاعتبار: يُنظَر إلى صلاح المشروع المُطْلَق أوَّلًا، وسهولة التنفيذ ثانيًا.

وفي الأمر الأوَّل يكفي لإمكان قبول المشروع، وسهولة فعله في حد ذاته، أن يكون ما فيه من صلاحٍ ضِمنَ طبيعة الشيء، فهنا مثلًا يجب أن تكون التَّربية المقترحة مناسبةً للإنسان ملائمةً للقلب البشري.

ويتوقَّف الأمر الثاني على ما في بعض الأحوال من صلاتٍ واقعة، من صلاتٍ عارضةٍ للشيء، من صلاتٍ غيرِ ضرورية مطلقًا من حيث النتيجة، فيُمكن أن تتغيرَ إلى ما لا نهاية له، وهكذا فإن تربيةً ما يُمكِن أن يُعمَل بها في سويسرة وألَّا تُتَّخذَ في فرنسة، وإنَّ تربيةً أخرى يمكن أن تكون صالحةً للبُرجوازية، وإنَّ تربيةً غيرها تَصْلُح للأشراف. وتتوقَّف سهولة التنفيذ — تقريبًا — على ألفِ حالٍ يتعذَّر تعيينها بغيرِ تطبيقٍ خاصٍّ للمنهاج على هذا البلد أو ذاك، وعلى هذه الطَّبقة أو تلك، والواقع أنَّ جميع هذه التَّطبيقات غير جوهرية في موضوعي، فلا تدخل ضمن مشروعي، ويستطيع آخرون أن يُعنَوْا بها إذا ما أرادوا، وذلك من حيث البلاد أو الدَّولة التي يضعها كلُّ واحدٍ منهم نُصْبَ عينه، ويكفيني في كل مكان يُولَد فيه رجالٌ أن يُصنع منهم ما أقترح، فإذا صُنعَ منهم ما أقترح صُنِعَ أفضلُ ما يكون لهم ولغيرهم، وإذا لم أفِ بهذا العهدِ كان هذا خطأً مني لا رَيب، ولكنني إذا ما وَفَيْت به كان من الخطأ أيضًا أن أُطالبَ بأكثرَ من هذا؛ وذلك لأنَّني لا أَعِدُ بغير هذا.

الجزء الأول

كلُّ شيءٍ يَصنعه خالقُ البرايا حسن، وكلُّ شيء يَفسُد بين يدي الإنسان؛ فالإنسانُ يُلزِمُ أرضًا بإنماء غلَّاتِ أرضٍ أخرى، والإنسان يُلزِم شجرةً بحملِ ثمارِ شجرةٍ أخرى، وهو يَخلِط بين الأقاليم والعناصر والفصول، وهو يَبْتُر كلبَه وفرسَه وعبدَه، وهو يُخَرِّب كلَّ شيء ويشوِّهه، وهو يحب القُبح والمُسُوخ، وهو لا يريد شيئًا كما صنعتْه الطبيعة، حتى الإنسانَ، فيجب ترويضُه لنفسه كالفرس الرَّكُوب، ويجب أن يُكيَّف على نهجه كشجرةٍ في حديقته.

ولولا ذلك لسار كلُّ شيء إلى ما هو أسوأُ أيضًا، فلا يريد نوعُنا أن يُصوَّرَ نصفَ تصوير، والإنسانُ في الحال التي تكون عليها الأمورُ بعدئذ، يبدو أكثر من الجميع شَوَهًا إذا ما تُرِك وشأنُه بين الآخرين؛ فالمُبْتَسَراتُ[1] * والسلطةُ والضرورةُ والقدوةُ وجميعُ النُّظم الاجتماعية التي نَغرَق فيها تَخنُق الطبيعةَ فيه من غير أن تَضَع شيئًا في مكانها، وهي تَغْدو فيه كالشُّجيرة التي تُنبِتها المصادفةُ في وَسَطِ طريق، فلا يلبث المارُّون أن يُهْلِكوها بصَدْمها من كلِّ جهةٍ وحَنْوِها نَحْوَ كلِّ ناحية.

فإليكِ أوجِّه حديثي أيتها الأمُّ الحنونُ البصيرة،[2] التي تَعرِف أن تبتعد عن الشارع، وأن تصون الشجيرةَ الناشئة من صَدْم الآراء البشرية! وتعهَّدِي الغرسَ الحديث وروِّيه قبل

---

[1] * Préjugés.

[2] التربية الأُولى هي أكثر ما يهم — ولا جدال — في كون هذه التربية الأُولى خاصة بالنساء، ولو أراد خالق الطَّبيعة أن تكون خاصةً بالرِّجال لأنعم عليهم باللبن لتغذية الأولاد، وفي كل وقت إذن خاطِبوا النساء في رسائلكم عن التربية تفضيلًا؛ وذلك لأنهن فضلًا عن كونهن مُلزَمات بالسهر عليهم عن كَثَب أكثر من الرجال، وفضلًا عن كونهن أكثر عملًا فيهم، يكترثن للنجاح أكثر من اكتراث الرجال بمراحل ما وجد

أن يموت، فستكون ثماره مدارَ سعادتك ذات يوم، وأقيمي مُبَكِّرَةً نطاقًا حول روح ابنك. أجل، يمكن آخرَ أن يرسُم الدائرة، ولكنه يجب عليكِ وحدكِ أن تضعي الحاجز.[٣]

وتُكيَّف النباتات بالزراعة، ويُكيَّف النَّاس بالتَّربية، وإذا كان الإنسان يُولد طويلًا قويًّا فإنه لا فائدة له من قامته وقوته حتى يتعلَّم الانتفاع بهما، وهما يكونان وبالًا عليه عند منعِ الآخرين من الإسراع إلى مساعدته،[٤] وهو إذا ما وُكِل إلى نفسه مات بؤسًا قبل أن يَعْرِفَ احتياجاته، ويُرثَى لحال الطفولة، ولا يُبصَرُ أن النوع البشري يَهلِك إذا لم يبدأ الإنسان بأن يكون طفلًا.

نحن نُولد ضعفاء، ونحن محتاجون إلى القوة، ونحن إذ نُولد خالين من كلِّ هذا فإننا نحتاج إلى العَون، ونحن إذ نُولد بُلْهًا فإننا نحتاج إلى الإدراك، وكلُّ ما ليس لدينا عند ولادتنا، وكلُّ ما نحتاج إليه، إذ كان عظيمًا فإننا نناله بالتَّربية.

وتأتينا هذه التَّربية من الطبيعة أو من النَّاس أو من الأشياء، ونشوءُ خصائصنا وأعضائنا نشوءًا باطنيًّا هو تربية الطبيعة، وما نتعلَّمه من إعمال هذا النشوء هو تربية النَّاس، وما نكتسبه بتجربتنا الخاصة مما يحيط بنا هو تربية الأشياء.

معظم الأرامل تحت رحمة أولادهن تقريبًا، وما جعلهن هؤلاء الأولاد يشعرن شعورًا قويًّا في الخير والشر بنتيجة الأسلوب الذي نشأنهم عليه، وإذ إن القوانين كثيرة العناية بالأموال قليلة العناية بالأشخاص دائمًا، وذلك عن هدف إلى الأمن لا إلى الفضيلة، فإنها لا تمنح الأمهات سلطانًا كافيًا، ومع ذلك فإنهن أثبت حالًا من الآباء وأصعب واجبًا، وإن رعايتهن أشد خطرًا في حسن انتظام الأسرة، وإنهن أشد تعلُّقًا بالأولاد على العموم. أجل، توجد أحوال يُعذر فيها الولد نوعًا ما إذا ما قصَّر في احترام أبيه، ولكن الولد في أي حال إذا كان من فساد الطبع ما يقصر معه في احترام أمه التي حملته في بطنها وغذَّته بلبنها وغفلت عن نفسها في سنواتٍ للعناية به؛ وجب الإسراع في خنق هذا الشقي كغولٍ لا يستحق الحياة. وتدلل الأمهات أولادهن كما يُقال، وهن يخطئن في هذا لا ريب، ولكنهن أقل خطأً منكم أنتم الذين يفسدونهم. وتريد الأم أن يكون ولدها سعيدًا منذ الآن، وهي على حق، وهي إذا ما أخطأت في الوسائل وجب تنويرها، وما عند الآباء من طمع وبخل واستبداد وبصيرة زائفة وإهمال وغلظة أشدُّ شؤمًا على الأولاد مائة مرة من حنان الأمهات الأعمى، ومع ذلك يجب إيضاح المعنى الذي أطلقه على اسم الأم، وهذا ما أصنعه فيما بعد.

[٣] لقد وَكَدَ لي أن مسيو فورمه اعتقدَ أنني أردت الكلام عن والدتي هنا، فذكر هذا في كتاب؛ فهذا استهزاء شديد بي أو بمسيو فورمه.

[٤] بما أنه مشابه لهم ظاهرًا، ولكن من غير كلام، ومن غير أفكار يُعبَّر عنها بالكلام، فإنه لا يستطيع إطلاعهم على احتياجه إلى مساعدتهم، ولا شيء فيه يوحي إليهم باحتياجه هذا.

إذن، صُوِّر كلُّ واحدٍ مِنَّا بثلاثة أنواع من المُعلِّمين، والتلميذ الذي يتباين فيه مختلف دروسهم يُعدُّ سيئ التهذيب، ولا يكون مطابقًا لنفسه مطلقًا، والتلميذ الذي تقع فيه كلُّها على عين النقاط وتهدف إلى نفس الأغراض يسير وحدَه نحو غايته ويعيش وَفقَ هذا، ويُعَدُّ حَسَنَ التهذيب.

والواقعُ أن تربية الطبيعة، من بين هذه التربيات المختلفة الثلاث، لا تتوقف علينا مطلقًا، وأن تربية الأشياء لا تتوقَّف علينا إلا من بعض النواحي، وأن تربية النَّاس وحدَها هي التي نهيمن عليها حقًّا، ومع ذلك فإن سيطرتنا عليها ليست سوى افتراض، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يأمل توجيه أقوال جميع مَن يحيطون بالولد وأفعالهم توجيهًا تامًّا؟

وعندما تُعَدُّ التَّربية فنًّا يكون نجاحها إذن متعذرًا تقريبًا، ما دام التضافر الضروري لنجاحها لا يتوقف على أحد، وكلُّ ما يمكن بذله من جُهْدٍ هو أن يُقتَرَب من الهدف بعض الاقتراب، ولكن لا بُدَّ من الحظِّ لبلوغه.

وما هذا الهدف؟ هذا هو هدف الطبيعة، وهذا ما يُثْبَت، وإلى التَّربية التي لا سلطان لنا عليها يجب أن تُوجَّه التربيتان الأخريان ما دام تضافر التربيات الثلاث أمرًا ضروريًّا لكمالها، ولكن قد يكون لكلمة الطبيعة هذه معنًى بالغُ الإبهام، فلنعملْ على تعيينه هنا.

والطبيعة ليست سوى العادة[٥] كما يُقال لنا، وما معنى هذا؟ ألَا يوجد من العادات ما يُؤلَفُ كَرْهًا فلا يُطفئُ الطبيعةَ مطلقًا؟ ومِن هذا عادة النباتات التي تُحمَل على اتجاهٍ أُفقي، والنبات إذا أُطلق حافظَ على الميل الذي أُكرِه على اتخاذه، غير أن النُّسْغَ لم يُغيِّر قَطُّ اتجاهه الأوَّل لهذا السبب، والنبات إذا داوم على النمو عاد تمدُّده عموديًّا، وقُلْ مِثلَ هذا عن ميول النَّاس؛ فالإنسان إذا ما بقي على الحال عينه أمكن احتفاظه بميوله الناشئة عن العادة التي هي أقلُّ الأمور طبيعةً عندنا، ولكن الوضع إذا ما تبدَّل انقطعت العادة وعاد الطبيعي. والتَّربية ليست غير عادةٍ في الحقيقة، أوَلَا يوجد من النَّاس مَن يَنسون تربيتهم

---

[٥] يؤكِّد لنا مسيو فورمه أن هذا لا يُقال تمامًا، ومع ذلك يلوح لي أن هذا قيل في الشطر الآتي الذي أعزم على الجواب عنه، وهو:

ليست الطبيعة غير العادة إذا ما صدقتني.

ويعرض مسيو فورمه — الذي لا يريد ازدهاء أمثاله — متواضِعًا، قياس دماغه على أنه قياس الإدراك البشري.

ويخسرونها، وآخرون مَن يحتفظون بها كما هو الواقع؟ وما مصدر هذا الاختلاف؟ إذا ما وجب قصرُ اسم الطبيعة على العادات الملائمة للطبيعة أمكن اتقاء هذه البلبلة.

ونحن نُولد ذوي إحساس، ولا ننفكُّ بعد ولادتنا نتأثر على وجوهٍ مختلفةٍ بالأشياء التي تحيط بنا، فإذا ما صِرْنا شاعرين بإحساساتنا وُطِّنَت نفوسنا على طلب الأشياء التي تؤدي إليها أو تجنُّبِها، وذلك وَفْقَ كونها مستحَبَّةً أو مستكرَهَةً أوَّلًا، ثُمَّ وَفْقَ ما نَجد من مطابقة أو تباين بيننا وبين هذه الأشياء، وأخيرًا وَفْقَ الحكم الذي نحمله عن ذلك حول فكرة السعادة أو الكمال التي يوحي العقل بها إلينا، وتتسع هذه الأحوال وتَثْبُت كلَّما غدونا أكثر إحساسًا ومعرفة، ولكنها إذ تُقْتَسَرُ بعاداتنا فإنها تَفْسُد بمُبْتَسَراتنا زهاء، وهي قبل هذا الفساد تكون ما أسميه الطبيعة فينا.

ويجب ردُّ كل شيء إلى هذه الأحوال الابتدائية إذن، وهذا ممكن لو كانت تربياتنا الثلاث مختلفةً فقط، ولكن ما العمل إذا كانت متناقضة، إذا كان الرجل يُربَّى من أَجْل الآخرين بدلًا من أَجْل نفسه؟ فهنالك يكون الاتفاق مستحيلًا، وإذ لا بُدَّ من مكافحة الطبيعة أو النُّظُم الاجتماعية فلا بُدَّ من الخيار بين صُنع رجلٍ أو مواطن؛ وذلك لأنه لا يمكن صنع هذا وذاك معًا.

وكلُّ مجتمعٍ جزئيٍّ يميل إلى الانفصال عن المجتمع الكبير إذا كان ضيقًا حسن الاتحاد، وكلُّ موطنٍ قاسٍ على الأجانب؛ فالأجانب ليسوا سوى أُناس، ولا يُعدُّون شيئًا في نظره،[٦] ولا مفرَّ من هذا العيب، ولكنه واهٍ، والمهمُّ أن يكون المرء صالحًا نحو مَن يعيش معهم، وكان الإسبارطي طامعًا بخيلًا ظالمًا في الخارج، ولكن النزاهة والإنصاف والاتفاق كانت سائدةً داخل أسواره. واحذَروا أولئك المواطنين العالميِّين الذين يُغرِبون في كتبهم بحثًا عن الواجبات التي يزدرون القيام بها فيما حولهم، فمثلُ هؤلاء الفلاسفة يحبُّون التتر ليُعفَوا من حُبِّ جيرانهم.

ويعيش الإنسان الطبيعيُّ من أجل نفسه، وهو وحدةٌ عددية، وهو كلٌّ مطلق، فلا علاقة له بغير نفسه أو شبيهه، وليس الإنسان المدنيُّ غيرَ وَحدة كَسْرِية تتوقف على المَخْرَج وتكون قيمتها في علاقتها بالكُل؛ أي بالهيئة الاجتماعية. والنُّظم الاجتماعية الصالحة هي

[٦] وهكذا فإن حروب الجمهوريات أقسى من حروب الملكيات، ولكن حرب الملوك إذا كانت معتدلةً فإن سلْمهم هائلة؛ فالأفضل أن يكون المرء عدوًّا لهم من أن يكون من رعاياهم.

التي تَعرف أحسن من سواها إفسادَ الإنسان وتجريدَه من كيانه المطلق لتمنحه كيانًا نسبيًّا وذاتيةً ضِمْنَ الوَحدة المشتركة، فيعود كلُّ فردٍ لا يعتقد معه أنه واحد، بل جزءٌ من الوَحدة، ويعود معه غير مُحِسٍّ في غير المجموع. ولم يكن المواطن في رومة كايُوس أو لُوسْيُوس، بل كان رومانيًّا، حتى إنه كان يُحبُّ الوطن أكثر من نفسه، وكان رِيغُولُوس يدَّعي أنه قرطاجيٌّ ما صار مالَ سادته، وهو كأجنبي كان يَرفِضُ تبوُّءَ مِقْعدِه في سِنات رومة، فوجب أن يأمره قرطاجيٌّ بذلك، وقد استشاطَ غيظًا عندما أُريد إنقاذُ حياته، وقد فاز فعاد ظافِرًا ليموت شَرَّ موتة، ويلوحُ لي أنه لا يوجد شَبهٌ كبيرٌ بين ريغولوس ومَن نعرف من الرجال.

ويُقَدِّم الإسبارطي بيداريت نفسه ليُقْبَل في مجلس الثلاثمائة فيُرفَض، وينصرف مسرورًا كثيرًا لوجود ثلاثمائة رجل في إسبارطة أفضلَ منه، وأفرِضُه مخلصًا فيما أظهر، ويوجد ما يَحمِل على اعتقاد الأمر كهذا، فذاك هو المواطن.

وكان لامرأةٍ إسبارطيةٍ خمسة أبناء في الجيش، وكانت تنتظر أنباء عن المعركة، وَيفِد إيلوتي،[٧*] وتسأله عنها وهي ترتجف: أبناؤك الخمسةُ قُتِلوا.

– هل سألتك عن هذا أيها العبد الوغد؟

– لقد انتصرنا.

وتُهْرَع الأمُّ إلى المعبد لتحمَد الآلهة؛ فهذه هي المواطنة.

ومَن يَوَدُّ أن يحتفظ في النظام المدني بصدارة مشاعر الطبيعة فإنه لا يَعْرِف ما يريد؛ فهو إذ يناقض نفسه دائمًا مترجِّحًا بين ميوله وواجباته، فإنه لن يكون رجلًا ولا مواطنًا، ولن يكون صالحًا لنفسه ولا للآخرين، وإنما يكون واحدًا من رجال أيامنا، وإنما يكون فرنسيًّا، إنكليزيًّا، بُرجوازيًّا، ولن يكون هذا شيئًا.

وعلى مَن يَودُّ أن يكون شيئًا، على مَن يَودُّ أن يكون هو إياه، واحدًا دائمًا، أن يفعل كما يقول، أن يُقرِّرَ السبيل الذي يسلكه، أن يتخذه حازمًا وأن يتَّبِعَه دائمًا، وأنتظرُ دلالتي على نادرة الزمان هذا لأعرِفَ هل هو رجلٌ أو مواطن، أو لأعْرِف ما يصنع ليكون هذا وذاك معًا.

وينشأ عن هذه الأغراض المتباينة شكلان للنظام مختلفان، أحدهما عامٌّ مشتركٌ والآخر خاصٌّ أهلي.

[٧*] الإيلوتي: اسم كان يُطلق على العبد في إسبارطة.

وإذا أردتم أن تعرفوا ما التَّربية العامة فاقرءوا جمهورية أفلاطون؛ فهي ليست كتابًا في السياسة مطلقًا، خلافًا لمن يَحكُمون في الكتب بعنوانها، وهي أجمل رسالةٍ وُضعت عن التَّربية.

وإذا أُريد بعثُ أوهامٍ إلى البلد ذُكِرَ نظام أفلاطون، ولو لم يصنع لِيكُورْغُ غير تدوين نظامه كتابةً لوجدتَه أشدَّ وهمًا؛ فأفلاطون لم يفعل غير تصفية قلب الإنسان، وقد أفسده لِيكُورْغ.

وعاد النظام العام غيرَ موجود، وعاد لا يُمكن أن يكون موجودًا؛ وذلك لأنه عاد لا يُمكن وجود مواطنين حيث عاد لا يمكن وجود وطن، ويجب محو كلمتَي الوطن والمواطن من اللغات الحديثة، وأعْرِف سببَ هذا، ولكني لا أريد قوله؛ فليس هذا من موضوعي مطلقًا.

ولا أَعُدُّ نظامًا عامًّا تلك المؤسسات المضحكة التي تُسمَّى كليات،[٨] وكذلك لا أعُدُّ التَّربية الدارجة منه؛ وذلك لأن هذه التَّربية إذ تنزَع إلى غايتَين متباينتَين، لا تُدركهما، وهي لا تصلح لغير صُنْع رجالٍ مُرائين، مُظهِرين دائمًا، أنهم يعيشون في سبيل الآخرين مع أنهم لا يفكِّرون في غير أنفسهم. والواقع أن هذه البيانات، إذ كانت شائعة بين جميع النَّاس، لا تخدع أحدًا، وهي لا تعدو كونها جهودًا ضائعة.

وينشأ عن هذه المتناقضات ما نشعُر به في أنفسنا بلا انقطاع، ونحن إذ نُقاد بالطبيعة وبالرجال على طرُقٍ متباينة، ونحن إذ كُنَّا مُلزَمين بأن نُوزِّع بين هذه العوامل المختلفة، فإننا نتَّبع فيها مُركَّبًا لا يَسُوقنا إلى إحدى الغايتَين أو إلى الأخرى، ونحن إذ كُنَّا مكافَحين مذبذَبين في جميع مجرى حياتنا، فإننا نختمها من غير أن نستطيع مطابقة أنفسنا، ومن غير أن نكون نافعين لأنفسنا وللآخرين.

وأخيرًا تبقى التَّربية الأهلية أو تربية الطبيعة، ولكن ما يكون أمرُ رجلٍ نُشِّئ لنفسه فقط نحو الآخرين؟ لو أمكنَ جمعُ الغرضَين المقترَحَين في واحد بأن تُزال متناقضات الرجل لَأُزيلَ عائقٌ كبيرٌ من سعادته، ويجب للحكم في الرجل أن يُرَى كامل التكوين، فتُلاحَظ ميولُه ويُبصَر تقدُّمه ويُتَّبَع سيرُه، والخلاصةُ أن من الواجب معرفةَ الإنسان الطبيعي، وأعتقد أنه يُسارُ بضع خُطُواتٍ في هذه الأبحاث بعد قراءة هذا الكتاب.

[٨] يوجد في كثير من المدارس، ولا سيَّما جامعة باريس، أساتذةٌ أحبهم وأقدِّرهم كثيرًا، فأعتقد قدرتهم البالغة على تربية الناشئة لو لم يُحملوا على اتِّباع العادة القائمة، وأستنهض أحدَهم لنشر مشروع الإصلاح الذي فكَّر فيه، وقد يحاول أخيرًا أن يُشفى من الداء بأن يرى أن له دواء.

وما علينا أن نفعل لتكوين هذا الرجل النادر؟ كثيرًا، لا ريب، أي أن يُحال دون صُنع شيء، وإذا ما وجبت معاكسة الريح وجب الرَّوْغُ يُمْنَى ويُسرَى، ولكن البحر إذا كان هائجًا وأُريد البقاء في المكان وجب إلقاءُ المِرساة. واحذَرْ أيها الرُّبَّان الشَّاب، أن يَمْلَصَ قَلْسُك[٩*] أو أن تُجَرَّ مِرساتُك وأن يزوغ مركبك قبل أن تعرف ذلك.

وفي النظام الاجتماعي؛ حيث جميع المواضع مُعيَّنة، يجب أن يُربَّى الرجل لموضعه، فإذا خرج من موضعه فردٌ نُشِّئ لهذا الموضع عاد لا يكون صالحًا لشيء. ولا تكون التَّربية نافعةً إلا عند مطابقة الطالع لإلهام الأبوين، وتكون التَّربية ضارَّةً للطالب في جميع الأحوال الأخرى ولو بسبب ما تمنحه من مُبْتَسَرات. وفي مصر؛ حيث كان الابن مُلزمًا بانتحال حال أبيه، كان للتربية غرضٌ ثابتٌ على الأقل. وأمَّا عندنا؛ حيث المراتب وحدَها قائمة، وحيث النَّاس يُغيِّرونها بلا انقطاع، فإنه لا أحدَ يَعْرِف أنه يعمل ضد ابنه بتنشئته على مرتبته.

والنَّاس في النظام الطبيعي إذ كانوا كلُّهم متساوين، فإن حال الإنسان هو إلهامُهم المشترَك؛ فمَن تُحْسَن تربيتُه لا يستطع أن يصنع سوءًا فيما يُرَدُّ إليه، ولا يهمني كثيرًا أن يميل تلميذي إلى الجيش أو الكنيسة أو الفقه، والطبيعةُ تدعوه إلى الحياة البشرية قبل إلهام الأبوين، والحياة هي المهنة التي أريدُ أن أعلِّمه إياها، وهو إذا ما تخرَّج عليَّ لن يكون كما أضمنُ قاضيًا ولا جنديًّا ولا قسِّيسًا، بل يكون رجلًا أوَّلًا، وكلُّ ما يجب أن يكونه الرجل يتعلَّمه عند الاقتضاء بسرعةٍ كما يكون عليه، ومن العبث أن يحمله النصيب على تغيير موضعه؛ فهو يكون في مكانه دائمًا؛ «فقد علمتُ بأمرك أيها النصيب وحملت على اعتقالك، وقد سددت عليك جميع المسالك التي تستطيع أن تَزْلَقَ منها إليَّ.»

وحالُ الإنسان هو ما يقوم عليه بحثنا، وعندي أن الذي يكون بيننا أحسنَ علمًا باحتمال خير هذه الحياة وشرِّها يكون أحسنَ تنشئة؛ ومِنْ ثَمَّ تقوم التَّربية الحقيقية على التمارين أكثر مما على التعاليم، ونبدأ بتعليم أنفسنا بأن نبدأ بالحياة، وتبدأ تربيتنا معنا، ومُرْضِعُنا هي مُعلِّمتنا الأُولى. وكان لكلمة التَّربية عند القدماء معنًى غيرُ الذي عُدنا لا نُطلِقه عليها؛ فهي تعني الغِذاء، ويقول فارُّون: «إن القابلة تتلقَّى، والمُرْضِعَ تُنشِّئ، والمهذِّب يَفتُق الذهن، والأستاذ يعلِّم.» وهكذا تكون التَّربية والتهذيب والتعليم ثلاثة أمور

[٩*] القلس: حبل للسفينة ضخم.

مختلفة في موضوعها اختلافَ الحاضنة والمُهذِّب والأستاذ، غير أن هذا التفريق غير مُبتغًى، فلا ينبغي للولد أن يتَّبع غيرَ دليلٍ واحد.

ويجب إذن تعميم مقاصدنا، وأن يُرى الرجل المجرد في تلميذنا، الرجلُ المُعرَّضُ لجميع عوارض الحياة البشرية، وإذا كان النَّاس يُولَدون مرتبطين في أرض بلد، وإذا كان عينُ الفصل يدوم في جميع السَّنة، وإذا كان كلُّ واحدٍ يبلُغ من تعلُّقه بنصيبه ما لا يقدر معه على تغييره مطلقًا، فإن العادة القائمة تكون صالحة من بعض النواحي، وإذ إن الولد الذي يُنشَّأ على حرفته لا يخرُج منها مُطلَقًا فإنه لا يُمْكِن أن يكون عُرْضةً لمحاذير حرفة أخرى، ولكنه إذا ما نُظِر إلى تقلُّب الأمور البشرية، وإلى روح هذا العصر المضطربة القلقة التي تَقْلِب كل شيء في كل جيل، فهل من الممكن أن يُتصوَّرَ منهاجٌ أخرَقُ من تنشئة ولد لا يخرُج به من غرفته مطلقًا، ويجب معه أن يُحاطَ بخدمة دائمًا؟ فإذا ما وَطِئَ هذا الشقيُّ الأرض خُطوة، أو نزل درجة، هلكَ، فليس هذا تعليمَه احتمالَ الألم، بل تدريبه على الشعور به.

ولا يُفكِّر الإنسان في غير حِفْظ ولده، وليس هذا كافيًا، فيجب تعليمه حفظَ نفسه رجلًا، واحتمالَ ضربات القدَر، ومجاوزةَ العُسر واليُسر، والعيشَ في جليد أيسلاندة وعلى صخرة مالطة المحرقة. ومن العبث أن تتخذوا من الاحتياطات ما لا يموت معه، فلا بُدَّ من موته مع ذلك، وإذا لم يكن موتُه نتيجةَ عنايتكم فلأن هذه العناية أخطأت غَرَضَها، والمسألة هي أن يُعلَّم ما يُحالُ به دون موته أقلَّ من جعله يحيا، وليست الحياةُ تنفُّسًا، بل سَيْر، بل استعمالٌ لأعضائنا وحواسِّنا وخصائصنا وجميع أجزاء كياننا استعمالًا نشْعُر معه بوجودنا. وليس الرجل الذي عاش أكثر من غيره هو الأكثر عَدًّا للسنين، بل الذي شعر بالحياة أكثرَ من سواه، وقد يُدفَن الرجل ابنًا للمائة مع عَدِّه ميِّتًا منذ ولادته، وكان أصلح له أن يكون قد مات شابًّا لو عاش حتى هذا الدور على الأقل.

وتقوم جميعُ حكمتنا على مُبْتَسَراتٍ دَنِيَّة، وليست جميع عاداتنا غير تسخير وعُسْر وقَسْر، ويُولَد الرجل المدنيُّ ويحيا ويموت في العبودية، وذلك أنه يُخاط في قِماطٍ عندما يُولَد، وأنه يُسمَّرُ في تابوت إذا مات، وأنه يُقيَّد بنُظمِنا ما حافظ على وجهٍ بشريٍّ.

ويُقال إن كثيرًا من القوابل يزعُمْنَ أنهن بِدَلْكِهن رءوس الأطفال المولودين حديثًا يمنحنها شكلًا أكثر ملاءمة فيُسْمَح بذلك! ولذا تكون رءوسنا سيئة التصوير على الوجه الذي يُكوِّنُها به صانعُ وجودنا، فيجب تكييفُها من قِبَل القوابل خارجًا ومن قِبَل الفلاسفة داخلًا؛ ولذا يكون الكرايب أسعد حالًا منها.

«لم يَكَدِ الولدُ يخرُج من بطنِ أمِّه، ولم يَكَدْ يتمتَّع بحريَّةِ الحركةِ ويمُدُّ أعضاءه، حتى يُعطَى قيودًا جديدة؛ فهو يُقْمَطُ ويُضجَعُ مُثبَّتَ الرَّأسِ مُمَدَّدَ الساقين، مُدلَى الذِّراعينِ بجانبِ الجسم، وهو يُحاطُ بالبياضاتِ والعصائبِ من كلِّ نوعٍ إحاطةً لا تسمَحُ له بتغييرِ وضْعِه، وهو يكونُ سعيدًا إذا لم يُشَدَّ شَدًّا يمنعهُ من التنفُّس، وإذا حدَثَ من الحذرِ ما يُضجَعُ معه على الجانبِ حتى يُمكِنَ السائلَ الذي يجري من فمِه أن يَسقُطَ من تلقاءِ نفسِه! وذلك لأنه لا يكون لديه من حريَّةِ إدارةِ الرأسِ ما يَسْهُل به جريانه.»

ويحتاجُ المولودُ حديثًا إلى مَدِّ أعضائِه وتحريكِها إنقاذًا لها من الخَدَرِ الذي يستمرُّ زمنًا طويلًا عن جمْعِها ضِمنَ لِفَافة. أجَلْ، إنها تُمَد، ولكنها تُمنَعُ من الحركة، حتى إن الرأس يُقيَّدُ بِكُمَّة،[١٠*] فيلوح أنه يُخشَى ظهورُه ذا حياة.

وهكذا فإن اندفاع أجزاء البدن الداخلية التي تميل إلى النموِّ يجدُ عائقًا منيعًا للحركات الضرورية، ولا ينفكُّ الولدُ يأتي جهودًا غيرَ مُجدية تستنفد قواه أو تؤخِّر تقدُّمها، وقد كان في السَّلَى[١١*] أقلَّ ضِيقًا وعُسْرًا وضغطًا مما ضِمْن بياضاته، ولا أرى ماذا رَبِح من ولادته.

ولا يؤدِّي الجمود والقَسْر اللذان تُمسَك أعضاءُ الولد بهما إلى غير عَوْق دَوْرة الدم والأخلاط، ومنع الولد من التقوِّي والنمو، وإلى غير الإضرار ببُنيته. ويكون النَّاس في جميع الأمكنة التي لا تُتَّخَذ فيها هذه الاحتياطات الطائشة مطلقًا، طِوالًا أقوياء حَسَني التناسب، وتكون البلاد التي يُقمط فيها الأولاد بلادًا يَكثُر فيها الحدْبُ والعُرْج والفُلْج[١٢*] والقُفْد[١٣*] وجميع أنواع الشُّوه من النَّاس، ويُبادَر إلى تشويه الأجسام بضغطها خشية أن تُشوَّه بالحركات الطليقة، وهي تُجعَل شُلًّا ليُحالَ دون خَبَلها![١٤*]

أَلَا يؤثِّر القَسْرُ البالغُ هذه الدرجةَ من القسوةِ في مِزاجهم، كما يؤثِّر في بُنيَتهم؟ يقوم إحساسُهم الأوَّل على شعورٍ بالألم والغَم، ولا يجدون غير عوائقَ في جميع ما يحتاجون إليه من حركات، وهم إذ يكونون أشقى من الجاني الموثَقِ بالقيود، فإنهم يَبذُلون جهودًا

---

١٠ * الكُمَّة: القَلَنْسُوة المُدوَّرة.

١١ * السَّلَى: جِلدة يكون ضمْنها الولد في بطن أمه.

١٢ * الفلج: جمع الأفلج، وهو الذي تباعد ما بين قدميه أو يديه.

١٣ * القفد: جمع الأقفد، وهو المسترخي العنق.

١٤ * الخبل: فساد الأعضاء.

على غير جدوى، فيغضبون ويصرخون، ألَا ترون أن أصواتهم الأُولى دموع؟ أعتقد هذا جيِّدًا، وذلك أنكم تصدونهم منذ ولادتهم، والقيود هي أُولى العطايا التي يتلقونها منكم، والأوجاع هي أوَّل ما يبتلون من معاملات، والصوت هو كل ما عندهم من أمرٍ حُر، فكيف لا يستعملونه إعرابًا عن توجُّعهم؟ أجل، إنهم يصرخون من الألم الذي توجبونه فيهم، ولو قُيِّدتم مثلهم لكان صراخكم أشدَّ من صُراخهم.

وما مصدرُ هذه العادة المخالفة للصواب والمضادة للطبيعة؟ لم تُرِد الأمهات إرضاع أولادهن منذ ازدرائهن واجبهن الأوَّل، فوجب تفويضُ أمرهم إلى نساء مرتزقات يَجِدن أنفسهن أمهاتٍ لأولادٍ غرباء غير مرتبطات فيهم بروابط الطبيعة، فلا يحاولن غيرَ دفع التعب عنهن، وتقضي الضرورة بتعهد ولد طليق، ولكن هذا الولد إذا ما كان مُوثَقًا جيِّدًا أُلقي في زاويةٍ من غير أن يُبالَى بعويله، وما أهمية هلاك الرضيع أو بقائه عليلًا في بقية أيامه ما فُقِدَ الدليل على إهمال المُرضِع، وما دام الرضيع لا يَكسِر ساقه أو ذراعه؟ تُحفَظُ أعضاؤه على حسب بدنه، وتُبرَّأ المُرضِعُ مهما وقع.

وهل تَعرِف هؤلاء الأمهاتُ الناعمات، اللائي تَخلَّصْن من أولادهن فَرِحاتٍ مُسْلِماتٍ أنفسَهن إلى ملاهي المدينة، ما يُعامَل به الولد في قِمَاطه في القرية؟ إذا ما طرأ على المُرضِع أقلُّ عملٍ عُلِّقَ الولدُ في مِسمارٍ كصُرَّة ثياب، وبينا تقوم المُرْضِع بأعمالها من غير استعجال يبقى الطفلُ التَّعِس مصلوبًا هكذا. وكانت وجوه جميع مَن وُجدوا في هذا الوضع بنفسجيةَ اللون، وإذ كان الصدرُ المضغوط على هذا الوجه لا يَدَعُ الدم يَسرِي فإن الدم يصعد في الرأس، ويُعَدُّ الولد المتوجِّعُ هادئًا جِدًّا ما خلا من القدرة على الصُّراخ، وأجْهل مقدارَ الساعات التي يستطيع الولد أن يبقى بها في هذه الحال من غير أن يَفقد حياته، ولكنني أشكُّ في دوام هذا زمنًا طويلًا، وأرى أن هذا من أعظم منافع القِماط.

ويُزعَمُ أن الأولاد إذا كانوا طُلَقاء أمكَن أن يتخذوا أوضاعًا سيئة، وأن ينتحلوا من الحركات ما يمكن أن يؤذي حسنَ تكوين أعضائهم؛ فهذا هو برهانٌ فارغٌ من براهين حكمتنا الفاسدة التي لا تؤيِّدُها أية تجربة كانت، ولا يُرى بين جَمْع الأولاد الذين هم في أممٍ أرصنَ مِنَّا، فيُرضَعون مع حريةٍ جامعةٍ لأعضائهم، واحدًا يَضُرُّ نفسه أو يخبُلُها، وهم لا يُمكِن أن يَمنحوا حركاتِهم من القوة ما يجعلها خَطِرة، وهم إذا ما اتخذوا وضعًا عنيفًا أنذرهم الألمُ بضرورة تغييره حالًا.

ولَمَّا يَعُنَّ لنا أن نضعَ في القِماط صغارَ كلابنا وسنانيرنا، فهل يُرى أنه أصابها سوءٌ من هذا الإهمال؟ أوافق على أن الأولاد أكثرُ ثِقَلًا، ولكنهم أشدُّ ضَعْفًا بهذه النسبة، وكيف

يَخبُلُون إذا ما كادوا يتحركون؟ إذا ما أُلقُوا على ظهورهم ماتوا على هذا الوضع، كالسُّلحفاة، عاجزين عن التقلُّب مطلقًا.

وإذ لم يَرضَ النساء بانقطاعهن عن إرضاع أولادهن، فإنه ينقطعن عن الرغبة في عمل هذا، والنتيجة أمرٌ طبيعي، وذلك أن الأمومة إذ كانت عبئًا ثقيلًا فإنه يُوجد في الحال من الوسائل ما يُتخَلَّص به منها تمامًا، ويُراد إتيانُ عملٍ غيرِ مُجْدٍ استئنافًا له دائمًا، فيُحوَّل التَّوَقانُ إلى تكثير النوع بما يضرُّه، فإذا أُضيفت هذه العادة إلى أسباب نقص السكان الأخرى، أُنبِئنا بمصير أوروبة القريب. ولن يُعتِّم ما توجبه من العلوم والفنون والفلسفة والطبائع أن يجعل منها بَلقعًا، فتُعمَرُ بالضواري، ولا تكون بهذا قد استبدَلَتْ سكانًا بسكان كثيرًا.

وقد لاحظتُ في بعض الأحيان حيلةَ صُغريات النساء اللاتي يتظاهرن بالرغبة في إرضاع أولادهن، وذلك أنهن يَفعلن ما يُحمَلن به على العدول عن هذا المراد بتدخُّل الأزواج والأطباء،[١٥] ولا سيَّما الأمهات، وذلك أن الزوج الذي يكون من الجرأة ما يوافق معه على إرضاع الأم لولدها يَهْلِك، وأن مَن يودُّ أن يتخلَّى عنها يُعدُّ قاتلًا؛ فعلى الأزواج الفُطْن أن يُضَحُّوا بالحبِّ الأبوي من أجل السلام، ومن حسن الحظِّ أن يوجد في الأرياف نساءٌ أكثرُ عفافًا من نسائكم! وأحسنُ حظًّا من ذلك أن يكون الوقت الذي يظفَر به هؤلاء غيرَ مُعَدٍّ لآخرين سواكم.

ولا مراءَ في واجب النساء، ولكنه يُجادَل، عند ازدرائهن لهذا الواجب، في هل يتساوى لدى الأولاد أن يُرضَعوا من لبنهن أو من لبنٍ آخر؛ فهذه مسألةٌ يقضي فيها الأطباء وَفْقَ رغبة النساء، وأمَّا أنا فأرى أنه يَجدُر بالولد أن يمتصَّ لبنَ مُرضِعٍ ذات صحة، لا لبنَ أمٍّ فاسدة، إذا كان عليه أن يخشى شرًّا جديدًا من عينِ الدَّم الذي صُوِّرَ منه.

ولكن هل يجب أن يُنظَر إلى المسألة من الناحية البدنية فقط؟ وهل الولدُ أقلُّ احتياجًا إلى عناية أمٍّ مما إلى ثديها؟ يُمكِن نساءً أُخَرَ وحيواناتٍ أيضًا، أن تعطيه اللبنَ الذي تبخل به عليه، ولكن لا شيءَ يقوم مقام عطف الأم، وتُعَدُّ الأم التي أرضعت الولدَ من ثدي أخرى

[١٥] ما انفك تحالف النساء والأطباء يبدو لي أدعى غرائب باريس إلى الضحك؛ فبالنساء ينال الأطباء شهرتهم، وبالأطباء يركب النساء هواهن، وبهذا يسهل إدراك ما يجب أن يتصف به الطبيب بباريس من براعةٍ ليصير مشهورًا.

بدلًا من ثديها أُمًّا فاسدة؛ فكيف تكون مُرْضِعًا صالحة؟ يمكنها أن تكون هكذا، ولكن على مَهْل، ويجب أن تُغيِّرَ العادة الطبيعة، ويكون لدى الولد السيئ الرعاية من الوقت ما يَهْلِك فيه مائة مرةٍ قبل أن يكون لدى مُرْضِعه حنانُ الأم.

وينشأ عن هذا الخير نفسِه محذورٌ يكفي وحدَه لأن ينزِع من كلِّ امرأة جرأةَ إرضاع ولدها من قِبَل امرأة أخرى، وذلك هو اقتسام حقوق الأم، وإن شئتَ فقُل نَقلَ هذه الحقوق، وذلك أن ترى المرأةُ ولدَها يُحِبُّ امرأةً أخرى كما يحبُّها وأكثرَ مما يحبُّها، وذلك أن تشعُرَ بأن العطفَ الذي يحفظه لأمِّه الخاصةِ هو لطف، وبأن العطفَ الذي يحمله لأمِّه المنتَحَلَةَ هو واجب، وذلك ألا أُلزَم بُحبِّ ابنٍ حيث وجدتُ عنايةَ أم؟

ويقوم الوجه الذي يُعالَج به هذا المحذورُ على تلقينِ الأولادِ ازدراءَ مَراضعهم بأن يُعامَلن كخادمات حقيقيات، فإذا ما أكمَلنَ خدمتهن استُخلِص الولد، أو سُرِّحَت المُرْضِع، وتُرَدُّ المُرضِع من رؤية الرضيع بسوء استقبالها، فإذا مضت بضعُ سنين عاد لا يراها وعاد لا يَعْرِفها، وتَغُرُّ نفسَها الأمُّ التي تعتقد أنها تقوم مقامها وتتلافى إهمالها بغلظتها؛ فهي تُعوِّد الرضيع الفاسد إنكار الجميل بدلًا من أن تجعل منه ابنًا عطوفًا، وهي تعلِّمه أن يزدري ذات يومٍ تلك التي ولدته كازدرائه التي أرضعته من لبنها.

وما أكثر ما أُوَكِّد هذه النقطة لو كانت أقلَّ تثبيطًا في تكرار موضوعات مفيدة على غير جدوى! يتوقف هذا على أمور أكثر مما يُظَن، أَوَتريدون رَدَّ كلِّ واحدٍ إلى واجباته الأُولى؟ ابدءوا بالأمهات، فستَحَارون من التحولات التي تُحْدِثونها، وكلٌّ يأتي من هذا الفساد الأوَّل بالتعاقب، ويَفسُد جميعُ النظام الخلقي، وينطفئ الطبيعيُّ في جميع الأفئدة، ويتخذ داخل البيوت شكلًا أقل حياة، ويعود منظر الأسرة الناشئة المؤثِّر غير جامع بين الزوجين، غيرَ فارض رعايةً للغرباء، ويقلُّ احترام الأمِّ التي لا يُرى أولادها، ولا يكون في الأُسَرِ مقرٌّ مطلقًا، وتعود العادة غيرَ مقوِّية لروابط الدم، ويعود الآباء والأمهات والأولاد والإخوة والأخوات غيرَ موجودين، ولا يكاد الجميع يتعاشرون، فكيف يتحابُّون؟ ويعود كلُّ واحدٍ لا يفكِّر في غير نفسه، ومتى عاد البيت لا يكون غير مكانٍ كئيبٍ للعزلة وجب البحث عن المسرَّة في مكان آخَر.

ولكن لِتتفضَّلِ الأمهاتُ بإرضاع أولادهن، وهنالك تَصلُح الأخلاقُ من تلقاء نفسها، وتنتبه مشاعر الطبيعة في القلوب، وتُعْمر الدولةُ ثانية، وتَجمع هذه النقطةُ الأُولى، هذه النقطةُ الوحيدة، كلَّ شيء. فجاذبيةُ الحياة المنزلية هي أحسن تِرياقٍ للعيب، ويَغْدو ضجيجُ الأولاد الذي يُظَنُّ أنه مُزعجٌ أمرًا مستحبًّا، وهو يجعل الأب والأمَّ أكثرَ لزومًا، ويجعل أحدهما

أكثرَ قيمةً لدى الآخر، ويشُدُّ الرابطة الزوجية بينهما، ومتى كانت الأسرة حيَّةً ذاتَ نشاطٍ صارت رعاية المنزل أعزَّ عملٍ تقوم به المرأة وأحلى لهوٍ يتمتع به الزوج، وهكذا ينشأ من تقويم سوء واحدٍ كهذا إصلاحٌ عامٌّ حالًا، فلا تلبث الطبيعة أن تستردَّ جميع حقوقها، ومتى عاد النساء يكنَّ أمهاتٍ مرةً لم يُعتِّم الرجال أن يكونوا آباءً وأزواجًا.

كلامٌ فارغٌ! لا يَرُدُّ حتى سَأَمُ ملاذِّ العالَم إلى تلك مطلقًا؛ فقد انقطع النساء عن كونهن أمهات، وعُدْن لا يكُنَّ هكذا، وصِرْن لا يُرِدْن هذا، ومتى أرَدْنه لم يكَدْن يقدِرْن عليه، واليوم إذا قامتِ العادة المعاكسة ناهضَ كلٌّ منهن معارضةَ جميع اللائي يقتربن منها متحالفاتٍ ضِدَّ مثالٍ لم يُعطِه بعضُهن ولم يرغب الأخريات في اتِّباعه.

ومع ذلك يوجد أحيانًا فتياتٌ ذواتُ صلاحٍ طبيعي، يجرُؤْن، من هذه الناحية، على اقتحام ما لِهَوَى جنسهنَّ وضوضائه مِن سلطان، فيقُمْن عن إقدامٍ نقي، بهذا الواجب البالغ الحلاوة الذي تَفرضه الطبيعة عليهن، وهل يمكن أن يزيد عددهن عن جاذبية المحاسن المقدَّرة لِمَن يُقبِلْنَ عليها؟ أستند إلى نتائج ناشئة عن أبسط استدلال، وإلى ملاحظاتٍ لم أرَ تكذيبًا لها قَط، فأبشِّرُ هؤلاء الأمهات الفاضلات بولعٍ مكينٍ ثابتٍ من قِبَل أزواجهن، وبعطفٍ بَنويٍّ حقيقيٍّ من قِبَل أولادهن، وبتقديرٍ واحترامٍ من قِبَل الجمهور، وبنفاسٍ سعيدٍ بلا مكروهٍ ولا سوءِ عاقبة، وبصحة قوية متينة، ثُمَّ بنعمةِ رؤيتهنَّ بناتهنَّ يقتدين بهنَّ ذات يوم، فيُورِدنهنَّ قدوةً لبنات أُخريات.

لا ولدَ، لا أمَّ؛ فالواجباتُ بينهما متبادَلة، وإذا ما تمَّ القيامُ بها من طَرَفٍ قيامًا سيِّئًا أهْملَها الطَّرَفُ الآخر، ويجب أن يحترم الولد أمَّه قَبْلَ أن يَعْرِف وجوب هذا، وإذا لم يُقوَّ حنان الدم بالعادة وبالعناية خَمَدَ في السِّنين الأُولى ومات القلبُ قبل أن يُولَد، وهكذا نخرُج عن الطبيعة منذ الخطوات الأُولى.

وكذلك يُخْرَج منها عن طريقٍ معاكس، وذلك عندما تُفْرِط الأمُّ في العناية بدلًا من إهمالها، وذلك عندما تجعل من ولدها معبودًا لها، وذلك عندما تبلُغ من زيادة ضعفه وإنمائه ما تَحُول معه دون شعوره به، وذلك أنها إذ ترجو إنقاذَه من سُنن الطبيعة تُبْعِدُ عنه ما شقَّ من التجارِب، غير مُفكِّرةٍ في مقدار ما تجمَع من حوادث وأخطارٍ تقع على رأسه في المستقبل في مقابل معاسِرَ قليلة تقيه منها لوقتٍ قصير، وغير مُفكِّرةٍ في مقدار ما تنطوي عليه من حذرٍ جافٍ إطالةُ ضعف الطفولة تحت متاعب إنسان نامٍ. وتقول القصة إن تِيتِس أرادت جعْلَ ابنها غير قابل للجَرح، فغطسته في ماء ستيكس، وهذا الرمزُ رائعٌ

واضح، وعكس هذا ما يصنع الأمهات الجافيات اللائي أتكلم عنهن؛ فهن إذ يغمُرن أولادهن في الترف يُعدِدنهم للألم، وهن يفتحن مسامَّهم لكلِّ ضرر لا يفوتهم أن يذهبوا فريسته عندما يكبرون.

ولاحظوا الطبيعة، واتَّبِعوا الطريق التي ترسُمها لكم، فهي تُمرِّن الأولاد دائمًا، وهي تقوِّي مِزاجهم بمحنٍ من كلِّ نوع، وهي تُعلِّمُهم ما الألم وما التعب باكرًا، وتؤدي الأسنان التي تطلُع إلى الحُمَّى فيهم، ويؤدي المَغْصُ الحادُّ إلى تشنُّجات فيهم، ويختنقون بالسعال الطويل، وتؤذيهم الديدان، وتُفسد الأخلاط دمَهم، وتتخُّ فيه خمائرُ شتَّى فتوجب بثورًا خطِرة، ويُعدُّ دَورُ الطفولة دَوْرَ المرض والخطر تقريبًا، ويَهلِك نصفُ الأولاد قبل بلوغهم الثامنة من سنيهم، ومتى تمَّت التجارِب اكتسب الولدُ قُوًى، ومتى استطاع الولد أن ينتفع بالحياة كان مبدؤها أكثر ضمانًا.

هذه هي قاعدة الطبيعة، فلِمَ تعاكسونها؟ ألَا ترون أنكم بتفكيركم في إصلاحها تقضُون على عملها وتَحُولون دون فعل عنايتها؟ وعندكم أن ما يُصْنَعُ في الخارج مماثِلًا لِما تَصنَع في الداخل ينطوي على مضاعفة الخطَر، وأن اجتنابها ينطوي على العكس؛ أي على إزاحة الخطر، وتدلُّ التجرِبة على أن نسبة موت الأولاد الذين يُنشَّئون تنشئةَ رفاهٍ أعظمُ من نسبة موت غيرهم، ويكون الخطر في استعمال قواهم أقلَّ من مداراتها، على ألَّا يُجاوَز معدَّل طاقتها، فمرِّنوهم إذن على الإصابات التي سيعانونها يومًا ما، وعوِّدوا أجسامهم احتمالَ تقلباتِ الفصولِ والجِواءِ والعناصر، والصبرَ على الجوع والعطش والتعب، واغْطِسوهم في ماء ستيكس، ويُلقَّى الجسم ما يُراد من عادةٍ بلا خَطَر قبل أن يكتسب عادته، ولكن الجسم إذا ما نال صلابته صار كل تغييرٍ فيه أمرًا خَطِرًا؛ فالولد يُطيقُ من التحولات أكثر مما يطيق الرجل، وذلك أن ألياف الولد إذ كانت لينةً مرنةً فإنها تكتسب ما تُعطاه من ثني بلا جُهد، وأن ألياف الرجل إذ كانت أشدَّ تصلُّبًا فإنها لا تُغيِّر الثني الذي اكتسبته إلا بعنف؛ ولذا يُمكِن جعل الولد عُصْلُبيًّا من غير أن تُعرَّض للخطر حياته وصحته، حتى إنه لو وُجِدَ مِثْلُ هذا الخطر وجب ألَّا يُؤْبَه له، وبما أن هذه الأخطار ملازمة للحياة البشرية أفلا يوجَدُ ما هو أفضل من مواجهتها في وقتٍ توجب فيه أقلَّ ما يمكن من ضرر؟

ويصبح الولدُ أكثرَ قيمةً كلَّما تقدَّم في السِّن، وذلك أنه يُضاف إلى قيمةِ شخصٍ قيمةُ العناية التي مُنِحَها، ويُضاف إلى ضَياع حياته ما فيه من شعورٍ بالموت؛ ففي المستقبل على الخصوص إذن يجب أن يُفكَّر عند السَّهر على سلامته، وضدَّ أمراض الشباب ما يجب تسليحه قبل وصوله إليه. فإذا كان ثمن الحياة يزيد على السِّنِّ التي تصبح فيها نافعةً

فما أشد الحماقة في وقايته من بعض أمراض الطفولة زيادةً لهذه الأمراض في سنِّ الرشد! وهل هذه هي دروس المُعلِّم؟

قُدِّر على الإنسان أن يألمَ في جميع الأزمنة، حتى إن العناية بسلامته مرتبطةٌ في الألم، ومن سعادته أنه لا يَعْرِف في طفولته غير الأمراض البدنية، هذه الأمراض التي هي أقلُّ من الأخرى قسوةً وألمًا، والتي يَندُر أن تدفعنا إلى ترك الحياة! فالإنسان لا يقتل نفسه نتيجة لآلام النقرس مطلقًا، ولا يوجد غيرُ آلام النفس ما يؤدي إلى اليأس، ونحن نتوجَّع لِنَصيب الطفولة، ونصيبُنا هو ما يجب أن نتوجَّع له، فأعظمُ أمراضنا تصدُر عنَّا.

والولد إذا ما وُلِدَ صاح، وتمرُّ طفولته الأُولى في البكاء، والولد يُهَزْهَز أو يُلاطَف تارةً ليُسكَّن، ويُهدَّد أو يُضرَب تارةً أخرى ليُسَكَّت، ونحن إمَّا أن نفعل ما يروقه، وإمَّا أن نطالبه بما يروقنا، وإمَّا أن نخضع لأهوائه، وإمَّا أن نُخضِعه لأهوائنا، ولا وَسَط؛ أي إمَّا أن يُلقِيَ أوامر، وإمَّا أن يتلقَّى أوامر. وهكذا فإن أفكاره الأُولى أفكارُ سيطرةٍ أو أفكارُ عبودية، والولد يأمر قبل أن يَعرِفَ الكلام، والولد يُطيع قبل أن يستطيع العمل، والولد يجازَى أحيانًا قبل أن يُمكِنه معرفة ذنوبه، وإن شئت فَقُل قبل أن يقدِر على اقترافها. وهكذا فإنه يُصَبُّ في قلبه الفتيِّ من الإحساسات باكِرًا، ما يُعزَى إلى الطبيعة فيما بعد، وإنه يُتوَجَّع من كونه شَرِيرًا بعد أن بُذِل جهدٌ في جعله على هذه الحال.

وهكذا يَقْضِي الولدُ ستَّ سنين أو سبعَ سنين بين أيدي النساء اللائي هنَّ ضحيةُ هواهن وهواه، والولدُ بعدَ أن يُعلَّم هذا وذاك؛ أي بعد أن تُشحَن ذاكرتُه بكلماتٍ لا يستطيعُ فهْمَها، أو بأمورٍ ليست صالحةً له قطْعًا، والولدُ بعد أن يُطْفَأ الطبيعيُّ فيه بشهواتٍ مُحْدَثة، يُوضَع هذا الموجودُ المصنوعُ بينَ يدَي مُعلِّمٍ يُتِمُّ إنماءَ البذورِ المصنوعةِ التي يَجِدُها مُكوَّنةً فيه سابقًا، فيُعلِّمه كلَّ شيءٍ خلا معرفةَ نفسِه، خلا الانتفاعَ بنفسه، خلا عِلمَ السلوكِ ونيلَ السعادة. وأخيرًا، عندما يُلْقَى في العالَمِ هذا الولدُ العبدُ والطاغية، والمملوءُ عِلمًا والمُجرَّدُ من الإدراك، والضعيفُ جسْمًا وروحًا، دالًّا على عَجْزِهِ وزَهوِهِ وجميعِ عيوبه، يُوجِبُ رثاءً لبؤسِ النَّاسِ وفَسادِهم، ونحن على خطأٍ في هذا؛ فذاك رجلُ أهوائنا، ويكون رجلُ الطبيعةِ على خلافِ ذاك.

أَوَتريدون إذن أن يُحافِظَ على شَكْلِهِ الأصْلي؟ حَافِظوا على هذا الشكلِ منذ ولادتِه، فإذا جاء إلى الدنيا فاقْبِضوا عليه، ولا تتركوه حتَّى يُصْبحَ رَجلًا، ولن تنجحوا بغيرِ هذا مطْلَقًا. وكما أن المُرضِعَ الحقيقيةَ هي الأم، فإن المُعلِّمَ الحقيقيَّ هو الأب، وليتفِقا في نِظامِ

واجباتِهما كما في مِنْهاجِهما، ولْيَتضافَرا على هذا؛ فهو يكونُ أفضلَ تنشِئةً على يدِ أبٍ عاقلٍ محدودٍ مما على يدِ أمهرِ مُعلِّمي العالَم؛ وذلك لأن قيامَ الغَيْرةِ مقامَ النُّبوغِ أحسنُ من قيامِ النُّبوغِ مقامَ الغَيْرة.

ولكن الأشغالَ والوظائفَ والواجبات ... آه! الواجِبات! واجبُ الأبِ آخِرُ الواجباتِ لا ريب![١٦] لا نعجبُ من استخفافِه بتنشئةِ الولدِ بعد أن نرى استخفافَ زوجتِه بإرضاعِ هذا الذي هو ثمرةُ قِرانِهما. لا توجد صورةٌ أدعَى إلى الفُتُون من صورةِ الأُسْرة، ولكنَّ خطًّا ناقصًا يُشوِّه جميعَ الخطوطِ الأخرى، وإذا كانت الأمُّ من قلَّةِ الصِّحةِ ما لا تكونُ معه مُرضِعًا؛ فإن الأبَ من كثْرةِ الأعمالِ ما لا يكونُ معه مُعلِّمًا. ويجِدُ الأولادُ البُعداءُ الموزَّعون في المدارِس الداخليةِ والأديارِ والكلياتِ حُبَّ المَنزلِ الأبوي في مكانٍ آخَر، أو الأحرى أن يُقال إنهم يَرجِعون إلى هذا المنزلِ حاملين عادةَ عَدمِ الارتباط في شيء. ولا يكادُ الإخوةُ والأخواتُ يتعاشرون، ومتى اجتمعَ هؤلاء كلُّهم في احتفالٍ أمكنَ أن يكونوا مهذَّبين نحوَ بعضِهم بعضًا، متعاملين تَعامُلَ الغرباء، ومتى عادَ لا يكونُ بين الأقرباءِ أُلْفة، ومتى عادَ مجتمعُ الأُسْرةِ لا يُنعِم بلطفِ الحياة؛ نُشِدَ سيِّئُ الأخلاقِ ليقومَ مقامَ ذلك، وأين الرجلُ الذي يكونُ من البلاهةِ ما لا يَرَى معه سلْسلةَ جميعِ هذا؟

والأبُ إذا ما أَنْسَلَ أولادًا وغَذَّاهم لم يأتِ بهذا غيرَ ثُلُثِ عملِه، وهو مَدينٌ برجالٍ لنوعِه وبرجالٍ سَهْلِي الأُلْفةِ للمجتمعِ وبمواطنين للدولة. ويُعدُّ مُذنبًا كلُّ رجلٍ يستطيعُ تأديةَ هذا الدَّيْنِ الثلاثيِّ ولا يَصْنع، وقد يكونُ أشدَّ ذَنْبًا إذا أدَّاه نصفَ تأدية. ومَن لم يَقْدِر على القيامِ بواجباتِ الأبِ لم يَحِقَّ له أن يكون أبًا على الإطلاق، ولا يوجدُ فقْرٌ ولا عملٌ ولا حياءٌ يُعفي الأبَ من إعاشةِ أولادِه وتَنشِئتِهم بنفسِه. فيا أيُّها القراء، يمكنكم أن تُصدِّقوني، وذلك أنني

[١٦] متى قُرِئ في بلوتارك أن الرقيبَ كاتون، الذي حكمَ في رومةَ بجاهٍ كبير، قامَ بتنشِئةِ ابنِه من المهدِ بعنايةٍ يَتركُ معها كلَّ شيءٍ ليكونَ حاضرًا عندما تَهُزُّه المُرضِع — أي الأم — أو تَرْفعُه، ومتى قُرِئ في سويتون أن أغسطس، هذا السيد للعالَم الذي فتحه وأداره بنفسه، كان يُعلِّم حَفَدَتَه الكتابةَ والسِّباحةَ ومبادئَ العلومِ بنفسِه ويجعلهم حوْله دائمًا، لم يتمالكْ عن الضَّحِك من هؤلاء البسطاءِ الصغارِ من الناسِ الذين كانوا يَتلهَّون بمِثْلِ هذه التُّرهاتِ في ذلك الزمنِ والذين هم من الذَّكاءِ المحدود، لا ريبَ، ما لا يَقدِرُون معه على القيامِ بشئونِ عظماءِ زمانِنا الكبيرة.

أُنبئ كلَّ مَن يحملُ حُبًّا أبويًّا فيُهمِل هذه الواجباتِ البالغةَ القداسةِ بأنه سيبكي بكاءً مُرًّا زمنًا طويلًا لِما اقترفَ من إثم، ولن يجدَ في هذا ما يُسْلِيه أبدًا.

ولكن ما يصنعُ هذا الرجلُ الغني، هذا الربُّ للأُسرةِ الشَّغَّالُ المضطر، على زعمه، إلى إهمالِ أولادِه؟

هو يؤدي أجرًا إلى رجلٍ آخَر ليقومَ مقامَه في هذه العنايةِ المُلقاةِ على عاتقِه. فيا أيُّها الروحُ المِطْمَاع، أَوَتعتقدُ أنك تُنْعِم على ابنِك بأبٍ آخَرَ بالمال؟ لا تُخادِع نفسَك مطلقًا؛ فليس مُعلِّمًا ذاك الذي تعطيه إياه، بل أجيرٌ لا يَلْبثُ أن يجعلَ منه خادِمًا مِثْله.

ويُبَرهَنُ كثيرًا حولَ صفاتِ المُربِّي الصالح، وأُولَى الصِّفاتِ التي أُطالِبه بها هي التي يُقدِّرها فيه كثيرون غيري، وهي ألَّا يكون رجلًا يُباعُ مُطْلقًا، ويوجد كثيرٌ من المِهَنِ الشريفةِ التي لا تُمارَسُ بالمالِ إلا لنبدوَ غيرَ أهلٍ في القيامِ بها، كمهنةِ رجلِ الحربِ، ومهنةِ المُربِّي.

– ومَن يُنَشِّئُ وَلَدِي إذن؟

– أنت كما قلتُ لك.

– لا أستطيعُ هذا.

– لا تستطيعَ هذا؟ فاجْعَلْ لِنفسِك صديقًا إذن، ولا أرى وسيلةً أخرى.

مُرَبٍّ! يا له من روحٍ عالٍ! حقًّا أنَّ تكوينَ الرَّجُلِ يَستلزِمُ وجودَ أبٍ أو مَن هو أكثرُ من رَجُل؛ فهذا هو الواجبُ الذي تُفوِّضونَه إلى مرتزقةٍ بسكُونٍ.

وكلَّما فُكِّرَ في ذلك شُعِرَ بمصاعبَ جديدة، ومما يجبُ وقوعُه أن المُرَبِّي قد نُشِّئ من أجْلِ تلميذه، وأن يكون خَدَمه قد نُشِّئوا من أجْلِ سيِّدِهم، وأن يكون جميعُ مَن يَدنون منه قد تَلَقَّوا من الانطباعاتِ ما يوصِّلونه إليه، وأن يُنقَلَ من تربيةٍ إلى تربيةٍ حتى يُرتقى إلى حيثُ لا أدري، وكيف تُحسَنُ تنشِئةُ ولدٍ من قِبَلِ مَن لم يكن قد نُشِّئَ تنشئةً حسنة؟

وهل يَعِزُّ وجودُ هذا الرجلِ النَّادر؟ أجهَلُ هذا، ومَن يَعْرِفُ في أزمنةِ الانحطاطِ هذه دَرجَةَ الفضيلةِ التي يُمكِنُ أن يبلُغَها رُوحُ الإنسان؟ ولكن لِنَفْرِضْ أن هذا النادرَ قد وُجِد، فسنرى ما يجبُ أن يكونَه عند النظرِ إلى ما يجبُ أن يَعْمَل. وكلُّ ما أعتقدُ أنني أرى مُقدَّمًا هو أن الأبَ الذي يُحِسُّ ما يُكلِّفُه المربِّي الصالحُ يميلُ إلى الاستغناءِ عنه؛ وذلك أنه يلاقي من المشقَّةِ في الحصولِ عليه ما هو أعظمُ من أن يَكُونه بنفسه، أو يريدُ أن يُصبحَ صديقًا؟ فليُنشِّئ ابنَه ليكونَه، وها هو ذا قد أُعفيَ من البحثِ عنه في مكانٍ آخَرَ ما دامتِ الطبيعةُ قد قامت بنصفِ العمل.

ووُجد رجلٌ لا أعْرِفُ غيرَ مَرتبتِه كان قد عَرَضَ عليَّ أن أُربِّي ابنَه، وقد حباني بشرفٍ كبيرٍ لا ريب، ولكن يجِبُ أن يرضَى عن حَذَري بدلًا من أن يتوجَّعَ مِن رَفْضي؛ وذلك أنني لو كنتُ قد رَضيتُ بما عَرَض فضللْتُ في منهجي لكانت التَّربيةُ ناقصة، وأنني لو وُفِّقْتُ لكان هذا شرًّا من ذاك لِما يقَعُ من إنكارِ ابنِه لِلَقَبِه وعُزُوفِه من أن يكونَ أميرًا.

وأجِدُني كثيرَ الإدراكِ لأهميةِ واجباتِ المُرَبِّي، وأجِدُني كثيرَ الشعورِ بقصوري؛ فلا أَقْبَلُ مِثلَ هذا العملِ مهما كان مقامُ الذي يَعرِضُه عليَّ، حتى إنه لا يكون لعاملِ الصداقةِ عندي غيرُ سببٍ جديدٍ للرَّفْض، وأعتقد أن أناسًا قليلين سيقومون بمثلِ هذا العَرْضِ عليَّ بعدَ قراءةِ هذا الكتاب، فأرجو ممن يُمكِن أن يكونَ من هؤلاء ألَّا يُحَمِّل نفسَه هذا العَناءَ على غيرِ جَدْوى. ومما حدثَ أن قُمتُ بتجربةٍ كافيةٍ في هذه المهنةِ سابقًا؛ وذلك لأستيقِنَ أنني غيرُ أهْلٍ لها، وأن أحوالي تُعفيني منها حتى عند استعدادي لها، وقد رأيتُ لِزامًا عليَّ أن أقومَ بهذا التصريحِ العامِّ تجاه مَن يَبْدُون أنهم يبخلون عليَّ بمقدارٍ من التقديرِ ما يعتقدون معه إخلاصي وعَزْمي في مقاصدي.

وإذا كنتُ غيرَ قادرٍ على القيامِ بأنفعِ الأعمال فإنني أجْرُؤ، على الأقل، على محاولةِ القيامِ بالأسهل؛ وذلك أنني أسيرُ على غِرَارِ أُناسٍ كثيرين غيري، فلا أقبِضُ على العمل، بل على القلم، وأنني أجِدُّ في قولِ ما يجبُ بدلًا من فِعْله.

وأعلمُ أن المؤلِّف في مشروعاتٍ مماثلةٍ لذلك، يكونُ على رِسْلِه دائمًا في مناهِجَ يُعْفَى من وضْعِها موضعَ العمل، فيُبرِز من غيرِ جُهدٍ كثيرًا من المبادئ الرائعةِ التي يتعذَّر اتِّباعُها، حتى إن ما يقولُ بإمكانِ العملِ به يَبقى مُهْملًا عند عدمِ بيانِ وجهِ تطبيقه، وذلك عن نقصٍ في التفصيلِ والأمثلة.

وأكونُ إذَن قد التزمتُ جانبَ اتخاذِ تلميذٍ خياليٍّ مُفترِضًا السِّنَّ والصحةَ والمعارفَ وجميعَ الأهلياتِ المناسبةِ لتربيتِه وقيادتِه منذُ ولادتِه إلى الحينِ الذي يصبحُ فيه رجلًا لا يحتاجُ إلى دليلٍ غيرِ نفْسِه. ويبدو لي هذا المنهاجُ نافعًا في منْعِ المؤلفِ الذي يَحذَره من الضلالِ في رُؤًى؛ وذلك أنه إذا ما ابتعدَ عن التعامُلِ المعتادِ لم يكن عليه غيرُ اختبارِ منهاجِه في تلميذه، فلم يلبثْ أن يَعْلَم — أو يَعْلَم القارئُ نيابةً عنه — هل يَتتبَّعُ تقدُّمَ الصَّبيِّ وسَيْرَ القلبِ البشريِّ سيرًا طبيعيًّا.

وهذا ما حاولتُ صُنعَه في جميعِ المشاكلِ التي تَعْرِض، وقد اقتصرتُ على وضْعِ المبادئ التي تُشعِرُ بالحقيقة؛ وذلك صونًا للكتابِ من التضخيم على غيرِ جدوى. وأمَّا القواعدُ التي

يُمكن أن تحتاجَ إلى دليلٍ فقد طبَّقتُها على إميلَ أو على أمثلةٍ أخرى، مُثبِتًا بالتفصيلِ الواسعِ كيف يُمكن العملُ بما أُقرِّر، وهذا هو المشروعُ الذي أُريدُ اتِّباعَه على الأقلِّ تاركًا الحكمَ في توفيقي إلى القارئ.

ومِن ثمَّ تَرى أنني تكلمتُ قليلًا عن إميلَ في البُداءة؛ وذلك لأن مبادئي الأُولى في التَّربية — وإن كانت تختلفُ عمَّا هو مُقرَّر — هي من الوضوحِ ما يصْعُبُ على كلِّ رَجلٍ حصيفٍ أن يَرفِض معه موافقتَه عليها، ولكنني كلَّما تقدمتُ عاد تلميذي الذي وُجِّه إلى غيرِ ما وُجِّه إليه تلاميذُكم، لا يكون ولدًا عاديًّا، فوجب اتخاذُ نظامٍ خاصٍّ به، وهنالك يكثُر ظهورُه على المسرح، حتى إذا كُنَّا حولَ آخِرِ الأوقاتِ لم أغْفُل عنه طَرْفة عين، وذلك إلى أن يغدوَ غيرَ محتاجٍ إليَّ في أقلِّ شيء مهما قال في ذلك.

ولا أتكلمُ هنا عن صفاتِ المُرَبِّي الصالح؛ فأنا أفْترِضُها، وأفترضُ اتصافَ نفسي بجميعِ هذه الصفات، ومن مطالعة هذا الكتاب يُرى مقدارُ ما أحبُو به نفسي من سخاء.

وأخالفُ الرأيَ الشائع، فأقولُ إنه يجبُ أن يكون مربِّي الولدِ شابًّا، وأن يكون من الشبابِ ما يكونُه الرجلُ الحكيمُ أيضًا، وأودُّ لو يكون المُرَبِّي ولدًا إذا أمكنَ هذا، فيصبحَ رَفيقَ تلميذِه ومحلَّ ثِقتِه مُقاسِمًا لهْوَه، ولا تَجدُ بين الصِّبا والكُهولةِ من الأمورِ المشتركةِ الكافيةِ ما يجعلُ بينهما محبَّةً متينةً حقًّا. أجلْ، إن الأولادَ يُصانِعون الشِّيبَ أحيانًا، ولكنهم لا يحبُّونهم مُطْلَقًا.

ويُطْلَبُ أن يكونَ المُرَبِّي قد قامَ بتربية، وهذا كثير؛ فالرجلُ عينُه لا يستطيعُ أن يقومَ بغيرِ تربيةٍ واحدة، فإذا وجبَ قيامُه بتربيتَين لينجحَ فبأيِّ حقٍّ تُؤتَى الأُولى؟

وكلَّما كثُرت التَّربيةُ عُرِفَ أحسنُ ما يُصنَع، ولكنه يُعْجَزُ عن فِعْله، ومَن أحسنَ القيامَ بهذا العملِ ذاتَ مرَّةٍ فشَعرَ بجميعِ مشَاقِّه لم يحاوِلْ قَطُّ إلزامَ نفسِه به ثانية، وإذا كان قيامُه به سيِّئًا في المرةِ الأُولى ظهرَ هذا مُبتَسرًا سيِّئًا للمرةِ الثانية.

وأُسلِّم بأنَّ رقابَةَ الولدِ أربعُ سنين تختلفُ كثيرًا عن تسييره خَمسًا وعشرين سنة، وأنتم تأتون بمُرَبٍّ لابنِكم بعْدَ أن يَتمَّ تكوينُه، وأمَّا أنا فأريدُ أن يكونَ له مُربٍّ قبلَ أن يُولَد، ويُمكِن صاحبَكم أن يُغيِّرَ تلميذًا في كلِّ خمسِ سنين، وأمَّا صاحبي فلن يكونَ له غيرُ واحد، وأنتم تَميزون المؤدِّبَ من المُربِّي، فهذه حماقةٌ أخرى! أَوَتَميزون التلميذَ مِن الطالب؟ لا يوجدُ غيرُ عِلْمٍ يُعلَّمُه الأولاد، وهو عِلمُ واجباتِ الإنسان، وهذا العِلمُ واحدٌ لا ينقَسِمُ على

الرغم مما قاله إكزينوفونُ عن تربيةِ الفُرْس، ومع ذلك فإنني أدعو مُعلِّمَ هذا العِلمِ مُرَبِّيًا أكثرَ مِن أن أدعوه مؤدِّبًا ما دام المُهِمُّ عنده في التسييرِ أكثرَ مما في التهذيب، وليس عليه أن يُنعِمَ بتعاليم، وإنما يجبُ أن يَحْمِلَ على لُقْيانها.

وإذا ما وجبَ اختيارُ المربِّي بعنايةٍ فائقةٍ أُبيحَ له اختيارُ تلميذِه أيضًا، ولا سيَّما عند توقُّفِ الأمرِ على تقديمِ نموذج، ولا يُمكِن هذا الاختيارَ أن يقعَ على عبقريةِ الولدِ أو سجيَّته ما دام هذا لا يُعْرَفُ في غيرِ نهايةِ العمل، وما دمتُ أَقْبَلُه قَبلَ ولادته، ومتى أمكنني الاختيارُ لم أتخذْ غيرَ روح عاديٍّ كما أفترض تلميذي؛ فلا احتياجَ إلى غيرِ تنشئةِ رجالٍ عاميين، وتربيةُ هؤلاء وحدَها هي التي يجبُ أن تَصلُح مثالًا لأمثالهم، وأمَّا الآخرون فيُنشَّئون على ما فيها من ذلك.

وليس البلدُ خَلِيًّا تجاه ثقافةِ النَّاس، وهم لا يكونون ما يُمكِن أن يكونوا في غيرِ الأقاليم المعتدلة، ويكون الضررُ ظاهرًا في الأقاليم المتناهية. وليس الإنسانُ مغروسًا كالشجرةِ في بلدٍ حتى يقيمَ به دائمًا، ويُلْزَمُ الذي يذهبُ من أحدِ الأقاصي ليصلَ إلى الآخرِ بمضاعفةِ الطريقِ التي يسلُكُها مَن يذهبُ مِن الحدِّ المتوسطِ ليصلَ إلى ذاتِ الحد.

وإذا ما جاء الأَقْصَيَيْنِ ساكنُ البلدِ المعتدلِ بالتعاقُبِ كانت فائدتُه واضحةً أيضًا؛ وذلك لأنه وإن كان يتغيَّرُ كلَّما ذهبَ من الأقصى إلى الأقصى يكون أقلَّ ابتعادًا عن كِيانِه الطبيعيِّ بما لا يزيدُ على النِّصفِ من ذلك. أجلْ، إن الفرنسيَّ يعيشُ في غِينْيَةَ وفي لابونية، غيرَ أن الزنجيَّ لا يعيشُ مثْلَه في تُورْنِيَا، ولا يعيشُ السَّاموئيديُّ مثْلَه في بينين. ويظهر أن نظامَ الدِّماغِ أقلُّ كمالًا في الأقصَيَيْن؛ فليس عند الزنوجِ ولا عند اللابونِ إدراكُ الأوروبيين، ولو أردتُ إذن كونَ تلميذي ساكنًا للأرضِ لأخذتُه إلى مِنطقةٍ معتدلةٍ كفرنسة، مُفضِّلًا إياها على سواها.

والنَّاس في الشمالِ يستهلكون كثيرًا على أرضٍ جديبة، والنَّاس في الجنوبِ يستهلكون قليلًا على أرضٍ خصيبة، فنشأ عن هذا فرقٌ جديدٌ يجعلُ أولئك أهلَ جِدٍّ، ويجعلُ هؤلاء أهلَ تأمُّل، ويَعرِضُ المجتمعُ علينا في عينِ المكانِ صورةَ هذه الفروقِ بين الفقراءِ والأغنياء؛ فالفقراءُ يسكنون الأرضَ الجديبة، والأغنياءُ يسكنون الأرضَ الخصيبة.

ولا يحتاجُ الفقيرُ إلى تربية؛ فتربيةُ حالِه أمرٌ قَسْري، ولا يَقدِر على نَيْلِ غيرها. وعلى العكسِ تكونُ التَّربيةُ التي يتلقَّاها الغنيُّ من حالِه هي أقلُّ ما يُناسِبُه شخصًا ومجتمعًا. وهذا إلى أن التَّربيةَ الطبيعيةَ يجبُ أن تجعلَ الرجلَ صالحًا لجميعِ الأحوالِ البشرية. والواقع

أن تنشئةَ الفقيرِ ليكونَ غنيًّا أقلُّ صوابًا من تنشئةِ الغنيِّ ليكونَ فقيرًا؛ وذلك لأنه إذا نُظِرَ إلى نسبةِ عددِ الحالَيْن وُجِد أن مَن افتقروا أكثرُ ممن اغتَنَوا. ولْنخْتَرْ غنيًّا إذن، فبذلك نطمئنُ إلى تكويننا رجلًا زيادةً بدلًا من إمكانِ تحوُّلِ فقيرٍ إلى رجلٍ بفعلِ نفسِه.

ولذاتِ السببِ لا يغيظني كونُ إميلَ أصيلًا؛ فسيكون هذا دائمًا ضحيةً مُنتزَعًا من المُبتَسر.

إميلُ يتيم، وليس من المهمِّ وجودُ أبٍ له أو أم؛ فبما أنه فُوِّض إليَّ أن أقومَ بواجباتهما فإنني أخْلُفُهما في جميعِ حقوقهما. أجلْ، إن عليه أن يُكْرِم والديه، ولكن ليس عليه أن يُطيع غيري، وهذا هو شرطي الأوَّل، بل شرطي الوحيد.

ويجبُ أن أُضيفَ إليه ما ليس غيرَ تكملةٍ له، وهو ألَّا يفترقَ أحدُنا عن الآخرِ إلا باتفاقنا نحن الاثنين، وهذه الفقرةُ الشرطيةُ أمرٌ جوهري، حتى إنني أَوَدُّ أن يَبلُغَ التلميذُ والمُرَبِّي من اتحادهما ما يكون معه نصيبُ أيامِهما أمرًا مشتركًا بينهما دائمًا. وهما إذا ما أبصرا انفصالَهما في الابتعاد، وهما إذا ما أدركا الساعةَ التي يجبُ أن تَجعلَ أحدَهما غريبًا عن الآخر؛ دلَّ هذا على أن حالَهما كان هكذا، وكلٌّ منهما يقوم بمنهاجِه الصغيرِ على حِدَة. وهما حين يُوجِّهان ذهنَهما إلى الوقتِ الذي يكونان فيه غيرَ متَّحدَيْن لا يبقيان معًا إلا كَرْهًا، ولا يَعُدُّ التلميذُ مُعلِّمَه إلا رمزَ الصِّبا وآفتَه، ولا يَعُدُّ المُعلِّمُ تلميذَه إلا عبئًا ثقيلًا يتحرَّقُ شوقًا إلى إلقائه عن عاتقِه، ويطمَحُ بصرُ كلٍّ منهما، متَّفِقًا، إلى الوقت الذي يتخلَّص فيه من الآخر، وبما أنه لا يوجد بينهما حُبٌّ حقيقيٌّ فإنه يكون عند أحدهما قليلُ انتباهٍ ويكون عند الآخرِ قليلُ انقيادٍ.

لكنهما إذا ما أبصرا أنهما مُلْزَمان بقضاءِ أيامهما معًا عُنِيَا بتحابِّهما، وصار كلٌّ منهما عزيزًا على الآخر، ولا يستَحي التلميذُ مطلقًا من اتِّباعه في صِباه مَن يكون صديقَه إذا ما كَبِر، ويُعنَى المُربِّي برعايةِ مَن لا بدَّ من اقتطافِ ثمرتِه، ويُعَدُّ كلُّ فضلٍ يحبو به تلميذَه أساسًا يضعه نفعًا لأيامِ مَشيبِه.

ويَفترِض هذا العَقْد الذي وُضِع مُقدَّمًا وِلادةً موفَّقة وولدًا حسنَ التكوين قويًّا سليمًا، وليس للأبِ خِيارٌ مطلقًا، ولا ينبغي أن يأتي تفضيلًا في الأُسرة التي أنعم الله بها عليه؛ فجميعُ أولادِه أولادٌ له على السواء، وعليه أن يُبديَ نحوَهم ذاتَ العنايةِ وذاتَ الحنان. وهم سواءٌ أكانوا مُقْعَدين أم لا، وهم سواءٌ أكانوا ضعفاءَ أم أقوياء، يُعَدُّ كلُّ واحدٍ منهم وديعةً يسأله المُعطي عنها؛ فالزواجُ عقدٌ مع الطبيعةِ كما بين الزوجين.

ولكنه يجبُ على كلِّ مَن يفرِضُ على نفسِه واجبًا لم تفرضْه الطبيعةُ عليه قطُّ أن يكون قابضًا على وسائلِ القيامِ به مقدَّمًا، وإلا كان مسئولًا حتى عن الذي لم يستطِع فِعْله. ومَن يتولَّ أمرَ تلميذٍ عليلٍ مِسْقامٍ يُحوِّل عملَه كمُربٍّ إلى عملِ مُمرِّض، وهو يُنفِق في العنايةِ بحياةٍ غيرِ نافعةٍ وقتًا كان يُعِدُّه لرفعِ قيمتها، وهو يُعرِّض نفسَه لمواجهةِ أُمٍّ شديدةِ الحُزنِ تَلُومُه ذاتَ يومٍ على موتِ ابنٍ مُلْزَمٍ بحفْظه لها زمنًا طويلًا.

ولن أتولَّى أمرَ ولدٍ مِسْقامٍ مِمْرَاضٍ ولو عاش ثمانين حَوْلًا، ولا أرغبُ مطلقًا في تلميذٍ غيرِ نافعٍ لنفسِه وللآخرين دائمًا، في هذا التلميذ الذي يُعْنَى بنفسِه حصرًا، فيسيء جسمُه إلى تربيةِ الرُّوح. وما أصنعُ بإنفاقي عليه عنايتي سُدًى إن لم يكن مضاعفةَ خُسْرِ المجتمعِ ونَزعَ رَجُلَين منه في سبيلٍ واحد؟ إذا ما تولَّى أمرَ هذا العليلِ آخرُ مكاني وافقتُ على هذا ورضِيتُ عن حَسَنته، ولكنني لم أُيَسَّرْ لهذا؛ فلا أعْرِفُ مطلقًا أن أُعلِّم الحياةَ لِمَن لا يُفكِّر في غيرِ منْع موتِ نفسِه.

ويجبُ أن يكون الجسمُ من القوَّة ما يُطيع معه الروحَ؛ فعلى الخادم الصالح أن يكون عُصْلُبيًّا، وأعرِف أن النَّهْمَ يُحرِّك الشهوات؛ فهو يَنْهَكُ البدنَ مع الزَّمن، وأعرِف أن التقشُّف والصوم يؤديان في الغالبِ إلى ذاتِ النتيجةِ للسببِ المعاكس، وكلَّما كان البدنُ ضعيفًا هَيْمَن، وكلَّما كان قويًّا أطاع، وتقيم جميعُ الشهوات الحسية في الأجسام المُخنَّثة، وهي تزيد هياجًا عند أقلِّ قضاءٍ لها.

والجسمُ الواهن يُضعِف الرُّوح؛ ومِنْ ثَمَّ كان سلطان الطبِّ الذي هو فنٌّ أشدَّ ضررًا على النَّاس من جميعِ الأمراضِ التي يزعمُ أنه يَشفيها. وأمَّا أنا فلا أعرِف أيُّ الأمراضِ يشفينا منها الأطباء، ولكنني أعرِف أنهم يُعطوننا ما هو شديدُ الشؤم منها، يُعطوننا النذالةَ والجُبنَ وسرعةَ التصديقِ والفزعَ من الموت، وهم إذا ما شَفَوُا البدنَ قتلوا الشجاعة، وما يهمُّنا أن يُسيِّروا جُثثًا؟ فإلى الرجالِ نحتاج، ولا نرى صدورَ رجالٍ عنهم.

والطبُّ مُوضة[١٧] ⋆ بيننا، وهو ما يجبُ أن يكونه؛ فهو لَهْوُ ذوي البِطالةِ والفراغِ الذين لا يَعْرِفون ما يصنعون بوقتهم فيقضونه في حفظِ حياتهم، ولو كان هؤلاء من الشقاءِ ما يُولَدون معه خالدين لكانوا أشدَّ النَّاسِ بؤسًا لِمَا لا يكون للحياةِ التي لا يَخْشون ضَياعَها

---

[١٧] ⋆ Mode.

أيُّ ثمنٍ عندهم، ويحتاجُ هؤلاء النَّاسُ إلى أطباءَ يُهدِّدونهم عن مَلَق، فيُنعِمون عليهم كلَّ يومٍ باللذةِ الوحيدةِ التي يتمتَّعون بها، وهي ألَّا يموتوا.

ولا أريدُ أن أتبسَّطَ هنا حول بُطلانِ الطب؛ فلا يقوم موضوعي على غيرِ النظرِ إليه من الناحيةِ الأدبية، ومع ذلك لا أستطيع أن أمنعَ نفسي من كونِ النَّاسِ يأتون حول عادته من السَّفْسطات ما يأتون حَوْل البحثِ عن الحقيقة، وذلك أنهم يفترضون، دائمًا، أن المريض إذا ما عُولِج شُفِي، وأن الحقيقةَ إذا ما نُشِدت وُجِدت، وهم لا يَرَوْن وجوبَ المقابلةِ بين نفْعِ شفاءٍ يُوفَّقُ له الطبُّ وموتِ مائةِ مريضٍ يقتلهم، كما لا يَرَوْن وجوبَ المقابلةِ بين نفْعِ حقيقةٍ يُهتَدى إليها وضررِ الضلالاتِ التي تقعُ في الوقتِ نفسِه. أجلْ، إن العِلْمَ الذي يُثقِّف والطبَّ الذي يشفي صالحان كثيرًا لا ريب، غيرَ أن العلمَ الذي يُخادِع والطبَّ الذي يَقتلُ شرَّان، فعلِّمونا أن نَميزَ بينهما إذن، وهذه هي عُقدة المسألة. ولو كُنَّا نعرِف جهلَ الحقيقةِ ما خُدعنا بالأكاذيب مطلقًا، ولو كُنَّا نعرِف الرغبةَ عن الشفاءِ على الرغم من الطبيعة ما قُتلنا على يدِ الطبيب مطلقًا. ويُعدُّ هذان الامتناعان أمرَين حكيمَين؛ ففيهما غُنْمٌ لا مِراء، ولا أُماري إذن في كونِ الطبِّ نافعًا لبعضِ النَّاس، ولكنني أقولُ إنه شؤمٌ على الجنسِ البشري.

وسيُقال لي، كما يُفعَل دائمًا، إن الذنْبَ ذنْبُ الطبيب، ولكن الطبَّ معصومٌ من الزَّللِ في حدِّ ذاته. حسنًا، ولكن لِيأتِ الطبُّ بلا طبيبٍ إذن، وذلك أنهما إذا أتيا معًا كان ما يُخشَى معه خطأُ المتفنن مائةَ مرةٍ أكثرَ من الأملِ في عَوْنِ الفن.

وليس هذا الفنُّ الكاذبُ الذي وُضِعَ لأمراضِ الرُّوحِ أكثرَ مما لأمراض البدن؛ أعظمَ فائدةً لإحداهما مما للأخرى، وهو أقلُّ شفاءً لأمراضنا من إلقائه خَوْفَها فينا، وهو أقلُّ تأخيرًا للموتِ من إشعارِنا به مُقدَّمًا، وهو يُوهِن الحياةَ بدلًا من إطالتها، وهو إذا ما أطالَها كان هذا ضَرًّا بالنوعِ ما دام يَنتزِعُنا من المجتمعِ بما يَفرضه علينا من عنايةٍ، وما دام ينتزعنا من واجباتنا بما يُلقيه فينا من فَزَع. ومعرفةُ الأخطارِ هي التي تجعلنا نخافها، ومَن يعتقد أنه لا يُجرَح لم يخشَ شيئًا. وقد نَزَع الشاعرُ مَزِيَّةَ الشجاعةِ من أَشيلَ بتسليحه ضِدَّ الخطر؛ فكلُّ واحد يصبح أشيلًا إذا ما اتفَّق له هذا التسليح.

وإذا أردتم وجودَ رجالٍ ذوي شجاعةٍ حقيقية فابحثوا عنهم في الأماكنِ التي لا يوجد فيها أطباءُ مطلقًا، في الأماكنِ التي تُجهل فيها نتائجُ الأمراضِ فلا يُحْلَم فيها بالموتِ مطلقًا.

ومن الطبيعي أن يألم الإنسانُ دائمًا وأن يموت هادئًا، والأطباءُ بوَصَفاتهم والفلاسفةُ بتعاليمهم والكهنةُ بإنذاراتهم هم الذين يُذِلُّون القلبَ ويخيفونه من الموت.

ولْأُعْطَ تلميذًا غيرَ محتاجٍ إلى جميعِ هؤلاء النَّاس، وإلا رفضتُه، ولا أريد أن يُفسِدَ آخرون عملي مُطلقًا، وأريدُ أن أُنشِّئه وحدي، وإلا لا أتدخَّل في أمره. ويقضي الحكيمُ لوك قِسْمًا من حياته في دراسة الطب، فيوصي بشدةٍ ألَّا يُعالَجَ الأولادُ بأدويةٍ مُطْلقًا، لا عن حَذَرٍ ولا عن ضَعفٍ خفيف. وأذهبُ إلى ما هو أبعدُ من هذا فأُصرِّحُ — أنا الذي لم يَدْعُ أطباءَ لنفسه قَطُّ — بأنني لن أدعوَ طبيبًا لإميل، ما لم تكن حياتُه في خطرٍ واضح؛ وذلك لأنه لا يستطيع أن يصنعَ له حينئذٍ ما هو شرٌّ من قتْله.

وأعْرِف جيِّدًا أن الطبيبَ لن يَغْفُلَ عن الاستفادةِ من هذه المُهلة، فإذا مات الولدُ فإنه يكون قد دُعِيَ بعد الأوان، وإذا ما نجا فإنه يُعدُّ منقذًا له، وليُكتَب الفوزُ للطبيب هكذا، ولكن لتَكنْ دعوتُه عند الرَّمقِ الأخيرِ على الخصوص.

وكما أن الولدَ لا يَعرِف أن يشفيَ نفسَه يَعرِف أن يكون مريضًا، ويقوم هذا الفنُّ مقامَ الآخر، ويُكتَب له النجاح غالبًا أكثرَ من ذاك بدرجات، وهذا هو فنُّ الطبيعة، ومتى كان الحيوانُ مريضًا أَلِمَ هادئًا والتزمَ جانبَ الصمت. والواقعُ أننا لا نرى كالإنسانِ حيوانًا يَضْنَى، وما أكثرَ ما قتلَ الجزَعُ والفزعُ والهلع — والأدويةُ خاصةً — أناسًا كان يُبقي عليهم مرضُهم فيشفيهم الزَّمنُ وحدَه! وسيُقال لي إن الحيوانات، إذ كانت تعيش على وجهٍ أشدَّ ملاءمةً للطبيعة، وجبَ أن تكون أقلَّ عُرضةً للأمراض مِنَّا، والآن هذا هو طرازُ الحياةِ الذي أريد أن أحبوَ به تلميذي حَصرًا، فلْينتفعْ به إذن.

وحفظُ الصحةِ وحدَه هو فصلُ الطبِّ المفيد، ثُمَّ إن حِفظَ الصحةِ فضيلةٌ أكثر منه علمًا. والاعتدالُ والعملُ هما طبيبا الإنسان الحقيقيان؛ فالعمل يَشحذُ شهوته، والاعتدال يحول دون إساءة استعمالها.

وليس على مَن يَودُّ معرفةَ أي النُّظُم أنفعَ للحياة والصحة غيرُ معرفةِ أي النُّظُم تعمل به الشعوب التي تتمتَّع بأحسنِ صحة، فتكون أشدَّ قوةً وأطولَ حياة. وإذا كانت المشاهدات العامة تدلُّ على أن عادةَ الطب لا تمنحُ النَّاسَ صحةً أكثرَ ثباتًا وحياةً أعظمَ طولًا؛ كان هذا الفنُّ ضارًّا لعدم فائدته، ما دام يُنفِقُ الزمانَ والنَّاسَ والأشياءَ فيما هو خُسْرٌ محض. ويجب ألَّا يُقتَصَر على طرحِ الوقت الذي أُنفِق في حفظِ الحياة، لا في التمتُّعِ بها؛ فهذا الوقتُ

إذا ما أُنفِقَ في تعذيبِ أنفسنا كان شرًّا من تبديده، أي كان سلبيًّا، فيقضي الإنصافُ في الحسابِ بأن يُطرَح مما بَقِيَ لنا. ويُعَدُّ الإنسانُ الذي عاش عَشرَ سنين بلا طبيبٍ أنه عاش لنفسه ولغيره أكثرَ من الذي عاش ثلاثين سنةً ضحيةَ الأطباء. وبما أنني جرَّبت كِلا الأمرين فإنني أكون أحقَّ مِن سواي في استخراج النتيجة.

هذه هي الأسبابُ التي تجعلني لا أرغبُ في غيرِ تلميذٍ عُضْلُبيٍّ سليم، وهذه هي مبادئي التي تهدِفُ إلى بقائه هكذا، ولا أقفُ عند إثباتي مطوَّلًا فائدةَ الأعمالِ اليدوية والتمرينات البدنية تقويةً للبِنية والصحة؛ فهذا أمرٌ لا يُجادِل فيه أحد، وذلك أن أمثلةَ أطولِ الحيَوات تُستخرج كلُّها تقريبًا من الرجالِ الذين قاموا بتمارينَ أكثرَ من غيرهم واحتملوا نَصَبًا وعملًا[١٨] أكثرَ من سواهم، ولن أُفصِّل مُطَوَّلًا ما أتَّخذ من عنايةٍ في هذا الموضوع وحدَه، فسيُرى أنه داخلٌ ضِمن عملي، فيكفي البصرُ برُوحِه حتى يُستغنَى عن القيام بإيضاحٍ آخَر.

ومع الحياة تبدأ الاحتياجات، ولا بُد للمولودِ حديثًا من مُرْضِع، وإذا ما وافقت الأمُّ على القيامِ بواجبها كان هذا خيرًا، وتُعطى تعليماتها خطًّا؛ وذلك لأن لهذه الفائدةِ ثِقَلَها؛ فهي تُمسِك المربِّي بعيدًا بعضَ البُعْد من تلميذه، بَيْدَ أن هنالك ما يَحمِل على الاعتقاد بأن مصلحةَ الولدِ واحترامَ مَن تريدُ أن تُسلِّم الأمُّ إليه وديعةً غاليةً جِدًّا يجعلها منتبهةً إلى آراءِ المُعلِّم، ومن المحُقَّق أن جميعَ ما تريد فِعْله تفعله بأحسنَ مما يفعلُه سواها، وإذا كان لا بدَّ لنا من مُرْضِعٍ غريبةٍ فلنبدأ بحُسنِ اختيارها.

ومِن تَعَسِ الأغنياء أن يُخادَعوا في كلِّ شيء، وهل يُعجَبُ مِن سوءِ حكمِهم في النَّاس؟ إن الثَّروات هي التي تُفسِدُهم، وهم أوَّلُ مَن يشعر، عن رجوعٍ عادل، بعيبِ الآلةِ التي

[١٨] إليك مثالًا اقتبستُه من صُحُفٍ إنكليزية، فلم يَسَعني غيرُ إيرادِه لتضمنه تأمُّلاتٍ تتصل بموضوعي: «وُلِد المُسَمَّى بتريك أونيل سنة ١٦٤٧، فتزوَّج للمرة السابعة سنة ١٧٦٠، وقد استُخدِم في كتيبةِ الفرسان في السَّنة السابعة عشرة من عهدِ شارل الثاني، كما استُخدم في كتائبَ شتَّى حتى سنة ١٧٤٠ حين سُرِّح، وقد اشترك في جميعِ معاركِ الملكِ وليام والدوك ملبورو، ولم يَحدُثْ أن شرب هذا الرجلُ غيرَ الجِعَة العادية، وتغذَّى بالخضر دائمًا، ولم يأكل لحمًا في غيرِ بعضِ الولائمِ التي كان يقيمُها لأُسْرته، ومن عادتِه أن كان ينامُ ويفيق مع الشمس ما لم تمنَعْه واجباتُه من ذلك، وهو الآن في الثالثة عشرة بعد المائة من سِنِيه، وهو حَسَنُ السَّمعِ، حَسَنُ الصحةِ، ويمشي بلا عصًا، وهو لا يبقى عاطِلًا من العمل ساعةً على الرغم من سِنِّه، وهو يذهب في جميعِ أيامِ الأحدِ إلى الكنيسة ومعه أولاده وحَفَدته وحَفَدة أولاده.»

يَعْرِفونها، وكل شيء سيئ الصنعِ عندهم، خلا ما يصنعون بأنفسهم، وهم لا يصنعون شيئًا من ذلك تقريبًا، فإذا وجب البحثُ عن مُرْضِعٍ تركوا هذا للمُوَلِّد، وما يُسفِرُ عن هذا؟ إن أصلحَ مُرضِعٍ هي أحسنُ مَن يُؤَدَّى إليها دائمًا؛ ولذا لا أذهبُ لاستشارةِ مُولِّدٍ بحثًا عن مُرْضِعٍ لإميل، وإنما أُعنَى باختيارِها بنفسي. أجلْ، قد لا أُبرهِن حوْلَها برهنةَ الجرَّاح، ولكني أَسِيرُ عن إخلاصٍ فأكون أقلَّ زَلَلًا بغيرتي مما بطمعه.

وليس هذا الاختيارُ سِرًّا كبيرًا مطلقًا؛ فقواعدُه معروفة، ولكنني لا أعْرِف هل من الواجبِ بَذلُ شيءٍ من الانتباهِ حولَ عُمْرِ اللَّبَنِ وصِفَتِه؛ فاللَّبنُ الجديدُ مائي، ويجب أن يكون مُلَيِّنًا تقريبًا للتخلُّصِ من بقيةِ العِقْي[١٩] الكثيف في أمعاءِ المولودِ حديثًا، ويَتخثَّر اللبنُ شيئًا فشيئًا، فيتألفُ منه غذاءٌ أكثرُ جمودًا لدى الولدِ الذي يصبح أقوى على هضمه. وليس من العبث، لا ريب، أن تغُيِّرَ الطبيعةُ في الإناثِ من كلِّ نوعٍ كثافةَ اللبنِ وَفْقَ عُمُرِ الرَّضيع.

إذن لا بدَّ للمولود حديثًا من مُرْضِعٍ وَضعتْ حديثًا، وأعرِف أن هذا صعب، ولكنه إذا ما خُرِج من النظامِ الطبيعيِّ اعترضتِ المصاعبُ في سبيلِ كلِّ ما هو حسنُ الصُّنْع، وصُنْعُ السُّوءِ هو السَّبيلُ الوحيدُ السَّهل، وهو أكثرُ ما يُختارُ أيضًا.

ويجب أن تكونَ المُرضِعُ سالِمةً قلْبًا وبدَنًا، ويُمكِنُ عدمُ اعتدالِ الميولِ أن يُفسدَ اللَّبنَ كما يُمكِنُ عدمَ اعتدالِ الأمزجة. وهذا إلى أن الاقتصارَ على الناحيةِ البدنيةِ في ذلك يعني رؤيةَ نصفِ الموضوعِ فقط، وقد يكون اللَّبَنُ صالحًا والمُرْضِعُ فاسدة؛ فالخُلُقُ الصالحُ أمرٌ جوهريٌّ كالمِزاجِ الصالح، وإذا ما اتُّخِذَت امرأةٌ فاسدةٌ فإنني لا أقول إن رضيعَها يكتسبُ عيوبَها، وإنما أقول إنه يعانيها؛ أَوَلَيستْ مُلزَمةً نحوه، مع لبنِها، بالعنايةِ التي تستلزِمُ غيرةً وصَبرًا ورِفقًا ونظافة؟ إذا ما كانت نَهِمةً مِبْطانًا لم تَلْبَث أن تُفسِد لَبَنها، وإذا ما كانت مُهْمِلةً أو غَضُوبًا فما يكون تحت رحمتِها حالُ تُعِسٍ مسكينٍ لا يمكنه الدفاعُ عن نفسِه أو شكايةُ أمْرِه؟ لا يَصْلُح الخبثاءُ لصالح.

ويكون اختيارُ المُرْضِعِ عن عدمِ وجودِ مُرَبِّيةٍ للرَّضِيعِ غيرِها من الأهميةِ كوجوبِ عدمِ وجودِ مُعلِّمٍ له غيرِ مُرَبِّيه، وكانت هذه عادةَ القدماءِ الذين هم أقلُّ برهنةً وأكثرُ حكمةً مِنَّا؛ فما كانت المَراضِع، بعد رَضاعةِ الأولادِ من جنسهن ليتركنهن، وهذا هو السببُ في كونِ

[١٩] العِقْي: شيءٌ لَزِجٌ أسودُ يخرج من بطنِ المولودِ قبلَ أن يأكل.

معظمِ النَّجيَّات في رواياتهن التمثيلية من المَراضِع، ومن المتعذرِ أن يكون الولدُ الذي تتعاقبه أيدٍ مختلِفةٌ حسنَ التنشئة؛ فهو يقوم عندَ كلِّ تغييرٍ بقياساتٍ خفيةٍ تؤدي في كلِّ حينٍ إلى تقليلِ احترامِه لِمَن يُرَبُّونه، وإلى نقصِ سلطانِهم عليه من حيث النتيجة. وإذا ما فُكِّر مرةً في وجودِ أناسٍ كِبارٍ لا يفوقون الأولادَ عقْلًا زال كلُّ ما للسنِّ من سلطانٍ، وحَبِطت التَّربية. ولا يجوزُ أن يَعرِفَ الولدُ مَن يَسمُو أباه وأمَّه، أو مُرضِعَه ومُرَبيَه عند عدمِ وجودهما، حتى إن هذين الاثنَين أمرٌ كثير، ولكنه لا مفرَّ من هذا التقسيم، وكلُّ ما يُمكِن صُنْعه لتلافيه هو أن يكون الجنسان اللذان يُرَبِّيانه من الاتفاقِ ما يكونان معه واحدًا بالنسبة إليه.

ويجبُ أن تعيش المُرْضِعُ بما هو أيسرُ بعضَ اليُسر؛ فتتناول من الأغذيةِ ما هو أكثرُ إقاتةً إلى درجةٍ ما، ولكن على ألَّا يُغيِّرَ طرازَ العيشِ تغييرًا تامًّا؛ وذلك لأن التغييرَ السريعَ الجامعَ أشدُّ خطرًا على الصحةِ دائمًا ولو كان من الأدنى إلى الأحسن. وما فائدةُ حمْلها على تغييرِ نظامِها المعتادِ ما دام قد تَركها، أو جعلها سليمةً صحيحةَ البِنية؟

وتأكلُ القَرَوياتُ قليلَ لحمٍ وكثيرَ خُضَرٍ خِلافًا لنساءِ المدن، ويظهر أن هذا النظامَ النباتيَّ أعظمُ نفْعًا من ضَرِّه لهن ولأولادهن، وهنَّ إذا ما كان لهن رُضَّعٌ من البُرْجوازية أُعْطين سلائقَ مع اللحمِ اعتقادًا بأن المَرقَ والحَسَاءَ يَجْعلان أصلحَ كَيْلُوسٍ وأغزَرَ لبنٍ فيهن، ولا أرى هذا الرأيَ مطلقًا؛ فقد علَّمتنا التجارِبُ أن الأولادَ الذين يُرضَعون على هذا الوجهِ يكونون عُرْضةً للمَغْص والدُّودِ أكثرَ من الآخرين.

وليس في ذلك ما يُثيرُ العجبَ مطلقًا، ما دامت المادةُ الحيوانيةُ تَزدَحِم دودًا عند التعفُّن، وهذا ما لا يطرأ على المادةِ النباتيةِ هكذا. ويُعَدُّ اللبنُ مادةً نباتية وإن كان يُهيَّأ في جسم الحيوان،[٢٠] ويَدُلُّ تحليله على هذا، وذلك أنه يتحوَّل بسهولةٍ إلى حامض، وهو يُسفر كالنباتات عن ملحٍ متعادلٍ بعيدًا من إبرازه أيَّ أثر من القلويات الطيارة التي تنشأ عن المواد الحيوانية.

ولبنُ الأنثى من أكَّالةِ الأعشابِ أحلى من لبنِ آكلةِ اللحومِ وأكثرُ ملاءمةً للصحة، وهو إذ يتألَّف من مادةٍ مماثلةٍ لخاصتها فإنه يكون أحسنَ محافظةً لطبيعته وأقلَّ عُرضةً

[٢٠] تأكل النساء خبزًا وخضرًا وألبانًا، وتأكل إناثُ الكلابِ والهررة من ذلك أيضًا، وكذلك الذِّئبات ترعى، وهذه هي العصارة النباتية في لبنها، وبقي علينا أن نبحث في لبن الأنواع التي لا يمكن أن تتغذَّى بغيرِ اللحمِ على الإطلاق إذا وُجِد منها، وهذا ما أشكُّ فيه.

للعفن. وإذا نُظر إلى الكميةِ وُجِدَ — كما يَعلَمُ كلُّ واحد — أن الموادَّ النشويةَ تُنتِج دمًا أكثرَ مما يُنتج اللحم؛ ولذا وجبَ أن تُنتِج لبنًا أكثرَ مما يُنتج. ولا أرى أن الولدَ الذي لا يُفطم عاجلًا، والذي لا يُفطم إلا مع أغذيةٍ نباتية، والذي لا تعيشُ مُرْضِعه إلا من النبات، يكون عُرضَةً للدودِ مطلقًا.

ومن الممكن أن تُسْفِر الأغذيةُ النباتيةُ عن لبنٍ أكثرَ حُموضة، ولكنني بعيدٌ كثيرًا من عَدِّ اللبنِ الحَمْضِيِّ غذاءً غيرَ صحي؛ وذلك أنك تجدُ أممًا بأسْرِها على أحسنِ حالٍ مع أنها لا تغتذي بغيره، وأن الوعاءَ الماصَّ محضُ خداعٍ كما يلوح. وتُوجَد أمزجةٌ لا يلائمها اللبنُ مطلقًا، ولا تجدُ ماصًّا يجعله أمرًا محتملًا، وتوجد أخرى تحتمله بلا ماصَّات. ويُخشَى اللبنُ الرائبُ أو الخاثر، وهذه حماقة؛ وذلك أن اللبنَ يرُوب في المَعِدةِ دائمًا، وهكذا فإنه يغدو غذاءً قويًّا للأولادِ وصغارِ الحيوان، وهو إذا لم يَرُبْ مضى من غيرِ أن يُغذِّيَهم.[٢١] ومن العبثِ مَذْقُ[٢٢]* اللبنِ على ألفِ وجهٍ واستعمالُ ألفِ ماص؛ فمن يشربُ اللبنَ يَهْضِم الجُبن، وهذه قاعدة لا استثناءَ لها، وتُعَدُّ المَعِدة من حُسنِ التكوينِ لِتَخْثيرِ اللبنِ ما تُؤْخَذ الرَّوْبةُ معه من كَرِشِ العِجْل.

ولذلك أرى أنه يكفي إعطاءُ المَراضِع غذاءهن المعتاد، على أن يكون وافرًا وأحسنَ اختيارًا بدلًا من تغييره، ولا تكون الخُضَرُ عَسِرَةَ الهضمِ عن طبيعةٍ غذائية، بل تعليلُها بالتوابل هو الذي يجعلها وخيمة، فأصلِحوا قواعدَ طهايتكم واجتنبوا القَلْي، وأبعِدوا الزُّبدَةَ والملحَ والألبانَ من النار، ودَعُوا خُضَرَكم تُطبَخ بالماء، ولا تُعلِّلوها بالتوابل إلا عند إحضارِها إلى المائدةِ ساخنة، وهنالك لا تُزْعَج المُرضِعُ بالخُضَر، وهنالك تُزوِّدها الخُضَر بلبنٍ وافرٍ ومن نوعٍ جيد.[٢٣] وإذا ما عُرِفَ أن الطعامَ النباتيَّ أصلحُ طعامٍ للولد، فكيف يكون الطعامُ الحيوانيُّ أصلحَ طعامٍ للمُرْضِع؟ ينطوي هذا على تناقُض.

[٢١] يجب استخراجُ العصارات التي تغذِّينا من الأغذيةِ الجامدة وإن كانت مائعة؛ فالرجل العامل الذي لا يعيش إلا من الحَسَاء يضنَى بسرعة، وهو يكون باللبنِ أحسنَ صحة؛ لأن اللبنَ يَخْثُر.

[٢٢] * مذق اللبن: مزجه بالماء.

[٢٣] على مَن يَودُّ أن يناقشَ في فوائدِ النظامِ الفيثاغوري ومضارِّه أن يراجعَ رسائلَ الدكتور كوشي وخَصْمه الدكتور بيانكي حول هذا الموضوع المهم.

ويُؤثِّر الهواءُ في بِنيةِ الأولادِ في السِّنين الأُولى من حياتِهم على الخصوص؛ فالهواءُ في جِلدٍ رقيقٍ ناعمٍ يَنفُذُ من جميعِ المسامِ فيؤثِّر في هذه الأجسامِ الناشئةِ تأثيرًا قويًّا ويتركُ فيها من الآثارِ ما لا يزولُ أبدًا؛ ولذلك فإنني لستُ من القائلين بأن تُؤخَذَ قَرويةٌ من قريتها حبسًا لها في غرفةٍ بالمدينةِ وحَملًا لها على إرضاعِ الولدِ في منزله، وإنما أُفضِّلُ أن يُرسَلَ الولدُ إلى الأريافِ ليستنشقَ فيها هواءً صالحًا على تَنشُّقِهِ هواءَ المدينةِ الوخيمَ، وهو يقتبسُ حالَ أمِّه الجديدةِ، ويَسكُن منزلها الريفي ويتبعه مُربِّيه هنالك، وسيذكرُ القارئُ جيِّدًا أن هذا المُرَبِّيَ ليس رجلًا مأجورًا، بل صديقٌ للأب، وسيُقال لي ما يُصْنع إذا كان هذا الصديقُ غيرَ موجود، أو كان هذا الانتقالُ غيرَ سهل، أو إن ما تُشيرُ به غيرُ يسير؟ لقد قلتُ لكم أن تفعلوا ما تفعلون، فلا ضرورةَ إلى نصيحةٍ في هذا.

ولم يُخلَق النَّاسُ ليُكدَّسوا كقريةِ النملِ في المدن، بل لينتشروا في الأرضِ التي يجب عليهم أن يزرعوها، وهم كلَّما احتشدوا فَسَدُوا. وتُعَدُّ عاهاتُ الجسمِ وآفاتُ الرُّوح نتيجةً لازمةً لهذا الازدحامِ البالغ. والإنسانُ أقلُّ الحيواناتِ قدرةً على العيشِ قِطاعًا، والنَّاسُ إذا ما تجمَّعوا كالضأنِ هلكوا سريعًا، ونَفَسُ الإنسانِ مُبيدٌ لأمثاله، وهذا صحيحٌ حقيقةً ومجازًا.

والمُدُن هُوَّةُ النوعِ البشري، فإذا ما انقضت بضعةُ أجيالٍ هلكت العروقُ أو انحطت، فيجب تجديدُها، والأريافُ هي التي تؤدي إلى هذا التجديد؛ ولذا أرْسِلوا أولادَكم ليتجددوا بأنفسهم ويستردُّوا بين الحقولِ ما يُفقَد من قوةٍ في الأماكنِ الوبيلةِ الزاخرةِ بالسكان. ويُسرِع النِّساءُ الحواملُ اللائي هن في الأريافِ إلى منازلهن في المدنِ حتى يضعن، مع أن العكس هو ما يجب أن يفعلنه، ولا سيَّما اللاتي يُردِن إرضاعَ أولادهن، وعليهن أن يأسَفن أقلَّ مما يتصورن؛ فالملاذُّ في المُقَامِ الأقربِ إلى طبيعةِ النوع، والملاذُّ المرتبطةُ في واجبات الطبيعة، لم تلبثْ أن تَنزِع منهن كلَّ ما لا يلائمها من ذوق.

وأَوَّلُ ما يُصنَع في الولدِ بعد أن يُوضَع هو أن يُغْسَل بماءٍ فاترٍ ممزوجٍ بالخمْرِ عادة. ويلوح لي أن هذه الخمرَ الإضافيةَ غيرُ ضرورية؛ فبما أن الطبيعةَ لا تُنتِج شيئًا مختمرًا فإنه لا يوجد ما يحمِل على الاعتقادِ بأن استعمالَ سائلٍ مصنوعٍ يهمُّ حياةَ مخلوقاتها.

ولِعَيْن العلةِ يكون هذا الاحتياطُ لتفتيرِ الماءِ غيرَ ضروريٍّ أيضًا. والواقع أن أممًا كثيرةً تَغْسِل المواليدَ حديثًا في الأنهارِ أو في البحرِ بلا تكلُّف، بَيْدَ أن أولادَنا المُنعَمِين قبْلَ أن يُولَدوا، عن تَرفِ الآباءِ والأمهات، يأتون حين ولادتِهم بِبِنيةٍ فاسدةٍ مُقدَّمًا؛ فلا ينبغي أن تُعرَّضَ

في البُداءةِ لجميعِ التجارِب التي تعود بها إلى الصحة. ولا يُمكن أن يُرَدَّ الأولادُ إلى القوةِ الابتدائيةِ إلا بالتدريج. وابدءوا إذن باتِّباعِ العادةِ في بدءِ الأمر، ولا تبتعدوا عنها إلا مقدارًا فمقدارًا. واغسِلوا الأولادَ غالبًا؛ فقذارتُهم تدلُّ على ضرورةِ الغُسل، وإذا ما اقتُصِرَ على مسْحِهم خُدِشوا، ولكنهم كلَّما اشتدُّوا نَقصتم فتورَ الماءِ حتى تتمكَّنوا في نهايةِ الأمرِ من غسْلهم بالماء البارد، وبالماء الجامد أيضًا، سواءٌ أفي الصيف أم في الشتاء. ويقضي اجتنابُ الخطرِ بأن يقعَ هذا النقصُ على مَهْلٍ وبالتعاقُبِ وعلى وجهٍ غيرِ محسوس، ويُمكن استخدامُ ميزانِ الحرارةِ لقياسه تمامًا.

وعادةُ الاستحمامِ هذه إذا ما استقرَّت وجبَ ألَّا تُقطع، ويُقتَضى أن يُحتَفظَ بها مدى الحياة، ولا أَعُدُّها بجانبِ النظافةِ والصحةِ الحاضرةِ فقط، بل أَعُدُّها أيضًا احترازًا نافعًا لجعْلِ العَضَلِ أكثرَ مرونةً ولِجعْلِ هذه العَضَلِ تُواجِه مختلِفَ درجاتِ الحرارة والبرودة بلا جهدٍ ولا خطرٍ. وأودُّ للوصول إلى هذا أن يُتَعوَّدَ، مع النشوءِ وبالتدريج، الاغتسالُ في المياهِ الحارةِ ضِمنَ جميعِ الدرجاتِ المحتملة أحيانًا، وفي المياه الباردة ضمنَ جميعِ الدرجاتِ الممكنةِ غالبًا. وهكذا فإننا بعد أن نتعوَّد احتمالَ مختلِفِ درجاتِ حرارةِ الماءِ الذي هو سائلٌ أشدُّ كثافة، فيمَسُّنا في أكثرِ ما يُمكِنُ من النِّقاطِ ويعْظُم إيلافُنا له، نَغدو غيرَ متأثرين بدرجاتِ الهواء.

وإذا ما خرجَ الولدُ من أغشيته وتنفَّس؛ فلا تسمحوا بحصْره في أُخرى بما هو أوْثَق؛ فلا كُمَّةَ ولا لفائفَ ولا قُمُطَ، بل حزائمُ متدليةٌ واسعةٌ تَدَعُ جميعَ أعضائِه طليقة، فلا تكون من الثِّقلِ ما تَعُوق معه حركاته، ولا من الدِّفءِ ما تَحُولُ معه دونَ شعورِه بتأثيرِ الهواء.[٢٤] وضَعُوه في مهْدٍ كبيرٍ[٢٥] محشوٍّ مُشَاقةً[٢٦]* حيث يستطيع أن يهتزَّ بسهولةٍ وبلا خطر. وهو إذا ما أَخذ يتقوَّى فدَعُوه يزحفُ في الغرفةِ ويَنشُر أعضاءه الصغيرة ويَبْسُطها،

[٢٤] يغُص الأولادُ في المدنِ نتيجةَ إمساكهم محصورين مسربلين، وعلى مَن يقومون بأمرِ تربيتهم أن يَعْرِفوا أن الهواءَ الباردَ يقوِّيهم بدلًا من أن يضرَّهم، وأن الهواءَ الحارَّ يُضْعِفهم ويُوقِعهم في الحُمَّى ويقتلُهم.

[٢٥] قلتُ «مهدًا» مستعمِلًا هذه الكلمةَ الدارجةَ لعدم وجود غيرها، وذلك مع اعتقادي أنه ليس من الضروري مطلقًا أن يُهدهَد الأولادُ لما تنطوي هذه العادةُ عليه من إضرارهم غالبًا.

[٢٦] * المُشَاقَة: ما سقط من الكتانِ ونحوه بعد مشقه بالمِمْشقة. والمِمْشقة شيء كالمشط لمشقِ الكتانِ ونحوه حتى يَخلُص خالصُه وتبقى مُشاقَتُه.

وهنالك تَروْنه يشتدُّ يومًا بعد يوم، ولو قابلتم بينه وبين ولدٍ من لِدَاتِه مُقمَّطٍ جيِّدًا لعجبتم من اختلافِ نشوئهما.[٢٧]

ولا بُدَّ من توقُّع اعتراضاتٍ كبيرة من قِبَل المَراضع اللائي يَجِدن الولدَ المقيَّد أقلَّ إتعابًا من الولدِ الذي يجب أن يُرقَب بلا انقطاع، وذلك إلى أن قذارته تكون أكثرَ ظهورًا في ثوبٍ مكشوف، فيجب أن يُنظَّف دائمًا. والواقع أن العادةَ دليلٌ لا يُرَدُّ في بعض البلدان على حسَب أفراد جميع الطبقات.

ولا تُبرهنوا مع المَراضعِ مُطلقًا، وأمُرُوا، ورَوا التَّنفيذ، ولا تدَّخروا وُسعًا في تبسيط العنايةِ التي تفرضونها عملًا، ولِمَ لا تشاطرونها؟ لا تَرى في الأغذيةِ المعتادة، حيث لا يُنظَر إلى غيرِ البدن، أهميةً للبقية مطلقًا إذا ما عاشَ الولدُ ولم يَهْلِك قَطُّ. وأمَّا هنا، حيث التَّربيةُ تبدأ مع الحياة، فإن الولدَ حينما يُولد يكون تلميذًا للطبيعة لا للمُرَبِّي، ولا يصنعُ المُرَبِّي إذ يخضعُ لهذا المُعلِّم الأوَّل، غيرَ الدرسِ ومنعِ مخالفةِ مناحيه، وهو يرْقُب الرضيعَ ويلاحظه ويتتبعه، وهو يرصد منتبهًا أوَّلَ وميضٍ من إدراكه الضعيف، كما يرْصُد المسلمون دقيقةَ ظهورِ الهلال.

[٢٧] «كان القدماءُ من أهلِ بيرو يتركون ذُرعانَ الأولادِ طليقةً في قماطٍ فضفاض، فإذا ما أخرجوهم منه وضعوهم طُلقاءَ في حفرةٍ مجهزةٍ بنسائجَ حيث يُنزِلونهم حتى نصف الجسم. وهكذا فإن ذُرعانَ الأولادِ تكون طليقةً ويستطيعون تحريكَ رءوسِهم وحنوَ أجسادهم كما يريدون من غيرِ أن يسقطوا ويؤذوا أنفسهم. وإذا ما استطاعوا أن يتقدموا خطوةً عُرض الثدي عليهم من بعيدٍ كطُعْمٍ حمْلًا لهم على المشي. ويكون صغار الزنوج أحيانًا في وضْعٍ أكثرَ مشقةً للرَّضاعة، وذلك أنهم يشتملون على إحدى وَرِكَي الأمِّ بِرُكَبِهم وأيديهم، وهم يبلغون من شدِّها ما يلتصقون بها معه من غيرِ استعانةٍ بذراعَيها، وهم يمسكون الثَّديَ بأيديهم فيمتصونه باستمرارٍ ومن غيرِ زَعَجٍ وسقوط. وعلى الرغم من مختلف الحركات التي تأتيها الأم وهي تشتغل في تلك الأثناء حسَب عادتها. ويبدأ هؤلاء الأولاد بالمشي منذ الشهر الثاني، وإن شئتَ فقُل بالزحف على الرُّكَب والأيدي، وهم يكتسبون بهذا التمرين فيما بعدُ سهولةً في الركض السريع، وهم على هذا الوضع، كما لو كانوا يَعْدُون على أرجلهم» (التاريخ الطبيعي، جزء ٤، ملزمة ١٢، صفحة ١٩٢).

وكان يمكن مسيو دو بوفون أن يضيف إلى هذه الأمثلة مثالَ إنكلترة؛ حيث عادة القِمَاط الوحشية المخالفة للصواب تزول يومًا بعد يوم. وانظر أيضًا إلى «رحلة إلى سيام» لـ «لوبير»، وإلى «رحلة إلى كندا» لـ «مسيو لابو» ... إلخ. وكان يمكنني أن أملأ عشرين صفحةً مستشهدًا لو كنت محتاجًا إلى إثبات ذلك بالوقائع.

ونُولَدُ قادرين على التعلُّم، ولكن غيرَ عارفين شيئًا، غيرَ عالمين شيئًا، وإذ تكون الرُّوحُ مقيدةً بأعضاءٍ ناقصةٍ نصفِ مُكوَّنة، فإنها لا تكون شاعرةً حتى بوجودِها الخاص، وتكون حركاتُ المولودِ حديثًا وصرخاتُه معلولاتٍ آليةً مَحْضًا خاليةً من المعرفة والإرادة.

ولْنفرضْ أن ولدًا كانت له حين ولادته قامةُ رَجلٍ وقوَّته، وأنه خرجَ من بطْنِ أمِّه تامَّ العُدَّة كما خرج بلَّاسُ من دماغِ جُوبيتر، فهذا الرجلُ الولدُ يكون كاملَ البلاهة، يكون نُصْبًا متحرِّكًا وتمثالًا جامدًا فاقدَ الحِسِّ تقريبًا، فلا يرى شيئًا ولا يسمع شيئًا ولا يَعْرِف أحدًا، ولا يستطيع أن يُدير عينيه نحو مَن يحتاجُ إلى رؤيته، ولا يُدرك شيئًا خارجَ نفْسه، فضلًا عن أنه لا يأتي بشيءٍ إلى عضو الإحساسِ الذي يُشعِره به، ولا تكون الألوانُ في عينيه مطلقًا، ولا تكون الأصواتُ في أذنيه مطلقًا، ولا تكون الأجسامُ التي يَمَسُّها على جسمه، حتى إنه لا يعلم أنَّ له جِسمًا منها، وتكون ملامسةُ يديه في دماغه، وتجتمع جميعُ إحساساته في نقطةٍ واحدة، ولا يكون موجودًا في غيرِ مركز الحواس، ولا يكون له غيرُ فكرةٍ واحدة، غيرُ فكرة الذات التي يَرُدُّ إليها جميعَ إحساساته، وتكون هذه الفكرةُ أو الشعورُ كلَّ ما لديه أكثرَ من ولدٍ عاديٍّ.

ولا يَعرِف هذا الرجلُ المكوَّنُ دفعةً واحدةً أن يقف على رجليه أيضًا، ولا بدَّ له من مرورِ زمنٍ طويلٍ حتى يتعلَّم الوقوفَ معتدِلًا، ومن المحتملِ ألَّا يحاول هذا، فترَوْا هذا الجسمَ الكبيرَ القويَّ العُصْلُبيَّ يبقى حيث هو كالحجر، أو يزحف ويحبو كالجَرْو.

وهو يَشعُر بما في الحاجاتِ من زَعْجٍ من غيرِ أن يَعْرِفَها ومن غيرِ أن يتمثَّل أيَةَ وسيلةٍ لقضائها، ولا يوجد أيُّ اتصالٍ مباشرٍ بين عَضَل المَعِدة وعَضَل الذراعين والساقين يَدفعه، حتى عند إحاطته بالأغذية، إلى التقدُّمِ خطوةً ليدنوَ من هذه الأغذيةِ أو لِيَمُدَّ يدَه إليها ليتناولها. وبما أن بدنه كان على أتمِّ نُموِّه، وبما أن أعضاءه كانت على أكملِ نشوئها، فلا يكون فيها من حيث النتيجةُ ما في الأولادِ من تبرُّمٍ وحركاتٍ دائمة؛ فإنه قد يموت جوعًا قبل أن يتحرَّك طلبًا لقُوتِه. ومهما يكن من تأمُّلٍ قليلٍ حولَ نظامِ معارفنا وتقدُّمها، فإنه لا يمكنُ أن يُنكَرَ أن هذه تقريبًا، هي حالُ الجهلِ والبَلَهِ الطبيعيةِ في الإنسانِ قبْلَ أن يتعلَّم شيئًا من التجربة أو من أمثاله.

وتُعرَف إذن — أو يُمكن أن تُعرَف — النقطةُ الأُولى التي ينطلق منها كلُّ واحدٍ مِنَّا ليبلُغ درجةَ الإدراكِ العامة، ولكنْ مَن ذا الذي يَعْرِفُ الحدَّ الآخر؟ يتقدَّم كلُّ واحدٍ تقريبًا وَفْق ذكائه وذوقِه واحتياجاتِه ومواهبِه وغَيْرتِه وما يُتاح له من فُرَصٍ لممارستها، ولا أعْرِف

فيلسوفًا بَلَغ من الجرأةِ ما يقول معه: هذا هو الحدُّ الذي يمكنُ الإنسانَ أن يَصِل إليه فلا يستطيع مجاوزتَه. ونجهلُ ما تسمح طبيعتُنا أن نكونه، ولم يقِسْ أحدٌ مِنَّا ما يمكنُ أن يكونَ بين إنسانٍ وآخَر من فَرْق. وأيَّةُ نفسٍ ضعيفةٍ لم يُنعشها الفكرُ الآتي، ولم يخامِر زهْوهَا أحيانًا، وهو: ما مقدارُ ما صنعتُ؟ وما مقدارُ ما يمكنني أن أصنع؟ ولِمَ يسيرُ نظيري إلى ما هو أبعدُ مما أسير؟

وأقول مكرِّرًا إن تربيةَ الإنسانِ تبدأُ عند ولادته، وإنه يتعلَّم قبْلَ أن يتكلمَ أو يفهم، وتسبق التجرِبةُ الدروسَ، ويكتسبُ الإنسانُ كثيرًا قبل أن يَعْرِف مُرْضِعه. ومما يُلقي الحيرةَ فينا معارفُ أجلفِ النَّاس إذا ما تَعقَّبْنا تقدُّمَه من ساعةِ ولادتِه حتى الساعةِ التي انتهى إليها، وإذا ما قَسَمْنا جميعَ علمِ الإنسانِ إلى قسْمَين، فقلنا إن أحدهما مشتركٌ بين جميع النَّاس وإن الآخر خاصٌّ بالعلماء؛ وجدْنا أن هذا صغيرٌ جِدًّا بالنسبة إلى الآخر، ولكننا لا نفكِّر في المكتسباتِ العامة مطلقًا؛ وذلك لأنها تتمُّ من غيرِ أن تخطُر ببالٍ، وتقع قبلَ سنِّ التمييز، وذلك إلى أن المعرفةَ لا تُلاحَظ إلا بفروقِها، وأن المقاديرَ لا يُفطَن إليها كما في المعادلات الجبرية.

حتى إن الحيواناتِ تكتسبُ كثيرًا، وللحيوانات حواسُّ، فيجب أن تعرِف كيف تستعملها، ولها احتياجاتٌ، فيجب أن تعرِف كيف تقضيها، ويجب أن تَعْلَم كيف تأكلُ وتمشي وتطير، ولا تستطيع ذواتُ الأربعِ التي تقفُ على قوائمها منذ ولادتِها أن تمشي لهذا السبب، ويُرَى عند خُطُواتها الأُولى أن هذه تجارِبُ يُعْوِزُها الثباتُ، ولا تَعرِف النِّغْران[٢٨*] التي تَمْلَصُ من أقفاصِها أن تطيرَ مطلقًا؛ لأنها لم تَطِرْ قَطُّ، ويتعلَّم كلُّ ذي حياة وحسٍّ، ولو كانت للنباتات حركةٌ تقدميةٌ لوجب أن تكون ذاتَ حواسَّ، وأن تنالَ معارفَ وإلا لهلكت الأنواعُ من فَوْرها.

وإحساساتُ الأولادِ الأُولى عاطفيةٌ صِرفًا؛ فهم لا يُدرِكون غيرَ اللذةِ والألم، وهم إذ كانوا لا يستطيعون أن يمشُوا أو يُمسكوا؛ يحتاجون إلى كبيرِ وقتٍ حتى يتمَّ لهم من الإحساسِ التصويري بالتدريج ما يُبدي لهم الأشياءَ خارجَ أنفسهم، ولكن ريثما تنبسط هذه الأشياءُ وتبتعد عن عيونهم وتتخذ أبعادًا وصورًا بالنسبة إليهم، يأخذ رَجْعُ الإحساساتِ العاطفيةِ في إخضاعهم لسلطانِ العادة، وتُرى عيونُهم تتوجَّه إلى النورِ بلا انقطاع، فإذا جاءهم منحرفًا

---

٢٨ * النِّغْران: جمْع النُّغَر، وهي فِراخُ العصافير.

اتجهت نحوَه اتجاهًا غيرَ محسوس؛ ولذا يجب أن يُنتَبَه إلى مقابلةِ وجوههم للضياء حتى لا يصبحوا حُولًا أو لا يتعوَّدوا النظرَ عن عُرْض، ويجب أيضًا أن يتعوَّدوا الظلامَ باكرًا، وإلا بَكَوْا وصاحُوا فوْرَ وجودِهم في الظَّلماء. ويُصبح الغذاءُ والنومُ عند قياسهما بالضبطِ أمرَين ضروريَّين في فواصلَ منتظمة، ولا تلبث الرغبةُ أن تأتي من العادة لا من الحاجة، وإن شئت فقُل إن العادةَ تضيف احتياجًا جديدًا إلى الحاجة الطبيعية؛ فهذا ما يجب تداركه.

والعادة الوحيدة التي يجب أن يُسمَح بها للولدِ هي ألَّا يأْلَفَ أية عادةٍ كانت، وألَّا يُحمَلَ على ذراعٍ أكثرَ من الأخرى، وألَّا يُعوَّدَ مَدَّ يدٍ أكثرَ من الثانية فينتفعَ بها غالبًا، وألَّا يريدَ الأكلَ والنومَ والعملَ في الساعاتِ عينِها، وألَّا يُطيق عدمَ البقاءِ وحدَه ليلًا أو نهارًا. وأعِدُّوا من بعيدٍ عهدَ حريتِه واستعمالَ قُواه تاركين العادةَ الطبيعيةَ لبدنه، جاعلين إياه في حالٍ يكون بها سيدَ نفْسه، ويعمل في كلِّ أمرٍ وَفْقَ إرادته عندما يُصبِح صاحبَ عزم.

ومتى أخذ الولدُ يَميزُ بعضَ الأشياء من بعضٍ؛ كان من المهمِّ أن يُحسِن الاختيار، ومن الطبيعي أن تقف نظرَه جميعُ الأمورِ الجديدة، وهو يَبلُغ من الشعور بضَعف نفْسه ما يَخشى معه جميعَ ما لا يَعْرِف، وما يكون من عادةِ رؤيةِ الأمورِ الجديدةِ من غيرِ سوءِ تأثيرٍ يُبدِّد هذا الخوف، ومَن يُنشَّأ من الأولادِ في المنازلِ النظيفة حيث لا يكابدون العنكبوتَ مطلقًا؛ يخافون العنكبوتَ، فيلازمهم هذا الخوفُ في كِبَرِهم غالبًا، ولم أرَ قَطُّ فلَّاحًا، رجلًا كان أو امرأةً أو ولدًا، يخاف العنكبوت.

ولِمَ لا تبدأ تربيةُ الولدِ قبل أن يتكلَّم ويفهم إذن ما دام اختيارُه الوحيدُ للأشياء التي تُعرَض عليه يجعله هيَّابًا أو شجاعًا؟ أوَدُّ تعويدَه رؤيةَ الأشياء الجديدة والحيوانات البشيعة الكريهة الغريبة، ولكن بالتدريج ومن بعيد، حتى يألَفها، فيتصرَّف فيها تصرُّفَ الآخرين، وإذا ما أبصرَ في صباه من غيرِ ذُعرٍ ضفادعَ وأفاعيَ وسراطينَ فإنه يُبصِرُ في كِبَره أيَّ حيوان كان من غيرِ نفور، ولا يبقى ما يشمئزُّ منه فيما يرى كلَّ يوم.

ويخاف جميعُ الأولادِ الوجوهَ المستعارة، وأبدأ بإراءةِ إميلَ وجْهًا مستعارًا مليحًا، ثُمَّ يضع بعضُهم هذا القِناعَ على وجهِه أمامه، فأضحك ويضحك جميعُ النَّاس، ويضحك الولدُ كالآخرين، وأُعوِّده الوجوهَ المستعارة الأقلَّ ملاحةً مقدارًا فمقدارًا، ثُمَّ أعوِّده الوجوهَ الكريهةَ في آخرِ الأمر، وإذا ما راعيتُ تدرُّجي وأحسنتُ ما راعيتُ فإنه يضحكُ من القناعِ الأخيرِ ضحكَه من الأوَّل بعيدًا من الذُّعر، وإذا ما حدث هذا عُدت لا أخشى خوفَه من الوجوه المستعارة.

ولمَّا وَدَّعَ هِكتُور أندرُوماك ذُعِرَ أَسْتيَانَكْسُ من الريشِ الذي كان يتموَّج فوقَ خُوذةِ أبيه، فأنكر أباه وارتمى على صدْر مُرْضِعه وهو يبكي، وانتزعَ من أمِّه ابتسامةً ممزوجةً بالدموع، وما كان يجب أن يُصنَعَ لإنقاذه من هذا الفزع؟ أن يُصنَعَ ما فعل هِكتور، فتُوضعَ الخُوذة على الأرض، ويُلاطَف الولد، ولا يُوقَف عند هذا الحدِّ في وقتٍ أكثرَ هدوءًا، بل يُقترَب من الخُوذة ويُلاعَب الريش، ويُحمَل الولدُ على ملامسته، ثُمَّ تتناول المُرْضِعُ الخُوذةَ وتضعُها على رأسها وهي تَضْحك، لو كانت يدُ المرأةِ تجرُؤ على مسِّ أسلحةِ هِكتور.

وإذا ما وجبَ تمرينُ إميلَ على صوتِ سلاحٍ ناريٍّ أشعلتُ بارودًا في طَبنْجة، فيَسُرُّه هذا اللهبُ المفاجئ العابر، هذا النوع من البرْق، وأكرِّر الأمرَ عينَه ببارودٍ أكثرَ من ذاك، وإلى الطبنجة أُضيفُ بالتدريج حشوةً صغيرةً بلا وَبَر، ثُمَّ أُضيف حشوةً أكبرَ من تلك، وأخيرًا أُعوِّده طَلَقات البندقيةِ والأسهمَ الناريةَ والمدافعَ وأفظعَ الانفجارات.

وقد لاحظتُ أن من النادر خوفَ الأولادِ من الرَّعدِ ما لم يكن قصفُه هائلًا مؤذيًا لحاسَّة السَّمْع حقًّا. وهم لا يأتيهم هذا الفَزَعُ إلا حين يعلمون أن الرَّعدَ يجرح أو يَقتل أحيانًا، ومتى بدأ العقلُ يُلقي الرعبَ فيهم، فاجعلوا العادةَ تُسكِّن رَوْعَهم، ويُجعَلُ الرجلُ والولدُ شجاعَين تجاه كلِّ شيءٍ بتدرُّجٍ بطيءٍ مع الحَذَر.

وفي بدْء الحياة، حين تكون الذاكرةُ والمُخيِّلَةُ مُعطَّلتَين، لا يَنتبِه الولدُ إلى غيرِ ما يؤثِّر في حواسِّه فعلًا، وبما أن هذه الإحساساتِ أُولَى موادِّ معارفه، فإنَّ عَرْضَها عليه بنظامٍ ملائمٍ يعني إعدادَ ذاكرته لتقديمها ضمْن ذاتِ النظامِ إلى إدراكِه ذاتَ يومٍ. ولكنْ بما أنه لا يبالي بغيرِ إحساساته فإنه يَكفي أن يُرَى بجلاءٍ ما بين هذه الإحساسات والعوامل التي تُحدِثها من ارتباط. وهو يريد لمسَ كلِّ شيء، وهو يريد استعمالَ كلِّ شيء، فلا تُقاوِموا هذا الاكتراثَ مطلقًا، لِما يُوحي إليه من تَخرُّجٍ ضروريٍّ جِدًّا. وهكذا يتعلَّمُ الشعورَ بحرارةِ الأجسامِ وبرودتِها وخشونتِها ونعومتِها، وثِقَلِها وخِفَّتِها، والحكمَ في حجْمها وصورتها وجميعِ خواصِّها المحسوسة، وذلك بالنظرِ واللمسِ[٢٩] والسمع، ولا سيَّما قياسُه النظرَ على اللمسِ، وتقديرُه بالعين ما يُحِسُّه بأصابعه.

[٢٩] حاسة الشَّم هي آخِرُ ما ينمو من الحواس في الأولاد؛ فالأولاد لا يَحُسُّون الروائحَ الطيبةَ ولا الروائحَ الكريهةَ حتى الثانيةِ أو الثالثةِ من سنيهم كما يلوح، ويشابه الأولادُ من هذه الناحية ما يُلاحظ في حيواناتٍ كثيرةٍ من عدم الاكتراث أو عدم الإحساس.

وليس بغيرِ الحركة ما نعرِف وجودَ أمورٍ لم تكن إيانا، وليس بغيرِ حركتنا الخاصة ما نكتسِب فكرةَ الاتساع. وبما أن هذه الفكرة لم تكن لدى الولد، فإن الولدَ يبسُط يدَه بلا تمييز ليمسِك الشيءَ الذي يَمسُّه أو الشيءَ البعيدَ منه مائة خُطوة. ويبدو لكم هذا الجهدُ الذي يبذله دليلًا على السلطان، أمرًا يُصدِره إلى الشيء حتى يدنوَ، أو يُصدره إليكم حتى تأتوا به إليه، وليس الأمر هكذا، والأمر هو أن الأشياءَ التي يبصرها في دماغه في البُداءة، ثُمَّ على عينيه، يراها الآن في طَرَف ذراعيه، ولا يتصوَّر اتِّساعًا غيرَ الذي يستطيع أن يصل إليه، واعْنَوا إذن بأن تَجولوا به غالبًا، وأن تَنقلوه من موضِعٍ إلى آخَر، وأن تُشعِروه بتغيُّر المكان لكي يتعلَّم الحكمَ في المسافات، ومتى أخذ يَعْرِفها وجبَ تغييرُ المنهاج وعدمُ حمْله على غيرِ ما يَروقكم لا كما يروقه، وذلك أنه إذا عاد لا يُخدَع بالحسِّ غَيَّرَ جُهدُه العلةَ، وهذا التغييرُ جديرٌ بالاعتبار، ويتطلب إيضاحًا.

إن الإشاراتِ تُعبِّرُ عن اضطراب الحاجات عندما يكون عونُ الآخرين ضروريًّا لقضائها، ومن هنا يجيء صراخُ الأولاد، ويبكي الأولادُ كثيرًا، وهذا ما يجب أن يكون. وبما أن جميعَ إحساساتهم عاطفيةٌ فإنها إذا ما كانت مقبولةً تمتَّعوا بها صامتِين، وإذا ما كانت شاقَّةً أبدَوْها بلغتهم وطلبوا تسلية. والواقعُ أنهم عندما يستيقظون لا يستطيعون البقاءَ في حالٍ من عدم المبالاة تقريبًا؛ فهم إمَّا أن يناموا أو أن يشعُروا.

وجميعُ لغاتنا أعمالُ فن، وقد بُحث طويلًا عن وجودِ لغةٍ طبيعية مشتركة بين جميع النَّاس، ولا ريبَ في وجود لغةٍ من هذا الطراز، وهذه هي اللغة التي يتكلَّم بها الأولادُ قبلَ أن يَعْرِفوا الكلام. أجلْ، إن هذه اللغةَ ليست ذاتَ مفاصل، غيرَ أنها ذاتُ نبرات، غير أنها طنَّانة بيِّنة، وما هو واقعٌ من استعمال لغاتنا يحمِلُنا على إهمالها إهمالًا ننساها به تمامًا، ولْندرُس الأولادَ، ولا نلبث أن نتعلَّمها بجانبهم ثانيةً. ويُعَدُّ المَراضِعُ مُعلِّماتٍ لنا في هذه اللغة؛ فهنَّ يسمعن جميعَ ما يقول رُضَّعُهُن، وهنَّ يُجبنَهم، وتقع بينهن وبينهم محاوراتٌ متساوقة كثيرًا، ومهما تكن الكلماتُ التي ينطِقنَ بها فإنه لا طائلَ تحت هذه الكلمات قطعًا؛ فليس معنى الكلمة هو الذي يسمعون، بل النبْرة التي تلازمها.

وإلى لغة الصوتِ تُضافُ لغةُ الإشارة التي لا تُعدُّ أقلَّ مَضَاء، وليست هذه الإشارةُ في أيدي الأولادِ الضعيفة، بل على وجوههم. ومن موجباتِ العَجَب مقدارُ ما يبدو على هذه الوجوهِ غيرِ الناميةِ من تعبيرٍ في ذلك الدور؛ فملامحُهم تتغيَّر بين ثانيةٍ وأخرى بسرعةٍ لا يُمكن تصوُّرُها؛ ففيها تُبصِرون الابتسامةَ والرغبةَ والرهبةَ تَظْهَرُ وتَمرُّ كالبرق، وفي كل مرةٍ تظنون أنكم ترون وجهًا آخَر. ولَعَمْري إنَّ عَضَلَ وجوهِهم أكثرُ تحوُّلًا من عَضَلِ

وجوهِنا، وبالمقابلة لا تَنطِق عيونُهم الكابيةُ بشيءٍ تقريبًا. وهذا ما يجب أن يكون عليه نوعُ حركاتهم في سنٍّ لا يوجد فيها غيرُ احتياجاتٍ بدنيةٍ ما دام التعبيرُ عن الإحساساتِ يكون في القُطُوب، وما دام التعبيرُ عن المشاعر يكون في النظرات.

وبما أن حالَ الإنسانِ الأُولى تقوم على العَناء والضَّعف، فإن أصواته الأُولى تكون أصواتَ عويلٍ وبكاء، ويَشعُر الولدُ باحتياجاته، ولا يستطيعُ قضاءها، فيلتمس عَوْنَ سواه بالصُّراخ. وهو إذا ما جاع أو عَطِشَ بكى، وهو إذا ما بَرَدَ أو صار محرورًا بكى، وهو إذا ما احتاج إلى الحركة وأُمسِكَ ساكنًا بكى، وهو إذا ما أراد النومَ وحُرِّك بكى، وهو كلَّما قلَّ وجهُ راحته طلب تبديله. وليس لديه غيرُ لغةٍ واحدة، وذلك أنه ليس عنده غيرُ نوعٍ واحدٍ من انحراف المِزاج، وذلك أنه لا يُفرِّقُ بين مختلف انفعالات الأعضاء عن عدم كمالها؛ فجميع الأمراض لا تُحدِث فيه غيرَ إحساسٍ واحدٍ بالألم.

وتنشأ أُولى صِلاتِ الإنسانِ بجميعِ ما يحيط به عن تلك الدموعِ التي يُظنُّ أنها لا تستحِقُّ انتباهَكم إلا قليلًا؛ فهنا تُطرَّق الحلْقةُ الأُولى من تلك السلسلةِ الطويلةِ التي يتألَّفُ منها النظامُ الاجتماعي.

ويَنِمُّ بكاءُ الولدِ على اضطرابه، يَنِمُّ على احتياجٍ فيه لا يستطيع قضاءه، ويُرقَبُ هذا الاحتياجُ ويُبحَثُ عنه ويُوجَد ويُتلافى. وهو إذا لم يُوجَد أو إذا لم يُمكِن تلافيه، دامت الدموعُ وزُعِج منها، فيُدَارى الولدُ إسكاتًا له، ويُهدْهَد، ويُرنَّم له لِينام. وهو إذا ما عاندَ وفرغَ الصبرُ هُدِّدَ وضربته المَراضِعُ الشرساتُ أحيانًا. فيا لهذه الدروس الغريبة عند دخوله الحياة!

ولن أنسى ما رأيتُ من ضرْب المُرْضِع لأحدِ هؤلاء البكَّائين المزعِجِين، وكان يسكُتُ من فوْره، فأظن أنه أُخيف، فأقول في نفسي: «إن هذه نفسٌ ذليلةٌ لا يُنال منها شيءٌ بغيرِ العنف.» وكنت مخطئًا في هذا؛ فكان هذا التَّعِس يختنق غيظًا ولا يستطيع أن يتنفَّس، فأراه بنفسجيَّ اللون، وتمضي دقيقةٌ فتخرُج منه صيحاتٌ حادة، فتتجلَّى في نبراته جميعُ علائم غيظ ذلك العُمُر وغضبه ويأسه. وقد خشيت أن تفيض رُوحُه في أثناء هذا الهيجان، ومتى شككتُ في كون حِسِّ العدل والظلم غريزيًّا في قلبِ الإنسانِ كان في ذلك المثال وحدَه ما يُقنعني. ولا ريبَ عندي في أن جذوةً من النارِ إذا ما سقطت مصادفةً على يدِ ذلك الولدِ كانت ذاتَ وقعٍ أقلَّ من تلك الضربة الخفيفة التي أُنزِلت عليه، ولكن مع نيةٍ بيِّنةٍ للإساءةِ إليه.

ويَتطلَّبُ هذا الميلُ في الأولاد إلى الحدة والغضب والهياج مداراةً متناهية. ويرى بُويرْهاف أن معظمَ أمراضهم من فصيلةِ التشنُّجات؛ وذلك لأن الرأس إذ كان في الأولاد أضخمَ مما في البالغين نسبةً، ولأن الجهاز العصبي إذ كان في أولئك أكثرَ امتدادًا مما في هؤلاء؛ فإن النوعَ العصبيَّ في الأولاد يكون أشدَّ استعدادًا للغضب، فاعْنَوا كثيرًا في أن تُقْصُوا عنهم الخدَمَ الذين يزعجونهم ويهيِّجونهم ويُفرغون صبرهم؛ فهؤلاء أشدُّ خطرًا وشؤمًا عليهم مائة مرة من مضارِّ الهواء والفصول، ولا يُصبح الأولاد عُنُدًا ولا غِضابًا، ويكونون أحسنَ صحةً ما داموا لا يجدون مقاومَةً في غيرِ الأشياء، لا في العزائم مطلقًا. وهذا من جملةِ الأسباب في أن أولاد الشعب، إذ كانوا أكثرَ حريةً واستقلالًا، يَبدُون على العموم أقلَّ سَقَمًا وأقلَّ ضَعْفًا وأشدَّ قوَّةً، من أولئك الذين يُزعَمُ أنهم أحسنُ تربيةً بمعاكستهم دائمًا. ولكن ليُذكرْ دائمًا وجودُ فَرْقٍ بين إطاعتهم ومعاكستهم.

ودموعُ الأولادِ الأُولى تضرُّعات، ولا تلبث أن تصيرَ أوامرَ إذا لم يُحترز منها، ويبدأ الأولادُ بأن يُعاوَنوا، وينتهون بأن يُخدَموا. وهكذا ينشأ عن ضَعْفهم في بدءِ الأمر شعورُ انقيادهم، ثُمَّ تنشأ فكرةُ السيطرة والسلطان. ولكن بما أن هذه الفكرةَ أقلُّ هياجًا باحتياجاتهم مما بخِدَمنا؛ فإنه يُبدأ هنا بالشعورِ بالنتائج الأدبية التي ليس سببُها المباشر في الطبيعة. وهكذا يُرى السببُ منذ هذا الدَّورِ الأوَّلِ في وجوبِ تمييز المَقصِد الخفي الذي يُملي الحركةَ أو العويل.

ومتى مَدَّ الولدُ يدَه بجهدٍ من غيرِ أن يقول شيئًا، اعتقدَ أنه يَبلُغ الشيءَ لعدم تقديره المسافة، وهو مخطئٌ في ذلك. ولكن الولد إذا ما توجَّع وصرخ مادًّا يده عادَ لا يُعَدُّ مخطئًا في أمرِ المسافة، وإنما يأمر الشيءَ بالاقتراب، أو يأمركم بأن تَجلُبوه إليه، واحمِلُوه في الحال الأُولى إلى الشيء رُويدًا رُويدًا وبخطًى صغيرة، ولا تَبدوا في الحالِ الثانية أنكم تسمعون صيحاته؛ فكلَّما صرخَ وجبَ أن يقلَّ استماعُكم له. ويجدُر أن يُعوَّدَ باكرًا عدمَ أمرِ النَّاس لأنه ليس سيِّدًا لهم، وعدمَ أمرِ الأشياءِ لأنها لا تَسمعه مطلقًا. وهكذا يجدُر أن يُؤتى بالولدِ إلى الشيء إذا ما رَغِبَ في شيءٍ يراه ويُرادُ إعطاؤه إياه، أكثرَ من أن يُؤتى بالشيء إلى الولد؛ فهو يستنبط من هذه العادةِ نتيجةً ملائمةً لِسنِّه، ولا توجد وسيلةٌ أخرى لتلقينه إياها.

وكان رئيسُ الدير سان بِيير يَدعو الرجالَ أولادًا كِبارًا، وبالمقابلة كان يمكن أن يُسمَّى الأولادُ رِجالًا صِغارًا. ولهذه القضايا حقيقتُها كالأحكام، وهي تحتاج إلى إيضاحٍ كالمبادئ. ولكنَّ هُوبْزَ عندما دعا الشِّريرَ ولدًا قويًّا قال شيئًا متناقضًا على الإطلاق؛ فكلُّ شَرٍّ يأتي

من الضَّعْف، وليس الولدُ شَرِيرًا إلا لأنه ضعيف، واجعلوا الولدَ قويًّا يصبح صالحًا، وذلك أن الذي يقدِر على كلِّ شيء لا يصنعُ الشَّر مطلقًا. وإذا نُظر إلى جميعِ صفات الله القادر وُجِدَ الصلاحُ من صفاته التي يَصعُب تصوُّره بغيرها، وإذا نُظِر إلى جميعِ الأمم التي عَرفت المبدأين وُجِدَ أنها تَعُدُّ الشرَّ دون الخير، وإلَّا لأتت بقضيةٍ مُحالة، وانظروا إلى عقيدة الرسوليِّ السافوِيِّ فيما بعد.

والعقلُ وحدَه هو الذي يُعلِّمنا معرفةَ الخير والشر، ومع أن الشعورَ الذي يَجعَلُنا نحبُّ إنسانًا ونكره الآخَر مستقلٌّ عن العقل؛ فإنه لا يمكن أن ينموَ بغيره إذَن. ونحن نصنعُ الخيرَ والشرَّ قبْل سِنِّ الرُّشد من غير أن نعرِف ذلك، ولا يوجد فضلٌ في أفعالنا مطلقًا، وإن وُجد أحيانًا في شعورِنا بأفعالِ الآخرين الذين لهم صلةٌ بنا. ويَودُّ الولدُ أن يُخِلَّ بكلِّ ما يَرى؛ فهو يكسِر ويُحطِّم كلَّ ما يستطيع أن يصل إليه، وهو يُمسِك الطائرَ كما يُمسِك الحَجر، وهو يخنقه من غيرِ أن يَعْرِف ما يعمل.

ولِمَ هذا؟ أوَّلًا: إن الفلسفة تُسوِّغ ذلك بالعيوب الطبيعية، تُسوِّغه بالزهوِ ورُوحِ السيطرة وحبِّ الذات وسوء الخُلُق، وقد تُضيف الفلسفة إلى هذا كونَ شعورِ الولدِ بضَعْفه يجعله حريصًا على إتيانه أعمالَ قوَّةٍ فيُثبِت لنفسه قدْرته الخاصة. ولكن انظروا إلى هذا الشيخِ العاجز المحطَّم الذي رُدَّ إلى ضَعف الطفولةِ ضِمن دائرةِ الحياة البشرية؛ تجدوا أنه لم يبقَ ساكنًا هادئًا فقط، بل يَودُّ أن يبقى كلُّ شيء حولَه ساكنًا هادئًا أيضًا؛ فأقلُّ تغييرٍ يُزعجه ويُقلقه، وهو يريد أن تَسودَ دَعَةٌ عامة. وكيف يُسفِر عينُ العجزِ المضافِ إلى الأهواء عينِها عن نتائجَ كثيرةِ الاختلاف في الدَّورَين إذا لم يتغيَّر السببُ الأصلي؟ وأين يُمكن أن يُبحَثَ عن اختلاف الأسباب هذا إذا لم يكن في الحالِ البدنيةِ للاثنين؟ ينمو المبدأ الفعَّال المشترك بين الاثنين في أحدهما وينطفئ في الآخر، ويَتصوَّرُ أحدُهما ويتلاشى الآخر، ويتَّجه أحدهما إلى الحياة ويتجه الآخرُ إلى الموت، وتتجمع الفاعليةُ الخائرة في قلبِ الشيخ وتكون الفاعليةُ الغزيرة في قلبِ الولدِ وتمتدُّ إلى الخارج. وهو يشعر بمقدارٍ من الحياة يكفي لإنعاش جميعِ مَن يحيطون به، ولا طائلَ في أن يفعل أو يُبطِل، ويكفي أن يُغيِّر حالَ الأمور؛ فكلُّ تغييرٍ عملٌ، وإذا ما لاح أكثرَ ميلًا إلى الهدمِ لم يكن هذا عن شرٍّ قَطُّ، بل عن كونِ العملِ المُصوِّر بطيئًا دائمًا، وعن كونِ العملِ الهادمِ أحسنَ ملاءَمةً لنشاطه لأنه أكثرُ سرعة.

وبينا يُنْعم صانعُ الطبيعة على الأولاد بهذا المبدأ الفعال، يُعنَى بأن يكون أقلَّ ضررًا، وذلك بتركِه لهم قوةً قليلةً لاستعماله، ولكنهم عندما يَقدِرون على عدِّ الناس الذين يحيطون بهم آلاتٍ يُسيِّرونها؛ فإنهم يستخدمونهم في تنفيذِ رغبتهم والعِوَض من ضَعفهم، وهكذا يَغدون مزعجين باغين متجبرين أشرارًا جامحين. وينشأ التقدُّم الذي لا يأتي من رُوح السيطرة الطبيعي عن الذي يَمنحُهم إياه، وذلك أنه لا يتطلَّب طويلَ تجرِبةٍ أن يُشْعَر بمقدار اللذة في العمل بأيدي الآخرين، وفي عدم الحاجة إلى غيرِ تحريك اللسان لتسيير العالم.

وإذا ما كبُرَ الولدُ اكتسب قوةً وأصبح أقلَّ قلقًا واضطرابًا وأكثر استقلالًا، وهكذا يتوازن الرُّوح والبدن. ولا تطالبنا الطبيعةُ بأكثرَ من الحركة الضرورية لبقائنا، بَيْدَ أن الرغبة في القيادةِ لا تزول مع الحاجةِ التي نشأت عنها؛ فالسلطان يوقِظُ حبَّ الذاتِ ويصانعه، والعادة تقوِّيه، وهكذا يَعقُب الهوى الحاجةَ، وهكذا تكون لمُبتَسراتِ الرأي جذورُها الأُولى.

وإذا ما عُرِف المبدأُ مرةً اتضحت لنا النقطة التي تُترَك منها طريقُ الطبيعة، فلنُبصِرْ ما يجبُ أن يُصنع للبقاء عندها.

ويَبعُد الأولادُ من أن يكونوا ذوي قوةٍ بالغة، حتى إنه ليس عندهم من القوة ما يكفي لِما تطالبهم به الطبيعة؛ ولذا يجب أن يُترَك لهم استعمالُ جميعِ القوى التي تُنعِم الطبيعةُ بها عليهم، فلا يمكِنُهم أن يُسيئوا استعمالَها، وهذا هو المبدأُ الأوَّل.

ويجب أن يُساعَدوا، وأن يُتدارَك ما يُعْوِزُهم من المعرفةِ أو القوة في كلِّ احتياجٍ بدني، وهذا هو المبدأ الثاني.

ويجب أن يُقتَصَرَ في العَوْن الذي يُمَدُّون به على النافعِ الحقيقي، من غير أن يُلبَّى داعِي الهوى أو الرغبةِ بلا سبب؛ وذلك لأن الهوى لا يُزعجهم مطلقًا إذا لم يُحدَث؛ فالهوى ليس من الطبيعة، وهذا هو المبدأ الثالث.

ويجبُ أن تُدرَس لغتُهم وإشاراتُهم بعناية، وذلك لكي يُفرَّق في رغباتهم في سنٍّ لا يَعْرِفون أن يخادِعوا فيها، بين ما يَصْدُر عن الطبيعة مباشرةً وما يَصْدُر عن الرأي، وهذا هو المبدأ الرابع.

وتقوم رُوح هذه المبادئ على مَنْحِ الأولادِ حريةً حقيقيةً كثيرةً وقليلَ سلطان، وأن يُترَك لهم كبيرُ مجالٍ للعملِ بأنفسهم وقليلُ تطلُّبٍ من الآخرين، وهكذا يتعوَّدون باكرًا أن يَقصِروا رغباتهم على قُواهم، فيقلُّ شعورُهم بحرمانهم ما لا يكون ضِمْن طاقتهم.

وهذا إذن سببٌ جديدٌ بالغُ الأهمية لتركِ أجسامِ الأولادِ وأعضائهم طليقةً تمامًا، وذلك على أن يُبعَدوا من الخطرِ والسقوط، وأن يُرَدَّ عن أيديهم كلُّ ما يُمكن أن يؤذيَهم.

ولا مِراءَ في أن الولدَ الطليقَ البدنِ والذراعين يكون أقلَّ بكاءً من الولدِ المشدودِ ضِمن قِمَاط. ولا يبكي الولد الذي لا يَعْرف غيرَ احتياجات البدن ما لم يتوجَّع، وينطوي هذا على فائدةٍ عظيمة؛ وذلك لأنه يُعلَم بذلك متى يَحتاج إلى العَوْن تمامًا، فلا يُتأخَّر ثانيةً عن منحِه إياه جُهدَ الاستطاعة. ولكنكم إذا لم تستطيعوا تسكينَه فابقَوْا هادئِين غيرَ مدارين إياه تسكينًا له، فلا تَشفِيه ملاطفتُكم عن مَغْصه، ومع ذلك فإنه سيَذكُر ما يجب أن يُصنَع ليُصانَع، وهو إذا عَرفَ أن يحمِلَكم على المبالاة به مرةً وَفْقَ ما يريد أصبح سيدكم، وضاع كلُّ شيء.

ويكون الأولادُ أقلَّ بكاءً إذا قلَّت معاكستهم في حركاتهم، وهم إذا ما قلَّ القلقُ من دموعهم قلَّ الألمُ من حمْلهم على السكوت، وهم إذا ما قلَّ تهديدهم أو مداراتهم غالبًا غدَوا أقلَّ جُبنًا أو عنادًا، وظلُّوا أحسنَ وضعًا في حالهم الطبيعية. وتَحدُث الفتوق في الأولادِ ببكائهم أقلَّ مما بالمبادرة إلى تسكينهم، ودليلي على ذلك كونُ الأولادِ المُهمَلين أقلَّ عُرضةً للفَتْق من غيرهم، ومع ذلك تَجِدُني بعيدًا جِدًّا من كلِّ رغبةٍ في إهمالهم، وعلى العكس أرى أن يُجابوا إلى رغبتهم قبْل أن يُعبِّروا عنها، وألَّا تُعلَم احتياجاتُهم بصُراخهم، ولكنني لا أريدُ أن يُبتعَد عن الفطنةِ في العنايةِ بهم. ولِمَ يكونُ من الخطأ بكاؤهم ما داموا يرون دموعَهم صالحةً لنيلِ كثيرٍ من الأمور؟ إذا ما عَلِموا أيُّ ثمنٍ يكون لسكوتهم احترَزُوا من تبديده، وهم يَبلُغون من الغُلوِّ في استغلاله ما لا يُؤدَّى ثمنُه معه في نهاية الأمر، وهنالك يَجِدُّون ويَضْنَوْن ويسكتون عن بكاءٍ بلا جدوَى.

وليست دموعُ الولدِ غيرِ المقيدِ ولا المريضِ والذي لا يُعْوِزُه شيء، ليست دموعُ هذا الولدِ غيرَ دموعِ عادةٍ وعناد، وليست هذه الدموعُ من عمل الطبيعة، بل من عمل المُرْضِع التي لا تطيق ما توجبه من إزعاجٍ فتزيده، وذلك أنه لا يَخطُر ببالها كونُ الولدِ إذا ما أُسكت اليومَ حُرِّض على البكاء غدًا بما هو أكثرُ من ذاك.

والوسيلةُ الوحيدة للشفاء من هذه العادة أو منعِها هو أن يُتغافل عنها، ولا يَودُّ أحد، حتى الأولاد، بذْلَ جُهدٍ على غيرِ جَدْوَى. أجلْ، إنهم يُصِرُّون على محاولاتهم، ولكنكم إذا كنتم أكثرَ عنادًا منهم فترَت هِمتُهم ولم يعودوا إلى ذلك مطلقًا، وهكذا تُوفَّرُ عليهم دموعُهم ويُعوَّدون عدمَ سكبِ شيءٍ منها ما لم يَحْمِلهم الألمُ على ذلك.

ثُمَّ إنهم إذا ما بَكَوْا عن هوًى أو عن عنادٍ كانت الوسيلةُ الوثيقةُ لِمنعِهم من الاستمرار على هذا أن يُلهَوا بشيءٍ مستحَبٍّ مؤثِّرٍ يَنسَون به أنهم يريدون البكاء، ويُجيدُ معظمُ المَراضِع هذا الفنَّ الذي إذا ما أُحسِنَ استعمالُه كان مفيدًا جِدًّا، ولكن من المهم إلى الغايةِ ألَّا يَشعُرَ الولدُ بِنيَّةِ إلهائِه، وأن يَتلهَّى من غيرِ أن يَعتقِد أنه يُفكَّر فيه، وهذا ما يبدو فيه جميعُ المَراضِع غيرَ ماهرات.

ويُفطَمُ جميعُ الأولاد باكرًا، ويُشارُ إلى الوقتِ الذي يجب أن يُفطَموا فيه بِنبْتِ الأسنان، ويكون هذا النَّبتُ شاقًّا أليمًا على العموم، وهنالك يَحمِلُ الولد إلى فمه، متواتِرًا وبغريزةٍ آلية، جميعَ ما يُمسِك لِيَمْضُغَه، ويُرى أن العملَ يَسهُل بإعطائه جسمًا صُلبًا كأُلْهية، وذلك كالعاجِ أو سنِّ الذئب. وأعتقد أن هذا خطأ؛ فالأجسام الصُّلبة إذا ما وُضعت على اللِّثَّات كان من البعيد أن تُلِينها، وإنما تجعلها جاسئةً وتُصلِّبها وتُعِدُّ تَمزُّقًا أشدَّ مشقَّةً وأعظمَ ألَمًا، ولْنتخِذِ الغريزةَ مثالًا دائمًا، فلا تُرى الجِراءُ ممارِسةً أسنانَها النابتةَ على الحَصى أو على الحديدِ أو على العِظام، وإنما تُمارِسها على الخشبِ أو الجِلدِ أو الرِّثاث، وغيرها من الموادِّ اللينة التي تنحني والتي تنطبع عليها السِّن.

ولا نستطيع أن نكون بُسطاءَ في شيء، حتى حَوْل الأولاد. ويا للأجهزةِ غيرِ النافعةِ والضارةِ كالجَلاجلِ الفضية والذهبية والمَرْجانية، وكالبِلَّوْر ذي الوجوهِ، واللُّعَبِ من أيِّ ثمنٍ أو أيِّ نوعٍ كان! لا شيءَ من جميعِ هذا؛ فلا جَلاجلَ ولا لُعَب؛ فله في أغصانِ الشجر الصغيرة مع أثمارها وأوراقها، وله في رأسِ الخَشْخَاش الذي يُسمَع فيه طنينُ الحَب، وله في عِرْق السُّوس الذي يستطيع أن يَمُصَّه ويَمْضُغه؛ أُلهيَّةٌ كما في تلك الأشياءِ الفاخرة، وذلك مع عدمِ اشتمالِها على تعويدِه النفائسَ منذ ولادته.

ومن المعترَف به كونُ الحَساء غِذاءً غيرَ صحيٍّ كثيرًا، وينشأ عن اللبن المغليِّ والدقيقِ غيرِ المطبوخ دَرَن، ولا يلائمان مَعِدَتنا. ويكون الدقيقُ في الحَسَاءِ أقلَّ نَضْجًا مما في الخُبز، فضلًا عن عدمِ اختماره. ويلوحُ لي أن الخبزَ المنقوعَ في ماءٍ وزُبدَة، وقِشْدَةَ الأَرُزِّ أفضلُ من ذاك، وإذا كان لا بدَّ من صُنع حَسَاءٍ كان من الملائم تحميصُ قليلٍ من الدقيق مُقدَّمًا. وفي بلدي يُصنع من الدقيقِ المُحمَّصِ هكذا حَسَاءٌ لذيذٌ جِدًّا، صحيٌّ جِدًّا، وكذلك مَرَقُ اللحمِ والثَّريدُ غذاءٌ متوسط؛ فلا ينبغي اتخاذهما إلا قليلًا ما أمكن، ومن المهم أن يتعوَّد الأولادُ المضغَ في البُداءة، وهذه هي الوسيلةُ الحقيقيةُ لتسهيلِ نَبْتِ الأسنان؛ فمتى أخذ الأولادُ يَبْلَعون سَهَّلت الهضمَ عُصارةُ اللُّعَابِ الممزوجةُ بالأغذية.

وسأجعلهم يمضُغُون الفواكهَ الجافَّةَ وكِسَرَ الخبزِ إذن، وسأُعطيهم، كأُلعُوبة، أصابعَ صغيرةً من الخبزِ الناشفِ أو بسكوتًا مشابهًا لخبزِ بيمُونتَ، فيُسمَّى غرِيسًّا في هذا البلد، ويبتلعون قليلًا من هذا الخبزِ في آخِرِ الأمرِ عن كثرةِ ما يُلانُ منه في أفواهِهم. وتنبُتُ أسنانُهم، ويُفطَم الولدُ من غيرِ أن يُشعَر بذلك. وتُوجَد للفلاحين مِعَدٌ صالحةٌ عادةً فيُفطَمون بلا ضوضاء.

ويَسمع الأولادُ الكلامَ منذ ولادتهم، ولا يُخاطَب الأولادُ قبْل أن يُدرِكوا ما يُقال لهم فقط، بل قَبْل أن يستطيعوا ردَّ الأصواتِ التي يسمعونها، ولا تقوم الأعضاءُ التي لا تزال خَدِرةً بتقليدِ الأصواتِ التي تُملَى عليها إلا بالتدريج، حتى إنه ليس من الثابتِ أن تَقْرَعَ هذه الأصواتُ آذانَهم، كما تَقْرَع آذانَنا بجلاء. ولا ألومُ المُرضِعَ على إلهاءِ الولدِ بأغانٍ ونبراتٍ مَرحةٍ منوَّعة، ولكنني أَكره أن تُزعِجه بطائفةٍ من الكلامِ الفارغِ لا يفقه منها غيرَ ما تَضَعه فيها من نَغم. وكلُّ ما أَودُّ هو أن تكون المفاصلُ الأُولى التي يُسَمَّعُها نفيسةً سهلةً واضحةً مُكرَّرةً غالبًا، وأن تكون الكلماتُ التي تُعبِّر عنها دالَّةً على أشياءَ محسوسة، يُمكن أن تكون أوَّلَ ما تُعرَض على الولد. وتبدأ السهولةُ المشؤمةُ في استعمال الكلمات التي لا نُدرِكها باكرًا أكثرَ مما نظن. ويَسمع الطالبُ وهو في الصفِّ هَذَرَ مُعلِّمه كما كان يسمع ثرثرةَ مُرْضِعه وهو في القِماط. ويلوحُ لي أن من حُسنِ التَّربيةِ تركَه جاهلًا في كلا الحالين.

ومتى أُريدَ الاكتراثُ لتكوينِ لغةِ الأولادِ وكلامِهم الأوَّل أتت التأمُّلاتُ جملة. ومهما يكن من أمرٍ فإن الأولادَ يتعلمون الكلامَ على نمطٍ واحدٍ دائمًا، وهنا تكون جميعُ النظريات الفلسفية غيرَ نافعةٍ إلى أبعدِ حدٍّ.

وذلك أوَّلًا أنَّ لهم نحوًا ملائمًا لعُمُرِهم ذا إعرابٍ وقواعدَ أعمَّ مما في نحونا، وإذا ما أُنعِمَ النظرُ في ذلك دُهِشَ من دقَّتهم في بعض المشابهات الكثيرةِ الانتظامِ مع ما فيها من نقصٍ كبير، والتي لا تكون نابيةً إلا لجفائها أو لأن العادةَ لا تُقِرُّها. ومنذ قليلٍ سمعتُ ولدًا يَنهرُه أبوه لقوله: Mon pére-irai-je-t-y? والواقعُ أن هذا الولدَ اتَّبعَ القياسَ بأوثقَ مما يَتَّبِعُ نحْوِيُّونا؛ وذلك أنه يُقال له: Va-s-y، فلِمَ لا يقول: Irai-je-t-y? وفضلًا عن ذلك فانظُروا مبلغَ المهارةِ التي يتجنَّب بها التقاءَ حرْفَي العِلَّةِ في irai-je-y?، أو y-irai-je?، وهل من خطأ الولدِ أن كُنَّا على غيرِ صوابٍ في نزْعِنا من الجملةِ ظرفَ y القاطعَ لأننا لم نعرفْ ما نصنعُ به؟ إنَّ من الحذْلقةِ التي لا تُطاقُ ومن العنايةِ الفارغةِ أن يُصلَح في

الأولادِ جميعُ الأغاليطِ الصغيرةِ المخالفةِ للعادةِ والتي تُصحَّح مع الزَّمنِ من تلقاء نفسها. فليكُن كلامُكم صحيحًا أمامهم دائمًا، واجعلوهم لا يُسَرُّون بأحدٍ سرورَهم بكم، ثُمَّ ثِقُوا بأن لسانَهم يُقوَّم وَفْقَ لسانِكم على وجهٍ غيرِ محسوس، ومن غيرِ أن تَقوموا بإصلاحٍ في ذلك نحوَهم.

ولكنه يُوجَد شرٌّ أبلغُ من ذاك لا يَسهُل اجتنابه، وذلك أنه يُعجِّلُ كثيرًا في حمْلِ الأولادِ على الكلام، كأنه يُخشى ألَّا يتعلَّموه بأنفسهم، وذلك الاستعجالُ الطائشُ يؤدي مباشرةً إلى نتيجةٍ مخالفةٍ للمطلوب، وذلك أنهم يتكلَّمون بذلك مؤخَّرًا على وجهٍ أشدَّ اختلاطًا، وذلك أن العنايةَ المتناهيةَ التي تُبذَل حولَ كلِّ ما يقولون تُعفيهم من الكلامِ بوضوح، وذلك بما أنهم لا يكادون يفتحون أفواهَهم فإن كثيرًا منهم يحتفظ، مدى حياته، بعيبٍ في اللفظِ وبنُطقٍ مختلطٍ يجعلهم أعْياءَ تقريبًا.

وقد عِشتُ كثيرًا بين القرويين فلم أسمعْ قَطُّ واحدًا من رجالِهم أو نسائهم أو بناتهم أو بَنِيهم يَلثَغ، ومن أين يأتي هذا؟ أفَكُوِّنَت أعضاءُ القرويين على غيرِ تكوينِ أعضائنا؟ كلَّا، وإنما دُرِّبت على وجهٍ آخَر. وتوجد أمامَ نافذتي أرضٌ يجتمع فيها أولادُ المحلِّ لِيلعبوا، وأَمِيز ما يقولون تمامًا على ما بيني وبينهم من مسافة، فأستخرجُ منها في الغالبِ مذكِّراتٍ صالحةً لهذا الكتاب. وفي كلِّ يوم تخدعُني أذني حول سِنِّهم، وذلك أنني أسمعُ أصواتَ أولادٍ في العاشرِ من عُمُرهم، وأنظر وأرى قَوامَ أولادٍ وملامحَ أولادٍ تَترجَّح سِنُّهم بين الثالثةِ والرابعة، ولا أَقْصِرُ تجربتي على نفسي، وأستطلع رأيَ الزائرين لي من أهلِ المدن في ذلك، فأجدهم على ذاتِ الخطأ.

ويَنشأ هذا عن كونِ أولادِ المُدن، المترجِّحةِ أعمارُهم بين الخامسِ والسادس، والذين يُنشَّئون في الغرفةِ وتحت جَناحِ مُرَبِّية؛ لا يحتاجون إلى غيرِ الهَمْهمة ليُسْمَعوا، فإذا ما حرَّكوا شِفاهَهم وُجِدَتْ مشقةٌ في الاستماعِ إليهم، ويُلقَّنون كلماتٍ يُردِّدونها ترديدًا سيئًا، فيتنبَّأ عينُ الأشخاصِ الذين يكونون حولَهم في كلِّ وقتٍ بما يريدون أن يقولوا، لا بما يقولون.

والأمرُ غيرُ ذلك في الأرياف؛ فالقَروية لا تكون حولَ ولدِها بلا انقطاع، فيُضطرُّ هذا الولدُ أن يتعلَّم قولَ ما يُريدُ واضحًا عاليًا جِدًّا. ويكون الأولادُ في الأريافِ متفرقين بعيدين من الأبِ والأم والأولاد الآخرين، فيُدرِّبون أنفسَهم على أن يُسمَعوا من مسافةٍ بعيدةٍ وعلى

قياسِ الصوتِ بالفاصلة التي تفصلهم عمَّا يريدون إسماعَهم، وهذا هو الوجهُ الذي يُعلِّمون به النُّطقَ حقًّا، لا أن يُتعتِعوا ببعضِ الحروفِ الصوتيةِ في أذنِ مُرَبِّيةٍ يَقْظى. ومما يَحدثُ أن ابنَ القرويِّ إذا ما سُئلَ أمكنَ منعُ الحياءِ إياه من الجواب، غيرَ أن ما يقولُ يقوله واضحًا، وذلك بدلًا من أن تقومَ الخادمةُ مقامَ المترجمِ لابن المدينة، ولولا هذا ما أُدرِك شيءٌ مما يُتمتم بين أسنانه.[٣٠]

وإذا ما كَبِرَ البنون وجبَ أن يُقوِّموا هذا النقصَ في المدارس، وإذا ما كَبِرَ البناتُ وجبَ أن يقومِّنه في الأديار، والحقُّ أن كلا الفريقين يتكلَّم على العمومِ بأوضحَ من كلامِ مَنْ يُنشَّئون في بيتِ الأب، ولكن الذي يمنعهم من اكتسابِ نطقٍ خالصٍ كنطقِ القرويين هو ضرورةُ تعلُّمِ أمورٍ كثيرةٍ على ظهرِ القلب، وتلاوةِ ما تعلَّموا عن ظهرِ القلب؛ وذلك لأنهم إذا ما درسوا تعوَّدوا اللَّثْلَثةَ وتهاونوا بالنُّطقِ وأساءوا اللفظ، ولأنهم إذا ما تَلَوْا عن ظهرِ القلبِ أتَوْا ما هو أسوأ من ذاك، وهم في ذاك يتلمَّسون الكلماتِ بجهد، وهم في ذلك يَمُطُّون المقاطعَ ويَمْطُلُونها، وليس من الممكنِ ألَّا يُلَجْلَجَ في الكلامِ أيضًا إذا ما ترجرجتِ الذاكرة. وهكذا تُكتَسب عيوبُ النطقِ وتدوم، وسيُرى فيما بعدُ أن إميلَ لا يكتسبُ هذه العيوب، أو أنه لا يكتسبُها عن ذاتِ العللِ على الأقل.

وأُسلِّمُ بأن الشعبَ والقرويين يَنزِلون إلى طَرَفٍ متناهٍ آخَر، وأنهم يتكلَّمون بما هو أعلى مما يجبُ دائمًا تقريبًا، وأنهم إذا ما كانوا دقيقي النُّطقِ كانت مفاصلُهم شديدةً جافية، وأنهم كثيرو النَّبرَات، وأنهم سَيِّئو الاختيارِ لألفاظهم ... إلخ.

بَيْدَ أن هذا التناهي يبدو لي أوَّلًا أقلَّ عيبًا بمراحلَ من ذاك ما دام قانونُ الكلامِ الأوَّلُ هو الإسماع، وما دام أعظمُ خطأٍ يُصنع هو أن يقعَ الكلامُ من غيرِ أن يُسمَع. ومَن يفاخِرْ بعدمِ وجودِ نبراتٍ له يعني أنه يُفاخِر بتجريدِ الجُمَل من طلاوتِها وطاقتها؛ فالنبراتُ رُوح

[٣٠] ليس هذا بلا استثناء؛ ففي الغالبِ أن أقلَّ الأولاد إسماعًا في البُداءة يصبحون أكثرَ الأولادِ إزعاجًا فيما بعد؛ أيْ عندما يأخذون في رفعِ الصوت، ولكن الأمرَ إذا ما قضى بالدخولِ في الجزئيات لم أنتهِ من الكلام؛ فعلى كلِّ قارئٍ حصيفٍ أن يرى أن الزائدَ والناقصَ المشتقَّيْن من سوءِ استعمالٍ واحدٍ يُصحبان بمنهاجي على السواء، وأجد أنه لا يمكن فصلُ أحدِ المبدأين الآتيين عن الآخر، وهما: «حُب التناهي غلط، وخيرُ الأمورِ الوَسَط»، ومن المبدأ الثاني ينشأ الأوَّلُ بحكمِ الضرورة.

الكلام، وهي تُنعِم على الكلامِ بالإحساسِ والصحة، والنبراتُ أقلُّ كذِبًا من الكلام، وقد يكون هذا سببَ خشيةِ النَّاس إياها كثيرًا. وتنشأ عادةُ التهكُّم بالنَّاس من غيرِ أن يَشْعُروا عن عادةِ قولهم كلَّ شيءٍ على وتيرةٍ واحدة، وإذا ما حُرِّمت النبراتُ عَقَبَتْها طُرُزٌ للنطقِ مضحكةٌ مموَّهةٌ عابرةٌ كالتي تُلاحَظُ لدى شُبانِ البلاط. وهذا التصنُّعُ في الكلامِ والوضعِ يجعلُ وصولَ الفرنسي كريهًا مُنفِّرًا لدى الأممِ الأخرى، وفي هيئته، لا في كلامه، ما يَضعُ النَّبرات، وهذا ما لا يكون وسيلةَ جذبٍ إليه.

ولا تُعدُّ شيئًا جميعُ هذه الهَنَاتِ في الكلامِ التي يُخْشَى اكتسابُ الأولادِ لها؛ فمنِ السهلِ جدًّا منعُ وقوعِها أو إصلاحُها، ولكن الخطأ الذي يكتسبونه لا يُصْلَحُ أبدًا بجعلِ كلامِهم مُبْهمًا غامضًا جافلًا، وبنقدِ لهجتِهم نَقدًا مستمرًّا، وبتنقيةِ جميعِ ألفاظهم، ولا يُسمَعُ الرَّجلُ وهو على رأسِ فرقةٍ إذا ما تعلَّم الكلامَ في رِداهِ الاستقبالِ فقط، وقُلْ مِثْلَ هذا عن وضعِه تجاه شعبٍ ثائر، فعلِّموا الأولادَ أن يخاطبوا الرِّجالَ قبْلَ كلِّ شيء، وهم سيَعْرِفون مخاطبةَ النساءِ عند الاقتضاء.

قُوموا بتربيةِ أولادِكم في الأريافِ بكلِّ ما في الريفيةِ من خشونة؛ فهنالك يكتسبون صوتًا أكثرَ رنينًا، وهنالك لا ينالون مطلقًا لجلجةَ أولادِ المدنِ المبهمة، وكذلك لا ينالون تعبيراتِ القريةِ ولا لهجتها، أو إنهم يَفقِدونها بسهولةٍ عندما يمنعها المُعلِّم الذي يعيش معهم منذ ولادتِهم، والذي يعيش هنالك حصرًا يومًا بعد يوم، أو يَمْحو بتقويم لسانِه أثَرَ لسانِ القرويين. وسيتكلم إميلُ فرنسيةً أصفَى من كلِّ ما أعلم، ولكنه سيتكلَّمها بأجلَى مما لدي، وسينْطِق بها نُطقًا أحسنَ مما عندي.

ولا ينبغي للولدِ الذي يحاول الكلامَ أن يَسمعَ غيرَ الكلماتِ التي يستطيعُ أن يُدرِكَها، ولا أن يقولَ غيرَ الكلماتِ التي يستطيعُ أن يَلفِظَ بها. وما يَبْذُل من جهودٍ في هذا السبيلِ يَحمِلُه على تكريرِ عينِ المقطعِ كما لو كان يُمرِّنُ نفْسَه على النُّطقِ به نُطقًا أكثرَ جلاء. وهو إذا أخذَ يتلجلجُ فلا تُزعجوا أنفسَكم كثيرًا في اكتشافِ ما يقول. ويُعَدُّ الزَّعْمُ بأن يُسْمَع دائمًا ضَربًا من السيطرةِ التي لا يجوزُ للولدِ أن يمارسَ شيئًا منها. واقتصروا على تَدارُكِ ما هو ضروريٌّ بدقةٍ بالغة، ودَعُوه يحاولُ جعْلَكم تُدركون الباقي، وأقلُّ من ذلك ضرورةُ الإسراعِ في مطالبتِه بأن يتكلم؛ فهو سيَعْرِفُ الكلامَ من تلقاء نفسه كلَّما شَعرَ بفائدته.

ومما يُلاحَظُ حقًّا كونُ الذين يبدءون بالكلام متأخرين لا يتكلمون بوضوحٍ كالآخرين، ولكن تكلُّمَهم متأخرين لا يعني بقاءَ صوتِهم مرتبكًا، وعلى العكس تجدُ أن وِلادتَهم بصوتٍ مرتبِكٍ سبب تأخُّرهم في الكلام، وإلا فلِمَ يتكلمون متأخرين عن الآخرين؟ أَوَكانت فرصةُ الكلامِ لديهم أقلَّ مما عندَ غيرِهم، أَمْ إنهم يُحرَّضون عليه أقلَّ مما يُحرَّض عليه سواهم؟ فالواقعُ خلافُ ذلك؛ أي إن ما يُوجِبه هذا التأخيرُ من همٍّ فوْرَ الشعورِ به يؤدي إلى مضاعفةِ الجِدِّ في حَمْلهم على اللجلجةِ أكثرَ من حَمْلِ مَن لفظوا باكرًا. ويُمْكِن هذا التهافُتَ الخاطئ أن يساعدَ على جعْلِ كلامِهم مختلطًا مع أنَّ غيرةً أقلَّ من تلك تجعلُ لديهم وقتًا يكون فيه كلامُهم أكملَ من ذاك.

وليس لدى الأولادِ الذين يُحرَّضون كثيرًا على الكلامِ من الوقتِ ما يتعلَّمون فيه حُسنَ النطقِ ولا حُسنَ تصوُّر ما يُحْمَلون على قوله، وذلك بدلًا من أن يُتركوا وشأنَهم فيُدرِّبوا أنفسهم في البُداءةِ على أسهلِ المقاطعِ في النطق. وهم إذ يُضيفون بالتدريجِ معنًى يُدرَك من حركاتِهم، فإنهم يُعْطُون كلماتِهم قبْل أن يتلقَّوا كلماتِكم، وهم بهذه الوسيلةِ لا يتلقَّوْن كلماتِكم قبْل أن يَفهموها، وهم إذ لم يُحَثُّوا على استعمالِها قَطُّ فإنهم يُحْسِنون ملاحظةَ المعنى الذي تُطلقونه عليها، وهم إذا ما استيقنُوها انتحلوها.

ولا يقومُ أعظمُ سوءٍ في استعجالِ الأولادِ أن يتكلموا قبْل الأوانِ على خلوِّ مقالِهم الأوَّل وكلماتهم الأُولى التي يتلفَّظون بها من المعنى لديهم، بل على وجودِ معنًى آخَرَ لها عندهم غيرِ الذي يكون لها عندنا من غيرِ أن نُدرك ذلك؛ فهم إذ يَبدُون أنهم يجيبونا جوابًا بالغَ الصحةِ يخاطبوننا من غيرِ أن يُدرِكونا ومن غير أن نُدرِكَهم، وهذه المُلتَبِساتُ عادةً هي مصدرُ الحَيرةِ التي يُلقينا كلامُهم فيها أحيانًا، وذلك لِمَا نَعزو إليه من أفكارٍ لم يقصدوها به قَط. ويظهر لي أن عدمَ انتباهنا هذا إلى أن معنى الكلمات لدى الأولادِ علةُ أغاليطهم الأُولى، وتُؤثِّر هذه الأغاليطُ، حتى بعد أن يُشفَوا منها، في طرازِ تفكيرهم في بقيةِ حياتهم، وسيكون لديَّ أكثرُ من فرصةٍ لإيضاح هذا بالأمثلة.

وضيِّقُوا إذن نطاقَ مجموعةِ كلماتِ الولدِ ما أمكن، وذلك للضررِ الكبيرِ في حيازته كلماتٍ أكثرَ من الأفكارِ ولمعرفته قولَ أشياءَ أكثرَ مما يُفكِّر فيه منها. وعندي أن من الأسبابِ في كون القرويين أثقبَ فكرًا من أهلِ المدنِ هو أن مُعجَمَهم أقلُّ اتساعًا. أجلْ، إنهم أقلُّ أفكارًا، غيرَ أنهم يُجيدون المقابلةَ بينها كثيرًا.

ويَتمُّ تقدُّمُ الولدِ في شتَّى الطُّرقِ دفعةً واحدةً تقريبًا. ويتعلَّم الولدُ الكلامَ والأكل والمشي في وقتٍ واحدٍ تقريبًا، وهذا هو دَور حياته الأوَّل حقًّا، ولا يكون قبْل ذلك أكثرَ مما كان عليه في بطنِ أمه لِمَا ليس لديه من شعورٍ وفكر، وهو لا يَكاد يكون ذا إحساس، حتى إنه لا يشعر بوجودِه الخاص:

فهو يعيش، ولا يَشعُر بحياته.

أوفيد

الجزء الثاني

هنا دَوْر الحياةِ الثاني، هنا الدَّور الذي تنتهي عنده الطفولة enfance؛ وذلك لأنَّ الكلمتَين infans وpuer ليستا مترادفتَين؛ فالأُولى مُدمَّجةٌ في الثانية، وهي تَعني «الذي لا يستطيع الكلام»، ومِنْ ثَمَّ يأتي وجودُ puerum infantem في فالِير مَكْسِيم، ولكنني أُداومُ على استعمالِ هذه الكلمةِ وَفْقَ اصطلاحِ لغتنا، وذلك حتى العُمُر الذي يوجَد له أسماءٌ أخرى.

ومتى أخذ الأطفالُ يتكلَّمون قلَّ بكاؤهم. وهذا التقدُّمُ طبيعي، وتقوم لغةٌ مقامَ لغة، وإذا ما استطاعوا أن يقولوا بالكلامِ إنهم يألَمون فلِمَ يقولون الكلامَ مع صُراخٍ إذا لم يكن الألمُ من الشِّدة ما لا يَقْدِر الكلامُ معه أن يُعبِّر عنه؟ وإذا ما استمروا على البكاءِ هنالك كان هذا ذَنبَ مَن يحيطون بهم، وإذا قال إميلُ مرةً «أتوجَّع»، وجب وجودُ آلامٍ شديدةٍ تَحْمله على البكاء.

وإذا كان الولدُ سريعَ الانفعالِ سريعَ التأثُّر، وإذا ما أخذَ يصرُخ عن طبيعةٍ وبلا سبب، جَعَلتُ هذه الصَّرخاتِ غيرَ مجديةٍ غيرَ ذاتِ فِعْلٍ مُستَنْزِفًا الينبوعَ من فَوْري، ولا أذهبُ إليه ما دام يبكي، وأُهْرَع إليه حالًا عندما يَسْكت. ولا تَلْبثُ طريقةُ دعوته إياي أن تقومَ على الصمتِ أو إلقاءِ صرخةٍ واحدةٍ على الأكثر. ويُدرِك الأولادُ معنى الإشارات بنتائجها الحسية، ولا يوجد لدى الأولاد معنًى آخَر، ومن النادر أن يبكي الولدُ إذا كان وحدَه مهما بلغَ من إيلامِ نفسه، وذلك ما لم يَأمُل سماعَه.

وهو إذا ما سَقط، وهو إذا ما ورَّم رأسَه، وهو إذا ما أدمى أنفَه، وهو إذا ما قَطَّع أصابعَه؛ بقيتُ ساكنًا ولو لدقيقةٍ واحدة على الأقلِّ بدلًا من أن أسرع إليه مذعورًا، فأما وقد وقع الأذى فإن الضرورةَ تقضي بأن يُعانِيه، ولن يَنفع هَرَعي لغيرِ زيادةِ ذُعْره وانفعاله. وفي الأساسِ أن الفَزَع يؤلم أكثرَ من الضربِ عند الجَرْح، وأُوفِّر له هذا العذابَ المُبرِّحَ على الأقل. ومما لا ريبَ فيه أنه يَحْكم في ضرره كما يَرى من حُكمي فيه، وذلك أنه إذا رآني أُهرَعُ إليه جَزُوعًا فأُسْليه وأتَوجَّع له؛ أيقنَ ضياعَ نفسه، وأنه إذا رآني محافظًا على اعتدالِ دمي استردَّ اعتدالَ دمِه من فوره، واعتقد شفاءه من الضَّررِ عندما يُصبح غيرَ شاعرٍ به. وفي هذا الدَّور يتلقَّى دروسَ الشجاعةِ الأُولى؛ فهو إذا ما احتملَ الآلامَ الخفيفةَ بلا وَجَلٍ تعلَّمَ احتمالَ عظيمِها بالتدريج.

ولا أُزْعجُ نفسي بأن أمنعَ إميلَ من إيذاءِ نفْسه، ومما يغيظني كثيرًا ألَّا يؤذيَ نفْسه مطلقًا، وأن يَكبُرَ من غيرِ أن يَعْرِف الألم. والألمُ أوَّلُ شيءٍ يجب أن يتعلَّمه، وهو أعظمُ ما يحتاج إلى معرفته. ويَظْهر أن الأولادَ ليسوا صِغارًا ضِعافًا إلا لتلقيهم هذه الدروسَ المهمَّة بلا خطر. ولا يَكسِرُ الولدُ ساقَه بسقوطه، ولا يَكسِر ذراعَه بأن يَضربَها بالعصا، وإذا ما قَبض الولدُ على سكِّين لم يَكبِس عليها ولم يُمعِن في جَرْح نفسه، ولا أعرِفُ أنه رُئي ولدٌ تُرِك وشأنَه فقتلَ نفْسه أو عطَّلها أو أصابها بأذًى كبير، ما لم يكن قد عُرِّض للخطرِ عن عدمِ فِطنةٍ في أماكنَ مرتفعةٍ أو حوْل النارِ وحدَه، أو جُعِلت أسلحةٌ خطِرةٌ في مُتناوَل يده. وما يُقال عن تلك الأجهزةِ التي تُجْمعُ حوْلَ الولدِ لتسليحه بجميعِ الأدواتِ ضدَّ الألم، حتى إذا ما كَبُرَ ظلَّ تحت رحمتِه بلا شجاعةٍ ولا تجرِبة، وظنَّ أنه هالكٌ عند أوَّلِ وخْزةٍ، وأُغمِيَ عليه عند أوَّلِ قَطْرةٍ يشاهدها من دمه؟

ويؤدي هوسُنا القائمُ على التلقينِ والحذلقةِ إلى تعليمِ الأولادِ دائمًا ما يُمكن أن يتعلَّموه بأنفسهم أحسنَ من ذاك، وإلى إغفالِ ما نستطيع أن نُعلِّمهم إياه وحدَنا. وهل يُوجَد ما هو أسخفُ من جُهدٍ يُبذَل في تعليمهم المشيَ كأنه رُئي ولدٌ لم يَقدِر على المشي عند كِبَرِه عن إهمالِ مُرْضِعه؟ وعلى العكسِ ما أكثرَ الذين رُئي أنهم سَيِّئو المشي مدى حياتهم لسوءِ ما عُلِّموا من مشْيٍ!

ولن يكونَ لإميلَ قُلَنْسِيةٌ واقيةٌ ولا درَّاجةٌ ولا عَربةٌ ولا بَريمُ إسناد، أو إنه إذا أَخذ يَعرِف وضْعَ قَدمٍ أمام الأخرى، على الأقل، لم يُمْسَك في غيرِ الأماكنِ المرصوفة، وحُمِلَ على

مجاوزتِها بسرعة،[١] ولْيُؤتَ به في كلِّ يومٍ إلى مَرْجٍ بدلًا من أن يُحفَظ آسِنًا في غرفةٍ خانقة. والخيرُ في عَدْوه ولَعِبه وسقوطه كلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ هنالك؛ فهو لا يلبثُ أن يتعلَّم النهوضَ من ذلك، وتُصْلِح نُعْمَى الحريةِ كثيرًا من القروح. وسيُصاب تلميذي برضوضٍ في الغالب، وسيبقى مسرورًا مقابَلَةً، وإذا كان تلاميذُكم أقلَّ رَضًّا بَدَوْا خائبين مقيَّدين حُزَناء دائمًا، وأشُكُّ في كونِ الغُنْم بجانبهم.

وتَقدُّمٌ آخَرُ يجعلُ العويلَ للأولاد أقلَّ ضرورة، وذاك هو تَقدُّمُ قوَّتهم؛ فالأولادُ كلَّما زادُوا قوةً نَقصَ التجاؤهم إلى الآخرين. ومع القوةِ ينمو إدراكُ الولدِ الذي يَضعُهم في حالٍ يوجِّهونها به. وبهذا الدَّورِ الثاني تبدأ حياةُ الفردِ ضَبطًا، وهنالك يَشعُر بنفسه، وتُنَبِّه الذاكرةُ شعورَ الذاتِ في جميعِ أوقاتِ حياته، وهو يصبح واحدًا حقًّا، وهو يصبح عينَه؛ أي أهلًا للسعادةِ أو الشقاءِ نتيجةً؛ ولذا يَحْسُن أن يُبدأَ بِعَدِّه موجودًا أدبيًّا.

ومع أنه يُعيَّن تقريبًا أطولُ حدٍّ للحياةِ البشرية وما يكون من الاحتمالات للدنوِّ من هذا الحد في كلِّ جيل؛ فإنه لا شيءَ يُشكُّ فيه أكثرُ من مدى حياةِ كلِّ إنسانٍ على انفراد، والذين يبلُغون ذلك الحدَّ الأطولَ قليلٌ. وأعظمُ أخطارِ الحياةِ في بدئها، وكلَّما قلَّ ما وقعَ من حياةٍ وجبَ أن يكون الأملُ قليلًا فيما بقيَ منها. ولا يَكاد يصلُ نصفُ الأولادِ الذين يُولدون إلى سنِّ المراهقة، ومن المحتمل ألَّا يبلُغ تلميذُكم سِنَّ الرَّجل.

وما يجبُ أن يُفكَّر فيه إذن حولَ تلك التَّربيةِ القاسية التي تُضحِّي بالحاضرِ في سبيلِ مستقبلٍ غيرِ مُعيَّن، والتي تُثْقِلُ الولدَ بقيودٍ من كلِّ نوع، وتبدأ بجعلِه شقيًّا حتى يُعدَّ في المستقبلِ البعيدِ لسعادةٍ مزعومةٍ يُوجَد ما يَحمِل على الاعتقادِ بأنه لن يتمتَّعَ بها أبدًا؟ وإني حتى عند افتراضي كونَ هذه التَّربيةِ صائبة كيف لا أنظرُ بعينِ الغيظ إلى هؤلاء التُّعساءِ المساكين الخاضعين لنِيرٍ لا يُطاق، والمَدِينين بالأشغالِ الدائمة، كالمحكومِ عليهم بالليمان، مع أنه ليس من الثابتِ كونُ هذه العنايةِ الكبيرةِ نافعةً على الإطلاق؟ وتمضي سِنُّ المَسرَّة بين الدموعِ والعقوبات والتهديدات والعبودية، ويُعذَّب التَّعِس نفعًا له، ولا يُبصَرُ الموتُ الذي يُدعى، ومَن ذا الذي يُمسِكه بين هذا الجهازِ الكئيب، ومَن يَعرِف عددَ الأولادِ الذين

[١] لا شيءَ أدعى إلى السخريةِ وسوءِ الضمان من مِشيئةِ أولئك الذين أكثر من سوقهم ببريمِ إسنادٍ في صغرهم، وهذه من الملاحظات التي عُدتْ مبتذلةً لصوابها، والتي هي صائبة من عدة وجوه.

يَهْلِكون ضحيةً لحكمةِ الأب أو المُعلِّم الطائشة؟ والأولادُ إذ يكونون من السُّعداءِ بإفلاتهم من جَوْرها، يكون نفعُهم الوحيدُ من الشُّرور التي تُصيبهم بها هو أن يموتوا من غيرِ أن يأسَفوا على حياةٍ لم يَعرِفوا منها سوى الآلام.

ويا أيها الرجالُ كونوا إنسانيين، وهذا هو واجبُكم الأوَّل، كونوا إنسانيين في جميعِ الأحوال وفي جميعِ الأعمار وفي كلِّ ما ليس غريبًا عن الإنسان. وأيةُ حكمةٍ تكون لديكم خارجَ الإنسانية؟ أَحِبُّوا الطُّفولة، واسْمَحوا بألعابِها، وابتَهِجوا بمَسرَّاتها، وافرَحُوا بغريزتِها المحبوبة. ومَن منكم لم يأسَف أحيانًا على ذلك العُمُر حيث يكون الضَّحكُ على الشِّفاه وتكون النفسُ مطمئنة؟ ولِمَ تريدون أن تَنزِعوا من هؤلاء الأبرياءِ الصِّغارِ بهجةَ زمنٍ بالغِ القِصَر يُفلِتُ منهم، وخيرًا بالغَ القيمةِ لا يمكنهم إساءةُ استعماله؟ ولِمَ تريدون أن تملئوا بالكَرْبِ والآلامِ تلك السِّنين الأُولى البالغةَ السرعةِ والتي لا يُمكِن أن تعودَ إليهم كما أنها لن ترجعَ إليكم؟ أَوَتَعرفون الساعةَ التي يَنتظرُ الموتُ فيها أولادَكم أيُّها الآباء؟ لا تُعِدُّوا لأنفسِكم حسراتٍ بنزْعِكم منهم ما أنعمت الطبيعةُ عليهم به من أُويقات، واصنعوا ما يتمتَّعون معه بلذَّةِ الحياةِ عندما يُمكِنهم أن يَشعُروا بها، وافعلوا ما لا يموتون معه بلا تذوُّقٍ للحياة عندما يدعوهم الربُّ إليه.

وما أكثرَ ما سيرتفع ضِدِّي من أصوات! أَسْمعُ من بعيدٍ صيحاتِ تلك الحكمةِ الكاذبةِ التي تُلقينا خارجَ أنفسنا دائمًا، والتي لا تَعُدُّ الحاضرَ شيئًا مذكورًا دائمًا، والتي تَتْبعُ بلا تَوانٍ مستقبلًا كلَّما سِير إلى الأمام، وذلك نقلًا لنا من مكاننا إلى حيث لا نكون أبدًا.

وسيكون جوابُكم أن هذا دَورُ إصلاحِ غرائزِ الإنسانِ السَّيئة، وأن الآلامَ في الطفولة تكون أقلَّ ما يمكن حِسًّا، فيجب أن تُزادَ اقتصادًا بها في سِن الرُّشد. ولكن مَن قال لكم إنَّ جميعَ هذا النظامِ تحت تصرُّفكم، وإنَّ ضَرَّ جميعِ هذه التعليماتِ التي تُثقِلون بها رُوحَ الولدِ الضعيفةَ لا يكون أكثرَ من نفْعها ذاتَ يوم؟ ومَن يُوَكِّدُ لكم أنكم تقتصدون شيئًا بأحزانٍ تغمرونه بها، ولِمَ تمنُّون عليه بشرُورٍ أكثرَ مما تَحتمِل حالُه من غيرِ أن تَعْلَموا أنَّ هذه الشرورَ الحاضرةَ لا تقيه شرورَ المستقبل؟ وكيف تُثْبِتون لي أنَّ هذه الميولَ السيئةَ التي تزعمون شفاءه منها لا تأتيه من عنايتِكم السخيفةِ أكثرَ من صدورِها عن الطبيعة؟ ويا له من احترازٍ مشئومٍ ذلك الذي يَجعل الإنسانَ تَعِسًا في الحاضرِ رجاءَ جَعْلِه سعيدًا ذاتَ يومٍ، سواءٌ أقامَ هذا الرَّجاءُ على أساسٍ صالحٍ أم على أساسٍ طالح! إذا كان هؤلاء

المفكِّرون المخطئون يَخلِطون بين التَّحلُّلِ والحرية، وبين الولدِ الذي يُجعَل سعيدًا والولدِ الذي يُدلَّل؛ فلْنُعلِّمهم أن يُفرِّقوا بين الأمرَين.

ولا نَنسَ ما يلائمُ حالَنا لكيلا نسيرَ وراء الأوهام. وللإنسانية مكانُها في نظامِ الأمور، وللطفولةِ مكانُها في نظامِ الحياة الإنسانية، فيجب أن يُنظَر إلى الإنسانِ في الإنسان، وأن يُنظَر إلى الطفلِ في الطفل؛ فوضعُ كلِّ واحدٍ في محلِّه وتثبيتُه فيه، وتنظيمُ الأهواءِ البشريةِ وَفْقَ كِيانِ الإنسان، هو كلُّ ما نستطيع فِعْلَه لِسعادته، وأمَّا البقيَّةُ فتتوقَّف على أسبابٍ خارجةٍ عن نطاقِ قُدْرتنا.

ولا نَعرِف ما السعادةُ المطلقةُ ولا الشقاءُ المطلق، وكلُّ شيءٍ مختلطٌ في هذه الحياة، ولا يُذاق فيها حِسٌّ خالص، ولا يُبْقى فيها على حالٍ واحدة في وقتَين. وتَرى عواطفَ نفوسِنا وتحولاتِ أبداننا دائمةَ التقلُّب، ويكون الخيرُ والشرُّ مشتركَين بيننا، ولكن على مقاديرَ مختلفة، وأسعدُ النَّاسِ مَن يكون أقلَّ توجُّعًا بالآلام، وأشقى النَّاسِ مَن يكون أقلَّ شعورًا بالملاذِّ. ويقوم النَّصيبُ المشتركُ بين الجميعِ على وجودِ آلامٍ أكثرَ من الملاذِّ دائمًا، ولا تكون سعادةُ الإنسانِ في هذه الدنيا إذن غيرَ حالٍ سلبية، فيجب أن تُقاس بالمقدارِ الأقلِّ للشرورِ التي يقاسيها.

وكلُّ شعورٍ بالألمِ لا يمكن فَصْلُه عن الرغبةِ في الخلاصِ منه. وكلُّ رغبةٍ تفترضُ حرمانًا، وكلُّ حرمانٍ يُشعَر به أليم؛ ولذا يقوم بؤسُنا على تفاوتِ رَغَبَاتِنا وطاقاتِنا. ويُعَدُّ كلُّ ذي إحساسٍ تتساوى رغباتُه وطاقاتُه سعيدًا على الإطلاق.

وعلى أيِّ شيء تقوم إذن حِكمةُ الإنسانِ وسبيلُ السعادةِ الحقيقية؟ لا تقوم على تقليلِ رغباتنا ضبطًا؛ وذلك لأنها إذا كانت دونَ قُدرتِنا ظلَّ قِسمٌ من طاقاتنا مُعطَّلًا ولم نتمتَّع بجميعِ وجودِنا، وكذلك لا تقومُ على توسيعِ مدى طاقاتنا؛ وذلك لأن رغباتنا إذا ما اتَّسع مداها على أعظمِ نسبةٍ أصبحت على أعظمِ بؤس. وإنما تقوم على تقليلِ الفرْقِ بين الرغباتِ والطاقات، وعلى جَعْلِ القوَّةِ والإرادةِ متساويتَين، وهنالك فقط حين تكون جميعُ قُواه عاملةً تبقى النَّفْس مطمئنةً، ويجد الإنسانُ نفْسَه على حالِها الحسن.

وهكذا فإن الطبيعةَ التي جعلت كلَّ شيء على أحسنِ ما يكون قد أنشأته أوَّلًا، وهي لم تُنعِم عليه حالًا بغيرِ الرَّغائبِ الضروريةِ لبقائه، وبغيرِ الطاقاتِ الكافيةِ لقضائها. وأمَّا جميعُ الأخرى فقد وضعتها في أساسِ نفْسه احتياطًا حتى ينموَ بها عند الحاجة، وليس في غيرِ هذه الحالِ الابتدائيةِ ما يلتقي توازنُ القدرةِ والرغبة، وما لا يكون الإنسانُ شقيًّا،

وحينما تخرج طاقاتُه من حيِّزِ القدرةِ إلى حيِّزِ الفعلِ فإن الخيالَ الذي هو أكثرُها عملًا ينتبه ويتقدَّمُها، والخيالُ هو الذي يُوسِّع فينا نطاقَ الممكناتِ في الخيرِ أو في الشر، وهو الذي يحرِّك الرَّغائبَ ويغذِّيها من حيث النتيجةُ رجاءَ قضائها. غيرَ أن الغرضَ الذي يلوحُ في البُداءةِ تحت اليدِ يَفِرُّ بأسرعَ مما يُمْكن تعقُّبُه، وهو إذا ما ظُنَّ بلوغُه تَحوَّل وظهرَ بعيدًا أمامنا، ونحن نعود غيرَ مدركين للبلد الذي طُفنا فيه، فلا نعتد به، ويعظم ما يبقى أمامنا لنجوبه ويتَّسِع بلا انقطاع. وهكذا يضنى الإنسانُ من غيرِ أن يصل إلى الحد، وكلَّما دَنونا من اللذَّة ابتعدت السعادةُ عنَّا.

والإنسانُ على العكسِ كلَّما بقيَ قريبًا من حاله الطبيعية كان الفرْقُ بين طاقاته ورغباته قليلًا، وقلَّ ابتعادُه عن السعادةِ نتيجةً، وهو لا يكون أقلَّ شقاءً مطلقًا، إلا إذا ظهرَ خاليًا من كلِّ شيء؛ وذلك لأن الشَّقاءَ لا يقومُ على الحرمانِ من الأشياء، بل في الاحتياجاتِ التي تُشعِرُ بها.

وللعالَمِ الحقيقيِّ حدود، ولا حدودَ للعالَم الخيالي. وإذ كُنَّا لا نستطيع توسيعَ إحداهما فإن علينا أن نُضيِّق الأخرى؛ وذلك لأنه ينشأ عن الفرْق بينهما وحدَه جميعُ الآلامِ التي تجعلنا تعساءَ حقًّا. وإذا عدوتَ القوَّةَ والصحةَ وحُسنَ الحِسِّ؛ وجدتَ جميعَ محاسنِ الحياةِ مسألةَ رأي. وإذا عدوتَ آلامَ الجسمِ ووخزَ الضميرِ؛ وجدت جميعَ أوجاعنا خيالية. وسيُقال لي إن هذا المبدأَ عامٌّ، وأُوافِق على هذا، غيرَ أن تطبيقَه العمليَّ غيرُ عام، والعمل وحدَه هو ما نبالي به هنا.

وإذا ما قيل إن الإنسانَ ضعيف، فما يُقصَد بهذا؟ تدلُّ كلمةُ الضعيفِ هذه على نسبة، تدلُّ على نسبةِ الموجودِ الذي تُطَبَّق عليه، ويُعَدُّ موجودًا قويًّا مَن تزيدُ قوَّته على احتياجاته، ولو كان حشرةً أو دودة، ويُعَدُّ موجودًا ضعيفًا مَن تزيدُ احتياجاتُه على قُوَّته ولو كان فيلًا أو أسدًا أو فاتحًا أو بطلًا أو إلهًا. وكان المَلَك العاصي الذي أَنكرَ طبيعتَه أضعفَ من الفاني السعيدِ الذي يعيش مطمئنًّا وَفْقَ طبيعته. ويكون الإنسانُ قويًّا جِدًّا إذا ما رضي بما هو عليه، ويكون ضعيفًا جِدًّا إذا ما أراد أن يعلوَ الإنسانية؛ ولذا لا تظنوا أنكم تزيدون قوَّاتكم بزيادةِ طاقاتكم، وعلى العكس تُقلِّلونها إذا ما زاد زهوُكم. ولْنَقِس قُطْرَ دائرتنا، ولْنبقَ في المركزِ كالحشرةِ في وَسَط نسيجِها، وسنكون من الكفايةِ ما نقضي معه حاجاتنا، ولا يكون لدينا من الأسبابِ ما نتوجَّع معه من ضَعْفنا؛ وذلك لأننا لن نَشعرَ به مطلقًا.

ويُوجَد لدى جميعِ الحيوانات من الطاقاتِ ما هو ضروريٌّ لبقائها ضبطًا، والإنسان وحدَه هو الذي لديه زوائدُ منها. أليس من الغريبِ أن يكون هذا الزائدُ سببَ شقائه؟ ذراعُ الإنسانِ في كل بلدٍ أثمنُ من ذاته، ولو كان الإنسانُ من الحكمةِ ما لا يأبه معه لهذا الزائدِ لحازَ الضروريَّ دائمًا لِمَا لا يكون عنده ما هو أكثر. وكان فافُورِنُ يقول إن الاحتياجاتِ العظيمةَ تنشأ عن الأموالِ العظيمة، وإن أقومَ وسيلةٍ لِنيلِ الإنسانِ ما يريدُ في الغالبِ هو أن يتخلَّى عما يكون لديه، ونحوِّل سعادتِنا إلى شقاءٍ بعملِنا في سبيلِ زيادةِ هذه السعادة. وكلُّ إنسانٍ لا يريد غيرَ الحياةِ يحيا سعيدًا، ويكون صالحًا نتيجةً، وذلك: أين يكون نَفْعُه في كونه طالحًا؟

ولو كُنَّا خالدِين لَبدونا بائسين جِدًّا. أجلْ، إن مِن الشاقِّ على الإنسانِ أن يموت لا ريب، ولكن من العَذْب ألَّا يرجوَ الحياةَ دائمًا، وأن تَخْتِمَ حياةٌ أصلحُ من التي عليها آلامَ هذه الحياة، ولو عُرِضَ علينا الخلودُ في هذه الدنيا فمن مِنَّا يَرضى[٢] بهذا الحاضرِ الكئيب؟ وأيُّ سبيلٍ وأملٍ وسلوانٍ يبقى لنا ضِدَّ شدائدِ النَّصيبِ ومظالمِ النَّاس؟ إن الجاهلَ الذي لا يُبصرُ شيئًا يشعرُ قليلًا بثَمنِ الحياةِ ولا يخافُ أن يَفْقِدها. وينظرُ المُنوَّرُ إلى الأمورِ بتقديرٍ كبيرٍ، مفضِّلًا لها على ذلك. ولا يوجد غيرُ نصفِ المعرفةِ والحكمةِ الزائفةِ ما يورثنا أسوأَ الشرورِ عن مدِّ أبصارنا حتى الموتِ، لا إلى ما وراءه. وليست ضرورةُ الموتِ لدى الحكيمِ غيرَ سببٍ لاحتمالِ آلامِ الحياة، ولو لم يَعْلم أنه سيَفْقِدُها ذاتَ حينٍ لكان حفْظُها ثقيلًا كثيرًا عليه.

وتنشأ أمراضُنا الأدبيةُ عن المُبتَسرات عدا الإجرامِ الذي يتوقَّف علينا. وأمَّا أمراضُنا البدنيةُ فتتهادم أو تقضي علينا. ويُعدُّ الوقتُ أو الموتُ دواءً لنا، ولكنَّ ألَمَنا يَكْثُر بنسبةِ ما نَعرِفُ من قِلَّةِ احتماله. ونحن نكابدُ من العذابِ في سبيلِ الشفاءِ من أمراضنا ما هو أكثرُ من احتمالِنا لها. وعِشْ كما تقتضيه الطبيعة، وكن صابرًا، واطْرُد الأطباء. أجلْ، إنك لا تجتنب الموت، بَيْدَ أنك لن تُحِسَّه غيرَ مرةٍ واحدة، وذلك على حينِ يَحْملونه كلَّ يومٍ إلى خيالِك المرتبك، وذلك على حينِ ترى مِهْنتَهم الكاذبةَ تَنزِعُ منك تَمتُّعك بأيامك بدلًا من إطالتها. وسأسأل دائمًا عن الخبرِ الحقيقي الذي ناله النَّاسُ من هذه الصنعة. أجلْ، إن بعضَ مَن تَشفيهم كانوا يموتون، ولكن الملايين ممن تقتلهم كانوا يبقون أحياء؛ فيا أيُّها الإنسانُ كُن

[٢] لِيُذْكرْ أنني أتكلَّم هنا عن الذين لا يدركون، لا عن جميعِ الناس.

عاقلًا ولا تشترِكْ في هذا الاقتراعِ حيث يوجدُ كثيرٌ من الحظوظِ ضِدك، وَأْلَمْ ميِّتًا أو سليمًا، ولكن عِشْ حتى ساعتِك الأخيرةِ على الخصوص.

وليس كلُّ شيء غيرَ حماقةٍ ومناقَضةٍ في النظم البشرية. ويَكثُر اكتراثُنا للحياةِ كلَّما خَسِرت شيئًا من قيمتها، ويأسَف الشِّيبُ عليها أكثرَ من الشُّبان؛ فهم لا يريدون أن يفقدوا التوابلَ التي أعَدُّوها للتمتُّع بها. ومن القسوةِ بمكانٍ أن يموتَ الإنسانُ في الستين من سِنيه قبلَ أن يبدأ الحياة. ويُعتقَد أن الإنسانَ ولوعٌ ببقائه، وهذا صحيح، ولكنه لا يُرى أن هذا الوَلَعَ، كما نشعر به، جزءٌ عظيمٌ من عَملِ النَّاس. ولا يبالي الإنسانُ ببقائه عن طبيعةٍ إلا إذا كانت وسائله ضِمْن قدرته؛ فمتى أفلتت منه هذه الوسائلُ خلا بالُه ومات من غيرِ أن يضيقَ صدرُه على غيرِ جدْوَى. ومن الطبيعة يأتينا أوَّلُ دستورٍ للتَّسليم. والوحوش، كالبهائم، يكافحون الموتَ قليلًا، وهم يَصبِرون عليه من غيرِ تذمُّرٍ تقريبًا، ويُقضَى على هذا الدستور، وينشأ عن العقلِ دُستورٌ آخَر، وقلَّ مَن يَعْرِفون هذا، وليس هذا التسليمُ المصنوعُ من الكمالِ كالأوَّلِ مطلقًا.

الحَذَرُ! الحَذَرُ الذي يحملنا بلا انقطاعٍ إلى ما وراء أنفسنا، والذي يضعنا في الغالبِ حيث لا نصل مطلقًا، وهذا هو منبعُ جميعِ أبْؤُسنا الحقيقي. يا له من هوسٍ يساورُ موجودًا زائلًا كالإنسانِ ينظرُ دائمًا بعيدًا إلى مستقبلٍ يَندُرُ مجيئُه كثيرًا مُهمِلًا حاضرًا لا يَشُكُّ فيه! يا لَذَاك الهَوَس الذي يَزيدُ شؤمًا مع العُمُر بلا انقطاع، فيفضِّل الشِّيبُ الحاذرون المتبصِّرون البخلاءُ دائمًا أن يُحرَموا الضروريَّ اليومَ على أن يُعْوِزهم الزائدُ في المائة من سِنيهم! وهكذا فإننا نتعلَّق بكلِّ شيء، نَنْشَبُ في كلِّ شيء، فيَشْغل كلُّ واحدٍ مِنَّا بالَه بالأزمنةِ والأمكنةِ وبالنَّاسِ والأشياءِ وبكلِّ ما هو كائنٌ ويكون، ويعود شخصُنا لا يكونُ غيرَ أقلِّ جزءٍ من ذاتنا؛ أي إن كلَّ واحدٍ مِنَّا ينبسِطُ على الأرضِ بأسْرِها، ويُصبح متأثِّرًا بجميعِ ما هو واقعٌ على هذا السطحِ الواسع. وهل من العجيب أن تزيد مصائبُنا في جميعِ النقاط حيث يُمكن جَرْحُنا؟ وما أكثرَ الأمراءَ الذين يَحزنون كثيرًا على ضياعِ بلدٍ لم يروه قَط، وما أكثرَ التُّجارَ الذين يكفي أن يُصابوا في الهند ليُحمَلوا على الصُّراخِ بباريس!

وهل الطبيعةُ هي التي تَحْمل النَّاسَ إلى ما هو أبعدُ من أنفسهم على ذلك الوجه؟ وهل الطبيعةُ هي التي تريد أن يَعْلم كلُّ واحدٍ مصيرَه من الآخرين، وأن يكون آخِرَ مَن يَعْلمه، وأن يموتَ سعيدًا أو شقيًّا من غيرِ أن يَعْلم شيئًا عن ذلك مطلقًا؟ أرى رجلًا ناضرًا مسرورًا قويًّا حسنَ الصحة، ويوحي حضوره بالفرح، وتَدُلُّ عيناه على القناعةِ والهناءة،

ويَحمل معه صورةَ السعادة، ويأتيه كتابٌ مع البريد، وينظر الرَّجلُ السعيدُ إليه، ويجده موجَّهًا إليه، ويفتحه ويقرؤه وتتغيَّر ملامحُه حالًا، ويُمْتَقع ويَسقُط خائرًا، ويُفيق، ويبكي، ويَنُوح، ويئن، ويَنْتِف شعره، ويمْلأ الجوَّ صُراخًا، فيلُوح أنه أُصيبَ بتشنُّجاتٍ هائلة. إذن، ما دهاك بهذه الورقةِ أيُّها الأحمق؟ أي عضوٌ بُتِر منك؟ أيةُ جنايةٍ حُملْتَ عليها؟ ثُمَّ ماذا تغيَّر فيك حتى غدوتَ في الحالِ التي أراك عليها؟

لو ضاع الكتاب، أو ألقته في النارِ يدٌ مُحْسِنة، لكان نصيبُ هذا الفاني، السعيد والشقي معًا، مُعضِلةً عجيبةً كما يلوح لي. ستقولون إن شقاءه حقيقي. حسنًا، ولكنه كان لا يَشعُر به، وأين كان إذن؟ كانت سعادتُه خيالية، وأُسَلِّم بذلك، وعادت صحتُه وبهجتُه وهناءتُه وقناعتُه النفسيةُ لا تكونُ غيرَ أحلام، وعُدْنا لا نكون في مكاننا، وعُدْنا نكون في غيرِ مكاننا، وما فائدةُ الخوفِ من الموتِ ما دام كلُّ شيءٍ يجعل الحياةَ ثمينةً مستقرًّا بنا؟

أيُّها الإنسان، شُدَّ حياتَك في باطنك تَعُدْ غيرَ تَعِس، وابقَ في المكانِ الذي عيَّنَته الطبيعةُ لك في سلسلةِ الموجودات لا يَقدِر شيءٌ على إخراجك منه، ولا تُقاوِم سُنَّة الضرورة، ولا تَستنفِد راغبًا في هذه المقاومةِ من القوى التي لم تُعْطِك الطبيعةُ إياها مطلقًا تمديدًا لحياتك أو إطالةً لها، ولكن في سبيلِ بقائها كما يروقُ الطبيعةَ وبقدْرِ ما يروقها، ولا تَمتدُّ حريَّتُك وقدرتُك إلا ضِمْن طاقاتك الطبيعية لا إلى ما وراء ذلك، وليس جميعُ ما يبقى غيرَ عبوديةٍ ووهمٍ وخِداع، حتى إن السيطرةَ رِقٌّ إذا ما استندتْ إلى الرأي العام، وذلك لتوقفك على مُبتَسراتِ مَن تسيطر عليهم بالمُبتَسرات، ويجب لقيادتهم كما يَرُوقك أن تقودَ نفسك كما يروقهم، وليس عليهم إلا أن يُغيِّروا طرازَ تفكيرهم حتى تُحمَل على تغييرِ طرازِ سَيْرِك قسرًا. وليس على مَن يدنون منك إلا أن يَعْرِفوا السيطرةَ على آراء الشعبِ الذي تعتقد أنك تسيطر عليه، أو آراء ندمائك الذين يسيطرون عليك، أو آراء أسرتِك أو أُسَرِهم، حتى يبلغوا ذلك، ويُسيِّرك هؤلاء الوزراءُ والندماء والكهان والجنود والخدَّام والمُجَّان، حتى الغِلْمان. ولو كان عندك مثْلُ عبقريةِ تِمِسْتُوكل،[٣] وذلك كولدٍ بين أجواقك، ومهما تأتِ من

[٣] كان تِمِسْتُوكل يقول لأصدقائه: «إنَّ هذا الغلامَ الصغيرَ الذي ترون هو حَكَم بلاد اليونان؛ وذلك لأنَّه يسيطر على أمِّه، ولأن أمَّه تسيطر عليَّ، ولأنني أسيطر على أهلِ أثينة، ولأن الأثينيين يسيطرون على الأغارقة.» وي! ما أكثرَ صغار القادةِ الذين يوجدون في الإمبراطوريات العظيمة غالبًا! وذلك إذا ما نزل من الأمير حتى اليد الأُولى التي تدير الأمورَ خفية.

عَمَلٍ فإن سلطانك الحقيقي لا يمتد إلى ما هو أبعدُ من طاقاتك الحقيقية، ومتى وجب أن ترى بعيونِ غيرِك وَجَبَ أن تريدَ بعزائمهم، وتقول مباهيًا: إن شعوبي رعاياي، ولْيكُن ذلك، ولكن مَن أنت؟ إنك تابعٌ لوزرائك، ومَن هم وزراؤك من ناحيتهم؟ إنهم تابعون لِكَتَبَتِهم وخليلاتهم، وخَدَمةٌ لخُدَّامهم، وخُذوا كلَّ شيء، واغتصبوا كلَّ شيء، ثُمَّ ابذُلوا المالَ ذات اليمين وذات الشمال، وأقيموا المدفعيات، وانصِبُوا المشانقَ والدواليب، وضَعُوا القوانينَ والمراسيم، وضاعِفوا العيونَ والجنودَ والجلادين والسجون والقيود، فما نَفْعُكم بجميعِ هذا؟ لن تكونوا بهذا أحسنَ خِدْمةً وأقلَّ استراقًا وانخداعًا وأكثرَ استبدادًا، وستقولون دائمًا: سنريد، وستفعلون دائمًا ما يريد الآخرون.

والوحيدُ الذي يُعمِلُ إرادتَه هو الذي لا يحتاجُ لإعمالها إلى وضْعِ ذراعَيْ غيرِه في طَرَفِ ذراعيه؛ ومِنْ ثَمَّ يرى أن الحرية، لا السلطان، هي الخيرُ الأوَّلُ، ولا يريد الرَّجلُ الحرُّ حقًّا غيرَ ما يستطيع، وهو يصنع ما يَرُوقه. وهذا هو مبدئي الأساسي، ولْيُطبَّق على الطفولةِ لِيُرى أنَّ جميعَ قواعدِ التَّربيةِ تصدُر عنه.

والمجتمعُ جعلَ الإنسانَ أكثرَ ضَعْفًا، لا لِنَزْعِه منه ما له من حقٍّ على قُواه الخاصة، بل لِجعْلها غيرَ كافية له على الخصوص. وهذا هو السببُ في كونِ رغائبِه تزيد مع ضَعْفه، وهذا هو الذي يوجِد ضَعف الطفولةِ قياسًا بسِنِّ الرجل. وإذا كان الرَّجلُ موجودًا قويًّا، وإذا كان الولدُ موجودًا ضعيفًا، فليس ذلك لأن الأوَّلَ ذو قوَّةٍ أكثرَ إطلاقًا من الثاني، بل لأن الأوَّلَ يستطيع أن يكفي نفسه طبيعةً، ولأن الآخرَ لا يستطيع هذا؛ ولذا وجب أن يكون الرجلُ أكثرَ عزائمَ وأن يكون الولدُ أكثرَ أهواء، وبهذه الكلمة أقصد جميعَ الرغائب التي ليست احتياجاتٍ حقيقية، والتي لا يُمكن قضاؤها إلا بمساعدةِ الآخرين.

وقد ذكرتُ سببَ حالِ الضَّعف هذا، وتتلافاه الطبيعةُ بتعلُّق الآباءِ والأمهات، ولكن قد يكون لهذا التعلُّقِ شططُه وعيبُه ومساوئه. وينقل الآباءُ الذين يعيشون في الحالِ المدنيةِ ولدَهم إليها قبْلَ الأوان، وهم حين يُنعِمون عليه باحتياجاتٍ أكثرَ مما لديه لا يُخفِّفون ضَعفه، بل يزيدونه، وهم يزيدونه أيضًا بمطالبتِه بما لا تطالبه الطبيعةُ به، وذلك بإخضاعهم لعزائمهم ما عنده من قُوًى قليلةٍ خادمةٍ لعزائمه، وذلك بتحويلهم إلى عبوديةٍ ما بين الطَّرَفَين من تابعيةٍ متقابلة حيث يُمسكه ضَعفُه وحيث يُمسِكهما تعلُّقُهما.

ويَعرِف الرجلُ العاقلُ أن يبقى في مكانه، ولكن الولد الذي لا يَعْرِف مكانَه لا يستطيع أن يحافظَ عليه، ولديه ألفُ منفذٍ للخروج منه، ويجبُ على مَن لهم سيطرةٌ عليه أن يُمسِكوه فيه، وليس هذا عملًا سهلًا. ويجب ألَّا يكون حيوانًا أو إنسانًا، بل ولدًا، ويجب أن يشعُر

بضَعفه لا أن يُعانيه، ويجب أن يكون تابعًا لا طائعًا، ويجب أن يطلبَ لا أن يأمر، وهو لا يخضع للآخرين إلا بسببِ احتياجاته، ولأنهم أحسنُ منه اطِّلاعًا على ما هو نافعٌ له وعلى ما يُمكن أن يساعد على بقائه أو يَضُر. ولا يحقُّ لأحد، حتى للأب، أن يأمرَ الولدَ بِصنْع ما لا ينفعه مطلقًا.

وكانت سعادةُ الأولادِ والرجالِ تقومُ على تمتُّعهم بحريَّتهم، وذلك قبْل أن تُفسِدَ مُبْتَسَرَاتُ الإنسانِ ونُظُمُه غرائزَنا الطبيعية، غيرَ أن الحريَّة في الأولادِ حُدِّدَت بضَعْفِهم. ويُعَدُّ سعيدًا كلُّ مَن يصنعُ ما يشاء إذا كفى نفسَه بنفسِه، وهذا هو وضعُ الرجلِ الذي يعيش في الحالِ الطبيعية. ولا يُعَدُّ سعيدًا كلُّ مَن يصنع ما يشاء إذا ما زادت احتياجاتُه على طاقته، وهذا هو وضْعُ الولدِ الذي يعيش في ذات الحال، حتى إن الأولادَ لا يتمتعون في الحال الطبيعية إلا بحريةٍ ناقصةٍ مشابهةٍ للحرية التي يتمتَّع بها الرجالُ في الحال المدنية. وبما أن كلَّ واحدٍ مِنَّا يعود غيرَ قادرٍ على الاستغناء عن الآخرين، فإنه يصبح ضعيفًا بائسًا من هذه الناحية، وقد خُلقنا لنكونَ رجالًا فغمستنا القوانينُ والمجتمعات في الطفولة ثانية. ويُعَدُّ الأغنياءُ والعظماء والملوك كلهم أولادًا أبصروا أننا نبادرُ إلى تخفيف بؤسهم، فاستخرجوا من هذا غرورًا صبيانيًّا، وقد كانوا يَبْدُون فُخْرًا من عنايةٍ لا تُبذَل لهم لو كانوا رجالًا ناضجين.

وهذه اعتباراتٌ مهمة، وهي تَصْلح لحلِّ جميعِ المتناقضات في النظام الاجتماعي. ويوجد للعلاقات نوعان: علاقة الأشياء التي هي من الطبيعة، وعلاقة النَّاس التي هي من المجتمع. وبما أنه لا يوجد لعلاقة الأشياء أيةُ خُلُقية فإنها لا تَضُرُّ الحريةَ مطلقًا، وهي لا تُوجِد عيوبًا مطلقًا، وبما أن علاقة النَّاس مختلطة[٤] فإنها تُوجِدها جميعًا، وهي تُفسد السيدَ والعبدَ مقابلةً، وإذا كان يوجَد من الوسائل ما يُدَاوى به هذا الشرُّ في المجتمع قام ذلك على استبدالِ القانونِ بالإنسانِ، وعلى تجهيز العزائم العامة بقوة حقيقية تعلو عملَ كلِّ إرادة خاصة، ولو أمْكن قوانينَ الأممِ أن يكون لها ما لقوانين الطبيعة من صلابة لا تستطيع أيةُ قوة بشرية أن تَقْهرها لصارت علاقةُ النَّاسِ علاقةَ الأشياء، وجُمِع في الجمهورية جميعُ

[٤] أثبتُّ في كتابي «مبادئ الحقوق السياسية» أنه لا يوجد أي إرادة خاصة يمكن تنظيمُها بالنظام الاجتماعي.

منافع الحال الطبيعية والحال المدنية، وأُضِيفَت إلى الحريةِ التي تَحفظ الإنسانَ خاليًا من العيوب خُلقيةٌ تَرْفعه إلى الفضيلة.

واحتفِظوا بالولدِ تابعًا للأشياء تَكونوا قد اتَّبعتم نظامَ الطبيعةِ في تَقدُّم تربيته، ولا تَعترِضوا عزائمَه غيرَ الصائبة بغيرِ الموانعِ المادية أو العقوبات الناشئة عن الأعمال نفسِها، والتي يَذْكُرها في الوقت المناسب، وذلك مع الاكتفاء بمنعه من صُنْع الخطأ، ومع عدم تحريم الخطأ عليه، والتجرِبة أو عدم القدرة، وحدَها هي ما يجب أن يقوم مقامَ القانونِ عنده. ولا تُعْطُوه ما يَرْغب فيه لأنه طلبه، بل لاحتياجه إليه. ولا ينبغي أن يَعْرِف ما الطاعةُ عندما يسير، ولا الاستبدادُ عندما يُعْمَل من أجْلِه. ولْيشعرْ بحرِّيته في أفعاله وفي أفعالكم على السواء، وعوِّضوه من القوة التي تُعْوِزه، وذلك بالمقدار الذي يحتاج إليه ليكون حُرًّا، لا ليكون جبَّارًا، حتى إذا تناول خِدَمكم على استحياءٍ تاقَ إلى الزَّمن الذي يستغني فيه عنها، ويكون له شرفُ خدمةِ نفسِه بنفسه.

وللطبيعة في تقويةِ البدنِ وإنمائِه من الوسائلِ ما لا تجوزُ مقاومتُه. ولا يجوز أن يُكرَه الولد على البقاءِ إذا ما أَراد الذهاب، ولا على الذهابِ إذا ما أراد البقاء. وإذا كانت إرادةُ الأولادِ لم تَفسُد بخطأٍ مِنَّا لم يريدوا شيئًا بلا طائل. ويجب أن يَقفِزوا وأن يركضوا وأن يصرخوا متى شاءوا، وجميع حركاتهم من احتياجاتِ بُنيتِهم التي تحاول أن تشتدَّ، ولكن يجب أن يُحذَر مما يرغبون فيه من غيرِ أن يَقدِروا على صُنْعه بأنفسهم، ومما يُلزَم الآخرون بصُنعه لهم، وهنالك يجبُ أن يُفرَّق بعنايةٍ بين الاحتياجِ الحقيقي الذي هو احتياج طبيعي، واحتياجِ الهوى الذي يأخذ في الظهور، أو الاحتياجِ الذي لا ينشأ إلا عن فَيضِ العيش، وهو ما تكلمتُ عنه.

وكنتُ قد قلتُ ما يجب أن يُصنَع عندما يبكي الولدُ لينالَ هذا أو ذاك، وإنما أُضيف إلى ذلك أنه إذا ما استطاع أن يَطلُب بالقول ما يَرغبُ فيه، فدَعَمَ طلبَه بالبكاءِ نيلًا له بسرعةٍ أو تغلُّبًا على رفضٍ؛ وَجَبَ أن يُضنَّ عليه به حتمًا. وإذا كان الاحتياجُ هو الذي حَمَله على الكلامِ وجبَ أن تَعرِفوا ذلك وأن تُلَبُّوا طلبه حالًا، ولكن الإذعان لدموعه في أمرٍ ما يتضمن تحريضًا له على سَكْبها، ينطوي على تعليمه أن يَشُكَّ في حُسْنِ مَقْصدِكم، ويَحْمله على الاعتقاد بأن للإزعاجِ من التأثيرِ فيكم ما ليس للاستعطاف، وهو لا يَلبث أن يكون خبيثًا إذا لم يعتقد صلاحَكم، وهو لا يَلبث أن يكون عنيدًا إذا اعتقدَ ضَعفَكم؛ فالرأي أن يُمنَح عندَ أوَّلِ إشارةٍ ما لا يُراد رفضه. ولا تُسرفوا في الرفضِ مطلقًا، ولكن لا تَنقُضوا رفضَكم عند وقوعه.

واحترزوا، على الخصوص، من مَنْحِ الولدِ صِيَغًا فارغةً في الكِياسة، يتخذها عند الحاجةِ ككلامٍ سحريٍّ لإخضاعِ مَن يحيطون به لإرادته، فينال ما يَرُوقه من فَوْره. ولا يُقصَّر في تربيةِ الأغنياءِ القائمةِ على التصنُّع أن يُجعَلوا متعاظمين مع تأدُّب، وذلك بفرضِ تعبيراتٍ يستعملونها، فلا يجرؤ أحدٌ على مقاومتِهم معها، وليس لأولادهم لهجةُ الضارعين ولا أوضاعهم، وهم متعاظمون عندما يرجون كما يكونون عندما يأمرون، بل يكونون أكثرَ تعاظمًا عند الرجاء مما عند الأمر، كما لو كانوا أكثرَ يقينًا بأن يُطاعوا. وأوَّل ما يُرى أن كلمة «إذا ما طاب لك» تَعني «يَطِيب لي»، وأن كلمة «أرجوك» تَعني «آمرك». ويا لها من كِياسةٍ لا تؤدي عندهم إلى غيرِ تغييرِ معنى الكلمات وإلى عدم القولِ بغيرِ هيمنة! وأمَّا أنا الذي يخشى أن يكون إميلُ متكبِّرًا أكثرَ من أن يكون غليظًا، فأُفضِّلُ أن يقولَ عند الرَّجاء: «اصنعْ هذا» على الأمر بقوله: «أرجوك»؛ فلستُ أبالي بالتعبيرِ الذي يستعمله، بل بالمعنى الذي ينطوي عليه.

ويوجد إفراطٌ في الشِّدةِ وإفراطٌ في التساهل، فيجب اجتنابُ الأمرَين على السواء، فإذا ما تركتم الأولادَ يتألمون عرَّضْتم صحَّتَهم وحياتَهم للخطر، وجعلتموهم تعساء، وإذا ما بذلتم جُهدًا كبيرًا في وقايتهم من كلِّ سوء أعددتموهم لأعظمِ المصائب، وجعلتموهم قُصُفًا دقيقِي الإحساس، وأخرجتموهم من حالِ الرجل التي سيكونون عليها ذات يومٍ على الرغم منكم. وأنتم إذ لم تُعرِّضوهم لبعضِ مضارِّ الطبيعةِ تكونون سببَ المضارِّ التي لم تُصبهم بها، وستقولون لي إنني أقع في مثلِ حالِ الآباءِ الأرْدياءِ الذين لُمتُهم على تضحيتهم بسعادةِ الأولاد، ناظرين إلى زمنٍ بعيدٍ يُمكن ألَّا يكون.

كلَّا؛ وذلك أن الحرية التي أحْبُو بها تلميذي تُعوِّضه من المشاقِّ الخفيفة التي أَدَعُه مُعرَّضًا لها، وأرى أولادًا صغارًا يَلعبون على الثلجِ مُزرقِّي الوجه مُقرَّسِين، ولا يكادون يُحرِّكون أصابعَهم بَرْدًا، وليس عليهم إلا أن يذهبوا ليُدفِّئوا أنفسهم، فلا يفعلون هذا مطلقًا، وإذا ما أُكرِهوا على هذا شَعروا بأن ضغطَهم أشدُّ وطْئًا مائةَ مرةٍ من شدةِ البَرْدِ الذي يُحِسُّون، ومن أيِّ شيءٍ تتوجَّعون إذن؟ أَوَأَجْعل ولدَكم تَعِسًا بعدمِ تعريضي إياه للمضارِّ التي يريدُ معاناتها؟ أصنعُ الخيرَ له في الوقتِ الحاضرِ بترْكِه حُرًّا، وأصْنعُ الخيرَ له في المستقبل بتسليحه ضدَّ الشرورِ التي يجب أن يقاسيها، وهل يتردَّد ثانيةً في الاختيارِ لو خُيِّرَ بين أن يكون تلميذي وتلميذَكم؟

أَوَتظنون وجودَ إنسانٍ يَجِدُ سعادةً حقيقيَّةً خارجَ جِبِلَّته؟ أَوَلَا ينطوي كلُّ سعيٍ في وقايةِ الإنسانِ من جميعِ شرورِ نوعه على إخراجٍ له من جِبِلَّته أيضًا؟ أجلْ، إن طبيعته تقوم على مكابدته الشرورَ الصغيرةَ ليشعرَ بالخيورِ الكبيرة، ولو صحَّ الجسمُ كثيرًا لَفَسدت الأخلاق، ومَن لم يَعْرِف الألمَ لم يَعْرِف حنانَ الإنسانِ ولا حلاوةَ الرحمة؛ فلا يُحرِّك فؤادَه شيء، ولا يكون أنيسًا، وإنما يكون بين أمثالِه غُولًا.

أَوَتعرِفون أضْمنَ وسيلةٍ لجعلِ ولدِكم تَعِسًا؟ أن تُعَوِّدوه نيلَ كلِّ شيء، وذلك أن رغباته تزيدُ بلا انقطاعٍ مع سهولةِ قضائها، ويُلْزِمكم عدمُ القدرةِ بأن تَرفِضوا على الرغم منكم عاجلًا كان هذا أو آجلًا، ويُورِثه هذا الرفضُ غيرُ المعتاد أَلَمًا أشدَّ من حرمانِه ما يريد، والعصا التي تُمسِكون هي أوَّلُ ما يريد، ولا يَلبث أن يريد ساعتَكم، ثُمَّ يريد الطَّير الذي يطير، ثُمَّ يريد النجمَ الساطع، ثُمَّ يريد كلَّ ما يرى، وكيف تُرضُونه إذا لم تكونوا إلهًا؟

ومن خصائصِ الإنسانِ الطبيعية أن يَعُدَّ مالًا له كلَّ ما هو داخلٌ ضِمْن قُدْرته، ومن هذه الناحية يكون مبدأُ هوبز صحيحًا إلى حدٍّ ما، وذلك أن تُكثِروا مع الرغائبِ وسائلَ قضائِها حتى يصبح كلُّ واحدٍ سيدَ الجميع؛ ولذلك يَظنُّ الولدُ أنه مالكُ الدنيا لِمَا ليس عليه غيرُ الإرادة. وهو يَنْظرُ إلى جميعِ النَّاسِ كعبيدٍ له، وهو عندما يُضَنُّ عليه بشيءٍ عن اضطرارٍ يَعُدُّ هذا الرفضَ ضربًا من التَّمرُّدِ لِمَا يَعتَقِد إمكانَ كلِّ شيءٍ إذا أمر. وهو إذا ما أُدْلِيَ له بأسبابٍ عن ذلك في دَوْرٍ من العُمُر يَعجِز فيه عن التمييز، لم تكن هذه الأسبابُ عنده غيرَ ذرائع؛ فيَرى سوءَ القصدِ في كل مكان. وهو إذ كان من طبيعته أن تتأثرَ بحسٍّ من الجَوْر المزعوم؛ فإنه يَحقِد على جميعِ العالَم، ويشتاط غيظًا من كلِّ مُعارضةٍ عن عدمِ شعورٍ بالجميل.

وكيف أتصوَّر ولدًا يكون سعيدًا بعد أن يكون موئلًا للغيظِ وفريسةً لأشدِّ الأهواءِ فعلًا؟ هو سعيدٌ! هو مستبِد، هو أشدُّ العبيدِ نذالةً وأكثرُ المخلوقات شقاء. ولقد شاهدتُ أولادًا يُربَّوْن على هذا الوجه، ويريدون تدميرَ المنزلِ بصدمةِ كَتِف، وأن يُعطَوا الدِّيك الذي يَرَوْن على بُرج الأجراس، وأن تُوقَفَ كتيبةٌ وهي تسيرُ لِيَسْمعوا الطُّبولَ أطولَ وقتٍ ممكن، وأنهم يَشُقُّون الهواءَ بصُراخِهم غيرَ مُنصتِين لأحدٍ إذا ما أُبطِئَ في الإذعانِ لهم. وكلٌّ يسعى لاسترضائهم، ولكن على غير جدوَى؛ فرغائبُهم تشتدُّ بسهولةِ نَيْلِ الشيء. وهم يُصِرُّون على

المستحيلات، ولا يَجدون غيرَ المعارَضات والموانع والهموم والآلام في كل مكان. وهم يَقْضُون الأيامَ في الصُّراخِ والتوجُّعِ مزمجرين دائمًا، عُنَدَاءَ دائمًا، غِضابًا دائمًا، وهل هم سعداءُ هنالك؟ لا ينشأ عن الضَّعْفِ والهيمنةِ غيرُ الحماقةِ والبؤسِ إذا ما اجتمعا، وأحدُ الوَلَدَين المُدلَّلَين يَضْرِب المائدةَ بالسوط، ويَضْرِبُ الآخَرُ البحرَ به، ولا بُدَّ لهما من الضربِ بالسوطِ والعصا قبْل أن يعيشا راضيَين.

وإذا كانت مبادئُ السيطرةِ والطغيانِ هذه تجعلهم تُعساءَ منذ طفولتهم؛ فما يكون الحالُ إذا ما كَبِرُوا وأخذتْ صلاتُهم بالآخرين تَطُول وتَكثُر؟ وهم إذ تَعوَّدوا رؤيةَ كلِّ شيء يَنْثَني أمامهم، فما أشدَّ ما يُدهَشون عند دخولِهم العالَم، من مقاومةِ كلِّ شيءٍ لهم، ومن حِسِّهم أنهم مسحوقون بأثقالِ هذا العالَم الذي كانوا يظنون أنهم يُحرِّكونه كما يشاءون!

ولا تأتيهم أوضاعُهم العاتيةُ وعُجْبُهم الصبيانيُّ بغيرِ الخزي والازدراء والتهكُّم، وهم يشربون الإهاناتِ كالماء، ولا تَلبَث التجارِبُ القاسيةُ أن تُعلِّمهم أنهم لا يَعْرِفون حالَهم ولا قُواهم. وهم إذ لا يَقدِرون على كلِّ شيء يظنون أنهم لا يَقدِرون على شيء، وتَصدُّهم عوائقُ كثيرةٌ غيرُ معتادة، ويُذِلُّهم احتقارٌ كثير، ويُصبِحون أخِسَّاءَ جبناءَ صاغرين، ويسقطون إلى ما هو أقلُّ من مستواهم بنسبةِ ما كانوا قد عَلَوْه.

ولْنَعُدْ إلى القاعدةِ الابتدائية؛ فالطبيعةُ قد خلقتِ الأولادَ لِيُحَبُّوا، ويُساعَدوا، ولكن هل صنعَتْهم ليُطاعُوا ويُخَافوا؟ وهل منحتهم وقارًا وجفاءً وصوتًا شديدًا متوعِّدًا حتى يكونوا مرهوبين؟ أَعْرِف أن زئيرَ الأسدِ يُرعب الحيوانات، وأنها تَرتعد عندما تُبصر لُبْدَته، ولكن هل شُوهِد منظرٌ شائنٌ كريهٌ مثيرٌ للسُّخرية كمنظرِ جَمْعٍ من الحكَّام، وعلى رأسهم قاضي القضاة، لابسين حُلَلهم الرسمية، راكعين أمام ولدٍ في القِماط، خاطبين فيه بفَخْمِ الكلام، فلا يُجيبهم بغيرِ العويلِ واللعاب؟

وإذا نُظِر إلى الطفولةِ نفْسِها، فهل يوجد في العالَم مَن هو أضعفُ من الولدِ وأكثرُ منه بؤسًا وأدعَى منه إلى رحمةِ مَن يحيطون به، وأحوجُ منه إلى الشَّفَقةِ والعنايةِ والحماية؟ ألَا يلوح أنه لا يُبدي وجهًا بالغَ الوَدَاعة، ومظهرًا بالغَ التأثير، إلَّا لِيُبالي بضَعفه جميعُ مَن يدنون منه ويبادِروا إلى مساعدته؟ وأيُّ شيء إذن أكثرُ إيلامًا وأعظمُ مخالفةً لنظامِ الأمورِ من أن يُرى ولدٌ متجبِّرٌ عنيدٌ يأمر جميعَ مَن هم حوله منتحِلًا بوقاحةٍ لهجةَ السيدِ نحو الذين ليس عليهم غيرُ تَرْكه لِيَهلِك؟

ومَن ذا الذي لا يَرى من ناحيةٍ أخرى أن ضَعفَ الدَّوْرِ الأوَّلِ يُقيِّدُ الأولادَ على وجوهٍ كثيرة، وأن من القسوةِ البالغةِ أن يُضاف إلى هذا القهرِ قسرُ أهوائنا، وذلك بأن تُنْزَعَ منهم

حريةٌ محدودةٌ جِدًّا، فلا يستطيعون أن يُسيئوا استعمالَها إلا قليلًا جِدًّا، حريةٌ ضيقةٌ لا يفيدهم ولا يفيدنا، نَزْعُها منهم إلا قليلًا جِدًّا؟ وإذا كان لا يوجد شيءٌ يستحِقُّ الهزوءَ أكثرَ من ولدٍ متكبِّرٍ فإنه لا يوجد شيءٌ يستحِقُّ الرحمةَ أكثرَ من ولدٍ جَزُوع. وتبدأ العبوديةُ المدنيةُ بسِن الرُّشد، فلِمَ تُسْبَق بالعبوديةِ الخاصة؟ ولْنَدَعْ حينًا من الحياةِ خاليًا من هذا النِّير الذي لم تَفْرضه الطبيعةُ علينا، ولْنترك للطفولة ممارسةَ الحريةِ الطبيعية التي تُبعدها بعضَ الزَّمن من العيوبِ الملازمة للعبودية، ولْيأتِ إذن هؤلاء المُعلِّمون الأشداءُ وهؤلاء الآباءُ المُعبَّدون لأولادهم مع اعتراضاتهم الطائشة وليتعلَّموا مِنهاجَ الطبيعةِ مرةً قبْل أن يُفاخِروا بمناهجهم.

وأعود إلى العمل، وكنتُ قد قُلْتُ إنه لا ينبغي لولدِكم أن يَنال شيئًا لأنه يطلبه، بل لاحتياجه إليه،[٥] ولا ينبغي له أن يفعل شيئًا عن طاعة، بل عن ضرورةٍ فقط، وهكذا فإن كلمتَي الطاعة والأمر يجب أن تزولا من مُعجمه، وأكثرُ من ذلك محو كلمتَي الواجب والالتزام منه، ولكن يجب أن يكون فيه مكانٌ واسعٌ لكلمات القوة والضرورة والعجز والقَسْر، ولا يمكن أن تكون قبْل سِن الرُّشد فكرةٌ عن الموجودات المعنوية والصِّلات الاجتماعية. ويجب إذن أن يُجتنَب ما أمكن استعمالُ الكلمات التي تُعبِّر عنها، وذلك خشيةَ أن يُعلِّق الولدُ على هذه الكلمات، في بدءِ الأمر، أفكارًا فاسدةً لا يُعرَف أو يُستطاع القضاءُ عليها مطلقًا. وأوَّلُ فكرٍ فاسدٍ يَدخل رأسه هو بذرةُ الخطأ والعيب، وهذه هي أوَّلُ خطوةٍ يجب أن يُنتبَه إليها على الخصوص، واصنعوا ما تقف معه جميعُ أفكاره عند حدِّ الإحساسات ما دام غيرَ متأثرٍ بسوى الأفكارِ الحسية، واصنعوا ما لا يَشْعُر معه بغيرِ العالَم الحسي فيما حوْله، وإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنه لن يستمع إليكم مطلقًا، أو أنه سيجعل من العالَم الأدبي الذي تكلِّمونه عنه، مبادئَ وهميةً لن تمحُوها من حياته.

وكانت البرهنةُ مع الأولادِ أعظمَ مبدأ لـ «لُوك»، وهذا المبدأُ أكثرُ المبادئ حُظوةً في الزَّمن الحاضر، ومع ذلك فإن نجاحَه لا يصلح سببًا لِجعْلِه موضعَ اعتبارٍ كما يلوح لي؛ وذلك

[٥] يجب أن يَشعرَ بأن اللذةَ حاجةٌ أحيانًا كما أن الألمَ ضرورةٌ غالبًا، ولا يوجد إذن غيرُ رغبةٍ واحدةٍ للأولادِ لا يجوز أن يُجابوا إليها مطلقًا، وهي أن يُطاعوا، ولذا يجب أن يُنْتبه على الخصوص إلى السببِ الذي يَحْملهم على الطلب، وذلك في جميع ما يطلبون، وامنحوهم، ما أمكن، جميعَ ما يَرُوقهم حقيقةً، وارفضوا دائمًا كلَّ ما يطلبون عن هوًى أو عن حبٍّ للسيطرة.

لأنني أرى أنه لا يوجد مَن هو أحمقُ من أولئك الأولادِ الذين يُبرْهَن معهم كثيرًا. والعقلُ الذي ليس غيرَ مُركَّبٍ من بقيةِ خصائصِ الإنسانِ هو أصعبُ ما ينمو من الخصائصِ وأكثرُها بطُؤًا في النشوء، ثُمَّ يُراد الانتفاعُ به في إنمائها! وأروعُ أعمالِ التَّربيةِ الصالحةِ هو تنشئةُ إنسانٍ عاقل، ثُمَّ يُزعَم تنشئةُ الولدِ بالعقل! هذا بدءٌ من الآخِر، هذا عملٌ لآلةِ العمل، ولو كان الأولادُ يُدركون ما العقلُ ما احتاجوا لتربية، ولكنهم إذا ما خُوطبوا منذ طفولتِهم بلغةٍ لا يفهمونها على الإطلاقِ عُوِّدوا الاكتفاءَ بكلمات، وتحقيقَ كلِّ ما يُقال لهم، وظنَّهم أنهم حكماءُ كمُعلِّميهم وأن يكونوا عُنَداء مجادلين؛ فلا يُنال بغيرِ عواملِ الطمعِ ما يُظنُّ أنه يُنال منهم بعواملَ عقلية، بغيرِ عواملِ الطمعِ أو الخوفِ أو الزهوِ التي يُضطَرُّ إلى إضافتها إلى تلك العوامل.

وإليك الصيغةَ التي يُمكن أن تُرَدَّ إليها تقريبًا جميعُ دروس الأخلاقِ التي تُلقى على الأولادِ والتي يمكن أن تُلقى عليهم:

المُعلِّم: لا يجوزُ فعلُ هذا.

الولد: ولِمَ لا يجوزُ فعلُ هذا؟

المُعلِّم: لأنه خطأ.

الولد: خطأ! ما الخطأ؟

المُعلِّم: ما تُمنع منه.

الولد: ما الخطأ فيما أصنعُ فأُمْنَعَ منه؟

المُعلِّم: ستُعاقَب على عصيانك.

الولد: سأفعله بما لا يُعرَف عنه شيء.

المُعلِّم: سأرْقُبُك.

الولد: سأتوارى.

المُعلِّم: سنسألك عمَّا كنت تفعل.

الولد: سأَكْذِب.

المُعلِّم: لا ينبغي أن تَكْذِب.

الولد: لِمَ لا ينبغي أن أَكْذِب؟

المُعلِّم: لأن هذا خطأٌ ... إلخ.

تلك هي الدائرةُ التي لا مفرَّ منها، فإذا ما خرجتم منها عاد الولدُ لا يعي ما تقولون، أَوَليست هذه دروسًا مفيدةً جِدًّا؟ إن من فضولي الكبيرِ أن أعْرِفَ ما يُمكن أن يُوضَع في مكانِ هذه المحاورة، حتى إن لُوكَ نفسَه كان يرتبك في هذا لا رَيب. وليس من عملِ الولدِ أن يَعْرِف الخطأَ والصواب، وأن يُدرِكَ سببَ واجباتِ الإنسان.

وتريد الطبيعةُ أن يكون الأولادُ أولادًا قبْل أن يكونوا رجالًا، وإذا أردنا أن نُخِلَّ بهذا النظامِ اقتطفنا ثمراتٍ بَدْريةً خاليةً من النُّضج والطَّعم فلا تُعَتِّم أن تَفسُد، وبذلك يكون لدينا أساتذةٌ أحداثٌ وأولادٌ شيوخ. وللطفولة وجوهُ بصرٍ وتفكيرٍ وشعورٍ خاصةٌ بها، ولا شيءَ أقلُّ صوابًا من أن نريد أن نستبدل بها ما عندنا، وأُفضِّل المطالبةَ بأن يبلغ الولدُ من الطولِ خمسَ أقدام، على أن يكون حصيفًا في العاشرةِ من سِنِيه، وما نفعُ العقلِ له في هذه السِّن حقًّا؟ إن العقلَ رادعُ القوة، ولا يحتاج الولدُ إلى هذا الرادع.

وأنتم حين تحاولون إقناعَ تلاميذكم بواجبِ الطاعة، تضيفون القوَّةَ والتهديد إلى هذا الإقناعِ المزعوم، أو تأتون بما هو شرٌّ من هذا؛ أي بالمداراة والوعود. وهكذا يُجذَب الأولادُ بالمصلحة أو يُجبَرون بالقوَّة فيتظاهرون بالقناعةِ بفعلِ العقل، وهم يَرون جيِّدًا أن الطاعةَ نافعةٌ وأن العصيانَ ضارٌّ بهم فَوْر ما تَشْعرون بهذا أو ذاك. ولكنْ بما أنكم لا تطلبون منهم شيئًا غيرَ مستكْرَهٍ لديهم، وبما أن الأمورَ الشاقة دائمًا أن تُنفَّذَ إرادةُ الآخرين؛ فإنهم يتستَّرون تنفيذًا لإرادتهم الخاصة، قانعين بأنهم يَصنعون خيرًا إذا ما جُهِلَ عدمُ إطاعتهم، ولكن مع اعترافهم بأنهم يصنعون سوءًا إذا ما كُشف أمرُهم، وهذا خوفًا من أعظمِ شرٍّ. وبما أن عاملَ الواجب فوق عُمُرهم، فإنه لا يوجد في العالَم رجلٌ قادرٌ على جعْلهم يشعرون به حقًّا، غير أن خوفَ العقابِ وأملَ العفوِ واللجاجَ وصعوبةَ الجوابِ أمورٌ تؤدي إلى انتزاعِ جميعِ الاعترافات التي تُطلَب منهم، ويُعتَقد أنهم يُقْنَعون عندما يُسْأمون أو يُرْهبون.

وما ينشأ عن ذلك؟ أوَّلًا: إنكم بفرضِكم عليهم واجبًا لا يُدركونه تنفِّرونهم من سيطرتكم، وتَصُدُّونهم عن محبَّتِكم، وتُعلِّمونهم أن يكونوا مُداجين مُخادعين كاذبين نيلًا للجوائز أو اجتنابًا للعقوبات. وأخيرًا بتعويدكم إياهم أن يَستُروا دائمًا عاملًا خفيًّا تحت عاملٍ ظاهر، تمنحونهم بأنفسكم وسيلةَ مخاتلتِكم بلا انقطاع، وحرمانِكم معرفةَ أخلاقِهم الحقيقية، ودفعِ كلامٍ فارغٍ إليكم وإلى غيركم في الوقت المناسب، وتقولون إن القوانين وإن

كانت تُقيِّد الشعورَ تقوم بعينِ القَسْر نحو مَن بلغوا أَشُدَّهم. وأوافق على هذا، ولكن مَن هم هؤلاء الرجالُ إن لم يكونوا أولادًا أفسدتْهم التَّربية؟ هذا ما يجب اجتنابُه ضبطًا، فاستعمِلوا القوَّةَ مع الأولادِ، والعقلَ مع الرجال، هذا هو النظام الطبيعي، ولا يحتاج الحكيمُ إلى قوانين.

وعامِلوا تلميذَكم على حَسَبِ سِنِّه، وضَعُوه في مكانِه منذ البُداءة، وأمسِكوا فيه جيِّدًا، فلا يحاول الخروجَ منه، وهنالك يمارس أهمَّ الدروسِ قبْل أن يَعْرِف ما الحكمة، ولا تُلقُوا إليه أيَّ أمرٍ في أي شيءٍ على الإطلاق، حتى إنه لا ينبغي أن تدَعُوه يتمثَّل وجودَ زعْمٍ لكم بأيِّ سلطانٍ عليه، ولْيعلَم فقط أنه ضعيفٌ وأنكم أقوياء، وأن وضعَه ووضعَكم يوجبان وجودَه تحت رحمتِكم بحكم الضرورة، ولْيُدرِكْ هذا ولْيَعْرِفه ولْيشعر به، ولْيشعر باكرًا بأن النِّيرَ الشديدَ الذي فرضتْه الطبيعةُ على الإنسانِ قائمٌ على رأسه المتكبِّر، لِيَشعرْ بنِيرِ الضرورةِ الثقيل الذي يجب على كلِّ موجودٍ متناهٍ أن ينحنيَ تحته، ولْيُبصِرْ هذه الضرورةَ في الأشياء، لا في هوى النَّاس،[٦] ولْتكن القوةُ لا السلطةُ هي الزاجرَ الذي يُمسِكه، ولا تَحظُروا عليه ما يجبُ أن يمتنعَ عنه، بل امنعوه من فِعْله بلا إيضاحٍ ولا برهان، وما تمنحونه إياه امنَحُوه عند أوَّلِ كلمةٍ منه، امنَحُوه بلا توسُّلٍ منه ولا رجاءٍ وبلا شروط، امنَحُوه إياه طيِّبي الخاطر، ولا تَرفِضوا بلا امتعاض، ولكن لِيكنْ كلُّ رفضٍ منكم لا يُنقَض، وألَّا يَهُزُّكم أيُّ إزعاجٍ كان، ولْيكُن قولُ «لا» منكم جدارًا من قُلُزٍّ،[٧]* حتى إذا ما حاول الولدُ أن يقوِّضه خمسَ مرات أو ستَّ مرات ارتدَّ ولم يَعُدْ إلى مثلِ هذا قَط.

وهكذا تجعلونه صبورًا معتدلًا مُسلِّمًا هادئًا، حتى عند عدمِ نيْله ما أراد؛ وذلك لأن من طبيعةِ الإنسانِ أن يحتملَ صابرًا ضرورةَ الأمور، لا سوءَ قصْدِ الآخرين. وتُعَدُّ الكلمة «عاد لا يُوجَدُ منه» جوابًا لم يعانده ولدٌ قَطُّ ما لم يعتقد أنه ينطوي على كَذِب، ولا وَسَطَ هنا مطلقًا؛ فإما ألَّا تطلبوا منه شيئًا، وإمَّا أن تَحْمِلوه على أتمِّ طاعةٍ في أوَّلِ الأمر. وتقوم أسوأُ تربيةٍ على ترْكِه مترجِّحًا بين عزائمكم وعزائمه، وعلى جدالٍ دائمٍ يقع بينكم وبينه حولَ مَن يكون منكما سيِّدًا، وأفضلُ مائةَ مرة أن يَخرج من هذا سيِّدًا دائمًا.

---

[٦] لِيُعْلَم أن الولدَ يَعُدُّ من الأهواء كلَّ إرادةٍ مخالفةٍ لإرادته، ولا يَعْرِف سببًا لها، والواقعُ أن الولدَ لا يدرك سببًا لأي شيء لا يلائم أهواءه.

[٧] * القُلُزُّ: النُّحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

ومن الغرابةِ بمكانٍ أنه لم يُتمَثَّلْ، منذ أخذَ النَّاسُ يُفكِّرون في تربيةِ الأولاد، طريقٌ لقيادتهم غيرُ المنافسة والغَيرة والحسد والزهو والطمع والجُبن الدَّنيِّ وأخطرِ الأهواء وأسرعها اختمارًا وأصلحها لإفساد النفس حتى قبل أن يتمَّ نشوءُ البدن. وتُغرَس نقيصةٌ في صميمِ فؤادهم عند كل درسٍ باكرٍ يُراد إدخالُها إلى رءوسهم. وقد بلغ بعضُ المُعلِّمين من السخافة ما يرَوْن معه أنهم يأتون بالعجائبِ بجعلهم الأولادَ أشرارًا لِيعلِّموهم ما الصلاح، ثُمَّ يقولون لنا برَصانة: «هو ذا الرجل.» أجلْ، هو ذا الرجلُ الذي صنعتموه.

وقد اختُبِرَتْ جميعُ الوسائل عدا واحدة، عدا الوسيلة التي يُمكن أن يُكتَب لها النجاح، وهي الحريةُ الحسنةُ التنظيم، ولا يجوز أن تقوموا بتربيةِ ولدٍ إذا لم تَعرِفوا أن تسوقوه إلى حيث تريدون بدساتيرِ الممكنِ والمُحال وحدَها؛ فبما أن دائرةَ الممكن والمُحال مجهولةٌ لديه على السواء، فإنها تُوسَّع حولَه وتُضيَّق كما يُراد، ويُقيَّدُ ويُساقُ ويُمسَك بقيدِ الضرورة وحدَها من غيرِ أن يتذمَّر، ويُجعَل مَرِنًا سَلِسَ القِياد بقوَّة الأشياءِ من غيرِ أن يُتاح لأي عيبٍ من الفُرَص ما ينْبُت معه فيه؛ وذلك لأن الشهوات لا تنتعش ما دامت غيرَ ذاتِ فعل.

ولا تُلْقُوا أيَّ درسٍ شفويٍّ على تلميذكم، ولا يجوزُ أن يتلقَّى من الدروسِ غيرَ التجربة، ولا تَفْرِضوا عليه أيَّ نوعٍ من العقوبات؛ وذلك لأنه لا يَعْرِف ما فِعْلُ الخطأ، ولا تَحْمِلُوه على طلبِ العفوِ مطلقًا؛ وذلك لأنه لا يَعْرِف أن يسيء إليكم، وبما أنه خالٍ من كلِّ خُلُقيةٍ في أفعاله فإنه لا يستطيع أن يصنع ما هو سيءٌ خُلُقيًّا، فيستحقَّ عقابًا أو عتابًا.

وأرى القارئَ المذعورَ يَحكم في هذا الولدِ بأولادِ زماننا، وهو مخطئٌ في هذا، وذلك أن ما تُمسِكون به تلاميذَكم من مضايقةٍ دائمةٍ يُحرِّك فعاليتهم، وأنه كلَّما ضُيِّق عليهم تحت أعينكم بَدَوْا أكثرَ طيشًا حينما يُفلِتون، فيجب أن يُعوَّضوا من الضغطِ الشديدِ الذي تجعلونهم فيه. ويأتي اثنان من طلابِ المدينةِ من التَّلَفِ في بلدٍ أكثرَ مما يأتيه شبابُ قريةٍ بأسْرها، واحبِسوا حضريًّا صغيرًا وقرويًّا صغيرًا في غرفةٍ تَجِدوا الأوَّلَ منكَّسًا منهوكًا قبل أن يتحرك الثاني من مكانه، ولِمَ هذا إذا لم يكن أحدُ الاثنين يُسرع إلى العبثِ بوقتٍ من التحلل، على حين لا يُهرَع الآخَر، المطمئن إلى حريته دائمًا، إلى ابتذالها مطلقًا؟ ومع ذلك فإن أولادَ القَرويين يُدارَوْن ويُناوَءون غالبًا، فلا يزالون بعيدين من الحالِ التي أريدُ أن يُمْسَكوا فيها.

ولْنضعْ قاعدةً ثابتةً قائلةً إن حركات الطبيعة الأُولى مستقيمةٌ دائمًا، فلا يوجد في القلبِ البشريِّ فسادٌ أصلي، ولا يوجد فيه عيبٌ لا يمكن أن يُقال كيف دخله ومن أين أتاه.

ويقوم الهوى الطبيعيُّ الوحيدُ في الإنسان على حبِّ الذات، أو الأثَرَة بأوسعِ معنًى. وحبُّ الذاتِ هذا صالحٌ نافعٌ بنفسه وبالنسبة إلينا، وبما أنه ليس للولدِ علاقةٌ ضروريةٌ بالآخرين مُطلَقًا، فإنه يُعَدُّ خَليًّا طبيعةً من هذه الناحية، وهو لا يُصْبح صالحًا أو طالحًا إلا بتطبيق حبِّ الذات وما يُعطاه من صِلات. ومن المهم إذن ألَّا يَصْنع الولدُ شيئًا لأنه سمع ورأى، ألَّا يصنع شيئًا بالنسبةِ إلى الآخرين، ولكنْ أن يصنعَ ما تَطلُب منه الطبيعة، وهنالك لا يصنع غيرَ الخير، وذلك إلى أن يُولَد العقلُ الذي هو دليلُ حبِّ الذات.

ولا أقْصِد بذلك أنه لا يصنع سوءًا، وأنه لا يجْرح نفسه أبدًا، وأنه لا يَكسِر أثاثًا واقعًا تحت يده، ويمكنه أن يصنعَ كثيرًا من السوءِ من غيرِ أن يأتي سوءًا؛ وذلك لأن فعْلَ الضررِ يتوقَّف على نية الأذى، وليس لديه مثلُ هذه النيةِ مطلقًا، وهو إذا ما بدا سيئ النيةِ ضاع وغَدَا شَرِيرًا بلا وسيلةٍ تقريبًا.

ومن الأمورِ ما يَعُدُّه الطمعُ سيِّئًا، ولا يَعُدُّه العقلُ هكذا، ومن المناسِبِ أن يُقصى عن الأولاد، إذا ما تُرِكوا أحرارًا تمامًا في ممارسةِ طَيْشهم، كلُّ ما يَجعل حريتَهم تُكلِّف غاليًا، فلا يُجعَل تحت أيديهم شيءٌ ثمينٌ سريعُ العَطَب، ولْيَكُن مسكنُهم مُجهَّزًا بأثاثٍ غليظٍ متين، فلا يكون فيه مَرايا ولا أوانٍ صينيةٌ ولا أدواتٌ من النفائس. وأمَّا إميلُ الذي أُرَبِّيه في الأرياف فلن تشتمل غرفتُه على شيءٍ يَمِيزها من غرفةِ قَرَوي، وما فائدةُ تزيينها بعنايةٍ ما دام لا ينبغي أن يَبقى فيها إلا قليلًا؟ ولكنني مخطئ، فسيُزيِّنها بنفسه، وسنرى كيف يكون هذا عمَّا قليل.

ومع ما تَبْذُلون من حَذَر، إذا حَدَث أن أحْدَث الولدُ بعضَ الخلل، كأن يَكسِر وعاءً نافعًا، فلا تُعاقِبوه عن إهمالٍ منكم ولا تَنْهروه مطلقًا، ولا تُسمِعوه كلمةَ تأنيب، ولا تَدَعوه يُبصِر أنه أورثَكم غمًّا، واتَّخِذوا من الوضعِ ما يُشعِر بأن الوعاءَ قد كُسِر من تلقاءِ نفسه، ثُمَّ اعتقِدوا أنكم تصنعون كثيرًا إذا ما استطعتم ألَّا تقولوا شيئًا.

أَوَأَجْسُر هنا أن أَعرِضَ أعظمَ قواعدِ التَّربية وأهمَّها وأكثرَها نفعًا؟ ليس هذا كسبًا لوقت، بل ضياعٌ له. ويا أيها القارئون من النَّاس، اغفِروا لي بِدَعي، لا بُدَّ من البِدَع عند إنعامِ النَّظر، ومهما تَقُولوا فإنني أُفَضِّل أن أكونَ رَجُلَ بِدَعٍ على أن أكونَ رَجُل مُبْتَسَرات. وأَشدُّ أدوارِ الحياةِ خطرًا هو ما يقعُ بين الوِلادةِ والثانيةَ عشرةَ من السِّن؛ ففي هذا الدَّوْر تنبُت الأضاليلُ والعيوبُ من غيرِ أن يكونَ من الأدواتِ في اليدِ ما يُقضى معه عليها، ومتى أتتِ الأداةُ كانت الجذورُ من التأَصُّلِ ما لا يُمكن معه استئصالُها. أجلْ، لو قفزَ الأولادُ من

الثدي إلى سن الرُّشد بَغتةً لأمكنَ أن تكون التَّربيةُ التي يُعطَوْنها ملائمةً لها، غيرَ أن النشوءَ الطبيعي يقضي بمنحهم تربيةً تختلف عن هذه تمامًا، ومن الواجب ألَّا يُزعَجَ الذِّهنُ قبل نُموِّ قابلياته، وذلك أنه إذا ما كان أعمَى لم يستطِع أن يرى الشعلةَ التي تقدمونها إليه، ولا أن يتَّبعَ في حقلِ الأفكارِ الواسعِ طريقًا بلغ العقلُ من ضَعْفِ رَسْمِها ما لا تكاد أحسنُ العيون معه أن تُبصِرها.

ويجب أن تكون التَّربيةُ الأُولى سلبيةً فقط، فلا تقوم على تعليمِ الفضيلة والحقيقة مطلقًا، بل على وقايةِ القلب من العيب وروح الخطأ، وإذا كنتم قادرين على عدمِ صنْع شيء وعدم ترْكِه يصنع شيئًا، وإذا كنتم قادرين على قيادةِ تلميذكم إلى سِن الثانية عشرة سليمًا عُصْلُبيًّا من غيرِ أن يستطيع التفريقَ بين يده اليمنى ويده اليسرى؛ فإن قوَّة الإدراكِ فيه تنفتح للعقل، وهو إذ يكون خاليًا من المُبْتَسرات والعادات، فإنه لا يكون فيه ما يقاوِم أثرَ رعايتكم، وهو لا يَلبث أن يصير بين أيديكم أحكمَ النَّاس. وأنتم إذ تبدءون بعدم صنْع شيء تكونون قد أتيتم بتربيةٍ ذات إعجاز.

وقاوِموا العادةَ تُحسِنوا صُنعًا دائمًا تقريبًا. وبما أنه لا يُراد أن يُجعَل من الولد ولدٌ، بل أستاذٌ، فإن الآباء والمُعلِّمين لم يَرَوا من العجلةِ قَطُّ أن يُعَزِّر ويُصلَح ويُعنِّف ويُدارَى ويُهدَّد ويُوعَد ويُعلَّم ويُناظَر. وافعلوا خيرًا مما يفعلون، وكونوا على صواب، ولا تُبرهِنوا مع تلميذكم على الإطلاقِ حمْلًا له على استحسانِ ما لا يروقه على الخصوص؛ وذلك لأن سَوْق العقلِ في كلِّ وقتٍ هكذا إلى الأمورِ المستكرهةِ لا يؤدي إلى غيرِ عدِّ العقلِ مُمِلًّا وسقوط حُظوته باكرًا في نفسٍ لم تَبلُغ من الحالِ ما تُدرِك معه أمره. ودرِّبوا بدنَه وأعضاءه وحواسَّه وقُواه، ولكن دَعُوا ذهنَه خليًّا لأطولِ مدة ممكنة. واخشَوا جميعَ المشاعر السابقة للحُكم في تقديرها، واحجُزوا الانطباعاتِ الغريبةَ وقِفوها، وحُولُوا دون وقوع الضرر. ولا تستعجلوا الخيرَ مطلقًا؛ وذلك لأنه ليس هكذا إلا عند إلقاء العقل نورًا عليه. وعُدُّوا كلَّ تأجيلٍ فائدة؛ فمن الغُنْمِ الكبيرِ أن يُتقدَّم إلى الحدِّ من غيرِ أن يُخسَر شيء. ودَعُوا الوَلُودِيةَ تَنْضَج في الأولاد، وأخيرًا هل يكون بعض الدروس نافعًا لهم؟ احترِزُوا من إعطائه اليومَ إذا كان تأخيرُه إلى الغدِ لا يُسْفِر عن خطر.

ويوجد اعتبارٌ آخَرُ يؤيِّد فائدةَ هذا المنهاج، وهو ميلُ الولدِ الخاصُّ الذي يجب أن يُعرَف جيِّدًا ليُعلَم أيُّ نظامٍ خُلُقيٍّ يلائمه؛ فلكل نفْس جِبِلَّتُها الخاصة التي يجب أن يُحكَم في أمر النفس وَفْقَها. والمهمُّ في نجاح كلِّ عنايةٍ أن تقوم على هذه الجِبِلة دون غيرها. ويا أيها الرجال من ذوي البصائر، ارقُبوا الطبيعةَ طويلًا وأنعِموا النظرَ في تلميذكم قبْل

أن تقولوا كلمةً له، ودَعوا بذرةَ سجيته تبدو طليقة، ولا تُلجِئوه إلى أيِّ أمرٍ حتى تَرَوه على حقيقته، أَوَتظنون أنه يُضيِّع دورَ الحرية هذا؟ كلَّا سينتفع به على أحسنِ حال؛ وذلك لأنكم ستتعلمون عدم إنفاق ثانية إذا كان الوقت ثمينًا، وذلك بدلًا من كونكم إذا ما بدأتم بالعمل قبْل أن تعرفوا ما يجب أن يُفعَل قام عملُكم على المصادفة، وأمكن أن تُخدَعوا، ووجب أن تُعيدوا رسمَ الخُطا، وستكونون أكثرَ ابتعادًا عن الهدف كلَّما زادت سرعتُكم في الوصول إليه. ولا تفعلوا إذن كالبخيلِ الذي يخسَرُ كثيرًا لكيلا يخسرَ شيئًا، وضَحُّوا في الدَّوْر الأوَّلِ بزمنٍ ستستردونه مع الرِّبا في دَورٍ آتٍ من العُمُر، وذلك كالطبيب الحكيم الذي لا يُعطي الوَصَفات بطيشٍ عند أوَّل نظرة، والذي يَدرُس مِزاجَ المريض قبل أن يفرض علاجًا؛ أجلْ إنه يبدأ بمداواته متأخرًا، ولكنه يشفيه، على حين يقتله الطبيبُ المستعجل كثيرًا.

ولكن أين نضع هذا الولدَ لتنشئته مثلَ موجودٍ فاقدِ الحسِّ كتمثال آلي؟ أنُمسِكه في كُرة القمر أم في جزيرةٍ قَفْر؟ أَوَنُقصيه عن جميع البشر؟ أفلا يكون له في العالَم باستمرارٍ مظهرُ أهواء الآخرين ومثالِهم؟ أفلا يَرى أولادًا من لِدَاته مطلقًا؟ أفلا يرى أبويه وجيرانه ومُرضِعه ومُرَبِّيته وخادمته، حتى مؤدِّبه الذي لن يكون مَلَكًا مع ذلك كله؟

هذا الاعتراض قويٌّ متين، ولكن هل قُلْت لكم إن التَّربيةَ الطبيعية عملٌ سهل؟ ويا أيها النَّاس! هل أُعَدُّ مذنبًا إذا كنتم قد جعلتم صعبًا كلَّ ما هو صالح؟ أشعُرُ بهذه المصاعب، وأعترف بها، وهي مما لا يُذلَّلُ على ما يحتمل، ولكن مما لا مِراءَ فيه دائمًا أننا بسعْينا في اجتنابها نتجنَّبُها إلى حدٍّ ما، وأُبدي ما يجب أن يُحاوَل للوصول إلى الهدف، ولا أقول إن من الممكن بلوغَه، وإنما أقول إن الذي يدنو منه أكثرَ من سواه يكون أحسنَ توفيقًا.

واذكُروا أنه يجب على مَن يحاوِل تكوينَ رجلٍ أن يكون قبْل ذلك رجلًا، فَيَظهرَ مثالًا يُحتذى. وبينا يكون الولدُ خاليًا من المعرفةِ بعدُ يُوجدُ من الوقتِ ما يُعَدُّ فيه كلُّ ما يُدْنيه من حالٍ لا تقع عيناه فيها على غيرِ الأشياء التي يلائمه أن ينظر إليها. وكونوا محترَمين لدى جميعِ النَّاس، وابدءوا بأن تكونوا مُحبَّبين إليهم حتى يحاول كلُّ واحدٍ أن يُرضيَكم، ولن تكونوا سادةَ الولدِ إذا لم تكونوا رقباءَ على جميعِ مَن يحيطون به، ولن يكفي هذا السلطانُ إذا لم يَقُم على تقديرِ الفضيلة. ولا يقوم الأمرُ على إنفاقِ ما في الكيس وتوزيعِ المال ذات اليمين وذات الشمال؛ فلم أرَ قَطُّ أن المالَ حَبَّب إنسانًا. ولا ينبغي الظهورُ بمظهر البخيل الجافي، ولا التوجُّع من بؤسٍ يُمكِن تخفيفُه. ومن العبثِ أن تفتحوا خزائنكم إذا لم تفتحوا قلوبَكم؛ فستظلُّ قلوبُ غيرِكم مقفلة. ويجب أن تُعطُوا وقتكم وعنايتكم ومودتكم

وأنفسكم؛ وذلك لأنه مهما يكن ما تستطيعون فعْلَه لا يُشْعَر بأن مالَكم هو شخصكم مطلقًا، ويوجد من دلائل النفعِ وحُسن الالتفات ما يكون له أثرٌ أعظمُ من ذاك، وما يكون أفيدُ من جميع العطايا في الحقيقة، وما أكثرَ التُّعساء والمَرضى الذين يحتاجون إلى الترويح أكثرَ مما إلى الصدقات! وما أكثرَ المضطهَدين الذين تنفعهم الحمايةُ أكثرَ من المال! وأصلِحوا بين المختصِمين، وحُولُوا دون رفعِ القضايا، واحمِلوا الأولادَ على الواجب والآباءَ على الإغضاء، ويَسِّروا أمرَ الأنكحة السعيدة، وامنعوا المظالم، واستغِلوا وابذُلوا ثقةَ أبوَيْ تلميذكم نفْعًا للضعيف الذي تُمسَكُ عنه العدالةُ والذي يُرهقه القوي، وصَرِّحوا عاليًا بأنكم حُماة البائسين. وكُونوا منصفين راحمين محسنين، ولا تقتصروا على الصدقة، بل اصنعوا المعروف؛ فأعمالُ الرأفة تُفرِّج من الهموم أكثرَ مما يُفرِّج المال. وأحِبُّوا الآخرين يُحِبُّوكم، واخدِمُوهم يَخدِمُوكم، وكونوا إخوةً لهم يكونوا أولادًا لكم.

وهذا أيضًا من الأسباب التي تجعلني أريدُ تربيةَ إميلَ في الأريافِ بعيدًا من سِفْلة الخَدَم الذين هم أحطُّ النَّاس بعد مُعلِّميهم، بعيدًا من عادات المُدُن السُّود التي يجعلها ما تُسْتَرُ بها من طِلاءٍ فاتنةً مُعْديةً للأولاد، وذلك بدلًا من نقائصِ القرويين الخالية من المُغريات، والموصوفة بالغِلظة، فيَسهُل رفضُها أكثرَ من أن يُغوَى بها إذا لم تقضِ المصلحةُ بتقليدها.

وفي القرية يكون المُربِّي كثيرَ السيطرة على الأشياء التي يريد عَرْضها على الولد، وفي القرية يكون لسُمْعته وأقواله ومثاله من السلطان ما لا يُمكن أن يكون في المُدُن. وبما أن المُرَبِّي في القرية يكون نافعًا لجميع النَّاس، فإن كل واحدٍ يبادر إلى إرضائه ونيْلِ تقديره، وإلى الظهور للتلميذ كما يَوَدُّ المُعلِّم أن يكون عليه في الحقيقة. وإذا لم يُصلَحُ العيبُ في القرية اجتُنِبَ العارُ على الأقل، وهذا هو كل ما نحتاج إليه في موضوعنا.

وانتَهُوا عن لَوْمِ الآخرين على ذنوبٍ اقترفتموها؛ فالأولاد يَفْسُدون بسوءٍ يَرَون أكثرَ من سوءٍ تُعلِّمون. وأنتم إذ تكونون معنِّفين دائمًا، خُلُقيين دائمًا، متحذلقين دائمًا، من أجل فكرةٍ تُعطونهم إياها معتقدين صلاحها، تعطونهم عشرين فكرة أخرى لا قيمة لها. وأنتم إذ تكونون مفْعَمين بما يدور في رءوسكم، لا تُبْصِرون ما تؤدون إليه من نتيجةٍ في رءوسهم. أَوَتَظنون أنه لا يوجد بين سيل الكلام الذي تغمرونهم به بلا انقطاعٍ كلامٌ يسيئون فَهْمه؟ أَفَتَرون أنهم لا يُفسِّرون إيضاحاتكم المطوَّلَةَ على شاكلتهم فلا يَجِدون فيها من الموادِّ ما يجعلون منه جهازًا يدركونه ثُمَّ يعارضونكم به في الوقت المناسب؟

وأنْصِتوا لصبيٍّ صغيرٍ فُرِغَ من درسِهِ منذ قليل، ودَعُوه يَهْذِر ويسأل ويَهْذي على هِينَتِه، تُدهَشوا من الشكل الغريب الذي اتخذتْه براهينُكم في ذهنه؛ فهو يَخلِط بين كل شيء، وهو يَقْلِب كلَّ شيء، وهو يُجزِعكم، وهو يُحزنكم أحيانًا باعتراضاتٍ غيرِ منتَظرة. وهو يَحمِلكم على السكوت أو على إسكاته، وما يمكن أن يكون تفكيرُه في أمرِ هذا السكوتِ من قِبَل رجلٍ يحبُّ الكلام كثيرًا؟ قُل السلامَ على التَّربية إذا ما نال هذه الفائدةَ وسَعَرَ بها؛ فكل شيء يضيع منذ تلك الدقيقة؛ فهو يعود غيرَ طالبٍ أن يتعلَّم، وإنما يحاول أن يصُدَّكم.

ويا أيها المُعلِّمون الغُيُر، كونوا بسطاءَ رُصناءَ فُطُنًا؛ فلا تُغِذُّوا في السَّيْر ما لم يكن هذا لمنعِ سَيرِ الآخرين. وسأقول مكررًا دائمًا: أَقْصُوا درسًا صالحًا إذا أمكن خشيةَ إلقاءِ درسٍ سيئ، واحْذروا في هذه الدنيا، التي جَعلت الطبيعةُ منها أوَّلَ فِردوسٍ للإنسان، أن تمارِسوا وظيفةَ الغاوي، قاصدين منْح الولدِ البريءِ معرفةَ الخيرِ والشر. وبما أنكم لا تستطيعون أن تَحُولُوا دون تلقي الولدِ أمثلةً من الخارج فاقْصِروا جميعَ حَذَرِكم على طبْع هذه الأمثلة في ذهنه على الصورة التي تلائمه.

وتؤدي الأهواءُ الصائلةُ إلى أثرٍ كبيرٍ في الولد الذي يشاهدها؛ وذلك لأنها دلائلُ محسوسةٌ تَقِف نظرَه وتَحْملُه على الانتباه إليها. ويبلغ الغضبُ في حُمَيَّاه من الضجيج ما يتعذَّر معه ألَّا يُدرَك إذا كان تحت البصر، ولا محلَّ للسؤال عن كون هذه فرصةً لدى المُعلِّم يُلقي بها درسًا جميلًا. وَيْ! لا درسَ جميل، لا شيء، لا كلمة واحدة، دَعُوا الولدَ يأتي، ولا يُعوِزُ الولدَ أن يسألكم عن دَهَشٍ من المنظر، والجواب بسيط، وهو يُستخْرَج من ذاتِ الأمورِ التي تَقِفُ حواسَّه، هو يَرى وجْهًا ملتهبًا، وهو يُستخرَج من ذاتِ الأمور التي تَقِفُ حواسَّه. هو يرى وجهًا ملتهِبًا وعينين مشتعلتَين وحركةً متوعِّدة، ويسمع صُراخًا، وكلُّ شيء يدلُّ على اضطراب البدن. وقولوا له بوقارٍ ومن غيرِ غموض: «إن هذا الرجلَ المسكين مريضٌ، إنه يعاني نوبةَ حمَّى.» ويمكنكم أن تغتنموا هذه الفرصة، فتعطوه بكلماتٍ قليلةٍ فكرةً عن الأمراض ونتائجها؛ وذلك لأن هذا من الطبيعة أيضًا؛ وذلك لأن هذا من قيودِ الضرورة التي يجب أن يشعرَ بخضوعه لها.

وهل من الممكنِ عند هذه الفكرةِ التي ليست خاطئةً ألَّا يساوره باكرًا نفورٌ من الاستسلام للأهواء الشديدة التي سيعُدُّها أمراضًا؟ ألَا تَرون أنه يكون لفكرٍ كهذا يُعطَى في الوقتِ المناسبِ من الأثرِ البالغِ ما يكون لأدعى مواعظِ الأخلاقِ إلى السَّأم؟ ولكن أَبْصِروا في المستقبلِ نتائجَ الفكرةِ الآتية، وهي: ها أنتم أولاء مأذونون، وذلك عندما تُلزَمون، في معالجةِ ولدٍ عاصٍ كولدٍ مريض، وفي حصْره ضِمْن غرفته، وعلى سريره عند الاقتضاء،

وفي إلزامه بِحِمْية، وفي تخويفه من نقائصه الناشئة، وفي جعْلها كريهةً مُرعبة، وذلك من غيرِ أن يَعُدَّ عقوبةً ما قد تضطرون إلى اتخاذه من شِدةٍ لشفائه من ذلك. وإذا حَدَث لكم أن خرجتم في ساعةِ حِدَّةٍ من برودةِ دمِكم واعتدالِكم الذي يجب عليكم أن تقيموا عليه دراستكم، فلا تحاولوا أن تُخْفُوا عنه خطأَكم، ولكن قولوا له بصراحةٍ ولومٍ مع خفضِ جَناح: «لقد آذيتني يا صديقي.»

ثُمَّ إن من المهم ألَّا تُثارَ أمام الولدِ جميعُ السذاجات التي قد تنشأ فيه عن بساطةِ الأفكار التي غُذِّي بها، ولا أن تُذكَر على وجهٍ يمكن معه أن يُدركها، ومن الممكن أن تُفسِد قهقهةٌ واحدةٌ عملَ ستةَ أشهر، وأن تُحدِث من الضررِ ما لا يمكن تلافيه مدى الحياة. ولا أستطيع أن أقول مكرِّرًا إن مَن يودُّ أن يسودَ الولد أن يكون سيِّدَ نفسِه. وأتمثَّل إميلَ الصغيرَ عند اشتداد شجارٍ بين جارَين متقدِّمًا نحو أكثرِهما هياجًا قائلًا له بتَحنُّن: «أنت مريضٌ يا جار، وأنا حزينٌ من أجْلك كثيرًا.» ولا ريبَ في أن هذا الاحتدادَ لا يبقى بلا أثرٍ في الحضور، وفي المتنازعين. وإني من غيرِ ضَحِكٍ ولا تعزيزٍ ولا مدحٍ آتي به طوعًا أو كَرهًا قبل أن يستطيع إدراكَ ذاك الأثر، أو قبْل أن يُفكِّر فيه على الأقل، وأبادر إلى إلهائه بأمورٍ أخرى تُنسيه ذلك سريعًا.

وليس من مقاصدي أن أَدخُل باب التفصيل مطلقًا، وإنما أرى أن أَعْرِض المبادئَ العامة، وأن أُورِد أمثلةً في الأحوال الصعبة. وأجد أن من المتعذرَ في سواء المجتمع أن يُؤتى بولدٍ في الثانية عشرة من سِنيه من غيرِ أن يُعطى فكرةً عن صلاتِ الإنسانِ بالإنسان، وعن خُلُقية الأعمال البشرية. ويكفي أن يُسعَى في تلقينه هذه المعارفَ في آخِرِ وقتٍ ما أمكن؛ فمتى أصبحت لا مفرَّ منها قُصِرت على النفعِ الحاضر لكيلا يَعتقد أنه سيدُ الجميع أو لئلا يؤذي الآخرين بلا تردُّدٍ وعن غيرِ معرفة. أجلْ، توجد طبائعُ لينةٌ هادئةٌ يمكن أن يُؤتى بها إلى بعيد، وبلا خطر، في براءتها الأُولى، ولكنه يوجد أيضًا من السجايا الصائلة ما ينمو جفاؤها باكرًا، فيجب أن يُجعل منها رجالٌ على عَجَل، حتى لا تقضي الضرورةُ بتقييدها.

وتكون واجباتنا الأُولى نحو أنفسنا، وتتجمَّع مشاعرُنا الابتدائية في أنفسنا، وتهدف جميعُ حركاتنا إلى بقائنا ورفاهيتنا في البُداءة. وهكذا فإن شعورنا الأوَّلَ بالعدل لا يأتينا مما يجب علينا نحو الآخرين، بل من الواجب نحو أنفسنا، وهذا يناقض أنواعَ التَّربية الشائعة التي تُحدِّث الأولادَ عن واجباتهم في بدء الأمر، لا عن حقوقهم مطلقًا، فتكلِّمهم بعكسِ ما يجب؛ أي بما لا يُدركون، وبما لا يُمكن أن يلتفِتوا إليه.

إذن، لو قُدِّر لي أن أُسَيِّرَ ولدًا كما أفترضُ لقلت في نفسي: «إن الولدَ لا يَهْجُم على أحد،[٨] بل يَهجُم على الأشياء. ولا يلبث الولدُ أن يتعلَّم بالتجربة احترامَ مَن هو أكبرُ منه سِنًّا وأشدُّ قوة. بَيْدَ أن الأشياء لا تُدافِع عن نفْسها بنفْسها؛ ولذا يجب أن تقوم الفكرة الأُولى التي يُعطاها على المَلَكية أكثرَ مما على الحرية. وهو لا بُدَّ من أن يكون مالكًا لشيءٍ حتى تكون عنده هذه الفكرة.» ولا فائدةَ من ذكْر ثيابه وأمتعته ولعبه؛ فهو وإن كان يتصرَّف في هذه الأشياء لا يَعْرِف سببَ تَملُّكِه لها ولا كيف تملَّكَها، ولا طائلَ في أن يُقال له إنه مَلَكَها لأنه أُعْطِيها؛ وذلك لأنه لا بدَّ من العطاء لوقوع التملُّك. وهذا إذنْ تملُّكٌ سابقٌ لتملُّكه، وهذا هو مبدأ التملُّك الذي يُراد إيضاحه له، وهذا من غيرِ حسابٍ لكون العطاء عَقْدًا، ولكون الولدِ لا يستطيع أن يَعْرِف ما العقدُ أيضًا.[٩] فيا أيها القراء، أرجو منكم أن تلاحِظوا في هذا المثال، وفي مائةِ مثال آخَر، كيف أنه يُعتقَد مع ذلك حُسنُ تعليمِ الأولاد بشحْن رءوسهم بكلماتٍ لا معنًى لها عندما تكون في متناوَلهم.

ولذلك يجب الرجوعُ إلى أصلِ التملُّك، وذلك لوجوبِ صدورِ الفكرة الأُولى عنه. وإذا ما عاش الولدُ في الأرياف فازَ ببعض المعارفِ عن الأعمال الحقلية، ولا يستلزم هذا غيرَ عيونٍ وفراغ، وهما يتفقان للولد. ونحن في كلِّ دَور، ولا سيَّما دورُ الطفولة، نُريد الإبداعَ والتقليد والإنتاج وإبداء علامات القوة والنشاط، وهو لا يكاد يرى حرْثَ الحديقةِ وبَذْرَ الخُضَر ونَبْتَها ونُموَّها مرتَين حتى يريدَ العملَ في الحدائقِ من ناحيته.

ولا أُعارضُ رغبةَ الولد مطلقًا بالمبادئ المقرَّرة آنفًا، وإنما أؤيدها وأقاسمُه مَيْله، وأعمل معه، لا من أجْل بهجته، بل من أجل بهجتي، وهو يظنُّ هذا على الأقل، وأُصبحُ عاملَه البستاني، وأحْرُث الأرضَ له ريثما يصير ذا ذراعين. وهو يحوز الأرضَ بزَرْعه فولًا،

---

[٨] لا يجوز أن يُسمح للولدِ بأن يعارض الكبار، ولا مَن هم مساوون له، كما يعارض مَن هم دونه، وإذا ما أَقْدمَ على ضَرْب شخصٍ ضربًا جديًّا، ولو كان خادِمَه ولو كان الجلَّاد، فدَعُوا المعتدَى عليه يرد الضربات إليه مع الربا، حتى لا يعودَ إلى مثل ذلك أبدًا. وقد رأيت من المربيات الغافلات مَن يُثِرن عنادَ الولد ويحرضنه على الضرْب ويَدَعنه يضربهن فيضحكن من ضرباته الضعيفة، غير مفكِّراتٍ في كون هذه الضربات هي ضربات قاتلة في نيَّة الهائج الصغير، وفي كون الصغير إذا أراد الضرْبَ في صغره أراد القتل في كبره.

[٩] هذا هو السبب في كونِ معظمِ الأولاد يريدون استردادَ ما يُعطَون، وأنهم يبكون عندما لا يُراد ردُّ ذلك إليهم، وما كان هذا لِيحدث لهم لو تمثَّلوا ما العطاء، وهنالك يكونون أشدَّ حَذرًا حينما يُعطَون.

ولا ريبَ في أن هذه الحيازةَ أقدَسُ وأدعى إلى الاحترام من حيازةِ نُونِس بَلْبُوَا لأمريكة باسم ملك إسبانية، وذلك حين نَصَبَ عَلَمه على سواحلِ بحر الجنوب.

ويُؤتى لِسَقْي الفولِ كلَّ يوم، ويُرى نَبْتُه بفرحٍ كثير، وأَزيد هذا الفرحَ بقولي له: «هذا مالُك.» وهنالك أشرح له معنى «مالُك»، فأُشْعِره بأنه وضَع هنالك وقتَه وعملَه وتَعبَه ثُمَّ شخصَه، وبأنه يوجد في هذه الأرضِ شيءٌ من نفسه يمكنه أن يَدَّعِي به تجاه جميع العالَم، وذلك كاستطاعته أن يَسحب ذراعَه من يدٍ رجل آخَر يريد إمساكَها على الرغم منه.

ويَصل ذاتَ يومٍ مُسرِعًا حامِلًا مِرَشَّتَه، فيا له من منظر! ويا له من ألم! فقد قُلع جميعُ الفول، وقد قُلِبت جميعُ الأرض، ولا يَكاد الموضِعُ يُعرَف. ويْ! ما دَهى عملي وأثري وثمرةَ عنايتي وعَرَقي؟ مَن ذا الذي سَلبني مالي؟ مَن ذا الذي أَخذ فولي؟ ويَثور هذا الفؤادُ الفتيُّ، ويأتي أَوَّلُ شعورٍ بالظلم لِسَكْب مرارتِه الشجية، وتسيل الدموعُ كالجدول، ويملأ الولدُ الحزينُ بعويله وصُراخه الهواء، ويُشاطِرُ الولدُ أَلَمَه وغيظَه، ويُتلَمَّس، ويُسْتعلَم، ويُدَقَّق في الأمر، وأخيرًا يُعْلَم أن البستانيَّ هو الذي أنزل هذه الضربة، فيُحْضَر.

ولكن، ها نحن أولاء بعيدون من الصواب؛ فقد عَلِمَ البستانيُّ بما يُشْتَكى منه وأخذَ يتوجَّع بأشدَّ مما نتوجَّع.

ماذا! أنتم الذين أفسدوا عملي يا سادتي! فقد زرعتُ شمَّامًا مالطيًّا كنتُ قد أُعطِيتُ حَبَّه مثلَ كَنْز، فرجوتُ أن أُطعمَكم منه عندما يَنْضَج، ولكنكم أهلكتم شمَّامي النابتَ الذي لا أُعوَّض منه زارعين فولَكم الهزيل، وقد اقترفتم خطأً لا يُتلافى نحوي، وقد حَرَمتم أنفسَكم لذَّة الأكل من الشمَّام الفاخر.

جان جاك: عفوًا، يا رُوبِرْت البائس، لقد وضعتَ هنالك عملك وتعبَك، وأرى جيِّدًا أننا أخطأنا إذ أفسدنا صُنعَك، ولكننا سنأتي ببَذْرٍ من مالطة، ولن نَحرث أرضًا قبل أن نعرف هل وضَع أحدٌ يدَه عليها قبلنا.

رُوبِرْت: ويْ! حسنًا يا سادتي، يمكنكم أن تستريحوا إذن؛ وذلك لأنه عاد لا يوجد من الأرَضين ما هو بُور، وأمَّا أنا فإنني أَحرُث الأرضَ التي أَصلحها أبي، وكلٌّ يعمل عينَ الشيء من ناحيته، وجميعُ الأرَضين التي ترون مملوكةٌ منذ زمن طويل.

إميل: إذن، يوجد في الغالب يا مسيو رُوبِرْت، بَذْرُ شمَّامٍ مفقود؟

رُوبِرْت: عفوًا يا أخي، وذلك أنه لا يأتينا من صغار السادة مَن بلغوا مثلَ طيشِك في الغالب، فلا أحدَ يَمَسُّ حديقةَ جاره، وكلٌّ يحترم عملَ الآخرين حتى يطمئن إلى عمله.

إميل: ولكنْ لا حديقةَ لي مطلقًا.

رُوبِرْت: وما أهميةُ ذلك؟ إذا ما أفسدتَ حديقتي لم أَدَعْكَ تتنزَّه فيها مطلقًا؛ وذلك لأني لا أريد أن أخْسر تعبي كما ترى.

جان جاك: أَلَا يُمكن عرضُ تسويةٍ على رُوبِرْت الصالح؟ فليُعطني أنا وصديقي الصغير قطعةً من حديقته لِزَرْعها على أن يكون له نصفُ الغلَّة.

رُوبِرْت: أُعطيكما إياها بلا شرط، ولكن اذكُروا أنني أذهب لقلبِ فُولِكما إذا ما لمستُما شمَّامي.

ويُرى، من هذه المحاولةِ في إدخالِ المعارفِ الابتدائيةِ إلى ذهنِ الأولاد، كيف أن مبدأ التملُّك يَرْجع بحكم الطبيعة إلى حقِّ المالك الأوَّل بالعمل، وهذا واضحٌ صريحٌ بسيط، وهو في متناوَل الولدِ دائمًا، ولا يُوجد مِن هناك حتى حقِّ التملُّك والمعاوضات غيرُ خُطْوةٍ واحدة، فإذا تَمَّت وجب الوقوفُ بلا زيادة.

ومما يُرى أيضًا أن إيضاحًا أُدْرجه في صفحتَين من الكتابة هنا سيكون عملَ عامٍ في التطبيق؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يُتقدَّم في ميدان الأفكار الخُلُقية على مَهْلٍ بالغٍ، ولا أن يُسار بخُطًا راسِخةٍ كثيرًا. ويا شبابَ المُعلِّمين فكِّروا في هذا المثالِ كما أرجوكم، واذكروا أن دروسَكم في كلِّ أمرٍ يجب أن تكون أعمالًا أكثرَ منها أقوالًا؛ وذلك لأن الأولادَ ينسَون بسهولةٍ ما يقولون وما يُقال لهم، لا الذي يَصنعون ولا ما يُصْنَعُ لهم.

ودروسٌ كهذه مما يجب إعطاؤه عاجلًا أو آجلًا كما قلت، وذلك وَفْقَ ما تقتضيه طبيعةُ التلميذِ الهادئةُ أن المُعَرْبِدَة من تعجيلٍ أو تأجيلٍ للحاجةِ إليها، وطريقُ استعمالها هو من الوضوحِ ما هو بادٍ لكلِّ ذي عينَين، ولكن لنَأتِ بمَثَلٍ آخَرَ لكيلا نُهمِلَ شيئًا مهمًّا في الأمورِ الصعبة.

ويُتلِفُ ولدُكم الشَّكِسُ كلَّ شيءٍ يَمَسُّه، فلا تَغضبوا من هذا مطلقًا، وإنما اجعلوا كلَّ ما يستطيع إتلافَه في مكانٍ لا تصل يدُه إليه، وهو يَكسِر الأمتعةَ التي يستعملها، فلا تُسرِعوا في إعطائه بدلًا منها مطلقًا، ودَعُوه يَشعر بأذى الحرمان، وهو يَكسِر زجاجَ نوافذِ غرفته،

فدَعُوا الريحَ تَلطِمُه ليلَ نهارٍ غيرَ مبالين بزُكامه؛ فلأن يُصاب بالزُّكام خيرٌ من أن يكون مجنونًا. ولا تَشْكوا من إزعاجه لكم، ولكن دَعُوه يكون أوَّلَ مَن يَشعر به، وأخيرًا تَحْمِلون على إصلاحِ زجاج النوافذ من غير أن تقولوا شيئًا، وإذا ما عاد إلى الكسرِ فغيِّروا الأسلوب، وقولوا له بجفاءٍ ولكن من غير غضبٍ: «إن النوافذ لي، وهي قد وُضِعَت هنالك بجُهدٍ منِّي، فأُريد أن أصونها.» ثُمَّ احبسوه في مكانٍ مظلمٍ خالٍ من النوافذ، ويَبدأ بالصُّراخ والهياج عند هذه الطريقة الجديدة، ولا يُصغي إليه أحد، ولا يلبث أن يَتعب ويُغيِّر لهجتَه، ويتوجَّع ويئن، ويحضُر خادم، ويرجو العاصي منه أن ينقذه، ويقول الخادمُ له من غيرِ اعتذارٍ عن عدم تلبية طلبه: «لنوافذي زجاجٌ يجب أن أحافظَ عليه»، وينصرف. وأخيرًا بعد أن يَمكُث الولدُ عدة ساعات هنالك؛ أي زمنًا يكفي لِسَأَمه وانطباع ذلك في ذهنه، يقترح عليه أحدُ النَّاس بأن يَعرِض عليكم عهدًا تُعِيدون به حريَّته ولا يعود إلى كسرِ زجاج النوافذ، ولا يطلب ما هو أحسنُ من هذا، ويُرسِل مَن يرجو منكم أن تأتوا لرؤيته، وتجيئون، ويُقدِّم إليكم عهدَه، وتوافقون عليه من فوْركم قائلين له: «هذه فكرةٌ حسنةٌ جِدًّا، ولكلانا كَسْبٌ فيها، ولِمَ لَمْ تُبدِها باكرًا؟» وتُقَبِّلونه فَرِحين غيرَ مطالبين إياه بتأييدٍ لوعده أو توكيد، وتأتون به إلى غرفته حالًا عادِّين هذا العهدَ مقدَّسًا مصونًا كما لو وُكِّد بيمين، وتَرَوْن أيَّ فكرٍ يُنال بهذه الطريقةِ عن الوفاء بالعهود وفائدتها؟ أكون مخطئًا إذا وُجِدَ في العالَم ولدٌ واحد، غيرُ فاسدٍ سابقًا، يستطيع المقاومةَ فيُقدِم على كسرِ زجاجِ نافذةٍ قصدًا، وتتبَّعوا سلسلةَ جميع هذا، ولم يُبصِر الخبيثُ الصغيرُ أنه بإحداثه حُفرَةً لِزَرْعِ فُولِه كان يَحفِر حُجيرَةً مظلمةً لا يُعتِّم عِلْمه أن يَحْبسه فيها.[١٠]

---

[١٠] وفضلًا عن ذلك فإن هذا الواجبَ في محافظةِ الولدِ على عهوده لا يُرسَّخ في رُوحِ الولد بفعل فائدته، ولا يَلبث الحسُّ الباطني أن ينمو، فيفرضه عليه كقانونٍ للضمير، كمبدأ غريزي لا يُنتَظر لنموه غيرُ المعارف التي يُطبَّق عليها، ولم يُرسم هذا الخطُّ الأوَّلُ بِيدِ الناس، بل نُقش في قلوبنا من قِبَلِ صانعِ كلِّ عدل. وأزيلوا قانونَ العهود الابتدائي والالتزام الذي يَفرضه تجدوا كلَّ شيء في المجتمع البشري وهميًّا باطلًا، ومَن لم يحافظْ على وعْدِه إلا عن منفعةٍ له فإنه لا يكون مرتبطًا فيه بأكثرَ مما لو كان لم يُعطَ وعدًا قَط، أو إنه يكون في القدرةِ على نقضهِ كالمقامرين الذين لا يتريثون في الاستفادةِ من تفوُّقهم إلا لِيرقُبوا الدقيقةَ التي يزيدون فيها كسْبَهم. وهذا المبدأ من الأهميةِ بمكانٍ عظيم، وهو يستحق كلَّ تعمُّق؛ وذلك لأن الإنسانَ يأخذ في مناقضة نفسه هنا.

ونحن الآن في العالَم الخُلُقي، وها هو ذا البابُ مفتوحٌ للعيب، ويُولَد الخِداعُ والكَذِبُ مع العهودِ والواجبات، ويُراد كتمانُ ما وجبَ ألَّا يُصْنَع منذ إمكانِ صُنْعِ ما يجبُ ألَّا يُصنَع، ومتى قضت المصلحة بالوعد أمكنَ مصلحةً أعظمَ منها أن تَحْمِل على نقض الوعد. ولا تَكاد المسألة تقوم على نقضه بلا عقاب؛ فالوسيلة طبيعية، وذلك أنه يُكتتم أو يُلْجأ إلى الكَذِب، ونحن إذ لم نستطِع منعَ العيب فإننا نكون في وَضْعِ مَن يُعاقِب العيبَ كما ترى، وهذه هي أَبْؤسُ الحياةِ البشرية التي تبدأ مع زلَّاتها.

وقد قلتُ ما فيه الكفايةُ لإثباتي عدمَ وجوبِ فرْضِ العِقابِ على الأولاد للعِقاب، وإنما لينالوه كنتيجةٍ طبيعيةٍ لسوءِ ما يَفعلون. وهكذا فإنكم لا ترفعون عقيرتَكم في وجهِ الكَذِب مطلقًا، ولا تُجازونهم على كَذِبهم ضبطًا، ولكنكم تَصُبُّون على رءوسهم جميعَ نتائج الكَذِب عندما يَكْذِبون، كما لو كُنَّا لا نُصدَّق عند قولنا الحقَّ، وكُنَّا نُتَّهم بشرٍّ لم نفعله قَطُّ على الرغم من دفاعنا، ولكن لِنُوضِّح معنى الكَذِب عند الأولاد.

ويوجد للكَذِب نوعان: فالنوعُ الأوَّلُ يقوم على الوقائع في الماضي، ويقوم النوع الثاني على الحقِّ في المستقبل. ويَحدُث النوعُ الأوَّلُ عند إنكارِ فِعْلِ ما فُعِل أو توكيد فِعلٍ لم يُفعَل؛ أي أن يُحدَّث على العموم وعن علمٍ خلافَ حقيقةِ الأمور، ويَحدُث النوعُ الثاني عندما يُوعَدُ بما يُقصَد عدَمُ القيام به؛ أي أن تُبدَى على العموم نيَّةٌ مخالفةٌ لما في النفس، ويُمكِن نوعَي الكَذِب هذين أن يجتمعا في واحدٍ[11] أحيانًا، ولكني أنظر إليهما هنا بما ينطويان عليه من اختلاف.

ومَن يشعُر باحتياجٍ إلى مساعدة الآخرين، ولم ينفكَّ يشعُر بعطفهم، لا تكون لديه مصلحةٌ في مخادعتِهم، وهو على العكس ذو مصلحةٍ ملموسةٍ في رؤيتهم الأمورَ كما هي، وذلك خشيةَ أن يُخدَعوا فيصيبه ضرر؛ ولذا فإن من الواضحِ أن الكَذِبَ في الوقائعِ غيرُ طبيعيٍّ في الأولاد، وإنما دستورُ الطاعةِ هو الذي يؤدي إلى ضرورةِ الكَذِب؛ وذلك لأن الطاعة، إذ كانت شاقَّةً يُتخلَّصُ منها خِفيةً ما أمكن، ولأن المصلحةَ الحاضرةَ في اجتنابِ العِقاب والعتابِ تفوقُ المصلحةَ البعيدةَ في قولِ الحق. ولِمَ يكذِبُكُم ولدُكم في التَّربيةِ الطبيعيةِ الحرةِ إذن؟ وما لديه ما يكتم عنكم؟ أنتم لا تلومونه مطلقًا، أنتم لا تعاقبونه على شيء،

[11] وذلك كحالِ المُذْنب المتهم بإحدى القبائح فيدافع عن نفسِه بقوله إنه رجل صالح؛ فهو بهذا يكذِب في الوقائع وفي الحق.

ولا تطالبونه بشيء، فلِمَ لا يقول لكم جميعَ ما صَنَع بسذاجةٍ كما يقول لرفيقه الصغير؟ لا يمكن أن يَرَى في هذا الاعتراف خطرًا أكبرَ مما في عدمه.

والكَذِبُ عن حقٍّ أقلُّ قُرْبًا إلى الطبيعة ما دام الوعدُ بالعملِ أو الامتناعُ عن العمل من الأفعالِ العهدية الخارجة عن حالِ الطبيعة والمخالفة للحرية، وذلك فضلًا عن كون عهود الأولاد باطلةً بنفسها نظرًا إلى أن بصرهم المحدود لا يُمكِن أن يمتدَّ إلى ما وراء الحاضر، فلا يَعرِفون ما يفعلون إذا ما أَلزموا أنفسَهم بأمر، ولا يَكاد يكذِبُ إذا ما ألزمَ نفْسه، وذلك أنه لا يُفكِّر في غيرِ التخلُّص من ورطةٍ في الساعةِ الحاضرةِ فتتساوى عنده جميعُ الوسائلِ التي لا يكون لها أثرٌ حاضر. وهو إذا ما وَعَد لزمنٍ قادمٍ لم يَعِد شيئًا، وما كان خيالُه الذي لا يزال راقدًا لِيَعرِفَ أن يَمُدَّ وجودَه إلى زمنَين مختلفَين مطلقًا. فإذا ما استطاع اجتنابَ السوطِ أو نَيْلَ قُرصٍ من السُّكَّر بأن يَعِدَ بإلقاءِ نفْسه من النافذةِ غدًا وَعَدَ بذلك من فوْره، وهذا هو السببُ في كون القوانينِ لم تلتفت إلى عهودِ الأولاد، وإذا حَدَثَ أن طالبهم الآباءُ والمُعلِّمون بأن يَفُوا بعهودهم وشَدَّدوا كان هذا مقصورًا على ما يجب أن يفعله الولدُ ولو لم يَعِد به.

وبما أن الولدَ لا يَعْرِف ما يَفعَلُ حينما يُلزِم نفسه، فإنه لا يستطيع أن يَكْذِب حينما يُلزِم نفْسه إذن. وليس الأمرُ هكذا عند عدمِ وفائه بعهده، وهذا ضَرْبٌ من الكذِب سارٍ على ما قَبْله، وذلك أنه يَذكر جيِّدًا أنه قام بهذا العهد، ولكن الذي لا يُبْصِر هو أهميةُ الوفاءِ به، وهو إذ كان لا يستطيع أن يُبصِر المستقبلَ فإنه لا يستطيع أن يُبصِرَ نتائجَ الأمور، وهو إذا ما أخلَّ بالتزاماته لم يصنعْ شيئًا مخالفًا لداعي سِنِّه.

ومِنْ ثَمَّ يُرى أن كذِبَ الأولادِ من عملِ المُعلِّمين، وأن الرغبةَ في تعليمهم قولَ الصدقِ ليست شيئًا آخَر غيرَ تعليمهم الكذِب. ولا تَجِدون في غَيْرتكم أن تُنظِّموا أمورَهم وتَرْقُبوهم وتعلِّموهم من الوسائل ما يكفي للنجاح، وتريدون أن تكونوا ذوي نفوذٍ طريفٍ في نفوسهم بمبادئَ لا أساسَ لها، وبقواعدَ خاليةٍ من الصواب، وتُفضِّلون أن يَعْرِفوا دروسَهم وأن يَكْذِبوا على أن يبقَوا جاهلين وصادقين.

وأمَّا نحن، الذين لا يُلقُون على تلاميذهم غيرَ دروسٍ عملية، والذين يُفضِّلون كونهم صالحين على أن يكونوا عالِمين، فإننا لا نطالبهم بالصدق مطلقًا خشيةَ أن يكتموه، ولا نَحمِلهم على الوعدِ بشيءٍ يحاولون عدمَ الإيفاء به. وإذا وقعَ ضررٌ في غيابي لا أَعرِفُ فاعله

احترزتُ من اتِّهامِ إميل أو مِن قولي له: «أأنت فعلت هذا؟»[١٢] وذلك لأنني ما أصنعُ بهذا غيرَ تعليمه إنكارَ ذلك؟ وإذا كان طبْعُه الصعبُ يَحْمِلني على وضْعِ عهدٍ معه فإنني أتخذُ من التدابيرِ ما يؤدي إلى صدورِ اقتراحِ ذلك عنه، لا عنِّي مطلقًا. وهو إذا ما ألزمَ نفْسه كانت لديه مصلحةٌ حاضرةٌ ملموسةٌ في القيام بعهده، وهو إذا ما أخلَّ به جلبَ هذا الكَذِبُ له من الأضرارِ ما يُبصِرُ ظهورَه من نظامِ الأمور نفسِه، لا من انتقامِ مربِّيه. ولكنني إذ أبتعدُ عن ضرورةِ الالتجاءِ إلى مثلِ هذه الوسائل الجافية، أكاد أطمئن إلى أن إميلَ سيعلم مؤخرًا ما الكَذِب، وهو إذ يَعْلمه يعتريه دَهَشٌ من عدمِ استطاعته أن يتصوَّر وجودَ فائدةٍ في الكَذِب. ومن الواضحِ جِدًّا أنني كلَّما جعلتُ هناءته مستقلةً عن إرادة الآخرين وأحكامهم قطعتُ عنه كلَّ منفعةٍ في الكَذِب.

وإذا لم نتعجَّل التعليمَ لم نتعجَّل في السؤالِ مطلقًا، ولم نطالبْ بشيءٍ في غيرِ الوقت المناسب، وهنالك يتكوَّن الولدُ بما لا يَفْسُد معه أبدًا. ولكن المُعلِّم إذا كان من الطيش ما لا يَعْرِف معه كيف يقوم بعمله فيَحْمِل تلميذَه على الوعد بهذا أو ذاك بلا تمييز ولا خيارٍ ولا قياس، فإن الولدَ الذي يكون قد أملَّتْه هذه الوعودُ وأثقلته يُهملها وينساها ويزدريها في آخِرِ الأمر، وهو إذ يَعُدُّها صِيَغًا فارغةً فإنه يتلهَّى بصُنعها ونقضها، فإذا أردتم أن يكون مخلصًا في الإيفاءِ بوعدِه فكونوا فُطُنًا في مطالبته بها.

وما أتيتُ من تفصيلٍ حوْل الكَذِب يُمكن أن يُطبَّق من نواحٍ كثيرةٍ على جميعِ الواجبات الأخرى التي لا تُفرَض على الأولادِ إلا لتكون بغيضةً غيرَ عمليةٍ لديهم، وهم يُحمَلون على حبِّ جميعِ العيوب ليُظْهَرَ بمظهرِ الواعظِ لهم بالفضيلة، وهم يُعطَوْنها بمنْعهم من حيازتها. وإذا أُريد جعلُهم أتقياءَ أُتي بهم إلى الكنيسة ليُحْمَلوا على الدندنةِ بالصلوات، فيُلجَئوا إلى ابتغاءِ السعادة في عدم دعوة الرب. وهم لكي يُوحَى إليهم بحبِّ الخيرِ يُلْزَمون بإعطاء الصدقة كما لو كنتم تزدرون إعطاءهم بأنفسكم. حسنًا! فالمُعلِّم لا الولد، هو الذي يجب أن يُعطى، ومهما بلغ المُعلِّم من حُبِّه لتلميذه وَجَبَ أن ينازعه هذا الشرف؛ أي يجب أن

[١٢] لا شيءَ أبعدُ من الصوابِ كهذه الأسئلة، ولا سيَّما عندما يكون الولدُ مُذنبًا، وذلك أنه إذا اعتقد أنكم تَعرفون ما صَنَعَ أبصرَ أنكم تَنصِبون له شَرَكًا. ولا تخلو هذه الفكرةُ التي تساوره من أن تُقلِقه ضدكم، وهو إذا لم يعتقد ذلك قال في نفسه: «لِمَ أبوحُ بذنبي؟» وهكذا تكون هذه المحاولةُ في الكَذِب نتيجةَ سؤالِكم الطائش.

يَحْمِله على الحُكم بأن مَن هو في سِنِّه ليس أهلًا لذلك؛ وذلك لأن الصدقةَ عملُ رجلٍ يَعرِف قيمةَ ما يُعطي وحاجةَ النَّاس إليها. ولا يُمكن الولدَ الذي لا يَعْرِف شيئًا عن هذا أن يكون ذا مَزيَّةٍ في العطاء، وذلك أنه يُعْطي عن غيرِ خيرٍ ولا حسنة، وهو يكون على استحياءٍ في العطاءِ تقريبًا عندما يعتقد، مستندًا إلى مثالِه ومثالِكم، أنه لا يوجد غيرُ الأولادِ مَن يُعْطي، وأنه لا صدقةَ بعد أن يَكْبُرُوا.

واعْلموا أن الولدَ لا يُحمَلُ على إعطاءِ شيءٍ غيرِ ما يَجهَل قيمته؛ أي غيرِ قِطَعٍ معدنية يَحمِلُها في جيبه، فلا تنفَعُه في غيرِ هذا، ويُفضِّل الولدُ إعطاءَ مائة دينارٍ على قطعةٍ من الحلوى، ولكن حرِّضوا هذا الموزِّعَ المبذِّرَ على إعطاء الأشياء العزيزة عليه كلُعَبه ومُلَبَّسه وغدائه لِنعلمَ من فوْرنا هل جعلتموه كريمًا.

وتوجَدُ تجرِبةٌ أخرى لذلك أيضًا، وهي أن يُبادَرَ إلى إعادةِ ما أَعطى الولد، وذلك أن يُعوَّدَ إعطاءَ كلِّ ما يَعلم جيِّدًا أنه يعود إليه، ولم أرَ في الأولادِ قَطُّ غيرَ هذين النوعَين من الكرَم، وهما: أن يُعطُوا ما هو غيرُ صالحٍ لشيءٍ عندهم أو أن يُعطُوا ما يعتقدون أنه يُعاد إليهم. ويقول لوك: «اصنعوا ما يقنعون معه عن تجرِبةٍ بأن الأكثرَ سخاءً هو الأكبرُ حِصَّةً دائمًا.» وهذا ينطوي على جعْل الولدِ سخيًّا ظاهرًا وبخيلًا حقيقةً. وإلى ذلك يُضيفُ لُوكُ قوله: «وهكذا يَألَف الأولادُ عادةَ الكرم.» أجلْ، كَرَمٌ مُرْبٍ يقوم على إعطاءِ بيضةٍ نَيْلًا لبقرة، ولكن قُل السلامَ على العادةِ إذا ما قام الأمرُ على عطاءٍ حقيقي، وإذا ما كُفَّ عن الإعادةِ كُفَّ عن العطاء حالًا. ويجب أن يُنتَبه إلى عادةِ الرُّوح أكثرَ مما إلى عادةِ الأيدي، وتُشابِه هذه جميعَ الفضائل الأخرى التي يتعوَّدها الأولاد، وفي سبيل وَعْظِهم بهذه الفضائلِ المتينة يُفنَى شبابهم في الغمِّ! فيا لها من تربيةٍ حكيمة.

ويا أيها الأساتذة، دَعُوا الرِّئاء، وكُونوا فُضَلاء صالحين، فَتُنقَش أَمثلتُكم في ذاكرة تلاميذكم ريثما يُمكنها أن تَدخل في قلوبهم. وأُفضِّلُ أن أقوم بأعمالِ البرِّ أمام تلميذي على المبادرة بمطالبته بها، وأن أَنزِعَ منه حتى وسيلةَ اقتدائه بي فيها كشرفٍ خاصٍّ بسنِّه، وذلك أن من المهم ألَّا يتعوَّد عَدَّ واجبات الرجال كواجبات الأولاد فقط. وإذا ما رآني أساعد الفقراءَ وسألني عن ذلك أَجبْتُه بعدَ حينٍ بما يأتي:[١٣] «عندما أراد الفقراء، يا صديقي،

[١٣] لِيعلمَ أنني لا أَحُل مسائلَه متى يريد، بل متى أريد، وإلا جعلت نفسي خاضعًا لرغباته ووضعت نفسي في أخطرِ موضعٍ من التبعية يمكن أن يقع فيه مؤدِّبٌ نحوَ تلميذه.

وجودَ أغنياءَ وَعَدَ الأغنياءُ بإطعامِ جميعِ مَن ليس لديهم ما يعيشون به سواءٌ بمالهم أو بعملهم.» ويَرُدُّ التلميذُ بقوله: «إذن، أنت وعدت بهذا.» ويقول المُعلِّم: «أجلْ، لستُ صاحبَ المالِ الذي يمرُّ من يدي إلا بشرطٍ متعلقٍ بتملُّكه.»

وبعد أن يَعِي ولدٌ غيرُ إميل هذا الكلام، وقد رأينا كيف يمكن جَعْلُ الولدِ في حالٍ يَعِيه فيه، سيحاوِل الاقتداءَ بي، وسيسير مثلَ رجلٍ غني، وفي هذه الحال سأمنع وقوعَ هذا مع تَبَاهٍ، فأُفضِّل أن يختلس منِّي امتيازي وأن يَستتر في العطاء، وهذا خِتالٌ من قِبَله، وأُغضي عن هذا وحدَه.

وأَعرِف أن جميعَ هذه الفضائل عن اقتداءٍ هي فضائلُ قرد، وأن العمل الصالح لا يكون صالحًا خُلُقيًّا إلا إذا صُنِع هكذا، لا لأن الآخرين يصنعونه. وأمَّا في السِّن التي لا يشعُر القلبُ فيها بشيءٍ بعدُ؛ فيجب حَمْلُ الأولادِ على تقليدِ الأعمالِ التي يُراد تعويدُهم إياها ريثما يستطيعون صُنْعَها عن تمييز الخير وحُبِّه. والإنسان مقلِّد، والحيوان مقلِّد أيضًا، وحُب التقليد من عمل الطبيعة الحسنة التنظيم، ولكن ينحطُّ في المجتمع إلى عيب. ويُقلِّد القردُ الرجلَ الذي يَخشى، ولا يُقلِّد الحيوانات التي يَزْدري، وهو يرى حسنًا ما يَصنعه موجودٌ خيرٌ منه. وعلى العكس يُقلِّد مهرِّجونا على أنواعهم كلَّ ما هو جميلٌ حطًّا له، تحويلًا له إلى مهزأة. وهم يحاولون بشعورهم السافل مساواةَ مَن هم أفضلُ منهم، أو يسعون أن يُقلِّدوا مَن يُعجَبون بهم، ويتجلَّى ذوقُهم الفاسدُ في اختيار النماذج، وهم يُفضِّلون أن يُموِّهوا على الآخرين، أو أن يَحمِلوا على الهُتاف لنبوغهم، على أن يكونوا أحسنَ حالًا أو أكثرَ حكمة. وتجِدُ أساسَ التقليد بيننا في رغبتنا أن ننتقل إلى خارج أنفسنا، وإذا ما كُتِبَ لي التوفيقُ لم تساور إميلَ هذه الرغبةُ لا ريب، ويجب إذن أن نمتنع عن الخيرِ الظاهر الذي يُمكِن أن تؤدي إليه.

وتَقصَّوْا قواعدَ تربيتكم تجدوها كلَّها مخالفةً للصواب، ولا سيَّما ما هو خاصٌّ منها بالفضائل والأخلاق. ويقوم درسُ الأخلاقِ الوحيدُ الذي يلائم الولد، والذي هو أهمُّ ما في أدوار الحياة، على عدم إساءة أحد، حتى إن مبدأَ صُنْعِ المعروفِ خَطِرٌ فاسدٌ متناقِضٌ إذا لم يكن تابعًا لذاك. ومَن ذا الذي لا يَصنع المعروف؟ جميعُ النَّاس يصنعونه، يَصنعُه الشَّريرُ كغيره، وإنما يَجعل إنسانًا سعيدًا على حسابِ مائة بائس، ومن هنا تأتي مصائبنا كلُّها، وجميعُ أرفعِ الفضائل سلبية، وهي أصعبُها أيضًا، وذلك لِخُلُوِّها من كل افتخار، ولأنها فوق تلك الرغبةِ الكثيرةِ الحلاوةِ على قلبِ الإنسان، في جعل إنسانٍ آخَر راضيًا عنَّا. وَيْ!

يا لَلْمعروف الذي يَصنعه الواحدُ نحو أمثاله، عند وجود هذا الواحد، بعدم إيذائهم! وأيُّ رباطةِ جأشٍ وأيُّ متانةِ خُلُقٍ يحتاج إليهما في هذا السبيل! وليس في الحديثِ حول هذا المبدأ، بل في محاولة تطبيقه، ما يُشعَرُ بمقدار ما يقتضيه النجاحُ به من همَّةٍ ومشقة.[١٤]

وتلك بعضُ آراءٍ طفيفةٍ عن الاحتياطات التي أردتُ أن يُمنَح الأولادُ بها من المعارف ما لا يُمكن أن يُحبَس عنهم أحيانًا من غيرِ أن يُعرِّضوا هم أو غيرهم للضرر، وأن يألَفوا من العادات، على الخصوص، ما يَصعُب إصلاحُه فيما بعد. ولكنْ لِنَثِقْ بأن من النادرِ أن تبدو هذه الضرورةُ للأولاد التي نُشِّئوا كما يجب؛ وذلك لأن من المتعذرِ أن يصبحوا أَعِقَّةً أشرارًا كاذبين جَشِعين إذا لم يُبذَر في قلوبهم من النقائص ما يَجعَلُهم هكذا. وهكذا فإن ما قُلْتُه حَوْلَ هذه النقطةِ يَصْلُح للشواذِّ أكثرَ مما للقواعد، غير أن هذه الشواذَّ تكون كثيرةَ الوقوع بنسبة ما تَكثُر الفُرَص لدى الأولادِ للخروج من حالهم وتعوُّدهم نقائصَ الرجال. وتقضي الضرورةُ بأن يكون عند مَن يُنشَّئون بين النَّاسِ من المعارفِ المعجَّلَةِ أكثر ممن يُنشَّئون في العزلة؛ ولذا تُفضَّل هذه التَّربيةُ الاعتزالية ولو لم تؤدِّ إلى غيرِ مَنْحِ الأولادِ وقتًا يَنضَجون فيه.

وللشواذِّ نوعٌ آخَرُ تُخالِف به ذلك النوعَ، خاصٌّ بمَن هم مِن يُمْنِ الطبيعةِ مَن يَعْلُون مستوى عُمُرهم؛ فكما أنه يوجدُ رجالٌ لا يَخرجون من الوَلُودِيةِ يُوجَدُ من الرجال مَن لا يمُرُّون منهم مطلقًا؛ لأنهم يُولدون رجالًا تقريبًا. والحرَجُ في كونِ هذا الشاذِّ الأخيرِ نادرًا جِدًّا، وفي صعوبة معرفته، وذلك أن كلَّ أمٍّ تتصوَّر إمكانَ كونِ الولدِ نادرةَ الزمان فلا يُخامِرها شكٌّ في كون ولدِها هكذا، وذلك أن الأمهات يفعلن أكثرَ من ذاك؛ فهن يَحسُبن من العلائمِ الخارقةِ للعادةِ ما يدلُّ على النظامِ المعتاد، كالنشاط والحِدَّة والطيش والسذاجة المُلهية؛ أي ما يُعَدُّ أحسنَ دليلٍ على أن الولدَ ليس سوى ولد. وهل من العجيبِ أن ينشأ لقاءٌ

[١٤] يتضمن مبدأُ عدمِ الإضرار بأحدٍ مطلقًا أعظمَ استقلالٍ ممكنٍ عن المجتمع البشري؛ وذلك لأن نفعَ الواحد في الحال الاجتماعية يعني ضررَ الآخر بحكم الضرورة، وهذه النسبة هي من جوهر الأمور، ولا شيءَ يستطيع تبديلها، وليُبْحث على نورِ هذا المبدأ في أي الرجلين أصلحُ من الآخر: الرجل الاجتماعي أم الرجل المعتزل؟ ويقول مؤلِّفٌ مشهورٌ إنه لا يوجد غيرُ الشِّرير مَن يكون وحدَه. وأمَّا أنا فأقول: إنه لا يوجد غيرُ الصالحِ مَن يكون وحدَه. وإذا كانت هذه القضيةُ أقلَّ صلاحًا للحكم، فإنها أكثرُ حقيقة من الأُولى وأعظم صوابًا منها. وإذا كان الشِّرير معتزلًا فأيُّ شَريرٍ يأتيه؟ ففي المجتمع ينصب حبائلَه ضرًّا بالآخرين، وإذا أُريد قلبُ هذا البرهانِ على رجلِ الخير فإنني أُجيب على هذا بالنص الخاص بهذا التعليق.

مُوفَّق، مصادفةً عمن يُحمَل على الكلامِ كثيرًا ويُسمَح له بقول كلِّ شيء من غيرِ أن يُضايق باعتبارٍ ولا لِياقة؟ هو يكون في عدمِ إصابته الهدفَ كالمُنجِّم الذي يأتي ألفَ أكذوبة من غيرِ أن يُخْبِر بأمرٍ حقيقيٍّ مرةً واحدة. وكان هنري الرابع يقول إنهم يأتون من الأكاذيبِ الكثيرةِ ما يقولون الصدقَ معه في نهاية الأمر. وليس على مَن يريد أن يَجِد بعضَ الكلمات الصالحة إلا أن يقول كثيرًا من التُّرَّهات. والله يحفَظُ من السوء جميعَ مَن يكونون على المُوضَة،[١٥]* فلا يكون لديهم من المؤهلات ما يُعيِّدون به غيرُ هذا.

ويُمكِن أسطعَ الأفكارِ أن تهبِط في دماغِ الأولاد، وإن شئت فقُل إن أروعَ الكلمات يُمكِن أن تَخرُج من أفواههم، وذلك كوجود أثمنِ الألماسِ في أيديهم، وذلك من غيرِ أن يدلَّ هذا على كونِ الأفكارِ والألماسِ مُلْكًا لهم؛ فلا مُلك حقيقي لمن هم في هذه السِّن أيًّا كانوا. وليست الأمورُ التي يُحدِّثنا عنها الولدُ في نظرِ هذا الولدِ مثلَ ما عندنا، ولا يَقرِن الولدُ بها من الأفكارِ ما نَقرِن، ولا يكون لهذه الأفكارِ في رأسه، إذا ما وُجِدَ منها، أيُّ ترتيبٍ ولا ارتباطٍ ولا ثباتٍ ولا رسوخٍ في جميع ما يُفكِّر. وإذا ما أنعمتم النظرَ في نادرتِكم المزعومِ وجدتم له في بعضِ الأحيانِ نابضًا بالغَ النشاط ورُوحًا لمَّاعًا يخرُق السَّحاب، ويبدو هذا الرُّوح لكم في الغالب متوانيًا ناديًا كأنه محاطٌ بضبابٍ كثيف؛ فتارةً يَسْبقكم، وتارةً يبقى ساكنًا، وتقولون ثانيةً إنه عبقريٌّ، وتقولون بعد ثانيةٍ إنه غبي، وتُخطِئون دائمًا، وذلك أنه ولد، وذلك أنه فَرْخُ نَسرٍ يَشُقُّ الهواءَ لِيسقط في وَكْرِه بعد ثانية.

إذن، عامِلوه وَفْقَ سِنِّه على الرغم من الظواهر، واخشَوْا أن تستنفدوا قُواه قاصدين تمرينَها كثيرًا. وإذا ما حَمِيَ هذا الدماغُ الفتي، وإذا ما أبصرتم أنه أخذَ يفور، فدَعُوه يثور طليقًا، ولكن لا تهيِّجوه مطلقًا خشيةَ أن يتصاعدَ كلُّه. ومتى أخذت الغازات الأُولى تتبخَّر فأمسكوا الأخرى واضغطوها، وذلك حتى يتحوَّل الجميعُ مع السِّنين إلى حرارةٍ مُنعِشةٍ وقوةٍ حقيقية، وإلا أضعتم وقتَكم وقضيتم على عملِكم الخاص. وإنكم بعد أن تَسْكَروا بجميعِ هذه الغازاتِ الملتهبةِ بلا فِطنة لم يَبْقَ لكم غيرُ ثُفْلٍ بلا حَوْل.

ويَنشأ ذوو الطَّيش من الأولادِ رجالًا عاديين، ولا أَعرِف ملاحظةً أعمَّ من هذا ولا أعظمَ ثبوتًا، ولا شيءَ أصعبُ في الوَلُودِية من أن يُفرَّق بين الغباوة الحقيقية والغباوة الظاهرة

[١٥] * A la mode.

الخادعة التي هي إعلانُ النفوس القوية. ومما يبدو غريبًا أوَّلَ وهلةٍ أن يكون للحدَّين المتناهيَين علائمُ بالغةُ المشابهة، وهذا ما يجب أن يكون مع ذلك؛ وذلك أن كلَّ فرْقٍ بين من يكون ذا نبوغٍ وبين مَن لا يكون يقوم في دَور العُمُر الذي لا يكون للإنسان فيه أيُّ فكرٍ حقيقي، على كونِ الأخير لا يتقبَّل غيرَ أفكارٍ فاسدة، وعلى كونِ الأوَّلِ لا يتقبَّل أيَّ واحدٍ من هذه الأفكارِ لِمَا لم يَجِد سواها؛ ولذا فهو يشابه الغبيَّ من حيث كونُ الغبيِّ غيرَ قادرٍ على شيء، وكونُه — أي الأوَّل — لا يلائمه أيُّ شيء، ويتوقف الفارقُ الوحيد الذي يُمكِن أن يَمِيز أحدَهما من الآخر، على المصادفة التي تستطيع أن تَعرِض على الأخيرِ أفكارًا تكون في متناوله على حين يكون الأوَّلُ هو إياه في كلِّ مكان. وكان الفتى كاتون يشابه، وهو ولدٌ، بليدًا في المنزل، وقد كان صموتًا عنيدًا، وهذا هو كلُّ الرأي الذي كان يُحمَلُ عنه، وليس في غيرِ غرفةِ استقبالِ سيلَّا ما استطاع عمُّه أن يَعْرِف حقيقةَ أمرِه، ولو لم يدخل هذه الغرفةَ قَطُّ لعُدَّ شرِسًا حتى سِن الرشد، ولو لم يظهر قيصرُ قَطُّ لعُدَّ صاحبَ أوهامٍ دائمًا كاتونُ هذا. كاتونُ نفسُه، الذي نَفَذَ إلى عبقريته المشؤمة وأبصر جميعَ خِططه من بعيد، ويا لَكثرة ما يُعرَّض له من خطأ أولئك الذين يَحْكُمون في أمرِ الأولادِ على عَجَل! فهم أولادٌ أكثرُ منهم غالبًا. وممن أبصرت في سِنٍّ متقدِّمة بعضَ التقدُّمِ رجلٌ شرَّفني بصداقته، عُدَّ في أُسرتِه وبين أصدقائه محدودَ الذكاء؛ فهذا الرأسُ الممتازُ كان يَنْضَج نَضْجًا صامتًا، ويبدو فيلسوفًا بغتة، ولا ريبَ عندي في أن الأعقاب ستعطيه مكانًا كريمًا ممتازًا بين أحسنِ مفكِّري عصره وأعمقهم في ما بعد الطبيعة.

واحترموا الوَلُودِية، ولا تستعجلوا الحكمَ فيها مطلقًا، خيرًا كان هذا الحكم أو شرًّا، ودَعُوا الشواذَّ تدلُّ على نفسِها وتُثْبت نفسَها وتوَكِّد نفسَها زمنًا طويلًا قبْل أن تتخذ لها مناهجَ خاصَّة، ودَعُوا الطبيعة تعمل طويلًا قبْل أن تُعنَوْا بالعملِ بدلًا منها، وذلك لكيلا تُعاكسوا أعمالَها. وأنتم تقولون إنكم تعرفون ثَمنَ الوقتِ ولا تريدون ضياعَ شيءٍ منه مطلقًا، وأنتم لا تَرون أن ضياعَه مع سوءِ استعمالٍ أكثرُ من ضياعِه مع عدمِ صُنْع شيء، وأن الولدَ السيئ التعليمِ أقلُّ حكمةً من الولدِ الذي لا يُعلَّمُ شيئًا، ومما يُذعِركم أن تَرَوه يَستنفِد سِنيه الأُولى في عدم عمل شيء. ماذا! أليس من السعادةِ أن يثِبَ ويلعبَ ويعدوَ اليومَ كلَّه؟ لن يكون في حياته كثيرَ الأشغالِ بمثل هذا المقدار، وأفلاطون في جمهوريته التي يُعتَقَدُ أنها بالغةُ الصرامة لا يُربي الأولادَ إلا في الأعياد والألعاب والأغاني والملاهي، ويظهر أنه صَنع كلَّ شيء حينما أجاد في تعليمهم البهجة. وقد قال سِنيكا عندما تكلَّم عن الشبيبة

الرومانية: «إنها قائمةٌ دائمًا، ولم تُعلَّم من الأمورِ ما تتلقاه وهي قاعدة.» وهل أصبحت أقلَّ قيمةً عندما بلغتْ سِنَّ الرجولة؟ أَوَتَخشون إذن هذه البِطالة المزعومة؟ وما تقولون عن رجلٍ لا يريد أن ينام ليتمتَّعَ بجميعِ الحياة؟ تقولون: «إن هذا الرجلَ أحمق؛ فهو لا يستفيد من الوقت، وهو يَحرِم نفسَه قِسْمًا منه، وهو يركُض نحو الموتِ بفراره من النوم.» واعْلَموا إذن أن الأمرَ هنا هو هو؛ فالوَلُودِية هي نوم العقل.

وسهولة التعلُّمِ الظاهرةُ سببُ خسران الأولاد، ولا تُرَى هذه السهولةُ نفسُها دليلًا على أنهم لا يتعلَّمون شيئًا، ويشابه دماغُهم الأملسُ الصقيلُ المرآةَ في انعكاسِ ما يُعرَض عليه من الأشياء، ولكن لا شيءَ يبقى، ولا شيءَ يَنفُذ، والولد يَحفظ الألفاظ، والألفاظُ تنعكس ويُدركها سامعوه، وهو وحدَه لا يدركها.

ومع أن العقلَ والذاكرة خاصِّيَّتان مختلفتان جوهرًا، فإن إحدى هاتَين الخاصيتَين لا تنمو إلا مع الأخرى في الحقيقة. ولا يتلقَّى الولدُ أفكارًا قبْل سِن الرشد، وإنما يتلقَّى صُورًا، ويتجلَّى الفرْق بين الأمرَين في كونِ الصورِ ليست غيرَ ألواحٍ مطلقةٍ للأشياء الحسيَّة، وفي كونِ الأفكارِ مفاهيمَ للأشياء تُعيَّنُ بما بينها من علاقات. وقد تكون الصورةُ وحدَها في الذهن الذي يتمثَّلها، وأمَّا كلُّ فكرٍ فيفترض أفكارًا أخرى، ومتى تصوَّرنا أبصرنا فقط، ومتى فكَّرنا قابلْنا. وإحساساتنا منفعلةٌ مَحْضًا، على حينِ تَصدُر جميعُ إدراكاتنا أو أفكارِنا عن مبدأ فاعل يَمِيز، وسنُثْبِت هذا فيما بعد.

وأقول إذن: بما أن الأولادَ غيرُ قادرين على التمييز، فإنهم لا يتصفون بذاكرةٍ حقيقيةٍ على الإطلاق، وهم يحفظون أصواتًا وصُوَرًا وإحساسات، ومن النادر أن يَحفظوا أفكارًا، وأندرُ من هذا حِفظُهم ما بين الأفكارِ من ارتباط. وإذا ما اعتُرِض عليَّ بأنهم يتعلَّمون بعضَ مبادئ الهندسة ظُنَّ إقامةُ الدليلِ ضدي، مع أن الدليلَ يُقام تأييدًا لي، وذلك أنه يَظهر من البعيدِ جِدًّا معرفةُ الأولادِ أن يستدلوا بأنفسهم، حتى إنهم لا يَعْرِفون استدلالات الآخرين، وذلك أنكم إذا ما تتبَّعتم هؤلاء المهندسين الصِّغارَ في منهاجهم أبصرتم من فَوْركم أنهم لم يحفظوا غيرَ الانطباعِ التام للشكل ولحدود الدليل، ولا يستطيعون الوقوفَ أمامَ أقلِّ اعتراض جديد، وإذا ما قلبتم الشكلَ لم يستطيعوا فِعلَ شيء. وليست ذاكرتُهم نفسُها أكملَ من خصائصهم الأخرى، وذلك لِما يجب دائمًا من تعلُّمِهم في كِبَرهم ما تعلَّموا كلماتِه من الأشياء في صِغَرِهم.

ومع ذلك تَجِدُني بعيدًا من التفكير في كوْن الأولادِ خالين من أي نوعٍ من الاستدلال،[١٦] وعلى العكس أراهم يجيدون الاستدلالَ في كلِّ ما يَعْرِفون وفي كلِّ ما يطابق مصلحتَهم الحاضرة والمحسوسة. ولكن الوهم يدور حولَ معارفهم بأن يُعْزى إليهم ما لا يمكنهم إدراكُه، وكذلك يُوهَم عندما يُراد جعْلُهم منتبهين إلى اعتباراتٍ لا يدركونها بأي وجهٍ كان، كمصلحةٍ آتيةٍ لهم، وكسعادتهم حينما يَغدون رجالًا، وكاحترامٍ ينالونه عندما يصيرون كِبارًا؛ أيْ أمورٍ لا معنَى لها على الإطلاق لدى هؤلاء الخالِين من كلِّ بصيرة. والواقع أن جميعَ دراسات هؤلاء المخلوقاتِ التعساء البائسين القسرية تَهدِف إلى أغراضٍ غريبةٍ عن نفوسهم تمامًا، ويُمكنُكم أن تَحْكُموا فيما يستطيعون أن يُعِيروها من انتباه.

ويَميل المُعلِّمون الذي يَعْرِضُون علينا في جهازٍ كبيرٍ ما يُلقُون على تلاميذهم من معارفَ إلى استعمالِ لغةٍ أخرى، ومع ذلك فإنه يُرى من سلوكهم الخاص أنهم يفكرون مثلما أفكِّر، وذلك: ما يُعلِّمونهم في نهايةِ الأمر؟ يعلمونهم كلماتٍ، وكلماتٍ أيضًا، وكلماتٍ دائمًا، وتَراهم يحترزون بين مختلفِ العلوم التي يُباهون بتعليمهم إياها، من اختيارِ ما يكون نافعًا لهم حقًّا؛ وذلك لأنه يكون علومَ الأشياء، وهذا ما لا يُوَفَّقون فيه، وإنما يُكتَب لهم التوفيقُ في العلوم التي يَلوحُ أنها تُعرَف إذا ما عُرِفت ألفاظُها كالأشْعِرةِ والجِغرافيةِ والتقويمِ واللغاتِ ... إلخ، أيْ الدراساتِ الكثيرةِ البُعدِ من الإنسان، ولا سيَّما الولد، فيكون من العجيبِ أن يوجد شيءٌ منها يُمكن أن يكون نافعًا له في حياته ولو مرةً واحدة.

وستُدهشون من عَدِّي درسَ اللغاتِ بين أباطيلِ التَّربية، ولكن ليُذكَر أنني لا أتكلم هنا عن غيرِ دروس الدَّور الأوَّل من العُمُر، ومهما يُمكن أن يُقال فإنني لا أعتقد وجودَ ولدٍ

[١٦] لقد لاحظتُ مائةَ مرة عند الكتابة أن من المتعذرِ في سِفْرٍ مطوَّلٍ أن يُطلَق عينُ المعاني على عينِ الكلمات دائمًا، ولا تجد لغةً بالغةً من الغنى ما تجهز معه بألفاظٍ وتعبيرات وجمل ما يمكن أن يعتور أفكارنا من تغيير. أجلْ، إن طريقةَ تعريفِ جميعِ الألفاظ، وقيامَ التعريفِ مقامَ المعرَّف دائمًا، أمرٌ جميل، غيرَ أنه ليس عمليًّا؛ وذلك لأنه كيف تجتنب الدائرة؟ وقد تكون التعاريفُ صالحةً إذا لم تُستَعمَل ألفاظٌ لوضْعِها. وتَراني قانعًا مع ذلك بأن الوضوحَ ممكنٌ حتى عند فقرِ لغتنا، لا بإطلاقِ عينِ المعاني على عينِ الألفاظ، بل بأن يقع في كلِّ مرةٍ تستعمل فيها كل كلمة تعيين المعنى الذي يُطلق عليها تعيينًا كافيًا بالقرينةِ التي تطابقها، وأن يتخذ كل دَورٍ تُستعمَل فيه هذه الكلمةُ تعريفًا لها. وقد قلتُ تارةً إن الأولاد عاجزون عن الاستدلال، كما عزوتُ إليهم الاستدلالَ بشيءٍ من الدِّقة تارةً أخرى. ولا أراني مناقضًا لنفسي في أفكاري، ولكني لا أستطيع أن أنكر مناقضتي لنفسي في كلماتي غالبًا.

استطاع أن يتعلَّم لغتَين حقًّا قبْل بلوغهِ الثانيةَ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ من سِنيه، ما لم يكن من النوابغ.

وأوافق على أن درسَ اللغات إذا لم يكن غيرَ درسِ الكلمات؛ أي درسِ الرموزِ والأصواتِ التي تُعبِّر عنها، فإن هذا الدرسَ يمكن أن يلائم الأولاد، غيرَ أن اللغات إذا ما غَيَّرت الرموزَ عَدَّلت الأفكارَ التي تُعبِّر عنها أيضًا، وتتألَّف الأذهانُ من اللغات، وتتخذ الأفكارُ صِبغةَ اللهجات، والعقل وحدَه مشتركٌ بين الجميع. وللرُّوح في كل لغة شكلُه الخاص، ويمكِن هذا الفرْق أن يكون علَّةَ الأخلاقِ القوميةِ أو معلولَها من بعض الوجوه، والذي يلوح مؤيِّدًا لهذا الظَّن هو أن اللغة لدى جميعِ أمم العالَم تتَّبع تقلُّبات الطبائع وأنها تبقى أو تتغيَّرُ مثلَها.

والاستعمالُ يمنح الولدَ أحدَ هذه الأشكالِ المختلفة، وهذا الشكلُ وحدَه هو الذي يحافِظ عليه حتى سِن الرشد، ويجب لكي يكون لديه شكلان أن يَعْرِف مقابلةَ ما بين الأفكار، وكيف يُقابِل بينها وهو لا يكاد يكون في حالٍ يُدرِكها فيه؟ ويُمكن أن يكون لكل شيء ألفُ إشارةٍ مختلفةٍ عنده، غيرَ أنه لا يكون لكل فكرٍ سوى شكل واحد. وهو لا يستطيع أن يتعلَّم إذن غيرَ لغة واحدة، وهو مع ذلك يتعلَّم عدة لغات كما يُقال لي، فأُنكر ذلك. وقد رأيت من هؤلاء الصِّغار النادرين مَن يعتقدون أنهم يتكلَّمون خمس لغات أو ست لغات، وقد سَمِعتُهم يتكلَّمون الألمانية متعاقبًا بألفاظٍ لاتينيةٍ وألفاظٍ فرنسيةٍ وألفاظٍ إيطالية، وكانوا يستعملون من المعاجم في الحقيقةِ ما يترجَّح بين خمسةٍ وستة، ولكنهم كانوا لا يتكلمون بغيرِ الألمانية دائمًا. والخلاصةُ أنكم إذا ما أعطيتم الأولادَ مترادفاتٍ كثيرةً كما تودُّون غيَّرتم الألفاظَ لا اللغة، وهم لن يَعْرِفوا غيرَ واحدة.

ويُفضَّل تمرينُهم على اللغات الميتة التي لا يوجد فيها من الحَكَم ما لا يُمكن ردُّه، وبما أن استعمالَ هذه اللغاتِ المعتادَ قد زال منذ زمن طويل، فإنه يُكتفى باتباع ما هو مسطورٌ في الكتب، فيُسمَّى الكلام. وإذا كانت هذه يونانية المُعلِّمين ولاتينيتهم فما يُقال عن يونانية الأولاد ولاتينيتهم؟ لم يَكادوا يحفظون على ظهر القلب مبادئهما التي لا يفقهون منها شيئًا على الإطلاق حتى يُؤخذ في تعليمهم ترجمةَ مقالةٍ فرنسية بكلماتٍ لاتينية، ثُمَّ إنهم إذا ما تقدَّموا أكثرَ من قبْل حُمِلوا على وصْلِ ما بين جُمَلٍ من شيشرونَ نثرًا وأبياتٍ من فِرجيلَ نظْمًا، وهنالك يظنون أنهم يتكلمون اللاتينية، ومَن يأتي لمناقضتهم؟

ولا تُعدُّ الرموزُ الممثِّلة شيئًا بغيرِ فكرةِ الأشياءِ الممثَّلة، مهما كانت دراسة ذلك. ومع ذلك فإن الولد يُقصَر على هذه الرموزِ دائمًا، وذلك من غيرِ أن يُستطاع حَمْله على إدراك أيِّ

من الأشياء التي تُمثِّلُها، وإذا ما رُئي تعليمُه وصْفَ الأرضِ لم يُعلَّم غيرَ معرفة الخرائط، فيُعلَّم أسماءَ المدن والبلاد والأنهار التي لا يَتصور وجودَها على غيرِ الورق حيث يُدَلُّ عليها. وأذكرُ أنني رأيت في مكانٍ ما جِغرافيَّةً تبدأ هكذا: «ما العالَم؟ العالَم كُرَةٌ من المُقوَّى.» فهذه هي جِغرافيةُ الأولادِ تمامًا. وأفرضُ عدمَ وجودِ ولدٍ واحدٍ في العاشرة من سِنيه قادرٍ بعد دراسةِ سنتَين للكرة والفَلَك، على السيرِ من باريسَ إلى سان دِني مستندًا إلى القواعدِ التي أُعطيَها، وأفرضُ عدمَ وجودِ ولدٍ يستندِ إلى خريطةِ حديقةِ أبيه فيستطيع أن يتتبع العطفات فيها من غيرِ أن يَضِلَّ؛ فهؤلاء هم الأساتذةُ الذين يَعرِفون أن يُسمُّوا مواضعَ بكين وأصبهان والمكسيك وجميعَ بلاد الأرض.

وقد يُقال لي إن من المناسبِ شغلَ الأولادِ بدروسٍ لا تحتاج إلى غيرِ عيون، وهذا يُمكن أن يكون لو وُجِدَ من الدروس ما لا يحتاج إلى غيرِ عيون، ولكنني لا أَعْرِف مثلَ هذه الدروسِ مُطلَقًا.

ويُحمَلون على درْسِ التَّارِيخ عن خطأٍ أدعى إلى السخرية أيضًا، ويُظَنُّ أن التَّارِيخ يقعُ ضِمنَ متناوَلهم لأنه ليس سوى مجموعةٍ من الوقائع، ولكن ما يُقصَدُ بكلمة الوقائع؟ وهل يُعتقدُ أن الصلات التي تُعيِّن الوقائعَ التَّارِيخية سهلةُ الإدراكِ كثيرًا، وأن الأفكارَ عنها تتكوَّن في رُوحِ الأولادِ بلا عناء؟ وهل يُعتقَدُ أن معرفةَ الحوادثِ الحقيقية منفصلةٌ عن عللها ومعلولاتها، وأن التَّارِيخيَّ يبلُغ من قلَّة تعلُّقه بالخلقيِّ ما يُمكن أن يُعرَف أحدُهما معه بغيرِ الآخر؟ وإذا كنتم لا تَرَون في أعمالِ النَّاس غيرَ الحركات الخارجية والمادية الصِّرفة فما تتعلَّمون في التَّارِيخ؟ لا شيءَ مطلقًا، ولا تنالون من هذا الدرسِ العاطلِ من كلِّ إمتاع لذةً أو معرفة، وإذا أردتم تقديرَ هذه الأفعالِ بصِلاتِها الأدبيةِ فحاولوا جعْلَ هذه الصِّلات مفهومةً لدى تلاميذكم، وهنالك تَرون هل التَّارِيخُ ملائمٌ لِسنِّهم.

ويا أيها القراء، اذكروا دائمًا أن الذي يخاطبكم ليس عالِمًا ولا فيلسوفًا، بل رجلٌ بسيطٌ صديقٌ للحقيقة، غيرُ منتسِبٍ إلى فريقٍ أو إلى مذهب، معتزِلٌ يعاشرُ النَّاسَ قليلًا، نادرُ الفُرَصِ في ابتلائه بمُبْتَسَراتهم، كبيرُ التأمُّلِ فيما يَقِفُ نظرَه عند مصاحبتهم. وتقوم براهيني على المبادئ أقلَّ مما على الوقائع، وأعتقدُ أنني لا أجدُ طريقًا في تقديمِ الوقائعِ إليكم أفضلَ من أن أورِدَ بعضَ الأمثلةِ غالبًا عن الملاحظاتِ التي توحي إليَّ ببراهيني.

كنت قد ذهبتُ إلى الأريافِ لأقضي فيها بضعةَ أيامٍ عند ربَّةِ أُسْرةٍ صالحةٍ كثيرةِ العنايةِ بأولادها وتربيتهم. وبَينا كنتُ ذاتَ صباحٍ حاضرًا دروسَ أكبرِهم سِنًّا تناولَ مُعلِّمه، الذي جَدَّ في تعليمه التَّارِيخَ القديم، سيرةَ الإسكندر، ووقع على حكاية الطبيب فِليب المعروفةِ التي رُسِمَت في صورةٍ والتي تستحقُّ العَناء لا ريب. ويأتي المُعلِّمُ الذي هو رجلٌ فاضلٌ بعِدَّة تأمُّلاتٍ عن شجاعةِ الإسكندرِ لم تَرُقْني قَط، فاجتنبتُ مناهضتَها لكيلا أسيء إلى اعتباره في نفْسِ تلميذه. فلما كُنَّا حول المائدةِ لم يُقصِّر في جعلِ الصبي الصغيرِ يثرثر كثيرًا على الطريقة الفرنسية، وما كان من حُميًّا سِنه الطبيعية ومن انتظارِ هُتافٍ مُقرَّرٍ كان يحْفِزه إلى إبداء ألفِ سخافة مع صدورِ بعض كلماتٍ موفَّقة من خلالِ ذلك في الحين بعد الحين يُنسي ما سواه. وأخيرًا تأتي قصةُ الطبيب فليب فيذكرها بوضوحٍ بالغٍ وطلاوةٍ كثيرة، ويتحدَّث فيما قال الولدُ بعد دفعُ ضريبةِ الثناء المعتادة التي كانت تُطالِب بها الأمُّ وينتظرها الابن، وقد صبَّت الأكثريةُ لومَها على تهوُّر الإسكندر، وقد جارى بعضُهم المُعلِّمَ في الإعجاب بحَزْمه وبسالته، فحملني هذا على إدراكي عدمَ رؤيةِ أحدٍ من الحضورِ موضعَ الجمالِ الحقيقيِّ في هذه القصة. وأمَّا أنا فقد قلتُ لهم إنني أرى أنه إذا وُجِدَ في عملِ الإسكندرِ أقلُّ شجاعةٍ وأقلُّ حزمٍ لم يكن هذا غيرَ هَوَس. وهنالك وافق الجميعُ على أن هذا كان هوسًا. وقد هممت بالجواب وحَميتُ، وكان يوجد بجانبي امرأةٌ لم تَنبس بكلمة، فمالت إلى أذني وقالت لي همسًا: «اسكت يا جان جاك، فهم لن يفهموا أمرك.» وقد نظرتُ إليها وعَمِلتُ بنصيحتها وأمسكتُ عن الكلام.

وساورني شكٌّ حولَ كثيرٍ من الدلائل التي لم يُدرِكها الأستاذُ الغلامُ من تاريخٍ أجادَ سرْدَه، فأمسكته بعد الغَداء من يده وطُفتُ معه في الحديقة، فوجدتُ بعد السؤالِ من غيرِ إزعاجٍ أنه كان يُعجَبُ أكثرَ من كل شخصٍ بشجاعة الإسكندر التي أثنى عليها إلى الغاية، ولكن أتعلمون أين كان يَرى هذه الشجاعة؟ كان يَجدُها حصرًا في الإقدامِ على اجتراعه شرابًا سيئ الطعم دفعةً واحدة، بلا تردُّد ومن غير أن يُبدي أقلَّ اشمئزاز. وكان الولدُ المسكينُ قد أُعطي منذ خمسة عشر يومًا دواءً فلم يتناوله إلا بمشقةٍ لا حدَّ لها، ولا يزال أثرُ طَعْمه الكريه في الفم، وما كان الموتُ والسُّمُّ لِيمُرَّا في ذهنه إلا كإحساساتٍ كريهة، وما كان ليتمثَّل غيرَ السَّنَا سُمًّا آخَر، ومع ذلك يجب أن يُعرَف أن حزْم البطل كان ذا أثرٍ عظيمٍ في فؤاده الفتي، وأنه عزم أن يكون إسكندرًا عند وجوبِ اجتراعه أوَّلَ دواء. وإني من غيرِ

دخولٍ في إيضاحاتٍ تجاوز متناوَله لا ريبَ أيدْتُه في مناحيه الحميدة، وعُدتُ ضاحكًا في نفسي من حكمةِ الأبوين والمُعلِّمين الذين يُفكِّرون في تعليمِ الأولادِ التَّارِيخ.

أجلْ، إن من السهلِ أن تُوضع في أفواههم ألفاظٌ كالملوك والأباطرة والحروب والفتوح والثورات والقوانين، ولكن المسألة إذا ما دارت حولَ ربْط أفكارٍ واضحةٍ بهذه الكلمات بَدَت هذه الإيضاحاتُ مختلفةً كلَّ الاختلافِ عن حديثنا مع البستانيِّ رُوبِرت.

وسيسأل بعضُ القراءِ المستائين مِن «اسكُتْ يا جان جاك»، كما أُبصرُ عما أَجِد أخيرًا من رَوعةِ عملِ الإسكندر. فيا أيها التُّعساء! إذا ما وجب قولُ ذلك لكم فكيف تُدرِكونه؟ ذلك أن الإسكندر كان يؤمن بالفضيلة، ذلك أنه كان يؤمنُ بعقْله، ذلك أنه كان يؤمن بحياته، ذلك أن نفسه الكبيرة صُنِعَت للإيمان بذلك. وَيْ! يا لَكون هذا الدواء المُجتَرَعِ مهنةَ إيمانٍ رائعة! كلَّا، لم يَصنع إنسانٌ ما هو أرفعُ من ذلك، إذا ما وُجِد إسكندرٌ عصريٌّ فلْأُدَلَّ على أنه قَوَّامٌ بمثل تلك المآثر.

إذا لم يُوجد عِلمٌ للكلمات قَطُّ لم يوجد درسٌ للأولادِ خاصٌّ قَط، وإذا لم تكن لهم أفكارٌ حقيقية لم تكن لهم ذاكرةٌ حقيقيةٌ قَط؛ وذلك لأنني لا أدعو هكذا ذاكرةً لا تحفظ غيرَ الإحساسات، وما نفعُ تسجيلِ جدولٍ من الرموز التي لا تدلُّ على شيءٍ لديهم؟ ألَا تُعلَّمُ الرموزُ بتعلُّمِ الأشياء؟ ولِمَ يُحمَّلون مشقَّةَ تعليمهم إياها مرتَين على غيرِ جدوى؟ ومع ذلك فيا لَلْمبتَسرات الخَطِرة التي يُبدأ بتلقينهم إياها حين يُحمَلون على عَدِّهم من العلم كلماتٍ لا معنًى لها عندهم! ويقِلُّ تمييزُ الولدِ بالكلمة الأُولى التي يقنع بها وبالشيء الأوَّل الذي يتعلَّمه من الآخرين غيرَ مُطَّلِعٍ على فائدته بنفسه، ولا بُدَّ له من بَهْرِ أبصارِ الأغبياء قبْل أن يُعوَّض من هذا النقصان.[١٧]

[١٧] أمرُ معظمِ العلماء في ذلك كالأولاد، وينشأ العِلمُ الواسعُ عن كثرةٍ في الأفكار أقلَّ مما عن كثرةٍ في الصور، وتُحفظ التواريخُ والأعلام والأماكن وجميعُ الأشياء المنفردة في ذاكرة الرموز. ومن النادر أن يُذكر بعضُ هذه الأشياء من غيرِ أن يُرى في الوقت نفسِه ظاهرُ الصفحة التي تُقرأ فيها أو باطنها، أو تُبصَر الصورةُ التي رُئيت عليها أوَّل مرة. وهذا ما كان عليه العِلمُ الدارجُ في القرونِ الأخيرة تقريبًا. وأمَّا العِلم في عصرنا فشيءٌ آخَر؛ فعاد لا يُدرَس ولا يُلاحظ، بل يُحلم به. ونُعطى، برصانة، أحلامَ بعض الليالي السيئة على أنها من الفلسفة. وسيُقال لي إنني أعْلم أيضًا، وأوافق على هذا، غيرَ أن ما لا يَحترِز الآخرون من صُنْعه أقدِّمه على أنه أحلام، تاركًا للقارئ أن يبحث عن وجودِ شيء لديهم مفيدٍ لذوي الانتباه أو لا.

كلَّا، إذا كانت الطبيعةُ تُنعِمُ على دماغِ الولدِ بتلك المرونةِ التي تجعله صالحًا لتقبُّل جميعِ أنواعِ الانطباعات، فليس ذلك لتُنقَش عليه أسماءٌ لملوكٍ وتواريخُ وألفاظٌ للأشعِرَةِ وكُرةٌ وجغرافيةٌ وجميعُ تلك الكلمات التي لا معنًى لها عند مَن هو في سِنِّه، والتي لا فائدةَ فيها لجميعِ النَّاس من أيِّ عُمُرٍ كانوا، فتُرهَقُ بها وَلُودِيتُه الكئيبة العقيم، بل لتُرسَم عليه باكرًا، وبحروفٍ لا تُمحَى جميعُ الأفكارِ التي يُمكنه أن يتمثَّلها والتي هي نافعةٌ له، وجميعُ الأفكارِ التي تلائم سعادتَه فيجب أن تُنيرَ له السبيلَ في جميعِ واجباته ذاتَ يوم، فيتخذُها نبراسًا يهتدي به في أثناء حياته هدايةً مناسبةً لكِيانه وخصائصه.

ومن غيرِ دَرْسٍ في الكتب لا يَظلُّ نوعُ الذاكرة الذي يَحُوزه الولدُ مُعطَّلًا لهذا السبب، فيَقِفُ نظرَه كلُّ ما يرى وكلُّ ما يسمع ويذكُرُه، وهو يُمسك سجلًّا في نفسه لأعمالِ النَّاس وأقوالهم، ويُعَدُّ جميعُ ما يحيط به كتابًا يُغني فيه ذاكرته بلا انقطاعٍ من غيرِ أن يُفكِّر في هذا، وذلك ريثما يُمكِنُ قوةَ التمييز فيه أن تنتفع به. وعلى اختيارِ هذه الأشياء، وعلى الاعتناءِ بأن يُعرَض عليه دائمًا ما يستطيع أن يَعْرِفه، وعلى إخفاء ما يجب أن يجهله؛ يتوقَّف الفنُّ الحقيقيُّ في تعهُّدِ هذه الخاصية الأُولى. وبهذا يجب أن يُسعَى في تكوينِ مستودعٍ للمعارفِ فيه نافعٍ لتربيته في أثناءِ شبابِه ونافعٍ لسلوكه في جميعِ الأوقات. والحقيقةُ أن هذا المِنهاجَ لا يصنعُ صِغارًا نادرين، ولا يوجِب التماعَ المربيات والمُعلِّمين، وإنما يُكوِّن رجالًا بصيرين أقوياءَ سالمين بدنًا وإدراكًا من غيرِ أن يكونوا موضعَ إعجابٍ صِغارًا ومع ظهورهم مدارَ افتخارٍ كِبارًا.

ولن يتعلَّم إميُل شيئًا على ظهر القلب، حتى الأمثالَ، حتى أمثالَ لافُونْتِن، مهما بلغت من البساطة والجمال؛ وذلك لأن ألفاظَ الأمثال ليست أكثرَ أمثالًا من كون ألفاظِ التَّارِيخ تاريخًا. وكيف يُبلَغُ من العَمى ما تُسمَّى الأمثالُ معه كتابَ أخلاقٍ للأولاد من غيرِ أن يُفكَّر في كونِ المَثَلِ الخُلُقي يُضلُّهم حين يُسلِّيهم، وفي كونهم يَدَعُون الحقيقةَ تَفِرُّ حين يُفتَنون بالكَذِب، وفي كونِ ما يُصنَع لجعْلِ المعارفِ مستحبةً لديهم يَحول دون استفادتهم منها؟ أجلْ، تستطيع الأمثالُ أن تُثقِّف الرجال، ولكن يجب أن تُقال الحقيقةُ للأولاد عاريةً، حتى إذا ما سُتِرَت بغطاءٍ لم يَصْعُب عليهم أن يكشِفوه.

ويُعلَّمُ الأولادُ أمثالَ لافونْتن، ولا تجِد واحدًا منهم يدركها، ولو أدركوها لكان الأمرُ أسوأَ مما هو عليه؛ وذلك لأن مبادئَ الأخلاقِ من كثرةِ الاختلاطِ فيها ومن عدمِ تناسبها مع

عُمُرهم ما تحمِلُهم به على الرذيلةِ أكثرَ مما على الفضيلة. وستقولون إن ما تأتي هو من البِدَع، ولْيكُن بِدَعًا، ولكن لِننظُرْ هل ينطوي على حقائق.

أقولُ إن الولدَ لا يَفهَمُ الأمثالَ التي يُعلَّمُها مطلقًا؛ وذلك لأنه مهما يُبذَل من جُهدٍ لتبسيطها فإن المعارفَ التي يُراد استخراجُها منها تُوجِب إدخالَ أفكارٍ إليه لا يستطيع وعيها، على حينِ تَرى الشكلَ الشعري الذي يجعلها أيسرَ تَذكُّرًا يجعلها أعسرَ تصوُّرًا. وهكذا تُشرى المَلَاحةُ على حساب الوضوح. وإنَّا من غيرِ أن نورد هذا الحشدَ من الأمثال التي لا تنطوي على وضوحٍ ولا على فائدةٍ للأولاد، والتي يُعلِّمونها مع الأخرى على غيرِ هدًى لاختلاطها بها، نرى أن نقتصرَ على الأمثالِ التي يلوح أن المؤلِّف قد وضعها من أجلِ الأولاد.

لا أعْرِفُ في جميعِ مجموعةِ لافُونتِن غيرَ خمسة أمثال أو ستة أمثال سَطَعَت البساطةُ الصبيانيةُ منها سُطوعًا عظيمًا، وأُورِدُ من هذه الأمثالِ الخمسة أو الستة أوَّلَها،[١٨] وذلك لأنَّ أدبَ هذا المَثَلِ أكثرُ ملاءمةً لكلِّ عُمُر، ولأنه أحسنُ ما يُدرِك الأولاد، ولأنه ألذُّ ما يتعلَّمون، ثُمَّ لأنَّه المَثَل الذي وضعه المؤلِّفُ على رأسِ كتابه عن تفضيل، ونحن إذ نفترض له هدفَ كونِه مفهومًا لدى الأولادِ رائقًا مُثقِّفًا لهم نَعُدُّه أثرَ المؤلِّف الرائعَ حقًّا، فليُسمَحْ لي أن أتتبَّعه وأفحصه في كلماتٍ قليلةٍ إذن.

الغراب والثعلب

مَثَلٌ
«الأستاذُ الغرابُ على شجرةٍ واقع.»

«الأستاذ!» ما معنى هذه الكلمة بنفسها؟ وما معناها أمام اسم عَلَم؟ وما معناها هنا؟ وما الغراب؟

وما «على شجرةٍ واقع»؟ لا يُقال «على شجرة واقع»، بل يُقال «واقعٌ على شجرة»، ومِنْ ثَمَّ يجب أن يُحدَّث عن التقديم والتأخير في الشِّعر، ويجب أن يُفرَّق بين النثر والنظم.

«يُمسِك في منقاره جُبنة.»

[١٨] هذا هو المَثَل الثاني، لا الأوَّل، كما لاحظه مسيو فورمه.

أيُّ نوعٍ من الجُبنة؟ أهي جُبنةٌ سويسرية، أم جبنةٌ برِيَّة، أم جبنةٌ هولندية؟ وإذا كان الولدُ لم يرَ الغِربانَ قَطُّ فما فائدةُ الكلام عنها؟ وإذا كان قد رآها فكيف يتصوَّر إمساكَها جُبْنًا في منقارها؟ لنصنعْ صورًا عن الطبيعة دائمًا.

«الأستاذُ الثعلبُ بالرائحةِ أُغري.»

أستاذٌ آخَر! ولكن هذا لقبٌ ملائمٌ له، هو أستاذٌ دَربٌ في حِيَلِ مهنته، ويجب أن يُحدَّث عن الثعلب، وأن يُفرَّق بين الثعلبِ الحقيقيِّ وثعلبِ الأمثالِ الاتفاقي.

«أُغريَ»: هذه كلمةٌ غيرُ مستعمَلة، فيجب إيضاحُها، ويجب أن يُقال إنه عاد لا يُنتفع بها في غيرِ النَّظْم، وسيسأل الولدُ عن السبب في أنه يُتكلَّم في النَّظْم على خلافِ ما في النثر، وما يكون جوابكم؟

«أُغرِيَ برائحةِ جُبنةٍ!» لا بُدَّ من أن تكون هذه الجُبنة التي يُمسكها غرابٌ واقعٌ على شجرةٍ ذاتِ رائحةٍ قوية حتى يَشَمَّها ثعلبٌ في غابةٍ أو في وِجَارِه! أهكذا تُدرِّبون تلميذَكم على روح النقد الصحيح الذي يأبى كلَّ شيءٍ غيرَ الأدلة الصائبة، والذي يُمازُ به بين الصدق والكَذِب في قِصص الآخرين؟

«هو يخاطبه بهذه اللغةِ تقريبًا.»

«هذه اللغة!» أتتكلَّمُ الثعالبُ إذن؟ أتتكلَّمُ بعينِ اللغةِ التي تتكلَّمُ بها الغِربان؟ أَعْمِلْ ذِهنَك أيُّها المُعلِّمُ الأريب، وزِنْ جوابَك قبْلَ إلقائِه؛ فهو أهمُّ مما تَظُن.

«عِمْ صباحًا يا سيِّدي الغُراب!»

«سيِّدي!» هذا لقبٌ يَرى الولدُ تحويلَه إلى هزوء حتى قبْل أن يَعْرِف أنه لقبُ تكريم، وإذا ما قيل «صاحبُ السيادة الغُراب» كان للقائلين شئونٌ أخرى قبل إيضاح كلمة «صاحب» هذه.

«يا لحُسْنك، يا لجمالك كما أرى!»

حَشْو، تطويلٌ غيرُ مفيد، يَرى الولدُ تكرار عينَ الشيء بألفاظٍ أخرى، فيتعلم الكلامَ بتوانٍ، وإذا قلتم إن هذا التطويلَ هو فنُّ المؤلِّف، وإنه من مُخيِّلَة الثعلب الذي يرى فيضَ الثناء بالكلام، فإن هذا الاعتذارَ يكون صالحًا تجاهي لا نحوَ تلميذي.

«ومِن غيرِ كَذِبٍ لو كانَ تغريدُك.»

«من غيرِ كَذِبٍ!» إذن يكذِبُ النَّاسُ أحيانًا، وما يكونُ حالُ الولدِ إذا ما عَلِمَ منكم أن الثعلبَ لا يقولُ «مِن غيرِ كَذِبٍ» إلا لأنه يَكْذِب.

«يلائمُ ريشَك.»

«يلائم!» ما معنى هذه الكلمة؟ علِّموا الولدَ أن يقابِل بين صفاتٍ مختلفةٍ كالصوت والريش لِترَوا مقدارَ ما يُدرِك أمرَكم.

«لكنتَ أبَا هَولِ هذه الغاب.»

«أبو الهَول!» ما أبو الهَول؟ هكذا نُقذَفُ في القرونِ الخاليةِ الكاذبة، نُقذَفُ في أساطيرِ الأقدَمِين.

«أهلُ هذه الغاب!» يا له من كلامٍ مجازي! إن الُمصانِعَ يسمو بلسانِه ويُكثِر مِن رفْعِ شأنِه حتى يجعلَه أعظمَ فِتْنة، وهل يُدرِك الولدُ هذه الدِّقَّة؟ وهل يعلمُ أو يستطيعُ أن يَعْلمَ ما الأسلوبُ الرفيعُ وما الأسلوبُ الوضيع؟

«فَطَارَ قلبُ الغُرابِ من الفرحِ عندَ هذه الكلمات.»

لا بُدَّ من تجرِبة أشدِّ الإحساسات للشعورِ بهذه التعابيرِ التي تُضرَب بها الأمثال.

«ولكي يُظْهِرَ صوتَه الجميل.»

ولا يغِب عن بالكم وجوبُ معرفةِ الولدِ لما يُقْصَدُ بصوت الغُراب الجميل حتى يُدرِك هذا السطرَ وبقيةَ المثل.

«ويفتح مِنْقارَه الكبيرَ ويَدَع غنيمتَه تقع.»

وهذا السطرُ يقضي بالعجب، ويوحي انسجامُه بصورة، وأبْصِرُ مِنقارًا كبيرًا كريهًا فاغرًا، وأسمع وقوعَ الجُبنة من بين الغصون، غيرَ أن إدراك هذا النوعِ من الجمال بعيدٌ من الأولاد.

«ويقبض عليها الثعلبُ ويقول: سيِّدي الصَّالح.»

وهكذا يتحوَّل الصلاحُ إلى بلاهةٍ إذن، ولا ريبَ في أنه لا يُضيَّعُ وقتٌ في تعليم الأولاد.

«واعلَموا أن كلَّ مُصانِع.»

مثلٌ عام، لا دخلَ للولد فيه.

«يعيشُ على حسابِ مَن يستمعُ إليه.»

لا يوجد ولدٌ في العاشرة من سِنيه يُدرك هذا السطر.

«ويَعدِل هذا الدرسُ جُبنةً لا ريب.»

ويُمكن فَهْم هذا، ومعناه حسنٌ جِدًّا، ومع ذلك فإن من النادر وجودَ أولاد يقدِرون على مقابلةِ ما بين الدرس والجُبنة، فلا يُفضِّلون الجبنةَ على الدرس؛ ولذا يجب أن يُحمَلوا على إدراك كون هذا الحديث لا يَعدو حدَّ الهُزُوء، ويا للدِّقة فيه!

«ويعتري الغرابَ خَجَلٌ ويضطرِب.»

حشوٌ آخَرُ في الكلام، غيرَ أنَّ هذا لا معْذِرةَ عليه.

«ويَحلِف، ولكن بعد الأوان، بأنه لن يُؤخذَ بمثلِ ذلك.»

«يَحلِف!» فأيُّ مُعلِّم يبلُغُ من الحماقةِ ما يشرحُ معه للولدِ معنَى اليمين؟

وتلك تفاصيلُ كثيرة، ومع ذلك فهي أقلُّ مما يجبُ في تحليلِ جميعِ الأفكارِ التي يشتملُ عليها هذا المَثَل، وفي ردِّها إلى الأفكارِ البسيطةِ الابتدائيةِ التي تدخلُ في تركيبِ كلِّ واحدٍ منها، ولكنْ مَن ذا الذي يعتقدُ احتياجَه إلى هذا التحليلِ حتى يجعلَ نفسَه مفهومًا لدى الأولاد؟ لا تجدُ واحدًا مِنَّا فيلسوفًا بدرجةِ الكفايةِ حتى يضعَ نفسَه في مكانِ الولد، ولْننتقلِ الآن إلى عِلمِ الأخلاق.

وأسأل: هل يجبُ أن يُعلَّم الأولادُ البالغون من العُمُر عشرَ سنينَ وجودَ رجالٍ يُصانِعون ويَكْذِبون نفعًا لهم؟ كان يُمكنُ أن يُعلَّموا على الأكثرِ وجودَ ساخرين يهزءون بصِغار الأولادِ ويتهكمون بزهوهم الباطل سِرًّا، ولكن الجُبنة تُفسِدُ الجميع، وهم يُعلَّمون عدم ترْكها تسقط من مِنقارهم أقلَّ من جعْلها تسقُط من منقارِ آخَر، وهذا مَبدئي الثاني، وهو ليس أقلَّ أهميةً من الأوَّل.

وتتبَّعُوا الأولادَ وهم يتعلمون أمثالَهم تَرَوا أنهم يأتون عكسَ مقاصدِ المؤلِّف تقريبًا عندما يصبحون قادرين على تطبيقها، وأنهم يَميلون إلى حُبِّ عَيبٍ يستفيدون به من نقائصِ الآخرين بدلًا من ملاحظة نقيصةٍ يُراد شفاؤهم أو وقايتُهم منها. ويَضحك الأولادُ من الغراب في المَثَل السابق، ولكنهم يَعطِفون على الثعلبِ جميعًا، وتَرون ضرْب الزَّيز[١٩*] لهم مثلًا في القصة التالية، كلَّا، وإنما النملةُ هي ما يختارون، فلا يُحَبُّ الاستخزاء مطلقًا، وهم يتَّخذون الدَّور الرئيس دائمًا، وهذا هو اختيار الأثَرة، وهذا اختيارٌ طبيعيٌّ جِدًّا، ويا لهذا الدرس الفظيع للولد كما هو الواقع! إن أشنعَ جميع الجُفاة ولدٌ طمَّاعٌ قاسٍ يَعرِف ما يُطلَب منه وما يَرفِض، وتصنع النملة أكثرَ من هذا؛ فهي تُعلِّمه أن يهزأ عندما يَرفِض.

وفي جميع الأمثال؛ حيث يكون الأسدُ مِن أسطعِ الممثلين كما هي العادة، لم يَفُت الولدَ أن ينتحل وضعَ الأسد على الإطلاق، فإذا ما كان على رأس قِسمةٍ صرفَ همَّه في الاستيلاء على الجميع مقتديًا بمثاله، ولكن الولد يَغدُو بعوضةً عندما تَغْلِبُ الأسدَ لاختلاف الوَضْع؛ فيتعلم أن يَقتل بالمِنْخَس ذاتَ يومٍ مَنْ لم يجرُؤ على مهاجمتهم بقدمٍ ثابتة.

ومِن مَثَلِ الذئب النحيل والكلب السمين يتعلَّم درسَ تحلُّلٍ بدلًا من درسٍ في الاعتدال يُزعم أنه يُلقَى عليه. ولن أنسى أنني شاهدت ابنةً صغيرةً تبكي كثيرًا لِما كان من إحزانها بهذا المَثَل الذي أُلقِيَ عليها كدرسٍ في الطاعة دائمًا، ولم يَكد يُعرَف سببُ بكائها، وقد عُرِفَ مؤخرًا، وذلك أن هذه البنتَ المسكينة كانت تَضْجَر من سلسلتها، وكانت تَشعر بأن السلسلة تَحُكُّ جِيدَها، فتبكي لأنها ليست ذئبة.

وهكذا فإن أدبَ المَثَل الأوَّل المذكور هو للولد درسُ خِداعٍ دنيءٍ جِدًّا، وإن أدبَ المَثَل الثاني درسُ قسوة، وإن أدبَ المَثَل الثالث درسُ ظُلْم، وإن أدبَ المَثَل الرابع درسُ قَدْح، وإن أدبَ المَثَل الخامس درسُ تمرُّد، ولا يلائم هذا الدرسُ الأخيرُ تلاميذكم، كما أنه غيرُ نافع لتلميذي. وإذا ما ألقيتم عليهم تعاليمَ متناقضةً فأيةُ ثمرةٍ تنتظرون من رعايتكم؟ ولكن من المحتمل أن يكون جميعُ هذا الأدبِ الذي ينفعني في الاعتراض على هذه الأمثال يُجهِّزُ بأسبابٍ تَعدِل تلك للمحافظة عليها. ويجب أن يوجد في المجتمع أدبٌ قوليٌّ وأدبٌ فعلي، ولا يتشابه الأدبان مطلقًا، ويكون الأوَّل في كتاب الوعظ الديني حيث يُترَك، ويكون الثاني في أمثال لافُونتن للأولاد وفي قِصَصه للأمهات، ويكفي هذا المؤلَّف للجميع.

[١٩*] الزَّيز: دُويبة تطير وتقف طويلًا على الشجر، ولها صوتٌ كأنها تقول «زيز»، فسُميَّت به.

ولْنتَّفِق يا مسيو لافونت؛ فأمَّا أنا فأَعِدُ بأن أقرأك مختارًا، وأن أُحِبَّك، وأن أرِدَ مواردَ أمثالِك؛ وذلك لأنني أرجو ألَّا أُخدَع حَوْلَ موضوعها. وأمَّا تلميذي، فدعني ألَّا أتركه يدرسُ أيَّ واحدٍ منها قبْل إثباتك لي أن من الصالح له أن يتعلَّم أمورًا لن يفقهَ منها غيرَ الرُّبع، وأنه لن يُخدَع فيما يُمكِن أن يُدرِك منها، وأنه لن يَقْلِبَ الوضعَ فيُقَلِّد الخبيثَ بدلًا من إصلاح غِرَّته.

وإني، إذ أنْزِع دروسَ الأولاد على هذا الوجه، أنزِع وسائلَ أكبرِ بؤسٍ فيهم، أي الكتب؛ فالمطالعةُ هي آفة الوَلُودِية، وتكاد تكون الشغلَ الوحيد الذي يُمكِن أن يوجَد لها. ولا يَكاد إميلُ يَعرِف ما الكتاب عند بلوغه الثانية عشرة من سِنيه، وسيُقال لي إن من الواجب أن يكون عارفًا القراءةَ على الأقل، وأوافق على هذا، وإنما يجب أن يَعْرِف القراءةَ عندما تكون نافعةً له، وهي لا تكون صالحةً لغيرِ ضَجَرِه حتى ذلك الحين.

وإذا كان لا ينبغي أن يُطالبَ الأولادُ بشيءٍ عن طاعةٍ؛ فإنه ينجُم عن هذا أنهم لا يقدِرون أن يتعلَّموا شيئًا لا يشعُرُون بفائدته الراهنة الحاضرة، سواءٌ لِلَّهو أو لِلخير، وإلا فما الذي يَحمِلُهم على تعلُّمه؟ إن فنَّ مخاطبة الغائبِين وسماعهم، وإن فنَّ نقْل مشاعرنا وعزائمنا ورغائبنا إليهم بلا وسيط، وهم بعيدون؛ هو فنٌّ يمكن أن تُجعَل فائدتُه محسوسةً في كلِّ عُمُر. وبأية معجزة أصبح هذا الفن، العظيم الفائدة والكثير الإمتاع، وبالًا على الوَلُودِية؟ ذلك لأنها تُكرَه على التزامه على الرغم منها، ولأنه يُجْعَلُ قيد استعمالٍ لا تفقه منه شيئًا. وليس الولدُ من الفُضُول القويِّ ما يُصلِح معه الآلةَ التي يُعذَّب بها، ولكن اجعلوا هذه الآلةَ خادمةً لِلهْوه ترَوْه يلازمها من فوْره وعلى الرغم منكم.

ويقوم ضجيجٌ حول البحثِ عن أصلحِ المناهجِ في تعليم القراءة، وتُختَرَع مقاطعُ وبطاقات، وتُصنَع من غرفةِ الولدِ قاعةُ طِباعة، ويريد لوك أن يُعلِّموا القراءةَ بالنَّرْد. يا لهذا الاختراع الرائع! يا لموضع الرثاء فيه! توجد طريقةٌ أفضلُ من جميع ذلك، توجد طريقةٌ أُغفِلَت على العموم، وهي الرغبة في التعلُّم، فامنحوا الولدَ هذه الرغبة، ثُمَّ دعُوا مقاطعَكم ونَرْدَكم هنالك، يَصلُحْ له كلُّ منهاج.

والمصلحةُ الحاضرةُ هي الدافع الكبير، وهي التي تأتي بنا إلى بعيدٍ سالمين. ويتناول إميلُ من أبيه أو أمه أو أقربائه أو أصدقائه أحيانًا بطاقاتِ دعوةٍ إلى غداءٍ أو نزهةٍ أو سَفرةٍ على الماء لِيشهد احتفالًا عامًّا، وتكون هذه البطاقاتُ قصيرةً جليةً سهلةً حسنةَ الخط، ولا بُدَّ من وجودِ واحدٍ ليقرأها له، ولا يكون هذا موجودًا في الوقت الذي يُطلَب فيه، أو إنه إلا يَرُدُّ إلى الولد معروفًا كان قد حَباه به أمس، وهكذا يمضي الوقتُ وتضيع الفرصة. وأخيرًا تُقرأ

له البطاقة، ولكن بعد الأوان. وَي! يا ليته كان يَعْرِف القراءة! ويتناول بطاقاتٍ أخرى، يا لها من بطاقاتٍ قصيرة! يا لاهتمامه بالموضوع! ويحاول قراءتها، ويَجِدُ مساعدةً تارةً وإعراضًا تارةً أخرى، ويَبذُل وُسْعَه. وأخيرًا، يَفُكُّ نصفَ البطاقة، ويرى أنه مدعوٌّ لِتناول قِشدَةٍ غدًا، ولا يَعْرِف أين، ولا مع مَنْ، ويا للمجهود الذي يَبذل لقراءة البقية! ولا أعتقد احتياجَ إميلَ إلى مقاطع، وهل أتكلم الآن عن الكتابة؟ كلَّا، أخجل من التلهِّي بهذه التُّرهات في رسالةٍ عن التَّربية.

وأُضيف الكلمةَ الآتيةَ التي تشتمل على مبدأ مهم، وذلك أن يُنال بسرعةٍ فائقةٍ وعن يقينٍ ما لا يُستعجَل نيلُه، وأجدني واثقًا تقريبًا بأن إميل سيَعْرِف القراءة والكتابة تمامًا قبل بلوغه العاشرة من سِنِيه؛ وذلك لأن مما لا يهمني كثيرًا أن يَعْرِف ذلك قبْل الخامس عشر من عُمُره، ولكنني أفضِّل ألَّا يَعْرِف القراءةَ على ابتياع هذا العرفانِ على حسابِ كلِّ ما يُمْكن أن يجعله مفيدًا. وما فائدةُ القراءة له إذا ما كَرِهها دائمًا؟ «يجب أن يُنتَبَه على الخصوص إلى كونِ الدروس التي لا يزال راغبًا عنها، غيرَ مكروهةٍ لديه، وألَّا يُبْعدَه منها هذا النفورُ عند ظهوره، بعد انقضاء الوقت الذي كان فيه أُميًّا» (كَنْتِلْيان).

وكلَّما أصررتُ على منهاجي غيرِ الفعَّال شعرتُ باشتداد الاعتراضات، وإذا لم يتعلم تلميذكم منكم شيئًا تعلَّم من الآخرين، وإذا لم تَدْحضوا الخطأ بالحقيقة تعلَّم الأكاذيب، وسيتلقى المُبْتَسَراتِ التي تخشون إعطاءه إياها، من جميع مَن يحيطون به، وستدخُل بجميع حواسِّه، فُتفسِدُ عقلَه حتى قبل أن ينمو، أو إن ذهنه، الذي أُخمِدَ بعدم النشاط، يغرق في المادة؛ فعدمُ تعوُّد التفكير في الوَلُودِية ينزِعُ منها هذه الخاصيةَ في بقية العُمُر.

ويُخيَّل إليَّ أنني قادرٌ على الجواب عن هذا بسهولة، ولكن لِمَ الأجوبةُ دائمًا؟ فإذا كان منهاجي يجيبُ عن الاعتراضات بنفسه عُدَّ صالحًا، وإن لم يُجِب لم يُساوِ شيئًا، وأواصل.

وإذا ما اتخذتم الخِطةَ التي أخذتُ في رسْمها فاتبعتم قواعدَ مخالِفةً رأسًا للقواعد القائمة، وإذا لم تَسِيروا بعيدًا بذهن تلميذكم، وإذا لم تُضِلُّوه بلا انقطاعٍ في أقاليمَ أخرى وقرونٍ أخرى عند أقاصي الأرض حتى السموات، وعملتم على حِفظِه لنفسه دائمًا منتبهًا إلى كلِّ ما يَمَسُّه مباشرة؛ وجدتموه قادرًا على الإدراك والتذكُّر، وعلى التعقُّل أيضًا؛ فهذا هو نظام الطبيعة، وكلَّما أصبح الشخص فعَّالًا اكتسب تمييزًا مناسبًا لقواه، وليس بغيرِ القوة التابعة للقوة المحتاج إليها لبقائه ما تنمو فيه خاصية التفكير الصالحة لاستعمال ما يفيض من هذه القوة في شئونٍ أخرى. ومتى أردتم تعَهُّدَ ذكاء تلميذكم فتعهَّدوا القُوَى

التي يجب أن يهيمن عليها هذا الذكاء، ودرِّبوا جسمه بلا انقطاع، واجعلوه عُصْلُبيًّا حتى تجعلوه حكيمًا عاقلًا، ولْيعمل ولْيسعَ ولْيعْدُ ولْيصرُخ، ولْيكن دائم الحركة، ولْيصبِح رجلًا عن قوةٍ حتى يكونه عن عقلٍ من فوْره.

حقًّا أنكم تَخْبُلُونه بهذا الأسلوبِ إذا ما وجَّهتُموه، فقُلْتم له دائمًا: اذهب، تعالَ، ابقَ، افعلْ هذا، ولا تفعلْ ذلك. وإذا كنتم تديرون برأسِكم يديه عادَ رأسُه لا يكون نافعًا لديه، ولكن اذكروا ما اشترطناه، وهو: أنكم إذا لم تكونوا غيرَ متحذلقِين فلا تُجهِدوا أنفسكم بقراءة كتابي.

ومن الخطأ الذي يُرثَى له أن يُتصَوَّر أن تمرينَ البدنِ يَضُرُّ أعمالَ الروح، كأنه لا ينبغي لهذين الأمرَين أن يسيرا متفقَين، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يوجِّه الآخر!

ومن النَّاس صِنفان تُمرَّن أبدانُهما دائمًا، ولا يُفكِّران إلا قليلًا، لا ريبَ، في تعهُّدِ أذهانها، وهما: الفلاحون والمتوحشون؛ فأمَّا الأوَّلون فهم غِلاظٌ أفظاظٌ أغبياء، وأمَّا الآخرون فيُعرَفون بحِدَّة الحواسِّ ودقَّةِ الأذهان، ولا تجِدُ على العموم مَن هو أثقلُ مَن الفلاح ولا مَن هو أدقُّ من الوحشي. ومن أين يأتي هذا الفرْق؟ فالأوَّل إذ يفعل ما يُؤمر به دائمًا، أو يرى ما مَرَن عليه أبوه، أو ما فعله بنفسه منذ صِباه، لا يسير إلا عن نمطية، وهو إذ لا يأتي بغيرِ أعمالٍ واحدةٍ في جميعِ حياتِه الآليةِ تقريبًا تقوم العادة والطاعة عنده مقامَ العقل.

وغيرُ هذا حالُ الوحشي؛ فبما أنه غيرُ مرتبطٍ في مكان، ولا يُفْرَض عليه شغل، ولا يُطيع أحدًا، وليس له قانونٌ غيرُ إرادته، فإنه مضطرٌّ إلى التعقُّل في أعمالِ حياته، وهو لا يأتي بحركة، ولا يقوم بخُطوةٍ من غيرِ أن يُبصِر نتائجَهما مقدمًا، وهكذا فإنه كلَّما تمرَّن بدنًا تنوَّر روحًا، وينمو بأسُه وعقلُه معًا، ويساعد كلٌّ منهما على نشوء الآخر.

ولْنرَ أيها المُعلِّم الفاضل، أيُّ تلاميذِنا يشابه الوحشيَّ وأيُّهما يشابه الفلاح؛ فأمَّا تلميذُكم الخاضعُ في كلِّ شيء لسلطانٍ مُرْشِدٍ دائمًا فإنه لا يصنع شيئًا بلا أمر، وهو لا يجرُؤ على الأكل إذا جاع، وعلى الضَّحك إذا فَرِحَ، وعلى البكاء إذا تَرِح، وعلى تقديم يدٍ قبْل الأخرى، وعلى تحريك رِجلٍ إلا كما يُؤمر، وهو لن يجرؤ على التنفُّس إلا وَفْقَ قواعدكم. ولِمَ تريدون أن يُفكِّر ما دمتم تُفكِّرون في كلِّ أمرٍ بدلًا منه؟ وما حاجته إلى بصيرةٍ ما دام معتمِدًا على بصيرتكم؟ وهو، إذ يراكم تقومون بحفْظه وراحته، يشعر بأنه في غِنًى عن القيام بهذه الرعاية، ويستند تمييزه إلى تمييزكم، ويَصنَع بلا تأمُّلٍ كُلَّ ما لا تنهَونه عنه عالِمًا بأنه يفعله بلا خطر. وما حاجته إلى تَعلُّم علائم المطر ما عَرَف أنكم تَنظُرون إلى

السماء بدلًا منه؟ وما حاجته إلى تنظيم نُزْهته ما دام لا يخشى أن تُضِيعوا عليه وقتَ الغداء؟ ويأكل إذا لم تمنعوه من الأكل، فإذا منعتموه منه لم يأكل، وهو لا يَسْمَع نصائح مَعِدَته، ويَسْمَع نصائحكم. ومن العبثِ أن تُلينوا بدنَه بعدم الحركة؛ فلن تجعلوه مَرِنًا في إدراكه. وعلى العكس تُزيلون حُظْوَةَ العقل في نفسه بجعله يَستَعمِلُ ما لديه من عقلٍ قليلٍ في أمورٍ تبدو له أكثرَ ما يكون عدمَ فائدة، وهو إذ لا يَرى وجهَ صلاحِ العقلِ مطلقًا، يحكم بعدم صلاح العقل لشيء. ويَصدُر أسوأُ ما يُصاب به من سوءِ التعقُّل عن العَوْد إلى ذات السوء، ويقع هذا غالبًا من غيرِ أن يخطُر بباله، ويعود مثلُ هذا الخطر الشامل لا يخيفه.

ومع ذلك فإنكم تَجِدون له ذِهنًا، هو له ذهنٌ للهَذْرِ مع النساء وَفْقَ اللهجة التي تكلَّمتُ عنها، ولكنه إذا ما حاق به خطر، ووجبَ عليه اتخاذُ قرارٍ في أحوالٍ صعبة، وجدتموه أشدَّ غباوةً وبلاهةً مائةَ مرةٍ من ابن أغلظ قَروي.

وأمَّا تلميذي، أو تلميذُ الطبيعة على الأصح؛ فهو إذ يتدرَّب باكرًا على كفاية نفسه بنفسه ما أمكن، لا يتعوَّدُ الالتجاءَ إلى الآخرين بلا انقطاع، وأقلُّ من هذا عَرْضُه كبيرَ معرفتِه عليهم. وهو يَميزُ ويُبصِرُ ويتعقَّلُ بدلًا من ذلك في كلِّ ما هو خاصٌّ به مباشرة. وهو لا يُثرثِر، وهو يعمل، وهو لا يَعْرِف كلمةً عن كل ما يقع في العالم، وإنما يَعْرِف جيِّدًا أن يُحسِن صُنْعَ ما يلائمه. وبما أنه دائمُ الحركة فإنه مُلزَمٌ بملاحظةِ أمورٍ كثيرةٍ ومعرفةِ كثيرٍ من النتائج. وهو ينال تجرِبةً عظيمةً مُبكِّرًا، وهو يتلقَّى دروسه من الطبيعة لا من النَّاس. ويزيدُ ما يتعلَّم صلاحًا بنسبةِ ما لا يَرَى في أيِّ مكانٍ كان من عزمٍ على تعليمه. وهكذا فإن جسمه ورُوحه يتمرَّنان معًا. وبما أنه يسيرُ وَفْقَ فكره دائمًا، لا وَفْقَ فكرِ غيره، فإنه يوحِّدُ بين عملَين توحيدًا مستمرًّا. وهو كلَّما صار قويًّا عُضْلُبيًّا صار رصينًا بصيرًا. وهذه هي الوسيلة في أن يُحاز ذاتَ يومٍ ما يُعتَقَدُ أنه مناقِض؛ أي ما يجمعه جميعُ العظماء تقريبًا من قوَّة البَدن وقوة الروح وعقل الحكيم وبأس المصارع.

ويا أيها المُعلِّم الشاب، أوصيك بفنٍّ صعب، وهو أن تَحْكم بلا تعاليم، وأن تصنع كل شيء بعدم صُنْع شيء. وأعترف بأن هذا الفن ليس من مقتضيات سِنِّك؛ فليس صالحًا لِتألُّق مواهبك في البُداءة، ولا لإظهار مقدرتك لدى الآباء، ولكنه وحدَه مؤدٍّ للنجاح، ولن تصل إلى صُنْع حكماءَ مطلقًا ما لم تصنع في بدء الأمر فُجَّارًا. وكانت هذه تربية الإسبارطيين القائمة على البدء بتعليمهم سرقةَ غدائهم بدلًا من إلصاقهم بالكتب، وهل كان الإسبارطيون غِلاظًا عندما يَكبَرون؟ ومَن ذا الذي لا يَعْرِف قوَّتهم في الجواب على البديهة؟ وهم إذ خُلِقوا

ليَغلِبوا كانوا يسحقون أعداءهم في الحروب على أنواعها، فيخشى الأثِنيُّون المهاذير كلامَهم كما يخشون ضرباتهم.

والمُعلِّم في التربيات الأعظم رعايةً يقود ويعتقد أنه يسيطر، والواقع أن الولد هو الذي يهيمن؛ فهو ينتفع بما تَطلبون منه لينال منكم ما يروقه، وهو يَعْرِف دائمًا أن يَحملَكُم على إنفاقِ ساعةٍ دوامٍ مع ثمانية أيامٍ ملاطَفة، ولا بُدَّ من معاهدته في كلِّ دقيقة. وتنقلب هذه المعاهدات التي تقترحونها على شاكلتكم فينفِّذها على شاكلته إلا ما يلائم أهواءه، ولا سيَّما حين تكونون من ضَعف الرأي ما تضعون معه من الشروط نفْعًا له ما يثِق بأنه يناله سواءٌ أقام بالشرط الذي فُرِضَ عليه مقابلةً أم لم يقُم. ويقرأ الولدُ في ذهنِ المُعلِّم عادةً أكثرَ مما يقرأ المُعلِّم في قلب الولد بمراحل، ويجب أن يكون الأمر هكذا، وذلك أن كلَّ حِذْقٍ يستعمله الولد المُلقَى حبلُه على غاربه في سبيل حفْظ نفسه يستعمله لإنقاذ حريته الطبيعية من قيودِ طاغيته، على حين يَجِدُ هذا الطاغيةُ الذي لا مصلحةَ مُلِحَّةً لديه في اكتناه الآخر، أن من الموافق لحسابه، أحيانًا، أن يَترُك له كسلَه وزهوَه.

واسلُكوا طريقًا معاكسةً مع تلميذكم، ولْيَعتقد أنه السيدُ دائمًا مع أن السيادة لكم في الحقيقة، فلا يوجد انقيادٌ أتمُّ من انقياد الذي يحافظ على الحرية ظاهرًا؛ فعلى هذا الوجه تُقهَر الإرادةُ نفسُها. ألَا يكون الولدُ المسكينُ الذي لا يَعرِف شيئًا ولا يستطيع شيئًا ولا يَعلَم شيئًا؛ تحت رحمتِكم؟ ألَا تتصرفون بالنسبة إليه في كلِّ ما يحيط به؟ ألستم السيدَ الذي يُكيِّفه كما يروقه؟ ألا تكونُ أعمالُه وألعابُه وأتعابُه أمورًا في يدِكم من غيرِ أن يعرف؟ أجلْ، لا يجوزُ له أن يفعل غيرَ ما يريد، ولكن لا يجوز له أن يريدَ غيرَ ما تريدون أن يفعل، ولا يجوز له أن يتقدَّم خُطوةً لم تكونوا قد أبصرتموها، ولا يجوز له أن يَفتحَ فاه لقولٍ لا تَعرفونه.

وهنالك يُمكِنه أن يقوم بتمريناتٍ بدنية تتطلبها سِنُّه، من غير أن يَخْبَل ذهنه، وهنالك تَرونه يَقصِرُ همَّه على انتفاعه من كلِّ ما يحيط به بما هو أفيدُ لراحته الحاضرة، بدلًا من أن يَشْحَذ حيلتَه لاجتنابِ سلطانٍ ثقيل. وهنالك يعتريكم الدَّهَش من دقَّة وسائله في امتلاك كلِّ ما يستطيع الوصولَ إليه، وفي التمتُّع بالأشياء من غيرِ استعانةٍ برأيٍ حقًّا.

وإذا ما تركتموه سيدَ رغائبه على ذلك الوجه لم تُثيروا أهواءه مطلقًا، وإذا لم يُصنَع غيرُ ما يلائمه لم يَصنع من فوْره غيرَ ما يجوز أن يصنع. ومع أن جسمه دائمُ الحركة، ما تعلَّق الأمرُ بمصالحه الحاضرة المحسوسة، فإنكم سترون أن ما يستطيع من عقلٍ ينمو بأحسنَ كثيرًا، وعلى وجهٍ أكثرَ ملاءمةً له من دروسٍ نظريةٍ صِرفة.

وهكذا، إذ لا يراكم تبالغون في مقاومته، وإذ لا يرتاب منكم مطلقًا، وإذ لا يكون لديه شيءٌ يكتمه عنكم، لا يخادعكم ولا يَكذِب عليكم مطلقًا، وإنما يَبدو كما هو بلا وَجَل. ويمكنكم أن تَدرسوه على مَهْل، وأن تحيطوه بجميعِ الدروس التي تريدون إلقاءها عليه، من غيرِ أن يخطُرَ بباله تلقي أي واحد منها مطلقًا.

وكذلك لن يرقُبَ مسالككم بعينِ فُضولٍ غَيور، ولن يتلذَّذ سِرًّا بقيدِ خطأٍ لكم، وهذا الأذى الذي نتلافاه عظيمٌ جِدًّا، وذلك أن من أوَّلِ ما يُعْنى به الأولادُ هو اكتشاف نواحي الضَّعف فيمن يهيمنون عليهم كما قلت ذلك، ويَحْمل هذا الميلُ إلى الخُبْث، ولكنه لا ينشأ عنه، وإنما ينشأ عن الحاجة إلى اجتناب سلطانٍ يزعجهم. وبما أن الأولاد مُثقَلون بالنِّير الذي يُفرَض عليهم فإنهم يحاولون خلْعَه عنهم، وما يجدون من عيوبٍ في المُعلِّمين يُزوِّدهم بوسائلَ صالحةٍ لذلك، ومع ذلك فإن من العادةِ أن يُلاحَظ النَّاسُ من خلال نقائصهم وأن يُسَرَّ باكتشافها عندهم. ومن الواضح أيضًا أن يُسَدَّ هذا المنبعُ للعيوب في قلب إميل، وإذ لم يكن لإميلَ أيُّ نفعٍ في اكتشافِ عيوبٍ لي، فإنه لا يبحث عنها فيَّ، كما أنه لا يحاول كشفَ عيوبَ الآخرين إلا نادرًا.

وتَلوح هذه الأفعالُ كلُّها صعبةً؛ وذلك لأنها لا تخطُر على البال، ولكنها مما لا يَجوز أن يكون هكذا في الأساس، ولي الحقُّ بأن أفترض لكم من المعارف الضرورية ما تُزاولون معه المهنةَ التي اخترتم. ويجب أن يُفتَرَض لكم علمٌ بالسَّيْر الطبيعي للقلب البشري، وأنكم تَعرفون درسَ الإنسان والفرد، وأنكم تعرفون مقدَّمًا ما تخضع له إرادةُ تلميذكم من جميع الموضوعات التي تلائم سِنه وتضعونها أمام عينيه، وهل من غيرِ الواقع أن تتِمَّ حيازةُ الإنسان للأدوات ومعرفتُه استعمالَها جيِّدًا على أنه سيدُ العمل؟

وستعترضون بأهواء الولد، ولستم على صوابٍ في هذا؛ فليس هوى الأولاد من عمل الطبيعة مطلقًا، وإنما هو نتيجةُ نظام سيئ، وذلك أن يكونوا قد أطاعوا أو أَمروا، وقد قلتُ مائةَ مرة إنه كان لا ينبغي أن يقع هذا ولا ذاك؛ ولذا لا يكون لدى تلميذكم من الأهواء غيرُ ما تكونون قد علَّمتموه، ومن العدل أن تنالوا جزاء ما اقترفتم، ولكنكم ستقولون: كيف يُعالَج ذلك؟ هذا ممكن أيضًا بأصلحِ سلوكٍ وبصبرٍ كثير.

كان قد عُهِد إليَّ لبضعةِ أسابيعَ في أمرِ ولدٍ لم يُعوَّد تنفيذَ رغائبه فقط، بل عُوِّد حمْلَ جميعِ النَّاسِ على تنفيذها أيضًا؛ ومِنْ ثَمَّ كان هذا الولدُ جَموحًا، ويريد منذ اليوم الأوَّل أن يمتحن مجاراتي له؛ فينهض في منتصف الليل، وبينا كنتُ غارقًا في نومي يثِبُ من

سريره ويتناول مِبذَله ويناديني، وأنهض وأُشعِل الشمعة، ولا يريد أكثرَ من هذا، ويمضي رُبع ساعة ويَنْعُس ويَضْجَع ثانيةً قانعًا باختباره. ويعود إلى ذلك بعدَ يومين وينال عينَ النجاح، وذلك من غيرِ أن يبدو عليَّ أقلُّ علامةٍ على عدم الصبر، ويُقبِّلُني عند اضطجاعه ثانية، وأقول له بهدوء: «أحسنت جِدًّا يا صديقي الصغير، ولكن لا تَعُد إلى هذا.» وتثير هذه الكلمةُ فضوله، ويودُّ في الغد أن يرى قليلًا كيف أجرُؤ على مخالفته، فلا يفوته أن ينهضَ في ذاتِ الساعة وأن يناديَني، وأسأله عما يريد، ويقول لي إنه لم يستطِع أن ينام، وأجيب بكلمة: «يا خسارة!» وأسكت. ويرجو أن أُشعل الشمعة، وأسأل: «لأي شيء؟» وأسكت. ويُزعجه هذا الإيجاز، ويتلمَّس القَدَّاحَ في الظلام، ويحاول إخراجَ النار منه، ولا أستطيع منعَ نفسي من الضحك عند سماعي ضربَه لأصابعه، ويعتقد أخيرًا أنه لا يقدِر على الزَّنْد، فيأتي بالقدَّاحة إلى سريري، فأقول له إنني لم أطلبها وأقلِبُ ظهري، وهنالك يذرع الغرفة طائشًا صارخًا مغنيًا صاخبًا خابطًا نفسه على المِنضدة والكراسي بضرباتٍ عُنِيَ كثيرًا بأن تكون معتدلة، مع صياحٍ شديدٍ آملًا أن يُقلقني، وكان ذلك كلُّه على غيرِ جدوَى. وقد رأيت أنه وإن كان مستعِدًّا للهياج والغضب، غيرُ مُستعدٍّ لاعتدال الدم.

ومع ذلك فقد عَزم على قهْر صبري بعناده، وقد بلغ من نجاحه في الاستمرار على ضوضائه ما كِدتُ أتميَّزُ معه من الغيظ. وقد أبصرتُ أنني أُفسِدُ كلَّ أمرٍ بانفجارٍ غيرِ مناسب، وأرى سلوكَ سبيلٍ أخرى، وأنهض من غير أن أنطِق بكلمة، وأذهب إلى القدَّاحة فلا أجدها، وأسأله عنها ويعطيني إياها فرِحًا لانتصاره عليَّ في آخِر الأمر. وأقدَح بالزَّنْد وأُشعل الشمعة، وأُمسك الولدَ من يده وأسير به هادئًا إلى غرفةٍ ملاصقةٍ ذاتِ مصاريعَ مُحكمةِ الإغلاقِ؛ حيث لا يوجد شيءٌ يُكسَر، وأترُكه فيها بلا نور، ثُمَّ أُغلِقُ البابَ عليه بالمفتاح، وأعود لأنامَ غيرَ مخاطبٍ إياه بكلمةٍ. ولا تسأل عن شِدة ما كان هناك من ضجَّة في بدء الأمر، وهذا الذي كنت أنتظر ولم أهتز. ويسكُن الضجيجُ مؤخرًا، وأستمِع وأُدرِك أنه استقام، ويهدأ بالي، وأدخل الغرفةَ صباحًا، وأجد العاصي الصغير ضاجعًا على متكأٍ نائمًا نومًا عميقًا كان في أشد الاحتياج إليه بعد ذلك العناء.

ولا يَقِف الأمرُ عند ذلك الحد؛ وذلك أن الأمَّ تَعلَم قضاءَ الولدِ ثُلُثَي الليلِ خارجَ فراشه، ويُقضى على العمل حالًا، ويبدو الولدُ مثلَ هالك. والولد إذ يرى فرصةً صالحةً للانتقام يزعم أنه مريضٌ غيرَ مُبصِرٍ أنه لا يَكسِب من وراء هذا شيئًا، ويُدعى الطبيب. ومن سوء حظ الأم أن كان هذا الطبيب ماجنًا أراد أن يتلهَّى بذُعرها، فعَمِل على زيادته، ومع ذلك فقد

قال لي همْسًا: «دعني أعمل، فأعِدُك بأن يُشفَى الولدُ بعد قليلٍ من مُرادِ مَرضِه.» والواقع أن الولدَ أُوصِي بالحِمية والتزام الغرفة، وفُوِّض أمرُه إلى الصيدلي، ومن حسرتي أن رأيتُ هذه الأمَّ المسكينةَ فريسةَ خداعِ جميعِ مَن يحيطون بها خلا نفسي، وأن كنتُ موضعَ حقدِها لأنني لم أُخادعها قَط.

وتقول لي بعد لَومٍ شديد إن ابنها غلامٌ أُمْلُود،[٢٠*] وإنه الوارثُ الوحيدُ لأسرته، وإن من الواجب أن يُحافَظ عليه بأي ثمنٍ كان، وإنها لا تريد أن يُعاكَس. وأوافقها على ذلك، ولكنها تَعني بمعاكسته أن يُطاع في كلِّ أمر، وأرى أن أُعامِل الأمَّ بمثلِ ما عاملتُ الولد، فأقول لها بفتور: «سيدتي، لا أعْرِف كيف يُربَّى الوارِثُ مطلقًا، وأكثرُ من هذا أنني لا أريد أن أعْرِف هذا، فيُمكنك أن تُرتِّبي أمورك وَفْقَ هذا.» وقد كانوا محتاجين إليَّ لأيامٍ أُخَر أيضًا، فهدَّأ الأبُ كلَّ شيء، وكتبت الأمُّ إلى المُعلِّم ليُعجِّلَ رجوعه، وأبصر الولدُ أنه لا يكسِب شيئًا من منْع نومي ومن انتحاله المرض، فوطَّنَ نفسه على النوم وعلى الظهور حسنَ الصحة أيضًا.

ولا يُمكن أن يُتصوَّر مقدارُ ما كان المُعلِّم التَّعِس خاضعًا له من أهواء الطاغية الصغير؛ وذلك لأن التَّربية كانت تتمُّ على عينَي الأم التي لا تُطيق أن يُعصى الوارث في شيء، وكان عليه أن يكون مستعدًّا ليأخذه معه كلَّما أراد الخروج، أو أن يتبعه على الأرجح. وفي هذا كان الولدُ يختار الساعة التي يكون مُعلِّمه مشغولًا فيها، وقد أراد أن يتخذ نحوي ذات السلطان وأن ينتقم نهارًا من الراحة المُلزَم بأن يتركها لي ليلًا. وقد رضيتُ بجميعِ هذا فرِحًا وأخذتُ أُبدي مخلصًا ما يساوِرُني من حُبُور بجعله مسرورًا. ولما دار الأمر حول شفائه من هواه بعد هذا انتحلتُ وجهًا آخَر.

وأوَّلُ ما وجب فعله أن يُوضع في موضعِ المخطئ، ولم يكن هذا صعبًا. وبما أنني كنت أعْرِف أن الأولادَ لا يحلُمون بغيرِ الحاضر؛ فقد سَهُلَ عليَّ أن أؤثِّرَ فيه بتبصُّري، فأُعنى بأن أهيئ له في المنزل لهوًا كنت أعْرِف ملاءمته لذوقه إلى الغاية، فإذا رأيته غارقًا به اقترحتُ القيامَ بنزهةٍ قصيرة. ولم يَقبل، وأُصِر، ولا يَستمع لي، وعليَّ أن أُذعِن، ويُقيِّد علامةَ الإذعان في نفسه باعتناء.

[٢٠*] الأُمْلُود: الليِّن الناعم.

ويأتي دَوري في الغد، ويسأم من شغله كما كنت أنتظر، وعلى العكس أَظهَرُ كثيرَ الشغل، وكان هذا كافيًا ليقرِّرَ، ولم يتوانَ في انتزاعي من عملي لآتيَ به إلى نُزهَةٍ بأسرعَ ما يمكن، فرفضتُ وأصرَّ، وأقول له: «كلَّا؛ فقد تعلَّمتُ من تنفيذ رغبتك أن أُنفِّذ رغبتي، ولا أريد الخروج.» ويجيب بشِدَّة: «حسنًا، سأخْرُج وحدي.» وأقول: «كما تريد.» وأعود إلى عملي.

ويلبَس ثيابه، ويضطرب بالُه قليلًا من إغضائي عنه وعدم اتِّباعي إياه. فلما استعدَّ للخروج أتى لتحيتي، فحيَّيتُه. ويحاول أن يخوِّفني بقِصة أسفاره التي سيقوم بها، فيظُنُّ مَن يسمعُه أنه ذاهبٌ إلى أقاصي الدنيا. وأتمنَّى له رحلةً طيبةً من غيرِ أن أُحرِّكَ ساكنًا، ويتضاعف ارتباكُه، ومع ذلك فقد أظهر الحزم، وقال لخادمه أن يتبعه عندما همَّ بالخروج. وكان الخادم قد حُذِّر فاعتذرَ بعدمِ مساعدة الوقت وبأنه قائمٌ بأموري، فيجب أن يُطيعني قبْل أن يُطيعه. ويعتري الولدَ دَهَشٌ في هذه المرة، وكيف يَتصور تركُه يخرُج وحدَه، وهو يعتقد أنه أهمُّ النَّاس ويرى حِرصَ السماء والأرض على سلامته؟ ومع ذلك فقد أخذ يشعر بضَعفه، وأدرك أنه يكون وحيدًا بين أناسٍ لا يَعْرِفونه، ويُبصِرُ مقدَّمًا ما ينتظره من أخطار، ولا يزال أزرُه يشتد بعناده وحدَه، وينزل من الدَّرَج على مَهلٍ وبلا مَيل، ويدخل الشارع أخيرًا ساليًا بعضَ السُّلوان عن الضُّرِّ الذي قد يَمَسُّه بأمله في جعلي مسئولًا.

وذلك ما كنتُ أنتظر، وكلُّ شيء كان مُعدًّا مقدَّمًا، وكنتُ مجُهَّزًا بموافقة الأب، كأن الأمرَ ضربٌ من المناظر العامة. ولم يَكد يتقدَّم بضعَ خُطوات حتى صار يسمع عن اليمين وعن الشمال أقوالًا مختلِفةً حوله، ومن ذلك: «أين يذهب وحدَه هذا الجار السيد الظريف؟ سيضيع، سأطلب منه أن يجيء عندنا. احذري يا جارة، ألَا ترين أنه فاجرٌ صغيرٌ طُرِد من بيت أبيه لأنه لا يصلُح لشيء؟ لا يجوز إيواءُ الفَجَرة، ولْيذهب إلى حيث يشاء. حسنًا، ولْيحفظه الله! فمما يَغيظني أن يُصاب بسوء.» ويتقدَّم قليلًا فيلاقي أولادًا طائشين من لِدَاته تقريبًا، فيزعجونه ويَهزءون به. وكلَّما تقدَّم وجد ما يضايقه، وهو إذ كان وحيدًا بلا حمايةٍ رأى نفسه أُلعوبةَ جميعِ النَّاس، وأحَسَّ بكثيرٍ من الحَيرة أن عقْدةَ كتفه وزُخرفَه الذهبي لا يَجلُبون إليه احترامًا.

ومع ذلك فقد عهدتُ إلى أحد أصدقائي الذين كان لا يَعْرِفهم مطلقًا أن يَرْقُبه، فكان يتتبَّعه خُطوةً خُطوةً من غيرِ أن ينتبه إلى ذلك، وكان يدنو منه عند الاقتضاء. وكان هذا الدُّور المشابه لدور سِبريغاني في بُرْسُنْيَاك يتطلب رجلًا وافرَ العقل، فقام به الصديقُ خيرَ

قيام، وذلك أنه لم يجعل الولدَ أَوْجَلَ جَزوعًا بتلقينه ذُعرًا كبيرًا، وإنما أَشعره بعدم تبصُّرِه في عمله الشاق. فلما مضى نصف ساعةٍ أتاني به ليِّنًا خَزِيًا غيرَ مجترئ على رفْع عينيه.

وتُكمَل بَلِيَّته في رحلته حين عودته إلى البيت تمامًا؛ فقد نزل أبوه للخروج فلقيه على الدَّرَج، وكان عليه أن يُخبِرَ عن المكان الذي أتى منه، وعن سبب عدم وجودي معه.[٢١] وودَّ الولدُ المسكين لو يكون تحت الأرضِ مائةَ قدم، ولم يَتَلَهَّ الأبُ بأن يوجِّه إليه لومًا شديدًا، وإنما قال له بجفاءٍ لم أكن أنتظره: «إذا أردتَ الخروج وحدَك أمكنك فعلُ ذلك، ولكن بما أنني لا أريد أن أرى عاصيًا في منزلي، كما تصنع، فحذارِ أن تعود.»

وأَمَّا أنا فقد استقبلتُه غيرَ لائمٍ ولا ساخر، ولكن مع شيءٍ من الرَّصانة، ولم أَشَأ أن آتي به للنزهة في اليوم نفسِه خشيةَ أن يدور في خَلَده أن كلَّ ما وقع لم يكن غيرَ لَعِب. ومما طاب لي كثيرًا أن رأيته في غدِ ذلك اليوم يمرُّ معي، كأنه في موكبِ نصر، أمام مَن سَخِروا منه أمسِ حينما كان وحدَه. وهكذا يمكنكم أن تدركوا أنه عاد لا يتوعدني بالخروج من غيرِ أن يكون معي.

فبهذه الوسائل وما ماثلها وُفِّقْتُ في المدة القصيرة التي قضيتُها معه أن أجعله يفعل كلَّ ما أريد، وذلك من غيرِ أن آمره بشيء، ومن غير أن أَصُدَّه عن شيء، ومن غير أن أَعِظه بشيء، ومن غير أن أَحُثَّه على شيء، ومن غير أن أُضجِرَه بدروسٍ لا طائل تحتها. وكذلك كان يبدو راضيًا إذا تكلمت، ولكنه كان يُذعَر إذا ما التزمتُ جانبَ الصمت؛ وذلك لأنه كان يعلم أن بعض الأمور ليس صوابًا، وأن الدرس يأتي من ذات الشيء دائمًا، ولكن دعنا نَرجع إلى الموضوع.

وهذه التمرينات المتصلة، المتروكة لتوجيه الطبيعة وحدَه، إذ تُقوِّي الجسم، لا تؤدي إلى عدمِ خَبَل الرُّوح فقط، بل على العكس تكوِّن فينا أيضًا نوع العقل الوحيد الذي يتقبله الدُّور الأوَّل من العُمُر، والذي هو ألزمُ ما يكون في أيِّ دورٍ من أدوار العُمُر، وهي تُعلِّمنا كيف نُحسِن استعمالَ قُوانا كما تُعلِّمنا ما بين أجسامنا والأجسام المحيطة بنا من صلة، وهي تُعلِّمنا استعمالَ الوسائل الطبيعة الواقعة في مُتناوَلنا والملائمة لأعضائنا. وهل تُوجد رُعونةٌ كرعونةِ الولد الذي يُنَشَّأ في الغُرفة على عينَي أمِّه دائمًا، فيجهل ما الثِّقَل وما المقاومة،

[٢١] لا خطرَ في مثلِ هذه الحال من أن يُطالَب الولدُ بقول الصدق؛ وذلك لأنه يُعرف عجزه عن كتمانه، ولأنه إذا ما جرُؤَ على الكَذِب لم يلبث أن يُدان.

ويريد قلع شجرة عظيمة أو رفْع صخرة؟ وقد أردت في أوَّل مرةٍ خرجت فيها من جنيف أن ألحَقَ حِصانًا راكضًا، وقد رميت حجارةً على جبل ساليف البعيد منِّي فرسخَين، فكنت موضعَ سُخرية أولاد القرية عادِّين إياي من البُلْه. وفي العام الثامن عشر من العُمُر يُعلَّم ما العَتَلةُ في الفلسفة، ولا يوجد قرويٌّ صغيرٌ بالغٌ من العُمُر اثنتي عشرة سنة لا يَعْرِف استعمالَ العتلةِ أحسنَ مما يَعْرِف الميكانيُّ الأوَّلُ في الأكاديمية، وما يتلقاه التلاميذُ بينهم في ساحة المدرسة أفيدُ مائةَ مرةٍ مما يُقال لهم في حجرة الدرس.

وانظروا إلى سِنَّوْرٍ داخلٍ غرفةً للمرة الأُولى؛ فهو يزور ويُبصِر ويشم، ولا يبقى دقيقةً واحدةً مستقِرًّا، وهو لا يركَن إلى شيءٍ قبْل أن يفحص كلَّ شيء، ويَعْرِف كل شيء. وهذا ما يفعل الولدُ الذي يبدأ بالمشي فيدخُل ساحةَ العالَم على هذا الوجه، ويقوم الفرْق الوحيد على أنه يُضاف في الملاحظة إلى حاسة البصر المشتركة بين الولد والسِّنَّوْر ما حَبت الطبيعة به الأوَّلَ من يدين، وما حَبت به الثاني من حاسة شمٍّ نفَّاذة. وهذا الاستعداد الذي يُحسَن تعهُّدُه أو يُساء هو الذي يجعل الأولادَ ماهرين أو غِلاظًا، متثاقلين أو نِشاطًا، طائشين أو فُطُنًا.

وبما أن حركاتِ الإنسانِ الطبيعيةَ الأُولى تقوم على قياسه بجميع ما يحيط به وعلى الشعور في كلِّ شيء يُدرِكُ بجميع الخواص الحساسة التي يُمكن أن تناسبه، فإن درسه الأوَّل يكون ضرْبًا من الفيزياء التجريبية الملائمة لبقائه، فيُحوَّل عنه بدروسٍ نظرية قبل أن يَعْرِف مكانه في هذا العالَم. وبيْنا يمكن أعضاءه الدقيقةَ المرِنةَ أن تطابق الأجسام التي يجب أن تؤثِّر فيها، وبينا تكون حواسُّه سالمة من الأوهام، يكون هذا زمنَ تمرينِ الأعضاء والحواس على الوظائف الخاصة بهما، يكون هذا دَورَ تعلُّمنا معرفةِ العلاقات المحسوسة بيننا وبين الأشياء. وبما أن كل شيء داخل ضمن الإدراك البشري، يأتيه من الحواس، فإن عقلَ الإنسان الأوَّل هو عقلٌ حسي، وهذا هو العقل الذي يَصلُح أساسًا للعقل الذهني؛ أي إن أساتذتنا الأوَّلين في الفلسفة هي أرجلنا وأيدينا وعيوننا. ولا ينطوي استبدالُ الكتب بجميع هذا على تعليمنا التعقُّل، بل يُعلِّمنا انتحال عقل الآخرين، بل يعلِّمنا كثرةَ الاعتقاد وقلةَ المعرفة.

ويجب لممارسةِ صَنْعةٍ أن يُبدَأ بإحرازِ وسائلها، ويجب للقدرةِ على استعمالِ هذه الوسائل استعمالًا نافعًا أن تكون من المتانةِ ما تُقاوِم معه الاستعمال، ويجب لِتَعلُّم التفكير أن تُدرَّب إذن أعضاؤنا وحواسُّنا وأطرافُنا التي هي وسائلُ عقلنا، ويجب للانتفاعِ بأقصى ما يُمكن من هذه الوسائل أن يكون الجسمُ الذي يُزوَّد بها عُصْلُبيًّا سالمًا. وهكذا، فإن من

البعيد أن يتكوَّن عقلُ الإنسانِ مستقلًّا عن الجسم، وحسنُ تكوين الجسم هو الذي يجعل أعمال الذهن سهلةً صحيحة.

وإني، حين أَدُلُّ على الوجهِ الذي يجب أن يُنفَقُ فيه فراغُ الوَلُودِية الطويل، أَلِجُ بابَ التفصيلِ الذي يلوح أنه موضعُ هزوء، وسيُقال لي إن الدروس التي تقع تحت سلطانِ نقدِك الخاص، فتقتصر على تعليمِ ما لا يحتاج إليه أحد، دروسٌ مُضحِكة! ولِمَ يُقضى الوقت في تعليمٍ يأتي من نفسه، ولا يُكلِّف تَعبًا ولا رعاية؟ وأيُّ ولدٍ بالغٍ من العُمُر اثني عشر عامًا لا يَعْرِف جميعَ ما تريد تعليمَ تلميذِك إياه، فضلًا عما يكون مُعلِّموه قد علَّموه إياه؟

أنتم مخطئون يا سادتي؛ فأنا أُعلِّم تلميذي صنعةً طويلةً جِدًّا، شاقَّةً جِدًّا، صنعةً لا يَحُوزها تلاميذكم لا ريب، صنعةَ كونه جاهلًا؛ وذلك لأن عِلمَ مَن يعتقد أنه يَعْرِف ما يَعْرِف فقط يُرَدُّ إلى شيء قليل. وأنتم تُلقون عِلمًا، حسنًا، وأمَّا أنا فأُعنَى بالوسيلةِ الصالحةِ لاكتسابه. ويُرْوى أن أهل البندقية أطْلَعوا سفيرَ إسبانية على كنوزِ القديس مُرقص، وكان هذا في احتفالٍ عظيم، فقَصَرَ مجاملتَه على قولِه وهو ينظر إلى ما تحت المناضد: «هنا لا يوجد جذر.» فلا أرى مُعلِّمًا يَعرِض معرفةَ تلميذه من غيرِ أن أُحاول قولَ مثل هذا له.

ويَعزو جميعُ مَن يُنعِمون النظرَ في طرازِ حياة القدماء إلى التمريناتِ الرياضيةِ تلك القوةَ في الجسم والذهن التي تَميزهم من المعاصرين بأوضحِ ما يمكن. ويدلُّ الوجه الذي يَدْعم مُونْتِينُ به هذا الرأيَ على أنه كان متأثِّرًا به كثيرًا، فيعودُ إليه بلا انقطاعٍ وعلى ألفِ طَرْزٍ. وهو إذ يتكلم عن تربية الولد، يقول: «يجب لتقوية رُوحه أن تُقوَّى عضلاته، وهو يُعوَّدُ الألمَ حين يُعوَّد العمل، ولا بُدَّ من تدريبه على خُشونة الرياضة البدنية حتى يألفَ عُنفَ الانخلاعِ وشدةَ المَغْص وقسوةَ جميع الأمراض.» وعلى ما بين الحكيمِ لوكَ والصالحِ رُولانَ والعالِمِ فلُوري والمتحذلقِ كرُوزا من اختلافٍ كبيرٍ في شتَّى المسائل؛ تجدُهم جميعًا متفقين في مسألةِ تمرينِ أبدانِ الأولادِ وحدَها. وهذا هو أصوبُ ما في تعاليمهم، وهذا هو أكثرُ الأمورِ إهمالًا، وسيكون هكذا دائمًا، وكنت قد تكلمتُ عن أهميته بدرجةِ الكفاية. وبما أنه لا يمكن أن يُبيَّن حولَ ذلك من الأسبابِ والقواعدِ ما هو أفضلُ مما وَرَدَ في كتاب لوك؛ فإنني أَقنعُ بإحالةِ القارئ إليه بعد أن أُبيح لنفسي إضافةَ بعض الملاحظات إلى ملاحظاته.

ويجب أن تكون الأعضاءُ في الجسمِ النامي طليقةً سهلةَ الحركة في الثياب، فلا ينبغي أن يُضايقَ شيءٌ حركتَها ولا نُموَّها، فلا ضَيِّقَ ولا لاصقَ بالبدن، ولا رُبُط. ويُعَدُّ اللباسُ

الفرنسيُّ المُتعِبُ للرجالِ وغيرُ الصحيِّ لهم ضارًّا بالأولاد على الخصوص، وتَصْرَى[22]* الأخلاطُ الراكدةُ التي يُوقَف دورانُها بسُكونٍ يزيد بالحياة المتوانية الحضرية، فتَعْفَن الأخلاطُ وتُسبِّب داءَ الحَفَر الذي يزيد انتشارُه كلَّ يوم بيننا مع أنه مجهولٌ تقريبًا لدى القدماء الذين كانوا يتَّقونه بطرازِ لُبْسهم وأسلوبِ معيشتهم. ولا يتلافى لباسُ الفرسانِ هذا المحذورَ، بل يزيده، وإذا ما أُريد به إنقاذُ الأولادِ من بعض الرُّبُط ضغطهم بدنًا ضغطًا كليًّا. وأفضلُ ما يُصنع في هذا السبيلِ هو أن يُتركوا لابسين سُترةً لأطولِ وقتٍ ممكن، ثُمَّ أن يُعطَوا ثوبًا فَضْفاضًا من غيرِ أن يُعنى بتجسيم قَوامهم؛ لِما يؤدي إليه هذا من تشويههم على وجهٍ آخَر. وتنشأ جميعُ عيوبهم بدنًا ورُوحًا عن ذاتِ العلَّة تقريبًا، ويُراد جعلُهم رجالًا قبلَ الأوان.

ويُوجَدُ من الألوانِ ما هو مُشرِقٌ وما هو قاتم. ويُفضِّلُ الأولادُ الألوانَ الأُولى، وهي تلائمهم أيضًا، ولا أدري ما السببُ في عدمِ أخذِ الملاءمة الطبيعية في هذا بعين الاعتبار. ولكن بما أنهم يُرجِّحون النسيجَ الفاخِر، فإن هذا يعني استهواء النفائسِ لأفئدتهم وميلَهم إلى جميع مناحي الزِّي، ولم يأتِهم هذا الذوقُ من أنفسهم لا ريب. ومن المتعذر بيانُ مقدارِ ما لاختيارِ الثيابِ وعواملِ هذا الاختيارِ من تأثيرٍ في التَّربية. وليس الأمهاتُ العُميُ وحدَهن مَن يَعِدْن أولادَهن بالزخارفِ مكافأةً لهم، بل يُرى أيضًا مُعلِّمون من الحمقى يهدِّدون تلاميذَهم بثوبٍ أكثرَ خشونةً وأعظمَ بساطةً عِقابًا لهم، وذلك كأن يقولوا لهم: «إذا لم تكونوا أحسنَ درسًا، وإذا لم تكونوا أكثرَ اعتناءً بثيابكم، فإنكم ستُحمَلون على لُبْسِ ثيابٍ كثيابِ هذا الفلَّاحِ الصغير.» ويَعْدِل هذا قولَهم للتلاميذ: «اعلمُوا أن الإنسانَ ليس شيئًا بغيرِ ثيابه، وأن قيمتَكم بما تَلْبَسون.» وهل يُعجَبُ من تأثُّرِ أولادنا بهذه الدروس الصائبة، ومن كونهم لا يُقدِّرون غيرَ الزُّخرف، ومن كونهم لا يرون المَزِيَّة في غيرِ المظهر؟

وإذا ما وجبَ أن أرُدَّ إلى الصوابِ ولدًا بالغًا هذا المقدارَ من الدَّلالِ، صرفتُ همي في جعْلِ أفْخَر ثيابه أكثرَ ما يكون إزعاجًا، فتُضايقه دائمًا، وتضغطه دائمًا، وتُربِكه على ألفِ وجهٍ دائمًا. وصرفتُ همي في هَزْمي الحريةَ والبهجةَ أمام بهائه، فإذا أراد أن يشترك في ألعابِ أولادٍ آخرين أكثرَ بساطةً في اللُّبْس كَفُّوا كلُّهم عن اللَّعِب، وتوارَوا كلُّهم من فوْرهم.

---

[22] * صرى الماء: طال مُكْثُه وتغيَّر.

وأخيرًا أبْلُغ من إمْلالِه أُبَّهتَه وإشباعِه من زَهوِه، وأخيرًا أبلُغ من جعلِه عبدًا لثوبه الذهبي، ما أجعل من هذا وذاك معه بليةَ حياته، فيرى أن أسودَ سجنٍ مُظلمٍ أقلُّ هولًا من عُدَّة زينته؛ فأوَّل ما يتمناه الولدُ أن يطيبَ عيشًا ويكونَ حُرًّا ما دام لم يُجعَل عبدًا لمُبْتَسَراتنا. وتُعدُّ الثيابُ الأكثرُ بساطةً والأعظمُ إراحةً والأقلُّ تعبيدًا له؛ أثمنَ ما يكون عنده دائمًا.

وتُوجَد للجسمِ عادةٌ ملائمةٌ للتمرينات، وتوجد له عادةٌ أكثرُ ملاءمةً لعدمِ الحركة، وبما أن هذه تَدعُ للأخلاطِ سبيلًا سهلًا نَمطيًّا، فإن من الواجب أن تَضْمن البدنَ من تقلُّبات الجو. وبما أن الأخرى تجعله ينتقل بلا انقطاعٍ من الحركة إلى الراحة، ومن الحرارة إلى البرودة، فإن من الواجب أن نُعَوِّده عينَ التقلبات؛ ومِنْ ثَمَّ يجب أن يَلْبَس سكانُ المنازل وأهل المدن ثيابًا دفيئة في كلِّ وقت حفْظًا للبدنِ ضِمن درجةٍ من الحرِّ متساويةٍ واحدةٍ تقريبًا في جميعِ الفصول والساعات. وأمَّا الذين يأتون ويذهبون في الريح وتحت الشمس والمطر، وأمَّا الذين يسيرون كثيرًا ويقضون معظمَ أوقاتهم في العراء؛ فيجب أن يَلبَسوا ثيابًا خفيفةً دائمًا، وذلك ليتعوَّدوا جميعَ تقلبات الجوِّ وجميعَ درجات الحرِّ دائمًا، من غيرِ أن يُعنَتُوا، فأنصحُ هؤلاء وأولئك بألَّا يُغيِّروا ثيابَهم وَفْقَ الفصول، وسيكون هذا عادةَ إميلَ الدائمة. ولا أقصِد بهذا أن يَلْبَس ثيابَ الشتاء في الصيف كالحضريين، بل أقصد أن يَلْبَس ثيابَ الصيف في الشتاء كالعُمَّال، وكانت هذه عادةَ السِّير نِيُوتُن مدى حياته، وقد عاش ثمانين سنة.

وقليلُ كسوةٍ للرأس، أو لا كسوةَ للرأس، في جميع الفصول. وكان قدماء المصريين حاسري الرأسِ دائمًا، وكان الفرس يَسْتُرون رءوسهم بتيجانٍ ضخْمة، واليومَ يَسْتُر الفرسُ رءوسهم بعمائمَ كبيرةٍ يجعل جوُّ البلادِ استعمالَها ضروريًّا كما يرى شارْدان. وقد ذكرتُ في كتابٍ آخَر ما أتاه هِيرُودُتْس من تفريقٍ في ميدان القتال بين جماجمِ الفرس وجماجمِ المصريين. ولِذا، فبما أن من المهم أن تكون عظامُ الرأس أشدَّ صلابةً وأعظمَ كثافةً وأقلَّ عطْبًا وأندرَ منافذَ لتسليح الدماغِ ضدَّ الجروح، فضلًا عن الزُّكام والنَّزلات وجميع مؤثرات الهواء، فعوِّدوا أولادَكم أن يَبْقَوا حاسري الرأسِ في الصيف والشتاء والنهار والليل دائمًا. وإذا كنتم تودُّون نظافةَ شَعْرهم وانتظامَه، فتريدون غطاءً له في الليل، فلْيكن هذا قَلَنْسُوَةً رقيقةً ذاتَ شُقُوقٍ مشابهةً للشَّبَكة التي يَلُفُّ البَشْكُنْس بها شعورَهم. وأعْرِف جيِّدًا أن معظمَ الأمهات اللائي وقفتْ ملاحظةُ شارْدان أنظارَهم أكثرَ مما وقفَتْها براهيني سيَعتقدن أنهن يَجِدن جوَّ فارسَ في كل مكان، ولكني لم أختَر تلميذي الأوروبي لأجعل منه آسيويًّا.

وعلى العمومِ يُلْبَسُ الأولادُ ثيابًا كثيرة، ولا سيَّما في الدَّور الأوَّل من عُمُرهم، مع أنه يجب أن يُعوَّدوا البردَ أكثرَ من أن يُعوَّدوا الحر؛ فالبرد لا يؤذيهم مطلقًا إذا ما عُرِّضوا له باكرًا، ولكن بما أن نسيجَ جِلْدِهم لَيِّنٌ جِدًّا رَخوٌ جِدًّا، فيساعد العَرَق على السَّيْلِ بكثرة، فإنه يُسْلِمُهُم بالحَر المتناهي إلى ضَنًى لا مَفرَّ منه. ولْنعلَم أيضًا أنه يَهْلِك به في شهر أغسطس أكثر مما في أي شهرٍ آخَر، ثُمَّ إنه يظهر من الثابت عند المقابلةِ بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب أن الإنسان يصير عُصْلُبيًّا بشدَّة البردِ أكثرَ مما بشدةِ الحَر، ولكن كلَّما كَبُرَ الولدُ واشتدت ألْيافُه عوِّدوه احتمالَ شعاعِ الشمس مقدارًا فمقدارًا، وهو إذا ما تَدرَّج في هذا السبيل جعلتموه يُطيق قيظَ المِنطقة الحارة بلا خطر.

وبينما يُتحِفُنا لُوكُ بمبادئَ صائبةٍ ذاتِ فُحُولةٍ تراه يقع في متناقضاتٍ لا تُنتَظر من مفكرٍ مُدقِّقٍ مثله؛ فهذا الرجلُ الذي يَوَدُّ اغتسال الأولاد في الماء القارس صيفًا لا يريدُ أن يشربوا ماءً باردًا، ولا أن يناموا على الأرض في أمكنةٍ رطيبة[٢٣] إذا ما كانوا دَفِئِين. ولكن بما أنه يوَدُّ أن يَنْفُذ الماءُ أحذيةَ الأولاد في جميع الأوقات، فهل يكون نفوذُ الماء إليها أقلَّ مقدارًا عندما يكون دفيئًا؟ أفلا يُمكِن أن يُجْعَل له من حيث نسبةُ البدن إلى الرِّجْلَين عينَ الاستقراء الذي أتى به من حيث نسبةُ الرِّجْلَين إلى اليدين، ومن حيث نسبةُ البدنِ إلى الوجه؟ وأقول له: إذا كنت تريد أن يكون كلُّ الإنسان وجهًا، فلِمَ تلومني إذا ما أردت أن يكون كلُّه رِجْلَين؟

وهو، لكي يحول دون شُرْبِ الأولادِ عندما يكونون دَفِئين، أوصى بأن يأكلوا مقدَّمًا كِسرَة خبزٍ قبل أن يشربوا؛ فمن الغرابة بمكانٍ إعطاءُ الولدِ ما يأكل عندما يكون ظَمِئًا، وأفضِّل أن يُعطَى ما يشرب عندما يكون جائعًا. ولا أَقْنَع مطلقًا بأن تكون شهواتنا الأُولى مختلَّةً كثيرًا، فلا يمكن قضاؤها من غيرِ أن نُعرِّض أنفسنا للخطر، ولو كان الأمر هكذا لهلك الجنسُ البشريُّ مائةَ مرة قبْل أن يُعرَف ما يجب أن يُعمَل لبقائه.

وأريد أن يُعطى إميلُ ما يشرب في كلِّ مرةٍ يعطَشُ فيها، أريد أن يُعطى ماءً قَرَاحًا من غيرِ إعداد، حتى من غيرِ أن يُفتَّر، ولو كان غارقًا في عَرَقه، ولو في صميم الشتاء. وكلُّ ما أوصي بمراعاته هو أن يُمازَ نوعُ الماء، فإذا كان ماءَ نهرٍ فقدِّموه إليه كما هو حالًا؛ أي

[٢٣] كأن صِغار الفلاحين كانوا يختارون الأرضَ الجافَّة ليجلسوا عليها أو يناموا عليها، وكأنه سَمِع أن رطوبةَ الأرض قد أضرَّتهم، ولو ألقينا السَّمع إلى الأطباء لاعتقدنا أن جميع الهمج من الكسحان بفعل الرثية.

كما أُخرِج من النهر، وإذا كان ماءَ ينبوع فدَعُوه في الهواء بعضَ الوقت قبل أن يشربه، وذلك أن الأنهار في الفصول الحارة تكون حارَّة، وأن هذا ليس حالَ الينابيع التي لم تَمَسَّ الهواء، فيجب الانتظارُ حتى تنال حرارةَ الجو. وعلى العكس يكون ماء اليَنْبوع أقلَّ خطرًا في الشتاء من ماء النهر من هذه الناحية. ولكنه ليس من الطبيعي ولا المألوف أن يُعرَقَ في الشتاء ولا سيَّما في العراء؛ وذلك لأن الهواء البارد إذ يَلطِم الجِلدَ بلا انقطاعٍ يَرُدُّ العَرَق إلى الداخلِ ويَحول دون انفتاحِ المسامِّ بما فيه الكفاية حتى يمنحه ممرًّا حُرًّا. والواقع أنني لا أقْصِد أن يتدرَّب إميلُ شتاءً بجانب النار، بل في سواء الأرياف بين الجليد، ولْنَترك إميلَ يشرب متى عَطِش ما دام لا يَدْفأ بغيرِ كُرَاتٍ ثلجية والرَّمي بها. ولْيُداوِم على التدرُّب بعد أن يشرب، ولا نخشَ صدورَ أي عارض من هذا، وإذا ما أخذ يَعْرَق على تمرينٍ ما فَعطِش فلْيشربْ ماءً باردًا حتى في ذلك الوقت، وإنما اجعلوه يسير إلى بعيدٍ بخُطًا قصيرةٍ باحثًا عن الماء؛ ففي قَرٍّ كهذا الذي أفْتَرِض يكون قد بَرَد عَرَقُه حين وصوله إلى مكانِ الشُّرْب بلا خطر، وعليكم أن تتخذوا هذه الاحتياطات من غير أن يشعر بها على الخصوص؛ فعندي أن يَمرض أحيانًا أفضلُ من أن ينتبه إلى صحَّته دائمًا.

ويحتاج الأولادُ إلى نومٍ طويلٍ لِمَا يقومون به من تمرينٍ متناهٍ، ويُعَدُّ أحدُ الأمرين مُلطِّفًا للآخر، ويدلُّ هذا على احتياجهم إليهما. والليلُ هو وقتُ الراحة، وقد عيَّنته الطبيعة. ومن الملاحظات الثابتة أن يكون النومُ أعظمَ هدوءًا وأكثرَ دَعَةً حين تكون الشمسُ تحت الأُفُق، وأن الهواءَ الدَّفِئ بأشِعَّتها لا يَضْبط حواسَّنا في مثل هذا السكونِ العظيم، وهكذا فإن أنفعَ العاداتِ للصحَّة أن يقعَ النهوضُ والنومُ مع الشمس لا رَيب؛ ومِنْ ثَمَّ كان احتياجُ الإنسانِ والحيوان في أقاليمنا إلى النومِ في الشتاء مدةً أطولَ مما في الصيف على العموم، غير أن الحياة المدنية ليست بسيطةً طبيعيةً سالمةً من التقلبات والعوارض بما فيه الكفاية حتى يُعوَّدَ الإنسانُ تلك النمطيةَ فتُجعَلَ ضروريةً له. وما لا شك فيه وجوبُ الخضوعِ لقواعد، ولكن أُولَى هذه القواعد هي أن يُستطاع نقضُها بلا خَطَرٍ عندما تقضي الضرورةُ بذلك؛ ولذا لا تُترِفوا تلميذَكم على غيرِ بصيرةٍ بدوامِ نومٍ هادئ لا يُقطَع مطلقًا. نعم، أَسْلِموه في البُداءة إلى قانونِ الطبيعة دون مراعاةٍ لغيره، ولكن لا تَنسَوا وجوبَ كونه فوق هذا القانون بيننا، فيستطيع أن ينام متأخرًا وأن ينهض صباحًا وأن يوقَظ بغتة، وأن يقضي الليالي واقفًا من غيرِ أن يُزعَج. ولْيُبدأ بذلك باكرًا، ولْيُسلَك السبيلُ رُويدًا وعلى درجاتٍ لملاءمة تلك الأحوال التي تُقوِّضه إذا ما حُملَ على الخضوع لها بعد تمام تكوينه.

ومن المهم أن يُعَوَّد النومَ على فراشٍ غيرِ مُريحٍ في بدء الأمر، فتكون هذه وسيلةَ عدمِ عَدِّه أيَّ سريرٍ سيِّئًا. وإذا تحولت الحياةُ القاسيةُ إلى عادةٍ زادت الإحساساتُ المستحبةُ على العموم. وتُعِدُّ الحياةُ الناعمةُ ما لا حدَّ له من الإحساسات المستكرَهة على العموم. ولا يَجِد مَن يُنشَّئون في التَّرفِ الكثيرِ نومَهم على غيرِ الرِّيش الناعم. ويَجِد مَن تعوَّدوا النومَ على الألواح رُقادَهم في كلِّ مكان؛ فلا يوجد فِراشٌ خَشِنٌ لمن ينام عندما يَضْجَع.

ومن شأنِ الفِراش الوثير، حيث يُغاص في الريش والزَّغَب، أن يُذيب البدنَ ويَحُلَّه، وتَدْفأ الكُليَتان اللتان يُشتمَل عليهما اشتمالًا حارًّا؛ ومِنْ ثَمَّ تنشأ الحصاةُ وغيرُها من الأمراض في الغالب، كما ينشأ مِزاجٌ لطيفٌ يُغذِّيها جميعًا لا ريب.

وأحسنُ فِراش هو ما يُوجِب أحسنَ نوم، وهذا ما أُعِدُّه مع إميلَ نهارًا، ولسنا محتاجَيْن أن يُجلَب إلينا بعبيدٍ من فارسَ لصُنْع فِراشٍ لنا، ونحن نَنقُل فِراشنا حين نحرُث الأرض.

وأعْرِف، عن تجرِبة، أن الولدَ إذا كان ذا صحةٍ جُعِلَ ينام ويستيقظ كما يُراد تقريبًا. وإذا كان الولدُ ضاجعًا ويُزعِجُ خادمتَه بثرثرته فقالت له «نَم»؛ كان هذا كما لو قالت له «شُفِيت» عندما يكون مريضًا. وأصحُّ طريقةٍ لِحمْله على النومِ هو أن يُسأم؛ فهو لا يلبث أن ينام إذا ما كلمتموه بما يُكره به على السكوت، وتكون المواعظُ نافعةً في بعض الأمورِ دائمًا، ومن النافع أن تَعِظُوه ما هدهدتموه، ولكنكم إذا ما استعملتم هذا المنوِّمَ ليلًا فاحذروا استعمالَه نهارًا.

وأُوقظُ إميلَ أحيانًا، وذلك عن خشيةِ تَعوُّدِه النومَ زمنًا طويلًا أقلَّ مما عن تعويده كلَّ شيء، حتى استيقاظَه فجأة، وذلك إلى أنني أكون قليلَ استعدادٍ لوظيفتي إذا لم أستطِع حمْله على الاستيقاظ من تلقاءِ نفسه وعلى النهوضِ كما أريد من غيرِ أن أقول له كلمةً واحدة.

وإذا لم يَنَمْ نومًا كافيًا جعلتُه يُبصِر صباحًا مُمِلًّا من الغد، فيَعُدُّ كسْبًا كلَّ ما يتركه للنوم من ذلك، فإذا ما نام كثيرًا أظهرتُ له عندما يصحو لهوًا يَروقه، وإذا أردت أن يُفيقَ في الوقت المُعيَّن قلت له: «سأذهب في الساعة السادسة من الغد لأصطاد سمكًا، وسأتنزَّه في المكانِ الفلاني، أفتريد أن تكون معي؟» ويوافق، ويرجو منِّي أن أُوقظه، وأَعِدُ أو لا أَعِدُ وَفْقَ الحاجة، فإذا ما أفاق متأخِّرًا وجدني ذاهبًا، ومن البلية ألَّا يقدِرَ من فوْره أن يُفيق من تلقاء نفسه.

ثُمَّ إذا حدث أن ولدًا بليدًا مال إلى الصَّرى في الكسل، وهذا نادر، فلا يجوز أن يُسْلَم إلى هذا الميل حيث يَخمُد نشاطه تمامًا، وإنما يجب اتخاذ بعض المحرِّضات لإيقاظه. ومما يُدرَك جيِّدًا أنه لا ينبغي أن يُحمَل على السير بالقوة، بل أن يُحرَّك ببعض المُغريات التي تُحمِله عليه، وإلى الغايتَين يسوقنا هذا المُغرِي المختارُ من نظام الطبيعة.

ولا أتصور شيئًا لا يستطيع، مع شيءٍ من اللباقة، أن يُلقِّن الأولادَ الذوق، حتى الحَنَق، وذلك من غير زهوٍ ولا منافسةٍ ولا حسد، فيكفي لذلك نشاطُهم وروحُ المحاكاة فيهم، ولا سيَّما مَرَحُهم الطبيعي، هذه الوسيلةُ التي لا يُشكُّ في القبض عليها، والتي لم تَخْطُر ببالِ مُعلِّمٍ قَط؛ وذلك أنهم في جميع الألعاب التي أُقنِعوا بأنها ليست غيرَ ألعاب يَحتمِلون بلا توجُّع حتى مع الضَّحِك ما كانوا لا يحتملونه من غيرِ أن يسكبوا سُيولًا من الدموع. ويُعَدُّ الصومُ الطويلُ واللكمُ والحرقُ والتَّعبُ على أنواعه؛ لهوَ صِغارِ الهمَج، وهذا دليلٌ على أن للألم نفسِه من الفُتُون ما يُمكن أن يَنْزِع كرْبَه، ولكن لا يستطيع جميعُ المُعلِّمين طبخَ هذا الطعام، كما أن جميع التلاميذ لا يذوقونه من غيرِ انقباض، وهذا بِدْع، فإذا لم أحترِزْ تُهْتُ في الشواذ.

ولا يَعني احتمالُه كونَ الإنسانِ عبدًا للألمِ ولأمراض نوعِه وللعوارض ولأخطار الحياة وللموت أخيرًا، وكلَّما عُوِّد الإنسانُ جميعَ هذه الأفكار شُفِيَ من الإحساس المُزعج الذي يضيف إلى السوء عدمَ الصبرَ على احتماله، وكلَّما جُعل الإنسانُ يألف ما يمكن أن يصيبه من الأوصاب نُزِعت منه زُبَانَى الغرابة كما قال مُونْتِين، فيغدو روحه متينًا سالمًا من الجُروح، ويصير جسمُه دِرعًا تقيه جميعَ السهام التي يُمكن أن تكون قاتلة، حتى إن دُنوَّ الموتِ إذ لم يكن الموتَ نفسَه فإنه لا يَكاد يُشعَرُ به على أنه هكذا؛ فهو لن يموت، وإنما يكون حيًّا أو ميتًا لا غير، وعنه قال مُونْتِين نفسُه كما قال عن مَلِك مَرَّاكُش: «لم يَمُدَّ إنسانٌ حياتَه بعيدًا في الموت.» ويُعَدُّ الثباتُ والحزم كبقية الفضائلِ مدارَ تخرُّج الولد، ولكن الأولاد لا يتعلَّمون هذه الفضائلَ بتعلُّم أسمائها، وإنما يتعلمونها بحمْلهم على ذَواقها من غيرِ أن يَشْعُروا.

ولكنني إذ أتكلَّم عن الموت أسأل: ما السبيلُ التي أسلُك مع تلميذي تجاه خَطَر الجُدَري؟ أيُلقَّحُ به صغيرًا أم ننتظر إصابتَه به إصابةً طبيعية؟ إن الأمرَ الأوَّلَ أكثرُ ملاءمةً لعادتنا، وذلك أنه يحفظ حياتَه في وقتٍ تكون فيه عظيمةَ القيمة، وذلك على حساب خطرٍ

يَحيقُ بحياته عندما تكون أقلَّ قيمة، وذلك إذا ما جاز لنا استعمالُ كلمةِ الخطرِ نحو تلقيحٍ أُحْسِن صُنْعه.

وأمَّا الأمرُ الثاني، فأكثرُ ملاءمةً لمبادئنا العامة، وذلك أن يُترَك للطبيعة اتخاذُ ما تَودُّ اتخاذَه وحدَها، فإذا ما تدخَّل الإنسانُ في ذلك تركتِ الطبيعةُ ذلك من فوْرها. وتَرى رَجُل الطبيعةِ مستعِدًّا دائمًا، ولْندَعْه يُلقَّح من قِبَل هذا السيدِ الذي يختار الوقتَ المناسبَ أحسنَ مما نختار.

ولا تستنبِطوا من ذلك أنني ناقمٌ على التلقيح، وذلك أن الأسباب التي أُعفي بها تلميذي منه سيئةُ الملاءمة لتلاميذكم، وتُعِدُّهم تربيتُكم لعدم الإفلات من الجُدَري حينما يكونون عُرضَةً لهجومه، فإذا تركتموه يأتي مصادفةً هلكوا به على ما يحتمل. ومما أرى في مختلف البلدان أن مقاومةَ التلقيح تزيد بنسبةِ ما يصبح فيها ضروريًّا، ويَسهُل إدراكُ هذا، وأكاد أترفَّع عن معالجةِ هذه المسألة من أجْل إميل، وهو إمَّا أن يُلقَّح وإمَّا ألَّا يُلقَّح، على حَسَب الأزمنة والأمكنة والأحوال، وهذا ما لا يُكترَث له بالنسبة إليه تقريبًا. وبيانُ الأمرِ أنه إذا ما أُتحِف بالجُدَري كان هنالك ما يُبصَر به مرضه ويُعرَف مقدَّمًا، وهذا شيء، ولكنه إذا ما أُصيب به إصابةً طبيعيةً يكون قد حُفظ من الطبيب، وهذا هو الأصلح.

وتُفضِّل التَّربيةُ الحاجبة، التي لا تَميل إلى غيرِ تمييزها من الشعب مَن يتلقَّوْنها دائمًا، أغْلَى تعليمٍ على التعليم المعتاد، ولو كان هذا الأخيرُ أكثرَ فائدة، ومن ذلك أن الفِتيان الذين عُنيَ بتربيتهم يتعلَّمون ركوبَ الخيل لِغَلَاء هذا كثيرًا، ولكنك لا تَجِد واحدًا منهم يتعلَّم السباحةَ تقريبًا لعدمِ تكليفها شيئًا، ولأن الصانعَ يستطيع أن يسبح كأي إنسان كان. ومع ذلك، فإن المسافرَ يركب الفرسَ من غيرِ سابقِ تعليمٍ، ويستقرُّ على ظهرها وينتفع بها لحاجته بما فيه الكفاية. وأمَّا في الماء فإن الإنسانَ يَغرَق إذا لم يسبح، ولا تكون السباحةُ بلا تعليم. ثُمَّ إن الإنسانَ لا يُكرَه على ركوبِ الخيل إذا كان يخشى الهلاك، على حينِ لا يثِق الإنسانُ باجتنابِ خطرٍ يُعرَّض له غالبًا كالغَرَق. وسيكون إميلُ في الماء كما على الأرض، ولِمَ لا يكون قادرًا على العيش في جميع العناصر؟ أجْعَل منه نَسْرًا إذا ما استطعتُ تعليمَه الطيرانَ في الهواء، وأجعل منه سَمَنْدرًا[٢٤]* إذا استطاع احتمالَ النار.

٢٤ * السَّمَنْدر أو السَّميدر: دابةٌ تعيش في الماء وعلى اليابسة، وقيل إنها تفرز مادةً تُطفِئ النار، ولذلك قالوا: إنَّها لا تحترق.

ويُخشى أن يَغرَق الولدُ حين تعليمه السِّباحة، ويقع الوِزْر عليكم دائمًا، سواءٌ أَغَرِق حين تعليمه السِّباحةَ أم لعدم تعليمه إياها. والغرورُ وحدَه هو الذي يجعلنا مغامرين، ولا نكون هكذا إذا لم يَرَنا أحد، ولن يكون إميلُ هكذا ولو رآه جميعُ النَّاس. وبما أن التمرين لا يتوقَّف على الخَطَر، فإنه سيتعلَّم في قناة حديقة أبيه عبورَ الدَّردنيل، ولكن يجبُ أن يُتَعوَّد الخَطَرَ أيضًا لكي يُتَعلَّم عدمُ الانزعاج به. وهذا قسمٌ جوهريٌّ من التخرُّج الذي تكلمتُ عنه منذ قليل. وبما أنني أكون منتبهًا، فضلًا عن ذلك، إلى المقابلة بين الخطر وقُوَاه، مع مشاطرته هذا الخطر، فإنه لا يكون ما أخشى معه غفلتي ما دمتُ أُنظِّم أمرَ حفْظه وَفْقَ تنظيمي حفظَ نفسي.

والولد أصغرُ من الرجل، وليس عند الولد ما عند الرجل من قوَّةٍ وعقل، ولكنه يَرى ويسمع مثلَه أو يَكاد، وله مِثلُ ذوقِه حِسًّا، وإن كان هذا الذوقُ أقلَّ دِقة، وهو يُفرِّق بين الروائحِ مثْلَه وإن لم تكن له ذاتُ اللذة. والحواسُّ هي أُولى الخصائص التي تتكوَّن فينا وتَكمُل؛ ولذا فهي أوَّلُ ما يجب تعهُّدُه، وهي الوحيدةُ التي تُنسى، أو التي تكون أكثرَ ما يُهمَل.

ولا يعني تدريبُ الحواسِّ استعمالَها فقط، بل يعني أيضًا تعلُّمَ حُسنِ الحُكْم بها، بل يعني تَعلُّمَ الشُّعورِ بها؛ فنحن لا نَعْلَم اللمسَ ولا الرؤيةَ ولا السماعَ إلا كما تعلَّمنا.

ويوجد من التمرينات ما هو طبيعيٌّ آليٌّ صِرف، فيَصلُح لجعْل الجسم عُضْلُبيًّا من غيرِ تحسينٍ للفكر. أجلْ، إن السباحةَ والعدوَ والوثوبَ وسَوطَ الخُذْروف وقَذْف الحجارةِ أمورٌ حسنةٌ جِدًّا، ولكن ألَا يوجد لدينا غيرُ الذُّرعان والسيقان؟ أليس عندنا عيونٌ وآذان؟ وهل هذه الأعضاءُ غيرُ ذاتِ نفعٍ في استعمال الأُولَى؟ إذن، لا تقتصروا على تدريب القُوى، بل درِّبوا جميعَ الحواسِّ التي توجِّهها أيضًا، وانتفعوا بكلِّ ما يُمكِن من الحواس، ثُمَّ حقِّقوا تأثيرَ كلٍّ منها بالأخرى، وقِيسوا واحسُبوا وزِنوا وقابلوا، ولا تستعملوا القوَّة إلا بعد أن تُقدِّروا المقاومة، ولْيَقم تقديرُكم للمعلول على سبْقِه للوسائلِ دائمًا. وأَغْرُوا الولدَ بألَّا يقوم بجهودٍ ناقصةٍ أو زائدة، وإذا ما عوَّدتموه أن يُبصِر نتيجةَ جميعِ حركاته على هذا الوجه فيُقَوِّم بالتجرِبة زلَّاتِه، أفلا يكون من الواضح ظهورُه حصيفًا كلَّما سار؟

وإذا ما وجبت إزاحةُ كتلَةٍ فتناول عتلةً طويلةً أنفقَ حركةً كثيرة، وإذا ما تناولها قصيرةً لم تكن لديه قوةٌ كافية، فيُمكِن التجرِبةَ أن تُعلِّمه اختيارَ القضيبِ الضروري تمامًا، وليست هذه الحكمةُ فوق مستوى عُمُره إذن. وإذا ما وجب حمْلُ ثِقلٍ وأراد أن

يكون وزَينًا بمقدارِ ما يستطيع أن يَرفع ولم يحاوِل أن يَشُولَ أكثرَ مما يقدِر، أفلا يُضطرُّ إلى تقديرِ الثِّقَل بالنظر؟ وإذا أراد أن يقابلَ بينَ كُتَلٍ من ذاتِ المادةِ مختلفةِ الحُجومِ أو أن يختارَ بين كُتَلٍ من ذاتِ الحجْمِ مختلفةِ المواد، أفلا يجبُ أن يمارس المقابلةَ بين أوزانها المعينة؟ لقد رأيتُ فتًى حسنَ التَّربيةِ لم يُرِد أن يَعْرِف، إلا بعْدَ التجرِبة، كَونَ الدَّلوِ المملوءةِ نُشَارةً من خشبِ البلُّوطِ أقلَّ ثِقَلًا من عينِ الدَّلوِ المملوءةِ ماء.

ولا نسيطر على استعمالِ جميعِ حواسِّنا بالتساوي، ومن هذه الحواسِّ حاسَّةُ اللمسِ التي لا يُعطَّل عملُها في أثناء اليقظةِ مطلقًا، وهي شاملةٌ لسطحِ بدننا بأجمعِه، وذلك كحارسٍ دائمٍ يُخبرنا بكلِّ ما يُمْكن أن يؤذيَه. وهذه الحاسَّةُ أيضًا هي التي ننالُ بها طوْعًا أو كَرْهًا وبأسرعِ ما يمكن، ما يؤدِّي إليه ذلك التمرينُ المتصلُ من تجرِبة، وهذه الحاسةُ هي من حيث النتيجةُ أقلُّ ما يحتاج إلى تدريبٍ خاص، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن للعُمْيان حاسَّةَ لمسٍ أصدقَ مما لدينا وأدق؛ وذلك لأنهم إذ كنوا عاطلين من باصرةٍ مرشِدةٍ لهم يضطرُّون إلى تعلُّمهم بحاسَّة اللمسِ حصْرًا آراءً نَكْسِبها بالأخرى أيضًا. ولِمَ لا نتمرَّن إذن على المشي في الظلامِ مثلهم، فنعرفَ الأجسامَ التي يمكن أن نبلُغَها، ونحكم في الأشياء التي تحيط بنا، ونصنع ليلًا وبلا ضياءٍ جميعَ ما يصنعون نهارًا وبلا عيون؟ إننا نكون في وضعٍ أفضلَ مما يكونون ما سطعت الشمس، فإذا ما جنَّ الليلُ ساروا أدِلَّاء لنا من ناحيتهم؛ فنحن عُميٌّ نصفَ حياتنا، وذلك مع الفارق القائل إن العُميَ الحقيقيين يَعْرِفون ما يصنعون دائمًا، وإننا لا نجرؤ على التقدُّم خُطوةً في سواء الليل. وستقولون لي: لدينا نور. ماذا! آلاتٌ دائمًا! ومَن يجيب بأنها ستَتْبَعكم في كلِّ مكانٍ عند الضرورة؟ وأمَّا أنا فأفضِّل أن تكون لإميل عينان في بنانه[٢٥*] على أن تكونا له في دُكَّان الشمَّاع.

وإذا كنتم ضِمنَ بناءٍ في وَسَط الليل، فصَفِّقوا بيديكم لِتُدْرِكوا من رنينِ المكانِ كونَه كبيرًا أو صغيرًا، وهل أنتم في سوائه أو في زاويةٍ منه. وبما أن الهواء يكون أقلَّ استدارةً وأكثرَ ترديدًا على مسافةِ نصف قدمٍ من الجدار فإنه يبدو ذا أثرٍ من نوعٍ آخَر في الوجه، وقِفوا في مكان، ودُورُوا بالتعاقُب إلى جميعِ الجهات لتدلكم ريحٌ خفيفةٌ على وجود باب، وإذا كنتم في سفينةٍ عرفتم من النَّمط الذي تَلْطِم الريحُ به وجوهَكم هل يُسيِّركم مجرى

[٢٥*] البنان أطراف الأصابع.

النهر بسرعةٍ أو ببطء، وذلك فضلًا عن الجهة التي تَسيرون إليها. ولا تتمُّ هذه الملاحظاتُ وما إليها من مئات الملاحظات المماثلة الأخرى إلا ليلًا؛ فمهما بُذِل من انتباهٍ حولها نهارًا ساعدتنا الباصرةُ عليها أو صرفتنا عنها فتَفلِتُ مِنَّا، ومع هذا لا توجد هنا يدٌ ولا عصًا أيضًا، وما أكثرَ المعارفَ البصريةَ التي يُمْكن أن تُكتَسب باللَّمْس من غيرِ أن يُلمَس شيء!

كثيرُ ألعابٍ في الليل، وهذا الرأي أهمُّ مما يلوح بمراحل، ومن الطبيعي أن يُخيفَ الليلُ الرجالَ وبعضَ الحيوانات.[٢٦]

وقليلٌ من النَّاس مَن يُعفَون من هذه الضريبةِ بالعقل والمعارف والذهن والشجاعة. وقد رأيت مفكرِين وملحِدين وفلاسفةً وجنودًا يكونون في النهار من الشجعان، فإذا ما أرخى الليل سُدُولَه ارتجفوا كالنساء عند حَفيفِ ورقةِ شجر، ويُعزَى هذا الذُّعر إلى أحاديثِ المَراضِع، وهذا خطأ، فلذاك سببٌ طبيعي، وما هذا السبب؟ هو الذي يجعل الصُّمَّ حَذِرين والقومَ خُرافيين، هو جهلُ الأشياءِ التي تحيط بنا وجهلُ ما يقع حولنا،[٢٧] وبما أنني تعودَّتُ

[٢٦] يكون هذا الخوفُ واضحًا عند كسوف الشمس كسوفًا كليًّا.

[٢٧] إليك أيضًا سببًا آخَر أوضحه فيلسوفٌ استشهدتُ بكتابه كثيرًا، ووردتُ مناهلَ بصائره الواسعة غالبًا:

> إذا ما قضتْ بعضُ الأحوال الخاصة بعدمِ تكويننا فكرةً صادقةً عن المسافة، فلم نستطِع أن نحكم في الأشياءِ إلا باتساع ما تُصوِّره في أعيننا من زاويةٍ أو رسم، تَطرَّق الخطأ إلينا حولَ حجمِ هذه الأشياء لا محالة؛ فكل واحد يَعْرِف بالتجربة أننا حين السفر ليلًا نَحْسَب العليقةَ القريبةَ شجرةً عظيمةً بعيدة، وأننا نَحْسَب الشجرةَ العظيمةَ البعيدةَ عليقةً قريبة. وكذلك إذا لم تُعرف الأشياء بشكلها، ولم نستطِع أن نكوِّن فكرةً عن المسافة بهذه الوسيلة تَطرَّق الخطأ إلينا حتمًا، فإذا ما مرت ذبابةٌ مسرعة على بُعد خطواتٍ من أعيننا بدت لنا في هذه الحالة طيرًا على مسافةٍ بعيدة، وإذا وُجد حصانٌ بلا حركةٍ في وَسَطِ حقلٍ، وكان متخذًا من الوضْع ما يشابه وضعَ الضأنِ مثلًا لم يبدُ لنا غيرَ كبشٍ ما دُمْنَا لا نعرف أنه حصان. ولكننا إذا ما عرفناه ظهر لنا في الحال ضخمًا كالحصان، وصحَّحنا حكمَنا الأوَّلَ من فوْرنا.
>
> وفي كلِّ مرة تجدنا ليلًا في أماكنَ مجهولة؛ حيث لا نستطيع أن نحكمَ في المسافة، وحيث لا نستطيع أن نعرفَ شكلَ الأشياءِ بسبب الظلام، حاقَ بنا خطرُ الوقوعِ في الخطأ في كل ثانية حول الأحكام التي نصدرها عن الأشياء التي تبدو لنا. ومن هنا يأتي الهولُ أو ذلك الخوفُ الباطني الذي يلقيه ظلامُ الليلِ في جميعِ الناسِ تقريبًا. وعلى هذا تقوم ظاهرة الأشباحِ والأشكال الضخمة الهائلة التي يروي كثيرٌ من الناس أنهم رأوها، وهم يُجابون على هذا عادةً بأن هذه الأشكالَ كانت في خيالهم. ومع ذلك فإن من الممكن أن كانت هذه الأشكالُ في أعينهم، وأن كانوا قد رَأَوا في

أن أُبصرَ الأشياءَ من بعيدٍ، وأن أرى تأثيرَها مُقدَّمًا، وذلك من غيرِ أن أشاهد شيئًا مما يحيط بي، فكيف لا أفترض ألفَ موجود وألفَ حركةٍ تُقدَّر أن تؤذيني، فيتعذر عليَّ أن أضمن نفسي تجاهها؟ ومن العبثِ أن أعلمَ أني في أمانٍ حيث أكون، ولستُ أعْرِف هذا المأمن ما لم أرَه فعلًا. ولديَّ إذن سببُ خوفٍ دائم مما ليس عندي في وضح النهار. والواقع أنني أعْرِف أن الجسم الغريب لا يستطيع أن يؤثِّر في جسمي من غير أن يُخبِرَ عن نفسه بصوتٍ ما، وما أكثرَ ما تكون أذني مرهَفةً بلا انقطاع! وإذا ما حدث صوتٌ خفيفٌ لا أستطيع إدراك سببه، حفزتني مصلحة بقائي إلى افتراضي في بدء الأمر أكثر ما يُمكِن أن يحمِلَني إلى الحذر؛ ومِنْ ثَمَّ كل ما يمكن أن يُخيفني.

ولا أجِدُني مطمئنًّا إذا لم أسمع شيئًا على الإطلاق؛ وذلك لأن من الممكن أن أُفاجأ في آخِرِ الأمرِ عند عدم وجود صوت، ويجب أن أفترض الأمورَ كما كانت سابقًا، وكما يجب أن تكون أيضًا، وأن أرى ما لا أرى. وهكذا فإنني إذ أُعمِل خيالي عن اضطرارٍ أعودُ غيرَ

الحقيقة ما يقولون إنهم أبصروا؛ وذلك لأن مما يحدث، قطعًا، أنه في كل مرة لا يمكن أن يُحْكم في الشيء إلا بالزاوية التي يكونها الشيءُ في العينِ، يضخم هذا الشيء المجهول ويعظُم كلَّما اقترب منه، فإذا ما بدا في البُداءة للناظر الذي لا يستطيع أن يَعْرِف ما يرى، ولا أن يحكم في المسافة التي يراه عليها. وإذا ما ظهر في البُداءة — كما أقول — عاليًا بضعُ أقدامٍ مع بُعده عشرين أو ثلاثين خطوة؛ لاح عاليًا أقدامًا كثيرةً عندما يصير بعيدًا خطواتٍ قليلة، وهذا ما يجب أن يُدهِشه ويُخِيفه إلى أن يمسَّ الشيء أو يعرفه؛ وذلك أنه في الثانية التي يَعْرِف فيها الحقيقة يتضاءل من فوْره ذلك الشيءُ الذي كان يبدو له ضخمًا، ويعود لا يظهر له منه غيرُ حجْمه الحقيقي، ولكنه إذا ما فرَّ أو لم يجرُؤ أن يدنو، كان من الثابت أنه لا يكون لديه من الأفكار عن ذلك الشيء غيرُ الصورة التي كوَّنها في العين وأبصر بها في الحقيقة شكلًا ضخمًا هائلًا حجمًا وهيئة؛ ولذا تقوم مُبْتَسَراتُ الأشباحِ على الطبيعة. ولا تتوقَّف هذه الظاهرات على الخيال وحدَه خلافًا لما يعتقد الفلاسفة. (بوفون، التاريخ الطبيعي، جزء ٦، صفحة ٢٢)

وقد حاولت في المتن أن أثبت أنها وليدةُ الخيال قسمًا في كل وقت، وأمَّا من حيث السبب الموضَّح في النَّص المقْتَبس، فإن من الواضح أن عادة السَّيْر ليلًا تعلِّمنا أن نفرِّق بين تلك الظاهراتِ التي تقتبسها الأشياءُ المنظورةُ في الظلامِ من تشابُه الأشكال واختلاف المسافات؛ وذلك لأن الهواء إذا كان من النور ما نبصر معه رسومَ الأشياء، وذلك مع وجودِ هواءٍ كثيرٍ معترضٍ في البُعد الكبير، كانت رؤيتنا لهذه الرسوم أقلَّ وضوحًا عند كون الشيء أكثر بُعدًا مِنَّا، وهذا ما يكفي لوقايتنا بقوَّة العادة من الخطأ الذي يوضِّحه بوفون هنا. ومهما تفضَّلوا من إيضاحٍ فإن منهاجي مؤثرٌ دائمًا، وهو الذي تؤيده التجرِبة تمامًا.

سيِّدٍ له من فوْري، ولا ينفعُ ما أكون قد صنعتُ تسكينًا لروْعي لغيرِ زيادةِ ذُعري. وإذا ما سمعتُ صوتًا سمعتُ لصوصًا، وإذا لم أسمعْ شيئًا رأيت أشباحًا، وما يوحي به حبُّ البقاء من حَذَرٍ لا يُلقي فيَّ غيرَ عواملِ الخوف. وليس كلُّ ما يُطَمْئِنُني في غيرِ عقلي، وغيرُ هذا ما تخاطبني به الغريزةُ التي هي أقوى من العقل. وما فائدةُ التفكيرِ في عدمِ وجودِ شيءٍ يُخشى ما دام لا يوجد ما يُعمَل إذ ذاك؟

ويدلُّ سببُ الداءِ الموجودِ على الدواء، وتقتُلُ العادةُ الخيالَ في كلِّ شيء. والأشياءُ الجديدةُ وحدَها هي التي تُوقِظه، والذاكرةُ لا الخيال، هي التي تَعْمل في ما يُرى كلَّ يوم، وهذا هو سببُ المَثَلِ القائل: «لا ينشأ الهوى عن العادة»؛ وذلك لأن الأهواءَ لا تشتعل بغيرِ الخيال؛ ولذا لا ينبغي اتخاذُ العقلِ دليلًا مع مَن تريدون شفاءه من هولِ الظلام، وجِيئوا به إلى الظلامِ غالبًا، وثِقوا بأن جميعَ براهين الفلسفة لا تَعْدِل هذه العادة، ولا يدور رأسُ المُسقِّفون على السُّطُوحِ مطلقًا، ولا يخاف في الظلام مَن يتعوَّد أن يكون فيه.

وإليك إذنْ فائدةً أخرى من ألعابِ الليلِ مُضافةً إلى الأُولى، ولكن إذا أُريدَ نجاحُ هذه الألعابِ لم يُوصَ ببهجتِها كثيرًا. ولا شيءَ كئيبٌ كالظلام، ولا تَحبِسوا ولدَكم في سجنٍ مظلم، ولْيَضْحَك حينَ دخوله في الظلام، ولْيَضْحك قبْلَ خروجِه منه، وذلك لِتَحُول فكرةُ اللهوِ الذي يَترُك والذي يَجِدُ دونَ الخيالاتِ الوهميةِ التي يُمكِن أن تساوره.

ويوجد للحياةِ حدٌّ يَرجِعُ الإنسانَ إلى الوراءِ إذا ما تخطَّاه، وأشعُر بأنني جاوزتُ هذا الحد؛ ولذا أستأنف عملًا آخَر، وما تنطوي عليه الكُهُولةُ التي تُشْعِرني بنفسِها من فراغٍ يَرسُم لي راجعًا زمَن السِّنِّ الأُولى العَذْب. وإني حين أَشِيب أعودُ ولدًا، وأذكُر مختارًا ما صنعتُ ابنًا للعاشرة أكثرَ من ذكري ما صنعتُ ابنًا للثلاثين. ويا أيها القرَّاء، اغفِروا لي إذَن استنباطي الأمثلةَ من نفسي أحيانًا؛ وذلك لأن حُسنَ وضْعِ هذا الكتابِ يقتضي صُنْعي له طيِّبَ الخاطر.

وقد كنتُ في الأريافِ نزيلَ قَسٍّ اسمُه مسيو لَنْبِرْسيه، وكان يرافقني ابنُ خالٍ لي أغنى منِّي؛ فكان يُعامَل مثلَ وارثٍ على حين لم أكنْ غيرَ يتيمٍ فقيرٍ لبُعدي من أبي. وكان ابن خالي الأكبر بِرْنارد يُثيرُ العجبَ بجُبْنه ولا سيَّما في الليل. وقد بلغتُ من الهزوء بجُبْنه ما أراد معه مسيو لَنْبِرْسيه الذي ضاق ذرْعًا بتبجُّحي أن يختبر شجاعتي؛ فناولني مِفتاحَ الكنيسة في ليلةٍ من ليالي الخريف السُّود، وطلب منِّي أن أذهبَ للبحثِ عن الكتابِ المقدَّس في المذْبحِ حيثُ تَرَكَه، وقد أضاف إلى ذلك من الكلام المثير للهِمَّة ما جَعل أمرَ تأخُّري متعذِّرًا.

وأذهبُ بلا قِنْديل، ولو أخذتُه معي لكان الوضعُ أسوأ مما عليه كما يُحتمل، وكان عليَّ أن أمُرَّ من المقبرة، فجاوزتها بِحَزم؛ وذلك لأنه لم يكن ليساورَني هَوْلٌ ليليٌّ ما دمتُ في العَراء.

وأفتحُ الباب، وأسمعُ في القُبَّة صدًى مشابهًا لأصوات، فيأخذ في زلزلةِ حَزْمي الروماني، وأريد الدخولَ بعد فتح الباب، ولكنني لم أكد أتقدَّم بضعَ خُطُوات حتى وقفت، وذلك أنني إذ أبصرتُ الظلامَ الدامسَ الذي كان يَسودُ هذا المكانَ الواسع، استحوذ عليَّ هولٌ وَقَف شعري، وأتقهقر وأخْرُج وألوذُ بالفِرار مرتجفًا تمامًا، وأجِد في صَحْن الكنيسة كُلَيبًا اسمه سلطان، وتُلْقي ملامساتُه الخفيفةُ سكينةً في قلبي، وأخجل من خوفي، وأرجع محاولًا جَلْبَ سلطان معي، ولم يُرِدْ سلطان اتِّباعي. وأُجاوزُ البابَ فجأة، وأدخل الكنيسة، ولم أكَد أَدْخُلها حتى اعتراني الخوفُ ثانية، وقد بَلَغ هذا الخوفُ من الشدةِ ما فقدتُ معه صوابي، ومع أن المذبحَ كان عن يميني، ومع أنني عرفتُ ذلك جيِّدًا؛ فقد انفتلتُ من غيرِ وعي وبحثتُ عنه في الشمال وقتًا طويلًا. وقد ارتبكتُ بين المقاعدِ وعُدتُ لا أعْرِفُ أين أنا. وبما أنني لم أستطِع أن أجدَ المِنبرَ ولا الباب؛ فقد اضطربتُ اضطرابًا لا يُوصف. وأُبصرُ البابَ أخيرًا، وأهمُّ بالخروجِ من الكنيسة، وأبتعِدُ عنها كما في المرة الأُولى، عازمًا على عدمِ دخولها وحدي في غير النهار.

وأعود حتى المنزل، وبينما كنت مستعِدًّا للدخول إذ تَبيَّنتُ صوتَ مسيو لَنْبِرْسيه وهو يُقهقِه، وأَعُدُّ قهقهتَه موجَّهةً إليَّ مُقدَّمًا، ويَرْبُكُني أن أرى نفسي عُرضةً لها، فأتردَّد في فتْح الباب، وأسمع الآنسةَ لَنْبِرْسيه في تلك الأثناء وهي تقول للخادمةِ أن تأخذَ المصباحَ عن قلقِ نحوي، ويستعِدُّ مسيو لَنْبِرْسيه للبحث عني على أن يرافقه ابنُ خالي الجسورُ الذي لن يُقصِّر في منْحِه جميعَ فَخْر السَّرية بعد ذلك. وتَزول جميعُ مخاوفي بغتة، ولم يَبقَ عندي غيرُ الخَوْف من أن أُباغَت هاربًا. وأرْكُض وأطير إلى الكنيسة، وأَصِلُ إلى المِنْبر من غيرِ أن أَضِلَّ ومن غيرِ أن أتردَّد، وأَرْتقيه، وأتناوَل الكتابَ المقدس، وأَثِبُ منه، وأكون بعد ثلاثِ قفزَاتٍ خارجَ الكنيسة التي نَسِيتُ حتى إغلاقَ بابها، وأدخل الغرفةَ ضَيِّقَ النَّفَس وأطرح الكتابَ المقدَّس على المِنضَدة دَهِشًا، ولكنْ خافقًا فَرَحًا بإنجازي ذلك من غيرِ تلك المساعدةِ المقترَحةِ نحوي.

وسأُسأل هل أُقدِّمُ هذا الحادثَ مثالًا يُحتذى ومَثَلًا على ما أُطالب به من بهجةٍ في هذه الأنواعِ من التمرينات، كلَّا، وإنما أُقدِّمه دليلًا على أنه لا شيءَ يستطيع أن يُسكِّنَ

رَوْعَ خائفٍ من أشباحِ الليلِ غيرُ سَماعِه في غرفةٍ مجاورةٍ أصحابًا يضحكون ويتسامرون هادئين. وأريد بدلًا من أن يتلهَّى المُعلِّم مع تلميذه وحدَه أن يُجمَع في الليالي كثيرٌ من الأولادِ الطيِّبي المِزاج، وألَّا يُرسلوا متفرقين في البُداءة، بل يُرْسل كثيرٌ منهم مجتمعين، وألَّا يجازفَ بإرسال أيِّ واحدٍ منهم منفردًا حتى يُطمأنَّ مُقدَّمًا بأنه لا يكون خائفًا كثيرًا.

ولا أتصور شيئًا أبهجَ ولا أنفعَ من مثلِ هذه الألعابِ ناظرًا إلى قلَّةِ ما يَحتاج إليه تنظيمُها من مهارة، وأُقيم في بَهْوٍ كبيرٍ مثلَ تِيهٍ مؤلَّفٍ من لوحاتٍ ومُتَّكآتٍ وكراسٍ وحواجز، وأضَع في مُنعَرَجات هذا التِّيه العُقْدِ وبين ثماني عُلَبٍ أو عَشْر عُلَبٍ مُقلَّدةٍ، عُلْبةً حقيقيةً مشابهةً لها تقريبًا، مملوءةً مُلبَّسًا، وأُعيِّن بكلامٍ واضح، ولكن مع الإيجاز، مكانَ العُلْبة الصحيحة، وأُعْطي أناسًا أكثرَ من الأولادِ انتباهًا[٢٨] وأقلَّ منهم طيشًا من الدلائلِ ما يكفي لتمييزها. ثُمَّ أَجعل صغارَ المتبارين يَضرِبون القرعةَ، فأُرسِل الواحدَ منهم تِلوَ الآخر حتى تُوجَد العُلْبةُ الحقيقية، وذلك مع زيادة صعوبة العمل بنسبة مهارتهم.

وتَصوَّروا هِرْكُولًا صغيرًا يَصِل حاملًا عُلبةً بيده فخورًا بسَريَّته، وتُوضع العُلبة على المِنْضَدة، وتُفتَح باحتفالٍ كبير، وهنا أسمع قهقهاتٍ وسُخْرياتٍ صادرةً عن العُصبة الفَرِحة إذ رأت بدلًا من المُلبَّس جِعْلانًا وحَلَزُونًا وفَحْمًا وبَلُّوطًا ولِفْتًا وموادَّ مماثلةً أخرى مُرتَّبةً على أُشْنَةٍ أو قُطْن. وفي مرةٍ أخرى تُعلَّق على جِدارِ غرفةٍ مُكلَّسةٍ حديثًا لُعبةٌ ومنقولاتٌ صغيرةٌ أخرى، فيُطلَب من الأولادِ أن يُحضِروها من غيرِ أن يَمَسُّوا الجِدار. ولا يَكادُ الجالبُ لها يَدخلُ حتى يُرَى إخلالُه بالشَّرْط لِمَا يَنِمُّ على سوءِ تصرُّفِه طَرَفُ قُبَّعَته المُبيَّضُ وطَرَفُ حذائِه وذيلُ ثوبِه وكُمُّه. ويُعدُّ هذا كافيًا، وأكثرَ من كافٍ على ما يحتمل، لإدراك روح هذه الألعاب. وإذا كنتم تنتظرون أن أقولَ لكم كلَّ شيء فلا تقرءوا كتابي مُطلَقًا.

وأيُّ تفوُّقٍ في الليلِ لا يتَّفِق لمن نُشِّئَ هكذا على الرجالِ الآخرين؟ فبما أن رجليه تَعوَّدتا أن تَرْسَخ في الظلام، وبما أن يديه تَمرَّنتا على لَمْسِ جميعِ الأجسامِ المجاورةِ بسهولة؛ فإنها تَقوده في أحلكِ ظلامٍ بلا مشقة. وبما أن خيالَه مملوءٌ بألعابِ فَتَائِه الليلية؛ فإن من الصعب أن ينصرفَ إلى أمورٍ مخيفة. وإذا ما اعتقد أنه يَسمع قهقهاتٍ كانت هذه قهقهاتِ أصحابِه

[٢٨] يقضي تدريبُ انتباهِهم بألَّا تقولوا لهم غيرَ أمورٍ يكون من مصلحتهم الواضحة الحاضرة أن يدركوها جيِّدًا، وذلك من غيرِ تطويلٍ ولفظٍ زائدٍ وإبهامٍ وغموضٍ في قولِكم.

القدماءِ بدلًا من قهقهاتِ الجن. وإذا ما تَمثَّلَ مجلسًا كان هذا غرفةَ مُعلِّمه، لا مجتمعَ سَحَرَةٍ في الليل مطلقًا. ولن يكون الليلُ شيئًا كريهًا عندما ذكَّره بأفكارٍ سارَّة، فيُحِبُّه بدلًا من أن يخشاه. وهو يستعدُّ في كلِّ ساعةٍ عند كلِّ حملةٍ عسكرية، سواءٌ أكان وحدَه أم مع كتيبته، وهو يدخل معسكر شاوُل ويجول فيه من غيرِ أن يَضِلَّ، وهو يصل إلى خيمة الملكِ من غيرِ أن يُوقِظ أحدًا، وهو يعود منه من غيرِ أن يَشعُر به أحد، واقصدوه بلا وَجَلٍ عندما يجب سَلْبُ حُصُنِ رِيزُوس؛ فمن الصعب أن تجدوا رجلًا مثلَ أُوليس بين من نُشِّئوا على وجهٍ آخَر.

وقد شاهدتُ أُناسًا يريدون بالمفاجآت أن يُعوِّدوا أولادَهم ألَّا يخافوا شيئًا في الليل، وهذا المنهاجُ سيئٌ جدًّا، وهو يؤدي في الحقيقةِ إلى عكس ما يُبحَثُ عنه، وهو لا ينفع لغيرِ جعْلِهم أكثرَ جُبنًا دائمًا، وما كان العقل ولا العادة ليستطيعا تسكينَ الرَّوْع حول خطرٍ حاضرٍ لا يُعرَف مداه ولا نوعه، كما أنهما لا يستطيعان تسكينَ الرَّوْع حول وَجَلٍ من المفاجآت التي تُبْتَلى في الغالب، ومع ذلك فكيف يُطمَأَنُّ إلى وقايةِ تلميذكم من مثلِ هذه العوارض؟ وهذا أصلحُ رأيٍ يمكن أن يُعطاه حول ذلك مُقدَّمًا كما يَلوح لي، فأقول لإميل: «هنالك تكون في وضْعِ المُدافعِ عن نفسه، وذلك أن المعتدي لا يَدَعُك تَحكم في هل يريد أن يؤذيَك أو يُخيفَك. وبما أن له هذا الوضعَ الملائمَ فإنك لا تجد ملاذًا حتى في الفِرار، فاقبضْ بجُرأةٍ إذن على مَن يُباغِتك ليلًا، إنسانًا كان أو حيوانًا، واضْغطْه وقِفْه بما لديك من قوَّة، وإذا ما انتفض للمقاومةِ فاضربْ بلا هوادة، ولا تترْكه يذهب قبْل أن تعرفَ مَن هو مهما قال أو فَعل. ومن المحتملِ أن تَعرف بالاستيضاح عدمَ وجودِ شيء تخشاه، غير أن هذه الطريقةَ في معاملةِ المُجَّانِ مما يَحول دون رجوعهم إلى ذلك بحكم الطبيعة.»

ومع أن حاسةَ اللمسِ أكثرُ حواسِّنا دوامَ تمرين؛ فإن أحكامَها تظَلُّ مع ذلك أكثرَ نقصًا وأشدَّ غِلظةً من أيةِ حاسَّةٍ أخرى كما قلت؛ وذلك لأننا نُدخِل في استعمالها عادةَ البصر دائمًا، ولأن العينَ إذ تبلغُ الشيءَ بأسرعَ مما تَبْلُغه اليد، فإن النفْس تستغني عنها في الحكم. وبالمقابلة تجدُ أحكامَ اللمسِ أعظمَ صحةً لأنها أكثرُ ما يكون اقتصارًا؛ فبما أنها لا تمتدُّ إلى أبعدَ مما تمتدُّ إليه أيدينا فإنها تُقوِّم طيشَ الحواسِّ الأخرى التي تتناول من بعيدٍ أشياءَ لا تَكد تُحِسُّها، وذلك بدلًا من حاسةِ اللمسِ التي تَشعر جيِّدًا بكلِّ ما تُحِسُّه. ونحن إذ نُضيفُ قوَّةَ العَضَل إلى فعْلِ الأعصابِ كما يروقنا، فإننا نوحِّد، بإحساسٍ يقع في وقتٍ

واحد، بين حكمِ حرارة الجو والأجرام والأشكال وحكمِ الثِّقل والصلابة. وهكذا فإن حاسة اللمس إذ كانت بين جميعِ الحواس أحسنَ ما يُخبِرُنا بما يُمكنُ الأجسامَ الغريبةَ أن تُؤثِّر في جسمنا؛ فإن عادتها أكثرُ العادات شيوعًا، وهي أسرعُ ما يمنحُنا من المعارف الضرورية لبقائنا.

وإذا كانت حاسةُ اللمس تقوم مقامَ حاسة البصر، فلِمَ لا يمكنُها كذلك أن تقوم مقامَ حاسة السَّمع إلى حدٍّ ما، ما دامت الأصواتُ تُثير في الأجسامِ الطنَّانةِ اهتزازاتٍ تُحَسُّ عند اللمس؟ إذا ما وُضِعَتْ يدٌ على كَمانٍ جَهيرٍ أمكنَ أن يُماز، من غيرِ استعانةٍ بالعيون وبالآذان ووفَق الوجهِ الذي يهتز به الخشبُ ويرتج، كونُ الصوتِ الذي يصدر ثقيلًا أو حادًّا، وكونه ناشئًا عن الزِّير[٢٩] * أو عن القرار، وإذا ما مُرِّنت الحواسُّ على هذه الفروقِ لم أشُكَّ في كوننا نُصبح مع الزَّمن من الشعورِ بحيث نَسمع بالأصابعِ لحنًا كاملًا. والواقع أن من الواضح عند افتراضِ هذا إمكانَ مخاطبةِ الصُّمِّ بالموسيقا بسهولة؛ وذلك لأن الألحان والأزمان إذ لم تكن أقلَّ تأثُّرًا بالتراكيب المنتظمة من المفاصل والأصوات، فإن من الممكن أن تُتَّخَذ كعناصرَ للكلام.

ويُوجَد من التمرينات ما تَكِلُّ به حاسةُ اللمس، ويجعلها أكثرَ عياء، وعلى العكس يوجد من التمرينات ما تُشحَذُ به ويجعلُها أكثرَ دقةً ولطافة، وتُضيفُ الأُولى كثيرًا من الحركة والقوة إلى انطباع الأجسام الصُّلبة الدائم، فتجعل الجلدَ قاسيًا جاسيًا، وتَنزِع منه الإحساسَ الطبيعي، وتُغَيِّر الثانيةُ هذا الإحساسَ بلمْسٍ خفيفٍ كثيرٍ، فيكتسب الذهنُ المنتبِهُ دائمًا إلى الانطباعات المُكرَّرة بلا انقطاع، سهولةَ الحكمِ في جميعِ تحولاتها، ويُشعَرُ بهذا الفرْق في جميعِ الآلات الموسيقية، وذلك أن لَمْسَ الكمانِ الجهيرِ والكمانِ الأجهر، حتى الكمانِ، لَمْسًا شديدًا أليمًا إذ يَجعل الأصابعَ أكثرَ مرونةً فإنه يُصَلِّب أطرافَها، ويجعلها البيانُ مَرِنةً حساسةً في الوقت نفسه، وبهذا يُفضَّلُ البِيَان.

ومن المهم أن يَجْسَأ الجِلدُ أمام مؤثِّرات الهواء فيستطيع مقاومةَ تقلُّباته؛ وذلك لأن الجِلد يحفظ بقيةَ الجسم. وإذا عدوتَ هذا وجدتني لا أريد أن تَجْسأ اليدُ بأن يُفرَطَ في تمرينها على ذاتِ الأعمالِ بلُؤم، ولا أن يصير جلدُها عظميًّا تقريبًا فتفقِدُ الحسَّ اللطيفِ

[٢٩] * الزِّير: الدقيقُ من الأوتار.

الذي يُعرَف به ما تُمَرُّ عليه من الأجسامِ والذي يجعلنا نرتجِف في الظلام بمختلف الوجوه أحيانًا وعلى حسب نوع اللمس.

ولِمَ يُلزَمُ تلميذي بأن يَجعَلَ تحتَ قدمَيه جِلْدَ بَقَرٍ دائمًا؟ وأيُّ أذًى يمكن أن يَلْحَقه إذا ما استعملَ جِلْدَه الخاصَّ نعلًا له؟ ومن الواضحِ أن رِقَّةَ الجِلْدِ في هذا القسمِ لا يُمكِن أن تكون نافعةً لشيءٍ مطلقًا، ويُمكِن أن تكونَ ضارَّةً كثيرًا غالبًا. ومما حدث في وَسَط الشتاء أن استيقظ أهلُ جنيفَ في مدينتهم هذه عند منتصف الليل بفعل العدو، فوجدوا بنادقهم قبْل أن يجدوا أحذيتهم، ومَن يقول إن جنيفَ كانت لا تصبح قبضةَ العدوِّ لو كان أهلوها لا يَعْرِفون أن يَسيروا حُفَاة؟

ولْنُجهِّز الإنسانَ دائمًا ضدَّ الحوادث المفاجئة، ولْيَركُض إميلُ حافيًا في كلِّ صباح وفي جميعِ الفصول، وذلك في الغرفةِ وعلى الدَّرَجِ وفي الحديقة، وسأُقلِّدُه بدلًا من توبيخه، وإنما سأُعنَى بإبعادِ الزجاج، ثُمَّ لِيَتعلَّم اتخاذَ جميعِ الخُطوات التي تُسهِّلُ نُشوءَ البدن، واتخاذَ وضعٍ سهلٍ متينٍ في جميعِ الأحوال، ولْيَعلم الوثوبَ بعيدًا عاليًا، ولْيَعلم الصعودَ في الشجرِ وتسوُّرَ الجُدُر، ولْيَجد توازنَه دائمًا، ولْتَكن جميعُ حركاتِه وسكناتِه منتظمةً وَفْقَ قوانينِ تَوازنِ القُوى المتعادلة، وذلك قبْل أن يُوضِحَ عِلْمُ تَوازُنِ الأجسامِ تلك القوانينَ له، ويجب أن يَشْعُر بأنه في وضْعٍ حَسنٍ أو سيئ من حيث الوجهِ الذي يَضَعُ رِجْلَه به على الأرضِ والحالُ التي يكون بها جسمُه على ساقه. ولِلوضْعِ الوطيدِ رَوْعتُه دائمًا، وتُعَدُّ أمتنُ الهيئاتِ أظرفَها، ولو كنتُ مُعلِّمَ رقصٍ ما أتيتُ جميعَ قِرْدياتِ مارْسِلَ[٣٠] الملائمةِ للبلد الذي جَعلها فيه، ولكنني آتي بتلميذي إلى أسفلِ صخرةٍ بدلًا من شَغْله بقفَزَاتٍ إلى الأبد؛ فهنالك أُظهِر له الوضعَ الذي يتَّخذ، وكيف يكون حالُ بدنه ورأسه، وأيُّ الحركات يأتي، والنَّمط الذي يَضع به رِجْله تارةً ويده تارةً أخرى للسيرِ سيرًا خفيفًا في الدُّروب الوَعِرة الصعبة المُتْعبة، وللوثوب من نقطةٍ إلى أخرى صاعدًا ونازلًا، فأجعله يُباري أَيِّلًا لا راقصًا في الأُبرا.

---

[٣٠] مُعلِّم رقص مشهور بباريس، كان يَعْرِف جماعته جيِّدًا، فيأتي ما هو أرعن بالحيلة، فيعلق على فنِّه من الأهمية ما يحمل معه أكبرَ تقدير له في الأساس، وإن كان يُرى مضحِكًا. واليوم لا يزال يُرى في فنٍّ آخَرَ ممثلٌ هزليٌّ جامعٌ بين المهمِّ والأرعنِ، فيلاقي من النجاحِ ما ليس أقلَّ من ذلك، ويكون هذا الأسلوبُ في مأمنٍ بفرنسة دائمًا، ولا حظَّ فيها للنبوغِ الحقيقي الأكثرِ بساطةً والأقلِّ خداعًا مطلقًا، ويُعَدُّ الحياءُ فيها فضيلةَ الأغبياء.

وعلى نسبةِ ما تَجْمَع حاسةُ اللمس أعمالَها حوْل الإنسانِ تُوَسِّع حاسةُ البصرِ أعمالَها بعيدةً منه، وهذا ما يجعل هذه الحاسة خادعة، وذلك أن الإنسانَ يشتمل على نصف أُفُقه في لمْحةِ بصر، وكيف لا يتطرَّق الخطأ حوْل واحدٍ من جَمْعِ هذه الإحساساتِ الحادثةِ في وقتٍ واحد، وحول ما تُثير من آراء؟ وهكذا فإن حاسةَ البصرِ أكثرُ حواسِّنا خطأً؛ وذلك لأنها أوسعُ الحواسِّ مَدًى؛ وذلك لأنها إذ تَسبِق الحواسَّ الأخرى بمسافاتٍ تكون أعمالُها عاجلةً جِدًّا متَّسِعةً جِدًّا، فلا يمكن أن تقوم بتلك الحواس، وذلك إلى أن الوَهْم حوْل المنظورات أمرٌ ضروريٌّ للوصولِ إلى معرفة المساحة وقياسِ ما بين أجزائها، ولولا الظواهرُ الخادعةُ ما رأينا شيئًا في البُعد، ولولا تسلسلُ الحَجْم والضياء ما استطعنا تقديرَ أيةِ مسافةٍ كانت، وإن شئتَ فقُلْ إن المسافة لا يكون لها وجودٌ عندنا، ولو بدت لنا إحدى الشجرتَين المتساويتَين البعيدةُ مِنَّا مائةَ خُطوةٍ، كبيرةً جليةً كالشجرةِ الأخرى البعيدةِ عَشْرَ خُطُوات لوضعناها بجانب هذه، ولو كُنَّا نُبصِر جميعَ أبعادِ الأشياءِ وَفْقَ قياسِها الحقيقي ما رأينا أيةَ مسافةٍ كانت، ولَبَدا الجميعُ على عيوننا.

ولا يوجد للحُكم في حجمِ الأشياءِ ومسافتها غيرُ قياسٍ واحد؛ أي فُتْحَةُ الزاويةِ التي تُحْدِثها في عيوننا. وبما أن هذه الفُتْحة معلولٌ بسيطٌ لِعِلَّةٍ مركَّبة، فإن ما تُثيره من حُكْمٍ فينا يَدعُ كلَّ عِلَّةٍ خاصةٍ غيرَ معينة، أو يَغدو خاطئًا بحُكْم الضرورة؛ وذلك لأنه كيف يُمازُ بالعينِ المجرَّدةِ كونُ الزاوية التي يبدو الشيءُ بها أصغرَ من الآخر هي إياها لأن هذا الشيءَ الأوَّلَ معلولٌ أصغرُ لها، أو لأنه أكثرُ بُعدًا؟

ويجب أن يُتَّبَع هنا منهاجٌ مباينٌ للسابقِ إذن، وذلك أن يُجعَل عُضوُ البصرِ خاضعًا لعضوِ اللَّمسِ بدلًا من تبسيطِ الإحساسِ وتضعيفِهِ وتحقيقِهِ بإحساسٍ آخَرَ دائمًا؛ ومِنْ ثَمَّ أن تُزجَرَ صولةُ الحاسَّة الأُولى باتِّئاد الحاسةِ الثانية وانتظامِها. وبما أننا لم نُخضِع أنفسنا لهذه العادة، فإن قياساتنا بالتقديرِ تكون مختلَّةً جِدًّا، وليس لنا بلمحةِ البصر أيُّ دقَّةٍ للحُكم في الارتفاع والطول والعمق والمسافات، ويبدو الدليلُ على أن الخطأ بالعادةِ أشدُّ مما بالحاسَّةِ في كون المهندسين والمسَّاحين والمعماريين والبنَّائين والمصوِّرين على العموم ذوي لمحةٍ أحكمَ كثيرًا مما لدينا، وفي كونهم يُقدِّرون قياسات الاتساع بإتقانٍ أعظمَ مما نقوم به؛ وذلك لأن مهنتَهم إذ تمنحُهم في ذلك من التجربة ما نُهمِل اكتسابَه فإنهم يُزيلون الالتباسَ من الزاوية بالظواهر التي تُلازِمها والتي تُعيِّنُ في أعينهم ما بين سببَيْ هذه الزاوية من نسبةٍ تعيينًا دقيقًا.

ويَسْهُلُ على الأولاد أن ينالوا دائمًا كلَّ ما يَمنَحُ الجسمَ حركةً من غيرِ أن يُضَايَق، ويوجَد ألفُ وسيلةٍ تَحْفِزُهم إلى قياسِ المسافاتِ ومعرفتِها وتقديرِها. وها هي ذي شجرةُ كَرَزٍ عاليةٌ جِدًّا، فما نَصْنعُ لاقتطافِ الكَرَز؟ وهل يَصْلُح سُلَّمُ النِّبْر[٣١]* لهذا؟ وها هو ذا جدولٌ عريضٌ جِدًّا، فكيف يُعبَر؟ وهل يُوضَع لوحٌ من الحَوْش على ضِفَّتَيه؟ وإذا أردنا أن نصطاد من نوافذنا سَمَكًا في خنادقِ القلعة، فكم يَجب أن يكون عددُ باعاتِ قَصَبتنا؟ وإذا أردتُ وضْعَ أرجوحةٍ بين هاتَين الشجرتَين، فهل يكفينا حبلٌ طولُه اثنتا عشْرة قدمًا؟ ويُقال لي إن غرفتنا في المنزل الآخر ستكون خمسًا وعشرين قدمًا مربعة، فهل تظنُّون أنها تلائمنا، وهل تكون أكبرَ من هذه؟ ونحن نلتهب جوعًا؛ ففي أيِّ القريتَين هاتَين ننال غداءً بأسرع ما يمكن؟ ... إلخ.

وكان يُرادُ أن يُدرَّبَ على الركضِ ولدٌ مِكسالٌ بطيءٌ غيرُ راغبٍ هذا التمرينَ أو ذاك، وإن كان يُعَدُّ للجندية، ومما حدث أن أُقنِعَ — ولا أدري كيف — بأنه لا يُطلَبُ ممن هو من طبقتِه أن يَفْعل شيئًا ولا أن يَعلَم شيئًا، وبأن شَرَفه يقوم مقامَ الذُّرْعان والسِّيقان كما يقوم مقامَ جميعِ أنواعِ المزايا، فلا تَكاد تكفي حتى حيلةُ شِيرونَ لتجعلَ من مثْلِ هذا الشريفِ أَشِيلًا ذا رِجْلٍ خفيفة، وكان الأمرُ يَزيد صعوبةً بِعَزْمي على عدمِ أمره بشيء، وقد تنزَّلتُ عن حقوقي في التحريض والوعد والوعيد والمباراة وحُبِّ الظهور، وكيف أجْعله يريد العدوَ من غيرِ أن أقولَ له شيئًا؟ إن العَدْوَ بنفسي وسيلةٌ مضمونةٌ قليلًا وذاتُ محذور. ثُمَّ إنه كان من المطلوب أن أستخرج من ذلك التمرينِ معارفَ له أيضًا، وذلك تعويدًا لأعمالِ الآلة وأعمالِ الرأي أن تسيرا جنْبًا إلى جنْبٍ دائمًا، وإليك ما سلكتُ أنا الذي يتكلم في هذا المثال:

كنتُ حين أذهبُ للنزهةِ معه في أوقات العصر أَضَع في جيبي أحيانًا قطعتَين من الحَلوى التي يُحِبُّ كثيرًا، وكان كلٌّ مِنَّا يأكلُ واحدةً منهما حين النُّزهة،[٣٢] ثُمَّ نعود مسرورَين. ومما أَبْصَرَ ذاتَ يومٍ، وجودُ ثلاثِ قِطَعٍ معي، وكان يمكنه أن يأكل سِتًّا منها من غيرِ أن يُزعَج،

[٣١] * النِّبْر: بيتُ التاجر الذي تُنْضَد فيه الغلال والمتاع.

[٣٢] النُّزهة الريفية كما يُرى بعد قليل. وأمَّا النُّزَه العامة في المدن فهي تَضر الولدَ من الجنسين؛ ففي هذه النزهة يصير الأولادُ مختالين ومحلَّ نظر. وفي اللكسنبرغ والتويلري، ولا سيَّما الباله رويال، تقتبس شبيبة باريس الرائعة ذلك الوضع الماجن الوقح الذي يجعلها موضعَ سخرية وهزوء وازدراء في جميع أوروبة.

ويُسرِع في أكل قطعته ليطلُب مني الثالثة، وأقول له: كلَّا، إنني سآكلها، أو نقتسمها بيننا. ولكنني أُفضِّل أن يتنازعها ذانك الغلامان الصغيران فينالها الفائز في تسابقهما عدْوًا، وأناديهما وأُريهما قطعةَ الحلوى وأَعْرِض عليهما الشَّرط، ولم يطلُبا ما هو خيرٌ من هذا. وتُوضَع الحلوى على حَجَرٍ كبيرٍ اتُّخِذَ هَدَفًا، وتُعيَّن المسافةُ ونذهب لنجلسَ وتُعْطى الإشارة، وينطلِقُ الغلامان الصغيران، ويَقبِض الفائزُ على الحلوى ويأكلها بلا رحمةٍ على مرأى من الحُضُور والمغلوب.

وكانت هذه الأُلْهُوَّةُ خيرًا من الحلوى، ولكنها لم تُؤثِّر في بدء الأمر ولم تأتِ بنتيجة. ولم أيأس، ولم أستعجل؛ فتعليمُ الأولادِ مهنةٌ تقضي بإضاعةِ الوقتِ كسْبًا منه. ونُداوِم على نُزَهِنا، وتُؤخذ ثلاثُ قِطَعٍ من الحلوى غالبًا، وتُؤخذ أربعُ قِطَعٍ منها أحيانًا، ويكون معنا في الحين بعد الحين قطعةٌ واحدةٌ أو قطعتان للعدَّائين، وإذا لم تكن الجائزةُ كبيرةً لم يكن مَن يتنازعونها من ذوي الطمع، وإنما كان الفائزُ بها محلَّ ثناءٍ واحتفال. وكان كلُّ شيء يتم بأُبَّهة، وكنت أجعل المسافةَ أطولَ مما هي عليه، وأُشْرِك فيها كثيرًا من المتبارِين توسيعًا لنطاقِ العَدْوِ وزيادةً في الإمتاع. ولا يَكادُ المتبارون يبدءون بالسباق حتى يقفَ المارُّون لمشاهدتهم، وكان يُشجِّعهم الهُتَافُ والصُّراخ والتصفيق. وكنتُ في بعضِ الأحيانِ أرى الصبي يهتزُّ وينهضُ ويصرُخُ عندما يكاد أحدُ المتبارين يبلُغ الآخرَ أو يسبقه؛ فكانت هذه ألعابًا أُلَنْبيةً بالنسبة إليه.

ومع ذلك فإن المتبارين كانوا يستعملون الخِداع أحيانًا؛ فيتحاجزون تبادلًا، أو يُسقِطُ بعضُهم بعضًا، أو يدفع الواحدُ منهم في طريقِ الآخرِ حَصَبًا، فيجهِّزني هذا بسببٍ لفصلِ بعضهم عن بعض، ولجَعْلهم ينطلقون من أماكنَ مختلفةٍ على أبعادٍ متساويةٍ من الهدف، وسترون علَّةَ هذا الحَذَر عما قليل؛ وذلك لأنني سأعالج هذا الأمرَ المهم مفصَّلًا.

ويسأم السيدُ الشريفُ من أن يرى على عينٍ منه دائمًا حَلَاوَى تُحرِّك شهوتَه، فيدور في خَلَده أخيرًا أن حُسْنَ العَدْوِ يُمكِن أن يكون صالحًا لشيءٍ ما، وهو إذ يرى لنفسه ساقَين أيضًا يأخذ في اختبارِ نفسِه سِرًّا. وأحترِزُ من رؤيةِ شيء، ولكن مع إدراكي أن خِطَّتي نجحت. ولَمَّا اعتقدَ أنه ذو قوَّةٍ كافية — وهذا ما أبصرته — تظاهرَ بإزعاجي في سبيلِ حيازتِه قطعةَ الحلوى الباقية، وأرفِض، ويُصِر، وأخيرًا يقول لي بلهجةِ الغاضب: «حسنًا! ضَعْها على الحَجَر، وعيِّنِ الميدان، وسَنرى.» وأقول له ضاحكًا: «حسنًا! هل يستطيع الشريفُ أن يركض؟ ستشتد فيك شهوةُ الطعام من غيرِ أن تنالَ ما تقضيها به.» ويُنْخَزُ بسُخْريتي

فيبذُل جُهدَه، وينال الجائزةَ بسهولةٍ لما كان من جَعْلي هذا السباقَ قصيرًا وإقصائي منه أحسنَ عَدَّاء. وليس من الصعب أن يُتصوَّر بعد هذه الخُطوةِ الأُولى كيف سَهُلَ عليَّ أن أسْتَكِدَّه،[٣٣*] ولسرعانَ ما بَلَغَ من الوَلَع بهذا التمرينِ ما صار يطمئنُّ معه تقريبًا إلى الفوزِ على الأولادِ الآخرين من غيرِ محاباةٍ مهما كان السباقُ طويلًا.

وأظفَرُ بهذا النصر، فينشأ عنه من النتائجِ ما لم يَخطُر ببالي، وكان يفوز بالجائزة على نُدرة، فيأكلُها وحدَه دائمًا تقريبًا، وذلك كما كان يصنع منافسوه، ولكنه لَمَّا تعوَّد النصرَ أصبح كريمًا، وصار يقاسِم المغلوبين إياها، وهذا ما زوَّدني بملاحظةٍ أدبيةٍ عَرَفتُ بها مبدأ الكرم الحقيقي.

وعلى ما كان من استمراري على تعيينِ الحدودِ في مختلفِ الأماكن؛ حيث يجب أن ينطلق كلُّ واحدٍ معًا، كنتُ أجعل المسافاتِ متفاوتةً من غيرِ أن يشعُر، وبهذا كان يَلحَقُ ضررٌ بيِّنٌ بالذي يجب عليه أن يسيرَ أكثرَ من الآخرِ وصولًا إلى الهدفِ نفسه، ولكنني مع ترْكِ الخِيارِ لتلميذي كان هذا التلميذُ لا يَعْرِف الانتفاعَ به، وذلك أنه كان يُفضِّل أجملَ الطُّرُق غيرَ مبالٍ بالمسافة دائمًا، وذلك مع بَصَري خيارَه بسهولة، فكنتُ أسيطرُ تقريبًا على فوْزه بالحلوى أو خُسْرِه لها، كما أريد، وكانت لهذه الشطارةِ فائدةٌ لأكثرَ من غاية. ولكن بما أن مقصدي قام على إدراكه الفرْق؛ فقد سَعيت أن أجعلَ هذا الفرْق ظاهرًا لديه، ولكنه وإن كان بليدًا عند الهدوء، كان كثيرَ النشاطِ في ألعابهِ بالِغَ الثِّقةِ بي، فأبذُل كلَّ عناء لجَعْله يُدرِك أنني أغُشُّه في اللعب، وأخيرًا أبلُغ غايتي على الرغم من طيشه، فيلومني على ذلك، وأقول: «من أيِّ شيء تشكو؟ أَمِنْ أجْل هِبةٍ أريدُ حُسْنَ وضْعِها وأنا صاحبُ شروطها؟ ومَن ذا الذي يُكرِهُك على العَدْو؟ وهل وعدتُكَ بأن أجعلَ الأشواطَ متساوية؟ ألم يكن لك الخيار؟ الْتَزِمْ أَقْصَرَها، فلا شيء يمنعك من ذلك، وكيف لا ترى أنك أنت الذي أُحابي، وأن التفاوتَ الذي تتذمَّر منه قد جُعِلَ نفْعًا لك لو كنت تَعرِف أن تستفيد منه؟» والأمر واضح، وقد أدركه، وقد وجب أن يُنظرَ إليه عن كَثَبٍ ليختار. وأوَّل ما أريد هو أن يَعُدَّ الخُطُوات، غيرَ أن مقياسَ خُطُوات الولدِ بطيءٌ قابلٌ للخطأ، ثُمَّ إنني رأيت أن أكثرَ السباقات في اليوم الواحد. وبما أن اللهوَ أصبح نوعًا من الوَلَع فقد أَسِفَ الولدُ على إنفاقِ الوقتِ المُعدِّ للعدْوِ في قياسِ الأشواط. والواقعُ أن نشاطَ الوَلُودية يأبَى مثْلَ هذا البطوء؛ ولذا فقد دُرِّبَ الولدُ

[٣٣*] استكدَّه: طلب منه الاشتدادَ في العمل.

على حُسْنِ البَصر والإصابة في تقدير المسافة بالنظر، وبذا لم أجدْ كبيرَ مشقة في توسيع هذا التمييزِ وتغذيته. وأخيرًا كان له ببضعة أشهرًا في التجارِب والأغاليط المصححة من تقديرِ الأبعاد بالرؤية ما كنتُ إذا وضعتُ معه بالفكرِ قطعةً من الحلوى على شيءٍ بَعيدٍ، أظهرَ في تعيينِ مسافتها بلمْحةٍ تعييناً دقيقًا ما يَظهَرُ بسلسلةِ المسَّاحِ تقريبًا.

وبما أن البصر هو أقلُّ ما يمكن فصْلهُ من الحواسِّ عن أحكام الذهن، فإنه لا بدَّ من انقضاءِ زمنٍ طويلٍ لتعلُّم الرؤية، ولا بدَّ من زمنٍ طويلٍ يُقضى في المقابلةِ بين حاسة البصر وحاسة اللمس؛ تعويدًا لأُولى هاتَين الحاستَين أن تجعلَنا ذوي صلةٍ صادقةٍ بالصُّورِ والمسافات. ولولا حاسةُ اللمس، ولولا الحركةُ التدريجية، ما كانت أنفذُ عيونِ العالَم لتمنحنا أيَّ فكرٍ عن الاتساع. ولا يجب أن يكون العالَمُ كلُّه غيرَ نقطةٍ عند المَحَار، وما كان العالَم ليبدوَ أكبرَ من ذلك، ولو أنبأتْ هذا المَحَارَ نفسٌ بشريةٌ بذلك. وليس بغيرِ قوَّة المشي واللمسِ والعَدِّ والقياسِ ما نتعلَّم تقديرَ أبعادِ الأشياء، ولكن إذا ما قِسنا دائمًا واعتمدت الحاسةُ على الآلةِ لم تَفُز هذه الحاسةُ بسدادٍ. وكذلك لا يجوز أن ينتقل الولدُ من القياسِ إلى التقديرِ دفعةً واحدة، وإنما يجب في البُداءة أن يداوِم على المقابلة بين الأجزاء عندما لا يستطيع أن يقابل دفعةً واحدة، وذلك بأن يستبدل الكُسور التقديرية بالكسور الصحيحة، فيتعوَّد تطبيقَ القياسِ بالعين وحدَها بدلًا من تطبيقه باليد دائمًا. وأَوَدُّ مع ذلك أن يُحقِّقَ عملياته الأُولى بالقياسات الحقيقية حتى يُصحِّح أغاليطه، وأن يتعلَّم عند بقاءِ ظاهرٍ خادعٍ في الحاسةِ تصحيحَه بتمييزٍ أصلحَ من ذاك، ويوجد من المقاييس الطبيعية ما هو واحدٌ في جميعِ الأمكنةِ كقَدمِ الإنسانِ وطولِ ذراعَيه وقامته. وإذا ما قدَّر الولدُ ارتفاعَ طبقةٍ من البناءِ أمكنَه الانتفاعُ بمُعلِّمه قياسًا، وإذا ما قدَّر ارتفاعَ برجِ جَرَسٍ أمكنه أن يَقيسَه بالبيوت، وإذا أراد أن يَعْرِفَ فراسخَ الطريقِ عَدَّ ساعاتِ السير، ولكن على أن يصنعَ جميعَ هذا بنفسه، لا أن يُصنَع له شيءٌ منه.

ولا يُمْكِن تَعلُّمُ تمييزِ اتساعِ الأجسامِ وحجْمِها جيِّدًا قبْل أن يُتعلَّم في الوقت نفسِه معرفةُ أشكالها، حتى تقليدُها؛ وذلك لأن هذا التقليدَ لا يتوقَّف من حيث الأساسُ على غيرِ قوانين المناظر؛ لأنه لا يُمكِن تقديرُ الاتساعِ بظواهره من غيرِ أن يُشعَر بهذه القوانين بعضَ الشعور. ويحاوِل جميعُ الأولاد الذين هم كثيرو التقليدِ أن يَرْسُموا، وأُريدُ أن يُكِبَّ إميلُ على هذا الفن، لا للفنِّ نفسِه ضَبْطًا، بل لتقويم باصرته وجَعْلِ يدِه مَرِنة. وليس من المهم على العموم أن يُمارِس هذا أو ذاك، وذلك على أن يكتسبَ بهذه الممارسةِ بصيرةَ الحسِّ

وحُسْنَ عادةِ البدن؛ ولذا فإنني أحترزُ كثيرًا من تعيينِ مُعلِّم رسمٍ له لا يَحمِلُه على غيرِ تقليدِ مُقلَّدات، ولا يَجْعَلُه يَرسُم من غيرِ الرُّسوم، وأقصدُ بذلك ألَّا يكون له غيرُ الطبيعةِ أستاذ، وغيرُ الأشياءِ نموذج، وأريد أن يكون الأصلُ نفسه تحت عينيه، لا الورقةُ التي تَعرِضه، كما أريد أن يرسمَ بالقلم الرصاصي بيتًا عن بيتٍ وشجرةً عن شجرةٍ ورجلًا عن رجلٍ حتى يتعوَّد ملاحظةَ الأشياء وظواهرها جيدًا، لا أن يَعُدَّ من التقليد الحقيقي ما هو زائفٌ اتفاقيٌّ من التقليدات. وسأحوِّله أيضًا عن رسمِ شيءٍ اعتمادًا على الذاكرة عند عدم وجود المواد، وذلك إلى حين انطباع صورتها في مُخيِّلته انطباعًا صحيحًا عن ملاحظاتٍ متتابعة، وذلك خشيةَ فقْده معرفةَ النِّسَب وذوقَ محاسنِ الطبيعة عن استبداله بحقيقة الأشياء صُوَرًا غريبةً وهمية.

وأعْرِف جيِّدًا أنه سيُسيء الرسمَ على هذا الوجه زمنًا طويلًا قبل أن يصنع ما تسهُل معرفته، وأنه سيتأخَّر في اقتباسِ رشاقة الخطوط ورسمِ المصورين الخفيف، ومن المحتمل ألَّا ينالَ على الإطلاق ما عند المصَوِّر من بصرٍ في الأشياء الماثلة وحسنِ ذوقٍ في الرسم، وهو بالمقابلة سينال بصرًا أكثرَ إصابةً ويدًا أكثرَ إحكامًا، ومعرفةً لما بين الحيوانات والنباتات والأجسام الطبيعية من نِسَبٍ حقيقية في الحجم والصورة، وتجربةً سريعةً في أثَر المناظر، وهذا ما أردتُ صُنْعه تمامًا. ولم أهدِف إلى معرفتِه تقليدَ الأشياء كعلمه بها، فأفضِّل أن يُريَني نباتَ الأَقَنْثَة على إجادته رسمَ أوراقِ تاجٍ لعمودٍ.

ثُمَّ إنني لا أزعم أن لتلميذي وحدَه لهوًا في هذا التمرينِ وغيره، بل أريد أن أجعله أكثرَ طيبًا له أيضًا، وذلك بأن أقاسمه إياه دائمًا، ولا أريد أن يكون له منافسٌ غيري مطلقًا، ولكنني أكونُ له منافسًا بلا مَهْلٍ ولا خَطَر، وهذا ما يَحْمله على الاكتراث لأشغاله من غيرِ أن يُثيرَ حسدًا بيننا. وسأتناول القلمَ الرصاصي على مثاله، وسأستعمله في بدء الأمر استعمالًا سيِّئًا كما يَصْنع، وسأكون مِثْلَ أبِلَ، فلا أجِدُني غيرَ رديء الرسم، وسأبدأ برسمِ رَجُلٍ كما يَرْسُم الخَدَمُ على الجُدْران، فأجعلُ خطًّا لكلِّ ذراع وخطًّا لكلِّ ساق، وأجعل أصابعَ أضخمَ من الذِّراع، وسيُدرك كلٌّ مِنَّا عدمَ التَّناسب هذا بعد زمن، وسنلاحظ أن للساقِ ثِخَنًا، وأن هذا الثِّخنَ ليس واحدًا في كل موضع، وأن للذراع طولًا معينًا بالنسبة إلى الجسم … إلخ. وسأسيرُ في هذا التدرُّجِ بجانب تلميذي، أو إنني أسبقه قليلًا حتى يسهل عليه أن يصل إليَّ دائمًا وأن يتقدمني غالبًا. وستكون لدينا أصباغٌ وأرياش، وسنحاول تقليد ألوان الأشياء

ومظهرها وصورتها، وسنلوِّن، وسنزيِّن، وسنسيء التصوير، ولكننا لن ننقطع عن ترصُّد الطبيعة في تصويرنا الرديء، ولن نصنع شيئًا غير واقعٍ تحت عيني هذا الأستاذ.

وكُنَّا في همٍّ من أجْل زخارف غرفتنا، وها هي ذي واقعةٌ الآن تحت أيدينا، وسنضع رسومَنا ضمْن أُطُر، وسنُطبِقُها بزجاجٍ جميلٍ لكيلا يمسَّها أحد، فإذا رآها كلُّ واحدٍ مِنَّا باقيةً على الحال التي وضعناها فيها وجد من المصلحة ألَّا يُهمِل رسومه. وأرتِّبها حول الغرفة ترتيبًا منتظمًا، ويَدُلُّ كلُّ رسمٍ مكرَّرٍ عشرين مرة أو ثلاثين مرة، على تقدُّم الواضع في كلِّ نسخةٍ تقدُّمًا يترجَّح بين الحين الذي كان البيتُ فيه مُربَّعًا غيرَ مُهندَمٍ والحينِ الذي كان فيه مقدَّمُ البناء ومظهرُه الجانبي وظِلالُه على أصحِّ ما يكون. ولا يفوتُ هذا التدرُّجُ أن يَعرِضَ علينا بلا انقطاعٍ ألواحًا ممتعةً لنا جالبةً لأبصار الآخرين، وأن يُحرِّكَ تنافسنا دائمًا، وأضعُ للأُولَى من هذه الرسومِ ولِأغلظِها أُطُرًا على جانبٍ من اللمعانِ والتمويهِ بالذهبِ إمعانًا في إظهارها. ولكن التقليد عندما يصبح أكثرَ دقةً ويكون الرسمُ حسنًا حقًّا، فإنني لا أضعُ له غيرَ إطارٍ بسيطٍ جِدًّا؛ فهو يعودُ غيرَ محتاجٍ إلى زُخْرُفٍ غيرِ زخرفِ نفسه؛ فمن الخُسْرِ أن يشاطرَ الوشْيُ ما يستحقه الشيء من انتباه. وهكذا يَتوق كلُّ واحدٍ مِنَّا إلى فَخْرِ الإطارِ غيرِ المُدَبَّج، ومتى أراد أحدُنا ازدراء رسمِ الآخر حَكَم عليه بإطارٍ مُموَّهٍ بالذهب، ومن المحتمل أن تذهب هذه الأُطُر المذهبة مثلًا بيننا ذات يوم، فنقضي العجب من وجودِ أناسٍ كثيرين يدلُّون على حقيقتهم بوضعهم أنفسَهم ضِمنَ أُطُرٍ على هذا الوجه.

وقد قلتُ إن علمَ الهندسة ليس في متناوَلِ الأولاد، ولكن هذا ذَنْبنا، ونحن لا نشعر بأن منهاجَهم غيرُ منهاجِنا مطلقًا، وبأن ما يصبحُ فنَّ برهنةٍ لنا لا ينبغي أن يكون لهم غيرَ فنِّ الرؤية. وأفضلُ لنا أن نتخذ منهاجَهم من أن نمنحَهم منهاجنا؛ وذلك لأن أسلوبنا في تعليمِ علمِ الهندسة هو عملُ خيالٍ كما هو عملُ برهنة، فمتى بُسِطَت قضيةٌ وجب تخيُّل دليلِها؛ أي أن تُوجَد القضيةُ المعروفةُ مُقدَّمًا فيجبُ أن تكونَ هذه القضيةُ نتيجةً لها، وأن تُخْتَار هذه النتيجةُ من بينِ جميعِ النتائجِ التي يُمكن استخراجُها من ذاتِ القضية.

وهكذا فإن أدقَّ المُبَرْهِنين يبقى ضَيِّقَ النِّطَاقِ إذا لم يكن مُستَنبِطًا. وما ينشأ عن ذلك؟ ينشأ عن ذلك إملاءُ البراهينِ علينا بدلًا من حمْلِنا على اكتشافها، وكونُ المُعلِّم يُبرهن من أجلنا بدلًا من تعليمنا البَرْهَنة، فلا يُمَرِّن غيرَ ذاكرتنا.

واصنعُوا صُوَرًا متقنة، ورتِّبوها، وضَعُوا بعضَها فوقَ بعض، وافحصُوا ما بنيها من نِسَب، تَجِدوا جميعَ علمِ الهندسةِ الابتدائيةِ سائرًا من ملاحظةٍ إلى أخرى، وذلك من غيرِ سؤالٍ ولا تعريفاتٍ ولا مسائلَ ولا أيِّ شكلٍ برهانيٍّ آخَرَ غيرِ التنفيذِ البسيط. وأمَّا أنا فلا أزعمُ أنني أُعلِّم إميلَ الهندسةَ مطلقًا، وإميلُ هو الذي يُعلِّمني إياها، وأبحثُ عن النِّسَب ويَجِدُها؛ وذلك لأنني أبحثُ عنها على وجهٍ أحْفِزُه به إلى اكتشافها. ومن ذلك أنني بدلًا من استخدام بيكارٍ لرسمِ دائرة، أرسمها بقلمٍ رصاصيٍّ في طَرَفِ خيطٍ دائرٍ حول قُطب، وإذا أردتُ بعد ذلك أن أقابلَ بين أنصافِ قُطرِ الدائرةِ ضَحِك إميلُ منِّي وأراني أن عينَ الخيطِ المشدودِ دائمًا لا يُمكن أن يَرسُم مسافاتٍ متفاوتة.

وإذا أردتُ قياسَ زاويةٍ ذاتِ ستين درجةً رسمتُ من رأسِ هذه الزاويةِ دائرةً بكاملها لا قوسًا؛ وذلك لأنه لا ينبغي أن يُضمَن للأولاد شيء، وأجِدُ أن جزءَ الدائرةِ الواقعَ بين ضِلعي الزاوية هو سُدسُ الدائرة، وأرسُم من ذاتِ الرأس بعد ذلك دائرةً أكبرَ من تلك وأجِدُ أن هذه القوسَ الثانيةَ هي سُدُس دائرتها أيضًا، وأرسم دائرةً ثالثةً مشتركةَ المركزِ وأقومُ عليها بذاتِ التجرِبة، وأداومُ على عينِ الاختبارِ في دوائرَ جديدةٍ إلى أن يغتاظَ إميلُ من غباوتي فيُخبرَني بأن كلَّ قوس، صغيرةٍ أو كبيرة، تشتمل عليها ذاتُ الزاويةِ تكون الجزءَ السادسَ من دائرتها ... إلخ. وها نحن أولاء نستعمل المِنْقلةَ الهندسيةَ عما قليل.

وتُرسَمُ دائرةٌ لإثباتِ كونِ الزاويتَين المتجاورتَين مساويتَين لزاويتَين قائمتَين، وأمَّا أنا فأصْنع على العكس ما يلاحِظُ إميلُ به هذا في الدائرة أوَّلًا، ثُمَّ أقول له: «إذا ما أزلنا الدائرةَ وتركنا الخطوطَ المستقيمة، فهل تُبدِّل الزاويتان حجمَهما ... إلخ؟»

وتُهمَل الدقةُ في الأشكالِ لافتراضها، ويُعنَى بالإثبات، وعلى العكسِ لا نبالي بالإثبات، وسيكون أهمُّ شيءٍ عندنا أن نرسمَ خطوطًا مستقيمةً جدًّا دقيقةً جِدًّا متساويةً جِدًّا، وأن نصنعَ مُربَّعًا كاملًا جدًّا، وأن نُخطِّطَ دائرةً حسنةَ الاستدارة، وسندرُس الشكلَ بجميعِ خاصِّيَّاته المحسوسة تحقيقًا لدقَّته، وسيُتيح لنا هذا فرصةَ اكتشافِ خصائصَ جديدةٍ كلَّ يوم، وسنَثْني نصفَي الدائرة من القُطْر، وسنَثني نصفَي المربع من الزاويتَين المتقابلتَين، وسنقابلُ بين الشكلين لنرى أيُّهما أدقُّ أطرافًا؛ ومِنْ ثَمَّ أتقنُ صُنعًا، وسنتباحثُ حوْل وجودِ هذه المساواةِ في التقسيمِ في المسطحاتِ المتوازيةِ الأضلاعِ والمربعاتِ المنحرفة ... إلخ، دائمًا أوْ لَا، وسنحاولُ أحيانًا أن نُبصرَ نجاحَ التجرِبة قبْل القيامِ بها، وسنسعى في اكتشافِ الأسباب ... إلخ.

وليس علمُ الهندسةِ عند تلميذي غيرَ حُسنِ استخدامِ المسطرةِ والبيكار، ولا ينبغي له أن يَخلِطَ بينه وبين الرسمِ حيث لا يَستعملُ من هاتَين الآلتَين هذه ولا تلك، فسيُقفَل على المِسطرة والبيكار بالمفتاح، ولن يُؤذن له في استعمالها إلا نادرًا ولوقتٍ قصير، وذلك لكيلا يتعوَّد إساءةَ التصوير، ولكننا نستطيع أن نحملَ أشكالنا في نُزَهِنا أحيانًا لنتكلم عمَّا صنعناه وعمَّا نريد صُنْعَه.

ولن أنسى أنني شاهدتُ فتًى في تُورِين عُلِّمَ في صباه ما بين الاستداراتِ والسطوحِ من نِسَب، وذلك بأن يُترَك له كلَّ يومٍ أن يختارَ من الأشكالِ الهندسيةِ ما تساوت استدارتُه طولًا، وقد استنفدَ هذا النَّهِمُ الصغيرُ فنَّ أرشميدسَ لِيجدَ الشكلَ الذي كان يوجَدُ فيه أكثرُ ما يُؤكَل.

ومتى أطار الولد طيَّارةَ ورقٍ مَرَّن عينَه وذراعَه على الإحكام، ومتى ساطَ خُذْرُوفًا زادَ قُوَّته باستعمالها، ولكن من غيرِ أن يتعلَّم شيئًا. وقد سألتُ في بعضِ المراتِ عن السببِ في أنه لم يُعرَض على الأولادِ من الألعابِ القائمةِ على البراعةِ كالتي يقوم بها الرجال، كالتِّنس والصولجان والبِلْيار والنَّبْل والكُرَة وآلات الطرب، وقد أُجبت بأن بعضَ هذه الألعابِ فوقَ قُواهم، وبأن أعضاءهم وحواسَّهم ليست من النموِّ ما تَقوم معه ببعضها الآخر. وأجِدُ هذه الأسبابَ واهية؛ فليس للولدِ قامةُ الرَّجلِ ولكنه يَلبَس مِثل ثوبه. ولا أعني أن يلعبَ بقضباننا بليارًا بالغًا من الارتفاعِ ثلاثَ أقدام، ولا أقْصِدُ أن يَلْعب بالكُرة في ملاعبنا، أو أن تُحمَّل يدُه الصغيرةُ مِضْربًا من مضاربنا، وإنما أريد أن يلعبَ في رَدْهةٍ تُضمَن نوافذُها، فلا يَسْتعمل في البُداءةِ غيرَ كراتٍ رَخْوة، وتكون مضاربُه الأُولى من خَشَبٍ ثُمَّ من رَقٍّ ثُمَّ من وتَرٍ من الأمعاءِ مشدودٍ بنسبةِ تَقدُّمه، وتُفَضِّلون الطيارةَ الورقيةَ لأنها أقلُّ إتعابًا ولا تنطوي على خَطَر، ولستم على حقٍّ في هذين السببين؛ فالطيارة الورقية من ألعاب النساء، ولكنك لا تجدُ من النساء مَنْ لم تَفِرَّ من كُرَةٍ متحركة، ولا ينبغي لجلودهن البِيضِ أن تَخْشُن بالرَّض، ولا تنتظر وجوههن جروحًا. وأمَّا نحن، الذين خُلِقوا ليكونوا أقوياء، فهل نكون هكذا بلا مشقة؟ وأيُّ دفاعٍ نَقدِرُ عليه إذا لم نُهاجَم قَط؟ يقوم النَّاسُ دائمًا بألعابٍ لا ينطوي الخطأ فيها على خطر، ولا تُؤذي الطيارةُ التي تَسقطُ أحدًا، ولكن لا شيءَ يجعل الذُّرعانَ لينةً كحفظِ الرأس، ولا شيءَ يجعلُ البصرَ صائبًا كضمانِ العيون. وألعابٌ كالوثُوبِ من طَرَفِ رَدْهةٍ إلى طَرَفِها الآخرِ وكتقديرِ نَطَّةِ كُرَةٍ لا تزال في الهواء وإعادتِها بيدٍ قويةٍ وطيدةٍ؛ أقلُّ ملاءمةً للرَّجلِ من صَلاحِها لتكوينه.

ويُقال إن أليافَ الولدِ رَخوَةٌ جِدًّا، وهي أقلُّ قوَّةً مما لدى الرجل، ولكنها أكثرُ مرونة، وذراعُ الولدِ ضعيفة، ولكنها ذراعٌ في آخرِ الأمر، ويجب أن يُصنَعَ بها مع حفْظِ النِّسبةِ كلُّ ما يُصنَع بآلةٍ مماثلةٍ أخرى، ولا يوجدُ للأولادِ في أيديهم أيُّ حِذْقٍ كان؛ ولذا فإنني أريد منحَهم إياه، وليس عند الرجلِ القليلِ التدريبِ أكثرُ مما عندهم، ولا نستطيعُ أن نعرِفَ عادةَ أعضائنا قبْل استعمالها، ولا يوجدُ غيرُ تجرِبةٍ طويلةٍ واحدةٍ نتعلَّم بها الانتفاعَ بأنفسنا، وهذه التجرِبةُ هي الدرسُ الحقيقيُّ الذي لا يمكننا أن نُقبِل عليه باكرًا.

وكلُّ ما يُصنَع ممكنٌ صُنْعُه، والواقعُ أنه لا شيءَ أكثرُ شيوعًا من أن يُرَى أولادٌ مهرةٌ رَشَقٌ حائزون في أعضائهم عينَ الرَّشاقةِ التي يُمكن أن تكون في الرَّجل. ويُشاهَدُ في جميعِ الأسواقِ تقريبًا من الأولادِ مَن يَرتجحون ويمشون على أيديهم ويَقْفِزون ويرقُصون على الحبل، وما أكثرَ السِّنين التي اجتذبت فيها كتائبُ من الأولاد بِرَقَصَاتِها الرمزيةِ جُموعًا من حُضَّارِ الكُمِدْيةِ الإيطالية! ومَن ذا الذي لم يسمعْ في ألمانية وإيطالية حديثًا عن كتيبةِ التمثيلِ بالإشاراتِ لنِيكوليني الشهير؟ وهل لاحظ أحدٌ في هؤلاء الأولادِ حركاتٍ أقلَّ نشوءًا، وأوضاعًا أقلَّ ظرافةً، وآذانًا أقلَّ سدادًا، ورقصًا أقلَّ خفةً، مما في الراقصين الكاملي التدريب؟ ولْتَكُن الأصابعُ ثخينةً قصيرةً قليلةَ الحركةِ في البُداءة، ولْتَكن الأيدي سمينةً قليلةَ القدرةِ على الإمساك، فهل يمنَعُ هذا أولادًا كثيرين من الكتابةِ أو الرسمِ في سنٍّ لا يَعْرِف آخرون فيها إمساكَ اليَرَاعِ أو القلمِ الرَّصاصي؟ ولا تزالُ باريسُ بأسْرِها تَذكُرُ أمرَ البُنَيَّةِ الإنكليزيةِ التي كانت تأتي بالعجائب على البِيَان،[٣٤] وقد رأيت في منزلِ حاكمٍ ابنًا له بالغًا من العُمُر ثماني سنين كان يُوضَع على المائدةِ فيبدُو كالتمثالِ بين الأطباق، فيعزِف على كَمانٍ يَعدِل حجْمَه تقريبًا، ويقضي حتى المتفننون العجبَ من إيقاعه.

وتُثبِتُ هذه الأمثلةُ ومائةُ ألفِ مثالٍ مماثلٍ أن ما يُعْزَى إلى الأولادِ من عدم أهليةٍ مفروضةٍ في تمريناتنا أمرٌ خياليٌّ كما يلوح لي، وأن النجاحَ إذا لم يُكتَب لهم في بعضها كان هذا نتيجةَ عدمِ تدريبهم على ذلك مطلقًا.

وسيُقال لي إنني أقَعُ هنا من حيث البَدنُ فيما أُنحِي باللائمةِ عليه من خطأٍ في تثقيفِ ذهنِ الأولادِ قبْل الأوان، والفرقُ عظيمٌ جدًّا؛ وذلك لأن أحدَ هذين التقدمَيْن ليس غيرَ ظاهرٍ مع أن الآخرَ حقيقي، وقد أثبتُّ أنهم غيرُ حائزين للذهن الذي يَلُوح أنهم حائزوه، مع أنهم

[٣٤] أتى غلام في السابع من عُمُره ما هو أدعى إلى العجبِ بعد ذلك الحين.

يَفعَلون جميعَ ما يَظهَرُ أنهم فاعلوه، ثُمَّ إن من الواجب أن يُذكَر دائمًا أنه لا يجوزُ أن يكونَ جميعُ هذا غيرَ ما تطالبهم به الطبيعةُ من تسهيلِ الحركاتِ وتوجيهها طَوْعًا، غيرَ فَنِّ تحويلِ أُلهُوَّاتِهم إلى ما هو أحلى منها، وذلك من غيرِ أن يحوِّلها أيُّ ضَغْطٍ إلى عمل، وذلك مع السؤالِ أخيرًا: أيُّ شيءٍ لا يَتَلَهَّون به، فلمْ أَقْدِرْ أن أجعلَه موضعَ مَعْرِفةٍ لهم؟ حتى إنني عند عدمِ استطاعتي صُنْعَ هذا لا يكون تقدُّمهم في المعرفةِ مهمًّا كثيرًا في الزَّمن الراهن ما داموا يتلهَّون بلا ضررٍ ويَقْضُون أوقاتهم مَرِحين، وذلك بدلًا من أنه إذا ما قضت الضرورةُ أن يتعلموا هذا أو ذاك عند كلِّ مناسبةٍ كان من المتعذَّر بلوغُ هذا أو ذاك من غيرِ إكراهٍ وكَدَر وضَجَر.

وما قُلْته عن الحاسَّتَين اللتَين لهما من الاستعمالِ ما هو أدومُ وأتمُّ يُمكِن أن يُتَّخَذَ مثالًا للوجهِ الذي تُمارَس به الحواسُّ الأخرى، وتَسْري الباصرةُ واللامسةُ على الأجسامِ الساكنةِ والأجسامِ المتحركةِ على السواء، ولكن بما أنه لا يوجدُ غيرُ اهتزازِ الهواء ما يَقْدِر على التأثيرِ في حاسةِ السمعِ؛ فإنه لا يوجدُ غيرُ الجسمِ المتحركِ ما يُحدِث ضوضاءَ وصوتًا، فإذا كان كلُّ شيء ساكنًا لم نَسمعْ شيئًا مطلقًا. وفي الليل؛ حيث لا نتحرَّكُ إلا بمقدارِ ما تروقنا الحركة؛ لا نخشى إذَنْ غيرَ الأجسامِ التي تتحرَّك، فمنِ المهم أن تكونَ لنا آذانٌ مرهفة، فنستطيعَ أن نحكمَ بالإحساسِ الذي يَقرَعُنا في كونِ الجسمِ الذي يُوجبه كبيرًا أو صغيرًا، بعيدًا أو قريبًا، وفي كوْنِ اهتزازه عنيفًا أو ضعيفًا، ويكون الهواءُ المهتزُّ عُرضةً لانعكاساتٍ تُردِّده، وهذه الانعكاساتُ إذ تُحدِث أصداء، تُكرِّرُ الإحساسَ وتجعلنا نسمعُ الجسمَ الصَّخَّابَ أو الرنَّانَ في مكانٍ غيرِ المكانِ الذي يكون فيه، وإذا ما وضعنا الأُذنَ على الأرضِ في سَهلٍ أو وادٍ سمعنا صوتَ رجالٍ أو خطوَ خيلٍ أبعدَ كثيرًا مما يكون لو بَقِينا واقفين.

وكما أننا قابلنا بين الباصرةِ واللامسةِ كان من الحَسَنِ أن نُقابلَ بين الباصرةِ وحاسةِ السمع، وأن نرى أيُّ الأثَرَيْن يَصِلُ بأسرعَ من الآخرِ إلى عُضوه إذا ما صَدَرا عن ذاتِ الجسم معًا، ومتى رأينا نارَ مِدْفعٍ أمكننا اتقاءُ الضربة، ولكنْ متى سمعنا صوتَه عاد لا يكونُ من الوقتِ ما يُمكن ذلك معه، فالقذيفةُ تكون قد وصلت. ومن الممكن أن يُحكَم في المسافةِ عند وقوعِ الرعدِ بفترةِ الزَّمن الذي ينقضي بين البَريقِ والهزيم، فاصنعوا ما يَعْرِف الولدُ به جميعَ هذه التجارِب، وليأتِ من التجارِبِ ما يكون في متناوَله، وليَجِد الأخرى باستقرائه، بَيْدَ أنني أُفضِّل مائةَ مرةٍ جهلَه لها على أن تقولوها له.

ولدينا عضوٌ يجاوبُ حاسَّة السمع؛ أي عضو الصوت، وليس لدينا من الأعضاء ما يُجاوب حاسةَ البصر، فلا نُردِّد الألوانَ كما نُردِّد الأصوات، ثُمَّ إن هذه وسيلةٌ لِتَعَهُّدِ حاسةِ السَّمْعِ بتمرينِ العُضو الفاعلِ والعُضوِ المُنْفعل مبادلة.

وللإنسان ثلاثةُ أنواعٍ من الأصوات، وهي: الصوت المتكلِّم أو الناطق، والصوت المغنِّي أو المطرِب، والصوت العاطفي أو المعبِّر، ويَصْلح هذا الأخيرُ لسانًا للأهواء مُحرِّكًا للشدو والكلام. وللولدِ هذه الأنواعُ الثلاثةُ من الصوتِ كما للرجل، وذلك من غيرِ أن يَعْرِف مَزْجَ ما بينها، وللولدِ ما عندنا من الضَّحِك والصُّراخ والتوجُّع والنِّداء والأنين، ولكنه لا يَعْرف أن يمزُجَ بين هذه الإمالاتِ والصوتَين الآخرين. وليست الموسيقا الكاملةُ غيرَ التي تؤلِّف بأحسنِ ما يُمْكِن بين هذه الأصواتِ الثلاثة، ويَعجِزُ الأولادُ عن هذه الموسيقا، وليس لِغنائهم روحٌ مُطلَقًا، وكذلك في الصوتِ المتكلم لا تجدُ للسانهم نَبَراتٍ. وهم يَصرخون، ولكنْ لا يَنْبِرون. وكما أنه لا يوجدُ في كلامِهم نَبْرَةٌ إلا نادرًا يَندُرُ وجودُ قوةٍ في صوتهم. وسيكون كلامُ تلميذنا أكثرَ توحيدًا وأعظمَ بساطةً أيضًا؛ وذلك لأن أهواءه لا تَمزُج لسانَها بلسانِه عن عدمِ تَنبُّه؛ ولِذا لا تَحمِلوه على تلاوةِ أدوارٍ عن ظهْرِ القلب من مأساةٍ أو كُمِدْيَة، ولا تَرغَبوا في تعليمه الإنشاد، فلا بُدَّ له من حِسٍّ بالغٍ حتى يُنعِم بصوتٍ على أمورٍ لا يُدرِكُها، وبنَبْرَةٍ على مشاعرَ لا يُحِسُّها مُطلَقًا.

وعلِّموه الكلامَ بسيطًا واضحًا، واللفظَ جليًّا جيِّدًا، والنُّطقَ مُحْكَمًا بعيدًا من التكلُّف، وعلِّموه معرفةَ الحركاتِ النحوية ووضْعَ الكلماتِ في مواضعها، وأن يُخْرِجَ من الأصواتِ ما يكفي للسماعِ دائمًا، لا أن يُخْرِجَ منها أعلى مما يجب؛ أي أن يجتنب هذا العيبَ الشائعَ بين الأولادِ الذين نُشِّئوا في المدارس، فلا يجوز وجودُ ما هو زائدٌ في أيِّ شيءٍ كان.

وكذلك في الغِناء اجعَلوا صوتَه مُحكَمًا سَهْلًا ليِّنًا ذا رنين، فتكون أُذُنه مرهفةً في الوزنِ والانسجامِ لا غير، ولا تُلائم الموسيقا التقليديةُ والتمثيليةُ سِنَّه، حتى إنني لا أُريد أن يُغنِّي بالكلام، وهو إذا ما أراد أن يُغنِّي حاولتُ أن أضعَ له أغانيَ مقصودةً ملائمةً لعُمُرِه بسيطةً بساطةَ أفكاره.

وتَرَون أني قليلُ العَجَلةِ في تعليمه قراءةَ الخط، وليس غيرَ ذلك أمري في تعليمه قراءة الموسيقا، فَلْنُبْعِد من دماغِه كلَّ انتباهٍ شاق، ولا نستعجلْ تثبيتَ الإشارات الاصطلاحية في ذهنه. وأعترفُ بأن لهذا صعوبتَه كما يلوح؛ وذلك لأن معرفةَ المجسَّدات إذا لم تَبْدُ في البُداءةِ أكثرَ لزومًا لمعرفةِ الغِناء من معرفةِ الحروفِ لمعرفةِ الكلام؛ فإنه يوجد — مع ذلك — ذلك

الفرْقُ القائلُ إننا نُردِّد أفكارَنا الخاصةَ بالكلام، وإننا لا نُردِّد غيرَ أفكارِ الآخرين بالغِناء، والواقعُ أنه لا بدَّ من قراءتها لترديدها.

ولكنَّ أولَ ما يُقال إنها تُسمَع قبْل أن تُقرَأ، وإن الغِناء يُردَّدُ في الأذنِ بأصدقَ مما في العين، ثُمَّ إنه لا يكفي ترديدُ الموسيقا لمعرفتِها جيِّدًا، بل يجب تأليفُها، ويجب تعلُّمُ الأمرين معًا، وإن لم يَحْدُث هذا لم تُعرَف الموسيقا قَط. وفي البُداءةِ مَرِّنوا موسيقيَّكم الصغيرَ على وَضْعِ عباراتٍ منتظمةٍ حسنةِ الإيقاع، ثُمَّ مرِّنوه على رَبْطِ ما بينها بلحنٍ بسيطٍ جِدًّا، وأخيرًا مرِّنوه على تعيينِ ما بينها من علائقَ مختلفةٍ بترقيمٍ صحيح، وهذا يكون بحُسنِ اختيارِ المَحَاطِّ والسَّكَنَات. وإياكم والغِناءَ الغريبَ على الخصوص، وإياكم والشجوياتِ والتعبيرات؛ فاللحْنُ الشادِي البسيط دائمًا، واللحن المشتقُّ من أوتارِ النغمِ الجوهرية دائمًا، يبلُغ من الدلالة على أداته دائمًا ما يُشعَرُ به ويُصاحَبُ بلا مشقة، وذلك أن تدريبَ صوتِ الولدِ وأُذُنه يوجبان عدمَ غنائه بغيرِ البيانِ مطلقًا.

ويتطلَّبُ تعيينُ الألحانِ جيِّدًا أن تُلفَظ واضحةً حين النطق بها؛ ومِنْ ثَمَّ أتت عادةُ التنغيم ببعض المقاطع، ويتطلب تمييزُ الدرجاتِ إطلاقَ أسماءٍ على هذه الدرجات وعلى حدودِها المختلفةِ الثابتة، ومن هنا جاءت أسماءُ الفواصلِ كما جاءت أيضًا حروفُ الأبجديةِ التي تُمازُ بها مفاتيحُ البِيَانِ ومُجَسَّدات السُّلم، ويُعَيِّن C وA ألحانًا ثابتةً تُرَدَّدُ دائمًا بعينِ المفاتيح، وغيرُ ذلك أمرُ ut وLa، فأمَّا ut فهو على الدوامِ أساسُ السُّلَّمِ الأكبر، أو وسيطُ السُّلَّمِ الأصغر، وأمَّا La فهو على الدوامِ أساسُ السُّلَّمِ الأصغرِ أو المُجسَّدةُ السادسةُ للسُّلَّمِ الأكبر. وهكذا فإن الحروفَ تَميزُ الحدودَ الثابتةَ لنِسَب منهاجنا الموسيقي، وإن المقاطع تَميزُ الحدودَ المتناظرةَ لِمَا تشابه من النِّسَب في مختلف الألحان، وتَميزُ الحروفُ مفاتيحَ البِيَان، وتَميزُ المقاطعُ درجاتِ السُّلَّم. وقد خَلط موسيقيُّو فرنسة بين هذه الفروقِ خلطًا غريبًا؛ فلم يُفرِّقوا بين معنى المقاطعِ ومعنى الحروف، وهم إذ ضاعفوا إشاراتِ المفاتيحِ على غيرِ جدوى، لم يَدَعوا من ذلك قَطُّ ما يُعبَّر به عن أوتارِ اللحن. وهكذا فإن ut وC عندهم شيءٌ واحد، وليس الأمرُ هكذا، ولا يجوز أن يكونَ هكذا، وإلَّا فما يكون استعمالُ C؟ وكذلك فإن طريقتَهم في التنغيمِ كثيرةُ الصعوبةِ من غيرِ أن تكونَ لها أيةُ فائدة، ومن غيرِ أن تَحمِلَ للذهنِ أيةَ فكرةٍ واضحة، ما أمكن أن يَدُلَّ المقطعان ut وmi على الثالثِ الأكبرِ أو الثالثِ الأصغرِ أو الثالثِ الزائدِ أو الثالثِ الناقص. ويا له من نصيبٍ عجيبٍ أن يكون هذا

البلدُ العالميُّ الذي تُوضَعُ فيه أروعُ كتب الموسيقا عينَ البلدِ الذي يبدو أصعبَ ما تُعَلَّم فيه ضَبْطًا!

ولْنتَّبِعْ مع تلميذنا طريقًا أكثرَ بساطةً وأشدَّ وضوحًا، فلا يكون له غيرُ سُلَّمين ذواتي نِسَبٍ واحدةٍ بينهما دائمًا، فيُشار إليهما بعينِ المقاطعِ دائمًا. وسواءٌ أغنَّى أم عَزَف على آلةٍ كان الرأي أن يَعْرِف إقامةَ سُلَّمه على كلِّ واحدٍ من الألحان الاثني عشر التي يُمكِنه الانتفاعُ بها أساسًا. وسواء أَلَحَّنَ على D أم على C أم على G ... إلخ، كان الرأي أن تكونَ النهايةُ La أو ut وَفْقَ السُّلَّم. وهكذا فإنه يُدْرِك مقصِدَكم دائمًا، وستكون نِسَبُ السُّلَّمِ الجوهريةُ للغِناء والعزف كما ينبغي حاضرةً في ذهنه دائمًا، وسيكون إنجازُه أكثرَ وضوحًا وتقدُّمُه أكثرَ سرعة. ولا يوجدُ ما هو أغربُ مما يَدْعُوه الفرنسيون بالتنغيمِ الطبيعي، وذلك لقيامه على إقصاء ما ينطوي عليه الشيء من أفكار، واستبدالنا بها أفكارًا غريبةً لا تؤدي إلى غيرِ الإغواء، ولا شيءَ أقربُ إلى الطبيعةِ من التنغيمِ عن تغييرٍ في اللحنِ عند تغييرِ السُّلَّم. ولقد تكلمت عن الموسيقا بما يزيدُ على الكفاية، فعلِّموها كما تشاءون، ولكنْ على ألَّا تَعْدُوَ حدَّ الأُلهُوَّة على الإطلاق.

وها نحن أولاء قد اطَّلعنا جيِّدًا على حالِ الأجسامِ الغريبةِ عن جسمنا وعلى وزنها وشكلِها ولونِها ومتانتِها وجَسامتِها ومسافتِها وحرارتِها وسكونِها وحركتِها، وقد عرفنا أيُّ الأجسامِ يلائمنا أن ندنوَ منه أو نبتعدَ عنه، وذلك على الوجهِ الذي يجب علينا أن نتخذَ به من الوضعِ لكسرِ مقاومته، أو لإبدائنا نحوَه من المقاومةِ ما نَقِي به أنفسَنا من أذاه. ولكن هذا ليس كافيًا؛ فبدَنُنا يَضْنى بلا انقطاع، فيحتاج إلى تجديدٍ دائمًا، وعلى ما لدينا من قدرةٍ على تغييرِنا موادَّ أخرى في عنصرنا الخاص؛ فإن خيارَنا ليس من الأمورِ التي لا يُؤبه لها. وليس كلُّ شيءٍ غذاءً عند الإنسان، ولا يوجد بين ما يُمكِن أن يكون غِذاءً من الموادِّ ما يلائمه على السواء، وذلك على حَسَبِ تركيبِ عِرْقه، وعلى حَسَبِ الإقليمِ الذي يعيش فيه، وعلى حَسَبِ مِزاجِه الخاص، وعلى حَسَبِ طِرازِ حياتِه الذي يقتضيه حالُه.

ولو وجبَ لاختيار الأغذيةِ التي تلائمنا أن ننتظرَ تعليمَ التجربةِ إيانا أن نَعرِفها وأن نَنْتخبها؛ لَهلكنا جائعين أو مسمومين، غير أن اللطيفَ الأعلى الذي جَعَلَ من لذَّةِ الموجوداتِ الحسَّاسةِ وسيلةَ بقائها قد أنبأنا بما يَروقُ حاسَّةَ ذوقِنا ما يلائم مَعِدَتنا، ومن الطبيعي ألَّا يوجدَ للإنسانِ طبيبٌ أضمنُ من شهوةِ الطعامِ الخاصةِ فيه، ولا أشكُّ في أن الإنسانَ في حالتِه الابتدائيةِ كان يَجِدُ في ألذِّ الأطعمةِ أكثرَها نفعًا للصحة.

ويوجد ما هو أكثرُ من ذاك، وذلك أن صانعَ البَرَايا لم يَقْضِ ما جَعل فينا من احتياجاتٍ فقط، بل قَضى ما جَعلناه لأنفسنا أيضًا، وهو — لكي نضعَ الرغبةَ بجانبِ الحاجةِ — قد جعل طُعومنا تتغيَّر وتَفْسُدُ مع طُرُزِ حياتنا، وكلَّما ابتعدنا عن حالِ الطبيعةِ فَقَدْنا طُعومَنا الطبيعية، وإن شئت فقُل إن العادةَ تجعل لنا طبيعةً ثانيةً نَبلُغ من إقامتِها مقامَ الأُولى ما لا تَجِدُ معه أحدًا مِنَّا يَعرِفُ غيرَها.

ومِنْ ثَمَّ يُرَى أن أقربَ الطُّعومِ إلى الطبيعةِ هي التي يجب أن تكونَ أكثرَها بساطة؛ وذلك لأنها أسهلُ ما يَتحوَّل، وذلك بدلًا من أن تتخذ شكلًا لا يتغيَّر أبدًا بما يكون من شحْذِها وإثارتِها بأهوائنا. والإنسانُ الذي لم يتكيَّف ببلدٍ بعدُ ينتحِلُ عاداتِ أي بلدٍ كان بلا مشقة، ولكن الإنسان الذي هو من بلدٍ لا يعود ابنًا لبلدٍ آخر.

ويَلوح لي هذا صحيحًا بالنسبةِ إلى جميعِ الحواس، وأكثرُ من هذا أيضًا عند تطبيقه على حاسَّة الذَّوق حصْرًا. واللَّبنُ هو غذاؤنا الأوَّل، ولا نتعود الطُّعومَ القويةَ إلا بالتدريج، وتَكرهها نفوسُنا في البُداءة، وكانت ولائمُ الأوَّلين[٣٥] تقوم على الفواكهِ والخُضَرِ والأعشاب، وأخيرًا على بعضِ اللحوم المشوية بلا تابلٍ ولا مِلْحٍ. وقطَّب الهمجيُّ عندما شَرِب الخمرَ لأوَّل مرة ورَماها، حتى إنه إذا وُجِدَ بيننا مَن عاش حتى العشرين من عُمُره من غيرِ أن يذوقَ السوائلَ المختمرةَ عاد لا يستطيع تعوُّدَها، ونكون كلُّنا من الزاهدين في الخمرِ إذا لم تُقدَّم إلينا في صِبانا. ثُمَّ إن طعومَنا كلَّما كانت بسيطةً بدت عامة، وتقَع أعمُّ كراهياتِنا على الأطعمةِ المركَّبة، وهل شاهدتم أحدًا يكره الماءَ والخبز؟ هذا هو أثرُ الطبيعة، وهذا هو نظامُنا إذن، ولْنحفظْ للولدِ ذوقَه الفطري ما أمكن، ولْيكن غذاؤه عاديًّا بسيطًا، ولا تَعتَدْ حاسَّةُ ذوقِه غيرَ الطُّعوم المعلَّلة قليلًا، ولا نَدعه يكون ذا ذوقٍ نمطيٍّ حصْرًا.

ولا أبحثُ هنا في هلْ هذا الطرازُ من العيشِ أصلحُ للصحة أو لا، فلا أنظرُ إلى الأمرِ من هذه الناحية، وإنما يكفيني أن أعرِف لتفضيلِه أنه أكثرُ ما يلائم الطبيعةَ وأنه أسهلُ ما يتكيَّف مع جميعِ الطُّرُزِ الأخرى. ويَظهر لي أن من غيرِ الصواب ذَهابَ بعضِهم إلى وجوبِ تعويدِ الأولادِ أطعمةً يتناولونها إذا ما كَبِروا، ولِمَ يكونُ غذاؤهم هو إياه على حينِ يختلف طرازُ عيشِهم كثيرًا؟ يحتاجُ الرجلُ الذي نَهَكه العملُ والهمومُ والمشاقُّ إلى أطعمةٍ

[٣٥] انظر إلى أركادية بوزانياس، وانظر أيضًا إلى قطعة بلوتارك المنقولة فيما بعد.

عُصارية تحمِل نشاطًا جديدًا إلى دماغه، ويحتاج الولد الذي يلهو وينمو جسمه إلى طعامٍ وافرٍ يورثه كثيرًا من الكَيلُوس. ثُمَّ إن الرجلَ النامي يكون قد قرَّر مهنته وشُغله ومنزله، ومَن ذا الذي يستطيع أن يطمئنَ إلى ما يخبِّئه القدَرُ للولد؟ ومهما يكن من أمرٍ فلا نُعطِه من الطِّباعِ المعينةِ ما يكلِّفه كثيرًا إذا ما أراد تغييره عند الضرورة، ولا نعمل ما يموت معه جوعًا في البلدان الأخرى إذا لم يَجُرَّ وراءه طاهيًا فرنسيًّا في كلِّ مكان، أو أن يقول ذاتَ يومٍ إن الإنسان لا يستطيع أن يأكل في غيرِ فرنسة، وهذا مدْحٌ مبهجٌ جاء عَرَضًا، وأمَّا أنا فأقول على العكس إنه لا يوجد غيرُ الفرنسيين مَن لا يَعْرِفون الأكل ما وَجَبَ وجودُ فنٍّ خاصٍّ تُجْعلُ الأطعمةُ به صالحةً للأكلِ عندهم.

والذائقةُ بين مختلفِ حواسِّنَا هي أكثرُ ما يؤثِّر فينا على العموم، وذلك أن مما نكترث له أكثرَ من سواه هو أن نحكمَ جيِّدًا في الموادِّ التي يجب أن تكون جزءًا من جوهرنا أكثرَ من أن تكونَه الموادُّ التي لا تعدو حدَّ اكتنافنا. ويوجد ألْفُ شيء لا تَكترث له اللامسةُ والسامعةُ والباصرة، ولكنك لا تجدُ شيئًا لا تأبهُ له الذائقة.

ثُمَّ إن فعْلَ هذه الحاسة بدنيٌّ ماديٌّ تمامًا، وهي الوحيدة التي لا تخاطب الخيالَ بشيء، أو التي هي أقلُّ ما يَدخُل الخيالُ في إحساساته، وذلك على حين يَدمغ التقليدُ والخيالُ أثرَ الحواسِّ الأخرى بطابعٍ أدبيٍّ غالبًا، وكذلك تؤثِّر حاسة الذوق تأثيرًا فاترًا في الأفئدة الرقيقة الشهَّاءة والطبائعِ الهاوية الحساسة حقًّا، مع أن الحواس الأخرى تحرِّكها بسهولة على العموم. ومع أنه يَلوح وضْعُ الذائقة دون الحواس الأخرى، ويُجعل الميلُ الذي يُسلِمنا إليها أدعى إلى الازدراء، فإنني على العكس أَصِلُ إلى النتيجة القائلة إن أصلح وسيلة للسيطرة على الأولاد هي أن يُجلَبوا بأفواههم، ويُفضَّلُ عامل الشَّرَه على عامل الزهو خاصَّة، وذلك من حيث كونُ الأوَّل شهوةَ الطعام الطبيعية التابعة للذائقة رأسًا، ومن حيث كون الثاني من عمل الرأي التابع لهوى النَّاس ولضروب سوء الاستعمال. والشَّره هو هَوَى الصِّبا، ولا يقِف أمامَ هَوًى آخَر، ويتوارى عند أقلِّ منافسة. وَيْ! صدِّقوا قولي، إنَّ الولدَ لا يُعتِّم أن ينقطعَ عن التفكيرِ فيما يأكل، ومتى شُغل قلبُه كثيرًا عادت ذائقتُه لا تشغله مطلقًا، ومتى كبُر وَجَدَ ألفَ إحساسٍ صائلٍ يَحُلُّ محلَّ شَرَهِه، فلا يؤدي إلى غيرِ إثارة زهوه؛ وذلك لأن هذا الهوى الأخيرَ وحدَه يتزوَّد من الأُخَرِ حتى يبتلعَها جميعًا. ومما بحثتُ فيه أحيانًا أمرُ هؤلاء الذين يُعْنَون بالأطعمة النفيسة، فلا يَحلُمون عندما يستيقظون بغيرِ ما يأكلون في نهارهم، ومنهم مَن وصفَ وليمةً بأدقَّ ممَّا صَنَعَ بُولِيبُ عن إحدى المعارك،

وقد وجدتُ أن جميعَ هؤلاء الرجالِ المزعومين لم يكونوا غيرَ أولادٍ في الأربعين من عُمُرهم، خالين من النشاطِ عاطلين من الثبات؛ «فلسنا سوى رجالٍ مساكين.» والشَّرَه هو عيب القلوب الضعيفة، وتكون رُوح الشَّرِه في ذائقته، وهو لم يُخلَق إلا ليأكل، وهو من الغباوة والعجز ما تكون المائدة معه مكانَه الوحيد، وما تكون الأطباق معه محلَّ تفكيره الوحيد، ولْنَدَعْ له هذا العمل غيرَ آسِفين؛ فهذا خيرٌ له ولنا.

ومن ضيقِ الذهن أن يُخشى تأصُّل الشَّرَه في ولدٍ قادرٍ على القيام بشيءٍ ما؛ ففي الوَلُودِية لا يُفكَّرُ في غير ما يُؤكل، وفي دَوْر الشباب يعود الولد غيرَ مُفكِّر في ذلك، وكلُّ طعامٍ صالحٌ عندنا، ولدينا أمورٌ كثيرةٌ أُخرى نُعنى بها، ولا أريد مع ذلك استعمالَ دافعٍ وضيعٍ على غير رصانة، ولا أن تدعموا بقطعةٍ لذيذةٍ شرفَ صُنْعِ عملٍ جميل. ولكن إذا كانت الوَلُودِية لَعِبًا ولهوًا فقط، أو وجب أن تكون هكذا، فإنني لا أرى السبب في عدم وجود جوائزَ ماديةٍ ومحسوسةٍ للتمرينات البدنية الصِّرفة. وإذا ما أَبصَرَ مايُورِقِيٌّ صغيرٌ سَلَّةً على رأس شجرة فأسقطها بضربةِ مِقلاعٍ؛ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من ذلك فيتناول فُطورًا فاخرًا تعويضًا له من القوة التي يكون قد استعملها نَيلًا لها؟[٣٦] وإذا ما استطاع شابٌّ إسبارطيٌّ أن يتسرَّب في مطبخٍ بمهارةٍ متمثِّلًا خَطَرَ مائةِ جلدةٍ فسرق منه جروَ ثعلبٍ حيًّا، ومضى به في ثوبه محتملًا خَدْشه وعضَّه وإدماءه، تاركًا إياه يمزِّق أحشاءه خشيةَ حيائه من مفاجأة، وذلك من غير أن يَزوي ما بين حاجبيه أو أن يرفع صوتًا؛ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من فريسته أخيرًا فيأكلها بعد أن أُكِل؟ لا ينبغي أن تكون الوجبة الفاخرة مكافأة، ولكن لِمَ لا تكون نتيجة جهودٍ بُذِلَت فوزًا بها؟ لا يَعُدُّ إميلُ قطعةَ الحلوى التي وضعتُها على الحجر جائزة عَدْوه جيِّدًا، وإنما يَعْرِف أن الوسيلة الوحيدة لحيازة هذه القطعة هو أن يَصِلَ إليها قبل غيره.

ولا يُناقِض هذا المبادئَ التي قدَّمتُها منذ هنيهة حوْل بساطة الأطعمة؛ وذلك لأن مداراةَ شهوةِ الطعام في الأولاد لا تَعني تهييج حساسيتهم، بل تعني قضاءها فقط، وهذا ما يُنال بأكثر الأشياء شيوعًا بين النَّاس إذا لم يُعمَل في ترقيق ذوقهم، وتُعَدُّ شهوةُ طعامهم الدائمة التي تُهيِّجها ضرورةُ النمو تتبيلًا ثابتًا يقوم فيهم مقامَ غيره من تتبيلٍ كثير، وما يكون

[٣٦] ترك المايورقيون هذه العادةَ منذ قرون كثيرة، وقد كانت سبب شهرة راشق المقلاع بينهم في حينها.

من فواكهَ وألبانٍ وقِطَعٍ من الحلوى أدقَّ من الخبز الاعتيادي قليلًا، ولا سيَّما فنُّ توزيع جميع هذا باعتدال، أمورٌ تُساقُ بها جيوشٌ من الأولاد إلى أقصى العالَم من غير أن يُمنَحُوا ذوقًا للأطعمة القوية، ومن غير أن يُجازَف بإضعاف ذائقتهم.

ومن الأدلة على كون ذَوْق اللحم غيرَ طبيعيٍّ للإنسان عدمُ اكتراث الأولاد لهذا الطعام، وإجماعُهم على تفضيل الأغذية النباتية كالألبان والحَلاوَى والفواكه ... إلخ. وكلُّ الأهمية في عدم إفساد هذا الذوقِ الفطري، وفي عدم جعْل الأولاد من الضواري مطلقًا. وإذا لم يكن هذا من أجْل صحتهم فليكن من أجل طباعهم؛ وذلك لأنه مهما يكن من وجهٍ لتفسير الاختبار فإن من الثابتِ كونَ كِبارِ أَكَلَةِ اللحوم أقسى من غيرهم وأجْفى على العموم. وهذه المشاهدةُ صادقةٌ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ فبربرية الإنكليز أمرٌ معروف،[٣٧] وعلى العكس يُعدُّ الغُور أكثرَ النَّاس حِلمًا،[٣٨] وجميع الهَمج قساة، ولا تَحْملهم طبائعُهم على أن يكونوا هكذا مطلقًا، وتأتيهم قسوتُهم من أطعمتهم، وهم يذهبون إلى الحرب كما يذهبون إلى الصيد، ويعاملون النَّاس كالدِّببة، حتى إن الجزَّارين لا تُقبَلُ شهادتهم في إنكلترة، وكذلك الجرَّاحون.[٣٩] وتقسو قلوبُ أعظم الأشرار بشُرب الدم اقترافًا للقتل. ويَجْعل أُوميرسُ من السِّكْلُوب، الذين هم أَكلةُ لحم، أناسًا فُظَعاء، ويَجْعل من اللُّوتُوفاج[٤٠]* قومًا لطفاء بلغوا من الأُنس ما يَنسى الإنسان، إذا ما عاملهم، بلدَه معه ليعيش بينهم.

قال بلوتارك: «تسألني عن سبب امتناع فيثاغورس عن أكل لحم الحيوان، ولكنني أعود فأسألك من ناحيتي عن مقدار الشجاعة التي وَجَبَ وجودُها عند أوَّلِ إنسانٍ قَرَّب من فمِهِ لحمَ حيوانٍ مذبوحٍ وكَسَرَ عظْمَ حيوانٍ يقضي أجَلَه، وأَحْضَرَ أمامَه أجسامَ أموات؛ أي جُثَثًا، والْتَهمَ في مَعِدَته أعضاءً كانت قُبَيْلَ ذلك تَثْغو وتَخور وتسير وتنظر، وكيف

---

[٣٧] أعْرِف أن الإنكليز يُباهون كثيرًا بإنسانيتهم وحسن مِزاج قومهم الذين يدعونهم «الأمة ذات الطبيعة الطيبة»، ومن العبث أن يعلنوا هذا جهدهم؛ فلا أحد غيرهم يكرِّر زعمهم.

[٣٨] يُعَد البانيانُ الذين يمتنعون عن تناول كل نوع من اللحم بأشد مما عليه الغور حلماء مثل هؤلاء تقريبًا، ولكن بما أن أخلاقهم أقل صفاء وديانتهم أقل صوابًا، فإنهم ليسوا مثلهم صلاحًا.

[٣٩] أشار أحد مترجمي هذا الكتاب من الإنكليز إلى غلطي هنا، وكلاهما صحجه؛ فشهادة الجزارين والجراحين مقبولة، غير أن الجزارين لا يُقبَلون كمحلفين أو أعضاء في القضايا الجنائية مع أنه يُسمَح للجراحين أن يكونوا هكذا.

[٤٠] * هم أَكَلَة النبق.

استطاعتْ يدُه أن تطعن بسكينٍ قلبَ موجودٍ حسَّاس؟ وكيف استطاعت عيناه أن تحتمِلَ منظرَ القتل؟ وكيف استطاع أن يشاهدَ ذبْحَ حيوانٍ مسكينٍ أعْزلَ وسَلْخَه وتقطيعَه؟ وكيف استطاع أن يُطيقَ مَرْأى لحومٍ مختلجة؟ وكيف لم يَقِئ من رائحتها؟ وكيف لم يتقزَّز ولم يشمئز ولم يأنف عندما أخذ يُقلِّب أدرانَ هذه الجروحِ ويُزيلُ الدمَ الأسودَ الخاثرَ الذي كان يُغطِّيها؟

كانت الجلود المسلوخة ممدودةً على الأرض، وكانت اللحوم تَعِجُّ على السَّفُّود،[٤١*] ولم يستطع الرجل أن يأكلها من غير أن يرتعش، ويسمع أنينها في بطنه.

ذلك ما وجب أن يكون قد تخيَّله وأحسَّه في المرة الأُولى التي قَهَرَ فيها الطبيعة إعدادًا لهذه الوجبة الفظيعة، في المرة الأُولى التي كان له فيها جوعُ حيوانٍ حي، فأراد أن يغتذي بحيوان لا يزال يرعى، فقال كيف يجب أن تُذبَح الشاة التي كانت تلحسُ يديه، فمِن أولئك الذين بدءوا هذه الولائم الجافية ما يجب أن يُدهَش، لا مِن الذين يتركونها، ثُمَّ إنه كان يُمكِن أولئك الأوائلَ أن يُسوِّغوا وحشيتهم بمعاذيرَ تُعْوِزُ وحشيتَنا، فيجعلنا عدمُ وجودِها برابرةً أكثرَ منهم مائة مرة.

أيْ أحِبَّاءَ الآلهةِ من النَّاس! سيقول لنا أولئك الأوائلُ من الآدميين: قابِلوا بين الأزمنة، وانظروا مقدارَ ما أنتم عليه من سعادةٍ ومقدارَ ما كُنَّا عليه من بؤس! لقد كانت الأرض التي تكونت حديثًا والهواء المشحون بالأبخرة غيرَ طائعَين لنظام الفصول بَعد، وكان مجرى الأنهار المتقلب يُخرِّب ضِفافها من كل ناحية، فتَغْمُر الغُدرانُ والبحيراتُ والمناقعُ العميقةُ ثلاثةَ أرباع وجه الدنيا، وكان الربعُ الآخرُ مستورًا بالأدغال والغابات غيرِ المثمرة، وكانت الأرض لا تُنتِج أيةَ ثمرات صالحة، ولم تكن لدينا أيةُ آلة للحِراثة، وكُنَّا نجهل فنَّ الانتفاع بها، وما كان وقتُ الحصاد لِيأتيَ مَن لم يَبذُروا شيئًا قَط. وهكذا كان الجوع لا يتركنا مطلقًا، وكان الطُّحْلب والقِشر طعامَنا العاديَّ في الشتاء، وكان بعضُ جذورِ العِكْرِش والخَلَنْج طعامَ مآدبَ عندنا، وكان النَّاس إذا ما استطاعوا أن يجدوا زُؤانًا وجَوْزًا أو بَلُّوطًا يرقصون طربًا حول سِنديانةٍ أو زانَةٍ على صوتِ بعض الأغاني الغليظة، داعينَ الأرضَ مُرضِعَهم وأمَّهم، وهنالك كان مِهْرجانُهم الوحيد، وتلك كانت ألعابُهم الوحيدة، وأمَّا بقيةُ الحياة البشرية فلم تكن غيرَ ألمٍ وتَعَبٍ وشقاء.

٤١ * السَّفُّود: حديدة يُشوى عليها اللحم.

وأخيرًا، عند عدم تقديم الأرض الجرداء العارية شيئًا إلينا، كُنَّا نضطرُّ إلى مخالفة الطبيعة في سبيل بقائنا؛ فنأكل رفقاءَ شقائنا خشيةَ الهلاك معهم، ولكنْ من ذا الذي يُكرِهُكُم على سفك الدماء أيها الرجال القُساة؟ انظروا إلى الأموال التي تَدْفُق حوْلكم، وإلى مقدار ما تنتج الأرض من ثمرات، وإلى ما تُعطيكم الحقول والكروم إياه من ثروات، وإلى الحيوانات التي تُقدِّم إليكم ألبانًا لتغذيتكم وجِزَزًا لإلباسكم! وما تطلبون منها زيادةً على ذلك؟ وأيُّ سَورةِ غضبٍ تَحْمِلُكم على اقترافِ كثيرٍ من التقتيل مع أنكم مُشبَعون بالأموال طافحون بالأرزاق؟ ولِمَ تِكْذِبون على أُمِّكم الأرضِ متهمين إياها بالعجز عن إطعامكم؟ ولِم تُذنبون تجاه سِيرِسَ الواضعةِ للقوانين المقدَّسة وتجاه باخوسَ الظريف المُفرِّج عن النَّاس، وذلك كما لو كانت هِباتهما الوافرة غيرَ كافية لبقاء الجنس البشري؟ وكيف يَسمَحُ لكم قلبُكم بأن تَخْلِطوا ثمارَها الحلوة بعظامٍ على موائدكم، وأن تشربوا مع اللبن دمَ الحيوان الذي يعطيكم إياه؟ أجل، إن النمور والأسود التي تُطلِقون عليها اسم الضواري تَتْبع غريزتَها كَرْهًا، فتَقتُل الحيوانات الأخرى لتعيش، ولكنكم وأنتم أوحشُ منها مائةَ مرةٍ تكافحون الغريزةَ بلا ضرورةٍ انهماكًا في ملاذِّكم الجافية. وليست الحيوانات التي تأكلون من النوع الذي يأكل الأخرى، وأنتم لا تأكلون الضواري، بل تقلِّدونها، وأنتم لا تَبْدون جياعًا إلا تجاه الحيوانات البريئة الوديعة التي لا تؤذي أحدًا والتي ترتبط فيكم وتنفعكم، فتفترسونها مكافأةً لها على خِدَمها.

أيها القاتلُ خلافًا للطبيعة! إذا ما أصررتَ على زعْمِك أن الطبيعةَ صَنَعَتْك لِتفترس أمثالَك من الموجوداتِ ذاتِ اللحمِ والعظم، والحسَّاسةِ الحيةِ مثلَك، فاقضِ إذن على ما توحي به إليك من مقتٍ لتلك الأطعمة الكريهة، واقتل الحيوانات بنفسك؛ أي بيديك كما أقول؛ أي بلا آلاتٍ حديديةٍ ولا سواطير، ومزِّقها بأظفارك كما تَصنع الأسودُ والدببة، وعَضَّ هذه البقرةَ وقطِّعها إربًا إربًا، وأنْشِب أظفارك في جِلْدها، وكُلْ هذا الحَمَل حيًّا والتهم لحمَه دفيئًا، واشربْ رُوحَه مع دمه. أنت ترتعش! أنت لا تجرؤ أن تُحِسَّ لحمًا حيًّا يرتجف بين أسنانك! أيها الإنسان السيئ! أنت تبدأ بقتل الحيوان ثُمَّ تأكله، كأنك تجعله يموت مرتَين، ولا يكفي هذا، إنك لا تزال تشمئزُّ من اللحم الميت، ولا تُطيقه أمعاؤك، فيجب أن يُحوَّل بالنار؛ أي أن يُسْلَق ويُشوَى ويُعلَّل بالتوابل التي يُنكَّرُ بها، ولا بدَّ لك من جزارِين وطُهاة وشوَّائين ومَن إليهم ممن يَنزعون منك مقتَ القتل ويعوِّدونك أجسامًا ميتةً حتى تُخدَعَ حاسةُ الذوق بهذا التنكير فلا تَلْفِظ ما هو غريبٌ عنها مطلقًا، متذوِّقةً مع اللذة جُثثًا يَشُقُّ على العين حتى منظرُها.»

ومع أن هذه القطعةَ غريبةٌ عن موضوعي، فإنني لم أستطع مقاومة ما ساورني من إغراءٍ بنقلها، وأظنُّ أن القليل من القرَّاء مَن يُنكِرُ عليَّ هذا.

ثُمَّ مهما يكُن من نظامٍ تمنحون الأولادَ إياه، ولكن مع تعويدهم الأطعمةَ الشائعة البسيطة فقط، فدَعُوهم يأكلونها، ودَعُوهم يَعْدُون ويَلْعَبون كما يروقهم، ثُمَّ ثِقوا بأنهم لن يأكلوا كثيرًا، ولن تكون عندهم تُخَمٌ قَط، ولكن إذا ما أجعتموهم نصف الوقت فوجدوا وسيلةً يُفلِتون بها من رقابتكم عَوَّضوا أنفسَهم من ذلك بما لديهم من قوة، فيأكلون حتى الطِّفاح، حتى الانفِزَار، ولا تُجاوِزُ شهوةُ الطعامِ حَدَّها فينا إلا لأننا نريدُ منْحَها قواعدَ غيرَ قواعدِ الطبيعة، وذلك مع دوامنا على الترتيب والتعيين والزيادة والنقصان، فلا نَصْنع شيئًا إلا والميزانُ في يدنا، ولكن هذا الميزان تابعٌ لأهوائنا لا لِمَعِدَتنا، وأعود إلى أمثلتي دائمًا، وترى خزائنَ الفواكه والخبز مفتوحةً عند القرويين، ولا يَعْرِف رجالُهم ولا أولادُهم ما التُّخَم.

وإذا حدث أن كان الولدُ أكولًا على الخصوص، وهذا ما يتعذَّر وقوعُه عند اتِّباع منهاجي على ما أعتقد، فإنه يَسهُلُ شَغلُه بأُلهُوَّات ملائمةٍ لذوقه، فيُنتهى إلى نَهْكِه بخَواءٍ من غير أن يَشعُر. وكيف يفُوت جميعَ المُعلِّمين مثلُ هذه الوسائل الثابتة السهلة جِدًّا؟ ورَوى هِيرودُتس أن مجاعةً كبيرةً ضربت أطنابها بين اللوديين، فعَنَّ لهم أن يخترعوا من الألعاب وغيرها من التسليات ما عَوَّضوا أنفسهم به من الجوع، فقضَوا أيَّامًا بكاملها من غير أن يُفكِّروا في الأكل.[٤٢] ومن المحتمل أن قرأ مُعلِّموكم الفضلاء هذا الفصلَ من غير أن يَروا ما يُمكِن تطبيقه منه على الأولاد، وقد يقول لي بعضهم إن الولد لا يَترُك غداءه طوعًا في سبيل درسه. فيا أيها المُعلِّمون، إنكم على صواب، فلمْ أفكِّر في هذه الأُلْهوَّة.

ونسبة الشَّامَّة إلى الذائقة كنسبة الباصرة إلى اللامسة، فهي تسبقها، وهي تُخبِرُها بالوجه الذي يجب أن تتأثَّر به من هذه المادة أو تلك، وهي تُرغِّبُها فيها أو تُبعِدها منها، وذلك وَفْقَ الانطباع الذي يُتلقَّى عنها مقدَّمًا. ومما قيلَ لي إن للهمج شامَّةً تتأثر على غير ما تتأثَّر به شامَّتُنا، فيحكُمون على خلاف ما نحكم في الروائح الطيبة والروائح الكريهة.

[٤٢] تجد قدماء المؤرخين حافلين بآراءٍ يمكن الانتفاع بها، ولو كان ما يعرضونه من الوقائع غير صحيح، ولكننا لا نعرف اقتباس أي فائدة حقيقية من التاريخ؛ فالنقد الدقيق يستغرق كل شيء، كأن من المهم جِدًّا أن تكون الوقائع صحيحة حتى يكون من الممكن استخراج درس نافع منها، فعلى العقلاء أن يَعُدوا التاريخ نسيجًا من الأقاصيص التي نرى الناحية الخلقية منها كثيرة الملاءمة للقلب الإنساني.

وأعتقد صحَّة هذا؛ وذلك أن الروائح في نفسِها أحاسيسُ ضعيفة، وهي تَهُزُّ الخيالَ أكثر من أن تَهُزَّ الحاسَّة، وهي لا تؤثِّر بما تمنح بمقدار تأثيرها بما تجعله يُنْتَظر. وإذا ما سُلِّمَ بهذا وُجِدَ أن أذواقَ فريقٍ إذْ تختلف بطراز عيشه عن أذواق الفريق الآخر، فإنه وَجَبَ أن تَجْعَل له أحكامًا في الأطعمة تختلف عن أحكام هذا اختلافًا كبيرًا، ومن ثَمَّ في الروائح التي تُنبئُ بها، ومن ذلك أن التَّتَريَّ يتلذَّذُ بشمِّ مُعسكرٍ نتنٍ بحصانٍ ميتٍ تلذُّذَ الصائدِ عندنا بحَجَلَةٍ نصفِ عَفِنَةٍ.

وكأن إحساساتِنا البطَّالة مُطيَّبَةٌ بأزهارِ حديقة، فيجب ألَّا يَشعُرَ بها مَن يَمشون كثيرًا حتى يرغبوا في النزهة، ومَن لا يعملون بما فيه الكفاية حتى تكونَ لديهم شهوةُ السكون، وما كان الجياعُ دائمًا ليجدوا لذَّةً بُعطُورٍ لا تَنِمُّ على ما يُؤكَل مُطلَقًا.

والشَّامَّة هي حاسةُ الخيال، وهي إذ تمنح الأعصابَ قوةً بالغةَ الشدةِ تؤثِّر في الدماغ كثيرًا لا ريب؛ ولذا فإنها تُوقِظُ المِزاجَ لوقتٍ وتُنْهِكه لزمنٍ طويل. وللشامَّة في الحُبِّ نتائجُ لا تُنكَر، وليس العِطر الناعم في غرفة الزينة شَرَكًا ضعيفًا بمقدار ما يُظَن، ولا أعْرِف هل يجب أن يُبارَك أو يُرثَى للرجل العاقل والقليل الانفعال الذي لا تجعله رائحةُ الزهور على صدرِ خليلته يختلج مطلقًا.

ولا ينبغي لحاسة الشم أن تكون إذن بالغةَ الفعل في الدَّوْر الأوَّل من العُمُر؛ حيث لا تُحرِّك الخيالَ غيرُ أهواءٍ قليلةٍ بَعْد، فلا يَتقبَّل تهييجًا. وحيث لا يكون هنالك من التجرِبة الكافية ما يُبصَرُ معه بحاسَّةٍ مقدَّمًا أمرٌ تَعِدُنا به حاسَّةٌ أخرى. وقد أيَّدَت المشاهدةُ هذه النتيجةَ تأييدًا تامًّا. ومن المُحقَّق أن حاسة الشم كليلةٌ بليدةٌ تقريبًا عند معظم الأولاد، لا عن كون الإحساس غيرَ دقيقٍ في الأولاد كما في الرجال، أو أكثر مما عندهم على ما يُحتمَل، بل عن كونهم لا يضيفون إليه أيَّ فكرٍ آخر، فلا يَسهُل تأثُّرهم بحسِّ لذَّةٍ أو ألم، فيكونون أقلَّ منه افتتانًا أو تأذيًا بذلك، وإني مع عدم خروجٍ عن ذاتِ الطريقة، ومن غير رجوعٍ إلى علم التشريح المقارَن بين الجنسين، أعتقد سهولةَ معرفةِ السبب في كون النساء أشدَّ تأثُّرًا بالروائح من الرجال على العموم.

ويُقال إن متوحشي كَنَدَة يُمعِنون في جعْل شامَّتهم دقيقةً إلى الغاية منذ دَوْر الصِّبَا، فيستغنون معه عن استخدام الكلاب في الصيد مع وجود كلابٍ عندهم، قائمين مقامَ الكلاب في ذلك بأنفسهم. ويُخيَّلُ إليَّ، كما هو الواقع، أن الأولاد إذا ما نُشِّئوا على شمِّ غدائهم كما يَشَمُّ الكلبُ الطريدةَ أمكنَ إحكامُ شامَّتهم بما يبلُغُون معه هذه الدرجة، ولكنني لا أرى

في الأساسِ إمكانَ الحصولِ على عادةٍ كثيرةِ الفائدةِ من هذه الحاسة ما لم يَكُن ذلك لإطلاعهم على صِلاتها بحاسة الذوق. وقد عُنِيَت الطبيعةُ بحَملِنا على معرفة هذه الصلات، فجعلت عملَ هذه الحاسة الأخيرة غيرَ منفصلٍ عن عمل الأخرى، وذلك بجعلها عضويهما متجاورَين، ووضعها في الفم اتِّصالًا مباشرًا بين الاثنتَين، فلا نذوق شيئًا من غير أن نَشَمَّه. وإنما أريد عدمَ إفساد هذه الصلات الطبيعية خَدْعًا للولد، كأن يُخفَى طعمُ العلاج بطِيبٍ طيِّب، وبيان الأمر هو أن الحاسَّتَين من الاختلاف ما لا يُساء معه استعمالُهما، وبما أن الحاسة الأشد فعلًا تبتلع عمل الأخرى، فإن العلاج لا يُتناوَل بأقلَّ من ذاك تَقزُّزًا، ويمتدُّ هذا التقزُّزُ إلى جميع الإحساسات التي تَقْرعه في الوقت نفسه، ويستدعي الخيالُ عند أضعفِ إحساسٍ إحساسًا آخَر، ويعود أعذبُ عِطرٍ رائحةً كريهةً عنده، وهكذا فإن احتياطاتنا الطائشة تزيد مقدار الإحساسات المستكْرَهة على حساب الإحساسات المستعْذَبة.

وبَقيَ عليَّ أن أتكلم في الأبواب الآتية عن تَعهُّد حاسَّةٍ سادسةٍ تُدْعى الحاسةَ العامة؛ لأنها تنشأ عن استعمال الحواسِّ الأخرى استعمالًا منتظمًا أكثرَ من كونها مشتركةً بين جميع النَّاس، فتدلُّنا على طبيعة الأشياء بتزاحم ظوهر تلك الحواس، ومِنْ ثَمَّ لا يوجد لهذه الحاسة السادسة عضوٌ خاصٌّ مطلقًا، ولا تقيم هذه الحاسة بغير الدماغ، وَتُسَمَّى أحاسيسُها الباطنيةُ مَحضًا إدراكاتٍ أو أفكارًا، ويُقاسُ مدى معارفنا بعدد هذه الأفكار، ويصدُرُ سداد الرأي عن صفائها وجلائها، وما يُدعى العقلُ البشريُّ قائمٌ على فنِّ المقابلة بينها. وهكذا فإن ما أُسمِّيه العقلَ الحسَّاس أو الصَّبَوي يقوم على تكوينِ أفكارٍ بسيطة عن تزاحم كثيرٍ من الإحساسات، وهكذا فإن ما أسميه العقلَ الذهني أو البشري يقوم على تكوين أفكارٍ مركَّبة عن تزاحم كثيرٍ من الأفكار البسيطة.

وإني حين أفترض أن مِنْهاجي هو منهاج الطبيعة، وأني لم أُخطئ في تطبيقه، فإننا نكون قد أتينا بتلميذنا من خلال بلد الإحساسات، حتى حدود العقل الصبوي، وتكون الخُطوة الأُولى التي نجاوز بها هذه الحدودَ خُطوةَ رجل، ولكنْ دعنا نُلقِ نظرةً على الميدان الذي طُفْنا فيه قبل الدخول في هذا الميدان الجديد، ولكلِّ عُمُر، وإن شئت فقُل لكل دَورٍ في الحياة، كمالُه الملائم، نَضْجُه الخاص به، ونَسمع حديثًا عن الرجل النامي في الغالب، ولكن لننظر إلى الولد النامي، فسيكون هذا المنظرُ أكثرَ جِدَّةً علينا، ولا يكون أقلَّ قبولًا على ما يحتمل.

وتُعَدُّ حياةُ المخلوقات المتناهية من الهُزَال والضيق ما لا تَهزُّنا معه مطلقًا عندما لا نرى غيرَ ما هو كائن، والأوهام هي التي تُزيِّن الأشياءَ الحقيقية. وإذا كان الخيال لا يُضيف

فُتُونًا إلى ما يَقف نظرنا، فإن اللذة الجديبة التي تتَّفق لنا تقتصر على العضو، وتَدَع الفؤادَ فاترًا. أجل، إن الأرض التي تَزَّيَّنُ بكنوز الخريف تَعْرِض ثروةً تُعْجَبُ بها العين، بَيْدَ أن هذا الإعجابَ غيرُ مؤثِّرٍ مطلقًا، وهو يَصْدُر عن التأمُّل أكثرَ من صدوره عن الإحساس، وفي الربيع لا يستر الأريافَ العاريةَ شيءٌ بَعْدُ تقريبًا، ولا تُقَدِّم الغابُ من الظلِّ شيئًا، ولا يبدو من الخُضْرَة غيرُ النَّبْت، ويتأثر القلب بمنظرها؛ فنحن إذ نرى بعث الطبيعة هكذا نشعر بانتعاشنا ويحيط بنا خيال اللذة، وتكون صواحبُ الشهوة هؤلاء، وتكون الدموعُ العَذْبة هذه، على أطراف أجفاننا، ولكن منظر القِطَاف مهما كان حيًّا نشيطًا لطيفًا لا يُسيلُ عَبْرة.

ولِمَ هذا الاختلاف؟ وذلك لأن الخيال يُضيف إلى منظر الربيع منظرَ الفصول التي تَعْقُبه، ويَضُمُّ إلى هذه البراعم التي تراها العينُ أزهارًا وثِمارًا وظلالًا وأسرارًا يُمكِن أن تستتر تحتها، ويَجمَعُ في نقطة واحدة أزمانًا تتعاقب، ويُبصِر الأشياءَ كما تكون أكثر مما يريد، ولأنها يتوقف عليه اختيارُها، وعلى العكس، لا يُبصَرُ في الخريف غيرُ ما يكون، وإذا ما أُريد بلوغُ الربيع وَقَفَنا الشتاء، ويزول الخيالُ المُجمَّدُ على الثلج والجليد.

وهذا هو مصدر الفُتُون الذي يَكون عند تأمُّل صِبًا جميلٍ مُفَضَّل على كمال سنِّ الرُّشد، ومتى يَطيب لنا أن نرى رجلًا؟ ذلك عندما تَحْمِلنا ذكرى أفعاله على العَوْد إلى حياته وتجديد شبابه في أعيننا من حيث النتيجة، وإذا ما أُلزِمنا باعتباره كما هو، أو بافتراض ما سيكون في مشيبه، فإن فكرة الطبيعة المائلة إلى الزوال تقضي على جميع سرورنا، فلا شيء يَسُرُّ في رؤيةِ رجلٍ يسير بخُطًا كبيرةٍ نحو قبره، وتَجعل صورةُ الموت كلَّ شيءٍ قبيحًا.

ولكنني إذا ما تَمثَّلتُ ولدًا يترجَّح عُمُره بين العاشرة والثانية عشرة، سليمًا قويًّا حسنَ التكوين بالنسبة إلى سِنِّه، لم يُوحِ إليَّ بفكرةٍ غيرِ سارَّة نظرًا إلى الحاضر أو المستقبل، فأراه فَوَّارًا حارًّا ذا حيوية، أراه بلا هَمٍّ قاضمٍ وبلا احترازٍ طويلٍ شاق، أراه متفرِّغًا لحاضره، متمتِّعًا بعافيةٍ تامَّةٍ يبدو أنها تريد أن تمتدَّ إلى خارج نطاقه، وأَتَنوَّره في عُمُرٍ آخرَ مُدرِّبًا لحواسِّه وذهنه وقواه التي تنمو فيه يومًا بعد يوم، فيُقيم في كلِّ ساعةٍ دليلًا عليها، وأتأمَّلُه ولدًا فيروقني، وأتصوره رجلًا فيروقني أكثرَ من ذاك، ويلوح أن دمه الحامي يُلْهِب دمي، فأعتقد أني أحيا حياته وأن نشاطه يُجدِّد شبابي.

وتدقُّ الساعة، ويا له من تحوُّل! تُغبِرُ عينُه من فوْره، ويزول سرورُه لحينه، وداعًا أيها الفرَح، وداعًا يا ألعابَ المرح، ويُمسكه رجلٌ شديدٌ غضُوبٌ من يده، ويقول له بوقار: «لِنذهبْ أيها السيد.» ويذهب به. وأُبصِرُ كُتبًا في الغرفة التي يدخُلانها، كُتُبًا! يا له من

أثاثٍ كئيبٍ نظرًا إلى سِنِّه! وينقاد الولد المسكين، ويُلقي نظرةَ أسفٍ على كلِّ ما يحيط به، ويَسكت، وينصرف، وتنتفخ عيناه دموعًا لا يجرؤ على سَكْبها، ويَضخُم قلبُه زفراتٍ لا يجرؤ على إظهارها.

وأنت الذي ليس لديه مثلُ ذلك ما يَخشى، وأنت الذي ليس لديه دَورٌ من الحياة يُعَدُّ وقتَ ضِيقٍ وسأم، وأنت الذي يستقبل النهارَ بلا جَزَع والليلَ بلا هَلَع، وأنت الذي لا يَعُدُّ الساعات إلا بمسرَّاته. تعالَ، تعالَ يا تلميذي السعيد الحبيب، لنتعزَّى بحضورك عن ذهاب ذلك التَّعِس، تعالَ. هو يَصِل، وأشعر عند دُنوِّه بهَزَّةِ فرحٍ يشاطرني إياها، هذا هو صديقه وصاحبه، هذا هو رفيق ألعابه الذي يجتمع إليه. ومما لا مِراء فيه أنه حين يراني لا يبقى زمنًا طويلًا من غير أن يلهو، وليس أحدنا تابعًا للآخر مطلقًا، ولكننا نتفق دائمًا، ولا نكون مع أحدٍ سعداء كما نكون عليه معًا.

ويَنِمُّ مُحيَّاه وشكلُه وقوامُه على الطُّمأنينةِ والرضا، ويطفَحُ وجهه صحة، وتَدُلُّ خُطاه الثابتةُ على القوَّة، ولا يُوجَدُ في سَحْنَتِه الرقيقةِ بلا تَفَهٍ شيءٌ من التأنُّث؛ فالريح والشمس طبعتاها بطابعِ الرجولةِ المُكرَّم، وتأخذ عضلاتُه التي لا تزال مستديرةً في الإشارة إلى أساريرِ وجهٍ ناشئ، ويظهرُ على عينيه اللتَين لم تُلهبهما نارُ هوًى بعدُ صفاؤهما الأصليُّ على الأقل، ما داما لم يُظْلِما بأحزانٍ طويلة، وما دامت لم تُخطِّط خدَّيه دموعٌ لا حَدَّ لها. وأَبْصِروا في حركاتِه السريعة، ولكن مع المَضاء، رشاقةَ سِنِّه، ومتانةَ الاستقلال، وتجرِبةَ التمارينِ الكثيرة. أجلْ، إنَّ له وجهًا طليقًا وثَّابًا، ولكن من غيرِ صفاقةٍ ولا خُيَلاء، ولا يقعُ وجههُ الذي لم يَلصَق بالكتب على مَعِدَتِه مطلقًا، ولا يحتاج إلى أن يُقال له: «ارفعْ رأسك.» ولم يَحْمِلْه الخجلُ ولا الوجَلُ على خفضِ رأسِه قَط.

ولْنَجعلْ له مكانًا في وَسَط المجلس، وافْحصوه أيها السادة، واسألوه بكلِّ ارتياح، ولا تخشَوا لَجَاجه ولا هَذْره ولا أسئلته الطائشة، ولا تخافوا تغلُّبَه عليكم، ولا زعْمه أن يشغلكم بنفسه فلا تقدِروا على التخلُّص منه.

وكذلك لا تنتظروا منه أحاديثَ حُلوَة، ولا أن يخاطبكم بشيءٍ أُمليه عليه، ولا تنتظروا منه غيرَ الحقيقة الساذجة البسيطة الخالية من التزويق والتكلُّف والزهو، وسيُحدِّثكم عن سوءِ ما صنع أو عن سوءٍ يَرَى أن يَصنع، ولكنْ بصراحةٍ كالتي تُبدَى عن خيرٍ يُصنَع، وذلك من غير أن يرتبك حول ما يكون لقوله من أثرٍ فيكم، فسيتخذ من البساطة في الكلام ما يُذكِّر بأوَّل عهده.

ونُحِبُّ أن نتوسَّم الخيرَ في الأولاد، ومما يُثير الأسف دائمًا تلك الغباوات التي تصدر لتَقلِبَ — دائمًا تقريبًا — آمالًا يُرغَبُ في استنباطها من عبارةٍ موفقة تجري على لسانهم مصادفة، وإذا حدث، ولكن على نُدرَة، أن ألقى تلميذي مثلَ هذه الآمال، فإنه لا يَصْدُر عنه ما يوجب الأسفَ مُطلَقًا؛ وذلك لأنه لا ينطق بكلمةٍ باطلة مطلقًا، ولا يَضنى بثرثرةٍ يَعلَمُ أنها لا تُسمَع مُطلَقًا، وأفكاره محدودة، ولكنها واضحة. وهو إذا لم يَعْرف شيئًا من الاستظهار، فإنه يَعْرِف كثيرًا عن تجرِبة، وهو إذا كان أقلَّ اقتدارًا من ولدٍ آخرَ على القراءة في كتبنا، فإنه أحسنُ مطالعةً في كتب الطبيعة، وليس ذهنه في لسانه بل في رأسه، وهو أقلُّ ذاكرةً منه حكمًا، وهو لا يَعْرِف أن يتكلم غيرَ لغة واحدة، ولكنه يُدرِك ما يقول، وهو إذا لم يكن كالآخرين حُسْنَ قولٍ فإنه يفوقهم حُسْنَ فعل.

وهو لا يَعْرِف ما النَّمطية[٤٣]* ولا العُرف ولا العادة، وما صَنعه أمسِ لا يؤثِّرُ فيما يَصنَعُ اليومَ[٤٤] مُطلَقًا، وهو لا يَتَّبع صيغةً مطلقًا، وهو لا يُذعِن لمَرْجعٍ ولا لمثالٍ مطلقًا، وهو لا يَعمل ولا يقول غير ما يلائمه. وهكذا فلا تنتظروا منه كلامًا أُمليَ عليه ولا أوضاعًا دُرِسَت له، وإنما انتظروا منه دائمًا تعبيرًا صادقًا عن أفكاره وسلوكًا ناشئًا عن ميوله.

وتَجِدُون له عددًا قليلًا من المبادئ الخُلُقية الخاصة بحاله الحاضرة، ولا تجِدون له مبدأ خاصًّا بحال النَّاس، وما فائدة هذه المبادئ للولد ما دام غيرَ عُضوٍ عاملٍ في المجتمع؟ إذا ما كلمتموه عن الحرية والتملُّك وعن العهد أيضًا أمكنه أن يَعْرِف حتى هذا الحد، وهو يَعْرِف السببَ في أن الذي له هو له، والسببَ في أن الذي ليس له هو ليس له، فإذا عدا هذا عاد لا يَعْرِف شيئًا، وإذا ما كلمتموه عن الواجب والطاعة لم يَعْرِف ما تَقصِدون أن تقولوا، وإذا ما أمرتموه أن يَصنع شيئًا لم يَصْغَ إليكم، ولكنكم إذا قلتم له: «اعمل لي هذا المعروف أرُدَّه إليك في الوقت المناسب.» بادرَ من فوْره إلى إرضائكم؛ وذلك لأنه لا يَطْلُب

---

[٤٣] * La routine.

[٤٤] تنشأ جاذبيةُ العادة عن كسلِ الإنسان الطبيعي، ويزيد هذا الكسل بتعاطيه؛ فمن السهل البالغ صُنْعُ المصنوع، وذلك بما أن السبيل تكون ممهَّدة فإن سلوكها يكون سهلًا جِدًّا، وكذلك فإنَّ من الممكن أن يُلاحظ كونُ سلطان العادة عظيمًا إلى الغاية على الشِّيب والكسالى، وكونه ضعيفًا إلى الغاية على الشبيبة وذوي النشاط، وهذا النظام غير صالح لسوى أصحاب النفوس الضعيفة، وهو يُضعِفها يومًا بعد يوم، والعادة الوحيدة النافعة للأولاد هي الخضوع لضرورة الأمور بلا مشقة، والعادة الوحيدة النافعة للرجال هي الخضوع للعقل بلا مشقة، وكل عادة غير هذه نقيصة.

ما هو أفضلُ من بسْط سلطانه، ومن حصوله منكم على حقوقٍ يَعْرِف أنها لا تُنتهك، حتى إن من المحتمل ألَّا يأسف على مكانٍ يُحرَز، أو على حسابٍ يُقدَّم، أو على مبلغٍ يُطلَب، ولكنه إذا ما ساوره هذا الباعثُ الأخير خرج عن دائرة الطبيعة، وأعوزكم إغلاقُ جميع أبواب الغرور مُقدَّمًا.

ويحتاج من ناحيته إلى مساعدة، وهو يطلبها من أوَّلِ مَن يصادف بلا تفريق، هو يطلبها من الملك أو خادمه؛ فجميع النَّاس متساوون في نظره. وترون من اللهجة التي يطلب بها أنه يشعر بعدمِ وجودِ أحدٍ مَدِين له بشيء، وهو يَعْرِف أنه يطلب فضلًا، وهو يَعْرِف أيضًا أن الإنسانية تأمر بأن يُجاب إلى ما يسأل. ويكون كلامه بسيطًا موجزًا، وينِمُّ صوته ونظرته وحركته على مخلوقٍ تعوَّد القبول والرفض على السواء. وليس هذا ما ينطوي عليه خضوع العبد من صَغارٍ وذِلَّة، ولا لهجةُ السيد المتجبر، وإنما هو اعتمادُ متواضعٍ على نظيره، وإنما هو حِلمٌ كريمٌ مؤثِّرٌ ناشئٌ عن موجودٍ حُر، ولكنه حَسَّاسٌ خافضُ جناحٍ يَطلب العون من موجودٍ حُر، ولكنه قويٌّ محسن، وإذا منحتموه ما يطلُب لم يشكر لكم، وإنما يشعر بأنه عَقدَ دَينًا، وإذا رفضتم ما يطلب لم يألم ولم يُلحِف قَط؛ فهو يَعْرِف أن هذا غيرُ مُجْدٍ، وهو لن يقول في نفسه: «لقد رُفِضَ طلبي.» بل يقول: «لم يكن هذا ممكنًا.» والأمر كما قلت: إنه لا ينبغي أن يُثارَ على الضرورة المُسلَّم بها.

ودَعُوه طليقًا وحدَه، وارقُبُوه وهو يسير من غير أن تقولوا له شيئًا، ورَوْا ما يصنع وكيف يتأهَّب لما يصنع، وبما أنه لا يحتاج إلى إقناعِ نفسِه بأنه حُرٌّ فإنه لا يفعل شيئًا عن طيشٍ مطلقًا، وإنما يأتي عملَ سلطانٍ على نفسه، أوَلَا يَعلم أنه سيدُ نفسِه دائمًا؟ وهو نشيطٌ رشيقٌ خفيف، وتجد في حركاته كلَّ ما ينطوي عليه عُمُره من حيوية، ولكنك لا ترى له من الحركات ما لا يهدف إلى غاية، ومهما يُرِد أن يفعل فإنه لن يحاول فِعْلَ ما يفوق طاقته؛ وذلك لأنه اختبر قواه وعَرَف ما هي، وستكون وسائلُه صالحةً لمقاصده دائمًا. ومن النادر أن يعمل قبل أن يطمئن إلى النجاح، وستكون له عينٌ بصيرةٌ يقظى، ولن يتصدَّى للآخرين حتى يسألهم بغباوةٍ عن جميع ما يرى، ولكنه يُدقِّقُ فيما يرى بنفسه ويبذل جهدًا ليصل قبل السؤال إلى ما يريد أن يعلَم، وهو إذا ما وقع في ورطةٍ طارئةٍ كان ارتباكه بها أقلَّ من ارتباك الآخرين، وإذا ما وُجِدَ خطرٌ قلَّ ذُعره أيضًا. وبما أن خياله يظلُّ مُعطَّلًا أيضًا، ولم يُصنَع شيءٌ لإثارته، فإنه لا يرى غير ما هو واقع ولا يُقدِّر الأخطار إلا بمقدارها

مُحافِظًا على اعتدال دمه دائمًا، وتبلغ الضرورة من شدة الوطأة عليه ما لا يقاومها معه أيضًا، وهو يحمل نِيرَها منذ ولادته، وهو يتعوَّدها، فيكون مستعدًّا لكلِّ شيءٍ في كل وقت.

وسواءٌ عليه، أعَمِل أم تلهَّى، يتساوى هذان الأمران عنده؛ فألعابه أعماله، لا فرق بينهما لديه، وهو يَضع في كلِّ ما يصنع ما يُغري بالمرح كما يضع من الحرية ما يروق مُبديًا ميلَ ذهنه ومدى معارفه. أليس من مناظر هذا العُمُر الساحرة الحُلوة أن يُرى ولدٌ ظريفٌ حادُّ البصر مَرِح النظر، ذو ملامحَ تدلُّ على الرِّضا والصفاء، وذو وجهٍ طليقٍ باسم، يأتي أكثرَ الأمور جِدِّيَّة وهو يلعب، أو يأتي أكثرَ الألعاب لغوًا وهو يعمل؟

أَوَتُريدون الآن أن تحكموا فيه بالقياس؟ اجعلُوه بين أولادٍ آخرين، ودَعُوه لنفسه، فلا تَلبثوا أن ترَوا أيُّهم أحسنُ تقويمًا حقًّا وأيُّهم أكثرُ اقترابًا من كمالِ سنِّه. ولا أحد بين أبناء المدينة أمهرُ منه، ولكنه أقوى من كلِّ واحدٍ آخَر، وهو إذا ما وُجِد بين الفتيان الفلاحين ساواهم قوةً وفاقهم مهارة. وهو في جميع الأمور التي تكون في متناول دور الصبا يَظهرُ أحسنَ من جميعهم حُكمًا وتعقُّلًا وبصيرة، وإذا ما دار الأمر حول العمل، والعَدْو والوثوب، وزعزعة الأجسام ورفْعِ الأجرام وتقدير المسافات، واختراع الألعاب ونَيل الجوائز؛ قيل إن الطبيعةَ خاضعةٌ لأوامره ما سهُلَ عليه أن يجعل كلَّ شيءٍ خاضعًا لإرادته؛ فهو قد صُنِع لقيادة أمثاله والسيطرة عليهم، وما اتَّفَقَ له من نبوغٍ واختبارٍ يقوم مقامَ الحقِّ والسيادة. ومهما يكن الرِّداء الذي يرتديه والاسم الذي يحمله فلا أهمية لهما، فسيُكتب له السبق في كل مكان، وسيكون رئيسًا للآخرين حيثما كان، وهم سيشعرون بأنه أفضل منهم دائمًا، وهو سيكون السيد من غير أن يريد القيادة، وهم سيطيعون من حيث لا يَدْرُون.

وهو قد بَلغ ذروةَ الكمال من دَوْر الصبا، وهو قد قَضى حياة وَلَد، وهو لم يشترِ كماله على حساب سعادته، وعلى العكس قد تسابقت هذه الأمور انقيادًا له. وهو إذ نال كلَّ ما لِسنِّه من عقلٍ كان سعيدًا حُرًّا بمقدار ما تسمح به بنيتُه، وإذا ما أتى الموت الحاصد فقَطَع به زهرةَ آمالنا لم نَبْكِ حياته ولا موته معًا قَط، ولم نُلهِب آلامنا عن تذكُّرنا آلامًا أورثناه إياها، وإنما نقول: «لقد تمتَّع بصباه على الأقل، ولم نَنزِع منه شيئًا أنعمت الطبيعة به عليه.»

وأكبرُ محذورٍ في هذه التَّربية هي كَونُها لا تُقدَّر من غيرِ ذوي البصائر، وكَونُ الولدِ الذي يُنشَّأ بتلك العنايةِ البالغةِ لا يبدو في عيونِ العوامِّ غيرَ خشِن. والمُعلِّم يُفكِّرُ في مصلحةِ الولدِ أقلَّ مما يُفكر مصلحته الخاصة، وهو يُعنى بإثباته أنه لا يُضِيع وقتَه، وأنه يستحقُّ

الأجرَ الذي يُعطاه، وهو يُزوِّده بمحصولٍ سَهْلٍ عَرْضُه، ممكنٍ إظهارُه متى يُراد. وليس المهمُّ في فائدةِ ما يُعلِّمه إياه، بل في سهولةِ تَبيُّنه، وهو يَشْحَن ذاكرتَه بمائةِ حشوٍ يركُمه فيها بلا انتخابٍ ولا تمييز، ومتى وجب امتحانُ الولدِ حُمِل على نشرِ بضاعته، وهو إذا ما عَرَضها حازَ قبولًا، ثُمَّ يَطوي رِزْمته ويذهب. وأمَّا تلميذي فليس غنيًّا بهذا المقدار، وليست عنده رِزمةٌ ينشرها مطلقًا، وليس عنده ما يَعْرِض غيرُ نفسه. والواقع أن الولدَ كالرَّجل، لا يُعرَف في دقيقةٍ واحدةٍ. وأين هم الراصدون الذين يمكنهم إدراكُ خصائصه أوَّلَ وهلة؟ أجلْ، قد يوجد مثل هؤلاء، غير أنهم قليلون، ولا تكاد تجدُ واحدًا منهم بين كلِّ مائة ألف أبٍ.

وإذا ما كُثِّرت الأسئلة تبرَّم منه جميع النَّاس، ولا سيَّما الأولاد، ورفضوها، وذلك أنه لا تكاد تَمضي بضعُ دقائق حتى يكون انتباههم قد كَلَّ، وعادوا لا يُلقون السمع إلى ما يسألهم عنه سَئولٌ عنيد، وعادوا لا يُجيبون إلا عن غير تبصُّر. ويُعَدُّ هذا الأسلوب في امتحانهم حذْلقيًّا غيرَ نافع، وفي الغالب تُعَدُّ الكلمةُ العابرة أفضلَ من الكلام المُطوَّل في الدلالة على إحساسهم وإدراكهم، ولكن ليُحتَرَزْ من كون الكلمة قد أُمليت أو أُلقيَت عَرَضًا. ولا بُدَّ للرجل من أن يكون صائب الحكم حتى يُحسِن تقدير حُكم الولد.

وقد سمعتُ المرحومَ اللورد هَيْد يقول إن صديقًا له عاد من إيطالية بعد غياب ثلاثة أعوام، فأراد فحص ابنَه البالغَ من العُمُر ما بين التاسع والعاشر، ويذهب ذاتَ مساء هو وابنه ومُعلِّمه للنزهة في العراء؛ حيث يلهو الطلبة بقيادة طيَّاراتٍ. وبَيْنا كان الأب مارًّا قال لابنه: «أين الطيَّارة التي تُلقي هذا الظل؟» فقال الولد من غيرِ تردُّدٍ ولا رفْعِ رأسٍ: «على الطريق العام.» ويقول اللورد هَيد مُعقِّبًا: «حقًّا أن الطريق العام كان بيننا وبين الشمس.» ويُقبِّل الأب ابنه عند سماع هذه الكلمة، ويُنهي فحصه وينصرف من غيرِ أن يقول شيئًا. فلما كان الغدُ أرسل إلى المُعلِّم شهادةً يُجري عليه بها وظيفةً مدى العُمُر فضْلًا عن رواتبه.

يا لذلك الأب من رجلٍ! ويا لَلْولد الذي وُعِدَ به! إن السؤال مُلائمٌ لعُمُر الولد ضبطًا، والجواب بسيطٌ تمامًا. ولكن انظر إلى ما يَفترِض من بصيرةٍ في قوة التمييز عند الولد! هذا هو الوجه الذي رَدَّ به تلميذُ أرسطو جِماحَ ذلك الحِصان الشهير الذي لم يستطع أن يُروِّضه فارس.

الجزء الثالث

إن جميع مجرى الحياة حتى المُراهقة هو دورُ ضَعْف، ومع ذلك تُوجَد نقطة في أثناء دَوْر العُمُر الأوَّل هذا يجاوِز فيها تقدُّم القوى تقدُّم الحاجات، فيصير الحيوان النامي الذي لا يزال ضعيفًا على الإطلاق قويًّا نسبة. وبما أن احتياجاته لم تَنْمُ كلُّها بعد، فإن قواه الحاضرة تُرْبي على الكفاية قضاءً لما لديه، ويكون ضعيفًا إلى الغاية كرجل، ويكون قويًّا إلى الغاية كولد.

ومن أين يأتي ضَعفُ الرجل؟ يأتي من التفاوت بين قوَّته ورغباته. وأهواؤنا هي التي تجعلنا ضعفاء؛ وذلك لأن قضاءها يتطلَّب من القُوَى ما هو أكثر مما تُعطي الطبيعة. وإذا ما نقصتم الرغبات بدوتم كأنكم زِدتم القُوَى. ومَن يقدِر أكثر مما يرغب تكن عنده قوة احتياطية، ويُعَدُّ قويًّا جِدًّا لا ريب، وهذا هو دور الوَلُودِية الثالث، وهو الذي أتكلم عنه الآن، وأداوم على تسميته ولودية لعدم وجود كلمة خاصة أعبِّرُ بها عنه؛ وذلك لأن هذه السِّن تدنو من المراهقة من غير أن تصل إلى البلوغ.

وتنمو قوى الولد البالغ من العُمُر اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة بأسرع مما تنمو به احتياجاته، ولا يزال أقوى الأهواء وأعنفها غيرَ معروف، ولا يزال نموه البدني ناقصًا منتظرًا نداء الإرادة كما يلوح، ولا تؤثِّر فيه تقلبات الهواء والفصول إلا قليلًا، وهو يقاومها بلا عناء، وتقوم حرارته الناشئة مقام الثياب، وتقوم شهوة طعامه مقام تعليل غِذائه بالتوابل، وكلُّ ما يمكن أن يُقيت صالحٌ لسنِّه، وهو إذا ما أدركه النُّعاس استلقى على الأرض ونام. وهو يجد حوله كلَّ ما يحتاج إليه، ولا يؤلمه أي احتياجٍ خيالي، ولا عملَ لرأي الآخرين فيه، ولا تبتعد رغباته عن مدى ذراعيه، ولا يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه

فقط، بل لديه من القُوى ما يمتدُّ إلى ما وراء احتياجه أيضًا، وهذا هو دور حياته الوحيد الذي تزيد قوَّته على احتياجه.

وأشعر بالاعتراض قبل وقوعه، ولن يُقال لي إن للولد من الاحتياجات ما هو أكثر مما أُعطيه، ولكنه سيُنكر ما أعزوه إليه من القوة، ولن يُفكِّرَ في أنني أتكلم عن تلميذي، لا عن تلك الدُّمى المتنقِّلة التي تطوف بين غرفةٍ وغرفة، والتي تُقلِّبُ صُندوقًا وتحمل أثقالًا من المُقوَّى. وسيُقال لي إن قوة الرجل لا تظهر في غير دور الرجولة، وإن الأرواح الحيوية التي تُعدُّ في أوعيةٍ ملائمةٍ وتنتشر في جميع البدن يمكنها وحدَها أن تمنح العضلات ثباتًا ونشاطًا وقوةً ونابضًا؛ أي ما تنشأ عنه طاقةٌ حقيقية، وهذه هي فلسفة الحُجْرَة. وأمَّا أنا فأدعو إلى التجرِبة، وأرى في أريافكم فتيانًا كبارًا يحرثون ويَقلِبون الأرض ويمسكون المحراث ويملئون بِرميلَ خمر ويسوقون عربة كآبائهم، فيُحسَبون رجالًا لو لم يَنِمَّ صوتهم عليهم، حتى في مدننا ترى أولادًا من العمال والحدادين والقُيُون والبياطرة بالغين مثلَ قوة المُعلِّمين تقريبًا، فلا يَقِلُّون عنهم حِذْقًا إذا ما دُرِّبوا في الوقت المناسب. وإذا وُجِدَ فرق، وهو ما لا أنكره، فأقول مُكرِّرًا إنه أقلُّ كثيرًا مما بين رغبات الرجل الفائرة ورغبات الولد المحدودة. ثُمَّ إن الأمر ليس قاصرًا هنا على القوة البدنية فقط، بل يتناول، خاصة، أيضًا قوة الذهن واستعداد الذهن الذي يُغني عنها أو الذي يوجِّهها.

وهذه الفاصلة التي يَقدِرُ الفردُ فيها أكثرَ مما يَرغب، وإن لم تكن دَوْرَ قُوَّته الكبرى المُطلقة، هي دور قوَّته الكبرى النسبية، وهي أثمن دورٍ في حياته، وهي الدور الذي لا يأتي غير مرةٍ واحدة، وهي الدور القصير جِدًّا، وهي الدور الذي يبدو بالغ القِصَر عند النظر إلى أهمية استخدامه جيِّدًا كما يُرى ذلك فيما بعد.

وما يصنع إذن بهذا الزائد من الخصائص والقُوَى التي يحوز كثيرًا منها في الوقت الحاضر، والتي تفوته في دورٍ آخرَ من العُمُر؟ هو سيسعى في استخدامها في أمورٍ يُمكِنه الاستفادة منها عند الحاجة؛ أي إنه يُلقِي الزائد من وجوده الحاضر في المستقبل؛ أي إن الولد العُصْلُبيَّ سيدَّخِر للرجل الضعيف، ولكنه لن يضع ما يَخزُن في صناديقَ يمكن أن تُسرَق منه، ولا في أنبارٍ خارجةٍ عنه، وفي ذراعيه وفي رأسه وفي نفسه ما يضع الذي يَكسِبُ تملكًا له حقًّا. وهذا هو إذن وقت العمل والعِرفان والدرس، ولاحظوا أنني لست الذي يقوم بهذا الاختيار متحكِّمًا، بل الطبيعة نفسها هي التي تدلُّ عليه.

وللذكاء البشري حدود، ولا يستطيع الإنسانُ أن يَعْرِفَ كلَّ شيء، حتى إنه لا يستطيع أن يَعْرِفَ تمامًا ما يَعْرِفه الآخرون من شيءٍ قليل، وبما أن ما يناقض القضية الباطلة

حقيقة، فإن عدد الحقائق لا ينفَد كعدد الأباطيل؛ ولذا يوجد اختيارٌ في الأمور التي يجب أن تُعلَّم كما في الزَّمن الصالح لتعلُّمها. ومن المعارف الواقعة في متناولنا ما هو باطل وما هو غير نافع، وما يُفيدُ في تغذية زهوِ الحائز لها. وعدد المعارف القليل الذي يساعد على رفاهيتنا حقًّا هو الجدير وحدَه بتحرِّي الرجل العاقل؛ ومِنْ ثَمَّ بتحري الولد الذي يُراد جعلُه هكذا، ولا يقوم الأمر على معرفة ما هو كائن، بل على معرفة ما هو نافعٌ فقط.

ومن ذاك العدد القليل أيضًا يجب هنا أن تُخرَج الحقائق التي يتطلب فهمُها قوة إدراكٍ تامة التكوين، أن تُخرَج الحقائق التي تفترض معرفة صِلات الإنسان، فلا يستطيع الولد اكتسابها، أن تُخرَج الحقائق التي تَحمِل الذهن غير المُجرِّب على التفكير الفاسد في موضوعاتٍ أخرى، وإن كانت تلك الحقائق صحيحةً في نفسها.

وها نحن أولاء قد قُصِرنا على دائرةٍ صغيرةٍ بالنسبة إلى وجود الأشياء، ولكن هذه الدائرة تُؤلِّف دائرةً واسعة بالنسبة إلى ذهن الولد! ويا ظُلُمات الإدراك البشري، أيةُ يدٍ مغامِرةٍ كانت من الجُرْأة ما مسَّت معه حِجَابَكِ؟ ويا للهُوَى التي أرى حَفْرها بعلومنا الباطلة حول هذا الفتى التعِس! وارتجِف أنت الذي يقوده من هذه الطُّرُق الخطرة، والذي يرفع أمام عينيه ستار الطبيعة المقدس، وليكن رأسه ورأسك أوَّل ما تطمئن إليه، واخشَ أن يُصاب هذا أو ذاك بالدوار أو أن يُصابا معًا على ما يُحتمل، وخَفْ سِحْرَ الباطل المموَّه وفتون أبخرة الزهو، واذكر — واذكر دائمًا — أن الجهل لا يؤذي أبدًا، وأن الشؤم في الضلال، وأن الإنسان لا يَضِلُّ بما لا يَعْرِف بل يَضِلُّ بما يعتقد أنه يَعْرِف.

وقد يَصلُح تقدُّمه في الهندسة دليلًا لكم وقياسًا صحيحًا عندكم على نموِّ ذكائه، ولكنه إذا ما استطاع أن يَمِيزَ النافع من غير النافع وَجَبَ اتخاذ كثيرٍ من الحذر والبراعة جَذْبًا له إلى الدروس النظرية، وإذا ما أردتم مثلًا أن يبحث عن وَسَطٍ مناسبٍ بين خطين فاصنعوا ما يجب أن يجد معه مربَّعًا مساويًا لمُثلَّثٍ ما، وإذا ما طُلِبَ وَسَطان مناسبان وجب أن يُحمَل أوَّلًا على الاكتراث لمضاعفة المكعب ... إلخ. ورَوْا كيف ندنو بالتدريج من المبادئ الخُلقية التي تَميزُ الخيرَ من الشَّر، ولم نَعرف حتى الآن غيرَ قانون الضرورة، والآن نُعْنَى بما هو مفيد، وسننتهي إلى ما هو ملائمٌ حَسَنٌ عما قليل.

وتُحرِّك عينُ الغريزة مختلفَ خصائص الإنسان، ويَعقُب نشاطَ البدنِ الذي يحاول أن ينموَ نشاطُ الذهن الذي يحاول أن يتعلَّم. وليس الأولاد في البُداءة غير قلقين، ثُمَّ يكونون محبين للاطلاع، ويُعَدُّ هذا الفُضول الحسنُ التوجيه مُحرِّكَ العُمُر الذي بلغناه. ولنفرِّق دائمًا بين الميول التي تصدُر عن الطبيعة والميول التي تصدُر عن رأي النَّاس، ويوجد

شوقٌ إلى المعرفة ليس له أساسٌ غير الرغبة في الظهور بمظهر التعلُّم، ويوجد شوقٌ آخر إلى المعرفة ينشأ عن حبِّ اطلاعٍ طبيعيٍّ في الإنسان حول كلِّ ما يمكن أن يُهِمَّه عن قُرْبٍ أو بُعْد، وما يكون من رغبةٍ غريزية في الرفاه من تعذُّر إشباع هذه الرغبة تمامًا، يَحفِزُه إلى البحث بلا انقطاع عن وسائلَ جديدةٍ تُعينُ على ذلك. وهذا هو أصل الفضول الأوَّل، وهذا هو الأصل الطبيعي في قلب الإنسان من أنَّ نشوءَه يأتي على نسبةِ أهوائنا ومعارفنا، ولنتمثَّل فيلسوفًا نُفيَ إلى جزيرةٍ قفْرٍ مع آلاتٍ وكُتبٍ عالِمًا أنه سيقضي فيها بقية حياته وحيدًا، فلن يُزعِجَ هذا الفيلسوف نفسه بمعالجة نظام العالم وسنن الجاذبية وحساب التفاضل، ومن المحتمل ألَّا يفتح كتابًا واحدًا مدى حياته، ولكن مع عدم الاستنكاف عن رِياد جزيرته حتى آخر زاوية منها مهما كانت هذه الجزيرة كبيرة، ولْنَحذف من دروسنا الأُولى إذن معارفَ ليس تذَوُّقها طبيعيًّا لدى الإنسان، ولنقتصر على المعارف التي تَحمِلنا الغريزة على البحث عنها.

والأرض هي جزيرة الجنس البشري، والشمس هي أكثر ما يَقِف نظرَنا، وإذا ما أخذنا نبتعد عن أنفسنا وجب أن يقع انتباهنا على هذه وتلك، وهكذا فإن فلسفة جميع الشعوب الوحشية تقريبًا تدور حصرًا حول تقسيمات خيالية عن الأرض وحول ألوهية الشمس.

وقد يُقال: يا له من ابتعاد! لقد كُنَّا نعالج منذ هنيهة ما يمسُّنا، ما يُحيطُ بنا مباشرة، وها نحن أولاء نجوب الأرض ونَقفِز إلى أقاصي العالم بغتةً! إن هذا الابتعاد نتيجةُ تقدُّمِ قُوانا وميلِ ذهننا، وإن اكتراثنا لبقائنا في حالة ضعفنا ونقصنا يَحصُرنا ضِمنَ أنفسنا، وإن رغبتنا في توسيع كياننا في حالة قدرتنا وقوَّتنا تَحْمِلنا إلى ما وراء ذلك وتدفعنا إلى الوثوب إلى أبعد ما يمكننا. ولكن بما أن العالم الذهني لا يزال مجهولًا لدينا، فإن فكرنا لا يذهب إلى ما هو أبعد من عيوننا، ولا يمتد إدراكنا إلا ضمن المسافة التي يقيس.

ولنُحوِّل إحساساتنا إلى أفكار، ولكن لا نقفز بغتةً من الأشياء المحسوسة إلى الأشياء الذهنية؛ فبالأُولى نَصِلُ إلى الثانية، ودعِ الحواس أدِلَّاء أعمالِ الذهنِ الأُولى دائمًا، فلا كتاب غيرُ العالَم، ولا تعليم غيرُ الأعمال. والولد الذي يقرأ لا يفكِّر، وهو لا يفعل غيرَ القراءة، وهو لا يتعلم، بل يحفظ كلمات.

واجعلوا تلميذكم منتبهًا لحادثات الطبيعة، فلسرعان ما تجعلونه مُحبًّا للاطِّلاع، ولكنَّ تغذيةَ فضوله لا تقضي بالمبادرة إلى إشباعه مطلقًا، وضَعُوا الأسئلة ضمن متناوله، ودعوه يَحُلُّها. ولا ينبغي أن يَعْرِف شيئًا عن كونكم قد أطلعتموه عليه، بل عن كونه قد أدركه

بنفسه. ولا ينبغي أن يتعلَّم العلم، بل يجب أن يكتشفه، وإذا أقمتم السلطان مقام العقل في ذهنه عاد لا يتعقَّل وصار أُلعوبةَ رأي الآخرين.

وتريدون أن يتعلم هذا الولد الجغرافية، وتُحضِرون له كُراتٍ وخرائطَ، ويا لها من آلات! ولِمَ جميع هذه الرسوم؟ ولِمَ لا تبدءون بإراءته الشيءَ نفسه حتى يَعْرِف الشيء الذي تحدثونه عنه على الأقل؟

وفي مساءٍ جميلٍ يُذهَب للنزهة في مكان ملائم حيث يُرى غياب الشمس عند الأفق الواسع، وحيث تُلاحَظ الأشياء التي تَجعل مكانَ غيابها سهلًا معرفتُه، وفي الغد يُرادُ تنسُّم الهواء العليل، فيُرجَع إلى عين المكان قبل طلوع الشمس، ويُبصَر من بعيدٍ أنها تُؤْذِن نفسها بما تلقيه من خطوط نارية سابقة لها، ويزيد الحريق، ويظهر الشرق مضطرمًا لهيبًا، وعلى نور ذلك ينتظر الكوكب طويلًا قبل أن يطلع، ويُظَنُّ في كل ثانية أنه يُرى ظهوره، ويشاهَدُ أخيرًا، وذلك بأن نقطة تنطلق كالبرق فتملأ جميع الفضاء من فورها، ويَمَّحي حجاب الظلام ويسقط، ويَعْرِف الإنسان منزله ويَجِده مُزْدانًا، وقد اكتسبت الخُضَر في الليل قوةً جديدة، فلما أضاءها النهار الناشئ أبْدَتها الأشعة الأُولى مستورةً بشبكة لامعة من الندى تعكس على العين نورًا وألوانًا، وتجتمع الطيور مواكبَ وتُحَيِّي رَبَّ الحياة متفقة. ولا طير يَسكُت في ذاك الحين، وعلى ما يكون من ضَعفِ تغريدها يُعَدُّ أبطأ وأحلى مما في بقية النهار؛ فهو يَنِمُّ على انتباهٍ من النوم ساكنٍ وانٍ، ويَحمِل توافُقُ جميع هذه الأمور إلى الحواس أثرًا من النضارة يلوح نفوذه حتى الروح، وهنالك يتجلى فتونُ نصفِ ساعةٍ لا يستطيع الإنسان مقاومته، وذلك منظرٌ عظيمٌ جِدًّا، رائعٌ جِدًّا، لطيفٌ جِدًّا، فلا يقدر الإنسان أن يشاهده من غير أن يهتز فؤاده.

ويفيضُ المُعلِّم حماسة، فيُريد أن يشاطره الولد إياها، ويعتقد أنه يُحرك الولد بجعله ينتبه للإحساسات التي حرَّكته بنفسه، ويا لها من حماقة صِرفة! إن بهاء منظر الطبيعة هو في قلب الإنسان، ويجب أن يُشعَر به ليُرى. أجل، إن الولد يُبصِر الأشياء، ولكنه لا يستطيع أن يُبصِر ما يربط بينها من صلات، ولكنه لا يستطيع أن يُدرِكَ ما في ائتلافها من انسجامٍ لطيف، ولا بدَّ له من تجرِبة لم يكتسبها قَط، ولا بدَّ له من مشاعرَ لم يُحِسَّها قَط؛ وذلك ليشعر بالأثر المُركَّب الذي ينشأ عن جميع هذه الإحساسات معًا. وهو إذا لم يَجُبْ سُهولًا جديبةً زمنًا طويلًا، وهو إذا لم تَكْوِ رِجْليه رمالٌ مُحرِقة، وهو إذا لم يَضغطه انعكاسُ الصخور التي لفحتها الشمسُ انعكاسًا خانقًا، فكيف يستطيب الهواء العليل في صباحٍ جميل؟ وكيف تُفتَن حواسُّه بعِطر الأزهار وسِحْر الخُضَر وببخار الندى الرَّطيب

وبالمِشية الخفيفة اللطيفة على الأرض المُخضَرَّة؟ وكيف يُوجِب فيه تغريد الطيور هوًى شهوةٍ إذا كان جاهلًا لحركات الغرام واللذة بعد؟ وبأيٍّ هفيفٍ يرى ظهورَ نهارٍ بالغٍ تلك الروعة إذا لم يستطِع خيالُه أن يصوِّر له ما يمكن أن يملأه؟ وأخيرًا كيف يَرِق لجمالِ منظرِ الطبيعةِ إذا كان يجهل اليدَ التي عُنِيَت بزَخْرفتِها؟

ولا تُوجِّهوا إلى الولد من الكلام ما لا يستطيع أن يَفهم، فلا وصفَ ولا بلاغةَ ولا مجازَ ولا شعرَ، فليس الآن وقتُ الإحساس والذوق، وداوِموا على الوضوح والبساطة، وأن تكونوا فاترين عالمين أن زمن اتخاذ لغةٍ أخرى لا يأتي إلا باكرًا.

وهو إذ يُنشَّأُ على روح مبادئنا وعلى استنباط جميع وسائله من نفسه، وهو إذ لا يستعين بالآخرين إلا بعد أن يُدرِك عدم كفايته، فإنه يفحصُ طويلًا كلَّ موضوعٍ جديدٍ يراه ملتزمًا جانبَ الصمت، ويكون مفكِّرًا لا سَئولًا، واكتَفُوا بِعَرْض الأشياء عليه في الوقت المناسب، ثُمَّ إذا ما أبصرتم حُبَّ الاطِّلاع فيه قائمًا بما فيه الكفاية فضعوا له من الأسئلة المختصرة ما يَحُلُّه.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن تُنعِموا النظرَ معه في الشمس البازغة، وبعد أن تجعلوه يلاحظ الجبال والأشياء المجاورة الأخرى من ذات الجهة، وبعد أن تَدَعوه يتكلَّم حَوْل ذلك بلا تعبٍ اسكُتُوا لبضع دقائق كرجلٍ سابحٍ في الخيال، ثُمَّ قولوا له: «إنني أفكِّرُ في أمر الشمس التي غَرَبت أمسِ مساء هنالك، والتي طلعت اليوم صباحًا هناك، فكيف يمكن وقوع هذا؟» ولا تضيفوا شيئًا إلى ذاك. وإذا ما وَضَع لكم أسئلةً فلا تُجيبوه عنها مطلقًا، وإنما كلِّموه عن شيء آخر، ودَعُوه وشأنَه واثقين بأنه سيُفكِّر في ذلك.

ويجب لكي يتعوَّد الولد الانتباه ولكي تَقِف نظرَه بعضُ الحقائق المحسوسة، أن تُترك له هذه الحقيقة بضعة أيامٍ من القلق قبل اكتشافها. وهو إذا لم يتمثَّلها على هذا الوجه بما فيه الكفاية كان هنالك من الوسائل ما يجعلها أكثر بروزًا أيضًا، وهذه الوسيلة هي إعادة السؤال، وهو إذا كان لا يَعْرِف كيف تأتي الشمس من مغربها إلى مشرقها فإنه يَعْرِف كيف تأتي من مشرقها إلى مغربها على الأقل، وعيناه وحدَهما تُطلعانه على ذلك، فأوضحوا السؤال الأوَّل بالآخر إذن، وهنالك إمَّا أن يكون تلميذكم من الغباوة المطلقة، وإمَّا أن يكون التشابه من الوضوح البالغ ما يُمكن معه أن يفوته ذلك، وهذا هو درسه الأوَّل في علم الفلك.

وبما أننا نَسير في كل وقتٍ على مَهْلٍ من فكرٍ محسوسٍ إلى فكرٍ محسوس، وبما أن إيلافَنا أحدَ الفكرين يتطلب زمنًا طويلًا قبل انتقالنا إلى الآخر، وبما أننا لا نُكْرِه تلميذَنا على

الانتباه مطلقًا، فإنه لا بدَّ من انقضاء وقت طويل على هذا الدرس الأوَّل في معرفة مجرى الشمس وشكل الأرض. ولكن بما أن حركات الأجرام السماوية الظاهرةَ كلَّها تابعةٌ لذات المبدأ، وبما أن الرَّصد الأوَّل يؤدي إلى جميع الأرصاد الأخرى، فإنه يُحتاجُ إلى أقل جُهْد، وإن كان يُحتاج إلى أكثر وقتٍ للوصول من الدورة اليومية إلى حساب الكسوف والخسوف، وذلك مما للوصول إلى إدراك الليل والنهار إدراكًا حسنًا.

وإذ إن الشمس تدور حول الأرض فإنه يرسم دائرة، ولا بدَّ لكل دائرة من مركز، وهذا ما عَلِمْناه سابقًا، ولا تُمكِنُ رؤية هذا المركز لأنه في وَسَط الأرض، ولكنه يُمكن تعيين نقطتَين متقابلتَين على السطح، ويُعَدُّ العود المارُّ من النقاط الثلاث والممتدُّ حتى السماء من الناحيتَين محور الأرض ومحور حركة الشمس اليومية، وإذا ما دار الخُذروف المستدير على رأسه مثَّل السماءَ الدائرة على محورها، ومَثَّلَ طَرَفا الخُذروفِ القطبين، ويَسُرُّ الولدَ أن يَعرِف أحدهما، وأدُلُّه عليه بذَنَب الدُّب الأصغر، وهذا من لَهْو الليل، وتُؤْلَف الكواكب بالتدريج؛ ومِنْ ثَمَّ ينشأ أوَّل ذوق في معرفة السيارات والبروج.

ولقد رأينا طلوعَ الشمس في منتصف الصيف، وسنرى طلوعَها في عيد الميلاد أو في يومٍ جميلٍ آخر من أيام الشتاء؛ وذلك لأننا لسنا كُسالى كما هو معلوم، ولأننا نحسُبُ اقتحام البرد من الألعاب، وأُعنَى بالقيام بهذا الرَّصَدِ الثاني في عين المكان الذي قُمنا فيه بالرَّصَد الأوَّل، وإذا ما أُبديَ شيءٌ من البراعة في إعداد المعاينة لم يَفُت هذا أو ذاك أن يَهتِف قائلًا: «وي! وي! يا له من منظرٍ فَكِهٍ! عادت الشمس لا تَطْلُع من عين المكان! هنا دلائلُنا السابقة، والآن تَطلُع هنالك ... إلخ. إذن، يوجد شرقُ صيفٍ وشرقُ شتاءٍ ... إلخ.» ويا أيها المُعلِّم الشاب، أنت على الطريق، فيجب أن تكون هذه الأمثلة كافية لتعليم الكُرة بوضوحٍ ولاتخاذ الأرضِ للأرض والشمسِ للشمس.

وعلى العموم لا تستبدل الرمزَ بالشيء مطلقًا إلا إذا تعذَّر عليك إراءته؛ وذلك لأن الرمز يستغرق انتباه الولد ويُنسيه الشيء المُمثَّل.

وتبدو ليَ الكرةُ الأرْمِيَاريَّةُ[١]* آلةً سيئةَ التركيب رديئةَ النِّسَب، وما تشتمل عليه من دوائرَ مختلطةٍ وصورٍ غريبةٍ مرسومةٍ يَمنَحُها صِبغةً سِحْريةً تخافُها نفوسُ الأولاد،

---

١ * La sphère armillaire، وهي مجموعة دوائر من مَعْدِنٍ أو خشبٍ أو مقوًّى، تُمثِّل حركاتِ الأجرامِ السماوية، وفي مركزِها كُرةٌ تُمثِّل الأرض.

والأرضُ فيها صغيرةٌ جِدًّا، والدوائرُ فيها كبيرةٌ جِدًّا كثيرةٌ جِدًّا، وبعضُها كدوائرِ السَّمْتِ مثلًا، لا يُجدي نفعًا تمامًا، وكلُّ دائرةٍ فيها أوسعُ من الأرض، ولها بثِخَنِ المُقوَّى صلابةٌ توحي بأنها مطارقُ دائريَّةٌ موجودةٌ حقًّا، فمتى قلتم للولد إنها دوائرُ خياليةٌ لم يَعْرِفْ ما يَرى، وعادَ لا يَسمعُ شيئًا.

ولا نعرفُ أن نضعَ أنفسنا في مكانِ الأولادِ مطلقًا، ولا نَنفُذ أفكارَهم ونُعِيرُهم أفكارَنا، وفي كلِّ وقتٍ نَتَّبِعُ براهيننا الخاصَّة بسلاسِلَ من الحقائق، فلا نَرْكُم في رءوسِهم سوى تُرَّهاتٍ وأضاليل.

ويُجادَل حوْل اختيارِ التحليلِ أو التركيبِ في دراسةِ العلوم، ولكن لا يُحتاج إلى الاختيارِ دائمًا؛ فمما يحدُث أحيانًا إمكانُ التحليلِ والتركيبِ في المباحثِ عينِها، وإمكانُ إرشادِ الولدِ بالمنهاجِ التعليمي مع اعتقاده أنَّه لا يصنعُ غيرَ التحليل. وهنالك إذ يتَّخذُ هذا وذاك فإنه ينتفعُ ببراهينهما مقابلة، وهو إذ يذهب من النقطتَين المتقابلتَين معًا، وذلك من غيرِ أن يُفكِّر في سلوكهِ عينَ الطريق، فإنه يُدْهَشُ من التقائهما، ويكون هذا الدَّهَش مُمتِعًا جِدًّا، ومن ذلك أنني أريد تناول الجغرافية من هذين الحدَّيْن، وأن أضيف إلى درس تحولات الكرة الأرضية قياس أجزائها بادئًا من المكان الذي يُسكَن، فبينا يَدرُس الولدُ الكُرَة وينتقل إلى السموات على هذا الوجه أعيدوه إلى تقسيم الأرض ودُلُّوه إلى موطنه قبل كلِّ شيء.

وستكون نقطتاه الأولَيَان في الجغرافية مدينتَه التي يقيم بها ومنزلَ أبيه في الريف، ثُمَّ الأماكنَ المتوسطة، ثُمَّ الأنهارَ المجاورة، ثُمَّ منظرَ الشمس وكيفيةَ الاتجاه، وهذه هي نقطة الالتقاء. ولْيَصنع الخريطة بنفسه، ولتكن الخريطة بسيطة جِدًّا، ولْيكن أوَّلَ ما تشتمل عليه موضعان يُضيفُ إليهما مواضعَ أخرى مقدارًا فمقدارًا، وذلك كلَّما عَرَف مساوفَها ومراكزَها أو قدَّرها، وتُدرِكون أيُّ فائدةٍ قد حبَوْناه بها مقدمًا بجعلنا بيكارًا في عينيه.

ومع ذلك فإن مما لا مراء فيه وجوبَ إرشاده قليلًا، ولكن قليلًا جِدًّا، وذلك غير أن يَشعر، فإذا ما أخطأ فدَعُوه وخطأَه، ولا تُصلِحوا خطأه مطلقًا، وانتظروا صامتِين حتى يراه ويُصلِحَه بنفسه، أو انتظروا على الأكثر فُرصة ملائمة تأتون فيها من الأعمال ما يَشعُر معه بخطئه. وهو إذا لم يُخطئ قَطُّ لم تَكْمُل معرفته، وهو فضلًا عن ذلك لا يحتاج إلى معرفة طُبغرافية البلد معرفة تامة، بل يحتاج إلى وسيلة الاطلاع عليها، وليس من المهم كثيرًا أن يجمع في رأسه خرائط، وذلك على أن يتمثَّل جيِّدًا ما تُمثِّله، وعلى أن يكون لديه فكرٌ واضحٌ عن الفنِّ النافع في وضعها، وانظروا إلى الفرق بين معرفة تلاميذكم وجهل تلميذي! هم يَعْرِفون الخرائط، وهو يضعها، وهذه زخارف جديدة يُزيِّن بها غرفته.

واذكروا دائمًا عدم قيام روح منهاجي على تعليم الولد أمورًا كثيرة، بل على عدم إدخالي في دماغه غيرَ أفكارٍ صائبةٍ واضحة، وليس من المهم ألَّا يَعْرِف شيئًا، ولكن على ألَّا يخطئ، ولا أضع في رأسه حقائق إلا لصيانته من الخطأ الذي يتعلَّمُ وضعه في مكانها، ويأتيه الصواب والتمييز ببطء، وتُسرِع المُبتَسَراتُ إليه جملة، والمُبْتَسَرات هي التي تجب وقايته منها. ولكنكم إذا نظرتم إلى العِلم نفسه خُضتم بحرًا لا قعر له ولا ساحل، خُضتُم بحرًا مملوءًا صخرًا لا عود منه مطلقًا. وإذا ما رأيتُ رجلًا مُولعًا بالمعارف يَدَع نفسه تُغْوَى بفتونها، فيعدو وراء واحدةٍ بعد الأخرى من غير أن يستطيع الوقوف، اعتقدتُ أنني أرى ولدًا على الشاطئ يجمعُ صدفًا، فيأخذ في حَمْلها، ثُمَّ يُغرَى بما لا يزال يرى فيُلقي ما حَمَلَ ثُمَّ يعود فيأخذه حتى يُثقَلَ بكثرة ما نال فلا يَعرِف كيف يختار، فيرمي جميع ما حاز ويرجِع فارغًا.

وكان الزَّمن طويلًا في الدور الأوَّل من العُمُر، فلم نحاول غير إضاعته خشية سوء استعماله، والأمر هناك عكس ذلك، وليس لدينا ما يكفي لصُنع ما يكون نافعًا، وفكِّروا في اقتراب الأهواء، وفي أنها إذا ما قَرَعت الباب عاد تلميذكم لا ينتبه لغيرها. ويكون دورُ الذكاء الهادئُ من القِصَر ما يمُرُّ معه بسرعة، ويكون من كثرة العادات الضرورية ما يُعَدُّ من الحماقة أن يُرَادَ معه كونه كافيًا لجعْل الولد عالمًا. ولا يَعْنيكم أن تعلِّموه العلوم، بل أن تمنحوه من الذوق ما يُحبُّها معه ومن المناهج ما يتعلَّمها به عندما يصبح هذا الذوق أحسن نشوءًا. ولا ريب في أن هذا مبدأ أساسي لكل تربية صالحة.

وهذا أيضًا وقتُ تعويده بالتدريج إنعامَ النظر في عين الموضوع، ولكن ليس القسر، بل اللذة أو الرغبة، ما يجبُ أن يؤدي إلى هذا الانتباه، ويجب أن يُعنَى كثيرًا بألَّا يُرهقه الانتباه مطلقًا، وبألَّا يُفرَط فيه حتى السَّأم، فارقبوا الأمرَ دائمًا إذَن، ومهما يكُنْ من أمرٍ فدَعُوا كلَّ شيءٍ قبْل أن يسأم؛ وذلك لأن مقدار ما يتعلَّم ليس من الأهمية بمقدار عدم جعله يتعلَّم على الرغم منه.

وإذا سألكم بنفسه فأجيبوه بمقدار ما يجب لتغذية حُبِّ الاطلاع فيه، لا لإشباعه، وإذا ما أبصرتم أنه لا يسأل ليتعلم، بل يَهْذِرُ بإرهاقكم بأسئلةٍ سخيفة، فقِفوا من فَوْرِكم واثقين بأنه عاد لا يكترث للسؤال عن الشيء، ولكن ليستعبدكم لاستنطاقاته؛ ولذا يجب أن يكون التفاتكم إلى الباعث الذي يَحمِلُه على الكلام أكثر مما إلى الكلمات التي يَنطِق بها، ولا يلبث هذا التحذير الذي كان أقل لزومًا حتى الآن أن يصبح بالغ الأهمية حينما يأخذ الولد في التعقُّل.

وتوجد سلسلةٌ من الحقائق ترتبط جميع العلوم بها في مبادئ شاملة، وتنمو بالتعاقب، وهذه السلسلة هي منهاج الفلاسفة، وليس بها ما نُعنَى به الآن، وإنما يوجَدُ مِنهاجٌ مختلفٌ آخر يمكِنُ كلَّ موضوعٍ خاصٍّ أن يستدعيَ به موضوعًا آخر، فيَنِمُّ على ما يليه دائمًا، وهَلُمَّ جَرًّا. وهذا النظام الذي يُغذِّي بفضولٍ مستمرٍّ ما يطلب الجميعُ من انتباه؛ هو النظام الذي يَتَّبِعُه مُعظَم النَّاس، ولا سيَّما اللازم للأولاد. ونحن إذ نَقصِد أن نضع خرائطنا، يجب أن نرسمَ دوائرَ لنصف النهار، وما يكون من نقطتي تقاطعٍ بين ظلال الصباح والمساء المتساوية يُعطي فلكيًّا في الثالثة عشرة من سنيه دائرة نصف نهارٍ رائعة. بَيْدَ أن دوائرَ نصفِ النهارِ هذه تزول، ولا بُدَّ من انقضاءِ وقتٍ حتى تُرْسَم، وهي تقضي بالعمل في عينِ المكانِ دائمًا، وما يُبذَل من كثيرِ عنايةٍ وجهدٍ يُورِثُه سأمًا في نهاية الأمر، وقد أبصرنا هذا، فنتلافاه مقدمًا.

وها أنا ذا داخلٌ دائرة الجزئيات المُطوَّلة الدقيقة، وأسمع تذمُّرَكم أيها القراء فأقتحمه، ولا أريد أن أُساير مَلالكم مُطلَقًا، فأضحِّي بأنفع قِسمٍ من هذا الكتاب، وتحزَّبوا على إسهابي لتحزُّبي على شكواكم.

ومما لاحظت أنا وتلميذي منذ زمن طويل أن بعض الموادِّ كالعنبر والزجاج والشمع تجتذب التِّبنَ إذا ما دُلِكَت، وأن موادَّ أخرى لا تجتذبه. ومما وجدناه مصادفةً مادةٌ لها خاصيةٌ أغرب من تلك، وهي أن تجتذب من مسافةٍ ومن غير دَلْكٍ بُرادة الحديد وسُقاطاته، وما أكثر الوقت الذي أثارت فيه هذه الخاصية لهوَنا دون سواه! وأخيرًا نجدها ذاتَ صلةٍ بذات الحديد المُمَغْنَط من بعض الوجوه، ونَذْهَب إلى السوق ذات يوم،[٢] ونشاهد مشعوذًا يجذب بكِسرةِ خبزٍ بَطَّةً من شمعٍ عائمةً في حوض ماء، ويعترينا دَهَش، ولا نقول مع ذلك إن هذا ساحر؛ وذلك لأننا لا نَعْرِف ما الساحر، وما انفكَّت نتائجُ ما نجهَلُ عِلَلَه تَقِفُ

[٢] لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك حينما قرأت نقدًا دقيقًا لمسيو فورمه حول هذه القصة الصغيرة؛ فقد قال: «إن هذا المشعوِذ الذي يعتز بمنافسة صبي، ويعظم مُعلِّمه بوقار؛ هو فردٌ من عالم الإميلين.» فما كان المتنادر مسيو فورمه ليستطيع أن يفترض أن هذا الفصل الصغير مُدبَّر، وأن المشعوذ كان عارفًا بالدور الذي يمثله؛ وذلك لأنني لم أقل ذلك قَطُّ كما هو الواقع، ولكن ما أكثر ما صرَّحت بأنني لم أكتب قَطُّ لأناسٍ ينتظرون أن أقول كل شيء!

نظرنا، وذلك من غير أن نبادر إلى الحكم فيه، ونظلُّ فارغي البال مقيمين على جهلنا حتى نجد الفرصة التي نخرُج بها منه.

ونَعُود إلى المنزل، ونتكلم حول بطَّة السوق، ويَعِنُّ لنا أن نُقلِّدَها، ونتناول إبرةً صالحةً مُمغنَطةً جيِّدًا، ونشتمل عليها بشمع أبيض، ونجعلها على شكل بطة على قدْر الإمكان، وذلك على أن تَنفُذَ الإبرةُ جسمَها، وأن يكون الرأس منها مِنقارًا، ونضع البطة على الماء، ونُدني من المِنقار حلْقة مفتاح، ونُبصِر بسرورٍ يَسهُلُ إدراكه اتِّباع البطة للمفتاح كاتِّباع بطة السوق لكِسرة الخبز. وأمَّا ملاحظة الاتجاه الذي تَقِفُ البطة عليه فوق الماء عندما تُترَك ساكنة؛ فهو ما نصنعه في مرةٍ أخرى، وأمَّا الآن فلا نريد أن نفعل أكثر من ذلك لانهماكنا في موضوعنا كليًّا.

وفي المساء نفسِه نعود إلى السوقِ مع خُبزٍ مُعَدٍّ في جيوبنا، ويعود المشعوذُ إلى دوره، فيقول له عُوَيْلِمي الذي لا يكادُ يَملِك نفسَه، إن تمثيلَ هذا الدورِ غيرُ صعب، وإنه يستطيع أن يقومَ بمثله، ويُكلَّف بذلك، فيُخرِج من جيبِه حالًا كِسرَةَ خُبزٍ مشتملةً على قطعةٍ من الحديد، ويَخفِق فؤادُه عند دُنوِّه من المِنضدة، وترتجف يده تقريبًا عند عرضِه كِسرَة الخبز، وتأتي البطة وتتبعه، ويصرخ الولد وينطُّ فَرَحًا، وما كان من تصفيق الحضور وهُتافهم أدار رأسه وأطار لُبَّه، ومع ذلك يأتي المشعوذُ القانط لتقبيله وتهنئته، ولكي يرجو منه أن يُشرِّفه بحضوره في الغد مرةً أخرى، مُضيفًا إلى ذلك قولَه إنه سيبذُل جُهدَه في جمْع أُناسٍ أكثر من أولئك ليهتفوا لبراعته، ويشمَخُ عُوَيْلِمي الطبيعيُّ بأنفه ويريد أن يثرثر، وأمنعه من الكلام حالًا، وأعود به مشمولًا ثناء.

والولد حتى الغد يَعُدُّ الدقائق بقلقٍ مُضحِك، وهو يدعو كلَّ مَن يلاقي، وهو يَوَدُّ لو يكون جميع النوع البشريِّ شاهدَ مَجْدِه، وهو ينتظر الساعة بعياء، وهو يسبِقُها، ويُهرَع إلى المُلتَقى، ويجِد القاعة زاخرة، وينفرِج غمُّه حين يدخُلها، ولا بدَّ من تقدُّم ألعابٍ أُخَرَ، ويتفوق المشعوذ ويأتي بالعجائب، ولا يرى الولد شيئًا من كلِّ هذا، ويتململ، ويعرق، ولا يكاد يتنفَّس، ويقضي وقته في مسِّه كِسرَة الخبز داخل جيبه بيدٍ مرتعشةٍ جَزَعًا. وأخيرًا يأتي دوره، ويُقدِّمه المُعلِّم إلى الجمهور مُحتفيًا، ويقترب على استحياء، ويُخرِجُ كِسرَة خبزه. ويا لتقلُّب أمورِ البشر من جديد! لقد صارت البطة الطائعة بالأمس نَفُورًا اليوم؛ فهي تولِّي ذَنَبها وتفِرُّ بدلًا من أن تُقدِّم مِنقارَها، وهي تتجنَّب كِسرَة الخبز واليد التي تَعْرِضها بمثل الجهد الذي أبدته في اتِّباعهما سابقًا، ويحاول ألف مرةٍ على غير جدوَى،

ويُسخَر منه تِباعًا، ويتوجَّع الولدُ ويقولُ إنه خُدِع، وإن بطَّةً أُخرى استُبدِلت بالأُولى، ويدعو المشعوذَ إلى اجتذابها.

ويتناول المشعوذُ كِسرَةَ خُبزٍ من غير أن يجيب، ويُقدِّمها إلى البطة، وتتبع البطة كِسرَة الخبز من فورها، وتأتي اليد التي تجتذبها، ويتناول الولد ذاتَ الكِسرةِ فلا ينال نجاحًا كما في المرة الماضية، وهو يرى البطة تهزأ به وتدور حول الحوض، وأخيرًا يبتعد مرتبكًا تمامًا غير متجرِّئٍ على مواجهة السخريات.

وهنالك يتناول المشعوذ كِسرة الخبز التي كان الولد قد أحضرها ويستخدمها بتوفيقٍ كالذي اتفق لكِسرَته، وذلك أنه يُخرِج الحديدة منها أمام جميع النَّاس، وهذا هُزُوءٌ آخرُ على حسابنا، ثُمَّ إنه يجتذب البطة كما في السابق بهذه الخُبزَة التي أُخليت على ذاك الوجه. وهو يفعل الشيء عينه بكسرةٍ أُخرى قُطِعَت أمام النَّاس من قِبَل شخص ثالث، وهو يَصنَع مثل هذا بقفازه ومن طَرَف إصبعه. وأخيرًا ينأى إلى وَسَط الغرفة ويُعلِنُ بتبجُّحٍ خاصٍّ بمن هم على شاكلته أن بطته ليست أقلَّ إطاعةً لصوته منها لحركة يده، ويُكلِّمُها وتُطيع، ويقول لها أن تذهب إلى ناحية اليمين فتذهب، ويقول لها أن تعود فتعود، ويأمرها بأن تدور فتدور، وتتمُّ الحركة بسرعةٍ وَفْقَ الأمر، ويتضاعف الهُتافُ فيكون خِزيًا علينا بهذا المقدار، ونَنسَلُّ من غير أن يشعر بنا أحد، ونختلي في غرفتنا من غير أن نَقُصَّ خبر نجاحنا على النَّاس كما كُنَّا عازمين عليه.

ويُقرَع بابُنا في صباح الغد، وأفتح فأجِدُ أن المشعوذ هو الطارق، ويشكو بتواضعٍ من سلوكنا، وماذا صنع نحونا حتى نريدَ الإساءة إلى سُمعة ألعابه ونَحرِمَه عيشه؟ وما يكون من عجيب إذن في صنعةِ اجتذابِ بطةٍ من شَمْعٍ حتى يُبتاع هذا الشرف ضَرًّا بمعاش رجل شريف؟ «صدِّقوني يا سادتي، لو كان عندي نُبوغٌ آخرُ لأعيش ما باهيت بهذا مطلقًا، وثِقوا بأن الرجل الذي قضى حياته في ممارسة هذه الصنعة الحقيرة يَعرِفُها أكثر مما تعرفون أنتم الذين يُعنَوْن بها لبضع ساعات. وإذا كنتُ لم أُبدِ لكم في البُداءة أحسنَ ما عندي من حِيَل؛ فذلك لأنه لا ينبغي أن يُبادَر بطيشٍ إلى عَرْضِ ما يُعْرَف، وإني أُعنَى دائمًا بحفظِ أروعِ الحِيَل لإظهاره في الوقتِ المناسب، ولا يزال يوجد لديَّ من الأدوارِ ما أَقِفُ به عند حدِّ كلَّ فتًى قليلِ الفطنة. وبعدُ أيها السادة، ترونني قد أتيتُ مختارًا لأُعْلِمكم ذلك السرَّ الذي حيَّرَكم كثيرًا، راجيًا ألَّا تسيئوا استعماله ضَرًّا بي، وأن تكونوا أكثر احترازًا في المستقبل.»

وهنالك أطلعَنا على جهازه، فرأينا دَهِشين أنه لا يَعدو كونه مغنطيسًا قويًّا حَسَنَ الإعداد، كان يُحرِّكه ولدٌ مُختَفٍ تحت مِنضَدةٍ من غير أن يُشعَر به.

ويطوي الرجل آلته، ونُريد أن نُقدِّم إليه هديةً بعد الشكر له والاعتذار إليه، فيرفُضها ويقول: «كلا يا سادتي، لا أكون مَدينًا لكم بشُكران حتى أقبلَ عطاياكم، وسأدَعُكم مَدينين لي على الرغم منكم، وهذا هو انتقامي الوحيد، واعلموا وجود جُودٍ في جميع الأحوال، وأجود بحِيَلي من غير أن أُلقي دروسًا عنها.»

ويخرُج موجِّهًا لومًا إليَّ من فوره، وذلك بقوله لي: «أعذُرُ هذا الولدَ الطيِّبَ الخاطر؛ فهو لم يُذنِب إلا عن جهل، وأمَّا أنت يا سيِّدي فقد كان يجب أن تعرف خطأه، فلِمَ تركته يقترفه؟ وبما أنكما تعيشان معًا، وبما أنك أكبرُ منه سِنًّا، فإن الواجب يقضي بأن تُحسِن رعايته وأن تَمْحَضَه النصح، وتُعَدُّ تجرِبتُك دليلًا يَجِبُ أن يهتدي به، فإذا ما كَبُرَ ولام نفسه على ذنوبه لامَك، لا ريب، على عدم تحذيره منها أيامَ صِبَاه.»[٣]

وينصرف، ويتركُنا نحن الاثنين خَجِلين جِدًّا، وألوم نفسي على سلوكي سبيلَ التساهل، وأعِدُ الولدَ بأنني سأضع مصلحته في المرتبة الأُولى لمرةٍ أخرى، فأخبره بأغاليطه قبل أن يقترف منها، وذلك لاقتراب الوقت الذي تتغير فيه صِلاتُنا، والذي يجب أن تَعْقُب شدةُ المُعلِّم فيه مجاملةَ الصديق، ويجب أن يَقَعَ هذا التحوُّل بالتدريج، ويجب أن يُبصَر كلُّ شيء، وأن يقع ما يُبصَرُ من مَدًى بعيدٍ جِدًّا.

وفي الغد نعود إلى السوق لنرى الحيلةَ التي عرفنا سِرَّها حديثًا، ونقترب من المشعوذ سُقراطَ حاملين له أعظمَ احترام. ولم نكد نجرؤ على رَفْعِ أعيننا إليه حتى غَمرَنا بضروب الإكرام ووضعَنا في مكانٍ ممتاز، فكان لنا بهذا حِسُّ خِزْيٍ أيضًا، ويقوم بحِيَله كالعادة، ولكنه يتلهَّى بالبطة ويجاريها طويلًا ناظرًا إلينا في الغالب بنظرات المُفاخِر، ونعرِف كل شيء، ولا ننبس ببنت شفة، فلو جرؤ تلميذي على فتح فمه لكان ولدًا يستحقُّ السحق.

[٣] وهل عليَّ أن أفرض على القارئ من الغباوة ما لا يشعر معه في هذا التعنيف بخطابٍ يمليه المُعلِّم حرفيًّا للدعوة إلى وجهات نظره؟ وهل يُفترض كوني من الغباوة ما أعطي معه مشعوذًا هذه اللهجة؟ أراني قد أقمت على الأقل دليلًا على صاحب نبوغ وضيع يخاطب الناس بما يلائم حالهم. وكذلك انظروا إلى آخر الفقرة التالية، ألم تشتمل على قولٍ لكل شخص آخر غير مسيو فورمه؟

تنطوي دقائق هذا المثال كلُّها على طائلٍ أكثر مما يَلُوح، وما أكثر ما يشتمل عليه الدرسُ الواحد من دروس! ويا للعواقب المُهينَة التي تجُرُّ إليها حركة الزهو الأُولى! فيا أيها المُعلِّم الشاب، ارقُب هذه الحركة الأُولى بدقة، وإذا ما استطعت أن تُمَهِّدَ بها السبيلَ لخزيٍ أو زوال حُظوَة،[٤] فاطمئنَّ إلى عدم تكرارها لزمنٍ طويل، ويا لَلأُهَب كما تقول! وأوافق على هذا، وذلك كلُّه لتجهيزنا ببوصلةٍ تُغنينا عن دائرة نصف النهار.

وإنَّا، بعد أن علمنا أن المغنطيس يؤثِّر في الأجسام الأخرى، لم يَبْقَ لدينا ما نبادر إليه غيرُ صُنع آلةٍ مشابهةٍ للتي رأينا، وأن نُعِدَّ مِنضدةً مُجوَّفةً وحَوْضًا مبسوطًا على مستوى المِنضَدة مملوءًا ماءً ضحضاحًا، وأن نُعِدَّ بطةً حسَنةَ الصُّنع ... إلخ. ونُنعِمُ النظر حول الحوض غالبًا، فنلاحظ أخيرًا أن البطة الساكنة تَتْبع عينَ الاتجاه دائمًا، ونتتبَّع هذه التجرِبة ونفحَصُ هذا الاتجاه فنجِدُ أنه من الجنوب إلى الشمال. ولا نحتاج إلى ما هو أكثر من هذا؛ فقد وُجِدَت بَوْصَلَتُنا أو ما يَعْدِلها، وهكذا نلج نطاق الفِزْياء.

وتشتمل الأرض على أقاليمَ كثيرة، وتختلف هذه الأقاليم باختلاف درجات الحرارة، وتختلف الفصول اختلافًا محسوسًا كلَّما اقْتُرب من القطب، وتنقبض جميع الأجسام بالبرد وتنبسط بالحر، وأكثرُ ما تُقاسُ به هذه النتيجة في الموائع، وأكثرُ ما تكون محسوسةً في المشروبات الروحية، ومن هنا أتى ميزان الحرارة، والريح تلطِمُ الوجه؛ ولذا فإن الهواء جسمٌ سيَّال، ويُشعَر بالهواء وإن لم تُوجَد وسيلةٌ لرؤيته، واقلِبوا كأسًا في الماء تجِدوا أنه لا يملؤها ما لم تتركوا للهواء مَخرَجًا؛ ولذا يكون الهواء قادرًا على المقاومة، واغْطِسوا الكأسَ أكثر من ذلك في الماء تَجِدوا الماء يَكسِب فضاءً من الهواء من غير أن يَملأ هذا الفضاء تمامًا؛ ولذا يكون الهواء قادرًا على الانقباض إلى حَدٍّ معيَّن، وتَنِطُّ الكُرَةُ المملوءة هواءً مضغوطًا بأحسن مما تكون مملوءةً بأية مادةٍ أخرى؛ ولذا يُعَدُّ الهواء جسمًا مَطَّاطًا، واستلْقُوا في الحمَّام، وارفعوا ذراعكم أُفقيًّا خارج الماء تشعُروا بأنها مُثقَلَةٌ بأوزانٍ هائلة؛ ولذا يكون الهواء جسمًا ثقيلًا، ووازنوا بين الهواء والسيَّالات الأخرى تستطيعوا قياس ثِقَله، ومن هنا أتى ميزانُ الجوِّ والمِمَصُّ والأنبوبُ الهوائي ومُفَرِّغةُ الهواء. ولو بحثتَ في قوانين

---

[٤] إذن يكون هذا الخزي وزوال الحُظوة من عملي لا من عمل المشعوذ، وبما أن مسيو فورمه يريد أن يستولي على كتابي، وأن يطبعه على شكلٍ لا يغيِّر فيه غير نزع اسمي منه ووضع اسمه في مكانه، فليكلف نفسه على الأقل بأن يقرأه، ولا أقول أن يؤلِّفه.

تَوازُنِ الأجسامِ وتَوازُنِ السوائل؛ لوجدتَها قد قامتْ على تجارِبَ غليظةٍ كهذه، ولا أرغبُ في دخولِ غرفةِ الفيزياء التجريبية لشيءٍ من جميع ذلك، فلا يروقني جميعُ جهازِ هذه الآلاتِ والأدوات؛ فالجوُّ العلميُّ قاتلٌ للعلم؛ وذلك لأن جميع هذه الآلات تخيف الولد أو لأن صُوَرَها تُقاسِمُ ما يجب أن يُبديه من انتباهٍ نحو نتائجها وتستَرِقُ هذا الانتباه.

وأريد أن نصنع جميع آلاتنا بأنفسنا، ولا أريد البدءَ بصنع الآلة قبل التجرِبة، ولكنني أريد بعد أن نُبصِرَ التجرِبةَ مصادفةً مثلًا، أن نخترع الآلة التي تُحقَّق بها، وأُفَضِّلُ ألَّا تكون آلاتُنا متقنةً دقيقة، وأن تكون لدينا أفكارٌ أكثرُ وضوحًا عما يجب أن تكون عليه هذه الآلات وعما يجب أن تؤدي إليه من أعمال، وإني كأوَّل درسٍ عن توازن الأجسام والقُوَى لا أبحث عن الموازين، وإنما أضع عَصًا بالعَرْض على ظَهرِ كُرسيٍّ وأقيسُ بين قِسمَي العصا عند التوازن، وأُضيف إلى الأوزان من ناحيةٍ ومن أخرى، فأجعلُها متساويةً تارةً ومتفاوتةً تارةً أخرى، وأجذب العصا وأدفَعها كما تقضي به الضرورة، فأجدُ أخيرًا أن التوازن ينشأ عن نسبةٍ متقابلةٍ بين مقدار الأوزان وطول العَتَل، وهكذا يصير عُوَيْلِمي الفِزيَويُّ قادرًا على تعديل الموازين قبل أن يراها.

ولا مِراء في أن ما يناله الإنسان من معارفَ حَوْلَ الأشياء عن تَعلُّمٍ ذاتيٍّ يكون أكثر وضوحًا وضمانًا من المعارف التي يتلقاها من الآخرين، وأَضِفْ إلى هذا ما يكون من عدم تعويد الإنسان عقلَه أن يخضَع لذي سلطانٍ بدناءة، فضلًا عن ظهوره أكثر براعةً في اكتشافه نِسَبًا وربطه أفكارًا واختراعه أجهزةً مما يحدُث له، عند انتحاله جميع هذه الأمور تلقينًا، من انحطاط ذهنه في البلادة، شأنُ جسم الإنسان الذي يُلبَسُ ويُحذَى ويُخدَمُ دائمًا من قِبَل أُجرائه، ويُجَرُّ من قِبَل خَيْله فيفقد قوة أعضائه وعادتها في آخر الأمر. وكان بوالو يفاخِرُ بأنه عَلَّم راسين نظمَ الشعر بصعوبة، فبين كثيرٍ من المناهج الرائعة لتعلُّم العلوم بأخصر الطرق ترانا محتاجين كثيرًا إلى مَن يَمنَحُنا منهاجًا نتعلَّمُها به مع الجُهْد.

وأكثرُ ما يُشعَرُ به من فائدةٍ في هذه الأبحاث البطيئة المُتعِبة هو أن يُحفظ الجسم في أثناء الدروس النظرية نشيطًا، والأعضاء مَرِنَة، وأن تُدرَّب الأيدي بلا انقطاع على ما ينفع الرجلَ من عملٍ وعادات. وكَثُرَت الآلات التي اختُرِعت لتكون دليلًا لنا في تجارِبنا وتقومَ مقام دِقَّة حواسِّنا، فتؤدي إلى إهمال تمرينها، ويُغني مقياسُ المساحة عن تقدير اتساع الزوايا، وتعتمد العين التي كانت تُقدِّر المسافات بدقة، على السلسلة التي تَذْرَعها عِوضًا منها، ويُعفيني القَبَّان من الوزن الذي كنت أعْرِفه باليد، وكلَّما كانت آلاتُنا متقنةً غَدَت أعضاؤنا غليظةً خُرْقًا، وكلَّما جمعنا آلاتٍ حولنا عُدنا لا نجِدُ منها في أنفسنا شيئًا.

ولكنْ متى بَذلْنا في صُنْع هذه الآلات من الحِذْق ما يُعَوِّض منها، ومتى استعملنا في تكوينها من الفَطَانة ما نستغني معه عنها؛ كان هذا غُنْمًا بلا غُرْم، وكان هذا إضافةَ فنٍّ إلى الطبيعة، وصِرْنا أكثرَ دِقةً من غير أن نصبح أقلَّ مهارة، وإذا ما شَغَلْتُ الولدَ في مَصنَعٍ بدلًا من تغرِيَته على الكتب عَمِلَت يداه نفعًا لذهنه، وأضحى فيلسوفًا مع اعتقاده أنه ليس سوى عامل. ثُمَّ إنه يُوجَد لهذا التمرين من المنافع الأخرى ما أتكلم عنه فيما بعد، فيُرى كيف يُمكِن أن يُرْقى من الرياضات الفلسفية إلى وظائف الرجل الحقيقية.

ومما قلتُ سابقًا إن المعارف النظرية الصِّرْفة لا تلائم الأولاد مُطلَقًا، حتى مَنْ يَدنو من سنِّ المراهقة، ولكن من غير إدخالٍ لهم ضِمْنَ نِطاقِ الفيزياء، اصنع على الخصوص ما يرتبط به بعضُ التجارِب في بعض، وذلك بشيءٍ من الاستنباط؛ وذلك ليستطيعوا بهذا التسلسل أن يَضَعوها منتظمةً في أذهانهم، وأن يذكُروها عند الحاجة؛ فمن الصعوبة بمكانٍ أن تستقر الأعمال، حتى البراهينُ المنعزلة، بذاكرتهم عند عدم وجود وسيلةٍ تردُّها إليها.

وفي البحث عن سُنَن الطبيعة ابدَءوا دائمًا بأكثر الحادثات شيوعًا وأشدِّها ظهورًا، وعوِّدوا تلميذَكم عدمَ عَدِّ هذه الحادثات عِلَلًا، بل وقائع، وأتناول حجرًا، وأزعُم أنني أضعه في الهواء وأفتح يدي، ويَسْقُط الحجر، وأُبصِرُ إميلَ منتبهًا لما أفعل، وأقول له: لِمَ سَقَط هذا الحجر؟

وأيُّ ولد يَقْصُر عن فهْم هذا السؤال؟ لا أحد، ولا إميلَ أيضًا، وذلك ما لم أكُن قد بذلتُ جهدًا كبيرًا في تعليمه عدمَ الجواب عنه. وسيقول الجميع إن الحجر يسقُط لأنه ثقيل، وما الثقيل؟ هو الذي يسقط، أيسقُط الحجر لأنه يسقُط إذن؟ وهنا يتوقَّف فيلسوفي الصغير جِدِّيًّا، وهذا هو درْسُه الأوَّل في الفيزياء النظرية، وسواءٌ أأفاده هذا الدرس على هذا الوجه أم لم يُفِدْه كان هذا الدرس صائبًا دائمًا.

وكلَّما تقدَّم الولدُ ذكاءً حَمَلَتْنا عواملُ مهمةٌ أخرى على كثيرٍ من الحَذَر في اختيار أشاغيله، وهو إذا ما انتهى إلى معرفةِ نفسه بما فيه الكفاية ليتمثَّل ما يقوم عليه رفاهُه استطاع من فَوره أن يُدرِك من العلائق التي تكون على شيءٍ من الاتساع للحكم فيما يلائمه وما لا يلائمه، وهو يكون حينئذٍ في حالٍ يَشْعُرُ معها بالفرق بين الجِدِّ والهَزْل، فلا يَعُدُّ هذا غيرَ إراحةٍ لذاك. وهنالك يُمكِن الأمورَ ذات النفع الحقيقي أن تدخُل ضِمْن دروسه، وأن تُلزمه بتطبيقٍ لها أثبت مما يُعيرُه من الأُلْهُوَّات البسيطة. ومن شأن قانون الضرورة الناشئ دائمًا أن يُعَلِّمَ الإنسان باكرًا عَمَلَ ما لا يَروقه اجتنابًا لسوءٍ يؤذيه أكثرَ من ذاك،

وهذه هي عادةُ الحَذَر، وعن هذا الحَذَر الحسن الترتيب أو السيئ التنظيم ينشأ كلُّ حكمةٍ بشريةٍ أو بؤسٍ بشري.

وكلُّ إنسانٍ يريد أن يكون سعيدًا، ولكنَّ كونَ الإنسان سعيدًا يقضي ببدءِ الإنسان أن يَعْرِف ما السعادة، وتكون سعادةُ الرجلِ الفطريِّ بسيطةً بساطةَ حياته، وهي تقوم على عدم أَلَمِه، وهي تتألف من الصحة والحرية والضرورة، وغيرُ هذا سعادةُ الإنسان الأدبي، ولكن ليست هذه موضوع البحث هنا، ولا أكرر كثيرًا أنه لا يوجد غيرُ الأشياء الحسية ما يُمكن أن يكترث له الأولاد، ولا سيَّما مَن لم يُوقَظ زهوُهم، ومَن لم يُفسَدوا قَطُّ بُسمِّ الرأي.

وإذا ما أَبصَرَ الأولادُ احتياجاتِهم قبل أن يُحِسُّوها نَمَّ هذا على سابق تقدُّم ذكائهم كثيرًا، فيأخذون في معرفة قيمة الوقت، وهنالك يكون من المهمِّ أن يُعَوَّدوا استخدامه في الأمور المفيدة، ولكنْ على أن تكون هذه الفائدة مما يُبصِرُه مَنْ في سِنِّهم، وأن تكون في متناوَل مداركهم. ولا ينبغي أن يُعرَض عليهم حالًا كلُّ ما يرتبط في النظامِ الأدبيِّ وعادة المجتمع؛ فمن السخافة أن يُطالَبوا بملازمة أمورٍ قيل لهم بإبهامٍ إنها تنطوي على خيرٍ لهم من غير أن يَعرِفوا ما هذا الخير، ووُكِّد لهم أنهم ينتفعون بها إذا ما صاروا كِبارًا، وذلك من غير أن تكون لهم الآن أيةُ مصلحةٍ في هذه الفائدة المزعومة التي لا يستطيعون فهْمَها.

ولا تَدَعوا الولدَ يصنع شيئًا على قولٍ يَسْمَع؛ فلا حَسَنَ عند الولدِ غيرُ ما يشعر بأنه حَسَن، وإذا ما دفعتم الولدَ دائمًا إلى ما وراء إدراكه حَسِبتم أنكم أتيتم عملَ بصيرة، وما الأمر كذلك، وإذا ما جهَّزتموه ببعض الآلات الفارغة التي لن يستعملها مطلقًا على ما يحتمل؛ نَزَعتم منه الإدراكَ السليم الذي هو أشمل ما لدى الإنسان، وعوَّدتموه أن يُقاد من قِبَل غيره دائمًا، وألَّا يكون غيرَ آلةٍ بيدِ الآخرين، وأنتم تَودُّون أن يكون ذَلولًا في صِغَره، وهذا يعني أن يكون ميقانًا[٥] غافلًا في كِبَره، وأنتم لا تفتئون تقولون له: «إن جميع ما أطلب منك نافعٌ لك، ولكنك لست في حالٍ تُدرِكه فيه، وما يهمُّني أن تفعل هذا أو لا تفعله؟ وكلُّ ما تصنعُ هو في سبيلِ نفسِكَ وحدَها.» وما يصدُرُ عنكم من مثل هذا القول الجميل الذي تُمسِكونه به اليوم لتجعلوه حكيمًا تُعِدُّونَ به نجاحَ أقوالٍ يُمسِكه بها ذاتَ يومٍ مفتونٌ أو نَفَّاثٌ أو ثرثارٌ أو مكار، أو مجنونٌ من كلِّ نوع؛ ليوقعه في حِبالته أو ليَحْمله على انتحال حماقته.

---

٥ ★ الميقان: الذي لا يسمع شيئًا إلا أيقن به.

ومن المهم أن يَعرِف الرجلُ أمورًا كثيرة لا يُمكِن الولدَ أن يدرك فائدتها، ولكن هل يجب، وهل يمكن أن يتعلَّم الولد كلَّ ما يهمُّ الرجلَ أن يَعْرِفه؟ واسْعَوا في تعليم الولد كلَّ ما هو صالحٌ له تَرَوا أن هذا يستغرق جميعَ وقته، ولِمَ تريدون أن يَعكف الولد على دروسِ عُمُرٍ قليلِ الاطمئنان إلى بلوغه ضِرارًا بدروسٍ تلائمه اليوم؟ وستقولون: «ولكن أيكون من الوقت ما تتعلم فيه ما يَجبُ أن يُعرَف عندما يَحِلُّ الوقتُ الذي تستعمله فيه؟» وأجهَلُ هذا، ولكن الذي أعْرِف هو أن من المتعذر تَعلُّمَه قبل الأوان؛ وذلك لأن التجرِبة والشعور مُعلِّمانا الحقيقيان، وما كان الرجلُ ليَعْرِف ما يلائم الرجل إلا في الأحوال التي يوجَدُ فيها. ويَعْرِف الولدُ أنه صُنِع ليصير رجلًا، وتُعَدُّ جميعُ الأفكارِ التي يُمكِنُ أن تكون لديه حَوْلَ حال الرجل فُرَصَ تعليمٍ له، غير أنه يجب أن يبقى جاهلًا جهلًا مطلقًا للأفكار التي تدور حول تلك الحال ولا تكون في متناوله، وليس جميع كتابي غيرَ دليلٍ مستمرٍّ على هذا المبدأ في التَّربية.

ومتى انتهينا إلى إعطاء تلميذنا فكرةً عن كلمة «مفيد» كانت لدينا وسيلةٌ كبيرةٌ أخرى للسيطرة عليه؛ وذلك لأن لهذه الكلمة فعلًا عظيمًا فيه ما دام لا يُوجَدُ لها سوى معنًى واحدٍ مناسبٍ لسنِّه، وما دام يُبصِر فيها بوضوحٍ ما يلائم رفاهيته الحاضرة. وأمَّا أولادكم فلا عَمَلَ لهذه الكلمة فيهم مطلقًا؛ وذلك لأنكم لم تُعنَوا بإعطائهم فكرةً عنها تكون في متناوَلهم، ولأنه يُعهَدُ إلى آخرين دائمًا أن يتداركوا ما يكون مفيدًا لهم، فلا يحتاجون إلى التفكير بأنفسهم في ذلك مطلقًا، ولا يَعْرِفون ما الفائدة.

وما فائدة ذلك؟ هذه هي الكلمة المقدسة من الآن فصاعدًا، هذه هي الكلمة المحدِّدةُ بيني وبينه لجميع أفعال حياتنا، وهذا هو السؤال الذي يَتْبع من ناحيتي اتِّباعًا لا مراءَ فيه جميعَ الأسئلة، فيَصلُح زاجرًا لتلك الأسئلة الكثيرة السخيفة المُمِلَّة التي يُضنْي بها الأولادُ بلا مَهْلٍ وعلى غير جدْوَى، جميعَ مَن يحيطون بهم؛ وذلك ليمارسوا نحوهم نوعًا من السلطان أكثرَ من قصدِهم أن يفوزوا بفائدةٍ ما. ولا يَسأل إلا كما كان يسأل سُقراطُ ذلك الذي يُعلِّم، كأهمِّ درسٍ يُلقَى عليه، ألَّا يرغب في معرفةِ شيءٍ غيرِ نافع، فلا يَطرَحَ سؤالًا من غير سبب؛ وذلك لأنه يَعْرِف أنه سيُطلَب منه أن يُبيِّن سببَه قبل أن يَظْفَرَ بجوابٍ عنه.

ورَوْا أيَّةُ آلةٍ قويَّةٍ أضعُ بين أيديكم لتؤثِّروا في تلميذكم، وبما أنه لا يَعْرِف سببَ أيِّ شيءٍ فإنكم تستطيعون أن تحمِلوه على السكوت متى أردتم. وعلى العكس، ما أعظمَ ما تَجِدون في معارفكم وتجربتكم من نَفْعٍ في إطلاعه على فائدة جميع ما تُقدِّمون إليه! وذلك

لأنه من غير أن تُنسَبوا إلى الخطأ ينطوي وضعُكم هذا السؤالَ له على تعليمه أن يَضَعَ لكم عينَ السؤال بدَوْره، ويجب عليكم أن تتوقَّعوا في كلِّ ما تَعرِضون عليه فيما بعد أن يسير على مثالكم، فلا يفوته أن يقول لكم: «وما فائدة ذلك؟»

وقد يكون هنا أصعبُ شَرَك يجتنبه مُعلِّم، وذلك أن الولد عند طَرْح سؤاله إذا لم تحاولوا غيرَ الخروج من المأزق، فقدَّمتم إليه سببًا عنه لا يستطيع أن يُدْركه؛ يرى أنكم تستندون في دليلكم إلى أفكاركم لا إلى أفكاره، فيعتقد أن ما تقولون له صالحٌ لِسنِّكم لا لِسنِّه، فيعود غيرَ معتمدٍ عليكم، وهنالك كلُّ الخسران. ولكن أين المُعلِّم الذي يتفضَّلُ بالوقوف فجأةً ويعترف بخطئه أمام تلميذه؟ إن الجميع يتَّبِعُ قاعدةً قائلةً بعدم الاعتراف حتى بالخطأ الذي يقترف فعلًا، وأمَّا أنا فأتخذ قاعدةً قائلةً بالاعتراف حتى بالخطأ الذي لم أصنع، وذلك عندما أعجِزُ عن بَسْطِ أسبابي ضِمْن متناوَله. وهكذا، بما أن سلوكي يقوم على الوضوح في نفسه دائمًا، فإنه لا يرتاب منه دائمًا، وبهذا أحتفظ بأعظمِ اعتمادٍ حين أفترض لنفسي خطأً يكتمون مِثْلَه عند صدوره عنهم فِعْلًا.

وأوَّلُ ما يجب أن يَخْطُر ببالكم نُدرَةُ عَرْضِكم عليه ما يُلْزَم بتعلُّمه؛ فهو الذي يجب أن يَرْغبَ فيه، وأن يبحث عنه وأن يجِدَه، وعليكم أن تضعوه ضِمْنَ متناوَله، وأن تولِّدوا فيه هذه الرغبة بلباقة، وأن تُجهِّزوه بوسائل قضائها، ومن ثمَّ يجب أن تكون أسئلتكم قليلة الوقوع، ولكن مع حُسن الاختيار. وبما أنه يكون لديه ما يَطْرَح عليكم من الأسئلة أكثرَ مما تَطْرَحون عليه بدرجاتٍ فإنكم تكونون أكثرَ سِتْرًا دائمًا، وفي حالٍ تسألونه معها غالبًا: «ما فائدة معرفة ما تسأل عنه؟»

ثُمَّ بما أن مما يهمُّ قليلًا أن يَعْلَم هذا أو ذاك، على أن يُحسِنَ تَمَثُّلَ ما يتعلَّم واستعمالِ ما يتعلَّم؛ فإنه يَحْسُن عدمُ إعطائه إيضاحًا صالحًا عما تقولون له، عندما يُعْوِزُكم هذا الإيضاح، ولكن لا تتردَّدوا في أن تقولوا له: «ليس لديَّ جوابٌ حسنٌ أعطيك إياه، كنتُ على خطأ، فدَعْنا نَطرَح الموضوعَ جانبًا.» وإذا كان درسُكم في غيرِ محلِّه بالحقيقة، فلا ضَيْرَ عليكم أن تتركوه تمامًا، وهو إذا لم يكن هكذا لم تَلْبَثوا أن تَجِدوا مع قليلٍ من العناية فرصةَ جَعْل فائدته أمرًا محسوسًا.

ولا أُحبُّ الإيضاح بالكلام مطلقًا، فلا يُعيرُه الشُّبَّانُ غيرَ انتباهٍ قليل، وهم لا يحفظونه أبدًا، فالأشياءَ! الأشياءَ! ولن أكرِّر بما فيه الكفاية كوننا نمنَحُ الكلماتِ قدرةً كبيرة، فبِتربيتنا القائمة على الثرثرة لا نصنع غير ثَرْثارِين.

وبينا أدرُسُ مع تلميذي مجرى الشمس، وكيف تُعيَّن الجهات، إذ يقاطعني سائلًا عن فائدة جميع هذا كما أفترض، ويا لَروعة ما أريد أن أقول له! ويا لَكثرة الأمور التي

أغتنم فرصة تعليمه إياها حين أُجيب عن سؤاله، ولا سيَّما عند وجود شهودٍ على حِوارنا![٦] سأُحدِّثه عن فائدة الرِّحْلات ومنافع التجارة وما يُنْتِج كلُّ إقليمٍ من محاصيلَ خاصة، وعن طبائع مختلف الشعوب، وعن استعمال التقويم، وعن حساب تَعاقُب الفصول للزراعة، وعن فنِّ الملاحة، وعن طريقة السير في البحر واتِّباع الإنسان طريقَه فيه تمامًا من غير أن يَعْرِف أين هو، وسيتناول إيضاحي السياسةَ والتَّاريخ الطبيعي وعلم الفلك وأخلاق الأمم حتى الحقوقَ الدولية، وذلك على وجهٍ أُعطي تلميذي به فكرةً كبيرةً عن جميع هذه العلوم ورغبةً عظيمةً في تعلُّمِها، ومتى فرغتُ من قول كلِّ شيءٍ حُسِبْتُ متحذلقًا لم يَفْهَم أيةَ فكرةٍ منه، ويشتدُّ ميلُه إلى سؤالي عن فائدة تعيين الجهات، ولكنه لا يجرؤ على هذا خشيةَ غضبي، ويَجِدُ أن الأفضل له أن يتظاهر بفهْم ما حُمِلَ على الاستماع له، وهذا هو الوجه الذي تُزاوَل به أروع تربياتنا.

بَيْدَ أن إميل الذي نُشِّئَ تنشئةً أكثرَ خشونة، والذي نُلاقي عناءً كبيرًا في تعليمه فكرةً صعبة، لا يستمع لشيء من جميع هذا، وهو يهرُبُ عند أوَّل كلمة لا يفهَمُها مُتبَخْتِرًا حول الغرفة تاركًا إياي أُسهِبُ في الكلام وحدي. ولنبحث عن حلٍّ أخشنَ من ذاك، فلا قيمة لجهازي العلمي عنده.

وقد كُنَّا نلاحظ موضعَ الغابة الواقعة شمالَ مُونْمورَنْسي عندما قاطعني بسؤاله المزعج، وهو: «ما فائدة هذا؟» وأقول له: «الحقُّ معك، ولكن دعنا نُفكِّر في الأمر مليًّا، فإذا ما وجدناه غير صالحٍ لشيءٍ لم نَعُد إليه؛ وذلك لأن الأُلْهُوَّات المفيدة لا تُعوِزنا.» ونجد شيئًا آخرَ نفعله مُعْرِضين عن الجِغرافية بقية يومنا.

وفي صباح الغد أقترحُ عليه القيامَ بنُزهة قبل الفطور، ولا يطلُب ما هو أحسن من هذا، ويبدو الأولاد مستعدين للعدوِ دائمًا؛ ولهذا ساقان صالحتان، ونَصعد في الغابة، ونجوب المروج، ونَتِيه، ولا نعرف أينَ نحن. وعندما أردنا العودَ لم نَستَطِع أن نجدَ طريقنا. ويمر الوقت ويُقبِلُ الحَر، ونجوع، ونُسرِع، ونهيم على وجوهنا عبثًا، ولا نجد في كلِّ مكانٍ غيرَ الغاب والمقالع والسهول، ولا نجِدُ مُعلِّمًا نهتدي به، ونزيد حَرًّا وتَعَبًا وجوعًا، ولا نزيد

[٦] مما لاحظت غالبًا أنه يهدف في الدروس العلمية التي تُلقى على الطلبة إلى استرعاء سماع الحضور من الوجوه أكثر من استرعاء سماع الطلبة. وإني لعلى يقينٍ بما قلت آنفًا؛ فقد جربت ذلك بنفسي.

بسيرنا إلا تَيَهانًا، وأخيرًا نجلِسُ للاستراحة والتشاور، وأفترض أن إميلَ نُشِّئ كأي ولدٍ آخر؛ فلا يُشير مطلقًا، ويبكي ولا يَعْرِف أننا عند باب مُونْمُورنْسي التي يحجُبها عنَّا دَغَل، غير أن هذا الدَّغَلَ غابةٌ في نظره، وولدٌ في مثل قامته يُدفَن في الدَّغل.

ونقضي بضع دقائق صامتِين، وأقول له مع شيء من القلق: «أي إميلي العزيز، ما نصنع للخروج من هنا؟»

إميلُ (عَرْقانَ باكيًا بكاءً مُرًّا)**:** لا أعْرِف شيئًا، فأنا تَعِبٌ جائعٌ عطشان، ولا أستطيع أن أمضي أكثرَ مما صنعت.

جان جاك: أتعتقد أنني في حالٍ أحسنَ مما أنت عليه؟ أَوَترى أن البكاء يُعوِزني لو كنت أستطيع الفطور بدموعي؟ لا فائدة من البكاء، والمهم أن نهتديَ إلى السبيل، ولتنظر إلى ساعتك، فما الساعة؟

إميل: حلَّ وقت الظهر، وأنا جائع.

جان جاك: من سوء الحظ أن الغداء لا يأتي للبحث عني، ونحن في منتصف النهار، وهذه هي الساعة التي لاحظنا فيها أمسِ موضع الغابة من مُونمورَنْسي، لو كُنَّا نستطيع أن نلاحظ موضعَ مُونْمورَنْسي من الغابة! ...

إميل: أجلْ، ولكننا كُنَّا نرى الغابة أمسِ، ومن هنا لا نرى المدينة.

جان جاك: الأمر هكذا لو كُنَّا نستطيع أن نجد موقعَها من غير أن نراها! ...

إميل: آه! يا صديقي العزيز!

جان جاك: ألم نقل إن الغابة كانت ...

إميل: في شمال مُونْمُورَنْسي.

جان جاك: ومن ثَمَّ يجب أن تكون مُونْمُورَنْسي ...

إميل: في جنوب الغابة.

جان جاك: أعندنا وسيلةٌ نَجِدُ بها الشمال وقت الظهر؟

إميل: نعم، باتجاه الظل.

جان جاك: ولكن الجنوب؟

إميل: ما نصنع؟

جان جاك: إن الجنوب هو المقابل للشمال.

إميل: هذا صحيح، وليس علينا غيرُ البحث عن مقابل الظل، آه! ها هو ذا الجنوب! هذا هو الجنوب! لا ريب في أن مُونْمورَنْسي واقعةٌ في هذه الجهة.

جان جاك: قد تكون على حق، فلْنسلُك هذا الطريق الضيق من بين الغابة.

إميل (مُصفِّقًا مُخرِجًا صوتَ فرح): آه! أرى مُونْمورَنسي! أراها أمامنا، هي ظاهرة، لِنذهب للفَطُور، لِنذهب للغداء، لِنركض، أجل، إن لعلم الفلك فائدةً في بعض الأحوال.

واعْلَموا أنه إذا لم يَقُلْ هذه الجملة الأخيرة، فإنه يُفكِّر فيها ولا حَرَجَ، وذلك بشرط ألَّا أكون الذي يقولها، وثِقوا كما هو الواقع بأنه لن ينسى درسُ هذا النهار مدى حياته، وذلك بدلًا من أن ينساه في الغد لو كنت قد اقتصرت على افتراضه له في غرفته، فيجب الكلام ما أمكنت الأفعال، وألَّا يُقالَ غيرُ ما يُستطاع من الأعمال.

ولا يَتوَقَّع القارئ أنني أبلُغ من ازدرائه ما أورد له مثَلًا عن كلِّ نوعٍ من الدرس، ولكن مهما تكُن المسألة فإنني لا أستطيع أن أُحثَّ المُعلِّم على قياس برهانه بقابلية التلميذ؛ وذلك لأن الخطر كما قلت ليس فيما لا يَفهم مطلقًا، بل فيما يعتقد أنه يفهمه.

ومما أذكُر أنني أردت مَنْحَ أحدِ الأولاد مَيْلًا إلى الكيمياء، وذلك بعد أن أطلعتُه على كثيرٍ من الرواسب المعدِنية، فأوضحت له كيف يُصنَع المِداد، وقلتُ له إن سواده ينشأ عن حديدٍ مُجزَّأ تجزئةً دقيقة، منفصلٍ عن الزاج، وراسبٍ بسائل قلويٍّ. وبينما كنت قائمًا بإيضاحي العلمي إذ قاطعني الغادر الصغير بسؤالٍ كنت قد علَّمته إياه، وأقع في حَيرة كبيرة.

وأُفكِّر قليلًا، وأُقرِّرُ ما أصنع، فأرسِل مَن يأتيني بخمرٍ من قَبْوِ صاحب المنزل، كما أُحْضِرُ خَمرًا رخيصةً من الخمَّار، وأتناول قارورةً صغيرةً من محلول القِلْي الثابت، ثُمَّ أضع أمامي قدحَين من نَوْعَي الخمر هذين،[٧] وأقول له ما يأتي:

يُغَشُّ كثيرٌ من الغِلال لإظهاره أحسن من حقيقته، ويَخْدَعُ هذا الغِشُّ العين والذوقَ، ولكنه ضار، ويجعل الشيء المغشوش بظاهره الجميل أسوأ مما كان عليه سابقًا.

وتُغشُّ المشروبات، ولا سيَّما الخمر؛ وذلك لصعوبة اكتشاف الغش، ولأن الخادع يُعطَى ربحًا كبيرًا.

---

[٧] ينفع كل جهاز صغير يسبق الإيضاح الذي يُلقى على الولد في جعل الولد منتبهًا.

وتُغشُّ الخَمر المُزَّة أو الخضراء بالمُرْداسَنْج، والمُرْداسَنج مُحَضَّرٌ من الرصاص، والرصاص إذا رُكِّب مع الحوامض أسفَر عن مِلْحٍ حُلْوٍ مُعَدِّلٍ لحموضة الخمر، ولكنه سامٌّ لمن يتناوله؛ ولذا فإن من المهمِّ أن يُعْرَف قبل شُرب الخمر المُشتبه فيها، هل هي مُرْداسَنْجية أو لا، وهذا ما أصنع لاكتشاف ذاك.

لا تشتمل الخمرُ على روحٍ ملتهبٍ فقط، كما أبصرتم من العَرَق الذي يُستخرج منها، بل تشتمل على الحامض أيضًا، كما يُمْكِنكم أن تَعرِفوا ذلك من الخلِّ أو الثُّفْلِ الذي يُستَخرَج منها كذلك.

وللحامض علاقةٌ بالموادِّ المعدِنية، وهو يتحد معها بالانحلال تكوينًا لملحٍ مركَّب كالصدأ الذي ليس سوى حديدٍ مُنحلٍّ بالحامض المشتملِ عليه الهواء أو الماء، وكالزِّنجار الذي ليس سوى نحاسٍ منحلٍّ بالخلِّ.

غير أنه يوجد لذات الحامض علائقُ بالمواد القلوية أكثر مما بالمواد المعدِنية، وذلك من حيث كون الحامض محمولًا، بتدخُّلٍ من الأُولى في الأملاح المركَّبة التي حدثتكم عنها، على إرخاء المعدِن المتحِد به ليرتبط في القِلْي.

وهنالك تَرْسُب المادة المعدِنية، التي خرجت من الحامض المُمْسِك لها منحلة، وتجعَلُ المائعَ كثيفًا.

ولِذا فإن إحدى تَيْنِك الخمرَيْن إذا كانت مُرْداسَنجية فإن حامضها يُمسك المُرْداسَنج منحلًّا، فإذا صببتُ المائع القلوي عليها فإن الحامض يُحمَلُ على إطلاق المُرداسَنْج ليتَّحد بالقِلْي، وبما أن الرصاص يعودُ غير منحلٍّ فإنه يظهر ثانيةً ويكدِّر المائع، ثُمَّ يرسُب في أسفل القَدَح.

وإذا لم يُوجَد رَصاص،[٨] أو أي معدِن آخَر في الخمر، فإن القِلْي يتَّحِدُ اتِّحادًا هادئًا[٩] بالحامض، ويبقيان منحلَّيْن، ولا يُحدِثان أيَّ رسوبٍ كان.

---

[٨] مع أن الخمر التي تُباع مفرَّقة من قِبَل الخمارين بباريس غير مُرْدَسَنْجية؛ فإن من النادر أن تكون خالية من الرصاص؛ وذلك لأن مناضدهم مجهَّزة بهذا المعدِن، ولأن الخمر التي تفيض من الكيل تَحُلُّ قسمًا من هذا الرَّصاص حين مرورها عليه واستقرارها به. ومن الغريب أن تسمح الشرطة بهذا التجاوز الواضح الخطر، بَيْدَ أن من الواقع كون الموسرين لا يشربون من هذه الخمر فلا يكونون عرضةً لسُمِّها!

[٩] يكون الحامض النباتي حُلوًا جِدًّا، وإذا كان هذا حامضًا معدِنيًّا، وكان أقل تمددًا، فإن الامتزاج لا يقع من غير فوران.

ثُمَّ أصُبُّ من شرابي القلويِّ في القدحَيْن تتابعًا، فأمَّا قدح خمري المنزلية فيبقى رائقًا شفَّافًا، وأمَّا الآخر فيُعكَّر في ثانية، فإذا ما انقضت ساعةٌ رُئي الرصاص راسبًا رسوبًا واضحًا في أسفل القدح.

فتلك هي الخمر الطبيعية الصافية التي يَصْلُحُ شُرْبُها كما أقول مُكرِّرًا، وهذه هي الخمر المغشوشة التي تَسُمُّ، ويُكتَشَفُ هذا بذات المعارف التي تسألونني عن فائدتها، والذي يَعْرِف جيِّدًا كيف يُصْنَع الحِبْرُ يَعْرِفُ الخمرَ المغشوشة أيضًا.

وقد كنتُ مسرورًا بمثالي كثيرًا، ومع ذلك فإنني أرى عدمَ وَقْفِه لنظر الولد مطلقًا، وكان لا بُدَّ لي من قليلِ وقتٍ حتى أشعُرَ بأنني لم آتِ غيرَ حماقة، وإني من غير بحثٍ في أن من المتعذر على ولدٍ في الثانية عشرةَ من سِنِيه أن يتتبَّع إيضاحي، أرى أن فائدة هذه التجرِبة لا تدخل نِطاق ذهنه؛ وذلك لأنه إذ يذُوق الخمرَيْن يجدهما صالحتَين، فلا يُعِيرُ أيَّ فكرٍ من كلمة الغِشِّ التي رأيت أنني أوضحتها له جيِّدًا، حتى إنه لم يكن للكلمتَين الأخريَيْن (الوبيل والسُّمِّ) أيُّ معنًى عنده؛ فهو قد كان في مثل حال مؤرخ الطبيب فِليب، وهذه هي حال جميع الأولاد.

ولا وجود عندنا لما بين المعلولات والعلل من صِلاتٍ لا نُبصِرُ ارتباطَها، كما أنه لا وجودَ عندنا لِما ليس لدينا عنه فِكْرٌ من الخير والشر، كما أنه لا وجود عندنا لما لا نُحِسُّ من الاحتياجات مطلقًا، ومن المُحال أن نكترث بهذه الأمور لصنع أمورٍ ترتبط فيها. ويُبصِرُ ابنُ الخامسة عشرة سعادةَ الرجل الحكيم، ويُبصر ابن الثلاثين جلال الفردوس، ولا يُبذَل غيرُ مجهودٍ قليلٍ لنيلهما إذا لم يُتمثَّل كُلٌّ منهما، وإذا ما وقع تمثُّلُهما لم يُبذَل غير مجهودٍ قليلٍ أيضًا عند عدم الرغبة فيهما، وعند عدم الشعور بملاءمتهما لنا. أجل، إن من السهل إقناع ولدٍ بأن ما يُرَادُ تعليمه إياه نافع، ولكن إقناعه لا يُعَدُّ شيئًا إذا لم يُعرَفُ كيف يُحمَلُ على اعتقاده؛ فمن العبث أن يجعلنا العقلُ الهادئ نستحسن أو نستهجن، وليس غير الولع ما يُسيِّرُنا، وكيف نُولَع بمنافعَ لا وجود لها عندنا بَعْد؟

ولا تُطلِعوا الولدَ على شيءٍ لا يستطيع أن يراه، وبينا تكون البشرية غريبة عنه تقريبًا ولا يمكن رفْعه إلى حال الإنسان، أنزلوا الإنسانَ إلى حال الولد من أجلِه، وبينا تُفكِّرون فيما يُمكِن أن يكون نافعًا له في دَورٍ آخَرَ من العُمُر لا تُحدِّثوه عن أمرٍ غيرِ ما يرى الآن فائدته. ثُمَّ لا تقابلوا بينه وبين الأولاد الآخرين مقابلةَ قياس، ولا تُحدِثوا منافساتٍ ولا مباريات، ولا مسابقاتِ عدوٍ أيضًا، وذلك عندما يأخذ في التعقُّل، فأفضِّل مائة مرة ألَّا يتعلَّمَ ما لا يتعلَّمُ إلا عن حسدٍ وزَهو، وإنما أُدوِّن في كلِّ عامٍ ما يتفق له من تقدُّم، فأقابل بين هذا وما يتمُّ

له في العام القادم، وأقول له: «لقد نموت كثيرًا، وهذا هو الخندقُ الذي وثبت عليه والثِّقْل الذي حملتَه، وهذا هو البُعد الذي رميت إليه حصاةً والميدان الذي قطعته عدوًا بنَفَس واحد … إلخ. ولنرَ الآن ما أنت صانع.» وهكذا فإني أحرِّضُه من غير أن أجعله حاسدًا لأحد، وإذا أراد أن يتفوَّق على أعماله السابقة فليَصْنَع، فلا أرى ضررًا في منافسته لنفسه.

وأَمْقُتُ الكتبَ، والكتبُ لا تُعلِّمُ غيرَ الكلام حول ما لا يُعلَم، ويُرْوى أن هِرْمِس نقش أصول العلم على أعمدةٍ حفظًا لِمَا اكتشفَ من طوفانٍ يقع، فلو طَبَعها في رءوس النَّاس لُنِقلَت جيلًا بعد جيل؛ فالأدمغة الحسنة هي أضمن ما تُنقَش عليه المعارف البشرية.

أفلا توجدُ وسيلةٌ يُقرَّب بها بين دروسٍ كثيرةٍ مبعثرةٍ في كتبٍ كثيرة، فتُجمَع في موضعٍ مشتركٍ يَسهُل أن تُرى فيه، ويكونَ من الممتع أن تُتَّبَع عنده، ويُمكِنَ اتِّخاذُها مُغريةً حتى في ذلك الدَّور من العُمُر؟ ولو أمكن اكتشافُ حالٍ تبدو فيها جميع احتياجات الإنسان الطبيعية محسوسةً في ذهن الولد، وحيث تتقدَّم وسائل قضاء هذه الاحتياجات متعاقِبةً بعين السهولة؛ لوجب أن تُعطى مُخيِّلَتُه أوَّل تمرينٍ برسم تلك الحال رسمًا حيًّا ساذجًا.

أيها الفيلسوف الهُمام، أرى اشتعال مُخيِّلتك، لا تُزْعِج نفسك؛ فتلك حالٌ عُرِفَت سابقًا، وقد وُصِفَت بأحسنَ كثيرًا من وَصْفك إياها بنفسك، وهذا من غير إجحافٍ بك، وذلك مع أعظمِ حقيقةٍ وأكثرِ بساطةٍ على الأقل. وبما أنه لا بدَّ لنا من الكتب على الإطلاق فإن لدينا من الكتب، كما أرى، ما يُزوِّد بأفضلِ رسالةٍ في التَّربية الطبيعية، وسيكون هذا أوَّلَ كتاب يقرؤه إميل، وستتألَّف من هذا الكتاب وحدَه مكتبتُه لزمنٍ طويل، وسيحتلُّ مكانًا ممتازًا في كل وقت، وسيكون المتنَ الذي لا تكون أحاديثُنا حول العلوم الطبيعية غيرَ شَرْحٍ له، وسيُتَّخذ دليلًا في أثناء تقدُّمنا نحو حُسن الرأي، وستروقنا مطالعته دائمًا ما ظلَّ ذوقُنا غيرَ فاسد. وما هذا الكتاب العجيب إذن؟ أهو أرِسطو؟ أهو بليني؟ أهو بوفون؟ كلا، وإنما هو روبنسُن كرُوزو.

رُوبنسُن كروزو في جزيرته، هو وحيدٌ محرومٌ مساعدةَ أمثالِه وأدواتِ جميع الصنائع، وهو مع ذلك يتدارك معاشَه ويُدبِّرُ بقاءه، حتى إنه ينال شيئًا من الرفاهية، وهذا أمرٌ نافعٌ في كل دَور من العُمُر، ويوجد ألفُ وسيلةٍ لجعْله مقبولًا لدى الأولاد، وإليك كيف نَبلُغُ الجزيرة القفرَ التي صَلَحَت للقياس في البُداءة. وأوافق على أن تلك الحال ليست حال الرجل الاجتماعي، ومن المحتمل ألَّا تكون جزيرة إميل، ولكنها عينُ الحال التي يجب أن تُقدَّر جميع الأحوال الأخرى عليها، وتُرَى أضمن وسيلةٍ للترفُّع عن المُبتَسَرات، وتنظيم

الأحكام وَفْقَ ما بين الأمور من علاقاتٍ حقيقية، في وضع الإنسان نفسه موضع الرجل المنعزل، وفي حكمه في الأشياء كما يحكم هذا الرجل المنعزل ناظرًا إلى فائدتها الخاصة.

وإذا ما أُزيل كلُّ حشوٍ من هذه القصة وُجِدَ أنها تبدأ بغرق سفينة روبنسن بالقرب من جزيرته، وأنها تنتهي بوصول السفينة التي حضرت لإخراجه منها، فيكون هذا لهوًا ودرسًا لإميلَ معًا، وذلك في دَور عُمُره الذي هو موضوعنا هنا. وأريد أن يدور بها رأسه، وألَّا ينفك يُعنَى بقَصرِه ومَعْزِه وزَرْعه، وأن يتعلَّم مفصَّلًا في الأشياء — لا في الكتب — جميعَ ما تجبُ معرفته في مثل هذه الحال، وأن يتصور أنه روبنسن بنفسه، وأن يُبصر أنه لابِسٌ جلودًا وطرطورًا وحاملٌ سيفًا كبيرًا، وكلُّ ما عند روبنسن من جهازٍ غليظ، وحائزٌ مِظلَّةً قريبةً منه، فلا يكاد يحتاج إليها. وأريد أن يشغلَ بالَه بما يتخذ من التدابير إذا ما أعْوزَه هذا الشيء أو ذاك، وأن يدرُس سلوكَ بَطَلِه، وأن يبحث في هل أهمل شيئًا، وفي وجود خيرٍ من ذاك يَعْمل، وأن يُقيِّد خطأه، وأن يستفيد منه لكيلا يقع في حالٍ مماثل، فلا يتطرَّق إليكم شكٌّ في عزْمه على إقامة مثل هذه المؤسسة لنفسه؛ فهذا قصرٌ في الهواء لمن هو في عُمُره السعيد حيث لا يُعرَف من السعادة غيرُ الحرية والحاجيَّات.

ويا لَلْوسيلة التي يُجهِّز بها هذا الهوسُ رجلًا ماهرًا لم يجدها إلا ليستعملَها! يكون الولد الذي يبادر إلى إقامة مستودَعٍ في جزيرته أشدَّ حماسةً للتعلُّم من حماسة المُعلِّم للتعليم؛ فهو يريد أن يَعْرِف كلَّ ما هو مفيد، ولا يريد أن يَعْرِف غير هذا. وأنتم تعودون غير مضطرين إلى إرشاده، ولا يكون عليكم غيرُ إمساكه. ولنُسرع إذن في إسكانه هذه الجزيرة ما قَصَرَ سعادته عليها؛ وذلك لاقتراب اليوم الذي لا يُريد فيه أن يعيش في هذه الجزيرة وحدَه، وإن كان يريد أن يستمرَّ على العيش فيها، ولأن «الجُمُعة» التي لا تمسُّه الآن لا تكفيه زمنًا طويلًا.

وتؤدي مزاولة الفنون الطبيعية، التي يكفي رجلٌ واحدٌ للقيام بها، إلى البحث عن الفنون الصناعية التي تحتاج إلى تضافرِ كثيرٍ من الأيدي. أجل، تُمكِن ممارسة الفنون الطبيعية من قِبَل مُنعزلين، تُمكن ممارستها من قِبل متوحشين، ولكن الفنون الصناعية لا يمكن أن تظهر في غير المجتمع، وهي تجعل المجتمع أمرًا ضروريًّا، ويكفي الإنسانُ نفسَه ما عَرَف الاحتياجَ البدنيَّ فقط، ويجعل انتحالُ الفائضِ توزيعَ العملِ والتقسيمَ أمرًا ضروريًّا؛ وذلك لأن الرجل الذي يعمل وحيدًا إذا كان لا يكسِب غيرَ رزقه فإن مائة رجلٍ يعملون متفقين ينالون من الأرزاق ما يعيش منه مئتا رجل؛ ولذا فإنه إذا ما استراح فريقٌ من الآدميين وجب تعاون ذُرعان مَن يعملون لتلافي بطالة مَن لا يعملون شيئًا.

ويجب أن يقوم أعظم جُهْدٍ تَبذُلون على إبعادكم من ذهن تلميذكم جميعَ مفاهيم الصلات الاجتماعية التي لا تكون ضمن متناوَله، ولكن إذا ما حَمَلكم تسلسُل المعارف على إراءته اتِّباع بعض النَّاس لبعض اتِّباعًا متقابلًا فوجِّهوا جميع انتباهه نحو الصناعة والفنون الميكانِيَّة التي تَجعل بعضَهم مفيدًا لبعض، وذلك بدلًا من إراءته ذلك الاتِّباعَ من الناحية الأدبية. وإذا ما أخذتموه من مصنعٍ إلى مصنعٍ فدَعُوه يُجرِّب كلَّ عملٍ يرى، ولا تدَعُوه يتركه من غير أن يَعْرِف تمامًا سببَ كلِّ ما يُعمَل هناك، أو سببَ كلِّ ما يسترعي انتباهه؛ ولذا فاعملوا بأنفسكم، وأعْطُوه المَثلَ في كلِّ موضع، وكونوا تلميذًا في كلِّ مكانٍ لتجعلوا منه أستاذًا، واعلموا أنه ينال في ساعةِ عملٍ من العلم بأمورٍ أكثرَ مما ينال من إيضاحٍ يدوم نهارًا بأسْرِه.

ويوجَدُ تقديرٌ للفنون على نسبةٍ معكوسةٍ لفائدتها الحقيقية، حتى إن هذا التقديرَ يُقاس بعدم نفعها مباشرة، وهذا ما يجب أن يكون، فأفيَدُ الفنون هو أقلُّ الفنون رِبحًا؛ وذلك لأن عدد العمال يكون على نسبة احتياج النَّاس، ولأن العملَ الضروريَّ لجميع النَّاس يبقى ثمنه في حالٍ يستطيع الفقير أن يؤدِّيه معه قَسْرًا. وعلى العكس، فإن هؤلاء الأماجد الذين يُدْعَون متفننين — لا صُنَّاعًا — يعملون من أجل الأغنياء والبطَّالين، فيفرِضون ثمنًا مُراديًّا[١٠*] لتُرَّهاتهم. وبما أن أجرَ هذه الأعمال الفارغة أمرٌ خياليٌّ فإن ثمنها يكون جزءًا من هذا الأجر، فتُقدَّر بنسبة نفاستها، ولا يُقدِّرها الغنيُّ من حيث فائدتها، بل من حيث عدم استطاعة الفقير أن يؤدي ثمنها، «فلا أريد أن أحوزَ من المال غيرَ الذي يُمكِن الشعبَ أن يُحسُدَني عليه.»

وما يكون أمر تلاميذكم إذا ما تركتموهم ينتحِلون هذا المُبتَسَرَ الأحمق، وإذا ما يسَّرتموه بأنفسكم، وإذا ما رأوْكم تَدْخلون مثلًا حانوتَ صائغٍ برعايةٍ أكبرَ مما تدخلون به دُكَّان قَفَّال؟ وأيُّ حُكمٍ يساورهم حول أجر الفنون الحقيقيِّ وحولَ قيمة الأشياء الحقيقية عندما يَرَون في كلِّ مكان ثمنَ الوهميِّ مباينًا للثمن المستخرَج من النفع الحقيقي، وأن الشيء كلَّما زاد تكليفًا قلَّ ما يُساوي؟ ومتى تركتم هذه الأفكار تَدْخُل رأسهم فدَعُوا ما بقي من تربيتهم؛ فهم سيكونون كبقية النَّاس على الرغم منكم، وتكونون قد خسرتم جهود أربع عشرةَ سنة.

[١٠*] Arbitraire.

وإميل، حين يميل إلى تأثيث جزيرته، تكون له طُرُزٌ أخرى في النظر، ومن شأن روبنسن أن كان يوجِّه نظرَه إلى دُكَّانِ حدَّادٍ أكثرَ من توجيهه إلى تَوافهِ سعيد؛ فالحداد كان يَلُوح له رجلًا بالغَ الاحترام، وسعيدٌ كان يلوح له مُمَخْرِقًا حقيرًا.

«خُلِقَ ابني ليعيشَ في العالم، وهو لن يعيشَ مع العقلاء، بل مع المجانين؛ ولذا يجبُ أن يَعْرِفَ جنونَهم ما داموا يريدون أن يُقادُوا بالجنون. أجلْ، قد تكونُ معرفةُ الأشياءِ الحقيقيةِ أمرًا حسنًا، بَيْدَ أن معرفةَ الرجالِ وآرائهم أفضلُ من ذلك؛ وذلك لأن الإنسانَ في المجتمعِ البشريِّ أعظمُ آلةٍ للإنسان؛ فأعقلُ النَّاس هو خيرُ مَن يستعمل هذه الآلة. وما فائدة تلقين الأولاد فكرةً عن نظامٍ خياليٍّ مخالفٍ للنظام الذي يجدونه قائمًا، والذي يجب أن يُرتِّبوا أمورهم على مقتضاه؟ وليكُن أوَّلَ ما تُعطُونهم إياه من الدروس أن يكونوا عقلاء، ثُمَّ تُلْقون عليهم دروسًا يرون بها سبب كون الآخرين من المجانين.»

وهذه هي المبادئ المموَّهة التي يستند إليها حَذَرُ الآباء الزائف في جعل أولادهم عبيدًا لما يُغَذُّونهم به من مُبْتَسَرَات، ولُعَبًا لجُمهورٍ مجنونٍ يَرَون أن يجعلوا منه آلة أهوائهم، وما أكثرَ الأشياء التي يجب أن نَعْرِفها قبل أن نَعْرِف الإنسان! إن الإنسان هو آخرُ ما يَدرُسُ العاقل، وأنتم تقصدون أن تجعلوا منه أوَّل ما يدرُس الولدُ! فابدءوا بتعليمه تقديرَ إحساساتنا قبل أن تُعلِّموه إياها، وهل يُعرَف الجنون عندما يُخطأُ في عَدِّه عقلًا؟ ويقضي كونُ الإنسان عاقلًا بفرْز مَن ليس عاقلًا، وكيف يَعْرِف ولدُكم الرجال إذا كان لا يَعْرِف أن يحكُم في آرائهم ولا أن يَمِيزَ خطأهم؟ ومن السُّوء أن يُعرَف ما يُفكِّرون فيه على حين يُجهَلُ كونُ ما يُفكِّرون فيه خطأً أو صوابًا؛ ولذا فلتكُن الأشياء كما هي أوَّل ما تُعلِّمون ولدَكم، ثُمَّ تعلِّمونه الوجهَ الذي تبدو به لأعيننا، وهكذا فإنه سيَعْرِف أن يقابل بين الرأي الشعبي والحقيقة، وأن يرتقي فوق العوام؛ وذلك لأن المُبْتَسَرات لا تُعرَف بعد أن تُعتَنَق، ولا يقود الرجلُ الشعبَ إذا ما شابهه، ولكنكم إذا ما أخذتم في تعليمه الرأيَ العامَّ قبل تعليمه تقديرَه فاعْلموا أن هذا يَغدو رأيَه ولن تقدروا على إزالته مهما بذلتُم من جُهْد؛ ومِنْ ثَمَّ أرى أنَّ جعْلَ الفتى حصيفًا يستلزم حُسنَ تكوين أفكاره بدلًا من أن نُملي عليه أفكارنا.

وأنتم ترون أني لم أُحَدِّث تلميذي عن الرجال حتى الآن، ولا بُدَّ من أن يكون قد بلغ من الرشاد ما يُصغي معه إليَّ، ولم تكن صِلاته بنوعه من الوضوح بعْدُ ما يستطيع معه أن يحكم في الآخرين بنفسه، ولا يَعْرِف موجودًا بشريًّا غيرَ نفسه، حتى إنه بعيدٌ من أن يَعْرِف نفسه، ولكنه إذا كان لا يحمل غير آراءٍ قليلةٍ عن نفسه فإن هذه الآراء القليلة التي يحمِلُ صائبةٌ على الأقل، وهو يجهلُ ما مكانُ الآخرين، غير أنه يشعر بمكانه ويلزَمُه، وقد

ربطناه بسلاسل الضرورة بدلًا من القوانين الاجتماعية التي لا يستطيع معرفتها، وهو لا يكاد يكون غيرَ جسم، فلنُداوم على معاملته كأنه هكذا.

ويجب أن تُقدَّر جميعُ أجسام الطبيعة وجميع أعمال النَّاس من حيث صِلاتُهما المحسوسة بفائدة الإنسان وسلامته وبقائه ورفاهه، وهكذا يجب أن يكون للحديد من القيمة في نظره ما يزيدُ كثيرًا على قيمة الذهب، وأن يكون للزُّجاج من القيمة ما يزيد كثيرًا على قيمة الألماس، وهكذا يجب أن يُكرِم الحَذَّاءَ والبَنَّاءَ أكثرَ من إكرامه أمثالَ لَنْبِرَور ولُبْلَان وجميعَ صُوَّاغ أوروبة بدرجات، وأن يَعُدَّ الحلوانيَّ على الخصوص رجلًا بالغ الأهمية، وأن يَفدِي أحقرَ فطايريٍّ في شارع اللُّنْبار بجميع المجمع العلمي، وليس الصَّاغةُ والنقَّاشون والمُذهِّبون والمُطرِّزون في نظره غيرَ كُسالى يتلهَّون بألعابٍ لا تنطوي على فائدة، ولا يختلف عن هذا نظرُه إلى الساعاتي أيضًا؛ فالولد السعيد يتمتَّع بالوقت من غير أن يكون عبدًا له، وهو يستفيد منه ولا يَعْرِف قيمته، وما يكون من سكون أهواءٍ يجعل تعاقبَ الأيامِ أمرًا متساويًا لديه دائمًا، يقوم مقام الآلة لقياسه عند الضرورة،[١١] وإذا ما افترضتُ لإميلَ ساعةً، كما أفترضُ إبكاءه، جعلت منه عاميًّا ليكون نافعًا مدركًا لي؛ وذلك لأن من الصحيح ألَّا يصلُحَ ولدٌ يختلف عن الآخرين بذلك المقدار مثالًا لشيء.

ويوجد نظامٌ ليس أقلَّ طبيعة، وهو أكثرُ صوابًا، تُقدَّرُ الفنون به وَفْقَ العلائق الضرورية التي تربِط بينها، جاعلًا أكثرها استقلالًا في المرتبة الأُولى، وجاعلًا في المرتبة الأخيرة ما يتبَعُ منها أكبرَ عددٍ من غيرها، ويشابه السابقَ هذا النظامُ الذي يُزَوِّد باعتباراتٍ مهمةٍ حَوْل المجتمع العام، وهو يخضع لذاتِ العكس في تقدير النَّاس، وذلك أن استعمالَ الموادِّ الأُولى يتمُّ في الحِرَف غيرِ ذاتِ الشرفِ وغيرِ ذاتِ الرِّبح تقريبًا، وأن هذه المواد كلَّما تقلَّبَت عليها الأيدي زاد أجرُ العمل وصار شريفًا. ولا أبحث في هل من الصواب كونُ الصناعة تكون عظيمةً وتستحقُّ أجرًا في الفنون الدقيقة التي تمنَحُ آخرَ شكلٍ لهذه الموادِّ أكثرَ مما يستحقُّه أوَّلُ عملٍ يُحوِّلها إلى استعمال النَّاس، وإنما أقول في كلِّ شيءٍ إن الفن الذي يكون استعماله أكثرَ عمومًا وأعظم لزومًا هو، لا ريب، ذلك الفنُّ الذي يستحقُّ أكبرَ تقدير، وإن الفنَّ الذي هو أقلُّ ما يحتاج إلى الفنون الأخرى يستحقُّ تقديرًا أكبر مما

---

[١١] يفقد الوقت قياسه لدينا إذا ما أرادت أهواؤنا تنظيمَ مجراه كما تود، وساعة العاقل في تساوي المِزاج وهدوء النفس، وهو محافظ على وقته دائمًا، وهو يَعْرِفه دائمًا.

تستحقه الفنون التابعة؛ وذلك لأنه أكثرَ حريةً وأقربُ إلى الاستقلال؛ فهذه هي القواعد الحقيقية في تقدير الفنون والصناعة، وأمَّا غيرُها فمُرادِيٌّ تابعٌ للرأي العام.

والزراعةُ هي أوَّلُ الفنون وأكثرُها اعتبارًا، وأضعُ الحِدادةَ في المرتبة الثانية، وأضع النجارةَ في المرتبة الثالثة، وهُلمَّ جرًّا، وهذا ما يحكُم به الولدُ ضَبْطًا إذا لم تُغْوِه المُبْتَسَرَات العاميَّة. ويا للتأملات المهمة التي يستخرجها إميلُ من روبنسن حول ذلك! وفيمَ يُفكِّرُ حين يرى الفنونَ لا تتكامل إلا بانقسامها وبتكثيرِ آلاتِ كلٍّ منها تكثيرًا لا حدَّ له؟ وسيقول في نفسه: «إن جميع هؤلاء النَّاس حاذقون بما يُعَدُّون معه من الحمقى. والناظرُ إليهم يعتقد أنهم يخافون ألَّا تنفعَهم أذرُعُهم وأصابعُهم في شيءٍ ما داموا يخترعون آلاتٍ تُغنيهم عنها، وتراهم مُعبَّدين لألفِ فنٍّ حتى يزاولوا فنًّا واحدًا، فكأنه يجب أن تكون لكلِّ عاملٍ مدينة. وأمَّا أنا ورفيقي فإننا نُنفِقُ ذكاءنا في شطارتنا، فنصنع من الآلات ما نستطيع حَمْلَه في كلِّ مكان، وما كان جميعُ أولئك الذين يُباهُون بقرائحهم في باريس ليقدِروا على شيءٍ في جزيرتنا، وهم يكونون تلاميذَ لنا فيها بدَوْرِهم.»

ويا أيها القارئ، لا تَقِفْ هنا عند رؤيةِ التمرين البدني وبراعةِ يدَيْ تلميذنا، ولكن انظُر أيَّ توجيهٍ نوجِّه به ذاك الفضولَ الصبياني، انظر إلى الحِسِّ وروح الاختراع والبصر بالأمور، انظُر أيَّ رأسٍ نُكوِّنُ له، وهو يريد أن يَعْرِف كلَّ شيء، وأن يَعْرِف سببَ كلِّ شيء، في كلِّ ما يَرى وكلِّ ما يَعمَل، وهو يريد دائمًا أن يَرجِعَ إلى الأُولى بين آلةٍ وآلة، وهو لن يقول بافتراض شيء، وهو سيَرفِض تعلُّمَ كلِّ ما يتطلب سابقَ معرفةٍ غير حائزٍ لها، وهو إذا ما رأى صُنْعَ نابضٍ أراد أن يَعْرِف كيف استُخرِج الفولاذُ من المَعْدِن، وهو إذا ما رأى جَمْعَ قِطَعِ صُندوقٍ أراد أن يَعرِف كيف قُطِعَت الشجرة، وهو إذا ما عَمِل بنفسه في كلِّ آلةٍ يستخدمها لم يَفُته أن يقول: «إذا كنتُ غيرَ حائزٍ لهذه الآلة فكيف أستطيع صُنْعَ مثلها أو كيف أستغني عنها؟»

ومع ذلك فإن من الخطأ الذي يَصْعُب اجتنابُه فيما يُولَعُ به المُعلِّم من الأشاغيل هو أن يُفترَض للولد عَينُ هذا الذوق دائمًا، وكونوا على حَذرٍ عندما يستحوذ لَهْوُ العملِ عليكم، من أن يعترِيَه سأمٌ فلا يَجرؤ على إظهاره؛ فالولدُ يجب أن يكون بيت القصيد، ويجب أن تكونوا للولد كُليًّا، فتلاحظوه وتَرْقُبُوه بلا انقطاع ومن غير أن يَشعُر، ويجب أن تُبصروا جميعَ مشاعره مُقدَّمًا، وأن تَتلافَوا ما لا ينبغي وجودُه عنده، وأخيرًا يجب أن تشغَلوه بما لا يُحِسُّ معه أنه نافعٌ للشيء فقط، بل أن يكون من عوامل سروره إدراكُه نفعَ ما يصنَع أيضًا.

ويقوم مجتمع الفنون على مبادَلة الصنعة، ويقوم مجتمع التجارة على مبادلة السِّلع، ويقوم مجتمع البنوك على مبادلة النقود والسِّمات، وتتماسك جميعُ هذه الأفكار، وقد اتُّخِذَت جميعُ المفاهيم الابتدائية. وقد طرحنا أُسُسَ جميع هذا منذ الدَّوْر الأوَّل من العُمُر بعَوْنٍ من البستاني رُوبِرْت، والآن لم يبقَ علينا غيرُ تعميم هذه الأفكارِ وبسْطِها بأمثلةٍ كثيرة، وذلك ليُحمَل الولدُ على إدراك الأعمال التجارية التي تُتَّخذُ بنفسها وتُجْعَل أمرًا محسوسًا بجزئيات التَّارِيخ الطبيعي التي تُعنَى بما يُنتِج كلُّ بلدٍ على الخصوص، وبجزئيات الفنون والعلوم التي تُعْنَى بالمِلاحة، ثُمَّ بمشكلة النقل على حسبِ بُعْدِ الأماكن وعلى حسب موقع الأرَضين والبحار والأنهار … إلخ.

ولا يستطيع أيُّ مجتمع أن يُوجَدَ من غير مبادلة، ولا تستطيع أية مبادلة أن تُوجد من غير قياسٍ مشترك، ولا يستطيع أيُّ قياس مشترك أن يُوجَد من غير مساواة، وهكذا فإن القانون الأوَّل لكل مجتمعٍ يقوم على مساواةٍ عَهدِيةٍ سواءٌ بين النَّاس أو بين الأشياء.

وتَجعَلُ المساواة العهدية بين النَّاس — المختلفة عن المساواة الطبيعية — أمرَ الحقِّ الوضعي؛ أي الحكومة والقوانين، أمرًا ضروريًّا، ويجب أن تكون معارفُ الولد السِّياسيَّة واضحةً محدودة، فلا ينبغي أن يَعْرِف شيئًا عن الحكومة على العموم غير ما يناسب حقَّ التملُّك الذي يُوجَدُ لديه فكرةٌ عنه.

وقد أدَّت المساواةُ العهدية بين الأشياء إلى اختراع النقد؛ وذلك لأن النقد ليس غيرَ حدِّ مقابلةٍ بين قيمة الأشياء من مختلف الأنواع. وعلى هذا المعنى يكون النقد رابطةَ المجتمعِ الحقيقية، غير أن كلَّ شيءٍ يُمكن أن يكون نقدًا، وقديمًا كانت الماشية نقدًا، ولا يزال الصَّدَف نقدًا عند كثيرٍ من الأمم، وكان الحديد نقدًا في إسبارطة، وكان الجِلدُ نقدًا في إسوج، ونحن نتخذ نقدَنا من الذهب والفضة.

وبما أن المعادنَ أسهلُ نقْلًا فقد اتُّخِذَتْ وسائطَ جامعةً بين جميع المبادلات، وقد حُوِّلت هذه المعادن إلى نقدٍ توفيرًا للكيْل أو الوزن عند كلِّ مبادلة؛ وذلك لأن سِمَةَ النقد ليست غيرَ شهادةٍ بأن القطعة الموسومة هكذا تشتمل على هذا الوزن أو ذاك، والأميرُ وحدَه هو صاحب الحقِّ في ضَرْب النقد ما دام وحدَه صاحبَ الحقِّ في الادِّعاء بكَوْن شهادته نافذةً بين جميعِ الشعب.

ويُدرِك أغبى النَّاسِ فائدةَ هذا الاختراع إذا ما أُوضِحَتْ له على هذا الوجه، ومن الصعب أن يقابَل مباشرةً بين أشياءَ مختلفةٍ طبيعةً، كالجُوخ والقمح مثلًا، ولكنه إذا ما

وُجِد مقياسٌ مشترَك — أي النقد — سَهُلَ على الصانع والزارع أن يَرُدَّا قيمةَ الأشياءِ التي يريدون مبادلتَها إلى هذا المقياس المشترك، فإذا كان مقدار الجُوج يَعْدِل مبلغًا من النقد وكان مقدارُ القمح يَعدِل كذلك عينَ المبلغ من النقد، فإن الذي يحدث هو أن التاجرَ إذ يأخذ هذا القمحَ في مقابل جُوخِه يكون قد أتى مبادلةً عادلة، وهكذا فإن الأموال المختلفة الأنواع تصيرُ بالنقد صالحةً للقياس مُمْكنًا أن يُقابَل بينها.

ولا تذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا فتُدْخِلوا إلى الإيضاح نتائجَ هذا النظام الأدبية، ويجب في كل أمرٍ أن يُحْسَن عَرْض العادات قبل أن يُبْدَى سوءُ الاستعمالات، وإذا كنتم تَزعُمون أنكم تَشْرَحون للأولاد كيف تؤدِّي الرموزُ إلى إهمال الأشياء، وكيف نشأ عن النقد جميعُ أوهام الرأي العام، وكيف يجب أن يكون أغنى البلاد أفقرَها في كلِّ شيء، فإنكم تكونون قد عاملتم هؤلاء الأولادَ كرجالٍ عقلاء — لا كفلاسفةٍ فقط — وتكونون قد ادَّعَيتُم إسماعَهم ما لم يُدرِكْه غيرُ قليلٍ من الفلاسفة.

وما أكثرَ الأمورَ الممتِعة التي يُمكِن أن يُحوَّل إليها فضولُ التلميذ على هذا الوجه من غير أن تُترَك العلائقُ الحقيقيةُ والماديةُ التي تكون في متناوَله، ومن غير أن يُسمَح بتسرُّب فكرٍ في ذهنه لا يستطيع إدراكَه! ولا يقوم فَنُّ المُعلِّم على جعْل الولد يستند في مشاهداته إلى دقائقَ تافهة، بل على تقريبِ ذهنهِ بلا انقطاعٍ من علائقَ يجب أن يَعْرِفَها ذات يومٍ ليحكُم حكمًا صائبًا حول نظام المجتمع المدنيِّ الصالح أو الطالح، ويجب أن يكون المُعلِّم قادرًا على التوفيق بين الأحاديث التي يُلهيه بها وجَوْلاتِ الذهن التي حَبَاه بها، ومسألةٌ مثلُ هذه لا يُمكِن تلميذًا آخرَ أن يلتفت إليها ستُزْعِجُ إميلَ ستة أشهر.

ونذهب لتناول الغَداء في منزلٍ مُوسِر، ونَجِد استعدادَ عيد، نجِدُ كثيرًا من النَّاس والخَدَم، ونجد كثيرًا من الأطباق وصُحون الأطعمة اللطيفة الفاخرة، وتنطوي عُدَّة النعيم والعيد هذه على أمرٍ مُسْكرٍ لِمن لم يتعوَّدْها، وأُبصِرُ تأثيرَ جميعِ هذا في تلميذي الفتيِّ. وبيْنا تُقدَّم الأطعمة، وبيْنا تتعاقب الآنية، وبيْنا يسود المائدةَ ألفُ حديثٍ صاخب، أدنُو من أُذُن تلميذي وأقول له همسًا: «كم عدد الأيدي التي تناولت ما ترى قبل أن تَصِلَ إلى هذه المائدة؟» وما أكثرَ الأفكارَ التي أُثيرُها في دماغه بهذه الكلمات القليلة! تزول غيوم الهَذَيان حالًا، ويتصوَّر ويتأمَّل ويَحسُب ويضطربُ باله، وها هو ذا يتفلسف منزويًا وحدَه، وها هو ذا يسألني، على حينِ يَهْذي الفلاسفةُ ويَهْذِرون كالأولاد بفعل الخمر أو بفعل الجالساتِ حولَهم، وأمتنع عن الجواب، وأصْرِفه إلى وقتٍ آخَر، ويفرُغ صبرُه، ويَنسى الأكلَ والشرب، ويتحرَّق شوْقًا إلى وُجوده خارجَ المائدة ليحادثني براحةٍ. وأيُّ موضوعٍ يُثيرُ فضوله! وأيةُ

عبارةٍ تُوجِب تعليمَه! وما يكون رأيُه — بعقلٍ صحيحٍ لم يَسطِعْ أن يُفسِدَه شيء — في التَّرف عندما يجدُ أن جميعَ بقاعِ العالم تعاونت، وأن من المحتمل أن تكون عشرون مليونًا من الأيادي قد عَمِلَت زمنًا طويلًا، وأن حياةَ الألوف من النَّاس زَهَقَتْ، لِتَعْرِض عليه من الثياب الفاخرة ظُهْرًا ما يُودِع صُوانَه مساء؟

وارقُبُوا بدقةٍ تلك النتائج الخفيةَ التي يستنبطها في فؤاده من جميع هذه المشاهدات، وإذا ما رقبْتموه بأقلَّ مما أفترِضُ أمْكَنَ أن يُحوِّل تأملاتِه إلى معنًى آخَر، فيَعُدَّ نفسه ذا شأنٍ في العالم حين يرى تضافرَ كثيرٍ من الجهود في إعداد غدائه، وإذا ما أحسستم بهذه البرهنة سهُلَ عليكم أن تَحُولوا دون وقوعها، أو أن تمحُوا تأثيرها من فورِكم على الأقل. وبما أنه لا يَعْرِف حتى الآن أن ينتحل الأمورَ إلا بمُتْعتها المادية، فإنه لا يستطيع أن يحكم في ملاءمتها له أو عدمِ ملاءمتها له إلا بالعلائق المحسوسة، وما يكون من مقابلةٍ بين غداءٍ ريفيٍّ بسيطٍ مُعَدٍّ بالتمرين ومُعلَّلٍ بالجوع والحرية والسرور، ووليمته الفاخرة جِدًّا والبالغةِ التنظيم يكفي لإشعاره بأن جميعَ جهازِ المأدبة لم يُنعِم عليه بأية فائدةٍ حقيقيةٍ كانت، وبأن مَعِدته إذْ غادرت مائدة القروي راضيةً رِضاءها عن مائدة الغنيِّ، لم تَكسِب من هذه ولا تلك ما يستطيع أن يدعوه مالًا له في الحقيقة.

ولنتمثَّلْ ما يُمكِنُ المُعلِّمَ في مِثْلِ هذه الحال أن يقول له: اذكُرْ هذين الطعامَين جيِّدًا، وقرِّر بنفسك أيهما أمتعك أكثرَ من الآخر، وأيهما أورثك سرورًا أعظمَ من الآخر، وأيهما أكلت بشهوةٍ وشربت بلذةٍ وضحكت منه بمرحٍ أشدَّ مما اتفق لك بالآخر، وأيهما دام بلا سأمٍ — ومن غير احتياجٍ إلى أن يتجدد بسُمُطٍ أخرى — أطولَ مما دام الآخر؟ ومع ذلك فانظُر إلى الفرق، إن هذا الخبز الأسمر الذي تَجِده جيِّدًا ينشأ عن القمح الذي يحصُدُه هذا الفلاح، وإن خمرَه الغليظة السوداء، ولكن مع إرواءٍ واستمراء، مصنوعةٌ من غلَّة كَرْمه، وإن بياضاته تأتي من قُنَّبه، وتُغزَل في الشتاء من قِبَل امرأته وبناته وخادمته، وإن لوازمَ مائدتِه لا تُعَدُّ بيَدٍ غيرِ يدِ أُسْرته، وإن أقربَ رَحًى وسُوقٍ هما حَدَّا العالَمِ عنده، فما تمتُّعك في الحقيقة، إذنْ، بما تُقدِّمه الأرضُ البعيدةُ وأيدي الرجال على المائدةِ الأخرى؟ إذا كان كلُّ ذاك لا يَعرِض عليك أطيبَ طعام، فما تكون قد كَسَبْتَ من هذا اليُسْر؟ وما مقدارُ ما صُنِعَ منه لك؟ ويُمكِنُ المُعلِّمَ أن يضيف إلى ذلك قوله: لو كنتَ ربَّ المنزل لكان لك أقلُّ نفعٍ في ذلك؛ وذلك لأن ما تَبْذُل من جهدٍ في عَرْض بهجتك على الآخرين يَنْزِع منك هذه البهجة؛ فالعناء واقعٌ عليك، واللذةُ لهم.

أجلْ، قد يكون هذا الكلام رائعًا جِدًّا، ولكن لا قيمةَ له عند إميلَ الذي يجاوز متناولَه والذي لا تُمْلَى عليه تأملاتُ أيٍّ كان، وكلِّموه إذن بما هو أبسط من ذلك، وقولوا له في صباحِ يومٍ بعد تينك التجرِبتَين: «أين نتغدى اليوم؟ أحَوْلَ هذا الجبل الفضي الذي يُغطِّي ثلاثة أرباع المائدة، وحول أحواض الزهر الورقي التي تنفع للنُّقْلِ على المرايا، وبين هؤلاء النِّسوةِ ذواتِ الحُلَلِ الكبيرة اللائي يعاملنك مثلَ دُمْيةٍ متحركة، فيُردن أن تقول ما لا تعرف؟ أوْ في تلك القرية البعيدة من هنا فرسخَيْن، عند أولئك النَّاس الطيِّبين الذين يستقبلوننا فَرِحين ويُقدِّمون إلينا قِشْدةً فاخرة؟» ولا ريبَ في خيار إميل؛ وذلك لأنه ليس مِهذَارًا ولا مُغترًّا، ولأنه لا يُطيقُ القَسْرَ، ولأن جميع الأطعمة المُعلَّلة الناعمة لا تروقه مطلقًا، ولأنه مستعدٌّ للعدْوِ في الأرياف دائمًا، ولأنه شديدُ الرغبة في الفواكه الجيدة والخُضَر الصالحة والقِشدَة الحسنة والنَّاس الطيِّبين.[١٢] وبينما نحن سائرون في طريقنا يأتي التأملُ من نفسه «فأرى هذه الجموع من النَّاس الذين يعمَلون لإعداد هذه الولائم الكبيرة تَخسَرُ متاعبها أو أنها لا تُفكِّرُ في ملاذِّنا مطلقًا.»

وستكون أمثلتي الصالحةُ لولدٍ واحدٍ سيئةً لألفٍ آخرين، وإذا ما اتُّخِذَ روحُها عُرِف جيِّدًا كيف تُغيَّر عند الحاجة، ويتوقف الخيارُ على درْسِ قريحةِ كلِّ واحد، ويتوقف هذا الدرس على الفُرَص التي تَظْهَر بها هذه القريحة. ولن يُتصوَّر أننا نستطيع في السِّنين الثلاث أو الأربع التي نشغلُها هنا أن نمنح الولدَ الموهوب فكرةً عن جميع الفنون والعلوم الطبيعية كافيةً لتعلُّمِها ذات يومٍ من تلقاء نفسه، ولكننا إذ نَعْرِض أمامه جميعَ الموضوعات التي يهمُّه أن يَعْرِفها نضَعُه في حالٍ يَنْمو بها ميلُه ونبوغُه، ويأتي بها أُولى الخُطوات نحو الموضوع الذي تَحْمِلُه إليه قريحته، ونَدُلُّ بها على الطريق التي يجب فَتحُها لمساعَدة الطبيعة.

[١٢] يُعدُّ ما أفترضُ من أن مَيْلَ تلميذي إلى الأرياف ثمرةٌ طبيعيةٌ لتربيته، ثُمَّ بما أنه خالٍ من ذلك الزهو والهندام الذي يروق النساء كثيرًا، فإنه أقلُّ من الأولاد الآخرين احتفالًا بالأعياد؛ ومِنْ ثَمَّ يكون أقلَّ رضًا عن النساء، وأقلَّ دلالًا في مجتمعهن الذي لم يبلغ بعدُ من العُمُر ما يَشعر معه بفتونه. وقد احترزت من تعليمه تقبيل أياديهن وتملقهن، وأن يبدي نحوهن من الأدبِ أكثر مما يبدي نحو الرجال، وقد اتخذت قاعدة ثابتة قائلة بعدم مطالبته بشيء لا يدخل ضمن نطاق عقله، فلا يوجد لدى الولد سبب صالح يُعامِل به أحد الجنسين على خلاف ما يعامل به الآخر.

ولسلسلة المعارف المحدودة — ولكن الصائبة — هذه فائدةٌ أخرى، وهي أن تبدوَ له بروابطها وصِلاتها، وأن تُوضَع كُلُّها في أماكنها بتقديرٍ منه، وأن يُحال فيه دون المُبْتَسَرَاتِ التي يتخذُها معظمُ النَّاسِ عُدَّةَ ما يتعهَّدون من مواهبَ إقصاءً لمن يُغفِلونها، ومَن يَرَ نظامَ الكلِّ جيِّدًا يُبصِرِ المكانَ الذي يجبُ أن يكون للجزء، ومن يرَ الجزءَ جيِّدًا ويَعْرِفْه معْرِفَةً أساسيةً يستطِعْ أن يكون رجلًا عالمًا، ويكون الأوَّل رجلًا حصيفًا، وأنتم تذكُرون أن الحصافةَ هي ما نَقترِح اكتسابَه أكثرَ من اكتساب العلم.

ومهما يكن من أمرٍ فإن منهاجي مستقلٌّ عن أمثلتي، وهو قائمٌ على قياس قابليات الإنسان بمختلف أدوار عُمُره، وعلى اختيار الأعمال الملائمة لقابلياته. وأعتقد أن من السهل وجودَ منهاجٍ آخرَ يَلُوح به أنه يُعْمَلُ ما هو أحسن، ولكنه إذا ما كان أقلَّ صلاحًا للنوع والسِّنِّ والجنس، فإنني أَشُكُّ في أن يتَّفِقَ له ذاتُ النجاح.

ونحن حين بدأنا هذا الدور الثاني استفدنا من زيادة قُوَانا على احتياجاتنا، حَمْلًا لنا خارجَ أنفسنا. وقد انطلقنا إلى السموات، وقد قِسْنا الأرضَ، وقد اقتطفنا سُنَنَ الطبيعة، والخلاصةُ أننا طُفْنا في الجزيرةِ بأَسْرِها، والآن نَعود إلى أنفسنا، وندنو من مسكننا دُنُوًّا غيرَ محسوس، ومن السعادةِ البالغةِ أَلَّا نَجِدَه حين نَدْخُلُه قبضةَ عَدوٍّ يُهدِّدُنا ويستعدُّ للاستيلاءِ عليه!

وما يبقى أن نَعْمله بعد أن أنعمنا النظرَ في جميع ما يحيط بنا؟ يجب أن نُحوِّل إلى ما فيه نَفْعُنا كلَّ ما نستطيع أن نناله، وأن ننتفع بفُضُولنا زيادةً في راحتنا، وقد ادَّخرنا حتى الآن آلاتٍ من كلِّ نوع، وذلك من غير أن نَعرِف التي نحتاج إليها، ومن المحتمل أَلَّا تكون آلاتُنا نافعةً لنا مع نفعها للآخرين. ومن المحتمل أن نحتاج إلى آلات الآخرين بدورِنا، وهكذا فإننا نجد فائدتنا من هذه المبادلات. ولكن قيام هذه المبدلات يتوقَّف على معرفة احتياجاتنا المتقابلة، فيجب أن يَعْرِف كلُّ واحدٍ ما عند الآخرين من أشياءَ نافعةٍ له، وما يُمْكِن أن يُقدِّم إليهم مقابلة. ولْنَفْرض وجودَ عشرةِ رجالٍ تَكون لكلِّ واحدٍ منهم عشرةُ أنواعٍ من الاحتياجات، فيجب على كلِّ واحدٍ أن يُكِبَّ على عشرة أنواعٍ من الأعمال قضاءً لما يحتاج إليه، ولكنه إذا ما نُظِرَ إلى اختلاف القابلية والقريحة وُجِدَ أن الواحدَ منهم يُحسِن بعضَ هذه الأعمال، وأن آخرَ منهم يُحْسِن بعضًا آخرَ منها، ولو كان كلُّ واحدٍ منهم صالحًا لشيء فصَنعَ عينَ الأشياء لساعات خِدْمته. وإذا ما أُلِّفت شركةٌ من هؤلاء الرجال العشرة فقام كلُّ واحدٍ منهم بالعمل الذي يُجيدُه أكثرَ من غيره نفعًا له وللتسعة الآخرين فإنه يستفيد

من مواهب الآخرين كما لو كان وحدَه حائزًا لها كلِّها، وبذلك يُتْقِن عمله بتمرينٍ مستمر، وبذلك يكون العشرة الذين كَمَلَ تجهيزهم على هذا الوجه ذوي فيْضٍ لآخرين أيضًا، وهذا هو المبدأ الظاهر لجميع نُظُمنا. وليس من موضوعي أن أبحث في نتائجه هنا؛ فقد صنعتُ هذا في كتابٍ آخر.[١٣*]

وإذا ما نُظِرَ إلى هذا المبدأ وُجِدَ أن الإنسان الذي يُريدُ عَدَّ نفسه منعزلًا لا يُمكِنُ إلا أن يكون بائسًا لعدمِ استناده إلى أحد، ولكفاية نفسه بنفسه، حتى إنه يتعذَّر عليه البقاء؛ وذلك لأنه إذ يَجِدُ الأرضَ بأجمعها مِلكًا لي ولك، وليس له غيرُ بَدَنه، فمن أين ينال ما يحتاج إليه؟ ونحن إذ نخرج من حال الطبيعة نُلْزِم أمثالنا بالخروج منها أيضًا، فلا أحد يستطيع البقاء فيها على الرغم من الآخرين. ومما يُعَدُّ خروجًا منها حقًّا أن يُراد البقاءُ فيها مع تعذُّر العيش؛ وذلك لأن البقاء قانون الطبيعة الأوَّل.

وهكذا فإن أفكارًا عن الصِّلات الاجتماعية تتكوَّن في ذهنِ الولدِ بالتدريج، حتى قبل أن يستطيعَ أن يكون عُضوًا عاملًا في المجتمع حقًّا، ويرى إميلُ أن حيازتَه آلاتٍ لاستعماله تقضي بأن يكون لديه منها ما هو صالحٌ لاستعمال الآخرين، فينالَ به مبادلةَ أشياءَ ضروريةً واقعةً تحت تصرُّفهم، ويسهُلُ عليَّ أن أجعله يشعُر بضرورة هذه المبادلات، وأن يكون في حالٍ ينتفع معه بها.

«يجب أن أعيشَ يا سيِّدي.» هذا ما قاله كاتبٌ هَجَّاءٌ بائسٌ لقسِّيسٍ لامَهُ على رِجْسِ هذه الحِرْفة. «لا أرى ضرورةً إليها.» هذا ما أجابَ به ذاك السَّرِيُّ ببرودة؛ فهذا الجوابُ الرائعُ من قِسٍّ يُعَدُّ جافيًا زائفًا إذا ما خرجَ من فمٍ آخَر؛ فمن الواجبِ أن يعيشَ كلُّ إنسان، ويَلُوحُ لي أنه لا يوجدُ ردٌّ على هذا البرهانِ الذي يعطيه كلُّ واحدٍ من القوةِ الكبيرةِ أو الصغيرةِ على حسبِ ما يكون عنده من إنسانيةٍ قليلةٍ أو كثيرة، وذلك بالنسبةِ إلى مَن يستعملُه تجاه نفسه. وبما أن مَقْتَ الموتِ أشدُّ ما تلقيه الطبيعة فينا من كراهية؛ فإنه يُستَنْتَج من هذا كَوْنُ الطبيعة تُبيحُ كلَّ شيءٍ لمن ليس لديه وسيلةٌ ممكنةٌ أخرى للعَيْش، ومن البعيد عن تلك البساطة الابتدائية ما يتعلَّمه الإنسانُ الفاضل من المبادئ حَوْلَ ازدراء حياته والتضحية بها في سبيل واجبه. ويا لسعادة الشعوب التي يُمكن الإنسانَ أن يكون صالحًا فيها من غيرِ جُهْد، وعادلًا من غير فضيلة! وإذا وُجِدَت في العالم حالُ بؤسٍ لا

[١٣*] كتاب «أصل التفاوت بين الناس»، وقد نقلناه إلى العربية (المترجم).

يستطيعُ كلُّ واحدٍ أن يعيش فيها من غيرِ أن يصنع شرًّا، وحيث يكون المواطنون خبيثين عن ضرورة، فإن الشَّرير لا يكون الشخصَ الذي يجب أن يُشْنَق، بل الذي يضطرُّه إلى أن يصير هكذا.

وإميل، حين يَعْرِف ما الحياة، يكون أوَّلَ ما أُعنَى به هو أن أُعلِّمه حِفظَها، وحتى الآن لم أُفرِّق قَطُّ بين الأحوال والمراتب والثروات، وكذلك لن أُفرِّق بينها فيما بَعْدُ مُطلَقًا، وذلك لأن الإنسان هُوَ هُوَ في جميع الأحوال. وبما أن مَعِدَة الغنيِّ ليست أكبرَ من مَعِدة الفقير وليست أصلحَ منها هَضْمًا، وبما أن ذراعَي السيد ليستا أطولَ من ذراعَي عبْده، وبما أن الكبير ليس أبلغَ طولًا من ابن الشعب، ثُمَّ بما أن الاحتياجاتِ الطبيعيةَ هي هي في كلِّ مكان، فإن من الواجب أن تكون وسائلُ قضائها متساويةً في كلِّ مكان. واجعلوا تربيةَ الإنسانِ ملائمةً للإنسان، لا لِما ليس منه مطلقًا، ألَا تَرون أنكم بعملِكم على تكوينه لحالٍ واحدةٍ حَصْرًا تجعلونه غيرَ نافعٍ لأيةِ حالٍ أخرى، وأنه إذا ما جُعِلَ وَلُوعًا بالثَّراءِ لم تعملوا على غيرِ جعْله تَعِسًا؟ وأيُّ شيءٍ أدعى إلى السخرية من أميرٍ إقطاعيٍّ صار مُعسِرًا فبدا حاملًا في بؤسه مُبْتَسَرات مَوْلده؟ وأيُّ شيءٍ أدعى إلى الازدراء من غنيٍّ أصبح فقيرًا فصار يذكر ما حُفَّ به الفقر من احتقار، فأخذ يشعُرُ بأنه أضحى آخرَ النَّاس؟ تكون لأحدهما حرفةُ اللصِّ العام، وتكون للآخر حِرفةُ الخادم المتذلل بالقول الجميل: «يجب أن أعيش.»

أنتم تركنون إلى نظام المجتمع الحاضر من غير أن يَخْطُرَ ببالكم كَوْنُ هذا النظام عُرْضةً لثوراتٍ لا مَفَرَّ منها، وكونُه يتعذَّرُ عليكم أن تُبصِروا وأن تمنعوا ما يُمكن أن يواجه أبناءَكم من فِتَن، ويصيرُ الكبير صغيرًا والموسِر فقيرًا والأمير مأمورًا، وهل ضربات القدَر من النُّدرة ما تحسَبون معه أنكم في أمنٍ منها؟ نحن ندنو من حال البُحْرَان وعَصرِ الثورات،[١٤] ومن ذا الذي يستطيع أن يجيب عما تكونونه وقتئذٍ؟ إن كل ما صَنَع النَّاس يستطيع النَّاس أن يهدموه، ولا يوجد من السجايا التي لا تَمَّحي غيرُ ما طبعته الطبيعة، ولا تَصْنع الطبيعةُ أمراءَ ولا أغنياءَ ولا إقطاعيين كبراء، وما يصنع في أثناء سقوطه إذنْ ذلك المَرْزُبان الذي نشَّأتموه للعَظَمة؟ وما يفعل حين الفقر ذاك العَشَّار الذي لا يقدِرُ أن يعيش

[١٤] أرى من المستحيل دوام المَلَكيات الكبرى في أوروبة لزمنٍ طويل؛ فقد ازدهرت كلها، ولا بدَّ من أفول كل ما يزدهر، ولدي من الآراء الخاصة ما يدور حول تطبيق هذا المبدأ العام، ولكن ليس هنا مكان بيانها، وهي كلها بادية لكل ذي عينين.

بغير الذهب؟ وما يعمل هذا المختال الغبي الذي جُرِّدَ من كلِّ شيء، فلا يَعْرِف أن ينتفع بنفسه مطلقًا، والذي لا يضعُ وجوده إلا فيما هو غريبٌ عنه؟ طوبى لِمَن يَعْرِفُ أن يَترُكَ حينئذٍ حالًا تتركه، وأن يبقى رَجُلًا على الرغم من القَدَر! وامدَحُوا ما شئتم أن تمدَحوا ذاك المليكَ المغلوبَ الذي يُريدَ أن يُدفَنَ مُغاضِبًا تحت أنقاض عرشه، وأمَّا أنا فأزدريه؛ لأنني أرى أنه لا يكون إلا من أجْل تاجه، وأنه لا يُعَدُّ شيئًا إذا لم يكن مَلَكًا، ولكن الذي يَخْسَرُ تاجَه ويستغني عنه يَعُدُّ إذْ ذاك فوقه، وذلك أنه يرتقي إلى مرتبةِ الرجل التي لا تجِدُ غيرَ القليل من الرجال مَنْ يَعرِفون بُلوغَها، وذلك من مرتبة الملك التي يستطيع نَذْلٌ أو خبيثٌ أو مجنونٌ أن يشَغلَها كغيره، وهنالك ينتصر على الطالع ويقتحمه، ولا يكون مَدينًا لغير نفسه. وهو إذا لم يَبْقَ ما يُرِي غيرَ نفسِه عاد لا يكون غُفْلًا، بل صار شيئًا ما. أجلْ، إنني أُفَضِّلُ مائة مرةٍ مَلِكَ سَرَقُوسة مُعلِّمًا لمدرسةٍ في كُورِنْتُس، وملكَ مقدونية مُوَثَّقًا في رومة، على تارْكِنَ التَّعِس الذي لم يَعْرِف غيرَ المُلك، وعلى وارث الممالك الثلاث الذي صار أُلعوبةً لِمَن يُقدِم على شتم بؤسه، هائمًا على وجهه بين بَلاطٍ وبَلاط، طالبًا عَوْنًا في كلِّ مكان، مُلاقيًا خِزْيًا في كلِّ مكان، وذلك عن عدم معرفةٍ في صُنْعِ شيءٍ آخرَ غيرِ حِرْفةٍ عادت خارجةً عن قدْرته.

ومهما يَكُنْ من أمرِ الرجلِ أو المواطنِ فإنه ليس لديه من المال ما يَضَعُ في المجتمع غيرُ نفسه، وأمَّا أموالُه الأخرى فخاصَّةٌ بالمجتمع على الرغم منه، وإذا ما كان الرجل غنيًّا فهو إمَّا ألَّا يتمتع بغناه وإمَّا أن يتمتع به الجُمهورُ أيضًا، وفي الحال الأُولى يَسْرِقُ من الآخرين ما يَحْرم نفسَه إياه، وفي الحال الثانية لا يُعطيهم شيئًا، وهكذا فإنه يَحْمِل الدَّيْنَ الاجتماعيَّ كاملًا ما دام لا يؤدِّي من غيرِ ماله، ويخدم والدي المجتمع إذ يَكسِبُ ماله، وليكن كذلك؛ فهو قد دفع دَينه لا دَينَكم، وأنتم مَدينون للآخرين أكثرَ مما لو كنتم قد وُلِدْتم بلا مال ما دُمتم قد وُلِدْتم مُنْعَمًا عليكم. وليس من الإنصاف مطلقًا أن يكون ما صَنَعَه الواحدُ للمجتمع مؤدِّيًا لدَيْنِ رجلٍ آخرَ نحو المجتمع؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ إذ كان مدينًا بكامله فإنه لا يستطيع أن يَدْفَع عن غير نفسه، ولا يَقْدِرُ أبٌ أن يترك لابنه حقًّا غيرَ نافعٍ لأمثاله، والواقعُ أنكم تقولون إنه يَصْنَع هذا مع ذلك بنَقلِه إليه ثرواته التي هي دليلُ العملِ وقيمته، ومَن يأكُلْ في البِطالة ما لم يكن قد اكتسبه بنفسه يُعَدُّ سارقًا له، ولا يختلف ذو الدخل الذي تدفعه إليه الدولة بلا مقابلٍ عن قاطع الطريق الذي يعيش على حساب أبناء السبيل. وأمَّا الرجل المنعزل، إذ كان خارجَ المجتمع وغيرَ مَدينٍ لأحدٍ بشيء، فإنه يحقُّ له أن يعيش كما يروقه، ولكنَّ الرجل في المجتمع؛ حيث يعيش على حساب الآخرين بحكم الضرورة، فإنه مدينٌ لهؤلاء بالعمل

في مقابل حِفْظهم له، ولا يوجَدُ استثناءٌ لهذا؛ فالعمل إذَن واجبٌ لازمٌ للإنسان الاجتماعي، ويُحسَب الغنيُّ أو الفقيرُ والقويُّ أو الضعيفُ — أيْ كلُّ بَطَّالٍ — سارقًا.

والحقُّ أن عمل اليد بين جميع الأشاغيل التي يُمكِن أن تُزَوِّد بمعاش الإنسان، هو أكثرُ ما يُدْنيه من حال الطبيعة، وأن حال الصانع بين جميع الأحوال هي أكثرُ ما يكون استقلالًا عن النصيب والنَّاس، ولا يَخضَع الصانع لغير عمله، وهو حُر، وهو حُرٌّ بمقدار ما يكون الأكَّارُ عبدًا؛ وذلك لأن هذا تابعٌ لحقله الذي تَقَعُ غَلَّتُه تحت تَصَرُّف غيره، ويُمْكِن العدوَّ أو الأميرَ أو الجارَ القويَّ أو إحدى القضايا أن يَسلُبَه هذا الحقلَ، ويُمكِن بهذا الحقل أن يُظلَمَ بألف أسلوب، ولكنه إذا ما أُريد ظلمُ الصانع في أيِّ محلٍّ لم تَلبَثْ أمتعتُه أن تُحْزَم وينصرف من فَوْره، ومع ذلك فإن الزِّراعة أُولى حِرَف الإنسان، وهي أفضلُ ما يُزاوِل، وأنفُع ما يُمارِس؛ ومِنْ ثَمَّ تُعَدُّ أشرفَ ما يتعاطى، ولا أقول لإميل: «تعلَّم الزراعة.» فهو يَعْرِفُها، وهو دَربٌ بجميعِ الأعمالِ الريفية، وبهذه الأعمال قد بدأ، وإليها يَرجع بلا انقطاع. ولِذا أقول له: «احْرُث تراثَ أبيك، ولكنك إذا ما أضعت هذا التراث، أو لم يكن عندك تراثٌ قَط، فما تصنع؟ تعلَّمْ حرفة.»

حِرفةٌ لابني! ابني صانعٌ! أَوَتُفكِّرُ في هذا أيها السيد؟ تفكيري في هذا خيرٌ من تفكيركِ يا سيِّدتي، أنتِ التي تُريدُ ألَّا تجعَلَ منه رجلًا لا يقدر أن يكون غير لوردٍ أو مَرْكيزٍ أو أمير، أو أقلَّ من شيءٍ ذاتَ يوم على ما يُحتمَل. وأمَّا أنا، فأريد أن أمنحه مرتبةً لا يُمكِن أن يخسَرَها، أريد أن أمنحه مرتبةً تُشرِّفه في جميع الأزمان، أريدُ أن أرفعه إلى حال الإنسان، وعلى ما يُمكِن أن تقولي سيكون له في تلك المرتبة مُساوون أقلُّ ممن يكونون له منكِ.

والحَرْفُ يقتل والروحُ يُحيي، ولأن تُتَعلَّم حِرْفةٌ لمعرفةِ حرفةٍ أقلُّ أهميةً من التغلُّبِ على المُبْتَسَرَات التي تزدريها، ولن تُلزَموا بالعمل لتعيشوا. وي! يا للحيف، يا للحيف عليكم! ولكن لا ضَيْرَ، لا تعملوا عن ضرورة، واعملوا من أجل المجد، واهبِطوا إلى حال الصانع لتكونوا فوق حالكم، وابدءوا بأن تكونوا مستقلِّين عن الثراء والأشياء لتقهروهما، وابدءوا بالسيطرة على الرأي العام حتى تُسيْطِروا به.

واذكُروا أنني لا أطالبكم بنبوغٍ مطلقًا، وإنما أطالبكم بحرفة، بحرفةٍ حقيقية، بفنٍّ ميكانيٍّ مَحْض؛ حيث تعمل الأيدي أكثرَ من عمل الرأس، وحيث لا يُنال الثراء، بل يُمكن الاستغناء عنه. وقد رأيتُ في بيوت، يُستبعد جِدًّا أن تُلِمَّ بها الفاقة، آباءً يبلغون من الحذَرِ ما يُضيفون معه إلى عنايتهم بتعليم أولادهم عنايةً بتزويدهم بمعارفَ يستطيعون الانتفاعَ

بها للعيش عند النوائب. ويعتقد هؤلاء الآباء الناظرون إلى العواقب أنهم يعملون كثيرًا، وهم لا يعملون شيئًا؛ وذلك لأن الوسائل التي يرون أنهم يُجهِّزون بها أولادهم تتوقف على عينِ الثراء الذي يريدون جعلَهم يَعْلُونه، فإذا لم يُوجَد صاحب هذه المواهب الجميلة في أحوالٍ ملائمةٍ للانتفاع بها هَلَكَ بؤسًا كأنه لم يَحُزْ واحدةً منها.

وإذا ما قام الأمرُ على الحِيَلِ والدسائس تساوَى استعمالُها للبقاء في سَعَةٍ واستعمالُها حين البؤس لِلْعَوْد إلى الحال الأُولى، وإذا كنتم تتعهدون الفنونَ التي يتوقَّف نجاحُها على شهرة المتفنِّن، وإذا كنتم تجعَلْون أنفسكم صالحين لخِدَمٍ لا تُنال بغير المحاباة، فما نفع جميع هذا عندما تَقِزُّ نفسُكم من العالم حقًّا وتزدرون الوسائلَ التي لا يُمكِن النجاحُ فيه بغيرها؟ لقد درستُم السياسةَ ومصالحَ الأمراء، وهذا حَسَن، ولكن ما تصنعون بهذه المعارف إذا كنتم لا تستطيعون الوصولَ إلى الوزراء ونساء البلاط ورؤساء الدواوين، وإذا كنتم لا تَعْرِفون سِرَّ الوقوعِ موقعَ الرِّضا عندهم، وإذا كان الجميع لا يجدون المُخادِعَ فيكم، فمن يلائمهم؟ وكونوا بنَّائين أو مصوِّرين، ولكن لا بُدَّ من التعريف بنبوغكم، أَوَتظُنُّون أنكم تعرضون أثرَكم في الرَّدْهة من غيرِ سابقِ تمهيد؟ وَيْ! ليست هذه وسيلةَ الشروع في الموضوع! يجب أن تكونوا من الأكاديمية، حتى إنه يجب أن تكونوا محلَّ رعايةٍ لتنالوا في زاويةٍ من الجدارِ مكانًا قاتمًا. دَعُوا المِسْطَرَة والمِنقاش جانبًا، واركَبُوا عربة، واقرَعوا بابًا بعد بابٍ تنالوا شُهرَة. واعلموا إذن أن لجميعِ هذه الأبوابِ المشهورةِ حُجَّابًا وحُرَّاسًا لا يسمعون بغيرِ الإشارة، وتقع آذانُهم في أيديهم، وإذا ما أردتم تدريسَ ما تعلَّمتم وأن تُصبِحوا أساتذةَ جِغرافيةٍ أو رياضياتٍ أو لغاتٍ أو موسيقا أو تصويرٍ؛ وَجَبَ أن تجدوا طُلَّابًا، ومِنْ ثَمَّ مادحين، ورَوْا أن مِن المهم أن تكونوا مخادعين أكثرَ من أن تكونوا ماهرين، فإذا كنتم لا تعرِفون مهنةً غيرَ ما عندكم لم تُعَدُّوا غير جاهلين.

وانُظروا إذنْ مقدارَ ما عليه جميعُ هذه الوسائلِ الرائعةِ من قلةِ متانة، ومقدار لزوم الوسائل الأخرى لكم لتنتفعوا بتلك، ثُمَّ ما تُصبِحون بهذا الهبوط الواني؟ تُذِلُّكم النوازل من غيرِ أن تُهذِّبَكم، وأنتم إذ تَغدُون أُلعوبة الرأي العام أكثرَ مما في أي زمن، فكيف ترتفعون فوقَ المُبْتَسَرات التي هي حَكَمُ مصيركم؟ وكيف تَزدرون الذِّلة والنقائصَ التي تحتاجون إليها لتعيشوا؟ كنتم تابعين للثروات، والآن تتبعون الأثرياء، وأنتم لم تصنعوا غير زيادة عبوديتكم سوءًا وإرهاقِها ببؤسكم، وها أنتم أولاء تَبْدُون فقراءَ من غير أن تكونوا أحرارًا، وهذه هي أسوأ حالٍ يُمكِن أن يَقَعَ فيها إنسان.

ولكنكم إذا ما استعنتم بأيديكم وبما تَعرِفون من استعمالها عند الحاجة، بَدَلًا من أن تلجئوا لتعيشوا إلى تلك المعارفِ العاليةِ التي جُعِلَت لتغذية الروح لا البدن؛ زالت جميع المصاعب، وأصبحت جميعُ الحِيَل غيرَ مجدية، وصارت الوسيلةُ حاضرةً دائمًا وقتَ استعمالها، وعادت الاستقامة والفضيلة لا تكونان عائقتَين للحياة، وعُدتم لا تحتاجون إلى النذالة والكَذِب أمام الكبراء، ولا إلى المرونة والتذلُّل أمام الخبثاء، ولا إلى المجاملة الخسيسة تجاه جميع النَّاس من مُقتَرِضين وسارقين ومَن إليهم ممن تتخذون نحوهم ذاتَ الوضع عندما لا تملِكون شيئًا، ولا يَمسُّكم رأي الآخرين مطلقًا، ولا يكون عليكم أن تتزلَّفوا إلى أحد، ولا أن تتملَّقوا لبليد، ولا أن تستميلوا حاجبًا، ولا أن تَرْشُوا بغيًّا أو تأتوا بتبجيلها أمرًا إدًّا. وما أكثرَ الأوغادَ الذين يديرون الشئونَ العظيمة! ولا أهميةَ لذلك ما دام هذا لا يمنعُكم في حياتكم القاتمة أن تكونوا صالحين حائزين لِخُبْزكم، وتَدخلون أَوَّلَ دكانٍ للحرفة التي تعلمتم، وتقولون: «أحتاج إلى عملٍ أيها المُعلِّم.» ويقول: «هناك مكانك أيها الرفيق، فاعمل.» وتكسِبون غداءكم قبل وقت الغداء، وإذا كنتم من ذوي النشاط والقناعة فإنكم تكونون حائزين، قبل مرور ثمانية أيام، لِما تعيشون به ثمانية أيام، وستحيَوْن حياةً حرةً صحيةً صحيحةً جديةً مستقيمة، وليس من ضياع الوقت أن يقع الكسب على هذا الوجه.

وأريد أن يتعلَّم إميلُ حرفة، وستقولون: «لتكن حرفةً شريفةً على الأقل.» وما معنى هذه الكلمة؟ أليست كلُّ حرفةٍ نافعةٍ للجمهور شريفة؟ ولا أريد قطعًا أن يكون مُطَرِّزًا ولا مذهِّبًا ولا صقَّالًا كالسيد الذي حكى عنه لوك، ولا أريد أن يكون موسيقيًّا أو ممثِّلًا أو مؤلِّفًا،[١٥] وإذا عدوتَ هذه المهن وما ماثلها فليتَّخِذ المهنةَ التي يريد، فلا أريد أن أضايقه في خِياره. وأُفضِّلُ أن يكون حذَّاءً على أن يكون شاعرًا، وأفضِّلُ أن يُبلِّط الشوارع على أن يرسُم أزهارًا على الصيني. ولكن ستقولون: «إن النَّبَّالة والجواسيس والجلادين أناسٌ نافعون.» فأقول: لا يتوقف نفْعُهم على غير الحكومة، ولكن دعنا نمضي؛ فقد أخطأت، فلا يكفي اختيارُ حرفةٍ مفيدة، بل يجب أيضًا ألَّا تُنْمِيَ فيمن يزاولونها صفاتٍ روحيةً كريهةً منافيةً للإنسانية. وهكذا فإننا إذ نعود إلى الكلمة الأُولى، نتَّخذ حرفة شريفة، ولكن لنذكرْ دائمًا أنه لا شرف بلا نفعٍ مطلقًا.

[١٥] سيُقال لي إنك مؤلِّف، فأعترف بأنني مؤلِّف لسوء حظي، وليست ذنوبي، التي كفَّرت عنها بما فيه الكفاية كما أرى؛ سببًا لوجودِ مثلِها لدى الآخرين، ولا أكتب للاعتذار عن خطيئاتي، بل لأحولَ دون تقليد القراء إياها.

وظَهَرَ في هذا العصرِ مؤلِّفٌ مشهورٌ[١٦] مُلِئت كتبه بأعظم الخطط مع أبصارٍ صغيرة؛ فهذا المؤلِّف قطعَ على نفسه عهدًا بألَّا تكون له زوجةٌ خاصَّة، شأنُ جميعِ قساوسة طائفته، ولكنه إذْ وُجِدَ أكثرَ من سواه تردُّدًا حول الزنا فإنه ذهب — كما يُقال — إلى اتخاذ خادماتٍ جميلاتٍ ليتلافى معهن، جُهدَه، ما أتاه من إهانةٍ لنوعِهِ بعهده الطائش. وقد كان يَعُدُّ من واجب المواطن أن يَمنَح الوطن مواطنين آخرين، وأن من الضرائب التي تؤدَّى إليه في هذا المضمار زيادةَ طبقة الصُّنَّاع، فإذا ما ترعرع هؤلاء الأولادُ حمَلَهم جميعًا على تعلُّم صنعةٍ تلائم مَيلَهم، مستثنيًا المِهَن البطَّالة التافهة الخاضعة للمُوضَة،[١٧] ★ كمهنة صُنْع الشعور المستعارة التي ليست ضروريةً مطلقًا، والتي يُمكن أن تكون غير مفيدة يومًا بعد يومٍ ما دامت الطبيعة جادة في الإنعام علينا بِشَعْر.

وهذه هي الروح التي يجب أن تكون دليلًا لنا في اختيار مهنة إميل، وإن شئت فقل إن على إميل لا علينا أن يقوم بهذا الخِيار؛ وذلك لأن المبادئ التي أُشبِعَ منها أوجبت ادِّخاره في نفسه ازدراءً طبيعيًّا للأشياء غيرِ المفيدة، ولأنه لا يرضى بإنفاق وقته في الأعمال التي لا قيمة لها، ولا يَعرِف للأشياء قيمةً غيرَ ما لفائدتها الحقيقية، فلا بُدَّ له من حرفةٍ يُمكِن أن تنفع رُوبنسن في جزيرته.

وإذا ما عَرَضْنا أمامَ الولد مُنتجات الطبيعة والفن، وأثَرْنا فضوله، وتتبَّعْنا ما يسوقه إليه، كانت لنا بهذا فائدةُ دراسةِ أذواقِهِ ومشاربِه وميوله، وتَبيُّنِ أوَّل بَريقٍ من ذهنه عند وجود شيءٍ مُقرَّرٍ من ذلك فيه، ويقوم الخطأ الشائع الذي يجب أن تُصانوا منه على عَزْوِكم إلى توقُّدِ القريحة فِعْلَ الحِين، وعلى عَدِّكم من المَيل الواضحِ نحو هذا الفن أو ذاك روحَ التقليد المشتركة بين الإنسان والقِرْد، والتي تحمل كلًّا منهما آليًّا على الرغبة في صُنْع كلِّ ما يَرى صُنْعَه من غيرِ أن يُعرَف كثيرًا وجهُ الفائدة فيه. والعالَم زاخرٌ بالصُّنَّاع، ولا سيَّما المتفننون، الذين ليس لديهم استعدادٌ فطريٌّ للفنِّ الذي يزاولون، والذي دُفِعوا إليه منذ صِبَاهم، فبُتَّ فيه عن عواملَ أخرى أو غُرَّ به عن غَيْرةٍ ظاهرةٍ كان من الممكن أن تَحْفِزَهم إلى فنٍّ آخرَ أيضًا لو كانوا قد رأَوْا مزاولةَ هذا الفن حالًا. وهذا يسمعُ طَبْلًا فيظنُّ نفسه

[١٦] رئيس دير القديس بطرس.

[١٧] ★ La mode.

قائدًا، وذاك يرى بناءً فيريد أن يكون مهندسًا معماريًّا، وكلٌّ يُساقُ إلى الحرفة التي يشاهد القيامَ بها إذا ما اعتقدها مُعتَبَرَة.

ومما حدث أن عرفتُ خادمًا رأى مُعلِّمَه وهو يرسُم ويصوِّر، فأقنَع نفسَه بأن يكون مُصوِّرًا ورسَّامًا، وتناوَل القلمَ الرصاصيَّ منذ الدقيقة التي اتخذ فيها هذا القرار، ولم يترك هذا القلم إلا ليتناولَ ريشةَ الرسم والتصوير التي لم يتركها مدى حياته، وأخذ يرسُم كلَّ ما يقعُ نظره عليه غيرَ مستعينٍ بدروسٍ ولا قواعد. وقضى ثلاث سنين بكاملها لاصقًا بخرابيشه التي لم يكن ليحرِّكه عنها شيءٌ غيرُ خِدْمته، وما كان ليَرُدَّه عن ذلك ما تمَّ له من تقدُّمٍ قليلٍ ناشئٍ عن استعداده العادي. وقد رأيته يقضي أشهرَ صيفٍ شديدَ الحرِّ في غرفةِ انتظارٍ صغيرةٍ مواجهةٍ للجَنوب، في هذه الغرفة التي يختنق الإنسانُ إذا مرَّ منها، في هذه الغرفة التي يجلس فيها، وإن شئت فقُل يُسمَّرُ فيها، على كرسيٍّ أمام كرة، فيرسُم هذه الكرةَ ويرسُمها ثانية، ويعود إلى رسْمها ويستأنفه بلا انقطاعٍ وبعنادٍ لا يُدفَع إلى أن رَضِيَ عن استدارتها، ويَحْبوه مُعلِّمه بعطْفه، ويُرشِدُه متفنِّن، حتى بلغ درجةً يخلعُ معها ثوبَ الخدمة ويعيش من ريشته، ويقوم الثبات مقام النبوغ إلى حدٍّ ما، وقد انتهى إلى هذا الحد، ولن يجاوزه مطلقًا، ويستحقُّ جَلَدُ هذا الخادم الشريف وطموحه الثناءَ، وهو سيكون دائمًا محل تقدير من أجل مثابرته وإخلاصه وأخلاقه، ولكنه لن يصنع غير صُوَرٍ من الدرجة الثالثة، ومن ذا الذي لم يُخدَع بغَيرته فيَعُدَّه ذا نبوغٍ حقيقي؟ يوجَدُ فرقٌ بين الإعجاب بعملٍ والأهليةِ له، ولا بدَّ من مشاهداتٍ أدقَّ مما يُتصوَّر لتيقُّنِ النبوغ الحقيقي والذوق الحقيقي في الولد الذي يُبدي رغباته أكثرَ من أهلياته، والذي يُفصَلُ في أمره بالأُولى عن عدمِ معرفةٍ بدَرْس الأخرى. وأتمنَّى وجودَ رجلٍ مِفْضالٍ يضعُ لنا رسالةً عن فنِّ رقابة الأولاد، وعلى ما لمعرفة هذا الفنِّ من أهميةٍ عظيمةٍ تَرى الآباء والمُعلِّمين لا يزالون جاهلين مبادئَه.

ولكننا هنا نُعلِّقُ أهميةً كبيرةً على اختيار الحرْفة على ما يحتمل، وبما أن الأمر يدور حولَ العملِ اليدوي، فإن هذا الاختيار ليس ذا بال بالنسبة إلى إميل. وإميلُ قد أتمَّ إلى الآن أكثرَ من نصف تخرُّجه بالتمرينات التي شغلناه بها حتى اليوم الحاضر، وما تريدون أن يصنع؟ هو مستعدٌّ لكلِّ شيء، وهو يَعْرِف استعمال المِعزقة والمِجرفة، وهو يَعْرِف استخدام المِخرطة والمِطرقة والمِنجر والمِبرد، وهو مُلِمٌّ بآلات جميع الحِرَف، وعاد لا يلتفت إلى غير حيازة آلاتٍ تكون من السرعة والسهولة ما تَعدِل معه في العَجَلة أحسنَ العمال

الذين يستخدمونها، وهو من هذه الناحية ذو مَزِيَّةٍ يفوق بها الجميع؛ أي إنه ذو رشاقةٍ في البدن ومرونةٍ في الأعضاء يتَّخِذُ بهما جميعَ الأوضاع بلا مشقةٍ ويطيل بها جميع الحركات بلا جُهد. ثُمَّ إن له أعضاءً صالحةً حسنةَ التدريب، وهو عارفٌ بجميع الجهاز الفني، ولا تُعْوِزُه غيرُ العادة ليستطيع العمل مثل مُعلِّم، والعادة لا تُنال إلا مع الوقت. وأيُّ الحِرَفِ بَقِيَ علينا أن نختار فتَمْنح من الوقت ما يكون معه نشيطًا فيها؟ وليس حَوْلَ غيرِ هذا ما يَدُورُ الأمر.

وامنحُوا الرجلَ حرفةً ملائمةً لجنسه، وامنحوا الشابَّ حرفةً ملائمةً لسنِّه؛ فكلُّ مهنةٍ حَضَريةٍ داريَّةٍ تُخنِّث البدنَ وتؤنِّث الجسمَ لا تروقه ولا تناسبه، وما كان الشابُّ ليبتغي أن يكون خيَّاطًا من تلقاء نفسه، ولا بدَّ من الفنِّ ليُحمَل إلى حرفة النساء هذه، ذاك الجنسُ الذي لم يُخلَق لها،[١٨] وما كان السيفُ والإبرَةُ ليُستعمَلا بأيدٍ واحدة، ولو كنتُ وليًّا للأمر ما سمحت بالخياطة وحِرَف الإبرةِ لغيرِ النساء، والعُرْجان الذين هم في حُكْم النساء. وإذا ما افترِضَ الخِصْيَانُ أُناسًا لا غُنيةَ عنهم وجدتُ الشرقيين من الحماقة ما يصنعون منهم عَمْدًا، ولِمَ لا يكتفون بمن صنعتِ الطبيعة، وبتلك الجموع من الآدميين الضعفاء الذين كَسرت الطبيعةُ قلوبهم؟ فتُوجَد منهم بقيةٌ للحاجة، وقد حكمت الطبيعةُ بالحياة الحضرية على كلِّ رجلٍ ضعيفٍ رقيقٍ جبانٍ. وقد خُلِقَ هذا الرجل ليعيش مع النساء أو على طِرازِهنَّ، ودَعُوه يزاول إحدى حِرَفِهن إذا أراد. وإذا كانت هنالك ضرورةٌ إلى خِصيانٍ حقيقيين فلْيُرَدَّ إلى حالِ هؤلاء أولئك الرجالُ الذين يَجلِبون العارَ إلى جنسهم باتخاذهم حِرَفًا لا تُنَاسبه، ألَا إن خِيارَ هؤلاء يؤذِن بخطأ الطبيعة، فإذا ما أصلحتم هذا الخطأَ على وجهٍ ما، لم تصنعوا غيرَ الخير.

وأُحرِّم على تلميذي الحِرَف غيرَ الصحية، لا الحِرَفَ الشاقة، ولا الحِرَفَ الخَطِرَةَ أيضًا؛ فهذه الحِرَف تُمرِّن القوة والشجاعة معًا، وهي صالحةٌ للرجال وحدَهم، وليس للنساء دعْوَى بها مطلقًا، وكيف لا يخجَلون من تطاولهم على حِرَفٍ خاصةٍ بهن؟

«قليلٌ عددُ مَن يُحارِبُ من النساء، وقليلٌ من النساء مَن يأكلُ خبزَ الأبطال، وأنتنَّ تغزلن الصوف، فمتى تمَّ عملُكنَّ أتيتنَّ به في السِّلال.»

وفي إيطالية لا تُرى النساءُ في الحوانيت مطلقًا، ولا يمكن أن يُتصوَّر ما هو أدعى إلى الغمِّ من منظرِ الشوارعِ في هذا البلدِ لدى مَن تعوَّدوا شوارعَ فرنسة وإنكلترة، وإني إذ

---

[١٨] كان لا يوجد خياطون بين القدماء؛ فقد كانت ثياب الرجال تُصنَع في البيوت من قِبَل النساء.

أرى تُجَّارَ أزياءٍ يبيعون من السيدات أوشحةً وشبكاتٍ وقِيطانًا، وخُصَلَ ريشٍ أو صوفٍ للقُبَّعات، أجِدُ هذه الزيناتِ الناعمةَ مثيرةً للضَّحكِ في الأيدي الغليظة التي خُلِقَت للنفخِ في الكِيرِ أو للطَّرْق[١٩]* على السِّندان،[٢٠]* فأقول في نفسي: «يجب على النساء في هذا البلد أن يقابلن السوء بالسوء، فيُقِمنَ دكاكينَ للصقْلِ وصُنعِ الأسلحة.» والآن! ليصنعْ كلُّ واحدٍ أسلحةَ جنسه ويبِعها، فلا بُدَّ من استعمال هذه الأسلحة لمعرفتها.

ويا أيها الشاب، اطبعْ يدَ الرجل على أعمالك، وتعلَّم استعمالَ الفأس والمِنشار بذراعٍ قوية، وتعلَّم نحت الرافدة[٢١]* بزوايا قائمة، وتعلَّم تسنُّمَ أعلى البناء، ووضعَ القِمَّة، وتثبيتها بالقوائم والدعائم، ثُمَّ نادِ أختَك لتأتيَ وتساعدَك في عملك، وذلك كما كانت تطلب منك العمل في غَرْزِها المُشتَبِك.

وأشعُرُ بأنني أسهبت في بيانِ ذلك لدى معاصريَّ اللُّطفاء، ولكنني أدَعُ نفسي تُساق بقوة النتائج أحيانًا. وإذا ما اعترى رجلًا ما خَجَلٌ من العملِ علانيةً مُجَهَّزًا بمِنْحَتٍ ومُنَطَّقًا بوِزْرةٍ من جِلْدٍ لم أرَ فيه غيرَ عبدٍ للرأي العامِّ مُعَدٍّ للحياء من عملِ الخيرِ عند الضحك من ذوي الصلاح. ومع ذلك دعْنا نُذعِن لمُبْتَسَرِ الآباء في كلِّ ما لا يُمكِن أن يَضُرَّ رأي الأولاد، وليس من الضروري أن تُزاوِلَ جميعُ المِهنِ النافعةِ تكريمًا لها كلِّها، وإنما يكفي ألَّا يُقدِّرَ الإنسانُ واحدةً منها على أنها دون مستواه. وإذا كان لنا حقُّ الخِيار بلا إكراه، فلِمَ لا نختارُ من المهن التي هي من مرتبةٍ واحدةٍ ما ينطوي على بهجةٍ وملاءمةٍ ويدلُّ عليه المَيْل؟ إن الأعمالَ المَعدِنيةَ مفيدة، وهي أكثرُ الأعمالِ فائدة، ومع ذلك فإنني لا أجعلُ من ابنكم بَيْطارًا ولا قفَّالًا ولا حدَّادًا، ما لم يكن لديَّ سببٌ خاصٌّ يحملني على ذلك؛ وذلك لأنني لا أُحبُّ أن أرى له في معمل الحديد وجهَ جبَّار، وكذلك لن أجعل منه بنَّاءً ولا حذَّاء. أجلْ، يجب القيامُ بجميع الحِرَف، ولكنه يجب على مَن يستطيع الخِيارَ أن ينظر إلى النظافة. ولا ينطوي هذا على معنى المبتَسَر الطَّبقي، وحواسُّنا هي دليلُنا في هذا الأمر. ثُمَّ إنني لا أُحِبُّ المهنَ السخيفةَ التي يكون العمالُ فيها خالين من الصناعة ومعدودين آليين، فلا

[١٩] * الكِير: زِقٌّ يَنفُخ فيه الحداد.

[٢٠] * السِّندان: من آلات الحدادين، وهو ما يُطرق عليه، والكلمة من الدخيل.

[٢١] * الرافدة: خشبةُ السقف التي فوق الجسر، والعامة تسميها الوصلة.

يُحرِّكون أيديَهم في غيرِ ذاتِ العمل، كالحَاكة وصانعي الجوارب ونشَّاري الحجارة، وما فائدة استخدام رجالٍ أذكياءَ في هذه الحِرَف؟ لا يعدو الأمرُ حدَّ آلةٍ تنتهي إلى آلة.

وإني بعد إنعام النظر في جميع الحِرَف أُحِبُّ النِّجارة أكثر من سواها، وهي ملائمةٌ لذوق تلميذي، ولا غرو؛ فهي نظيفةٌ مفيدة، وهي تُزاوَل في المنزل، وهي تستكِدُّ البَدَن، وهي تستلزم في العمل مهارةً وبراعة، ولا يخرُج الهَيَفُ والذوقُ من شكل مصنوعاتها الذي تُعيِّنُه الفائدة.

وإذا ما حدَث اتِّفاقًا أن تَحوَّل تلميذُكم بحزْمٍ نحو العلوم النظرية، فإنني لا ألومكم على منحه مِهنةً ملائمةً لميوله، وذلك كأن يتعلَّم مثلًا صُنْعَ آلاتٍ رياضيةٍ ونظاراتٍ ومَرَاقِبَ ... إلخ.

وأريدُ أن أتعلَّم مع إميل حرفتَه وقتَ تعلُّمه إياها؛ وذلك لاعتقادي أنه لا يجيد تعلُّمَ غيرِ ما نتعلَّمُ معًا؛ ولذا فإن كلانا يأخذ في التخرُّج ولا نقصد أن نُعَامَلَ مثلَ سيدَيْن، ولكن مثل تلميذَيْن حقيقيَّيْن جادَّيْن. ولِمَ لا نكون هكذا فِعْلًا؟ لقد كان القيصر بطرس نجارًا في مصنع السفن وطبَّالًا في كتائبه، أَوَتظنون أن هذا الأمير لا يعدِلُكم مَوْلدًا أو مهنة؟ تُدرِكون أنني لا أقول هذا لإميل، بل لكم أيًّا كنتم.

ومن دواعي الأسف أننا لا نستطيع قضاءَ جميع وقتنا في المصنع؛ فلسنا تلميذَيْن من العمال، بل تلميذَان من الرجال، ويكون التخرُّجُ في هذه الحرفة الأخيرة أشقَّ مما في الأخرى وأطوَل، وكيف نصنَع إذَن؟ أنتخذُ مُعلِّمَ مِنْجَرٍ ساعةً في اليوم كما يُتَّخَذُ مُعلِّمُ الرقص؟ كلا، لا نكون تلميذَيْن، بل طالبَيْن، وذلك أننا نطمح ببصرنا أن نكون نجَّارَيْن أكثر من أن نتعلَّم النجارة؛ ولذلك أرى أن نذهب في كلِّ أسبوعٍ مرةً أو مرتَين على الأقل لقضاء نهارنا بكامله عند المُعلِّم، فننهض حين نهوضه ونعمل قبل أن يعمل ونأكل على مائدته ونشتغل تحت إمرَته، حتى إذا ما كان لنا شرف العشاء مع أسرته عُدنا — عندما نريد — إلى فِراشنا الخشن، وهذا هو الوجه الذي تُتعلَّمُ به حِرَفٌ كثيرةٌ معًا، وهذا هو السبيل الذي يُمارَس به عملُ اليد من غير إهمال التخرُّج الآخر.

ولْنتذرَّعْ بالبساطة عند عمل الخير، ودَعْنا لا نُبدي زَهْوًا حيث نكافح الزهو، ومَن يزْهُ بفوزه على المُبْتَسَرات يتضمَّن زهوه هذا خضوعًا لها، ويُروى أن من عادة آل عثمان القديمة إلزامَ السلطان بالعمل بيديه، وكلٌّ يَعلَم أن آثار اليد السلطانية لا يُمكن أن تكون من غير الروائع؛ ولذا فهو يوزِّع هذه الروائع بأُبَّهةٍ بين أكابر الدولة، ويُدفَع ثمنها وَفْق مقام الصانع. وما أرى من شرٍّ في هذا لا يقوم على هذا الجَوْر المزعوم؛ وذلك لأنه على العكس

خير؛ وذلك لأن الأمير إذ يُكرِه الأكابرَ على مقاسمته أسلابَ الشعب يكون أقلَّ اضطرارًا إلى سلْب الشعب مباشرة؛ فهذا تخفيفٌ للاستبداد، ولولاه ما استطاع هذا الحكمُ الفظيع أن يدوم.

والشرُّ الحقيقيُّ في مثل هذه العادة يقوم على إعطاء ذلك الرجل المسكين فكرةً عن مزيته، وهو، كالملك ميداس، يرى تحويلَ كلِّ ما يَمَسُّ إلى ذهب، ولكنه لا يُبصِر أيُّ الآذان يُنبِت. ونُريد أن نحفَظ لإميلَ أذنيه القصيرتَين، فنصون يديه من تلك الأهلية الغنية، فلا يعود عليه عمله بغير ثَمنِ المصنوع لا بثَمَن الصانع، ولا نُطيقُ أن يُحكَم فيما يصنع من غير أن يُقابَل بينه وبين ما يصنع أصلحُ المُعلِّمين، ولْيُقوَّم عملُه بالعمل نفسه، لا بكونه صادرًا عنه، وقولوا عما هو مصنوعٌ جيِّدًا: «هذا مصنوعٌ جيِّدًا.» ولكن لا تضيفوا إلى هذا قولكم: «مَن صنعَ هذا؟» وإذا قال من تلقاء نفسه مفاخِرًا مُعجَبًا بذاته: «إنِّي أنا الذي صنعه.» فقولوا له بفتور: «هو حَسَنُ الصنع، ولا يهمني أن تكون أنت قد صنعتَه أو غيرُك.»

ويا أيتها الأمُّ الصالحة، احذَري ما يُعَدُّ لكِ من الأكاذيب على الخصوص، وإذا كان ابنُك يعلَمُ أشياءَ كثيرةً فكوني في ريبٍ من كلِّ ما يَعلَم، وإذا كان من التَّعَسِ ما يُنشَّأُ معه بباريسَ وكان غنيًّا هَلَكَ، وستكون لديه جميعُ قرائحِ المتفننين الماهرين ما وُجِد فيها، وهو يعود غيرَ حائزٍ شيئًا منها عند ابتعاده عنهم، والغنيُّ في باريسَ يَعرِف كلَّ شيء، ولا يُوجَد جاهلٌ غيرُ الفقير، وهذه العاصمةُ زاخرةٌ بالهُواة، ولا سيَّما الهاويات اللائي يقُمن بأشغالهن كما يَخترعُ مسيو غِيُّومُ ألوانَه. وأعْرِف لهذا استثناءاتٍ ثلاثةً مُكرَّمةً بين الرجال، وقد تَزيدُ على هذا، ولكنني لا أعْرِف أيَّ استثناءٍ بين النساء، وأشكُّ في وجود شيءٍ من هذا، وعلى العموم يُكتَسَبُ اسمٌ في الفنون كما في الحُلَّة فيَغدو الواحدُ متفنِّنًا أو حَكَمًا بين المتفننين كما يغدو دكتورًا في الحقوق وقاضيًا.

ولِذا فإنه إذا ثَبَتَ ذات مرةٍ أن من الجميل معرفةَ حِرفة، فإن أولادكم لم يَلبثوا أن يَعْرِفوها من غير أن يتعلَّموها، فيَظْهروا مثلَ مستشاري زُوريخ، ولا شيءَ من هذا العُرْف والظاهر لإميل الذي يحظى بالحقيقة دائمًا، ولا تقولوا ما يَعرِف، ولكن دَعُوه يتعلَّم صامتًا، ودَعُوه يصنع روائعَ دائمًا على ألَّا يُدعى مُعلِّمًا، ولا تَدَعوه يَظهَر بلَقَبِه، بل بفعله عاملًا.

وإذا كنتُ قد صنعتُ حتى الآن ما أُفْقَهُ به، فإن من الواجب أن يُدرَك كيف أُلقي، بعادةِ تمرينِ البدنِ وعَمَلِ الأيدي، ذوْقَ التأمُّل والتفكير في تلميذي إلقاءً غيرَ محسوس، وذلك لأُوازنَ بين كَسَله الناشئ عن عدمِ اكتراثه لآراء الرجال، وسكونِ أهوائه، فيجب أن يَعْمَل

مِثْلَ فلَّاح، وأن يفكِّرَ مثل فيلسوف لكيلا يكون مُتوانيًا تواني الهَمَجي، ويقوم سِرُّ التَّربية الأعظم على جعْل تمرينات البدن وتمرينات الذهن خادمةً دائمًا مثلَ تَرَاخٍ من أحدهما نحو الآخر.

ولكن حَذَارِ أن تُعجِّلوا المعارفَ التي تقتضي ذهنًا أكثرَ نَضْجًا، ولا يبقى إميلُ عاملًا زمنًا طويلًا من غير أن يَشْعُر من تلقاء نفسه بتفاوت الأحوال الذي لم يلاحظه في البُداءة، وهو يُريد أن يَدرُسَني بدوري مستندًا إلى المبادئ التي أعطيته إياها والتي هي في متناوله. وهو إذ يتلقَّى كلَّ شيءٍ منِّي وحدي، وهو إذ يرى نفسه قريبًا جِدًّا من حال الفقراء، يريد أن يَعرِف سبب بُعدِي منها كثيرًا، وقد يَطرَح عليَّ مثلَ الأسئلة الخطرة الآتية بغتةً، وهي: «أنت غني، وقد قلت لي هذا، وهذا الذي أرى، والغنيُّ مَدينٌ بعمله للمجتمع أيضًا ما دام رجلًا، ولكن ما تَصْنَعُ في سبيل المجتمع إذن؟» وما يقول عن هذا مُعلِّمٌ فاضل؟ أجهل ذلك، وقد يكون من الغباوة ما يُحدِّث معه الولدَ عن الجهود التي يبذُلها من أجله. وأمَّا أنا، فإن المَصْنع ينتشلني من المُعضِلة، فأقول: «هذا سؤالٌ جميلٌ يا إميل العزيز، وأَعِدُك بالجواب عن نفسي إذا ما استطعتَ الجواب عن نفسك بما أنت راضٍ عنه، وريثما يقع ذلك سأُعنى بأن أعطيك وأعطي الفقراء ما يفيض منِّي، وبأن أصنعَ مائدةً أو مقعدًا في كلِّ أسبوعٍ لكيلا أكون غير نافعٍ تمامًا.»

وها نحن أولاء نعود إلى أنفسنا، وها هو ذا ولدُكم أَوْشَكَ أَلَّا يكون ولدًا داخلًا نَفْسَه، وها هو ذا يَشْعُرُ أكثرَ مما في أي وقتٍ بالضرورة التي تربطه بالأشياء، وقد مَرَّنَّا ذهنه وتمييزه بعد أن بدأنا بتمرينِ بَدَنِه وحواسِّه. وأخيرًا جمعنا بين عادة أعضائه ومداركه جاعلين منه موجودًا عاملًا ومُفكِّرًا، وعاد لا يبقى علينا لإكمال الإنسان غيرُ تكوين موجودٍ مُحِبٍّ حَسَّاس؛ أي إتمام العقل بالإحساس، ولكن دعْنا قبْل الدخول في نظام الأمور الجديد هذا، نُلقِ نظرةً على النظام الذي نخرُج منه لنرى على أتمِّ ما يُمكن ما بلغناه من حَدٍّ.

ولم يكن لدى تلميذنا غيرُ إحساساتٍ في بدء الأمر، فصارت لديه أفكار، ولم يَكُ قادرًا على غيرِ الإحساس، فصار الآن يَحْكُم؛ وذلك لأنه ينشأ عن المقابلة بين كثيرٍ من الإحساسات المتعاقبة، أو التي تقعُ معًا، وما يدور حَوْلَها من رأيٍ، ضَرْبٌ من الإحساس المختلط أو المركَّب الذي أُسميه فكرًا.

والوجهُ الذي تُكَوَّن به الأفكارُ هو الذي يُنعِمُ على الذهن البشري بطابع، والذهنُ الذي لا يُكوِّنُ أفكارَه إلا وَفْقَ العلائق الحقيقية هو ذهنٌ متين، والذهن الذي يكتفي بالعلائق

الظاهرة هو ذهنٌ سطحي، والذهنُ الذي يرى العلائق كما هي هو ذهنٌ سديد، والذهنُ الذي يسيء تقدير العلائق هو ذهنٌ فاسد، والذهنُ الذي يختلق علائقَ خياليةً لا تَمُتُّ إلى الحقيقة ولا إلى الظاهر بصلةٍ هو ذهنٌ أحمق، والذهنُ الذي لا يقوم بالمقايسة مطلقًا هو ذهنٌ غبي، وما يكون من استعدادٍ كبيرٍ أو صغيرٍ للمقابلة بين الأفكار ولاكتشاف العلائق هو الذي يجعل الذهنَ كبيرًا أو صغيرًا في النَّاس … إلخ.

وليست الأفكارُ البسيطةُ سوى إحساساتٍ مقابَلٍ بينها، ويوجد في الإحساسات البسيطة وفي الإحساسات المركَّبة من الأحكام ما أسميه أفكارًا بسيطة، والحكم في الإحساس منفعلٌ مَحْضًا، وهو يُوَكِّد أنه يُشْعَرُ بما يُشعَرُ به، والحكمُ في الإدراك أو الفكر فاعل، وهو يُوَفِّقُ ويقابِل ويُعَيِّنُ ما بين العلائق التي لا يُحدِّدها الحِس، وهذا هو كلُّ الفرْق، ولكنه فرقٌ كبير، ولا تخدعنا الطبيعة مطلقًا، ونحن الذين يُخادعون أنفسَهم دائمًا.

ومما رأيتُ تقديمُ جُبنَةٍ مُجمَّدةٍ إلى ولدٍ في الثامنة من سِنيه، ويحمِل الملعقة إلى فمه من غير أن يَعْرِف ما هذا، ويصرخ قائلًا: «آه! إن هذا يُحرِقني!» ويُبتلى بإحساسٍ شديد، وحَرُّ النار هو أشدُّ ما يَعرِف، ويظنُّ ذاك من هذا، ومع ذلك فإنه ينخدع؛ فالبردُ الشديد يَقرُصه، ولكنه لا يُحرقه، وليس هذان الإحساسان متشابهَين، ما دام الذين يُبتَلون بهما لا يَخْلِطون بينهما مطلقًا، وليس الإحساس إذن هو الذي يَخدعه بل الحُكمُ الذي يَحْمِلُ عنه.

ومثلُ هذا حالُ الذي يرى لأوَّل مرةٍ مرآةً أو آلةً بصرية، أو الذي يدخل قبوًا عميقًا في وَسَط الشتاء أو الصيف، أو الذي يغمس يدَه الحارة جِدًّا أو الباردة جِدًّا في الماء الفاتر، أو الذي يُدَحْرِج كُرَةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتَين، وإذا ما اكتفى بالقول عما يَشعُر به أو يُحِسُّه فإن حُكْمَه إذْ يكون منفعلًا صِرفًا كان من المتعذِّر أن يُخدَع، ولكنه إذا ما حَكَم في الأشياء على حَسَب الظاهر كان حكمُه فاعلًا، فيقيس ويقيم بالاستقراء علائقَ لا يشعُر بها، وهنالك يُخدَع أو يُمكِن أن يُخدَع، ولا بدَّ له من التجرِبة حتى يُصحِّح الخطأ أو يَحُولَ دون وقوعه.

وأَرُوا تلميذَكم في الليل سُحبًا تَمُرُّ بينه وبين القمر، تَرَوه يعتقد أن القمر هو الذي يمُرُّ إلى جهةٍ معاكسة، وأن السحُبَ واقفة، ويقوم اعتقادُه هذا على استقراءٍ خاطفٍ لِما يرى عادةً من حركة الأشياء الصغيرة وسكون الأشياء الكبيرة، ولِما تبدو السُّحب له أعظمَ من القمر الذي لا يستطيع تقديرَ بُعدِه. وهو إذا ما كان في مرْكبٍ يشُقُّ الماء ونظر إلى الساحل من بُعدٍ قليلٍ وقعَ في الخطأ المعاكس، واعتقد أن الأرض تجري، وذلك بما أنه لا

يُحِسُّ حركته، فإنه يَعُدُّ المرْكبَ والبحر أو النهر وجميع أُفُقه كُلًّا غيرَ متحرك، ولا يَلوح له الشاطئ الذي يُبصِر جزْيَه غيرَ جزءٍ من ذلك.

وإذا ما رأى الولدُ للمرة الأُولى عصًا مغمورًا نصفُها في الماء أبصرَ عصًا مكسورة، والحِسُّ صحيح، وهو لا ينفكُّ يكون صحيحًا، ولو لم نَعْرف السبب، وإذا ما سألتموه إذن عما يرى قال: «عصًا مكسورة.» وهو يقول الصحيح، وذلك ليقينه بأن لديه إحساسًا عن عصًا مكسورة، ولكنه إذا ما ذهب إلى ما هو أبعدُ من ذلك مخدوعًا في حكمه، فوَكَّدَ أنه يرى عصًا مكسورة، ثُمَّ وَكَّد أن ما يرى هو عصًا مكسورةٌ بالحقيقة، فإن قولَه هذا يكون حينئذٍ فاسدًا. ولِمَ هذا؟ ذلك لأنه يصيرُ إذ ذاك فاعلًا، ولأنه عاد لا يَحكُم عن ملاحظةٍ بل عن استقراء، وذلك بتوكيده ما لا يُحِس؛ أي إن الحكم الذي يتلقَّاه بحسٍّ يُؤَيَّدُ بحسٍّ آخر.

وبما أن أحكامنا مصدرُ كلِّ خطأ فينا فإن من الواضح أننا إذا لم نكن محتاجين إلى الحُكم لم يكن فينا احتياجٌ إلى التعلُّم، ولم نقع قَطُّ في حالٍ نُخدَع فيها، وبَدونا بجهالتنا أكثرَ سعادةً مما نستطيع أن نكونَه بمعرفتنا. ومَن ذا الذي يُنكِرُ أن العلماء يعلمون ألفَ شيءٍ صحيحٍ لا يَعْرِفه الجاهلون مطلقًا؟ وهل العلماءُ أقربُ إلى الحقيقة لهذا السبب؟ وعلى العكس تمامًا يبتعد العلماءُ عنها كلَّما تقدَّموا؛ وذلك لأن زَهْوَ الحُكْم إذ يتقدَّم أكثرَ من تقدُّم المعارف عندهم لا تأتي كلُّ حقيقةٍ يتعلمونها إلا مع مائة حُكْمٍ فاسد، وكلٌّ يَعْلَمُ أن الجمعيات العلمية في أوروبة ليست سوى مدارسَ عامةٍ للأكاذيب، ولا رَيْبَ في أن مَجمَع العلوم ينطوي على خطأ أكثرَ مما ينطوي عليه قوم الهُورُون[٢٢*] بأسْرِهم.

وبما أن الرجال كلَّما عَرَفوا خُدِعوا، فإن الجهلَ هو الوسيلةُ الوحيدةُ لاجتناب الخطأ، وإذا لم تَحكُموا مُطلَقًا لم تنخدعوا مطلقًا، وهذا هو درسُ الطبيعة كما هو درسُ العقل. وإذا عدوتَ ما للأشياء مَعنَا من علائقَ مباشرةٍ قليلةٍ جِدًّا محسوسةٍ جِدًّا لم يُساوِرنا غيرُ عدم اكتراثٍ عميقٍ نحو البقية بحكم الطبيعة، وما كان الهمجيُّ ليُدير رِجْله حتى يشاهدَ أروعَ الآلات وجميعَ عجائب الكهربا، وكلمةُ «ما يهمُّني؟» هي أكثرُ ما يألفُ الجاهلُ وأكثرُ ما يلائم الحكيم.

بَيدَ أن من المؤسفِ أن عادتْ هذه الكلمة لا تُواتينا؛ فكلُّ شيءٍ يهمُّنا ما اتَّبعْنا كلَّ شيء، ويَمتدُّ فُضُولنا مع احتياجنا بحكم الضرورة، وهذا هو السبب في عزوِي كبيرَ فُضُولٍ

٢٢ * أهل أمريكة الشمالية الأصليون.

إلى الفيلسوفِ وعدمِ عَزوي أيَّ فُضولٍ إلى الهمجي، وذلك أن هذا لا يحتاج إلى أحد، وأن ذاك يحتاج إلى جميع النَّاس، ولا سيَّما المعجَبون.

وسيُقال لي إنني أَخرُج عن الطبيعة، ولا أعتقد ذلك؛ فالطبيعة تختار وسائلها وتُنظِّمُها وَفْقَ الحاجة، لا وَفْقَ الرأي. والواقعُ أن الاحتياجات تختلف باختلاف حال النَّاس، وأنه يوجد اختلافٌ كبيرٌ بين الإنسانِ الطبيعي الذي يعيش في حال الطبيعة والإنسانِ الطبيعي الذي يعيش في حال المجتمع. وليس إميلُ همجيًّا يُقصَى إلى الصحارَى، بل همجيٌّ جُعِلَ ليقيم بالمدن، ويجب أن يَعْرِف كيف يَجِدُ في المدن ما يحتاج إليه وأن ينتفع بسكانها، وأن يعيش معهم على الأقل وإن لم يكن مثلَهم.

ولا بدَّ له من الحكم على الرغم منه ما كان في سواءِ كثيرٍ من العلائق الجديدة، فلْنُعَلِّمه كيف يُحسِن الحُكمَ إذن.

وأحسنُ أسلوب لتعلُّم حُسن الحُكم هو ما يُفضي إلى تبسيط تجارِبنا أكثرَ من سواه، والذي يغنينا حتى عن هذه التجارِب من غيرِ وقوعٍ في الخطأ؛ ومِنْ ثَمَّ نقول إنه يجب بعد تحقيقِ ما بين الحواسِّ من علائقَ في زمنٍ طويل، أن يُتعلَّم أيضًا تحقيقُ علائقِ كلِّ حاسةٍ بنفسها، ومن غير احتياجٍ إلى الاستعانة بحاسَّةٍ أخرى. وهنالك يغدو كلُّ إحساسٍ فكرًا لدينا، ويكون هذا الفكرُ مطابقًا للحقيقة دائمًا، وهذا هو نوعُ المعرفة الذي حاولت جمْعه في هذا الدَّور الثالث من حياة الإنسان.

ويتطلب هذا الأسلوبُ في السَّير صبرًا وحَذَرًا لا تجدهما في غير قليل من المُعلِّمين، ولا يتعلم التلميذ الحُكْمَ بغيرهما مطلقًا، ومن ذلك أن التلميذ إذا ما خُدِع بظاهر العصا المكسورة بادرتم لإطلاعه على خطئه إلى سَحْبِ العصا خارج الماء، فتُزيلون ضلالَه على ما يحتمل، ولكنْ ما تُعلِّمونه؟ لا شيءَ غيرَ ما يتعلَّمه بنفسه من فوْره. ويْ! ليس هذا ما يجب أن يُصْنَع! وأقلُّ من هذا اعتبارًا أن تُعلِّموه حقيقةً بدلًا من أن تُطلِعوه على ما يجبُ أن يتخذَ لاكتشافِ الحقيقةِ دائمًا، ولا ينبغي أن يُزال ضلاله حالًا لحُسن تعليمه، ولْأَتَّخِذْ نفسي مع إميل مثلًا.

وأوَّلُ ما في الأمر هو أن الولد الذي يُربَّى على الطريقة المعتادة لا يُعْوِزه أن يكون إيجابيًّا جوابُه عن ثاني السؤالين المُفترَضَين، فيقول لا ريب: «إن هذه عصًا مكسورة.» وأشكُّ كثيرًا في أن يأتي إميلُ عينَ الجواب، وإميلُ لا يبادر إلى الحُكم مطلقًا لِما لا يُبصِر من ضرورةِ كونه عالمًا أو ظهوره بمظهر العالم أبدًا، وإميل لا يحكم في غير الجَلي، وإميل

كثيرُ البُعد من أن يرى ذلك جليًّا في تلك الدقيقة، وهو العارف بمقدار ما تكون عُرْضَةً له من وهمٍ أحكامُنا وَفْقَ الظواهر، إذا كان هذا في حقل المناظر.

ثُمَّ بما أنه يَعْرِف عن تجرِبة أن أكثرَ أسئلتي تَفَهًا ينطوي دائمًا، على أمرٍ لا يُبصِرُه في البُداءة، فإنه لم يتعوَّد قَطُّ أن يأتي جوابًا طائشًا، وهو على العكس يَحْذَر منه وينتبه إليه ويفحصه بعنايةٍ فائقةٍ قبل أن يجيب عنه، وما كان ليأتيَ جوابًا لا يَرضى عنه بنفسه، وهو الذي لا يرضى إلا بصعوبة، ثُمَّ إن كلانا لا يفتخر بمعرفة حقيقة الأمور، بل باجتناب الخطأ، وترانا نخجَل من إبدائنا سببًا غيرَ صالح أكثرَ مِن خجلِنا عند عدم اكتشافنا هذا السببَ على الإطلاق. وكلمة «لا أعْرِف» تلائمُنا كثيرًا، ونحن نَبلُغ من تكرارها كثيرًا ما لا نجد معه أنها تُكلِّف أيًّا منَّا شيئًا، ولكن سواءٌ أأفلَت ذاك الطيشُ منه أم اجتنبه بكلمة «لا أعْرِف» الملائمة لنا كان جوابي واحدًا، وهو: «لننظرْ، لندرُس.»

وهذه العصا المغمورُ نصفها في الماء مُثبتةٌ عموديًّا، وما أكثرَ ما يجب أن نأتيَ من أفعال لنعرِف هل هي مكسورةٌ قبل أن نَسحبها من الماء أو قبل أن نَمسَّها!

(١) إن أوَّل ما نصنع هو أننا ندورُ حوْل العصا ونرى القِسمَ المكسورَ يدُور مثلَنا، وعينُنا هي التي تُغيِّرُه إذنْ، وما كانت النَّظراتُ لتُحرِّكَ الأجسام.

(٢) ثُمَّ ننظرُ عموديًّا فوق طرَفِ العصا الواقعِ خارجَ الماء، وهنالك تعود العصا غيرَ مُعوَجَّة، ويُخفي طرَفُ العصا القريبُ من عينِنا طرَفَها الآخرَ بإحكام،[٢٣] فهل قَوَّمتْ عينُنا العصا؟

(٣) ونحرِّك سطحَ الماء، ونرى العصا تَنثني في قِطَعٍ كثيرة، وتتحرَّك مُعوَجَّةً وتتَّبعُ تموُّجات الماء، وهل تكفي الحركةُ التي نُوجِبُها في هذا الماءِ لكسرِ العصا وإلَانَتِها وصَهْرِها على ذلك الوجه؟

(٤) ونُسيلُ الماءَ ونرى العصا تستقيم مقدارًا فمقدارًا، وذلك كلَّما نَقَصَ الماء، أَوَلَيْس هذا يُوفِي على الغايةِ لتنويرِ الواقعِ وكشفِ الانكسار؟ وليس من الصحيحِ إذنْ أن النظرَ يَخدَعنا ما دُمنا نحتاجُ إليه وحدَه في إصلاح الخطأ الذي نَعْزُوه إليه.

---

[٢٣] وجدتُ العكس بعد ذلك، وذلك بتجرِبةٍ أكثرَ صحة؛ فالانكسار يعمل دائريًّا، وتبدو العصا أضخمَ بالطَّرَفِ الذي في الماء مما بالطَّرَفِ الآخَر، غيرَ أن هذا لا يُغيِّر شيئًا من قوَّة الدليل، وليست النتيجةُ أقلَّ صوابًا.

وإذا ما افترضنا الولدَ من الغباوة ما لا يَشْعُر معه بنتيجة هذه التجارِب، فإنه يجب أن تُستَدعى اللامسةُ لمساعدة الباصرة هنالك، ودَعُوا العصا على حالها بَدَلًا من سَحْبِها خارجَ الماء، واجعلوا الولدَ يُمِرُّ يدَه عليها بين طرَفَيها؛ فهو لن يُحِسَّ زاوية، وليست العصا مكسورةً إذَنْ.

وستقولون لي إنه لا يوجد هنا أحكامٌ فقط، بل برهنةٌ شكلية، وهذا حق، ولكن ألَا ترون أن الذهن إذا ما بَلَغَ مرحلةَ الأفكار لم يَلبَث كلُّ حُكْمٍ أن يكون برهنة؟ إن الشعور بكلِّ إحساسٍ هو قضية، هو حُكْم؛ ولذا فإنه إذا ما قُوبل بين إحساسٍ وآخرَ فإنه يُبرهَنُ حالًا؛ ففنُّ الحُكم وفنُّ البرهنة هما هما تمامًا.

ولن يتعلَّم إميلُ علمَ انكسارِ النورِ مطلقًا، أو إنني أريد أن يتعلمه حول هذه العصا، وهو لن يُشرِّح الحشرات مطلقًا، وهو لن يَعُدَّ أكلافَ الشمس مطلقًا، وهو لن يَعْرِف ما المُجْهِر ولا المِرْقَب، وسيسخرُ تلاميذُكم العلماءُ من جهْلِه، وهم ليسوا على غير حقٍّ في هذا؛ وذلك لأنني أريد أن يخترع الآلات قبل أن يستخدمها، وأنتم في شكٍّ من كون هذا يتمُّ سريعًا.

ذلك هو روحُ منهاجي في هذا القسم، وإذا ما أدار الولد كُرَةً صغيرةً بين إصبعَيْن معقوفتَين واعتقدَ أنه يشعُر بكرتَين، لم أسمح له بأن ينظرَ إلى ذلك قبل أن يَقنع بأنه لا يوجدُ غير كُرَةٍ هنالك.

وأرى أن هذا الإيضاح يكفي لإظهارِ ما اتفق لذهن الولدِ من تقدُّمٍ إظهارًا جليًّا، وللدلالة على الطريق التي سُلِكَت وصولًا إلى ذلك التقدم، ولكنَّ من المحتمل أن تكونوا قد ذُعِرتم من مقدار الأشياء التي عَرَضتُها عليه، وأنتم تخشون أن أُرهِقَ ذهنَه بهذه المعارفِ الزاخرة. والعكس هو الواقع؛ فأنا أعلِّمه أن يجهلَها أكثرَ من أن يَعْرِفها، وأنا أدلُّه على طريقِ العلم السهلة حقًّا، ولكن مع طولٍ بالغٍ وبُطءٍ في السَّير، وأنا أحمله على الخطوات الأُولى حتى يَعْرِف الدخول، ولكن لا أسمحُ له بالذهاب بعيدًا على الإطلاق.

وهو إذْ يُلزَم بالتعلُّم لنفسه، يستعملُ عقلَه لا عقلَ الآخرين؛ وذلك لأنه لا ينبغي إعطاءُ السلطانِ شيئًا لكيلا يُعطَى العُرْفُ شيئًا، ويأتينا مُعظَم الأضاليل من الآخرين أكثرَ من صدوره عن أنفسنا، ويجب أن ينشأ عن هذا التمرينِ المستمرِّ قوةٌ في الذهن مشابهةٌ لما يُعطاه البدنُ بالعملِ والتَّعب، وتكون الفائدةُ الأخرى في التقدُّم على نسبة القُوَى، فلا يَحمِلُ الذهنُ والبَدنُ غيرَ ما يَقْدِران على حَمْله، ومتى حازَ الإدراكُ أمورًا قبل خَزْنها في الذاكرة

فإن ما يأخذه منها فيما بعدُ يكون مالَه، وذلك بدلًا من أن يُعرَّض لأخذِ ما ليس له من الذاكرة بإرهاقها على غيرِ علمٍ منه.

وما لدى إميلَ من معارفَ قليلٌ، غيرَ أن ما عنده من المعارفِ هو مالُه حقًّا، ولا يَعْرِف شيئًا نصفَ معرفة، وبين الأمورِ القليلةِ التي يَعرِف، ويَعْرِف جيِّدًا ويُعَدُّ أكثرَ ما يَعْرِف أهميةً، هو وجودُ أمورٍ كثيرةٍ يجهلُها، ويمكنه أن يَعْرِفها ذات يوم، ووجودُ أمورٍ أكثرَ من هذه يَعْرِفُها أناسٌ آخرون، ولن يَعْرِفَها مدى حياته، ووجودُ أمورٍ أخرى غيرِ محصورةِ العددِ لن يَعْرِفها أحد. وهو حائزٌ لذهنٍ شامل، لا بالمعارف، بل بالقدرةِ على اكتسابها، حائزٌ لذهنٍ عريضٍ لامعٍ مستعدٍّ لكلِّ شيء، قابلٍ للتعلُّم إذا لم يكن متعلِّمًا كما قال مونتين. ويكفيني أن يكون عارفًا بـ «ما الفائدة؟» حَوْلَ كلِّ ما يصنع، وبـ «لماذا؟» حولَ كلِّ ما يعتقد، وذلك كما أقولُ ثانيةً، أن غرضي ليس منحه علْمًا، بل تعليمُه اكتسابَه عند الحاجة، بل تقديرُ قيمته الحقيقية تمامًا، بل جعْلُه يحبُّ الحقيقةَ أكثرَ من كلِّ شيء. أجل، إن التقدُّم بهذا المنهاج يكون قليلًا، ولكنه لا يُؤتى من الخُطُوات ما هو غيرُ مفيد، ولا نكون مُكرَهين على الرجوع إلى الوراء.

وليس لدى إميلَ غيرُ معارفَ طبيعيةٍ وفزيَوِيةٍ صِرْفة، وهو لا يَعْرِف حتى اسم التَّاريخ، ولا عِلمَ الأخلاق وما بعد الطبيعة، وهو يَعْرِفُ علائقَ الإنسانِ الجوهريةَ بالأشياء، ولكنه لا يَعْرِف أيةَ علاقةٍ خُلُقية بين إنسان وإنسان. وهو قليلُ المعرفة بتعميم الأفكار وقليلُ إتيانٍ بالمُجرَّدات، وهو يرى صفاتٍ مشتركةً بين بعض الأجسام من غير أن يُبرْهن حول هذه الصفات بنفسها، وهو يَعْرِف الاتساعَ المُجرَّد مستعينًا بالأشكال الهندسية، وهو يَعْرِف الكمية المجرَّدة مستعينًا بالرموز الجبرية، وهذه الأشكال والرموز هي أركان هذه المجردات التي تركن إليها حواسُّه، وهو لا يحاولُ معرفةَ الأشياءِ بطبيعتها مطلقًا، ولكنه يحاولها بالعلائق التي تهمُّه فقط، وهو لا يُقدِّر ما هو غريبٌ عنه بغيرِ علاقته معه. ولكن هذا التقديرَ صحيحٌ مُحكَم، ولا دخلَ للهوى والمُبْتَسَر فيه، وهو أكثرُ ما يُقدِّر الأشياءَ الأعظمَ فائدةً له، وهو إذْ لا يعدِل عن هذا الطريقِ في التقديرِ فإنه لا يلتفتُ إلى المُبْتَسَر مطلقًا.

وإميلُ مُجِدٌّ قَنوعٌ صبورٌ رصينٌ مملوءٌ شجاعة، وما كان خيالُه غيرُ المشتعلِ قطعًا، ليُجسِّمَ له الأخطارَ مطلقًا، وهو يتأثَّرُ بأمراضٍ قليلةٍ عارفًا كيف يَصْبِرُ عليها بثبات؛ وذلك لأنه لم يتعلَّم قَطُّ أن يناهض القَدَر، وهو لا يَعْرِف جيِّدًا ما الموت أيضًا. ولكن بما أنه تعوَّد معاناةَ سُنَّةِ الضرورةِ بلا مقاومةٍ فإنه يموت عند وجوبِ الموت بلا أنينٍ ولا انتفاض، وهذا

كلُّ ما تَسمح به الطبيعةُ في تلك الساعة الكريهة لدى الجميع، وتُعدُّ الحياة الحرة وقلةُ الاكتراث لأمور البشر أفضلَ طريقةٍ لتعلُّم الموت.

والخلاصةُ أن إميلَ له من الفضيلة كلُّ ما يتعلَّق بشخصه، وهو لكي يحوز الفضائل الاجتماعية أيضًا، لا يُعْوِزه غيرُ معرفة العلاقات التي تقتضيها، ولا يُعْوِزه غيرُ المعارف التي ترى ذهنَه مستعدًّا كلَّ الاستعداد لتقبُّلِها.

وهو ينظُر إلى نفسه غيرَ ملتفتٍ إلى الآخرين، وهو يجدُ من الحَسَن ألَّا يُفكِّر الآخرون فيه مطلقًا، وهو لا يطلُب شيئًا من أحد، ولا يرى أنه مَدينٌ بشيءٍ لأحد، وهو وحيدٌ في المجتمع البشري، ولا يعتمد على غيرِ نفْسه، ويَحِقُّ له أن يعتمد على نفْسه أكثرَ من سواه؛ وذلك لأنه كلُّ ما يُمكِنُ الإنسانَ أن يكونه في مثلِ سنِّه، وهو خالٍ من الأضاليل، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا مَفرَّ منه، وهو خالٍ من العيوب، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا يستطيع إنسانٌ أن يتَّقيَه، وهو ذو جسمٍ سليمٍ وأعضاءٍ رشيقةٍ وذهنٍ صحيحٍ خالٍ من المُبْتَسَرات وقلبٍ طليقٍ خالٍ من الأهواء. ولم يَكَدِ العُجْب الذي هو أوَّلُ الأهواءِ وأقربُها إلى الجِبِلَّة، يُساوِرُ فؤادَه بَعد، وهو من غيرِ أن يُقلِقَ راحةَ أحد، قد عاش راضيًا سعيدًا حُرًّا بمقدارِ ما تأذن فيه الطبيعة، أَوَتجدون الولدَ الذي بَلَغَ الخامسة عشرة من سِنيه على هذا الوضع قد أضاع سِنيه السابقة؟

الجزء الرابع

يا للسرعة التي نمرُّ بها فوق الأرض! وقد انقضى الربع الأوَّل من الحياة قبل أن يُعرَف كيف يُستفادُ منها، وينقضي الربع الأخير أيضًا بعد أن ينقطع الاستمتاع بها، وأوَّل ما في الأمر هو أننا لا نعرف أن نعيش مطلقًا، ولسرعان ما نعود غيرَ قادرين على ذلك. ونحن نقضي ثلاثة أرباع الوقت الباقية لنا في النوم والعمل والألم والقسر والمتاعب من كلِّ نوع. والحياةُ قصيرة، وهي ليست قصيرةً بالوقت القليل الذي تدوم فيه، بل لِما لا يكاد يوجد لنا فيه من بُرَهٍ نتمتع بها، ومن العبث أن يُذهَبَ إلى بُعْدِ ما بين ساعة الموت وساعة الميلاد؛ فالحياةُ تكون بالغةَ القِصَر إذا لم يُحسَن قضاء هذه الفاصلة.

ونقول إننا نُولَد مرتَين، الأُولى لنكون، والأخرى لنحيا، والأُولى للنوع والأخرى للجنس. ولا ريب في أن الذين يَعُدُّون المرأة إنسانًا ناقصًا ليسوا على صواب، ولكن لهم أن ينظروا إلى المماثلة الخارجية. ولا يوجَد في الأولاد من الجنسين حتى سنِّ البلوغ من الظاهر ما يَميزُ بعضَهم من بعض، فلهم عين المحيَّا وعين الوجه وعين اللون وعين الصوت، وكلُّ شيءٍ فيهم متساوٍ. والبنات من الأولاد، والصُّبيان من الأولاد، ويكفي ذاتُ الاسم لأناسٍ متشابهين بهذا المقدار، ويحافظ الذكور الذين وُقِفَ نُموُّهم الجنسيُّ على هذه المشابهة ما داموا أحياء؛ فهم يكونون أولادًا جِسامًا دائمًا، ولا يَظهر الإناث اللائي لا يفقدن هذه المشابهة مطلقًا شيئًا آخر من عدة وجوه.

بَيْدَ أن الإنسان على العموم لم يُخلَق ليبقى في الوَلُودِية دائمًا؛ فهو يخرُج منها في الوقت الذي عيَّنته الطبيعة، ولِدوْر البُحران هذا تأثيرٌ طويلٌ على قِصَرِه.

ويشابه هذا الانقلابُ العاصفُ هديرَ البحر، الذي يسبقُ الزوبعة من بعيد، فينبئُ عن نفسه بهمهمةِ الأهواء الناشئة، ويُخبرُ الاضطراب الأصمُّ بدنوِّ الخطر، وما يكون من تغييرٍ في المِزاج ومن كثرة الاحتداد، ومن هياج دائمٍ في النفس يجعلُ الولدَ غيرَ قابلٍ للانقياد

تقريبًا، وهو يصبح من الصُّمِّ تجاه الصوت الذي يجعله طائعًا، وهو يكون أسدًا مُصابًا بالحمَّى، وهو يُنكر مُرشده، ويعود راغبًا عن أن يُقاد.

وتُضافُ تغييراتٌ محسوسةٌ في الوجه إلى علائمَ خُلُقيةٍ في مِزاجٍ يَفسُد، وتنمو سيماه، وتُوسَم بطابع، ويسمرُّ القُطْنُ الحُلْو القليلُ الذي ينبُت في أسفل خدَّيه ويَصلُب، ويتغير صوته، أو يفقد رونقه، ولا يكون ولدًا ولا رجلًا، ولا يُمكن أن يتكلم مثلَ أحدهما، وتجد عيناه، ويجد عضوا الروحِ هذان اللذان لم يقولا شيئًا حتى الآن لغةً وتعبيرًا، وتلهبهما نارٌ ناشئة، وتبقى لنظراتهما التي تصيرُ أكثرَ التماعًا قُدسيَّةُ السذاجة، ولكن مع عدم المحافظة على بلادتهما الأُولى، وكان قد شَعَر بأنه يُمكنهما أن يقولا الشيءَ الكثير، وهو يبدأ بمعرفة غضِّهما والاحمرارِ خَجَلًا. وهو يُصبِحُ حَسَّاسًا قبل أن يَعْرِف ما يُحس، وهو يكون مضطرب البال من غير أن يعلم السبب. ويُمكن أن يحدث هذا رُويدًا رُويدًا تاركًا لكم وقتًا أيضًا، ولكن إذا تحوَّل هيجانُه إلى عدمِ صبرٍ بالغ، وإذا انقلب حُميَّاه إلى صَوْلة، وإذا ما غَضِب ولان بين دقيقةٍ ودقيقة، وإذا ما سَكَبَ دموعًا بلا داعٍ، وإذا ما ارتفع نبضه والتهبت عينه بالقرب من أشياء تُصبِح عاملَ خَطَرٍ له، وإذا ما أخذ يرتعش من وَضع امرأة يدها على يده، وإذا ما اضطرب أو ارتعب بالقرب منها، فيا أوليسُ، يا أوليسُ الحكيم، احترز؛ فقد فُتِحت المنافذ التي أغلقتَها بجُهدٍ كبير، وقد ثارت الرياح، ولا تترُك السُّكَّان[1]* دقيقة، وإلا هلك كلُّ شيء.

وهنا الولادة الثانية التي تكلمتُ عنها، وهنا يُولَدُ الإنسانُ للحياة حَقًّا، وهنا لا يكون غريبًا عنه أيُّ أمرٍ بشري، ولم تكن جهودُنا حتى الآن غيرَ ألعابِ ولد، وهي لا تكتسب أهميةً حقيقيَّةً إلا الآن، وهذا الدور الذي تنتهي فيه التربيات العادية هو عينُ الدَّوْر الذي يجب أن تَبْدَأ فيه تربيتنا، ولكن دَعْنا، لحُسنِ عَرْض هذا البرنامج الجديد، أن نعود فنتناول مما تقدَّم حالَ الأمور الخاصة بذلك.

وأهواؤنا هي الوسائل الرئيسة لبقائنا؛ ولذا فإن من المحاولات الفارغة المضحكة أن يُراد القضاء عليها، وذاك تقييدٌ للطبيعة، وذاك إصلاحٌ لعمل الرَّب، ولو قال الرَّبُّ للإنسان أن يقضي على الأهواء التي مَنَحه إياها، فإنه يكون مُريدًا لذلك وغيرَ مُريدٍ له؛ أي مناقضًا لنفسه، ولم يحدُث أن أصدرَ هذا الأمرَ المخالفَ للصواب، ولم يكُن مثلُ هذا مكتوبًا على قلب

---

[1] * السُّكَّان من السفينة الدفة.

الإنسان، وما يُريدُ الرَّبُ أن يصنعه الإنسانُ لا يبلِّغه إياه بواسطة إنسانٍ آخر، بل يقوله له بنفسه، وذلك أنه يكتبه في صميم فؤاده.

والحقُّ أنني أجد الذي يريد منعَ حدوث الأهواء يكون مجنونًا تقريبًا، كالذي يريد محوها، ولا ريب في أن الذين يعتقدون أن برنامجي كان هكذا حتى الآن يُعَدُّون مسيئين لفهْمي.

ولكن هل من حُسن البرهان أن يُستَنتج من الأمر القائل بأن من طبيعة الإنسان أن يكون ذا أهواءٍ كَوْنُ جميعِ ما نُحِسُّ في أنفسنا وما نرى في غيرنا من الأهواء طبيعيًّا؟ أجلْ، إن مصدرها طبيعي، غير أنها ضُخِّمَت بألفِ جدولٍ غريب، وهذا نهرٌ عظيمٌ يزيد بلا انقطاع، فلا تكادُ تُوجَدُ فيه بضعُ قَطَراتٍ من المياه الأُولى، وتُعَدُّ أهواؤنا الطبيعية محدودةً جِدًّا، وهي وسائل لحريتنا، وهي تهدف إلى بقائنا، وأمَّا جميع الأهواء الأخرى التي تَقْهَرنا وتُهلِكنا فتأتينا من مصادرَ أخرى، ولا تمنحُنا الطبيعة إياها، بل نحوزها إضرارًا بها.

وحبُّ النفس هو مَنبَعُ أهوائنا وأصلُ جميع الأهواء الأخرى ومبدؤها، وهو الوحيد الذي يُولَد مع الإنسان ولا يتركُه ما دام حيًّا، وهو الهوى الفطريُّ الغريزيُّ السابقُ لكل ما سِواه والذي تُعَدُّ جميع الأهواء الأخرى من جهةٍ تغييرًا له، وتُعَدُّ جميع الأهواء الأخرى طبيعيةً من هذه الناحية، إذا ما أُريد ذلك. بَيْدَ أنه يُوجَد لمعظم هذه التغييرات عِلَلٌ خارجيةٌ ما كانت هذه الأهواء لتحدُث مطلقًا لولاها، وهذه التغييرات عينها ضارَّةٌ بنا بعيدةٌ من أن تكون نافعةً لنا، وهي تُغيِّر أوَّلَ موضوعٍ وتسير على خلاف مبدئها، وهنالك يكون الإنسان خارج الطبيعة، ويُناقضُ نفسه.

وحُبُّ النفس حَسنٌ دائمًا، ويلائم النظامَ دائمًا، وبما أن كلَّ واحدٍ مُكلَّفٌ بحفظ نفسه فإنه مجهوداته الأُولى وأهمَّها يجب أن تهدِفَ إلى هذا الحفْظ بلا انقطاع، وكيف تَسْهر على هذا الحفظ هكذا إذا لم يَكُن لها أعظم فائدةٍ في ذلك؟

ولذا يجب أن نُحِبَّ أنفسنا في سبيل بقائنا، ويجب أن نُحِبَّ أنفسنا أكثر من أي شيءٍ آخر، ونُحِبُّ ما يحفظُنا كنتيجةٍ مباشرة لعين الإحساس. وكلُّ ولدٍ يتعلَّقُ بمُرضِعه، ولا بدَّ من أن يكون رومولوس قد أحبَّ الذئبة التي أرضعته. وأوَّلُ ما يُرَى كون هذا التعلُّق آليًّا صِرفًا، وكلُّ ما يُيسِّر راحة الفرد يجتذبه، وكلُّ ما يضُرُّه يدفعه، وليس ذاك غيرَ غريزةٍ عمياء، والذي يحوِّلُ هذه الغريزة إلى شعورٍ والتعلُّقَ إلى حُبٍّ والكراهةَ إلى حقد، هو القصد الذي يُبدى في إلحاق الضرر بنا أو جلبِ النفع إلينا، ولا نُولَع بالموجودات الخالية من الحِسِّ

فلا تَتْبَعُ غير ما تُوجَّه به، بل نُولَع بمن يُنتظر منهم خيرٌ أو شرٌّ صادرٌ عن استعدادهم الباطني، صادرٌ عن إرادتهم، ومن نرى سيرَهم سيرًا حُرًّا معاكسًا لنا أو موافقًا لنا يوحون إلينا بمشاعرَ مشابهةٍ للتي يُظهِرون لنا، ونبحثُ عن الذي ينفعنا، ونحب الذي يُريد أن ينفعنا، ونجتنب الذي يؤذينا، ونحقد على الذي يريد أن يؤذينا.

وأوَّل شعورٍ في الولد هو حُبُّه لنفسه، والشعور الثاني في الولد، ويُشتَقُّ من الأوَّل، هو حُبُّه مَن يُدنُونه منهم؛ وذلك لأنَّ الولد في حال الضَّعف التي يكون عليها، لا يَعْرِف أحدًا بغير ما يتلقاه من عونٍ وعناية، وليس أوَّلُ ما يُساوره من تعلُّق بمُرْضِعِه أو مُربيته غيرَ عادة، وهو يبحث عنهما لاحتياجه إليهما، ولأنه يكون سعيدًا بوجودهما عنده، ويُعَدُّ هذا عِرفانًا أكثرَ من أن يكون عطفًا، ولا بدَّ له من وقتٍ طويلٍ حتى يُدرِك أنهما تريدان أن تكونا نافعتَين له، فضلًا عن كونهما نافعتَين له، وهنالك يبدأ حُبُّه لهما.

ومن الطبيعي إذن مَيلُ الولدِ إلى حُسْن الالتفات؛ وذلك لأنه يَرى أن كلَّ مَن يدنو منه يميلُ إلى مساعدته، ولأنه يقتبس من هذه المشاهدة عادةَ شعورٍ ملائمٍ لنوعه، ولكنه كلَّما وَسَّع نِطاقَ صلاته وحاجاته وتابِعيَّاته الفاعلة والمنفعلة، أفاق حِسُّ علاقاته بالآخرين، وأسفر عن حِسِّ الواجبات والتفضيلات، وهنالك يُصبِحُ الولدُ مُتجبِّرًا مغيارًا خادعًا منتقمًا، وهو إذا ما حُمِلَ على الطَّاعة، وهو إذ لا يرى فائدةَ ما يُؤمر به، فإنه يعزو هذا إلى الهوى وإلى قصد تعذيبه، ويتمرَّد، وهو إذا ما أُذْعِنَ له فإنه يَعُدُّ كل مقاومةٍ له عصيانًا وميلًا إلى صدِّه، فيخبِط الكرسيَّ أو المائدة لعدم إطاعته. وإذا ما قُضيَت احتياجاتنا الحقيقية قَنِعَ حُبُّ النفس الذي لا يتعلَّقُ بغيرنا. ولكن الأنانية التي تقوم على قياس الإنسان بسواه لا تقنع أبدًا، وهي لا يُمكن أن تكون هكذا؛ وذلك لأن هذا الإحساس إذ يُفَضِّلُنا على الآخرين، يتطلب أن يُفضِّلنا الآخرون على أنفسهم، وهذا متعذِّر، وذاك هو الوجه الذي تُولَدُ به الأهواء العذْبة الوَدود من حُبِّ النفس، وذاك هو الوجه الذي تُولد به الأهواء النَّزِقة الحَقود من الأنانية، وهكذا فإن الذي يجعل الإنسان صالحًا جوهرًا هو أن يكون قليلَ الاحتياجات قليلَ القياس بينه وبين الآخرين، وإن الذي يجعله شَريرًا جوهرًا هو أن يكون كثيرَ الاحتياجات كثيرَ الارتباط في رأي الآخرين. وعلى هذا المبدأ يسهُل أن يُرى كيف يُمكِنُ أن تُوجَّه جميع أهواء الأولاد والرجال إلى الخير أو الشر، ومن الصحيح أن يَصعُبَ عيشُهم صالحين دائمًا لعدم استطاعتهم أن يعيشوا وحدَهم دائمًا، وتزيد هذه الصعوبة نفسُها بعلاقاتهم حَتمًا، وبهذا على الخصوص تجعَل أخطارُ المجتمع لنا الحِذْق والانتباه أكثرَ لزومًا ليُمنَعَ في قلب الإنسان ما ينشأ عن احتياجاته الجديدة من فساد.

ودراسةُ الإنسان الموافقةُ هي دراسةُ علاقاته، ويجب أن يَدرُس نفسه بعلاقاته مع الأشياء ما عَرَفَ نفسه بكيانه البدني، وهذا عملُ صِباه، وهو إذا ما أخذ يشعُر بكيانه الأدبيِّ وَجَبَ أن يَدرُس نفسه بعلاقاته مع النَّاس، وهذا هو عملُ حياته بكاملها، بَدءًا بالنقطة التي انتهينا إليها هكذا.

والإنسان يعود غيرَ وحيدٍ حالما يحتاج إلى صاحبة، وتُولَدُ جميعُ علاقاته بنوعه وجميعُ عواطفِ نفسه مع تلك، ولسُرعان ما يُثيرُ هواه الأوَّل أهواءه الأخرى.

وميلُ الغريزة غير مُعيَّن، وأحد الجنسين مُجتذَبٌ بالآخر، وهذه هي حركةُ الطبيعة، ويكون الاختيار والتفضيلات والعطفُ الشخصيُّ أعمالَ معارفَ ومُبْتَسَراتٍ وعادة، ولا بدَّ لنا من الوقت والمعارف حتى نكونَ قادرين على الحُب، فلا يُحَبُّ إلا بعد الحُكْم، ولا يُفضَّلُ إلا بعد القياس، وتكون هذه الأحكام من غير أن يُشعَر بها، ولكنها ليست أقلَّ من ذاك حقيقة، ومهما يُحدَّث عن الحبِّ الحقيقيِّ فإنه يُبجَّل من قِبَلِ الرجال دائمًا؛ وذلك لأنه وإن كان يُضِلُّنا بفَوْراته، وإن كان لا ينزِع من القلب الذي يُحسُّه ما فيه من عيوب ممقوتة، فضلًا عن إحداثه عيوبًا من هذه فيه، يَفترض، مع ذلك، من الصفات ما هو جديرٌ بالاحترام دائمًا، يفترض من هذه الصفات الكريمة ما لا يُشعَرُ به من غيره، وعن العقل يَصْدُرُ هذا الخيار الذي يُعارَضُ به العقل، وقد قيل إن الحُبَّ أعمى؛ وذلك لأنَّ له عيونًا أفضلَ من عيوننا؛ فهو يرى من العلاقات ما لا نستطيع الشعور به. وتكون كلُّ امرأةٍ حسناء على السواء عند مَن ليست لديه فكرةٌ عن المَزيَّة والجمال، فتُعَدُّ أوَّلُ آتيةٍ أكثرَهن لطافةً دائمًا، وعلى بُعدِ ما يصدُر الحُبُّ عن الطبيعة يكون ناظمَ ميولِها ورادعًا لها، وإذا عدوتَ المحبوبَ لم يَعُد أحدُ الجنسين عند الآخر شيئًا مذكورًا.

وما يُمنَحُ من تفضيلٍ يُراد نَيلُه، فيجب أن يكون الحُبُّ متبادلًا، ويجب أن يجعل الإنسانُ نفسَه محبوبًا ليُحَبَّ، ويجب أن يجعل الإنسانُ نفسَه محبوبًا أكثرَ من سواه، أكثر من كل إنسانٍ آخَر، حتى يُفضَّلَ على غيره، وذلك في نظر المحبوب على الأقل؛ ومِنْ ثَمَّ كانت نظرات الإنسان الأُولى نحو أمثاله، ومِنْ ثَمَّ كانت المقارنات الأُولى معهم؛ ومِنْ ثَمَّ كانت المباراة والمنافسات والحسد، ومن شأن القلب المملوء شعورًا فَيَّاضًا أن يودَّ الاندفاق، وعن حاجة الصاحبة تنشأ حاجة الصاحب حالًا، ومَن يذُق حلاوة كونه محبوبًا يودُّ لو يكون محبوبًا لدى جميع النَّاس، وما كان الجميع ليُريدَ تفضيلات إذا لم يوجد كثيرٌ ممن هم غيرُ راضين، ومع الحُبِّ والصداقة تظهر الاختلافات والعداوة والحقد، وأرى رأيَ النَّاس

يقيم لنفسه عرشًا ثابتًا من بين هذه الأهواء المختلفة، وأن النَّاس البُلْه المُعبَّدين لسلطانه لا يقيمون كيانَهم الخاصَّ إلا عن أحكام الآخرين.

وانشُروا هذه الأفكار تُبصِروا المصدرَ الذي يأتي أنانيَّتنا بشكلٍ نعتقد أنه طبيعيٌّ لها، وكيف أن حُبَّ النفس يصير، بعد أن يعدِل عن كونه شعورًا مطلقًا، كبرياءَ في النفوس الكبيرة وغرورًا في النفوس الصغيرة، وكيف أنه يغتذي في هذين الفريقَيْن على حساب القريب، وبما أنه لا يوجد لهذا النوع من الأهواء أصلٌ في قلوب الأولاد مطلقًا فإنه لا ينشأ من تلقاء نفسه، وإنما نحن وحدَنا نحمله إليها، وما كانت لتتأصَّل إلا بخطأ مِنَّا، ولكن الأمر يعود غير هذا في قلب الشابِّ حيث تنبت على الرغم مِنَّا ومهما صنعنا؛ ولذا يكون وقتُ تغيير المنهاج قد حلَّ.

ولنبدأْ ببضعة تأملات مهمة حول الوضع الحرج الذي هو موضوعُ بحثٍ هنا، وليس الانتقال من دَور الصِّبا إلى دور البلوغ من تحديد الطبيعة له ما لا يختلف في الأفراد باختلاف الأمزجة والأقاليم، وكلٌّ يعْلم ما يُشاهَد من فروقٍ حَوْل هذه النقطة بين البلاد الحارة والبلاد الباردة، وكلٌّ يرى أن الأمزجة الحامية تَكمُل بأسرع من الأمزجة الأخرى، ولكنَّ من الممكن أن يُضَلَّ في العِلل، فيُعزَى إلى البدني في الغالب ما يجب أن يُعزى إلى الأدبي، ويُعدُّ هذا من أكثر الأضاليل التي تلازم فلسفةَ عصرنا شيوعًا، ويأتي تعليم الطبيعة متأخِّرًا بطيئًا، وتأتي دروس النَّاس قبل الأوان دائمًا تقريبًا، والحواسُّ في الحال الأُولى تُنبِّهُ الخيال، والخيالُ في الحال الثانية يُنبِّه الحواس، فيمنحها نشاطًا بَكورًا لا يُعْوِزه أن يُهيِّجَ الأفراد ويُضعفهم في البُداءة، ثُمَّ النوع مع مر الأيام، وتدُلُّ المشاهدة الأكثر عمومًا والأعظم ثُبوتًا من تأثير الإقليم على أن البلوغ وقدرة الجنس أسرع عند الأمم المتعلمة المتمدنة مما عند الأمم الجاهلة المتبربرة.[٢] ويوجد لدى الأولاد فَطانةٌ عجيبةٌ يميزون بها سيئ العادات من خلال

[٢] قال مسيو بوفون: «يصل الأولادُ الذين تعوَّدوا أغذيةً وافرةً عصاريةً إلى تلك الحال بأسرعِ ما يمكن في المدنِ ولدى المُوسرين. وأمَّا الأولادُ في الريفِ ولدى الفقراءِ فإنهم يبلغونها متأخِّرين عن قلةِ طعامٍ وسوءِ تغذية، فلا بدَّ من مرورِ عامَين أو ثلاثة أعوامٍ زيادةً على ذلك حتى ينتهوا إلى تلك الحال» (التاريخ الطبيعي، جزء ٤، صفحة ٢٣٨). وأقبل بالمشاهدة، لا بالإيضاح، ما دام سِن البلوغ في البلاد التي يتغذَّى القروي فيها كثيرًا ويأكل كثيرًا، كما في الفاله، وفي بعض المناطق الجبلية بإيطالية أيضًا كالفريول مثلًا، يتأخَّر في الجنسين على السواء أكثر من تأخُّره في صميم المدن؛ حيث يُراد إرواءُ الزهرِ فيقترُ في الطعام

رِداء الحشمة الذي يستترون به، ويُعَدُّ اللسان المُصفَّى الذي يُملى عليهم، ودروسُ العفاف التي تُلقى عليهم، وستارُ الزهد الذي يُتظاهَرُ بوضعه أمام عيونهم، مهاميزَ لفضولهم بذلك المقدار، وإذا نُظِرَ إلى الوجه الذي يُتَّخَذُ وُجِد من الجلي أن ما يُتظَاهَرُ بإخفائه عنهم لا يكون لغير تعليمهم إياه، وهو أكثر ما يفيدهم من الدروس بين جميع ما يُلقى عليهم.

واستشيروا التجرِبة تُدرِكوا مقدار ما يؤدي إليه هذا المنهاجُ المخالفُ للصواب من تعجيلٍ لعمل الطبيعة وتقويضٍ للمِزاج، وهذا هو إحدى العلل الرئيسة التي تُفسِدُ النَّسل في المدن، وبما أن الشُّبَّانَ يَضنَون باكرًا فإنهم يبقَوْن صِغارًا ضِعافًا سيئي التكوين، فيهْرمون بدلًا من أن يَنمُوا، شأنُ الدالية التي تُحمَل على الإثمار رَبيعًا فتذوي وتموت قبل الخريف.

ولا بدَّ من العيش بين الشعوب البسيطة الغليظة ليُعرَف مدى العُمُر الذي يمكن الجهلَ السعيدَ أن يطيل إليه طُهرَ الأولاد، ومن المناظر المؤثِّرة المسلِّية أن يُرى الجنسان المُوكَلان إلى سلامة أفئدتهما يُطيلان في زهرة العُمُر والجمال ألعابَ الصِّبا الساذجة، وأن يُبديا حتى بأُلفَتهما نقاءَ لهْوِهما، وأخيرًا، إذا ما تزاوجَ هذا الشباب اللطيف وتبادل الزوجان بواكير ذاتِهما، زادَ كلٌّ منهما عِزًّا لدى الآخر، وتَغدو كثرةُ الأولاد الأصحاء الأقوياء عَربون قِرانٍ لا يُفسده شيء، وثمرة حكمة سِنِيهما الأُولى.

وإذا كانت السِّنُّ التي يكتسب الإنسان فيها شعورًا بجنسه تختلف بفعل التَّربية اختلافًا بفعل الطبيعة، فإنه ينشأ عن هذا إمكانُ تعجيلِ هذه السِّن وتأخيرها على حَسَب الطريقة التي يُنشَّأُ بها الأولاد، وإذا كان البدن يَكسِب أو يخسَرُ صلابةً كُلما عُجِّلَ هذا التقدم أو عُوِّق، فإن الذي يُستنتَج من ذلك أيضًا هو أنه كُلَّما سُعيَ في تعويقه نال الفتى بأسًا وقوة، ولا أزال أتكلم عن النتائج البدنية، وسيُرى عما قليل أنها لا تقتصر على ذلك.

وأستخرجُ من تلك التأمُّلات حَلَّ المسألة الآتية التي أُثيرت كثيرًا، وهي: هل يلائم تنوير الأولاد باكرًا حول موضوعات فضولهم، أو هل الأفضل أن يُخادعوا بتمويهاتٍ ذات حشمة؟

إلى الغاية غالبًا، وحيث يعمل معظمُ الناس بالمَثَل القائل: «ثوبٌ من مخمل وبطن خاوٍ.» ومن العجيب أن يُشاهَد في هذه الجبالِ فتيانٌ كِبارٌ أقوياءُ ذوو أصواتٍ حادةٍ وأذقانٍ بلا لِحًى، وفتياتٌ كبيراتٌ ناميات كثيرًا بلا حَيْض، فيبدو ليَ أن المصدرَ الوحيدَ لهذا الفرْقِ هو أن خيالَ هؤلاء الناسِ البسطاءِ في طبائعهم يكون هادئًا ساكنًا لزمنٍ طويل، فيتأخرُ في إثارةِ دمهم، ويجعلُ مِزاجَهم أقلَّ نضجًا قبْل الأوان.

أرى ألَّا يُؤتى هذا ولا ذاك، وذلك أوَّلًا، أنَّ هذا الفضول لا يأتيهم من غير أن يُفسَح له في المجال؛ ولذا يجب أن يُصنَعَ ما لا يكون لهم معه هذا المجال. ثانيًا: إنَّ ما نحن غيرُ ملزمين بحلِّه من الأسئلة لا يستلزم مخادعةَ من يَطْرَحُها، والأفضل أن يُقابَل بالسكوت من أن يُجابَ عنها بالكَذِب عليه، وهو لن يُدْهَش من هذه السُّنَّة إذا ما عُنيَ بإخضاعه لها في الأمور التي يُؤبَهُ لها، وأخيرًا إذا ما الْتُزِمَ جانبُ الجوابِ فليَكُن هذا بأقصى البساطةِ وبلا غموضٍ ولا ارتباكٍ ولا ابتسام؛ فالخطرُ أقلُّ كثيرًا في إرواء فُضول الولد مما في تحريكه.

ولتكن أجوبتُكم دائمًا رصينةً قصيرةً حازمة، ومن غير أن يشوبَها تردُّدٌ مطلقًا. وليس من الضروري أن أُضيف إلى ذلك وجوبَ كونها صادقة، فلا يُمكِن تعليمُ الأولاد خطرَ الكذِب على النَّاس من غير أن يُشعَرَ من قِبَل النَّاس بخطرٍ أعظم من ذاك في الكذِب على الأولاد. ومن نتائج الأكذوبة المؤكَّدة التي يأتيها المُعلِّم نحو التلميذ أن يُقضى على ثمرات التَّربية إلى الأبد.

وقد يكون الجَهْلُ المطلقُ حَوْل بعض الموضوعات أفضلَ ما يلائم الأولاد، ولكن ليتعلَّموا باكرًا ما يستحيل كتمُه عنهم دائمًا. ومما يجبُ ألَّا يستيقظَ فضولُهم بأيِّ وجهٍ كان أو أن يُقضَى قَبْلَ السِّنِّ التي يكون خَطِرًا فيها. ويتوقف سلوككم نحو تلميذكم كثيرًا على وضعه الخاصِّ وعلى المجتمعات التي تحيط به، وعلى الأحوال التي يُبصَرُ إمكانُ وجوده فيها ... إلخ. والمهم هنا ألَّا يُترَك شيءٌ للمصادفة، وإذا لم تطمئنوا إلى جعله يجهلُ الفرقَ بين الجنسين حتى السادسة عشرة من سنيه فاعْنَوا بأن يتعلَّمه قبل العاشر من عُمُره.

ولا أحبُّ أن يُتَّخَذ مع الأولاد لسانٌ مُمَحَّصٌ كثيرًا، ولا أن تُستَعمَل مواربات طويلةٌ يُبصِرونها لكيلا تُطْلَق على الأشياء أسماؤها الحقيقة، فللأخلاق الصالحة في هذه الموادِّ بساطةٌ بالغةٌ دائمًا، ولكن الخيالات الملوَّثة بالمنكَر تجعلُ الأذن مُرهَفة، فتُلزِمنا بتمحيص تعابيرنا بلا انقطاع، ولا حاصل للألفاظ الغليظة؛ فالأفكار الداعرة هي ما يجب أن يُقصى.

ومع أن الحياء طبيعيٌّ في النوعِ البشري، فإنه ليس طبيعيًّا في الأولاد، وذلك أن الحياء لا يُولَدُ إلا مقرونًا بمعرفة السوء، وكيف يكون لدى الأولاد الذين ليست لديهم هذه المعرفة أو لا ينبغي أن يحوزوها، ذاك الحسُّ الذي ليس غيرَ نتيجةٍ لها؟ ينطوي إعطاؤهم دروسًا في الحياء والحِشْمة على تعليمهم وجودَ أمورٍ شائنةٍ فاحشة، ينطوي على تلقينهم رغبةً خفيَّةً في معرفة هذه الأمور، وسيَعْرِفون هذا عاجلًا أو آجلًا، ومن شأن الشرارة الأُولى التي تَمَسُّ الخيالَ أن تُعَجِّل اشتعال الحواسِّ لا ريب، واحمرارُ الوجه دليلُ الذَّنْب، ولا تستحي البراءة الحقيقية من شيء.

وليس عند الأولاد ما عند الرجال من تَوْقات، ولكن بما أنهم مِثْلَهم عُرضةٌ للدنس الضارِّ بالحواس، فإنهم يستطيعون بفعل هذا القَسْرِ أن يتلقَّوا عينَ الدروسِ في اللياقة، واتَّبِعوا روح الطبيعة التي تضع في ذات المكان أعضاء اللذات الخفية وأعضاء الحاجات الكريهة، فتُوحي إلينا بعينِ العنايات في مختلِف أدوار العُمُر، توحي عن هذه الفكرة تارةً وعن تلك تارةً أخرى، توحي إلى الرجل عن حياءٍ وإلى الولد عن نظافة.

ولا أجدُ غيرَ وسيلةٍ واحدةٍ لحِفْظ طُهْر الأولاد، وهي أن يحترمهم ويُحبَّهم جميع مَن يحيطون بهم، وإن لم يكن هذا نُقِضَ عاجلًا أو آجلًا كلُّ جُهدٍ يُبذَل إمساكًا لهم، فلهم في الابتسامة والنظرة والحركة الخاطفة قولٌ حول كلِّ ما يُحاوَل إخفاؤه عنهم، ويكفي لتعلُّمهم إياه أن يُرَى أنه يُراد إخفاؤه عنهم. وبما أن ما يستعمله المهذَّبون من جُملٍ وتعابيرَ فيما بينهم يفترض ما ينبغي وجوده بين الأولاد من معارف، فإنه لا يكون له محلٌّ معهم، ولكن بساطتهم إذا ما أُكرِمَت حقًّا سَهُلَ علينا أن نجد في مخاطبتهم من الجُمَل ما يلائمهم. وتجد سذاجةً في اللغةِ التي تلائم العفافَ وتروقه، وهذه هي اللهجةُ الحقيقيةُ التي تَصُدُّ الولدَ عن الفضولِ الخَطِر، والولدُ إذا ما كُلِّم عن كلِّ شيءٍ ببساطةٍ لم يُترَكْ له ما يَتصوَّر معه بقاءَ شيءٍ لم يُحدَّث عنه، وإذا ما أُضيفت إلى الألفاظ الغليظة أفكارٌ غيرُ مستحبَّة ملائمةٌ لهم أُطفئت شعلة خيالهم الأُولى، وهو لا يُمنَع من النطق بهذه الكلمات ومن حيازة هذه الأفكار، ولكنه يُلقَّنُ من حيث لا يدري كراهةَ تذكُّرِها، وما أكثر الارتباك الذي يوفَّرُ على أولئك الذين يتكلمون عن فؤادٍ دائمًا فيقولون الصدقَ ويُعربون عنه كأنهم شاعرون به!

«وكيف يُصنَع الأولاد؟» هذا سؤالٌ مُحيِّرٌ يَعرِضُ للأولادِ طبيعة، وعلى الجوابِ عنه بطيشٍ أو برصانةٍ يتوقَّفُ أحيانًا أمرُ صحَّتِهم وأمرُ خُلُقِهم مدى حياتهم، وأقصرُ طريقٍ تتصوَّره الأمُّ للخلاصِ منه من غيرِ أن تُخادِعَ ابنَها هو أن تفرضَ السكوتَ عليه، ويكون هذا حسنًا إذا ما عُوِّد ذلك في المسائلِ التي لا أهميةَ لها، ولم يَرَ سِرًّا في هذه اللهجةِ الجديدة، ولكن من النادرِ أن تقفَ الأمُّ هُناك، فستقول له: «هذا سِرٌّ بين المتزوجين، ولا يجوزُ للأولادِ أن يكونوا ذوي فضولٍ بهذا المقدارِ مطلقًا.» أجلْ، إن هذه وسيلةٌ حسنةٌ لخلاصِ الأمِّ من الورطة، ولكن لِتعْلَمِ الأمُّ أن الولدَ إذ يُنخَز بهذا الزَّجْرِ لا يهدأُ له بالٌ قبلَ أن يَعْرِفَ سِرَّ المتزوجين، فلا يلبثُ أن يَعْرِفه.

وليُسْمَحْ لي بأن أذكرَ جوابًا مخالِفًا تمامًا لما سمعتُ عن ذاتِ السؤال، فكان له أثرٌ كبيرٌ في نفسي ما صدرَ عن امرأةٍ ذات اتضاعٍ في الكلامِ والأوضاع، ولكن مع معرفتِها عند الضرورةِ أن تنظرَ إلى خيرِ ابنِها وإلى الفضيلة، فتدوسَ كلَّ خوفٍ زائفٍ من اللومِ، وكلَّ كلامٍ فارغٍ يَصدُرُ عن الماجنين، ولَمَّا يمضِ زمنٌ طويلٌ على وقتِ رمي الولد في البولِ حجرًا كان قد خَدَشَ إحليلَه، ولكن العارض زال ونُسي. ويسألُ الولدُ الطائشُ أمَّه: «كيف يُصنَع الأولادُ يا أُمَّاه؟» وتجيبُ الأمُّ بلا تَردُّد: «أيْ ولَدِي! إن النساءَ يَبُلْنَهُ بمشقَّةٍ قد تُودي بحياتهنَّ أحيانًا.» ودَعُوا المجانين يضحكون والأغبياءَ يغتاظون، ولكن دَعُوا الحكماءَ يبحثون لِيَروا هل يجدون جوابًا أكثرَ صوابًا من هذا وأعظمَ إيصالًا إلى غاياته.

وفي البُداءةِ تُحَوِّل فكرةُ الاحتياج الطبيعي المعروفة لدى الولد فكرةَ الغموض فيه، وتُغطِّي أفكارُ الألمِ والموتِ اللاحقةُ تلك الفكرةَ بستارٍ من الغمِّ يُضعِفُ الخيالَ ويُردِعُ الفضول، وكلُّ شيءٍ يصرِف الذهن إلى نتائج الولادة لا إلى عللها، وتكون آفات الطبيعة البشرية والأمور الكريهة وأشكال الألم هي ما يُلقي هذا الجواب نورًا عليه إذا كان ما يُوحى به من اشمئزاز يسمحُ للولد بأن يسأل عنها، وبأية وسيلةٍ تكون لهم الرغائب فرصةُ الظهور بالأحاديث التي تُوجَّهُ هكذا؟ وتَرَوْن مع ذلك كَوْنَ الحقيقة لم تُحرَّف قَط، وأنه لم يُحتَج قَطُّ إلى مخادعة التلميذ بدلًا من تعليمه.

وأولادُكم يقرءون، وهم ينالون بالقراءة معارفَ ما كان ليكسِبوها بلا قراءةٍ مُطلَقًا، وهم إذا ما دَرَسوا اشتعل خيالُهم وأُرهِفَ في صَمْتِ الغرفة، وهم إذا ما عاشوا بين النَّاس سَمعوا رطانةً غريبةً ورأَوا أمثلةً تقف أبصارهم، وذلك أنه بُلِغَ من إقناعهم بأنهم من الرجال ما يبحثون معه حالًا، في كلِّ شيءٍ يفعله الرجال أمامهم، كيف يُمكِنُ هذا أن يلائمهم، وذلك أنه يجِبُ أن تَصْلُحَ أعمال الآخرين نموذَجًا لهم حينما تَصْلُح أحكام الآخرين لهم قانونًا، ومن الخَدَم الذين يُجعَلون تابعين لهم؛ ومِنْ ثَمَّ يُعنون بأن يروقوهم، مَن يَزدَلِفون إليهم على حساب الأخلاق الحسنة، ومن المُرَبيات الضواحك مَن يُحدِّثْنهم وهم في الرابعة من سِنيهم، بأمورٍ لا يجرؤ أشدُّ النساء مُجُونًا أن يُحدِّثنَ بها مَن هم في الخامس عشر من عُمُرهم، ولسُرعان ما ينسين ما قُلنه، ولكنهم لا ينسون ما سَمِعوا، وتُعِدُّ الأحاديثُ الداعرةُ فاجرَ الأخلاق، والخادم الخبيث يَجعل الولد فاسقًا، ويَضمن سِرُّ أحدهما سِرَّ الآخر.

والولد الذي يُنشَّأُ وَفْقَ سِنه وحيد، وهو لا يَعْرِف غير روابط العادة، فيُحبُّ أخته كما يحب ساعته، ويحب صديقه كما يحب كلبه، وهو لا يشعر بجنس ولا نوع، ويكون الرجل والمرأة غريبين عنه على السواء، وهما لا يَقُصَّان عليه شيئًا مما يصنعان ولا مما يقولان،

وهو لا يرى ذلك ولا يسمعه، وهو لا ينتبه إليه مطلقًا، وهو لا يبالي بكلامهما ولا بأمثلتهما، فجميع هذا لم يُصنَع من أجله قَط، وليس ما يُمنَحه بهذا المنهاج خطأً مصنوعًا، بل جهل الطبيعة، ويأتي الوقت الذي تُعنَى فيه عينُ الطبيعة بتنوير تلميذها، وهنالك فقط تجعله في حالٍ يستفيد معها بلا خَطَرٍ من الدروس التي تُلقيها عليه، والمبدأ هو ألَّا يكون تفصيلُ القواعد من موضوعي، وتنفع الوسائل التي أقترح نظرًا إلى الموضوعات الأخرى مثالًا لهذا أيضًا.

وإذا أردتم أن يكون النظام والقانون سائدين للأهواء الناشئة، فأطيلوا دَورَ نُموِّها، وذلك ليكون لديها من الوقت ما تتسق معه كلَّما بَرَزَت إلى الوجود، وهنالك لا يكون الإنسانُ هو الذي يُنظِّمُها، بل الطبيعة نفسُها. ولا يكون ما تُعْنَون به غيرَ ترْكِها تُنظِّم عملَها، وإذا ما كان تلميذُكم وحيدًا لم يجب عليكم أن تفعلوا شيئًا، ولكنَّ كلَّ ما يُحيطُ به يُلهِبُ خيالَه، ويجُرُّه سيلُ المُبْتَسَرات، ولا بُدَّ من دفعه إلى الجهة المعاكسة إمساكًا له، ويجب أن يُقيِّدَ الشعورُ الخيال، وأن يُسْكِتَ العقلُ رأيَ النَّاس، والحسَّاسيةُ مصدرُ جميع الأهواء، والخيالُ يُعَيِّنُ مَيْلَها، وكلُّ مخلوقٍ شاعرٍ بصِلاته يَجِبُ أن يرتبك عند اختلال هذه الصلات وعند تصوُّره، أو ظنِّه أنه يَتصَوَّرُ ما هو أكثرُ ملاءمةً لطبيعته، وأضاليلُ الخيال هي التي تُحوِّل إلى معايبَ أهواءَ جميع المخلوقات المحدودة، حتى الملائكة إذا ما كانوا ذوي أهواء؛ وذلك لأن من الواجب أن يَعْرِفوا طبيعة جميع الموجودات ليَعْرِفوا أيُّ الصلات أكثرُ ملاءمةً لهم.

وإليك إذن خلاصة الحكمة البشرية من حيث استعمالُ الأهواء:

(١) الشعور بصلات الإنسان الحقيقية في النوع وفي الفرد.
(٢) تنظيم جميع عواطف النفس وَفْقَ هذه الصلات.

ولكن هل الإنسان مسيطرٌ على تنظيم عواطفه وَفْقَ هذه الصلات أو تلك؟ لا ريب إذا كان سيد تنظيم خياله حول هذا الموضوع أو ذاك، أو حول منحه هذه العادة أو تلك، ثُمَّ إننا نكون هنا أقلَّ اكتراثًا لما يستطيع الإنسان أن يفعله في نفسه مما نقدِر على فعله في تلميذنا باختيار الأحوال التي نجعله فيها، ويَعني عرضُ الوسائل الخاصة بالبقاء ضمن نظام الطبيعة بيانًا كافيًا للوجه الذي يُمكِنُ الخروج به منه.

ولا يُوجدُ أَدَبٌ لأفعاله ما بقيت حساسيته مقصورةً على شخصه، ومتى أخذت تمتدُّ إلى خارج نفسه فازت في البُداءة بالمشاعر وبمبادئ الخير والشرِّ التي تجعله حقًّا إنسانًا وجزءًا متمِّمًا لنوعه، فعلى هذه النقطة الأُولى يجبُ تثبيتُ ملاحظاتنا في بدءِ الأمر.

وهذه الملاحظات صعبةٌ من حيث إن إتيانها يتطلَّب طرح الأمثلة التي تكون تحت عيوننا، والبحث عن الأمثلة التي يتمُّ نموُّها المتعاقب وَفْقَ نظام الطبيعة.

وما كان الولدُ المُهذَّبُ المؤدبُ المتمدن، الذي لا ينتظر غيرَ القدرة على استعمال ما تلقَّاه من معارفَ بَكُور، ليُخدَعَ مطلقًا حول الوقت الذي تأتي فيه هذه القدرة بغتة. ومن البعيد أن ينتظر هذا الولد ذلك الوقت؛ فهو يعجِّله، وهو يُثير دمه قبل الأوان، وهو يَعْرِف ما يَجِبُ أن يكون موضوع رغائبه، حتى قبل أن يُحِسَّها بزمنٍ طويلٍ. وليست الطبيعة هي التي تُحرِّكها، وإنما هو الذي يُكرِهُها، وهي إذ تجعله رجلًا لم يبقَ لديها ما تُعلِّمُه إياه، وهو قد كان بالفكر رجلًا قبل أن يكونه فعلًا بزمنٍ طويلٍ.

ويكون سيرُ الطبيعة الحقيقيُّ أعظم تدرُّجًا وأشد بطؤًا، ويشتعل الدم مقدارًا فمقدارًا، وتنضج النفوس، ويتكون المِزاج، ويُعنَى العامل العاقل الذي يُدير المصنع بإتقان جميع آلاته قبل استعمالها، ويتقدم المُنى الأُولى همٌّ طويل، وتُخادَع بجهلٍ طويل، ويُرغَب من غير أن يُعرَف فيم يُرغب، ويفور الدم ويثور، ويحاول فيضٌ من الحياة أن يمتدَّ إلى الخارج، وتستحِرُّ العين وتجوب المخلوقاتِ الأخرى، ونبدأ بالاكتراث لمن يحيطون بنا، ونأخذ في الشعور وبأننا لم نُخلَق لنعيش وحدَنا، وهكذا فإن الفؤاد يتفتَّح للعواطف الإنسانية ويُصبح أهلًا للحب.

والصداقة — لا الحُبُّ — هي الشعور الأوَّل في الشابِّ الذي يُعنى بتنشئته، وأوَّل عملٍ لخياله الناشئ هو تعليمه وجود أمثالٍ له، والنوع يؤثِّر فيه قبل الجنس، وإليك إذن فائدةً أخرى للطُّهر المُطال، وذلك أن يُستفاد من الحساسية الناشئة لتُلقى في قلب المراهق بذور الإنسانية الأُولى، وهذه الفائدة هي أعظم ما يكون؛ وذلك لأن ذاك هو زمنُ حياته الوحيد الذي يُمكِن أن يُكتَبَ النجاحُ الحقيقيُّ فيه لتلك الجهود.

وقد رأيت دائمًا أنَّ الشُّبَّان الفاسدين باكرًا والمنهمكين في الدعارة والنساء، كانوا قُساةً جافين، وكان هياج المِزاج يجعلهم فاقدي الصبر محبين للانتقام غِضابًا، وكان خيالهم المملوء شيئًا واحدًا يرفِضُ كلَّ شيء ما خلا هذا الشيء، وكانوا لا يَعْرِفون رأفةً ولا رحمة، وكانوا مستعدين للتضحيةِ بالأبِ والأمِّ وبجميعِ النَّاسِ في سبيلِ أقلِّ ملاذِّهم. وعلى العكس، ترى الشَّاب النَّاشئ في بساطةٍ سعيدةٍ محمولًا بحركات الطبيعة الأُولى نحو رقيق الأهواء وودودها، ويتحرَّك فؤاده الحنون عند كروب أمثاله، ويهتزُّ سرورًا عند استقبال رفيقه،

وتعرف ذراعاه أن تجدا عناقًا رقيقًا، وتعرف عيناه أن تذرفا دموعَ حنان، وهو يعلم أن يأسف على إساءته الآخرين بخجله من كَدَرٍ أوجبه، وإذا كانت حرارة الدم التي تشتعل تجعله نشيطًا نَزِقًا غضوبًا، فإنه يُبصِرُ بعد حين تجلِّي رقة قلبه الطبيعية في حماسة توبته، وهو يبكي ويئنُّ عن جَرْحٍ أوجبه، وهو يودُّ لو يفتدي بدمه ما سكب من دَم، ويهدأ فائرُه ويَتَّضِع تجبُّرُه أمامَ شعوره بخطئه، وإذا ما أُسيء إليه، وكان في سورة حدَّته، سكن عنه الغضب باعتذارٍ أو بكلمة، وهو يعفو عن سيئات الآخرين بسلامة القلب التي يُصلح بها سيئاته، وليست المراهقةُ سِنَّ الانتقامِ ولا سِنَّ الحقد، بل سِنُّ الرحمةِ والشفقةِ والكرم. أجل، إنني أدَّعي، ولا أخاف أن تُكذِّبني التَّجربة، بأنَّ الولد الحسن المنبت والذي يحافظ على طُهره حتى العشرين من عُمُره يكون في هذا السِّن أكرم النَّاس وأصلحهم، وأشدهم حُبًّا إليهم وأقربَهم مودَّةً إلى قلوبهم، ولم تُحدَّثوا بمثل هذا قَط، وهذا الذي أعتقد جيِّدًا، وهذا ما غَفَلَ عن معرفته فلاسفتكم الذين نُشِّئوا على ما في المدارس من فساد.

وضعف الإنسان هو الذي يجعله أنيسًا، وأبْؤُسُنا المشتركة هي التي تحمل أفئدتنا إلى الإنسانية، ولو لم نكُن أناسًا ما كُنَّا مدينين للإنسانية بشيء، وكلُّ عطفٍ دليلٌ على نقصاننا، ولو لم يكُن كلُّ واحدٍ مِنَّا محتاجًا إلى الآخرين بشيءٍ ما عَنَّ له أن يتَّحِدَ بهم، وهكذا، فإن سعادتنا الواهنة تنشأ عن نقصنا، ويكون الموجود السعيد حقًّا موجودًا معتزلًا، والله وحدَه هو الذي يَنعم بسعادةٍ مطلقة، ولكن مَن ذا الذي يخطُر بباله معنى هذا؟ وإذا ما استطاع الموجود النَّاقص أن يكفي نفسه بنفسه، فبِمَ يتمتَّع على ما نرى؟ هو يكون وحيدًا، هو يكون بائسًا، ومما لا أتصوره قدرةُ الذي لا يحتاج إلى شيء على حُبِّ شيءٍ ما، ولا أتصور قدرةَ مَن لا يُحِبُّ شيئًا أن يكون سعيدًا.

ومِنْ ثَمَّ يكون ارتباطنا في أمثالنا بحِسِّ ملاذِّهم أقلَّ مما بحسِّ أحزانهم؛ وذلك لأننا نكون هنالك أحسن تمييزًا لوحدة طبيعتنا ولضمانات حُبِّهم لنا، وإذا كانت احتياجاتنا المشتركة تُوحِّدُ بيننا عن مصلحة، فإنَّ أبؤُسنا المشتركة تُوحِّدُ بيننا عن محبة، وذلك أن منظر الرجل السعيد يوحي بالحسد أكثرَ مما بالحُب، وأنه يُتَّهَمُ طوعًا بسلْبه حقًّا ليس له بجعْله نفسَه سعيدًا حَصْرًا، وذلك إلى أن أنانيَّتنا تتأذَّى إذ تُشعِرُنا بأن ذاك الرجلَ غير محتاجٍ إلينا قطعًا، ولكن مَن ذا الذي لا يتوجَّع للتَّعِس الذي يرى أَلمه؟ ومَن ذا الذي لا يريد إنقاذه من ويلاته ولو بالتمني؟ فالخيال يضعنا في مكان البائس أكثر من وضعه إيانا في

مكان الرجل السعيد، فنشعُر بأن إحدى هاتَين الحالين تَمسُّنا عن كَثَبٍ أكثر من الأخرى، وتنطوي الشفقة على حلاوة، وذلك أننا إذ نجعل أنفسنا في مكان الذي يألم نشعر مع ذلك بلذَّة عدم الألم مثله، والحسدُ أليم، وذلك أن منظر الرجل السعيد إذ يبعُد من جعْله الحاسد في مكانه يورثُ أسف عدم كونه إياه، ويظهَرُ أن أحدهما يُعفينا من الآلام التي يقاسيها، وأن الآخر ينزِع مِنَّا النِّعم التي يتمتع بها.

وإذا ما أردتم إذن أن تُثيروا في فؤاد الفتى أُولى حركات الحس الناشئة وتغذُّوها، وأن تُحوِّلوا سجيته نحو الخير والصلاح، فلا تبذروا فيه الكبرياء والزهو والحسد بصورةٍ خادعةٍ عن سعادة النَّاس، ولا تَعرضوا على عينيه في البُداءة أُبَّهة البلاطات وبذخ القصور وجذب المجالي، ولا تطلبوا له النزهة في الأندية ولا في المجالس البرَّاقة، ولا تُرُوه ظاهِرَ المجتمع الكبير إلا بعد أن تجعلوه في حالٍ يستطيع معها أن يُقدِّره بنفسه، ولا يؤدي إطلاعُه على العالم قبل أن يَعْرِفَ الرجال إلى تكوينه، بل إلى إفساده، ولا ينطوي على تعليمه، بل على إغوائه.

ومن الطبيعيِّ ألَّا يكون النَّاس ملوكًا ولا كبراء ولا بطائن ولا أغنياء، فالجميع يُولَدون عُراةً فقراء، والجميع عُرْضةٌ لأبؤُس الحياة، وللكروب والآلام والحاجات والأوجاع من كلِّ نوع، وأخيرًا يُقضى على الجميع بالموت، وهذا هو الحقُّ عن الإنسان، وهذا الذي لا ينجو منه إنسان، ومن طبيعة الإنسان ابدءوا إذن بدراسة ما لا ينفصل، وهذا هو أفضل ما تتألف الإنسانية منه.

والمراهقُ في السادسة عشرة من سنيه يَعْرِف ما الألم؛ وذلك لأنَّه أَلِمَ بنفسه، ولكنه لا يكادُ يَعْرِف أنَّ الخلائقَ الآخرين يألمون أيضًا، وليست الرؤية بلا حسٍّ معرفة، والولدُ — كما قلتُ مائة مرة — إذ لا يتصوَّر ما يُحِسُّه الآخرون لا يَعْرِف غيرَ كُروب نفسه، ولكن إذا ما أشعل أوَّلُ نموٍّ في حواسِّه نارَ الخيالِ بدأ يُحِسُّ نفسَه في أمثاله، ويضطرب من أوصابهم ويألم من آلامهم، وهنالك يجبُ أن تَحمل صورةُ الإنسانية المكروبةُ إلى قلبه أوَّلَ ما يُحِسُّ من حنان.

وإذا كان من غيرِ السهلِ أن تُلاحِظوا تلك الحالَ في أولادِكم، فمَن تَلومون على ذلك؟ أنتم تُعلِّمونهم هَزَّ الإحساسِ باكرًا، وأنتم تُعلِّمونهم لغتَهم حالًا، وأنتم إذ تُكلِّمونهم بذات اللهجةِ دائمًا تجدونهم يُحوِّلون دروسَكم ضِدَّكم، فلا يتركون لكم أيةَ وسيلةٍ تَميزون بها وقتَ انقطاعِهم عن الكَذِبِ من شعورِهم بما يقولون، ولكن لِننظرْ إلى إميلَ في السِّنِّ التي

سُقته إليها حيث لا يَشعر ولا يَكْذِب؛ فهو لا يقول لأحد: «أُحبُّكَ جيِّدًا» قبل أن يَعْرف ما الحُب، وهو لا يَعْرِفُ أيُّ هيئةٍ يجب أن يتخِذَ حين دخولِه غرفةَ أبيه أو أمِّه أو مُعلِّمه المريض، وهو لا يُطْلَعُ على فنِّ إظهار حُزْنٍ لا يكون عنده، وهو لا يُظهِرُ بكاءً لموت أحد؛ وذلك لأنه لا يَعْرِف ما الموت، وترى ذاتَ عدم الإحساس الذي في فؤاده باديًا في أوضاعه، وهو إذ لا يكترث لشيءٍ خارج نفسه كبقية الأولاد، فإنه لا يلتفت إلى أحد، ويقوم كلُّ ما يَميزُه على رغبته عن الظهور مباليًا بأحد، وعلى كوْنه دون الآخرين خِداعًا.

وبما أن إميلَ قليلُ التفكير حول المخلوقات الحسَّاسة، فإنه لا يدري ما الألم ولا الموت إلا متأخِّرًا، ويأخذ العويل والصراخ في تحريك أحشائه، ويؤدِّي منظر الدم المسفوك إلى تحويل عينيه، وتُورثه تشنُّجات الحيوان المُشرف على الموت ألَمًا نفسيًّا، ما أقول، قبل أن يَعْرِف مصدرَ هذه الحركات الجديدة، ولو بقيَ غبيًّا جافيًا ما عَرضتْ له، ولو كان متعلِّمًا لعرف أصلها؛ فهو قد أكثر من المقابلة بين الأفكار ما يُحِسُّ معها، ولكن ليس بما فيه الكفاية حتى يَعْرِفَ ما يُحِس.

وهكذا تُولَد الشفقة، يولَدُ هذا الشعور النسبي الذي يَمسُّ القلبَ البشريَّ وَفْقَ نظام الطبيعة، ويجب ليصير الولد حسَّاسًا رءوفًا أن يَعْرِف وجود أناسٍ مماثلين له يألمون كما يألم ويُحسُّون ما يُحِسُّ من الآلام، ووجود آخرين يجب أن تكون له فِكْرَةٌ عنهم كأناسٍ يستطيع الشعور بهم أيضًا، والواقع كيف نَدَع أنفسنا تتحرك بالشفقة إذا لم ننتقل خارج أنفسنا، ونتحد بالحيوان الذي يألم تاركين وجودنا يتناول وجوده؟ فنحن لا نألم إلا بحُكمِنا أنه يألم، ونحن نألم ضِمنَه، لا في أنفسنا، وهكذا لا يصير أحدٌ حَسَّاسًا إلا عند تحرُّك خياله وأخذه في الانتقال خارج نفسه.

وما علينا أن نصنع إذن لتحريك تلك الحاسِّية الناشئة وتغذيتها وتوجيهها أو اتِّباعها في ميولها الطبيعية إذا لم يَكُن تقديمُنا إلى الفتى أمورًا يُمكِنُ أن تؤثِّر في قوة فؤاده التوسُّعيَّة، فتُمَدِّده وتَبسُطه على موجوداتٍ أخرى وتجعله خارج نفسه، وإذا لم يكُن إبعادُنا منه بعنايةٍ أمورًا تُضيِّقه وتجمعه في مركزٍ واحد، وتَشُدُّ نابضَ الذات البشرية، وإن شئتَ فقُل: إثارتنا فيه الصلاح والإنسانية والرحمة، وحبَّ الخير، وجميعَ الأهواء الجذابة الحلوة التي تروق النَّاس بحكم الطبيعة، والتي تَحول دون ظهور الحسد والطمع والحقد وجميع الأهواء الكريهة الجافية؛ أي هذه الأهواء التي تجعلُ الحسَّاسية سلبيةً فضلًا عن كونها لاغية، وتورث مَن يُبتلى بها كرْبًا؟

وأرى أنه يُمكنني تلخيص جميع التأملات السابقة في مبدأين أو ثلاثة مبادئ صريحة واضحة يسهُل إدراكُها.

المبدأ الأوَّل

ليس من مقتضى القلب البشريِّ أن نضعَ أنفسنا في مكانِ مَنْ هم أسعدُ مِنَّا، وإنَّما تقضي الطبيعة البشرية بأن نجعل أنفسنا في محلِّ مَن يَستدعون رحمتنا.

وإذا ما وُجِدت استثناءاتٌ لهذا المبدأ كانت في الظاهر أكثرَ مما في الحقيقة، ومن ذلك أننا إذا ما وضعنا أنفسنا في مكانِ الغنيِّ أو العظيمِ الذي نَلزَمُه لم ننتحلْ غيرَ جزءٍ من نعيمه، ولو كُنَّا صادقين في ملازمته، وهو يُحَبُّ في مصائبه أحيانًا، ولكنه إذا ما أيسَرَ لم يكن له في أثناء يُسره صديقٌ حقيقيٌّ غيرُ مَن لم تَغرَّه الظواهرُ ومَن يَرْثي له أكثرَ من أن يحسُده على الرَّغم من يُسْرِه.

ومما يُؤثِّر في النَّفس ما يكتنف بعضَ الأحوال من سعادة، كالحياة الريفيَّة والرِّعائية مثلًا، ولا يُسمِّم الحسدُ مطلقًا فتونَ مشاهدةِ هؤلاء النَّاس السعداء الصالحين الذين يُلتفت إليهم حقًّا، ولِمَ هذا؟ ذلك لأن الإنسان يَشعر بقدرتِه على الهبوط إلى هذه الحال من الهدوء وسلامة الطويَّة، وعلى التمتُّع بعينِ السعادة، وذاك بلاءٌ لا يَمنح غيرَ أفكارٍ مُستحبَّة ما دامت إرادةُ التمتُّع بها تكفي للقدرة عليه، ومما تطيب به النفس دائمًا أن ترى مواردها وأن تُنعم النظرَ في مالها الخاص، حتى عند عدم الرغبة في الانتفاع به.

ومِنْ ثَمَّ ترى أن حمْلَ الفتى على الإنسانية يستلزم إطلاعَه عليها من النواحي الكئيبة، وجعْله يخشاها مع البعد من جعْلِه يُعجَب بنصيب الآخرين الباهر، وهكذا فإن من النتائج الواضحة وجوبَ شقِّه طريقًا إلى السعادة غيرَ مُقتَفٍ آثارَ أحدٍ.

المبدأ الثاني

لا نَألم في الآخرين لغيرِ البلايا التي لا نعتقد إعفاءنا منها؛ «وذلك لأنَّنِي بلوتُ الشَّقاءَ الذي أعْرِف ورودَه بمساعدة التُّعساء.»

ولا أعْرِف ما يَعدِل هذا القولَ روعةً وعمقًا وتأثيرًا.

ولِمَ يكون الملوكُ خالين من الرحمة نحوَ رعاياهم؟ ذلك لأنهم لا يتوقَّعون أن يكونوا من النَّاس، ولِمَ يكون الأغنياءُ بالغي القسوة تجاه الفقراء؟ ذلك لأنهم لا يخشوْن أن

يُصبِحوا من الفقراء، ولِمَ يكون الأشرافُ كثيري الازدراء للعوام؟ ذلك لأن الشريف لن يكون عاميًّا، ولِمَ يكون التُّرك أكثرَ مِنَّا رِفقًا وقِرًى على العموم؟ ذلك لأن عظمة الأفراد وثروتهم في حكومتهم المُرادية تمامًا؛ إذ تكونان زائلتَين مذبذبتَين دائمًا، فإنهم لا يَعُدُّون الخفضَ والبؤسَ غريبَيْن عنهم[٣] مطلقًا، فيُمكِن كلَّ واحدٍ أن يُصبِح في الغدِ ممن يَتصدَّق عليهم اليوم، فهذا التأمُّل المُكرَّرُ كثيرًا في القصص الشرقية يُنعِم عليهم برقةٍ لا توجد في أدبنا الجاف.

ولذا لا تُعوِّدوا تلميذَكم أن ينظُرَ من أعلى مجدِه إلى كُرُوب التعساء وأعمال البائسين، ولا تأمُلوا تعليمَه أن يتوجَّع لهم إذا ما عدَّهم غرباءَ عنه، واجعلوه يُدرِك أن مصيره قد يكون مثلَ مصيرِ هؤلاء المكروبين، وأن جميعَ بلاياهم تحته، فيُمكن ألفَ حادثةٍ مفاجئةٍ محتومةٍ أن تجعلَه يَغطِس فيها بين حينٍ وحين، وعلِّموه عدمَ الاعتمادِ على النَّسَب وعلى الصحة والنَّشَب، وأطْلِعوه على تقلُّبات الطالع، وابحثوا له عن أمثلةٍ كثيرةِ الوقوعِ دائمًا حولَ النَّاسِ من أصلٍ أرفعَ من أصلِه سقطوا في حالٍ تحت حال أولئك المنكودي الحظ، وليس من موضوعنا الآن أن نُبيِّن كونَ ذلك نتيجةَ خطأ اقترفوه أو لا، وإنما نقول: هل يَعْرِفُ ما الخطأ؟ ولا تَجوروا على نظام معارفه مطلقًا، ولا تُنيروه بغيرِ بصائرَ تكون في متناوَله؛ فهو لا يحتاج أن يكون بالغ العلم حتى يشعرَ بأن فِطنة الإنسان بكاملها لا تستطيع أن تجيبه بأنه سيكون حيًّا أو ميِّتًا في ساعة واحدة، وأن آلام الكُلى الحادة لا تجعله يَصْرُف بأسنانه قبل الليل مطلقًا، وأنه سيكون غنيًّا أو فقيرًا قبل مرور شهر واحد، وأن من المحتملِ ألَّا يُجَدِّف تحت السَّوْط، وقبل مرور عام، في سُفُن الجزائر، ومن أخصِّ ما يكون ألَّا تقولوا له جميعَ هذا بمثلِ بُرُودة كتابهِ الديني، وليُبصِر، وليُحِسَّ مصائبَ الإنسان، وهُزُّوا خياله، وألقُوا الرُّعب في هذا الخيالِ من الأخطار التي تُحيطُ بكلِّ إنسانٍ على الدوام، ولِيَرَ جميعَ هذه المهاوي حَولَه، ولْتَصِفُوها له حتى يبادر إلى التعلُّق بكم خشيةَ السقوطِ فيها، وستقولون إننا نجعله وجِلًا جبانًا، وسنرى فيما بعد، ولكن لنبدأ الآن بجعله إنسانيًّا، وهذا هو الذي يهمُّنا.

[٣] يظهر أن هذا يتغيَّر قليلًا في الوقت الحاضر؛ فالذي يلوح أن الأحوال تصبح أكثرَ ثباتًا، وأن الناس يصيرون أكثرَ قسوة.

المبدأ الثالث

لا يُقاسُ ما نُحِسُّ من شفقةٍ حول بلاء الآخرين بمقدار هذا البلاء، بل بالشعور الذي نُعيره ممن يألمون به.

لا يُتَوَجَّعُ لتَعِسٍ إلا بمقدار ما نرى من احتياجه إلى التوجُّع له، وما يكون من إحساسٍ بدنيٍّ بآلامنا أضيقُ حدًّا مما يَلوح، ولكنها تَحْمِلُنا بالتوجُّع لها حقًّا بالذاكرة التي تجعلنا نُحِسُّ دوامها، وبالخيال الذي يُمِدُّ مَداها إلى المستقبل، وهذا كما أرى من الأسباب التي تجعلنا أشدَّ قسوةً تجاه آلام الحيوان مما تجاه آلام الإنسان، وإن كان من شأن الحسَّاسية المشتركة أن تجعلنا متحدين بالحيوان جوهرًا، وما كان ليُتوجَّع لحصانِ حُوذيٍّ في إصْطَبْله مطلقًا؛ وذلك لأنه لا يُفتَرَض أنه يُفكِّر وهو يأكل علفَه في الضَّرَبات التي تلقَّاها وفيما ينتظره من تعب، وكذلك ما كان ليُتوجَّع لضائنٍ يُرى وهو يَرعى، وإن كان يُعرَفُ أنه سيُذبَح عما قليل؛ وذلك لأنه لا يُحكَمُ في أنه لا يُبصِرُ مصيره، وإذا ما توسَّعنا في الأمر وجدْنا ذات القسوة تجاه نصيب الآدميين؛ فالأغنياء يتعزَّوْن عما يُورثون الفقراءَ من ألَمٍ بافتراضهم هؤلاء الفقراءَ أغبياءَ لا يَشعرون بذلك، وعلى العموم أحكُمُ بالقيمة التي يَضَعُ كلُّ واحدٍ في مقابل سعادة أمثاله بالحال التي يلوح أنه يتمثَّلها عنهم، ومن الطبيعي أن تُعَدَّ رخيصةً سعادةُ مَنْ يُزْدَرَوْن، ولا تَعجبوا إذن من حديث السياسيين عن الشعب بازدراءٍ كبير، ومن كونِ مُعظَمِ الفلاسفة يُظهِرُ الإنسانَ خبيثًا جِدًّا.

والشعبُ هو الذي يؤلِّفُ النوعَ البشري، ومَن ليسوا من الشعب هم من القلة ما لا يستحقون معه أن يُحصَوْا، والإنسانُ هو هو في جميع المنازل، وإذا كان الأمر هكذا، فإن أكثرَ الطبقات أُناسًا هي أكثرُ ما يستحقُّ الاعتبار، وتَزول جميعُ الفروق أمام المفكِّر؛ فهو يَرى عينَ الأهواء وعينَ المشاعر في الجِلْف والرجل المشهور، وهو لا يَميزُ فيهما غيرَ لغتهما؛ أي غيرَ تكلُّفٍ خفيفٍ في لهجتهما، وإذا ما وُجِدَ اختلافٌ جوهريٌّ يُفَرِّقُ بينهما كان هذا على حساب أكثرِهما رِئاء، أجلْ، إن الشعب يبدو كما هو، وهو ليس محبوبًا، ولكن لا بُدَّ لمن هم على المُوضَة من التنكُّر، فلو بَدَوْا كما هم لاستُقْبِحُوا.

ويقول حكماؤنا بوجودِ عينِ المقدارِ من السَّعادةِ والكَرْبِ في جميع الطبقات، وهذا المبدأ هو من الشؤم بمقدار ما يتعذَّرُ إثباتُه؛ وذلك لأنَّ الجميع إذا كانوا متساوين سعادةً فما احتياجي إلى إزعاجِ نفسي من أجلِ أيٍّ كان؟ ولْيبقَ كلٌّ كما هو عليه، وليُعامَلِ العبدُ بسوء، ولْيألَمِ العَليل، وليَهلِكِ الصُّعْلُوك، ولا يوجَدُ ما يَكسِبون من تغيير حالهم، وهم

يَعُدُّون آلامَ الغني، ويُثبِتون بُطلان ملاذِّه الفارغة، فيا للسفْسَطة الغليظة! إن آلامَ الغنيِّ لا تأتيه من حاله، ولكن من نفسه التي يُسيءُ استعمالها، وهو إذا كان أكثرَ تَعَسًا من الفقير فليس له أن يتوجَّع ما دامت جميعُ آلامِه من صُنْع نفسه، وما دام أمرُ سعادته يتوقَّف عليه، غيرَ أن ألمَ البائسِ يأتيه من الأشياء، يأتيه من قسوة النصيب الشديد الوطأة عليه، ولا تُوجَدُ عادةٌ قادرةٌ أن تَنزِع منه حِسَّ التعبِ البدنيِّ والضَّنَى والجوع، وما كانت سلامةُ القلب ولا الحكمة لِتَنْفَعَ في نجاته من بلايا حاله، وما رِبْحُ إبكْتِت من عِلْمه مُقدَّمًا بأن مولاه سيَكْسِرُ ساقَه؟ كان يساورُه ألَمُ إدراكِ الأمرِ قبْلَ وقوعه فضلًا عن ألمه، ومتى صار الشعبُ من الرَّصانة بمقدار ما نفترض له من البلاهة فما يستطيع أن يَكونَ على خلاف ما هو عليه؟ وما يستطيع أن يَصْنَعَ غيرَ ما يَصنع؟ ادرُسوا أبناءَ هذه الطبقة تَجِدوا، مع اختلافٍ في الكلام، أنها ذاتُ ذهنٍ مِثْلِ ذهنِكم وأنها أكثرُ منكم حُسْنَ ذَوْق، وأكرِموا نوعَكم إذن، وقدِّروا أنه مؤلَّفٌ من مجموعة شعوبٍ جوهرًا، وأنه إذا ما نُزِع منها جميعُ الملوك والفلاسفة فإنهم لا يكادون يَبدُون، وإن الأمور لا تسير إلى أسوأ مما هي عليه، والخلاصةُ هي أن تُعلِّموا تلميذَكم حُبَّ جميع النَّاس، حتى الذين يزدرونهم، وتصرَّفوا تصرُّفًا لا يكون معه مكانٌ له في أية طبقةٍ كانت، ولكن مع وجوده فيها جميعًا، وتكلَّموا أمامه برِقَّةٍ عن الجنس البشري؛ فالإنسانُ لا يَشينُ الإنسان مطلقًا.

فبهذه الطريق وما ماثلها من الطرق، المخالفة التي شُقَّتْ، يُستحسَنُ أن يُنفَذَ في فؤاد المراهق لإثارة أُولى حركاتِ الطبيعة فيه، وإنمائه ومَدِّه إلى نظائره، وإلى هذا أُضيف قولي إن من المهمِّ أن يُخلَطَ بهذه الحركات أقلُّ ما يُمكِن من المصالح الشخصية، ولا سيَّما الزَّهْوُ والمنافسة وتلك المشاعر التي تَحْمِلُنا على قياس نفسنا بالآخرين؛ وذلك لأن هذه المقايسات لا تتمُّ من غير حقدٍ ما على الذين ينازعوننا الأفضلية، ولو من حيث تقديرُنا الخاص، وهنالك لا بُدَّ من التعامي أو التنمُّر، والخُبثِ أو البَلَه، فلنَجْتَهِدْ في اجتناب هذا التناوب، وسيُقال لي إنَّ هذه الأهواءَ البالغةَ الخطر ستُولَدُ عاجلًا أو آجلًا، ولا أُنكر هذا؛ فلكلِّ شيءٍ زمانه ومكانه، وإنَّما أقول إنَّه لا ينبغي أن تُساعَدَ على الظهور.

وهذا هو روح المنهاج الذي يجب فَرْضُه، ولا فائدةَ من الأمثلة والتفاصيل هنا؛ وذلك لأنه يَبْدَأ هنا ما لا يُحصَى من تقسيم الأخلاق، فلا يطابقُ المَثَلُ الذي أُورِد غيرَ واحدٍ من مائة ألفٍ على ما يُحتمل، وفي تلك السِّنِّ أيضًا تَبدأُ في المُعلِّم الماهرِ وظيفةُ الرقيب الفيلسوف الذي يَعرِف فَنَّ سَبْرِ القلوب بالعمل في تكوينها. وبَينا لا يُفكِّر الفتى في التنكُّر الذي لم

يُدْرِكه بَعْدُ يُرَى في ملامحه وعينيه وحركته ما تَلَقَّى من انطباعٍ عن كلِّ موضوعٍ يُعْرَض عليه؛ أي إنه يُقْرَأ على وجهه جميعُ حركات روحه، فإذا ما رُصِدَت هذه الحركات انتُهِيَ إلى البصر بها ثُمَّ إلى توجيهها.

ومما يُلاحَظُ على العموم كَوْنُ الدمِ والجروحِ والصُّراخِ والأنينِ وجهازِ الأعمال المؤلمة وكلِّ ما يَحْملُ إلى الحواسِّ موادَّ المِحَن أمورًا سريعةَ التأثيرِ في جميع النَّاس إجمالًا، وبما أنَّ فكرةَ الهدم أكثرُ تركيبًا، فإنَّها دون ذلك تأثيرًا، ومن ذلك أن صورة الموت تؤثِّر تأثيرًا متأخِّرًا وأكثرَ ضعفًا؛ وذلك لأنه لا أحد يَعْرِف ما الموتُ عن تجرِبة، فلا بُدَّ من رؤية الجُثَثِ حتى يُشعَرَ بشدائد المُحتَضَرين، ولكن هذه الصورة إذا ما تكوَّنت في ذهننا مَرَّةً لم يُوجَدْ ما هو أفظعُ من هذا المنظر في أعيننا، وذلك بسببِ فكرةِ الهدمِ الشاملِ التي تثيرُها بواسطة الحواس، أو لأن الإنسان يعلم أن هذه الساعةَ تأتي جميع النَّاس حتمًا فيكونُ بالغَ التأثُّرِ من حالٍ يَعتَقِدُ عجزَه عن الإفلات منها.

أجَل، إنَّ لهذه الانطباعات المختلفة تحوُّلاتِها ودرجاتِها التي تتوقَّف على طَبْع كلِّ فردٍ وعلى سابق عاداته، غيرَ أنَّها عامَّةٌ ولا يُستثنى منها أحدٌ تمامًا، ومنها ما يأتي متأخِّرًا ويكون أقلَّ عمومًا فيلائم النفوس الحسَّاسة، وتكون تلك الانطباعات نتيجة كُرُوبٍ أدبيةٍ وآلامٍ باطنيةٍ وأحزانٍ وذبولٍ وغَم، ومن النَّاس مَن لم يُحرَّكوا بغيرِ الصُّراخ والبكاء، وما كان الأنينُ الطويلُ الأصمُّ الصادرُ عن فؤادٍ مُنقبضٍ ضِيقًا لِينزِعَ منهم تأوُّهًا، وما كان منظرُ موعوكٍ ووجهٍ شاحبٍ مُرصَّصٍ وعينٍ مُنطفئةٍ عاجزةٍ عن البكاء ليُبكيهم؛ فآلام النفس ليست شيئًا بالنسبة إليهم، وهم يَزِنُونها، ولا تَشعُر نفسُهم بشيءٍ منها، ولا تنتظروا منهم غيرَ صلابة لا تنثني وغيرَ قسوةٍ وغِلظةٍ. ومن الممكن أن يكونوا أَعِفَّاءَ منصفين، لا رُحماء كرماء شفِقِين، وأقول إنَّ من الممكن أن يكونوا منصفين إذا كان الإنسان قادرًا أن يكون منصفًا من غيرِ أن يكون راحمًا.

ولكن لا تبادروا إلى الحكم في الفتيان وَفْقَ هذه القاعدة، ولا سيَّما الذين نُشِّئوا كما ينبغي أن يكونوا؛ فليس لديهم أية فكرة عن الآلام الأدبية التي لم يُحمَلوا على اختبارها مطلقًا؛ ولأنَّهم كما أقولُ مُكرِّرًا لا يستطيعون أن يتوجَّعوا لغيرِ ما يَعرِفون من آلام، ولأن هذه اللاحسَّاسية الظاهرة التي لا تأتي من غير الجهل لا تلبثُ أن تتحوَّل إلى رِقَّةٍ عندما يأخذون في الشعور بوجود ألفِ ألمٍ في الحياة البشرية لا يَعْرِفونه. وأمَّا إميل، فإذا كان ذا بساطةٍ وسلامةِ ذوقٍ في صِباه، فإنني أعتقد أنه سيكون ذا مُهجةٍ وحساسيةٍ في شبابه،

فصدقُ الأحاسيس يتعلَّق بسَداد الأفكار كثيرًا، ولكن لِمَ نَذْكرُه هنا؟ يوجد أكثرُ من قارئ سيلومني لا ريب على نسيان أحكامي الأُولى والسعادة الدائمة التي وعدتُ تلميذي بها، تُعساء، مُحتضَرون، مناظرُ ألمٍ وبؤسٍ! أيُّ سعادة! يا لَتمتُّع فؤادٍ فتيٍّ أصبح على باب الحياة! إن مُعلِّمه الحزينَ الذي أعدَّ له تربيةً بالغةَ الحلاوة لم يُوجده لغير الألم، وإليك ما يُقال: وما يهمُّني؟ لقد وعدت بأن أجعله سعيدًا، لا أن أجعله سعيدًا ظاهرًا، وهل من ذنبي أن تُخدَعوا بالظاهر دائمًا فتَعُدُّوه حقيقة؟

ولْنتأوَّلْ فتيَيْن أتمَّا تربيتَهما الأُولى، ودخلا العالَم من بابَين متقابلَين على خطٍّ مستقيم، فصَعِدَ أحدُهما فوق الأُلنْبيا بغتةً وظهر في أسطعِ مجتمع، ويُؤتى به إلى البلاط لدى العظماء والأغنياء والحِسان، وأفترضه عيَّد في كل مكان، ولا أفحص فعْل هذا القبولِ في عقله، وإنما أقدِّرُ مقاومتَه له، وتطِير الملاذُّ أمامه، وتلهيه كلَّ يوم أمورٌ جديدة، وينهمك فيها جميعًا برغبةٍ تُغويكم، وأنتم ترونه منتبهًا مبادرًا ذا فضول، ويقف نظرَكم دَهَشُه الأوَّل، وتَعُدُّونه راضيًا، وإذا ما نظرتم إلى حاله النفسية اعتقدتم أنه يتمتَّع، وأمَّا أنا فأعتقد أنه يتوجَّع.

وما الشيء الأوَّل الذي يَرى حينما يفتح عينيه؟ يرى كلَّ نوعٍ من المُتَع التي كان لا يَعرِف، والتي لا يكون معظمُها في متناوله غيرَ هُنَيْهَة، فلا يلوح أنها تظهر له إلا لِتورثه حسرةً على أنه حُرِمَها، وإذا ما طاف في قَصْرٍ وجدتم مع اضطرابِ فضولِه أنه يسأل في نفسه عن السبب في كون منزله الأبوي من غير هذا الطراز، وتُنبئكم جميعُ أسئلته بأنه يقابل بين نفسه وبين ربِّ هذا المنزل، فيكون كلُّ ما يجدُ من إذلالٍ له بهذه المقارنة مُرهِفًا لزهوه بإثارته، وإذا ما لَقِيَ فتًى أحسنَ لِباسًا منه أبصرْتَه يُهَمْهِمُ سرًّا ضدَّ بُخْل والديه، وإذا كان أحسنَ من فتًى آخَرَ بِزَّةً أَلِمَ من مشاهدتِه هذا الآخَرَ يَحْجُبُه بنَسَبِه أو بذِهْنِه، ورأى أن ثوبَه المُذْهَبَ أُخْزِيَ بثوبٍ بسيطٍ من الجوخ، وإذا ما تألَّق وحدَه في مجلسٍ فوقفَ على طَرَفِ إصبعِ القدمِ حتى يكونَ أحسنَ ظهورًا، فمن ذا الذي لا يستعدُّ سِرًّا لخفضِ ما عليه الفتى المختالُ من عُجبٍ فارغ؟ يتَّحدُ الجميعُ من فوْرهم كما لو كانوا على اتفاق، ولا يلبثُ ما يُلقي رجلٌ رصينٌ من نظراتِ غَم، وما يَنْطِق به رجلٌ لاذعٌ من كلمات هُزُوء، أن يصلَ إليه، ولو لم يزدره غيرُ رجلٍ واحدٍ لَسمَّم هذا الازدراءُ هُتافاتِ الآخرين حالًا.

ولنُعطِه كلَّ شيء، ولْنَغمرْه بكل لهو، ولنُفِضْ عليه بكلِّ فضل، وليكن حَسن التكوين فيَّاض الذهن خفيف الروح، ليصيرَ إذنْ موضعَ بحثِ النساء، ولكنه إذا ما غدا محلَّ طلبهن قبل أن يُحبَّهن جعلْنه مجنونًا أكثرَ منه عاشقًا؛ أي إنه يكون حَسن الطالع من غير أن

يتمتَّع به، وبما أن مُناه تكون مسبوقةً دائمًا ولا يكون لديها من الوقت ما تُولَد معه، فإنه لا يشعر في سواء الملاذِّ بغير غمِّ الضيق؛ أي إن الجنس الذي خُلِقَ لسعادة جنسه يورثه سأمًا، حتى إنه يَروي غليله قبْل أن يَعْرِفه، وهو إذا ما داوم على رؤيته كان هذا عن زَهْو، فإذا حان الوقت الذي يتعلَّق به عن ذوقٍ حقيقيٍّ لم يكن وحدَه الشاب الناضر المحبوب، ولم يجد في خليلاته عجائبَ الوفاء دائمًا.

ولا أقول شيئًا عن المناكدات والخيانات والسُّخُمات والتَّوْبات وما إلى هذه من الأمور التي يتعذَّر فصْلُها عن مثل هذه الحياة، وأعْرِف أن اختبارَ العالَم يوجبُ نفورًا منه، ولا أتكلَّم عن غيرِ الغموم التي تتصل بالوهم الأوَّل.

يا للتضادِّ في أمرِ مَن حُصِرَ حتى الآن في سَواء أُسْرته وأصدقائه، فأبصرَ نفسه هَدَفًا وحيدًا لكل رعايةٍ منهم، فدخل بغتةً في نظامٍ من الأمور لا يُكترَث له فيه إلا قليلًا، فوجد نفسه غارقًا ضمن نطاقٍ غريبٍ بعد أن ظلَّ مركزَ نطاقه زمنًا طويلًا! ويا لَلْمَهانات والمخازي التي يجب أن يقاسيها قبل أن يخسر بين أُناسٍ من الغرباء ما رَضَع بين أهليه من مُبْتَسَراتٍ حول اعتباره! كان الجميع يخضع له وليدًا فيُهرَع إليه، فلمَّا أصبحَ فتًى وجبَ أن يخضعَ لجميعِ النَّاس، أو إنه إذا ما بقيَ له شيءٌ قليلٌ من سابق مظاهره فما أقسى الدروس التي يُرَدُّ بها إلى نفسه! وما كان من عادةِ نَيْله بسهولةٍ ما يَبتغي جَعَله كثير الرغبات، فأدى إلى شعوره بحرمانٍ دائم، ويبغي كل شيء يغريه، ويُريد نَيْلَ كلِّ ما يحوزه الآخرون؛ أي إنه يطمع في كل شيء، ويحسُد كل واحد، ويريد أن يسيطر في كلِّ مكان، ويقضمه الزهو، وتُلهبُ قلبه الفتيَّ حرارة الشهوات الجامحة، وتُولَدُ الغيرةُ والحقد مع هذه الشهوات، وتنطلق جميع الأهواء الملتَهِمةُ معًا، فيحمل اضطرامها بين ضوضاء العالم، وهو يأتي بها في كل مساء، وهو يرجع إلى منزله غير راضٍ عن نفسه وعن الآخرين، وهو ينام مملوءًا بألفِ خِطةٍ فارغة، مُكدَّرًا بألفِ هَوًى، ويصوِّر له زهوهُ حتى في رُؤاه من المُتَعِ الوهميةِ ما تزعجهُ الرغبةُ فيه، من تلك المُتعِ ما لن يحوزَه مدَى حياته، فها هو ذا تلميذكم، ولنعُد إلى تلميذي.

إذا كان أوَّلُ منظرٍ يَقِفُ نظرَه أمرًا مُغِمًّا، فإن أوَّلَ عَودٍ إلى نفسه يكون شعورَ لذة، وهو إذ يرى مقدارَ ما هو ناجٍ منه من سوءٍ فإنه يَشعر بأنه أكثرُ سعادةً مما كان يظن. وهو يقاسم أمثالَه آلامهم، غير أن هذه المقاسمةَ اختياريةٌ مستعذبة، وهو يتمتَّع بما يساوره

من رحمةٍ حوْل ويلاتهم ومن السعادةِ التي تُعفيه منها. وهو يَشعر في هذه الحال بقوةٍ تُطيلُنا إلى ما وراء أنفسنا وتجعلُنا نحملُ إلى غيرِ مكاننا ما يَفيض من أثَرِ يُسْرِنا، أجلْ، لا بدَّ من معرفة كَرْب الآخرين حتى يُتوجَّع له، ولكنْ ليس من الضروري أن يُشعَر به. أجلْ، إننا متى تمَّ ألمُنا، أو خَشِينا أن نألم، تَوجَّعنا لمن يألمون، ولكن الإنسان عند ألمه لا يتوجَّع لغير نفسه. والواقع أن الجميع إذا كان خاضعًا لأبْؤُسِ الحياة، ولم يَحْبُ الآخرين أحدٌ بغيرِ الحسَّاسية التي لا حاجةَ له بها، فإنه يَتْبع ذلك وجوبُ كونِ الرحمةِ شعورًا كثيرَ العُذُوبة ما دامت الرحمةُ تَشهد لنا، وعَدُّ الإنسانِ القاسي على العكس تَعِسًا دائمًا ما دامت حالُ قلبِه لا تَدَعُ له أيةَ حسَّاسيةٍ فيَّاضةٍ يستطيع أن يُعيرها من آلامِ الآخرين.

ونحن كثيرو الحكمِ في أمر السعادة وَفْقَ الظواهر، ونحن نفترض السعادةَ حيث أقلُّ ما تكون، ونحن نبحث عنها حيث لا تكون، وليس السرورُ غيرَ دليلٍ عليها كثيرِ الإبهام، وليس الإنسانُ المرِحُ في الغالب غيرَ مكروبٍ يحاول التمويه عن الآخرين وتعليلَ نفسه، وليس الضاحكون المتودِّدون المُشرِقون كثيرًا في حَلْقةٍ غيرَ حِزانٍ كثيري التأنيبِ في منازلهم تقريبًا، ويَحمِل خَدَمُهم مشقةَ الترويح عن مجتمعاتهم، ولا يكون الرِّضا الحقيقي سرورًا ولا بَطَرًا، ونحن إذ نغتبط بهذا الإحساسِ البالغِ العذوبة حين نَذُوقه نُفكِّر فيه ونتلذَّذ به ونخاف أن يزول، والإنسانُ السعيدُ حقًّا لا يتكلَّم أبدًا ولا يضحك مطلقًا، وإنما يَشُدُّ السعادةَ حولَ فؤاده، وتَستُر الألعابُ الصَّخَّابةُ والبشاشةُ الطيَّاشةُ كلَّ سأمٍ ونُفور، بَيْدَ أن السَّوداءَ صاحبةُ الشهوة، وتُرافقُ الرِّقَّةُ والدموعُ أحْلى المُتَع، ويُوجِب الفرحُ البالغُ دمْعًا أكثرَ مما يُوجِب صُراخًا.

وإذا كانت كثرةُ الأُلْهُوَّات وأنواعُها تساعدان على السعادة كما تَبْدُوان في البُداءة، وإذا كانت نمطيةُ الحياةِ المُهَّدةِ تبدو مملةً في البُداءة، فإنه عند حُسْن النظر في ذلك يُرى — على العكس — أن أحلى عاداتِ النفس تقوم على اعتدالِ النعيمِ الذي يَدَعُ قليلَ مجالٍ للرغبة والنفور، ويؤدي همُّ الرغائب إلى الفضول والتقلُّب، ويؤدي فراغ المُتَع الصخَّابة إلى السَّأم، ولا يسأم الإنسان من حاله مطلقًا إذا لم يَعْرِف ما هو أمتعُ منها. وإذا نظرتَ إلى جميع النَّاس وجدت الهَمَج أقلَّهم فضولًا وأقلَّهم سأمًا، وكلُّ شيءٍ عندهم سواء، وهم لا يتمتَّعون بالأشياء بل بأنفسهم، وهم لا يَقضُون حياتَهم في عملِ أي شيءٍ كان، وهم لا يسأمون مطلقًا.

ويكون رجلُ الدنيا ضِمْن قِنَاعه تمامًا، وهو إذْ لم يَكَد يكون إياه، يُعدُّ غريبًا عن نفسه دائمًا، وهو يكون غيرَ مرتاحٍ إذا ما أُلزِم بالعود إلى حاله، وما يكونه لا يُعَدُّ شيئًا، وما يبدو أنه هو يُعَدُّ كل شيءٍ عنده.

ولا أستطيع أن أمتنع عن أن أرسم على وجه الفتى الذي تكلَّمتُ عنه آنفًا ما أقول مُجونًا أو دماثةً أو تكلُّفًا يأنَف منه البسطاء ويسترذلونه، وعلى وجه فتاي سيمَا ممتِعةً بسيطةً دالَّةً على الرِّضا وعلى صفاء النفس الحقيقي، موحيةً بالتقدير والاطمئنان، غير مرتقبةٍ كما يلوح سوى تدفُّق الصداقة لمنحها مَن يدْنون منه، ومما يُعتقَد كونُ السيما ليست غيرَ نموٍّ بسيطٍ لملامحَ رسَمَتها الطبيعة، وأمَّا أنا فأرى أنك إذا عدوتَ هذا النموَّ وَجَدْت ملامحَ الوجه تتكوَّن تكوُّنًا غيرَ محسوسٍ وتتَّخِذ سيماها بمؤثِّرٍ اعتياديٍّ مستمرٍّ صادرٍ عن بعض عواطف النفس، وتنطبع هذه العواطف على الوجه، ولا شيء أصحُّ من هذا. وهي إذا ما تحوَّلت إلى عادةٍ وجب أن تترك انطباعاتٍ دائمة؛ ومِنْ ثَمَّ ترى كيف أتصوَّر أن السِّيما تَنِمُّ على السَّجيَّة، وأنه يُمكن أحيانًا أن يُحكَم بإحداهما في الأخرى، وذلك من غير بحثٍ عن تفسيراتٍ حافلةٍ بالأسرارِ تَفترض معارفَ لسنا حائزين لها.

وليس لدى الولد سوى عاطفتَين بارزتَين، وهما الفرح والألم؛ فهو يضحك وهو يبكي، وليست المراحلُ المتوسطةُ شيئًا يُذكَر لديه، وهو لا ينفكُّ ينتقل من إحدى هاتَين الحركتَين إلى الأخرى، ويَحُول تناوبُ هاتَين الحركتَين الدائمُ دون وجودِ أيِّ انطباعٍ ثابتٍ على وجهه ودون اكتسابِه سيما. بَيْدَ أنه في السِّن التي يكون فيها أكثرَ إحساسًا، فيَظهرُ أشدَّ عطفًا وأدومَ شعورًا، تترك الانطباعاتُ الأعظمُ عُمقًا آثارًا يكون من الصَّعب البالغ محوُها، وينشأ عن حال النفس المعتادة نظامٌ من الملامح يمتنع زواله مع الزَّمن، ومع ذلك فليس من النادر أن يُرى أناسٌ يُغيِّرون سيماهم في مختلف أدوار العُمُر؛ فقد شاهدت أناسًا كثيرين في هذه الحال، وقد وجدت في كلِّ حينٍ أن مَن استطعتُ أن أرْقُبَهم وأتتبَّعهم جيِّدًا كانوا يُغيِّرون أهواءهم المعتادة أيضًا، ويلوح لي أن هذا الرَّصَدَ الوحيدَ المُؤيَّدَ تأييدًا تامًّا قاطعٌ، وأن له مكانًا في رسالةٍ عن التَّربية حيث يَحسُنُ أن يُتعلَّم الحُكْمُ في حركات النفس بالعلامات الخارجية.

ولا أدري هل يكون فتاي أقلَّ جدارةً بالحبِّ لعدم تَعلُّمه تقليدَ الأوضاعِ الاصطلاحية وإظهارَه من المشاعر ما ليس لديه؛ فليس هذا موضوعَ بحثٍ هنا، وإنما أعْرِف أنه سيكون أكثرَ ودًّا، ويصعب عليَّ أن أعتقدَ أن الذي لا يُحبُّ سوى نفسه يكون من القدرة على التنكُّر

ما يروق معه غيرَه بمقدار ما يروقُ الإنسانُ الذي يستخلص من تعلُّقه بالآخرين شعورًا بالسعادة جديدًا، ولكنني أعتقد من حيث هذا الشعورُ نفسُه أنني قلت بما فيه الكفاية ما أُرشِدُ معه القارئَ الرشيد حول هذه النقطة دالًّا على أنني لم أناقض نفسي.

وأعود إلى مِنهاجي، وأقولُ إذن: إذا ما اقترب دَور الخطر فقدِّموا إلى الفتيان مناظرَ تُمسِكهم، لا مناظرَ تُحرِّكهم، وغالطوا خيالَهم الناشئَ بأمورٍ بعيدةٍ من إلهابِ حواسِّهم زاجرةٍ لنشاطها، وأبْعِدوهم من المدن العظيمة حيث يُعجِّلُ تبرُّجُ النساء وعدمُ احتشامهن دروسَ الطبيعةِ ويَسبِقانها، وحيث يَعْرِض كلُّ شيء على عيونهم ما لا يَنبغي أن يَعْرِفوه من الملاذِّ إلا حين يَقدِرون على اختيارها، وأْتُوا بهم إلى مساكنهم الأُولى حيث تَدَع بساطة الأرياف أهواءَ سِنهم تنمو نموًّا أقلَّ سرعة، أو إذا كان ميلهم إلى الصنائع لا يزال يَربِطهم بالمِصر فحُولوا بهذا المَيل فيهم دونَ بِطالةٍ خطرة، واعْنَوا باختيار مجتمعاتهم وأشاغيلهم وملاذِّهم، ولا تُطلِعوهم على غيرِ التصاويرِ المؤثِّرة مع الاعتدال، فتُحرِّكهم من غيرِ إغواءٍ وتُغذِّي حاسيتَهم من غيرِ إثارةٍ لحواسِّهم. وكذلك اعْلَموا أنه يوجَد في كل مكان من الفِسق ما يُخشى، وأنه يوجد من الأهواء المتطرِّفة ما يُوجِب في كلِّ وقتٍ من السوء ما لا يُجتنب، ولا يُرَاد أن يُجعَل من تلميذكم مُمرِّضٌ أو راهبُ محبة، ولا أن تُغَمَّ عيناه بمناظرَ موجبةٍ للآلام والأوجاع، ولا أن يُطافَ به بين عليل وعليل وبين مشفًى ومشفًى، وبين محالِّ الإعدام والسجون، وإنما يُراد إثارةُ حَنانه، لا إقْساؤه بمنظر الأبؤُس البشرية؛ فالإنسانُ إذا ما واجهَ عينَ المناظرِ زمنًا طويلًا عاد لا يشعر بانطباعاتها؛ فالعادةُ تُعوِّدُ الإنسانَ كلَّ شيء، وما يُرى كثيرًا يَعُودُ بعيدًا من الخيال، والخيال وحدَه هو الذي يجعلُنا نَشعر بمصائب الآخرين، وهكذا فإن القساوسة والأطباء يصيرون فاقدي الرحمة بما يتفق لهم من مشاهدة الموت والألم، ولْيَعْرِف تلميذُكم إذن مصيرَ الإنسان وأبْؤُسَ أمثاله، ولكن دَعوه لا يشاهدُ ذلك غالبًا، وما يُطْلَعُ عليه من شيء يُحْسَن اختيارُه، وذلك في يومٍ ملائم، يورثه رقَّةً وتأمُّلًا لشهرٍ واحد، ولا يتوقَّف رأيه حول أمرٍ ما على ما يَرَى، بل على ما يكون له من ردِّ فعلٍ فيه، وما يتلقاه من انطباعٍ مستمرٍّ عن شيءٍ ما يأتيه من ذات الشيء أقلَّ مما يأتيه من وجهةِ النظرِ التي تَحْمِله على تذكُّره، وهكذا فإنكم إذ تُرتِّبون الأمثلةَ والدروسَ والصورَ تُكِلُّون مهمازَ الحواس وتخادعون الطبيعة باتباع توجيهاتها الخاصة.

وكلَّما نال معارفَ اختاروا من الأفكار ما يلائمها، وكلَّما اشتعلت شهواتُنا اختاروا من التصاوير ما هو صالحٌ لِردْعها، وقد قصَّ عليَّ محاربٌ قديمٌ امتاز بأخلاقه وشجاعته أن أباه، وكان رجلًا حصيفًا مع الوَرَع البالغ، أبصرَ مِزاجَه الناشئ يُسْلِمُه إلى النساء، فلم

يدَّخِر وُسْعًا في زجْره، ولكنه على ما أبدى من ضروب العناية شَعرَ أخيرًا بأنه كاد يُفلِتُ منه، فعنَّ له أن يأتي به إلى مشفًى للإفرنجي، ويُدخِله من غيرِ سابقِ إنذارٍ قاعةً مشتمِلةً على جمْعٍ من أولئك التعساء الذين كانوا يُكفِّرون بمداواةٍ هائلةٍ عن الفسقِ الذي عَرَّضهم لذلك، ويمرض الشاب عند هذا المنظر الفظيع الذي يُنغِّصُ جميعَ الحواس، وهنالك يقول له أبوه صائلًا: «اذهب أيها الدَّاعر واتَّبع ميْلك الساقط الذي يسوقك، وستكون عما قليلٍ سعيدًا جِدًّا إذا ما قُبِلت في هذه القاعة حيث تكون ضحيةَ أشدِّ الآلامِ فضحًا، فتَحْمِلُ أباك على الشكر لله عند موتك.»

وكان لهذه الكلمات القليلة، مع النظر الفعَّال الذي وقف نظر الشاب، أثرٌ لم يزُل قَط. وبما أن مهنته كانت تُلزِمه بأن يقضي شبابه في الحاميات؛ فقد فضَّل أن يقاسي جميع سخريات رفقائه على تقليد فجورهم، وقد قال لي: «كنت رجلًا، وكان لي ضعفي، ولكنني وقد بلغت سني الحاضرة، لم أقْدِر على رؤيةِ بغيٍّ قَطُّ من غير نفور.» فيا أيها المُعلِّم، كن قليل الكلام، ولكن اختر الأمكنة والأزمنة والأشخاص، ثُمَّ ألقِ دروسك بالأمثلة، واطمئن إلى أثَرِها.

وليس الوجهُ الذي يُقضَى به دَوْرُ الصِّبا أمرًا كبيرًا، وليس السوءُ الذي ينساب فيه بلا دواءٍ مطلقًا، وقد يأتي الخيرُ الذي يُصنَعُ فيه متأخِّرًا، وليس الأمر هكذا في الدَّور الأوَّل من العُمُر حيث تبدأ حياةُ الإنسان حَقًّا، ولا يدوم هذا الدَّور بما يكفي للقيام بما يجب أن يُصنَع فيه، ويستلزم خطره انتباهًا مستمرًّا؛ ولذا فإنني أصرُّ على فن إطالته، ومن أروعِ مبادئ الثقافة الصالحة أن يُؤجَّل كلُّ شيء ما أمكن. ودَعُوا التقدُّم يسير وئيدًا وطيدًا، وحُولوا دونَ غُدُوِّ المراهق رجلًا حين لا يبقى له شيءٌ يَفعل ليكُونه. وبينا ينمو البدن تنشأ الأرواح المعدَّة لمنح الدمِ نشاطًا والأليافِ قوةً وتَنْضَج، وإذا ما حوَّلتموها إلى مجرًى آخَر، وسمحتم للقوةِ المُعدَّةِ لكمالِ شخصٍ بأن تنفعَ في صُنْعِ شخصٍ آخَر، بقي كلاهما في حالِ ضعف، وظلَّ عملُ الطبيعةِ ناقصًا، وتتأثَّرُ أعمالُ الذهنِ بدَوْرِها من هذا التغيير، ولا يكون للذهنِ الواهنِ وَهنَ البدنِ غيرُ وظائفَ ضعيفةٍ واهية، ولا تَصنعُ الأعضاءُ الغليظةُ العُصْلُبيَّةُ شجاعةً ولا نُبُوغًا، وأُدْرِك أنَّ قوَّةَ الرُّوحِ لا تُلازمُ قوَّةَ البدنِ عندما تكونُ أعضاءُ الاتصالِ بين العنصرين سيئةَ النظام، ولكن مهما تستطِع أن تكون حسنةَ النظام، فإنها تكون ضعيفةَ التأثيرِ دائمًا إذا لم يكن لها من الأصل سوى دمٍ مُستنزَفٍ فقيرٍ خالٍ من ذلك الجوهرِ الذي يُنعِم بالقوةِ والحركةِ على جميعِ نوابضِ الآلة. ومما يُشاهدُ على العمومِ وجودُ قوَّةِ ذهنٍ في

الرجالِ الذين صانُوا سنواتِهم الأُولى من فجورٍ باكرٍ أكثرَ مما في الرجال الذين بدأ فجورُهم حين قدْرتِهم على تعاطيه، ولا جرمَ أنَّ هذا من الأسبابِ في كونِ الشعوب ذات الأخلاقِ تفوقُ الشعوبَ الخاليةَ من الأخلاقِ عادة، وذلك من حيث سلامةُ الذَّوقِ والبسالة، وتَلْمعُ هذه الشعوبُ الأخيرةُ فقط ببعض الصفات الرقيقة التي تُسمِّيها حصافةً ولَقانةً وكِياسة، بَيْدَ أنَّ وظائفَ العقلِ والحكمةِ الكبيرةِ الكريمةِ التي تَميزُ الإنسانَ وتُمجِّدُه بصالحِ الأعمالِ وبالفضائلِ وبالجهودِ النافعةِ حقًّا لا تُوجَدُ في غيرِ الشعوبِ الأُولى مُطلَقًا.

ويَأْلمُ المُعلِّمون من كونِ حرارةِ ذلك الدَّوْرِ من العُمُر تجعَلُ الشبابَ غيرَ قابل الانقياد، وهذا ما أراه، ولكنْ أليس هذا ذنبَهم؟ أَوَيجهلون أنهم إذا ما تركوا هذه الحرارةَ تأخذُ مجراها بالحواسِّ عادَ من المتعذَّرِ تحويلُها إلى مجرًى آخَر؟ أَوَتُزيلُ مواعِظُ المتحذلقِ الطويلةُ الباردةُ من ذهنِ تلميذِه صورةَ الملاذِّ التي تَمَثَّلها؟ أَوَتُبعِدُ من فؤادِه الأهواءَ التي تُعذِّبُه؟ أَوَتُطفِئ نارَ مِزاجٍ يَعْرِف التلميذُ عادتَه؟ أَوَلَا يثورُ على الموانعِ التي تعترضُ في سبيلِ ما يتصوَّره من سعادةٍ وحيدة؟ وما يَرى في القانون الشديد الذي يُؤْمرُ به من غيرِ أن يُستطاع حَمْله على سماعه سوى هوَى رجلٍ يحاول تعذيبه، وحقدِ هذا الرجل؟ وهل من الغريب أن يتمرَّد عليه وأن يَمقُته بدوره؟

وأتصوَّرُ جيِّدًا أن الإنسانَ إذا كان سَهْلًا أمكَنَ أن يكون أكثرَ احتمالًا، وأن يحافظ على نفوذٍ ظاهر، ولكنني لا أرى فائدةَ نفوذٍ لا يُحافِظ عليه مُعلِّمٌ نحوَ تلميذه إلا بإلهابِ المعايبِ التي كان عليه أن يزْجرها، شأنُ السائس الذي يُريدُ تهدئةَ حصانٍ جامحٍ فيوثبُه في هُوَّة.

ومن البعيد أن تكون حرارة المراهق عائقَ تربية، وبهذه الحرارة تتم وتكمُل، وهي تمكِّنُكم من قلب الفتى عندما يعود لا يكون دونكم قوة، وتُعَدُّ عواطفه الأُولى أعنَّة توجِّهون بها جميع حركاته؛ أي إنه كان طليقًا فأراه قد استُرِقَّ، ولم يكن تابعًا لغيرِ نفسه واحتياجاته ما بقيَ غيرَ مُحبٍّ لأحد، وهو يَتْبَع عواطفه عندما يحب، وهكذا تتكوَّن الصلات الأُولى التي تربطه بنوعه. وهو إذا ما وَجَّهتم حساسيته الناشئة نحو هذا الصوب فلا تظنُّوا أنها ستسع جميع النَّاس في البُداءة، وأن كلمة الجنس البشري تنطوي على معنًى لديه، كلَّا، وإنما أمثالُه هم أوَّلُ مَن تقتصر عليهم هذه الحسَّاسية، ولن يكون أمثاله مجهولين؛ فهم الذين له معهم اتصالات والذين جعلتهم العادة عزيزين لديه، أو لا غُنْيَةَ له عنهم، والذين يرى من الواضح أن لهم معه وجوهَ تفكيرٍ وشعور مشتركة، والذين يراهم مُعرَّضين لمثل

آلامه ويَشعرون بمثل الملاذِّ التي يذوق، والذين يمنحه ما بينه وبينهم من تماثلٍ في الطبيعة بالغِ الجلاء أعظمَ استعدادٍ لحبِّ نفسه كما هي غايةُ القول، ولن ينتهي إلى تعميم مبادئه الفردية في قالب مبدأ الإنسانية المجرَّد، وإلى وصْل عواطفه الخاصة بالعواطف التي يُمكِن أن توحِّد بينه وبين نوعه إلا بعد أن يتعهَّد ميْله بالرعاية على ألف وجه، وبعد أن يقوم بكثيرٍ من التأمُّلات حول مشاعره الخاصة وحول المشاعر التي يُبصِرُها في الآخرين.

ومتى أصبح قادرًا على العطف صار عارفًا بعطف الآخرين،[٤] منتبِهًا بهذا إلى علامات هذا العطف، وهل ترون أيُّ سلطانٍ جديدٍ يكون لكم عليه؟ ما أكثرَ القيود التي وضعتموها حول فؤاده قبل أن يشعر بهذا! وما أكثر ما يُحِسُّ عندما ينظر إلى نفسه فيُبصر ما صنعتموه له ويقابل بين نفسه والفتيان الآخرين البالغين مثل عُمُره، ويقابل بينكم وبين غيركم من المُعلِّمين! وأقول: «عندما ينظر»، ولكن احترزوا من أن تقولوا له ذلك، فإذا ما قلتموه له عاد لا يراه، وإذا ما طالبتموه بالطاعة في مقابل ما حبوتُموه به من رعاية اعتقد مخادعتَكم له؛ أي إنه يقول في نفسه: بما أنكم أظهرتم رعايته بلا مقابل قصدتم تحميله دينًا وربطه بعقدٍ لم يوافق عليه قَط، ومن العبث أن تضيفوا إلى ذلك قولكم إن ما تطالبونه به هو من أجله، وأخيرًا تطالبون، تطالبون وَفْقَ ما صنعتم بلا اعترافٍ منه، وإذا ما أخذ تَعِسٌ درهمًا مع تظاهُرٍ بإعطائه إياه، ثم وجد نفسه مُقيَّدًا في سجل الجندية على الرغم منه، صرختم قائلين بجَوْر هذا، أَوَلستم أكثرَ جَوْرًا في مطالبة تلميذكم بمقابلِ رعايةٍ لم يرضَ بها قَط؟

ويكون الكُنودُ أكثرَ نُدورًا إذا كانت محاسن الربا أقلَّ ظهورًا، ونُحبُّ مَن يصنع لنا معروفًا، ويا له من شعورٍ طبيعيٍّ! وليس الكُنود موجودًا في قلب الإنسان، بل المصلحة الشخصية، ويوجد من ناكري الجميل المَدِينين مَن هم أقلُّ من فاعلي الخير النفعيين، وإذا ما بِعتم هِباتِكم منِّي ساومتُ حول الثمن، ولكنكم إذا ما تظاهرتم بالإعطاء حتى تبيعوا منِّي بالثَّمَن الذي تضعون فيما بعدُ كنتم مخادعين؛ فالعطاء بلا عِوَضٍ هو الذي يجْعلها غيرَ قابلةٍ للتثمين، ولا يتلقى القلب قوانينَ من غيرِ نفسه، وهو يُطْلَق من حيث يُراد تقييده، وهو يُقيَّد من حيث يُترَك طليقًا.

---

[٤] قد يكون العطف بلا عوض، وليست الصداقة هكذا، وذلك أن الصداقة مبادلة، عقد كالعقود الأخرى، وإن كانت أقدسَ العقود. وليس لكلمة الصداقة غيرُ رابطة نفسها، ويكون كلُّ إنسانٍ غيرُ صديقٍ لصديقه مُداجيًا لا ريب؛ وذلك لأن الإنسان ينال الصداقة بإعطائها أو بإظهار إعطائها.

وإذا ما ألقى الصيَّادُ طُعْمًا في الماء جاء السمك وبقي حولَه بلا حَذَر، ولكنه إذا ما تناول الصنارة المستترة تحت الطُّعم شعر بسحب القَصَبة وحاول الفِرار، فهل الصياد محسن؟ وهل السمك كَنُود؟ وهل يُرى إنسانٌ نُسِيَ من قِبَل المحسن إليه يَنْسَى هذا المحسن؟ هو على العكس يتكلم عنه طيِّبَ الخاطر دائمًا، وهو لا يفكِّر فيه من غيرِ تَحنُّن، وهو إذا ما وَجَدَ فرصةً يُطْلِعه فيها بخدمةٍ غيرِ منتظرة، على أنه ذاكرٌ ما يصنع له، فما أشدَّ ما يُرضي به شُكرانَه من ارتياحٍ باطني! وما أعظمَ ما يُلاقي من فرحٍ عَذْبٍ بما يوجب لنفسه من ثناء! ويا للسرور الذي يساوره إذ يقول له: «الآن جاء دوري!» فهذا هو صوت الطبيعة حقًّا، وما كان الإحسان الحقيقي ليصنع كَنودًا مطلقًا.

وإذا كان الشُّكرانُ شعورًا طبيعيًّا وكنتم لا تقضُون على فِعْله بخطأ منكم فثِقوا بأن تلميذَكم، إذ يأخذ في إدراكِ قيمةِ ما بذلتم من جهودٍ في سبيله، يكون متأثِّرًا بها، وذلك بشرط ألَّا تكونوا قد وضعتم ثَمَنًا لجهودكم بأنفسكم، وأن يكون لهذه الجهودِ في فؤاده من النفوذِ ما لا يستطيع أحدٌ أن يقضيَ عليه، ولكن احترزوا قبل الاطمئنان جيِّدًا إلى هذا الخير، أن تَنزِعوه من حسابكم بإبداء شأنِكم لديه، وينطوي افتخارُكم بخِدَمِكم على جعْلها أمرًا لا يُطيقه، وينطوي نسيانُها على تذكيره بها، ولا يدُرْ بحثٌ حوْل ما هو مَدينٌ لكم به، بل حولَ ما هو مَدينٌ به نحو نفسه، وذلك حتى يَحِلَّ وقتُ معاملته مثل رجل، ولكن اترُكوا له جميعَ حريَّته جعْلًا له طائعًا، واختَفُوا حَمْلًا له على البحث عنكم، ونشِّئوا رُوحه على الشعور النبيل القائل بعرفان الجميل مُحَدِّثين إياه عن مصلحته فقط، ولم أُرِد قَطُّ أن يُحدَّث عن كَوْن الذي يُصنَع هو لمصلحته قَبْلَ أن يكون في وَضْعٍ يُدْرِكُ ذلك معه، وما كان ليرى في هذا الكلام غيرَ خضوعكم، وما كان ليَعُدَّكم فيه غيرَ خادمٍ له. ولكنْ بما أنه أخذَ الآن يَشعر بحقيقة الحبِّ فإنه يشعُر أيضًا بالرابطة الحلوة التي يُمكن أن تصلَ الإنسانَ بمن يحب، وعاد لا يرى في الغَيرة التي تشغلُكم به بلا انقطاع تَعَلُّقَ عبد، بل عاطفةَ صديق، والواقع أنه لا يوجد ما هو أكثرُ وزنًا على القلب البشريِّ من صوتِ الصداقةِ المعْترف بها جيِّدًا؛ وذلك لأنه يُعرَف أنَّها لا تكلمنا إلا في سبيل مصلحتنا، وقد يُعتقَدُ أن الصديقَ مخطئ، ولكننا لا نَذهبُ إلى أنه يُخادِعنا، وقد تُقاوَم نصائحه أحيانًا، ولكنْ من غيرِ أن تُزْدرَى مطلقًا.

وأخيرًا نَلِج داخلَ النظام الخُلُقي؟ وقد سَبَقَ أن اتخذنا خُطوةَ الإنسانِ الثانية، وإذا لم يكُنْ مكانَ ذلك هنا فإنني أحاول أن أُبيِّن كيف أن حركاتِ القلبِ الأُولى تثير أصواتَ الشعور الأُولى، وكيف أنه ينشأ عن مشاعر الحب والحقد مبادئُ الخير والشر الأُولى، وسأبين

أن العدل والصلاح ليسا لفظَيْن مجرَّدَيْن وموجودَيْن خُلُقيَّيْن صِرفَيْن ناشئَيْن عن الإدراك فقط، بل هما عاطفتان حقيقيتان للنفس المُنارة بالعقل، فليسا سوى تقدُّمٍ منظَّمٍ لعواطفنا الابتدائية، كما أُبيِّنُ أنه لا يُمكِن بالعقل المستقلِّ عن الشعور وَضْعُ أيِّ قانونٍ طبيعيٍّ كان، وأن كلَّ حقٍّ طبيعيٍّ ليس سوى وهمٍ إذا لم يقُم على احتياجٍ طبيعيٍّ للقلب البشري،[٥] ولكنني لا أرى أن أضَعَ هنا رسالةً في ما بعد الطبيعة وفي الأخلاق، ولا مباحثَ من أيِّ نوعٍ كان، فيكفيني أن أدُلَّ على نظامِ مشاعرنا ومعارفنا وتقدُّمِها نظرًا إلى نشوئنا، ومن المُحتمل أن يُفصِّل آخرون ما لم أفعل غيرَ الدلالة عليه هنا.

وبما أن إميلَ لم يَنظُر غيرَ نفسه حتى الآن، فإن أوَّل نظرةٍ يُلقيها على أمثاله تَحمِله على مقابلة نفسه بهم، ويقوم أوَّلُ شعورٍ تُثيرُه فيه هذه المقابلةُ على الرغبة في المكان الأوَّل، وهذه هي النقطةُ التي يتحوَّل فيها حُبُّ النفس إلى أنانية، وهذه هي النقطة التي تبدأ منها جميعُ الأهواء بالصدور عن الأنانية. ولكنَّ الحُكم في هل الأهواء التي ستسيطر على طبعه تكون إنسانيةً ليِّنةً أو قاسيةً مؤذية، وهل تكون أهواءَ رأفةٍ ورحمةٍ أو أهواءَ حسدٍ وطمع، يستلزم معرفةَ المكان الذي يحسُّ نفسه فيه بين النَّاس، ومعرفةَ أنواع الموانع التي يعتقد إمكانَ تغلُّبه عليها، بُلوغًا للمكان الذي يُريد أن يشغله.

والآن يجب إطلاعُه على ما بين النَّاس من فروقٍ توجيهًا له في هذا البحث بعد أن أُطلِع على النَّاس من حيث العوارضُ المشتركة بين النوع، وهنا يأتي قياس التفاوت الطبيعي والمدني وصورة النظام الاجتماعي.

---

[٥] لا تجد للمبدأ القائل بأن تُعامِل الناسَ كما تريد أن يعاملوك به أساسًا حقيقيًّا غير الإحساس والشعور، وإلا فأين السبب الصريح في المعاملة من حيث أنا كما لو كنت غيري، ولا سيَّما حينما أطمئن خلقيًّا إلى عدم وجودي في عين الحال؟ ومَن ذا الذي يجيبني عن سؤالي القائل إنني إذا ما اتبعت هذا المبدأ بإخلاصٍ فمَن يضمن اتِّباع الآخرين له نحوي بعين الإخلاص؟ إن الخبيث يستفيد من صلاح المنصف وعدم إنصاف نفسه، ومما يسُرُّه أن يكون جميع الناس صالحين خلا نفسه، وليست هذه الصفقة رابحةً للصالحين مهما قيل عنها، ولكن إذا ما وحَّدت نفسٌ توسعية بيني وبين نظيري فشعرت بأنني فيه، كان هذا لكيلا يألم حتى لا أتألم، وأكترث له حُبًّا بنفسي، وترى سبب المبدأ في ذات الطبيعة التي توحي إليَّ برغبةٍ في هناءتي حيث أشعر بوجودي؛ ومِنْ ثَمَّ تعلم أنه ليس من الصحيح كونُ مبادئ القانون الطبيعي قائمةً على العقل وحدَه؛ فلهذه المبادئ أساسٌ أكثرُ متانةً وأعظمُ ثباتًا، ويُعدُّ حب الناس المشتق من حب النفس مبدأ العدل الإنساني، وتجد خلاصة كل أخلاق في الإنجيل نتيجة هذا القانون.

ويجب أن يُدرَس المجتمعُ في النَّاس، وأن يُدرَس النَّاسُ في المجتمع، ومَن يود معالجة كلٍّ من السياسة والأخلاق على حدةٍ لا يفقه شيئًا من كلٍّ منهما، والإنسان إذا ما اقتصر في البُداءة على الصلات الابتدائية أبصر كيف يجب أن يتأثَّر النَّاس بها، وأيُّ الأهواء يجب أن ينشأ عنها؛ أيْ يرى أنَّ هذه الصلات تتسع وتضيق مقابَلَةً وَفْقَ تقدُّم الأهواء، وتكون قوةُ الذُّرْعان أقلَّ من اعتدال القلوب جعْلًا للناس مستقلِّين أحرارًا، ومن يرغب في أشياءَ قليلةٍ يكن تابعًا لأناسٍ قليلين. ولكن بما أننا نخلط دائمًا بين ميولنا الفارغة واحتياجاتنا البدنية، فإن الذين صنعوا من هذه الأخيرة أسسَ المجتمع البشري عَدُّوا المعلولاتِ عللًا دائمًا، وحاكُوا في جميع براهينهم ضلالًا حَصْرًا.

وتوجد في حال الطبيعة مساواةٌ فعليةٌ حقيقيةٌ لا تَفْنى؛ وذلك لأن من المحال في هذه الحال أن يكون الفرقُ الوحيد بين إنسانٍ وإنسانٍ من العِظَم ما يجعلُ أحدَهما تابعًا للآخر، وتُوجَدُ في الحال المدنية مساواةٌ في الحقوق وهميةٌ فارغة؛ وذلك لأن الوسائل المُعدَّة لحفظها توجِبُ تقويضَها؛ ولأنَّ القوة العامة المضافَة إلى الأقوى لاضطهاد الضعيف تقضي على نوع التوازن الذي كانت الطبيعة قد وضعته بينهما.[٦] وينشأ عن هذا التناقض الأوَّل جميع المتناقضات التي تُشاهدُ في النظام المدني بين الظاهر والحقيقة، وفي كل وقتٍ يُضحَّى بالجُمهور في سبيل عددٍ قليل، وبالمصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة، وفي كل وقتٍ تَصلُح كلماتُ العدل والنظام المُموَّهة وسائلَ للقهر وسلاحًا للجَوْر؛ ومِنْ ثَمَّ لا تكون الطبقاتُ الممتازة التي تزعم أنها مفيدةٌ للطبقات الأخرى نافعةً لغير نفسها على حساب الطبقات الأخرى؛ ومِنْ ثَمَّ يجب أن يُحكم في أمر الاعتبار الذي يستحقونه وَفْقَ العدل والعقل، وبقي علينا أن نرى هل المقامُ الذي انتحلوه أكثرَ ملامةً لسعادة مَن يشغلونه ليُعرَف أيُّ حكمٍ يجب على كلِّ واحدٍ مِنَّا أن يَحْمله حول نصيبه الخاص. والآن إليك البحثَ الذي يهمُّنا، ولكنَّ حُسْنَ القيام به يستلزم البدءَ بمعرفة الفؤاد البشري.

وإذا ما دار الأمرُ حول إطلاع الفتيان على الإنسان ضِمْن قِناعه لم يكن هنالك احتياجٌ إلى إطلاعهم عليه؛ فهم يرونه كثيرًا في كل وقت. ولكن بما أن القِناع ليس عينَ الإنسان، ولا ينبغي أن يُغويه طلاؤه، فإن النَّاس إذا ما وُصِفوا لهم وجب أن يُوصَفوا كما هم، وذلك لا

[٦] تقوم الروح العامة للقوانين في جميع البلدان على تأييد القوي ضد الضعيف دائمًا، وعلى تأييد المالك ضد غير المالك شيئًا، ولا مفرَّ من هذا الضرر الذي لا استثناء له.

ليُبغَضوا، بل ليُرثى لهم ولئلا تُرادَ مشابهتُهم، وعندي أن هذا أصوب ما يُمكن أن يكون لدى الإنسان من رأي حول نوعه.

وعلى هذا فإن من المهم هنا سلوكَ سبيلٍ مخالفةٍ للسَّبيل التي اتَّبعناها حتى الآن، وأن يُعلَّم الفتى بتَجرِبةِ الآخرين أكثرَ مما بتجرِبته، وإذا كان النَّاس يخادعونه فإنه يضغَنُ عليهم، ولكنه، وهو مُكرَمٌ من قِبَلهم، إذا ما رآهم يتخادعون توجَّع لهم. قال فيثاغورس: «إن منظر العالَم يشابه منظر الألعاب الأُلَنْبية؛ فبعض النَّاس يتعاملون ولا يفكِّرون في غير الرِّبح، وبعضٌ آخرُ منهم يخاطرون بأنفسهم سعيًا وراء المجد، وآخرون منهم يكتفون بمشاهدة الألعاب، وليس هؤلاء أسوأ الجميع.»

وأَوَدُّ لو يُختارُ للفتى من المجتمعات ما يَحمِلُه على التفكير في أمرِ مَن يعيشون معه، وأن يُبلَغ من تعليمه حُسْنَ معرفةِ العالم ما يُفكِّرُ معه سوءًا في جميع ما يُصنَع فيه، ولْيعلمْ أن الإنسانَ صالحٌ طبيعةً ولْيشعُرْ بذلك، ولْيحكمْ في جاره بنفسه، ولكن ليُبصرْ كيف أن المجتمع يُفسِد النَّاسَ ويُضِلُّهم، ولْيَجِدْ في مُبْتَسَرَاتهم مصدرَ جميعِ عيوبهم، ولْيُحمَلْ على احترامِ كلِّ فرد، ولكن لِيَزْدَرِ الجُمهور، ولْيَرَ أنَّ جميعَ النَّاسِ يَلْبَسون عينَ القِنَاعِ تقريبًا، ولكنْ ليَعْلَمْ أنه يوجَدُ من الوجوه ما هو أجْمَلُ من القناعِ الذي يسترُها.

ويجب أن يُعتَرَف بأن لهذا المِنْهاج نقائصَه وبأنه ليس سهلًا عند التطبيق؛ وذلك لأن الفتى إذا كان يصير راصدًا باكرًا، وإذا كنتم تدرِّبونه على ترقُّب أفعالِ الآخرين عن كثب، فإنكم تجعلونه مُغتَابًا هاجيًا جازمًا سريعَ الحُكم، وهو يجد لذةً ممقوتةً في تحري العوامل السيئة وفي عدمِ رؤيته ما هو حسنٌ حتى في الشيء الحسن، وهو على الأقل يُعوِّد نفسَه منظرَ العيبِ ورؤيةَ الأشرار بلا نفور كما يُعوِّدُ الإنسانُ نفسه رؤية التعساء بلا رأفة، ولسُرعان ما يَصلُح الفسادُ العامُّ أن يكون درسًا له أقلَّ من أن يكون معذرة، فيقول في نفسه إذا كان الإنسان هكذا فلا يجب أن يكون خِلافًا لما عليه الإنسان.

ولكنْ إذا أردتم تعليمَه عن مبدأٍ وإطلاعَه، مع طبيعة القلب البشري، على تطبيقِ العلل الخارجية التي تُحَوِّل مُيولَنا إلى عيوب، وذلك بنقله بغتةً هكذا، من الأشياء الحسية إلى الأشياء الذهنية، فإنكم تكونون قد استعملتم ما بَعْدَ طبيعةٍ لا يستطيع إدراكه، فتقعون ثانيةً في محذورٍ اجتُنِبَ حتى الآن، وهو إعطاؤه دروسًا تُشابه الدروسَ، وأن تُقامَ في ذهنه تجرِبةُ المُعلِّم ونفوذُه مقامَ تجربته الخاصة وتَقَدُّم عقلِه.

وإني لكي أُزيلَ هذين العائقَين دفعةً واحدة، وأَضَعَ القلبَ البشريَّ في متناوَله من غير مجازفةٍ بإفساد قلبه، أُريد أن أُطلِعَه على النَّاس من بعيد، وذلك في أزمنةٍ أخرى وأمكنةٍ

أخرى، وذلك على وجهٍ يستطيع معه أن ينظر إلى المنظر من غير أن يقدِر على الاشتراك فيه، وهذا هو وقتُ التَّارِيخ، وبالتَّارِيخ سيقرأ في الأفئدة من غير دروسٍ في الفلسفة، وبالتَّارِيخ سيراها ناظرًا بسيطًا خاليًا من الغرض والهوى، وذلك مِثْلَ قاضٍ، لا مِثْلَ شريكٍ لها، ولا مِثْلَ مُتَّهِمٍ إياها.

وتقضي معرفة الرجال بأن يُرَوا وهم يَعمَلون، والرجالُ في العالم يُسمَعون وهم يتكلمون، وفي العالم يُظهِرُون أقوالَهم ويُخفُون أفعالَهم، وأمَّا في التَّارِيخ فيُكشَفُ الغطاءُ ويُحكَمُ فيهم بالأعمال، حتى إن أقوالَهم تُعِينُ على تقديرهم؛ وذلك لأنَّه يُرَى بالمقابلة بين ما يقولون وما يفعلون مَنْ هم وما يريدون أن يَبدُوا به معًا؛ أي إنهم كلَّما تنكَّرُوا عُرِفوا.

ومن المؤسِفِ أن تكون لهذا البحثِ محاذيرُه من كلِّ نوع، ومن الصعبِ انتحالُ وجهةِ نظرٍ واحدةٍ يُمكِنُ الإنسانَ أن يَحكُمَ بها في أمثاله بإنصاف، ومن أعظمِ عُيوب التَّارِيخ أن يُصوِّر الرجالَ بنواحيهم السيئةِ أكثرَ مما بنواحيهم الحسنة. وبما أنَّ التَّارِيخ لا يكون ممتِعًا إلا بالثورات والمصائب، ولا يُحدِّث شيئًا عن الأمةِ ما نَمَت وازدهرت في سكونِ حكومةٍ سَلْمية، فإنه لا يبدأ بالكلام عنها إلا عند عدم قدرتها على كفاية نفسها بنفسها فتتدخَّل في شئون جاراتها أو تَدَع هذه الجارات تتدخَّلُ في شئونها، وهكذا فإن التَّارِيخ لا يُشْهِرُها إلا بعد أن تأخذ في الأفول. وهكذا فإن جميع تواريخنا تبدأ حيث يجب أن تنتهي، ولدينا تاريخٌ بالغُ الدقة عن الأمم التي تنقَرِض، والذي يُعْوِزنا هو تاريخٌ عن الأمم التي تتكاثر. وهذه الأمم هي من السَّعادة والحكمة ما لا يَقُصُّ التَّارِيخُ معه عنها شيئًا. والواقع أننا نرى حتى في أيامنا كونَ الحكوماتِ التي تُساس أحسنَ من سواها هي أقل ما يُحدِّثُ عنه التَّارِيخ، ونحن لا نعرف غيرَ الشرِّ إذن، وأمَّا الخير فلا يكاد يُذكر، ولا يوجد غيرُ الأشرار مَن يشتهرون، ويُنسى الصالحون أو يُسخَرُ منهم؛ ومِنْ ثَمَّ ترى كيف يتجنَّى التَّارِيخ كما تتجنَّى الفلسفة على النوع البشري بلا انقطاع.

وفضلًا عن ذلك فإن من البعيد جِدًّا أن تكون الوقائعُ الموصوفة في التَّارِيخ صورةً صادقةً عن الوقائع كما حدثت؛ أي إنها تُغيِّرُ شكلها في رأس المؤرِّخ، وتُصَبُّ في قالبِ مصالحِه وتَكتسب لونَ مُبْتَسَراته. ومَن ذا الذي يَعْرِف أن يضع القارئَ وضعًا تامًّا في مكان المسرح حتى يرى كيف وقعت الواقعة؟ إن الجهالة والمحاباة تُنكِّران كلَّ شيء، وما أكثرَ أوجهَ الخلاف التي يمكن أن تكتنف الحادث التَّارِيخي، حتى من غير تحريف له، بتوسيعٍ أو تضييقٍ للأحوال التي تُناط به! إذا ما وضعتم عينَ الشيء في نواحٍ مختلفة، لم يَكَدْ هذا الشيء يُرى إياه، ومع ذلك فإنه لم يتغيَّر شيءٌ غيرُ عينِ الناظر، وهل مما يُشرِّف

الحقيقةَ أن تَرْوُوا لي واقعةً حقيقيةً بأن تُبْدوها لي خلافًا لما حدثت؟ وما أكثرَ ما قرَّرتْ شجرةٌ زُهاء، أو صخرةٌ عن اليمين أو الشمال، أو سافِيَاءُ أثارتها الريح، مصيرَ معركةٍ من غير أن يَشعر أحدٌ بذلك! وهل يمنع هذا المؤرخَ من أن يقول لكم سببَ الانكسار أو الانتصار مطمئنًّا كما لو كان في كلِّ مكان؟ والحقُّ ما أهميةُ الوقائع عندي إذا ما ظلَّ السببُ مجهولًا لديَّ؟ وأيُّ عِبَرٍ أستطيع أن أستخرج من حادثٍ أجهلُ علَّته الحقيقية؟ أجل، إن المؤرِّخَ يُعطيني سببًا واحدًا، غيرَ أنه يلفِّقُه، وليس النقد الذي تقوم حوْله ضجَّةٌ كبيرةٌ سوى فنٍّ للافتراض، سوى اختيارِ أكثرِ الأكاذيبِ مشابهةً للحقيقة.

ألمْ تقرءوا قَطُّ كليوباترة وكَسَّنْدِر أو كُتُبًا أخرى من هذا الطراز؟ إن المؤلِّف يختار حادثةً معروفة، ثُمَّ يوفِّق بينها وبين وجهات نظره ويزخرفها بتفاصيلَ من اختراعه ورجالاتٍ لم يُوجَدوا قَطُّ وصورٍ خيالية، ويَرْكُم أوهامًا فوق أوهامٍ حتى يجعل قراءته لذيذة، ولا أرى غيرَ فرْقٍ قليلٍ بين هذه الروايات وتواريخكم، ما لم يكن الكاتب الروائي أكثرَ اعتمادًا على خياله الخاص مع تعبيد المؤرِّخ نفسه لخيال الآخرين. وإلى هذا أضيف، إذا ما أُريد، كونَ الكاتب الروائي يتخذ موضوعًا خُلُقيًّا صالحًا أو طالحًا لا يكترث له المؤرخ مطلقًا.

وسيُقال لي إن أمانةَ التَّارِيخ أقلُّ إغراءً من صدْقِ الطبائع والأخلاق، وإن من المهم قليلًا كونَ الحوادث مرويةً بأمانةٍ بشرط أن يُصوَّر القلبُ البشريُّ تصويرًا حسنًا؛ وذلك لأنه يُضاف إلى ذلك بعد كل شيء: ما أَرَبُنا إلى الوقائع التي حدثت منذ ألفي سنة؟ أجلْ، تجد صوابًا في عرض الصور وَفْقَ الطبيعة، ولكن إذا لم يكن نموذجُ مُعظمِها في غير خيال المؤرخ، أفلا يعني هذا وقوعًا في المحذور الذي أُريدَ الإفلاتُ منه، وردًّا إلى حُكْم الكُتَّاب ما يُراد نَزْعُه من حُكم المُعلِّم؟ إذا كان لا ينبغي لتلميذي أن يرى غير تصاوير يُمليها الهوى، فإنني أفضِّلُ أن تُرْسَم بيدي على رسْمها بيدٍ أخرى؛ وذلك لأنها تكون أحسن ملاءمةً له على الأقل.

وأسوأ المؤرخين من أجْل الفتى هم الذين يُصدِرون أحكامًا، الوقائعَ! الوقائعَ! دَعُوه يَحْكم بنفسه، هكذا يتعلَّم معرفةَ الرجال، إذا كان حُكْم المؤلف يُرشِده بلا انقطاع فإنه لا يرى بغير عين رجلٍ آخر، وإذا ما أعوزَتْه هذه العين عاد لا يرى شيئًا.

وأَدَع التَّارِيخ الحديث جانبًا، لا لأنه لا طابعَ له ولأن رجالنا يتماثلون جميعًا، بل لأن مؤرخينا الذين لا يهمُّهم غيرُ اللَّمْع حصرًا لا يُفكِّرون في غير وضع صُوَرٍ مُلوَّنة جِدًّا، فلا

تُمثِّلُ شيئًا غالبًا،[٧] وكان القدماءُ أقلَّ وضعًا للصور على العموم؛ فكانوا في أحكامهم أقلَّ اعتمادًا على الذهن وأكثرَ استنادًا إلى الشعور. وكذلك لا بُدَّ من القيام بخيارٍ كبيرٍ يُؤتى بينهم، ولا يجوز أن يُتَّخذ منهم في البُداءة مَن هم أكثرُ حصافة، بل مَن هم أعظمُ بساطة، ولا أودُّ أن أجعل في يد الفتى بُولِيبَ ولا سالُسْت، ويُعَدُّ تاسيتُ كتابَ الشِّيب، ولم يُصنع الفتيان ليفقهوه؛ أي إنَّ من الواجب في الأعمال البشرية أن تُعلمَ رؤيةُ رسومِ القلبِ البشري الأُولى قبل أن يُراد سَبْرَ غَوْره، وإن من الواجب أن تُحسَنَ معرفةُ القراءة في الوقائع قبل القراءة في الأمثال؛ فلا تلائم الفلسفةُ في شكلِ الأمثالِ غيرَ التجرِبة، ولا ينبغي للشباب أن يقوم بتعميم، ويجب أن يقوم تعليمه وَفْقَ قواعدَ خاصة.

وعندي أن تُوسِيديدَ مثالُ المؤرخين الصادق؛ فهو يروي الوقائعَ من غير أن يحكم فيها برأيه، ولكنه لا يُهمِلُ أيًّا من الأحوال الصالحة التي نحكُم بها في ذلك، وهو يضعُ كلَّ ما يَقُصُّ أمام عينَي القارئ، وهو يتوارى بعيدًا من أن يقوم بين الحوادثِ والقُرَّاء، فلا نعتقد أننا نقرأ، بل نعتقد أننا نرى. ومن المؤسف أنه يتكلم عن الحرب دائمًا، ولا نرى في أخباره غيرَ أقلِّ أمور الدنيا تثقيفًا، أي المعارك، وتكاد تكون ذات الحكمة وذات النقيصة تقريبًا في «تقهقر الآلاف العشرة» و«تفاسير قيصر». وقد يكون هيرودوتسُ — الخالي من الصور والأمثال ولكن مع الانسجام والبساطة وكثرة الجزئيات التي هي أكثرُ ما يُمتِع ويَرُوق — أصلحَ المؤرخين لو لم تتحوَّل هذه الجزئيات في الغالب إلى سذاجةٍ صبيانيةٍ خليقةٍ بأن تُفسِد ذوقَ الشبابَ أكثرَ من تكوينه، وذلك أننا نحتاج إلى قوةِ تمييزٍ لمطالعته، ولا أقول شيئًا عن تِيطُس ليفيوس الذي سيأتي دوره، والذي هو سياسيٌّ من فُرسان البيان، فلا يلائم هذا الدَّورَ من العُمُر.

والتَّاريخُ ناقصٌ على العموم، وذلك من حيث كونه لا يُسجِّلُ غيرَ الوقائع المحسوسة البارزة التي يُمكِن تعيينها بالأسماء والأزمنة والمُدَد، ولكنَّ عللَ هذه الوقائع البطيئة التدريجية التي لا يُمكِن تعيينُها مثلَ ذلك تبقى غير معلومة دائمًا، وفي الغالب يوجد في المعركة التي تُكسَب أو تُخسَر سببَ ثورةٍ كانت، حتى قبل هذه المعركة، قد أصبحت أمرًا لا مفرَّ منه، ولا تصنع الحرب مطلقًا غيرَ إظهار حوادثَ كانت قد عُيِّنَت بعللٍ أدبيةٍ لا يَعْرِفها المؤرخون إلا نادرًا.

[٧] انظر إلى دافيلا وغويشيارديني وسترادا وسوليس ومكيافيلي، وإلى دوتو في بعض الأحيان، وفرتو وحدَه تقريبًا هو الذي كان يَعْرِف الوصف من غير أن يضع صورًا.

وقد حوَّل الروحُ الفلسفيُّ إلى هذه الناحية تأمُّلاتِ كثيرٍ من كُتَّاب هذا العصر، ولكني أشُكُّ في كون الحقيقة تَكسِب من عملهم؛ فبما أن صولة المناهج استحوذت عليهم جميعًا فإنه لا أحدَ يحاول أن يرى الأمور كما هي، بل كما تُطابِقُ منهاجه.

وإلى جميع هذه التأمُّلات أضيفوا كونَ التَّارِيخ يرى الأعمالَ أكثرَ من الرجال؛ وذلك لأن التَّارِيخ لا يُمسك هؤلاء في غير بعض الأوقات المختارة ضمن ثياب أبَّهتهم، والتَّارِيخ لا يَعْرض غيرَ الرجل العام الذي رتَّب نفسه ليُرى، وهو لا يتعقبه مطلقًا في بيته ولا في حُجرته ولا في أسرته ولا بين أصدقائه، وهو لا يصوِّره إلا حين يُمثِّل، ولباسه لا شخصه هو الذي يُصوِّر.

وأفضِّلُ مطالعةَ السِّيَر الخاصة للبدء بدراسة القلب البشري؛ وذلك لأنَّ من العبث أن يُخفي الرَّجل نفسه؛ فالمؤرخ يتعقبه في كل مكان، وهو لا يترك له ساعة استراحة، ولا زاوية يُفلِتُ فيها من عينه الثاقبة، وهو كلَّما ظنَّ أنه أحسنَ اختفاءً كان الآخرُ أحسنَ اطِّلاعًا عليه. قال مونتين: «كلَّما تلهَّى كاتبو السِّيَر بالمقاصد أكثرَ مما بالوقائع، وبما يصدر عن الباطن أكثرَ مما عن الظاهر، كانوا مفضَّلين لديَّ؛ ولذا فإن بلُوتارك رَجُلي من كلِّ وجه.»

حقًّا أنَّ عبقريةَ الرِّجالِ المجتمعين أو عبقريةَ الأممِ كثيرةُ الاختلافِ عن عبقريةِ الرَّجلِ وهو منفرد، وأنَّ مِن نقْصِ المعرفةِ بالفؤادِ البشريِّ عدمَ درْسِهِ بين الجمهورِ أيضًا، بَيْدَ أنه لا يَقِلُّ عن هذا صحةً وجُوبُ البدءِ بدراسةِ الرَّجلِ للحُكمِ في الرجال، وأن مَن يَعْرِفُ ميولَ كلِّ فردٍ معرفةً تامَّةً يُبصر جميعَ آثارِها التي تُمازِجُ كِيانَ الأمَّة.

وهنا أيضًا يجبُ أن يُرجَعَ إلى القدماءِ للأسبابِ التي قُلْتُها سابقًا، ثُمَّ إن جميعَ الجزئياتِ المألوفةِ الوضيعةِ إذ كانت مُبعدةً من الأسلوبِ الحديثِ مع كونها صحيحةً بارزة، بدا الرجالُ من تجميلِ مؤلفينا لهم في سِيَرِهم الخاصَّةِ مثلَ تجميلِهم في ميدانِ العالَم، وعاد الحياءُ الذي ليس أقلَّ صرامةً في المؤلَّفاتِ مما في الأعمال، لا يَسْمح بالقولِ علنًا أكثرَ مما يَسمحُ بصُنعه جهرًا. وبما أنه لا يمكن إظهار الرجال غير ممثِّلين دائمًا، فإنهم لا يُعرَفون في كتبنا أكثرَ مما في مسارحنا. وصار من الممكن أن تُكتَب حياة الملوك مائة مرة، وعاد لا يكون عندنا مثلُ سويتونيوس.[٨]

[٨] أقدمَ أحد مؤرخينا دوكلو، الذي قلَّد تاسيت في الرسوم الكبرى، على تقليد سويتونيوس، وعلى استنساخ كومين أحيانًا في الرسوم الصغرى، ومع أن هذا أوجب زيادةَ قيمة كتابه فقد أدَّى إلى نقده بيننا.

ويبرع بلوتارك في هذه الجزئيات التي عُدنا لا نجرؤ على الدخول فيها، وله كِياسةٌ منقطعةُ النظير في تصوير أعاظم الرجال في أدق الأمور، وهو من حسن التوفيق في اختيار رسومه ما تكفي معه في الغالب كلمةٌ أو ابتسامةٌ أو حركةٌ لإبراز بطله، ومن ذلك أن أنيبال سكَّن رَوْع جيشه الخائف وجعله يزحف ضاحكًا إلى المعركة التي سلَّمت إليه إيطالية، ومن ذلك أن أجِيزِيلَاس، الراكبَ حصانًا على عصًا، حبَّب إليَّ قاهرَ الملك الأكبر، ومن ذلك أن قيصر يجوب قريةً فقيرةً ويُكلِّم أصدقاءه، فيَنِمُّ من حيث لا يدري، على الماكر الذي يقول إنه لا يريد غير مساواة بُونْبِي، ومن ذلك أن الإسكندر بلع علاجًا ولم ينبِس بكلمة، فكانت هذه أجملَ ساعةٍ في حياته، ومن ذلك أن أرِستيد كتب اسمه على صدفٍ مُسوِّغًا لقبه بهذا. ومن ذلك أن فيلوبيمين ألقى رداءه جانبًا وقطَّع حطبًا في مطبخ مُضيِّفه. فهذا هو فنُّ التصوير، وما كانت السِّيما لتبدو بالملامح الكبيرة، وما كانت السجية لتتجلَّى في الأعمال العظيمة، وإنما الترَّهات هي التي تكشِفُ عن الطَّبع، وتكون الأمور العامة عاديةً كثيرًا أو مُعدَّةً كثيرًا، وعند هذه وحدَها تقريبًا يَسمح وقار العصر لمؤلفينا بأن يقفوا.

ولا جدالَ في أن مسيو دُوتُورين من أعظم رجال القرن الأخير، وقد جُرِئَ على جعْل حياته ممتعةً بالجزئيات التي عَرَّفت النَّاس به وحبَّبته إليهم، ولكن ما أكثرَ ما قُضِيَ بحذفِ كثيرٍ منها كان يجعله معروفًا لدينا ومُحبَّبًا إلينا زيادةً على ما اتَّفق له! ولا أُورِدُ غيرَ واحدةٍ أقْتبسها من مصدرٍ موثوقٍ به، ولم يكُ بلوتارك ليُهْملها، ولكن مع عدم تسجيل رَمْسي لها حتى عند معرفته إياها:

في يومٍ من الصيف شديدِ الحر، كان فيكونْت دُوتورين عند نافذة غرفة الانتظار لابسًا سُترةً بيضاءَ وقَلَنْسوة، ويظهر أحد خَدَمه بغتة، ويُخْدَع باللباس، ويظنُّه أجيرًا في المطبخ معروفًا لديه، ويدنو مِن خلْفه على مَهْل، ويَضرِبه ضربةً شديدةً على ألْيته، ويلتفت الرجلُ المضروبُ إلى ورائه من فوْره، ويَرى الخادمُ وهو يرتعش وجهَ سيِّده، ويركع والهًا، ويقول: «مولاي، لقد اعتقدت وجودَ جورج.» ويقول تورين وهو يَحُكُّ مؤخَّرَه: «لا يجوز الضرب بهذه الشدة، ولو كان جورج هو المضروب.» وهذا إذن هو الذي لا تَجرُءون على قوله أيها المساكين! وكونوا إلى الأبد إذن بلا فِطْرةٍ ولا عواطف، وسَقُّوا قلوبَكم بالحديد وقَسُّوها به داخل حيائكم المُزدَرى، واجعلوا أنفسكم محتقرين بفعل الوقار. وأمَّا أنت أيها الفتى الصالح، الذي يقرأ هذه القصة، والذي يشعُر شعورَ حنانٍ بكلِّ ما تدلُّ عليه من حِلْمٍ حتى

في الحركة الأُولى، فاقرأ أيضًا صَغَارات هذا الرجلِ العظيم حين البحثُ عن أصله واسمه، واذكُر أن تُورينَ هذا هو الذي تظاهر في كلِّ مكانٍ بأنه يفسحُ في المجال لابن عمه حتى يُرى جيِّدًا أن هذا الولد كان رئيسَ بيتٍ مالك، وقابِلْ بين هذه المتناقضات وأحِبَّ الطبيعة وازدَرِ المُبتسَر واعْرف الرجل.

وقليلٌ من النَّاس مَن يتمثَّلون ما قد يكون لهذه القراءات الموجَّهة على هذا الوجه في الفتى الخالي الذهن، وبما أننا نكون مُثقَلين بكتب صِبانا متعودين القراءةَ من غير تفكير، فإن ما نقرأ يكون من قلةِ وقْفِه لنظرنا ما نَعُدُّ معه ما يفعلون أمرًا طبيعيًّا عن سابقِ حَمْلِنا في أنفسنا مُبْتَسَراتٍ وأهواء تملأ تاريخ الرجال وسِيَرَهم؛ ولأننا خارجَ الطبيعة فنحكُمُ في الآخرين بأنفسنا، ولكن لنتصوَّرْ فتًى نُشِّئَ وَفْقَ مبادئي، ولْنتمثَّلْ إميلَ الذي لم يكن لجهود ثماني عشرةَ سنةً متواصلةً من الغاية غيرُ المحافظة فيه على تمييزٍ سليمٍ وقلبٍ صحيح، ولْنتخيَّله بعد رفْع الستار وهو يُلقي نظرَه على مسْرح العالَم للمرة الأُولى، أو لِنَتنوَّره وراء المسرح ناظرًا إلى الممثلين وهم يتناولون ثيابهم ويَلبسونها، عادًّا الحبالَ والبكرات التي تخدعُ عيون الحضور؛ فهو لا يَلبثُ أن تعقُبَ دهْشته الأُولى أحاسيسُ حياءٍ وازدراءٍ نحو نوعه، ويشتاط غيظًا من مشاهدته جميعَ الجنس البشري هكذا أحمقَ بالغًا من الهوان ما يقوم معه بهذه الألعاب الصبيانية، ويحْزن من رؤيته افتراسَ بعض إخوانه لبعضٍ في سبيل أحلامٍ وتحوُّلهم إلى ضوارٍ لعدم معرفتهم الاكتفاء بأن يكونوا آدميين.

والحقُّ أنه إذا ما نُظِرَ إلى قابليات التلميذ كان ذلك التمرينُ له درسَ فلسفةٍ عمليةٍ أفضلَ لا ريب، وأرعى للسماع من جميع الدروس النظرية الفارغة التي تُفسِدُ ذهنَ الفِتيان في مدارسنا، وذلك مهما قلَّ ما يأتي المُعلِّمُ من فِطنةٍ واختيارٍ في مطالعاته، ومهما قلَّ ما يُسْلكُه سبيلَ التأمُّل الذي يجب استخراجه منها. ويتتبَّع سينياس خِططَ بِيرُّوسَ الخيالية فيسأله عن الخير الحقيقي الذي يُنال من فَتْح العالم، من هذا الفتح الذي لا يستطيع أن يتمتَّع به الآن من غيرِ كُروبٍ كثيرة، ولا نرى في ذلك غيرَ كلمةٍ صالحة عابرة. وأمَّا إميلُ فسيرى فيها تأمُّلًا بالغَ الحكمة كان أوَّلَ مَن أتاه، فلا يزول من ذهنه أبدًا؛ وذلك لأن هذا التأمُّل لا يجد في ذهنه أيَّ مُبْتَسَرٍ معاكسٍ يمكن أن يَعُوق انطباعه، وهو إذا ما وَجَدَ بعد قراءة سيرة هذا الأحمق أن جميعَ خِططِه العظيمةِ أدَّت إلى قتله بيدِ امرأة، فإنه بدلًا من الإعجاب بهذه البطولة المزعومة، ما يرى في جميع مفاخر هذا الرُّبان العظيم، وفي جميع

دسائس هذا السياسي العظيم، غيرَ خطواتٍ سار بها بحثًا عن تلك الآجُرَّة المشئومة التي ختمتْ حياتَه وقضت على خِططه بموتٍ شائن؟

ولم يُقتل جميعُ الفاتحين، ولم يُصَب جميعُ الغاصبين بالحبوط في مشاريعهم، ويبدو كثيرٌ منهم سعداء في الأذهان المُشْرَبة من الآراء العامية. بَيْدَ أن الذي لا يقِفُ عند الظواهر، فلا يحكم في سعادة النَّاس إلا وَفْقَ حال أفئدتهم، يرى بؤسهم في فوزهم، ويرى رغائبهم وغوائلهم القاضمة تتسع وتزيد مع طالعهم، ويرى انقطاع نَفْسِهم وهم يتقدمون من غيرِ أن يبلغوا حدَّهم مطلقًا، ويراهم مشابهين للمسافرين الأغرار الذين يوغلون في جبال الألب فيتصورون أنهم يجاوزونها عند كلِّ جبل، فإذا ما بلغوا الذروة وجدوا مع القنوط أعلى الجبالِ أمامهم.

وبعد أن أخضع أغسطسُ مواطنيه وقضى على منافسيه، سيطرَ مدةَ أربعين عامًا على أعظمِ إمبراطورية عُرِفَت، ولكن هل حالَ هذا السلطانُ الواسع دون نَطحِه الجدرانَ وملئه قصرَه العظيمَ صُراخًا طالبًا من فاروسَ أن يُعيد إليه كتائبَه المُبادة؟ وهو بعد أن قهر جميع أعدائه ماذا كان نفْعُ انتصاراتِه له، على حينِ كانت جميعُ المتاعب من كلِّ نوعٍ تظهر حوْله بلا انقطاع، وعلى حينِ كان أعزُّ أصدقائه يأتمرون به ليقتلوه، فيبكي لما يُلاقي المقرَّبون إليه من خِزيٍ أو قَتْل؟

أراد هذا التَّعِسُ أن يسيطر على العالم، وهو لم يستطع أن يهيمن على منزله! وما الذي نشأ عن هذا الإهمال؟ لقد أبصرَ هلاكَ ابنِ أختِه وابنِه بالتبني وصهرِه في مَيْعةِ الشباب، وقد رأى اضطرار حفيده إلى أكلِ حشوة فراشه إطالةً لحياته التَّعِسة بضعَ ساعات، وقد غَمرتْه ابنتُه وحفيدته بفضائحهما، فماتت إحداهما بؤسًا وجوعًا في جزيرةٍ قَفْرٍ وهلكت الأخرى في السجن بيدِ نبَّال، وأخيرًا تَحْمله زوجته الخاصة، وهو بقيةُ أسْرته المنكودة الحظ على عدم تركه غيرَ غولٍ لِيَرِثَه، فذاك هو مصيرُ هذا السَّيِّدِ للعالَم الذي مُجِّدَ كثيرًا بسبب عِزِّه وسعادته، وهل أعتقدُ أن واحدًا ممن يُعجَبون به يَودُّ نَيْلَهما بهذا الثَّمن؟

وقد اتخذتُ الطموحَ مثالًا، غيرَ أنَّ لَعِبَ جميعِ الأهواء البشرية يَعْرِض مثلَ هذه الدروس على مَن يُريد درْسَ التَّاريخ حتى يَعْرِف نفسَه ويكون حكيمًا على حساب الأموات، ويدنو الوقت الذي ستكون سيرة أنطونيوس فيه لدى الشاب مثلَ سيرة أغسطس. ولن يَعْرِف إميلُ أين هو في الأمور الغريبة التي تَقِفُ نظرَه في دروسه الجديدة، ولكنه سيَعْرِف أن يُبعِد مُقدَّمًا وَهْمَ الأهواء قبْل أن تُولَد، وهو إذْ يرى أنها أعْمَت الرجال في جميع الأزمان

فإنه سيكون على علمٍ بالوجه الذي يمكن أن تُعْميه فيه بدوْره إذا ما انقاد إليها.[٩] وأعْرِف أن هذه الدروسَ غيرُ ملائمةٍ له، وأن من المحتمل أن تكون عند الحاجة متأخرةً ناقصة، ولكن اذكُروا أنني لم أُرِد استخراجَها من هذا البحث؛ فقد قصدتُ أمرًا آخر حين البدء بها، ولا ريبَ في أن سوء القيام بهذا الأمر يكون خطأً من المُعلِّم.

واذكُروا أن الأنانية إذا نمَتْ لم تلبث الذاتُ النسبيةُ أن تتحرك بلا انقطاع، فلا يلاحظ الفتى الآخرين من غير أن يعود إلى نفسه ويقابل بينها وبينهم؛ ولذا فإن من المهمِّ أن تُعرَف المرتبة التي يضعُ نفسه فيها بين أمثاله بعد أن يَدرُسهم، وأرى بالأسلوب الذي يُحمَل الشبانُ به على مطالعة التَّارِيخ، أنَّهم يتحوَّلون إلى جميع مَن يُبصِرون من السَّرَاة، فيُسْعى في أن يُجعَل منهم شيشرونُ أحيانًا وتراجانُ مرةً والإسكندرُ تارة، فيدِبُّ اليأس في أفئدتهم إذا ما عادوا إلى نفوسهم حين يرى كلُّ واحدٍ منهم أنه هو فقط؛ ولهذا المنهاج بعضُ الفوائد التي لا أنكرها. ولكن إميلَ إذا ما حدثَ ذاتَ مرةٍ أن قام بهذه المقارنات، فأراد أن يكون غيرَ نفسه، ولو كان الآخرُ سقراطَ أو كاتونَ عدَدْتُني قد حَبِطْتُ في عملي، ومن يأخذ في جعْل نفسه غريبةً عنه لم يُعتِّم أن ينسى نفسَه تمامًا.

وليس الفلاسفةُ أحسنَ مَن يَعْرِفُ الرجال؛ فالفلاسفة لا يَعْرِفونهم إلا من خلال مُبتَسَرَاتِ الفلسفة، ولا أعْرِفُ أحدًا كالفلاسفةِ ذا مُبْتَسَر، وللهمجيِّ رأيٌ فينا أصحُّ من رأي الفيلسوف. والفيلسوف يشعر بعيوبه ويغتاظ من عيوبنا، ويقول في نفسه: «كلنا خبيث.» وينظر الهمجي إلينا من غير أن يهتز، ويقول: «أنتم من المجانين.» وحُقَّ له أن يقول هذا؛ وذلك لأنَّه لا أحدَ يعمل السيئةَ للسيئة، وتلميذي هو هذا الهمجي، وذلك مع الفارق القائل إن إميلَ إذ كان أكثرَ تأمُّلًا ومقابلةً بين الأفكار واطِّلاعًا على أغاليطنا عن كَثَب، يَظهرُ أكثرَ احترازًا نحو نفسِه، ولا يحكم بغير ما يَعلم.

وأهواؤنا هي التي تُثيرُنا على أهواء الآخرين، ومصلحتُنا هي التي تَحمِلُنا على مَقْت الأشرار، وهؤلاء إذا لم يفعلوا بنا سوءًا حَمَلْنا لهم عطفًا أكثرَ من حَمْلنا لهم حِقْدًا، وما يفعل الأشرارُ بنا من سوءٍ يجعلنا ننسى ما يفعلون من سوءٍ نحو أنفسهم، ويسهُل علينا أن نصفحَ عن سيئاتهم إذا ما استطعنا أن نعرفَ مقدارَ تعذيب فؤادهم لهم من أجلها،

---

[٩] المُبْتَسَر هو الذي يثير صولَة الأهواء في قلوبنا دائمًا، ولا يُولَع مطلقًا مَن لا يرى غير ما هو كائن ولا يقدِّر غير ما يَعْرِف، ويؤدي خطأ أحكامنا إلى حرارة رغائبنا.

ونشعرُ بالذنب ولا نرى العِقاب. والمنافعُ ظاهرةٌ والعقوبةُ خافية، ومَن يعتقد أنه يتمتَّع بثمرة عيوبه لا يكون بها أقلَّ عذابًا منه عند عدم نجاحه فيها، والموضوع تَغيَّر، والهمُّ هوَ هو، ومن العبث أن يُظهِروا نصيبهم، وأن يُخْفوا فؤادَهم؛ فسلوكهم يَدُلُّ عليه على الرغم منهم، ولكن لا ينبغي أن يكون لنا مثلُ فؤادهم للاطلاع عليه.

وما نُقاسِم من أهواءٍ يُغوينا، وما يَصدِمنا من مصالحَ يُثيرنا، ومن التناقض الذي يأتينا منها أن نَذُمَّ في الآخرين ما كُنَّا نوَدُّ تقليده، والكراهة والوهم من الأمور التي لا مفرَّ منها عند إلزامنا بأن نعاني من قِبَل الآخر سوءًا نعمله لو كُنَّا في مكانه.

وما يجب أن يُصنع لحُسْن البصر في الرجال؟ كبيرُ مصلحةٍ في معرفتهم، وعظيمُ إنصاف للحكم فيهم، وقلبٌ على شيءٍ من الإحساس لتمثُّل جميع أهواء النَّاس، وعلى شيءٍ من السكون لعدم ابتلائها، وإذا وُجِدَت في الحياة ساعةٌ ملائمةٌ لهذا الدرس كانت تلك التي اخترتُها لإميل. والرجالُ كانوا غُرباء عنه قبل الآن، ثُمَّ يصير من أمثالهم، ولمَّا يَنلِ الرأي الذي يُبصِرُ فعْلَه سلطانًا عليه، ولم يَهُزَّ فؤاده قَطُّ ما يُحِسُّ أثرَه من أهواء، وهو إنسان، ويكترث لإخوانه، وهو عادل، ويحْكم في أقرانه، والواقع أنه إذا ما حكم فيهم جيِّدًا لم يُرِد أن يكون في مكانِ أيِّ واحدٍ منهم مطلقًا، وذلك بما أنه غاية جميعِ ما يُلاقُون من كُروبٍ تقوم على ما ليس عنده من مُبتَسَرات؛ فإن هذه الغاية تلوح له في الهواء، ويكون كلُّ ما يرغب فيه إميل في متناوَله. ومَن يَتْبَعُ إذا ما كفى نفسَه بنفسه وكان خاليًا من المُبْتَسَرات؟ وهو ذو ذراعين وصحةٍ[١٠] واعتدالٍ واحتياجاتٍ قليلةٍ يوجد عنده ما يَقضيها به، وهو إذ نُشِّئَ تنشئةً حُرَّةً مطلقةً عُدَّت العبوديةُ أشدَّ ما يَتصوَّر من آفات، وهو يَرثي لهؤلاء المساكين الذين هم عبيدٌ لجميعِ مَن يطيعونهم، وهو يَرثي لهؤلاء الحكماء الزائفين المقيَّدين بصيتهم الزائف، وهو يرثي لهؤلاء الأغنياء الأغبياء الذين هم ضحايا أُبَّهتهم، وهو يرثي لشهاوَى التفاخر الذين يُسْلِمون حياتَهم كلَّها إلى السَّأَم حتى يَظهروا ذوي ملاذَّ، وهو يرثي لعدوه الذي آذاه لِما يرى من بؤسه في خُبثه، فيقول في نفسه: «إن هذا الرجل جعل مصيره تابعًا لمصيري لانتحاله ضرورةَ الإضرار بي.»

[١٠] أعتقد إمكانَ إقدامي على عدِّ الصحة وحُسن البنية من المنافع التي اكتسبها بتربيته، وإن شئت فقُل من هبات الطبيعة التي حفظتْها له تربيته.

وإذا ما تقدَّمْنا خُطوةً أصبْنا الهدف، والأنانية آلةٌ مفيدة، ولكنها خَطِرة؛ فهي تجرح اليد التي تستعملها، ومن النادرِ أن تفعل خيرًا بلا شرٍّ. وإميل إذ ينظر إلى مرْتبته في النوع البشري، ويرى حُسنَ موضعهِ منها، يُغوَى بتمجيد عقله عن عَمل عقلِكم، فيَعزو إلى مزيته أمرَ سعادته، ويقول في نفسه: «إنني حكيم، والنَّاس مجانين.» وهو إذ يَرثي للناس يزدريهم، وهو إذ يُهنِّئ نفسه يزيد تقديره لنفسه، وهو إذ يَشعُر بأنَّه أكثرُ منهم سعادةً يَعتقد أنه أكثرُ من أهلٍ لها، وهذا أكثرُ ما يُخشى من خطأ؛ وذلك لأنَّه أصعبُ ما يُمكِن أن يُزال، وهو إذا ما بَقيَ في هذه الحال كان قليلَ الانتفاع من جميعِ جهودنا، فإذا ما وجبَ الاختيارُ فلا أدري هل أُفضِّل وهْمَ المُبْتَسَرات على وهْمِ الخُيَلاء.

ولا يتطرقُ الوهمُ إلى أعاظمِ الرجال حوْل تفوُّقهم؛ فهم يروْنه ويُحِسُّونه، ولكنهم لا يَقِلُّون عن هذا تواضُعًا، وهم كلَّما حازوا عرفوا كلَّ ما يُعْوِزُهم، وهم أقلُّ غرورًا بارتقائهم فوقنا من هوانهم بما يُحِسُّون من ضَعْفهم، وهم يَبلُغُون من حيث الأموالُ التي يَملِكونها حصرًا درجةً من الصواب ما لا يُغَرُّون معه بعطيَّةٍ لم يصنعوها. أجلْ، قد يَزهو رجلُ الخير بفضيلته لأنها له، ولكن ممَّ يزهو رجلُ الذِّهن؟ وماذا صنعَ راسينُ لكيلا يكونَ برَادُونَ؟ وماذا صنع بوَالُو لكيلا يكونَ كُوتَان؟

والأمرُ هنا شيءٌ آخرُ أيضًا، ولْنبقَ ضِمْن المستوى العام دائمًا، ولم أفترضْ في تلميذي نبوغًا عاليًا ولا تمييزًا واهيًا، وإنما اختَرْتُه من ذوي الأذهان العادية لأثبتَ ما يُمكِنُ أن يكون للتربية من فِعْلٍ في الإنسان، وتكون الشَّواذُّ كلها خارج القواعد، وإذا ما فضَّل إميل، نتيجةً لجهودي، طرازَ حياته وبصره وشعوره على طرازِ الآخرين حُقَّ له ذلك، ولكنه إذا ما ظنَّ نفسَه لهذا السبب من جِبلَّةٍ أرفعَ من جِبلَّتهم ومن أصلٍ أيمنَ من أصلهم عُدَّ مُخطئًا؛ أي ضالًّا، فوجبت إزالةُ ضلاله، وإن شئت فقل تلافي خطئه، وذلك خشيةَ أن يمُرَّ من الوقت ما يكون إصلاح ذلك معه بعد الأوان.

وإذا عدوتَ الزهوَ لم تجدْ جُنُونًا يتعذَّر شفاءُ رجلٍ غيرِ مجنونٍ منه، وأمَّا الزَّهوُ فلا يُقوِّمه غيرُ التجرِبة لو وُجِدَ له علاجٌ حقًّا، والزَّهو يُمكن أن يُحالَ دون استفحاله عند ظهوره على الأقل؛ ولذا فلا تُهلِكوا أنفسَكم بإقامةِ البراهين الجميلة حتى تُثبتوا للمراهقِ أنه إنسانٌ كالآخرين، وأنه عُرضةٌ لعينِ الضَّعف، ودَعُوه يُحِسُّه، أو إنه لن يَعْرِفه مطلقًا. وهنا أيضًا حالٌ استثنائية لقواعدي الخاصة، وهذه هي حالُ عرْض تلميذي طوعًا لجميعِ الحادثات التي يُمكن أن تُثبِتَ له أنه ليس أكثرَ حكمةً مِنَّا، ويُمكن أن تُكرِّر عِرَافةُ المشعوذِ على ألفِ وجه،

وأَتْرُك المُصانعين يستفيدون منه. وإذا حدثَ أنْ ساقَه بعضُ المتهوِّرين إلى بعض الهَوْسات تركْتُه يُقابل الخطر، وإذا ما صاوله بعضُ المُخادعين في اللعب تركتُه يُغَشُّ[١١] من قِبَلِهم؛ أي تركتهم يُدَارُونه ويُداوِرونه ويَنتِفُونه ويَسْلُبونه، وإذا ما أخذوا يستهزئون به بعد استنزافه شكرتُ لهم أمامَه ما تفضلوا بإلقائه عليه من دروس. والأشراكُ الوحيدةُ التي أَقِيه منها بعناية هي أشراكُ بنات الهوى، والمجاملات الوحيدة التي أُحابيه بها هي أن أقاسمه جميعَ أخطاره التي تركته يُعرَّض لها وجميعَ المخازي التي تركته يتلقَّاها، وسأحتمل كلَّ شيءٍ صامتًا، ومن غير تذمُّرٍ وتأنيب، ومن غير أن أقول له كلمةً عن ذلك، وثِقوا بأن هذا السلوكَ الحكيمَ إذا ما حَصَل بإخلاصٍ فإن ما يَرى من احتمالي في سبيله يكون له من الأثرِ البالغِ في فؤاده أكثرَ مما يُعاني بنفسه.

ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التنبيه هنا إلى المقام الزائف للمُعلِّمين، الذين يَرون انتحالَ الحكمة، فيعاملون تلاميذَهم مثلَ الأولاد دائمًا، فيمتازون منهم دائمًا في كلِّ ما يَحمِلونهم على صنْعه، وهكذا ابتعِدوا عن خفضِ إقدامهم الناشئ، ولا تدَّخِروا وُسعًا في رَفْع نفوسهم، واجعَلوهم مساوين لكم حتى يصبحوا هكذا، وإذا لم يستطيعوا الارتقاءَ إليكم أيضًا فاهبِطوا إليهم بلا خَجلٍ ولا وَسْواس، واذكُرُوا أن سعادتكم عادَتْ لا تكون فيكم، بل في تلميذِكم، وشاطروه أوزارَه إصلاحًا لها، واحتملوا خِزْيه مَحوًا له، واقتَدُوا بالروماني الباسل الذي رأى هزيمةَ جيشِه ولم يَقدِر على جَمْع شَمْله، فأخذ يَهرُب على رأس جنوده قائلًا صارخًا: «إنَّهم لا يَفِرُّون، بل يَتَّبِعون قائدَهم.» وهل أُصيبَ بعارٍ من هذا؟ كلَّا، بل زاد مَجْدَه إذْ ضحَّى به على هذا الوجه. ألَا إن قوةَ الواجبِ وجمالَ الفضيلةِ

[١١] وفضلًا عن ذلك، فإن تلميذنا يُغوى بهذا الشَّرَك قليلًا، وهو الذي يحيط به كثيرٌ من اللهو، وهو الذي لم يسأم في حياته، وهو الذي لا يكاد يَعْرِف استعمالَ النقود، وبما أن المصلحة والزهو هما العاملان اللذان يُقاد بهما الأولاد فإن هذَيْن العاملَيْن نافعان لبنات الهوى وللغششة في التغلُّب عليهم فيما بعد. وإذا ما أثرتم طمعَهم بالجوائز والمكافآت، وإذا ما رأيتم أنه يهتف لهم في العاشرة من سنيهم بالمدرسة من أجلِ عملٍ عام؛ أبصرتم كيف يُغرَون في العشرين من عُمُرهم بالتخلي عن كَيسهم في دار قمار أو دار دعارة. ويمكنكم أن تراهنوا دائمًا على أن أكثرَ الأولاد جِدًّا في غرفة درْسِه سيصبح أكبرَ مقامرٍ وداعر. والواقع أنه لا يكون للوسائل التي لا تُستَعمل في الصبا مطلقًا ذاتُ المحذور في الشباب، ولكن لا يغِب عن البالِ أن المبدأ الثابت الذي أتخذه هنا هو إظهار أسوأ ما في الأمر، ومنْع العيب هو أوَّل ما أحاول، ثُمَّ أفترضه لمعالجته.

يجذبان أصواتنا ويُزيلان مُبْتَسَراتنا السخيفةَ على الرغم مِنَّا، فإذا ما صُفِعْتُ حين قيامي بواجباتي نحوَ إميلَ فإنني أُفاخر بهذا في كلِّ مكانٍ بعيدًا من الانتقام لنفسي، ومما أشكُّ فيه وجودُ رجلٍ في العالَم يَبلُغ من اللؤم[١٢] ما لا يَزيد معه احترامًا لي من أجْل ما تقدَّم.

ولا يَعْني هذا أن يَفترضَ التلميذُ في مُعلِّمه معارفَ محدودةً مِثلَ معارفه، ولا سهولةَ إغواءِ مِثلَه، وهذا الرأيُ صالحٌ لولدٍ لا يَعْرِف أن يرى شيئًا، ولا أن يَقيس شيئًا، فيجعلُ جميعَ العالَم في متناوَله، ولا يضعُ ثِقتَه في غيرِ مَن يَعْرِفون وضْع أنفسِهم في مستواه حقًّا. بَيْدَ أن فتًى في مِثْلِ سِن إميل متَّصِفًا بمثلِ صوابه لا يَبلغ من السُّخْفِ ما يقترف معه هذا الخطأ، ولا يكون من المرغوب فيه ظهورُه هكذا، ويجب أن يكون اعتمادُه على مُعلِّمه من غيرِ هذا النوع؛ وذلك أنَّ من الواجبِ قيامَ هذا الاعتماد على سلطان العقل وعلى فَضْل المعارف، وعلى ما يكون للفتى من فوائدَ في العِلم بها، فيَشعُرُ بنفعها لنفسه، وقد أقنعَتْه التجرِبة الطويلة بأنه محبوبٌ من قِبَل رائده، وبأن هذا المرشدَ رجلٌ حكيمٌ بصيرٌ راغبٌ في سعادته، عارفٌ بما يُمكن أن يأتيَه بها، ويجب أن يَعْرف أن مصلحته الخاصة تقضي بأن من الملائمِ له أن يستمع إلى نصائحه. والواقعُ أن المُعلِّم إذا ما سمحَ لنفسه بأن تُخدَع مثلَ التلميذ يكون قد أضاع حقَّه في مطالبته بالاحترامِ وفي إلقاءِ دروسٍ عليه، وأقلُّ من هذا وجوبُ افتراضِ التلميذِ تركَ المُعلِّم إياه يقعُ في الأشراكِ قَصْدًا ونَصْبَه حبائلَ لبساطتِه عَمْدًا. وما يجِبُ أن يُصنَع إذنْ لاجتنابِ هذَيْن المحذورَيْن معًا؟ إن أفضلَ ما في الأمرِ وأقربَ إلى الطبيعةِ أن يكون مِثْلَه بسيطًا صادقًا، وأن يُحذِّره من الأخطارِ التي يُعرَّضُ لها، وأن يدُلَّه عليها بوضوحٍ وعلى وجهٍ محسوس، ولكنْ من غيرِ مبالغةٍ ولا هوًى ولا حذلقة، ومن غيرِ أن تُعطوه آراءكم على شكلِ أوامر، وذلك إلى الحين الذي تصبح فيه هكذا، وإلى الحين الذي تغدو فيه لهجةُ الأمرِ هذه ضروريةً حتمًا. وإذا ما الْتَزم جانبَ العناد بعد هذا، كما يقع غالبًا، فلا تقولوا له شيئًا، ودَعُوه يكون طليقًا، واتَّبِعُوه، وقَلِّدوه، ولْيكن هذا بسلامةِ قلبٍ وحسنِ طَوِية، وانْهَمِكوا وتَلهَّوْا مِثلَه ما أمكن هذا، فإذا ما صارت النتائجُ حَرِجةً جِدًّا كنتم على استعدادٍ لوقفها، ومع ذلك فإن الفتى إذا كان شاهدًا على حَذَركم ولطفِكم، فما أكثرَ ما يقِفُ نظرَه أحدُ الأمرَيْن وما يتأثَّر بالآخر! وتُعَدُّ أوزارُه كلُّها روابطَ يُجهِّزُكم بها لردعهِ

[١٢] أخطأت في ظني؛ فقد وجدتُ واحدًا، وهو مسيو فورمه.

عند الضرورة. وأكثرُ ما تتجلَّى به مهارةُ المُعلِّم هنا كما هو الواقع، هو أن يأتي بالفُرَص، وأن يسوقَ النصائحَ على وجهٍ يَعرِفُ به مُقدَّمًا متى يُذْعِنُ الفتى ومتى يَعْنِد، وذلك ليُحاط في كلِّ مكانٍ بدروسٍ من التجرِبة، وذلك من غيرِ أن يُعرَّض للخطر كثيرًا.

وحذِّرُوه من سيئاتِه قبلَ أن يقعَ فيها، وهو إذا ما سَقَطَ فيها فلا تَلُوموه مطلقًا، وذلك لِمَا يؤدِّي إليه هذا من إلهاب أنانيته وإثارتها، وما كان الدرسُ الذي يُثيرُ ليُفيد، ولا أعْرِف ما هو أكثرُ سخافةً من هذه الكلمة: «كنتُ قد قلتُ لك هذا.» وأحسنُ وسيلةٍ تُتَّخذُ لتذكيرِه بما قيل له أن يُتظاهَرَ بنسيانه. وعلى العكس، إذا ما أبصرتموه خَجِلًا من عدم إطاعته لكم، فأزيلوا هذا الخزي بالقول الطيب، وهو يتعلَّق بكم لا رَيْبَ عندما يَرَى نسيانَكم نفسَكم في سبيله، وأنكم تُسَلُّونه بدلًا من أن تَسْحَقوه، ولكنكم إذا ما أضفتم إلى غمِّه تأنيبًا وعتابًا حقد عليكم وانتحل لنفسه دستور عدم الإصغاء إليكم، كأنه يريد أن يثبت لكم أنه لا يُفكِّر مِثلَكم في أهميةِ آرائكم.

وقد يكون الوجهُ الذي تأتُون به تسليتَكم إياه درسًا نافعًا له بمقدارِ عدمِ حَذَره منه، ومتى قُلْتُم له مثلًا، إنَّ ألفًا من النَّاس يقترفون عينَ الخطيئات لم يَكُن هذا ما يَنتَظِر، وتُصلِحونه بظهورِكم متوجِّعين له؛ وذلك لأنَّ هذا عند مَن يعتقد أنَّه أعلى من الآخرين اعتذارٌ مُخزٍ بأن يتأسَّى على مثالهم، ولأن هذا يعني تَمثُّلًا لِكونِ أكثرِ ما يُمكنُ أن يَدَّعيه هو أنهم ليسوا أفضلَ منه.

وزمنُ السيئاتِ هو زمنُ الأمثال، وإذا ما أُنِّبَ المُذنبُ تحت قِناعٍ غريبٍ أُدِّبَ من غيرِ أن يُهان، وهنالك يُدْرِك أن المَثَل ليس كذِبًا، وذلك من حيث الحقيقة التي يُطبِّقها على نفسه. ولا يُدركُ الولدُ الذي لم يُخدَع قَطُّ بمدحٍ شيئًا من المَثَلِ الذي بحثتُ فيه آنفًا، بَيْدَ أن الطائشَ الذي خُدِع بمُصانِعٍ يَتصوَّر تصوُّرًا عجيبًا كوْنَ الغُرابِ ليس غيرَ غبي، وهكذا فإنه يستنبِط مَثَلًا من حادث، وما يَنْسى من تجرِبةٍ حالًا يُنقَشُ بالمَثَل في ذهنه. ولا يوجد من المعارف الأدبية ما لا يمكن اكتسابه بتجرِبة الآخرين أو بتجرِبة نفسه. وإذا ما كانت هذه التجرِبة خطرةً استُنبطت عِبْرتُها من القصة بدلًا من إتيانها فعلًا، ومتى كان الاختبارُ غير ذي بالٍ كان من الحَسَن أن يُعرَّض له الفتى، ثُمَّ يُصاغُ في قالبِ أمثال، وبواسطة الحكاية، ما عَرف من أحوالٍ خاصة.

ومع ذلك فلا أقصِدُ بسطَ هذه الأمثال، ولا التعبيرَ عنها أيضًا؛ فلا شيءَ فارغٌ ولا سيِّءُ الفهْم كالناحية الخُلُقية التي يُختَم بها مُعظَمُ الأمثال، وذلك كما لو كانت الناحية

الخُلُقية غيرَ مبسوطةٍ في المَثَل، أو كان من غيرِ الواجب بسطُها فيه، وذلك على وجهٍ يكون به محسوسًا لدى القارئ! ولِمَ إذن تُضاف هذه الناحية الخُلُقية إلى خاتمة المَثَل، فتُنزَع من القارئ لذَّةُ اكتشافِه لها بنفسه؟ يقومُ فنُّ التَّعليم على جَعْلِ التلميذِ راغبًا في التَّعلُّم، والواقعُ أنه لا ينبغي لرغبته في التعلُّم أن يَبقى ذهنُه من السلبية في كلِّ ما تقولون له ما لا يَصنَعُ معه شيئًا غيرَ الإصغاءِ إليكم، ومما يَجبُ هو أن تَترُكَ أنانيةُ المُعلِّم دائمًا بابًا لتلميذه فيستطيعَ أن يقول: أُدْرِكُ، أُبصرُ، أتقدَّمُ، أتعلَّمُ. ومن الأمورِ التي تجعلُ ممثِّلَ الكُميدْيةِ الإيطاليةِ مُمِلًّا هو ما يُعنى به من إيضاحِه للحضورِ ما كان يُسمَع كثيرًا، ولا أريدُ أن يكون المُعلِّم كذلك الممثِّل مطلقًا، وأقلُّ من ذلك رغبتي أن يكون المؤلِّفُ مِثْلَه، ومما يجب أن يكون ما نقولُ مفهومًا دائمًا. ولكن لا ينبغي أن يُقال كلُّ شيءٍ دائمًا؛ فالذي يقول كلَّ شيء لا يقولُ غيرَ أشياءَ قليلةٍ؛ وذلك لأنه لا يُنصَت له في آخرِ الأمر. وما معنَى هذه الأبيات الأربعة التي أضافها لافُونْتِنُ إلى مَثَلِ الضِّفْدِعة المُنْتفِخة؟ أيَخشَى ألَّا يُفهَم؟ أوَيحتاجُ هذا المصوِّرُ العظيمُ إلى كتابة الأسماء تحت الأشياء التي يُصوِّرُها؟ ويَبعُدُ من تعميمِ ناحيتِه الخُلُقيةِ بذلك، وهو يخصِّصها، وهو يَقْصِرُها من بعضِ الوجوهِ على الأمثلةِ الواردة، وهو يَحُول دون تطبيقها على أمثلةٍ أخرى. وأودُّ قبْلَ وضْعِ أمثالِ هذا المؤلفِ المنقطعِ النظيرِ بين يدي الفتى أن يُحذَف منها جميعُ تلك النتائجِ التي احتملَ مشقةَ إيضاحه بها ما قاله بجلاءٍ وعلى وجهٍ مسْتحسَن، وإذا تلميذُكم لا يَفهمُ المَثَلَ إلا بالإيضاحِ فثِقوا بأنه لن يفهمَه حتى على هذا الوجه.

ومن المهمِّ أيضًا أن تُمنَح هذه الأمثالُ نظامًا أكثرَ تعليمًا وأعظمَ مطابقةً لتقدُّم مشاعر الفتى المراهق ومعارفه، وهل يُتصوَّر شيءٌ أقلُّ صوابًا من اتِّباع الترتيب العددي في الكتاب اتِّباعًا تامًّا مع عدم نظرٍ إلى الاحتياج أو المناسبة؟ فالغُرابُ أوَّلًا، ثُمَّ الزِّيز،[١٣] ثُمَّ الضِّفْدِعة، ثُمَّ البَغلان ... إلخ.

وأرى هذين البغلَين على قلبي؛ وذلك لأنني أذكرُ أنني رأيتُ ولدًا رُبِّيَ للمالية ودُوِّخ بالوظيفة التي يشغلُها، وقد حُمِلَ على قراءةِ هذا المَثَلِ وتعلُّمه وتَكراره مئات المرات من غيرِ أن يجدَ أقلَّ اعتراضٍ على المهنةِ التي أُعِدَّ لها. ولم أرَ قَطُّ أولادًا يُطبِّقون ما يتعلمون

١٣ يجب أن يُطبَّق هنا تصحيح مسيو فورمه أيضًا؛ فالزيز أوَّلًا ثُمَّ الغراب ... إلخ.

من أمثالٍ تطبيقًا وثيقًا فقط، بل لم أرَ قَطُّ أناسًا يُبالون بحَمْلهم على هذا التطبيقِ أيضًا. والتعليمُ الخُلُقيُّ ذريعةُ هذا الدرس، ولكنَّ غَرَضَ الأمِّ والولدِ الحقيقيَّ لا يقوم على غيرِ شَغْلِ جماعةٍ به حين تلاوتِه أمثالَه عن ظهر القلب، وهذا إلى أنه يَنساها كلَّها في كِبَره عندما يَعودُ الأمرُ غيرَ قائمٍ على استظهارها، بل على الاستفادة منها، وهذا إلى أن التثقُّفَ بالأمثالِ لا يَخُصُّ غيرَ الرجال، وها هو ذا وقتُ بدء إميل.

وكذلك بما أنني لا أريد أن أقولَ كلَّ شيء، فإنني أَدُلُّ من بعيدٍ على الطُّرق التي تُبعِدُ من الطريقِ الصالحة؛ وذلك ليُعلَمَ اجتنابُها، وأعتقد أنه إذا ما اتُّبِعَ الطريقُ الذي عُيِّنَ ابتاعَ تلميذُكم معرفةَ الرجال ومعرفةَ نفسه بأرخصِ ما يُمكِن من ثَمَن، وأنكم تُمكِّنونه من تأمُّلِ صُرُوفِ الدهرِ من غيرِ أن يَحسُد المفضَّلين عنده على نصيبهم، راضيًا عن نفسه غير ظانٍّ أنه أكثرُ حكمةً من الآخرين، وقد بدأتم أيضًا بجعله مُمثِّلًا جعْلًا له واحدًا من الحُضور، ويَجبُ الإكمال؛ وذلك لأن الأشياءَ تُرى من أسفل المسرح كما تَبدو. وأمَّا من المسرح فترى كما هي، ولا بُدَّ من الجلوسِ على بُعدٍ للاشتمالِ عليها جميعًا، ولا بدَّ من الدنوِّ لرؤية الجزئيات. ولكنْ بأيةِ حُجَّةٍ يتدخَّلُ الفتى في أمورِ الدنيا؟ وما حقُّه في الاطلاعِ على هذه الأسرار المُدلَهِمَّة؟ إن من مكايدِ اللذةِ ما يُحدِّد مصالحَ سِنِّه، وكذلك فإنه لا يتصرَّف في غيرِ نفسه، وهذا كأنه لا يتصرَّف في شيء، والإنسان أرخصُ السلع، وبين حقوقنا المهمة في التملُّك تجدُ الحقَّ في الشخص أقلَّها جميعًا.

وعندما أرى الفِتْيانَ في سنِّ النشاط البالغ يُقصَرون على دروسٍ نظريةٍ صِرفة، وأنهم يُقذَفون في العالَم وفي الأمورِ دفعةً واحدةً ومن غيرِ أقلِّ تجربة، أجدُ في هذا صدْمًا للعقل والطبيعة معًا، وأعودُ لا أُدهَش من قِلَّة مَن يَعْرِفون ما يصنعون، وبأية ذهنيةٍ غريبةٍ نُعلِّمُ أشياءَ كثيرةً غيرَ نافعة، مع عدمِ عدِّ فنِّ العمل شيئًا مذكورًا؟ يُزْعَم أننا نُعَدُّ للمجتمع، ونُعَلَّم كما لو كان على كلِّ واحدٍ مِنَّا أن يقضي حياتَه في التفكير وحدَه داخل حُجيرته، أو أن يعالجَ موضوعاتٍ باطلةً مع أخلياء. وأنتم تعتقدون أنكم تُعلِّمون أولادكم أمرَ الحياة، وذلك بتلقينهم شيئًا عن التواء العَضَل في البدنِ وصِيَغًا في الكلام لا معنًى لها، وأنا أيضًا علَّمتُ إميلَ أمرَ الحياة؛ وذلك لأنني علَّمتُه الحياةَ مع نفسه، وأن يكسِب عيشَه فضلًا عن ذلك، ولكن هذا لا يكفي؛ فلا بدَّ للحياة في العالَم من معرفةِ معاملةِ النَّاس، ولا بدَّ من معرفةِ الوسائلِ التي يُؤثَّر بها فيهم، ولا بدَّ من تقديرِ الفعلِ وردِّ الفعل للمصلحة الخاصة ضِمنَ

المجتمع المدني، ومن البَصَرِ في الحوادثِ بَصَرًا صائبًا، فيَندُرُ خَدْعُه في مشروعاته، متَّخِذًا في كلِّ وقتٍ أفضلَ وسائلِ النجاحِ على الأقل. ولا تسمحُ القوانينُ للفِتيان بالقيامِ بمصالحهم الخاصةِ والتصرُّفِ في أموالهم الخاصة، ولكن ما نفعُ هذه الاحتياطات لهم إذا لم يستطيعوا حتى السِّنِّ المقرَّرة اكتسابَ أيةِ تجرِبةٍ كانت؟ وما كانوا ليربحوا شيئًا من الانتظار، وهم يكونون في الخامسة والعشرين من سنيهم من الجِدَّة كما لو كانوا في الخامس عشر من عُمُرهم. أجلْ، يجبُ أن يُمنَع الفتى الذي يُعْميه جَهلُه أو تخدعُه أهواؤه من الإضرارِ بنفسه، ولكنه يُسمح للإنسانِ في كل سنٍّ أن يكون محسنًا، ولكنه يُمكِن في كل سنٍّ أن يُحافَظ على التعساء الذين لا يحتاجون إلى غيرِ سَند، وذلك تحت إشرافِ رجلٍ حكيم.

ويتمسَّكُ المَراضِعُ والأمهاتُ بالأولاد لِمَا يبذُلن لهم من رعاية، وتَحمِل ممارسةُ الفضائلِ الاجتماعية حُبَّ الإنسانية إلى صميم الأفئدة، ويُصبحُ الإنسانُ صالحًا بفعل الخير، ولا أعْرِف معروفًا أضمن من هذا مطلقًا، واشغَلُوا تلميذَكم بالأعمال الصالحة التي هي في متناوَله، ولتكن مصلحةُ المعوِزين مصلحتَه دائمًا، ولا يقتصر على مساعدتهم من ماله، بل ليشملهم برعايته، ولْيخدُمهم، ولْيحمِهم، وليقفْ شخصَه ووقتَه عليهم، وليجعل من نفسه وكيلهم؛ فهو لن يقوم في حياته بعملٍ أنبلَ من هذا، وما أكثرَ المظلومين الذين لم يُسمَع لهم قَطُّ فيفوزوا بالعدل عندما يطلبه لهم بثباتٍ عظيمٍ تؤدِّي إليه مزاولةُ الفضيلة، وعندما يقتحم أبوابَ الكُبَراء والأغنياء، وعندما يَبلُغ موطئَ العرش عند الضرورة، إسماعًا لصوت المكروبين المُؤْصَدةِ دُونهم جميعُ المقابلات بسبب بؤسهم، والذين يستحوذ عليهم خوفُ العِقاب على مصائبهم التي ابْتُلُوا بِها، فلا يَجرُءون حتى على التوجُّع منها!

ولكنْ هل نَجعلُ من إميلَ فارسًا دوَّارًا، أو بطلًا للمظلومين نصيرًا، أو خيَّالًا مِغْوارًا؟ وهل يَتدخَّل في الشئون العامة، ويَجعَلُ من نفسه الحكيمَ المدافعَ عن القوانين لدى الكُبَراء والحُكَّام والأمير، ويجعلُ من نفسه المستدعِيَ لدى القضاة والمحامي في المحاكم؟ لا أعْرِف شيئًا من جميعِ هذا، ولا تُغيِّرُ كلمتا المُجُون والاستهزاء شيئًا من طبيعة الأمور، وسيَصْنع كلَّ ما يَعْرِف أنه نافع صالح، ولن يَصْنع ما هو أكثرُ من هذا، وهو يعلَمُ أنه لا نافعَ ولا صالحَ له غيرُ ما يلائم سِنَّه. وهو يعلَمُ أن واجبَه الأوَّل يكون تجاه نفسه، وأن على الفتيان أن يحذروا أنفسهم، وأن يكونوا متحفظين في سلوكِهم، مُحترِمين لمن هم أسنُّ منهم، حافظين للسانهم، مُمسِكين عن القولِ بلا سبب، متواضعين في الأمور الخليَّة، ولكن مع إقدامٍ في صُنْع الخير وجُرْأة في قول الحق. وهذا ما كان عليه أولئك الرومانُ الأماجد، الذين

كانوا قبلَ أن يُقبَلوا في المناصب يَقضُون شبابَهم في تعقُّب المجرمين والدفاع عن الأبرياء من غيرِ أن تكون لهم مصلحةٌ سوى التفقُّه حين خدمة العدل والمحافظة على حُسنِ الأخلاق.

ولا يُحبُّ إميلُ الضوضاءَ ولا الشجارَ بين النَّاس،[١٤] حتى بين الحيوان، وهو لم يُحرِّضْ كلبَيْن على العِراك قَطُّ، وهو لم يحمل كلبًا على تعقُّب سِنَّوْر قَطُّ. وهذه النفس المسالمة هي نتيجة تربيته التي لم تُثِرْ أنانيته ولا زهوًا فيه، فحوَّلته عن طلب ملاذِّه في قهر الآخرين وبؤسهم، ويؤلمه منظرُ الألم، وهذا شعورٌ طبيعي، والذي يجعل الفتى يقسو ويتلذَّذ بمنظرِ تعذيبِ كلِّ ذي حسٍّ هو عَدُّه نفسه معصومًا من ذات الآلام بحكمته أو بأفضليته عن ترديد زَهوٍ، ومن يَكُن وراء متناول الزَّهو لا يُمكِن أن يقعَ في العيب الذي ينشأ عن الزهو؛ ولذا فإن إميلَ يحب السلام، ويَسُرُّه خيالُ السعادة، وهو إذا ما استطاع المساعدةَ على إحداثِها كانت هذه وسيلةً إضافيةً لمشاطرة النَّاس إياها، ولم أفترضْ أنه حين رؤيته التعساءَ لا يكون لديه غيرُ تلك الرحمة الجديبة الجافية التي تكتفي بالرِّثاء لكروبٍ تستطيع أن تَشفي منها، ومن شأنِ خَيْره الفعَّال أن يَمنَحه من فوْرِه معارفَ ما كان لِيَنالَها مطلقًا بقلبٍ أشدَّ

[١٤] ولكن ما يكون سلوكه إذا ما شاجره آخر؟ أجيب عن هذا بقولي إنه لن يكون عرضة لشجارٍ ما دام في وضْعٍ لا يعرض معه لشجار، ولكن يُعقَّب على هذا بأن يُسأل: من ذا الذي يكون في مأمنٍ من صفعةٍ أو إهانةٍ تصدُر عن فظٍّ أو سكِّيرٍ أو وغدٍ يبدأ بفضْح صاحبه حتى يتلذَّذ بقتله؟ هذا شيء آخرُ؛ فلا يجوز أن يكونَ شرفُ المواطنين ولا حياتُهم تحت رحمةِ فظٍّ أو سكِّيرٍ أو وغد، ولا يستطيع أحدٌ أن يحفظ نفسه من مثل هذا الحادث كما أنه لا يستطيع أن يحفظها من آجرة، وتُعَدُّ الصفعة أو الإهانة التي تنزل وتحتمل من النتائج المدنية التي لا تستطيع أيةُ حكمة أن تمنع وقوعها، ولا تستطيع أية محكمة أن تنتقم للمعتدَى عليه. ونقص القوانين يجعله في هذا مستقلًّا إذن؛ فهنالك يكون وحدَه حاكمًا وقاضيًا بينه وبين المعتدي، ويكون وحدَه مفسِّرًا ومديرًا للقانون الطبيعي، ويكون من الواجبِ عليه إقامةُ العدل، ويمكنه أن يقيمه وحدَه، ولا يوجد في الأرض حكومةٌ تبلغ من السخافة ما تجازيه على إقامته لنفسه في مثل هذه الحال. ولا أقول إنه يجب عليه أن يُقاتل؛ فهذه حماقة، وإنما أقول إنه مُلزَم بإقامة العدل لنفسه، وإنه وحدَه موزِّع له في ذلك. ولو كنت مَلَكًا لأعرضت عن المراسيم الكثيرة الفارغة حول المبارزات ولأجبت بأنه لا يكون هنالك صفعة ولا إهانة في مملكتي مطلقًا، وذلك بوسيلةٍ بالغةِ البساطة لا تتدخل المحاكم فيها أبدًا. ومهما يكن من أمرٍ فإن إميلَ في مثل هذه الحال يَعْرِف ما يجب عليه من عدلٍ لنفسه، كما يَعْرِف العِبْرة التي يأتي بها نفعًا لسلامة ذوي الشرف، ولا يتوقَّف على أثبت الرجال أن يحول دون الإهانة، وإنما يتوقَّف عليه أن يحول دون التفاخر طويلًا بما كان من إهانته.

قسوة، أو إنه ينالها مؤخَّرًا، وهو إذا ما رأى خلافًا بين رفقائه حاولَ أن يُوفِّق بينهم، وهو إذا ما رأى حُزَنَاء بحثَ عن سببِ كرْبهم، وهو إذا ما رأى رجلَين متباغضَين أراد أن يَعْرِف عِلَّة بغضائهم، وهو إذا ما رأى مظلومًا يئن من مظالمِ ذي سلطانٍ وذي ثراءٍ بحثَ عن وسائلَ لرفْع هذه المظالم، وما يساوره من اكتراثٍ لجميع البائسين يجعله يُعنَى بالوسائلِ التي يختم بها بؤسَهم، وما نصنع للانتفاعِ بهذه القابليات على وجهٍ يلائم سِنَّه؟ أن ننظم جهودَه ومعارفه، وأن نستخدم غَيرته لزيادتها.

ولا أَتْعَبُ من قولي مُكرَّرًا: اجْعلُوا جميعَ دروس الفِتيان عمليةً أكثرَ منها كلامية، ولا ينبغي أن يَتعلَّم الأولادُ شيئًا من الكتب يُمكِنُ أن يتعلَّموه من التجربة، ويا لسخافةِ خِطةٍ في تمرينهم على الكلامِ مع عدمِ وجودِ موضوعٍ يتكلَّمون عنه، وفي اعتقادٍ جعلَهم يشْعُرُون، وهم على مقاعدِ المدرسة، بقوةِ لسانِ الأهواء وبجميعِ قوة فنِّ الإقناع، وذلك من غيرِ وجودِ مصلحةٍ في إقناع أحد! ألَا إن جميعَ قواعدِ البيانِ لا تبدو غيرَ هَذَرٍ لِمَنْ لا يَعْرِف استخدامَها نفْعًا له، وما أَرَبُ التلميذ في معرفته كيف شَجَّع أنيبالُ جنودَه على مجاوزة جبال الألب؟ ثِقوا بأنه يكون أكثرَ انتباهًا إلى قواعدِكم لو قلتم له، بدلًا من هذه الخُطَب الفخمة، ما يجب أن يَصنَع لحَمْل مديره على منْحِه عُطْلَة.

ولو أردتُ أن أُلقِي البيانَ على فتًى نَمَتْ جميعُ أهوائه لَعرضتُ عليه بلا انقطاعٍ أمورًا صالحةً لمداراةِ أهوائه، ولدرستُ معه ما يجب أن يتَّخذَ من لسانٍ نحوَ الآخرين حَمْلًا لهم على استحسان رغائبه، بَيْدَ أن إميلَ ليس في وضعٍ ملائمٍ لفنِّ البيانِ بهذا المقدار؛ فهو إذ قُصِرَ تقريبًا على الماديِّ الضروريِّ فإنه أقلُّ احتياجًا إلى الآخرين من احتياج الآخرين إليه، وهو إذْ ليس لديه ما يسألهم عنه لنفسه فإنَّ ما يُريدُ إقناعَهم به لا يَمَسُّه عن كَثَبٍ فيَهُزُّه إلى الغاية؛ ومِنْ ثَمَّ يُرَى أنه يجب أن يكون على العموم ذا لسانٍ بسيطٍ قليلِ المَجاز؛ وذلك لأنه يتكلَّم في أمرٍ مقصودٍ عادةً، ولِيكونَ مفهومًا فقط، وهو قليلُ الحِكَمِ والأمثال؛ وذلك لأنه لم يتعلَّم تعميمَ أفكارِه، وهو قليلُ الصور؛ وذلك لأن من النادرِ أن يكون هاويًا.

ومع ذلك، فليس ذلك لأنه فاترُ المِزاج باردٌ تمامًا؛ فلم تَكُن سِنُّه ولا أذواقُه ولا أخلاقُه لِتَسْمح بذلك، وهو في دَوْرِ مراهقتِه الناريِّ تَحْمِلُ الأرواحُ المُنْعِشةُ، المحتَرِسةُ المقطَّرةُ المكرَّرةُ في دمه، إلى قلبه الفتيِّ حرارةً تَلْمعُ في نظراته، وتُحَسُّ في كلامِه وتُبصَرُ في أعمالِه، وقد اكتسب مَنطِقُه نبرةً، وصوْلةً أحيانًا، وما يُلهِمُه من شعورٍ نبيلٍ يَمنحُه القوةَ والرِّفعة، وبما

أنه أُشْرِبَ حُبَّ الإنسانيةِ الرقيقَ فإنه يُفضي حين يتكلَّم بخواطرِ قلبِه، ولا أعْرِفُ كيف هذا، ولكن يوجد في صدقِ طويَّته من الفُتون ما هو أعظمُ مما يوجد في بلاغةِ الآخرين المصنوعة، وإن شئتَ فقُل إنه وحدَه هو البليغُ حقًّا ما كان عليه أن يُظْهِرَ ما يَشعُرُ به لِينقلَه إلى مَن يستمعون له.

وكلَّما فكرتُ في ذلك وجدتُ حين أضعُ حُبَّ الخيرِ موضعَ العملِ على ذلك الوجه، وحين أستنبِطُ من توفيقنا الحسنِ أو السيئِ تأمُّلاتٍ حولَ أسبابِه، معارفَ نافعةً قليلةً لا يُمكِنُ تعهُّدُها في رُوح الفتى، وأن هذا الفتى يكتسب زيادةً على ذلك، ومع ما يُمكن اكتسابُه في المدارسِ من معرفةٍ صحيحة، علمًا أكثرَ أهميةً أيضًا، وهو تطبيقُ هذا المُكْتَسَب على أغراضِ الحياة، وإذا ما بَلَغَ ذاك المقدارَ من الاكتراث لأمثاله لم يَكُنْ من الممكن ألَّا يتعلَّمَ باكرًا وزْنَ أعمالِهم وأذواقهم وملاذِّهم وتقديرَها، وألَّا يجعلَ على العموم، لِمن يُمكِن أن يساعدَ سعادةَ النَّاسِ أو يضُرَّها قيمةً أقومَ مما يجعلُ لمن لا يُبالون بأحدٍ فلا يَصْنعون للآخرين شيئًا مطلقًا، ويُرَى الذين لا يُعْنَون بغيرِ أمورِهم الخاصةِ كثيري الوَلَع بالحُكم في الأشياء حكمًا سَديدًا، وذلك أنهم إذ يَعُدُّون كلَّ شيء مؤثِّرًا فيهم وحدَهم، ويُنظِّمون مبادئَ الخيرِ والشَّرِ وَفْقَ مصلحتِهم الوحيدة، يملئون نفوسَهم بألفِ مُبْتَسَرٍ مُثيرٍ للسخرية، وأنهم يرون من فوْرهم انقلابَ جميعِ العالمِ في كلِّ ما يُصيب أقلَّ منفعةٍ لهم.

ولْنَجعلِ الأثَرةَ شاملةً للآخرين، ولْنحوِّلها إلى فضيلة، والفضيلةُ هي ما لا يوجدُ فؤادٌ لا يكون جذرُها فيه، وكلَّما قلَّ ارتباطُ غَرضِ جهودِنا فينا مباشرةً قلَّ الخوفُ من وَهمِ المصلحةِ الخاصة، وكلَّما عُمِّمَت هذه المصلحةُ صارت منصفة، وليس حُبُّ الجنس البشري شيئًا غيرَ حُبِّ العدل فينا، وإذا ما أردنا أن يُحِبَّ إميلُ الحقيقةَ إذن وإذا ما أردنا أن يَعْرِفها، فلْنُمسِكه بعيدًا من نفسه دائمًا، وكلَّما وقفَ جهودَه على سعادةِ الآخرين كانت هذه الجهودُ نيِّرَةً حكيمة، وقَلَّ خَدْعُه في الخيرِ والشَّر، ولكنْ لا نسمحْ له بأن يأتي أيَّ تفضيلٍ أعمَى قائمٍ حصرًا على المحاباةِ وسبْقِ المَيْل المخالف للعدل، ولِمَ يؤذي فردًا خدمةً لآخر؟ إن مما يهمُّه قليلًا أمْرُ مَن يَقَعُ عليه أعظمُ سعادةٍ في القِسْمة بشرطِ أن يساعدَ على أعظمِ سعادةٍ للجميع؛ فهناك مصلحةُ العاقلِ الأُولى بعد مصلحته الخاصة؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ جزءٌ من نوعه، لا جزءٌ من فردٍ آخَر.

ويجِبُ لِلحَوْلِ دونَ تدَنِّي الرحمةِ إلى ضَعف، أن تُعَمَّم إذن، فتُنشَرَ بين جميعِ الجنس البشري، وهنالك لا يُسترسَلُ فيها إلا بمقدارِ اتِّفاقها مع العَدل؛ وذلك لأن العدلَ بين جميعِ الفضائلِ هو أكثرُها مساعدةً على النفع العام. ويقضي العقلُ وحبُّنا لأنفسنا أن تكون رحمتنا لنوعنا أكثرَ مما لجارنا؛ فمنِ القسوةِ الكبيرةِ على النَّاس أن يُرحَم الأشرار.

ولكنَّ مما يجِبُ تذكُّرُه هو أن جميعَ هذه الوسائلِ التي أقذِف بها تلميذي خارجَ نفسه هكذا ذاتُ صلةٍ مباشرةٍ به في كلِّ وقتٍ مع ذلك ما نشأت عنها لذَّةٌ باطنيةٌ فضلًا عن كوني أعملُ لتعليمه الخاص؛ إذْ أجعلُه محسنًا نفعًا للآخرين.

والوسائلُ هي أوَّلُ ما قدَّمتُ، والآنَ أُرِي نتيجتَها، ويا للمناظر الكبرى التي أرى انتظامَها في رأسه شيئًا فشيئًا! ويا للمشاعر الرفيعة التي تُطفئُ في فؤاده أصلَ الأهواءِ الحقيرة! ويا لصفاء التمييز وسَداد العقل اللذين أُبصِرُ تكوينَهما فيه بفِعْل الميول المُهذَّبة والتجرِبة التي تَجمعُ آمالَ النفسِ العظيمة ضمْن حَدِّ الممكنات الضيق، والتي تَجعلُ الرَّجلَ الذي يعلو الآخرين يَعرِف أن يَهبِطَ إلى مستواهم لعجزِهم عن الارتقاء إلى مستواه! إن مبادئَ العدلِ الحقيقيةَ ونماذجَ الجَمال الحقيقية وجميعَ صلات النَّاس الأدبية وجميعَ آراء النَّاس في النظام تُنقَشُ ضِمنَ إدراكِه، فيَرَى مكانَ كلِّ شيء والسببَ الذي يُبعِدُه منه، ويَرى ما يُمكِن أن يوجِبَ الخيرَ وما يَمْنَعه، وهو من غيرِ شعورٍ بالأهواء البشرية يَعْرِف ما يُسفِر عنها من أوهامٍ وعمل.

وأتقدَّمُ مسوقًا بقوةِ الأمور، ولكن من غيرِ أن أفْرِض نفسي مُتحكِّمًا في أحكام القُرَّاء، والقُرَّاء ما انفكُّوا يَرونَني في بلدِ الأوهامِ منذُ زمنٍ طويل. وأمَّا أنا، فما فتئتُ أراهم في بلد المُبْتَسَرات، وما فتئتُ بابتعادي عن الآراء العامية كثيرًا، أراهم ماثلين في ذهني وأدرُسُهم، وأفكِّر فيهم، لا لأتَّبِعهم ولا لأتجنَّبهم، بل لِأزِنَهم بميزانِ البرهان، وفي كلِّ مرةٍ يَحمِلُني البرهانُ على الابتعادِ عن هذه الآراء العامية أعلمُ عن تجرِبةٍ أن قُرَّائي لا يُقلِّدونني، وأعْرِف أنهم إذ يُصِرُّون على عدمِ تصوُّرهم مُمكِنًا غيرَ ما يَرون، يَعُدُّون الفتى الذي أُصَوِّره موجودًا خياليًّا وهميًّا لاختلافه عمَّن يقابلون بينه وبينهم، وهم يَنسَوْن أنه يجبُ أن يختلفَ عنهم ما دام قد نُشِّئ على غيرِ ما نُشِّئوا، وتأثَّرَ بمشاعرَ مغايرةٍ لما هم عليه، وتَعلَّمَ على خلافِ ما تعلَّموا، فتكون مشابهتُه لهم أدعى إلى الحَيرة من ظهوره كما أفترضُه، وهو ليس إنسانَ الإنسان، بل إنسانُ الطبيعة، ولا مِراءَ في وجوبِ كونه غريبًا في أعينهم كثيرًا.

وإني حين بدأتُ هذا الكتابَ لم أفترضْ شيئًا لم أستطِع أن أُلاحظَه أنا والآخرون، وأعْني بذلك ولادةَ الإنسانِ التي هي نقطةُ انطلاقٍ نسيرُ منها جميعًا على السواء، ولكننا كلَّما تقدَّمْنا ابتعدَ بعضُنا عن بعضٍ لمراعاتي الطبيعةَ ولإفسادكم إياها، وكان تلميذي وهو في السادسةِ من سِنيه يختلفُ عن تلاميذكم قليلًا، لِمَا لم يكن لديكم من الوقت ما تُشوِّهونهم معه، والآن عاد لا يوجد شيءٌ يتشابهون به، ومما يَجب هو أن تُبديَه سنُّ الرجولة التي يدنو منها على شكلٍ مُطلَقِ الاختلاف عنهم ما لم أكنْ قد أضعتُ جميعَ جهودي. أجلْ، قد تكون كميَّةُ المُكتَسَب متساويةً لدى الطَّرَفَين، بَيْدَ أن الأمورَ المكتسَبة لا تتشابه مطلقًا، ومن دواعي حَيرتكم أن تَجِدوا لدى واحدٍ من المشاعر العالية ما لا يُوجَدُ لدى الآخرين أقلُّ أصلٍ له، ولكن اذكروا أيضًا أن هؤلاء صاروا فلاسفةً ولاهوتيين قبل أن يَعْرِف إميلُ ما الفلسفة، وقبلَ أن يسمع قولًا حتى عن الرَّب.

وإذا أتيتم وقلتم لي: «لا يُوجَد أحدٌ ممن تَفترض، ولم يُصنَع الفِتيانُ على هذا الوجهِ مطلقًا، وعندهم هذا الهوى أو ذاك، وهم يفعلون هذا أو ذاك.» كان هذا كإنكاركم إمكانَ وجودِ شجرةِ كُمَّثرى كبيرة؛ وذلك لأنه لا يُرى غيرُ أشجارِ كُمَّثْرى قصيرةٍ في حدائقنا.

وأرجو من هؤلاء القضاةِ المُسرعين في اللومِ أن يذكرُوا أن ما يقولون هناك مما أَعْرِفُ كما يَعْرِفون، وأن من الراجحِ أن فكَّرْتُ فيه مليًّا، وأنه يَحِقُّ لي وليس لي غرضٌ في فرضه أن يُنفِقوا من الوقت على الأقل ما يبحثون فيه عمَّا أُخدَع منه، ولْيبحثوا جيِّدًا في كيان الإنسان، ولْيتتبعوا مراحلَ نشوء القلب الأُولى في هذا الحال أو ذاك، لِيرَوْا مقدارَ ما يُمكن الفردَ أن يختلف عن الآخر بقوة التَّربية، ثُمَّ ليُقابِلوا بين منهاجي في التَّربية والنتائجِ التي أعْزوها إليه، ولْيقولوا وجهَ الخطأ في بياني؛ فهنالك لا يكون لديَّ ما أُجيب عنه.

والذي يجعلني أكثرَ توكيدًا لذلك وأهلًا للمعذرة عن ذلك، كما أعتقد، هو أنني أقلُّ ما يُمكِنُ التفاتًا إلى البرهان، وأنني لا أعتمد على غيرِ المشاهدة، وذلك بدلًا من استنادي إلى أيِّ مذهب، ولا أُقيم أفكاري على ما تخيَّلتُ مُطلَقًا، بل على ما رأيتُ. أجلْ، إنني لم أَحصُر تجارِبي ضِمن أسوار مدينة، كما أنني لم أَقصُرْها على طبقةٍ واحدةٍ من النَّاس، بَيْدَ أنني بعد أن قابلتُ بين كثيرٍ من الطبقات والشعوب التي أمكنني أن أراها في حياةٍ قُضِيتْ في ملاحِظتها، حذفتُ كأمرٍ مصنوعٍ ما هو من شعبٍ لا من آخر، وما هو من طبقةٍ لا من أخرى، ولم أَعُدَّ على أنه خاصٌّ بالإنسان خصوصًا لا ريبَ فيه، غيرَ ما هو مشتركٌ بين الجميع في أيِّ دورٍ من العُمُر كانوا، ومن أيةِ طبقةٍ كانوا، وإلى أيةِ أمةٍ انتسَبوا.

والواقع أنكم إذا كنتم وَفْقَ هذا المنهاجِ تتعقَّبون منذ دَور الصِّبا فتًى لم يكتسبْ شكلًا خاصًّا مطلقًا، فيكون أقل ما يُمكن اتِّباعًا لسلطان الآخرين وآرائهم، فهل تَرون أنه يكون أكثرَ مشابهةً لتلميذي أو لتلاميذكم؟ فهذه هي المسألةُ التي يَلوح لي وجوبُ حلِّها ليُعرَف هل أنا على ضلال.

ولا يَسهُل على الإنسان أن يبدأ بالتفكير، ولكنه إذا ما أخذ يُفكِّر لم ينقطعْ عن التفكير مطلقًا، ومَن يُفكِّر يُفكِّرْ دائمًا، وعندما تُمرَّن قوَّةُ الإدراك على التأمُّل ذاتَ مرةٍ تَعُود غيرَ قادرةٍ على البقاء ساكنة، ويمكن أن يُعتَقَد أنني أفعل كثيرًا أو قليلًا، وأنه ليس من طبيعة الإنسان أن يتفتح سريعًا، وأنني بعد أن أُعطيَ من التسهيل ما ليس لديه، أُمسِكه لطويلِ زمنٍ مقيَّدًا ضِمْن دائرةٍ من الأفكارِ يجبُ أن يجاوزها.

ولكن اذكُروا أوَّلًا أنني حين أريدُ تكوينَ إنسانِ الطبيعة لا أودُّ أن أجعلَ منه لهذا السبب وحشيًّا وأن أُقصيه إلى وَسَطِ الغاب، وإنما يكفيه وهو محصورٌ داخل عاصفة المجتمع ألَّا تسوقه أهواءُ النَّاس ولا آراؤهم، وأن يرى بعينيه ويشعر بقلبه، وألَّا يسيطر عليه سلطانٌ خارجَ سلطانِ عقله الخاص. ومن الواضح في هذا الوضْعِ أن كثرةَ الأمورِ التي تقِف نظره، ووفرةَ المشاعرِ التي تؤثِّر فيه، ومختلفَ الوسائلِ التي تُقضَى بها حاجاتُه الحقيقيةُ؛ أشياءُ يَجِبُ أن تُعطيه من الأفكار الكثيرة ما ليس لديه، أو ما يكتسبه رُويدًا رويدًا، وقد عُجِّلَ تقدُّم الذهن الطبيعي، ولكنه لم يُقلَب. والإنسانُ الذي يجب أن يبقى غَبيًّا في الغاب، يجب أن يغدوَ عاقلًا رصينًا في المُدُن إذا ما كان ناظرًا بسيطًا فيها، ولا شيءَ أصلحُ لِجَعْلِ الإنسانِ حكيمًا من الحماقات التي يراها من غيرِ أن يشترِكَ فيها، حتى إن الذي يشترِكُ فيها يتعلَّمُ أيضًا بشرطِ ألَّا يُخدَع بها، وألَّا يَحمِلَ إليها خطأَ مَن يأتونها.

واذكُروا أيضًا أننا إذْ نُقصَر بأهلياتنا على الأمورِ المحسوسة، لا نكاد نجد سبيلًا إلى المبادئ الفلسفية المجرَّدة وإلى الأفكار الذهنية الصِّرفة، ويجب لبلوغها أن نتخلَّص من الجسم الذي نرتبط فيه ارتباطًا وثيقًا، أو أن نتقدَّم بالتدريج وعلى مَهْلٍ من شيءٍ إلى آخر، أو أن نجاوز الفاصلة بسرعةٍ وبوثبةٍ واحدةٍ تقريبًا وبخطوةٍ هائلةٍ لا تُستطاع في دَور الصِّبا، بُخطوةٍ تقتضي القيامَ بعدَّةِ درجاتٍ تُصنَع حتى للرجال قصْدًا. والفكرُ المجرد الأوَّل هو أُولى هذه الدرجات، ولكنه يَشُقُّ عليَّ كثيرًا أن أرى كيف يَعِنُّ للبالِ صنعُها.

وإن الموجودَ غيرَ المفهوم، والمحيطَ بكلِّ شيء، وواهبَ الحركةِ للعالم، وصانعَ نظام الكائنات؛ لا تُدركه الأبصار، ولا تَلْمسه الأيدي، ولا تَناله حواسُّنا؛ فالصنع بادٍ، ولكن الصانع خافٍ، ثُمَّ إن معرفةَ وجوده ليست من الأمورِ الصغيرة، ومتى بلغنا هذا ومتى سألنا: مَن هو؟ أين هو؟ اضطرب ذهنُنا وتاه، وعُدنا لا نعرِفُ فيمَ نُفكِّر.

ويريدُ لوكُ أن يُبدأ بدراسةِ الأرواح، وأن يُنتَقل بعد ذلك إلى دراسة الأجسام، وهذا هو مِنْهاج الخرافات والمُبْتَسَرات والضلال، وليس هذا مِنهاج العقل مطلقًا، ولا مِنهاج الطبيعة المتقَنةِ التنظيمِ أيضًا، وهذا هو إغماض العيون لتعلُّم الرؤية، ولا بدَّ من دراسة الأجسام زمنًا طويلًا حتى يمكنَ تكوينُ فكرٍ صحيحٍ عن الأرواحِ ويُتصوَّرَ أنها موجودة، ولا يَصلُح النظامُ المعاكسُ لغيرِ قيامِ الدهرية.

وبما أن حواسَّنا هي أُولى معارفنا، فإن الموجوداتِ الماديةَ المحسوسةَ وحدَها هي التي تكُون لدينا فكرةٌ مباشرةٌ عنها، وليس لكلمة «روح» أيُّ معنًى لمن لم يتفلسف. وليس الروح غير جسمٍ لدى العوام والأولاد، أَوَلَا يتصوَّرون أرواحًا تَصيح وتتكلَّم وتُحدِث ضجيجًا؟ والواقعُ أنه سيُعترَفُ لي بأن هناك أرواحًا لها ذُرعانٌ وألسنةٌ تُشابه الأبدانَ كثيرًا؛ ولذا ترى جميعَ أممِ العالم، ومنها اليهود، قد جعلت لها آلهةً ذوي أجسام، وتَرانا أيضًا من المُشبِّهة بكلمات الروح والثالوث والأقانيم، وأعترف بأننا نُعلِّمُ أن نقول إن الله في كل مكان، ولكننا نعتقد أن الهواء في كلِّ مكان أيضًا؛ أي في جَوِّنا على الأقل. ولا تَعني كلمةُ «روح» في أصلها غيرَ «نَسمة» و«ريح»، وإذا ما عَوَّدتم النَّاسَ على قول كلماتٍ من غير أن يدركوها سَهُل عليكم بعد ذلك أن تجعلوهم يقولون كلَّ ما تريدون.

ويَحْمِلُنا حِسُّ تأثيرنا في الأجسامِ الأخرى على اعتقادنا في البُداءة أنها حين تُؤثِّرُ فينا يكون تأثيرُها مشابهًا للوجه الذي نؤثِّرُ به فيها، وهكذا فإن الإنسان بدأ بإحياءِ جميع الموجودات التي كان يُحِسُّ تأثيرَها، والإنسانُ إذ شَعر بأنه أقلُّ قوةً من مُعظَم هذه الموجودات، عن عدم علمٍ بحدود قدْرتها، افترض أنه لا نهاية لهذه القدرة، فجعلَ منها آلهةً حالما جعلَ منها أجسامًا، والنَّاسُ في الأجيال الأُولى إذ خافوا كلَّ شيءٍ لم يرَوْا موتًا في الطبيعة، ولم تكن فكرةُ المادة أقلَّ بطوءًا في تكوُّنها باطنًا من فكرة الروح ما دامت هذه الفكرة تجريدًا بنفسه. وهكذا فإنهم ملئوا الكونَ بآلهةٍ ذوي إحساس، فكان لكلٍّ من النجوم والرياح والجبال والأنهار والشجر والمدن، حتى البيوتِ، روحُه وإلهه وحياته. وكانت أصنامُ لابان ومعبودات المتوحشين وأوثان الزنوج وجميعُ أعمالِ الطبيعةِ والنَّاسِ

أوَّلَ آلهة للأنام، وكان تعدُّد الآلهة أوَّلَ دِينٍ لهم، وكانت الوثنيةُ عبادتَهم الأُولى، وهم لم يستطيعوا الاعترافَ بإلهٍ واحدٍ إلا بعد أن عمَّموا أفكارَهم مقدارًا فمقدارًا، فأصبحوا في حالٍ يرتقون به إلى العلة الأُولى ويَجمعون معه نظامَ الموجودات الشامل تحت فكرةٍ واحدة، ويُطلِقون معنًى على كلمة «الجَوهر» التي هي أعظمُ المجردات في الأساس؛ ولذا فإن كلَّ ولدٍ يؤمن بالله وثنيٌّ بحكم الضرورة، أو إنه مُشبِّهٌ على الأقل. وإذا حَدث أن أبصر الخيالُ الربَّ ذات مرةٍ كان من النادرِ تمثُّله بقوة الإدراك، وهذا هو الخطأ الذي يؤدي إليه مذهب لوك.

فأما وقد انتهيتُ، ولا أدري كيف، إلى فكرةِ الجوهر المجرَّدة، يُرى للتسليم بالجوهر الفرْد أنه يجب أن تُفترض له خاصيَّاتٌ متناقضةٌ متنافيةٌ تبادلًا كالتصوُّر والحجم القابل أحدهما للانقسام واللذين ينفي الآخرُ منهما كلَّ قابليَّةٍ للانقسام، ثُمَّ إن مما يُدرَك كونَ التصوُّرِ — وإن شئت فقُل الإحساس — خاصيَّةً أصليةً غيرَ قابلة للانفصال عن الجوهر المُتعلِّقة به، وقُل مثلَ هذا عن الحجم بالنسبة إلى الجوهر؛ ومِنْ ثَمَّ يُستنتج كونُ الموجودات التي تفقد إحدى هذه الخاصيات تفقد الجوهرَ الذي تتعلَّق به، وكون الموت ليس سوى تفرُّق الجواهر، وكون الموجودات التي تتَّحد فيها هاتان الخاصيتان مؤلفةً من جوهرين تتعلَّق بهما هاتان الخاصيتان.

والآن اذكروا، كما هو الواقع، أيُّ بُعدٍ لا يزال باقيًا بين مبدأ الجوهرَيْن ومبدأ الطبيعة الإلهية، وبين المبدأ غيرِ المُدرَك عن عَمَلِ روحنا في بدننا ومبدأ عَمَلِ الرَّبِّ في جميع المخلوقات، وكيف تتمثَّل مبادئُ الخَلْقِ والزوال والوجود في كلِّ مكانٍ والأزلية والقدرة المطلقة ومبدأ الصفات الإلهية، كيف تتمثَّل هذه المبادئ التي ينفرد أناسٌ قليلون إلى الغاية برؤيتها بالغةَ الإبهامِ والغموضِ كما هي، والتي لا غموض فيها لدى العوامِّ لعدمِ إدراكهم شيئًا منها، كيف تتمثَّل بجميعِ ما فيها من قوة؛ أي بجميع ما فيها من غُموضٍ، لفتيانٍ لا يزالون يُشغَلون بأعمال الحواسِّ الأُولى، ولا يتصوَّرون غيرَ ما يَلمِسون؟ ومن العبثِ أن تكون هُوَى اللَّانهائي كلُّها مفتوحةً حَوْلنا، ولا يَعْرِفُ الولدُ أن يَخافها مطلقًا، ولا تستطيع عيناه الضعيفتان أن تَسبُرا غوْرَها، وكلُّ شيءٍ لا نِهائيٌّ عند الأولاد، ولا يَعْرِفُ الأولادُ أن يضعوا حدودًا لشيء، لا لأنهم يجعلون القياسَ طويلًا جِدًّا، بل لأن إدراكهم قصيرٌ حتى إنني لاحظتُ وضعهم اللانهائي دون الأبعاد التي يَعْرِفون. وهم يُقدِّرون المسافةَ الواسعةَ بأرجلهم أكثرَ مما بأعينهم، ولا تمتدُّ المسافة عندهم إلى أبعدَ مما يُمْكنُهم أن يروْا، بل لا تمتد إلى أبعدَ

مما يُمكِنهم أن يَسيروا. وإذا ما حُدِّثوا عن قدرةِ الربِّ قدَّرُوه بالغًا مثلَ قدرةِ أبيهم تقريبًا. وبما أن معرفتهم في كلِّ أمرٍ تكون عندهم مقياسًا للممكنات، فإنهم يحكمون فيما يُقال لهم دائمًا بأنه أقلُّ مما يَعْرِفون؛ فهذه هي الأحكامُ الطبيعيةُ التي تصدُر عن ذهنٍ جَهُولٍ ضعيف. وقد خشيَ أَجَكْسُ أن يُقاس بأشيلَ، وقد دعا جوبيتر للقتالِ عن معرفةٍ بأشيلَ وعدمِ معرفةٍ بجوبيتر، وقد كان أحد قَروِيي سويسرة يظنُّ أنه أغنى النَّاس، فلما أُوضِحَ له شأنُ الملِك سأل مختالًا: «هل يستطيع الملك أن يَملِكَ مائةَ بقرةٍ في الجبل؟»

وأُبصِرُ كثرةَ القراء الذين يَحارُون من تَتبُّعي الدورَ الأوَّلَ من عُمُر تلميذي من غير أن أُحدِّثه عن الدِّين، وقد كان ابنًا للخامسةَ عشرةَ من سِنيه لا يَعْرِف هل له روح، ومن المحتملِ أنه إذا ما بلغ الثامنةَ عشرةَ من سِنيه لم يَحِلَّ من الوقت ما يتعلَّم معه هذا؛ وذلك لأنه إذا ما تعلَّمه بأسرعَ ممَّا يجبُ تعرَّض لخطرِ عدمِ تعلُّمه مطلقًا.

ولو كان عليَّ أن أصوِّر الغباوةَ المُغِمَّة لصوَّرتُ متحذلِقًا يُعلِّم الأولادَ كتابَ الدين، ولو أردتُ أن أجعلَ الولدَ مجنونًا لحملتُه على إيضاحِ ما يقول عند قراءته كتابَ دينه، وسيُعتَرَض عليَّ بأن يُقالَ إن أكثرَ العقائدِ النصرانية إذْ كانت أسرارًا فإن انتظار الدَّور الذي تصير فيه نفسُ الإنسان قادرةً على إدراكها، يَعني انتظارَ تحوُّلِ الولدِ إلى رجل؛ أي انتظارَ غُدوِّ الرجلِ غيرَ موجود. وأوَّلُ ما أُجيب به عن هذا وجودُ أسرارٍ يتعذَّر على الرجلِ أن يتمثَّلها فضلًا عن اعتقادها، ولا أرى ما يُكسَبُ من تعليمِ الأولادِ إياها غيرَ تدريسهم الكذِب باكرًا، وأقول زيادةً على ذلك، إن الإقرارَ بالأسرارِ يقضي بإدراكِ كونِها لا تُدْرَك على الأقل، ولا يَقدِر الأولادُ حتى على ذاك الإدراكِ؛ ففي السِّن التي يكون كلُّ شيءٍ سرًّا فيها لا تُوجَد أسرارٌ حَصْرًا.

«يجب أن نؤمن بالله إذا أردنا النجاة»؛ فهذه العقيدةُ التي أُسيء إدراكُها هي أصلُ عدمِ التسامحِ السَّفَّاح، وهي سببُ جميعِ تلك التعاليم الباطلة التي تُصيب العقلَ البشريَّ بضربةٍ قاضيةٍ عن تعويده القناعةَ بالكلمات، ولا مِراءَ في أنه يجب عدمُ إضاعةِ ساعةٍ لاستحقاق النجاةِ الأبدية، بَيْدَ أنه يكفي تَكرارُ بعضِ الألفاظ لِنَيلها، ولا أرى ما يمنع من إعمارِ السماءِ بالزَّرازير والغِرْبان كما بالأولاد.

ويَفترض واجبُ الإيمانِ إمكانَ الإيمان، ويُخطِئُ الفيلسوفُ الذي لا يؤمن؛ وذلك لسوء استعماله العقلَ الذي تَعهَّده، ولأنه في حالٍ يُدرِك بها الحقائقَ التي يَنبذها، ولكن ما يعتقد الولدُ الذي يَدِين بالنصرانية؟ يَعتقِد ما يُدرِك، وهو من قلةِ إدراكِ ما يُحمَلُ على قوله ما إذا

قُلْتم له العكسَ سَلَّم به طوْعًا أيضًا، ويُعَدُّ إيمانُ الأولادِ وكثيرٍ من الرجالِ أمرًا جِغرافيًّا، وهل يُكافئون على ولادتِهم في رومةَ أكثرَ مما في مكَّة؟ يُقال لأحدهم إن مُحَمَّدًا رسولُ الله، فيقول إن محمدًا رسولُ الله، ويُقال لآخرَ إن مُحَمَّدًا ماكرٌ، فيقول إن مُحَمَّدًا ماكرٌ، وكان كلُّ واحدٍ يؤكِّد ما يؤكِّد الآخرَ لو غيَّر مكانه. وهل يُمكن أن يُسارَ عن مقصدَين متشابهَين إلى الغاية، فيُرسَلَ أحدُهما إلى الجنة والآخرُ إلى النار؟ وإذا قال الولد: أُومن بالله، فليس الله هو الذي يؤمن به، بل يؤمن ببطرسَ أو بيعقوبَ الذي يقول له إنه يُوجَد شيءٌ يُسمَّى الرب، وهو يؤمنُ به على طريقة أُوريبيدِس القائل:

أيْ جُوبيتر الذي لا أَعرِفُ منه غيرَ اسمِه![15]

ونَذهب إلى أن كلَّ ولدٍ يموتُ قبلَ سِنِّ العقلِ لا يُحرَم السعادةَ الأبدية، ويعتقد الكاثوليكُ عينَ الشيء عن كلِّ ولدٍ عُمِّدَ وإن لم يسمعْ حديثًا عن الله، وتُوجَد إذن أحوالٌ تُمْكِن النجاةُ بها من غيرِ إيمانٍ بالله، وتكون هذه الأحوالُ في الوَلُودِية وفي الجُنون حينما يَعجِزُ الروحُ البشري عن الأفعالِ اللازمة لمعرفة الله، ويقوم الخلافُ الذي أراه هنا بيني وبينكم على زعْمكم أن الأولادَ حائزون هذه القابليةَ في السادسةِ من سِنيهم وعلى كوني لا أمنَحُهم إياها حتى في الخامسَ عشرَ من عُمُرهم. وسواءٌ أكنتُ مخطئًا أم صائبًا ليس الأمرُ هنا مادةَ إيمان، بل ملاحظةٌ بسيطةٌ حولَ التَّاريخ الطبيعي.

ويتَّضحُ من عينِ المبدأ أن الإنسانَ إذا ما بلغ المشيبَ من غيرِ إيمانٍ بالله لا يُحرَم لهذا السببِ مَحْضَرَ الرَّبِّ في الحياةِ الآخرةِ إذا لم يكن عَمَاه اختياريًّا. وأقول إنه ليس اختياريًّا دائمًا، وتوافقون، من حيثُ المجانين، على أن مرضًا يَحْرِمهم خصائصَهم الروحانية، لا خاصيَّةَ الإنسانِ ولا الحقَّ في نِعَم خالقهم نتيجةً، ولِمَ لا نوافق على مِثلِ ذلك إذن في أمرِ أولئك الذين فُرِزوا من كلِّ مجتمعٍ منذ صباهم فقضَوا حياةً بالغةَ الهمجية، وحُرِموا من المعارفِ ما لا يُكتَسَب إلا بمعاشرة النَّاس؟[16] وذلك لأن من المُحال الثابت قدرةَ مثلِ هذا

[15] بلوتارك: «رسالة في الحب»، ترجمة أميو. وذاك هو الذي تبدأ به مأساة ميناليبوس، غير أن صيحات أهل أثينة أكرهت أوريبيدس على تغيير ذاك البدء.

[16] انظر إلى القسم الأوَّل من رسالة «أصل التفاوت» حولَ الحال الطبيعية للروح البشرية وحولَ بطء تقدُّمها.

الهمجي على الارتقاء بتأمُّلاته إلى معرفةِ الإله الحق، ويُخبِرُنا العقلُ بأن الإنسانَ لا يُجازَى إلا بسيئاته المقصودة، وأن جهلًا حائقًا كذاك لا يُمكِن عَدُّه جنايةً منه؛ ومِنْ ثَمَّ يستنبِط أن كُلَّ إنسانٍ يُحسَبُ مؤمنًا أمامَ العدلِ الأبدي إذا كان لديه من البصائر ما هو ضروري، وأنه لا يوجد من الكُفَّار مَن يُجازَون غيرُ الذين أُقفِلَت قلوبُهم دون الحق.

ولْنَحترِزْ من أن نُنبِئ بالحقيقة مَن ليسوا قادرين على إدراكها، وذلك لِما ينطوي عليه هذا من إقامة الخطأ مقامها، وأجدَرُ ألَّا تُحازَ أيةُ فكرةٍ عن الألوهية من أن تُحاز عنها أفكارٌ حقيرةٌ وهميةٌ ضارةٌ غيرُ لائقةٍ بها، ولَأَنْ تُنكَرَ أقلُّ سوءًا من أن تُهان. قال بلوتارْك الصالح: «أُفضِّلُ كثيرًا أن يُعتقَد عدمُ ظهور بلوتارك في العالم على أن يُقال إن بلوتارك ظالمٌ حاسدٌ مِغيار، وأن يكون طَلَّابًا أكثرَ من أن يكون فعَّالًا إذا ما كان جبَّارًا.»

وأعظمُ سوءٍ في الصُّور المشوَّهة عن الألوهية التي تُنقَشُ في ذهن الأولادِ هو أنها تبقى فيه هكذا مدى حياتهم، فيعودون لا يتصوَّرون إذا ما صاروا رجالًا إلهًا آخَرَ غيرَ إله الأولاد. وما رأيتُ في سويسرة ربةَ أسرةٍ صالحةً تقيةً بلغت من اعتقادِها هذا المبدأ ما لم تُرِد معه قَطُّ أن تُعَلِّمَ ابنها الدينَ في الدَّور الأوَّل من العُمُر، وذلك خشيةَ أن يَقنع بهذا التعليمِ الغليظِ فلا يلتفتَ إلى ما هو أحسنُ منه إذا ما بلغَ سِنَّ الرشد، وكان هذا الولدُ لا يَسمع حديثًا عن الربِّ إلا مع جَمْعِ الحواسِّ والإجلال، وكان إذا ما أراد الكلامَ عنه بنفسه يُفرض السكوتُ عليه كموضوعٍ رفيعٍ بالغِ العِظَم بالنسبةِ إليه، وكان هذا التحفُّظ يُثيرُ فضوله. وكانت أثَرَتُه تتطلَّع إلى وقتِ الاطلاع على هذا السرِّ الذي يُخفى عنه بكثيرٍ من العناية، وكان كلَّما قلَّ تَحديثُه عن الرَّب، وقلَّ سماحُه لنفسه بالحديثِ عن الرَّب؛ كثُر اكتراثُه له؛ فهذا الولدُ كان يرى الربَّ في كلِّ مكان، وكان أكثرُ ما أخافه من أمر هذا السرِّ الذي يُلوَّح به على غيرِ رَصانة أن يُلهَب خيالُ الفتى كثيرًا فيُقلبَ رأسُه ويُجعَلَ منه متعصبٌ بدلًا من أن يُجعَل منه مؤمن.

ولكن لا تَخَفْ شيئًا من هذا على إميلَ الذي لا يَلتفِتُ إلى كلِّ ما هو فوق مُتناوَله، فيستَمِع مع عدم اكتراثٍ عميقٍ إلى ما لا يُدرِك من الأمور، وما أكثَرَ الأمورَ التي تعوَّد إميلُ أن يقول عنها بلا تفريق: «إن هذا لا يَعنيني!» فمتى أخذ يُبالي بهذه المسائلِ الكبيرةِ لم يَصدُرْ هذا عن اقتراحٍ يَسمعه، وإنما ينشأ عن توجيهِ معارفِه، التي تقدَّمت تقدُّمًا طبيعيًّا، مباحثَه إلى هذه الناحية.

وقد رأينا أيُّ الطُّرق التي تَدنو بها الروحُ البشرية المثقَّفة من تلك الأسرار، وأُسلِّم طوْعًا بأنها لا تنتهي إليها، بحُكم الطبيعة، في صميم المجتمع نفسِه كما في سِنٍّ أكثرَ تقدُّمًا، ولكن بما أنه يُوجد في المجتمعِ من الأسبابِ ما لا يُجتَنَب فيُعجَّلُ به تقدُّم الأهواء، فإنه إذا لم يُعجَّل تقدُّمُ المعارف التي تَنفع في تنظيم هذه الأهواء، خُرِجَ من نظام الطبيعة حقًّا واختَلَّ التوازن، وإذا لم يُسيْطَر على تعديلِ تقدُّمٍ كثيرِ السرعةِ وَجَبَ أن يُقادَ بذات السرعةِ أولئك الذين يجب أن يلائموه، وذلك لكيلا يُقلَبَ النظام، ولكيلا يَنفصل عنه مَن يجب أن يلازمه، ولئلا يكونَ الإنسان، الذي هو كلٌّ في جميع أوقات حياته، عند هذه المرحلة ببعض أهلياته، وعند تلك المرحلة بأهلياته الأخرى.

ويا لَلْعقبة التي أرى قيامَها هنا! هذه العقبة التي تَعظُم كلَّما كانت في الأشياءِ أقلَّ منها في جُبْنِ مَن لا يَجْرُءون على اقتحامها، ولْنبدأ بالإقدام على عَرْضها على الأقل. ويجب أن يُنشَّأ الولدُ على دِينِ أبيه، ويُبرهَنُ للولد دائمًا برهنةً حسنةً على أن هذا الدِّين وحدَه مهما كان هو الدِّين الحق، وأن جميعَ الأديانِ الأخرى ليست غيرَ باطلٍ وهذيان. وتتوقَّف قوةُ البراهين من هذه الناحية تَوقُّفًا مطلقًا على البلد الذي تُعرَض فيه، ولْيذهب التركي الذي يجد النصرانيةَ في الآستانة غايةً في السخافة إلى باريسَ ليرى كيف يُنظَرُ إلى الإسلامِ فيها! ففي موضوع الدِّين على الخصوص يُكتب النصرُ للمُبْتَسِر، وأمَّا نحن الذين يريدون خلْعَ نِيرِه عنَّا في كلِّ شيء، وأمَّا نحن الذين لا يريدون مَنحَ السلطان شيئًا، وأمَّا نحن الذين لا يَودُّون تعليمَ إميلَ شيئًا لا يستطيع أن يتعلَّمه بنفسه في كلِّ بلد، فعلى أيِّ دينٍ نُربِّيه؟ وإلى أيِّ مذهبٍ نَضُمُّ ابنَ الطبيعة هذا؟ إن الجواب بسيطٌ إلى الغاية كما يلوح لي، وهو أننا لن نَضمَّه إلى هذا أو إلى ذاك، وإنما نضعه في حالٍ يختار فيها الدِّينَ الذي يَسوقه إليه حُسنُ إعمال عقله.

«أسيرُ من بين النيرانِ التي يَسْتُرُها رمادٌ خَادِع.»

لا ضَيْرَ! قامت الغيرةُ وحُسْنُ النيَّةِ عندي مقامَ الحَذَرِ حتى الآن، وأرجو ألَّا تتركَني هذه الضماناتُ عند الضرورةِ مطلقًا، ولا تخافوا، أيُّها القراءُ، صدورَ احترازاتٍ منِّي غيرَ لائقةٍ بصديق الحقيقة؛ فلن أنسى شعاري، ولكنني أسمح لنفسي كثيرًا بأن أحذَر من أحكامي، وأقول لكم ما يُفكِّر فيه رجلٌ أفضلُ منِّي بدلًا من أن أقولَ لكم ما أفكِّر فيه بنفسي، وأضمن صدقَ الوقائع التي أرويها لكم؛ فهي قد حصلتْ للمؤلف الذي أنقلها منه، ولكم أن ترَوْا

هل يُمكن استنباطُ تأمُّلاتٍ مفيدةٍ منها حوْلَ الموضوعِ الحاضر، ولا أقترح عليكم اتخاذَ رأيي أو رأيَ رجلٍ آخَرَ قاعدة، وها أنا ذا أَعرِضُها عليكم للبحث فيها:[١٧] *

منذ ثلاثين سنةً وُجِد شابٌّ في مدينةٍ إيطالية، وُجِدَ فيها شابٌّ نُفي من وطنه، فكان في أشد درجات الفاقة، وكان قد وُلِدَ كَلْفَنِيًّا، ولكنه وقد وُجِدَ لاجئًا إلى بلدٍ أجنبيٍّ بلا معاشٍ نتيجةَ طيْش، غيَّرَ دينَه نيْلًا للعيش. وكان يُوجَد في هذه المدينة مأوًى للمهتدين حديثًا، فقُبِلَ فيه، ويُعلَّمُ الجدلَ فيُلَقَّنُ شُبُهاتٍ لم تكن عنده، ويُعلَّمُ سُوءًا كان يَجهله، وذلك أنه يسمع عقائدَ جديدة، ويرى طبائعَ أكثرَ جِدَّةٍ أيضًا، ويراها، ويكاد يذهبُ ضحيَّتها، ويُريد الفِرار، ويُقفَل عليه، ويشكو، ويُعاقَب على شكواه، ويقعُ تحت رحمةِ طُغاته، ويُعامَل معاملةَ المجرمين لأنه لم يُرِد الإذعانَ للإجرام. ولْيتصوَّرْ حالةَ فؤاده أولئك الذين يَعْرِفون مبلغَ ما يُثير بلاءُ العنف الأوَّل وبلاء الجوْر الأوَّل في قلب فتًى غيرِ مُجرَّبٍ. وتذرِف عيناه دموعَ الغيظ، ويَخنقه الحَنَق، ويَضرع إلى السماء والنَّاس، ويأتمِن العالَم، فلا يُنصِتُ له أحد، ولا يرى غيرَ خدمٍ أدْنياء خاضعين للفَضُوح الذي يُهينه، أو شركاءَ في ذات الذَّنْب يَسْخَرُون من مقاومته، فيُحرِّضونه على تقليدهم. وقد كاد يَضِلُّ لو لم يأتِ الملجأ إكْليريكيٌّ صالحٌ لبعضِ الشئون، فيجد وسيلةً لاستشارته سِرًّا. وكان هذا القِسِّيس فقيرًا، وكان محتاجًا إلى جميعِ النَّاس، ولكن المضطهَدَ كان أشدَّ احتياجًا إليه، فلم يتردَّد في مساعدته على الفِرار مجازفًا بانتحالِ عدوٍّ خَطِر لنفسه.

وينجو الشابُّ من المُنكَر لِيَعود إلى الفقر، فيكافح مصيره على غير جدوَى، وذلك مع اعتقاده ذات حينٍ أنه يفوز عليه، وتُنسى همومه وحاميه عند أوَّل وَميضٍ من حُسْن الطالع. ولم يلبث أن عُوقِبَ على هذا الكُنُود؛ فقد زالت جميعُ آماله، وذلك أنه وإن كان له عَوْنٌ بشبابه كانت أفكاره الروائية تُفْسِد كلَّ شيء، وذلك بما أنه ليس لديه من الاستعداد والحِذْق ما يكفي لشقِّ طريقٍ سهلٍ. وبما أنه لا يَعْرِف أن يكون معتدلًا ولا خبيثًا، فإنه ادَّعى أمورًا كثيرةً لم ينلْ منها شيئًا، وذلك أنه إذ وقع في ضيقه الأوَّل خاليًا من العيش خاليًا من المأوى، وكاد يموت جوعًا؛ فقد ذَكَرَ المُحسِن إليه.

---

[١٧] * يقصد المؤلِّف نفسَه فيها، والكلمة له؛ فهو يقصُّ فيها خبرَ إقامته بتورينو سنة ١٧٢٨، ومَن يرغب في تفصيل ذلك فليراجعِ الباب الثاني من «الاعترافات» للمؤلِّف. (المترجِم)

ويعود إليه، ويجده، ويُحسِن قَبوله، ويُذكِّر منظرُه الإكْليريكي بعملٍ صالحٍ كان قد صنعه. وذكرى مثلُ هذه تَسُرُّ النفسَ دائمًا. ومن الطبيعيِّ أن كان هذا الرجلُ إنسانيًّا رءوفًا؛ فكان يُحِسُّ آلامَ الآخرين بآلامه، ولم يقسُ قلبُه بيُسْرٍ قَط. والخلاصة أن دروسَ الحكمةِ والفضيلةَ المنوَّرةَ كانتا قد ثبَّتتا صلاحَه الطبيعي. ويَستقبل الشابَّ، ويبحث له عن مأوًى، ويوصي به، ويقاسمه حاجِيَّه الذي لا يكاد يكفي الاثنين، ويَفعل أكثرَ من هذا، وذلك أنه يُثقِّفُه ويُسَلِّيه ويُعلِّمه فنًّا صعبًا، يُعلِّمه فنَّ احتمالِ البؤس بصبر، فيا أصحابَ المُبْتَسَرات، أتنتظرون وجودَ جميعِ هذا من قِسِّيسٍ في إيطالية؟

وكان هذا الإكليريكيُّ الصالح قَسًّا فقيرًا من سافوَا، وكان قد أساء إلى أُسقُفه عن نَزَقِ شباب، فجاوز الجبالَ بحثًا عن مَوْرِدٍ كان يُعْوِزُه في بلده، ولم يكن خاليًا من ذكاءٍ ولا ثقافة، وهو لِمَا كان من مُحيَّاه الموجبِ للالتفات، وجدَ من الحُماة مَن جَعَلوه عند وزيرٍ ليُنشِّئ ابنَه. ويُفضِّل الفقرَ على الخضوع، ولا يَعْرِف كيف يكون سلوكُه لدى الكبراء، فلا يبقى طويلًا عند ذاك، وهو إذ يتركه لا يفقِدُ مكانتَه مطلقًا، وهو إذ يعيش عَيشَ حكيمٍ يُحبِّبُ نفسَه إلى جميعِ النَّاس، ويغتبطُ بما لاقى من عفوِ أُسقُفِه، فينال منه أَبرشيَّةً صغيرةً في الجبال لقضاء بقية أيامه فيها، وكان هذا آخِرَ حدٍّ لطموحه.

ويَنجذب إلى الشابِّ اللاجئ، ويسأله باهتمام، ويُبصِرُ أن سوء الطالع أذبلَ قلبَه، وأن الازدراء والخزي ثَلَما بأسَه، وأن زَهوَه تَحوَّل إلى حُزْنٍ مُرٍّ، فلا يَدُلُّه ببغي النَّاس وقسوتهم على غير عيب طبيعة النَّاس ووهْم الفضيلة. وكان قد رأى أن الدِّين لا يَصلح أن يكون غيرَ قِناعٍ للمنفعة، وأن العبادة المقدَّسة لا تَصلُح أن تكون سوى ستارٍ للرياء، وكان قد رأى بدقائقِ الجدلِ الفارغِ أن الجنةَ والنار جُعِلتا في مقابلِ التلاعب بالألفاظ، وكان قد رأى أن فكرةَ الألوهية العالية الفطرية شُوِّهَت بخيالات النَّاس الجامعة، وهو إذ وجد أن الإيمانَ بالله يستلزم عدولًا عن العقل الذي أعطاه إياه، نظرَ بعين الامتهان إلى أوهامنا المضحكة وإلى الأمر الذي نُطبِّقُها عليه، وهو من غير أن يَعْرِف شيئًا عن أصلِ الأشياء ولا تصوُّرًا له، غاصَ في غباوته مع ازدراءٍ عميقٍ لجميعِ مَن يظنون أنهم يَعْرِفون عنه أكثرَ مما يَعْرِف.

ويؤدِّي نسيانُ الدِّين إلى نسيانِ واجبات الإنسان، وكان هذا التقدُّمُ نصفَ بعيدٍ من فؤادِ هذا الملحِد، ومع ذلك فإنه لم يكن سيئ المَنْبِت. ولكنْ بما أن الإلحاد والبؤس كانا يَخنُقان الفطرةَ بالتدريج، فإنهما كانا يسوقانه إلى البَوار على عَجَل، ولا يُعِدَّان له غيرَ طباعِ وَغْدٍ وأخلاقِ زِنديق.

ولم يَكمُل الشرُّ الحائقُ تقريبًا على الإطلاق، وكان يوجد لدى الفتى معارفُ، ولم تُهمَل تربيته، وكان في ذلك العُمُر السعيد حيث يأخذ الدمُ الفائر في تدفئة الروح من غير تعبيدها لصَولات الحواس، ولم تَزل نفسُه محافظةً على نابضها، وكان الحياء الطبيعيُّ والخُلُق الهَيُوبُ يقومان مقام الضيق، فيطيلان له ذلك الدَّور الذي تُمسِكون فيه تلميذَكم بجهدٍ كثير، وما كان من مثالٍ بغيضٍ عن الفساد البَهِمِيِّ والمُنكَر بلا فُتُونٍ أضعف خيالَه بدلًا من إنعاشه، وقد قام النفورُ مقامَ الفضيلة في حفْظ طُهره لزمنٍ طويل، وما كان طُهْرُه ليُذعِن لغير أعذبِ إغواء.

وأَبصر القَسُّ الخطرَ والوسائل، وما كانت المصاعبُ لتُخمِدَ نشاطَه ويُرضيه عملُه، ويَعزِم على إنجازه، وأن يُعيدَ إلى الفضيلة تلك الضحيةَ التي كان قد انتشلها من الرذيلة، ويأخذ في تنفيذ خِطته متحفِّظًا، وتُثير روعةُ الحافزِ شجاعتَه، وتوحي إليه بالوسائل التي تناسب غَيرته. ومهما يكن من حاصلٍ فإنه كان واثقًا بعدم إضاعته وقته، ويُكتَبُ النجاح دائمًا لمن لم يُرِدْ غيرَ فِعْل الخير.

ويبدأ بكسْب ثقة المهتدي حديثًا بعدم سؤاله أجرًا على أياديه مطلقًا، وبعدم ظهوره مزعجًا له مطلقًا، وبعدم قيامِهِ بمواعظَ نحوَه مطلقًا، وبجعله نفسَه في مستواه دائمًا، وبتصاغُرِه حتى يساويه. وكان هذا، كما يلوح لي، منظرًا على شيءٍ من التأثير لِما يُرى به رجلٌ رصينٌ رفيقًا لمحتال، ولِما تُرى به الفضيلةُ مُنصِتةً لصوتِ الإباحةِ حتى تنتصرَ عليها لا ريب. وبينا كان الطائش يكشِفُ له عن سرائره الرُّعْنِ ويفتح له قلبَه، كان القسُّ يستمع له ويُلقي السكينة إلى فؤاده، وكان يكترثُ لكلِّ شيءٍ من غير استحسان للسوء، ولم يكن ليَصدُر عنه لومٌ مخالفٌ للرَّصانة صدًّا لهَذَره وحصْرًا لصَدره، وما وَجد من لذةٍ في الاستماع إليه زاده رغبةً في قول كل شيء، وهكذا قام باعترافه العامِّ ظانًّا أنه لم يَقُمْ بأيِّ اعترافٍ كان.

ويَرى القسِّيس من الواضح بعد أن دَرسَ مشاعره وأخلاقه ومن غير جهلٍ لسنِّه أنه نسيَ كلَّ ما كان من المُهمِّ أن يَعْرِفه، وأن العارَ الذي ألقاه فيه الطالعُ كان يَخنُقُ فيه كلَّ شعورٍ حقيقيٍّ بالخير والشر، ويوجد من الانحطاط درجةٌ تنزِع الحياةَ من الروح، ولا يستطيع صوتُ الباطن أن يُسمَع لدى مَن لا يُفكِّر في غير الغِذاء، ويُريدُ أن يَصون الفتى المَكروب من هذا الموت الأدبي الذي كان قريبًا منه كثيرًا، فيبدأ بإيقاظ حُبِّه لنفسه وتقديره لِذاته، ويُريه مستقبلًا أكثرَ سعادةً بحسن استعمال مواهبه، ويحيي في فؤاده هِمَّةً كريمةً بما يَقُصُّ عليه من أعمال الآخرين الرائعة. وهو إذ يجعله مُعجَبًا بصانعيها يَحْمله على

الرغبة في صُنْع ما يماثلها، وهو لكي يَفْصله عن حياة البِطالة والتشرُّد فصلًا غير محسوس يَحمله على الاقتطاف من كتبٍ مختارة، وهو إذ يتظاهر باحتياجه إلى هذه المقتطفات يُغذِّي فيه شعورَ معرفةِ الجميل الكريم، وهو يثقِّفه بهذه الكتب ثقافةً غيرَ مباشرة، وهو يَحْفِزه إلى تكوين رأيٍ حَسنٍ عن نفسه لكيلا يظُنَّ عدمَ صلاحه لأيِّ خيرٍ كان، ولكيلا يكون حقيرًا في نظره الخاص.

ومن الترَّهات حادثةٌ تَحمِل على الحكم في براعة هذا الرجل المحسن الذي رَفع بها فؤادَ تلميذه فوق كلِّ لؤمٍ رفعًا غيرَ محسوس، وذلك من غيرِ أن يَظهر مفكِّرًا في أمرِ تعليمه. وكان هذا الإكليريكيُّ من الصلاح الذائع والتمييز البالغ ما يُفضِّل معه كثيرٌ من النَّاس أن يجعلوا صدقاتِهم بين يديه على جعْلها بين أيدي خَوارِنة المدن الأغنياء. ومما حدث ذات يومٍ أن أُعطيَ نقودًا ليوزِّعها بين الفقراء، وقد كان الفتى من الدناءة ما طلب معه حِصَّةً منها بصفته فقيرًا، ويقول القس: «كلَّا، نحن رهبانٌ، وأنت منسوبٌ إليَّ، فلا يجوز لي أن أَمَسَّ هذه الوديعةَ نفعًا لي.» ثُمَّ أعطاه من ماله الخاص مقدارَ ما طلب، فدروسٌ من هذا النوع يندُرُ أن تضيع في قلب الفِتيان الذين لم يَفسُدوا تمامًا.

ويُتعبني أن أتكلَّم كشخصٍ ثالث، والجُهد غيرُ ضروري؛ وذلك لأنك تشعر أيها المواطن العزيز بأن هذا اللاجئ التَّعِس هو أنا، وأظنني من الابتعاد عن فُسوق شبابي ما أجرُؤ معه على الاعتراف به، وأن اليد التي انتشلتني منه تستحقُّ تكريمًا على إحسانها، وإن كان على حساب بعض العِذَار.

وكان أكثرُ ما يقِفُ نظري هو أن أرى في حياةِ مُعلِّمي الفاضل فضيلةً بلا رِئاء، ورأفةً بلا ضَعف، وكلامًا صادقًا بسيطًا دائمًا، وسلوكًا ملائمًا لهذا الكلام دائمًا، ولم أرَه قَطُّ يلتفت إلى أن الذين يساعدهم يقيمون الصلاة، أو أنهم يعترفون غالبًا، أو أنهم يصومون في الأيام المقرَّرة فلا يتناولون لحمًا، كما أنه لا يَفرض عليهم شروطًا مماثلةً يُمكن أن تَموتوا بغيرها جوعًا قبل أن تَرجوا أيَّ عُونٍ من المتقين.

وأبتعد عن عَرْضي أمامه غَيرةَ مهتدٍ حديث، وأتشجَّع بهذه المشاهدات، ولا أكتم عنه شيئًا من أوجه تفكيري، ولا يؤذيه هذا. ومما أقول في نفسي أحيانًا إنه يتغاضى عن عدم اكتراثي للدِّين الذي اعتنقتُ لِما يَرى من عدم اكتراثي أيضًا للدِّين الذي نشأتُ عليه؛ فهو يَعْرِف أن استخفافي غيرُ موجَّهٍ إلى نِحْلَةٍ معينة، ولكن ما يكون تفكيري حينما كنتُ أَسمعه في بعض الأحيان يَستحسن عقائدَ مخالِفةً لعقائدِ الكنيسة الكاثوليكية، ويُبدي قليلَ تقديرٍ

لجميع طقوسها؟ كنت أذهب إلى أنه بروتستانيٌّ متنكِّرٌ لو رأيته أقلَّ إخلاصًا لهذه العادات التي كان يبدو قليلَ التقدير لها، ولكنني كنتُ أعلم أنه يقوم بهذه الواجبات الدينية في السر والعلانية قيامًا دقيقًا؛ فلا أدري كيف أَحكُم في هذه المتناقضات. ولكن إذا عدوتَ الخطأ الذي أدَّى إلى زوال حُظوته سابقًا، والذي لم يُصلَح كلُّه، وجدتَ حياتَه مِثالية، وأن أخلاقَه لا غُبارَ عليها، وأنه صادقٌ منصفٌ في كلامه، وأعيش معه على أعظمِ ما يمكن من صفاء، وأتعلَّمُ أن أحترمه كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل، ويستولي هذا اللطف على فؤادي تمامًا فأنتظر مباليًا كلَّ المبالاةِ وقت اطِّلاعي على المبدأ الذي يُقيمُ عليه تناسقَ حياةٍ كثيرةِ الغرابة كحياته.

ولم يَحِلَّ هذا الوقت سريعًا؛ فهو قبل أن يَكشف لتلميذه أسرارَ قلبِه بذل جُهدَه في إنبات بذور العقل واللطف التي ألقاها في روحه. وكان أصعب ما يُمكن إزالته من نفسي هو نفوري من النَّاس مع الاختيال، هو غلظتي نحو الأغنياء والسعداء، كأنَّ غِناهم على حسابي، وكأن سعادتهم المزعومة قد اغتُصِبَت من سعادتي، وما يساور الشبابَ من زهوٍ أرعنَ يقاوِم الهوانَ لم يُوجِب غيرَ زيادةِ مَيلي إلى الحَنَق. وبما أن حُبَّ الذات الذي كان مُرشدي يحاول إيقاظَه فيَّ يحمِلُني على الخُيَلاء، فإنه كان يجعل النَّاسَ أشدَّ لؤمًا في نظري ولا يُسْفِرُ عن غير إضافة الازدراء إلى الحقد عليهم.

ولا يكافحُ هذا الزهوَ كِفاحًا مباشِرًا، وإنما يمنَعُ من تَحوُّله إلى قَسوةِ قلب، ولا يَنزِع منِّي تقديري لنفسي، وإنما يجعله أقلَّ استخفافًا بقريبي. وهو إذ يُبعِدُ الظاهر الفارغ دائمًا، وهو إذ يَدُلُّني على ما ينطوي عليه الظاهرُ من شرورٍ حقيقية، يُعلِّمُني الرثاءَ لخطيئات أمثالي والرِّقة لأبْؤُسهم والتوجُّع لهم أكثر من حسدهم. وهو إذ يهتزُّ رأفةً بالضعف البشريِّ عن شعورٍ عميقٍ بضَعفه الشخصي، يَرى في كلِّ مكانٍ ضحايا عيوبهم الخاصة وعيوبِ الآخرين، ويَرى أنينَ الفقراء تحت نِيرِ الأغنياء، وأنينَ الأغنياء تحت نِيرِ المُبْتَسَرات، ويقول: «صدِّقوا قولي، إن الأوهامَ تزيد شرورنا بدلًا من إخفائها، وذلك بجعلها قيمةً لما ليس له قيمة، وبجعلنا نُحِسُّ ألفَ حِرمانٍ ما كُنَّا لِنشعُر به لولاها، وتقوم راحة النفس على ازدراء كلِّ ما يُمكن أن يُزعِجَها. ويُعَدُّ أحرصُ النَّاس على الحياة أقلَّهم قدرةً على التمتُّع بها، ويُعَدُّ أطمعُ النَّاس في السعادة أكثرهم بؤسًا دائمًا.»

وأصرُخ بمرارةٍ قائلًا: «وَيْ! يا لها من صورٍ كئيبة! إذا ما وَجَبَ رفضُ كلِّ شيء، فما فائدة ولادتنا إذَن؟ وإذا ما وَجَبَ ازدراءُ السعادةِ نفسِها، فمن ذا الذي يكون سعيدًا؟» وعن هذا يجيب القسُّ ذات يومٍ بلهجةٍ وقفَتْ نظري: «هو أنا.» «أنت سعيدٌ! أنت سعيدٌ مهما قلَّ

عَوْنُ الطالع ذلك، ومهما بلغتَ من الفقر والنفي والاضطهاد! وماذا فعلتَ لتكون سعيدًا؟» وعن هذا يجيب القَس: «أي بُني، سأقول لك هذا طَوْعًا.»

وهنالك أخبرني أنه يودُّ أن يُدلِي باعترافاته بعد أن تلقَّى اعترافاتي، ويقول لي معانقًا: «سأصُبُّ في صدرك جميع مشاعر فؤادي، وستراني كما أبدو لنفسي على الأقل إن لم يكن كما أنا عليه، ومتى تلقيتَ اعترافي الديني بكامله، ومتى عرفتَ حال نفسي جيِّدًا، علمت السبب في عَدِّ نفسي سعيدًا. وإذا ما فكَّرت في الأمر مثلي علمتَ كيف تكون سعيدًا أيضًا، بَيْدَ أن هذه الاعترافات ليست مسألةَ دقيقةٍ، فلا بدَّ من وقتٍ كافٍ لأشرح لك جميع ما أفكِّر فيه حول مصير الإنسان، وحوْل قيمة الحياة الحقيقية، ولنعيِّن وقتًا ملائمًا ومكانًا مناسبًا للقيام بهذا الحديث بهدوء.»

وأُبدي مبادرتي إلى سماعه، ولم يُؤجَّل اللقاءُ إلى أبعدَ من صباح الغد، وكُنَّا في فصل الصيف، وننهض وقتَ الفجر، ويأتي بي خارج المدينة، إلى تلٍّ عالٍ يمرُّ تحته نهرُ الْبُو الذي كان يُرى مجراه من بين ضِفافه الخصيبة المُبلَّلة به، وكانت سلسلة جبال الألب الواسعة تتوِّجُ المنظر، وكانت أشعة الشمس الطالعة تمسُّ السهول، وترسم على الحقول ظِلالًا طويلةً للأشجار والرُّبَى والبيوت، وتُغْنِي بألف عارضٍ من الضياء أروعَ ما يُمكن أن تقع عليه عينُ إنسانٍ من الصور. ولا عَجب إذا قيل إن الطبيعة كانت تَعْرِض على أعيننا جميعَ جلالها تزْويدًا بنصِّ حديثنا؛ فهنالك، بعد إمتاع النظر بتلك الأشياء مع صمتٍ حينًا من الزَّمن، حدَّثَني رجلُ السلام بما يأتي:

عقيدةُ القِسِّيس السافوائي

«أي بُني، لا تنتظر منِّي كلامًا علميًّا ولا براهينَ بعيدةَ الغور، فلستُ فيلسوفًا كبيرًا، ولست أبالي أن أكونه إلا قليلًا، ولكنَّ عندي ذوقًا سليمًا أحيانًا، وأحبُّ الحقيقةَ دائمًا، ولا أودُّ أن أبرهنَ معك ولا أن أحاول إقناعك، ويكفيني أن أَعرض عليك ما أفكِّر فيه ببساطة فؤادي، وشاوِرْ قلبَك في أثناء حديثي، وهذا كلُّ ما أطلبُ منك، وإذا ما خُدِعت كان هذا عن حُسن نية، وحسبي بهذا ألَّا يُعَدَّ خِطْئي جناية، وإذا ما خُدِعتُ أيضًا لم ينطوِ هذا على سوءٍ كبير، وإذا ما أحسنتُ التفكيرَ كان العقلُ مشتركًا بيننا، وكانت لدينا ذاتُ المصلحة في الإصغاء إليه، ولِمَ لا تفكِّر كما أُفكِّر؟

لقد وُلِدتُ فقيرًا وقَرويًّا، وقد أُعِدْتُ بنصيبي لزراعة الأرض، ويُرى من الأجمل مع ذلك أن أتعلَّم كَسْبَ عيشي من القُسُوسَة، ويوجد من الوسائل ما أدرُسُها به، ولا ريب في أننا لم نُفكِّر أنا وأبواي أن نطلُبَ من هذا ما كان صالحًا ولا حقًّا ولا نافعًا، ولكننا فكَّرنا فيما يجب أن يُعلَم لأكون قَسًّا، وأتعلَّم ما أُريدَ منِّي أن أتعلم، وأقول ما أُريدَ منِّي أن أقول، وأُلزِم نفسي بما أُريدَ منِّي، وأُنْصَبُ قَسًّا. بَيْدَ أنني لم ألبثْ أن شعرتُ بأنني حين ألزمتُ نفسي بألَّا أكون رجلًا، وَعَدْتُ بأكثرَ مما لا أستطيع إنجازَه.

ويُقال لنا إن الشعور وليدُ المُبْتَسَرَات، ومع ذلك فإنني أعلم عن تجرِبةٍ أن الشعور يَعند في اتِّباع نظام الطبيعة على الرغم من جميع قوانين النَّاس. ومن العبث أن نُمنَع من هذا أو ذاك، ويكون لَوْمُ الندم ضعيفًا دائمًا حول ما تُبيحُ لنا الطبيعةُ الحسنةُ التنظيم، وأكثرُ من هذا ضَعفُ ذاك اللوم حول ما تأمر به الطبيعة. ويا أيها الفتى الصالح، لَمْ تخاطِب الطبيعةُ حواسَّك بشيءٍ بعد، فعِش طويلًا في هذه الحال من السعادة حيث يكون صوتُها صوتَ الطُّهْر، واذكُر أنَّ سبْقك لتعليمها يعني إهانتها إهانةً أشدَّ من مكافحتها، ولا بُدَّ من البدء بتعلُّم المقاومة لمعرفة الوقت الذي يُمكِن أن يُذْعَنُ فيه بلا إجرام.

وما فتئتُ منذ شبابي أحترم الزواجَ كأوَّل نظامٍ للطبيعة وأكثرِ نُظُمِها قُدُسًا، وإذ أنزِعُ منِّي حقَّ الإذعانِ لسلطانه فإني أعزِم على عدم انتهاكه مطلقًا؛ وذلك لأنني على ما كان من ثقافتي ودراستي ومن قضائي حياةً نمطيةً بسيطة، حافظتُ في ذهني على صفاء صُوَى[١٨] الفطرةِ كاملًا؛ أي إن أمثال النَّاس لم تُسوِّدها قَط، وإن فقري كان يُقصيني عن المغريات التي تُمليها سفسطة الفُسوق.

وهذا العزمُ أوجبَ دماري، وذلك أن احترامي لفراش الآخرين أدَّى إلى كشْف خطيئاتي، وكان لا بد من التكفير عن زَلَّتي، وأُوقَفُ وأُحجَزُ وأُطرَد، وأكون ضحيةَ وساوسي أكثر من أن أكون ضحية دعارتي. وكان لديَّ ما أدرِكُ معه من التعزير الذي لازم زوال حُظوَتي أنه يجبُ في الغالب زيادةُ الخطيئة للإفلات من العقوبة.

وقليلٌ من التجارِب المماثلةِ يَسوقُ الذهنَ الذي يتأمَّل إلى مَدًى بعيد، وأُبصِرُ بمشاهداتٍ كئيبةٍ تَداعي ما عندي من أفكارٍ عن العدل والصلاح وجميع واجبات الإنسان، فأخسَر كلَّ

[١٨] الصُّوَى: جمع صُوة، وهي الحجر الذي يكون دليلًا في الطريق.

يومٍ بعضَ ما تلقيتُ من آراء. وبما أن ما بقيَ لديَّ منها عادَ غيرَ كافٍ لأصنع منه مجموعةً من الأفكار قادرةً على الوقوف وحدَها؛ فقد أحسست بالتدريج اسودادَ وضوحِ المبادئ في ذهني، ثُمَّ قُصِرْتُ على مرحلةٍ عُدْتُ لا أدري معها ما التفكير، فانتهيتُ إلى النقطة التي انتهيتُ إليها، وذلك مع الفرْق القائل إن إلحادي الذي هو ثمرةُ تقدُّمٍ في السِّن قد تكوَّن بمشقةٍ عظيمة فيصعُب القضاء عليه.

وكنت في حالٍ من الشكِّ والارتياب ما يطلُبه ديكارتُ للبحث عن الحقيقة، وما كانت هذه الحال لتدوم؛ فهي تورِث الهمَّ وتوجِب العَناء، وما كان لغير حُبِّ العيب وكسل النفس ما يَدَعُنا فيها، ولم يكن لديَّ قلبٌ بلغ من الفساد ما يُسَرُّ معه بذلك الوَضْع، ولا شيء أحسنُ حِفظًا لعادة التأمُّل من رِضا الإنسان عن نفسه أكثرَ مما عن نصيبه.

وقد فكَّرْتُ إذنْ في مصير النَّاس الكئيب المتموِّج فوق بحر آراء البشر بلا سُكَّان ولا بَوْصلة، هؤلاء النَّاس المُوكَلين إلى أهوائهم العاصفة، وذلك بلا دليلٍ غيرِ رُبَّانٍ غِرٍّ لا يَعْرِف طريقه، ولا يدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب، وأقول في نفسي: «أُحِبُّ الفضيلة، وأنشُدُها، ولا أجِدُها، ولأُطلَع عليها حتى أستمسكَ بها. ولِمَ تَسْتر وجهها عن قلبٍ جادٍّ صُنِع ليعبُدَها؟»

وإني، وإن بلوتُ أشدَّ الآلام في الغالب، لم أقضِ حياةً دائمةَ الكرب كما قضيتُ في أوقات القلق والاضطراب تلك؛ حيث كنت ضالًّا بين شكٍّ وشكٍّ بلا انقطاع؛ فلم أفُز من تأملاتي الطويلة بغير الارتياب والإبهام والمتناقضات حول سبب وجودي وحول قاعدة واجباتي.

وكيف يُمكِنُ الإنسانَ أن يكون مُرتابًا عن مذهبٍ وحسنِ نية؟ لا أستطيع إدراك هذا. وإمَّا أن يكون الفلاسفة موجودين، وإمَّا أن يكونوا أشقى النَّاس. وإن الشَّك في الأشياء التي يُهِمُّنا أن نَعرفها هو أمرٌ بالغ الشدة في نفس الإنسان، وهو لا يُمكِنُ احتماله زمنًا طويلًا؛ فالذهنُ يُقرِّرُ إحدى الطُّرق من تلقاء نفسه وعلى الرغم من ذاته، وهو يُفضِّلُ أن يُخدَع على عدم الإيمان بشيء.

والذي كان يُضاعِفُ ارتباكي هو أنني إذ وُلِدْتُ في كنيسةٍ تُقرِّرُ كل شيء ولا تُبيح أيَّ شك، كنتُ عند رفض نُقطَةٍ أُحمَلُ على رفض بقية النقاط، وأنَّ تعذُّر التسليم بكثيرٍ من الأحكام غيرِ المعقولة كان يَفصِلني أيضًا عن الأحكام التي لم تكن هكذا، وكان إذا ما قيل لي أن أعتقد كلَّ شيءٍ عُدْتُ غيرَ عارفٍ أين أقِف.

وشاورتُ الفلاسفة، وتَصفَّحتُ كُتُبهم ودرست مختلفَ آرائهم، فوجدتهم كلَّهم شُمَّخًا جازمين عقديِّين حتى في ارتيابهم المزعوم، ووجدتُهم لا يجهلون شيئًا، ولا يُثبتون شيئًا، ويَسْخر بعضُهم من بعض، ووجدتهم ينتصرون إذا ما هاجموا، ووجدتهم بلا حَوْلٍ إذا ما دافعوا، وإذا وزنتم براهينهم لم تجدوا عندهم منها غير ما هو صالحٌ للهدم، وإذا عددتم الطرق أبصرتم اقتصار كلِّ واحدٍ على طريقه. وهم لا يتفقون على غير الجدال، ولم يكن استماعي لهم وسيلةَ خروجي من ارتيابي.

وخُيِّلَ إليَّ أن نقص الذهن البشريِّ هو السبب الأوَّل لهذا الاختلاف العجيب في المشاعر، وأن العُجْبَ هو سببه الثاني، وليس لدينا قياسُ هذه الآلة العظيمة مطلقًا، ولا نستطيع حسابَ نِسَبِها، ولا نعرف سُنَنَها الأُولى ولا عِلتَها الغائية. ونحن نجهل أنفسنا، فلا نعرف طبيعتنا ولا أصلَنا الفاعل، ونحن لا نكاد نعرف هل الإنسانُ مخلوقٌ بسيطٌ أو مركب؛ وذلك لأن أسرارًا خفيةً مُغلَقةً تحيط بنا من كلِّ جانب، وهي فوق المنطقة الحساسة. وترانا نعتقد أن لدينا من الذكاء ما نَنْفُذُها به مع أنه ليس لدينا غيرُ الخيال، وكلٌّ يشُقُّ من خلال هذا العالم الخيالي طريقًا لنفسه يظُنُّها صالحة، ولا يستطيع أحدٌ أن يَعْرِف هل تُوصِله طريقه إلى الغاية، ومع ذلك فإننا نريد نفوذها ومعرفتها جميعًا. والأمر الوحيد الذي لا نعرفه مطلقًا هو جهلُنا حدَّ ما يُمكِنُ أن يُعرَف. ونُفضِّل أن نركن إلى المصادفة، وأن نعتقد ما ليس موجودًا على الاعتراف بأن كلَّ واحدٍ مِنَّا لا يستطيع أن يرى ما هو ذاك. وإذ كُنَّا جزءًا صغيرًا من مجموعٍ كبيرٍ تَعْزُبُ عنَّا حدودُه ويَدَعُه صانعه لجدالنا الأحمق، فإننا من البُطْل ما نُريدُ معه أن نُقرِّر أمرَ هذا المجموع في حدِّ ذاته وأن نُقرِّر ما نحن بالنسبة إليه.

ومتى صار الفلاسفة في حالٍ يكتشفون الحقيقة معها، فمن ذا الذي يُعنى بأمرها منهم؟ يَعْرِف كلٌّ واحدٍ منهم أن مذهبه ليس أحسن أساسًا من المذاهب الأخرى، ولكنه يؤيده لأنه خاصٌّ به، ولا تجد واحدًا منهم انتهى إلى معرفة الحقيقة والكَذِب، فلا يُفضِّل الكَذِبَ الذي وَجَد على الحقيقة التي اكتشفها آخَر. وأين الفيلسوف الذي لا يُخادِع الجنس البشري مختارًا في سبيل مجده؟ وأين الفيلسوف الذي لا يهدِف في قرارة قلبه إلى شيءٍ آخر غير الامتياز من سواه؟ وما يبغي أكثرَ من أن يعلو العوامَّ وأن يُطفئ نور منافسيه؟ والمهم هو أن يفكِّر على غير تفكير الآخرين، فيكون ملحدًا عند المؤمنين ومؤمنًا عند الملحدين.

والثمرة الأُولى التي اقتطفتها من هذه التأملات هي أنني تعلَّمتُ قَصْرَ مباحثي على ما كان يُهِمُّني مباشرة، وأن أتذرَّع بجهلٍ عميقٍ فيما عدا ذلك، وألَّا أبالي حتى مع الشك بغير الأمور التي كان يجب أن أعْرِفها.

ومما أدركتُ أيضًا بُعْدُ الفلاسفة من إنقاذي من شكوكي غيرِ المجدية، وأنهم لم يصنعوا غير زيادة الرِّيَب التي تُزعِجُني من غير أن يَحُلُّوا واحدةً منها؛ ولذا فقد اتخذت دليلًا آخَرَ وقلت في نفسي: «دعْني أستنِر بنور الباطن؛ فهو أقلُّ تضليلًا لي منهم، أو إن خطئي يكون خاصًّا بي على الأقل، فأكون أقلَّ فسادًا باتِّباع أوهامي الخاصة مما بانقيادي لأكاذيبهم.»

وأعرضُ في ذهني مُختلِفَ الآراء التي سيَّرتني منذ ولادتي مناوبة، فأرى هنالك أنها وإن لم يوجَد بينها واحدٌ بَلَغَ من الوضوح ما يوجِب القناعةَ حالًا، كانت متفاوتة احتمالًا، فيُعِيرُها قَبولي إياها، أو رفضي إياها باطنيًّا، أوزانًا مختلفة. وأستند إلى هذه الملاحظة الأُولى، فأُقابل بين جميع هذه الأفكار المختلفة في سكونِ المُبْتَسَرات، فأجد أن أوَّلَها وأكثرَها شيوعًا كان أبسطَها وأقربَها إلى الصواب، وأنه كان لا يُعْوِزها لجمع جميع الأصوات غيرُ كونها آخرَ ما يُعرَض. وتمثَّلوا جميع فلاسفتكم القدماء والمعاصرين، وقد استنفدوا في البُداءة مذاهبهم الغريبة في القوة والحظ والقَدَر والوجوب والذرات والعالم الحي والمادة الحية والمادية من كلِّ نوع، ثُمَّ تمثَّلوا كلَارْكَ المشهورَ وهو يُنيرُ العالم مُعلِنًا في نهاية الأمر واجبَ الوجود وواهبَ الأشياء؛ فبأي إعجابٍ أشمل، وبأيِّ هُتافٍ إجماعي، لا يُقبل هذا المذهبُ الجديدُ البالغُ العظمةِ والسموِّ والكثيرُ الصلاحِ لرفع الروح ومنح الفضيلة قاعدةً والبالغُ التأثيرِ والإشراق والبساطة، والأقلُّ عَرْضًا، كما يَلوح لي، لأمورٍ لا تُدْركها النفس البشرية التي تَجِدها محالةً في كلِّ مذهبٍ آخر، وأقول في نفسي: «إن الاعتراضاتِ المُعضِلَةَ شائعةٌ بين الجميع؛ وذلك لأن رُوح الإنسان من الضيق ما لا يستطيع معه أن يَحُلَّها؛ ولذا فإن هذه المعضلات ليست براهين ضدَّ أيِّ مذهبٍ دون غيره. ولكن يا للفرْق بين البراهين المباشرة التي قامت عليها المذاهب! ألا يجِبُ تفضيلُ ذاك الذي يُوضِحُ وحدَه كلَّ شيء عندما لا يكون له مِثْلُ مُعضِلات الأخرى؟»

ولذا، فإني إذ أحملُ حبَّ الحقيقة في نفسي كفلسفةٍ وحيدة، وإذ أحمل قاعدةً واضحةً بسيطةً تُغنيني كمنهاجٍ وحيدٍ عن الدقة الفارغة في البراهين، فإنني أعود مستعينًا بهذه القاعدة إلى درس المعارف التي تهمُّني، عازمًا على عَدِّي واضحًا كلَّ ما لا أستطيع أن أمنع عنه موافقتي من المعارف، وعلى عَدِّي حقيقيًّا جميعَ المعارف التي يلوح لي أنها ذاتُ ارتباطٍ لازمٍ في تلك المعارف، وذلك مع تركي جميعَ المعارف الأخرى ضمن نطاقٍ من الارتياب لا

أرفِضُها ولا أقبلُها معه، وذلك من غير أن أُزعج نفسي بإلقاء نورٍ عليها إذا كانت لا تؤدي إلى شيء نافع في ميدان العمل.

ولكنْ مَن أنا؟ وما حقي في الحُكم في الأمور؟ وما الذي يُعيِّنُ أحكامي؟ إذا كانت نتيجةً حتميَّةً لما أتلقَّى من انطباعاتٍ كان من العبث قيامي بمثل هذه التحقيقات؛ فهي لا تتمُّ مطلقًا، أو إنها تتمُّ بنفسها ومن غير أن أتدخَّل في توجيهها. ولذا، فإن أوَّل ما يجب أن أفعل هو أن أرجِع إلى نفسي لمعرفة الآلة التي أُريدُ اتخاذها، والمدى الذي يُمكنني أن أعتمد عليه في استعمالها.

وأنا موجود، ولديَّ حواسُّ أتأثَّرُ بها، وهذه هي الحقيقة الأولى التي تقفُ نظري، فأُلزَم بقبولها، وهل لديَّ شعورٌ خاصٌّ بوجودي فلا أشعر به إلا بإحساساتي؟ هذا هو شَكِّي الأوَّل الذي يتعذَّرُ عليَّ حلُّه في الوقت الحاضر، وذلك بما أنني أتأثُّر دائمًا بالإحساسات مباشرةً أو بفعل الذاكرة، فكيف أستطيع أن أعْرِف كون شعوري بنفسي أمرًا خارجًا عن هذه الإحساسات، وأن من الممكن كونَ هذا الشعور مستقلًّا عن هذه الإحساسات؟

وفِيَّ تَحْدُث إحساساتي ما دامت تُشعِرُني بوجودي، بَيْدَ أن سببَها غريبٌ عني ما دامت تؤثِّر فِيَّ، سواءٌ أكان لديَّ أيُّ سببٍ لوجودها أم لا. ولِمَا لا يتوقَّف عليَّ أمرُ وجودها أو أمرُ إبطالها؟ ولِذا فإنني أرى بوضوحٍ أن إحساسي الذي فِيَّ وسببَه أو موضوعه الخارج عني ليسا أمرًا واحدًا.

وهكذا تُوجد موجوداتٌ أخرى فضلًا عن كوني موجودًا؛ أي توجد موضوعات إحساساتي، حتى إن هذه الموضوعات إذا لم تكن غيرَ أفكارٍ فإن من الصحيح دائمًا كوْنَ هذه الأفكار ليست أنا.

والواقعُ أن كلَّ ما أُحِسُّه خارجَ نفسي ويؤثِّرُ في حواسِّي أُسَمِّيه مادة، كما أسمِّي أجسامًا جميعَ أجزاء المادة التي أتصوَّرها مجتمعةً في موجوداتٍ فردية، وهكذا فإن جميع مجادلات الخياليين والماديين لا معنًى لها في نظري؛ أي إن تفريقهم بين ظاهر الأجسام وحقيقتها أمرٌ وهمي.

ومِنْ ثَمَّ تراني قانعًا بوجود العالم قناعتي بوجودي، ثُمَّ أتأمل في موضوعات إحساساتي. وبما أنني أجدُ في نفسي قابليةَ المقابلةِ بينها، فإني أُحِسُّ اتِّصافي بقوةٍ فاعلةٍ لم أعْرِف حيازتي لها سابقًا.

والشعور هو الإحساس، والقياس هو الحُكْم، وليس الإحساسُ والحُكْمُ أمرًا واحدًا. وبالإحساس تظهَرُ الموضوعات لي منفصلةً منفردةً كما هي في الطبيعة، وبالقياس أُحركها وأنقلُها وأضع بعضها فوق بعض لأحكُم في اختلافها وتشابهها، وفي جميع علائقها على العموم. وعندي أن صفة الوجود الفاعل أو العاقل المميزة هي القدرة على منح كلمة «هو موجودٌ» معنًى. وأبحث عبثًا في الموجود الحسي الصِّرْف عن هذه القدرة العاقلة التي تَنْضِدُ ثُمَّ تَحْكُم، فلا أستطيع أن أراها في طبيعته، ويَشْعُرُ هذا الموجود المنفعل بكلِّ موضوعٍ على انفراد، أو إنه يَشْعُر بالموضوع المجموع المؤلَّف من الاثنين. ولكن بما أنه ليس لديه من القوة ما يَثني به أحدَهما على الآخر، فإنه لن يقابل بينهما مطلقًا، ولن يحكُم فيهما مطلقًا.

ولا تَعني رؤيةُ الشيئين معًا رؤيةَ علائقِهما، ولا الحكمَ في اختلافاتهما. وليس الشعور بأشياءَ كثيرةٍ خارجٍ بعضُها عن بعض تَعدادًا لها؛ فمن الممكن أن تكون لديَّ في ذات الدقيقة فكرةٌ عن عصًا كبيرةٍ وعصًا صغيرةٍ من غير أن يُقابَل بينهما ومن غير أن يُحكم في كون إحداهما أصغرَ من الأخرى، كما أن من الممكن أن أرى جميع يدي جُمْلَةً من غير عَدٍّ لأصابعي.[١٩] فهذه الأفكار القياسية: «أعظم، أصغر»، وهذه الأفكار العَدِّية: «واحد، اثنان ... إلخ»، ليست إحساساتٍ حقًّا، وإن كان ذهني لا يُولِّدُها إلا بمناسبة إحساساتي.

ويُقال لنا إن الموجود الحسَّاس يَميزُ بعضَ هذه الإحساسات من بعضٍ بما بين هذه الإحساسات نفسها من فروق، ويحتاج هذا إلى إيضاح. ومتى كانت الإحساسات مختلفةً مازَ الموجودُ الحساسُ بعضَها من بعضٍ بما بينها من فروق، ومتى كانت متشابهةً مازَ بينها لشعوره بأن بعضَها خارجُ بعض، وإلا فكيف يُمازُ شيئان متساويان بإحساسٍ حدث في آنٍ واحد؟ لا بدَّ له من أن يخْلِط بين هذين الشيئين بحُكم الضرورة واتخاذِه لهما كأمرٍ واحد، ولا سيَّما وَفْق مذهبٍ يُزْعَم فيه أن الإحساسات التصويرية للمسافة ليست مَسَاوِفَ مطلقًا.

ومتى شُعِرَ بإحساسَين يُقابَل بينهما، فإن انطباعهما يقع، وإن كلَّ شيءٍ يُحَس، وإنهما يُحَسَّان، بَيْدَ أنه لا يشعر بعلاقتهما لهذا السبب. وإذا لم يكن الحُكم في هذه العلاقة

[١٩] تُحدِّثُنا رحلات مسيو دولا كوندامين عن شَعبٍ لا يَعْرِف تَعدادًا يزيد على ثلاثة، ومع ذلك فإن الناس الذين يتألَّف هذا الشعب منهم ذوو أيادٍ، فيرون أصابعَهم من غير أن يستطيعوا العد حتى الخمسة.

غيرَ إحساس، وإذا كان يأتيني من الشيء حَصْرًا، لم تخدعني أحكامي قَط؛ وذلك لأنه ليس من الكَذِب أن أُحِس ما أُحِس.

ولِمَ أُخدع إذن حول علاقة تَينِك العَصَوَين إذا لم تكونا متوازيتَين على الخصوص؟ ولِمَ أقولُ مثلًا إن العصا الصغيرة تَعْدِلُ ثُلُثَ الكبيرةِ مع أنها لا تَعدِل غيرَ رُبْعِها؟ ولِمَ لا تكون الصورة التي هي إحساسٌ مطابقةً لمثالها الذي هو موضوعها؟ ذلك لأنني فاعلٌ حينما أحكُم؛ وذلك لأن فعْل القياس مُختل؛ وذلك لأن إدراكي الذي يحكم في العلاقات يخلط أغاليطه بحقيقة الإحساسات التي لا تُظْهِرُ غيرَ الأشياء.

وإلى هذا أضيفوا فكرةً تَقِفُ نظرَكم إذا ما تأمَّلتموها كما أُوَكِّد، وذلك أننا إذا ما كُنَّا منفعلين محضًا في استعمال حواسِّنا لم يَكُن بينها أيُّ اتصال، وتعذَّر علينا أن نعرف أن الجسمَ الذي نَمَسُّ والشيءَ الذي نرى هُمَا هُمَا، وذلك أننا إمَّا ألَّا نُحِسَّ شيئًا خارجَ أنفسنا مطلقًا، وإمَّا أن يكون لدينا خمسةُ عناصرَ محسوسةٌ ليس لدينا أيةُ وسيلةٍ لإدراك ذاتيتها.

ولْيُطلَقْ هذا الاسمُ أو ذاك على قدرة روحي التي تُقَرِّب وتقابِل بين إحساساتي، ولتُدْعَ انتباهًا أو تَبَصُّرًا أو تأمُّلًا أو كما يُراد، فإن من الصحيح دائمًا أن تكون فيَّ لا في الأشياء، وأن أكون وحدي الذي يُحدِثُها وإن كنتُ لا أُحدِثُها إلا حينما أتلقَّى انطباعًا من الأشياء، ومع أني لستُ مسيطرًا على إحساسي أو عدمه، فإنني مُطلَقٌ في فحصِ ما أُحِسُّ على قدْر الإمكان.

إذن، لستُ موجودًا حِسِّيًّا ومنفعلًا فقط، بل موجودٌ فاعلٌ عاقل، ومهما يكن من قولِ الفلسفة فإنني أجرُؤ على ادِّعاء شرفِ التفكير، فأعْرف أن الحقيقة في الأشياء لا في روحي الذي يحكُم فيها، وأنني كلَّما قَلَّ ما أضعُ مما عندي في الأحكام التي أحمِلُ عنها زادت ثقتي باقترابي من الحقيقة، وهكذا فإن قاعدتي في الانقياد للشعور أكثرَ مما إلى العقل تأيدتْ بالعقل نفسِه.

وإذ إنني واثقٌ بنفسي كما أقول، فإنني أبدأ بالنظر إلى خارج نفسي، وأَعُدُّني مع شيءٍ من الارتعاش مطروحًا ضائعًا في هذا الكون الواسع، غارقًا في بحر الموجودات، غيرَ عارفٍ شيئًا عما هي عليه، سواءٌ فيما بينها أو بالنسبة إليَّ، وأدرُسُها وأرقُبُها، والأمرُ الأوَّل الذي يَعْرِض لي للمقارنة بينها هو نَفْسي.

وكلُّ ما أُحِسُّ بالحواسِّ هو مادة، وأستنبط خواصَّ المادة الجوهرية كلَّها من الصفات المحسوسة التي تجعلُني أشعُرُ بها والتي لا يُمكِن أن تنفَصِل عنها، وأرى المادة متحركةً

تارةً ساكنةً[20] تارةً أخرى؛ ومِنْ ثَمَّ أستنتج أن السكون والحركة ليسا أمرَين جوهريَّيْن لها. ولكن بما أن الحركة فعلٌ فإنها معلولةُ علةٍ ليس السكونُ غيرَ عدَمٍ لها؛ ولذا فإنه إذا لم يؤثِّر شيءٌ في المادة فإنها لا تتحرك مطلقًا؛ ولذا فإن السكون والحركة إذ يتساويان لدى المادة يُعَدُّ السكون حالَ المادةِ الطبيعي.

وأبْصِرُ في الأجسام نوعَيْن للحركة، وهما: الحركة الاكتسابية والحركة التلقائية أو الاختيارية، وفي الأُولى يكون السببُ المحرِّك خارجَ الجسم المتحرك، وفي الثانية يكون السببُ المُحرِّك ذاتيًّا، ولا أستنتج من ذلك كونَ حركة الساعة مثلًا أمرًا تلقائيًّا؛ وذلك لأنه إذا لم يوجَد شيءٌ غريبٌ عن النابض مؤثِّرٌ فيه فإنه لا يميلُ إلى الاعتدال ولا يجتذب السلسلة مطلقًا، ولذاتِ السبب لا أُوافقُ كذلك على كون حركةِ السوائل تلقائية، كما أنني لا أعزو حركةً تلقائيةً إلى النار التي توجب سائليَّتها.[21]

وتسألونني عن كون حركات الحيوان تلقائية، وأجيبكم بأنني لا أعْرِف عن ذلك شيئًا، ولكن القياس يؤيده، وتسألونني أيضًا كيف أعْرِف إذن وجودَ حركات تلقائية، وأجيبكم بأنني أعْرفها لأنني أشعُر بها، وأريد تحريكَ ذراعي وأحرِّكُها من غير أن يكون لهذه الحركة سببٌ مباشرٌ غيرُ إرادتي، ومن العبث أن تُراد البرهنةُ تقويضًا لهذا الشعور فيَّ؛ فهو أقوى من كلِّ دليل، وذاك يَعْدِلُ أن يُثبَتَ لي كوني غيرَ موجودٍ.

وإذا كان لا يُوجَدُ أيُّ تلقائيَّةٍ في أفعال النَّاس، ولا في أيِّ شيءٍ يحدث على الأرض، فإن من أصعب الأمور أن تُتَصَوَّر العلة الأُولى لكلِّ حركة. وأمَّا أنا فإنني أشعر بأنني بلغتُ من اعتقادِ كَوْن الحال الطَّبيعيةِ للمادةِ في سكون، ومن أنه لا يُوجَدُ فيها أيةُ قوةٍ للحركة بنفسها، ما أحْكُمُ معه من فَوْري حين أرى حركةَ الجسم، بأن هذا الجسم حيٌّ أو إن هذه الحركةَ قد اتصلت إليه، ويأبى ذهني كلَّ موافقةٍ على مبدأ المادة غيرِ العضوية المتحركة من تلقاء نفسها، أو التي تأتي عملًا ما.

[20] وإن شئت فقُل إن هذا السكون أمرٌ نسبي، ولكن بما أننا نشاهد شيئًا ما في الحركة فإننا نتمثَّل بوضوحٍ أحدَ الحدَّيْن المتناهيَيْن، وهو السكون، ونحن نبلغ من تمثُّله ما نميل معه إلى عدِّ السكون أمرًا مطلقًا مع أنه نسبي، والواقع أن من غير الصحيح كونَ الحركة من جوهر المادة إذا ما أمكن تصوُّرها ساكنة.

[21] يَعُدُّ الكيماويون عنصرَ الالتهاب — أي عنصر النار — أمرًا متفرِّقًا ساكنًا راقدًا في المركبات التي هو جزء منها، وذلك إلى أن تُطْلقه وتجمعه وتحرِّكه عللٌ غريبةٌ فتحوله إلى نار.

ومع ذلك، فإن هذا العالَمَ المرئيَّ مادة، ولكنه متفرِّقٌ مَيِّتٌ[٢٢] لا يُوجَدُ في مجموعه ما في أجزاء الجسم الحيِّ من اتِّحادٍ ونظامٍ وشعورٍ مشترَك ما دام من الثابت أننا، نحن الأجزاءَ، لا نُحِسُّ في المجموع قطعًا، وهذا العالَمُ نفسُه في حركة، وهو في حركاته المنتظمةِ النَّمطية الخاضعة لسُنَنٍ ثابتة، خالٍ من تلك الحرية التي تَبْدُو في حركات الإنسان والحيوان الغريزية. وليس العالم إذن حيوانًا عظيمًا يتحرك من تلقاء نفسه، ويوجد لحركاته إذن عِلَّةٌ غريبةٌ عنه لا أُدركها، غير أن لديَّ من القناعة الباطنية ما يجعلني أشعُرُ بهذه العلة شعورًا لا أرى معه دوران الشمس من غير أن أتصوَّر قوةً تدفَعُها، أو من غير أن أعتقد شعوري بيدٍ تُدير الأرض إذا كانت تدور.

وإذا ما وجب القولُ بالسُّنَن العامة التي لا أُدْرِك علاقاتها الجوهرية بالمادة مطلقًا، فما يكون مَدى تقدُّمي؟ بما أن هذه السُّنن ليست موجوداتٍ حقيقيةً ولا عناصر، فإنه يكون لها إذن أساسٌ آخرُ مجهولٌ لديَّ، وقد جعلتنا التجرِبة نعرف سننَ الحركة، وهذه السُّنن تُعيِّن المعلولات من غير أن تُطلِعَ على العلل، وهي لا تكفي لإيضاح نظام العالم ولا لتفسير سَيْر الكون مطلقًا. وقد أغلق ديكارت السماء والأرض بالنرد، ولكنه لم يستطِع أن يمنح هذا النرد أوَّل حركة، كما أنه لم يُعمِلْ قوَّته الدافعة عن المركز إلا بدورةٍ محورية. وقد وجد نيوتن قانون الجاذبية، ولكن الجاذبية وحدَها لم تلبث أن حَوَّلت العالم إلى كتلةٍ جامدة، وإلى هذا القانون يجب أن تُضاف قوةٌ دافعةٌ لوصف إهْلِيلجيات الأجرام السماوية. وليُحدِّثْنا ديكارت عن القانون الطبيعي الذي يُديرُ دوراتِه، وليدُلنا نيوتن على اليد التي ألقت السيارات على مُماسِّ مداراتها.

وليست أُولى عِلَلِ الحركة في المادة مطلقًا، والمادة تتلقَّى الحركة وتنقُلها، ولكنها لا تُحدِثُها، وكلَّما لاحظتُ فِعْلَ قُوى الطبيعة وردَّ فِعلِها، وبعضها يؤثِّرُ في بعضٍ وجدت أنه لا بُدَّ بالارتقاء من معلولاتٍ إلى معلولات، من الانتهاء إلى إرادةٍ على أنها العِلَّة الأُولى؛ وذلك لأن افتراض سلسلةٍ لا نهاية لها من العلل يعني عدم وجودٍ للعلة الأُولى، والخلاصة أن كلَّ حركةٍ لم تَصْدُر عن أخرى لا يُمكِن أن تأتيَ من غير فعلٍ تلقائيٍّ اختياري، ولا تسير

[٢٢] بذلتُ جميعَ جهودي لأتمثل ذرة حية، فكان هذا على غير جدوَى، ويظهر لي أن فكرة المادة الشاعرة بلا حواسَّ أمرٌ مُتناقض لا يُدرَك، ولا بدَّ من البدء بإدراك هذه الفكرة لقبولها أو رفضها، فأعترف بأنني لم أنلْ هذه السعادة.

الأجسامُ غير الحية بلا حركة، ولا يوجد فِعْلٌ بلا إرادة، وهذا هو مبدئي الأوَّل؛ ولذا فإنني أعتقد أن الإرادة تُحرِّكُ الكون وتُحيي الطبيعة، وهذه هي عقيدتي الأُولى أو مادة اعتقادي الأُولى.

وكيف تُسفِرُ إرادةٌ عن عملٍ فِزيويٍّ أو جسمي؟ لا أعلم ذلك، وإنما أشعر في نفسي بأنها تُحدِثه، وأريد أن أفعل شيئًا فأفعَلُه، وأريد أن أُحرِّكَ بدني فيتحرَّك، وأمَّا أن يتحرَّك جسمٌ جامدٌ ساكنٌ من تلقاء نفسه، وأن يُحدِثَ حركة، فأمرٌ لا يُدرَك ولا مثيل له. وأعرف الإرادةَ بأفعالها لا بطبيعتها، وأعرِف هذه الإرادةَ عِلَّةً مُحرِّكَة، وأمَّا أن تُتصوَّر المادةُ مولِّدةً للحركة، فيَعني أن تَتَصوَّر بجلاءٍ معلولًا بلا علة، ويعني هذا ألَّا تَتَصوَّر شيئًا على الإطلاق.

وليس أكثرَ إمكانًا لديَّ أن أتصوَّر كيف تُحرِّك إرادتي جسمي من أن أتصوَّر كيف تؤثِّرُ إحساساتي في نفسي، حتى إنني لا أعْرِف السبب في كون أحد هذين السِّرَّين أهلًا للإيضاح أكثرَ من الآخر. وأمَّا أنا فتبدو لي وسيلةُ اتحاد العنصرين أمرًا لا يُدرَك مطلقًا، سواءٌ عليَّ أكنت فاعلًا أم منفعلًا. ومن الغرابة بمكان أن يُمضَى من تعذُّر الإدراك هذا ليُخْلَط بين العنصرين كأنَّ أفعالًا من طبيعةٍ مختلفةٍ ذلك الاختلاف تَكون أصلح للإيضاح ضِمْنَ موضوعٍ واحدٍ مما ضِمْنَ موضوعين.

أجلْ، إن العقيدة التي أُقرِّرُها غامضة، غير أنها تُلقي معنًى في نهاية الأمر، وهي لا تنطوي على شيءٍ يأباه العقل وتأباه الملاحظة. وهل يُقال عن المادية ذاك المقدار؟ أليس من الواضح أن الحركة إذا كانت أمرًا جوهريًّا للمادة تَعَذَّر انفصالها عنها، وكانت على ذات الدرجة فيها دائمًا، وكانت بذات المقدار في كلِّ قسمٍ من المادة دائمًا، وكانت غيرَ قابلة للانتقال، فلا تقبَل الزيادة والنقصان، حتى إنه لا يُمكِن تصوُّرُ المادة في سكون؟ وإذا ما قيلَ لي إن الحركة ليست أمرًا جوهريًّا للمادة، بل ضرورية، فإنه يُراد خَدْعي بألفاظٍ يسهُل دحضُها إذا كانت أكثرَ معنًى نوعًا ما؛ وذلك لأن حركة المادة إمَّا أن تأتيها من المادة نفسها، وحينئذٍ تكون أمرًا جوهريًّا لها، وإمَّا أن تأتيها من عِلَّةٍ خارجية، وحينئذٍ لا تكون ضروريةً للمادة إلا بدوام تأثير العلة المحرِّكة فيها، وبذلك نعود إلى المُعضِلة الأُولى.

وتُعَدُّ الأفكارُ العامة المجرَّدة مصدرَ أعظمِ خطأ في النَّاس، وما كانت رطانةُ ما بعد الطبيعة لتَكشِفَ أية حقيقة كانت، وقد ملأت هذه العُجْمَةُ الفلسفةَ بالسخافات التي يُخْجَلُ منها عند تجريدها من ألفاظها الفَخْمة، وقُل لي يا صديقي إنك إذا ما حُدِّثْت عن قوةٍ عمياءَ منتشرةٍ في جميع الطبيعة، فهل يُحْمل إلى ذهنك فكرٌ حقيقي؟ أجل، يُعتَقَدُ أنه يُقال شيءٌ

بكلمات «القوة العامة، والحركة الواجبة»، ولكنه لا يُقال شيءٌ مطلَقًا. وليست فكرة الحركة غيرَ فكرة الانتقال من مكانٍ إلى آخر، ولا تُوجَدُ حركةٌ بلا اتجاهٍ مطلقًا؛ وذلك لأن الموجود الفرديَّ لا يستطيع الحركة نحوَ جميع الجهات دفعةً واحدة، وإلى أية جهة تتحرك المادة حتمًا؟ وهل جميعُ المادة في الجسم ذو حركةٍ نمطيَّةٍ أو تكون لكلِّ ذرةٍ حركَتُها الخاصة؟ تذهب الفكرة الأُولى إلى وجوب تكوين الكون بأسره كتلةً متينةً لا تتجزأ، وتذهب الفكرة الثانية إلى وجوب عدم تكوين الكون غيرَ سائلٍ مُفرَّقٍ فاقدِ الرِّباط، فلا يُمكن أن تتحد بذلك ذرتان مطلقًا، وما يكون اتجاه هذه الحركة المشتركة بين جميع المادة؟ أتكون على خطٍّ مستقيمٍ أم إلى الأعلى أم إلى الأسفل أم إلى اليمين أم إلى الشمال؟ وإذا كان لكلِّ ذرةٍ في المادة اتجاهها الخاص، فما تكون عِلَلُ جميع هذه الاتجاهات وجميعِ هذه الاختلافات؟ وإذا كانت كلُّ ذرةٍ في المادة لا تَصنَع غيرَ دورانها حولَ مركزها الخاص، فإنه لا شيءَ يترك مكانه ولا تُوجَدُ حركةٌ متحولةٌ مطلقًا، حتى إنه في هذه الحالة يجب أن تتجه هذه الحركة الدَّوريَّة نحوَ جهةٍ ما، ويَعني مَنْحُ المادة حركةً بالتجريد قَوْلَ كلماتٍ لا مَعنَى لها، ويَعني منحها حركةً مُعيَّنَةً افتراضَ عِلَّةٍ مُعيَّنَةٍ لها، وكلَّما كُثِّرَت القُوى الخاصةُ كان لديَّ من العلل الجديدة ما أُوضِحه من غير أن أجِدَ فاعلًا مشتركًا مُوجِّهًا لها، وأجِدُني بعيدًا من إمكان تصوُّري أيَّ نظام ضِمنَ تزاحم العناصر العرَضي، فلا أستطيع حتى تصَوُّرَ اعتراكها، ويَبدو لي اختلاطُ عناصرِ الكَوْنِ أمرًا لا يُدرَك أكثرَ من تعذُّر إدراك انسجامه، وأُدرِكُ أن من الممكن ألَّا يُدرِكَ ذِهْنُ الإنسان جهازَ العالَم، ولكن الإنسان إذا ما أخذ في إيضاحه وجب أن يقول أمورًا يَفهَمُها النَّاس.

وإذا كانت المادة المتحركة تدلُّني على إرادةٍ فإن المادة المتحركة تدلُّني على عقلٍ وَفْقَ بعض النواميس، وهذه هي المادة الثانية من عقيدتي، ويكون العمل والمقارنة والاختيار أفعالَ كائنٍ فاعلٍ عاقلٍ. وهذا الكائنُ موجودٌ إذَنْ، وأين ترونه موجودًا؟ وهذا ما تقولون لي، إنه ليس في السموات التي تدور والنجم الذي ينيرنا فقط، وليس في أنفسنا فقط، بل أيضًا في الشاة التي تَرعى والطائرِ الذي يطير والحجرِ الذي يسقُط والورقةِ التي تَذْرُوها الريح.

وأَقضي في نظام العالَم وإن كنتُ أجهلُ غايته؛ وذلك لأنه يكفيني للحكم في هذا النظام أن أقابل بين الأقسام، وأن أدرُس سِبَاقها وعلائقها، وأن ألاحظَ توافقَها. وأجهلُ سببَ وجود العالَم، ولكنني لا أنفكُّ أرى كيف تحوَّل، ولا يُعْوِزُني أن أُبصِرَ ذاك التوافق الوثيق الذي

تتعاون به الموجوداتُ المؤلَّفُ منها تعاونًا متقابِلًا، وأراني مِثْلَ الرجلِ الذي يرى ساعةً مفتوحةً للمرة الأُولى، ولا يفتأُ يُعجَبُ بصُنْعها وإن كان لم يَعْرِف استعمال الآلة ولم يَرَ وجهها قَط، ويقول إنني لا أعلَمُ ما نفعُ جميعها، وإنما أرى أن كلَّ جزء منها قد صُنِعَ من أجل الأجزاء الأخرى. وأعجبُ بالصانع في تفاصيل صُنعه، وأجدُني موقنًا بأن جميعَ هذه الدواليب لا تسير متفقةً على هذا الوجه إلا من أجلِ غايةٍ مشتركةٍ يتعذَّرُ عليَّ إدراكُها.

ولنقابِلْ بين الغايات الخاصة والوسائل والعلائق المُنظَّمة لكلِّ نوع، ولنستمع إلى الشعور الباطني، فأيُّ ذهنٍ صحيحٍ يستطيع أن يَرْفِضَ شهادته؟ وأيةُ عيون غير متأثِّرةٍ بالمُبْتَسَرات لا يُنبِئُها نظام الكون المحسوس بعقلٍ عالٍ؟ وأية سفسطات يجبُ أن تُرْكَمَ لإنكار انسجام الموجودات وتعاون كلِّ جزءٍ على حفظ الأجزاء الأخرى؟ وحَدِّثوني ما شئتم عن التركيبات والمصادفات، فما نفعُكم من حَمْلي على السكون إذا كنتم غير قادرين على إقناعي؟ وكيف تَنزِعون منِّي شعورًا غير إراديٍّ يُكذِّبُكم على الرغم منِّي دائمًا؟ وإذا كانت الأجسام العُضوية قد تَرَكَّبت عَرَضًا على ألف وجهٍ قبل اتخاذها أشكالًا ثابتة، فتكونت في البُداءة مِعَدٌ بلا أفواه وأرجلٌ بلا رءوس وأيدٍ بلا ذُرعانٍ وأعضاءٌ ناقصة مُنوَّعة، وانقرضت عن عدم قدرةٍ على البقاء، فلِمَ عاد كلُّ واحدٍ من هذه التجارِب الناقصة لا يقِفُ نظرنا؟ ولِمَ فَرضَت الطبيعةُ في نهاية الأمر سُنَنًا لم تخضعْ لها في البُداءة؟ ولا ينبغي أن أُدْهَش مطلقًا من أمرٍ يقعُ إذا كان ممكنًا، ومن التعويض بمقدار التجارِب من صعوبة الحادث، وأوافق على هذا، ومع ذلك فإنه إذا ما قيلَ لي إن حروفَ المطبعة المطروحة اتِّفاقًا أسفرت عن الإنِئيِد كاملةَ الترتيب، فإنني لا أتنازل أن أقوم بخُطوةٍ لتحقيق الكِذْبَة. وسيُقال لي: إنك تنسى كثيرًا من التجارِب. ولكن ما مقدار التجارِب التي يجب أن أفترض لجعل التركيب أمرًا محتملًا؟ وأمَّا أنا الذي لا يرى غيرَ تجربةٍ واحدةٍ فلديَّ ما أُراهِنُ بما لا حَدَّ له تجاه واحدٍ على أن حاصلها ليس نتيجةَ المصادفة مطلقًا، وإلى هذا أضيفوا أن التركيبات والاتفاقات لا تؤدي إلى غير مُنتَجَاتٍ من طبيعة العناصر المركَّبة، وأن التَّعْضِيَة والحياة لا تَصْدُران عن تجربةِ ذرات، وأن الكيماويَّ إذ يُعِدُّ المُركَّباتِ يفعَلُ ما لا يُشْعَرُ بها معه، ولا يُفكَّر فيها معه، داخلَ مِذْوَبة.[٢٣]

[٢٣] وهل يُعتقَد عند عدم البرهانِ كونُ هذيان الإنسان يبلغ هذه النقطة؟ وقد زعم أماتوس لوزيتانوس أنه رأى قزمًا طوله بوصة محبوسًا في زجاجةٍ مصنوعًا من قِبَل يوليوس كاميلوس صُنعًا كيماويًّا،

وقد قرأتُ نيوفِنْتِي حائرًا مُعَيَّرًا تقريبًا، وكيف استطاع هذا الرجل أن يعزِم على وضْعِ كتابٍ عن عجائب الطبيعة الدالة على حكمة صانعها؟ ويكون كتابه ضخمًا ضخامةَ العالَم قبل أن يستنفد موضوعَه. وعند ما أردنا الدخولَ في التفصيلات فاتتنا أعظمُ العجائب؛ أي انسجامُ الكلِّ وتوافُقه. ويُعَدُّ تناسلُ الأجسام الحية العضوية وحدَه هُوَّةَ الذهن البشري، ويَدُلُّ السَّدُّ المنيعُ الذي وضعته الطبيعة بين مختلف الأنواع لكيلا تختلطَ على نيَّاتها بأوضح برهان. ولم تكتفِ الطبيعة بإقامة النظام، بل اتخذت من التدابير الثابتة ما لا يستطيع شيءٌ أن يُكدِّره.

ولا يوجد في الكون موجودٌ لا يُمكِنُ أن يُعَدَّ من بعض الوجوه مركزًا مشتركًا بين جميع الموجودات الأخرى، فتنتظم كلُّها حَوْلَه، وتكون كلُّها غاياتٍ ووسائلَ مُبادَلَةً، ويضطرِب الذهنُ ويَتِيهُ في هذه العلاقات التي لا تُحصى والتي لا تضطرب واحدةٌ منها، ولا تتيهُ في الجمع. ويا للافتراضات المُحالة لاستنتاجِ جميعِ هذا الانسجام من الجهاز الأعمى للمادة المتحركة عَرَضًا! ومن العبث أن يستُرَ أولئك المنكرون لوحدة المَقصد، التي تتجلَّى في علاقات جميع أجزاء هذا المجموع الكبير، بَلْبَلَتَهم في التجريدات والتنسيقات والمبادئ العامة والتعابير الرمزية. ومهما يكن ما يصنعون، فإنه يتعذَّر عليَّ أن أتصوَّر نظامًا للموجودات بالغًا ذلك المقدار من الترتيب الثابت من غير أن أتصوَّر عقلًا ناظمًا له، ولا أقدِر أن أعتقد أن المادة المنفعلة الميتة استطاعت أن تُنْتِج موجوداتٍ حيَّةً شاعرة، وأن قدَرًا أعمَى استطاع أن يُنتِج موجوداتٍ عاقلةً، وأن الذي لا يُفكِّرُ مطلقًا استطاع أن يُنتِجَ موجوداتٍ تُفكِّر.

ولذا فإنني أعتقد أن العالَم تسيطر عليه إرادةٌ قادرةٌ حكيمة، وأُبصِرُ هذا، وإن شئت فقُل إنني أُحسُّ هذا، ويهمُّني أن أعْرِف هذا. ولكن هل هذا العالمُ أزليٌّ أو مخلوق؟ وهل يُوجَدُ للأشياء أصلٌ واحد؟ وهل يُوجَدُ لها أصلان أو أكثر؟ وما طبيعتُها؟ لا أعْرِف ذلك، وما اهتمامي بذلك؟ كلَّما صارت هذه المعارفُ مُمتِعةً لديَّ لم أُقَصِّرْ في اكتسابها، وأعْدِلُ،

مثل بروميثوس. ويعلم باراسلس طريقة صُنْع هؤلاء الأقزام، ويدَّعي أن الزعانف والتنابيل والغيلان والحوريات من أعمال الكيمياء. والواقع أنني لا أرى بقاء شيءٍ كثيرٍ بعد الآن لإثبات إمكان هذه الأمور، ما لم يقع ادِّعاء بأن المادة العضوية تقاوم حرَّ النار، وبأن من الممكن أن تبقى ذراتها حية في فرنٍ حامٍ.

حتى أنالَ ذلك، عن الأسئلة اللاغية التي يُمكِن أن تُقِضَّ مضاجعي، والتي لا فائدةَ منها في سَيْرِي، والتي هي أعلى من عقلي.

واذكُروا دائمًا أنني لا أُعَلِّمُ حِسِّي مطلقًا، بل أَعْرِضُه، وسواءٌ أكانت المادةُ أزليَّةً أم مخلوقة، وسواء أكان أصلُها منفعلًا أم لا، يُعَدُّ من الثابت دائمًا كَوْنُ الكلِّ واحدًا، وأنه يُنبئُ بعقلٍ فريد؛ وذلك لأنني لا أرى شيئًا ليس منتظمًا في ذات النظام، ولا يساعد على ذات الغاية؛ أي بقاءِ الكل في النظام القائم. واللهَ أُسمِّي هذا الموجودَ المُريدَ القادر، هذا الموجودَ الفعَّالَ بنفسه، هذا الموجودَ مهما كان الذي يُسَيِّرُ الكونَ ويُدبِّرُ جميعَ الأمور، وأضُمُّ إلى هذا الاسم مبادئَ العقل والقدرة والإرادة مضافةً إلى مبدأ اللطف الذي هو نتيجةٌ لازمةٌ لها، ولكنني لستُ أحسنَ معرفةً من ذلك للموجود الذي أُسنِدُها إليه؛ فهو خافٍ عن حواسِّي وإدراكي، وكلَّما فكَّرتُ فيه زدتُ ارتباكًا، وأعرِف كلَّ المعرفة أنه موجود، وأنه موجودٌ بذاته، وأعْرِفُ أن وجودي تابعٌ لوجوده، وأن هذه هي أيضًا حالُ جميع الأشياء المعروفة عندي على الإطلاق، وأرى الله في أفعاله في كل مكان، وأشعُر به في نفسي، وأُبصِرُه حَوْلي، ولكنني عندما أُريد أن أنْظُرَ إليه بذاته، وعندما أريد أن أجِدَ مكانه، وأعرِفَ مَن هو وما كُنْهُه يُفلِتُ منِّي، وتعودُ نفسي المضطربةُ لا تَرى شيئًا.

وأراني قانعًا بعجزي، فلا أُبَرْهِنُ حَولَ كُنْهِ الله، ما لم أُحمَل على ذلك بشعورٍ يساورني عن علائقه بي، وجميعُ هذه البراهين مجازِفةٌ دائمًا، وما كان للعاقل أن يُكِبَّ عليها إلا مرتجِفًا عالمًا أنه لم يُخلَق ليتعمَّق فيها؛ وذلك لأن أكثرَ ما ينطوي على جَنَفٍ في الإله أن يُساء التفكيرُ فيه، لا ألَّا يُفكَّرَ فيه مطلقًا.

وإني أعود إلى نفسي بعد اكتشافي من صفاته ما أتصوَّرُ معه وجودَه، فأبحث عن المرتبة التي أشغَلُها في نظام الأمور الذي يسيطر عليه، فأستطيع أن أفحصَه. ولا جَرَم أنني أجد نفسي في المرتبة الأُولى بنَوْعي؛ وذلك لأنني بإرادتي وبوسائلِ تنفيذها التي في متناولي حائزٌ قوةً أعمَلُ بها في جميع الأجسام التي تحيط بي، انتفاعًا بفعلها أو دفعًا لأثرها كما يروقني، أعظمَ مما عند أيِّها من حيث تأثيرُها فيَّ عن باعثٍ فزيويٍّ فقط على الرغم منِّي؛ وذلك لأنني بذكائي أكونُ الوحيدَ الذي يملِك رَقابةً على الكلِّ. وأيُّ موجودٍ غير الإنسان يستطيع في هذه الدنيا أن يرْقُب غيره وأن يقيس حركاته مع نتائجها وأن يَحسُبَها وأن يُدرِكَها قبل وقوعها؛ ومِنْ ثَمَّ أن يُضيفَ إحساسَ الوجودِ العامَّ إلى إحساس وجوده

الفردي؟ وأيُّ شيءٍ أدعى إلى السُّخرية من التفكير في أن كلَّ شيء قد صُنِعَ من أجلي إذا كنتُ الوحيدَ الذي يَعْرِفُ أن يَرُدَّ كلَّ شيءٍ إليه؟

ومن الصحيح إذن أن يكون الإنسانُ مَلِكَ الأرض التي يسكُنُها؛ وذلك لأنه لا يُرَوِّض جميعَ الحيوانات فقط، ولأنه لا يتصرَّف في العناصر ببراعته فقط، بل لأنه الوحيدُ الذي يَعْرِف في الأرض أن يتصرف فيها، والذي يختصُّ متأمِّلًا، حتى بالكواكب التي لا يستطيع أن يدنو منها، ولأُطْلِعَ على حيوانٍ في الأرض قادرٍ على استعمال النار عارفٍ أن يُعجَب بالشمس، ماذا! أستطيع أن ألاحظ الموجودات مع علائقها وأن أعْرِفها، وأستطيع أن أشعُر بالنظام والجمال والفضيلة، وأستطيع أن أُنعِمَ النظر في العالَم، وأن أرتقي إلى اليد التي تُديرُه، وأستطيع أن أُحِبَّ الخيرَ وأصنعه، ثُمَّ أُشبِّه نفسي بالبهائم! ويا أيتها النفس الحقيرة، إن فلسفتك الكئيبة هي التي تجعلك مشابهةً للبهائم، أو إن من الأجدرِ أن يُقال إنكِ تُريدين أن تَهُوني عَبَثًا؛ فذكاؤك يُكذِّب مبادئَكِ وقلبُكِ المِنْعامُ يُكَذِّبُ مذهبَك، حتى إن سوء استعمال أهلياتكِ يُثْبِتُ فَضْلكِ على الرغم منك.

وأمَّا أنا الذي ليس لديه مذهبٌ يؤيده، وأمَّا أنا، أي الرجلُ البسيطُ الذي لا ينساق مع أيِّ روحٍ حزبيٍّ، والذي لا يَبغِي أن يتشرَّف برئاسةِ مذهب، والذي هو راضٍ عن المكان الذي وضعه فيه الله؛ فإني لا أرى شيئًا بعد الله أفضلَ من نوعي. ولو كان لي حقُّ اختيار مكاني في نظام الموجودات فما أختار أكثرَ من أن أكون إنسانًا؟

وهذا التأمُّلُ أقلُّ نَفْخًا لي من مَسِّه لي؛ وذلك لأن هذه الحال ليست من خِياري مطلقًا، وهي لم تكن مدينةً لِمَزِيَّةِ موجودٍ لم يُوجَدْ بَعْد، وهل أستطيع أن أرى نفسي ممتازةً على هذا الوجه من غير أن أُهنئ نفسي بشَغْل هذا المقام الكريم، ومن غير أن أحمَدَ اليد التي وضعتني فيه؟ وينشأ عن رُجعَى بَصَري إليَّ شعورُ شكرانٍ في فؤادي وإحساسِ حَمْدٍ في قلبي لصانع نوعي، ويستوجب هذا الإحساسُ والشعورُ تقديمَ ولائي الأوَّل إلى الرَّبِّ المَنَّان، وأعبُدُ القديرَ العليَّ، وأَلِينُ ثناءً على إحسانه، ولا أحتاجُ إلى مَنْ يُعلِّمُني هذه العبادة؛ فقد أَمْلَتها الطبيعةُ نفسُها عليَّ، أَوَليس من النتائج الطبيعية لحبِّ الذات أن يُبَجِّل ذاك الذي يُجيرُنا، وأن يُحَبَّ ذاك الذي يريد الخيرَ لنا؟

ولكنني إذا ما أردت فيما بعدُ أن أعرِف مكانيَ الفرديَّ في نوعي، فنظرت إلى مختلف المراتب وإلى الرجال الذين يشغَلُونها فما أكون؟ يا له من منظر! أين النظام الذي كنت قد شاهدته؟ لا تعرِضُ صورةُ الطبيعة عليَّ غير الانسجام والنِّسَب، ولا تَعْرِضُ صورةُ الجنس

البشري عليَّ غير الاضطراب والارتباك! ويسودُ الاتفاق بين العناصر، ويكون النَّاس في بلبلةٍ والتباسٍ! والبهائمُ سعيدة، ومَلِكُها وحدَه هو الشقيُّ! أيتها الحكمة، أين القوانين؟ أيتها العناية الرَّبَّانية، أهكذا تسيطرين على العالَم؟ أيها الربُّ الكريم، أين قُدْرتك؟ أرى الشرَّ على الأرض.

أَوَتعتقد يا صديقي العزيز أن هذه التأمُّلات الكئيبة، وهذه المتناقضات الظاهرة تؤلِّف في نفسي أسمَى المبادئ عن النفس، هذه المبادئ التي لم تُسفِر عنها مباحثي قَطُّ حتى الآن؟ بَيْنا أُنْعِمُ النظرَ في طبيعة الإنسان أراني مكتشفًا لمبدأين مختلفين، يُرتقى بأحدهما إلى البحث عن الحقائق الأزلية، وإلى حُبِّ العدلِ والخُلُقِ القويم، وإلى مناطق عالَم الفكر التي يؤدي تأمُّلُها إلى سعادة الحكيم، ويَرُدُّه الآخر إلى نفسه نُزُولًا، ويُخضِعُه لسلطان الحواسِّ وللأهواء التي هي وسائلُ لها، ويعارِضُ بها كلَّ ما يوحي إليه بالمَيل الأوَّل. وإني إذ أَشْعُر بأني مجذوبٌ مُحارَبٌ بهاتَين الحركتَين المتناقضتَين، أقول في نفسي: كلَّا، إن الإنسان ليس واحدًا مطلقًا. فأُريد ولا أُريد، وأشعُرُ بأني عبدٌ وحُرٌّ معًا، وأرى الخير وأحبُّه وأصنع الشَّر، وأكون فاعلًا عندما أُصغي إلى العقل، وأكون منفعلًا عندما تسوقني أهوائي، ويكون شعوري بأنني كنت أستطيع المقاومة أسوأَ غمٍّ يلازمني حين أُغلَب.

واستمِعْ إليَّ، أيها الفتى مطمئنًّا، فسأتذرَّع بحسن النية دائمًا، وإذا كان الضميرُ من عَمَلِ المُبْتَسَرات كنتُ على خطأ لا ريب، ولم تُوجَد أخلاقٌ قائمةٌ على البرهان مطلقًا، ولكن إذا كان فَوَاقُ الجميعِ مَيلًا طبيعيًّا لدى الإنسان، وإذا كان حِسُّ العدل مع ذلك غريزيًّا في فؤاد الإنسان، فَدَعِ الذين يجعلون من الإنسان موجودًا بسيطًا يُزيلون هذه المتناقضات، وهنالك أعودُ غيرَ عارِفٍ بغيرِ عنصرٍ واحدٍ.

وستلاحظون أنني بكلمة «عنصر» أقصِد على العموم موجودًا متَّصِفًا ببعض الصفات الابتدائية مُجرَّدةً من كلِّ تبديلٍ خاص، أو تحويلٍ ثانوي، وإذا كانت جميعُ الصفات الابتدائية المعروفة لدينا تستطيع أن تتجمَّع في عين الموجود إذن وجب عدمُ القولِ بغيرِ عنصرٍ واحد، ولكن إذا وُجِدَ من الصفات ما يتنافى مَبادَلةً وُجِدَ من العناصر المختلفة بذاك المقدار ما يُمْكِن أن ينشأ عن مِثْلِ ذاك التنافي، وستُنعِمون النظر في ذلك. وأمَّا أنا، فمهما قال لوك، لا أحتاج في معرفتي المادةَ إلى غير كونها اتِّساعًا وقابليةً للانقسام حتى أطمئنَّ إلى عدم قدرتها على التفكير، فإذا ما جاء فيلسوفٌ ليقول إن الأشجار تَشعُر وإن الصَّخر

تُفكِّر[٢٤] كان من العبث رَبْكُه إياي ببراهينه الدقيقة، وذلك أنني لا يُمكنني أن أرى فيه غيرَ سَفسَطيٍّ سيئ النية يُفضِّلُ أن يمنح الحجارة شعورًا على منح الإنسان روحًا.

ولنفترضْ أن أحدَ الصُّمِّ يُنكِرُ وجودَ الأصوات لأنها لم تَقْرَع أُذُنَه قَط، وأضع تحت عينيه آلةً ذاتَ وتَر، وأجعلُها تَرِنُّ مع الإيقاع بفعلِ آلةٍ أخرى خافيةٍ عنه، ويرى الأصمُّ اهتزازَ الوتر، وأقول له: «إن الصوت هو الذي يفعلُ هذا.» ويقول مجيبًا: «كلَّا، إن الوتر نفسه هو علة اهتزازه، وإن الاهتزاز على هذا الوجه صفةٌ مشتركة في جميع الأجسام.» وأرُدُّ عليه بقولي: «أرِني هذا الاهتزاز في الأجسام الأخرى، أو علَّته في هذا الوتر على الأقل.» ويقول الأصمُّ مُعقِّبًا: «لا أقدِرُ على هذا، ولكن بما أنني لا أتصور كيف يهتزُّ هذا الوتر، فلِمَ أُوضِحُه بأصواتكم التي لا يوجد لديَّ أيةُ فكرةٍ عنها؟ إن هذا إيضاحٌ لأمرٍ غامضٍ بعلةٍ أشدَّ غموضًا، وعليكم أن تجعلوا لي أصواتكم محسوسة، أو إنني أقول إنها غيرُ موجودة.»

وكلَّما أنعمتُ النظر في الفكر وفي طبيعة روح الإنسان وجدتُ أن برهان الماديين يشابه برهان ذلك الأصم، والحقُّ أنهم صُمٌّ تجاه الصوت الباطنيِّ الذي يناديهم بنغمةٍ يَصعُب

[٢٤] يلوح لي أن الفلسفة الحديثة تبتعد عن القول بأن الصخر تفكِّر، وأنها — على العكس — قد اكتشفت عدم تفكير الناس مطلقًا، وعادت هذه الفلسفة لا تعترف بغير موجودات حساسة في الطبيعة، ويقوم كل فرق تجده بين الإنسان والحجر على كونِ الإنسان موجودًا حسَّاسًا ذا أحاسيس، وكونِ الحجر موجودًا حسَّاسًا خاليًا من الأحاسيس. ولكن إذا صح أن كلَّ مادةٍ تَحس، فأين أُدرِك الوحدة الحسية أو الذات الفردية؟ أهي في كلِّ ذرةٍ من المادة أم في الأجسام المؤلَّفة من ذَرَّات؟ وهل أضع هذه الوحدة في السوائل والجوامد وفي المركبات والعناصر؟ ولا يوجد غيرُ أفرادٍ في الطبيعة كما يُقال! ولكن مَن هم هؤلاء الأفراد؟ وهل هذا الحجر فرد أو مجموعة أفراد؟ وهل هو موجود حساس واحد أو إنه يشتمل على موجوداتٍ حساسة بمقدار حَب الرمل؟ وإذا كانت كل ذرة أوَّلية موجودًا حسَّاسًا، فكيف أتصوَّر هذا الاتصال الوثيق الذي تشعر به كل ذرة ضمن الأخرى، وذلك بحيث تختلط الذرتان في واحدة؟ أجل، قد تكون الجاذبية ناموسًا للطبيعة نجهل سرَّه، ولكننا ندرك على الأقل أن الجاذبية، إذ تؤثِّر وَفق الكتل، لا تنطوي على ما يناقض الاتساع وقابلية الانقسام. وهل تتصورون الإحساس على هذا الوجه؟ إن الأجزاء الحساسة اتساعات، ولكن الموجود الحساس واحد غير قابل للانقسام، وهو لا يتجزأ، وهو كلٌّ أو هو عَدم؛ ولذا فإن الموجود الحساس ليس جسمًا، ولا أعْرِف كيف يدركه ماديونا، ولكنه يلوح لي أن ذات المصاعب التي حملتهم على نبذ الفكر يجب أن تحملهم على طرح الإحساس أيضًا، ولا أرى بعد قيامهم بالخطوة الأُولى سببًا لعدم قيامهم بالخطوة الثانية أيضًا. وما يكلِّفهم هذا؟ وكيف يجرُءون على توكيد إحساسهم ما داموا يرون أنهم لا يفكرون؟

إنكارُها، ولا تُفكِّرُ الآلة مطلقًا، ولا توجد حركةٌ ولا صورةٌ تُحدِثُ تأمُّلًا، وفي نفسك شيءٌ يحاول أن يَكْسِرَ الروابط التي تضغطُها، وليس الفضاء مقياسَك، وليس العالَم من الاتساع ما يناسبك، فلمشاعرك ورغائبك وهلعك وكبريائك أيضًا مبدأٌ آخرُ غير هذا الجسم الضيق الذي تشعُرُ بأنك مقيدٌ فيه.

ولا تَرى موجودًا ماديًّا فاعلًا بنفسه، وأمَّا أنا ففاعل، ومن العبث أن تجادلوني في هذا؛ فأنا أُحِسُّه، وهذا الإحساس الذي يخاطبني أقوى من العقل الذي يجادِل فيه، ولديَّ جسمٌ تؤثِّرُ فيه الأجسام الأخرى، وهو يؤثِّر فيها، ولا رَيْبَ في هذا العمل المتبادَل، غير أن إرادتي مستقلةٌ عن حواسِّي، وأوافق أو أقاوم، وأُغلَبُ أو أَغْلِب، وأشعُرُ بنفسي تمامًا عندما أفعل ما أريدُ أن أفعل، أو عندما لا أُذْعن لغير أهوائي، ولديَّ قدرةٌ على الإرادة تمامًا، لا قدرةٌ على التنفيذ، ومتى أسلمتُ نفسي إلى المُغريات سِرْتُ وَفْقَ دافع الأمور الخارجية، ومتى لُمْتُ نفسي على هذا الضَّعف لم أستمع لغير إرادتي؛ فأنا عبدٌ بمعايبي وحُرٌّ بمَنَادِمي. ولا يزول إحساسُ حريتي فيَّ إلا بفسادي، وعند منعي صوتَ روحي من الارتفاع ضدَّ سلطان البدن.

ولا أعرِفُ الإرادةَ إلا بإحساس إرادتي، ولست أَحسَنَ معرفةً بالإدراك من ذاك، وعندما أُسأل عن العلَّة التي تُجبِرُ إرادتي أسأل بدوري عن العلة التي تجبِرُ حُكمي؛ وذلك لأن من الواضح كونَ هاتَين العلتَين ليستا سوى عِلَّةٍ واحدة، وإذا ما فُهِمَ جيِّدًا أن الإنسان فاعلٌ في أحكامه وأن إدراكَه ليس سوى القدرة على المقارنة والحُكم، رُئِيَ أن زهوه ليس غيرَ قدرةٍ مماثلةٍ أو مشتقةٍ من تلك، وهو يختار بين الخير والشر وَفْقَ حكمه في الصدق والكَذِب. وما العلة التي تُجبِرُ إرادته إذن؟ هي حُكْمُه. وما العلة التي تُجبِرُ حُكمَه؟ هي صفتُه العاقلة، هي قدْرَته على الحكم. وتقع العلة التي تُجبِرُ فيه، فإذا عدوتُ هذا عُدتُ لا أدرك شيئًا.

ولا رَيْبَ في أنني لست مختارًا في عدم إرادتي خيري الخاص، وفي أنني لست مختارًا في إرادة شرِّي، بَيْدَ أن اختياري يقوم على الأمر القائل إنني لا أستطيع إرادةَ غيرِ ما يلائمني، أو الذي أُقَدِّرُ أن يلائمني، وذلك من غير أن يُوجَدُ شيءٌ غريبٌ عني يُجبِرُني. وهل يُستنتَجُ من ذلك كوني لستُ سيدَ نفسي لأنني لستُ سيِّدًا في كوني غيرَ ما أنا عليه؟

ومبدأُ كلِّ فِعْلٍ هو في إرادةِ موجودٍ مختار، ولا يُمكِن الذهابُ إلى ما هو أبعدُ من هذا، وليست كلمةُ الاختيار هي التي لا تَعني شيئًا، بل كلمةُ الضرورة، ويَعني افتراضُ فعلٍ ما؛ أي افتراضُ معلولٍ ما لا يُشتَقُّ من أصلٍ فاعل، وقوعًا ضِمْنَ دَوْرٍ مُتسَلْسِل، والأمر هو إمَّا ألَّا يُوجَد دافعٌ أوَّلُ مطلقًا، وإمَّا ألَّا يكون لكلِّ دافعٍ أوَّلَ أيةُ عِلةٍ سابقة، فلا إرادةَ حقيقيةً

بلا اختيار؛ ولذا فإن الإنسان مختارٌ في أفعاله، والإنسان هكذا يكون حيًّا بعنصرٍ غيرِ مادي، وهذه هي مادة إيماني الثالثة، ويسهُل عليكم أن تستنبِطوا من هذه الثلاث الأُولى جميعَ الأخرى من غير أن أستمرَّ على عَدِّها.

وإذا كان الإنسان فاعلًا مختارًا، فإنه يَعمَل من تلقاء نفسه، ولا يَدْخُل جميعُ ما يصنع ضِمْنَ النظام الذي رتَّبَته العنايةُ الإلهية، ولا يُمكن أن يُنسَب إليها؛ فهي لا تريد الشرَّ الذي يفعله الإنسان بإساءته استعمالَ الاختيارِ الذي تُعطيه إياه، ولكنها لا تمنعه من فِعْلِه، وذلك إمَّا لأن صدورَ هذا الشرِّ عن موجودٍ بالغِ الضعف أمرٌ لا يؤبه له في نظرها، وإمَّا لأنها لا تستطيع أن تمنعه من غير أن تَعُوق اختيارَه، فتأتي شَرًّا أعظَمَ من ذاك بحطٍّ طبيعته، وهي قد جعلته حُرًّا لكيلا يَصْنَعَ الشَّر، بل ليصنَع الخيرَ عن خيار، وهي قد وضعته في حالٍ يَفْعَلُ فيها هذا الخيارَ باستعماله كثيرًا من الخصائص التي أنعمت بها عليه، ولكنها بلغت من تحديد قُواه ما لا يُكدِّر النظامَ العامَّ معه سوءُ استعمال الحرية التي تَدَعها له، وما يأتيه الإنسان من شَرٍّ فيقع عليه من غير أن يُغيِّرَ شيئًا من نظام العالم، ومن غير أن يَحُولَ دون بقاء النوع البشريِّ على الرغم منه. وينطوي كلُّ تذمُّرٍ من أن الله لا يَحُول دون فِعْل الشر على تذمُّرٍ من أنه خَلَق ذلك النوعَ من طبيعةٍ رائعة، ومن أنه وَسَمَ أفعالَه بأدبٍ يُشرِّفها، ومن أنه جعل له حقًّا في الفضيلة. ويتجلَّى أرفعُ إمتاعٍ في رضا النفس، ونحن لكي نستحق هذا الرِّضا جُعِلنا على الأرض وجُمِّلنا بالاختيار، وأُغوينا بالأهواء ورُدِعنا بالضمير. وماذا كانت القدرة الصمدانية تصنَع أكثرَ من ذلك نفعًا لنا؟ أمَا كانت تجعلُ تناقضًا في طبيعتنا فتمنَح مَن هو عاجزٌ عن صُنع الشرِّ جائزةً على صُنع الخير؟ ماذا! هل كان من الواجب قَصْرُ الإنسان على الغريزة وجعله من البهائم منعًا له من أن يكون شَريرًا؟ كلَّا، رَبَّ نفسي، لن ألومَك مطلقًا على أنك خلقته على مثالك ليُمكِنَني أن أكون حُرًّا صالحًا سعيدًا مِثْلَك.

وسوءُ استعمال مواهبنا هو الذي يَجْعَلنا تُعساءَ أشرارًا، وتَصدُر عنَّا كُرُوبنا وهمومنا وآلامنا. ولا جدالَ في أن الشرَّ الخُلُقيَّ من عملنا، وفي أن مَرَضنا البدني لا يكون شيئًا لولا عيوبنا التي تجعلنا عُرضةً له، ألم تجعلنا الطبيعةُ شاعرين باحتياجاتنا حِرْصًا على بقائنا؟ أليس ألَمُ الجسم دليلًا على اختلال الآلة وتنبيهًا إلى تلافيه؟ والموتُ، ألَا يُسمِّمُ الأشرارُ حياتَهم وحياتَنا؟ ومَن ذا الذي يريد أن يعيش مُخلَّدًا؟ إن الموت علاجٌ للشرور التي توجبونها على أنفسكم؛ فالطبيعة لم تُرِدْ أن تألموا دائمًا، وما أقلَّ الآلام التي يكونُ الإنسانُ الحيُّ عُرْضَةً لها في البساطة الابتدائية! وهو يعيش بلا أمراضٍ تقريبًا كما يعيش بلا أهواء، وهو لا

يُبصِرُ الموت ولا يَشعُر به، وهو إذا ما أحسَّه رَغَّبَتْه فيه أبؤُسُه؛ ولذا عاد لا يكون شَرًّا عنده، وإذا ما كُنَّا راضين بالحال التي نحن عليها لم نرِث طالعنا مطلقًا، ولكننا نَجْلبُ لأنفسنا ألفَ شرٍّ حقيقيٍّ في سبيل البحث عن سعادةٍ خياليةٍ. ومَن لم يَعْرِف احتمالَ قليلِ ألمٍ وجب أن يتوقَّع كثيرَ وَجَع، ومَن يُفسِد بُنيَتَه بحياةٍ داعرةٍ يُرِدْ إصلاحَها بعلاجات، فيُضافُ إلى المرض الذي يُحَسُّ مَرَضٌ يُخشى، وما يَقَعُ من حَذَرِ الموت يجعله كريهًا ويُعَجِّلُه، وكلَّما أُريد الفِرارُ منه شُعِرَ به، ويُصابُ الإنسان بالموت عن خوْفه إياه مدى حياته، وذلك بما يتبرَّم به ضِدَّ الطبيعة عن شرورٍ صنعَها لنفسه بإساءته إلى الطبيعة.

فيا أيها الإنسان، لا تبحثْ عن فاعلِ الشرِّ أكثرَ مما بحثتَ؛ فأنت ذاك الفاعل، ولا يوجد شرٌّ آخرُ غير الذي تَصنع أو الذي منه تَتوجَّع، ومن نفسك يأتيك هذا وذاك، ولا يُمكِنُ الشرَّ العامَّ أن يكون في غيرِ عدم النظام، وأرى في نظام العالَم انتظامًا لا يناقِض نفسه مطلقًا، ولا يكون الشرُّ الخاصُّ في غيرِ شعور الموجود الذي يألَم، ولم يتلقَّ الإنسانُ هذا الشعور من الطبيعة، بل الإنسانُ هو الذي صنعه لنفسه، وليس للألم غيرُ سلطانٍ قليلٍ على قليلِ التأمُّل، فلا تكون لديه ذكرى ولا حَذَر، وانزِعوا تقدُّمَنا المشئوم، وأزيلوا خطأنا وعيوبَنا، وامحوا عملَ الإنسان، يَغْدُ كلُّ أمرٍ خيرًا.

ولا جَوْرَ حيث كلُّ أمرٍ خير، ولا انفصالَ للعدل عن الجُود، والواقع أن الجود نتيجةٌ ضروريةٌ لقدرةٍ لا حَدَّ لها ولحُبِّ النفس الجوهريِّ لكلِّ موجودٍ ذي إحساس، ومَن هو قادرٌ على كلِّ شيءٍ يَبْسُط وجوده لهذا السبب على وجود المخلوقات، والإنتاج والبقاء من عمل القدرة الدائم، ولا يدور الأمر حَوْلَ ما هو غيرُ موجودٍ مُطلَقًا، وليس الإلهُ إلهَ الأموات، ولا يُمكِن أن يكون هادمًا شَريرًا من غير أن يسيء نفسه، ومن يقدِر على كلِّ شيءٍ لا يُمكِن أن يريد غيرَ الخير،[٢٥] ولذا فإن من الواجب أن يكون الكائنُ الذي هو كامل الجُود لأنه كامل القدرة، كاملَ العدل أيضًا، وإلا فإنه يناقض نفسه؛ وذلك لأن حُبَّ النظام الذي يوجبه يُدْعَى جُودًا، ولأن حُبَّ النظام الذي يحافظ عليه يُدعى عدلًا.

ويُقال لا ينبغي للرَّبِّ أن يكون مَدينًا لمخلوقاته بشيء، وأظنُّ أنه مَدينٌ لهم بكلِّ ما وَعَدَهم به حينما أنعم عليهم بالوجود، والواقعُ أنه وعدَهم بالخير إذ مَنَحَهم فكرةً وأشعَرَهم

[٢٥] كان القدماء على صواب كبير عندما كانوا يسمُّون الربَّ الأعلى «العليَّ الأعلى»، ولكنهم يكونون على صوابٍ أدقَّ من ذلك لو قالوا «الأعلى العلي»، ما دام جوده يأتي من قدرته، وهو جوَّاد لأنه عظيم.

بالاحتياج إليه، وكلَّما خَلَوْتُ إلى نفسي فكَّرْتُ وقدَّرتُ وقرأت هذه الكلمات المكتوبة في روحي، وهي: «كُنْ عادلًا تكن سعيدًا.» ومع ذلك، فإن الأمر يبدو غير ذلك عند النظر إلى حال الأشياء في الوقت الحاضر؛ فالشِّرير يزدهر والصالح يظلُّ مظلومًا، وكذلك انظروا أيَّ غيظٍ يشتعل فينا عند خَيبة هذا الانتظار! ويثور الضمير ويتذمَّر من بارئه، ويدعوه مرتجفًا قائلًا: «لقد خدعتني.»

«خَدَعْتُك أيها المتهوِّر! مَن قال لك هذا؟ هل مُحيَ رُوحُك؟ هل انقطع وجُودُك؟ أيْ بُروتُوس! أيْ بُنيَّ! لا تُدنِّسْ حياتَك الكريمةَ بإنهائها مطلقًا، ولا تَدَعْ أمَلَكَ ومجْدَكَ مع بَدنِك لحقولِ فِليبِّي، ولِمَ تقول «ليست الفضيلةُ شيئًا»، عندما كِدتَ تتمتَّعُ بجائزةِ فضيلتِك؟ تَرَى أنك تَموت! كلَّا، إنك تحيا، وهنالك أكونُ قد قُمتُ بما وعدتُك به.»

ويُقال عند النظرِ إلى تَذمُّر فاقدي الصبرِ من النَّاس إن الربَّ مَدينٌ لهم بالجائزة قبل استحقاقها، وإنه ملزَمٌ بدفع بَدَل الفضيلة سلفًا. وَيْ! لِنكنْ صالحين أوَّلًا، ثُمَّ نكون سعداء، ولا نطالبْ بالجائزة قبل الفوز، ولا بالأجرة قبل العمل. قال بلوتارك: «لا يتمُّ في الملعب تتويجُ الفائزين في ألعابنا المقدسة، بل يتمُّ بعد أن يقوموا بمباراتهم.»

وإذا كانت الروحُ غيرَ ماديةٍ أمكن أن تَبقى حيةً بعد البَدَن، وهي إذا ما بَقيَت حَيَّة بعده سُوِّغَت العنايةُ الربانية، ولو لم يكن لديَّ دليلٌ آخرُ على لا مادِّيَّةِ الروحِ غيرُ فوزِ الشِّرير واضطهادِ الصالح في هذا العالم لكفى هذا وحدَه لمنعي من الشكِّ في ذلك. وتَنافرٌ كثيرُ الأذى كهذا في انسجام العالَم يَدفعني إلى محاولة حَلِّه، فأقول في نفسي: «لا ينتهي كلُّ شيءٍ مع الحياة عندنا؛ فكلٌّ يَجدُ مكانه بالموت.» والحقُّ أنني أُحَمِّلُ نفسي غَوْلَ السؤال عن مكان الإنسان بعد زوال كلِّ ما كان لديه من أمرٍ محسوس، وعاد هذا السؤال لا ينطوي على صعوبةٍ لديَّ ما اعترفتُ بعنصرين. ومن البساطة البالغة ألَّا أُدرِكَ شيئًا بغير حواسِّي في أثناء حياتي البدنية فيفوتني ما لا يخضَعُ لها مطلقًا؛ فمتى زال اتحاد البدن والروح أدركتُ إمكانَ انحلال أحدهما وبقاء الآخر. ولِمَ يؤدِّي زوال أحدهما إلى زوال الآخر؟ وعلى العكس، كانا في حالِ شِدَّةٍ باتحادهما لاختلاف طبيعتهما؛ فمتى زال هذا الاتحاد عادا كلاهما إلى حالهما الطبيعية؛ أي إن العنصرَ الفاعل الحيَّ يستردُّ جميعَ القوة التي كان يستعملها في تحريك العنصر المنفعل الميت. وا حسرتاه! إنني أُحِسُّ كثيرًا بمعايبي كونَ الإنسان لا يعيش غيرَ نصف عيشٍ في أثناء حياته، وأن حياةَ الروح لا تبدأ إلا بموْت البدن.

ولكن ما هذه الحياة؟ وهل الروحُ خالدٌ بطبيعته؟ لا يتصور إدراكي المحدود شيئًا غيرَ محدود، ويفوتني كلُّ ما يُدْعَى لا حَدَّ له، وما أستطيع أن أنكر وأُوَكِّد؟ وأيُّ برهانٍ يمكنني أن أقيم حوْل ما لا أقدِر أن أُدرِك؟ أعتقد أن الرُّوح تبقى حيةً بعد البدن لحفظ النظام، ومَن يَعْرِفُ أن هذا يكفي لخلودها أبدًا؟ ومهما يكن من أمرٍ فإنني أُدرك كيف يَبْلَى البدنُ ويَفنَى بتفرُّق الأجزاء، ولكنني لا أستطيع أن أدرك مثلَ هذا الفَناء للموجود المفكِّر، وإني إذ لا أتصوَّر كيف يُمكِن أن يموت أفترض أنه لا يموت، وبما أن هذا الافتراض يفرِّج غمِّي ولا ينطوي على شيءٍ مخالفٍ للصواب، فلِمَ أخشى أن أُسَلِّمَ به؟

وأشعرُ بروحي، وأعرِفه بالشعور وبالفكر، وأعلم أنه موجود من غيرِ أن أعلم ما جوهرُه، ولا أقدِر أن أُبَرْهِن حَوْل أفكارٍ ليست لديَّ. والذي أعْرِف جيِّدًا كونُ ذاتي لا تمتدُّ بغير الذاكرة، وأنني لكي أكون إيَّايَ في الحقيقة يجب أن أذكر أنني كُنْت. والواقع أنني لا أستطيع أن أذكُر بعد مماتي ما كنت في أثناء حياتي ما لم أذْكُرْ ما كنتُ أُحِس؛ ومِنْ ثَمَّ ما كنتُ أعمل، ولا رَيْب عندي مُطلَقًا في كَوْن هذا الذِّكر يكون ذات يومٍ مدار سعادة الأبرار وعذاب الأشرار. وتجِدُ في هذه الدنيا ألفَ هَوًى حارٍّ يستغرِق الشعور الباطني، ويخادِع وخزَ الضمير، وما تَجْلُبُهُ ممارسة الفضائل من هَوانٍ وفَقْدِ حُظوةٍ يَحُول دون الشعور بفُتُونها كاملة. ولكن متى نجونا من الأوهام التي يوجبُها الجسم والحواسُّ فينا، فتمتَّعْنا بتأمُّلِ الكائن الأعلى وبالحقائق الخالدة الذي هو أصلها، ومتى قَرَعَ جمالُ النظام جميعَ قُوَى رُوحنا فشُغِلنا فقط بالمقابلة بين ما صنعنا وما كان يجبُ أن نصنع، استردَّ صوتُ الضمير قُوَّتَه وسلطانه هنالك، ومَيَّزَتِ اللذَّةُ الخالصةُ عن رضا النفس والندامة الأليمة عن تَدَنٍّ، بمشاعرَ لا تَنضُب، ما أَعَدَّه كلُّ واحدٍ لنفسه من مصير. ولا تسألني يا صديقي العزيز مُطلَقًا عن وجودِ منابعَ أخرى للسعادة والآلام؛ فهذا أمرٌ أجهلُه، وإنما أجِدُ في المنابع التي أتخيَّلُ ما يكفي لتسليتي في هذه الحياة، ولأرْجوَ حياةً أخرى. ولا أقول مطلقًا إن الصالحين سيُكافَئون، فما الخير الآخرُ الذي يُمكِن أن ينتظره موجودٌ مَجيدٌ إن لم يكن وجودُه وَفْقَ طبيعته؟ بَيْدَ أنني أقول إنهم سيكونون سعداء؛ وذلك لأن بارئهم، الذي هو فاعلُ كلِّ عدل، إذ خَلَقهم ذوي إحساس، لم يصنعهم للألم؛ وذلك لأنهم إذ لم يسيئوا استعمالَ اختيارهم في الأرض لم يخونوا مصيرهم بذَنْبهم؛ أي إنهم أَلِموا في هذه الحياة، فيُعوَّضون في حياةٍ أخرى إذن. وهذا الشعورُ أقلُّ استنادًا إلى استحقاق الإنسان مما إلى مبدأ الصلاح الذي

يلوح لي أنه تعذُّرُ انفصاله عن الكُنْه الإلهي. ولا أصنع غيرَ افتراضِ سُنَن النظام الملاحَظة، واللهُ قائمٌ بذاته.[٢٦]

وكذلك لا تسألوني عن كَونِ الأشرار خالدين في العذاب أبدًا؛ فأنا أجهلُ هذا أيضًا، وليس لديَّ من الفضول الفارغ ما أُوضِحُ به هذه المسائل غير المُجدية، وما أَرَبي في مصير الأشرار؟ إنني قليل الاكتراث لما يصيرون إليه، ومع ذلك فإنه يصعُب عليَّ أن أعتقد أنهم محكومٌ عليهم بعذابٍ لا نهايةَ له. فإذا كان العدلُ الأعلى ينتقم، فإنه ينتقم في هذه الحياة. وأنتم أيها الأقوام، مع ضلالاتكم، وكلاءُ له، وهو يستعمل الشرورَ التي تأتون للعقابِ على الجرائم التي اجتذبتها، وذلك أن الأهواء المُنتَقِمة تجازي على مُنكراتكم في أفئدتكم الشَّرهة التي أكلها الحسدُ والبخل والطمع، وفي صميم يُسْرِكم الزائف. وهل من حاجةٍ إلى البحث عن النار في الحياة الأخرى؟ فالنارُ هنا في قلب الأشرار.

ويجب أن تنقطع أهواؤنا وجرائمنا حيث تنتهي احتياجاتُنا الزائلة ورغباتنا غير الصائبة، وأيُّ فُسوقٍ تكون النفوس النقيةُ مستعدَّةً له؟ وهي إذ ليست محتاجةً إلى شيءٍ فلِمَ تكون شَريرة؟ وهي إذ تكون في مَنجًى من حواسِّنا الغليظة فإن سعادتها تكون في تأمُّل الموجودات، ولا تستطيع أن تريد غيرَ الخير. وهل يكون خبيثًا إلى الأبد مَن ينقطع عن الشَّر؟ كلَّا، وهذا ما أميل إلى اعتقاده، وإن لم أُكلِّفْ نفسي عناءَ اتخاذ قرارٍ في هذا. فيا أيها الرب الرحيم الكريم، إنني أعبُد قضاءك مهما كان، وإذا كنتَ تجازي الأشرار جزاءً أبديًّا، فإنني أُلغي عقلي الضعيف أمام عدْلِك؟ ولكن إذا كان نَدَمُ هؤلاء التُّعساء ينطفئ مع الزَّمن، وإذا كانت آلامهم تنتهي، وإذا كان السلام عينه ينتظرنا كلَّنا على السواء ذات يوم، فلك منِّي الثناء من أجل هذا. أَوَليس الشَّريرُ أخًا لي؟ وما أكثَرَ ما أُغريتُ بمشابهته! وليَزُلْ سوءُه الملازِمُ له بخلاصه من شقائه، وليكُن سعيدًا مثلي، فلا تؤدي سعادته إلى غير زيادة سعادتي، وذلك مع استبعاد إثارة غَيرتي بذلك.

وهكذا، فإنني إذ أنظرُ إلى الله في أعماله، وإذ أبحث عنه بصفاته التي يُهمُّني أن أعرِفها، أنتهي إلى توسيعي وزيادتي بالتدريج فكرَتي الناقصةَ المحدودةَ في البُداءة، عن هذا الكائن العظيم، ولكن إذا كانت هذه الفكرة قد تحوَّلت إلى ما هو أنبلُ وأكبر، فإنها

[٢٦] ليس لنا يا رب، ليس لنا، لكن لاسمك أعطِ مجدًا من أجْل رحمتك، من أجْل أمانتك (المزمور المائة والخامس عشر).

كذلك أقلُّ تناسبًا مع العقل البشري. وكلَّما دنوتُ بالروح من النور الأزلي بَهَرَني سناؤه وحيَّرني، فأضطرُّ إلى ترْك جميع المفاهيم الدنيوية التي كانت تساعدني على تصُّوره، فيعود الربُّ غير جسميٍّ وغير حِسِّي، ويعود العقل الأعلى الذي يهيمن على العالم لا يكون عينَ العالَم، وأرفَعُ ذهني وأُتعبُه لإدراكِ كُنْهه على غير جدْوَى. ومتى فَكَّرْتُ في أنه هو الذي يُنْعِمُ بالحياة والفاعلية على العنصر الحيِّ الفعال المسيطر على الأجسام الحية، ومتى سمعتُ قولًا عن كون نفسي روحانيةً وعن كون الربِّ روحًا، ساورني غيظٌ من تَدنِّي الكُنه الإلهي كما لو كان الربُّ وروحي من طبيعة واحدة، وكما لو كان الربُّ وحدَه ليس المُطلَق الفاعل الشاعر العاقل المُريد بذاته حَقًّا، فنقتبس منه العقل والشعور والفاعلية والإرادة والاختيار والكِيان! ونحن لسنا مُخيَّرين إلا لأنه أراد أن نكون هكذا، ويُعَدُّ كُنهه خافيًا على أرواحنا خفاءَ أرواحنا على أجسامنا. ولا أعْرِف شيئًا عن خلقه المادةَ والأجسامَ والأرواحَ والعالم، وتَربُكُني فكرةُ الخلقِ وتُجاوِزُ مُتناوَلي، وأعتقدها بمقدارِ ما أستطيع تمثُّلَها، ولكني أعرِف أنه صَوَّر الكونَ وكلَّ موجود، وأنه صَنع كلَّ شيءٍ ونظَّمَ كلَّ شيء، والله أبديٌّ لا رَيْب. ولكن هل يستطيع ذهني أن يستوعبَ فكرةَ الأبدية؟ ولِمَ أُقْنِعُ نفسي بكلماتٍ لا معنًى لها؟ وكلُّ ما أتصورُ هو أنه كان قبلَ الأشياء، وأنه يكون ما بَقِيَت، وأن يكون بعدها، أي إذا ما انتهى أمرُها ذات يومٍ. وليس من الغموض وتعذُّر الإدراك أن يُنعِمَ الموجود الذي لا أدرِك بالحياة على الموجودات الأخرى، ولكنَّ تَحوُّلَ كلٍّ من الوجود والعدم إلى الآخر بنفسهما ينطوي على تناقضٍ جلي، وهو مُحالٌ واضح.

والله عاقل، ولكنْ كيف يكونه؟ والإنسانُ عاقلٌ عندما يُبَرْهن، ولا يحتاج العقل الأعلى إلى البرهنة، ولا توجد له مُقدِّماتٌ ولا نتائج، حتى إنه لا يُوجَدُ له قضية، وهو عِيانيٌّ محضًا، وهو يرى على السواء ما هو كائنٌ وما يُمكن أن يكون. وليست جميعُ الحقائق عنده سوى فكرةٍ واحدة، كما أن جميع الأمكنة عنده ليست سوى نقطةٍ واحدة، وكما أن جميع الأزمنة عنده ليست سوى هُنَيْهَةٍ واحدة، وتعملُ قدرة الإنسان بالوسائل، وتَعْمَلُ قدرةُ الله بذاتها، والله يَقْدِرُ لأنه يُريد، وإرادته قدرتُه. والله جوَّاد، ولا شيءَ أوضحُ من هذا، غير أن جودَ الإنسان قائمٌ على حُبِّ أمثاله، وجُودَ الله قائمٌ على حُبِّ النظام؛ وذلك لأنه يُمسِك بالنظام ما هو موجود، فَيَرْبطُ كلَّ جزءٍ بالكل. والله عادل، وأعتقد هذا، وهذا نتيجةُ جُوده، وظلمُ النَّاس من عملهم، لا من عمله، وليس ما يُدلي به الفلاسفة من فسادٍ أدبيٍّ ضدَّ العناية

الربانية غيرَ دليل على ذلك العدل في نظري، بَيْدَ أن عدلَ الإنسان يقوم على إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وأن عدل الله يقوم على مطالبة كلِّ واحدٍ بأن يُقَدِّم حسابًا عما أعطاه إياه.

وإذا كنتُ قد وُفِّقْتُ لاكتشافي بالتَّعاقب هذه الصفات التي ليس لديَّ أيةُ فكرةٍ مطلقةٍ عنها، فذاك باعتمادي على نتائجَ ضرورية، وذاك عن حُسْنِ استعمال عقلي. غير أنني أؤيِّدُ وجودها من غير أن أدركها، وليس هذا تأييدًا من حيث الأساس، ومن العبث أن أقول إن الله هو هكذا، أي إنني شاعرٌ به مختبرٌ له، وما كنت لأتمثَّلَ ما هو أفضلُ من هذا في إمكان كَوْن الربِّ هكذا.

وحاصلُ القول أنني كلَّما سَعيتُ في تأمُّل كُنهِه الذي لا حدَّ له قلَّ إدراكي له، ولكنه موجود، وهذا يكفيني، وكلَّما قلَّ إدراكي له كثُرَت عبادتي له، وأخشَعُ وأقول له: «أيْ ربَّ كلِّ موجود، أنا موجودٌ لأنك موجود، ويعني تأمُّلُك دائمًا ارتقائي إلى منبعي، ويَكُون أفضلُ استعمالٍ لعقلي في تذلله كليًّا أمامك، وهذا هو سَلْبُ قلبي وفُتونُ ضعفي، وهذا شعوري بأني مشمولٌ بعظمتك.»

وإني بعد أن استنبطتُ الحقائقَ الرئيسةَ التي يُهِمُّني معرفتُها، وذلك من انطباعِ الأشياءِ المحسوسةِ ومن الشعورِ الباطنيِّ الذي يَحمِلُني على الحُكمِ في العللِ وَفْقَ براهيني الطبيعية، بقيَ عليَّ أن أبحثَ عن أيِّ المبادئ التي يجِبُ أن أستخرجَ منها سلوكي، وعن أيِّ القواعدِ التي يجِبُ أن أُلزِمَ بها نفسي قيامًا بمُقْتَضى مصيري في الأرض وفْقَ مَقْصِدِ الذي جعلني فيها. أجلْ، إنني باتِّباعي منهاجي دائمًا لا أستنبطُ هذه القواعدَ من مبادئ الفلسفة العليا مطلقًا، وإنما أجِدُها مسطورةً في صميم فؤادي من قِبَلِ الطبيعة بحروفٍ لا تُمحَى. وليس عليَّ أن أشاورَ غيرَ نفسي حوْل ما أُريد أن أصنع، وكلُّ ما أشعرُ بأنه خيرٌ هو خير، وكلُّ ما أشعرُ بأنه شرٌّ هو شر، والضميرُ أَفْضلُ حلَّالٍ للمشاكل، ولا يُصارُ إلى دقائقِ البرهانِ إلا عند مساومته. وواجبُ الإنسان نحوَ نفسِهِ هو أوَّلُ الواجبات، ومع ذلك فما أكثرَ ما يقول لنا صوتُ الباطنِ إننا نَصنع الشرَّ بصنعنا خيرَنا على حسابِ الآخرين! ونحن نعتقدُ أننا نتَّبِعُ دافعَ الطبيعةِ ونحن نقاومه، ونحن إذ نستمعُ إلى ما تخاطِبُ الطبيعةُ به حواسَّنا نَزدَري ما تخاطبُ به قلوبَنا؛ فالموجودُ الفاعلُ يُطيع، والموجودُ المنفعل يَصطنِع. والضميرُ صوتُ الروح، والأهواءُ صوتُ البَدَن. وهل من العجيبِ أن يتناقضَ هذان اللسانان في الغالب؟ وهنالك أيُّ اللسانين يجبُ أن يُنصَت له؟ والعقلُ يخادعُنا في الغالب، ولنا كلُّ الحقِّ في رفْضه، ولكن الضمير لا يخدعُ مطلقًا، وهو دليلُ الإنسان الصادق، وهو بالنسبة

إلى النفسِ كنسبةِ الغريزةِ إلى البدن،[٢٧] ومَن يتَّبِعْه يُطِعِ الطبيعة ولا يَخشَ أن يَضِلَّ أبدًا. وهذه النقطة مهمة، وإني إذ أتتبع المُنعِم عليَّ وأُبصِرُ أنني أنقطع عنه، أقول: دعوني أقف قليلًا لإيضاحها.

ويقوم كلُّ أدبٍ في أفعالنا على الحكم الذي نحمِلُه عنها، وإذا كان من الصحيح أن الخير خيرٌ وجب أن يكون هكذا في صميم قلوبنا كما في أفعالنا، وتكون جائزةُ العدلِ الأُولى في شعورنا بأننا نقيمه، وإذا كان الصلاح الخُلُقيُّ مطابقًا للطبيعة فإن الإنسان لا يكون سليمَ الروح والجسم إلا بصلاحه، وإذا لم يَكُن الأمر هكذا وكان الإنسان شَرِيرًا طبيعةً فإنه لا يستطيع أن ينقطع عن هذا الوضع من غير أن يَفسُد، ولا يكون الصلاح فيه سوى عيبٍ ضد الطبيعة، وإذا ما صُنِع الإنسانُ لإيذاء أمثاله كان كالذئب الذي يذبح فريسته، وبدا الإنسانُ البشريُّ حيوانًا فاسدًا كالذئب الرحيم، والفضيلةُ وحدَها هي التي تَدَعُ فينا وخزًا للضمير.

[٢٧] لا تقول الفلسفة الحديثة التي لا تقبل غير ما تفسِّر، بالخاصية الغامضة المسمَّاة «غريزة»، والتي تسوق الحيوانات نحو الغرض من غيرِ معرفةٍ مكتسبة. وليست الغريزة عند «كوندياك» الذي هو من أحكم فلاسفتنا غيرَ عادة خاصة في التأمُّل، ولكن مع اكتسابها بالتأمُّل، ويجب أن يُستنتج من الوجه الذي يُوضِّح به هذا التقدُّمُ كونُ الأولادِ أكثرَ من الرجال تأمُّلًا، وهذا قولٌ غريب، وهو من الغرابة ما لا يستحق معه أن يُفحص، ولا أدخل هنا في هذا الجدل، وإنما أسأل عن الاسم الذي يجب أن أطلقه على ما يبديه كلبي من نشاطٍ في مقاتلة المَنَاجِذ* التي لا يأكلها مطلقًا، وعلى ما يبديه من صبرِ ساعاتٍ بكاملها كامنًا لها، وعلى ما يبديه من براعةٍ في إمساكها وقذفها خارجَ أرضِها عند بروزها، وفي قتلها بعد ذلك لتركها هنالك من غيرِ أن يدرِّبه أحدٌ على هذا الصيد، ومن غير أن يعلم من أحدٍ وجودَ مَناجِذَ في ذاك المكان. وأسأل أيضًا — وسؤالي هذا أكثر أهمية — عن السبب في استلقاء هذا الكلب على الأرض مثني الأرجل متَّخِذًا وضعَ ضارعٍ مؤثِّرٍ فيَّ، متَّخِذًا هذا الوضع الذي كان يبقى عليه لو ضربته وهو في هذه الحال من غير أن يستجلب عطفي، ماذا! كلبي الصغير الذي وُلِدَ منذ وقتٍ قصير يكتسب مبادئَ خُلُقية! وهل كان يَعْرِف ما الرحمة والكرم؟ وما البصائر المكتَسَبة التي كان يرجو أن يسَكِّنني بها تاركًا نفسه تحت تصرُّفي على هذا الوجه؟ إن جميع كلاب العالم يأتون ذات الشيء في ذات الحال دائمًا، ولا أقول شيئًا عمَّا يمكن كلَّ واحد أن يحقق لنفسه. وليتفضل الفلاسفة الذين يرفضون الغريزة بازدراءٍ أن يوضِّحوا لنا هذا الأمر بالإحساسات والمعارف التي يفترضون اكتسابنا لها، وليوضِّحوا لنا ذلك على وجهٍ يقنع به كلُّ ذي عقل، وهنالك لا يبقى لي ما أقول، وهنالك لا أتكلم عن الغريزة مطلقًا.

* المَنَاجِذ: جمْع خُلْد من غير لفظها، والخُلْد نوعٌ من القواضم يعيش تحت الأرض، وهو ليس له عينان ولا أذنان.

ولنَعُدْ إلى أنفسنا يا صديقي الشاب! ولنطرحْ كلَّ مصلحةٍ شخصيةٍ جانبًا، ولنبحثْ عن المدى الذي تحْمِلُنا إليه ميولنا، وأيُّ منظرٍ يفتننا أكثرَ من غيره، أمنظر آلام الآخرين أم منظر سعادتهم؟ وأيُّ الأمرين أحلى لنا أن نصنعه فيترُك فينا أثرًا أكثرَ لطافةً بَعْدَ فِعْله، أَعَمَلُ الخير أم عملُ الشر؟ وما الذي يعنيكم في مسارحكم؟ أتجدون لذةً بالجرائم؟ أتَسكبون دموعًا من أجل فاعليها المأخوذين بها؟ هم يقولون لا يوجدُ في جميع ذلك ما نكترث له خارج مسرحنا. وعلى العكس، نجِدُ بحلاوة الصداقة والإنسانية سُلوانًا في آلامنا، حتى إننا نكون في ملاذِّنا وحيدين بائسين كثيرًا إذا لم نَجِدْ مَن يقاسمنا إياها. وإذا لم يوجد شيءٌ من الأخلاق في قلب الإنسان، فمن أين يأتيه إذن هذا التهلُّل من أجل أعمال البطولة وهذا الجذَلُ حُبًّا لذوي النفوس الكبيرة؟ وما علاقة هذه الحماسة للفضيلة بمصلحتنا الخاصة؟ ولِمَ أُفَضِّلُ أن أكون كاتُون الذي يُمزِّق أحشاءه على أن أكون قيصرَ الظافر؟ إذا ما نزعتم من قلوبنا حُبَّ الجمال أزلتم كلَّ فتونٍ في الحياة، وإن الذي خَنَق ساقِطُ الأهواء في نفسِه هذه المشاعرَ اللطيفة، وإن الذي حَصَرَ أفكارَه في شخصه فصار لا يُحِبُّ غيرَ نفسه، عاد لا يكون صاحبَ حميةٍ وعاد فؤاده الجامدُ لا يخفِقُ سرورًا، وعاد لا يُخْضِلُ عينيه حنانٌ خُلْوٌ، وعاد لا يتمتع بشيء، وعاد التَّعِس لا يُحِسُّ ولا يعيش؛ فهو قد مات.

ولكنْ مهما يكن عددُ الأشرار في الأرض، فإن من القليل أن تَجِد أناسًا من ذوي النفوس الجيفيَّة التي أصبحت لا تشعُر خارجَ مصلحتها بكلِّ ما هو عادلٌ صالح. ولا يَروقنا الجورُ إلا بمقدار ما يفيدنا، فإذا عَدوت هذا وجدْتنا نريد حمايةَ البريء، وإذا ما رُئِيَ في شارعٍ أو طريقٍ قسوةٌ وظلمٌ لم تلبثْ أن تَثورَ حركةُ غضبٍ وسخطٍ في صميم القلب حالًا، فتحْمِلَنا على التزام جانب الدفاع عن المظلوم. غير أن واجبًا أقوى من ذاك يُمسِكنا، وتَنزِعُ القوانين مِنَّا حقَّ حماية البراءة، وعلى العكس إذا حدث أن وقف نظرنا عملُ رحمةٍ أو كرم، فما أكثرَ ما يوحى إلينا من إعجاب ومحبة! ومَن ذا الذي لا يقول في نفسه: «يا ليتني صنعت مثل هذا»؟ ولا ريبَ في أن مما نبالي به قليلًا كَوْنَ هذا الرجل أو ذاك شرِيرًا أو عادلًا منذ ألفي سنة، ومع ذلك فإن ذات الغَرَض يساورنا في التَّارِيخ القديم كما لو كان جميعُ هذا قد حَدَثَ في أيامنا. وما عمل جرائم كاتيلينا فيَّ؟ أَأَخْشى أن أكون ضحيته؟ ولِمَ أحمِلُ له إذنْ ذاتَ المقْت كما لو كان معاصِرًا لي؟ ونحن لا نُبْغِض الأشرار لأنهم يؤذوننا فقط، بل لأنهم أشرار، ولا نريد أن نكون سعداء فقط، بل نريد سعادة الآخرين، وإذا كانت هذه السعادة لا تُكلِّفُ سعادتنا شيئًا زادتها. والخلاصة أن الإنسان يَرِقُّ للتعساء على الرغم منه، وهو يألم إذا رآهم يألمون، وما كان أكثرُ النَّاس فسادًا ليفقِدوا هذا العطف تمامًا، وهذا ما يجعلهم

يناقضون أنفسهم. ويكسو اللصُّ الذي يسلُبُ السابلةَ الفقيرَ العاري، ويساعد أشدُّ النَّاس سفكًا للدماء مَن يرى سقوطهم إغماء.

ويُحدَّث عن صوتِ النَّدم الذي يجازي سِرًّا عن الجرائم الخفية، والذي يُظهِرُها غالبًا. وا حَسْرَتاه! مَن مِنَّا لا يسمعُ هذا الصوت المزعج؟ نحن نتكلم عن تجرِبة، ونُريدُ خَنْقَ هذا الشعور الجائر الذي يُورثنا ألَمًا كبيرًا، ولْنُطِع الطبيعة، وسنعلم بأيِّ رِفقٍ تهيمن، وأيُّ فُتونٍ ينطوي عليه الضميرُ الصالحُ جوابًا عن صوتها بعد أن يستمع إليه. والشَّرير يخاف الطبيعة ويفِرُّ منها، وهو يُسَرُّ إذا ما رَمى بنفسه خارجَ نفسه، وهو يُديرُ حوله عيونًا هَلوعًا، وهو يبحث عن شيءٍ يُلهيه، ولولا الأهاجيُّ اللاذعة والسخرية المؤذية لكان مكروبًا دائمًا. وتقوم لذَّته الوحيدة على ضَحِكه الساخر. وعلى العكس، يكون صفاء الصالح باطنيًّا، ولا يكون ضَحِكه عن خُبْث، بل عن حُبور، وهو يحمِلُ منبع هذا الحُبور في نفسه، وهو يكون مسرورًا وحيدًا أو بين جمْعٍ على السواء، وهو لا يقتبس رِضاه ممن يَدْنون منه، وهو يُشرِكهم فيه.

وألْقُوا عيونَكم على جميع أمم العالم، وتصفَّحوا جميعَ التواريخ، وتَجِدُون بين كثيرٍ من الأديان الجافية، وبين هذا الاختلافِ الغريبِ في الطبائع والأخلاق، عَينَ الأفكارِ عن العدل والصلاح في كلِّ مكان، وعَينَ المبادئ عن الخير والشر في كلِّ مكان. أجلْ، أوجَدَتِ الوثنية القديمة آلهةً قِباحًا لو وُجِدوا في هذه الدنيا لعُوقِبوا مثل المجرمين، وقد كانوا لا يَعرِضون عن السعادة العليا منظرًا غيرَ فواحش تُقتَرَف وغيرَ أهواءٍ تَقَعُ موقعَ الرِّضا، بَيْدَ أن المُنكَر المُسلَّح بسلطانٍ مُقدَّسٍ كان ينزِل من مقامه الأبدي على غير جدوَى؛ فقد كانت الغريزة الخُلُقية تطرُده من قلوب الآدميين، وبينما كانت الشعائر تُقامُ لدعارات جوبيتَر كان يُعجَبُ بعفاف إكزِينُوقراطس، وكان العفيفُ لوكريسُ يعبد فينوس، وكان الرومانيُّ الجريءُ يُقدِّم القرابين إلى الخوف، وكان يَضرعُ إلى الإله الذي بَترَ أباه، ويموت بيدِ أبيه من غير تبرُّم، وكان أعاظمُ الرجال يخدِمون أحقر الآلهة، وكان صوت الطبيعة المقدَّس الذي هو أقوى من صوت الآلهة يُحتَرَم في الأرض، فيَلُوحُ أنه يُقصي الجريمةَ إلى السماء مع المجرمين.

ولذا يُوجَدُ في أعماق النفوس مبدأٌ غريزيٌّ عن العدل والفضيلة نستَنِدُ إليه على الرغم من مبادئنا الخاصة في الحُكم في أفعالنا وأفعال الآخرين على أنها صالحةٌ أو طالحة، وهذا المبدأ هو الذي أُطلِقُ عليه اسم الضمير.

غير أنني أسمع من كلِّ جانبٍ ارتفاعَ صُراخِ الحكماء المزعومين، وهم يرفعون عقيرتهم قائلين بالإجماع: أغاليطُ الصِّبا، مُبْتَسَرات التَّربية! لا يوجد في الروح البشريِّ شيءٌ غيرُ الذي

يدخُلُ فيه بفعل التجرِبة، نحن لا نحكم في شيء إلا عن أفكارٍ مكتسبة، وهم يذهبون إلى ما هو أبعد من هذا، فيجرءون على إنكار ذاك الاتفاق الواضح العام بين جميع الأمم. وهم يعاكسون ما أجمع عليه النَّاس من حُكمٍ منسجمٍ ساطع، فيبحثون في الظلام عن بعض الأمثلة المبهمة التي لا يَعْرِفها غيرُهم، وذلك كأن جميع ميول الطبيعة قد زالت بفساد إحدى الأمم، وكأن النوع يعود شيئًا غير مذكور عند وجود أُناسٍ سيِّئي الأخلاق. ولكنْ ما فائدةُ المرتاب مُونتين من عذابٍ فرضَه على نفسه للعثور في زاويةٍ من العالم على عادةٍ مخالفة لمبادئ العدل؟ وما فائدته من منحه أكثرَ السياح محلًّا للطَّعْن من الثقة ما يحبِسُه عن أبعد الكُتَّاب صِيتًا؟ وهل من شأن بعض العادات الغريبة المشكوك فيها والقائمة على بعض العوامل المحلية التي نجهلها أن تهدِمَ الاستقراء العام المستنبَط من تسابُق جميع الأمم المختلفة في كلِّ شيءٍ عدا ذلك الأمر؟ فيا مُونتين! يا مونتين الذي يتبجَّح بالصدق والحق، كُن مخلِصًا أمينًا إذا أمكن الفيلسوفَ أن يكون هكذا، وحدِّثني عن وجودِ بلدٍ في العالم يكون من الجناية فيه أن يُنجِزَ الإنسانُ وعْدَه وأن يكون رحيمًا محسنًا كريمًا، وعن وجود بلدٍ يُزدَرَى فيه رجل الخير ويُكرَمُ فيه الغادر.

ويُقال إن كلَّ واحدٍ لا يساعد على الخير العام إلا في سبيل مصلحته، ولكنْ من أين يأتي، إذن، كَوْنُ الصالح يساعد على ذلك ضرًّا بنفسه؟ وهل يذهب الإنسانُ إلى الموت في سبيل مصلحته؟ أجلْ، لا أحدَ يسيرُ في أمرٍ إلا من أجلِ خيرِ نفسه، ولكن إذا وُجِدَ خيرٌ خُلُقيٌّ يجب أن يُحسَب له حسابٌ فإنه لن يُفسَّر بالمصلحة الخاصة غيرُ أعمال الأشرار، حتى إنه يُعتَقَدُ أنه لا يحاول الذهاب إلى ما هو أبعدُ من ذلك مطلقًا، وتكون فلسفةً ممقوتةً تلك التي تَضيقُ بالأعمال الصالحة ذَرْعًا، والتي لا يُتخَلَّصُ فيها من ورطةٍ إلا بأن تُلَفَّقَ لتلك الأعمال نِيَّاتٌ ساقطةٌ وأسبابٌ من الفضيلة عاطلة، والتي يُلزَم فيها بإهانة سُقرَاط وسبِّ ريغولوس. ولو قُيِّضَ لمثل هذه المذاهب أن تَنبُت بيننا ما انفكَّ صوتُ الطبيعة وصوت العقل يرتفعان ضدها، وما تَرَكا لأحدٍ من أنصارها اعتذارًا بصدور ذلك عن حسن نية.

وليس من مقاصدي أن أدخُل هنا في مجادلاتٍ خاصَّةٍ بما بعد الطبيعة تُجاوِز متناوَلي ومتناوَلكم، ولا تؤدي إلى شيءٍ من حيثُ الأساس، وكنت قد قلت لكم إنني لا أريد أن أتفلسف معكم، وإنما أريد أن أساعدكم على مشاورة قلبكم، فإذا ما أثبتَ جميعُ الفلاسفة أنني مخطئ، وإذا ما شعرتم أنني على حق، لم أُرِدْ أكثرَ من هذا.

ولا يتطلب ذلك أكثرَ من أن تُفرِّقوا بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية؛ وذلك لأننا نشعُرُ قبل أن نَعْرِف، وكما أننا لا نتعلَّم إرادة خيرنا والفرار من شَرِّنا، وإنما ننال

هذه الإرادةَ من الطبيعة، يكون حُبُّنا للصالح ومقتُنا للطالح من الأمور الطبيعية كحُبِّنا لأنفسنا. وليست أعمال الضمير أحكامًا، بل مشاعر، ومع إتيان جميع أفكارنا من الخارج تجد المشاعرَ التي تَزِنُها في باطننا، وبهذه المشاعر وحدَها نعرِف الموافقة أو عدم الموافقة التي بيننا وبين ما يَجِب احترامه أو اجتنابه من الأشياء.

والوجود عندنا هو الإحساس، ولا مِراءَ في أن حسَّاسيَّتنا أقدمُ من عقلنا، وأن لدينا أحاسيسَ قبل أن تكون لدينا أفكار،[٢٨] ومهما تكن علةُ وجودنا فإنها دَبَّرَت أمرَ بقائنا بمنْحها إيانا أحاسيسَ ملائمةً لطبيعتنا. ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكِرَ أن هذه غريزيةٌ على الأقل. وإذا نُظِرَ إلى هذه الأحاسيس من حيث الفردُ وُجِدَ أنها عبارةٌ عن حُبِّ النفس والخوفِ من الألم ومقتِ الموت والرغبةِ في الرفاهة، ولكِنْ إذا كان الإنسان اجتماعيًّا بطبيعته، ولا ريبَ في هذا، أو إنه خُلِقَ ليصير هكذا على الأقل، فإنه لا يمكن أن يكون هكذا بغير مشاعرَ غريزيةٍ أخرى مناسبةٍ لنوعه؛ وذلك لأنه عند عدم النظر إلى غير احتياجه الجُثمانيِّ يُرى أن هذا الاحتياج يوجب تَفرُّقَ النَّاس بدَلًا من التقريب بينهم. والواقع أن الدافع الوجداني ينشأ عن النظام الخُلُقيِّ المؤلَّف من علاقة الإنسان بنفسه وبأمثاله، ولا تَعني معرفةُ الخير حُبَّه؛ أي إن هذه المعرفة ليست غريزيةً في الإنسان، ولكن ضميره يحمِله على حُبِّه عندما يُعَرِّفه عقله إياه، وهذا الإحساسُ هو الغريزي.

ولذا فلا أعتقد يا صديقي أن من المتعذَّر أن يُوضَح بنتائج طبيعتنا مبدأُ الضمير المباشرُ مستقلًّا عن العقل ذاته، حتى إن هذا لو كان متعذَّرًا لظَهَر غيرَ ضروري، وذلك أن أولئك الذين يُنكِرون هذا المبدأَ المُسلَّمَ به والمعترفَ به من قِبَل الجنس البشريِّ لا يُثبِتُون عدمَ وجوده مطلقًا، وإنما يكتفون بالتوكيد. ونحن إذا ما وَكَّدنا وجودَه كُنَّا على أساسٍ أحسنَ من أساسهم؛ وذلك لما لدينا، زيادةً على التوكيد، من شهادةِ الباطنِ وصوتِ الضميرِ الذي يشهَدُ لنفسه. وإذا كان وميضُ الحُكمِ الأوَّلُ يَبْهَرُنا ويَخلِط بين الأمور في نظرنا في البُداءة، فلننتظر انفتاحَ عيونِنا ثانيةً واشتدادَها، وهنالك لا نلبثُ أن نرى تلك الأمورَ نفسَها على نورِ العقل، وكما أطلعتْنا عليها الطبيعةُ في بدءِ الأمر. وإن شئتَ فدعْنا نكونُ أكثرَ

[٢٨] تكون الأفكار أحاسيس، وتكون الأحاسيسُ أفكارًا من بعض الوجوه، ويناسب الاسمان كلَّ إدراك يشغلنا بموضوعه وبنا نحن الذين يتأثَّرون به، ولا يوجد غير أمر هذا التأثير ما يعين الاسم الذي يلائمه، وإذا كان الموضوع أوَّل ما نُبالي به، فلا نفكِّر في أنفسنا بغير التأمُّل، كان هذا فِكرًا، وعلى العكس، إذا كان الانطباع الذي يتم يثير انتباهنا الأوَّل، فلا نفكر بغير التأمُّل في الموضوع الذي يوجبه، كان هذا إحساسًا.

بساطةً وأقلَّ بُطْلًا، ودَعْنا نقتصِرُ على المشاعرِ الأُولى التي نَجِدُها في أنفسنا ما دام البحثُ يَرُدُّنا إليها دائمًا عندما لا يُضَلِّلُنا مُطلَقًا.

أيها الضمير، أيها الضمير، أيتها الغريزة الربَّانية والصوت الخالد السماوي، أيها الدليل الوطيد لموجودٍ جاهلٍ محدود، ولكن مع العقل والاختيار، أيْ قاضيَ الخير والشر المعصومَ من الضلال والذي يجعل الإنسانَ على مثالِ الرَّب، أنت الذي تقوم عليه روعَةُ طبيعته وأدبُ أفعاله، لولا أنت ما شعرتُ بشيءٍ في نفسي يَرفعني فوق البهائم، لولا أنت ما شعرتُ بغير امتيازٍ كئيبٍ في الضلال بين خطأ وخطأ مستعينًا بإدراكٍ لا قاعدةَ له، وبعقلٍ لا مبدأ له.

حمْدًا لله، ها نحن أولاء قد نَجَونا من جهاز الفلسفة المخيف، فنستطيع أن نكون رجالًا من غير أن نكون علماء، وها نحن أولاء قد أُعفينا من قضاء حياتنا في دراسة الأخلاق، فنَملِكُ بأقلِّ ثمنٍ دليلًا أكثرَ وثاقةً في هذا التِّيه الواسع لآراء الإنسان، ولكنْ لا يكفي أن يكون هذا الدليل موجودًا، فيجب أن يُعرَف وأن يُتَّبَع، وإذا كان يخاطِب جميعَ القلوب، فلِمَ لا يُوجَدُ غيرُ أناسٍ قليلين يستمعون له. والآن، إن لسان الطبيعة هو الذي يخاطبنا به، وكلُّ شيءٍ يَسُوقنا إلى نسيانه. والضميرُ وَجِلٌ يُحِبُّ الانزواء والهدوء، ويُفزِعه الضجيجُ والنَّاس، وتُعَدُّ المُبْتَسَرات التي جُعِلَ صادرًا عنها أشدَّ أعدائه، ويَفِرُّ أمامها أو يَسْكُت، ويَخنُق صوتُها الصاخبَ صوتَه، ويمنعه من أن يُسمَع، ويَجرُؤ التعصب على تقليد صوته ويُملي الإجرامَ باسمه، وتَخمُد همَّتُه عن سوء معاملة، ويَعودُ غيرَ مخاطِبٍ لنا، ويعودُ غيرَ مجيبٍ لنا، وهو بعدَ كثيرِ ازدراءٍ له يصعُب ذكرُه صعوبةَ سابقِ إبعادِه.

وما أكثرَ ما تَعِبْتُ في أثناء مباحثي من الفتور الذي كنتُ أُحِسُّ في نفسي! وما أكثرَ ما صبَّ الكرْبُ والسَّأمُ سمومَهما في تأملاتي، فيجعلانها أمرًا لا يُطاق عندي! كان قلبي الجديبُ لا يَمنَح حبَّ الحقيقة غيرَ غَيْرَةٍ ذاويةٍ فاترة، فأقول في نفسي: لِمَ أُعذِّب نفسي في البحث عما هو غيرُ موجود؟ ليس الخيرُ الخُلُقيُّ سوى وهم، ولا يوجَدُ شيءٌ حَسَنٌ سوى ملاذِّ الحواسِّ. وَيْ! ما أصعبَ استردادَ ذوق ملاذِّ الروح إذا ما فُقِدَ مَرَّةً! وأيُّ شيءٍ أصعبُ من تناول الإنسان له عند عدم حيازته إياه سابِقًا! إذا وُجِدَ إنسانٌ بَلَغَ من الشقاء ما لا يَذْكُرُ معه أنه صنع في جميع حياته ما تجعله ذكراه راضيًا عن نفسه مسرورًا بسابق عيشه، فإن هذا الإنسان يكون عاجزًا عن معرفة نفسه مُطلَقًا، وهو إذ يُعْوِزُه كلُّ شعورٍ بما يلائم طبيعتَه من صلاح، يَظَلُّ شَرِيرًا قَسْرًا ويبقى شقيًّا إلى الأبد، ولكنْ أتعتقدون أنه يُوجَدُ في العالم بأسره إنسانٌ واحدٌ بَلَغ من الفساد ما لا يُسْلِم معه فؤاده إلى إغواء فعل الخير؟ إن

هذا الإغواء هو من شدة الطلاوة وموافقة الطبيعة ما يتعذَّر معه أن يقاومه دائمًا، ويكفي ما يوجبه هذا الإغواء من لذَّةٍ مرَّةً لاستدعائه بلا انقطاع. ومن المؤسف أن يكون قضاؤه شاقًّا في البُداءة، ويُوجَدُ ألفُ سببٍ لامتناع الإنسان عن اتِّباع مَيْل فؤاده؛ فالحَذَرُ الزائفُ يَحصُر هذا القلب ضمن حدود الذاتية الإنسانية، ولا بُدَّ من بَذْلِ ألفِ جُهْدٍ في الشجاعة حتى يُجرَأ على مجاوزتها، وما يَجِدُ الإنسان من لذةٍ في صُنْعِ الخير هو جائزةُ ما صَنَع من خير، ولا ينال الإنسان هذه الجائزة إلا بعد استحقاقه لها. ولا شيءَ أحلى من الفضيلة، ولكنه يجب أن تُجرَّب لتُعرَف هكذا. وإذا ما أُريد اعتناقها بَدَت على ألف شكلٍ مُخيفٍ في البُداءة، كالإله برُوتِه الذي وَرَد ذكرُه في الأساطير، وهي لا تبدو على شكلها الحقيقيِّ في نهاية الأمر إلا لمن لم يَعِفُّوا عن انتحالها مطلقًا.

وإذ كافحتني، بلا انقطاع، مشاعري الطبيعيةُ التي تكلمتْ في سبيل المصلحة العامة، وعقلي الذي رَدَّ كلَّ شيءٍ إليَّ، تَرَجَّحْتُ في جميع حياتي بين هذا التناوب الدائم، صانعًا للشرِّ ومُحِبًّا للخير، ومُضادًّا نفسي لو لم تُنِرْ فؤادي بصائرُ جديدة، ولم تُوَطِّد الحقيقةُ، التي ثَبَّتَتْ آرائي، سَيْرِي وجعلتني مسالمًا لنفسي، ومن العبث أن أُرِيدَتْ إقامةُ الفضيلة بالعقل وحدَه، وأيُّ أساسٍ متينٍ يُمكِن أن تُعطَى؟ ويقولون إن الفضيلة هي حُبُّ النظام. ولكن أيُمكِنُ إذَن، أيجِبُ إذَن أن يتمَّ الفوزُ لهذا الحبِّ على حُبِّ رفاهتي؟ دَعْهُم يُعطونني سببًا واضحًا كافيًا لهذا التفضيل. ولو نظرتَ إلى الأساس لوجدتَ أن مبدأهم المزعوم تلاعبٌ بالكلام؛ وذلك لأنني أقول كذلك إن الإثم حُبٌّ للنظام بمعنًى آخَر، ويُوجَد نظامٌ خُلُقِيٌّ حيث يوجد عقلٌ وإحساس، والفرقُ في أن الصالح ينتظم بالنسبة إلى الكل، وفي أن الشَّرِير يَنظِم الكلَّ بالنسبة إلى نفسه، ويجعَل الشَّرِيرُ من نفسه مركزًا لكلِّ شيء، ويقيسُ ذلك شُعاعَه ويبقى ضِمْن الدائرة، وهنالك ينتظم بالنسبة إلى المركز العامِّ الذي هو الرَّب، وبالنسبة إلى جميع الدوائر ذوات المركز الواحد التي هي مخلوقات الرب. ولو كان الرب غير موجودٍ لم يُوجَد غير الشَّرِير من يَعقِل، ولم يكن الصالحُ غيرَ مجنون.

أي بُنيَّ، قد تُحِسُّ ذاتَ يومٍ أيَّ حِمْلٍ أُزِيح، وذلك أنك بعد أن تستوعب بُطْلَ الآراء البشرية وتَذُوقَ مرارةَ الهواء، تَجِدُ قريبًا منك كثيرًا، في نهاية الأمر، طريقَ الحكمة، وثوابَ الأعمال في هذه الحياة، ومنبعَ السعادة التي يَئِسْتَ منها! وذلك أن جميع واجبات القانون الطبيعيِّ التي مُحِيَت من قلبي بظُلم النَّاس تُرسَمُ ثانيةً هناك باسم العدل الأزليِّ الذي يَفْرِضها عليَّ والذي يراني أَقُوم بها، وعُدْتُ لا أشعُرُ في نفسي بغير كَوْني صُنْعَ الموجودِ

العظيمِ وأداتَه، هذا الموجودَ العظيمَ الذي يريد الخيرَ ويفعله، والذي يصنعه لي بتضافر عزائمي وعزائمه وبحسن استعمال اختياري، وأرْضى بالنظام الذي يُقيم، مطمئنًّا إلى أنني أتمتَّع بهذا النظام ذاتَ يومٍ مُلاقيًا فيه سعادتي. وأيُّ سعادةٍ أحلى من شعور الإنسان بأنه قد انتَظَمَ ضِمْنَ نظامٍ يكون فيه كلُّ شيءٍ حسنًا؟ وأحتَمِلُ الألم صابِرًا إذ يُواثِبُني ذاكرًا أنه عابرٌ آتٍ من جسمٍ غيرِ جسمي، وإذا صنعتُ عملًا صالحًا لا شاهدَ عليه عَلِمْتُ أنه قد رُئي، وأنني أُسجِّلُ سَيْري في هذه الحياة من أجلِ الحياة الأخرى، وإذا ما عانيتُ ظلمًا قلتُ في نفسي: إن الكائنَ العادلَ المهيمنَ على كلِّ شيءٍ سيُعوِّضني، وإن من شأن احتياجات جسمي وأبْؤسِ حياتي أن يَجعَلَ فكرةَ الموت عندي أكثرَ احتمالًا، وبذلك تكون القيود التي تُقطَع قليلةً عندما يجب تَرْكُ كلِّ شيء.

ولِمَ يَخْضَعُ روحي لحواسِّي ويُقيَّدُ بهذا الجسم الذي يُعبِّدُه ويضايقه؟ لا أعرِف من ذلك شيئًا، وهل دخلتُ ضِمْن أوامر الرَّب؟ ولكنني أستطيع من غيرِ تَهَوُّرٍ أن آتي بافتراضاتٍ متواضِعة، وأقولُ في نفسي: إذا كان روح الإنسان قد بَقِيَ طليقًا نقيًّا، فأيةُ مَزِيَّةٍ تَكون له في حُبِّ النظام الذي يراه قائمًا، وفي اتِّباع هذا النظام الذي لا تكون له أيةُ مصلحةٍ في الإخلال به؟ أجلْ، إنه يكون سعيدًا، ولكنَّ سعادتَه يُعْوِزُها أعلى الدرجات، وهو مجدُ الفضيلة وحُسْنُ الشهادة بنفسه، وهو لا يَكون إلا كالملائكة. ولا مِراءَ في أن الإنسان الصالح يزيدُ عليهم، وإذ يتَّحِد الروح في الجسم الفاني بروابطَ ليست أقلَّ قوةً من كَوْنِها غيرَ مُدْرَكة، فإن العناية بحفظ هذا الجسم تَحْمِلُ الروح على رَدِّ كلِّ شيءٍ إليه، وعلى منْحه مصلحةً مخالفةً للنظام العام، فيستطيع أن يَرى ويُحِب، وهنالك يتحول حُسنُ استعمال اختياره إلى استحقاقٍ وأجر، ويُعِدُّ نفسه لسعادةٍ ثابتةٍ بمكافحته أهواءه الدنيوية وببقائه ضمن إرادته الأُولى.

وإذا كانت جميعُ ميولنا الأُولى شرعيةً حتى في حال الخفْض حيث نحن في هذه الحياة، وإذا كانت جميعُ عيوبنا تأتينا من أنفسنا، فلِمَ نَشْكو من سيطرتها علينا؟ ولِمَ نَلُوم خالقَ الأشياء على الشرور التي نَصْنَع، وعلى الأعداء الذين نُسَلِّحُ ضِدَّ أنفسنا؟ آه! دَعْنَا لا نُفسِدُ الإنسانَ مطلقًا؛ فهو سيكون صالحًا بلا عناءٍ دائمًا، وهو سيكون سعيدًا بلا نَدَمٍ دائمًا، ويكون المجرمون الذين يَدَّعون أنهم اضطُرُّوا إلى الجريمة أشرارًا كاذبين. وكيف لا يَرون مطلقًا أن الضَّعْف الذي يَشكون منه هو من عملهم الخاص، وأن فسادهم الأوَّل يأتيهم من إرادتهم، وأنهم إذ أرادوا الإذعانَ لميولهم فاسترسَلوا معها أذعنوا لها على الرغم منهم

في آخرِ الأمرِ وجعلوها أمرًا لا يُقَاوَم؟ أجلْ، عاد لا يتوقَّف عليهم ألَّا يكونوا أشرارًا ضعفاء، بَيْدَ أنه تَوقَّف عليهم سابقًا ألَّا يصبحوا هكذا. وَيْ! ما أسهلَ بقاءنا قابضين على عِنان أنفسنا وأهوائنا، حتى في أثناء هذه الحياة، لو كُنَّا حين عدم اكتسابنا لعاداتنا بَعْدُ، وحين أَخْذِ أنفسِنا في التفتُّح قد عرفنا أن نشغَلها بأمورٍ يجب أن تعْرِفها تقديرًا لما لا تَعرِف، ولو كُنَّا قد أردنا بإخلاصٍ أن ننير أنفسنا، لا لنلْمع في نظر الآخرين، بل لنكون حكماء صالحين وَفْقَ طبيعتنا، ولنكونَ سعداء بممارسة واجباتنا! وتبدو لنا هذه الدراسةُ شاقَّة مملَّة؛ وذلك لأننا لم نُفكِّر فيها إلا بعد أن فَسَدنا بالعيب وأسْلَمْنا أنفسنا إلى أهوائنا، ونحن نُقرِّرُ أحكامَنا وتقديرَنا قبل أن نَعْرِف الخيرَ والشَّر، ثُمَّ نَرُدُّ كلَّ شيءٍ إلى هذا القياس الفاسد فلا نُعْطي شيئًا قيمتَه الصحيحة.

ويأتي دَوْرٌ من العُمُر يكون القلبُ فيه طليقًا بعْدُ، ولكن مع نشاطٍ وقَلَقٍ وطمعٍ في سعادةٍ لا يَعْرِفها، فيَنشُدها، ولكن مع تَقَلُّبٍ ذي فضول. وتخدعه الحواس، ويستقرُّ أخيرًا عند منظرها الفارغ فيعتقد أنه وَجَدَها حيث لا تُوجَدُ مطلقًا. وقد لازمتني هذه الأوهامُ زمنًا طويلًا، ومن دواعي الأسف أن عَرَفْتُها مؤخَّرًا، ولم أقدِر على تبديدها تمامًا، وهي ستبقى ما بَقِيَ هذا البدنُ الفاني الذي يُحْدِثُها. وقد صار من العبث على الأقل إغواؤها لي؛ فهي لا تَغُرُّني، وأعرف ما تسعى إليه، وأزدريها حين أتَّبِعُها، وأرى فيه عائِقًا لسعادتي بدلًا من أن أجدَ فيها هدفًا لها، وأتوقُ إلى الوقت الذي أتخَلَّصُ فيه من قيود البدن، فأكون «أنا» بلا تناقضٍ وغيرَ منقسمٍ إلى قِسمين، ومن غير احتياجٍ إلى غير نفسي لأكون سعيدًا، وإني إذ أنتظر ذلك أجِدُني سعيدًا حتى في هذه الحياة لقلة التفاتي إلى شرورها، ولأنني أَعُدُّها غريبةً عن وجودي، ولأنه يتوقَّف عليَّ كلُّ خير يمكنني استخلاصُه منها.

وأتَمَرَّنُ على أعلى التأمُّلات رَفْعًا لنفسي مُقدَّمًا إلى هذه الحال من السعادة، من القوة والحرية، ما أمكن، وأتأمَّل في نظام الكَوْن، لا لتفسيره بمناهجَ فارغة، بل للإعجاب به دائمًا، ولعبادة الصانع الحكيم الذي يُشعِرُ بنفسه فيه، وأُخاطبه، وأُنْعِم النظرَ بما أُوتيتُ من قوةٍ في جوهره الرَّبَّاني، وأَلِينُ بنِعَمِه، وأحمَدُه وأشكُر له ما أعطى. ولكنني لا أدعوه، وما أسأله؟ أأطلُب منه أن يُغيِّر مجرى الأمور من أجلي، أي أن يَصْنَع معجزاتٍ نَفْعًا لي؟ وإذ يَقْضي الواجبُ بأن أُحِبَّ عدا ذلك جميعَ النظام القائمِ بحكمته والثابت بقدرته، فهل أُريدُ أن يَختَلَّ هذا النظام من أجلي؟ كلا؛ فهذا الدعاء الجريءُ يستحقُّ أن يُعاقَب عليه أكثرَ من أن يُستجاب. وكذلك لا ألتمس منه قدرةً على فعل الخير، ولِمَ أطلب منه ما أعطاني؟

ألم يُنْعِمْ عليَّ بشعورٍ أُحِبُّ به الخير، وبعقلٍ أعرِفه به وبخيارٍ أختاره معه؟ إنني إذا ما فعلتُ الشَّرَّ لم أَكُ معذورًا مطلقًا؛ فأنا أفْعله لأنني أريده؛ وذلك لأن طلبي منه تغييرَ إرادتي يعْني طلبي منه ما يَطلُبُ منِّي، وذلك يَعْني أن يقوم بعملي وأن أنال أجرَه، ويَعْني عدمُ رضايَ عن حالي عدمَ إرادتي أن أبقى إنسانًا، أيْ أن أريدَ أمرًا آخَر غيرَ ما هو قائم، أيْ أن أريدَ الاضطرابَ والشَّر؛ أيْ مصدَرَ العدلِ والحق. أيها الربُّ الرحيم الكريم، أتوكَّلُ عليك، وأقول إن أقصى ما أرجو هو أن يَتِمَّ ما تريد، فإذا ما أَضَفْتُ إرادتي إلى هذا أكونُ قد فعلتُ ما فَعَلْت، وأرضى بِجُودك، وأعتقد أنني أتمتَّع سَلَفًا بالسعادة العليا التي هي ثواب ذلك.

والشيء الوحيد الذي ألتمسه منه، عند عدم اعتمادي على نفسي عن حَق، أو الشيء الوحيد الذي أنتظر من عدله على الأصح، هو أن يُقوِّمَ خِطْئي إذا ما زَلَلت، وإذا ما كان هذا الضلال خَطِرًا عليَّ. ويَقضي حسنُ النية بألَّا أعتقدَني معصومًا من الخطأ، وقد تكون آرائي التي تَلُوح لي أكثرَ ما يكون صِدْقًا كاذبةً بهذا المقدار، وإلا فأيُّ إنسانٍ لا يتمسك بآرائه؟ وما عَدَدُ النَّاس الذين يتفقون على كلِّ شيء؟ وقد يأتيني الوَهمُ الذي يَخدَعني من نفسي، واللهُ وحدَه هو القادر على شفائي منه. أجلْ، لقد صنعتُ كلَّ ما أستطيع صُنْعَه لأصِلَ إلى الحَق، غير أن مصدره بالغُ الارتفاع عني، ومتى أَعْوَزَتْني القُوى في الإمعان بُعْدًا، فما ذَنْبي؟ إن على الحقِّ أن يدنوَ منِّي.»

لقد تكلَّم القَسُّ الصالحُ بحماسة، وقد كان هائجًا، وقد كنت مِثْلَه هياجًا، وكان يُخيَّلُ إليَّ أنني أسمع الرَّبَّانيَّ أُورْفُوسَ وهو يُرَتِّلُ الأناشيد الأُولى ويُعلِّمُ النَّاسَ عبادة الآلهة، ومع ذلك فقد كنتُ أُبصِرُ عددًا كبيرًا من الاعتراضات يُوَجَّهُ إليه، ولم أُبْدِ واحدًا منها؛ وذلك لأنها كانت أقربَ إلى التشويش منها إلى الجِد، ولأنني كنت أميلُ إلى الاقتناع. وكان كلَّما تقدَّم في الكلام وَفْقَ ضميره لاح ضميري مُثبِّتًا إيَّايَ على ما يَكون قد قال لي.

وأقول له: «إن ما عَرَضْتُم عليَّ من مشاعرَ يَلُوح لي أكثرَ جِدَّةً بما تعترفون أنكم تَجْهَلون مما بما تَقولون إنكم تعتقدون، وفي ذلك أرى، تقريبًا، اعتقادًا بوحدانية الله أو الدِّين الطبيعي، أي الدين الذي يَظْهَرُ أن النصارى يَخلِطون بينه وبين الإلحاد أو الكُفْر الذي هو مذهبٌ مباينٌ لذلك رأسًا، ولكنني في الحال الحاضر من إيماني أميلُ إلى الصعود أكثرَ مما إلى الهبوط اعتناقًا لآرائكم، وأجِدُ من الصعب أن أبقى حيث أنتم ضبْطًا ما لم أكن مِثْلَكم حكمة، وأُريد أن أشاورَ نفسي حتى يكُونَ لي ذاك الإخلاصُ على الأقل، والشعور

الباطنيُّ هو الذي يجب أن يَقُودَني إلى مثالكم، وقد علَّمتموني بأنفسكم أنَّ تَذَكُّرَه ليس عملَ ساعةٍ بعد أن فُرِض السُّكوت عليه زمنًا طويلًا. وأمضي بكلامكم في فؤادي، ولا بدَّ لي من تأمُّلِه. وإذا ما كنتُ مثلما أنتم عليه قناعةً بعد أن أُشاوِر نفسي جيِّدًا كنتم آخرَ رسولٍ لي، وصِرت مهتديًا بكم حتى الموت، ومع ذلك فداوموا على تعليمي، فلَمْ تقولوا لي غيرَ نصف ما يجب أن أعْرِف، فحدِّثوا عن الوحي والكتب المقدسة، وعن تلك العقائد الغامضة التي تُهْتُ فيها منذ صباي من غير أن أستطيع إدراكها أو اعتقادَها، ومن غير أن أعتنقها أو أن أنْبِذَها.»

ويقول معانقًا إيَّاي: «أجلْ يا بنيَّ، سأقول لك كلَّ ما أفكِّرُ فيه، ولا أُريد أن أفتح لك نصفَ قلبي مطلقًا، ولكن ما تُبْدي لي من رغبةٍ كان ضروريًّا ليَدْفَعني إلى عدمِ اتخاذِ أيِّ تَحفُّظٍ نحوك. ولم أقُل لك حتى الآن شيئًا لم أعتقدِ إمكانَ فائدته لك ولم أكن قانعًا به قلبيًّا، وما بَقيَ عليَّ أن أقومَ به من بحثٍ مُختلفٌ جِدًّا، ولا أُبْصِرُ فيه غيرَ الارتباك والغموض والالتباس، ولا أَحمِلُ إليه غيرَ الشكِّ والارتياب، ولا أُقدِم عليه إلا مرتجفًا، وأقول لك رِيَبي أكثرَ من أن أقول لك آرائي، ولو كانت آراؤك أكثرَ ثباتًا لترددتُ في عرض آرائي عليك. ولكنك في الحال التي أنت عليها لك كَسْبٌ في التفكير مثلي،[٢٩] ثُمَّ لا تَمنحْ كلامي غيرَ سلطان البرهان؛ فأنا أجهل كوني على خطأ، ومن الصعب عند الجدال ألَّا تُتَّخَذَ لهجةٌ جازمةٌ أحيانًا، ولكن اذكُرْ أن جميع توكيداتي هنا ليست غيرَ أسبابٍ داعيةٍ إلى الشك، وابحثْ عن الحقيقة بنفسك، وأمَّا أنا فلا أَعِدُك بغير حُسن النية.

أنتم لا تَرون في بياني غيرَ الدِّين الطبيعي، ومن الغريب جِدًّا أن يُحتاج إلى غيره، وبأية وسيلةٍ أعرِفُ هذه الحاجة؟ وبأيِّ شيءٍ أُعَدُّ مُذنِبًا إذا ما عَبَدْتُ الرَّبَّ على حَسَبِ البصائر التي يُنْعِمُ بها على نَفسي ووَفْق المشاعر التي يوحِي بها إلى قلبي؟ وأيُّ صفاءٍ خُلُقي، وأيُّ اعتقادٍ نافع، يُمكنني استنباطُه من مذهبٍ وضعي، فلا أستطيع أن أستنبِطه من حُسن استعمال مواهبي؟ أرُوني ما يُمكن إضافتُه في سبيل مَجْدِ الرب، وفي سبيلِ خيرِ المجتمع، وفي سبيلِ مصلحتي الخاصة، إلى واجبات الناموس الطبيعي، وأيُّ فضيلةٍ يمكنكم أن تُنبِتوا من دِينٍ جديدٍ لا تكون نتيجةً لديني؛ فأعظمُ الأفكارِ عن الرَّبِّ تنشأ عن العقل

[٢٩] أعتقد أن هذا هو الذي يستطيع القسيس أن يخاطب به الجمهورَ في الوقت الحاضر.

وحدَه. وانظروا إلى منظر الطبيعة، وأنصِتوا لصوت الباطن، أَفَلَمْ يَقُل الله كلَّ شيءٍ لأعيننا ولضميرنا وحُكْمنا؟ وما يقول لنا النَّاس زيادةً على ذلك؟ لا يَصْنَعُ وحْيُهم غيرَ تنزيل مقام الرب بإسباغ أهواء النَّاس عليه، وأرى أن العقائد الخاصة تُعقِّدُ مباديَ الكائن الأعلى بدلًا من إلقاء نُورٍ عليها، وأرى العقائدَ الخاصة تَحُطُّها بدلًا من أن ترْفعَها، وأنها تُضِيفُ متناقِضاتٍ مُحالَةً إلى الأسرار الخفية التي لا يُمكن تصورُها، وأنها تجعل الإنسانَ مُختالًا مُتعصِّبًا قاسيًا، وأنها تَحمِلُ الحديدَ والنارَ إلى الأرض بدَلًا من إقرار السلام فيها. وأسأل نفسي عن فائدة جميع هذا من غير أن أعْرِف كيف أُجيب، ولا أرى في ذلك غيرَ جرائمِ النَّاس وبؤس الجنس البشريِّ.

ويُقال لي إنه لا بدَّ من الوحي لتعليم النَّاس كيف يعبدون الله كما يُريد، ويُساقُ كدليلٍ على ذلك اختلافُ ما أقامه النَّاس من عباداتٍ غريبةٍ متنوعة، ولم يُرَ أن هذا التنوُّعَ ناشئٌ عن هَوَى الوحْي؛ فالشعوب منذ عَنَّ لها أن تجْعَل الربَّ يتكلم جعله كلُّ واحدٍ منها يتكلَّم وَفْقَ ذوقه، وحمله على قول ما يُريد، ولو اسْتُمِع إلى ما قال الرَّبُّ لقلبِ الإنسان ما وُجِدَ غيرُ دينٍ واحدٍ على الأرض.

ووَجَبَ وجودُ عبادةٍ واحدة، وأريد هذا، ولكن هل كان هذا الأمر من الأهمية البالغة، إذن، ما اقتضى معه جميعَ جهازِ القدرة الإلهية لإقامته؟ ولا نَخْلِط بين الدِّين وطقوسه مُطلَقًا؛ فالعبادة التي يطلُبها الرب هي عبادة القلب، وتكون هذه على نَمَطٍ واحدٍ دائمًا عند إخلاصها، ومن الزهو الأخبَل أن يُتصوَّر أن الله يُبالي كثيرًا بشكل حُلَّة القِسِّيس وبنظام الكلمات التي يَنطِقُ بها وبالحركات التي يأتيها عند المحراب وبجميع رَكَعاته. آه! انتصِبْ يا صديقي، تَبْقَ قريبًا من الأرض دائمًا، والله يُريد أن يُعبَد بالروح والصِّدق، وهذا الواجبُ ملائمٌ لجميع الأديان وجميع البلدان ولكلِّ إنسان. وأمَّا العبادة الخارجية، فإذا ما وجب أن تكون على نَمَطٍ واحدٍ لحُسْن النظام كان هذا عملَ شُرْطةٍ محضًا، ولا يستلزم هذا وحيًا مُطلَقًا.

ولا أبدأ بجميع هذه الأفكار، وبما أنني مَسوقٌ بمُبْتَسَرات التَّربية وبالأنانية الخَطِرة التي تَهدِف دائمًا إلى حمْل الإنسان فوقَ نِطاقه، وبما أنني لا أستطيع رفع مداركي الضعيفة إلى الموجود الأعظم، فإنني أحاول خفضَه إلى حيث أنا، وأُقرِّب بين العلائق البعيدة إلى الغاية التي وَضَعَها بين طبيعته وطبيعتي، وأُريدُ صِلاتٍ أكثرَ مباشرةً ومعلوماتٍ أكثرَ خصوصية. وبما أنه لا يُرضيني أن أجْعَل الرَّبَّ مشابهًا للإنسان حتى أكون ممتازًا بين أمثالي، فإنني

أُريدُ معارفَ خارقةً للعادة، وأُريدُ عبادةً خاصة، أريد إلهًا يخاطبني بما لم يُخاطِب به الآخرين، أو بما لم يُدركه الآخرون كما أُدرِك.

وإني إذ أَعُدُّ النقطةَ التي انتهيتُ إليها نقطةً مشتركةً ينطلِقُ منها جميعُ المؤمنين وصولًا إلى شكلٍ من الدِّين أكثرَ نورًا، لا أَجِدُ في عقائد الدِّين الطبيعيِّ غيرَ عناصرِ جميعِ الأديان، وأنظر إلى هذا الاختلاف بين النِّحَل السائدة للأرض والتي تتَّهِمُ كلُّ واحدةٍ ما سواها بالكَذِب والضلال، فأسأل: «أيُّها على الحق؟» ويُجيبُ كلُّ واحدٍ عن هذا بقوله: «نِحْلَتي.» ويقول كلُّ واحدٍ: «أُفكِّرُ أنا وجميع أتباعي تفكيرًا صادقًا، وأمَّا الآخرون فكلُّهم على ضلال.» وأسأل: «كيف تعرفون أن نِحلَتكم هي التي على الحقِّ؟» وأُجابُ عن هذا بكلمةٍ: «ذلك لأن الله قال هذا.»[٣٠] وأسأل: «ومَن يقول لكم إن الله قال هذا؟» ويُقال لي: «هو قِسِّيسُنا الذي يَعْرِف ذلك جيِّدًا، وهو يقول لنا أنْ نؤمنَ هكذا فنؤمن، وهو يقول مُوَكِّدًا إن جميع الذين يقولون غير هذا يكذِبون، فلا نستمع إليهم.»

ماذا! وهل أَظُنُّ أن الحقيقة ليست واحدة؟ وهل يكون ما أراه حقيقةً باطلًا عندكم؟ وإذا كان منهاجُ الذي يَتَّبِع الطريقَ الصالح ومنهاجُ الذي يَضِلُّ واحدًا، فأيُّ مَزِيَّةٍ أو أيُّ خطأ يكون بجانب الواحد أكثرَ مما بجانب الآخر؟ إن خيارهما نتيجةُ المصادفة، وينطوي عَزْوُها إليهما على جَوْر، وهو يعني مجازاتَهما أو مكافأتهما لِولادتهما في هذا البلد أو ذاك، وتُعَدُّ الجُرْأةُ على القول بأن الرَّبَّ يَحْكُم فينا هكذا طَعْنًا في عدله.

وجميعُ الأديان إمَّا أن تكون صالحةً مقبولةً لدى الله، وإمَّا أن يكون الله قد أمر النَّاس باتِّباع واحدٍ منها فيجازي مَن يُنكِرُه، باتِّباع واحدٍ منها مَنَحَه علائمَ ثابتةً واضحةً ليُمازَ

---

[٣٠] قال قسيسٌ صالح حكيم: «جميعُ الناس يقولون إنهم يحافظون عليه ويؤمنون به (وجميع الناس يستعملون عين الرطانة) على أنه من الله لا من الناس ولا من أي مخلوقٍ كان. ولكنني أقول الحقَّ، والحق أقول بلا مصانعة ولا مواربة، إنه لا شيء من هذا؛ فالأديان تُعرف بأيدٍ ووسائلَ بشرية، ودليلُ ذلك أوَّلًا طريقةُ تلقيها في العالَم من قِبَل الأفراد سابقًا ولاحقًا، وذلك أنها وليدةُ الشعب والبلد والمكان، وذلك أننا نُخْتن ونُعمَّد فنكون يهودًا ومسلمين ونصارى قبل أن نعرف أننا آدميون، وذلك أن الدِّين ليس أمرًا يقع تحت خيارنا وانتخابنا، وذلك لما يُرى من سوء توافق الحياة والطبائع مع الدِّين، وذلك لما يُشَاهد من مخالفة الإنسان لأحكام دينه عند أخف البواعث البشرية» (شارون، الحكمة، باب، فصل ٥، صفحة ٢٥٧، طبعة بوردو، سنة ١٦٠١).

ومن الواضح أن عقيدة لاهوتي كوندون لا تختلف كثيرًا عن عقيدة القسيس السافوائي.

بها ويُعرَفَ على أنه الحقُّ وحدَه، علائمَ متماثلةً في كلِّ زمانٍ ومكان، واضحةً لدى كلِّ إنسان، كبيرًا كان هذا الإنسانُ أو صغيرًا، عالمًا أو جاهلًا، أوروبيًّا أو هنديًّا أو أفريقيًّا أو همجيًّا. فإذا ما وُجِد على الأرض دِينٌ لا يكون غير العذابِ الأبدي خارجَ نطاقه، وإذا لم يُوجَد في بُقعةٍ ما من العالم غيرُ إنسانٍ واحدٍ لم يؤمِن ببرهان هذا الدين عن حُسن نية، كان إله هذا الدين أظلمَ الطغاة وأشدَّهم قسوة.

أَوَنبحَثُ عن الحقيقة بإخلاص؟ دَعْنا لا نمنح حقَّ النَّسب وسلطان الآباء والقسِّيسين شيئًا، ولكن لِندْعُ إلى امتحان الضمير والعقل جميعَ ما علَّمونا إياه منذ صِبانا، ومن العبث قولهم بصوتٍ عالٍ: «اقهَرْ عقلك»؛ فهذا مبلغُ ما يستطيع أن يقوله مخادع، ولا بُدَّ من وجودِ أسبابٍ لديَّ حتى أقهَرَ عقلي.

ويقتصر جميعُ علم اللاهوت الذي يُمكِنني اكتسابُه من تلقاء نفسي، بملاحظة الكَوْن وبحُسنِ استعمال مواهبي، على ما أوضحتُه لكم سابقًا، ولا بُدَّ من الالتجاء إلى وسائلَ خارقةٍ للعادة لمعرفة ما هو أكثرُ من ذلك، ولا تقوم هذه الوسائل على سلطان النَّاس، وذلك بما أنه لا إنسانَ يكون من غير نوعي، فإن كلَّ شيءٍ يَعْرِفه الإنسان طبيعةً أستطيع أن أَعْرِفه أيضًا، ويُمكِنُ إنسانًا آخرَ أن يُخدَع كما أُخدَع، ومتى اعتقدت ما يقول لم يَكُنْ هذا لأنه قاله، بل لأنه أَثْبته. وليست شهادةُ النَّاس من حيث الأساس إذنْ غيرَ شهادة عقلي ذاتِه، وهي لا تزيد شيئًا على الوسائل الطبيعية التي أنعم الله بها عليَّ لأَعْرِف الحقيقة.

ويا رسولَ الحقيقة، ما عليكم أن تقولوا لي إذن غيرَ ما لا أكون قاضيَه؟ قد قال الله بذاته: استمعوا لوحيه، ذاك أمرٌ آخرُ، وقد قال الله! تلك كلمةٌ عظيمةٌ حقًّا، ومَن كلَّم اللهُ؟ لقد كلَّم النَّاسَ، ولِمَ لمْ أسمعْ من ذلك شيئًا؟ لقَدْ عَهِدَ إلى أُناسٍ آخرين في تبليغ كلامه إليكم، وأُدْرِكُ! يقول أناسٌ لي ما قال الله، وأُفضِّلُ أن أسمع اللهَ ذاتَه، وهذا لا يُكلِّفُه كثيرًا، وسأكون في مأمنٍ من الإغواء، وهو يحفَظُكم منه بإعلان بِعثةِ مُرسَليه. وكيف يكون هذا؟ بالمعجزات، وأين هذه المعجزات؟ في الكتب، ومَن وضع هذه الكتب؟ النَّاس، ومَن رأى هذه المعجزات؟ النَّاسُ الذين شهدوها، ماذا! شهاداتٌ بشريةٌ دائمًا، أُناسٌ يَقُصُّون عليَّ ما رواه أُناسٌ آخرون! وما أكثرَ مَن هم بيني وبين الرب! دعنا ننظُر مع ذلك، دعنا نَفْحص ونقابل ونحقِّق. آه! إذا ما تَفضَّل الربُّ بإعفائي من جميع هذا العمل، أفلا أَعْبُدُه بكلِّ فؤادي؟

وانظُرْ يا صديقي، أيُّ جِدالٍ هائلٍ شُغِلْتُ به الآن، وأيُّ معرفةٍ واسعةٍ أحتاج إليها لأرجعَ إلى أبعدِ القرون القديمة، فأبحثَ في النبوءات والوحي والوقائع وجميع آثار الدِّين

المعروضة في جميع بلاد العالم، وأزِنَها، وأُقابِلَ بينها تعييناً للأزمنة والأمكنة والفاعلين والعوامل! وما أعظمَ ما يُعْوِزُني من إصابةِ نقدٍ لأمِيزَ المستندات الصحيحة من المستندات المُزوَّرة، ولأقابلَ بين الاعتراضات والجوابات والترجمات والأصول، وللحكم في عدالة الشهود وحُسْنِ بصيرتهم وفي معارفهم، ولأعْرِفَ هل حُذِف شيءٌ وأُضيفَ وحُرِّفَ وبُدِّلَ وزُوِّر، ولأُزيلَ ما يَبقى من المتناقضات، ولأحكمَ فيما يجب أن يُعارَ من أهميةٍ حول سكوت الخصوم عن الوقائع الواردة ضِدَّهم، وللحُكْم في هل هذه البراهينُ كانت معروفةً عندهم، وهل أقاموا لها من الوزن ما يَتنازَلون معه إلى الجواب عنها، وهل كانت الكُتُبُ من الشيوع ما تتصلُ معه كُتُبُنا بها، وهل نحن من حُسن النية ما نَدَعُ كُتُبَهم معه تَسيرُ بيننا وما نترُك معه أقوى اعتراضاتهم باقيةً كما وضَعُوها؟

ومتى قُبِلَت جميعُ هذه الوثائق على أنها تَقبَلُ الجدل وجب الانتقالُ إلى أدلةِ بِعثة واضعيها، فوجبت معرفة نواميس الخطوط والاحتمالات للحُكْم في أية نبوءةٍ يُمكِن قيامُها بلا معجزة، ووجبت معرفةُ روح اللغات الأصلية لتمييز ما هو نبوءةٌ في هذه اللغات، وما هو غيرُ شكلٍ خطابي، ووجبت معرفةُ أي الأشياء في نظام الطبيعة وأيُّ الأمورِ الأخرى ليس فيها، فيُحدَّث عن الحدِّ الذي يستطيع رجلٌ ماهرٌ أن يَسْحَرَ به عيونَ البُسَطاء ويُلقي الحَيرة في نفوس المثَّقفين، ووَجَبَ أن يُبحَثَ عن نوع المعجزة وعما يَلزَمُ وجودُه فيها من صِدْقٍ لا لِتُعْتَقَدَ فقط، بل ليُعاقَبَ على الشكِّ فيها، ووَجَبَ أن يُقابَلَ بين أدلة المعجزات الصادقة والمعجزات الكاذبة، فيُعثَرَ على قواعدَ ثابتةٍ للتفريق بينها. ثُمَّ لِمَ يختارُ الربُّ لإثبات كلامه وسائلَ تحتاج احتياجًا كبيرًا إلى إثبات، كما لو كان يلاعب سرعةَ التصديق في النَّاس مجتنبًا عَمْدًا وسائلَ إقناعهم الحقيقية؟

ولنفترضْ أن الجلالة الإلهية تفضَّلت فتنازلت بما فيه الكفاية لتجعل أحدَ النَّاس واسطةَ عزائمها المقدَّسة، فهل من العقل والعدل أن يُطالَب جميعُ الجنس البشري بتلبية نداء هذا الواعظ من غير أن يُجْعَل معروفًا هكذا؟ وهل من الإنصافِ ألَّا يُعطَى من أوراق الاعتماد غيرُ إشاراتٍ خاصَّةٍ تتمُّ أمام قليلٍ من ذوي النفوس الغامضة، على حين لا تَعرِف بقيةُ النَّاس من ذلك غيرَ ما تعْلَم سَمَاعًا؟ وإذا ما عُدَّ من الحقائق في جميع بلاد العالم جميعُ العجائب التي يقول العوامُّ والبسطاء إنهم رأوها كانت كلُّ نحلةٍ صالحة، ووُجِدَ من العجائب ما يزيد على الحادثات الطبيعية، وكانت أعظمُ المعجزات في الأمكنة التي يُوجَدُ فيها متعصبون مضطهدون من غيرِ أن تُوجَدَ فيها معجزاتٌ مُطلقًا. ونظام الطبيعة الثابت

هو أحسنُ ما يَدُلُّ على اليد الحكيمة التي تديره، فإذا ما وُجِدَ شواذٌّ كثيرةٌ لهذا كِدْتُ لا أعْرِف فيما أُفكِّر. وأمَّا أنا فقد بلغتُ من شدة الإيمان بالله ما لا أُومن معه بمعجزاتٍ كثيرةٍ غيرِ حَرِيَّةٍ به.

ولْيأتِ رجلٌ وليقُل لنا بهذه اللهجة: أيها النَّاس! أُخبِرُكم بمشيئة الرب الأعلى، واعْرِفوا في ندائي نداءَ الذي أرسلني؛ فأنا آمُرُ الشمسَ بتغيير مجراها، والنجومَ باتخاذ نظامٍ آخرَ لها، والجبالَ بأن تُسوَّى، والأمواجَ بأن ترتفع، والأرضَ بأن تُغيِّرَ منظرَها، ومَن ذا الذي لا يَعْرِف سيد الطبيعة بهذه المعجزات من فَوْره؟ والطبيعةُ لا تطيع المُخادعين مطلقًا، وتقع معجزات هؤلاء في المَفارِق والبراري والحُجُرات حيث تَروج بضاعتهم لدى عددٍ قليلٍ من الحُضور المستعدين لاعتقاد كلِّ شيء. ومَن ذا الذي يجرؤ على بيانه لي مقدارَ شهود العِيان الذين لا بدَّ منهم لجعلِ المعجزة أمرًا جديرًا بأن يؤمَن به؟ وإذا كانت معجزاتُكم التي صُنِعَت لإثبات مذهبكم محتاجةً إلى إثبات، فما يكون نفعُها؟ لا فَرْقَ بين الإتيانِ بها وعدمِهِ فائدةً.

وأخيرًا، تبقى ضرورةُ القيامِ بأهمِّ تمحيصٍ في ذاك المذهب، وذلك بما أن الذين يقولون إن الربَّ يأتي بمعجزاتٍ في هذه الدنيا يَزعُمون أن الشيطان يُقلِّدُها أحيانًا، فإننا لا نكون قد تقدَّمنا أكثرَ مما في السابق بأحسنِ ما شُوهِدَ من المعجزات. وذلك بما أن سَحَرَة فرعون قد أقدموا أمام موسى نفسِه على إتيان عينِ الآيات التي أتاها بأمرٍ صريحٍ من الرَّب، فلِمَ لا يَدَّعون بعين القدرة في غيابه مع ذات العُنوان؟ وهكذا يجِبُ إذن إثبات المُعجِزة بالمذهب بعد أن أُثْبِتَ المذهبُ بالمعجزة،[٣١] وذلك خشيةَ عَدِّ عمل الشيطان من عملِ الرب، فما قولكم عن هذا الافتراض فيما يُطلَب برهانه وإثباتُه؟

---

[٣١] هذا أمر صريح في ألفِ مكانٍ من الكتاب المقدَّس، ومن ذلك قولُ الفصل الثالث عشر من سِفْر تثنية الاشتراع، إنه إذا أخبر نبيٌّ عن آلهةٍ غريبةٍ فأيَّدَ كلامه بمعجزات، وحدث ما أنبأ به، وجب قتلُ هذا النبي من غير نظرٍ إلى ما وقع. فما حدث إذن من قتلِ الوثنيين للرسلِ الذين أخبروهم بإلهٍ غريبٍ مؤيدين رسالتهم بنبوءات ومعجزات، لا أرى أنه كان يمكن أن يُعترض عليهم من أجله اعتراضًا متينًا بما لا يمكن أن يوجِّهوه إلينا حالًا. وما الذي يُصنَع في مثل هذه الحال؟ يُصنَع أمرٌ واحد، وهو أن يُرجع إلى البرهان مع ترْك المعجزات حيث هي، والأفضل ألَّا يُلْجَأ إليها، وهذا من أبسط قواعد الذوق السليم الذي لا يعمى بغير البيانات التي هي على شيءٍ من الدقة البالغة، دقائق في النصرانية! ولكن يسوع المسيح كان مُخطِئًا إذن

ولو كان هذا المذهب صادرًا عن الرَّبِّ لوجب أن يَحمِلَ طابَعَ الألوهية المقدَّس، وذلك أنه لا يكفي أن يُوضِح لنا مُختلط الأفكار التي يَرْسُمها البرهان في ذهننا، بل يجب أيضًا أن يَعْرِض هذا المذهبُ علينا عبادةً وأدبًا ومبادئَ ملائمةً للصفات التي نتمَثَّلُ بها وحدَها كُنْهَ الرَّب، وإذا كان لا يُعلِّمُنا إذن غيرَ أمورٍ مستحيلةٍ مُخالفةٍ للصواب، وإذا كان لا يُوحى إلينا بغيرِ مشاعرِ الكراهية لأمثالنا وبغيرِ ذُعْرٍ لأنفسنا، وإذا كان لا يُصوِّرُ لنا غيرَ رَبٍّ غضوبٍ مِغيارٍ مئثارٍ مُغْرِضٍ مُبْغِضٍ للبشر، رَبٍّ للحرب والمعارك متأهِّبٍ للتخريب والتدمير، مُحدِّثٍ دائمًا عن العذاب والنَّكال، مُباهٍ بمعاقبة الأبرياء أيضًا، فإن فؤادي لا ينجذب إلى هذا الإله الهائل محترزًا من ترك الدِّين الطبيعي اعتناقًا لذاك المذهب؛ وذلك لأنه لا بُدَّ من الاختيار عن ضرورةٍ كما ترون. وأقول لأتباعه ليس إلهُكم إلهَنا، وليس الذي يبدأ باختيارِ شعبٍ واحدٍ فقط، طاردًا بقيةَ الجنس البشري من حمايته أبًا عامًّا للناس، وليس الذي يُعِدُّ مُعظَمَ مخلوقاته للعذاب الأبديِّ ذاك الإله الرحيم الكريم الذي دَلَّني عليه عقلي.

والعقلُ من حيث العقائد يقول لي إنه يجب أن تكون واضحةً ساطعةً تَقِفُ الأبصارَ بجلائها، وإذا كان الدِّينُ الطبيعيُّ ناقصًا فذاك للغُموض الذي يَترُكه في الحقائق الكُبْرى التي يُعلِّمُنا إياها، فعلى الوحي أن يُعلِّمَنا هذه الحقائق على وجهٍ يُدْرِكها به ذهنُ الإنسان، وأن يضعها في متناوله، وأن يجعله في حالٍ يتمثَّلُها معه حتى يؤمنَ بها، ويتأيَّد الإيمان بالفَهْم ويشتد، ولا مِراءَ في أن أحسنَ الأديان أوضحُها، وأمَّا الدِّين الذي يَشْحَنُ ما يَعِظُني به من العبادةِ بالأسرارِ والمتناقضات فإنه يُعلِّمُني الحذَرَ منه لهذا السبب، وليس الإلهُ الذي أعبُدُ إلهَ الظلام، وهو لم يُنعِمْ عليَّ بإدراكٍ ليمنعني من الانتفاعِ بهذا الإدراك، وينطوي كلُّ قولٍ لي بأن أقهرَ عقلي على إهانةِ صانعِه، ولا يَجُور وليُّ الحقِّ على عقلي، بل يُنيرُه.

وقد طَرَحْنا كلَّ سلطانٍ بشريٍّ جانبًا، وما كان لِيُمكِنَني أن أرى بغيرِ هذا السلطان كيف يستطيع الإنسانُ أن يُقنِعَ إنسانًا آخرَ بوعظِه بمذهبٍ مخالفٍ للصواب، ولْنَدَعْ هذين

حين وعد البسطاء بملكوت السموات، ولكنه كان مُخطِئًا إذن حين بدأ أروع كلامه بتبشير فقراء الذهن، لو اقتضى وجود ذهن غزير لفهْم مذهبه وتعليم الإيمان به، ولو أثبتم لي أن الخضوع من واجباتي لصار كل شيءٍ حسنًا، ولكن إثبات هذا لي يتطلب وضع نفسكم على مستواي، واجعلوا براهينكم مطابقة لقابلية فقير في الذهن، وإلا عُدت لا أعْرِف فيكم تلميذًا حقيقيًّا لُمعلِّمكم، وعاد ما تخبرونني به لا يكون مذهبه.

الإنسانَين يتخاصمان ساعةً من نهار، ولنبحثْ عما يمكن أن يقولا في عُنفِ اللهجة المعتادة لديهما:

المُلْهَم: يُعلِّمُنا العقلُ أن الكلَّ أعظمُ من جُزئه، وأمَّا أنا فأخبِرُك باسم الرب أن الجزءَ أعظمُ من الكل.

المُبَرهِن: ومَن أنت حتى تجرؤَ على القول لي إن الربَّ يناقضُ نفسه؟ وأيُّكما أُفضِّلُ أن أُصَدِّقَ: هو الذي يُعلِّمُني بطريق العقل كَوْنَ الحقائق أزليَّة، أو أنت الذي يُخبِرني مستحيلًا باسمه؟

المُلْهَم: صدِّقني؛ وذلك لأن تعليمي أكثرُ إيجابيَّة، وسأُثبت لك بما لا يترك للشكِّ مجالًا أنه هو الذي أرسلني.

المُبَرْهِن: كيف؟ أنت ستُثبتُ لي أن الربَّ أرسلك لتشهد ضِدَّه؟ ومِن أيِّ جنسٍ ستكون براهينُك لإقناعي أنَّ الرَّبَّ يخاطبني بفَمِك أكثرَ مما بالإدراك الذي أنعم به عليَّ؟

المُلْهَم: الإدراك الذي أنعم به عليك! يا لك من إنسانٍ صغير مغرور! كأنك أوَّلُ مُلحِدٍ يَضِلُّ بعقله الذي أفسدته الخطيئة!

المُبَرْهِن: أيها القدِّيس، وكذلك أنت لا تكون أوَّلَ خادعٍ يتخذ انتفاخَه دليلًا على رسالته.

المُلْهَم: ماذا! حتى الفلاسفةُ ينطقون بالإهانات!

المُبَرْهِن: أحيانًا، عندما يجعَل القديسون من أنفسهم قُدوَة.

المُلْهَم: وَيْ! أنا يَحقُّ لي أن أقول ذلك؛ فأنا أتكلم باسم الرب.

المُبَرْهِن: الأفضل أن تُبرزَ حُجَجَك قبل أن تستعمل امتيازاتِك.

المُلْهَم: إن حُجَجي صحيحة، وتشهدُ الأرض والسموات لي، فاتَّبِع براهيني كما أطلب منك.

المُبَرْهِن: براهينك! أنت لا تُفكِّر فيها، ألَا يَعني تعليمي أن عقلي يُخادعني رفضًا لكلِّ ما يقول لي من أجْلك؟ وعلى كلِّ مَن يُريد رَدَّ العقل أن يُقنِعَ من غير أن ينتفع به، وذلك لنفترِضْ أنك أقنعتني بالبرهنة، فكيف أعرِف أن عقلي الفاسد بالخطيئة هو الذي يجعلني أوافقُ على ما تقول لي؟ ثُمَّ أيُّ دليلٍ وأيُّ برهانٍ يمكنك استعماله يكون أوضحَ من الأمر البَدَهيِّ الذي يجب عليه أن يَنْقُضَه؟ وكذلك إن مما يُمكِنُ تصديقُه أن يكون القياسُ المنطقيُّ الحسنُ أكثرَ كَذِبًا من كون الجزء أعظمَ من الكل.

المُلْهَم: يا للفَرْق! إن براهيني بلا جواب، وهي من نظامٍ خارق للطبيعة.

المُبَرْهِن: خارقٌ للطبيعة! ما معنى هذه الكلمة؟ لا أُدرِكه.

المُلْهَم: تغييرات في نظام الطبيعة، نبوءات، معجزات، عجائب من كلِّ نوع.

المُبَرْهِن: معجزات! عجائب! لم أرَ قَطُّ شيئًا من جميع هذا.

المُلْهَم: لقد رآه آخرون نيابةً عنك، جموعٌ من الشهود، شهادة أقوام.

المُبَرْهِن: هل شهادة الأقوام من النظام الخارق للطبيعة؟

المُلْهَم: كلَّا، وإنما تكون أمرًا لا مِرَاء فيه عندما تكون مُجمَعًا عليها.

المُبَرْهِن: لا شيء يكون أمرًا لا جِدَالَ فيه أكثرُ من مبادئ العقل، ولا يُمكِنُ قبولُ شيءٍ مُحالٍ بناءً على شهادة آدميين. ثُمَّ لنَرَ أدلَّتك الخارقة للطبيعة؛ وذلك لأن شهادة الجنس البشري ليست من هذه الأدلة.

المُلْهَم: أيها القلبُ القاسي، لا تخاطبك النعمة مطلقًا.

المُبَرْهِن: ليس هذا ذَنْبي؛ وذلك لأنك ترى أنه لا بُدَّ من سابق نَيْلٍ للنعمة حتى يُعْرَف طَلَبُها؛ ولذا فابدأ بمخاطبتي بدلًا منها.

المُلْهَم: آه! هذا ما أصنع، وأنت لا تستمع إليَّ، ولكن ما تقول عن النبوءات؟

المُبَرْهِن: إنَّ أوَّلَ ما أقولُ هو أنني لم أسمعْ عن النبوءات أكثرَ مما أبصرتُ عن المعجزات، ثُمَّ أقول إنه لا نبيَّ يستطيع أن يكون حجةً عليَّ.

المُلْهَم: أيْ عَونَ الشيطان! لِمَ لا تكون النبوءات حجةً عليك؟

المُبَرْهِن: ذلك لأن اتفاق تلك الحجةِ لها يستلزم ثلاثةَ أمورٍ يستحيل توافقُها، وهي أن أكون شاهدَ النبوءة، وأن أكون شاهدَ الحادثة، وأن يُثبَتَ لي أن هذه الحادثة لا تُطابق النبوءة عَرَضًا، وذلك أن النبوءة حتى عند كَونْها أكثرَ دقةً ووضوحًا وجلاءً من بَدَهيات الهندسة، لا يجعَل هذا الوضوحُ تمامَ النبوءة القائمة على المصادفة أمرًا مستحيلًا؛ فلا يُثبِتُ هذا التمامُ لدى وقوعِه شيئًا لمن تنبَّأ به حصرًا.

ورَوْا إذن إلى أيِّ شيءٍ تنتهي براهينُكم الخارقةُ للطبيعة المزعومة ومعجزاتكم ونبوءاتكم، إنها تنتهي إلى اعتقاد الجميع هذا استنادًا إلى إيمان الآخرين، وإخضاع سلطان الرب إذ يخاطب عقلي لسلطان النَّاس. وإذا أمكن الحقائقَ الأزليةَ التي يتمثَّلُها ذهني أن تُعاني عَنَتًا عاد لا يكون لديَّ أيُّ نوعٍ من اليقين، حتى إنني مع البُعدِ من الاطمئنان إلى أنكم تخاطبونني من ناحية الرب، لا أكون مطمئنًّا إلى وجوده.

وهذه مشاكلُ كثيرةٌ يا بُني، وليس هذا كلَّ شيء، ويوجَد بين كثيرٍ من مختلف الأديان، التي تَتهادَر وتَتهادم مبادلةً، دِينٌ واحدٌ طيِّبٌ عند وجود مثل هذا الدِّين، ولا يكفي لمعرفة هذا الدِّين أن يُدْرَسَ دينٌ واحد، بل أن تُدرَس جميعُ الأديان، ولا يجوز العِقابُ بلا سماعٍ في أيِّ موضوعٍ كان،[٣٢] فيجبُ أن يُقابَل بين الاعتراضات والبيِّنات، ويَجِبُ أن يُعرَف ما يعترض به كلٌّ واحدٍ على الآخرين، ويجب أن يُعرف الجواب، وكلَّما ظهر لنا ثبوتُ رأيٍ وَجَبَ أن نبحث عما يستند إليه كثيرٌ من النَّاس لكيلا يَرَوْه كما هو، ويَجِبُ أن يكون الإنسان بسيطًا ليعتقد كفايةَ سَماعِ علماء فريقه حتى يَكونَ على بيِّنَةٍ من براهين الفريق الآخر. وأين هم علماءُ اللاهوت الذين يُباهون بخُلُوص النية؟ وأين هم علماء اللاهوت الذين لا يَبدَءون بإضعاف براهين خصومهم رفضًا لها؟ وكلٌّ يَسْطَعُ في فريقه، ولكنَّ الذي يزهو بين فريقه ببراهينه يُعَدُّ بالغَ الغباوة بهذه البراهين بين رجال الفريق الآخر. وإذا أردتم أن تستقصوا في الكتب فما أكثرَ ما يجِبُ اكتسابُه من علمٍ! وما أكثرَ ما يجب تعلُّمه من لغات! وما أكثرَ ما يَجِبُ أن يُطالَع من مكتبات! وما أوْسعَ ما يجب القيام به من قراءة! ومَنْ يكون دليلًا لي في الاختيار؟ إنَّ من الصعب أن يوجَد في بلدٍ أحسنُ كتبِ الفريق المعاكس، وأصعبُ من ذلك وجودُ كتبِ جميع الأفْرِقاء، وهي إذا ما وُجِدَت رُدَّت من فَوْرها. ويُعَدُّ الغائب مخطئًا دائمًا، وتمحو البراهينُ السيئة التي تُقال مع التوكيد حَسَنَ البراهين مَحْوًا سهلًا مقرونًا بالاحتقار، وهذا إلى أنه لا شيءَ أكثرُ تضليلًا من الكتب في الغاب، فلا تُعبِّرُ هذه الكتب عن آراء مؤلِّفيها إلا نادرًا. وإذا أردتم أن تحْكُمُوا في المذهب الكاثوليكيِّ مستندين إلى كتاب بُوسُويه وجدْتم أنفسكم على خطأ بعد أن تعيشوا بيننا، وقد رأيتم أن المذهبَ الذي يُجَابُ به البُروتِستان ليس المذهبَ الذي يُلقَى على عامَّة النَّاس، وأن كتاب بُوسُويه لا يشابه دروس الوعظ مطلقًا، ولا ينبغي أن يُدْرَس الدِّين في كتب أتباعه لحُسن الحُكم فيه،

---

[٣٢] ذكر بلوتارك، فيما ذكر من الأقوال الغريبة، أن الرواقيين كانوا يذهبون في الحكم المتناقض، إلى أن من غير المفيد سماعَ الفريقين، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الفريق الأوَّل إمَّا أن يكون قد أثبت قوله، وإمَّا ألَّا يكون قد أثبته، فإذا ما أثبته كان كلُّ شيءٍ قد قيل ووجب الحكم على الخصم، وإذا لم يثبته كان على غير حق ووجب ردُّ دعواه. وأجد أن منهاج جميع الذين يَقبَلون وحيًا دون سواه يُشابِه كثيرًا منهاج هؤلاء الرواقيين؛ فمتى زعم كلُّ خصم أن الحق بجانبه وحدَه وجب سماع جميع الخصوم لتمييز صاحب الحق منهم، وإلا وقع الظلم.

وإنما يجب أن يُعْرَف عند هؤلاء الأتباع حيث يختلف عن ذاك كثيرًا، ولكلٍّ تقاليدُه وشعوره وعاداته ومُبْتَسَراته التي يتألَّف منها اعتقادُه، فيجب أن تُضاف إلى ذلك للحكم في ذلك.

وما أكثرَ الأممَ الكبرى التي لا تَطبَعُ كُتُبًا مطلقًا ولا تقرأ كُتُبَنا! وكيف تحكُم في آرائنا؟ وكيف نَحكُم في آرائها؟ ونحن نَضحك منها، وهي تزدرينا. وإذا كان سُيَّاحُنا يَسخرون منها، فإنها لا تحتاج لردِّ السخرية إلى غير السياحة بيننا. وأيُّ بلادٍ لا يوجد فيها أُناسٌ عقلاءُ مخلصون صالحون مُحِبُّون للحقيقة، فلا يحاولون معرفة الحقيقة ليجهروا بها؟ ومع ذلك فإن كلَّ واحدٍ يراها في دِينه ويَجِدُ أديانَ الأمم الأخرى مخالفةً للصواب؛ ولذا فإن هذه الأديانَ الأجنبية ليست من البُطلان بمقدارِ ظهورها لنا، أو إن ما نَجِدُ في أدياننا من برهانٍ لا يُثبِتُ شيئًا.

ولدينا ثلاثة أديانٍ مهمة في أوروبة؛ فأحدُها يقول بوحيٍ واحد، والثاني يقول بوحيَيْن، والثالث يقول بثلاثة، وكلٌّ منها يزدري الآخرَيْن ويلعنُهما ويتهمُها بالعَمَى والقسوة والعناد والكَذِب. وأيُّ إنسانٍ منصفٍ يَجرؤ على الحُكم بينها إذا لم يَزِنْ في أوَّل الأمر أدِلَّتها ويَسْمَعْ براهينها؟ والدِّين الذي لا يقول بغير وحيٍ واحدٍ هو أقدمُها، ويلوح أنه أكثرُها رُسوخًا، والدِّينُ الذي يقول بثلاثة هو أحدثُها، ويلوح أنه أكثرها منطقًا، وقد يكون الدِّين الذي يقول بوحيَيْن ويرفِض الثالثَ أحسنَها، ولكنه يُعارَض بجميع المُبْتَسَرات، فيبدو خُلوُّه من المنطق لكلِّ ذي عينَين.

والكتبُ المقدسة في التنازيل الثلاثة مسطورةٌ بلغاتٍ لا تَعْرِفُها الأمم التي تتَّبِعها؛ فعاد اليهودُ لا يفهَمون العِبرية، ولا يَفْهَمُ النصارى العبريةَ ولا اليونانية، ولا يفهم التركُ والفرسُ العربيةَ مطلقًا، حتى إن العرب المعاصرين أنفسَهم لا يتكلمون بلغةِ محمَّدٍ مُطلَقًا! أَوَليس من الغباوة أن يُعلَّمَ النَّاس ويُخاطَبوا دائمًا بلغةٍ لا يفقهونها مطلقًا؟ سيُقال إن هذه الكتبَ تُتَرْجَم، فيا له من جواب! فمَن الذي يُؤَكِّدُ لي أن هذه الكتبَ تُرجِمَت بإخلاص، وأن من الممكن أن تُتَرْجم تَرْجَمةً صحيحة؟ وإذا كان الرَّبُّ قد تنازل إلى مخاطبة النَّاس، فلِمَ يحتاج إلى تُرْجمان؟

وما كنتُ لأتَصَوَّر مُطلَقًا كَوْنَ ما يُلزَم كلُّ إنسانٍ بمعرفته مَحجوزًا في كُتُب، وكونَ الذي لا يَصِلُ إلى هذه الكتب، ولا ينتهي إلى أُناسٍ يَفْهَمونها، يُعاقَبُ على جَهْلٍ غير اختياري، كتبٌ دائمًا. يا له من هَوَس! يَعُدُّ الأوروبيون الكتبَ أمرًا ضروريًّا لأن أوروبة مملوءةٌ بالكتب، وذلك من غير تفكيرٍ في أن ثلاثة أرباع العالم لم تَرَ كُتُبًا قَط. ألم تُكتَبُ الكتبُ كلُّها

من قِبَل آدميين؟ وكيف يحتاج الإنسان إلى كُتُبٍ إذنْ حتى يَعْرف واجباته؟ وما الوسائل التي كان يَعْرِف بها هذه الواجبات قَبْلَ وَضْع هذه الكتب؟ إمَّا أن يكون قد تعلَّم واجباته من تلقاء نفسه، وإمَّا أن يكون قد أُعفيَ من تَعَلُّمها.

ويُحدِث الكاثوليك عندنا ضَجَّةً كبيرةً حَوْل سلطان الكنيسة، ولكن ما يَكسِبون من هذا إذا احتاجوا إلى جهازٍ عظيمٍ من البراهين لإقامة هذا السلطان احتياجَ النِّحَلِ الأخرى لإقامة مذهبها رأسًا؟ تحْكُم الكنيسة بأن لها حَقَّ الحُكْم، وهل أُثبِتَ هذا السلطان جيِّدًا؟ اخْرُجوا من هذا تَدْخُلُوا جميع مجادلاتنا.

أَوَتعرفون كثيرًا من النصارى كابَدوا مشقةَ البحث بعنايةٍ فيما أوْرَدَ اليهود من براهينَ ضِدَّهم؟ إذا حَدَث أن بعضَهم اطَّلَع على شيءٍ من ذلك كان ذلك في كتب النصارى، فيا لصلاح الأسلوب في تَعَلُّم براهين الخصم! ولكنْ كيف العمل؟ إذا حَدَثَ أن أَقْدَمَ بعضُهم على نشرِ كُتُبٍ تَسْتَحْسن اليهودية بيننا جَهْرًا عاقبْنا المؤلفَ والطابعَ والكُتُبيَّ[٣٣] على ذلك؛ فهذه الضابطةُ ملائمةٌ وطيدةٌ لحيازة الحقِّ دائمًا، ومما تَقَرُّ به العينُ أن يُرْفض مَن لا يَجْرءون على الكلام.

وليس أحسنَ من ذلك مُطلَقًا حالُ الذين أُتيحت لهم من بيننا فرصةُ محادثة اليهود؛ فهؤلاء التعساء يَشْعُرون بأنهم تابعون لسلطاننا، وما يُمارَسُ نحوهم من طغيانٍ يجعلهم خائفين، وهم يَعْرِفون مَبْلَغَ عدمِ اكتراث البرِّ النصرانيِّ للظلم والقسوة، وما يُقْدِمون على قوله من غير أن يُعَرِّضوا أنفسهم لتُهمَة التجديف؟ وما نحن عليه من الطمع يوحي إلينا بالغَيرة، وما هم عليه من الثراء يجعلهم مذنبين. ويبدو أكثرُهم علمًا وثقافةً أكثرَهم تحفُّظًا. وأنتم تُحوِّلون بعض البائسين عن دينهم، وأنتم تدفعون إليهم من المال ما يَفتَرون في مقابله عن مِلَّتهم، وأنتم تَحمِلون على الكلام بعضَ الساقطين الأدْنياء الذين يُذْعنون نِفاقًا لكم، وأنتم تفوزون على جهالتهم ونذالتهم، وذلك على حين يتبسَّم علماؤهم صامتِين من بلاهتكم. ولكنْ أتظنون أن من السهل أن تُصيبوا منهم نَيْلًا في الأماكن التي يشعُرون

---

[٣٣] إليك حادثة من ألف حادثةٍ لا تحتاج إلى تفسير، وذلك أن علماء اللاهوت من الكاثوليك قضَوا في القرن السادس عشر بإحراق جميع كُتُب اليهود بلا تفريق. فلما استُشير العالِم المشهور روكلين في هذا الأمر جلب إلى نفسه أهوالًا كادت تؤدي إلى هلاكه؛ إذ رأى إمكانَ الاحتفاظ من هذه الكتب بما ليس ضد النصرانية، وبما يعالج المسائلَ التي لا تهم الدِّين.

فيها بأنهم في أمان؟ ومن الجليِّ في السوربون أن نبوءات المسيح ترجع إلى يسوع، ومن الجليِّ عند رَبَّانِّيي أمستردام أن هذه النبوءات لا ترجع إليه مطلقًا، ولا أظُنُّني استمعت إلى براهين اليهود الذين لا تُوجَدُ لهم دولةٌ حُرَّة ولا مدارسُ وجامعاتٌ يستطيعون أن يتكلموا فيها ويناقِشوا بلا خَطَر، وهنالك فقط يُمكِنُنا أن نعرف ما لديهم أن يقولوا.

ويُدلي التُّركُ بأدلَّتهم في الآستانة، ولكن من غير أن نجرؤ على الإدلاء بما لدينا؛ فهناك دورنا في التمسكُن. وإذا كان الترك يطالبوننا بأن نحترم مُحَمَّدًا الذي لا نؤمن به مطلقًا، كما نطالب اليهودَ بأن يحترموا يَسوعَ المسيحَ الذي لا يؤمنون به أيضًا، فهل يُعَدُّون مُخطئين؟ وهل الحقُّ بجانبنا، وإلى أيِّ مبدأ عادلٍ نستند في حلِّ هذه المسألة؟

وليس ثُلُثَا الجنس البشريِّ يهودًا ولا مسلمين ولا نصارى، وما أكثرَ ملايينَ الآدميين الذين لم يَسْمَعوا باسم موسى وعيسى ومحمد! وهم يُنكِرون ذلك، ومما يُقرَّرُ كونُ مُبشِّرينا يذهبون إلى كلِّ مكان، وهذا ما يُقال حالًا، ولكن هل يذهبون إلى أواسط أفريقية التي لا تزالُ مجهولة، والتي لم يَرِدْها أيُّ أوروبيٍّ حتى الآن؟ وهل يذهبون إلى أواسط بلاد التتر مُتتَبِّعين على ظهور الخيل قبائلَ لا يدنو منها أجنبيٌّ مطلقًا، قبائلَ لا تكاد تَعْرف كاهنَها الأكبر، فضلًا عن سماعها باسم البابا؟ وهل يذهَبون إلى قارات أمريكة الواسعة المشتملة على أقوامٍ بكاملهم لا يزالون يجهلون وجودَ أُممٍ من العالم الآخر قد وطِئتْ عالَمهم؟ وهل يَذْهبون إلى بلاد اليابان التي أسفرت دسائسُهم عن طردهم منها إلى الأبد، والتي لم يُعْرَف أسلافُهم فيها من قِبَلِ أجيالٍ تنشأ إلا حاكَةَ مكايدَ أتَوْا حاملين غيرةً ذات رِثاء للاستيلاء على الإمبراطورية برفق؟ وهل يذهبون إلى دوائر الحريم لدى أمراء آسية لتبشير ألوف العبيد المساكين بالإنجيل؟ وما صنع نساء ذلك القِسْم من العالَم حتى لا يستطيعَ أيُّ مُبشِّرٍ أن يَعِظهن بالإيمان؟ أَوَيذهبْن جميعًا إلى جهنم لِما كان من عَزْلِهن؟

وإذا ما ثَبَتَ تبليغُ الإنجيل في جميعِ العالَم، فما يكون كَسْبُ ذلك؟ إن مما يَحدُث عشيَّةَ وصول أوَّل مُبَشِّرٍ إلى بلدٍ موتَ إنسانٍ فيه لم يتمَكَّن من سماعه لا رَيب، فقولوا لي ما نفعل بهذا الإنسانِ الآن؟ إذا لم يُوجَد في جميع العالَم غيرُ إنسانٌ واحدٍ لم يُبَشَّر بيسوع المسيح كانت قوةُ الاعتراض من حيث هذا الإنسان وحدَه كقوة الاعتراض من حيث ربعُ الجنس البشري.

وإذا ما سَمَّعَ المبشِّرون بالإنجيل أنفسَهم للأمم البعيدة، فما يقولون لهم من قولٍ يُمكِن قبوله كما يَجِبُ استنادًا إلى كلامٍ منهم لا يتطلَّبُ أدقَّ تحقيق؟ وأنتم تُنبِئونني بإلهٍ

وُلِد ومات منذ ألفَي سنةٍ في الطَّرَف الآخر من العالَم، في مدينةٍ صغيرةٍ ما لا أعرِفها، وأنتم تقولون لي إنه سيُحكَم بالهلاك الأبدي على كلِّ مَن لا يؤمن بهذا السرِّ الخفي؛ فهذه أمورٌ غريبةٌ لا يُبادر إلى اعتقادها استنادًا إلى روايةِ رجلٍ لا أعْرِفه مطلقًا! ولِمَ أحدَثَ إلَهُكم، على ذلك البُعد منِّي، أُمورًا أراد إلزامي بأن أكون عارفًا بها؟ وهل من الإجرام أنْ أجْهل ما يقعُ في الناحية المقابلة من الكرة الأرضية؟ وهل أستطيع أن أتنبَّأ بوجودِ شعبٍ عِبْريٍّ وبمدينةٍ تُدْعى أورشليمَ في النصف الآخر من الكرة الأرضية؟ يَعدِل هذا إجباري على معرفةِ ما يَقَعُ في القمر! تقولون إنكم آتون لتعليمي إياه، ولكن لِمَ لمْ تأتوا لتعليم أبي إياه؟ أوْ لِمَ تحكُمُون بالهلاك الأبديِّ على هذا الشيخ الصالح لعدم معرفته شيئًا عن ذلك مطلقًا؟ وهل يجبُ أن يُعاقَبَ عِقابًا أبديًّا من أجل كسلكم مع أنه كان بالغ الصلاح كثير الإحسان، فلا يَبْحَثُ عن غير الحقيقة؟ تَذَرَّعوا بحُسن النية، ثُمَّ ضعُوا نفسَكم في مكاني، ورَوْا: هل أنا ملزمٌ، استنادًا إلى شهادتكم وحدَها، بأن أعتقد جميعَ ما تقولون لي من أمورٍ لا تُصدَّق، وبأن أوَفِّق بين كثيرٍ من المظالمِ وبين الربِّ العادل الذي تُخبِرونني به؟ تفضَّلوا بتركي أذهَبُ لأرى ذلك البلد البعيد الذي يَقَعُ فيه كثيرٌ من العجائب لا عهدَ لهذا البلد بها، ولأعلمَ السببَ في كونِ أهلِ أورشَليمَ عاملوا الرب مثلَ قُطَّاع الطرق، وأنتم تقولون لي إنهم لم يعترفوا بأنه إله، وما أصنع إذن أنا الذي لم يسمع حديثًا عنه بغير واسطتكم؟ وأنتم تقولون لي إنهم عُوقِبوا، ومُزِّقوا كُلَّ ممزَّق، واضطُهِدوا، وعُبِّدوا، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يدنوَ من تلك المدينة. أجلْ، إنهم استحقُّوا جميعَ هذا، ولكن ما يقول أهلوها اليومَ عن قتل إله أسلافهم المتجسِّد؟ إنهم يُنكِرونه، إنهم لا يعترفون بالربِّ ربًّا، إنهم ليسوا إذنْ خيرًا من أبناء السكان الأصليين.

ماذا! في تلك المدينة نفسها؛ حيث مات الرب، لم يعترف القدماءُ ولا المعاصرون بهذا الرب قَط، ثُمَّ تريدون أن أعترف به أنا الذي وُلِد بعده بألفي عامٍ وعلى بُعد ألفي فرسخٍ من هناك! ألَا ترون أنه يجب عليَّ قبل تصديق هذا الكتاب الذي تُسمُّونه مُقدَّسًا، والذي لا أفقه منه شيئًا، أن أعْرِف مِن غيركم متى وُضِع، ومَن وضَعَه، وكيف حُفِظ، وكيف انتهى إليكم، وما يقولون عنه في البلاد التي ترفِضه، وما أسباب رفضهم إياه، وإن كانوا يَعْرِفون مثلما تَعْرِفون جميعَ الذي تُلقِّنونني إياه؟ أنتم تشعرون جيِّدًا بأن الضرورة تقضي بأن أذهب إلى أوروبة وآسية وفلسطين لفحص كلِّ شيءٍ بنفسي؛ فمن الحماقة أن أستمع إليكم قبل ذاك الحين.

ولا يبدو لي هذا المقالُ معقولًا فقط، وإنما أذهبُ إلى أن كلَّ إنسانٍ عاقلٍ مُكلَّفٌ في مثل هذه الحال بأن يتكلم هكذا، وبأن يُقصي المُبشِّرَ الذي يريد قبل تمحيص الأدلة، تعليمَه وتعميدَه، وأذهبُ كما هو الواقع إلى أنه لا يُوجَدُ وحيٌ لا يُوجَّهُ إليه من الاعتراضات الشديدة نفسِها كما يُوجَّه إلى النصرانية؛ ومِنْ ثَمَّ يُرَى أنه إذا كان لا يُوجَدُ غيرُ دينٍ حقيقيٍّ واحد، وأن كلَّ إنسانٍ مُلزَمٌ باتِّباعه خَلَاصًا من الهلاك الأبدي، فإنه يجب عليه أن يقضي حياتَه في دراسة جميع تلك الأديان والتعمُّق فيها والمقابلة بينها، وفي جَوْب البلاد التي قامت فيها. ولا أحدَ مُعفًى من واجبِ الإنسانِ الأوَّل، ولا يحقُّ لأحدٍ أن يعتمد على حُكْم الآخرين، ويجب على الصانع الذي لا يعيش من غير عمله، والحارثِ الذي لا يَعْرِف القراءة، والفتاة الغيداء الهيُوب، والعليلِ الذي لا يكاد يقدِر على مغادرة فراشه؛ يجب على هؤلاء جميعًا، يجب على هؤلاء بلا استثناءٍ أن يدرُسوا ويُفكِّروا ويجادلوا ويسافروا ويطوفوا في العالم، فيعودُ لا يوجدُ من الأمم ما هو مستقرٌّ ثابت، ولا تُصبحُ الأرضُ غيرَ مستورة بالحجيج الذاهبين بنفقاتٍ عظيمةٍ والمحتملين متاعبَ طويلةً للتحقيق والمقابلة والبحث فيما يَجِدُون من مختلف الأديان. وهنالك قُل على المِهَن والفنون والعلوم الإنسانية وجميعِ الأشاغيل المدنية العَفَاء، وهنالك لا يُمكِنُ أن يكون من الدراسات غيرُ دراسة الدِّين، وهنالك يصعُب جِدًّا على الذي يتمتَّع بأحسنِ صحة، ويكون خيرَ مَن يستَعمل وقتَه وأفضلَ مَنْ يستخدم عقلَه ويُعمِّرُ أكثرَ من غيره، أن يَعْرِف أين هو في مَشيبه، فيكونُ من دواعي الحيرة أن يَعلَم قَبْلَ موته أيُّ الأديان كان يجب أن يعيش عليه.

وهل تريدون أن تُلطِّفوا هذا المنهاج فتوجبوا قليلَ سلطانٍ للناس؟ وهنالك تَرُدُّون إليه كلَّ شيء. وإذا كان ابن النصرانيِّ يصنعَ خيرًا حين يتَّبِعُ دينَ أبيه بلا درسٍ عميقٍ خالٍ من الغرض، فَلِمَ يَصنَع ابن التركي سوءًا حين يتَّبع دينَ أبيه أيضًا؟ أتحدَّى جميع المتعصبين بأن يجيبوا عن هذا بشيءٍ يَرضَى عنه الرجل العاقل.

وتَثْقُلُ وطأةُ هذه البراهين، فيُفضِّلُ بعضُ النَّاس جعلَ الربِّ جائرًا يجازي الأبرياء من أجلِ ذنبٍ اقترفَه أبوهم على الارتداد عن عقيدتهم الجافية، ويَخرُجُ آخرون من الوَرطة بأن يُرسِلوا بمعروفٍ مَلَكًا يُعَلِّم مَن عاشوا حَسَني الأخلاق مع جَهْلٍ مُطبِقٍ. فيا لروعةِ إبداعِ هذا الملك! إنهم لم يَكتَفُوا بتعبيدنا لآلاتهم، فجعلوا الربَّ نفسه يستعملها عن وُجوبٍ.

وانْظُرْ، يا بنيَّ، أيُّ مُحالٍ يؤدِّي إليه الزَّهْوُ والتعصُّبُ حينما يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يكون النَّاسُ على رأيه، وحينما يَظُنُّ أنه ذو حقٍّ على بقية الجنس البشريِّ حَصْرًا، وأتَّخذ رَبَّ

السلامِ الذي أعبُدُ وأبشِّرُكم به شاهدًا على إخلاصي في جميع مباحثي، ولكنني إذ أراها كانت — وتكون دائمًا — بلا توفيق، ولكني إذ أراني أَغْرقُ في بحرٍ محيطٍ لا حَدَّ له، فإنني أَرْجع القهقرَى وأَحْصُرُ إيماني ضمنَ مبادئي الابتدائية. ولم أستطِع قَطُّ أن أعتقدَ أن الربَّ أمرني أن أكونَ حائزًا مثلَ ذاك العلم، جاعلًا جهنَّمَ جزاءَ مخالفتي؛ ولذا فقد أغلقتُ جميعَ الكتب، ولم يَبْقَ منها غيرُ واحدٍ مُفَتَّحٍ لجميع العيون، وهو كتابُ الطبيعة؛ ففي هذا الكتاب العظيم الرفيع أتعلَّمُ عبادةَ صانعِهِ الإلهي والقيامَ بشعائره، ولا يُعذَر أحدٌ على عدمِ القراءة فيه؛ وذلك لأنه يخاطب النَّاسَ بلغةٍ تفهَمُها جميعُ الأذهان. وإذا ما وُلِدتُ في جزيرةٍ قفر، وإذا لم يقع نظري قَطُّ على إنسانٍ آخرَ غيري، وإذا لم أَعْلَم قَطُّ ما حدثَ قديمًا في زاويةٍ ما من العالم، وإذا ما أعملتُ عقلي، وإذا ما تعهدتُه، وإذا ما أحسنتُ استعمالَ المواهب المباشرة التي أنعمَ الربُّ بها عليَّ، تعلَّمتُ من تلقاء نفسي أن أعرِفَه، وأن أُحبَّه، وأن أحبَّ أعماله، وأن أريدَ الخيرَ الذي يريد، وأن أقومَ بجميع واجباتي في الأرضِ نَيْلًا لرضاه، وما يُمكن جميعَ عِلْمِ النَّاس أن يُعلِّمَني أكثرَ من ذاك؟

وأمَّا من ناحيةِ الوحي، فإذا ما كنتُ أَحْسنَ برهنةً وأصلحَ معرفة، فمن المحتملِ أن أشعرَ بحقيقته، وبنفعه لمن كُتِبَت لهم سعادةُ قبوله. ولكني إذا ما أبصرتُ أدلَّةً ملائمةً له لا أستطيع مكافحتها، فإنني أرى ضدَّه أيضًا اعتراضاتٍ لا أستطيع حلَّها، وتوجد براهينُ متينةٌ موافقةٌ ومخالفةٌ لا أعْرِف إلى أيِّها أنحاز، فلا أعترفُ به ولا أرفِضُه. ولكنَّ الذي أرفِضُ هو الإلزام بقبوله؛ وذلك لأن هذا الإلزام المزعوم منافٍ لعدل الرب، بعيدٌ من رفع موانع النجاة، مُكَثِّرٌ لها، جاعلٌ إياها منيعةً لدى معظمِ الجنس البشري، وإذا عدوتَ هذا وجدْتَني مرتابًا ارتيابَ توقيرٍ عند هذه النقطة، وليس لديَّ من الخُيَلاء ما أظنُّني معه معصومًا من الخطأ، وقد أمكن أُناسًا آخرين أن يُقرِّروا ما يَظهر لي أنه غيرُ مُقرَّر؛ فأنا أُبرهِنُ من أجلِ نفسي، لا من أجلهم، ولا أَلُومُهم، ولا أقلِّدُهم، وقد يكون حُكْمهم أفضلَ من حُكْمي، ولكنْ لا يَقَعُ الذَّنب عليَّ في عدمِ موافقة حكمي لحكْمِهم.

وأعترفُ لكم أيضًا بأنني أَعْجَبُ بجَلالِ الكُتُب المقدَّسة، وبأن قداسةَ الإنجيلِ تخاطبُ فؤادي. وانظروا إلى كتب الفلاسفة مع جميع فخامتها تَرَوا مقدارَ تصاغُرها بجانبِ ذاك. أَوَليس من الممكن أن يكون أحدُ الكتبِ رفيعًا بسيطًا معًا، وأن يكونَ مِن وضْعِ النَّاس؟ أَوَليس من الممكن أن يكون ذاك الذي يشتمل على قصَّته هذا الكتابُ بشرًا؟ وهل تلك

اللهجةُ لهجةُ مُتحَمِّسٍ أو متعصِّبٍ طَمُوح؟ يا للرفْقِ والنقاءِ في أخلاقه! ويا للطلاوةِ المؤثِّرةِ في تعاليمه! ويا للسُّموِّ في أمثاله! ويا للحكمةِ البالغةِ في أقواله! ويا لثباتِ الجَنانِ والرقةِ والسدادِ في أجوبته! ويا لسلطانِه على أهوائه! وأين الرجل، وأين الحكيم، الذي يَعْرِف أن يسيرَ ويألَمَ ويموتَ من غير ضَعفٍ ولا افتخار؟ عندما وَصف أفلاطونُ رَجُلَه الصالحَ الخياليَّ الذي غُمِرَ بكلِّ ما في الجنايةِ من عارٍ، والذي هو أهلٌ لكل جائزةٍ عن الفضيلة، وَصَف يسوعَ وصفًا دقيقًا، وقد بلغ وجهُ الشبهِ بينهما ما شَعَرَ به جميعُ آباء الكنيسة، وما يتعذَّر على الإنسان أن يُخدَع معه. وأيُّ مُبتَسَر، وأيُّ عمًى، لا يكون حتمًا في الإقدام على المقارنةِ بين ابنِ سُفْرُونِسْكا وابنِ مريم؟ ويا لَبُعدِ ما بينهما! لقد سَهُل على سُقْراطَ أن يحافظ على جلاله حتى النهاية، فمات بلا ألمٍ ولا عارٍ. ولو لم يُشَرِّف هذا الموتُ الهَيِّنُ حياتَه لساورت النفوسَ ظُنونٌ بأن سقرطَ ليس غيرَ سُوفِسْطائيٍّ مع ما كان عليه من عقل. ويُروى أنه واضعُ علمِ الأخلاق، وعلمُ الأخلاقِ ما طَبَّقه آخرون قبله؛ فهو لم يَصنعْ غيرَ قولِ ما كانوا قد فعلوا، وهو لم يصنعْ غيرَ صَوْغِ أمثلتِهم في دروس. وقد كان أرِيستيدُ عادلًا قبل أن يُحدِّث سقراطُ عن العدل، وقد مات لِئُونِيدَاسُ في سبيل بلده قبلَ أن يجعل سُقْراطُ من حُبِّ الوطن واجبًا. وقد كانت إسبارطة قانعةً قبل أن يُثنيَ سقراطُ على القناعة، وقد كانت بلاد اليونان زاخرةً بذوي الفضل قبل أن يُعَرِّف سقراطُ الفضيلة. ولكنْ أين تَلَقَّى يسوعُ عند ذويه تلك الأخلاقَ النقيةَ العاليةَ التي ألقى وحدَه دروسَها ومَثَّلَها؟[٣٤] وتُسمِعُ أرفعُ الحكمةِ نفسَها في سواءِ التعصُّب الصائل وتُمجِّدُ بساطةُ أقربِ الفضائلِ إلى البطولةِ أحقرَ النَّاسِ كلِّهم. ويُعَدُّ موتُ سقراطَ وهو يتفلسفُ هادئًا بين أصدقائه ألطفَ ما يُمكن أن يُرغَب فيه، ويُعَدُّ موتُ يسوعَ وهو يقضي أجلَه في الآلام بين الإهانة والسخرية واللعنة من قِبَل جميعِ الشعبِ أفظعَ ما يُمكِن أن يُخشى. وتناول سقراطُ كأسَ السُّمِّ شاكرًا لمن قدَّمها إليه وهو يبكي، ودعا يسوعُ لجلَّاديه الضواري بين نَكالٍ هائلٍ. أجلْ، إذا كان مَحْيَا سقراطَ ومماتُه جديرَيْن بحكيم، فإنَّ حياةَ يسوعَ وموتَه خَليقان بإله، وهل نقول إنَّ قصة الإنجيل مِن صُنْعِ الخيال؟ أيْ صديقي، لا يقع الاختلاقُ هكذا، وقد كانت أعمالُ سقراطَ التي لا يَشُكُّ فيها أحدٌ أقلَّ من أعمال يسوعَ المسيح مشاهدةً من قِبَل النَّاس، وفي الأساس

[٣٤] انظر — في الموعظة التي ألقاها في الجبل — إلى المقابَلة التي وضَعَها بنفسه بين أدبهِ وأدبِ موسى (إنجيل متى، فصل ٥، فقرة ٢١ وما بعدها).

يعني هذا تأخيرًا للمشكلة من غير هَدْمٍ لها، ويكون اتفاقُ أُناسٍ كثير على اختلاق ذلك الكتاب أكثرَ عدمَ تصوُّرٍ مِن أن يُزَوِّدَ موضوعَه رجلٌ واحد، وما كان مؤلفو اليهود ليقدِروا على إيجاد مثل تلك اللهجة ولا ذلك الأدب. ويتصف الإنجيل بصفاتٍ بالغةٍ من الحقيقة ووقفِ النظر وتَعَذُّرِ التقليد ما يكون معه مُختَلِقُه أدعى إلى العجب من بَطَلِه، ومع ذلك فإن هذا الإنجيلَ نفسَه مملوءٌ بأمورٍ لا تُصدَّق، بأمورٍ يرفِضُها العقلُ فيستحيل على كلِّ ذي عقلٍ أن يتصوَّرها وأن يقبلها. وما يُعْمَلُ بين جميع هذه المتناقضات؟ أن يكون الإنسانُ دائمًا معتدلًا مُحترزًا يا بني، فيحترمَ صامتًا ما لا يستطيعُ رفضَه ولا فهْمَه، وأن يتواضع أمام الموجود الأعظم الذي يَعْرِف الحقيقة وحدَه.

وذلك هو الشكُّ غير الاختياري الذي بقيتُ عنده، بَيْدَ أن هذا الشك لم يكن شاقًّا عليَّ قَط، وذلك لعدم امتداده إلى نِقَاط العمل الجوهرية، ولأنني قضيتُ في أمر المبادئ حَوْل جميع واجباتي. وأعبدُ الله ببساطة قلبي، ولا أحاول معرفةَ غيرِ ما يُهِمُّ سلوكي. وأمَّا العقائدُ التي لا تؤثِّرُ في الأعمال ولا في الأخلاق، والتي تُقلِقُ بالَ كثيرٍ من النَّاس، فلا أُبالي بها مطلقًا، وأَعُدُّ جميعَ الأديان الخاصة نُظُمًا نافعةً تأمر في كلِّ بلدٍ بطرازٍ نمطيٍّ واحدٍ في تمجيد الربِّ بعبادةٍ عامة. ويُمكِن أن تكون لها أسبابُها في الإقليم أو الحكومة أو عبقرية القوم أو في عاملٍ محليٍّ آخرَ يجعل أحدَها أَوْلَى من الآخر على حسب الأزمنة والأمكنة، وأعتقد أنها كلَّها صالحةً إذا ما عُبِدَ الله بها عبادةً لائقة. وعبادةُ القلب هي العبادة الجوهرية، وما كان الله ليرفِضَ طاعةً مهمَا كان الشكلُ الذي تُقدَّم به إذا ما كانت خالصة. وإذا ما دُعيت إلى تعبُّد الكنيسة وَفْقَ الدِّين الذي أُعلِن، فإنني أُتِمُّ فيها ما أُمِرتُ به من عنايةٍ بكلِّ ما يُمكن من إتقان، ويؤنِّبني ضميري إذا ما قَصَّرْتُ في أيِّ شيءٍ من ذلك قصدًا. وقد نِلْت، كما تعلم، بحُظوةٍ لَدُنْ مسيو دومِلَّاريد، وبعد منعٍ كَنَسِيٍّ طويل، إجازةً باسترداد وظائفي مساعدةً لي على العيش، وقديمًا كنت أقوم بالقُدَّاسِ برشاقةٍ يُنتَفعُ بها مع الوقت في الأمور المهمة إذا ما كُرِّرَت غالبًا، وما فتئتُ منذ مبادئي الجديدة أَقُومُ به مع أعظم تكريم. وقد أُشبِعْتُ من جلال الكائن الأعلى ومن وجوده، ومن نَقْص الذهن البشري الذي هو قليل الإدراك لما يتعلَّق بصانعه. وإني إذ أراني حاملًا له أدعية النَّاس على شكلٍ مُقرَّر، أَتَّبعُ جميعَ الطقوس بعناية، وأرتِّل بانتباه، وأسعى في عدمِ إهمالِ أقلِّ كلمةٍ ولا إغفالِ أيٍّ من الشعائر، ومتى حان وقتُ التقديس جمعتُ حواسِّي لأقوم به وَفْقَ جميع مراسيم الكنيسة وعظمة التقديس، فأسعى في إلغاء عقلي أمام العقل الأعلى، وأقول في نفسي: مَن أنت حتى

تقيسَ القدرةَ التي لا حدَّ لها؟ وأنطقُ مع الاحترام بكلمات السرِّ المُقدَّس، وأُعيرُ عملها كلَّ ما يُمكِن منحُه من اعتماد. ومهما يكن من أمرِ هذا السرِّ الذي لا يُدرَك، فإنني لا أخشى أن أُجازى يوم الحساب على أنني امتهنته في فؤادي.

وقد شُرِّفْتُ بالكَهنوت، وإن كان ذلك في المرتبة الأخيرة، فلا أفعل شيئًا ولا أقول شيئًا يُمكن أن يجعلني غيرَ أهلٍ للقيام بواجباته العالية، وسأعِظُ النَّاسَ بالفضيلة دائمًا، وسأحرِّضهم على فعل الخير دائمًا، وسأجعل نفسي قُدوةً لهم في ذلك ما استطعت، وليس من شأني أن أجعل الدِّين محبوبًا لديهم، وليس من شأني أن أُثَبِّتَ إيمانهم في العقائد النافعة حقًّا، والتي يُلزَم كلُّ إنسانٍ باعتقادها. ولكنْ معاذَ الله أن أعِظَهم بعقيدة التعصُّب الجافية، ولكنْ معاذ الله أن أَحمِلَهم على ازدراء جارهم، وأن أقول للآخرين: سيُحكم عليكم بالهلاك الأبدي، ولا نجاةَ خارجَ الكنيسة.[٣٥] ولو كنتُ في مرتبةٍ أكثرَ امتيازًا لأمكَن هذا التحفُّظَ أن يجذِبَ إليَّ أمورًا، ولكنني من صِغَر الشأنِ ما لا يُوجَد معه ما أخشاه كثيرًا، ولا يمكن أن أَسقُطَ إلى أسفلَ ممَّا أنا عليه مطلقًا، ومهمَا يَحدُث فإنني لن أُجَدِّف على العدل الإلهي، ولن أفتريَ على الروح القُدُس.

وقد رغبتُ زمنًا طويلًا في أن أنالَ شرفَ نَصْبي خُوريًّا، ولا أزال راغبًا في ذلك، ولكنني عُدْتُ لا آمُلُ ذلك. ولا أجِد، يا صديقي العزيز، ما هو أجمَلُ من مَنصِب الخورِي؛ فالخوريُّ الصالحُ هو وكيلُ الحِلْم كما أن الحاكم الصالح وكيلُ العدل، وليس لدى الخوريِّ من شرٍّ يَصْنَع، وإذا كان لا يستطيع أن يَصْنَع الخيرَ بنفسه دائمًا فإن التماسَه له يكون في محلِّه، وهو يفوز به غالبًا متى عَرَف أن يُحتَرَم. آه! لو كنتُ في جبالنا صاحبًا لِخَوْرَنِيَّةٍ أَخْدِمُ رجالَها الصالحين لكنتُ سعيدًا إذن؛ وذلك لأنني أكون كما يلوح لي سببَ سعادة ساكنيها. أجلْ، إنني لا أجعلهم أغنياء، ولكنني أشاطرهم فقرهم، وأَنْزِع منهم العيبَ والازدراءَ اللذين هما أشدُّ وطْأً من العَوَز، وأُحبِّبُ إليهم الاتفاقَ والمساواةَ اللذين يَطْرُدان

---

[٣٥] لا يدخل واجبُ محبَّة الإنسان لدِينِ بلده واتِّباعه لهذا الدِّينِ نطاقَ العقائد المخالفة لحسن الأخلاق كعدم التسامح مثلًا، وهذه العقيدة الكريهة هي التي تسلِّح بعضَ الناس ضدَّ بعضٍ وتجعلهم كلَّهم أعداءً للجنس البشري، وكلُّ تفريق بين التسامح المدني والتسامح اللاهوتي صبياني باطل؛ فلا يمكن فصلُ أحد هذين التسامحَين عن الآخر، ولا يمكن قبولُ أحدهما دون الآخر، حتى إن الملائكة لا يمكن أن يعيشوا مسالِمين لأناسٍ يَعُدُّونهم أعداءً للرب.

البؤسَ غالبًا، ويجْعلانه أمرًا محتملًا دائمًا، ومتى رأَوْا أنني لا أكون أحسن حالًا منهما في شيء، وأنني أعيشُ قَنُوعًا مع ذلك، تعلَّموا أن يَتعزَّوْا عن نصيبهم وأن يعيشوا قُنُعًا مِثْلي، وأكونُ في تعاليمي أقلَّ ارتباطًا في روح الكنيسة مما في روح الإنجيل حيث العقيدةُ بسيطةٌ والأدبُ رفيع، وحيث تَقِلُّ الطقوسُ الدينية وتَكثُر أعمالُ التقوى، وأبذُل جُهدي في القيام بما يَجِبُ أن يُعمَل قبل أن أُعلِّمَهم إياه، وذلك ليرَوا جيِّدًا أنني أُفكِّر في جميع ما أقول لهم. ولو وُجِد في جِواري أو في خَورَنيَّتي بروتستانٌ ما مِزْتُهم من سكانِها مطلقًا، وذلك في كلِّ ما يتعلق بالبِرِّ النصراني، وأحمِلُهم كذلك على التحابِّ وعلى عَدِّ أنفسهم إخوة، وعلى احترام جميع الأديان وعلى عيشِ كلِّ واحدٍ منهم مطمئنًّا في دينه. وأرى أن ترغيبَ الواحد في ترْك الدِّين الذي وُلِدَ فيه ينطوي على ترغيبه في الإساءة؛ ومِنْ ثَمَّ في إساءة نفسه. ولنحافظْ على النظام العام منتظرين بصائرَ أعظمَ مما اتَّفَق، ولنحترمِ القوانين في كلِّ بلد، ولا نُكدِّرْ صفوَ العبادة التي تأمُر بها، ولا نَحمل المواطنين على العِصيان مطلقًا؛ وذلك لأننا لا نعلم علمَ اليقين هل من الخير لهم أن يَتركوا آراءهم مُتحَوِّلين إلى غيرها، كما أننا نَعْرِف أن من المُحقَّق وجودَ شرٍّ في التمرُّد على القوانين.

والآن يا صديقي الشاب قد سَرَدْتُ لك مجاهرًا عقيدتي كما يَقْرؤها الربُّ في قلبي، وأنت أوَّلُ مَن صنعتُ له ذلك، وقد تكون الوحيدَ الذي أصنَع له ذلك. ومما لا يجوزُ مطلقًا، ما بقيَ اعتقادٌ حسنٌ بيننا، أن يُعكَّرَ ذوو النفوس الهادئة، وأن يُكدَّرَ إيمانُ البسطاء بمشاكلَ لا يستطيعون حلَّها، فتُقلِقُ بالَهم من غير أن تُنِيرَهم، ولكن إذا ما ارتجَّ كلُّ شيءٍ مرَّةً وجبَ حِفْظُ الساق على حساب الأغصان، ولا غَرْو؛ فإن الضمائرَ المضطربة القَلِقة الخامدة تقريبًا في الحال التي وَجَدْتُ عليها ضميرَك تحتاج إلى تقويةٍ وإيقاظ، ويجِبُ لإعادة قيامها على أساس الحقائق الخالدة أن يَتِمَّ خَلْعُ الأركانِ المذبذبةِ التي لا تزال تَرى الاستمساكَ بها.

وأنت في الدَّوْر الخَطِر من العُمُر حيث تتفتَّحُ الروح لليقين، وحيث يأخذ القلب شكله وطابعه، وحيث يُقرَّرُ لِمَدَى الحياة سُلوكُ سبيلِ الخيرِ أو سبيلِ الشَّر، ثُمَّ يتصلَّب العنصرُ وتعودُ السمات الجديدة لا تؤثِّر أبدًا. فيا أيها الفتى، تلقَّ في نَفْسِك المَرِنة بَعْدُ طابعَ الحقيقة، ولو كنتُ أكثرَ ثقةً بنفسي لاتخذتُ معك طَوْرًا اعتقاديًّا حازمًا، ولكني رجلٌ غافلٌ عُرْضةٌ للخطأ. وما أستطيع أن أصنع؟ لقد فتحتُ لك قلبي بلا تحفُّظ، وحدَّثْتُك عمَّا أراه صحيحًا كما هو، وأعربتُ لك عن شكوكي كشُكوك، وأعربتُ لك عن آرائي كآراء، وبيَّنتُ لك أسبابَ شكِّي واعتقادي، والآن عليك أن تحكم؛ فقد استمهلتني، وكان هذا احترازًا حكيمًا جعلني

أفكِّر فيك وأبدأ بوضع ضميرِك في حالٍ يُريدُ معها أن يُنوَّر، وكُن مخلِصًا نحوَ نفسك، وانتحِل من آرائي ما يُقْنِعُك واطرح البقية. ولم تَبلُغْ من الفساد بالعيب بَعْدُ ما تقعُ معه في خَطَرِ سوء الاختيار، وأقترح أن نتحادثَ في ذلك بيننا، ولكن إذا ما وَقَعَ الجدلُ حَمِيَ الوطيسُ ومازَجَ الزهوُ والعنادُ ذلك، وعاد حُسْنُ النية لا يكون. ولا تُجادِل، يا صديقي، مُطلَقًا؛ وذلك لأن الإنسان لا يُنيرُ نفسه ولا غيره بالجدال، وأمَّا أنا فلم أعزِم إلا بعد تفكيرِ سنينَ كثيرة، وأقِفُ هناك مستريحَ الضمير هادئَ البال. ولو أردتُ أن أستأنف البحثَ في مشاعري ما انتهيتُ إلى حُبٍّ للحقيقة أكثرَ صفاء، ويكون ذهني الذي غدَا أقلَّ نشاطًا دون الحال الذي يَعرِفُها فيه، وأبقى كما أنا عليه، وذلك خشيةَ أن يؤدي ذوقُ التأمُّل، إذ يَصِيرُ هَوًى عاطلًا، إلى فُتوري في ممارسة واجباتي، وخشيةَ الوقوع ثانيةً في شكِّي الأوَّل من غير أن أجِدَ قدرةً على الخروج منه، وقد مَضَى أكثرُ من نصف حياتي، وعاد لا يكون لديَّ غيرُ ما يَجِبُ من وقتٍ للانتفاع ببقية حياتي، ولأمحوَ خطيئاتي بفضائلي، وإذا ما خُدِعْتُ كان هذا على الرغم منِّي. ومَن يقرأ ما في صميم فؤادي يعلمْ جيِّدًا أنني لا أُحبُّ عَمَاي، والحياةُ الصالحةُ هي الوسيلةُ الوحيدةُ التي بقيتْ لي للخروج من العَمَى عند العجز عن الخلاص منه ببصائري الخاصة. وإذا كان الرَّبُّ قادرًا على إخراج أولادٍ لإبراهيمَ حتى من الحجارة حُقَّ لكلِّ إنسانٍ أن يَرْجُوَ إنارتَه عندما يجعل نفسَه أهلًا لها.

وإذا ما ساقتك تأمُّلاتي إلى التفكير كما أُفكِّر، وإذا كنتَ تشاطرني مشاعري، وإذا كان كلٌّ مِنَّا يَجْهَرُ بذات العقيدة، فإليك نصيحتي: لا تُعَرِّض حياتك بَعدُ لمَنَازِعِ البؤسِ واليأس، ولا تَقْضِها بَعْدُ في العارِ تحت رحمة الغرباء، وامتنع عن أكلِ خبز الصدقة الحقير، وارجعْ إلى وطنك، وعُدْ إلى دِينِ آبائك، واتَّبِعْه بقلبٍ مُخْلص، ولا ترتدَّ عنه أبدًا؛ فهو بسيطٌ جِدًّا، وهو مُقَدَّسٌ جِدًّا، ولا أرى بين أديان الأرض ما هو أنقى منه أدبًا، ولا ما هو لدى العقل أكثرُ منه قبولًا، وأمَّا نفقاتُ السفر فلا تُفكِّرْ فيها، فستُدبَّر. وكذلك لا تخشَ حياءً زائفًا من عَوْدٍ مُزْرٍ، فيجب أن يُخجَل من اقترافِ ذَنْبٍ، لا من إصلاحه، وأنت لا تزال في دَورٍ من العُمُر يُغفَرُ فيه كلُّ شيء، ولكن مع العقاب على كلِّ ما يُرتَكَبُ فيه. وإذا ما أردتَ أن تُنصتَ لضميرك زال ألفٌ من الموانع الباطلة عند صوته، وستشعُر في دَور الشكِّ الذي نحن فيه بأن من الافتراض الذي لا يُغتَفَر أن يُجْهَرَ بدِينٍ آخَر غيرَ الذي يُولَد المرء فيه، وبأن من البهتان ألَّا يُمارِس المرءُ بإخلاصٍ دِينًا يُجْهَرُ به، وهو إذا ما كانت له معذرةٌ كبيرةٌ أمام

محكمة القاضي العلي، أفلا يعفو هذا القاضي عن سيئةٍ وُلِدَ معها الإنسانُ أكثرَ من عفوه عن سيئةٍ جَرُؤَ على اختيارها؟

واجعلْ نفسك، يا بني، في حالٍ تبتغي فيها دائمًا وجودَ رَبٍّ واحد، فلا تَشُكَّ فيه أبدًا، ثُمَّ مهما يكن من قرارٍ يُمكنُك أن تتخذَ اذْكُرْ أن واجبات الدِّين الحقيقية مستقلةٌ عن تعاليم النَّاس، وأن القلبَ الصادق هو هيكلُ الربِّ الحقيقي، وأن محبةَ الله تفضيلًا على كلِّ شيء، ومحبةَ القريب كمحبة النفس، هما خُلاصةُ الشريعة في كلِّ بلدٍ ونِحْلَة، وأنه لا يُوجَد دِينٌ يُعفِي من الواجبات الأدبية، وأنه لا يُوجَد غيرُ هذه الواجبات، وما هو جوهريٌّ حقًّا، وأن العبادة الباطنية هي أُولَى هذه الواجبات، وأنه لا فضيلة حقيقيةً بلا إيمان.

واجتَنِبْ أولئك الذين يتذَرَّعون بإيضاح الطبيعة، فيبذُرون في قلوب النَّاس مذاهبَ مُكَدِّرة، يَبْذُرون مذاهبَ يُعَدُّ شكُّها الظاهرُ إيجابيًّا اعتقاديًّا أكثرَ من لهجةِ خصومهم الجازمة، وهم إذ يتمسَّكون بذريعةٍ قائمةٍ على الغطْرَسة قائلةٍ إنهم وحدَهم ذوو بصائرَ وحقٍّ وحُسْنِ نية، فإنهم يُخضعوننا لأحكامهم القاطعة بصَلَف، ويزعمون أنهم يمنحوننا، كمبادئَ حقيقيةٍ عن الأشياء، نُظُمًا لا تُفهَمُ أقاموها في خيالهم، ومع ذلك فإنهم إذ يقلِبون جميعَ ما يحترم النَّاسُ رأسًا على عَقِب ويُقوِّضونه ويدوسونه، فإنهم يَنْزِعون من المَكْرُوبين آخرَ سُلوانٍ عن بؤسهم، ومن الأقوياء والأغنياء زاجرَ أهوائهم الوحيد، ويستأصلون من القلوب نَدَمَها على الإجرام وأملَها في الفضيلة، ثُمَّ يفاخرون بأنهم محسنون للجنس البشري، وهم يقولون إن الحقيقة غيرُ ضارَّةٍ بالنَّاس مطلقًا، وأعتقد هذا كما يعتقدون، وأرى أن هذا دليلٌ كبيرٌ على أن الحقيقة ليست ما يُعلِّمون.[٣٦]

[٣٦] يبلغ الفريقان من التصاول بكثيرٍ من السفسطات ما يَصعُب معه كثيرًا معالجةُ جميع ما يذهبان إليه، وهيهات أن يُقيَّد بعضُ ذلك كلَّما ظهر، وما أكثرَ ما اعتاده الفريق المتفلسف أن يقابل بين قومٍ من الفلاسفة الصالحين كما يفترض وقومٍ من النصارى الطالحين، كأنَّ صُنْعَ قومٍ من الفلاسفة الصادقين أسهلُ من صُنْعِ قومٍ من النصارى الصادقين! ولا أدري هل يَسهُل عليك أن تجد بين الأفراد أحدَ الرجلين أكثرَ مما يَسهُل عليك أن تجد الرجلَ الآخر، وإنما أعْرِفُ جيِّدًا أنه يجب، عندما تكون الأقوامُ موضوعَ بحث، افتراضُ وجودِ مَن يسيئون استعمالَ الفلسفة بلا دِين، كما يسيء أهلونا استعمالَ الدِّين بلا فلسفة، وهذا ينطوي على تغييرٍ كبيرٍ في حال السؤال.

وقد أجاد بيل في إثباته أن التعصبَ أشدُّ ضررًا من الإلحاد بمراحل، وهذا أمرٌ لا جدالَ فيه، وإنما الذي لم يتفضَّل بقوله، مع أنه ليس أقلَّ حقيقة، هو أن التعصُّب، وإن كان سفَّاكًا للدماء طاغيًا، هوًى

ويا أيها الفتى الصالح، كُن مخلصًا صادقًا خاليًا من الخُيَلاء، واعرِفْ كيف تكون غافِلًا؛ أي لا تُخادعْ نفسك ولا الآخرين. وإذا كانت مواهبُك من الثَّقافة ما تخاطب معه النَّاسَ، فلا تُكلِّمهم إلا وَفْقَ ضميرك ومن غيرِ التفاتٍ إلى هُتافهم لك. ويؤدي سوء استعمال المعرفة إلى عدم الاعتقاد، ويزدري كلُّ عالمٍ رأيَ العوام، ويُريد كلُّ عالمٍ أن يكون ذا رأيٍ خاص، وتسوقُ الفلسفةُ المتعاظمة إلى التعصُّب. واجتنبْ هذه الحدود النهائية، والزمْ طريقَ

عظيمٌ قويٌّ مع ذلك، هوًى يرفع قلبَ الإنسان ويحمله على ازدراء الموت، هوًى محرِّكٌ عجيبٌ له، هوًى يجب حُسنُ توجيهه لاستخراجِ أعلى الفضائل منه، وذلك بدلًا مما ينشبه الإلحاد، والروح الفلسفي المبرهن على العموم في الحياة، فيُخنِّث النفوسَ ويحُطُّها، ويجمع جميعَ الأهواء ضمن نذالة المصلحة الخاصة، وفي دناءة الأنانية البشرية، وهكذا فإنه يقوِّض، مع قليلِ ضوضاء، دعائمَ كلِّ مجتمع، وذلك لأن ما بين المصالح الخاصة من اشتراك هو من الضآلة ما لا يوازن المصالح المقابلة.

وإذا كان الإلحاد لا يؤدي إلى سفك دماء الناس، فذلك عن عدمِ اكتراثٍ للخير أكثر مما عن حبٍّ للسلام، كما لو كان الحكيم المزعوم غيرَ مُبالٍ بما يقع على أن يبقى مستريحًا في غرفته. أجلْ، إن مبادئه لا تقتل الناس، ولكنها تَحُول دون ولادتهم بتقويضها الأخلاقَ التي تُوجِب تناسلهم، وبفصلهم عن نوعهم، وبردِّ جميع عواطفهم إلى أثرة خفية شؤم على الأهلين كشؤمها على الفضيلة، ويشابه عدم الاكتراث الفلسفي هدوءَ الدولة في عهد الاستبداد، وهو سكون الموت، وهو أكثر تخريبًا من الحرب نفسها.

وهكذا فإن التعصُّبَ، وإن كان أكثرَ شؤمًا بنتائجه المباشرة مما يُدعى اليوم بالروح الفلسفية، أقلُّ شؤمًا بنتائجه البعيدة، ثُمَّ إن من السهل عرضَ مبادئَ رائعةٍ في الكتب، ولكن المسألة تدور حول حسن ملاءمتها للمذهب، وحول صدورها عنه حتمًا، وهذا الذي لم يظهر واضحًا حتى الآن. وبقيَ علينا أن نعرف هل الفلسفة، وهي في يُسرِها وعلى عرشِها، مهيمنةٌ على زهو الإنسان وغرضه وطمعه وأهوائه الحقيرة، وهل تطبِّق تلك الإنسانية البالغة العذوبة التي تُباهي بها والقلم في اليد.

ولا تستطيع الفلسفة مبدأً أن تصنعَ أيَّ خيرٍ لا يصنعُ الدِّينُ ما هو أروع منه، ويصنع الدِّينُ من الخير ما هو أكثرُ مما تستطيع الفلسفة صُنْعه.

والأمر غير ذلك عملًا، ولكن لا بدَّ من التمحيص، ولا أحدَ يتبع دِينه في كل أمر عندما يكون له دِين واحد، وهذا صحيح، وليس لمعظم الناس دِينٌ مطلقًا، ولا يتبعون ما لديهم مطلقًا، وهذا صحيح أيضًا، ولكن يوجد لبعض الناس دِين، ويتبعونه بعض الاتِّباع على الأقل. ومما لا ريبَ فيه وجودُ بواعثَ للدِّين تمنع من فعل الشر غالبًا، وتظفر منهم بفضائلَ وأعمالٍ حميدة ما كانت لِتحدُثَ لولا هي.

ولْينكرْ راهبٌ إحدى الودائع، فما يَعقب ذلك غيرُ عَدِّ الذي أودعه إياها من المجانين؟ وإذا كان بسكال هو الذي أنكرها عُدَّ هذا دليلًا على أن بسكال من المداجين. ولكن الراهب! … وهل الذين يتاجرون بالدِّين عندهم دِينٌ إذن؟ إن جميع الجرائم التي تقع بين الإكليروس كما تقع عند غيرهم لا تُثبِت كون الدِّين غير نافعٍ مطلقًا، وإنما تُثبِت كون الذين هم أصحاب دِين قليلين.

الحقيقة دائمًا، أوْ ما يبدو لك هكذا ضِمْنَ بساطة قلبك، وذلك من غيرِ أن تتحوَّل عن ذلك عن زَهوٍ أو ضَعْفٍ مُطلَقًا، واجْهَرْ بالإيمان بالله أمام الفلاسفة، واجْهَرْ بوعظِ المتعصِّبين

ولا مِراءَ في أن حكوماتنا الحديثةَ مَدينةٌ للنصرانية بسلطانها المتين وقلة ثوراتها، وقد جعلتها النصرانيةُ أقلَّ سفكًا للدماء، ويَثْبُت هذا فعلًا عند المقابلة بينها وبين الحكومات القديمة؛ فالدين، إذ أُحسِنت معرفته، أقصى التعصُّبَ ومنح الأخلاقَ النصرانيةَ حُلمًا كبيرًا. وليس هذا التحوُّل وليدَ الآداب، وذلك كما تدل عليه قسوة الأثَنيِّين والمصريين وأباطرة الرومان والصينيين، ويا لأعمال الرحمة التي هي من فِعْلِ الإنجيل! وما أكثرَ ما يؤدي إليه الإنجيلُ من إصلاحٍ وتصحيحٍ واعترافٍ بين الكاثوليك! وما أكثرَ ما يؤدي إليه اقترابُ أوقاتِ تناولِ القربانِ من مصالحات وإعطاء صدقات! وما أكثرَ ما جعلت سنةُ الأبرارِ لدى العبريين فريقَ الغاصبين أقلَّ طمعًا! وما أكثرَ ما حالت دونه من بؤس! إن الإخاء الشرعي يوحِّد بين جميع القوم فلا يوجد عندهم متسول، وكذلك لا يوجد متسولون بين التُّرك حيث لا يُحصى ما عندهم من الأوقاف الخيرية، وهم مضاييف عن مبدأ ديني، حتى نحو أعداء دينهم.

وروى شاردان: «أن المسلمين يقولون إن جميع الأجسام بعد الحساب الذي يعقب البعثَ العامَّ تمر على جسرٍ يُسمَّى الصراطَ قائمٍ على النار الأبدية، على جسرٍ يمكن تسميتُه كما يقولون بالحساب الثالث والأخير وبالحساب الحقيقي النهائي؛ وذلك لأن عليه يُفصَل الأخيارُ من الأشرار … إلخ.»

ويقول شاردان مواصلًا: «والفرس مفتونون بهذا الجسر كثيرًا؛ فمتى لحقتْ بالواحد منهم إهانةٌ لا يستطيع غسْلَها بأيةِ وسيلةٍ كانت وفي أيِّ وقتٍ كان، وَجد آخِرَ عزاءٍ له بقوله: «حسنًا! والحيِّ القيوم، إنك ستدفع لي ثَمَن ذلك مضاعفًا يوم الحساب، ولن تمرَّ على الصراط قبل أن ترضيَني مقدَّمًا، وسأتعلَّق في طَرَفِ ثوبك وسأطرح نفسي على ساقَيْك.» وقد شاهدتُ وجهاءَ كثيرين من كل مهنةٍ يخشون أن يُصرَخ بهم حين مرورهم فوق هذا الجسر الهائل على هذا الوجه، فيلتمسون العفو ممن يتوجَّعون منهم. وقد لاقيت مثلَ هذا بنفسي مائة مرة، وذلك أن أُناسًا من ذوي المكانة كانوا إذا ما حملوني مع الإزعاج على القيامِ بأعمالٍ لا أريدها اقتربوا منِّي بعد مرورِ وقتٍ يكفي لزوال ألمي وقالوا لي: «دعْ هذا الأمر يكون شرعيًّا حقًّا.» حتى إن بعضهم قدَّم إليَّ هدايا وقام نحوي بخِدَم؛ وذلك لأعفوَ عنه معلنًا أن عفوي هذا وقعَ عن رضًا، وما يكون سبب هذا غير الاعتقاد بأن جسرَ جهنم لا يُجاوَز قبل أن يُدفع أقصى تعويض إلى المظلوم؟» (جزء ٧، صفحة ٥٠).

وهل أعتقد أن مبدأ هذا الجسر الذي يمحو كثيرًا من الآثام لا يمنع وقوعها؟ وإذا ما نُزِع من الفرس هذا المبدأ بإقناعهم أنه لا يوجد صراطٌ ولا ما يماثله حيث يُنتقم للمظلومين من ظالميهم بعد الموت، أفلا يكون من الواضح زوالُ مخاوفِ هؤلاء الظالمين بذلك مع خلاصٍ لهم من كل جهدٍ في تطبيب خواطر أولئك التعساء؟ ولذا فإن من الضلال أن يُقال إن هذا المبدأ ضارٌّ، ولو لم يكن صحيحًا.

أجلْ، إن قوانينك الخُلُقية رائعةٌ جِدًّا أيها الفيلسوف، ولكن تَفضَّل فدُلَّني على مؤيِّدٍ لها، وكُفَّ [لحظةً عن الهذيان، وأخبِرْني بماذا استبدل الجسر (الناشر)].

بالإنسانية. ومن المحتمل أن تَبْقَى وحدَك، ولكنك ستَحمِل في نفسك شاهدًا يُغْنِيك عن شهود النَّاس، وليس من المهمِّ أن يُحِبُّوك أو يَكرَهوك، وأن يقرءوا ما تكتب أو يَزْدروه. وقُل الحقَّ وافعَل الخير؛ فالذي يُهِمُّ الإنسانَ هو أن يقوم بواجباته في العالم. والإنسانُ إذا ما نَسَى نفسه عمل في سبيل نفسه، والمصلحة الخاصة تَخْدَعنا يا بُني، وأَمَلُ الصالحِ وحدَه هو الذي لا يَخْدَع مُطلَقًا».»

لقد نقلتُ تلك الوثيقة لا كقاعدةٍ عن المشاعر التي يَجِبُ اتِّباعُها في موضوع الدِّين، بل كمثالٍ عن الموضوع الذي يُمكن البرهنةُ حولَه مع تلميذي، لكيلا أبتعدَ عن المنهاج الذي حاولتُ إقامتَه، ولا تستطيع بصائرُ العقل أن تأتي بنا ضِمْن نظام الطبيعة إلى ما هو أبعدُ من الدِّين الطبيعيِّ ما دام لم يُذْعَنْ بشيءٍ لسلطان النَّاس ولا لمُبْتَسَرات البلد الذي يُولَد فيه، وهذا ما أقتصِرُ عليه مع إميل. وإذا ما وجب اعتناقُه دِينًا آخَرَ عُدْتُ غيرَ ذي حَقٍّ في أن أكون دليلًا له في ذلك، فعليه وحدَه أن يختاره.

ونَعْمَل متفقين مع الطبيعة، وبَيْنا تُكَوِّن الطبيعةُ الرجلَ الطبيعيَّ نحاوِلُ تكوينَ الإنسانِ الأدبي، بَيْدَ أن تقدُّمنا ليس واحدًا، وذلك أن الجسم أصبح عُضْلُبيًّا قويًّا على حينِ لا يزال الروحُ واهنًا ضعيفًا، ومهما يستطِع الفنُّ البشريُّ أن يَصْنَع، فإن المِزاج يسبِقُ العقلَ دائمًا، وقد بَذَلْنا جميعَ جهودنا حتى الآن في ضبْط أحدهما وتنشيط الآخر وصولًا إلى جَعْل الإنسان واحدًا ما أمكن. ونحن حين أنْمَيْنا الجِبِلِّيَّ ضَبَطْنا حَسَّاسيتَه الناشئة ونظَّمْناها بتعَهُّدِنا العقل، وكانت أمورُ العقل تُعدِّل انطباعَ أمورِ الإحساس، ونظَّمْناها بتعهُّدِنا العقل، وكانت أمورُ العقل تُعَدِّل انطباعَ أمور الإحساس، ونحن إذ رَجَعْنا إلى أصل الأشياء أنْقَذْناه من سلطان الحواس؛ فكان من السَّهْلِ أن يُرْفَعَ من دراسة الطبيعة إلى البحث عن صانعها.

ويا للسُّبُل الجديدة التي تكون لنا على تلميذنا، ويا للوسائل الحديثة التي نُخاطِبُ بها فؤاده، عندما ننتهي إلى هنالك! وهنالك فقط يَجِدُ مصلحته الحقيقية في صلاحه وفي عمل الخير بعيدًا من أنظار النَّاس ومن غير أن تُكْرِهَه عليه القوانين، وفي كونه بارًّا بين الله ونفسه، وفي قيامه بواجبه حتى على حساب حياته، وفي حمْله الفضيلةَ في قلبه. ليس فقط عن حُبِّ النظام الذي يُفضِّلُ عليه كلُّ واحدٍ حُبَّ نفسه دائمًا، بل عن حُبِّ صانعِ وجوده، عن هذا الحبِّ الذي يختلط بحبِّ النفس ذاك، وذلك للتمتُّع أخيرًا بالسعادة الدائمة التي تَعِدُه بها راحةُ الضمير والتأمُّل في ذلك الموجود الأعلى، وذلك في الحياة الأخرى، بعد

أن يكون قد استنفد هذه الحياة تمامًا. وإذا عدوتَ ذاك عُدْتُ لا أرى غيرَ الجَوْر والرِّثاء والكَذِب بين النَّاس، وتُعَلِّمُ المصلحة الخاصة التي تَفُوزُ عند المزاحمة على كلِّ ما سواها بحُكْم الضرورة، كلَّ واحدٍ منهم أن يُلْبِسَ الرذيلةَ قِناعَ الفضيلة، ولْيَصْنَعْ مَن سواي من النَّاس ما فيه خَيْري على حساب منفعتهم، ولْيُسَلَّمْ زِمامُ كلِّ أمرٍ إليَّ وحدي، ولْيهلِكْ جميعُ الجنس البشري ألَمًا وبؤسًا عند الاقتضاء حِفْظًا لي من الألم والجوع ساعة؛ فهذا هو اللسان الباطنيُّ عند كلِّ مُلحِدٍ يأتي بالبراهين. أجلْ، إنني سأَعُدُّ من الكاذبين أو المجانين ما دمتُ حيًّا كلَّ مَن يقول في قلبه «لا يوجَدُ إلهٌ مُطلَقًا»، على حين يَجْهَرُ بغير هذا.

ويا أيها القارئ، عبثًا أحاول؛ فمما أشعُر به جيِّدًا أننا — أنا وأنت — لن نرى إميلَ متَّصِفًا بذات الخصائص؛ فأنت تتمثَّلُ إميلَ مماثِلًا لفِتيانك دائمًا، أنت تتمثَّله على الدوام طائشًا أَشِرًا قَلُوبًا تائهًا بين حفلةٍ وأخرى، وبين لَهْوٍ وآخرَ، عاجزًا عن الاستقرار على حالٍ مطلَقًا. وستضحك إذ تَراني أجْعَلُ متأمِّلًا فيلسوفًا ولاهوتيًّا حقيقيًّا من شابٍّ أَجُوجٍ نَزِقٍ غَضْوبٍ هائجٍ في أشدِّ أدوار الحياة غليانًا. وستقولون إن هذا الحالِمَ يَتَّبِعُ وهْمَه دائمًا، وإنه إذ يعطينا تلميذًا على شاكلته لا يُنشِّئُه فقط، بل يَخلُقه ويُخرجه من دماغه، وإنه إذ يعتقد اتِّباعَه الطبيعةَ دائمًا، يبتعد عنها في كلِّ دقيقة. وأمَّا أنا، فإني إذ أُقابل بين تلميذي وتلاميذكم، لا أكاد أجِدُ ما يمكن أن يكون مشتركًا بينهما، وإذ نُشِّئ تلميذي على خلاف ما نُشِّئوا فإن من المعجزة أن يشابههما في بعض الأمور. وبما أنه قَضَى صِباه في مثل الحرية التي يتخذونها في شبابهم، فإنه يَبدأ في شبابه باتخاذ القاعدة التي حُمِلُوا على الخضوع لها وهم أولاد، وتُصبح هذه القاعدةُ بلاءهم، ويَعُدُّونها موضعَ مَقْتٍ لهم، ولا يَرَون فيها غيرَ طغيانٍ للسادة مَديدٍ، ويظُنُّون أنهم لا يخرجون من دَور الصبا إلا بإلقاء كلِّ نيرٍ عنهم،[٣٧] وهنالك يُعوِّضون أنفسَهم من الضغط الطويل الذي أُمْسِكُوا فيه، وذلك كالسجين الذي يَنْجُو من القيود فيَمُدُّ أعضاءه ويُحرِّكُها ويَثْنيها.

وعلى العكس، يفتخر إميلُ بأن يصير رجلًا، وبأن يُخضِع نفسَه لنِير العقل الناشئ، وقد عاد بَدَنُه الذي تَكَوَّن لا يحتاج إلى عين الحركات؛ فأخذ يَقِفُ من تلقاء نفسه على حين

[٣٧] لا تجد أحدًا ينظر إلى دَور الصبا بازدراءٍ كبيرٍ كالذين يخرجون منه، كما أنك لا تَجد بلدًا تُحْفظ فيه المراتبُ مع كثيرٍ من التكلُّف أشدَّ مما في البلاد التي لا يكون التفاوت فيها عظيمًا، والتي يخشى كلُّ واحدٍ فيها دائمًا أن يُخلَط بمَن هم أدنى منه.

يحاول روحُه نصفُ النامي أن يَنْهَض بدَوْره. وهكذا ليست سِنُّ العقل لدى أُناسٍ غيرَ سنِّ الإباحة، وهي تكون سنَّ التعقُّل لدى الآخر.

وهل تريدون أن تَعْرِفوا أيُّ الفريقين أقربُ إلى نظام الطبيعة؟ انْظُرُوا إلى الفروق بين أولئك الذين هم بعيدون منها بعضَ البُعد، ولاحِظوا الفِتيانَ عند القَرَويِّين، ورَوْا هل هم بَطِرُون كفِتيانكم. قال مسيو لُوبُو: «يُرَى الهَمَجُ دائمي النشاط في دَوْر الصِّبا، مباشرين بلا انقطاعٍ ألعابًا مختلفةً تُحرِّك أبدانَهم، ولكنهم لا يكادون يَبْلُغون سِنَّ المراهقة حتى يَغْدُوا هادئين حالمين. ثُمَّ يعودون لا يتعاطون غيرَ الألعاب الجِدِّيَّة أو القمار.»[٣٨] وبما أن إميلَ قد نُشِّئ بكلِّ ما عند فِتيان الفلاحين وفِتيان الهمج من حرية، فإنه يجب أن يُغيِّرَ ويَقِفَ مثلَهم إذا ما كَبِر، وكلُّ الفرْق في أنه بدلًا من أن يسيرَ من أجلِ اللعب ومن أجلِ الغذاء حصرًا، تعلَّمَ التفكير في أعماله وفي ألعابه. وأما وقد انتهى إلى هذا الحد من هذا الطريق إذن وَجَدَ نفسَه مستعِدًّا كلَّ الاستعداد لما أُدْخِلُه إليه، وما أَعْرِضُ عليه من موضوعاتِ تأمُّلٍ يُثيرُ فضولَه، وذلك لروعة هذه الموضوعات بنفسها، ولكاملِ جِدَّتها بالنسبة إليه، ولأنه في حالٍ يستطيع أن يُدرِكها معه. وأمَّا تلاميذُكم فهم على العكس؛ إذ كانوا مَلُولين مُثقلين بدروسكم التافهة وبعلوم أخلاقكم المطوَّلة، وبتعاليمكم النصرانية الدائمة، فكيف لا يأبَوْن أن يُعيروا ذهنَهم الذي جُعِلَ كئيبًا من المبادئ الثقيلة التي ما انفكُّوا يُرْهَقون بها ومن التأمُّلات حَوْلَ صانعِ وجودِهم الذي جُعِلَ منه عدوُّ مَلاذِّهم؟ ولمْ يُوحِ إليهم جميعُ هذا غيرَ النفور والكَرَاهية والسَّأم، وقد صدَّهم القَسْرُ عنه، ولِمَ يُكرِّسون أنفسهم له في وقتٍ يأخذون في الاختيار لها؟ لا بُدَّ من جديدٍ لهم حتى يُمْكِنَ الوقوعُ عندهم موقعَ الرِّضا، وعاد لا ينبغي أن يُكرَّر لهم ما يُقال للأولاد. والأمر هكذا نحو تلميذي الذي إذا ما صار رجلًا كلَّمتُه مثلَ رجل، ولم أقُل له غيرَ أشياءَ جديدة، نحو تلميذي الذي يجب أن يَجِدها ملائمةً لذوقه عن كونها تورثُ الآخرين مَلالًا.

ومِنْ ثَمَّ ترى كيف أكسبْتُه وقتًا مضاعَفًا بتأخيري تَقدُّمَ الطبيعة نفعًا للعقل، ولكن هل أخَّرْتُ هذا التقدُّمَ بالحقيقة؟ كلَّا، وإنما حُلْتُ فقط دون تعجيل الخيال للطبيعة، ووازنت بدروسٍ من طرازٍ آخرَ دروسًا مُعجَّلَة يتلقَّاها الفِتيانُ في أماكنَ أخرى. وبينا يَجُرُّه

---

[٣٨] مغامرات مسيو لوبو، المحامي لدى البرلمان، جزء ٢، صفحة ٧٠.

سيلُ مناهجنا القائمة يُجْذَب إلى الجهة المقابلة بمناهجَ أخرى، فيعني هذا إمساكَه في موْضعه، لا إخراجَه منه.

ثُمَّ تَحِينُ ساعةُ الطبيعةِ الحقيقية، ويجب أن تَحين، وبما أنه لا بُدَّ من موت الإنسان وجب أن يتناسل ليبْقى النوعُ وليُحْفَظ نظامُ العالم. ومتى شعرْتم بحلول ساعة الخطَر بالعلائم التي تكلمتُ عنها فاترُكوا أسلوبَكم القديمَ إلى الأبد من فَوْرِكم؛ فهو لا يزال مُرِيدًا لكم، وهو يعود غيرَ تلميذٍ لكم، وهو يكون صديقًا لكم، وهو يكون رجلًا، فعاملوه هكذا بعد الآن.

ماذا! أأتخلَّى عن سلطاني عندما أغدو أشدَّ ما أكونُ احتياجًا إليه؟ وهل يجب أن أُلقيَ حبلَ المراهقِ على غارِبه حينما يصير أقلَّ ما يستطيع سَيرًا وأكثرَ ما يكون إتيانًا لأعظم الانحرافات؟ وهل أتنزَّل عن حقوقي عندما يُصبِح أكثرَ ما يكون اضطرارًا إلى ممارستي لها؟ حقوقكم! مَنْ يقول لكم أن تتنزَّلوا عنها؟ تبدأ الآن في سبيله فقط، ولم تنالوا منها شيئًا بغير القوة والحيلة حتى الآن، وقد كان السلطانُ وقانونُ الواجب مجهولَيْن لديه؛ فكان لا بُدَّ من إخافته أو مخادعته حَمْلًا له على إطاعتكم، ولكنكم تَرَوْن مقدارَ القيود التي أحَطْتُم بها فؤاده. ويخاطبه العقل والصداقة وعرفان الجميل وألفٌ من العواطف بلهجةٍ لا يستطيع أن يُنكِرَها، ولمْ يجعلْه العيبُ أصمَّ تجاه صوتها. ولا يزال يتأثَّرُ بأهواء الطبيعة فقط، ويُسلِمُه إليكم حُبُّ النفس الذي هو أوَّلُها جميعًا، وتُسْلِمُه العادةُ إليكم أيضًا. وإذا ما نُزِع منكم بفَوْرَةِ ساعةٍ فإن الندم يُعيده إليكم حالًا، والشعورُ الذي يَرْبِطه بكم هو الدائم وحدَه. وأمَّا المشاعر الأخرى فتمضي وتمَّحِي مبادَلَة، ولا تدعوه يَفسُد مطلقًا، فسيكون طَيِّعًا دائمًا، وهو لا يأخذ في التمرُّد إلا بعد أن يكون الفسادُ قد دَبَّ فيه.

وأعترف بأنكم إذا ما جَبَهْتُم رغائبَه الناشئةَ فكنتم من الغباوة ما تَعُدُّون معه من الجرائم ما يَتَمَخَّضُ فيه من الاحتياجات الجديدة، لم يُصْغِ إليكم زمنًا طويلًا، ولكنكم إذا ما تركتم مِنْهاجي عُدْتُ غيرَ مسئول عن النتائج نحوكم. واذكُرُوا دائمًا أنكم وكلاءُ الطبيعة، ولن تكونوا عَدُوًّا لها مُطلَقًا.

ولكنْ أيُّ قرارٍ يُتَّخَذ؟ لا يُنتَظَرُ من الخِيار هنا غيرُ استحسانِ مُيولِه أو مكافحتِها، غيرُ كونِكم طاغيتَه أو مُلاطِفين له، ولكلٍّ من الأمرَيْن من النتائج البالغة الخَطَر ما لا بُدَّ معه من التردُّد بينهما كثيرًا عند الاختيار.

وأوَّل وسيلةٍ تخطُر على البال لحلِّ هذه المشكلة هو أن يُزوَّج سريعًا، ولا جدال في أن هذه الطريقة أضمنُ الطُّرق وأقربُها إلى الطبيعة، ومع ذلك فإنني أشكُّ في كونها أحسنَ

الطُّرق وأكثرها فائدة، وسأُبيِّنُ براهيني فيما بعد، وريثما أصنعُ هذا أوافق على زواج الفِتيان في سِنِّ البلوغ، غير أن هذه السِّنَّ تأتي قبل الأوان، ونحن الذين يُعجِّلونها، فيجب إطالتُها حتى سِنِّ الرُّشد.

ولو وَجَبَ أَلَّا يُستَمَعَ لغير المُيول وألَّا يُتَّبَعَ غيرُ العلائم لَقُضي الأمرُ سريعًا، ولكن يوجدُ بين حقوق الطبيعة وقوانيننا الاجتماعية من التناقض الكثير ما لا بدَّ معه من الالتواء والتردُّد بلا انقطاعٍ للتوفيق بينهما، ولا بدَّ من استعمالِ كثيرٍ من الحِذْق لِمنْع الإنسان الاجتماعي من أن يكون مصنوعًا.

وأستندُ إلى الأسباب المعروضة آنفًا، فأُقدِّرُ أنَّ من الممكن بالوسائل التي أَعطَيْتُ وبما ماثَلَها، تمديدَ الدَّور الذي تُجْهَلُ فيه مُيولُ الحواسِّ ويُحفَظُ فيه نقاؤها حتى العشرين من العُمُر على الأقل، وهذا هو من الصحة ما يَبْقى معه الفتى الجرمانيُّ مفضوحًا إذا ما أضاع طُهْرَه قبل هذه السِّن، ومن الصواب عزو المؤلفين قوةَ البِنية لدى الجِرمان وكثرة أولادهم إلى عفاف هؤلاء القوم في دَوْر شبابهم.

حتى إن من الممكن إطالةَ ذاك الدَّور كثيرًا، ولا شيءَ كان أكثرَ شيوعًا من هذا في فرنسة نفسِها منذ قرونٍ قليلة. ومن بينِ كثيرٍ من الأمثلة المعروفة نذكُر مثالَ أبي مُونْتين الذي لم يكن قويًّا حَسن البِنية أكثرَ منه مُتحَسِّبًا صادقًا، فأَقسمَ أن يتزوَّج طاهرًا في الخامسة والثلاثين من سِنيه بعد خدمةٍ طويلةٍ في حروبِ إيطالية، ومما يُرى فيما كتب الابنُ أيُّ قوةٍ ومَرَحٍ حافظ عليهما الأب بعد مجاوزته الستين من عُمُره. ولا جَرَمَ أن الرأي المعاكس يتوقَّف على طِباعنا ومُبْتَسراتنا أكثرَ مما على عِرْفان النوع على العموم.

ولذا فإن من الممكن أن أطرح جانبًا مثالَ شبابنا؛ فهو لا يُثْبِتُ شيئًا تجاه مَن لم يُنشَّأْ مِثْلَه، وإني بعد النظرِ إلى أن الطبيعةَ لم تَضَعْ حدًّا يتعذَّر تقديمُه أو تأخيره، أعتقد أنني أستطيع من غيرِ مجاوزةٍ لناموسها أن أفترض بقاء إميلَ حتى ذلك الحين ضِمْنَ طُهْرِه الابتدائي نتيجةً لما بذلتُ من عناية، وإني أُبْصِرُ قُرْبَ نهايةِ هذا الدَّور السعيد، وهو إذ يُحَاطُ بأخطارٍ مُطَّرِدةٍ زيادة، يَتَفلَّت منِّي عند أوَّل فرصةٍ على الرغم من جهودي، ولن يتأخر وقوعُ هذه الفرصة، وهو سيتَّبِع غريزة الحواس العمياء، ويوجد رِهانُ ألفٍ في مقابل واحدٍ على ضَياعه. وقد أنعمتُ النظر كثيرًا في طبائع النَّاس لكيلا أرى نفوذ هذا الدَّور الأوَّل الذي لا يُقْهَر في بقية حياته، وهو إذا ما كتمتُ وأظهرتُ أنني لا أرى شيئًا تغلَّب عليَّ ضَعفي، وهو إذا ما اعتقد أنه يخادعني استخفَّ بي وصِرْتُ شريكًا في ضَياعه، وإذا ما حاولتُ ردَّه

كان هذا بعد الأوان، وعاد لا يُصغِي إليَّ، وصار يَعُدُّني مُزْعِجًا ممقوتًا ثقيلًا، فلا يتأخر عن التخلُّص منِّي؛ ولذا عاد لا يكون لديَّ غيرُ سبيلٍ معقولٍ أسلُكه، وهو أن أجعله مسئولًا عن أعماله نحو نفسه، وأن أحفظه من مباغتات الخطأ على الأقل، وأن أدُلَّه بلا مُوارَبةٍ على المخاطر التي تحيط به، وقد وقفتُه بجهله حتى الآن، والآن يجب أن أقِفَه بالمعارف.

وهذه المعارفُ الجديدةُ مهمة، ومن الملائم تناولُ الأمور من الأعلى، وهذه هي ساعةُ تقديم حساباتي إليه، فأدُلُّه على استعمال وقته ووقتي، وأُبيِّنُ له مَن هو ومَن أنا، وما فعل وما أفعل، وما كلٌّ مِنَّا مَدينٌ به للآخر، وجميعَ صِلاته الأدبية، وجميع ما عَقد من الالتزامات، وجميعَ ما عُقِد معه، ومقدار ما اتَّفَق لمواهبه من التقدُّم، وما الطريقُ التي بقيَ عليه أن يسلُكَها، وما سيجد فيها من المصاعب، وما الوسائلُ التي يقتحم بها هذه المصاعب، وما يُمكنني أن أساعده عليه بَعْدُ، وما يُمكنه أن يُعِينَ عليه نفسَه بنفسه بعد الآن، وما عليه من خطر، وما يحيط به من مخاطرَ جديدة، وجميعَ العوامل المتينة التي يجب أن تَحمِلَه على ملاحظة نفسه بدقةٍ قبل أن يُصغي إلى رغائبه الناشئة.

واذكروا أنه لا بُدَّ لقيادة المراهق من اتخاذكم جميعَ ما صنعتم لقيادة الولد، ولا تتردَّدوا مطلقًا في تعليمه هذه الأسرارَ الخطِرة التي كتمتموها عنه بعناية كبيرة زمنًا طويلًا، ومن المهمِّ ألَّا يعلمها مِن آخرَ ولا من نفسه، بل منكم وحدَكم، ويجب أن يَعرِف عدوَّه خشيةَ المباغتة ما دام مُلْزَمًا بالنضال فيما بعد.

وما كان الفِتيانُ الذين يُوجَدون عارفين بهذه الأمور، من غير أن يُعلَمَ كيف عَرَفوها، ليصبحوا ذلك بلا عِقاب. وبما أن هذا العرفانَ الطائش لا يُمكِن أن يكون ذا غَرَضٍ صالح، فإنه يُدَنِّس، على الأقل، خيالَ مَنْ يتلقَّون ويُعِدُّهم لرذائلِ مَن يُلقُونه. وليس هذا كلَّ ما في الأمر؛ فمِن الخَدَم مَن يَنسابون في ذهن الولد هكذا وينالون ثقتَه، ويُبدُون له مُربِّيَه رجلًا كئيبًا ثقيلًا، ويكون انتقاصُه من الموضوعات المفضَّلة في أحاديثهم السِّرية، فإذا ما صار التلميذُ في هذا الوضعِ استطاع أن ينزويَ لِما يَعودُ غيرَ قادرٍ على صُنْعِ ما هو صالح.

ولكنْ لِمَ يختارُ الولدُ أَنْجِيةً خاصِّين؟ ذلك دائمًا بسبب طغيان مَن يقومون برِقابته. ولِمَ يتوارى منهم إذا لم يَكُن مُضطرًّا إلى الاختفاء؟ ولِمَ يتوجَّع إذا لم يُوجَد ما يتوجَّعُ منه؟ إن من الطبيعي أن يكون هؤلاء الرُّقباء أوَّلَ الأنجية، ويُرى من الهمَّة التي يقول لهم بها ما يُفكِّرُ فيه اعتقاده أنه يبقى نصفَ مُفكِّرٍ فيه حتى يقولَه لهم. واعلموا أن الولدَ إذا لم يَخْشَ من ناحيتكم وعظًا ولا تعزيرًا قال لكم كلَّ شيءٍ دائمًا، وأنه لا أحدَ يجرُؤ على قولِ شيءٍ له يُخفيه عنكم؛ وذلك لأنه يُعلَم جيِّدًا أنه سيقول لكم كلَّ شيء.

والذي يجعلُني أكثرَ اعتمادًا على منهاجي هو أنني لا أرى، باتِّباعي مَناحِيَه بما يمكنني من الدقة، وَضْعًا في حياة تلميذي لا يَدَعُ لي صورةً مستحبَّةً عنه، حتى إنني لا أزال أجِدُه على بساطته الأُولى في حُمَيَّاه وهيجانه حين تسوقه صولات المِزاج، وحين يَتمَرَّد على اليد التي تَقِفُه، فينتفض ويأخذ في التملُّص منِّي. وليس فؤادُه النقيُّ نقاءَ بَدَنِه أعلمَ بالتَّسَتُّر مما بالمُنكر، ولمْ يَجعلْه التعزيرُ ولا الازدراءُ نَذْلًا قطُّ، ولم يُعلِّمْه الخوفُ الدنيُّ أن يَتنكَّر مُطلَقًا، وهو يتصف بكلِّ ما في الطُّهْر من رصانة، وهو ساذجٌ بلا وَسْواس، وهو لم يَعْرِف بَعْدُ فائدةَ الخِداع، ولا يَقَعُ مَيلٌ في نفسه من غيرِ أن يَنِمَّ عليه لسانُه وعيناه، وأعْرِفُ ما يَشْعُر به من أحاسيسَ بأسرعَ مما يَعرِفُ غالبًا.

وليس عندي ما أخافُ ما داومَ على فَتْح قلبِه لي طليقًا، وعلى قوله لي ما يُحِسُّ مسرورًا. وليس الخَطَرُ بَعْدُ قريبًا، ولكنه إذا ما أصبح أكثرَ وَجَلًا وتحفُّظًا فأبصرتُ في محادثاته ارتباكَ الحياءِ الأوَّل دَلَّ هذا على نموٍّ في الغريزة وعلى أخذِ مبدأ السَّوْء يُضاف إليها، فعاد لا يكون لديَّ وقتٌ أُفَرِّطُ فيه، فإذا لم أبادرْ إلى تعليمه تَعَلَّم من فَوْره على الرغم منِّي.

وسَيَرى أكثرُ مِن قارئ، حتى عند انتحال أفكاري، أن المسألةَ هنا لا تعدو حَدَّ محادثةٍ تَقَع مصادفةً مع الفتى، وأن الأمرَ كلَّه يُسوَّى بهذا. آه! لا يُهيمَنُ على قلبِ الإنسان هكذا! ما يُقال لا يَدُلُّ على شيء إذا لم يُهيَّأ وقتُ قَوْلِه، ولا بُدَّ من حَرْث الأرض قبل البَذْر، وينمو بَذْرُ الفضيلةِ بصعوبة، ولا بُدَّ من أُهُبَاتٍ طويلة حتى يُجْعَلَ له جَذْر. ومن الأمور التي تجعلُ المواعظَ أكثرَ ما يكون عدمَ فائدةٍ هو أنها تُعْرَض على جميع النَّاس بلا تمييز ومن غير تفريقٍ ولا اختيار. وكيف يُرى أن الوعظَ عَيْنَه يلائم كثيرًا من المستمعين الكثيري الاختلاف استعدادًا وذهنًا ومِزاجًا وسِنًّا وجنسًا وشأنًا ورأيًا؟ ومن المحتمل ألَّا يُوجَدَ اثنان يُناسِبُهما ما يُقال للجميع، وتكون جميعُ عواطفنا من قلةِ الثباتِ ما لا يُحتمَل معه وجودُ ساعتين في حياة كلِّ إنسان يتَّفِقُ فيهما لعينِ الكلام عينُ التأثير فيه. ورَوْا هل يكون الوقت الذي تلتهبُ فيه الحواس، فتخْبُلُ العقلَ وتُناكدُ الإرادةَ، هو الوقت الذي يُصغَى فيه إلى دروسِ الحكمة الرصينة؛ ولذا فلا تخاطِبوا الفِتيانَ بالعقل حتى في سنِّ العقل، ما لم تكونوا قد هيَّأتموهم لإدراكه في أوَّل الأمر. وتَجِدُ مُعظَم الخُطَبِ قد ذهبَ أدراجَ الرياح عن خَطَأِ الأساتيذ أكثرَ مما عن خطأ التلاميذ. أجلْ، يقول المتحذلق والمُعلِّم عينَ الأمورِ تقريبًا، غيرَ أن الأوَّل يقولها في كلِّ وقت، وأن الثاني لا يقولها إلا عند اطمئنانه إلى تأثيرها.

وإميلُ كالسائر في النوم التائهِ في رُقاده، فيمشي وهو وَسْنَانٌ على أطراف هُوَّةٍ يَسْقُط فيها إذا ما أُوقِظَ بغتة. وهكذا فإن إميلَ وهو في رُقاد الجهل يتفلَّتُ من الأخطار التي لا يراها مطلَقًا، فإذا ما نَبَّهْتُه برجفةٍ هَلَك، فلنُحاوِل أن نُبعِدَه من الهُوَّة أوَّلًا، ثُمَّ ننبِّهُه لنُطلِعَه عليها من بعيد.

وتُعَدُّ المطالعةُ والعزلة والحياة الحضرية الناعمة ومخالطةُ النساء والغِلْمان سُبُلًا خَطِرَةً على مَنْ يكون في مثل عُمُره، فتجعله قريبًا من الهلاك دائمًا. وإني أُحَوِّل حواسَّه بأمورٍ حسيةٍ أخرى، وإني أرسُم مَجْرًى آخرَ لهواجسه، فأُحَوِّلها عن المجرى الذي أخذتْ تَسلُكه، وإني أُمَرِّن بَدَنه على أشغالٍ شاقة، فأَقِفُ نشاط الخيال الذي يسوقه، ومتى اشتغلت الذُّرْعان استراح الخيال، ومتى تَعِب البدن لم يشتغل القلب قَط، ويكون أسرَعُ احترازٍ وأسهلُ تحفُّظٍ في نزعهِ من الخطر المحلي، وآتي به في البُداءة خارجَ المدن بعيدًا من الأمور التي تستطيع أن تُغْوِيَه، بَيْدَ أن هذا لا يكفي؛ ففي أيةِ بادية، وفي أيِّ ملجأ مهجورٍ سيتخلَّص من الصور التي تتعقَّبُه؟ ولا أُعَدُّ قد أقصيتُ الأشياءَ الخطِرة إذا لم أُقْصِ ذِكراها أيضًا، وإذا لم أجِدْ وسيلةً لفصْله عن كلِّ شيء، وإذا لم أُلهِه عن نفسه، كان من الجدير أن يُترك حيث كان.

ويَعْرف إميلُ صناعةً، ولكن هذه الصناعة ليست وسيلتَنا هنا، وهو يحبُّ الزراعة ويُدرِكها، ولكن الزراعة لا تكفينا، وتصير الأشاغيلُ التي يَعرِف نمطيَّة، وهو إذ يتعاطاها يُعَدُّ غيرَ فاعلٍ شيئًا، وهو يُفكِّرُ في أمرٍ آخَر، ويتحرَّك الرأسُ والذِّراعان على انفراد، ولا بدَّ له من أُشغولةٍ جديدةٍ تُوجِبُ التفاتَه بجدَّتها، أُشغولةٍ تستكِدُّه وتَرُوقُه، وتشغلُه وتُحرِّكه، أُشغولةٍ يُولَعُ بها وينقطعُ إليها بكُلِّيَّته. والواقعُ أن الصيدَ هو الأشغولةُ التي يَلوحُ لي أنها جامعةٌ لجميع هذه الشروط، وإذا كان الصيدُ مُتعَةً سليمةً ملائمةً للإنسان، فإن الآنَ هو دَورُ الالتجاءِ إليه. وعند إميلَ كلُّ ما يلزم للنجاح في الصيد؛ فهو عُضلُبيٌّ ماهرٌ صابرٌ لا يَتْعَب، ولا شكَّ في أنه سيرغب في هذه الرياضة، وهو سيَضع فيها جميعَ حرارة عُمُره، وهو سيُضِيعُ فيها لزمنٍ ما على الأقل، ما ينشأ عن التَّرفِ من ميولٍ خَطِرة، وذلك أن الصيدَ يُخشِّن القلبَ والبدنَ ويُعوِّدُ الإنسانَ منظرَ الدمِ والقسوة. وقد جُعِلَ من ديَانَا عدُوُّ الحب، والرمزُ صحيحٌ جِدًّا؛ فخدَرُ الحبِّ لا ينشأ عن غيرِ الراحة الحُلوة، والرياضة العنيفة تُخمِدُ الأحاسيسَ الناعمة، وفي الغابِ والحقول يكون العاشقُ والصائدُ من اختلافِ التأثُّر ما يحملان معه

صُوَرًا بالغةَ الاختلاف عن عيْن الأشياء، وذلك أن الظلالَ الوارِفة والغابات الظليلةَ والمساكنَ اللينة لدى الأوَّل ليست لدى الآخر غيرَ مَرْتعٍ للوحوش وغيرَ حصونٍ ومَحاطَّ للعَجَل، فلا يسمعُ أحدُهما فيها غيرَ حَفيفِ الأشجار وتغريدِ الهَزار وصُداحِ الأطيار، ولا يتمثَّل الآخرُ فيها غيرَ الأبواق ونُباح الكلاب، ولا يتصورُ أحدُهما فيها غيرَ عُلَّيْقٍ وحورِيَّات، ولا يَتخيَّل الآخرُ فيها غيرَ رُوَّاضٍ وخيلٍ وأسْرابِ كلابٍ. وطُوفوا في الأريافِ مع هذين الصِّنْفَين من النَّاس، لم تَلبثوا أن تَعْرِفوا من اختلاف اللهجة أنه لا يوجد للأرض منظرٌ مماثلٌ عندهما، وأن أوجهَ الرأي فيهما مختلفةٌ اختلافَهما في اختيار ملاذِّهما.

وأُدركُ كيف تَتَّحِدُ هذه الأذواق، وأُدْرِكُ كيف يُوجَد من الوقت لها جميعًا في آخرِ الأمر. بَيْدَ أن أهواء الشباب لا تَنقَسم على ذاك الوجه، فإذا منحتم الشبابَ أُشغولةً يُحِبُّها لم يلبَث أن يُنسَى ما سِواها، ويأْني تَنَوُّع الرغائب من تَنوُّع المعارف، وأُولَى الرغائبِ التي تُعْرَف هي ما يُبحَثُ عنه وحدَه زمنًا طويلًا. ولا أريد أن ينقضي جميعُ فَتاءِ إميل في قتْل الحيوان، حتى إنني لا أدَّعي تسْويغَ هذا الهوى جُملَة، وإنما يكفيني أن يكون نافعًا بما فيه الكفاية لتأجيل هَوًى أشدَّ خطرًا كيما أُسْمَعُ إذا ما تكلمتُ عنه بهدوءٍ وكيما يكونُ لديَّ من الوقت ما أَصِفه فيه من غير أن أُثيرَه.

وتقع في حياة الإنسان أدوارٌ لا تُنسَى أبدًا، ومنها دَوْرُ التعليم الذي أتكلَّم عنه، والذي لا بدَّ من تأثيره في بقية حياته. ولنحاولْ أن ننقُشه في ذاكرته إذَن، فلا يُمحَى منها مطلَقًا. ومن أغاليط عصرنا استعمالُ العقلِ عاريًا تمامًا، كما لو كان النَّاس ذهنًا خالصًا. وإذا ما أُهمِلَت لغةُ الإشارات التي تخاطب الخيالَ فُقِدَ أمضَى الألسنة، ويكون تأثيرُ الكلام ضعيفًا دائمًا، ويُخاطَب الفؤادُ بالعيون أفضَلَ مما بالآذان. ونحن إذ منحْنا العقلَ كلَّ شيء، رجعْنا جميعَ تعاليمنا إلى أقوال، ولم نشتمل عليها بالأفعال. وليس العقلُ وحدَه فعَّالًا، وهو يَرْدَعُ أحيانًا، وهو يُحرِّك نادرًا، وهو لم يأتِ بعظيمٍ مطلقًا. ومن هوسِ النفوسِ الصغيرةِ أن يُلجأَ إلى العقل دائمًا، وللنفوس القوية لسانٌ آخرُ، وبهذا اللسان يقعُ الإقناع، وبه يُسيَّرُ الإنسان.

وأُلاحِظُ في القرون الحديثة أن بعضَ النَّاس عاد لا يكون ذا سلطانٍ على بعضٍ بغير القوة والمصلحة، على حين كان القدماء يؤثِّرون بالإقناع القلبي وعواطف النفس أكثرَ من ذلك؛ وذلك لأنهم كانوا لا يُهْمِلون لغةَ الإشارات. وكانت جميعُ العهود تَتمُّ بمراسيمَ صَوْنًا لها من النقض، وكان الآلهةُ حُكَّامَ الجنس البشريِّ قبل قيام القوة، وكان النَّاس يَضَعُون أمامَ الآلهة معاهداتهم ومحالفاتهم ويَقْضُون بعقودهم، وكان وجهُ الأرض كتابًا تُحْفظ

فيه الوثائق، وكانت الصَّخرُ والأشجارُ وأكوامُ الحجارةِ المُثْبَتة بهذه العهودِ والمحترمةُ لدى البرابرة أوراقًا لهذا الكتاب المفتوحِ أمام جميع العيون بلا انقطاع. أجلْ، كانت بئرُ الحِلْف وبئرُ الحيِّ الناظر وبَلُّوطةُ مَمْرَا القديمةُ والكوْمةُ الشاهدةُ آثارًا غليظة، ولكنها جليلةٌ عن قَدَاسة العقود، فما كان ليَجرُؤ أحدٌ على انتهاكِ حرمةِ هذه الآثار بيدٍ مُدَنِّسة، وكان عهدُ النَّاسِ أوثَقَ بضمان هؤلاء الشهود الصامتين مما بكلِّ صَرَامة القوانين في الوقت الحاضر.

وكان النَّاسُ في الحكومة يُرْهَبون بجهازِ السلطان الملكي، وكانت أشْعِرَةُ الشَّرفِ والعرشُ والصَّوْلجانُ والحُلَّةُ الأُرْجوانيةُ والتاجُ والعِصابةُ أشياءَ مقدَّسة، وكانت الإشاراتُ المُكَرَّمة وما توحي به من احترامٍ تَجلِبُ إجلالًا لمن يَزَّيَّنُ بها؛ فكان إذا ما قال أُطيع بلا جُندٍ ولا وعيد، والآن يُتظَاهَرُ بإبطال هذه الرموز،[٣٩] فما ينشأ عن هذا الازدراء؟ وليَزُلْ جلالُ الملوك من جميع القلوب، ولْيَعُدِ الملوكُ لا يُطاعُون بغير قوة الجنود، ولْيَقُم احترامُ الرعايا على الخوف من العِقاب؛ فهنالك لا يكون على الملوك أن يُزْعِجوا أنفسَهم بلُبْسِ تاجهم ولا بحمْلِ سِمَات مقامهم، وإنما يحتاجون إلى مائة ألف ذِراعٍ دائمةِ الاستعداد لتنفيذ أوامرهم. ومهما يكن من احتمال ظهور هذا أكثرَ رَوْعةً في أعينهم، فإن من السهل أن يُبصَر أنهم لا يربحون من هذه الصفقة مع الزَّمن.

ومن العجائب ما اتفق للقدماء بالبلاغة، ولم تَقُمْ هذه البلاغةُ على حُسْنِ الكلام المُحْكَم النظام فقط، بل كانت تؤثِّر تأثيرًا بالغًا بالتزام الخطيب جانبَ الإيجاز، وما كان ليُعَبَّرَ بالكلمات عن أعظمِ ما يُمْكن تأثيرًا، بل بالإشارات، وكان لا يُنطَقُ به، بل يُدَلُّ عليه، وما يُعْرَض على العيون من شيءٍ يَهُزُّ الخيال، ويُحَرِّكُ الفُضُول، ويجعلُ الذهنَ منتظِرًا لِما يُقال. وفي الغالب يكون هذا الشيء قد قال كلَّ شيء، ألم يكن ترازِيبُول وتارْكِن بقطْعهما رءوسَ الخَشْخاش، والإسكندرُ بوضعه طابِعَه على فَمِ نديمه، وذُيوجانِسُ بِسَيْرِه أمام زِنُون، قد

[٣٩] حافظَ الإكليروس الروماني عليها بمهارةٍ فائقة، وحذا حذوَهم بعضُ الجمهوريات كجمهورية البندقية، وهكذا فإن حكومة البندقية لا تزال تتمتَّع بكل محبة وعبادة من قِبَل الشعب نتيجةً لجهاز جلالها القديم. وعلى الرغم من سقوط الدولة، فلا تجد بعد البابا المُزَيَّن بتاجه، ملِكًا ولا عاهلًا، ولا أحدًا من رجال الدنيا يحترم، على ما يُحتمَل، كما يُحترَم رئيس جمهورية البندقية العاطل من القوة والسلطان، ولكن مع جعْله مقدَّسًا بأُبَّهته ومُزيَّنًا بعقيصةِ امرأةٍ تحت إكليله الدوكي، ويُثير الاحتفالُ بمركب البندقية المعروف بالبوسانتور ضَحِكَ كلِّ مجنون، مع أنه يجعل البندقيَّ يسفك دمه حفظًا لحكومته المستبِدة.

تكلموا بأفصحَ من الخُطَب الطويلة؟ وأيُّ إسهابٍ في الكلام كان يُمكِن أن يُعرِب عن تلك الأفكارِ بمثْلِ ذلك الأداء؟ وبينما كان دارَا يُحارِب في سِيتْيَةَ مع جيشه تَلَقَّى من مَلِكِ السِّيت طائرًا وضِفْدَعًا وفأرًا وخمسةَ نِبال، ويُسَلِّمُ السفيرُ الهديةَ ويعود من غيرِ أن ينطقَ بكلمة. ولو أتى هذا الرجل بذلك في أيامنا لعُدَّ مجنونًا. وتُفْهَمُ هذه الخُطبةُ الهائلة، ويَرْجِعُ دارَا إلى بلده بأقصى ما يُمكِن من السرعة. ولو وضعتم في مكان هذه الرموز كتابًا لوجدتم أن هذا الكتابَ كلما زاد وعيدًا قلَّ تخويفًا، وما كان ليُعَدَّ غيرَ حذلقةٍ يقابلها دارَا بالضَّحك.

ويا لاعتناء الرومان بلغة الرموز! ثيابٌ مختلفةٌ على حسب العُمُر، ووَفْق المقامات، حُلَلٌ وسُتَرٌ وأرديةٌ للأشراف، وحَوَاشٍ وأهداب، وكَرَاسٍ وضُبَّاطٌ وحُزَمٌ وفئوس، وأكاليلُ من ذهبٍ وأعشابٍ وأوراق، واستقبالُ غُزاةٍ ومواكبُ نصرٍ. وكان كلُّ شيءٍ عندهم يَنِمُّ على أبهةٍ وجاهٍ ومظهر، فيؤثِّر في قلوب المواطنين. ومما كان يُهِمُّ الدولةَ أن يجتمع الشعبُ في هذا المكان أكثرَ مما في ذاك، وأن يُشاهِد الكابيتولَ أو لا، وأن يتَّجِه نحو السِّنات أو لا، وأن يتشاور في هذا اليوم أو ذاك تفضيلًا. وكان المُتَّهَمون، والمُرشَّحون أيضًا، يُغيِّرون ثيابهم. وكان المجاهدون لا يفاخرون بمآثرهم، وإنما كانوا يُظهِرون جروحَهم، وأتصوَّر أن أحدَ خطبائنا وهو يريد تحريك الشعب عند موت قيصر قد استنفد جميعَ مظانِّ الفنِّ العامةِ ليَصِفَ جُرُوحَه ودَمَه وجُثَّتَه وصْفًا مؤثِّرًا، وأتصوَّرُ أنطونيوس وهو لا يقول شيئًا من هذا مع فصاحته مكتفيًا بعرض الجُثمان، فيا للبلاغة!

غير أن هذا الاستطراد يُخرِجني من نطاق موضوعي على وجهٍ غيرِ محسوس كما يَصنع آخرون كثيرون، واستطراداتي هي من الكثرة ما لا تُطَاقُ معه بلا أناةٍ وصَبْر؛ ولذا فإني أعود إلى الصَّدَد.

ولا تُبرْهنوا مع الشباب برهنةً جافَّة، وأَلْبِسوا البرهانَ بَدَنًا إذا ما أردتم جعْله محسوسًا، ودَعُوا لسانَ الذهن يَمُرُّ على القلب حتى يُفْهَم. وأقول مُكرِّرًا إن البراهينَ الفاترةَ يُمكِن أن تُعيِّن آراءنا، لا أفعالنا، وأن تَحْملنا على التفكير، لا على العمل؛ فالبرهان يكون حول ما يجب أن يُفكَّر فيه، لا حول ما يجب أن يُعمَل، وإذا ما صحَّ هذا من حيث جميعُ النَّاس، فإن من الأجدرِ أن يَصِحَّ هذا من حيث الفِتيانُ الذين لا يزالون مُشتَمِلين بحواسِّهم، فلا يُفكِّرون إلا إذا تخيَّلوا.

وأحترِزُ جيِّدًا إذن حتى بعد الإعدادات التي تكلمتُ عنها، من الذهاب إلى غرفة إميلَ بغتةً كيما أُلقِي عليه قولًا طويلًا عن الموضوع الذي أريد أن أُعَلِّمَه إياه، وأبدأ بإثارة خياله، وأختارُ الزمانَ والمكانَ وأكثرَ الأمورِ ملاءمةً لما أُريدُ من تأثير. ولذا فإنني أدعو جميعَ

الطبيعةِ لتكون شاهدةً على محاوراتنا، وأُشهِدُ الكائن الأزليَّ والصانعَ للطبيعة على صحةِ أقوالي، وأجعلُه حَكَمًا بيني وبين إميل، وأُعَيِّن المكانَ الذي نحن فيه، كما أُعَيِّن الصخرَ والغابَ والجبالَ التي تحيط بنا، لتكون آثارًا تذكاريةً لعهودي وعهوده، وأضعُ في عينيَّ ولهجتي وحركتي ما أريد إلقاءه فيه من الحماسة والهِمَّة. وهنالك أُكلِّمه ويُصغي إليَّ، وأَلينُ ويهتز، وكلَّما تأثَّرتُ بقُدُس واجباتي جعلتُ واجباته أكثرَ جلالًا، وأُنعِشُ قوةَ البرهان بالصور والأشكال. ولن أكونَ مُسهِبًا مُطوِّلًا في المبادئ الباردة مطلقًا، ولكن غزيرًا في المشاعر الزاخرة، وسيكون عقلي رزينًا حكيمًا، ولكن مع عدم قول قلبي بما فيه الكفاية مطلقًا. وهنالك، حين أُطلِعُه على كلِّ ما صنعتُ من أجْله، أُطلِعُه عليه كأنه صُنِعَ في سبيلي، وسيُبصِرُ في عطفي الرقيق سببَ كلِّ رعايةٍ من قِبَلي. ويا للمفاجأة، ويا للهَزْهَزة التي أُورِثُه إياها بتغيير اللهجة بغتةً! وذلك بدلًا من تضييق روحه بمحادثته عن مصلحته دائمًا، ومصلحتي هي التي أكلِّمه عنها فيما بعد، فأزيدُ فيه تأثيرًا، فأُلهِبُ فؤادَه الفتيَّ بجميع ما أَنْبَتُّه من مشاعرِ الأُلفة والكرم ومعرفة الجميل التي يحلو تعهُّدُها، وأضمُّه إلى صدري ساكبًا عليه دموعَ الحنان قائلًا له: «أنت مالي وولدي وصُنْعي، ومن سعادتك أنتظر سعادتي، فإذا ما خابت بك آمالي كنتَ سالبًا لعشرين عامًا من عُمُري، وسببَ شقائي في أيامِ مشيبي.» فعلى هذا الوجه يُحمَل الفتى على الإصغاء، فتُنقَش في سوداء فؤاده ذكرى ما يُقال له.

وقد حاولتُ حتى الآن إعطاءَ أمثلةٍ عن الأسلوب الذي يجب أن يتخذَه المُعلِّم لتعليم تلميذه في الأحوال الصعبة، وقد حاولتُ أن آتيَ بكثيرٍ منها في الدَّور الحاضر، ولكنني أعدِل عنها بعد كثيرٍ من التجارِب قانعًا بأن اللغة الفرنسية هي من النَّفاسة البالغة ما لا تُطيقُ معه في كتابٍ مطلقًا سذاجةَ الدروس الأُولى حول بعض الموضوعات.

ويُقال إن اللغة الفرنسية أطهرُ اللغات، وأنا أعتقد أنها أكثرُ اللغات بذاءة؛ وذلك لأن طُهر اللغة كما يلوح لي لا يقوم على اجتناب التعابير القبيحة بعناية، بل على عدم وجودها فيها. والواقعُ أن اجتنابها يستلزم تفكيرًا فيها، ولا يوجدُ كالفرنسية لغةٌ يَصعُب الكلام فيها بصفاءٍ من كلِّ وجه. وبما أن القارئ يكون دائمًا أكثرَ حِذْقًا في كشْف المعاني البذيئة من المؤلِّف في إقصائها، فإنه يغتمُّ من كلِّ شيءٍ ويجفُلُ منه. وكيف يتجنَّبُ ما يَمُرُّ من آذانٍ قَذِرَةٍ بذاءتَها؟ وعلى العكس، ترى للشعب ذي الطِّباع الحسنة كلماتٍ خاصَّةً لكلِّ شيء، وتكون هذه الكلمات نزيهةً دائمًا لاستعمالها بنزاهةٍ دائمًا. ويتعذَّر أن تتصوَّر لغةً أكثرَ حِشْمةً من لغةِ التوراة لقولِ كلِّ شيءٍ فيها بسذاجة، يكفي أن تُتَرْجَم عينُ الأشياءِ إلى

الفرنسية لجعْلها فاقدةَ الحشمة. وما يجبُ أن أقولَه لإميلَ لا ينطوي على غيرِ ما هو صالحٌ طاهرٌ يَقْرع سمعَه، ولكنَّ ظهوره هكذا عند المطالعة يقتضي حيازةَ قلبٍ نقيٍّ مثلَ قلْبه.

حتى إنني أرى أنه يُوجَد من التأمُّلات حَوْل نقاءةِ الكلامِ الحقيقيةِ وحول رقَّةِ المُنْكَر الزائفة ما يُمكِن أن يكون له مكانٌ نافعٌ في المحادثات الخُلُقية التي يَسُوق إليها هذا الموضوع؛ وذلك لأنه حين يتعلَّمُ لغةَ الصلاح يجب أن يتعلَّم لغةَ الحِشْمة أيضًا، كما أنه يجبُ أن يعلمَ السببَ في كونِ هاتين اللغتين مختلفتَين كثيرًا. ومهما يكن مِن أمرٍ فإنني أذهب إلى أنه بدلًا من التعاليم الفارغة التي تُقْرَع بها آذانُ الشباب قبل الأوان، والتي يَسْخَرُ الشبابُ منها عندما يبلُغ سِنَّ الانتفاعِ بها، وإلى أنه إذا ما انتُظِرَت الساعةُ التي يُستمَع فيها وأُعِدَّت هذه الساعة، وإلى أنه إذا ما أُطْلِعَ على سُنَنِ الطبيعة بكلِّ ما فيها من حقيقة، وإلى أنه إذا ما دُلَّ على مُؤَيِّدِ هذه السُّنن نفسِها في الأضرار المادية والأدبية التي تُصيبُ المذنبين نتيجةً لمخالفتها، وإلى أنه إذا ما حُدِّث عن سرِّ النسل الذي يتعذَّر إدراكُه فضُمَّت إلى فكرة الميل الذي أَنْعَم به صانعُ الطبيعة على ذاك الفعل فكرةُ الارتباطِ الحاجِبِ لما سواه والذي يجعل ذاك الفعلَ لذيذًا جِدًّا، وفكرة واجبات الوفاء والحياء التي تحيط به والتي تُضاعِفُ فُتُونَه بإتمامه غَرَضَه، وإلى أنه إذا ما وُصِف له الزواجُ على أنه أقدس العقود وأكثرُها حُرْمةً فضلًا عن كونه أحلى المعاشَرات، فقيلت له بقوةٍ جميعُ الأسباب التي تجعَلُ هذه العُقْدَةَ الكثيرةَ القُدُس محترمةً عند جميع النَّاس والتي تَغمُرُ بالمَقْت واللعنة كلَّ مَن يَجرُؤ على تدنيس قَدَاستها، وإلى أنه إذا ما رُسِمَتْ له لوْحةٌ بارزةٌ صادقةٌ عن قبائح الفُسوق وعن خَبَاله الأرْعن وعن المَيْل غيرِ المحسوس المؤدِّي إلى جميعِ الدَّعارات بالدَّعَرِ الأوَّل والذي يوجب خُسْران مَن يتعاطاها في نهاية الأمر، وإلى أنه إذا ما أُطلِعَ بوضوحٍ — كما أقول — على أن الصحةَ والقوة والشجاعة والفضائل، حتى الحُب، وجميعَ منافعِ الإنسان الحقيقية، أمورٌ تتوقَّف على الرغبة في الطُّهْر، أذهب إلى أنه يُجَعلُ له إذ ذاك ذلك الطُّهْرُ العزيزُ المنشود، وأنه يظهَرُ ذا ذهنٍ منقادٍ لِما يُعطاه من الوسائل حِفْظًا لذلك الطُّهْر، وذلك أنه كلَّما حُفِظَ احتُرِم، وهو لا يُزدَرَى إلا بعد ضَيَاعه.

ومن غيرِ الصحيح مطلقًا أن يكون المَيلُ إلى الشَّر أمرًا لا يُقْهَر، وأن الإنسان لا يكون قادرًا على قَهْره قبْل أن يتعوَّد الوقوعَ فيه، ويقول أُورِليوس فِكتور إن رجالًا كثيرًا أَفقدَهم الحُبُّ رشدَهم، فاشترَوا بحياتهم ليلةً من ليالي كليوباترة مختارين، وأن هذه التضحية

ليست من المُحال على ثَمَلِ الهَوَى، ولكنْ لنفترِضْ أن أكثرَ النَّاسِ هياجًا وأقلَّهم سيطرةً على شهواته يَرَى جهازَ العِقاب موقِنًا بأنه سيَهْلِك به مع النَّكال بعد رُبع ساعة؛ فهذا الرجل يَصِيرُ أرفعَ من كلِّ إغواءٍ منذ هذه الدقيقة، حتى إنه لا يلاقي غيرَ قليلٍ في مقاومته، وذلك أن ما يلازم ذلك الإغواءَ من خيالٍ كريهٍ يَصْرِفه عنه من فوْره، وذلك أنه يعتري ذاك الإغواءَ الذي يُخْمَدُ دائمًا كَلَالٌ فلا يعاوده، وهذا هو فُتُورُ إرادتنا الوحيدُ الذي يُوجِبُ جميعَ ضَعْفِنا، ونحن من القوة دائمًا ما نصنع معه ما يُرَادُ بقُوَّةٍ «فلا شيء يصعُب على الإرادة القوية.» آه! لو كُنَّا نَزدري المُنكَر بمقدارِ ما نُحِبُّ الحياة، ونحن نمتَنِعُ عن اقتراف ذنبٍ لذيذٍ امتناعَنا عن تناول سُمٍّ قاتلٍ في طبقٍ لذيذٍ.

وكيف لا يُرَى أن جميعَ الدروس التي تُلقَى على الفتى إذا كانت غيرَ ناجحة، فذلك لعدم ملاءمتِها لسِنِّه، فيَكُونُ من المهمِّ في كلِّ دَورٍ من أدوار العُمُر أن يُكسَى العقلُ أشكالًا تجعَلُه محبوبًا، فخاطبوه باتِّزانٍ عند الاقتضاء. ولكنْ ليَكُنْ ما تقولون له من الجاذبية في كلِّ وقتٍ ما يَحْمِلُه على الإنصاتِ لكم، ولا تُكافِحوا ميولَه بجفاء، ولا تَخْنُقُوا خيالَه، وكونوا أدلَّاء لهذا الخيالِ خشيةَ أن يَلِدَ غِيلانًا. وحدِّثوه عن الحُبِّ والنساء والملاذِّ، واصنعوا ما يجدُ معه في حديثِكم فُتونًا يُدارَى به قلبُه الفتي، ولا تدَّخِروا وُسْعًا حتى تُصْبِحوا نَجيًّا له، وليس بغيرِ هذا ما تَغدُون سيِّدًا له حقًّا، وهنالك لا تخشَوا بَعْدُ أن تورِثَه أحاديثُكم سأمًا؛ فهو سيَحْمِلُكم على الكلام أكثرَ مما تريدون.

ولا أشكُّ ثانيةً في أنني إذا عَرَفْتُ اتخاذَ جميع التحفُّظات الضرورية حول هذه المبادئ، وخاطبتُ إميلَ بكلامٍ ملائمٍ لما يُفتَرَضُ انتهاؤه إليه بتقدُّم السِّنين، فإنه يأتي من تلقاء نفسه إلى النقطة التي أودُّ سَوْقَه إليها، فيضَع نفسَه تحت ظِلِّي بهِمَّةٍ ويُكلِّمُني بكلِّ ما عليه عُمُره من حرارةٍ متأثِّرًا بالأخطار التي يرى نفسه مُحاطًا بها، قائلًا: «أيْ صديقي وظهيري ومُعلِّمي، استَرِدَّ السلطان الذي تريد أن تتخلَّى عنه في الحين الذي يكون أكثرَ ما يُهِمُّني بقاؤه لك، وأنت لم تَحُزْه حتى الآن بغيرِ ضَعفي، وستحوزُه الآن بإرادتي، وسيكون لديَّ أقدسَ ما يُمكن، واحفظْني من جميع الأعداء الذين يحيطون بي، ولا سيَّما الذين أَحمِلُ معي فيخونونني، واسهَرْ على مَنْ صنعتَ حتى يبقى جديرًا بك، وأريد إطاعةَ قوانينك، وأريد هذا دائمًا، وهذه إرادتي الثابتة، وإذا ما عصيتك كان هذا على الرغم منِّي، واجعَلني طليقًا بوقايتي من أهوائي التي تغصِبُني، وحُلْ دون كوني عبدًا لها، وألزِمني بأن أكون سيدَ نفسي بعصياني أهوائي، لا عقلي.»

وإذا ما جلبتم تلميذَكم إلى هذه النقطة (ويقعُ الذَّنْب عليكم إذا لم يأتِ إليها)، فاحترِزوا من الإسراع في مؤاخذته على الكلمة، وذلك خشيةَ أن يَظْهَرَ سلطانُكم له جافيًا جِدًّا فيرى من حقِّه أن يتخَلَّص منه متَّهِمًا إياكم بأنكم أخذتموه على حين غفلة، وذاك هو الوقت الذي يكون فيه التحفُّظ والوقَار في محلِّهما، وسيكون هذا الوضعُ أكثرَ ما يُمكِن تأثيرًا فيه إذا ما اتخذتموه نحوه أوَّل مرة.

ولِذا فستقولون له: «أنت تُلزم نفسك أيها الفتى إلزامًا خفيفًا بتعهُّداتٍ شاقَّة، ولا بدَّ من معرفتها قبْل أن يكون لك حَقُّ صَوْغها، وأنت لا تعرف بأية صَوْلةٍ تَسُوق الأهواءُ أمثالَك إلى هُوَّة المُنكَرات تحت جواذب اللذة، وأعْرِف جيِّدًا أنك لست صاحبَ نفْسٍ دنيئة، وأنك لن تنقُض عهدَك، ولكن ما أكثرَ ما يُمْكِن أن يكون من نَدَمِك على إعطائك إياه! وما أكثرَ ما ستلعنُ صديقَك الذي يَجِدُ أنه مضطرٌّ إلى كسرِ قلبك حِفظًا لك من الآثام التي تهُدِّدك! وستكون مثْلَ أُوليسَ الذي حَرَّكه غِناءُ سِيرِنَ فصاح بمُجَذِّفي قاربِه لفكِّ قيوده، فتريدُ كَسْرَ الأغلال التي تُضايقك عن إغواء جاذبية الملاذِّ لك. وستُزْعجني بعويلك، وستلومني على استبدادك حينما أكون أكثرَ ما يُمكِن اكتراثًا لك مع الرِّقة، وسأجلب مقتك إلى نفسي مع عدم تفكيري في غير سعادتك. ويا إميل، لن أطيقَ مطلقًا ألَمَ كوني مكروهًا لديك، حتى إن سعادتَك غاليةٌ كثيرًا بهذا الثَّمَن. أَوَلَا ترى أيها الفتى العزيز أنك إذا ما أكرهتَ نفسك على إطاعتي أكرهتني على قيادتك، وعلى نسيان نفسي وَقْفًا لها عليك، وعلى عدمِ الإنصاتِ لِتَوجُّعِك وتَذمُّرِك، وعلى مكافحةِ ميولك وميولي بلا انقطاع؟ وأنت تفرضُ عليَّ نِيرًا أقسى من نِيرك، فلْنَزِن قُوانا قبْل حَمْلِهما، وخُذْ فُرصةً للتفكير وأعطني مثلَها، واعلمْ أن أبطأَ ما يُوعَدُ هو أصدقُ ما يُنجَز.»

واعلَموا أيضًا أنكم كلَّما جعلتم العَهْدَ صعبًا سَهُلَ تنفيذُه، والمهمُّ في أن يَشْعُرَ الفتى بأنه يَعِدُ كثيرًا وبأنكم أكثرُ منه وعْدًا، ومتى حَلَّ الوقتُ وأمضى العقدَ فغيِّروا اللهجةَ وضَعُوا من الحِلْم في سلطانكم ما يَعْدِل الشِّدَّة التي أعلنتم، وقولوا له: «أيْ صديقي العزيز، تُعْوِزُك التجربة، ولكنني صنعتُ ما لا يُعْوِزُك العقلُ معه، وأنت في حالٍ تُبصِرُ بها سلوكي من كلِّ وَجه؛ ولذا فليس عليك غيرُ الانتظارِ هادئَ البال. وابدأْ بالطاعة دائمًا، ثُمَّ اطلبْ حسابًا عن أوامري، وسأكون مستعدًّا لتقديمه إليك عندما تكون مستعدًّا للإصغاء إليَّ، ولن أخشى اتخاذَك حَكَمًا بيني وبينك. وأنت تَعِدُ بأن تكونَ طائعًا، وأنا أعِدُ بألَّا أستعملَ هذه الطاعة

إلا لأجعلك أسعدَ النَّاس، واتَّخِذِ النَّصيبَ الذي تمتَّعتَ به حتى الآن ضامنًا لوعدي، ودُلَّني على واحدٍ من لِدَاتك قَضى حياةً حُلوَةً مثلَ حياتك، ولا أَعِدُك بخيرٍ من هذا.»

وسيَكُونُ أوَّلُ ما أُعْنَى به بعد إقامةِ سلطاني هو أن أُبْعِدَ ضرورةَ استعمالي له، ولن أدَّخِرَ وُسْعًا بأن أكون محلَّ ثقته بالتدريج، وبأن أكون نَجيَّ فؤاده وحَكَمَ ملاذِّه مقدارًا فمقدارًا، وسأتجنَّبُ مكافحةَ ميولِ سِنِّه مستطلعًا إياها كيما أُسيطرُ عليها، وسأنظر إلى الأمورِ من حيث وِجْهاتُ نظره حتى أُوَجِّهَها، ولن أبحث له عن سعادةٍ بعيدةٍ على حسابِ الحاضر، ولا أُريدُ أن يكون سعيدًا لَمرَّةٍ واحدةٍ مُطلَقًا، بل ليكون سعيدًا دائمًا إذا كان هذا ممكنًا.

ومن يَودُّ توجيهَ الشبابِ بحكمةٍ حِفْظًا له من أشراكِ الأهواءِ يَحْمِله على مقت الغرام، ويجْعل لِمَنْ في سنِّه جُرْمًا من التفكير فيه، كما لو كان الغرام قد صُنِع للشِّيب. وما كانت جميعُ هذه الدروس الخادعة التي يُكَذِّبُها القلبُ لِتُقْنِعَ مُطلَقًا. وفي السرِّ يَضْحَكُ الشابُّ المُسَيَّرُ بغريزةٍ أكثرَ صِدقًا من المبادئ الكئيبة التي يتظاهر بقبولها، ولا ينتظِرُ غيرَ الساعة التي ينبِذُها فيها. وكلُّ هذا مخالِفٌ للطبيعة، وأَبلُغُ عينَ الهدفِ على وجهٍ أكثرَ ضمانًا إذا ما سَلَكْتُ سبيلًا معاكسًا. ولن أخْشى مُطلَقًا أن أُداريَ فيه ما هو مُولَعٌ به من إحساسٍ حُلْو، وسأُصَوِّرُه له مِثلَ سعادةٍ للحياةِ ساميةٍ؛ وذلك لأنه هكذا بالحقيقة، وإني إذ أُصوِّره له أريد أن ينهمكَ فيه، وإني إذ أُشعِرُه بما يُضيفُ اتحاد القلوب من فتونٍ إلى جواذبِ الهوى، أُوحي إليه بالنُّفور من الفُجور، فأجْعلُه حكيمًا إذْ أجعلُه عاشقًا.

ويا لَمَا يجبُ أن يكون من ضِيقِ الذهنِ حتى لا يُبْصَر في الميول الناشئة للفتى غيرُ عوائقَ لدروسِ العقل! وأمَّا أنا، فأرى فيها وسيلةً صحيحةً لجعله منقادًا لهذه الدروسِ عينِها. ولا يُسَيْطَرُ على الأهواء بغير الأهواء، ويَجِبُ أن يُكافَحَ استبدادُ الأهواء بسلطان الأهواء، ويجب أن تُسْتَخْرَج الأدواتُ الصالحةُ لتنظيم الطبيعة من الطبيعة نفسها.

ولم يُصنَعْ إميلُ ليَبقى وحيدًا دائمًا، وهو عُضْوٌ في المجتمع، فيجب أن يقومَ بواجباته، وهو قد صُنِعَ ليعيش مع النَّاس، فيجب أن يَعرِفَهم، وهو يَعْرِفُ الإنسانَ على العموم، فبقيَ عليه أن يَعْرِف الأفراد، وهو يَعْرِفُ ما يُصنَعُ في العالَم، فبقي عليه أن يرى كيف يعيش النَّاسُ فيه. وقد أنى وقتُ إطلاعه على وجه هذا المسرحِ العظيم الذي عَرَفَ جميعَ ألعابه الخفيَّة، وقد عاد لا يَحْمِلُ إليه ما يَصدُرُ عن الفتى الطائش من إعجابٍ سخيف، بل يحمِلُ

إليه إدراكَ ذهنٍ مستقيمٍ صائبٍ. ولا رَيْبَ في إمكانِ مخادعةِ أهوائه له. ومتى كانت هذه الأهواءُ لا تَخْدَع مَن ينقادون لها؟! ولكنه لا يُخْدَع مطلقًا بأهواء الآخرين على الأقل، وهو إذا ما أبصرهم أبصرهم بعينِ الحكيم، وذلك من غير أن يُجَرَّ بأمثلتهم، ومن غير أن يُغْوَى بمُبْتَسَراتهم.

وكما أنه يُوجَد عُمُرٌ صالحٌ لدراسة العلوم يوجدُ عُمُرٌ صالحٌ لإدراك عُرفِ العالَم، ومن يتعلَّم هذا العُرفَ في فَتَائه الباكر يَتَّبِعْه مدَى حياته بلا خِيارٍ ولا تأمُّل، ومن غير أن يَعْرِفَ جيِّدًا ما يفعل مطلَقًا، وإن كان مع الجدارة، ولكن الذي يَتعلَّمه ويرى أسبابَه يَتَّبِعُه بتمييزٍ أكثرَ من ذاك؛ ومِنْ ثَمَّ يتَّبِعه بسدادٍ وكِياسةٍ أكثرَ من ذاك. وأعطوني ولدًا في الثانية عشرة من سِنيه غيرَ عارفٍ شيئًا، فإذا ما بلغ الخامسَ عشرَ من عُمُره وَجَبَ عليَّ أن أُعيدَه إليكم عالمًا بمثلِ ما عليه الولد الذي علَّمتُموه منذ الدَّور الأوَّل من العُمُر، وذلك مع الفارق القائل إن معرفة ولدِكم لا تكون في غير ذاكرته ومعرفة ولدي تكون في تمييزه. وكذلك أدْخِلُوا إلى العالَم فَتًى ابنًا للعشرين من عُمُره، فإذا ما أُحْسِنَ تسييرُه كان في عامٍ واحدٍ أكثرَ أُنسًا وأعظمَ تهذيبًا مع الحصافة من ذاك الذي غُذِّيَ بذلك منذ صِباه؛ وذلك لأن الأوَّل إذ يكون قادرًا على الشعورِ بأسبابِ جميعِ الأساليب الخاصة بالعُمُر والحال والجنس، أي بالأمور التي تتألَّف منها تلك العادة، فإنه يستطيع أن يَرُدَّ هذه الأمورَ إلى مبادئَ، وأن يجعلها شاملةً لأحوالٍ غيرِ منتظرة، وذلك على خلاف الآخر الذي ليس عنده غيرُ رُتِينه[٤٠★] حولَ كلِّ قاعدةٍ فيرتبك فورَ خروجه منه.

ويُنشَّأ جميعُ الأوانسِ من الفرنسيات في الأديار حتى يُزَوَّجْن، وهل يُرى أنهن يَجِدن إذ ذاك مشقَّةً في اتخاذ تلك الأوضاعِ التي يُبصِرْنَها بالغةَ الجِدَّة؟ وهل يُتَّهَمُ نساءُ باريسَ بعدم اللباقة وبالتردُّد وبجهلِ ما اصطَلَح عليه العالَمُ لأنهنَّ لم يتعلَّمْنَه منذ صِبَاهن؟ يأتي هذا المُبْتَسَر من رجال العالَم الذين لا يَعرِفون شيئًا أهمَّ من ذلك العلمِ التافه، فيُخيَّلُ إليهم زورًا أن من غيرِ الممكن تحصيلَه بسرعة.

والحقُّ أنه لا يجوز الانتظارُ طويلًا، ومن يَقْضِ جميعَ شبابه بعيدًا من العالَم الأكبر يَحمِلْ إليه في بقية حياته تردُّدًا واقتسارًا وقصدًا بلا داعٍ دائمًا وأوضاعًا ثقيلةً خُرْقًا، فيعودُ

---

٤٠ ★ La routine.

غيرَ قادرٍ على التخلُّص منها بعادة العيش في ذلك العالَم، ولا يَنال غيرَ مَظْهَرٍ جديدٍ من السخرية بما يبذُل من جُهْدٍ للخلاص منها. ولكلِّ نوعٍ من التعليم زمانُه الخاصُّ الذي يجب أن يُعرَف وأخطارُه التي يجب أن تُجْتَنب، وتتجمَّعُ الأخطارُ في هذا الدَّور من العُمُر على الخصوص، ولكنني لا أُعَرِّض لها تلميذي من غير احتياطٍ لوقايته منها.

ومتى أصاب منهاجي عَيْنَ الهدفِ من جميع الوجوه، ومتى دَفَعَ محذورًا فمَنَع من وقوع محذورٍ آخرَ، حكمتُ بأنه صالح، وبأنني على الحق، وهذا ما يَظْهَرُ أنني أُبصِرُه في الطريقة التي يوحي إليَّ بها هنا. وإذا أردت أن أكون صارمًا جافيًا مع تلميذي، أضعتُ ثقتَه، وتوارى عني من فوْره، وإذا أردتُ أن أكون ياسرًا سهْلًا أو متغاضيًا، فما يكون نفعُه من وجوده تحت حِراستي؟ لا أكون صانعًا غير إجازةِ فجوره وترويحِ ضميره على حساب ضميري. وإذا ما أدخلتُه إلى العالَم عازمًا على تعليمه فقط، فإنه يتعلَّمُ أكثرَ مما أريد، وإذا ما أبعدتُه عن العالَم حتى النهاية، فما يكون قد تعلَّم منِّي؟ كلَّ شيءٍ على ما يُحتمل، وذلك خلا ألزمَ فنٍّ للإنسان والمواطن؛ أي معرفةَ السلوك مع أمثاله. وإذا ما وَسَمْتُ هذه العنايات بفائدةٍ بعيدةٍ كثيرًا كانت هذه الفائدةُ هَباءً منثورًا؛ فالحاضر هو ما يلتفت إليه. وإذا ما اقتصرتُ على تزويده بالأُلْهُوَّات، فما الخير الذي أكون قد صنعتُ له؟ إنه يَخْنَثُ ولا يتعلَّمُ مُطلَقًا.

لا شيءَ من كلِّ ذلك، وطريقتي تتلافى جميعَ ذلك، وأقول للفتى: يحتاج فؤادُك إلى رفيقة، فدعْنا نَذْهَب للبحث عن التي تلائمك، ومن المحتمل ألَّا تَجِدَها بسهولة؛ فالمَزِيَّةُ الحَقَّةُ نادرةٌ دائمًا، ولكننا لا نستعجل ولا نخيبُ أبدًا. ولا مِراء في وجودِ واحدةٍ من هذا الطراز، وأننا سنجِدها في آخرِ الأمر، أو نجدُ واحدةً قريبةً منها كثيرًا على الأقل. فبهذا العَزْمِ المُدَالي له أُدخِلُه إلى العالَم، وما احتياجي إلى قولٍ أكثرَ من هذا؟ ألا ترون أنني قمتُ بكلِّ شيء؟

ويُمكنكم حين أصِفُ له الخليلة التي أُعِدُّها له أن تتصوَّروا هل أستطيع إسماعَ نفسي، وهل أستطيعُ جَعْلَ الصفاتِ التي يَجِبُ أن يُحِبَّ مقبولةً لديه عزيزةً عليه، وهل أستطيع أن أُهيِّئ جميعَ مشاعرِه لِما يجب أن يَبحثَ عنه أو يَفِرَّ منه، وأُعَدُّ أَخْرَق النَّاس إذا لم أجْعَلْه مولَعًا مُقدَّمًا من غير أن يَعْرِف مَنْ هي، وليس من المهم أن يكون الشخص الذي أصِفُ له خياليًّا؛ فيكفي أن ينَفِّرَه ممن يُمْكِن أن يُغوِيَه، ويكفي أن يُلاقيَ في كلِّ مكانٍ مقارَناتٍ تجْعَلُه يُفضِّلُ خيالَه على الأشخاص الحقيقيين الذينَ يَقِفون نظرَه. وما الغرام الحقيقيُّ

إن لم يكن خيالًا ومَيْنًا ووَهْمًا؟ تُحَبُّ الصورةُ التي تُتخيَّلُ أكثرَ جِدًّا من الشخص الذي تُطَبَّقُ عليه. وإذا ما نُظِرَ إلى الشخص الذي يُحَبُّ كما هو عليه عاد لا يكون في الدنيا حُب، وإذا ما كُفَّ عن الحُبِّ بَقِيَ الشخصُ الذي يُحَبُّ هو عينه كما كان سابقًا، ولكنه عاد لا يُرَى كما كان يُرى. والواقعُ أنني إذْ أُزَوِّدُ بالشخصِ الخياليِّ أكون مسيطرًا على المقارنات مانعًا بسهولةٍ من الوَهْم حَوْل الأشخاص الحقيقيين.

ولا أريدُ للوصول إلى هذا أن يُخادَع الفَتى بأن يُصوَّرَ له نَموذَجٌ من الكمال لا يُمكِن أن يُوجَد، ولكنني أبْلُغ من اختيار معايبِ خليلته ما يلائمُه وما يروقه فيَنفَع في إصلاح معايبه، وكذلك لا أُريد أن يُكْذَب عليه مُوَكِّدًا زورًا كَوْنَ الشخص الذي يُصوَّرُ له موجودًا. ولكن الصورة إذا ما طابتْ له لم يَلْبَثْ أن يتمنَّى لها أصلًا، ويَسْهُل قَطْعُ المسافة بين التمنِّي والافتراض، وهذا من عَمَلِ بعض الأوصاف اللبِقة التي تُسبِغُ على هذا الشخص الخياليِّ مَسْحَةً كبيرةً من الحقيقة تحت صفاتٍ أكثرَ وضوحًا، وأُبْعِدُ فأذهبُ إلى حَدِّ تسميته، فأقول ضاحكًا: دَعْنا نَدْعُ خليلتَك القادمةَ صُوفْيَة، وصوفيةُ اسمٌ ميمون، ولو كانت التي ستَختارُ غيرَ حاملة لهذا الاسم لكانت جديرةً بحمْله على الأقل؛ ولذا يُمكِننا أن نُكرِمَها به سَلَفًا. ولو كُنَّا بعد جميع هذه التفاصيل قد تفلَّتنا بأعذارٍ ومن غيرِ تصديقٍ ولا إنكارٍ لتحولتْ رِيَبُه إلى يقين، ولَاعْتَقدَ أنه يُنسَجُ له سِرٌّ حوْل الزوجةِ التي تُعَدُّ له وأنه سيراها متى أنَى له ذلك، وهو إذا ما انتهى إلى هذه النتيجةِ ذات مرة وأُحْسِن اختيارُ الأوصافِ التي يجب إطلاعُه عليها سَهُل كلُّ ما بَقي، فأمكَنَ عَرْضُه على العالَم بلا خطرٍ تقريبًا، وإنما صُونُوه من حِسِّيَّاته ليطمئنَّ قلبه.

ولكنْ، سواءٌ عليه أشَخَّصَ النموذجَ الذي استطعتُ أن أُحَبِّبَه إليه أم لم يُشَخِّصه، لا يِقِلُّ رَبطُ هذا النموذج إياه عند إتقان صُنْعه بكلِّ مَن يُشابِهه، ولا يقِلُّ إبعادُه إياه من كلِّ مَن لا يُشابهه، كما لو كان شخصًا حقيقيًّا. ويا للخيرِ في وقاية قلبه من الأخطار التي يُعرَّضُ لها شَخْصُه، وفي زَجْر حِسِّيَّاته بخياله، وفي نزعه على الخصوص من هؤلاء الواهبات للتربية اللاتي يُقدِّمنها غاليةَ الثَّمن، واللاتي لا يُعَلِّمْن الفتى أدبًا إلا بِخَلْعِهِنَّ منه كلَّ عِذَار! ويا لحياءِ صُوفْيَةَ البالغ! فبأيِّ عَيْنٍ تَنظرُ إلى ما يُقَدِّمْن؟ ويا لبساطةِ صوفيةَ الكثيرة! فكيف تُحِبُّ ظواهرهن؟ إنهن بعيداتٌ من أفكاره وترصُّداته، فلا يَكُنَّ خَطِرَاتٍ عليه مُطلَقًا.

ويَتَّبِعُ جميعُ مَن يتكلَّمون عن حكومةِ الأولاد عَيْنَ المُبْتَسَرات وعيْنَ المبادئ، وذلك عن سوءِ رَقابة، وعن سوءِ تأمُّلٍ أيضًا، وبالرأي يبدأ ضلالُ الشباب، لا بالمِزاج ولا بالحِسِّيَّات. ولو بحثتُ هنا عن الفِتيان الذين يُنشَّئون في الكليات وعن الفتياتِ اللاتي يُنشَّأنَ في الأديار، لأظهرْتُ صحةَ ذلك حتى من ناحيتهم؛ وذلك لأن الدروسَ الأُولى التي يتلقَّاها أولئك وهؤلاء، وهي الدروسُ الوحيدة التي تُثمِر، هي دروسُ المُنكَر والقُدْوَة — لا الطبيعة — هي التي تُفسِدُهم، ولكن لنترك لتلاميذ الكليات والأديار أخلاقَهم الفاسدةَ لتعذُّرِ إصلاحِهم دائمًا، فلا أتكلم عن غيرِ التَّربية المنزلية. وتناوَلوا فتًى نُشِّئَ تنشئةً حسنةً في بيتِ أبيه بالمُلحَقات. وابحَثوا في أمره حين وصوله إلى باريسَ أو دَعْوه يَدْخُل المجتمع، تجِدوه مُفكِّرًا في أمورٍ صالحةٍ كثيرة، صاحبًا لعزمٍ سليمٍ وعقلٍ مستقيم، وتَرَوه مزدريًا للمنكَر كارهًا للفجور، وتُبصِروا في عينيه دليلَ الطُّهْر عند ذكرِ أية مُومِس، وأرى أنه لا يُوجَدُ فَتًى يُمكِنُ أن يَعْزِم على الدخول بمفرده منازلَ هؤلاء الشقيَّات الكئيبة، ولو كان عالمًا بعادتها شاعرًا بالحاجة إليها.

ثُمَّ ارجِعُوا البصرَ إلى الفتَى عينِه بعد ستة أشهر لترَوا أنكم عُدْتُم غيرَ عارفين إياه، وذلك أنَّ ما يكون من أحاديثه الجريئة ومبادئه العصرية وأوضاعه الطليقة يَحمِلُ على عَدِّه إنسانًا آخرَ، وذلك لولا أن فُكاهاتِه حَوْلَ بساطته الأُولى وما يعتريه من خَجَلٍ حين تذكيره بها تَدُلُّ على أنه هُوَ هُو، وعلى أنه يَسْتَحي من نفسه. وَيْ! ما أكثرَ ما تَحَوَّل في وقتٍ قليل! ومن أين يأتي هذا التغيُّر الكبير المفاجئ؟ يأتي من نشوء المِزاج، أَوَمَا كان يَتَّفِقُ لمِزاجه ذاتُ التقدُّم في المنزل الأبويِّ؟ لا ريبَ أنه ما كان ليتَّخِذَ ذاتَ الصِّبْغَة ولا ذاتَ المبادئ، أَمَلاذُّ الحواسِّ الأُولى؟ إنه إذا ما أُخِذَ على العكس في تعاطي ذلك اتُّصِفَ بالجَزَع والهَلَع، واجتُنِبَ النُّورُ والضوضاء. وتكون الشهواتُ الأُولى حافلةً بالأسرار دائمًا، ويُتَبِّلُها الحياءُ ويسترُها، ولا تَصْنَعُ الخليلة الأُولى ماجنًا، بل تصنع خجولًا. ويستغرقُ هذا الوضع التامُّ الجِدَّة جميعَ الفتى، فيَجْمَعُ حواسَّه ليتمتعَ به، فيرتجف دائمًا خشيةَ أن يُضِيعه، ولو كان صَخَّابًا ما كان شَهوَانيًّا ولا ناعمًا، ولا يُعَدُّ متمتِّعًا ما دام مُتبجِّحًا.

وللتفكير وجوهٌ أخرى نشأت هذه الفروقُ عنها وحدَها، ولا يزال فؤادُه كما هو، ولكنَّ آراءه تغيَّرت، وتفسُدُ أحاسيسُه بأبطأَ مِن فسادِ آرائه، وهي تَفْسُد بهذه الآراء في آخرِ الأمر، وهنالك فَقَطْ يكون فاسدًا حقًّا، وهو لا يكادُ يَدْخُل المجتمع حتى يتلقَّى فيه تربيةً ثانيةً مُبايِنةً للأُولى، فيتعلَّم بها ازدراءَ ما كان يُقَدِّر، ويُقَدِّرُ ما كان يزدري، أيْ إنه يَعُدُّ دروسَ

والديه ومُعلِّميه رطانةَ حَذْلقة، ويَعُدُّ ما يَعظونه به من واجباتٍ عِلْمًا صِبيَانيًّا في الأخلاق لا مَعْدِلَ له عن الاستهانة به بعد أن صار كبيرًا. وهو يعتقد اضطراره إلى تغيير سلوكِه عن شَرَف، فيغدو جريئًا مع النساء بلا رغبةٍ ومزْهُوًّا عن حياءٍ سيئ، وهو يهزأ بصالح الطبائع قبل أن يذوق فاسدَها، وهو يفاخر بالدَّعَر من غير أن يكون داعرًا. ولن أنسى اعترافَ ضابطٍ شابٍّ في الحرس السويسري، كان يتبرَّم كثيرًا من لهو رفقائه الصاخب، فلا يجرؤ على رفض الاشتراك فيه خَشْيَةَ استهزائهم به، وقد قال: «إنني أتمَرَّن على هذا كما أتمرَّن على تعاطي التَّبْغ مع ما يساورني من نفور، ويأتي الذوق بالعادة، فلا يجب أن يبقى الإنسان صبيًّا دائمًا.»

وهكذا، فإنه يجب صَوْنُ الفتى الداخل في المجتمع من الزَّهو أكثرَ من الشهوَة؛ فالفتى يُذعِن لميول الآخرين أكثرَ من إذعانه لميول نفسه، ويصنَعُ حُبُّ النفس فُجَّارًا أكثرَ مما يَصنَعُ الغرام.

وأسألُ بعد بيانِ ذلك: هل يُوجَدُ في العالَم بأجمعه إنسانٌ كتلميذي، مُسَلَّحٌ تجاه كلِّ ما يُمكِن أن يُهاجِمَ أَخلاقَه ومشاعرَه ومبادئَه، قادرٌ على مقاومة السَّيْل؟ وذلك تجاه أيِّ إغواءٍ لا يكون مدافعًا؟ فإذا كانت مُيوله تسوقه إلى الجنس الآخر لم يَجِدْ فيه مَن يَبْحَثُ عنها، ويُمسِكُه فؤادُه المهموم، وإذا كانت حواسُّه تُحَرِّكه وتُحَدِّثُ قَلْبَه، فأين يجِدَ ما يَقضي به وَطَرَها؟ يُقصيه مقته للزِّنى والفجور عن المومسات والمتزوِّجات على السواء، ويبدأ فِسْقُ الشباب مع أيٍّ من هذين الفريقين دائمًا. أجلْ، قد تكون الفتاةُ الصالحة للزواج مِغْناجًا، ولكنها لا تكون خالعةَ العِذَار، وهي لا تذهب إلى إلقاء رأسها على فَتًى يُمكِنُ أن يتزوجها إذا ما اعتقد حُسْنَ سلوكها، ثُمَّ إنها تَجِدُ مَن يقوم برَقابتها، وكذلك إميلُ لن يُوكَلَ إلى نفسه تمامًا، وسيجِدان في الخوف والحياء على الأقل رقيبَين ملازمَين للميول الأُولى، فلا ينتقلان إلى آخرِ الدَّلال بغتة، ولا يكون لديهما من الوقت ما يأتيانه بالتدريج من غير عَقَبَات، ولا بدَّ لسلوكه غيرَ هذا السبيل من أن يكون قد تَلَقَّى درسًا مع رفقائه فتعلَّم منهم أن يَسْخَرَ من زَجْرِ نفسه وأن يصير ماجنًا على غِرَارهم. ولكن أيُّ إنسانٍ في العالَم يَكُونُ أقلَّ من إميلَ تقليدًا؟ وأيُّ إنسانٍ يكونُ أقلَّ تأثُّرًا بالسُّخْرية من هذا الذي ليستْ لديه مُبْتَسَرات، ولا يستطيع أن يخضع لمُبْتَسَرات الآخرين؟ لقد عَمِلْتُ عشرين عامًا في تسليحه ضد المستهزئين، وهم يحتاجون إلى أكثرَ مِن يومٍ واحدٍ حتى يُغَرَّ بهم؛ وذلك لأنه يرى المَهْزأة في برهان الأغبياء، ولأنه لا شيءَ يجعل الإنسانَ غيرَ متأثِّرٍ بالسخرية سوى وجوده فوق المُبْتَسَر، وهو يحتاج إلى براهينَ بدلًا من الفكاهات. ولا أخشى أن ينزِعه الفِتيانُ

المجانينُ منِّي ما وقف عند ذلك الحد؛ فالضمير والحقيقة هما ما أُبصر بجانبي، وإذا ما وَجَبَ تدَخُّلُ المُبتَسَر في الأمر كان تعلُّقُ عشرين عامًا شيئًا يُذكَرُ أيضًا؛ فلن يوجَدَ مَن يُقنِعُه بأنني أورثْتُه سأمًا بدروسٍ فارغةٍ. ومن شأن صوت الصديق المخلِص الصادق أن يمحو في القلب المستقيم الحساس كلَّ أثرٍ لأصوات عشرين من الغاوين. وبما أن الأمر يدورُ حصرًا حول إطلاعه على مخادعتِهم له، وعلى أنهم حين يتظاهرون بمعاملته مثلَ رجلٍ يعاملونه مِثلَ ولدٍ بالحقيقة، فإنني أتظاهر بالبساطة ولكن مع الاتزان والوضوح في براهيني، وذلك كيما يشعر بأني أنا الذي يعامله مثل رجل، فأقول له: «تَرَى أن مصلحتك الوحيدة التي هي مصلحتي هي التي تُملِي عليَّ كَلِمِي، ولا يُمكِنني أن أصنعَ غيرَ ذلك، ولكن لِمَ يُريدُ هؤلاء الفِتيان إقناعَك؟ ذلك لأنهم يريدون إغواءك، وهم لا يحبُّونك مُطلَقًا، وهم لا يُبالون بك مطلقًا، ويقوم داعيهم الوحيدُ على غيظهم الخفي من كونك أفضلَ منهم، فيودُّون لو يُنزِلونك إلى مستواهم الحقير، وهم لا يلومونك على خضوعك للرَقابة إلا ليسيطروا عليك بأنفسهم. وهل يُمْكِنُك أن تعتقد وجودَ كَسْبٍ لك في ذاك التحوُّل؟ وهل بَلَغُوا من سُموِّ الدراية ما بلغتُ إذن؟ وهل وَلَعُ يومٍ واحدٍ أقوى من وَلَعي؟ لا بُدَّ لهم من القدرة على إعطاء وزنٍ لسلطانهم حتى يُقام وَزْنٌ لسُخريتهم، وأيةُ تجربةٍ اتفقت لهم رفْعًا لمبادئهم فوق مبادئنا؟ هم لم يَصنَعُوا غيرَ تقليدِ طائشِين آخرِين، فتراهم يُريدون أن يُقلَّدُوا بدَورِهم، وهم يريدون أن يجعلوا أنفسهم فوق مُبْتَسَرات آبائهم، فتراهم يُخضِعون أنفسهم لمبتَسَراتِ رفقائهم. ولا أُبصِرُ ما يكسِبون من هذا مطلَقًا، ولكني أُبصِرُ أنهم يخسرون به فائدتَين عظيمتَين لا ريب، وهما: فائدة العطف الأبوي الذي يكون ما يَصدر عنه من نصائحَ ليِّنًا صادقًا، وفائدة التجرِبة التي تَحْمِلُ على الحكم في الأمور بما هو معروف؛ وذلك لأن الآباء كانوا أولادًا، ولم يكن الأولاد آباء.

ولكن أتظنُّ أنهم مخلصون في مبادئهم الحُمْقِ على الأقل؟ ولا هذا أيضًا يا إميل العزيز؛ فهُم يَخدَعون أنفسَهم ليخدعوك، وهم ليسوا على اتِّفاقٍ مع أنفسهم، ويُكذِّبهم فؤادهم دائمًا، ويناقضهم لسانهم غالبًا، ومنهم هذا الذي يُحوِّل إلى سُخريةٍ كلَّ ما هو صالحٌ مع اليأس من تفكير زوجته مثله، ومنهم ذاك الذي يَبلُغ من عدم الاكتراث للأخلاق ما يَجْعَله شاملًا لزوجته القادمة، أو إنه يَبلُغُ من الانغماس في العار ما لا يكترث معه لسلوك زوجته. ولكن تقدَّم إلى الأمام، وحدِّثه عن أمه، وانظُرْ هل يوافق أن يُعامَل ابنًا لزانيةٍ وامرأةٍ سيئة السلوك، فيحمِل اسمًا زائفًا لأسرةٍ ويسرِق تُراثَ وارثٍ شرعي؟ أيْ هل يُطيقُ أن يُعامَل مِثلَ نَغْل؟ ومَن منهم يُريد أن يَرُدَّ على ابنته عارًا غَمَرَ به بنتَ رجلٍ آخر؟ ولم يوجد واحدٌ منهم لم

يعتَدِ حتى على حياتك إذا ما انتحلتَ معه في ميدان العمل جميعَ المبادئ التي يبذُل وُسْعَه في منحك إياها. وهكذا فإنهم يُبدُون تناقضَهم، فيُعلَم أن كلَّ واحدٍ منهم يقول ما لا يعتقد، وهذه براهينُ يا إميلُ العزيز، ففكِّر في براهينهم إذا كان عندهم برهان، ثُمَّ قارن بينها وبين براهيني، ولو أردتُ أن أستعين بالازدراء والهزوء كما يستعينون لرأيتهم يُسلِمون أنفسَهم إلى السخرية كما أُسْلِمُ أو أكثر، ولكنني لا أخشى الاستقصاء الجِدِّي؛ ففوز المستهزئين قصيرُ الأجل، وتبقى الحقيقة، ويزول ضَحِكُهُم المخالفُ للصواب.»

ولا تتصوَّرون كيف يُمكن إميلَ البالغَ من السِّنِّ عشرَ سنين أن يكون طائعًا، ويا للاختلاف في تفكيرنا! ولا أُدرِك كيف أمكنه أن يكون طائعًا ابنًا للعاشرة من سِنيه، وأيُّ سلطانٍ يكون لي عليه في ذاك العُمُر؟ لقد بذلتُ جهودَ خمسَ عشرةَ سنةً لوقاية هذا السلطان، ولم أُنشِّئه في ذلك الحين، بل كنت أُعِدُّه ليُنشَّأ، والآن بلغ من التنشئة ما يَكفي ليكون طائعًا، وهو يَعْرِف صوتَ الصداقة، وهو يَعْرِف أن يُذعن للعقل. أجلْ، إنني أترك له مظهر الاستقلال حقًّا، ولكنه لم يكن تابعًا لسلطاني أكثرَ مما في الوقت الحاضر؛ وذلك لأنه أراد أن يكون هكذا. وقد بقيتُ مسيطرًا على شخصه ما عجزتُ عن السيطرة على إرادته، فلا أتركه دقيقةً واحدة، والآن أكِلُه إلى نفسه أحيانًا؛ وذلك لأنني أهيمِنُ عليه دائمًا، وإذا ما تركته عانقته وقلت له بلهجة الواثق: «أدفعُك إلى صديقي لتكون وديعةً عنده، وأُسلِّمُك إلى قلبه الكريم، وهو الذي سيُجيبني عنك.»

ولا يتمُّ في ساعةٍ واحدةٍ إفسادُ المشاعرِ السليمة التي لم يَطْرَأ عليها أيُّ فسادٍ سابقًا، وزوال المبادئ المشتقة مباشرةً من أنوار العقل الأُولى. وإذا حدثَ تغييرٌ في أثناء غيابي، لم يكن على شيءٍ من الطول مُطلَقًا، وهو لا يُمكِن أن يُكتَم عني بما فيه الكفاية حتى لا أدركَ الخَطَرَ قبلَ الشَّر، ولا يكون لديَّ من الوقت ما أعالجه فيه. وكما أن الفساد لا يتمُّ دفعةً واحدة، فإن تعلُّمَ المخادعة لا يتمُّ دفعةً واحدة. وإذا ما وُجِدَ إنسانٌ غيرُ حاذقٍ في هذه الصناعة كان هذا الإنسانُ إميلَ الذي لم تُتَح له فرصةٌ واحدةٌ في حياته لمزاولتها.

وأعتقدني بهذه الجهود وما ماثلها قد بَلَغْتُ من ضمانه تجاه الأمور الخطِرة والمبادئ المبتذلة ما أُفضِّلُ أن أراه معه في وَسَطِ أكثرِ مجتمعاتِ باريسَ فسادًا، على أن أشاهده وحدَه في غرفته أو في روضةٍ مُوكَلًا إلى همِّ عُمُره. ومهما يكن من أمرٍ فإن الشابَّ نفسه هو أخطَرُ جميعِ الأعداء الذين يُمكِن أن يهاجموه، وهو الوحيدُ الذي لا يُمكِن إقصاؤه، ومع ذلك فإن هذا العدوَّ لا يكون خطِرًا إلا بخطأ يَصدُر عنَّا؛ وذلك لأن الحواسَّ تستيقظ

بالخيالِ وحدَه كما قلتُ ذلك ألفَ مرة، وليست حاجتُها حاجةً بدَنيَّةً بحصرِ المعنى، وليس من الصحيح أن يكون هذا احتياجًا حقيقيًّا. ولو لم يقِف الموضوع الداعر نظرنا، ولو لم يدخُل الفكرُ الفاجرُ ذِهنَنا، لم يُشْعِر هذا الاحتياجُ المزعومُ بنفسه فينا على ما يُحتمل، ولبقينا أطهارًا خالِين من النَّزَغات والجهود والمَزيَّة. ولا يُعرَف أيُّ فَورانٍ أصمَّ يُثيرُه بعضُ الأوضاع وبعضُ المناظر في دَمِ الشباب من غير أن يَعْرِف بنفسه تمييز علَّة هذا الهمِّ الأوَّل الذي لا يَسْهُل تسكينُه، والذي لا يَلْبَثُ أن يُبْعَث. وأمَّا أنا، فكلَّما تأمَّلت هذه الأزمَةَ المهمَّة، وأنعمت النظرَ في عللها القريبة والبعيدة، قَنِعتُ بأن المُعتَزِلَ الذي رُبِّيَ في بَرِّيَّة بلا كُتبٍ ولا تعليمٍ ولا نِسوَةٍ يَموت فيها بَتولًا مهما يَكُن العُمُر الذي يبلُغه.

ولكنْ ليس هنا موضوعُ بحثٍ عن وحشيٍّ من هذا الطراز، وليس من الممكن، ولا من الملائم أيضًا أن يُنشَّأ دائمًا ضِمْن هذه الجهالة الشافية، وشَرٌّ من هذا على الحِكْمة أن يكون نصفَ عارف، وتَتَبْعُنا في العُزْلة ذكرى الأمورِ التي وَقَفَت نظرَنا والأفكارُ التي اكتسبناها، وهي تَعْمُرُها على الرغم مِنَّا بصُوَرٍ أكثرَ إغواءً من الأشياء نفسِها، وهي تَجْعَلُ العزلةَ شؤمًا على الذي يَحمِلُها إليها بمقدار فائدتها للذي بَقيَ وحيدًا فيها دائمًا.

ولِذا فارقُبوا الشابَّ بدقة، وهو يستطيع أن يَقيَ نفسَه من البقية، ولكنْ يتوقَّف عليكم أن تَقُوه من نفسه، ولا تتركوه وحدَه ليلًا ولا نهارًا، وناموا في غرفته على الأقل، ولا تَدَعوه يدخُل الفِراش إلا تَعِبًا نُعَاسًا، فلا يَخْرُج منه إلى حينِ يُفيق، واحذَروا الغريزةَ عندما تعودُون غيرَ مقتصرين عليها، وهي تكون صالحةً ما سارت وحدَها، وهي تكون محلَّ ارتيابٍ ما اتصلت بمؤسَّساتِ النَّاس، ولا يجوز أن يُقضى عليها، بل يجب تنظيمُها، وقد يكون تنظيمُها أصعبَ من إزالتها، ومن الخطرِ البالغِ أن تُعلِّمَ الغريزةُ تلميذَكم مخادعةَ حواسِّه، وأن تُعَوِّض من فُرَصِ قضاءِ هذه الحواس، فإذا ما عرف تلميذُكم هذا العِوَضَ ضاع، وذلك أنه يكون هائجَ الجسم ثائرَ الفؤادِ منذ ذلك الحين دائمًا، وأنه يَحمِلُ حتى القبرِ نتائجَ هذه العادةِ الكئيبة، هذه العادةِ التي تُعَدُّ أشأمَ ما يُمكِن أن يُعبَّدَ لها شاب. ولا رَيْبَ في أن الأفضلَ ... وإذا ما صارت صَوْلات المِزاجِ الأجُوجِ أمرًا لا يُقْهَر، يا إميلُ العزيز، فإني أرْثي لك، ولكنني لا أتردد ثانية، ولا أتساهل مُطلَقًا في أمرِ التملُّصِ من غَرَض الطبيعة. وإذا ما وَجَبَ أن يُخْضِعَك طاغية، فإنني أُسلِّمُك إلى هذا الذي أستطيع إنقاذك منه؛ أيْ مهما يكُن من أمرٍ فإنني أنزِعُك من النساء بأسهلَ مِن أن أنزِعَك من نفسك.

وينمو البدنُ حتى العشرين من السِّن، ويحتاج البدنُ إلى جميع جوهره، ويكون العَفَافُ من نظام الطبيعة حتى ذلك الحين، ولا يُنقَضُ هذا النظام على إلا حساب بُنيَانه، فإذا حَلَّ العشرون من العُمُر أصبح العفافُ واجبًا خُلُقيًّا، وغدا مُهِمًّا لتعلُّم ضبطِ النفس وبقاء الإنسان سيدَ شهواته. بَيْدَ أن للواجبات الخُلُقية تحوُّلاتِها واستثناءاتها وقواعدَها، وإذا ما اقتضى الضَّعفُ البشريُّ تناوبًا، وصار هذا التناوبُ أمرًا لا مفرَّ منه، وجب اختيارُ أخفِّ الضررين. ومهما يكن من أمر، فإن اقترافَ وِزْرٍ أهوَنُ من إيلاف مُنكَرٍ.

واذكُرُوا أنني عُدْتُ لا أتكلَّمُ عن تلميذي هنا، بل عن تلميذكم، وتُخضِعُكم أهواؤه التي تركتموها تثور، فاخضعُوا لها، إذَن، جَهْرًا ومن غير أن تُخفوا عنه فوزَه. وإذا ما استطعتم أن تُرُوه إياه على حقيقته ظَهَرَ به أقلَّ زَهْوًا منه خَجِلًا، وظَهَرَ لكم من الحقِّ ما تُرشِدونه به في أثناء ضلاله حَمْلًا له على اجتناب المصائب. ومن المهمِّ ألَّا يصنَع الطالبُ شيئًا لا يَعْرِفه المُعلِّم ولا يريده، ولو كان ذلك الشيء شرًّا، وأفضل مائة مرةٍ أن يوافق المُعلِّم على ذَنْبٍ مُموِّهًا على نفسه من أن يخادِعَه تلميذُه وأن يُقترَف الذَّنبُ من غير أن يَعرِف عنه شيئًا. ومن يظُنُّ وجوبَ الإغضاء عن أمرٍ لا يَلْبَث أن يَرى اضطراره إلى الإغماض عن جميع الأمور، ويؤدي أوَّلُ سوء استعمالٍ يُغَضُّ البصرُ عنه إلى سوء استعمالٍ آخرَ، ولا تنتهي هذه السلسلة إلى غيرِ انهيارِ كلِّ نظام وازدراء كلِّ قانون.

ويُوجَدُ خطأٌ آخرُ كنت قد ناهضته، ولكنْ مع عدم صدوره عن النفوس الصغيرة مُطلَقًا، وهو أن يُظهَرَ بمظهرِ وقارِ الحاكم دائمًا، وأن يُرادَ الدخولُ في ذهنِ التلميذ مثلَ رجلٍ كامل؛ فهذا المنهاج مخالفٌ للصواب، وكيف لا يَرَوْن أنهم يُقوِّضون سلطانهم من حيث يَوَدُّون توطيدَه، وأنه لا بُدَّ لهم من وضْع أنفسهم في مكانِ مَن يُخاطَبون ليَحْمِلوا على سماع جميع ما يقولون، وأنه لا بُدَّ للواحد من أن يكون إنسانًا حتى يَعْرِفَ مخاطبةَ القلبِ الإنساني؟ لا يؤثِّر جميعُ هؤلاء الفُضَلاء ولا يُقْنِعون، ويُقال دائمًا: «يَسْهُل عليهم أن يناهضوا ما لا يشعُرون به من الأهواء.» فأطلِعوا تلميذَكم على ضَعفكم إذا ما أردتم شفاءه من ضَعفه، وليُبصِرْ فيكم عَيْنَ الكفاح الذي يُحِس، وليتعلَّمْ أن يقْهَرَ نفسَه على غِرارِكم، ولا تَدَعُوه يقول كما يقول الآخرون: «يُريدُ هؤلاء الشِّيبُ الذين يغيظُهم أنهم عادوا لا يكونون شُبَّانًا، أن يُعاملَ الشبابُ كما لو كانوا شِيبًا، فيجعلون من أهوائنا جُرْمًا لانطفاءِ أهوائهم.»

ويرْوي مونتينُ أنه سأل سِنيورَ لانْجِه ذات يومٍ عن عدد ما سَكِرَ بسبب خدمة الملك في أثناء مفاوضاته ألمانية، وأسألُ مُعلِّمَ أحد الشباب بطوعي عن عدد المرات التي دخل فيها

أحد المواخير خِدْمةً لتلميذه؟ أنا مخطئ، فإذا لم تَنزِع المرةُ الأُولى من الداعر مَيْلَ العَوْدِ إليه، وإذا لم يَرْجع منه تائبًا خَجِلًا، وإذا لم يسكُب على صدركم سيولًا من الدموع، فَدَعوه من فوْره؛ فهو ليس سوى غُول، أو إنكم لستم من غير الأغبياء، فلن تكونوا نافعين له في شيءٍ مطلَقًا، ولكنْ لنترك هذه الطرائق المتناهية الكئيبة الخَطِرَة والتي لا تَمُتُّ إلى تربيتنا بصِلة.

ويا للاحتياطات التي تُتَّخَذُ تجاه شابٍّ أصيلٍ قَبْل تعريضه لأوضاع العصر الشائنة! إن هذه الاحتياطات شاقَّة، ولكنها ضرورية، والإهمالُ هو الذي يُضيع جميعَ الناشئة من هذه الناحية، ويَنْحَطُّ النَّاسُ بفُجُورِ الدَّور الأوَّل من العُمُر فيتحوَّلون إلى الحال التي يُرَون عليها اليوم. وهم إذ يَبدون أدنياءَ نُذَلاء حتى في معايبهم، فإنهم لا يكونون من غير أصحاب النفوس الحقيرة، وذلك لفسادهم باكرًا عن وَهْنٍ في أبدانهم، فلا يكاد يَبْقى لهم من الحياة ما يكفي للتحرُّك، وتَنِمُّ أفكارهم الدقيقة على أذهانٍ يُعْوِزُها الجوهر، وهم لا يَقْدِرون على الشعور بأمرٍ جليلٍ أو نبيلٍ. ولا يوجدُ عندهم نشاطٌ ولا بساطة. وبما أنهم نُذَلاءُ في كلِّ شيء، وبما أنهم أشرارٌ مع الدناءة، فإنهم ليسوا غير مُبْطِلين خُبَثاء مُرائين، حتى إنه ليس لديهم من الشجاعة ما يكونون معه فُجَّارًا ظاهرين، وهؤلاء هم الأذلاءُ الذين يُسفِرُ عنهم دَعَرُ الشباب، وإذا ما وُجِدَ بينهم واحدٌ يَعْرِف أن يكون معتدلًا وقورًا قادِرًا أن يَحفَظ بينهم فؤاده ودمَه وأخلاقَه، وذلك من عَدْوَى القُدوَة، سَحَق جميع هؤلاء الحشرات ابنًا للثلاثين من عُمُره، وصار سيدَهم بِجُهدٍ أقلَّ من الذي يبذُل ليظَلَّ سيدَ نفسه.

ومهما يكن من قلةِ ما عند إميلَ من نَسَبٍ ونَشَب، فإنه يصيرُ ذاك الإنسان الذي يُريدُ أن يكونَه، غير أنه يَبْلُغ من ازدرائه لهم ما لا يتنازل معه أن يستعبدَهم. والآن لننظرْ إليه بينهم وهو يدخُل المجتمع، لا لتكون له الصدارةُ فيه، بل ليَعْرِفَه وليجدَ فيه رفيقةً تناسبه.

وستكون بُداءتُه بسيطة، وبلا تصنُّع مهما كانت الطبقة التي وُلِدَ فيها والمجتمع الذي أُدخِلَ إليه. ومعاذَ الله أن يكون من الشقاء ما يَلمَعُ معه في ذاك المجتمع! فليست الصفاتُ التي تؤثِّرُ عند أوَّل نظرةٍ صفاتِه، وهو لم يَحُزْها ولا يُريدُ حيازتَها، وهو قليلُ الالتفات إلى رأي الآخرين في تقدير مُبْتَسَراتهم، ولا يكترث لتقدير النَّاس إياه، أو لعدم تقديرهم له قبلَ أن يَعْرِفوه. وليس الوجه الذي يظهر به متَّضِعًا ولا فارغًا، بل طبيعيٌّ وحقيقي، وهو لا يَعْرِف الانقباض ولا التنكُّر، ويكون في وَسَط الحلْقة مِثْلَه وحيدًا وبلا شاهد. وهل يكون بهذا فظًّا مُزدَريًا غيرَ مُبالٍ بأحد؟ والعكسُ هو الواقع، فإذا كان لا يأبهُ وحدَه للآخرين،

فلِمَ لا يأبهُ لهم ما دام عائشًا بينهم؟ إنه لا يُفضِّلُهم على نفسه في أوضاعه؛ لأنه لا يفضِّلُهم على نفسه في فؤاده، بَيْدَ أنه لا يُريهم عدمَ اكتراثٍ يُعَدُّ بعيدًا من الشعور به. وهو إذا كان خاليًا من صِيَغ المجاملة، فإن له عنايةً بالإنسانية، وهو لا يُحِبُّ أن يرى إنسانًا يألَم، وهو لا يُقدِّم مكانه إلى آخرَ عن رئاء، وإنما يَترُكه له بطَوْعِه عن لطف، وذلك إذا ما رآه مُهمَلًا وقَدَّر أن هذا الإهمالَ يُذِلُّه؛ وذلك لأنه يجد غضاضةً في بقائه واقفًا طَوْعًا أقلَّ مما يَجِدُ في مشاهدته آخرَ يَبقى واقفًا كَرْهًا.

ومع أن إميلَ لا يعتَبِرُ النَّاس على العموم، فإنه لا يُظْهِرُ لهم ازدراءً مطلَقًا؛ وذلك لأنه يَتوجَّع لهم ويَحِنُّ عليهم. وبما أنه لا يستطيع أن يَمنَحَهم ذوقَ الخيرِ الحقيقي، فإنه يَدَعُ لهم خيرَ الرأي الذي يُرضيهم، وذلك خشيةَ أن يجعَلَهم أكثرَ شقاءً من قَبْلُ بنزعِه هذا الخيرَ منهم؛ ولذا فهو ليس مِجدالًا ولا معارضًا، وليس ملاطفًا ولا مصانعًا، وهو يُبدي رأيه من غير أن يناهِض رأيَ أحد؛ وذلك لأنه يُحِبُّ الحريةَ فوقَ كلِّ شيء، ولأن الصراحةَ من أروع ما تنطوي عليه الحرية من حقوق.

وهو قليلُ الكلام؛ وذلك لأنه لا يَشْغل بالَه بأن يُكترَث له، وهو لا يُحدِّث عن غيرِ الأمور النافعة لهذا السبب، وإلا فأيُّ شيءٍ يَحمِلُه على الكلام؟ إن إميلَ من الاطِّلاع الكثير ما لا يكون معه ثَرْثارًا، ويصدُر الهذْرُ الكبيرُ بحكم الضرورة عن زعْمِ الذهن الذي سأتكلَّم عنه فيما بعد، أو عن القيمة التي تُعطاها التُّرَّهات، فنكون من السخافة ما نَظُنُّ معه أن الآخرين يعتبرونها مثلَ اعتبارنا لها. ولا يُكثِرُ من الكلام مُطلَقًا ذاك الذي يكون عنده من المعرفة ما يَكفي لإعطاء كلِّ شيءٍ قيمتَه الحقيقية؛ وذلك لأنه يَقْدِر أن يُقدِّرَ ما يُنتَبَه به إليه، وما يُمْكِن أن يُوجَد في كلامه من نَفْع. وعلى العموم تَرَى الذين يَعْرِفون قليلًا يتكلَّمون كثيرًا، وتَرى الذين يَعرِفون كثيرًا يتكلمون قليلًا. أجلْ، إن من الأمور البسيطة أن يَجِدَ الجاهلُ جميعَ ما يَعْرِف أمرًا مهمًّا، فيقوله لجميع النَّاس، غير أن الرجلَ المثقَّف لا يَعْرِض ما يَعْرف بسهولة؛ فلديه أمورٌ كثيرة يُحَدِّث عنها، ثُمَّ يرى أمورًا أكثرَ من تلك تُقال بعد ذلك، فيلتزم جانبَ الصمت.

ولا يَصْدِمُ إميلُ أوضاعَ الآخرين، وهو يلائمها طَوْعًا بما فيه الكفاية، لا ليَظْهَرَ عارفًا بالعادات، ولا ليَظْهَرَ مُهذَّبًا، بل خشيةَ أن يُمَاز، ولئلا يكون محلَّ نظر، ولا شيءَ يُريحه أكثرُ من عدم الانتباه إليه.

وهو، وإن كان يجهلُ أوضاعَ المجتمع جهلًا مُطلَقًا عند دخوله إليه، لا يكون وَجِلًا هَلوعًا لهذا السبب، وهو إذا كان يتوارى فليس هذا عن ارتباكٍ مطلقًا، بل لأنه يجب ألَّا يُرى

الإنسان حتى يَرى جيِّدًا؛ وذلك لأن ما يُفكِّرُ في أمره لا يُقلِقُه مُطلَقًا، ولأنه لا يعتريه أدنى فَزَعٍ من الهُزُوء. وهو، إذ يهدأ دائمًا ويكون معتدلًا، لا يُزعَج بالخَجَل. وهو، سواءٌ أنُظِرَ إليه أم لم يُنظَر، يَصنعُ ما يصنَع مع ما يمكنه من إتقان، وبما أن عليه أن يلاحِظ الآخرين دائمًا، فإنه يُدرِك أوضاعَهم بسهولةٍ تتعذَّرُ على عبيد رأي الآخرين؛ ولذا يُمْكِن أن يُقال إنه ينتحل عُرْفَ المجتمع عن عدم اكتراثٍ له.

ومع ذلك، فلا تخْدَعوا أنفسَكم حَوْلَ وَضْعه، ولا تُقابِلوا بين هذا الوضع ووضع مُتظرِّفيكم؛ فهو رصينٌ غيرُ مُختال، وهو طليقُ الأطوارِ غيرُ مُزدَرٍ، ولا يَخُصُّ طَوْرُ البَطَر غيرَ العبيد، وليس في الاستقلال شيءٌ من التصنُّع. ولم أرَ قطُّ إنسانًا ذا عُلوٍّ في النفس يُبديه في طَوْره، وأكثرُ ما يكون هذا التصنُّع خاصًّا بأصحاب النفوس الحقيرة المختالة التي لا تستطيع أن تَغُرَّ بغير ذلك. ومما قرأتُ في كتابٍ أنَّ أجنبيًّا دَخَلَ على مَرسِيلَ الشهيرِ في بَهوِه، فسأله هذا عن بلده، فأجابه الأجنبيُّ عن سؤاله بقوله: «إنني إنكليزي.» فقال له الراقصُ: «أنت إنكليزيٌّ! أنت من تلك الجزيرة التي يكون للمواطنين فيها نصيبٌ في الإدارة العامة، ويُعَدُّون جزءًا من السلطان ذي السيادة![٤١] كلَّا يا سيِّدي، إن هذا الجبينَ المُطرِقَ وهذا النظرَ الوَجِلَ وهذه المِشْيةَ الحائرةَ، أمورٌ لا تدلُّني على غيرِ عبدٍ مُلقَّبٍ بناخبٍ.»

ولا أعلمُ هل هذا الحكمُ يدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ بالصلة الحقيقية بين خُلُق الإنسان وظاهره، وأمَّا أنا فلم يكن لي شرفُ مُعلِّمٍ في الرقص، فتراني أرى العكس، فأقول: «إن هذا الإنكليزيَّ ليس نديمًا، ولم أسمعْ قطُّ أن الندماء ذوو جِباهٍ مُطرِقةٍ ومِشيةٍ حائرة، ومما لا ينبغي عند الراقص ألَّا يكون الرجلُ الخَجِلُ في مجلس العموم.» ولا مراءَ في أن مسيو مرسيلَ ذاك يَحْسَبُ مواطنيه ككثيرٍ من الرومان.

ومن يُحِبَّ يُرِدْ أن يُحَبَّ، وإميلُ يُحِبُّ النَّاس، فيُريدُ أن يقعَ عندهم موقعَ الرِّضا إذَن، وأكثرُ من هذا كوْنُه يُريد أن يَروقَ النساء، وما عليه من عُمُرٍ وخُلُقٍ وقصْدٍ يتضافر على تغذية هذه الرغبة فيه، وقد قلتُ أخلاقَه لِمَا لها من أثرٍ بالغٍ. وعُبَّاد النساء الحقيقيون هم

[٤١] كأنه لا يوجد مواطنون أعضاء للمدينة لم يكونوا هكذا جزءًا من السلطان ذي السيادة! ولكن الفرنسيين، الذين رَأوا من المناسب اغتصاب اسم المواطنين المكرم المعدود من حقوق المدن الغولية، أفسدوا مبدأه إفسادًا جرَّده من كلِّ معنًى، ومما حدث أن رجلًا كتب إليَّ تُرَّهاتٍ كثيرة ضد «إلويز الجديدة»، فزخرف إمضاءه بلقب «مواطن من بنبوف»، ظانًّا أنه يقوم نحوي بدعابة رائعة.

الذين عندهم خُلُق. أجلْ، ليس لديهم ما عند الآخرين من رَطانة ساخرةٍ في المغازلة، غير أنه يوجدُ عندهم من المبادرة ما هو أكثرُ صدقًا وأعظمُ عطفًا، لصدوره عن القلب، ويُمكِنُني أن أَمِيزَ بجانبِ فتاةٍ رجُلًا ذا أخلاقٍ وضَبْطِ نفسٍ بين مائة ألف فاجر، واحْكُمُوا فيما يُمْكِنُ أن يَكُونه إميلُ صاحبًا لِمزاجٍ تامِّ الجِدَّة مع كثيرٍ من الأسباب للمقاومة! وأظُنُّ أنه سيكون بجانبهن خَجِلًا مرتبِكًا أحيانًا، ولكن هذا الارتباك لا يورِثُهنَّ غيظًا، ولا يَجِدُ أقلُّهنَّ غُنَاجًا من ذلك غيرَ وسيلةٍ للتمتُّع بذلك مع زيادته غالبًا. ثُمَّ إن مبادرته تتَّخِذ من الأشكال ما يختلف مع الأحوال، فيكون أكثرَ تواضُعًا وأعظمَ احترامًا للنساء وأشدَّ نشاطًا ولينًا تجاه البنات الصالحات للزواج. ولا يغيبُ غرضُ تَحرِّياته عن نظره، ويكون أكبرُ نصيبٍ من انتباهه مُوجَّهًا دائمًا إلى التي تُذكِّرُه بذلك.

ولا أحدَ يكون أكثرَ انتباهًا إلى جميع الاعتبارات القائمة على نظام الطبيعة، وعلى حُسْن نظام المجتمع أيضًا، غير أن الأُولى تُفضَّلُ على الأخرى دائمًا، وهو سيكون أكثرَ احترامًا لمن هو أَسَنُّ منه مما لحاكمٍ من لِدَاته. وبما أنه يكون عادةً من أصغرِ مَنْ في المجتمعات التي يُوجَدُ فيها إذَن، فإنه يكون من أكثرهم تواضُعًا دائمًا، لا عن زَهْوِ الظهور هكذا، بل عن شعورٍ طبيعيٍّ قائمٍ على العقل. ولن يكون عنده مُطلَقًا ما لدى الشابِّ المختالِ من سلوكٍ ماجِن، من سلوكِ هذا الشابِّ الذي يَنْزِع إلى تسلية العُشَراء فيتكلَّم بصوتٍ أعلى من صوت الحكماء ويقْطَع كلامَ الشيوخ. وهو لن يسمح من ناحيته مُطلَقًا بمثلِ جوابِ السيد الشائبِ إلى لويسَ الخامسَ عشرَ الذي سأله عن أيِّ العصرَين يُفضِّل: عصرِه أو العصرِ الحاضر، والجواب هو: «لقد قضيتُ شبابي يا مولاي في احترام الشِّيب، فيجب أن أقضي مشيبي في احترام الأولاد.»

وبما أنه ذو نفْسٍ ليِّنةٍ حسَّاسة، ولكن مع عدمِ إقامةِ وزنٍ للرأي العام، وإن كان يَوَدُّ أن يَروق الآخرين، فإنه قليلُ المبالاة بأن يُعَدَّ من ذوي الاعتبار، ومن ثمَّ يَكون أكثرَ وِدًّا منه تأدُّبًا، ولا تبدو عليه ملامحُ الانتفاخ مُطلَقًا، ويتأثَّر بالملاطفة أكثرَ مما بألف ثناء، وهو لن يُهمِل أطوارَه ولا أوضاعَه لهذا السبب، حتى إنه سيُمكنُه أن يقومَ بشيءٍ من التحرِّي في أمرِ زُخْرُفه، لا ليظهر رَجُلَ ذوق، بل ليجعلَ وجْهَه مقبولًا، وهو لن يَلزَم الإطارَ المُذْهَبَ مطلقًا، وما كانت سِمَةُ الثَّرَاء لتلوِّثَ زَيْنَه أبدًا.

وتَرى أن جميع هذا لا يتطلَّب منِّي عَرْضًا للتعاليم؛ فهو ليس سوى نتيجةٍ لتربيته، ويُنسَجُ لنا سِرٌّ كبيرٌ عن عادة المجتمع، كأنَّ هذه العادةَ في دَور العُمُر الذي تُتَّخذُ فيه

لا تُتَّخَذُ بحكم الطبيعة، وكأنه لا يجب أن يُبحَث في القلب الصالح عن قوانينها الأُولى! ويقوم التهذيبُ الحقيقيُّ على إظهار لُطْفٍ للناس، وهو يُشْعِرُ بنفسه بلا تَعَبٍ عند وجوده، ويُضْطَرُّ مَن يخلو من اللطف إلى تَكَلُّفٍ في المظاهر.

«وأسوأ نتيجةٍ للتهذيب المصنوع هو تعليمُ فنٍّ ما يُقلِّدُه من فضائل، وإذا ما أوحت إلينا التَّربيةُ بالإنسانية والإحسان نكون ذوي تهذيب، أو إننا نعودُ غيرَ محتاجين إلى التهذيب.

وإذا لم يكن عندنا من التهذيب ما تَنِمُّ عليه الألطاف، فإنه يكون عندنا تهذيبٌ يَنِمُّ على الإنسان الصالح وعلى المواطن، فلا نحتاج إلى العوْذ بالرِّئاء.

ويكفي أن يكون الإنسانُ صالحًا ليروق، بدلًا من أن يكون متصنِّعًا، ويكفي أن يكون الإنسانُ متسامِحًا لُمداراة ضَعف الآخرين بدلًا من أن يكون منافِقًا.

ولن يكونَ مَن تُتَّخَذُ نحوهم مثلُ هذه الطُّرُق متكبِّرين ولا فاسدين، وإنما يكونون شاكرين، ويَظهرون أحسنَ حالًا.»

ويَلوحُ لي أن تربيةً ما إذا كانت تُسْفِرُ عن تهذيبٍ من هذا النوعِ الذي يتطلبه مسيو دُوكْلُو بدت هذه التَّربيةُ تلك التي وَضَعْتُ رَسْمَها حتى الآن.

ومع ذلك فإنني أوافق على أنَّ إميلَ لن يكونَ مطلقًا كبقية النَّاس بهذه المبادئ المختلفة جِدًّا، وأدعو الله أن يحفظَه من أن يكون هكذا، ولكنه لن يكونَ فيما يختلفُ به عن الآخرين مُكدِّرًا، ولا للهزوء مستحِقًّا، وسيكون الاختلافُ محسوسًا من غير أن يكون شاقًّا، وإن شئتَ فقُل إن إميلَ سيكونُ أجنبيًّا محبوبًا، وأوَّل ما يَحْدُث أن تُغفَر له غرابته بأن يُقال: «إنه سيتخرَّج»، ثُمَّ يحدُث فيما بعدُ ما تُتعَوَّد معه أوضاعُه، فيُصفَح عنه أيضًا حين يُرى أنه لم يُغيِّرها، فيُقال: «إنه تَكوَّنَ هكذا.»

أجلْ، إنه لن يُحتفَلَ به مثلَ رجلٍ محبوب، ولكنه سيُحَبُّ من غير أن يُعرَفَ السبب. أجلْ، إنه لن يَمدَحَ أحدٌ ذهنه، ولكنه سيُتَّخَذُ حَكَمًا بين رجال الذهن عن طَوْعٍ واختيار، وسيكون واضحَ الذهن محدودَه، وسيكون صادقَ الشعور سليمَ الحُكْم. وبما أنه لا يسعى وراء جديد الأفكار مطلقًا، فإنه لا يُمكِن أن يعتزَّ بذهنه، وقد أشعرتهُ بأن جميع الأفكار الشافية النافعة للناس حَقًّا هي أَوَّلُ ما عُرِف، وبأنه يتألَّف منها وحدَها روابطُ المجتمع الحقيقية في كلِّ زمن، وبأنه لا يبقى على ذوي الذهن الطامح سوى الامتياز بالأفكار المؤذية المشئومة على الجنس البشري، وما كان هذا الطراز في إثارة العجب ليؤثِّرَ فيه مُطلَقًا، وهو يَعْرِف أين يجد سعادة حياته، وبِمَ يمكن أن يساعدَ على سعادة الآخرين، ولا يمتدُّ نطاق معارفه إلى أبعدَ مما هو نافع، وتَكون طريقه ضيِّقةً جَيِّدَةَ الحدود. وهو إذ لم يحاول أن

يَخْرُج منها فإنه يَظَلُّ مختلِطًا بمن يتَّبِعونها، وهو لا يريد أن يَضِلَّ ولا أن يَلمَع، وإميلُ إنسانٌ مستقيمُ العقل، ولا يَوَدُّ أن يكون شيئًا آخرَ، ومن العبث أن يُرَاد إيذاؤه بهذا اللقب؛ فهو سيعتزُّ به دائمًا.

ومع أن رغبته في الرَّوَقان لا تدَعُه يكون على الإطلاق أكثرَ عدمَ اكتراثٍ لرأي الآخرين، فإنه لا يَعتَبِرُ من هذا الرأي غيرَ ما يتصل بشخصه مباشرة، وذلك من غير أن يُبالي بكلِّ تقديرٍ مُراديٍّ ليس له قانونٌ سوى المُوضة[٤٢*] أو المُبْتَسَرات. أجلْ، إنه سيكون لديه زَهْو العَزْم على إتقان كلِّ ما يصنع، حتى إرادةُ فِعْلِه بأحسنَ مما يَفْعَلُ الآخر، فيَوَدُّ أن يكونَ الأخفَّ في العَدْو، والأقوى في المصارعة، والأمهرَ في الشغل، والأبرعَ في الألعاب اليدوية، ولكنه قليلُ البحث عن الفوائدِ غيرِ الواضحة بنفسها والتي تحتاج إلى تقريرٍ بحُكْمِ الآخرين، ككونه أذكى من الآخر وأطلَقَ منه لسانًا وأكثرَ علمًا ... إلخ. وأقلُّ من ذلك أيضًا بحثُه عن الفوائد التي لا تتعلَّق بشخصه مطلقًا، كأن يُعَدُّ عاليَ النَّسَب وافرَ الثراء كبيرَ الاعتماد عظيمَ الاعتبار مموِّهًا بالبَهْرَج.

وبما أنه يُحِبُّ النَّاسَ لأنهم أمثالُه فإنه سيُحِبُّ أكثرَهم مشابهةً له على الخصوص، وذلك لما يَجِدُ بذلك من حُسنِ الخُلُق؛ فإن مما يَسُرُّه أن يَقَعَ موقعَ الرِّضا، وهو لن يقولَ في نفسه ضبطًا: أُسَرُّ لأنني أُستَحْسَن، بل أُسَرُّ لِمَا يكون من استحسانِ حُسْنِ ما صنعت، وأُسرُّ لأن الذين يُكرِمونني أهلٌ للإكرام، ومن الجميل أن يُنال تقديرُهم ما كان حُكْمُهم سليمًا.

وبما أنه يَدْرُس النَّاس بسلوكهم في المجتمع، وبما أنه درسَ النَّاس سابقًا بأهوائهم في التَّاريخ، فإنه سيُتاحُ له من الفرص في الغالب ما يتأمل معه فيما يُدارِي الفؤاد البشري أو يصدِمُه، وها هو ذا يتفلسفُ حول مبادئ الذوق، وهذا هو الدرس الذي يلائمه في هذا الدَّور.

وكلَّما أوْغَلْنا في البحثِ عن تعاريفِ الذوق ضلَلنا؛ فليس الذوقُ غيرَ قدرةٍ على الحُكم فيما يَرُوق، وما لا يَرُوق، أكبرَ عددٍ ممكن، واخرُجوا من هناك تَعودوا غيرَ عارفين ما الذوق، ولا يُستَخْرَج من ذاك وجودُ رِجالِ ذَوْقٍ أكثرَ من الآخرين؛ وذلك لأن الأكثرية، وإن كانت تَحكُم حُكمًا صحيحًا في كلِّ أمر، لا يوجد غيرُ قليلٍ من النَّاس مَن يَحكُمون مِثلَها في الجميع.

[٤٢] * La mode.

ومع أنَّ تسابُقَ أعمِّ الأذواق يُسفِرُ عن الذوق الصالح، فإن رجال الذوق قليلون، وذلك كقلة وجودِ أشخاصٍ جميلين، وإن كان اجتماعُ أكثرِ الملامح شيوعًا يُسْفِرُ عن الجمال.

ومما تجب ملاحظته أننا لا نُعالِجُ هنا ما نُحِبُّ لأنه نافعٌ لنا، ولا ما نَكْرَه لأنه يَضُرُّنا؛ فالذوق لا يتناول غيرَ أمورٍ خَليَّةٍ أو ذاتَ غَرَضٍ في اللهو على الأكثر، لا أمورًا تتعلَّق باحتياجاتنا، أي إن الذوق ليس ضروريًّا للحكم في هذه؛ فالتشهِّي يكفي، وهذا ما يجعل أحكامَ الذوقِ الصِّرْفة بالغةَ الصعوبة، مراديةً جِدًّا كما يَلوح؛ وذلك لأنك إذا عَدَوت الغريزة التي تُعَيِّن الذوقَ عُدْتَ لا ترى أسبابَ هذه الأحكام، وكذلك يجب أن يُفرَّق بين قوانينه في الأمور الأدبية وقوانينه في الأمور المادية؛ ففي هذه يَظْهَرُ أن إيضاحَ مبادئ الذوق مُتعذِّرٌ على الإطلاق، غيرَ أن من المهمِّ أن يُلاحَظَ وجودُ عنصرٍ أدبيٍّ في كلِّ ما ينطوي على تقليد،[٤٣] وهكذا يُفسَّرُ الجمالُ الذي يكون ماديًّا ظاهِرًا ولا يكون كذلك حقيقة، وإلى هذا أُضيفُ وجودَ قواعدَ محليةٍ للذوق تَجْعَلُه في ألفِ أمرٍ تابِعًا للأقاليم والطبائع والحكومة وأمور النظام، ووجودَ قواعدَ أُخرى تتعلَّقُ بالعُمُر والجنس والسجية، فبهذا المعنى لا ينبغي أن يُجادَلَ حولَ الأذواق.

والذوقُ أمرٌ طبيعيٌّ لدى جميع النَّاس، ولكنه ليس على مقياسٍ واحدٍ عند كلِّ واحدٍ منهم، وهو لا ينمو في الجميع على درجةٍ واحدة، وهو في الجميع عُرْضةٌ للفسادِ بعللٍ مختلفة، ويتوقَّف قياسُ ما يُمكِنُ أن يكونَ من الذوق على درجةِ الإحساس الذي يُتقبَّل، ويتوقَّفُ تعهُّدُه وشكلُه على المجتمعات التي تتمُّ الحياةُ فيها؛ وذلك أوَّلًا: لا بُدَّ من العيش في مجتمعاتٍ كثيرةٍ للقيامِ بكثيرٍ من المقارنات. ثانيًا: لا بُدَّ من وجودِ مجتمعاتِ لهوٍ وفراغٍ كثيرة؛ وذلك لأن القاعدةَ في مجتمعات الأعمال هي المصلحةُ لا اللذة. ثالثًا: لا بُدَّ من وجودِ مجتمعاتٍ لا يكون التفاوتُ فيها كبيرًا جِدًّا، ويكون استبدادُ الرأي العامِّ فيها معتدِلًا، وتسود الشهوة فيها أكثرَ من الزهو، وإلا خنقت المُوضةُ الذوق، وصار يُبْحَثُ عما يَمِيزُ لا عما يَرُوق.

وفي هذه الحال الأخيرة عاد لا يُعَدُّ من الصحيح كَونُ الذوقِ الحَسنِ ذوقَ أكبرِ عدد، ولِمَ هذا؟ ذلك لأن الغرَضَ يَتغيَّر، وهنالك يعودُ الجمهورُ غيرَ ذي رأيٍ خاصٍّ به، وهنالك يعود

[٤٣] أثبَتُّ هذا في «رسالة حول أصل اللغات» التي تجدها في مجموعة مؤلفاتي.

الجمهور غيرَ تابعٍ لغيرِ حُكْمِ مَن يرى أنهم أعظَمُ بصيرةً منه، فيستحسن ما يستحسنون، لا ما هو حَسَن، واجعلوا في كلِّ وقتٍ لكلِّ واحدٍ إحساسَه الخاص، فيصيرُ أكثرُ ما يروق في ذاته أكثرَ جَمْعًا للأصوات دائمًا.

والنَّاس في أشغالهم لا يصنَعون ما هو جميلٌ بغيرِ التقليد، وفي الطبيعةِ تكون جميعُ نماذجِ الذوقِ الصحيحة، وكلَّما ابتعدنا عن المُعلِّم بَدَت ألواحُنا مُشوَّهة، وهنالك نستنبطُ نماذجَنا من الأشياء التي نُحِب، فيعودُ جمالُ الخيالِ الذي هو عُرْضَةٌ للهوى والنفوذ، لا يكون غيرَ ما يرُوق الذين يقودوننا.

والمتفننون والكبراء والأغنياء هم الذين يقودوننا، وصالحُ هؤلاء أو زهوُهم هو الذي يقودهم، ويبغي هؤلاء عَرْضَ غِناهم ويَبغي الآخرون أن يستفيدوا منه، فيبحثون عن وسائلَ جديدةٍ للإنفاق، وبهذا يُقيمُ التَّرَفُ الأكبرُ سُلطانَه ويُحبِّبُ ما هو صعبٌ غالٍ، وهنالك يَبعُدُ الجمالُ المزعومُ من تقليد الطبيعة، وهو لا يكون على ما هو عليه إلا بمخالفتها؛ ومِنْ ثَمَّ تَرى كيف أن الترَف والذوق الفاسد أمران لا يُمكِنُ فصلُ أحدهما عن الآخر، ويكون الذوق فاسدًا حيث يكون مُسرِفًا.

وبِتعاشُر الجنسين على الخصوص يكتسب الذوقُ شكلَه، سواءٌ أكان هذا الذوق حسنًا أم سيِّئًا. والواقع أن تعهُّدَ الذوقِ نتيجةٌ ضروريةٌ لغرض هذا المجتمع، ولكنْ إذا فَتَّرتْ سهولةُ التمتُّع حُبَّ الرَّوَقان فَسَدَ الذوقُ لا محالة، وهذا كما يلوح لي من أكثر الأسباب المحسوسة في كَوْنِ الذوقِ الحَسَنِ ينشأ عن حُسْنِ الطِّباع.

واستشيروا ذَوْقَ النساء في الأمور المادية التي تنشأ عن حكم الحواس، واستشيروا ذوقَ الرجالِ في الأمور الأدبية التي تَتعلَّقُ بقوة الإدراك؛ فمتى صار النساءُ كما يَجِبُ أن يَكُنَّ عليه فَاخَرْنَ بما يقعُ تحت اختصاصهن، وكان حُكمهُن حسنًا دائمًا، ولكنهن عُدْنَ لا يَعْرِفْن شيئًا منذ انتحلن صفةَ الحَكَم في الآداب وأخذْن يحكمن في الكتب ويضعن منها بما أُوتينَ من قوة، ويكون المؤلِّفون الذين يستشيرون العالِمات حوْل مؤلَّفاتهم على ثقةٍ بسوء ما يُشارُ به عليهم، ويكون الظرفاء الذين يستشيرونهن حوْل زينتهم لابسين ثيابًا تُثيرُ السخرية دائمًا، وستُتاح لي عمَّا قليلٍ فرصةُ الحديث عن مواهبِ هذا الجنس الحقيقية، وعن وجْهِ تَعَهُّدها، وعن الأمور التي يجب أن يُنصَتَ فيها لأحكامهن.

وتلك هي الاعتبارات الأوَّلية التي أَضَعُها كمبادئَ حين بَرْهَنَتي مع إميلَ حولَ مسألةٍ ليست مما لا يُبالي به في الحال التي هو فيها، وفي الاستقصاء الذي يُشْغَل به، وتجاهَ مَنْ تكون مسألة لا يُبالَى بها؟ لا تكون معرفةُ ما يُمكِن أن يكون مقبولًا أو مكروهًا عند النَّاس

أمرًا ضروريًّا لدى مَن هو محتاج إليهم، بل لدى مَن يريد أن يكون نافعًا لهم أيضًا، حتى إن من المهمِّ أن يَروقهم حتى يَخْدُمهم، وليس من اللغو فنُّ الكتابة إذا ما استُعْمِلَ لحَمْلِ النَّاسِ على السماع للحقيقة.

وإذا ما وجب عليَّ أن أتعهدَ ذَوْقَ تلميذي، فأختارَ بين البلاد التي يُولَد فيها هذا التعهُّد بَعْد، والبلادِ التي فَسَد فيها، فإنني أتَّبِعُ نظامَ الرجوع إلى الوراء، وأبدأ بطوافهِ من هذه الأخيرة، وأنتهي بالأُولى، وأستند في هذا الاختيار إلى أنَّ الذوقَ يَفسُد برقَّةٍ متناهية، تَجعَل بعضَ الأمور من الحسَّاسية ما لا يُدركه الغِلاظُ من النَّاس، وتَسُوقُ هذه الرِّقَّةُ إلى روح الجَدَل؛ وذلك لأن الأمور كلَّما رُقِّقَت كَثُرَت، فتَجْعَل هذه الرقةُ قوةَ الحِسِّ أكثرَ لطافةً وأقلَّ تناسُقًا، وهنالك يتكوَّنُ من الأذواق ما هو بعدد الرءوس، ويتسع نطاقُ الجدلِ حولَ الأفضلية والفلسفة والمعارف، وهكذا يُعلَّمُ التفكير، ولا يُمكِن أن يقوم بالملاحظات الدقيقة غيرُ أناسٍ كثيري الاختلاط بالمجتمع لوقْفِ هذه الملاحظاتِ نظرَنا بعد غيرها، ولأن مَن كان تعوُّدُهم للمجتمعات الكثيرة العدد قليلًا يستنفدون انتباهَهم هنالك حوْل أعظم الرسوم. ومن المحتمل أنك لا تجدُ في الدنيا مكانًا متمدينًا يكون الذوق العام فيه أكثرَ فسادًا مما بباريس، ومع ذلك فإن الذوقَ الحسنَ يُتعهَّدُ في هذه العاصمة، ولا يظهَرُ في أوروبة غيرُ كتبٍ مُقدَّرَةٍ قليلةٍ لا يكون مؤلفوها قد تخرَّجوا في باريس. ومَن يَرَوا أن يكتفوا بمطالعة الكتب التي تُوضَعُ فيها يُخدَعوا؛ فبحديث المؤلفين يُتعَلَّمُ أكثرَ مما في كتبهم، وليس المؤلفون أنفسُهم أكثرَ مَن يُتعلَّمُ منهم. وروحُ المجتمعات هو الذي يُنمِي الرأسَ المفكِّر ويحمِلُ البصرَ إلى أبعد ما يُمكِنُ أن يَمْتَد، وإذا كان لديكم شيءٌ من تَوقُّدِ الذهنِ فاقضُوا سَنةً بباريس؛ حيث لا تلبثون أن تكونوا كلَّ ما يُمكِنكم أن تكونوا، أو لا تكونون شيئًا مُطلَقًا.

ويُمْكِنُ أن يُتعَلَّم التفكيرُ في الأماكنِ التي يَسودُها الذوقُ الفاسد، ولكن لا يَجوز أن يُفكَّر مِثْلَ تفكيرِ هؤلاء الذين لديهم هذا الذوقُ الفاسد. ومن الصعوبة ألَّا يحدُث هذا بعد البقاء معهم زمنًا طويلًا، ويجب أن تُكمَل آلةُ الحُكْم بجهودهم، وذلك باجتناب استعمالها مِثْلَهم. وأحترز من صَقْل حُكم إميلَ حتى درجةِ تشويهه، ومتى كان لديه من الحِسِّ الرقيق ما يُحِسُّ به مختلِفَ أذواقِ النَّاس، ويقارِنُ بينها، فإنني آتي به ليُوَطِّدَ ذوقَه حَوْل الأمور البسيطة.

وأُبْعِدُ في السيرِ فأحفظُ له ذوقًا سليمًا خالصًا، وأغتنم فرصةَ هَرْجِ الطيش فأنْفَحه بأحاديثَ نافعةٍ موَجِّهًا لها دائمًا حوْلَ أمورٍ تَروقه، جاعلًا لها مع الجهد مدارَ تسليةٍ له بمقدار ما هي ممتِعَة، وهذا دَور المطالعة والكتب المقبولة، وهذا دَور تعليمه تحليلَ الكَلِم

وجعلهِ شاعرًا بكلِّ ما في البلاغة والإلقاء من جمال. وليس من المهمِّ تعلُّم اللغات لذاتها، وليست مزاولتُها من الأهمية بالمقدار الذي يُظَن. بَيْدَ أن دراسة اللغات تؤدي إلى دراسةِ النحوِ العام، ويجبُ تعلُّم اللاتينية لحُسْن معرفة الفرنسية، ويجب تعلُّم هذه وتلك والمقابلةُ بينهما لإدراكِ قواعدِ فنِّ الكلام.

ويوجَدُ، فضلًا عن ذلك، بساطةٌ في الذوق تَذْهَبُ إلى القلب، ولا توجَدُ في غير كتب القدماء، وسيجِدُها إميل في البلاغة والشعر وكلِّ نوعٍ من الآداب زاخرةً بأمورٍ زاهدةً في الحُكْم كما في التَّارِيخ. وعلى العكس، يقول مؤلفونا قليلًا وينطِقون كثيرًا، وليس إعطاؤنا حُكْمَهم بلا انقطاعٍ مِثْلَ قانونٍ وسيلةَ تكوين حُكمنا، ويُشْعِرُ الفرقُ بين ذوقين بنفسه في جميع الآثار، حتى على القبور، وتَرى آثارَنا مستورةً بالمدائح، ولا يُقرأ على آثار القدماء سوى الأفعال.

«قِفْ أيها المسافر، فبَطَلٌ هو الذي تَدُوس.»

وإذا ما وجدتُ القَبْرِيَّةَ على أثرٍ قديمٍ ظننتُ أنها حديثةٌ أوَّلَ وهلة؛ وذلك لأنه لا شيءَ أكثرُ شيوعًا من الأبطال بيننا. غير أن الأبطالَ نادرون عند القدماء؛ فالقدماء كانوا يقولون ما صَنَعَ الرجلُ ليكون بطلًا بدلًا من أن يقولوا إنه كان بطلًا. وقابلوا بين قَبْرِيَّة هذا البطل وقَبْرِيَّة المُخنَّث سَرْدَانابَال القائلة:

«أَقَمْتُ طَرَسُوسَ وأنْكيَالة في يوم واحد، والآن أنا مَيِّت.»

فأيُّ القَبْرِيَّتَيْن أكثرُ قولًا على رأيكم؟ ليس أسلوبُنا الرُّخاميُّ مع بَهْرَجِه صالحًا لغير نَفْخ أقزام، وكان القدماء يُظْهِرون الرجالَ كما هم، فيُرى أنهم رجالٌ حقًّا، وقد بَجَّلَ إكْزِينُوفُونُ ذكرى بعض المجاهدين الذين قُتِلُوا غدرًا في أثناء ارتداد الآلاف العشرة، فقال: «إنهم قُتِلوا مُبرَّئين من العيب في الحرب والمودَّة.» وهذا كلُّ ما قال، لكن رَوْا في هذا الثناء الموجز البسيط مقدارَ ما كان في المؤلِّف من قلبٍ عامر، والوَيْلُ لمن لم يَجِدْ هذا فاتنًا!

ووُجِدَت الكلماتُ الآتية منقوشةً على رُخامٍ في التِّرْمُوبيل، وهي:

«اذْهَبْ أيها المار، وأخبِرْ إسبارطة بأننا قُتِلْنَا هنا طائعين لقوانينها المُقَدَّسة.»

ومن الواضح أن هذا ليس من تأليف أكاديمية الخطوط.

وأكون مُخطِئًا إذا كان تلميذي، الذي لا يُقيم غيرَ قليلِ وزنٍ للكلام، لا يُعيرُ انتباهَه الأوَّل من هذه الفروق فلا تؤثِّرُ في اختيار قراءاته، وهو سينساق مع فصاحة دِيمُوسْتِن الرُّجولية، فيقول: «هذا خطيب.» ولكنه إذا ما قرأ شِيشِرون قال: «هذا مُحامٍ.»

وعلى العموم سيتذوَّق إميلُ كُتُبَ القدماء أكثرَ من تذوُّقه كُتُبَنا، وبما أن القدماء هم الأوَّلون فإنهم أقربُ إلى الطبيعة، وإن عبقريتَهم أكثرُ بروزًا. ومهما يكن من قوْل لاموتَ ورئيسِ الدَّيرِ تِرَّاسونَ لا تَرَى تقدُّمًا حقيقيًّا في عقل النوع البشري؛ وذلك لأن ما يُكْسَبُ من ناحيةٍ يُخسَرُ من ناحيةٍ أخرى، ولأن جميع الأذهان تَنْطَلِق من ذات النقطة دائمًا، ولأن الوقت الذي يُستعمَل لمعرفة ما فَكَّرَ فيه الآخرون، إذ يضيعُ على تعلُّم التفكير الذاتي، فإنها تُنالُ معارفُ كثيرةٌ وقلةُ نشاطٍ في الذهن، وتُشَابِه أذهانُنا ذُرْعانَنا التي تُدَرَّبُ على صُنْع كلِّ شيءٍ بالآلات، والتي لا تصنَعُ كلَّ شيءٍ بنفسها. وكان فُونْتُنِل يقول إن هذا النزاع بين القدماء والمعاصرين يُرَدُّ إلى معرفتنا هل الأشجارُ في الماضي كانت أكبرَ منها في الوقت الحاضر، فلو كانت الزِّراعة قد تَغيَّرَت ما عُدَّ هذا السؤال من الوقاحة.

وإني، بعدَ أن سِرْتُ بإميلَ إلى منابعِ الآداب الصافية، أُطلِعُه أيضًا على مجاري الأحواض في المُصنِّفين المعاصرين، وذلك من جرائدَ وتَرْجَماتٍ ومعَاجم، فيُلقي نظرَةً على جميع هذا، ثُمَّ يَتْرُكه لكيلا يَعُودَ إليه مطلقًا، وأُسْمِعُه ثَرْثرَةَ الأكاديميات تسليةً له، وأدُلُّه على أن كلَّ واحدٍ ممن تتألَّف منهم أفضلُ بمفرده منه عُضْوًا في الهيئة، وهنالك يستنبِط بنفسه نتيجةَ فائدةِ جميع هذه المؤسَّسات الجميلة.

وآتي به إلى المسارح لدراسة الذوق، لا الأخلاق؛ وذلك لأن الذوقَ هنالك يتجلَّى لمن يَعْرِفون أن يتأمَّلوا، وأقول له: دَعْ تعاليمَ الأخلاق جانبًا، فلا ينبغي تعلُّمُها هنا، ولم يُصْنَع المسرَحُ للحقيقة، بل صُنِعَ لمداراة النَّاس وتسليتهم، ولا تَجِدُ مدرسةً يُتعلَّمُ فيها جيِّدًا فنُّ رَوَقان النَّاس واستهواء القلب البشري كما يُتعلَّم هنالك. وتؤدي دراسة التمثيل إلى دراسة الشعر، ولكلٍّ من الدراستَين عينُ الغَرَض تمامًا. وإذا كان لديه بصيصٌ من الذوْق في الشعر، فبأيِّ لذةٍ سيُكِبُّ على لغات الشعراء: اليونانية واللاتينية والإيطالية! وستكون له هذه الدراسات أُلْهُوَّاتٍ بلا قَسْر، ولا تكون أقلَّ نَفْعًا من هذا، وستكون لذيذةً له في سِنٍّ وأحوالٍ يُعْنَى الفؤادُ البشريُّ فيهما، مع كثيرِ فُتُون، بجميع أنواع الجمال التي أُبدِعت للتأثير فيه، وتَمثَّلوا إميلَ من ناحية، وتمثَّلوا طائشًا من المدرسةِ وهو يقرأ الإنئيدَ أو تِيبُولَ أو وليمةَ أفلاطون، فيا لَلفرْق! وما أكثرَ ما يُهَزُّ به فؤادُ إميلَ بما لا يُؤثِّرُ به في الآخر! ويا أيها الفتى العزيز! قِفْ، اقطَعْ قراءتَك، أراك هائجًا كثيرًا، أريدُ أن تروقَك لغةُ الغرام لا أن تُضِلَّك، وكُن إنسانًا حساسًا، ولكنْ كُن إنسانًا حكيمًا، فإذا لم تكن غيرَ واحدٍ من الاثنَين كُنْتَ عَدَمًا. ومع ذلك فإن من المهمِّ قليلًا أن يَتَوَفَّق أو لا يتوفَّقَ في اللغات الميتة وفي الآداب

والشعر، ولا ضَيْرَ عليه إذا كان لا يَعْرِف من ذلك شيئًا، فلا تقوم تربيتُه على مثلِ هذه اللطائف مطلَقًا.

ويَقُوم غَرَضي الرئيس، إذ أُعَلِّمُه أن يُحِسَّ الجمالَ ويُحبَّه، على تركيز عواطفه وأذواقه، وعلى عدمِ فسادِ شهواته الطبيعية، وعلى عدمِ بحثِه في ثرائه ذات يومٍ عن وسائلِ سعادتِه التي يجب أن يَجِدَها أكثرَ قُرْبًا إليه. وقد قلتُ في مكانٍ آخرَ إن الذوق لم يكن غيرَ فنِّ الخبيرِ في الأمور الصغيرة، وهذا صحيحٌ جِدًّا، ولكن بما أن لذَّة العيش تتوقَّف على نسيجٍ من الأمور الصغيرة، فإن مِثْلَ هذه الجهود لا تكون شيئًا صغيرًا، ونحن بها نتعلَّمُ القيامَ بما يكون في متناوَلنا من صالح، وذلك ضمن ما يُمكن أن يكون لها في نظرنا من حقيقةٍ كُلِّيَّة، وهنا لا أقصِدُ صالحاتِ الخُلُقِ التي تتعلَّق بحُسْن تَصَرُّف النفس، وإنما أقصِدُ فقط ما هو من الحِسِّيَّة والشهوة الحقيقية بمعزلٍ عن المُبْتَسَرات والرأي العام.

وليُؤذَنْ لي، لحُسنِ تفصيل رأيي، أن أدَعَ لوقتٍ قصيرٍ إميلَ الذي عادَ قلبُه النقيُّ السليمُ لا يصلُحُ قاعدةً لأحد، وأن أبحث في نفسي عن مثالٍ أكثرَ بُرُوزًا وأقربَ إلى طبائعِ القارئ.

ويُوجَد من المِهن ما يَلُوحُ تبديلُه للطبيعة وتغييرُه للرِّجال الذين يقومون بها، ويصيرُ الجبان شجاعًا بدخوله في كتيبة نَبَرَّة، وليس في الجيش وحدَه ما تُكتَسَب العصبية، وليس في الخيرِ وحدَه ما يُشْعَرُ بنتائجها دائمًا، وقد أبصرتُ مذعورًا مائة مرةٍ أنني لو كنتُ من الشقاءِ اليومَ ما أقومُ معه بمثل تلك الخدمة في بعض البلدان، لغَدَوْتُ في الغد، تقريبًا، حَتْمًا طاغيةً سارقًا لبيت المال، هادمًا للشعب ضارًّا بالأمير، عدوًّا محترفًا للإنسانية والإنصاف ولأنواع الفضيلة.

وكذلك لو كنتُ غنيًّا لفعلتُ كلَّ ما يجب لأَصِيرَه؛ ولذا فإنني أكون عاتيًا نَذْلًا، حَسَّاسًا سريعَ الانفعال في سبيل نفسي، فاقدَ الرحمةِ قاسيَ القلب تجاه جميع النَّاس، رقيبًا مزدريًا لبؤس الأراذل؛ وذلك لأنني لا أجِدُ اسمًا غيرَ هذا أُطلِقُه على المُعسِرين لإنساءِ كوني من طبقتهم فيما مضى، وأخيرًا سأجْعل من ثَرائي وسيلةً لملاذِّي التي سأُعْنَى بها حصرًا، سائرًا حتى ذلك على غِرارِ غيري.

ولكنني أعتقد اختلافي عنهم كلَّ الاختلاف في أمرٍ واحد، وذلك أنني سأكون حِسِّيًّا شهوانيًّا أكثرَ من أن أكون غِطْريسًا مغرورًا، وأنني سأكون منهمكًا في تَرَف العيش أكثرَ مما في تَرف الفخْر، حتى إنني سأستَحي بعضَ الحياء من عَرْضِ ثرائي كثيرًا، متمثِّلًا دائمًا

أنني أُبْصر الحسودَ إذ أَسْحَقه ببذْخي، يقول لجيرانه هَمْسًا: «هذا خبيثٌ يَخْشَى كثيرًا أَلَّا يُعرَف هكذا.»

وسأبحث بين هذا الإسرافِ في الأطايب التي تَغْمُرُ الأرض، عن أكثرِ ما يكون مقبولًا عندي وأفضلِ ما أستطيع تمَلُّكه؛ ولذا سيكون شراءُ الفراغ والحرية أَوَّلَ ما ينْفَعُني به ثرائي، وإليهما أُضيفُ الصحةَ إذا كان لها ثَمَن، ولكنْ بما أنها لا تُشْتَرَى بغيرِ الاعتدال، وبما أنه لا تُوجَدُ لذةٌ حقيقيةٌ في الحياة غيرُ الصحة، فإنني أكون معتدِلًا في الحِسِّيَّة.

وسأبْقَى بجانب الطبيعة دائمًا ما أمكن، وذلك مصانَعَةً للحواسّ التي نِلْتُها منها، واثقًا بأنها كلَّما وَضَعَتْ نصيبًا منها في مُتَعِي وَجَدْتُ نصيبًا من الحقيقة في هذه المُتَع، وسأتخذ الطبيعةَ نَموذَجًا دائمًا عند اختيار الأمور القائمة على التقليد، وسأُفَضِّلُ الطبيعةَ في شهواتي وسأستشير الطبيعةَ في أذواقي دائمًا، وسأُريد من الأطعمة دائمًا أحسنَ ما تُعِدُّ وأقلَّ ما يَمُرُّ من الأيدي وصولًا إلى موائدنا، وسأحولُ دون مخادعاتِ الغِش، وسأذهب لملاقاة اللذة، ولن يغتني رئيسُ الخَدَم من نَهَمي الطائش الغليظ، ولن يَبيعني مُطلَقًا سُمًّا بثِقَله ذَهَبًا على أنه سَمَك، ولن تكون مائدتي مستورةً مُطلَقًا بأجهزةٍ من الأقذار والجِيَف آتيةٍ من بعيد، وسأُنفِقُ مشَقَّتي قضاءً لحسيتي، ما دامتْ هذه المشقة، إذ ذاك، لذةً بنفسها تَزيدُ على ما يُنتَظَر، وإذا أردتُ أكلَ طعامٍ يُؤتَى به من أقصى الدنيا ذَهَبْتُ، مِثْلَ أَبِيسْيُوس، للبحث عنه هنالك مُفضِّلًا هذا على جَلْبِه من هنالك؛ وذلك لأنه يُعْوِز أفخرَ الأطعمةِ من التعليل دائمًا ما لا يُجْلَب معها، وما لا يستطيع أيُّ طاهٍ أن يمنَحَها إياه؛ فهواءُ الإقليم هو الذي أنتجها.

ولذات السبب لن أُقلِّدَ أولئك الذين لا يكونون في حالٍ حسنٍ إلا حيثُ لا يكونون مطلقًا، فيجعلون بعضَ الفصولِ مناقضًا لبعض دائمًا، ويجعلون الأقاليمَ مناقضةً للفصول، والذين يَبْحَثون عن الشتاء في الصيف وعن الصيف في الشتاء، فيذهبون إلى إيطالية طلبًا للبرد، وإلى الشمال طلبًا للحر، غير مُفكِّرين في أنهم حين يَرَوْن الفِرار من شِدَّة الفصول يَجِدون هذه الشدَّة في الأماكنِ التي لم يُتعَلَّم اتِّقاؤها فيها قَط، وسأبقى حيث أنا، أو إنني أسلُكُ السبيلَ العاكس، أي إنني أرغب في استخلاصي من الفصل كلَّ ما فيه من لذة، ومن الإقليم كلَّ ما فيه من خصائص، وسيكون لديَّ من تنوُّع الملاذِّ والعادات ما لا يتشابه مُطلَقًا، مع وجوده في الطبيعة دائمًا، فأذهبُ لقضاء الصيفِ في نابلْ، ولقضاء الشتاء في

بُطْرُسْبُرْغ، فأستنشقُ تارةً نسيمًا لطيفًا وأنا نِصْفُ مُضطَجعٍ في مغاراتِ تارَنْتَ الرطيبة، وأتمتع تارةً بنورِ قصرٍ من جَمَدٍ وأنا ضَيِّقُ النفَس تَعِبٌ من ألطاف المَرْقَص.

وأريدُ في أدوات مائدتي وزينةِ منزلي أن أُقلِّدَ تنوُّعَ الفصول بزخارفَ بالغةِ البساطة، فأستخلِصُ من كُلِّ فصلٍ جميعَ مُتَعِه غيرَ سابقٍ لمُتَع الفصل الذي يَتْبَعُه. وهكذا تُوجَدُ مشقةٌ، لا ذوقٌ، في إقلاق نظام الطبيعة، وفي انتزع منتجاتٍ غيرِ إرادية تُنعِمُ بها كَرْهًا ضِمن لعنتِها، فلا تستطيع هذه المنتجات تغذيةَ المَعِدةِ ولا مصانعةَ الحَلْق عن عدم وجود خاصيةٍ لها ولا طعم، ولا شيءَ أتفه من البواكير، وليس بغير نفقاتٍ كبيرةٍ ما يستطيع الغنيُّ الفلانيُّ بباريسَ مع أفرانِه ومِدْفآته، أن يُحضِرَ إلى مائدته في جميع السَّنة خُضَرًا سيئةً وفواكهَ رديئة. وإذا كنتُ حائزًا كَرَزًا أيامَ الجليد وشمَّامًا عَنْبريًّا في وَسَط الشتاء، فبأيةِ لذةٍ أذُوقُهما عندما يكون حلقِي غيرَ محتاجٍ إلى تطريةٍ ولا إلى ترطيب؟ وهل تَطيبُ لي الكستناءُ الثقيلة أيامَ الحرِّ الشديد؟ وهل أُفضِّلُها خارجةً من المَوْقِد على الكِشْمِش والتوت الفِرَنْجي والفواكه المُبَرَّدة تُقدَّم إليَّ فوق الأرض من غيرِ جُهدٍ كبير؟ ينطوي سَتْرُ الإنسان لمَوْقِده في شهر يناير بنباتات متصنَّعَة وأزهارٍ مُصْفَرَّةٍ خاليةٍ من الرائحة على عَطَلٍ من زينة الربيع أكثرَ مما تنطوي على تزيينٍ للشتاء؛ أيْ إنه ينطوي على حِرمانِ الإنسانِ لذةَ الذهاب إلى الغابِ للبحث عن البنفسجة الأُولى وتَرصُّد البُرعم الأوَّل، والهُتاف في نشوةٍ من البهجة بالكلمة: «أيها النَّاس، إنكم لم تُتْرَكوا، فلا تزال الطبيعةُ حَيَّة.»

وسيكون عندي قليلٌ من الأُجراء لأُخْدَمَ جيِّدًا، وهذا ما كان قد قيل، وهذا ما يصلُح قولُه أيضًا. وينال ابنُ الطبقةِ الوسطى من أجيرِهِ الوحيدِ خدمةً حقيقيةً أكثرَ مما ينالُ الدُّوكُ بعشرةٍ من السادةِ يحيطون به، ومما فكَّرْتُ فيه مائةَ مرةٍ أنني، حين وجودي حوْلَ المائدةِ والقَدَحُ بجانبي، أشربُ عندما أُريدُ بدلًا من وجودي حولَ مائدةٍ كبيرة، فيرتفع عشرون صوتًا لإحضار الشراب قبل أن أستطيعَ إطفاء عطشي؛ فكلُّ ما يُصنَع من أجلِ الآخرين يُصنَع سيئًا كما يُتَّخَذ. ولذا فلا أُرسِلُ أحدًا إلى الباعة، بل أذهَبُ بنفسي، وذلك خشيةَ أن يتفقَ خَدَمي مع الباعةِ قبل أن يتفقوا معي، وذلك لأطمئنَ أيضًا إلى الاختيار وأدفعَ أقلَّ ما يُمكن من الثَّمن. وأذهبُ للقيام برياضةٍ لذيذةٍ ولأشاهدَ بعضَ المشاهدة ما يَقَعُ خارجَ منزلي، وهذا يُسلِّي، وهذا يُهذِّب أحيانًا. وأخيرًا أذهب للنزهة، وهذا شيءٌ يُذكر دائمًا. ويبدأ السَّأمُ بالحياة الحضرية كثيرًا، ومتى كثُرت النزهة قلَّ المَلل. ويُعَدُّ البَوَّابُ والخَدَمُ من أسوأ التراجمة، فلا أريد مُطلَقًا أن يكون هؤلاء النَّاسُ بيني وبين بقية النَّاس دائمًا، كما أنني لا

أُريدُ أن أسيرَ دائمًا مع قرقعةِ عَرَبةٍ كما لو كنتُ أخافُ أن يُقترَبَ منِّي. وتكون خيلُ مَن ينتَفِعُ بساقيه مستعِدةً دائمًا، فإذا ما تَعِبَتْ أو مَرِضَتْ عَرَفَ هذا قبْلَ غيره، وهو لا يخشى أن يُضْطَرَّ إلى التزام منزلِه متعلِّلًا بهذه الذريعة إذا ما أراد حوذيُّه أن يتنزَّه، وما كان ألفُ عائقٍ في الطريق ليستنفد صبرَه، فلا يبقى في مكانه حينما يريد أن يُغِذَّ في السَّيْر. وأخيرًا، إذا كان لا يُوجَدُ مَن ينفعنا جيِّدًا كما ننفعُ أنفسنا، وَجَبَ علينا ألَّا نتلقَّى من الآخرين خِدَمًا غيرَ ما لا نستطيع إنجازَه بأنفسنا، ولو كُنَّا أقوى من الإسكندر وأغنى من قارون.

ولا أوَدُّ أن أكون صاحبَ قصرٍ للإقامة؛ وذلك لأنني لن أسكنَ غيرَ غرفةٍ واحدةٍ من هذا القصر، وكلُّ غرفةٍ مشتركةٍ ليست لأحدٍ. وتكون غرفةُ كلِّ واحدٍ من خَدَمي غريبةً عني كغرفة جاري. ومع أن الشرقيين كثيرو الشهوة، فإنهم بسيطو السَّكن والأثاث، وهم يَعُدُّون الحياةَ سَفَرًا ومنزلَهم فندُقًا. ومن القليل أن يتناولَ هذا السببُ أغنياءنا الذين يقصدون العيشَ مُخلَّدين، ولكن سيكون لديَّ سببٌ آخرُ يؤدي إلى عينِ النتيجة، فيلوحُ لي أن إقامتي بمكانٍ واحدٍ مع تلك الأُبَّهة يَعني إقصائي عن جميع الأماكن الأخرى، وحَبْسي في قصري هكذا، والعالَم قصرٌ جميلٌ بما فيه الكفاية. أَوَليس كلُّ شيءٍ للغنيِّ إذا ما أراد التمتُّع؟ وشعارُ الغنيِّ هو: «وطنُك حيث تكونُ بخيرٍ.» وآلهة البيت عنده هي الأمكنة التي يَقْدِرُ المالُ فيها على كل شيء، ويكون بلدُه كلَّ مكانٍ يُمكن انتقالُ خزينته إليه، شأنُ فليبَ الذي كان يَعُدُّ من أملاكه كلَّ حِصْنٍ يُمكن أن يدخله بغلٌ مُحمَّلٌ مالًا. ولِمَ ذهابُ الإنسان إذن ليَحْصُرَ نفسَه ضِمن جُدْرانٍ وأبوابٍ فلا يخرُج منها أبدًا؟ وإذا ما طردني وباءٌ أو حربٌ أو تمرُّدٌ من مكانٍ ذهبتُ إلى آخرَ ووجدتُ وصولَ فندقي إليه قبْلي. ولِمَ أُعْنَى بإقامة منزلٍ لنفسي وقد أُقيمت لي منازلُ في جميع العالم؟ ولِمَ أُعِدُّ لنفسي، وأنا الذي يستعجل الحياةَ كثيرًا، مُتَعًا من بعيد، مع أنه يُمكنني أن أجِدَها حيث أنا اليوم، وما كان الإنسان ليستطيع أن يجعلَ لنفسه مصيرًا مقبولًا إذا ما عارضَ نفسه بلا انقطاع، وهكذا كان أبِيذقليس يَلُوم الأَغْريجَنْتِيِّين على تكديسهم الملاذَّ كأنه لم يبقَ لهم غيرُ يومٍ يعيشون فيه وعلى البناء كأنهم لا يموتون أبدًا.

ثُمَّ ما فائدتي من منزلٍ بالغِ الاتساع ما قلَّ عندي مَن يَعمُرُه وما كان أقلَّ من ذلك ما يملؤه؟ سيكون أثاثي بسيطًا بساطةَ أذواقي، ولن يكون عندي رِواقٌ لعرضِ الصور ولا مكتبة، ولا سيَّما عند ولعي بالمطالعةِ ومعرفتي بالألواح، لِعلمي هنالك أن مجموعاتٍ كهذه لا تكون كاملةً مطلَقًا، ولأن نقصَ ما يُعوِزُها يورِثُ غمًّا أكثرَ من عدم حيازتها،

وبهذا يُسفِرُ اليُسرُ عن عُسْر. ولا تجدُ صانعَ مجموعاتٍ لم يشعُر بهذا، وإذا كنتَ خبيرًا، فلا ينبغي لك أن تَضَعَ مجموعةً مُطلَقًا، ولا ينبغي لك أن تُطلِعَ الآخرين على مكتبك إذا كنتَ تَعْرِف الانتفاعَ به لنفسك.

وليس القِمارُ أُلْهُوَّةَ الرجلِ الغنيِّ مُطلَقًا، والقِمارُ وسيلةُ البَطَّال، وتمنحني ملاذِّي من الأعمال ما لا تَترك لي معه وقتًا أُسيءُ شَغْله بذاك المقدار، وإذا كنتُ معتزِلًا فقيرًا لم ألعبْ قَطُّ ما لم يكن هذا لَعِبَ الشِّطْرَنج، وهذا يوفي على الغاية، وإذا كنتُ غنيًّا كان لَعِبي أقلَّ من ذلك أيضًا، وكان لَعِبي صغيرًا جِدًّا، وذلك لئلا أرى أحدًا مُستاءً مُطلَقًا، ولكيلا أكونَ ساخِطًا. وبما أن فائدةَ اللعب يُعْوِزُها الباعثُ في اليُسر فإنها لا تتحوَّل إلى غيظٍ مُطلَقًا في غيرِ نفسٍ سيئةِ الوضع. وما يستطيع الرجل الغنيُّ أن ينالَ من فوائدَ في اللَّعِب يكون محسوسًا لديه دائمًا أقلَّ مما في الخسارة. وبما أن من شأن شكل الألعاب المعتدِلة، التي يُتمتَّعُ بفائدتها مع الزَّمن، أن تُوجِب خُسْرًا أكثرَ من أن تُورِثَ كسْبًا على العموم، فإن من غير الممكن عند حُسن الانتباه أن يُولَع كثيرًا بأُلْهُوَّةٍ تقع جميعُ أخطارها عليه. ويمكن الذي يُغذِّي زهوَه بمفضَّلاتِ الطالع أن يبحث عنها في أكثرِ الأمورِ تأثيرًا، ولا تتبيَّن هذه المفضَّلات في أصغر الألعاب أقلَّ مما في أكبرها. ولا يتناول ذوقُ القِمار، الذي هو ثمرةُ البخلِ والمَلَل، غيرَ النفوسِ الفارغة والقلوبِ الخالية، ويَلوح لي أنني أكُون من الشعور والمعارف الكافية ما أستغني به عن مِثْلِ هذه التكملة. ومن النادر أن يُسَرَّ المفكِّرون بالقمار الذي يُعطِّل عادةَ التفكير، أو يحوِّلها إلى تدابيرَ جديبة، وكذلك فإن إحدى المنافع التي نشأت عن تذوُّق العلوم، وربما كانت المنفعةَ الوحيدة، هي أن تُضْعِفَ بعض الضَّعف ذلك الولعَ الدَّنِس. والنَّاسُ يُفضِّلون كشفَ فائدة اللَّعِب على تعاطيه، وسأكافحه بين اللاعبين، وسيكون سروري بأن أَسخَرَ منهم إذ أراهم يخسَرون أعظمَ مما بكَسْبِ أموالهم منهم.

وسأكونُ على نَمَطٍ واحدٍ في حياتي الخاصة وفي معاشرتي للناس، وسأريدُ أن يَضَعَ نصيبي يُسْرًا في كلِّ مكان، وألَّا يُشعِرَ بتفاوتٍ مُطلَقًا. ويُعَدُّ بريقُ الزينة الخادعُ ثقيلًا من ألف ناحية، وأوَدُّ للاحتفاظ بين النَّاس بكلِّ ما يمكن من الحرية، أن أكون من المظهرِ ما أبدو به في مكاني عند جميع الطبقات، فلا أُمازُ في أيةِ واحدةٍ منها، فأستطيعُ أن أختلطَ من غير تَصَنُّعٍ أو تغيُّرٍ في شخصي بالجمهور في الحانة أو بالطبقة العليا في البالِهْ روَيَّال؛ ومِنْ ثَمَّ أجعلُ في متناولي دائمًا ملاذَّ جميعِ الطبقات لِمَا أكون أكثرَ سيطرةً على سلوكي. ويُقال إنه يوجد من النساء مَن يُوصِدْن أبوابَهن دون أكمام القمصان المطرَّزة، فلا يستقبلن أحدًا

من غيرِ مُخَرَّمات؛ ولذا فإنني أذهب لقضاء يومي في مكانٍ آخَرَ، ولكن إذا كان هؤلاء النسوةُ من الفتيات الغواني أمكنني أن ألْبَسَ في بعض الأحيان من المُخرَّمات ما أقضي معه هنالك ليلةً على الأكثر.

وستقومُ العلاقةُ الوحيدةُ في مصاحباتي على تبادلِ العواطف وتوافقِ الأخلاق، وسألزَمُها مثلَ رجلٍ لا مثلَ غني، ولن أُطيقَ تسميم فتونها بالمنفعة مطلَقًا. وإذا كان يُسري قد ترك لي شيئًا من الإنسانية، فإنني أُوسِّع مدى خِدَمي وإحساني إلى بعيد، ولكنني أريد أن يَكُون حولي مُجتمَعٌ لا بلاط، وأصدقاءُ لا مُحْتَمون. ولن أكون حاميًا لضيوفي مطلقًا، بل قارِيًا، وسيترُك الاستقلالُ والمساواةُ لصِلاتي كلَّ سلامةِ نيَّةٍ وحُسْنِ التفات، وستكون المسرَّةُ والصداقةُ وحدَهما قانونًا حيث لا يكون للواجب ولا للمنفعة مكان.

ولا يُشْتَرَى الصديقُ ولا الخليلة. أجلْ، إن من السهل حيازةَ نساءٍ بالمال، بَيْدَ أن المالَ وسيلةُ عدمِ كَوْنِ الواحدِ عاشقًا لأيةِ واحدةٍ منهن. ومع أن بيعَ الغرامِ أمرٌ مُستبعَدٌ فإن المالَ يقتله لا محالة، ومَن يدفعُ مالًا لا يُحَبُّ لزمنٍ طويلٍ بسبب دَفْعه ولو كان أحرى النَّاس بالحُب، وذلك أنه لا يلبثُ أن يدفعَ من أجلِ آخَر، وإن شئتَ فقُل إنه سيُدفَع إلى هذا الآخرِ من ماله، فتكُون المرأةُ الطامعةُ الخائنةُ الخبيثةُ في هذه العلاقة المضاعَفَةِ التي نُسِجَت من المنفعة والدَّعارة والخاليةِ من الحُبِّ والشرف واللذة الحقيقية، تكون هذه المرأةُ التي تُعامَل من قِبَل النذلِ المدفوعِ إليه مالٌ كما تُعامِل الغبيَّ الدافعَ إليها مالًا بريئةَ الذِّمة نحو الاثنَين على هذا الوجه. ومن أحْلى الأمورِ أن يكونَ الإنسانُ نديَّ الكفِّ تجاه مَن يحبُّ إذا لم يُؤدِّ هذا إلى مساومة، ولا أعْرِفُ غيرَ وسيلةٍ واحدةٍ يَروي الرجلُ بها هذا المَيلَ مع خليلته من غيرِ أن يُسمَّم الحُب، وهي أن يُعطيها كلَّ شيء، ثُمَّ أن تقوم بأمورِ عيشه، وقد بقيَ أن يُعرَف أين تكونُ المرأة التي يخلُو اتخاذُ هذه الطريقة معها من هَوَس.

ومَن قال: «إن لاييسَ مُلْكي من غيرِ أن أكونَ مُلْكًا لها.» كان قولُه هذا خاليًا من المعنى؛ فليست الحيازةُ غيرُ المتبادَلة شيئًا مذكورًا، وذلك فضلًا عن كونها حيازةَ جنسٍ لا حيازةَ فردٍ. ولكن إذا كان أدبُ الحُبِّ غيرَ موجود، فلِمَ يُثارُ ضجيجٌ حول الباقي؟ لا شيءَ أسهلُ من أن يوجَد، ويكون البَغَّالُ أقربَ إلى السعادة من صاحب الملايين من هذه الناحية.

وَيْ! لو أمكَن التوسُّع في متناقضات الفسوق بما يكفي لُوجِدَ عند بلوغهِ غَرَضَه كثيرَ البُعدِ من حسابه! ولِمَ هذا الجشعُ الوحشيُّ في إفساد الطُّهْر، وفي جعلِ ضحيةٍ من الشابِّ الذي تَجِبُ وقايته، وفي هذه الخطوة الأُولى التي تَجُر، لا محالة، إلى هُوَّةٍ من البؤس لا يُخرَج

منها إلا بالموت؟ غِلظَةٌ وغرورٌ وغباوةٌ وغَواية، ولا شيءَ أكثرُ من هذا، حتى إن هذه اللذَّة ليست من الطبيعة، وإنما هي من الرأي الدَّارج، من هذا الرأي الذي هو أسفلُ ما يكون لقيامه على ازدراء النفس. ومَنْ يشعُرُ بأنه آخرُ النَّاس يخشَ مقارنته بغيره، ويرغبْ أن يكون الأوَّلَ ليكون أقلَّ مقتًا عند الآخرين. ورَوْا هل يكون أكثرُ النَّاس طمعًا في هذا المُشَهِّي الخيالي من الشبان اللُّطفاء الذين هم أهلٌ لأن يَقعُوا موقعَ الرِّضا، فيُعْذروا كثيرًا إذا ما بدَوا مستعصين؟ كلَّا، فلا يَخشى الذي يكونُ وسيمًا صاحبًا لَمزيَّةٍ وعواطف، اختبارَ خليلته إلا قليلًا؛ فهو يقول لها مطمئنًّا: «لست أبالي أن تعرفي الملاذَّ؛ ففؤادي يخبِرُني عنك بأنك لم تعرفيها قَط.»

ولكنْ إليك شيخًا أُسطوريًّا من شيوخ الغاب، نهَكَهُ الفجورُ وخلا من الفُتُون والملاطفة والاعتبار ومن أنواع الحياء، وصار عَيًّا غيرَ جديرٍ بأن يَروقَ أيةَ امرأةٍ تُعاشر أهلَ الحُب، فيَرَى هذا الشيخُ أن يُعوِّض من هذا بفتاةٍ طاهرة، فيجعل المبادرةَ تَسبِقُ التجرِبة، ويُحرِّكُ حواسَّها للمرة الأُولى، ويقومُ آخِرُ أملٍ له على نَيلِ الحُظْوة بالطُّرْفة. أجلْ، إن هذا ينطوي على الباعثِ الخفيِّ لذلك الهوى، ولكنه مخطئ؛ فمَا يأتي من رِجسٍ ليس أقلَّ صدورًا عن الطبيعة من الميول التي يُريدُ تهييجها، وهو مخطئٌ أيضًا في أمله؛ فالطبيعة عينُها تُعنَى بادِّعاء حقوقها، وذلك أن كلَّ فتاةٍ تبيع نفسها هي غيرُ بكرٍ من زمن، وذلك أنها إذ تكون قد وَهبَت نفسها عن خِيارٍ تكون قد أتت ما يَخْشَى من مقارنة؛ ولذا فإنه يشتري لذةً خيالية، يشتري لذةً ليست أقلَّ إثارةً للمقت.

وأمَّا أنا، فتُوجَدُ نقطةٌ لا أتغيَّرُ عندها مُطلَقًا مهما بلغتُ من الغِنى، وإذا لم يَبْقَ عندي خُلُقٌ ولا فضيلةٌ بَقيَ عندي شيءٌ من الذوق والشعور والرِّقة على الأقل، وهذا يقيني من زللِ إنفاقِ ثروتي على الأوهام واستنفادِ كِيسي وحياتي حَمْلًا لأولادٍ على الاستهزاء بي وعلى خيانتي. ولو كنتُ فتًى لبحث عن ملاذِّ الشباب. وإني، إذ أطلُبُها بكلِّ ما تنطوي عليه من شهوة، لا أبحث عنها كرجلٍ غني، ولو بقيت كما أنا عليه الآن لكان الأمرُ شيئًا آخرَ؛ أيْ لاقتصرتُ على ملاذِّ سنِّي بحكمة، فأتخذ الأذواقَ التي أستطيع أن أتمتَّع بها وأخْنُقُ التي عادت لا تُورِثُني غيرَ الغم، ولن أُعَرِّضَ لحيتي الرمادية لازدراء الفتيات مطلقًا، ولن أُطيقَ مطلقًا أن أرى ملاطفاتي المستكْرَهة التي تخلَع منهن القلب، وأن أُعِدَّ لهن على حسابي أدعى الأحاديثِ إلى الهُزْء، وأن أتمثلَهن وهن يصِفن ملاذَّ القردِ الأشْمط، كأنهن ينتقِمن لأنفسهن من اصطبارهنَّ عليه. وإذا ما حَوَّلَتْ عاداتي التي أُسيءَ كفاحُها سابقَ ميولي إلى

احتياجاتٍ، قضيتُ هذه الاحتياجات على ما يُحتمل، ولكن مع خجلٍ من نفسي. وأمِيزُ الهوى من الاحتياج، وأتوافق ما أمكنني، وأقتصر على ما اتفق لي، فأعودُ غيرَ مبالٍ بضَعفي، ولا أُريدُ أن يكون لي غيرُ شاهدٍ واحدٍ على ذلك خاصة. وللحياة البشرية ملاذٌّ أخرى إذا ما أعْوَزتها تلك، وإذا ما سَعينا عبثًا وراء ما يَفِرُّ منها، حُرِمنا ما بقيَ لنا منها، فلنُغَيِّر أذواقنا مع السِّنين، ولا نحاول تبديلَ سنٍّ بسنٍّ أكثرَ من محاولتنا وَضْعَ فصلٍ مَوْضِعَ الفصول الأخرى. وهكذا يجب أن نكونَ على ما نحن عليه في جميع الأوقات، وألَّا نكافحَ الطبيعة؛ فمثلُ هذه الجهود تُبلي الحياة، وتَحُول دون انتفاعنا بها.

ولا يسأمُ الجمهورُ مطلقًا؛ فحياته فاعلة، وأُلْهُوَّاتُه نادرة، وإن لم تكن منوَّعة، وما يقضي من أيامِ تعبٍ كثيرةٍ يذيقه بضعةَ أيامِ عيدٍ مع النعيم، وما يكون من تناوبٍ بين الأشغال الطويلة والعُطَل القصيرة يقوم مقامَ التعليل في ملاذِّ طبقته. ويُعَدُّ السَّأم من أعظم المصائب التي يُصاب بها الأغنياء، ويُضنيهم السَّأمُ في سواءِ كثيرٍ من الأُلْهُوَّات التي تُنظَّمُ بنفقاتٍ باهظة، ويُضنيهم السَّأمُ بين كثيرٍ من النَّاس الذين يتسابقون إلى الوقوع عندهم موقعَ الرِّضا، فيقتُلهم وهم يقضُون حياتَهم في الفِرار منه وفي الإصابة به. وهم يُرْهَقون بأثقاله التي لا تُطاق، ويُفتَرَسُ النساءُ اللائي عُدْنَ لا يَعْرِفن اكتراثًا ولا لهوًا، باسم الأبخرة السوداوية على الخصوص، ويتحوَّل السَّأمُ لدى النساء إلى مَرَضٍ هائلٍ ينزِع عقولَهن ثُمَّ حياتهن أحيانًا. وأمَّا أنا، فلا أعْرِف مصيرًا أفظعَ من مصير الحسناء بباريس، مصيرِ هذه الحسناءِ التي يُولَعُ بها فتًى لطيفٌ فيغدو هذا الفتى مِثلَ امرأةٍ في البِطالة، ويبتعد عن رجولته تمامًا فيحتمل عن زهوٍ بأن يكون ذا نصيبٍ حسنٍ أسوأ ما يَمُرُّ على مخلوقٍ من عُبوسِ أكلحِ الأيام.

وتشتمل اللِّياقاتُ والمُوضَات، وما يُشتقُّ من التَّرف وحُسن الوضع من عادات، على مجرى الحياة في أعبسِ ما يكون من اطِّراد، وتُعَدُّ اللذةُ التي يُرادُ عرضُها على أعيُنِ الآخرين ضائعةً لدى جميع النَّاس؛ فنحن لا نتمتَّع بها، ولا نجْعَل الآخرين يتمتَّعون بها.[٤٤] ويكون

[٤٤] انتحلت اثنتان من السيدات العصريات دستورًا لهما بألَّا تذهبا إلى الفِراش قبل الساعة الخامسة صباحًا للدَّلالة على أنهما التهتا كثيرًا، ويقضي خَدَمُهما أشد أوقات الشتاء في الشارع انتظارًا لهما ملاقين كلَّ شِدة لاتقاء الجمود. ومما حدث ذات ليلة، وإن شئتَ فقُل ذات صباح، أن وقع دخول المنزل الذي قضتا فيه لهوًا كبيرًا، فتركتا الساعات تمر من غير حساب، فوُجدتا وحدَهما نائمتَين على مقعدين ذوي مساند.

السُّخْرةُ،[٤٥]* الذي يخافُه الرأيُ العام في كلِّ أمر، بجانب الرأي العام دائمًا ليجورَ عليه ويجازيه. ولا يكون الإنسان سُخْرَةً بغير أشكالٍ مُعيَّنة. ومَن يَعْرِف تنويعَ أوضاعه وملاذِّه يَمْحُ اليومَ تأثيرَ الغد. أجلْ، إنه يُسترْذَل في نفوس النَّاس، ولكنه يتمتَّع؛ وذلك لأنه وَقْفٌ على كل ساعة وكل أمر، وذاك هو طَوري الثابت، وفي كل وضعٍ لا أبالي بأي وضعٍ آخرَ كان، وسأتخذ كلَّ يومٍ على حِدَةٍ مستقِلًّا عن الأمس والغد. وبما أنني أكون من الشعب ومع الشعب، فإنني أكون ريفيًّا في الحقول، فإذا ما تكلمتُ عن الزراعة لم يهزأ الفلاح بي، ولن أذهبَ لبناء مدينة لي في الأرياف ولوضعِ قصرٍ كالتِّويلُري أمام منزلي في الإقليم، وسيكونُ لي على مُنحدَرِ تلٍّ لطيفٍ ظليلٍ منزلٌ حقليٌّ صغيرٌ أبيضُ مع مصاريعَ خُضْرٍ. ومع أن الغِمَاء[٤٦]* يكونُ أحسنَ ما يُمكِن في كلِّ فصل، فإنني أُفَضِّلُ تفضيلًا بهيًّا أن يكون الغطاءُ من القِرْميد، لا من الأَرْدُواز الكئيب؛ وذلك لِمَا للقِرْميد الذي تُغَطَّى به منازلُ بلدي من منظرٍ أطهرَ وأبهرَ من الغِماء، ولِمَا يذكِّرُني القِرْميد بشيء من دَور شبابي السعيد. وستكون لي ساحةٌ كفِناءٍ للدَّواجن، وسيكون لي إصطبلٌ كمُراحٍ للبقر، نَيلًا للألبان التي أُحِبُّ كثيرًا، وسأكون صاحبًا لَمبْقلة، وصاحبًا لحديقةٍ مشابهةٍ للتي سأتكلم عنها فيما بعد، وستكون الفواكه تحت تصرُّف المتنزهين، فلا تُعَدُّ ولا تُقتَطَف من قِبَل بستانيَّ. وما يشوب كَرَمي من ضنٍّ لا يَعرِضُ على العيون مُطلَقًا صُفُوفَ أشجارِ الفواكهِ الرائعةَ المُسْنَدَةَ إلى الحيطان، والتي لا يكادُ يجرؤ أحدٌ على مسِّها. والواقع أن هذا التبذير الضئيل يكون غاليًا قليلًا، وذلك لاختياري مأوايَ في إقليمٍ بعيدٍ يُرى فيه قليلُ مالٍ وكثيرُ غِلالٍ ويسوده الوَفْرُ والفَقْر.

وهنالك أَجْمعُ حولي عُصبَةً مختارةً أكثرَ منها وافرة، أجمعُ عُصبةً مؤلَّفةً من أصدقاءَ محبين للتَّسرية عارفين بها، ومن نساءٍ يَستطِعن مغادرةَ مقاعدِهن ذاتِ المساند، وتعاطيَ الألعاب الريفية، وتناولَ الصِّنَّارةِ والدِّبْقِ ومِشْطِ جامعي القُشَاش وسَلَّةِ قاطفي العِنب أحيانًا بدلًا من المَكُّوك وورق اللَّعِب. وهنالك تُنسى مظاهرُ المدن كلُّها، فنصيرُ قرويين في القرية، ونجد أنفسنا مُوكَلين إلى طائفةٍ من مختلف الأُلْهُوَّات التي لا تَحْبُونا في كلِّ مساءٍ بغيرِ هَمِّ الاختيار للغد، ويجعَلُ لنا التمرينُ والحياةُ الفعَّالةُ مَعِدَةً جديدةً وأذواقًا جديدة،

---

[٤٥] * السُّخْرة: مَن يُسْخر به.

[٤٦] * الغِمَاء: ما فوق سقف البيت من التراب وغيره.

وتكون جميعُ وَجَبَاتِنا ولائمَ حيث يروقُ الوَفْر أكثرَ من اللطافة، ويكون الجَذَلُ والأشغال الريفية والألعاب المرحة طُهَاةَ العالَم الأوَّلين، وتكون الأطعمة الفاخرة مثيرةً للسخرية عند مَن يَكُدُّون منذ طلوع الشمس، ولا يكون لطعامنا نظامٌ أكثرَ من أن تكون له نفاسة، وستكون غرفةُ طعامنا في كلِّ مكان، فتكون في الحديقة أو في السفينة أو تحت شجرة، كما تكون أحيانًا في مكانٍ بعيدٍ بالقرب من ينبوعٍ وعلى الكلأ الأخضر الرطيب، وتحت باقات الحَوَر وشجر البُندق، ويَحْمِل مَوْكِبٌ طويلٌ من المدعوِّين المَرِحين أُهْبَةَ الوليمة مع الغِناء، ويُتَّخَذُ العُشْب مائدةً ومَقْعدًا، وتُستعمل أطرافُ الحوض مَقْصَفًا، ويتدلَّى نقلُنا من الشجر، وتُقَدَّم الأطعمة بلا نظامٍ وتُغْني شهوةُ الطعام عن المجاملات، ويُفضِّلُ كلُّ واحدٍ نفسه على غيره جَهرًا فيجدُ من الحَسَن أن يسيرَ كلُّ واحدٍ على غِراره، فيُفضِّل نفسه عليه بدوره. فعن هذه الأُلفة القلبية المعتدلة ينشأ بلا غلظةٍ ولا رئاءٍ ولا قَسْرٍ اختلافٌ ضاحكٌ أكثرُ فُتُونًا من المجاملة مائةَ مرةٍ وأصلحُ منها لتأليف ما بين القلوب. ولا تَرى هناك خادمًا مزعِجًا يرْقُبُ كلامَنا، وينتقد أوضاعنا مُخافِتًا، ويَعُدُّ لُقَمَنا بعينٍ تَنِمُّ على الشَّرَه، ويتلهَّى بحمْلِنا على انتظار الشراب، ويتذمَّر من طول الغداء. وسنكون خَدَمَ أنفسنا لنكون سادةَ أنفسنا، وسيُخدَم كلُّ واحدٍ من قِبَل الجميع، ويمضي الوقت من غير أن يُعَد، وتكون الوليمةُ راحة، وتدوم ما دام حَرُّ النهار، وإذا ما مرَّ قريبًا مِنَّا فلَّاحٌ ما عائدًا إلى العمل حاملًا آلاته على كَتِفه سَرَّيْتُ عن فؤاده بكلامٍ طيِّبٍ وبقَدَحٍ أو قدحَين من الخمر الفاخرة؛ أيْ بأشياءَ تجعله يصبِرُ على بؤسه مسرورًا. وستكون لي مَسَرَّةٌ أيضًا بأن أُحِسَّ اهتزازَ فؤادي وأن أقول في نفسي سِرًّا: «وأنا رجلٌ أيضًا.»

وإذا حدث أن أوجب احتفالٌ حقليٌّ اجتماعَ أهل الناحية، كنت مع عُصبتي في المُقدَّمة، وإذا ما احتُفِلَ بزواجاتٍ في جوارنا، يُباركها الربُّ أكثرَ مما يبارِك زواجات المدن، عُرِف أنني أحبُّ الفرحَ ودُعيتُ، فأحمِلُ إلى هؤلاء القوم الصالحين بعضَ الهدايا البسيطة مثلَهم، والتي تساعد على الفَرَح، فأجِدُ في مقابلها من المحاسن ما لا يُقدَّر بثَمنٍ. أجِدُ من المحاسن التي تَقِلُّ معرفةُ أمثالي لها؛ أيْ أجِدُ الصراحةَ والسرورَ الحقيقي، وأتناول عشائي في طَرَف مائدتهم الطويلة مسرورًا، وأشترك في ترديد إحدى الأغاني الريفية، وأرقُص في نِبْرِهم[٤٧ *] أطيبَ خاطرًا مما أصنعُ لو كنتُ في مَرقَصِ الأُبرَا.

---

٤٧ * النِّبر: بيت التاجر الذي تُنضد فيه الغلال والمتاع.

وسيُقال لي: «إن كلَّ شيءٍ يسير سيرًا حسنًا حتى الآن، ولكن ما أمر الصيد؟ وهل على الإنسان أن يتعاطاه في الأرياف؟» وأسمع، وقد كنت لا أريد غيرَ مزرعة، وقد كنت مخطئًا، وأفترضُ نفسي غنيًّا، ولا بُدَّ لي إذن من ملاذٍّ حصرًا، من ملاذٍّ مُدمِّرة، وهذا أمرٌ آخرُ تمامًا، ولا بُدَّ لي من أَرَضين ومن غاباتٍ ومن حَرَسٍ وإجاراتٍ ومن حقوقٍ إقطاعية، ومن لُبانٍ وماءٍ مُقدَّس.

حَسَنٌ جِدًّا، ولكن سيكون لهذه الأرض مجاورون حريصون على حقوقهم راغبون في اغتصاب حقوق الآخرين، وسيتشاجر خُفراؤنا، وربما السادة، وإليك منازعاتٍ ومخاصماتٍ وأحقادًا، وقضايا على الأقل، وليس هذا مستحبًّا كثيرًا، وليس مما يَسُرُّ المستأجرين منِّي أن يَرَوا أرانبي كادِحةً في بُرِّهم، وأن يَرَوا خنازيري جادَّةً في فُولهم. وبما أن كلَّ واحدٍ لا يجرؤ على قتلِ عدوِّه الذي يقضي على عمله، فإنه يريد طردَه من حقله؛ فهم بعد أن يَقْضُوا النهارَ في زراعة أَرَضِيهم لا بدَّ لهم من قضاء الليل في حراستها، وستكون عندهم كلابُ حراسةٍ وطُبولٌ وأبواقٌ وأجراس، وهم بهذا الضجيج يزعجونني في نومي، وأُفكِّرُ في بؤسِ هؤلاء الفقراء على الرغم منِّي، ولا أستطيع أن أمنعَ نفسي من لومها على ذلك، ولو شُرِّفتُ بأن أكون أميرًا ما أثَّرَ ذلك فيَّ مُطلَقًا. وأمَّا أنا الحديثُ النعمة، الحديثُ الغِنَى، فلا أزال أحمل قلبًا عاميًّا نوعًا ما.

وليس هذا كلَّ ما في الأمر؛ فكثرةُ الصيد تُغري الصائدين، وسيكون لديَّ عمَّا قريبٍ صائدون في أَرَضِي الآخرين بلا إذنٍ للعِقاب، وسأحتاجُ إلى سجونٍ وسجانين وقوَّاسين ومحكومٍ عليهم بالأشغال الشاقة، ويَلوح لي جميعُ هذا قاسيًا، وسيأتي نساءُ هؤلاء التعساء لِحصار بابي وإزعاجي بصُراخهن، فيجب أن يُطرَدْن أو أن يُهَنَّ، وسيأتي المساكينُ الذين لا يصطادون في أرض الآخرين بدون إذن، والذين تَرُود طريدتي حصادَهم، للشكوى من ناحيتهم، فيُجازَى بعضهم لقتلهم الطريدة، ويفتقر الآخرون لأنهم ترفَّقوا بها، ويا له مِن تناوبٍ كئيب! ولن أرى من كلِّ ناحيةٍ غيرَ أمورِ بؤس، ولن أسمعَ سوى الحسرات، ويظهر لي أن هذا يُكدِّر كثيرًا لذةَ ذبحِ جماعاتِ الحَجَل والأرانب تحت الأرجل، تقريبًا، بلا انزعاج.

وإذا أردتم أن تكون الملاذُّ خاليةً من الألمِ فلا تحتكروها، وكلَّما تركتموها شائعةً بين النَّاس ذُقتموها خالصةً دائمًا. ولا أصْنع مطلقًا إذنْ كلَّ ما قلت، ولكنني، من غير تغييرٍ للأذواق، أتَّبِعُ ما أفترضه منها أقلَّ نفقة، وسأُقيم منزلي في بلدٍ يكون الصيد فيه مُباحًا لجميع النَّاس، وحيث أستطيع أن أتلهَّى بلا عائق. أجلْ، ستكون الطرائدُ أكثرَ ندرة،

ولكنه سيكون هنالك أعظمُ حِذْقٍ في البحث عنها، وأكبرُ لذةٍ في نَيلها. وأذكر دقاتِ قلبِ والدي عند طيران أوَّلِ حَجَل، ومقدارَ ما ساوره من فَرَحٍ حين وَجَدَ الأرنبَ الذي طلبَه في نهاره كلِّه. نعم، إنني أصرِّح بأنه عاد وحدَه مساءً مع كلبه حاملًا بندقيتَه وقذائفه وجِرابه وصيده الصغير منهوكًا تَعَبًا ومُمزَّقًا بالعَوْسَج، وراضيًا عن يومه أكثرَ من جميعِ صيَّاديكم المعتادين الذين لا يفعلون، وهم راكبون خيلًا أصيلةً ومُتْبَعون بعشرين بندقيةً مُعَدَّة، غيرَ تناولِ البندقيةِ بعدَ البندقية مُطْلِقين القذائف، فيَقْتلون ما حولهم بلا فَنٍّ ولا فخر، وبلا ممارسةٍ تقريبًا؛ ولذا فلا تكون اللذةُ أقلَّ حدوثًا. ويزول المحذور عند عدمِ وجودِ أرضٍ تُحْرَس وعدمِ وجودِ صائدٍ في أرضِ غيرِه يُجازَى، وعدمِ وجودِ بائسٍ يُؤذَى، وهذا سببٌ قويٌّ في التفضيل، ومهما تفعلوا فإنكم لا تستطيعون أن تؤذوا إلى الأبدِ أُناسًا من غيرِ أن تُعَانوا اضطرابًا، وما يُصَبُّ من لعنات الشعب يجعَلُ الطريدةَ مُرَّةً عاجلًا أو آجلًا.

وقُلْ، فضلًا عما تَقدَّم، إن احتكارَ اللذات يَقتُل اللذات، وتقوم الأُلْهُوَّاتُ الحقيقية على مشاطرة الشعب إياها، ومَنْ يُرِدْ حيازةَ لذَّاتٍ لنفسه وحدَها يَعُدْ غيرَ حائزٍ لها، وإذا كانت الجُدُر التي أُقيمُ حَوْل حديقتي تجعلُ لي من هذه الحديقة حبْسًا كئيبًا، فإنني لا أكون قد صنعتُ غيرَ نَزْعِي من نفسي لذةَ النُّزْهةِ بنفقاتٍ كبيرة؛ ولذا تَراني مضطرًّا إلى البحث عنها في مكانٍ بعيد، ويُفسِدُ شيطانُ التملُّكِ كلَّ ما يَمَسُّه. ويريد الغنيُّ أن يكون سيدًا في كلِّ مكان، وهو لا يَجِد نفسَه على خيرٍ إلا حيث لا يكون سيدًا، وهو يُضْطرُّ إلى الفِرار من نفسه دائمًا؛ ولذا فإنني أصنعُ في غِناي ما أصنعُ في فقري، والآن إذ أكونُ أكثرَ غِنًى بمالِ الآخرين مما بمالي، فإنني أقبِضُ على كلِّ ما يلائمني في جِواري، ولا يُوجَد غازٍ أكثرَ منِّي عزْمًا، حتى إنني أغتصبُ من الأمراء أنفسهم، فأستولي على جميع الأرَضين المكشوفة التي تروقني بلا تفريق، وأُطلِقُ أسماءً عليها، وأجْعلُ من إحداها حديقتي وأجعَلُ من الأخرى شُرْفتي، وأكون صاحبًا لهذه وتلك، فأتنزَّه هناك بلا عِقاب، وأعود إلى هناك غالبًا حفظًا لتصرُّفي، وأنتفع بالأرض ما أردتُ بقوةِ السَّير فيها، ولن أُقْنِعَ نفسي بأن الصاحبَ الاسميَّ للأرض التي أنتحِلُها ينتفع بالمال الذي يناله منها أكثرَ من انتفاعي بها. وليس من المهمِّ أن أُغاظَ بخنادقَ وسياجات، فسآخُذُ حديقتي على كتفيَّ، وأضَعُها في مكانٍ آخرَ؛ فليست الأمكنةُ قليلةً في الجِوار، وسيمضي وقتٌ طويلٌ على سَلبي لجيراني قبل أن يُعْوِزني الملجأ.

وهذه محاولةٌ للذوقِ الصحيحِ في اختيار العُطَل المستحبَّة، وهذه هي روح المَرَح، وكلُّ ما عداها وهْمٌ وخيالٌ وزَهْوُ حماقة، ومَن يبتعدْ عن هذه القواعدِ يأكُلْ ذهبَه على دِمْنَة مهما كان غِناه، ولا يَعْرِف قيمةَ الحياة مطلَقًا.

ومما يُرَدُّ به عليَّ، لا ريبَ، كونُ هذه الأُلْهُوَّات في متناوَلِ جميعِ النَّاس، وأنه ليس من الضروريِّ أن يكون الإنسانُ غنيًّا ليتمتع بها، وهذا ما أردتُ الوصولَ إليه ضبطًا؛ فالإنسان يفوز باللذَّة إذا ما أرادَ حيازتها. وسَبْقُ الرأي وحدَه هو الذي يَجعَلُ كلَّ شيءٍ صعبًا، وهو الذي يَطرُد السعادة أمامنا. وكونُ الإنسان سعيدًا أسهلُ مائة مرةٍ من ظهوره هكذا، وذلك أنه لا حاجةَ لرجل الذوق واللذةِ حقًّا بالغِنى، فيكفيه أن يكون حُرًّا سيِّدًا لنفسه، ومَن يتمتَّع بالصحة ولا يُعْوِزْه الحاجِيُّ يُعَدُّ على شيءٍ من الغنى إذا ما نَزَع من قلبه زادَ سَبْقِ الرأي، وهذا هو كَفَافُ هُوراس الميمون. فيا أصحاب صناديق المال، ابحَثوا عن توظيفٍ آخرَ لثروتكم إذن؛ فالثراءُ لا يصلُح لشيءٍ في حقل اللذة. ولن يَعْرِف إميلُ جميعَ هذا أحسنَ مما أعْرِف، ولكن بما أنه ذو قلبٍ أكثرَ صفاءً وسلامةً فإنه يكون أحسنَ شعورًا بذاك، ولا تؤدي جميعُ ملاحظاته في العالم إلى غير توكيد ذلك.

وبينما نقضي وقتنا هكذا نبحثُ عن صُوفْيَةَ دائمًا، وذلك من غير أن نَجِدَها مُطلَقًا. ومن المهمِّ كوْنُها لم تُوجَد بسرعة، وقد طلبناها في مكانٍ كنتُ واثقًا بأنها لم تكن فيه.[٤٨]

وأخيرًا يُلِحُّ الوقت، وقد حَلَّ وقتُ البحثِ عنها بجِدٍّ، وذلك خشيةَ أن يتَّخِذَ إميلُ امرأةً أخرى بدلًا منها فلا يَعْرف خطأَه إلا بعد الأوان. فوداعًا إذن يا باريسُ، هذه المدينة المشهورة، هذه المدينة ذات الضوضاء والدخان والوحل؛ حيث عاد النساء لا يؤمِنَّ بالشرف وبالرجل الصالح. وداعًا يا باريس؛ فنحن نبحثُ عن الحُبِّ والسعادة والعفاف، ولن نكون بعيدين منكِ بما فيه الكفايةُ مُطلَقًا.

[٤٨] ومَن يجد المرأة الفاضلة؟ هي بعيدة، فإذا ما أتت من أقصى الدنيا كانت موضعَ تقدير.

الجزء الخامس

ها نحن أولاء قد وصلنا إلى الفصل الأخير من الفَتاء، ولكننا لم نَبلغ الخاتمةَ بعد.

وليس من الحَسَن أن يكون الرجلُ وحيدًا، وإميلُ رجل، وكُنَّا قد وعدناه برفيقة، فيجب إعطاؤه إياها، وهذه الرفيقة هي صوفية، وأين مأواها؟ وأين نجدها؟ يجب أن تُعرَف لتُوجَد، ولنعرفْ مَن هي أوَّلًا، ثُمَّ نَكون أحسنَ حكمًا في الأماكن التي تَسكُن. ولا يكون عملنا قد انتهى بالعثور عليها، وقد قال لوك: «بما أن فتانا الماجد أوشك أن يتزوج، فقد أنى وقتُ تركِه بجانب خليلته.» فبهذه الكلمات يتمُّ كتابه. وأمَّا أنا الذي لم يكن لي شرفُ تنشئةِ ماجد، فإنني أحترزُ من اتِّباع لوك في ذلك.

صُوفْيَة أو المرأة

يجب أن تكون صُوفْيةُ امرأةً كما أن إميلَ رجل، أي يجب أن تكون حائزةً جميعَ ما يلائم بِنيةَ نوعها وجنسها للقيام بدورها في النظام المادي والأدبي، ولنبدأ إذن بفحصِ ما بين جنسنا وجنسها من تشابهٍ واختلاف.

وإذا عَدَوْتَ كلَّ ما لا يتعلَّق بالجنس وجدْتَ المرأةَ رجلًا، فلها عينُ الأعضاء وعين الاحتياجات وعين الخصائص؛ فالآلة أُلِّفَت على ذات الطراز، وقِطَعُها هي هي، وعملُ إحداها هو عمل الأخرى، وتتشابه الهيئة، ومهما يكن الوجه الذي تَنْظُرُ به إليها فإنها لا تختلف فيما بينها إلا بمقدار.

وترى للمرأة والرجل في كلِّ ما يتعلَّق بالجنس علاقاتٍ في كلِّ مكانٍ واختلافاتٍ في كلِّ مكان، وتنشأ صعوبةُ المقابَلةِ بينهما عن تعييننا في بِنْيَةِ كلٍّ منهما ما هو خاصٌّ بالجنس وما هو غير خاصٍّ به. ويَدُلُّ علمُ التشريح المقارَن، حتى المشاهدةُ وحدَها تَدُل، على وجودِ

فروقٍ عامةٍ بينهما تظهرُ غيرَ خاصةٍ بالجنس مطلَقًا، وهي خاصةٌ به مع ذلك، ولكنْ بصِلاتٍ لا تدخل ضمن نطاق انتباهنا. ونحن لا نعرف المدى الذي يمكن أن تمتدَّ إليه هذه الصلات، والأمرُ الوحيد الذي نعلمه علمَ اليقين هو أن كلَّ ما هو مشتركٌ بينهما هو من النوع، وأن كلَّ ما هو مختلف بينهما هو من الجنس. ونرى بعد النظر إلى وجهةِ النظر المزدوجة هذه أنه يوجد بينهما من المطابقات والاختلافات ما يكون من عجائب الطبيعة معه أن تستطيع صُنع موجودَيْن بالِغَي التشابه بتكوينهما مختلفين بهذا المقدار.

ولا بُدَّ من تأثير هذه العلاقات والاختلافات في الأخلاق، وهذه النتيجة واضحةٌ موافقةٌ للتجرِبة، وهي تدلُّ على بُطْلِ المجادلات حَوْلَ تفضيل أحد الجنسين أو المساواة بينهما، وذلك كما لو كان كلٌّ من الجنسين يسيرُ نحو غايات الطبيعة وَفْقَ مصيره الخاص، فلا يكون أكثرَ كمالًا في هذا إلا إذا كان أكثرَ مشابهةً للآخر! وهما يتساويان فيما هو مشتركٌ بينهما، وهما لا يُقارَن بينهما فيما يختلفان فيه، ولا ينبغي للمرأة الكاملة والرجل الكامل أن يتشابها روحًا أكثرَ من أن يتشابها وجهًا، ولا يَقبَل الكمالُ زيادةً ولا نقصانًا في ذلك.

وكلٌّ من الجنسين يساعِد، باقترانهما، على الغرض المشترك متساويًا، ولكن ليس على طرازٍ واحد. وينشأ عن هذا التنوُّعِ أَوَّلُ اختلافٍ يُمْكِن تعيينه في العلائقِ الأدبية بين الجنسين، فيجب أن يكون أحدُهما فاعلًا قويًّا وأن يكون الآخرُ منفعلًا ضعيفًا، ويجب أن يُريدَ أحدُهما ويَقدِرَ بحكم الضرورة، ويكفي أن يُقاوِمَ الآخرُ قليلًا.

ويُسْفِرُ تقريرُ هذا المبدأ عن كونِ المرأةِ خُلِقت لِتَروقَ الرجل، وإذا ما وجب أن يَرُوقَها الرجلُ بدوره فذاك عن ضرورةٍ أقلَّ مباشرة؛ فمَزِيَّةُ الرجل في قدرته، وهو يروقُ لأنه قويٌّ فقط. أجلْ، ليس هنا قانون الحُب، وأوافق على هذا، وإنما هذا قانونُ الطبيعة السابقُ للحُبِّ نفسه.

وإذا كانت المرأة قد خُلِقَت لتقع موقِعَ الرِّضا وتخضَع، فإنه يجب عليها أن تصير مقبولةً عند الرجل بدلًا من إغضابه؛ فقوة المرأة في فتونها، وبهذا الفُتُون يجب أن تحمله على أن يجد قوَّته وأن يستعملها، وأضمنُ فنٍّ في إنعاش هذه القوة هو جعلها ضرورية بالمقاومة، وهنالك تقترن الأنانيةُ بالرغبة ويفوز أحدُهما بالنصر الذي يُنيلُه الآخر إياه؛ ومِنْ ثَمَّ يُولَدُ الهجومُ والدفاع وجُرْأة أحد الجنسين وحشمة الآخر، ثُمَّ الحياءُ والخجلُ اللذان تُسلِّح الطبيعةُ بهما الضعيفَ لإخضاعِ القويِّ.

ومَن يستطيعُ أن يتصوَّر أن الطبيعة فَرضت ذات السُّلَف لهذا الجنس وذاك الجنس، وأن الأوَّل الذي يَشْعر بالرغبة يجب أن يكون أَوَّلَ مَن يُبديها أيضًا؟ ويا للفساد الغريب في

الحكم! وبما أن للمشروع نتائجَ بالغةَ الاختلاف لدى الجنسين، فهل من الطبيعي أن يكون عندهما عينُ الجُرأة في الإقدام عليه؟ وكيف لا يُرى بمثلِ ذلك التفاوت العظيم في الحِصَّة المشتركة، كونُ الاحتياطي إذا كان لا يَفرِضُ على أحدهما ما تَفرِض الطبيعة على الآخر من الاعتدال، فإنه لا يلبث أن ينشأ عن هذا في الحال فساد الاثنَين، فيَهْلِك النوعُ البشري بالوسائل التي قامت لحفظه؟ وإذا وُجِد، مع السهولة التي يُثيرُ النساء بها حواسَّ الرجال ويوقظن في قلوبهم بقايا مِزاجٍ خامدٍ تقريبًا، إقليمٌ تَعِسٌ في الأرض، تُدْخِل الفلسفة إليه تلك العادة، ولا سيَّما في البلاد الحارة؛ حيث يُولَد إناثٌ أكثر من الذكور ويَجُرْنَ عليهم، فإنهم يذهبون ضحايا لهنَّ في آخرِ الأمر، ويَرون أنفسهم مقودين إلى الموت من غير أن يقدروا على رَدِّه مطلقًا.

وإذا لم يُوجَد عند إناث الحيوان عينُ الحياء، فما ينشأ عن ذلك؟ وهل يكون عندها كما عند النساء من الرغائب التي لا حدَّ لها، فيكون هذا الحياءُ زاجرًا لها؟ لا تأتيها الرغبةُ إلا مع الحاجة، فإذا ما قُضيَت هذه الحاجة انتهت الرغبة، وعادت لا تَرُدُّ الذكَرَ عن تكلُّف،[1] بل عن جِد، بل تَصْنع عكسَ ما كانت تصنع بنتُ أغسطس، فتعود لا تتقبَّل مسافرين بعد أن يكون للمركب شِحْنَتُه، وتكون أوقاتُ ألطافها قصيرة، فلا تلبث أن تنقضي؛ فالغريزة تَسوقها والغريزة تقِفُها، وأين تكون تكملةُ هذه الغريزة السلبية في النساء إذا ما نزعتم الحياءَ منهن؟ يعني انتظارُ عدمِ اكتراثهنَّ للرجال بَعدُ انتظارَ عدمِ صلاحهنَّ لشيءٍ بعد.

وقد أراد الكائن الأعلى أن يُكرِّم النوعَ البشريَّ بإنعامه على الإنسان بميولٍ لا حدَّ لها، كما أنه أنعم عليه في الوقت نفسه بقانونٍ ناظمٍ لها، حتى يكون طليقًا مُسيطِرًا على نفسه؛ فهو إذ يُسْلِمُه إلى أهواءٍ متطرِّفة يضيف العقلَ إلى هذه الأهواء حتى يهيمن عليها، وهو إذ يُسْلِمُ المرأةَ إلى رغائبَ لا حَدَّ لها يضيف الحياءَ إلى هذه الرغائبِ حتى يَرْدَعها. وهو، زيادةً على ذلك، يُضيف أيضًا مكافأةً حاضرةً إلى حُسْن استعمال القابليات، أي يضيف الذوقَ الذي يُنال من صالحِ الأمورِ عند اتخاذها قاعدةً للأعمال، وهذا يساوي غريزةَ الحيوانات كما يَلوح لي.

وسواءٌ أقاسمت الأنثى الرجلَ شهواتِه أم لا، وسواءٌ أرغِبتْ في قضائها أم لم ترغبْ، تدفعه وتدافع عن نفسها دائمًا، ولكن ليس بذات القوة دائمًا، ولا بذات الفوز نتيجة.

[1] كنتُ قد لاحظت أن ممانعات التصنُّع والدَّلَال أمرٌ شائع بين جميع الإناث تقريبًا، حتى بين الحيوان، حتى حين كونهن أكثر استعدادًا لتسليم أنفسهن، ويدلُّ إنكار هذا على عدم ملاحظة أسلوبهن.

ويجب لفوز المهاجم أن يأذنَ المهاجَمُ فيه، أو أن يشير به، وما أكثر الوسائل اللَّبِقة التي يُتذرَّع بها لحمْلِ الصائلِ على استعمال قُوَّته! وما كان أكثرُ جميع الأفعال حريةً وحلاوةً ليقبَلَ عُنفًا حقيقيًّا مطلقًا؛ فالطبيعة والعقل يأبيان ذلك، وذلك من حيث إن الطبيعة زوَّدت الأضعفَ بما يحتاج إليه من القوة للمقاومة إذا ما أرادها، ومن حيث إن العقل يقضي بكون العنف الحقيقي أفظعَ جميعِ الأفعال، فضلًا عن أنه مخالِفٌ لمقصِده، وذلك لكون الرجل يَشْهر هكذا حربًا على رفيقته ويُجيز لها الدفاع عن نفسها وحريَّتها حتى على حساب حياة المعتدِي، ولكونِ المرأةِ وحدَها حَكَمًا في الحال التي تكون عليها، فلا يكون للولد أبٌ مطلقًا إذا ما استطاع كلُّ رجلٍ اغتصابَ حقوقه، وبكونه تابعًا للأضعف حقيقة. وليس هذا عن انتحالٍ لعادة الغزل التافهة، ولا عن كرم الحامي الزاهي، ولكن عن قانون الطبيعة الثابت الذي يمنح المرأة سهولةً في تحريك الشهوات أكثرَ من منحها الرجلَ سهولةَ قضائها، فتجعلُ هذا، مع ما عنده من ذلك، تابعًا لرغبتها، وتُكرهه بدوره على طلب رضاها نيلًا لموافقتها على تركِه يكونُ الأقوى. وهنالك يكون أحلى ما عند الرجل في فوزه شكُّه في كون الضعفِ هو الذي يُذْعِنُ للقوة أو في كَوْن الإرادة هي التي تَخْضع. ويقوم مَكرُ المرأةِ العاديُّ على ترْك هذا الشكِّ ماثلًا بينه وبينها، ويلائم ذِهنُ النساء في هذا بُنْيَتَهن ملاءمةً تامَّة، فيُقِمن مجدَهن على ضَعْفِهن بعيداتٍ من الخَجَل منه، وذلك أن عضلاتِهن المَرِنة تكون بلا مقاومة، وذلك أنهن يُبدين عجزَهن عن رفْع أخفِّ الأثقال فيستحيِنَ من أن يكنَّ قويات. ولِمَ هذا؟ لا يكون هذا من أجل ظهورهن ناعمات، بل عن احترازٍ أكثرَ مهارة، وذلك أنهن يُزوِّدْنَ أنفسهن بالمعاذير من بعيدٍ وبحقِّ كونهن ضعيفاتٍ عند الضرورة.

وما اكتسبناه بمعايبنا من تجارِبَ غيَّرَ قديمَ الأفكارِ بيننا كثيرًا حول هذه النقطة، وعاد لا يُحدَّث مطلقًا عن الاغتصابات منذ قَلَّت ضرورتُها، ومُذ عاد الرجالُ لا يؤمنون بها مطلقًا،[٢] وذلك بدلًا من شُيوعِها البالغِ في العالمين اليوناني واليهودي القديمَيْن، ومن كونِ هذه الآراء نفسِها ضِمن بساطة الطبيعة، فاستطاعت تجرِبةُ الفُجور وحدَها أن تستأصلها. وإذا كان يُذكَر في أيامنا قليلٌ من أعمال الغَصْب لم ينشأ هذا، لا ريب، عن كونِ الرجالِ

[٢] من الممكن أن يوجد تفاوتٌ عظيم في السِّن والقوة ما يقع معه غصب حقيقي، ولكن بما أنني أعالج هنا حالَ الجنسين النسبي وَفْقَ نظام الطبيعة، فإنني أنظر إليهما من حيث العلاقة المشتركة التي يتألَّف منها ذلك الحال.

أكثرَ اعتدالًا، بل نشأ عن كونهم أقلَّ سرعةَ تصديق، وعن كونِ مثلِ ذلك العويل، الذي أقنع الشعوب البسيطة فيما مضى، لا يثير غيرَ ضَحِك المستهزئين في أيامنا، فصار التزامُ جانب الصمت أكثرَ فائدة. ويوجد في سِفْر تثنية الاشتراع حُكمٌ قائلٌ بمعاقبة الفتاة المغصوبة مع غاويها إذا ما اقتُرِفت الخطيئةُ في المدينة، فإذا اجتُرِح الذَّنْب في البرِّية أو في الأماكن البعيدة عُوقِبَ الرجل وحدَه، وذلك لقول الشريعة: «إن الفتاة تكون قد صَرَخت في البرِّية فلم تجد مَن يسمعها»؛ فهذا التفسيرُ الكثيرُ التساهلِ كان يُعلِّم الفتيات ألَّا يَدَعْن أنفسهن يُباغَتْنَ في الأماكنِ المطروقة.

وتأثيرُ هذه الاختلافات في الآراء حولَ الطباعِ أمرٌ محسوس، ويُعَدُّ الغزلُ الحديثُ نتيجةً لها، وإذْ كان الرجال يجدون اتِّباع ملاذِّهم لإرادة الجنس اللطيف بأكثَرَ مما لم يتصوروا، فقد قهروا هذه الإرادةَ بملاطفاتٍ عَوَّضهم هذا الجنسُ منها خيرَ تعويض.

ورَوْا كيف أن البدنيَّ يسوقنا إلى الأدبي سوقًا غيرَ محسوس، وكيف أنه ينشأ عن اقتران الجنسين الغليظ أحلى قوانين الحُبِّ بالتدريج، ولا يقوم سلطان النساء على إرادة الرجال مطلقًا، بل لأن الطبيعة أرادته هكذا، وكان هذا السلطانُ للنساء قبْل ظهورهن حائزاتٍ له، وهِرْكُولُ نفسه هو الذي اعتقدَ اغتصابَه لبنات تِسْبِيوس الخمسين، فاضطُرَّ إلى الغَزْل بالقُرْب من أُنْفال. ولم يكُن شَمْشون الجبارُ بالغَ القوةِ أمامَ دَلِيلة؛ فهذا السلطانُ خاصٌّ بالنساء، ولا يمكن نزعُه منهن حتى عندما يُسِئنَ استعمالَه، ولو أمكَن فَقْدُهنَّ له لكان هذا الفقدانُ قد وقع منذ زمنٍ طويل.

ولا يوجَد أيُّ تماثُلٍ بين الرجل والمرأة من حيث الجنس، وليس الذكرُ ذكرًا إلا في بعض الأحوال، والمرأة امرأةٌ مدى حياتها، أو مدى فتائها على الأقل، وكلُّ شيءٍ يُذكِّرها بجنْسها بلا انقطاع، ولا بُدَّ لها من بنيةٍ تلائم وظائفها حتى تُحْسِن القيامَ بهذه الوظائف، ولا بُدَّ لها من المداراة في أثناء حَمْلها، ولا بُدَّ لها من السكون في نِفاسها، ولا بُدَّ لها من حياةٍ منزليةٍ ناعمةٍ لإرضاع أولادها، ولا بُدَّ لها لتربية أولادها من الصبر والرفق وما لا يُخمِدُه شيءٌ من الغَيْرة والعطف. وهي تَصْلح أن تكون أداةَ وَصْلٍ بينهم وبين أبيهم، وهي وحدَها تُحبِّبُهم إليه، وهي وحدَها تُوحي إليه من الثقة ما يَدْعُوهم معه أولادَه. ويا لاحتياجه إلى اللُّطف والعناية حتى يَشُدَّ جميعَ الأُسرَة برابطةِ الاتحاد! وأخيرًا لا ينبغي أن يُعَدَّ جميعُ هذا من الفضائل، بَلْ من الميول التي لولاها لانطفأ النوعُ البشريُّ من فوره.

وما يُلْزَمُ به الجنسان من واجباتٍ ليس واحدًا، ولا يُمْكن أن يكون واحدًا، بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ منهما، وإذا ما ألِمَت المرأةُ من التفاوت غيرِ العادل الذي يجعَلُه الرجلُ في ذلك

كانت مخطئة؛ فليس هذا التفاوتُ نظامًا بشريًّا مطلقًا، أو إن هذا التفاوتَ ليس على الأقلِّ من عملِ المُبْتَسر مطلقًا، بل من عمل العقل، وذلك أن الطبيعة جعلت من الجنس الذي حمَّلَتْه الأولادَ وديعةً مسئولًا لدى الجنس الآخر. ولا مِراءَ في أنه لا يجوز لشخصٍ أن ينقُضَ عهدَه، فيُعَدُّ كلُّ زوجٍ خائنٍ يَحْرِم امرأتَه ثَمَنَ واجباتِ جنسِها الصارمةِ ظالمًا غليظًا. ولكن المرأة الخائنة تصنع ما هو أعظم؛ فهي تَحُلُّ الأسرةَ وتقطَعُ جميعَ الروابط الطبيعية، وهي حين تُعْطي الرجلَ أولادًا ليسوا له تكون قد خانته وخانتهم، وذلك بإضافتها الغدرَ إلى عدمِ الوفاء. ومن العسيرِ عليَّ أن أرى أيَّ اختلالٍ وذنْبٍ لا يَلزَمُ ذلك، فإذا وُجِدَ في العالَم حالٌ هائلٌ كان هذا حالَ أبٍ تعِسٍ لا يثق بامرأته، فلا يجرؤ على السيرِ مع أحلى مشاعر فؤاده، حالَ أبٍ يشُكُّ حين يُقبِّلُ ولدَه في تقبيله ولدَ غيره، في تقبيلِ رَهْنِ شَيْنِه الذي هو سالبُ تُراثِ أولاده الحقيقيين. وما تكون الأسرة حينئذٍ إذا لم تكن جمعيةً من الأعداءِ الخَفِيِّين الذين تُسلِّحُ امرأةٌ مذنبةٌ بعضَهم ضِدَّ بعضٍ مع حَمْلِهم على الظهورِ بمظهرِ المتحابِّين؟

وليس من المهمِّ إذن أن تكون المرأةُ وفيَّةً فقط، بل يجب أن يُقضى بأنها هكذا من قِبَل زوجِها وأقربائِها وجميعِ النَّاس. ومن المهم أن تكون مُحتشمةً منتبهةً متبصِّرة، وأن تُقدِّم إلى أعين الآخرين كما تُقدِّم إلى ضميرها الخاص شهادةً على فضيلتها. وأخيرًا، إذا كان من المهمِّ أن يُحِبَّ الأبُ أولاده، فإن من المهم أن يُقدِّر أمَّهم. وهذه هي الأسبابُ التي تَضَع الظاهرَ في عِداد واجبات النساء، ولا تجعلُ الشرفَ والصيتَ أقلَّ لزومًا من العَفاف، ومن هذه المبادئ يُشتَق، مع الفَرْق الخُلُقيِّ بين الجنسين، عاملُ واجبٍ ولياقةٍ يَفرِضُ على النساء خاصَّةً أدقَّ انتباهٍ في سلوكهنَّ وأوضاعهنَّ ورزانتهن. ويُعَدُّ الادِّعاءُ الغامضُ بأن الجنسين متساويان وبأن واجباتهما واحدةٌ تَيْهًا في الكلام الفارغ، ولا ينطوي هذا الكلامُ على شيءٍ ما دام لا يُجيبُ عن ذلك.

أليسَ من وجوهِ البرهنةِ المتينةِ أن تُقَدَّم استثناءاتٌ جوابًا عن سُنَنٍ عامةٍ ثابتةِ الأساس؟ تقولون لا يَضَع النساءُ أولادًا دائمًا! كلَّا، وإنما يقوم عملُهنَّ الخاصُّ على وضعِ ذلك. ماذا! تَعْلمون وجودَ نحوِ مائةِ مدينةٍ كبيرةٍ في العالم يقضي النساءُ فيها حياةَ تحلُّل، فلا يَضَعن غيرَ أولادٍ قليلين، فتزْعمون أن حالَ النساء يقضي بوضعِ أولادٍ قليلين! وما تُصبِحُ مُدنُكم إذا كانت الأريافُ البعيدةُ التي يقضي النساءُ فيها حياةً أكثرَ بساطةً وعفافًا لا تُعوِّض من عُقمِ السيدات؟ وما أكثرَ الأقاليم التي تُعَدُّ فيها هذه المرأةُ أو تلك قليلةَ النَّسل إذا لم تَضَعْ

غيرَ أربعةِ أولادٍ أو خمسةِ أولاد![3] وأخيرًا، ما أهميةُ وضْع هذه المرأة أو تلك قليلَ أولاد؟ وهل حالُ المرأة أقلُّ من كونها أُمًّا؟ أَوَليسَ على الطبيعة والطبائع أن تُعالِجا هذه الحالَ بسننٍ عامة؟

وإذا ما وُجِدَ بين أدوارِ الحَبَل ما يُفترَض من الفواصل الطويلة، فهل تُغيِّرُ المرأةُ طرازَ الحياة هكذا بغتةً ومناوبةً بلا مجازفةٍ ولا خَطَر؟ وهل تكون اليومَ مُرضِعًا وغدًا محارِبة؟ وهل تُغيِّر مِزاجَها وأذواقَها كما تُغيِّر الحِرباء ألوانَها؟ وهل تنتقل فجأةً من ظلِّ منزلها وواجباتها البيتية إلى تقلُّباتِ الهواء وأعمالِ الحرب ومتاعبها وأخطارها؟ وهل تكون هَلوعًا[4] تارةً وباسلةً تارةً أخرى؟ وهل تكونُ لطيفةً أحيانًا وعُصْلُبيةً أحيانًا أخرى؟ وإذا كان يَشُقُّ على مَن يُنَشَّئون في باريسَ احتمال حياة الجندية، فهل يحتملها النساءُ اللائي لم يواجِهن الشمسَ ولا يَكَدْن يَسِرْن بعد خمسين عامَ تَرَف؟ وهل يَتَّخذْن هذه المهنةَ في عُمُرٍ يتركها الرجالُ فيه؟

وأُوافق على وجودِ بلادٍ تلدُ النساءُ فيها بلا عناءٍ تقريبًا، ويُرضِعن أولادهن فيها بلا جهدٍ تقريبًا، ولكنَّ الرجالَ في هذه البلاد نفسِها يمشون نصفَ عُراةٍ في كلِّ وقت، ويصرعون الضواري، ويَحْمِلون قاربًا كأنه جِراب، ويقومون بضروب الصيد على مسافةِ سبعمائة فرسخٍ أو ثمانمائة فرسخ، وينامون في العَراء، ويحتمِلون ما لا يُمكِن تصديقُه من المتاعب، ويقضون عِدَّةَ أيامٍ من غير أن يأكلوا. وإذا ما صار النساءُ عُصْلُبياتٍ صارَ الرِّجالُ أكثرَ منهم بأسًا، وإذا ما أصبح الرجالُ مُتْرَفين أصبح النساءُ أعظمَ منهم تَرَفًا، وإذا ما تغيَّر الفريقان على السواء بقيَ الفرْق كما هو.

وأفلاطونُ في جمهوريته يمنحُ النساء ما يمنح الرجالَ من تمريناتٍ رياضية، وأعتقد هذا جيِّدًا، وبما أنه نَزَع الأُسَرَ الخاصةَ من حكومته، وبما أنه عاد لا يَعْرِف ما يصنعُ بالنساء، فقد رأى أنه مضطرٌّ إلى جعْلهن رجالًا. وقد نظَّمَ هذا الداهيةُ الأغرُّ كلَّ شيء، وأبصرَ كلَّ شيء، وقد استعدَّ لاعتراضٍ لم يفكِّر أحدٌ في توجيهه إليه على ما يحتمل، ولكنه

[3] ولولا ذلك لبادَ النَّوع بحُكْم الضرورة، ويقضي بقاءُ النَّوع بأن يُعَوَّض من كل شيء، فتضع كلُّ امرأة أربعة أولاد تقريبًا؛ وذلك لأن نحوَ نصف الأولاد يموتون قبل أن يمكن وضْع آخرين، فلا بدَّ من بقاء اثنين من الأولاد لتمثيل الأب والأم، فانظروا هل تزودكم المدنُ بأولئك الأهلين.

[4] ثُمَّ إن وَجَلَ النساءِ غريزةٌ طبيعية تجاه ما يلاقين من خطرٍ مضاعَف في أثناء حَبَلهن.

أساء حلَّ الاعتراض الذي يُوجَّه إليه. ولا أتكلم مُطلَقًا عن شركةِ الزوجات المزعومة التي يُثبِتُ ما وُجِّه إليها من تأنيبٍ مُكرَّرٍ أن الذين أتَوْه لم يقرءوا كتابَه قَط، وإنما أتكلم عن ذلك العبثِ المدنيِّ الذي يَخْلِط في كل مكان بين الجنسين في ذات الخِدَم والأعمال، والذي لا يمكن أن يُعْوِزَه توليدُ ما لا يُطاق من سوء الاستعمال، وإنما أتكلم عن هدمِ أحلى مشاعرِ الطبيعةِ التي يُضَحَّى بها في سبيلِ شعورٍ مصنوعٍ لا يُمكن أن يدومَ بدونها، وذلك كما لو كان من غيرِ الواجبِ وجودُ سبيلٍ طبيعيٍّ لتكوينِ روابطِ عهدٍ! وذلك كما لو كان حُبُّ الإنسان لأقربائه شيئًا آخَر غير المبدأ الواجب نحو الدولة! وذلك كما لو كان القلبُ لا يرتبط في الوطن الأكبر بالوطن الأصغر؛ أي الأسرة! وذلك كما لو كان الابنُ الصالحُ والزوجُ الصالحُ والأبُ الصالحُ لا يُكوِّنون المواطنَ الصالح!

وإذا ثَبَتَ مرَّةً أنه ليس للرجل والمرأة عينُ الأخلاق والمِزاج، وأنه لا ينبغي أن يكون لهما عينُ الأخلاق والمِزاج، تَبِع ذلك كونُه لا يجوز أن تكون لهما عينُ التَّربية. وإذا ما اتَّبَعا مناحي الطبيعة وجبَ أن يَسيرا متعاونَين، ولكن ليس من الواجب عليهما أن يقوما بذات الأمور. أجل، إن غايةَ الأعمالِ مشتركة، ولكنَّ الأعمالَ مختلفة؛ ومِنْ ثَمَّ تختلف الميولُ التي توجِّهُها، وإني بعد أن سعيتُ في تكوين الرجل الطبيعيِّ وجبَ أن نرى أيضًا كيف يَجِبُ أن تُكوَّن المرأةُ التي تناسب هذا الرجل.

وإذا أردتم أن تكونوا حَسَني التوجيه دائمًا، فاتَّبِعُوا مَنَاحيَ الطبيعةِ دائمًا. ويجب احترامُ كلِّ ما يَمِيزُ الجنسَ على أنه من صُنْع الطبيعة، وأنتم تقولون، بلا انقطاع، إنه يوجد للنساء من هذه النقائص أو تلك ما ليس عندنا، فزهوُكم يخدَعُكم؛ فما تجدون من هذه النقائصِ يُعَدُّ مزايا لهن، وكلُّ شيءٍ يَسيرُ سيرًا أقلَّ صلاحًا إذا عَطِلْنَ من تلك النقائص، وحُولُوا دونَ انحطاط تلك النقائص، ولكن احترزوا من القضاء عليها.

ولا يكفُّ النساء من ناحيتهن عن الصُّراخ قائلات: إننا نُنَشِّئُهنَّ ليكُنَّ مغروراتٍ غنِجَات، وإننا نُلهِيهنَّ دائمًا بصِبيانياتٍ حتى يَسهُلَ علينا أن نبقى سادةً لهن، وهن يَلُمْننا على نقائصَ نَلُومُهنَّ عليها. فيا لَلْحماقة! فمتى صار الرجالُ يتدخلون في تربيةِ البنات؟ وما الذي يمنعُ الأمهاتِ من تنشئتهن كما يَروقُهن؟ ليست لهن كلياتٌ مطلقًا، فيا لَلْبلاء العظيم! ويْ! لو سَمَحَ الرَّبُّ بألَّا يكون للصبيان شيءٌ من ذلك لنشئوا على ما هو أصلحُ وأقربُ إلى الصواب. وهل تُكرَه بناتُكم على قضاء أوقاتهن في توافهِ الأمور؟ وهل يُحمَلن مُكرَهاتٍ على قضاء نصف حياتهن في أمورِ زينتهن سَيرًا على غِراركم؟ ومَن يمنعكم من تعليمهن أو من حمْلهن على التعلُّم كما تشاءون؟ وهل يقع الذَّنب علينا إذا ما طِبْنَ لنا عن

حُسْنٍ فيهن، وإذا ما أغوينا بغُناجهن، وإذا كان الفنُّ الذي يتعلَّمنه منكم يجتذبنا ويفتِنُنا، وإذا كُنَّا نُحِبُّ أن نراهنَّ رائعاتِ الهندام، وإذا كُنَّا نَدَعُهن يشحذْن على مَهْلٍ ما يُخْضِعْننا له من السلاح؟ وَيْ! اذهبوا إلى تنشئتهن كالرجال، والرجالُ يوافقون على ذلك طيِّبي الخاطر، وهنَّ كلَّما أردن مشابهةَ الرجال قَلَّت سيطرتُهن عليهم، وهنالك يصير الرجالُ سادةً حقًّا.

أجلْ، إن جميعَ خصائص الجنسين المشتركة ليست مقسومةً بينهما على السواء، ولكنها إذا ما نُظِرَ إليها في مجموعها وُجِد أن كلَّ واحدٍ من الجنسين يعتاضُ من الآخر. والمرأة أكثرُ قيمةً كامرأةٍ وأقلُّ قيمةً كرجل، وهي تُفضَّلُ حيث تُروِّج حقوقها، وهي تبقى دوننا حيث تريد اغتصابَ حقوقِنا، ولا يمكن ردُّ هذه الحقيقة العامة بغير استثناءات؛ أي بغيرِ أُسلوبٍ في البرهنة ثابتٍ يأتي به ذوو الأُنسِ من أنصار الجنس اللطيف.

ولِذا فإن من الواضح أنَّ تَعَهُّدَ صفاتِ الرَّجلِ في المرأةِ وإهمالَ ما هو خاصٌّ بهن ينطوي على الإضرارِ بهن، ويبلُغ ذواتُ المكر من رؤيةِ ذلك جيِّدًا ما لا يُخدَعن معه بذلك، وهنَّ حين يُجاهِدْنَ في اغتصابِ منافعنا لا يترُكْنَ منافعهن، ولكن بما أنهن لا يستطِعن تدبيرَ أمرِ هذه وتلك جيِّدًا لتباينهما؛ فإنه ينشأ عن ذلك بقاؤهن دونَ مستواهن من غير ارتقاءٍ إلى مستوانا، وخُسرانُهن نصفَ قيمتهن، واتَّبِعي نصيحتي، أيتها الأمُّ العاقلة، فلا تجعَلي من ابنتك رجلًا صالحًا لما ينطوي عليه هذا من تكذيبٍ للطبيعة، واصنعي منها امرأةً صالحة، وثقي بأن هذا أفضلُ لنا ولها.

وهل يُستدَلُّ من ذلك وجوبُ تنشئتها جاهلةً لكلِّ شيء، مقصورةً على الواجبات المنزلية وحدَها؟ وهل يصنعُ الرجلُ خادمتَه من رفيقته؟ وهل يَحْرِمُ نفسه نحوَها من أعظمِ فُتُونٍ في المجتمع؟ وهل يمنعُها من الشعور بشيءٍ ومن معرفة أيِّ شيءٍ إمعانًا في استعبادها؟ وهل يَجْعَلُ منها تمثالًا مُتحرِّكًا؟ كلَّا، لا ريب؛ فليس هذا ما تقول الطبيعةُ التي منحت النساءَ روحًا كثيرةَ الرِّقة بالغةَ اللطافة، والطبيعة على العكس تريد أن يُفكِّرْنَ ويَحْكُمْنَ ويُحبِبْنَ ويَعرِفن ويتعهَّدن ذهنَهن كما يتعهدن صورتَهن، وهذه هي الأسلحة التي أنعمت الطبيعةُ بها عليهن لتقوم مقامَ القوة التي تُعْوِزُهنَّ ولتوجيهِ قُوَّتنا، ويجب عليهن أن يتعلَّمن أمورًا كثيرة، على أن تكون معرفةُ هذه الأمور ملائمةً لهن.

وسواءٌ عليَّ أنظرتُ إلى غرضِ الجنس الخاصِّ أم لاحظتُ ميولَه أم عدَدْتُ واجباته، وجدْتُ كلَّ شيء يتضافر تضافرًا متساويًا على دَلَالتي إلى شكل التَّربية التي تلائمه. أجلْ، إن كلًّا من المرأة والرجل خُلِقَ في سبيل الآخر، غيرَ أن اتِّباع أحدِهما للآخر ليس متساويًا؛

فالرجال تابعون للنساء برغائبهم، والنساءُ تابعاتٌ للرجال برغائبهن واحتياجاتهن. ونحن نعيش بدونهنَّ أكثرَ من عيشهنَّ بدوننا، وذلك أنه يجب، لحيازتهنَّ الحاجيَّ ولوجودهن في حالهن، أن نُعطيَهن إياه، وأن نريدَ إعطاءهن إياه، وأن نُقدِّر استحقاقهن له، وهن تابعاتٌ لمشاعرنا، ولِمَا نَجعلُ من ثمنٍ لمزيتهن، ولِمَا يكونُ عندنا من فكرٍ عن فتونِهن وفضائلهن، حتى إن من مقتضيات قانون الطبيعة أن يكون النساءُ تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن ومن أجل أولادهن، فلا يكفي أن يكُنَّ أهلًا للتقدير، بل يجب أن يكُنَّ مُقَدَّرات، ولا يكفي أن يكنَّ جميلات، بل يجب أن يَرُقن، ولا يكفي أن يَكُنَّ حكيمات، بل يجب أن يُعرَفن هكذا. وليست سعادتهن في سلوكهن، ولكن في سُمْعَتهن، وليس من الممكن استطاعةُ التي توافق على عدِّها شائنةً أن تكونَ شريفةً مطْلَقًا. ولا يتوقَّف أمرُ الرجل الذي يعمَلُ صالحًا على غيرِ نفْسه، ويستطيع الرجل أن يقتحم الحكمَ العام، ولكن المرأة إذا ما عَمِلَت صالحًا لا تكون قد قامت بغير نصف عملها؛ فما يدور حَوْلها من فكرٍ لا يكون عندها أقلَّ أهميةً مما هي عليه حقيقة؛ ومِنْ ثَمَّ يُرى أن نظام تربيتها يجب أن يكون من هذه الناحية مخالفًا لنظام تربيتنا، أي إنَّ رأيَ النَّاس قبرٌ للفضيلة بين الرجال، ويكون عرشُه بين النساء.

وتتوقف بِنْيةُ الأولاد على حُسْن بِنْية الأمهات في بدء الأمر، ويتوقَّف أوَّل تربية للرجال على عناية النساء، وتتوقَّف على النساء كذلك طباعُهم وأهواؤُهم وأذواقُهم ورغائبُهم، وسعادتُهم أيضًا. وهكذا، فإنَّ كلَّ تربيةٍ للنساء يجب أن تُرسَم نظرًا إلى الرجال، وتقوم واجباتُ النساء في جميع الأوقات على وقوعِهنَّ موقعَ الرِّضا لديهم، وعلى فائدتهن لهم، وعلى تحبيب أنفسهن لهم، وعلى تمجيدِهن من قِبَلهم، وعلى تنشئتهن لهم فتيانًا، وعنايتهن بهم كِبَارًا، وعلى نصيحتهم وتسليتهم وجَعْلِ الحياةِ مقبولةً حُلْوَةً عندهم، وهذا ما يجبُ تعليمُهن إياه منذ صِباهن، ويُبتَعَد عن الغايةِ ما ابتُعِدَ عن هذا المبدأ؛ فلا يكون لجميعِ التعاليمِ التي تُلقى عليهن نَفْعٌ لسعادتهن وسعادتنا.

ولكنَّ كلَّ امرأة، وإن كانت تريد أن تروقَ الرجالَ، وكان لِزامًا عليها أن تريدَ ذلك، يُوجَد فرقٌ كبيرٌ بين رَوَقانها رجُلَ الفضلِ والأنسِ حقًّا، وإرادتِها أن تروقَ صِغارَ اللطفاء الذين يشينون جنسَهم والجنسَ الذي يُقلِّدونه. وما كانت الطبيعةُ ولا العقلُ ليستطيعا حملَ المرأةِ على أن تُحِبَّ في الرجالِ مَن يشابهها، وكذلك لا ينبغي للمرأةِ أن تنتحلَ أوضاعَ الرجالِ فتحاول حمْلَهم على حُبِّها.

ولذا فإنَّ النساءَ إذا ما تَرَكْنَ احتشامَ جنسِهنَّ ووقارَه واتخذن أوضاعَ هؤلاء الطائشين، ابتعدن عن اتِّباعِ ما يُسِّرْن له وعَدَلْنَ عنه، وحَرَمنَ أنفسَهن ما يَرين أنهن اغتصبْنه من

حقوق، وهن يَقُلن: «لو كُنَّا غيرَ هذا ما وقعنا موقعَ الرِّضا عند الرجال مُطلَقًا.» وهن يَكْذِبن؛ فلا بُدَّ من جنونِ المرأة حتى تُحِبَّ المجانين، وتدُلُّ الرغبةُ في اجتذاب أولئك النَّاس على ذوقِ التي توطِّن نفسَها على ذلك، وإذا وُجِدَ من الرجال مَن هم غيرُ طائشين مطلقًا بادرتْ إلى جعلهم طائشين، ويكون طيشُهم من صُنْعها أكثرَ من أن يكون طيشُها من صُنْعهم. وإذا كانت المرأةُ تحبُّ الرجالَ الصادقين وتريد أن تروقَهم اتَّخَذَت من الوسائل ما يلائم غرضَها. وتكونُ المرأةُ ذاتَ دَلالٍ عن وضْع، ولكنَّ الدَّلال يتغيَّر شكلًا وموضوعًا وَفْقَ مقاصِدها، فلنُنظِّم هذه المقاصد وَفْقَ أغراض الطبيعة، وهنالك تنالُ المرأةُ ما يلائمها من التَّربية.

وصُغريات البناتِ يُحببن الزينةَ منذ ولادتهن تقريبًا، وهنَّ لا يرضين أن يكُنَّ حِسانًا، وإنما يُردن أن يُرَينَ هكذا. ويُرى من خلال ملامحهن أنَّ هذا الالتفاتَ يَشْغَل بالَهن منذ البُداءة، وهنَّ لا يَكَدْن يكنَّ في حالٍ يُدرِكن بها ما يُقال لهن حتى يُسَيطَرَ عليهن بما يُفكَّرُ فيه حوْلَهن. وإذا كنتم من الخِفَّة ما تَعرِضون معه ذات الباعث على الصبيان لم تَجِدوا له ذاتَ السلطان عليهم، وهُم إذا ما كانوا ذوي استقلالٍ وكان لهم لَعِبُهم قلَّت مبالاتُهم إلى الغاية بما يُمكن أن يُفكَّر في أمرهم، وليس بغيرِ فعْل الوقت والجُهد ما يُجْعَلون خاضعين لحُكم عينِ القانون.

ومهما تكن الجهةُ التي يأتي منها هذا الدرسُ الأوَّلُ إلى البنات، فإنه يُعَدُّ صالحًا جِدًّا. وبما أن البَدَنَ يسبقُ الذهنَ ولادة، فإن تمرين البدنِ هو أوَّلُ ما يَجِبُ أن يكون، وهذا النظام مشترَكٌ بين الجنسين، غيرَ أن غرَضَ هذا التمرين مختلف؛ فهو يَكُون نُموَّ القُوى في جنس، وهو يكون نُموَّ المحاسِنِ في الجنس الآخر. ولا يَعْني هذا أن تكون هذه الصفاتُ أو تلك في هذا الجنس أو ذاك حصرًا، وإنما تكون على نسبةٍ معكوسة. ولا بُدَّ من وجودِ قوَّةٍ كافيةٍ في النساء حتى يأتين جميعَ ما يأتين بلَطافة، ولا بُدَّ من مهارةٍ في الرجال حتى يأتوا جميعَ ما يأتون بسهولةٍ.

ويبدأ تخنُّث الرجال بإفراط النساء في التخنُّث، ولا ينبغي للنساء أن يَكنَّ قويَّاتٍ كالرجال، بل من أجل الرجال، وذلك لكي يكونَ مَن يَضعن من الرجالِ أقوياءَ أيضًا، وبهذا تكون الأديار؛ حيث يَتناول الطالبات الداخليات طعامًا غليظًا، ولكن مع كثيرِ نُزَهٍ ومسابقاتٍ وألعابٍ في الهواء الطَّلْق وفي الحدائق، أفضلَ من المنزل الأبوي حيث تتناول البنتُ غذاءً ناعمًا، وتُدارى أو تُعزَّزُ دائمًا، وحيث تجلس على مرأى من أمِّها في غرفةٍ محكمةِ الإغلاق، فلا تجرؤ على النهوض والمشي ولا على الكلام والهمس، ولا تتمتع بساعةٍ

من الحرية، فلا تلعب ولا تَثِب ولا تركُض ولا تصرُخ، وتلزَم نزَقَ سنِّها الطبيعي، فإما رخاءٌ خَطِرٌ وإمَّا جَفَاءٌ طائش، ولا شيء وَفْقَ العقل، وهذا هو الوجه الذي يُقوَّض به بدنُ الشباب وقلبُه.

وكانت بنات إسبارطة يتدربن كالفتيان على الألعاب العسكرية، لا ليذهبن إلى الحرب، بل ليحمِلْنَ ذات يومٍ أولادًا قادرين على احتمال مشاقِّها. وليس هذا هو الذي أستحسن؛ فلا يقضي منحُ الدولةِ جنودًا أن تَحملَ الأمهات بنادقَ ويَقُمن بتمرينٍ على الطريقة البُروسية، وإنما أجِدُ أن التَّربية اليونانية كانت على العموم كثيرةَ البراعة من هذه الناحية؛ فكانت الفتياتُ يَظهَرن عَلَنًا في الغالب، ولكن مع تجمُّعٍ فيما بينهن وعدم اختلاطٍ بالفِتيان، وما كنتَ ترى عيدًا تقريبًا ولا قُربانًا ولا احتفالًا، لا تُرى فيه أفواجٌ من بناتِ وجوهِ المواطنين، وهن مُتوَّجاتٌ بالزهور مُرتِّلاتٌ للأناشيد مؤلِّفاتٌ أجواقًا للرقص حاملاتٌ سِلالًا وآنيةَ وتَقْدِماتٍ وعارِضاتٌ على حواسِّ الأغارقة الفاسدة منظرًا ساحرًا صالحًا لموازنةِ ما للرياضة البدنية النابية من أثرٍ سيئ. ومهما يكن من عملٍ لهذه العادة في قلوب الرجال، فقد كانت نافعةً دائمًا في منْح الجنسِ بِنْيةً حسنةً في شبابه بتمريناتٍ مستحبَّةٍ معتدلةٍ صحية، وفي شحذ ذوقه وتكوينه برغبةٍ مستمرة في الوقوع موقعَ الرِّضا، وذلك من غير مجازفةٍ بالأخلاق.

وكان هؤلاء الفتياتُ إذا ما تزوَّجن عُدْنَ لا يُرَينَ بين النَّاس، وصِرن مقصوراتٍ في بيوتهن، قاصراتٍ جميعَ جهودهن على تدبير منازلهن والعناية بأُسَرِهن، وهذا هو طرازُ الحياة الذي تأمر الطبيعةُ والعقلُ به الجنس. ثُمَّ إن هؤلاء الأمهاتِ كُنَّ يَضَعن أصحَّ رجالِ العالَم وأقواهم وأحسنهم تقويمًا. وعلى ما كان يتمتَّع به بعضُ الجُزُر من سُمعةٍ سيئة، فإن من الثابت أن جميعَ الأمم، ومنها الرومانُ أيضًا، لم تشمَل ما اشتملت عليه بلادُ اليونان في الزَّمن القديم من النساء الجامعات بين الحكمة والأُنس، وبين الأخلاق والجَمال.

ومما يُعْرَف أنَّ اتساع الثياب الذي لا يُضايق الجسمَ مُطلَقًا كان يساعد كثيرًا على تركهِ لبدنِ الجنسين تلك النِّسبَ الرائعةَ في تماثيلهما، فلا تزال تصلُح أن تكون نموذجًا في الفن بعد أن انقطعت الطبيعةُ المُشوَّهةُ عن تقديمه بيننا. ولم يكن لأولئك عهدٌ بشيءٍ من جميعِ هذه العوائق القوطية وهذه الكثرةِ في الرُّبُط التي تضغط أعضاءنا من كلِّ ناحية. وكان نساؤهم يجهلن استعمالَ هذه القوالبِ الحوتيَّةِ التي يُنكِّر نساؤنا بها قاماتهن أكثرَ من الدَّلَالة عليها. ولا أستطيع أن أتصوَّر أن هذا السوءَ في الاستعمال، الذي أُمعِنَ فيه

بإنكلترة إلى حدٍّ لا يُتَصوَّر، لا يؤدي إلى انحطاطِ النوعِ في آخرِ الأمر، فأذهب إلى أن الفتونَ الذي يُهدَف إليه بهذا يَنِمُّ على ذوقٍ فاسد؛ فليس من المستحسَن أن تُرى المرأةُ مَقطوعةً إلى قسمين كالزُّنبور، لِمَا ينطوي عليه هذا من إيذاءِ النظر وإيلامِ الخيال؛ فلِدِقَّة القَدِّ نِسَبُها وقياسُها ككلِّ شيءٍ آخر، فإذا وقعت مجاوزةُ ذلك ظَهَرَ العيب، حتى إن هذا العيبَ يقفُ النظرَ في العُرْي، فلِمَ يَكُون جمالًا تحت الثياب!

ولا أجرؤ على اعتصارِ الأسباب التي يُصِرُّ النساء بها على الادِّراع هكذا، فيظهر صدرٌ هابطٌ وبطنٌ ضخمٌ … إلخ. وأوافق على أن هذا يُستكرَه في التي تكون في العشرين من سِنِيها، ولكن هذا يعود غيرَ مؤذٍ للنظر فيمن تكون في الثلاثين. وبما أنه يجب في كلِّ وقتٍ أن نكون على الرغم مِنَّا في حالٍ نروق معه الطبيعةَ، وألَّا تُخدَعَ عينُ الرجل في ذلك مُطلَقًا؛ فإن هذه العيوبَ تكون أقلَّ إغاظةً في كلِّ سِنٍّ من انتحالِ تصنُّعاتِ ابنةٍ صغيرةٍ انتحالًا أخرقَ في الأربعين من العُمُر.

ويُعَدُّ من الذوقِ الفاسدِ كلُّ ما يضايق الطبيعةَ ويضغَطُها، ويَصدُقُ هذا في أزيانِ البَدَن كما يصدُق في أزيان الذهن. ويجب أن تأتي الحياة والصحة والعقل والراحة في المرتبة الأُولى، ولا تكون المَلَاحة بلا راحةٍ مُطلَقًا، وليست الرقَّةُ ذُبولًا، فلا يَقضي الروقانُ بأن يكون الإنسانُ عليلًا. أجلْ، تُثار الرأفة عند التألُّم، غيرَ أن اللذة والرغبة تَنْشُدان صحةً ناضرة.

وللأولاد من الجنسين أُلْهُوَّاتٌ مشتركة كثيرة، وهذا الذي يجب أن يكون، أَوَلَا يكونُ لهم عينُ اللهوِ إذا ما كَبِروا؟ وكذلك يوجد لهم من الأذواق الخاصة ما يَمِيزُ بعضَهم من بعض؛ فالبنون يَنشُدُون الحركةَ والضوضاءَ والطبولَ والدُّوَّامَ والمركباتِ الصغيرة، والبناتُ يفضِّلنَ على ذلك ما يُمتِعُ النظرَ وينفعُ للزينة، كالمرايا والحُلي والشُّرُط، ولا سيَّما اللُّعَب، واللُّعبة هي الأُلْهُوَّة الخاصةُ بهذا الجنس، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على مَيلِها إلى ما قُدِّرَت له، وفي الحِلْية تتجلَّى طبيعةُ فنِّ الروقان، وهذا كلُّ ما يستطيعُ الأولاد تعَهُّدَه من هذا الفن.

وتَرَوْن ابنةً صغيرةً تقضي نهارَها حوْل لُعْبتها، فلا تنفكُّ تُغيِّر ثيابَها، فتُلْبِسها وتعرِّيها مائةَ مرة، ولا تفتأ تقوم بترتيباتٍ جديدة من الزُّخرف حَسنةِ المطابقة أو سيئةِ الموافقة، من غيرِ ما ضرر. أجلْ، يُعْوِز الأصابعَ مهارة، ولَمَّا يُكوَّن الذوق، ولكن مع تجلِّي الميل. ويمضي الوقتُ وهي منهمكةٌ بذاك العمل الدائم من غير أن تشعُر بمروره، وتمرُّ الساعات من غيرِ أن تشعُر بمضيِّها، حتى إنها تنسى وَجَبَاتِها؛ فهي أكثرُ شوقًا إلى الزينة

مما إلى الطعام. ولكنكم ستقولون إنها تُزيِّنُ لُعبَتَها لا شخصَها، ولا ريبَ في أنها ترى لُعْبَتها ولا ترى نفسها، وهي لا تستطيع صنْعَ شيءٍ لنفسِها، وهي لم تتكوَّن، وهي ليست ذاتَ قريحةٍ أو قوة، وهي ليست شيئًا بعد، وهي منصرفةٌ إلى لُعْبَتها دائمًا، واضعةٌ جميعَ دَلالها فيها، ولن تبقى هكذا؛ فهي تنتظر الزَّمن الذي تَكون فيه لُعْبَتَها بنفسها.

وذاك، إذنْ، أوَّلُ مَيْلٍ مُقرَّرٍ جيِّدًا، فما عليكم غيرُ تَتبُّعِ هذا الميل وتنظيمه. ولا مِراءَ في أن البنتِ الصغيرةِ تَودُّ من صميمِ فؤادِها أن تزخرفَ لُعْبتَها وأن تُقوِّم عُقَدَ كُمِّها ومِنْدِيل عُنُقها وتعاريج ثوبها وتخاريم ردائها، وهي تُجْعَل في جميع هذا من اتِّباع ذوقِ الآخرين اتِّباعًا وثيقًا ما يكون من الخيرِ معه أن تعتمد فيه على حِذْقها. وهكذا يأتي الباعثُ للدروس الأُولى التي تُلقى عليها، وليست هذه جهودًا تُكلَّفُ بها، بل ألطافٌ تُحبَى بها. والواقع أن جميعَ البنات الصغار يتعلَّمنَ القراءة والكتابة على مضضٍ تقريبًا، ولكن استعمال الإبرة هو ما يتعلمنَه عن رضًا دائمًا، وهن يتصوَّرن مقدَّمًا أن يكُنَّ كبيراتٍ فيَرَون مع اللذة إمكانَ انتفاعِهن بهذه الأهليات للتَّجمُّل ذاتَ يوم.

ويسهُلُ اتِّباعُ هذه الطريقِ الأُولى المفتوحة؛ فالخِياطة والتطريز والتخريم أمورٌ تأتي من نفسها، وليس وشيُ الفَرْشِ وثيقَ القُرْب من رضاهن. والنِّجَادةُ كثيرةُ البُعد منهن؛ فالأثاث أمرٌ غيرُ تابعٍ للشخص، وإنما يتعلَّق بآراءٍ أخرى. ويُعَدُّ وشيُ الفَرْش أُلْهُوَّة النساء، ولا يساور البناتِ الصغيراتِ كبيرُ رغبةٍ فيه مطلقًا.

ويمتدُّ هذا التقدُّم الاختياريُّ بسهولةٍ حتى الرَّسم؛ وذلك لأن هذا الفنَّ ليس غريبًا عن فنِّ اللُّبس الأنيق، ولكنني لا أُريد شَغْلَهنَّ بالمناظر، وأقلُّ من هذا شَغلي لهن بالهيئة، وتَكفِيهنَّ أوراقُ الشجرِ والفواكهُ ووشيُ الفَرش وكلُّ ما يمكن أن يكون نافعًا لمنْحِ الأزْيان نطاقًا جميلًا، ولجعْلِ البنتِ قاضيةً في أمرِ التطريز عندما لا تجد نموذجًا يُعجِبُها. وإذا كان يُهِمُّ الرجالَ على العموم أن يَقْصِروا دراساتهم على معارفَ نافعةٍ لهم، فإن هذا يُهِمُّ النساء أكثرَ مما يُهمُّهم؛ وذلك لأن حياة النساء، وإن كانت أقلَّ مشقَّة، وكانت، أو وجَبَ أن تكون، أكثرَ مثابرةً على القيام بواجباتهن وأكثرَ تقطُّعًا بمختلف الواجبات، لا تَسْمح لهن بأن يتجرَّدْن — عن خِيارٍ — لأيٍّ من أعمالِ النبوغِ الأخرى ضَرًّا بواجباتهن.

ومهما يكن من قول الساخرين، فإن صوابَ كِلا الجنسين واحد، وتكون البنات أطوعَ من الصِّبيان على العموم، ويجب مع ذلك أن يُتَّخَذ نحوهن سلطانٌ أكثرَ مما يُتَّخذ نحو الصِّبيان كما أُبيِّنُ ذلك عما قليل، ولكن لا يُستنبط من هذا وجوبُ مطالبتهن بشيءٍ لا

يستطعن رؤيةَ فائدته. ويقوم فنُّ الأمهات على إراءتهن ذلك في كلِّ ما يأمرنهن به، وتتجلَّى سهولةُ هذا في كون الذكاء لدى البنات أبْكَرَ نَضجًا مما عند الصِّبيان. ولا تُبعِدُ هذه القاعدة من جنسهن، كما أنها لا تُبْعِدُ من جنسنا فقط جميعَ الدراسات الفارغة التي لا تؤدي إلى شيءٍ صالح، والتي لا تَجعل أكثرَ قبولًا، حتى لدى الآخرين، ما وضعه هؤلاء الآخرون، بل تُبْعِدُ أيضًا جميعَ الدروس التي لا تُناسب فائدتُها السِّنَّ، والتي لا يُمْكن الولدَ أن يُبْصِر نفعَها في غيرِ عُمُرٍ متقدم. وإذا كنتُ لا أريدُ ضغطَ الغُلامِ كيمَا يتعلَّمُ القراءةَ؛ فإن من الأَوْلى ألَّا أريدَ حَمْلَ الفتياتِ على القراءةِ قبْل جعلهن يَشعُرْن بفائدتِها جيِّدًا. ويُرى من الأسلوب الذي يُطْلَعْنَ به عادةً على هذه الفائدةِ أننا نَتَّبع فكرَنا الخاصَّ أكثرَ من اتِّباع فكرهن، ومع ذلك فما أَرَب البنت أن تَعْرِف القراءةَ والكتابةَ باكرًا؟ وهل يكون لها على عَجَلٍ منزلٌ تُدبِّرُ شئونه؟ لا يوجد غيرُ قليلٍ من هؤلاء مَن لا يُكثِرن إساءة استعمال هذه المعرفة المشئومة، وجميع هؤلاء من كثرة الفضول ما لا يتعلمن معه ذلك من غيرِ إكراههن عليه، وذلك عندما يكون لديهن فراغٌ وفرصةٌ لذلك. وقد يجبُ تعلُّمُهن الحسابَ قبل كلِّ شيء؛ وذلك لأنك لا ترى كالحساب شيئًا يكون ذا نفعٍ ظاهرٍ في كلِّ حين، ويتطلب طويلَ ممارسة، ويَدَعُ مجالًا كبيرًا للخطأ، وإذا كانت البنتُ الصغيرةُ لا تنال كَرَزَ عَصْرُونيتها[٥]* إلا بعمليةٍ حسابيةٍ أجبتكم بأنها لا تَلْبَث أن تتعلَّم الحساب.

وقد عرفتُ فتاةً تعلَّمت الكتابةَ قبل أن تتعلَّم القراءة، وقد بدأتْ هذه الفتاةُ تَعلُّمَ الكتابة بالإبرة قبل تَعلُّمها الكتابةَ بالقلم، وهي لم تُرِدْ من جميع الكتابة أن تَرْسُم غيرَ حرف O، وكانت تَرسم حرف O بلا انقطاعٍ على أشكالٍ متداخلةٍ كبيرةٍ وصغيرة، ومن كلِّ طولٍ ومع تنكيسٍ. ومن المؤسفِ أن رأتْ نفسَها في المرآة ذات يومٍ وهي مشغولةٌ بهذا التمرين المفيد، فوجدت أنها تكون بهذا الوضع المضغوط سيئةَ الظرافة، كما لو كانت مِنيرْفا أخرى، فألقت القلمَ جانبًا وعادت لا تريد رسمَ حرف O، وكان أخوها لا يحبُّ الكتابةَ أكثر مما تحب، ولكن الذي كان يغيظه هو الضيق، لا المنظر الذي يكتسبه بالضيق، ويُتَّخَذ تدبيرٌ آخَر لردِّها إلى الكتابة، فبما أن البنت الصغيرة كانت رقيقةً غَريرةً لم تَقْبل قَطُّ أن تَلْبَس أخواتُها ثيابَها، فكان يُعلَمُ على هذه الثياب، فصار يُرغَبُ عن وضْعِ علامةٍ عليها، فوجب أن تُعْلِمَ البنتُ عليها بنفسها، وأمَّا بقيةُ الأمر، فيُمكِن تصوُّره.

[٥] * Le goûter.

وسَوِّغوا ما تَفرضُون على صِغار البنات من جهود، ولكن افرِضوا هذه الجهود عليهن دائمًا؛ فالفراغ والعقوق كلاهما أخطرُ ما يكون من النقائص على البنات، وهما أقلُّ ما يُشفَى منه إذا ما تعوَّدْنَهما، ويقضي الواجبُ على البنات بأن يَكُنَّ حَذِراتٍ مجتهدات، وليس هذا كلَّ ما في الأمر، فيجب أن يُضايَقْنَ باكرًا. وإذا كان هذا البلاءُ ملازمًا لهن فهو غيرُ منفصلٍ عن جنسهن، وهن لا يتخلصن منه إلا ليُكابدن ما هو أشدُّ منه بدرجات، وهن يقضينَ أعمارَهن مستعبَداتٍ لأدومِ ضَيْقٍ وأشدِّ عُسر، أي ضَيْقِ اللياقة، ويجب أن يُعوَّدن الاقتسارَ في البُداءة لكيلا يُكلِّفَهن شيئًا مطلقًا، كما يجب أن يُعوَّدن قَمْعَ جميعِ أهوائهن كيما يُخضَعن لعزائم الآخرين، وإذا أردْن العملَ دائمًا وجب حمْلُهنَّ على عدم عمل شيءٍ أحيانًا. ويُعَدُّ الإسرافُ والطيشُ والتقلُّب نقائصَ تُولَدُ بسهولةٍ من ميولهن الفاسدة الأُولى، والتي تُتَّبَع دائمًا. وعلِّموهن قَهْرَ أنفسِهن على الخصوص منعًا لهذه المساوئ. وتقوم حياةُ المرأة الصالحة في مراكزنا الحُمْق على جهادٍ مستمرٍّ ضد نفسها، ومن الإنصاف أن يقاسِم هذا الجنسُ ألمَ الشُّرور التي أورَثْنا إياها.

وحُولُوا دونَ سَأمِ البنات في أثناء أشاغيلهن، ودُون شَغفهن في أُلْهُوَّاتهن، وذلك كما يقع دائمًا في التربيات العامية؛ حيث يُوضَعُ جميعُ السَّأم في ناحيةٍ ويُوضَع كلُّ لهوٍ في ناحيةٍ أخرى كما قال فِنيلُون. وإذا ما اتُّبِعَت القواعدُ السابقة فإنه لا يكون للأوَّل من هذين المحذورين مكانٌ إلا عند عدم وقوع مَن يحيط بالبنات موقعَ الرِّضا لدى هؤلاء البنات. فالبنت الصغيرة التي تُحِبُّ أمَّها أو صديقتها تعمل نهارها كلَّه بجانبها من غيرِ سأم، والهَذْر وحدَه هو الذي يُعوِّضها من جميع ضَيْقها، ولكن إذا كانت لا تُطِيق مَن تُسيطر عليها فإنها تجزع من كلِّ ما تقع عليه عينُها، ومن الصعب جِدًّا أن يَحْسُن ذات يومٍ وضعُ البنات اللاتي لا تَسُرُّهن صحبةُ أمهاتهن أكثرَ مما تَسرُّهن صحبةُ أيِّ شخصٍ آخَر في العالم. ولكن يجب للحكم في مشاعرهن الحقيقية أن يُدرَسن، لا أن يُعتمد على ما يَقُلن؛ وذلك لأنهن مصانِعاتٌ مُداجيات، يَعْرِفن التنكُّر باكرًا، وكذلك لا ينبغي أن يُؤمرن بمحبةِ أمهاتهن؛ فالحبُّ لا يصدُر عن واجبٍ مطلَقًا. ولا ينفع القسرُ هنا، ويَحْمِل الولعُ والرعايةُ والعادةُ على حُبِّ البنت لأمِّها إذا لم تفعل الأمُّ ما يجلِبُ إليها حقدَ البنت، حتى إن الضِّيق الذي تُمسِكُ الأمُّ به ابنتَها، والذي تُحْسَن إدارتُه، يزيد ذلك الولعَ بدلًا من إضعافه؛ وذلك لأن الخضوعَ إذ كان أمرًا طبيعيًّا لدى النساء فإن البنات يَشعُرْن بأنهن خُلِقْنَ للطاعة.

وهنَّ — لذات السبب القائل بأن لديهن، أو يجب أن يكون لديهن، قليلُ حريةٍ — يَعمَلن بأقصى ما يُترك لهن منها، وهن إذ كن متناهياتٍ في كلِّ شيء يتجرَّدْن لألعابِهن بحُمَيًّا أشدَّ من حُمَيَّا الصِّبيان، وهذا هو المحذور الثاني الذي تكلمتُ عنه. ويجب أن تكون الحُمَيَّا مشوبةً بالاعتدال؛ وذلك لأنها عِلة كثيرٍ من المعايب الخاصة بالنساء، ومنها هوى الولع الذي تنتقل به المرأةُ اليوم إلى هذا أو ذاك الغرضِ الذي لا تُبصره غدًا، وكذلك تقلُّبُ الميولِ هو من الشؤم عليهن كإفراطهن، ويأتيهن هذا وذاك من ذاتِ المصدر. ولا تَنْزِعوا منهن الجَذَل والضَّحك والصَّخب والألعاب المَرِحة، ولكن حُولُوا دون شِبَعِهن من أحدها طَلَبًا لآخرَ، ولا تَدَعُوهنَّ في حياتهن دقيقةً بلا رادع، وعوِّدوهنَّ قطْع ألعابهن والعودَ إلى أشاغيلهن بلا تذمُّر، وهنا تكفي العادةُ وحدَها؛ فالعادة لا تفعل غيرَ مساعدة الطبيعة.

وينشأ عن هذا القَسْرِ المعتادِ انقيادٌ يَحتاج إليه النساءُ مدى حياتهن ما فَتِئن يَخْضعن لرجلٍ أو لأحكامِ الرجال، فلا يُسمَحُ لهن أن يَكُنَّ فوق هذه الأحكام. واللُّطفُ أوَّلُ صفات المرأة وأهمُّها. والمرأة، إذ خُلِقَت لإطاعة مخلوقٍ كالرجل ناقصٍ أيضًا، مُفعَمٍ بالمعايب غالبًا، مملوءٍ بالشوائب دائمًا، وجبَ أن تتعلَّم باكرًا أن تصبرَ حتى على الجَوْر، وأن تَحتمل خطأ الزوج من غيرِ أن تشتكي. وليس عليها أن تكون لطيفةً من أجله، بل من أجل نفسها. ولا تؤدي شراسةُ النساء وعنادُهن إلى غيرِ زيادة آلام النساء وسوءِ معاملتهن من قِبَل الأزواج. والأزواجُ يشعرون بأنه لا ينبغي لهن أن يغلبْنَهم بهذه الأسلحة. ولم يَصْنعهن الربُّ ضعيفاتٍ قَطُّ ليكن متجبِّرات، ولم يُنعِم الربُّ عليهن قَطُّ بصوتٍ بالغِ العذوبة ليَنطِقن بالشتائم، ولم يجعل الربُّ لهن تلك الملامحَ الدقيقة ليشوِّهنها بالغضب. وهن إذا ما سَخِطن نَسِين أنفسهن. أجلْ، إن الحقَّ بجانبهن في شكواهن غالبًا، ولكنهن يكن مخطئاتٍ إذا ما وَبَّخن؛ فكلٌّ مُلزَمٌ بالمحافظة على لهجة جنسه، فإذا كان الزوج كثيرَ الرِّقة أمكنه جعلُ المرأةِ قليلةَ الحياء، ولكنَّ لطفَ المرأة يَرُدُّه ويتغلَّب عليه عاجلًا أو آجلًا ما لم يكن غُولًا.

ولْيكُن البناتُ طائعاتٍ دائمًا، ولكنْ لا ينبغي أن تكون الأمهاتُ متصلِّبَاتٍ دائمًا، ولا يجوز جعلُ البنتِ تَعِسَةً جعْلًا لها طائعة، ولا يجوز خَبْلُها جعلًا لها محتشمة. وعلى العكس، لا يغيظُني أن يُسمَحَ لها في الحين بعد الحين باستعمال شيءٍ من الشطارة، لا لاجتنابِ الجزاءِ على عصيانها، بل لإعفائها من الطاعة. ولا يُقصَد جعلُ خضوعها شاقًّا، فيكفي حمْلُها على الشعور به. وتُعَدُّ الحيلةُ من مواهب الجنس الطبيعية، وبما أني قانعٌ بأن جميعَ الميولِ صالحةٌ مستقيمةٌ بذاتها، فإني أرى تَعَهُّدَ الحيلة كالميول الأخرى، والمُهِمُّ في منْع سوء استعمالها.

وأَحْتكمُ في صحَّةِ هذه الملاحظةِ إلى كلِّ ناظرٍ حسَنِ النِّية، ولا أريدُ أن يُفحَصَ النساءُ أنفسُهن حولَ ذلك مطلَقًا، فيُمْكِن نُظُمَنا المزعجةَ أن تَحْمِلهن على شحذِ أذهانهن، وإنما أريد فحصَ البنات، وإنما أريد فحصَ صِغار البنات اللاتي وُلِدن حديثًا كما أودُّ أن أقول، فيقابَلُ بينهن وبين صغارِ البنين الذين هم من لِدَاتهن، فإذا لم يَبْدُ هؤلاءِ ثقلاءَ طائشين أغبياء بجانبهن كنتُ مخطئًا لا مِراء. وليُسمَحْ لي بإيرادِ مثالٍ واحدٍ عن السذاجة الصِّبيانية.

إن مِن الشائعِ كثيرًا منْعَ الأولادِ من طَلَب شيءٍ حوْل المائدة؛ وذلك لأنه لا يُعتقَد مطلقًا ما هو أحسنُ للنجاح في تربيتهم من إرهاقِ هذه التَّربيةِ بأَحْكامٍ غيرِ مجدية، وذلك كما لو كانت القطعةُ من هذا أو ذاك قد مُنِحَت أو رُفِضَت[٦] حالًا من غيرِ أن تؤدي بلا انقطاعٍ إلى موتِ الولدِ المسكينِ بطمعٍ شُحِذ بالأمل. وكلٌّ يعلم شطارة الصبي الخاضع لهذا النظام، والذي يُنسى حول المائدة، فيَعِنُّ له أن يَطلُب مِلحًا ... إلخ. ولا أقول إنه كان من الممكن توبيخُه عند طلبِه مِلحًا مباشرة، وعند طلبِه لحمًا تعريضًا؛ فقد كان الإهمال من القسوة ما لا يمكنني أن أعتقد معه عِقابَه عندما خالف النظامَ جهرًا وقال بلا مواربةٍ إنه جائع، ولكنْ إليك ما وقع أمامي من أمرِ ابنةٍ في السادسة من سِنِيها كانت في وضعٍ أصعبَ من ذلك بدرجات، وذلك أنها، فضلًا عن كونها حُظِرَ عليها حَظْرًا شديدًا أن تطلب شيئًا مباشرةً أو تعريضًا، لم تكن لتستحقَّ العفوَ عن عِصيانها ما دامت قد أكلت من جميعِ الأطباق عدا واحدًا نُسيَ إعطاؤها شيئًا منه مع شدة رغبتِها فيه.

والواقعُ أنها أرادت تلافيَ ذلك الإغفالِ من غيرِ أن تُتَّهم بعصيان، فألقت نظرةً على جميع الأطباق مشيرةً إليها بإصبعها قائلةً بصوتٍ عالٍ: «لقد أكلت من هذا، وقد أكلت من ذاك.» بَيْدَ أنها تخطَّت الطَّبَقَ الذي لم تأكل منه من غيرِ أن تقول كلمة، ولكنْ على وجهٍ يثير انتباه بعضِهم فيسألها: «ألم تأكلي من هذا؟» فتجيب هذه النَّهِمَة الصغيرة مُطرِقةً قائلةً بلُطفٍ: «وَيْ! كلَّا.» ولا أضيف شيئًا، وقابلوا بين هذا التدبير الذي هو حيلةُ بنتٍ، وذلك التدبيرِ الذي هو حيلة صبي.

وما هو كائنٌ حسن، ولا يوجد قانونٌ عامٌّ سيئ، وتُعَدُّ هذه الشطارة الخاصة التي حُبيَ بها الجنس النسوي تعويضًا عادلًا من القوة التي تُعْوِزه، ولولا هذا ما كانت المرأة

[٦] يصير الولدُ مزعجًا إذا وجد نفعَه في أن يكون هكذا، ولكنه لن يطلب الشيءَ عينَه مرتين إذا لم يُنْقَض الجواب الأوَّل على الإطلاق.

رفيقةَ الرجل، ولولا هذا لكانت أمَةً له. والمرأة بهذه الأفضلية في الموهبة تظلُّ مساويةً له وتسيطر عليه بإطاعتها إياه، وكلُّ شيءٍ مضادٌّ للمرأة، ولها ما يعاكسها في نقائصنا وفي حيائها وضَعْفها، ولا يوجد ما يقول لها غيرُ حِذْقها وجمالها، أوَليس من الصواب أن تتعهَّد هذا وذاك؟ بَيْدَ أن الجمال ليس عامًّا، وهو يزول بألفِ عارض، وهو يتلاشى مع السِّنين، والعادة تقضي على تأثيره، واللَّقانة وحدَها هي وسيلةُ الجنس النسوي الحقيقية، لا تلك اللقانة الحمقاء التي تُعارُ قيمةً كبيرة في العالَم من غيرِ أن يكون لها أقلُّ نفعٍ في جعْل الحياة سعيدة، بل اللقانة الملائمة لحالها، واللباقة في الانتفاع بحالنا والتغلُّب على منافعنا الخاصة. ولا يُعرَف مقدارُ ما لنا من فائدةٍ في حِذْق النساء هذا، ولا مقدارُ ما يُضيفُ من فتونٍ إلى مجتمع الجنسين، ولا مقدارُ نفْعِه في قهْرِ نَزَقِ الأولاد، ولا مقدارُ ما يَرْدَع من أزواجٍ غِلاظ، ولا مقدارُ ما يَحفَظُ من راحةٍ في المنزل الذي يسوده الشقاق لولا ذلك. وأعْرِف أن النساء الماكرات الخبيثات يُسِئن استعمال ذلك، ولكن ما الشيء الذي لا يُساءُ استعمالُه بالعيب؟ فلا نَقْضِ مطلقًا على وسائلِ السعادة لأن الخبثاء يستعملونها للأذى أحيانًا.

ويُمكن الإشراقُ بالحُلِي، ولكن لا يُراقُ بغيرِ الشخص، ولسنا أَزْياننا مطلقًا، وفي الغالب تَعْطَلُ أزيانُنا بقوة ما تُبْتَغَى. وفي الغالبِ تكون الأزيانُ التي تُوجِبُ ملاحظةَ مَن تَحمِلُها أقلَّ ما يُلاحَظ، وتكون تربيةُ الفتيات عندنا على عكس ذلك تمامًا؛ فهنَّ يُوعَدْن بأزيانٍ مكافأة، وتُحبَّبُ إليهن الحُلِيُّ المنشودة، ويُقال للواحدةِ منهن عندما تَزَّيَّنُ كثيرًا: «يا لها من جميلة!» مع أن العكس هو ما يجب أن يُقال لهن، فيسمعن أنه لا يُقصَد بكثرة الزينة غيرُ سَترِ النقائص، وأن فوزَ الجمالِ الحقيقي هو بإشراقه بنفسه. ويُعَدُّ حُبُّ المُوضات من فساد الذوق؛ فالوجوه لا تتغيَّر بها، وبما أن الوجه يبقى كما هو، فإن ما يُلائمه مرةً يُلائمه دائمًا.

ومتى أبصرْتُ الفتاةَ تميسُ في حِلْيَتها صرفتُ همِّي إلى وجهها الذي نُكِّرَ على هذا النحو، وإلى ما يُمكِنُ النَّاسَ أن يُفكِّروا في أمرها، فأقول: «إن جميع هذه الزخارف تُزيِّنها كثيرًا، فيا لَلْخَسارة! أَوَتظنون إمكانَ اصطبارها على ما هو أبسط؟ وهل هي من الجمال ما يُمكِنها أن تستغنيَ معه عن هذا أو ذاك؟» ومن المحتمل أن تكون إذ ذاك أَوَّل مَن يرجو نزع هذه الزينة عنها، فيُحكَمُ في أمرها وهي في هذه الحال، ويُرى هل يُوجَدُ محلٌّ للإعجاب بها، ولن أُثني عليها مُطلَقًا ما لم تكن بسيطةَ الملبس إلى أبعدِ حد، وهي إذا لم تَعُدَّ الحِلْيَةَ غيرَ مُتِمَّةٍ لألطافِ الشخص وغيرَ اعترافٍ ضمنيٍّ باحتياجها إلى مساعدةٍ لتروقَ لم تَزْهُ

بزَيْنها قَطُّ واعتراها صَغَارٌ منه، وهي إذا ما ازَّيَّنت بأكثرَ من المألوف وسمعتْ مَن يقول: «يا لها من جميلة!» احمرَّ وجهُها غيظًا.

ومع ذلك، فإنه يوجد من الهيئات ما يحتاج إلى حِلْية، ولكنه لا يوجد منها ما يحتاج إلى حُلِيٍّ ثمينةٍ مطلقًا؛ فالحُلِي المؤدية إلى الإفلاس هي من خُيَلاء الطبقة، لا من مقتضيات الشخص، وهي مَنوطةٌ بالمُبْتَسَر حصرًا. أجلْ، إن الدَّلَال الحقيقيَّ مرغوبٌ فيه أحيانًا، ولكنه ليس مُختالًا مطْلَقًا. وقد كان جُونونُ أبهى من فينوسَ لباسًا، وقد قال أَبيلُ لمصوِّرٍ رديء كان قد صوَّر هيلانةَ زاخرةً بالجواهر: «إنك لم تَقدِر أن تجعلَها جميلة، فجعلتها غنية.» ومما لاحظت أيضًا أن أفخمَ الحُليِّ يَنِمُّ على نساءٍ شُوهٍ في الغالب، فلا يُعرَف غُرورٌ أخرقُ من ذاك. وأعطُوا فتاةً ذاتَ ذوق، وذاتَ ازدراءٍ للمُوضة، أوشحةً وشُفوفًا ومَوْصِليًّا وأزهارًا بلا ألماسٍ وبلا باقاتٍ من حريرٍ ومُخرَّمات،[٧] تَرَوْها صانعةً لزينةٍ تجعلُها أكثرَ فُتُونًا مائةَ مرةٍ مما يجعلها جميعُ نسائج لَادُوشَاب المتألِّقة.

وبما أن الحَسَنَ حَسَنٌ دائمًا، وبما أنه يجب أن يكونَ أحسنَ ما يُمكِن دائمًا، فإن النساءَ اللائي يَعرِفْن مَن هنَّ بالأزْيان يَخترْن ما حَسُنَ ويتمسَّكْنَ به، ولا يُغيِّرْن شيئًا منه في كلِّ يوم، وهنَّ يَكُنَّ أقلَّ اشتغالًا به مِن اللاتي لا يَعرفْن أين يَثْبُتْن، وتَقتضي الرغبةُ الحقيقية في الحُلِي قليلَ تَبرُّجٍ. ومن النادر أن يتبرَّج الأوانسُ تبرُّجًا بهيًّا؛ فهن يقتُلن نهارَهن بالشُّغْل والدروس، ومع ذلك فإنك إذا عدوتَ الحُمرةَ وجدتهن كالسيدات عنايةً باللباس وأحسنَ منهن ذوقًا فيه غالبًا. وليس سوءُ استعمال الزينة كما يُفكَّر فيه؛ فهو ينشأ عن السَّأم أكثرَ مما عن الزهو، ولا تجهلُ المرأة التي تقضي ستَّ ساعاتٍ في زينتها أنها تَفرُغُ منها بحالٍ أحسنَ من حال التي تقضي فيها نصفَ ساعة فقط، ولكنْ هذا ينطوي على تَخلُّصٍ من الوقت الطويل القاتل؛ فالأَوْلَى للإنسان أن يتلهَّى من أن يَتبرَّم بكلِّ شيء. وما يُصنَعُ بالحياة فيما بين الظهر والساعة التاسعة لولا الزينة؟ وإذا ما جمعتْ نساءً حوْلها تلهَّتْ بإفراغ صبرهن، وهذا شيءٌ يُذكر، وهي بهذا تجتنب مواجهةَ زوجها الذي لا تراه في غير ذلك الوقت، وهذا أكبر من ذلك كثيرًا. ثُمَّ يأتي التجار وباعة التُّحف وصِغار السادة وصِغار المؤلفين، والأشعارُ والأغاني والرسائل، ولولا التبرُّج ما جُمِعَ جميعُ هؤلاء مطلَقًا. وتقوم

[٧] يزري النساءُ، اللائي يكن من بياض الجلد ما يستغنين معه عن المُخَرَّمات، بغيرهن إذا لم يلبسنها، ويكاد يكون النساء الشوهُ وحدَهن مَن يأتين بالمُوضات التي يخضع لها الحِسان عن غباوة.

فائدةُ هذا الوحيدةُ الحقيقيةُ على كوْنه ذريعةً للمباهاةِ بأكثرَ مما بالادِّثار، ومن المحتمل ألَّا تكون هذه الفائدةُ كبيرةً كما يُظن، ولا يَكسِبُ النساءُ من ذلك بمقدار ما يَقُلْنَ، وأنعِموا بتربية المرأة على النساء بلا وَسْواس، واجعلوا منهن مُحِبَّاتٍ لجنسهن ذواتِ حياءٍ عارفاتٍ بالسهر على تدبير منازلهن والعناية ببيوتهن؛ فبهذا يتوارى التبرُّجُ الأكبر من تلقاء نفسه، ولا يَلبسْن عن غيرِ أفضلِ ذوق.

وأوَّلُ شيءٍ يراه الفتياتُ إذا ما كَبِرْن هو أن جميعَ هذه المَلَاحات الخارجية لا تكون كافيةً لهن ما لم يكُنَّ حائزاتٍ لطائفَ ذاتية. أجلْ، لا يُمكن انتحالُ الجمال مطلقًا، ولا يستطِعن نَيلَ الدَّلَال عاجلًا، غيرَ أنهنَّ قادراتٌ أن يُحاوِلنَ منذ البُداءة منْحَ حركاتهن حالًا مقبولًا، ومنْحَ أصواتهن نَبرَةً مُداريَةً، وإنشاءهن طَوْرًا لأنفسهن، وسيرَهن مع خفَّة، واتخاذَهن أوضاعًا لطيفة، واختيارَهن نافعًا لهن في كلِّ مكان، ويمتدُّ الصوتُ ويتقوَّى ويكون ذا رنين، وتنمو الذُّرْعان، ويَثْبُت الخَطو، ويُبصَرُ وجودُ فنٍّ يوجِّه الأنظارَ إلى الشخص مهما كان زِيُّ الرِّداء الذي يُرْتدى، وهنالك يعود الأمرُ غيرَ متوقِّفٍ على الإبرة والصناعة؛ فقد أخذت تبدو مواهبُ جديدةٌ كان قد شُعِرَ بفائدتها.

وأعرِف أن المُعلِّمين الأشداء يريدون ألَّا يُعلَّمَ الفتياتُ غِناءً ولا رقصًا، ولا فنًّا من الفنون اللطيفة، ويلوح لي هذا مُضْحِكًا، ومَن يَوَدُّون أن يتعلَّمها إذن؟ أيتعلمها البنون؟ ومَن مِن الرجال أو النساء ينالُ هذه المواهبَ تفضيلًا؟ يُجيبون عن هذا بقولهم: لا أحدَ من هؤلاء ولا من أولئك؛ فالأغاني الدنيوية من الجرائم، والرقص من صُنْع الشيطان، ولا يجوز أن تتلهَّى البنت بغيرِ عملها وصَلَاتها، وهذه هي الأُلْهُوَّات الغريبة لولدٍ في العاشرة من سِنِيه! وأمَّا أنا فأخشى كثيرًا ألَّا يقضيَ هؤلاء القديساتُ الصغيرات، اللاتي حُمِلنَ على قضاء صِباهن في الصلاة إلى الرَّب، شبابَهن في أمرٍ آخرَ، وألَّا يُعوِّضن أنفسَهن أزواجًا من الوقت الذي أضعْنَه بناتٍ، وأرى من الواجب أن يُراعى ما يناسب السِّنَّ كما يُراعى ما يناسب الجنس، وأنه لا ينبغي أن تقضي البنتُ حياةً كحياة جَدَّتِها، وأنه يجب أن تكون نشيطةً مازحةً لعوبًا، فتُغنِّي وتَرقُص ما راقها الغناء والرقص، وتذوق جميعَ ملاذِّ جنسِها الطاهرة، فلَسرعان ما يحينُ زمنُ الرزانة واتخاذ وضعٍ يكون أكثر رصانة.

ولكنْ هل ضرورةُ هذا التحوُّلِ حقيقيةٌ بذاتها؟ أليس من الممكن ألَّا تكون ثمرةَ مُبْتَسَراتِنا؟ لقد أُقصيَ عن الزواج كلُّ ما يجعله مستحبًّا لدى الرجال نظرًا إلى تعبيد النساء الصالحات لكئيب الواجبات، وهل يَجب أن يُعجَبَ مِن كونِ الصمت القاتم الذي يَسود منازلَهم يَطرُدُهم منها، أو مِن كونهم يُفتَنون قليلًا بانتحال حالٍ مستكرَهةٍ كثيرًا؟ إن

النصرانية بمجاوزتها الحَدَّ في جميع الواجبات تجعلُ هذه الواجبات فارغةً غيرَ عملية، وإن النصرانية بحظرها الغناءَ والرقْص وجميعَ أُلْهُوَّات العالَم على النساء تجعل النساء عابساتٍ معزِّراتٍ لا يُطَقْن في بيوتهن. ولا تجدُ دِينًا يُجعَلُ الزواجُ فيه خاضعًا لواجباتٍ شديدةٍ جدًّا كهذا الدِّين، ولا تجدُ دينًا يُستخَفُّ فيه بمثل هذا العَقد المقدَّس كما يُستَخَفُّ به في هذا الدين. وقد صُنِع ما يمنع النساءَ من أن يكُنَّ أنيساتٍ بمقدار ما صُنِع لجعْلِ الأزواجِ أخلياءَ غيرَ مكترثين، ولا ينبغي أن يقع هذا، وهذا ما أُدْرِكه جيِّدًا، ولكنني أقول إنه لا بُدَّ من وقوعِ هذا ما دام النصارى من النَّاس نتيجةً، وإنما أريدُ أن تتعهَّدَ الإنكليزيةُ بعنايةٍ فائقةٍ ما يَطيبُ من المواهب لتروقَ الزوجَ الذي سيكونُ لها كما تتعهدُها الألبانيةُ من أجْلِ دائرة الحريم في أصْبَهان. ويُقال إن الأزواج لا يُبالون بجميعِ هذه المواهب، وهذا ما أذهبُ إليه حقًّا، وذلك أن هذه المواهبَ بعيدةٌ من الوقوع عندهم موقعَ الرِّضا، فلا تنفعُ أن تكون غيرَ طُعْمٍ لاجتذابِ شُبَّانٍ خالِعي العِذار إلى منازلهم التي يَشينُونها. ولكن أترون أن المرأةَ اللطيفةَ الحكيمةَ المُزَيِّنَةَ بمثلِ هذه المواهب، والواقفةَ لهذه المواهب على تسلية زوجها، لا تَزيد في سعادة حياته، وأنها لا تمنَعه إذا ما خَرج من مكتبه مَنهوكَ الرأس من البحث عن التسلية خارج منزله؟ ألم يَرَ أحدٌ أُسَرًا سعيدةً مجتمعةً على هذا الوجه، فيَعْرِف كلُّ واحدٍ أن يساعدَ مِن قِبَله على الأُلْهُوَّات المشتركة؟ وليُقل هل الثقةُ والدَّالَّة الملازمتان لذلك، وهل نقاوةُ الملاذِّ وعذوبتُها اللتان تُذاقان هنالك أمورٌ لا تُغني عما يُلازم الملاذَّ العامةَ من صَخَبٍ بالغ؟

وقد أُمْعِنَ في ردِّ المواهب المستحبَّة إلى فنون، وقد أُمعِنَ في تعميمها، وقد جُعِلَ كلُّ شيءٍ مبادئَ وقواعد، وقد أُورِث الشبابُ سأمًا شديدًا في كلِّ ما لا ينبغي أن يكون له غيرُ لهْوٍ وألعابٍ مَرِحة. ولا أتصوَّر أمرًا أدعى إلى السخرية من مشاهدة مُعلِّمٍ للرقص أو الغناء شائبٍ يقابل عابسًا شبابًا لا يطلُب غيرَ الضَّحك ويتخذ لتعليمه علمَه الطائشَ لهجةً أكثرَ حَذلَقةً وأعظمَ تَحَكُّمًا مما يَتَّخِذُ لو كان يُعلِّمُهم أُصولَ دينه. وهل فنُّ الغِناء مثلًا تابعٌ للموسيقا المسطورة؟ أَوَلا يمكن جعْلُ الصوت ليِّنًا مستقيمًا، وتَعلُّم الغِناء بالذوق، حتى بالمصاحبة، من غير أن تُعرَف نوتةٌ[٨]* واحدة؟ وهل يُلائم نوعُ الغِناء الواحد جميعَ

٨ * La note.

الأصوات؟ وهل يناسبُ عينُ المنهاج جميعَ النفوس؟ ولن أُحمَل على القول بأن عينَ الأوضاع وعينَ الخطوات وعينَ الحركات وعينَ الإشارات وعينَ الرقصات التي تُوافق صغيرةً سمراءَ نشيطةً جَذّابة توافقُ شقراءَ طويلةً حسناءَ ذاتَ عينَين ذابلتَين؛ ولذا فإذا ما رأيتُ مُعلِّمًا يُلقي على الاثنتَين ذاتَ الدروس تمامًا قلتُ: «إن هذا الرجلَ يتَّبِعُ رُتِينه، ولكنه لا يفقه شيئًا من فنِّه.»

ويُسْأل: هل يجب أن يكون للبنات مُعلِّمون أو مُعلِّمات؟ لا أدري، وإنما أريد ألَّا يحتجن إلى هؤلاء أو أولئك، وإنما أريد أن يتعلَّمن بحريةٍ ما يَمِلْنَ كثيرًا إلى تعلُّمه، وإنما أريد ألَّا يُرى طوافُ كثيرٍ من المهرِّجين المتبرِّجين في مُدننا طَوافًا غيرَ منقطع، ويَصْعُب عليَّ أن أعتقد أن ضَرَّ معاشرةِ هؤلاء النَّاس على الفتيات لا يكون أعظمَ من نَفْع دروسهم لهنَّ، وأن رَطانتَهم ولهجتَهم ومظاهرهم لا تَمنَحُ طالباتهم أوَّلَ ذوقٍ للتُّرَّهات المهمة لديهم كثيرًا، فلا يلبثن أن يَسِرْنَ على مثالهم جاعلاتٍ منها شُغلَهنَّ الوحيد.

وفي الفنون التي لا تهدف إلى غيرِ اللهو يصلُحُ كلٌّ أن يكون مُعلِّمًا لهن، ومن ذلك أبوهن وأمهن وأختهن وصديقاتهن ومرآتهن، ولا سيَّما ذوقُهن الخاص. ولا يجوز مطلقًا أن يُعرَضَ إلقاءُ دروسٍ عليهن؛ فالواجب يقضي بأن يكُنَّ اللائي يطلُبنَ ذلك، ولا يجوز مطلقًا أن يُؤتى عملٌ يُعَدُّ مكافأة؛ ففي هذه الأنواع من الدروس على الخصوص يكون النجاح الأوَّل في إرادة النجاح، ومع ذلك فإنه إذا كان لا بدَّ من الدروس المنتظمة فإني لا أقرِّر مطلقًا أيُّ الجنسين يجب أن يُعطِيها، ولا أدري هل يجوزُ أن يأخُذَ مُعلِّمٌ للرقص طالبةً فتاةً من يدها الناعمة البيضاء، وأن يحملها على تشميرِ تَنُّورَتها[٩*] ورفعِ عينيها وبسطِ ذراعيها وإبرازِ صدرها المُختَلج، وإنما أعلمُ أنه لا يُوجَد في العالَم مَن يستطيع إغوائي بأن أكون ذاك المُعلِّم.

ويتكوَّن الذوقُ بالحِذْق والمَناقب، وبالذوق يَتفتَّق الذهنُ تفتُّقًا غيرَ محسوس لمبادئ الجمال من كلِّ نوع، ثُمَّ لمبادئ الأخلاق التي ترجِعُ إليها، وقد يكون هذا من الأسباب في كون حِسِّ اللُّطف والحياء يَنسَابُ إلى البنات بأبكَرَ مما إلى البنين؛ وذلك لأن الذهاب إلى أن هذا الحِسَّ الباكرَ من عملِ المربيات ينطوي على جهلٍ بأسلوب دروسهن وبسَيْرِ الذهن

---

٩ * La jupe.

البشري. وتحتلُّ موهبةُ الكلام مكانَ الصدارة في فن الرَّوقان، وبهذه الموهبة وحدَها يُمكن أن يُضافَ فُتونٌ جديدٌ إلى مَن تُكِلُّ العادةُ حواسَّهم. ولا يُنْعِش الذهنُ البدنَ فقط، بل يُجدِّده من بعض الوجوه، وهو يُحيي المُحيًّا ويُحوِّلُه، وهو بالكلام الذي يوحي به يجعَل الانتباهَ المستكَدَّ سَنَدًا لعينِ المصلحةِ حولَ عينِ الغاية لزمنٍ طويل. ولجميع هذه الأسباب، على ما أعتقد، ينال البناتُ بسرعةٍ شيئًا من الهَذَر المستعذَب ويضعنَ نبراتٍ في أحاديثهن، حتى قبْلَ أن يشعُرْن بها وقبلَ أن يلهوَ النَّاس بالاستماع لها بعد قليل، حتى قبْل أن يستطِعن إدراكَها، والنَّاس يرقُبْنَ الساعةَ الأُولى لهذا الإدراك نُفوذًا إلى أوَّل شعورٍ على هذا الوجه.

ولسانُ النساء لَيِّن؛ فهن أبكرُ نُطْقًا من الرجال وأسهلُ كلامًا وألطفُ قولًا، وهنَّ يُتَّهَمْنَ أيضًا بأنهنَّ أكثرُ منهم حديثًا، وهذا ما يجب أن يكون، وسأحوِّل هذا اللومَ إلى ثناءٍ أيضًا، وذلك أن للفم والعينَين عندهنَّ نَفْسَ الفعل وذاتَ السبب. والرجل يقول ما يَعْلَم، والمرأة تقول ما يَروق، والرجل يحتاج إلى معرفةٍ ليتكلم، والمرأة تحتاج إلى ذوقٍ لتتكلم، والرجل يجب أن تكون لديه أمورٌ مفيدةٌ كغرضٍ رئيس، والمرأة يجب أن تكون لديها أمورٌ لطيفةٌ كغرضٍ رئيس، ولا يجب أن يكون بين كلامهما من أوجه الشَّبه غيرُ الصدق.

ولذا لا يجِبُ أن يُلجَمَ هَذَرُ البنات، كما يُلجَم هَذرُ البنين، بهذا السؤال الشديد، وهو: «ما فائدةُ هذا؟» بهذا السؤال الآخر الذي لا يَسهُل الجواب عنه، وهو: «ما الأثرُ الذي سيؤدي إليه هذا؟» وفي ذاك الدَّور الأوَّل من العُمُر، حين يعجزن عن تمييز الخير من الشر، لا يَكُن قاضياتِ أحد؛ فيجب أن يُلزِمْنَ أنفسَهنَّ بدستورٍ قاضٍ بألَّا يَقُلْنَ غيرَ ما يكون مُستحَبًّا عند مَن يخاطِبْنَ، والذي يجعلُ استعمالَ هذه القاعدةِ أكثرَ صعوبةً هو بقاؤها تابعةً للأُولى دائمًا؛ أيْ عدمُ الكَذِب مطلقًا.

وهنالك أجِدُ مصاعبَ كثيرةً أخرى أيضًا، غير أنها خاصَّةٌ بدَورٍ من العُمُر أكثرَ تقدُّمًا، وأمَّا الآن فلا يقتضي كوْن الفتيات صادقاتٍ غيرَ كونهن هكذا بلا غِلْظَةٍ. وبما أن هذه الغلظة غير ملائمةٍ لهن عن طبيعة، فإن من السهل أن تُعلِّمَهنَّ التَّربيةُ اجتنابَها. وألاحظ في معاشرة النَّاس على العموم أن أدبَ الرجال يكون مُسعِفًا وأدبَ النساء يكون مُلاطفًا، وليس هذا الفرْقُ وضعيًّا، بل طبيعي؛ فالرجل يَلوحُ أنه أكثرُ محاولةً ليخدمكم، والمرأة تَلوح أنها أكثرُ محاولةً لتروقكم؛ ومِنْ ثَمَّ يكون أدبُ النساء أقلَّ زُيوفًا من أدبنا مهما قيل عن أخلاقهن، وذلك أن ذاك الأدبَ لا يوجِبُ غيرَ توسيع غريزتهن الأُولى. ولكن متى تَظاهر الرجلُ بأنه يُفضِّل مصلحتي على مصلحته الخاصة لم يخامرني شكٌّ في أنه أتى أكذوبةً مهما حاول تمويهها؛ ولذا فإن كونَ النساءِ ذواتِ أدبٍ لا يُكلِّفُهن شيئًا، كما أنه لا

يكلِّف البناتِ شيئًا من حيث النتيجة، تَعَلُّمُهن أن يَصِرنَ ذواتِ أدب. ويأتي الدرس الأوَّل من الطبيعة، ولا يصنعُ الفنُّ غيرَ اتِّباعها وغيرَ تعيين الشكل الذي يبدو به الأدَبُ وَفْقَ عاداتنا. وأمَّا أدبُ النساء فيما بينهن فأمرٌ آخرُ تمامًا؛ فهنَّ يبلُغْنَ مِن جعْلِهنَّ له ظاهرًا من القَهْرِ وفاترًا من الالتفات ما لا يُعنَين معه بإخفاء ضيقِهن إذا تضايقن مبادلة، وهن يَلُحن من الإخلاص حتى في كَذِبهن ما لا يحاولن معه تنكيرَه، ومع ذلك فإن الفتياتِ يأتين من الصداقات أحيانًا ما ينطوي على أبلغِ صدق، ويقوم المَرَحُ في سِنِّهن مقامَ حُسنِ الوضع، وهن إذ كنَّ راضياتٍ عن أنفسهن فإنهن يكن راضياتٍ عن جميع النَّاس. ومن الثابت أيضًا أنهن يتلاثَمْنَ عن طيبةٍ ويتعانقن بأعظمِ لطفٍ أمامَ الرجال مختالاتٍ بشحذهن الحرصَ بلا عِقاب، وذلك بصورة الألطاف التي يَعْرِفن إثارةَ غَيْرتهم نحوَها.

وإذا كان من غير الجائز أن يُسمَح للبنين بأن يُورِدوا أسئلةً مخالفةً للرصانة، فإن من الأجدرِ أن تُحظَر على الفتيات اللاتي يكون لفضولهن عند قضائه وسوءِ إقصائه نتيجةٌ أخرى، وذلك نظرًا إلى بَصَرِهن الثاقب في تبيُّن ما يُكتَم عنهن من أسرار، وحِذْقهن في كشْف هذه الأسرار. ولكنني من غيرِ إباحةٍ لأسئلتهن أريد أن يُكْثر من وضعِ أسئلةٍ لهن، فيُعنَى بحَمْلهن على الكلام، ويُثَرْن تدريبًا لهن على الكلام بسهولة، وجعْلًا لهن سريعات في الجواب وحَلًّا لعقدة ذهنهن ولسانهن، ولكنْ بشرط السلامة. وتُسفِرُ هذه الأحاديث المحوَّلةُ إلى مَرَحٍ دائمًا، ولكن مع مداراةٍ بمهارةٍ وحُسْنِ توجيهٍ عن لهوٍ فاتنٍ في تلك السِّن، فيُمكِنُ أن تَحمِلَ في أفئدةِ هؤلاء الفتيات البريئة أوَّلَ ما يتلقَّيْنَ في حياتهن من دروسٍ في الأخلاق وأنفعَ ما يُمكِن من هذه الدروس، وذلك بتعليمهن، عن جَذْبٍ من اللذة والزهو، أيُّ الصفاتِ يَمنَحُ الرجالُ تقديرَهم بالحقيقة، وأيُّ الأمور يقوم عليها مَجْدُ المرأة الصالحة وسعادتُها.

ومما يُدْرَك جيِّدًا أن الذكورَ من الأولاد إذا كانوا عاجزين عن تكوينِ فكرةٍ حقيقيةٍ حوْل الدِّين؛ فمن الأحرى أن تكون عينُ الفكرة فوق متناوَل البنات، ولذاتِ العلة أريد أن أُسرع في مخاطبة هؤلاء عن الدِّين؛ وذلك لأنه إذا ما رُئيَ انتظارُ بلوغهن الحالَ التي يناقِشنَ فيها نقاشًا أُصوليًّا حول هذه المسائل العميقة وَقَعَ خَطَرُ عدمِ مكالمتهنَّ بعد ذلك في أمرِ الدين مُطلَقًا. ويُعَدُّ عَقْلُ النساء عقلًا عمليًّا، يَجِدْن به مع المهارة وسائلَ الوصولِ إلى الغرض المطلوب، ولكن مع عدمِ انتهائهن به إلى كشْفِ هذا الغرض. وتُعَدُّ صِلةُ الجنسين الاجتماعية أمرًا عجيبًا، وينشأ عن هذه الشركة شخصٌ معنويٌّ تكون المرأة عينَه ويكون الرجل ذراعَه، ولكن المرأة، باتِّباع كلٍّ من الجنسين للآخر، تتعلَّمُ من الرجل ما يَجِبُ أن

تَرَى، كما يتعلَّم الرجلُ من المرأة ما يَجِبُ أن يَعْمَل. وإذا كانت المرأة تستطيع — كما يستطيع الرجل — أن تطَّلع على المبادئ، وإذا كان الرجل يستطيع — كما تستطيع — أن يَنفُذَ في الجزئيات، فإنهما يعيشان في شقاقٍ دائم، ولا تستطيع شركتُهما أن تبقى، ولكنَّ كُلًّا منهما يَهْدِف إلى الغرض المشترَك بفعلِ ما يكون بينهما من انسجام، ولا يُعرَفُ أيٌّ منهما يكون أكثرَ تقديمًا من الآخر؛ فكلٌّ منهما يَتَّبعُ دافعَ الآخر، وكلٌّ منهما يُطيع، وكلاهما سيِّد.

وبما أن المرأةَ خاضعةٌ في سلوكها للرأي العامِّ فإنها خاضعةٌ في معتقَدِها للسلطان، ويجب أن تكون كلُّ بنتٍ على دينِ أمِّها، ويجب أن تكون كلُّ امرأةٍ على دينِ زوجها، وإذا كان هذا الدِّين على خطأ فإن الطاعة التي تَخْضع بها الأمُّ والأسرةُ لأمرِ الطبيعة تمحو ذَنْب الخطأ لدى الرب، وإذ يَعجِزُ البناتُ عن القضاء في أمر أنفسهن، فإنه يجب عليهن أن يتلقَّين حُكْمَ الآباء والأزواج كما يتلقَّيْن حكمَ الكنيسة.

وبما أن النساء لا يستطِعْنَ أن يستنبِطْنَ بأنفسهن قاعدةَ إيمانهن، فإنهن لا يستطِعْنَ أن يمنَحنَه حدودَ اليقين والعقل، ولكن بما أنهن يَدَعْنَ أنفسهن تُساق بألفِ دافعٍ أجنبي، فإنهن يَكُنَّ من ناحيةِ الحقِّ هذه أو تلك على الدوام. وبما أنهن متطرِّفاتٌ دائمًا، فإنهن يكن فاسقاتٍ أو تقيَّات، ولا يُرَينَ جامعاتٍ بين الحكمة والوَرَع مطلقًا، ولا يكون مَنْبع السوء في طبْع جنسهن المفرِط فقط، بل أيضًا في سلطان طبعِنا السيئ التنظيم أيضًا، ومن شأن فِسْق الطبائع أن يُزْدَرى الدِّين، ومن شأن رُعْب التوبة أن يكون الدين طاغيًا، وهكذا ترى كيف يكون الإفراط والتفريط فيه.

وبما أنَّ على السلطان أن يُعيِّنَ دِينَ النساء، فإن المهم هو في عَرْض ما يُعتَقَدُ عليهن بجلاءٍ أكثرَ مما في شرحِ ما يعتَقِدْن؛ وذلك لأن ما تُحْبَى به الأفكار الغامضة من إيمانٍ هو أوَّلُ مصدرٍ للتعصب، ولأن الإيمان الذي يُطْلَب من أجلِ أمورٍ مستحيلةٍ يؤدي إلى الجنون أو الكفر، ولا أدري أيُّ الأمرين أكثرُ ما تؤدي إليه كتب أصول الدين عندنا: الإلحاد أو التعصب، وإنما أعْرِفُ أنها تُسفِرُ عن هذا أو ذاك بحكم الضرورة.

وأوَّلُ ما يجب عليكم في تعليم الفتيات الدِّينَ ألَّا تجعلوا منه موضِعَ غمٍّ وضيقٍ مطلقًا، وألَّا تجعلوا منه شُغلًا ولا واجبًا مطلقًا؛ ومِنْ ثَمَّ لا تُعلِّموهن على ظهر القلب شيئًا خاصًّا به، حتى الصلوات، واكتفُوا بالقيام بصلواتكم أمامهن قيامًا منتظمًا، وذلك من غير إكراههن على حضورها، واجعَلُوا صلواتكم قصيرةً كما علَّم يسوعُ المسيحُ، وقوموا بها مع ما يناسبها

من جمْع الحواسِّ والإجلال، واذكُروا أننا عندما نَسأل الكائنَ الأعلى أن يلتفت إلى ما نقول يجدُر أن نُنْعِمَ النظرَ فيما نقصد أن نقول.

ومعرفةُ الفتيات لدينهن من فوْرهن أقلُّ أهميةً من معرفته جيِّدًا، ومن محبته على الخصوص، وإذا ما جعلتم الدِّين عبئًا عليهن، وإذا ما وصفتم الربَّ بأنه ساخِطٌ عليهن، وإذا ما فرضتم ألفَ واجبٍ شاقٍّ باسمه عليهن من غيرِ أن يَرَيْنَ قيامَكم بهذه الواجبات على الإطلاق، فما يُمكن أن يكون تفكيرُهنَّ غيرَ معرفتِهن أن كتابَ أصولِه والصلاةَ للربِّ من واجبات صغريات البنات مع رجائهن أن يكبَرن حتى يُعفَيْن مثلَكم من جميع هذا العناء؟ فالقدوة! القدوة! وبغيرِ القدوة لا يُكتَبُ نجاحٌ لشيءٍ لدى الأولاد.

ومتى شرحتم لهنَّ قواعدَ الدين فاجعَلوا هذا في شكلِ تعليمٍ مباشر، لا على شكلِ أسئلةٍ وأجوبةٍ. وليس من الواجب عليهن مطلقًا أن يقومَ جوابُهن على غيرِ ما يُفكِّرن فيه، لا على ما أُمْليَ عليهن. وجميعُ أجوبة كتاب قواعد الدين على طريقٍ معاكس؛ فالطالب فيها هو الذي يُعلِّم المُعلِّم، حتى إن هذه الأجوبة أكاذيبُ في فم الأولاد ما دام يوضِحون ما لا يَعْقِلون مطلقًا، وما داموا يُوَكِّدون ما يَعجِزون عن اعتقاد، وبين أذكى الرجال دُلُّوني على مَن لا يَكذِبون حين تلاوةِ كتابِ دينهم.

وأوَّلُ سؤالٍ أرَى في كتابِ ديننا هو: «مَن خَلَقكم وجَعَلكم في العالَم؟» فعن هذا السؤالِ تُجيب البنتُ بلا تردُّدٍ بقولها: «إنه الرب»، مع اعتقادها أنه أمُّها، والشيء الوحيد الذي تَرى هنالك هو أنها أتتْ عن سؤالٍ لا تُدرِكه مطلَقًا بجوابٍ لا تُدرِكه مطلقًا.

وأودُّ لو يَعْرِفُ رجلٌ سَيْرَ ذهنِ الأولاد، فيَضَع لهم كتابًا عن أصول الدين؛ فقد يكون هذا الكتاب أنفعَ ما كُتِبَ على الإطلاق، وعندي أنه لا يَقِلُّ عن هذا ما يحبو هذا الكتابُ مؤلفَه من فَخْر، ومما لا مِراء فيه أن هذا الكتاب إذا ما ظَهَرَ صالحًا لم يشابه كُتُبَنا الدينية مطلقًا.

وكتابٌ في الدِّين كهذا لن يكون صالحًا إلا إذا أسفرَ عن إتيانِ الولد عندما يُسأل أجوبةً من تلقاء نفسه، ومن غيرِ سابقِ تَعَلُّم، وهذا مع العِلم بأن الولدَ يكون أحيانًا في وضعٍ يسألُ معه عن أشياءَ بدوره، وإني لكي أَحمِلَ على إدراك ما أريد أن أقول أضطرُّ إلى ضَرْبٍ من النماذجِ وأشعُر بما يُعوِزُني لرسم هذا النموذج، ومع ذلك فإنني سأحاول إعطاءَ فكرةٍ طفيفةٍ عن ذلك.

ولذا فإنني أتمثَّل، لتناول السؤال الأوَّل من كتابنا الديني، بدْءَ ذلك كما يأتي تقريبًا:

المُرَبِّية: أتذكرين الزَّمنَ الذي كانت أمُّك ابنةً فيه؟

الصغيرة: كلَّا يا مُرَبِّيتي.

المُرَبِّية: ولِمَ كلَّا، مع أنك ذاتُ ذاكرةٍ جيدة؟

الصغيرة: ذلك لأنني لم أكن في الدنيا.

المُرَبِّية: إذن، لم تكوني حيَّةً دائمًا؟

الصغيرة: كلَّا.

المُرَبِّية: أتعيشين إلى الأبد؟

الصغيرة: نعم.

المُرَبِّية: هل أنت بُنَيَّةٌ أو شائبة؟

الصغيرة: أنا بُنيَّة.

المُرَبِّية: وهل جَدَّتُك بُنيَّة أو شائبة؟

الصغيرة: شائبة.

المُرَبِّية: وهل كانت بُنيَّة؟

الصغيرة: أجلْ.

المُرَبِّية: ولِمَ عادت لا تكونُ بُنيَّة؟

الصغيرة: ذلك لأنها شابَت.

المُرَبِّية: وهل تَشِيبين مثلها؟

الصغيرة: لا أعلم.[١٠]

المُرَبِّية: وأين ثيابُك في العام الماضي؟

الصغيرة: لقد فُتِقَت.

المُرَبِّية: ولِمَ فُتِقَت؟

---

[١٠] إذا ما وُضِعَتْ في كلِّ محل كلمةُ «لا أعلم» كان جوابُ الصغيرة على وجهٍ آخرَ، فيجب الاحتراز من جوابها وجعْلها توضِّحه بعناية.

الصغيرة: ذلك لأنها ضاقت عليَّ كثيرًا.

المُرَبِّية: ولِمَ ضاقت عليك؟

الصغيرة: لأنني كَبِرْت.

المُرَبِّية: وهل تَكبَرين أكثرَ مما أنتِ عليه؟

الصغيرة: وَيْ! نعم.

المُرَبِّية: وما يصير كُبرَياتُ البنات؟

الصغيرة: يَصِرْن نساء.

المُرَبِّية: وما يصير النساء؟

الصغيرة: يصِرْن أمهات.

المُرَبِّية: وما يصير الأمهات؟

الصغيرة: يَصِرْن شائبات.

المُرَبِّية: ستصيرين شائبةً إذَن؟

الصغيرة: متى صِرْتُ أمًّا.

المُرَبِّية: وما يصير الشائبات؟

الصغيرة: لا أعلَم.

المُرَبِّية: وماذا صار جَدُّك؟

الصغيرة: مات.[١١]

المُرَبِّية: ولِمَ مات؟

المُرَبِّية: لأنه كان شائبًا.

المُرَبِّية: وما يصير الشائبات إذَن؟

الصغيرة: يَمُتْن.

[١١] ستقول الصغيرة هذا لأنها سَمِعتْه، ولكنه يجب أن يحقَّق هل تُوجَد لديها فكرةٌ صحيحة عن الموت؛ وذلك لأن هذه الفكرة ليست من البساطة ومن متناول الأولاد بالمقدار الذي يُظَن، ومن الممكن أن يُرى في قصيدةِ أبيل الصغيرة مثالٌ عن الوجه الذي يعلمون به أمرَه، ويوحي هذا الأثر الفاتن ببساطةٍ حلوةٍ يُغذى بها في محادثة الأولاد.

المُرَبِّية: وأنتِ متى صِرتِ شائبةً ...

الصغيرة (مقاطعةً): وَيْ! لا أريد أن أموت يا مُرَبِّيتي.

المُرَبِّية: أيْ ابْنتي، لا يريد أحدٌ أن يموت، وجميعُ النَّاس يموتون.

الصغيرة: كيف! وهل تموت والدتي أيضًا؟!

المُرَبِّية: كجميع النَّاس؛ فالنساء يَشِبْن كالرجال، ويؤدي المشيب إلى الموت.

الصغيرة: وما يُفعَلُ لتأخير دَورِ المشيب؟

المُرَبِّية: الحياة بحكمة في دَوْر الصِّبا؟

الصغيرة: سأكون حكيمةً يا مُرَبِّيتي.

المُرَبِّية: هنيئًا لكِ، ولكن أتعتقدين أنك تعيشين إلى الأبد؟

الصغيرة: متى شِبْتُ كثيرًا، متى شِبْتُ كثيرًا ...

المُرَبِّية: حسنًا.

الصغيرة: والخلاصةُ أنك تقولين إنه لا بُدَّ من الموت عند المشيب.

المُرَبِّية: ستموتين ذاتَ يوم إذَن؟

الصغيرة: يا حسرتي! أجلْ.

المُرَبِّية: ومَن عاش قبلَك؟

الصغيرة: أبي وأمي.

المُرَبِّية: ومَن كان يعيش قبلهما؟

الصغيرة: أبوهما وأمهما.

المُرَبِّية: ومَن يعيشُ بَعدكِ؟

الصغيرة: أولادي.

المُرَبِّية: ومَن يعيش بعدهم؟

الصغيرة: أولادهم ... إلخ.

وإذا ما سُلِكَتْ هذه السبيلُ دلَّ الاستقراء الواضح على أنَّ للجنس البشري بُداءةً ونهايةً كما لجميع الأشياء، أي أبٌ وأمٌّ لم يكن لهم أبٌ ولا أم، وأولادٌ لن يكون لهم أولادٌ مُطلَقًا.[١٢]

---

[١٢] لا يمكن تطبيقُ فكرةِ الخلود على الأجيال البشرية تطبيقًا موافقًا للعقل؛ فكل سلسلة عددية يقع ردُّها إلى فعلٍ تكون مناقضة لهذه الفكرة.

وليس بغيرِ سلسلةٍ طويلةٍ من مثلِ هذه الأسئلة ما يُهيَّأُ معه السؤال الأوَّل من كتاب الدِّين بما فيه الكفاية، ولكن ما أوسع الوثوبَ من هنالك حتى الجوابِ الثاني الذي يُعرَّف به الكُنْهُ الإلهيُّ كما أقصِدُ أن أقول! ومتى تُملأ هذه الفاصلة؟ والرَّبُّ روحٌ! وما الروح؟ وهل أُرَكِّبُ الولدَ هذا المركبَ من إبهامِ ما بعد الطبيعة الذي يلاقي الرجالُ كثيرًا من المشقة للخروج منه؟ ولا تطالَبُ البنتُ الصغيرة بحلِّ هذه المسائل، ومن الكثير أن تَضَعَها، وهي إذا ما وضعتها أجبتُ عنها ببساطة: «أنت تسألين عن الرب، فليس من السهل قولُ هذا؛ فلا يمكن أن يُسمَع الربُّ ولا أن يُرى ولا أن يُلمَس، وهو لا يُعرَف بغيرِ أعماله، وانتظري معرفةَ ما صَنَعَ حتى تَعرفي مَن هو.»

وإذا كانت جميع عقائدنا من ذات الحقيقة، فإن جميعها ليس من ذاتِ الأهمية، وليس مما يُبالي به جلالُ الربِّ أن نعرفه في كلِّ أمر، ولكن مما يُهِمُّ المجتمعَ البشريَّ وكلَّ عُضوٍ من أعضائه أن يَعْرف كلُّ إنسان ما تفرِضُه عليه سُنَّةُ الربِّ من الواجبات نحوَ نفسه وجاره، وأن يقوم بهذه الواجبات. وهذا ما يجب أن يُعلِّمه كلٌّ مِنَّا للآخر دائمًا، وهذا ما يُلْزَم الآباءُ والأمهاتُ بتعليمه لأولادهم. وسواء أكان كُنه الأب والابن واحدًا أم متشابهًا، وسواءٌ أصدرت الروح عن أحد الاثنَين اللذين هما هما أمْ عن الاثنَين معًا، لا أرى أن تقرير هذه المسائل الجوهرية ظاهرًا أهمُّ للنوع البشريِّ من معرفة أيٍّ من أيام القمر يجب أن يُحتَفَل فيه بعيد الفِصْح، ومن وجوب أو عدم وجوب التسبيح والصوم والانقطاع عن أكل اللحم والدُّهن، واستعمال اللاتينية أو الفرنسية في الكنيسة، وتزيين الجُدران بالصور، وإقامة القُدَّاس وسماعه وعدم الاختصاص بامرأةٍ مُطلَقًا. وليُفكِّر كلُّ واحدٍ في ذلك كما يروقه، وأجهلُ ما يمكن أن يكون للآخرين من مصلحةٍ في ذلك. وأمَّا أنا، فلا أُبالي بذلك مطلقًا، وإنما الذي أُبالي به أنا وجميع أمثالي هو أن يَعْرِف كلُّ واحدٍ وجودَ حاكمٍ في مصيرِ النَّاس، فنُعَدُّ كلُّنا أولادًا له، فيأمُرنا بأن نكون أبرارًا وبأن نتحابَّ، وبأن نكون رحماء محسنين، وبأن نوفي بعهودنا نحوَ جميعِ العالم، حتى نحو أعدائنا وأعدائه، وأن نعرف أن سعادة هذه الحياة الظاهرة ليست شيئًا يُذْكَر، وأنه يوجد بعدها حياةٌ أخرى يكافئ هذا الكائنُ الأعلى فيها الأبرارَ ويَدينُ الأشرار. فهذه العقائد وما ماثلها هي التي يُهِمُّ تعليمُها للشبيبة وإقناعُ جميع المواطنين بها، ولا ريبَ في استحقاق مَن يناهضها للعِقاب، لِمَا يكون بهذا مُخِلًّا بالنظام عدوًّا للمجتمع. ومَن يُجاوِز هذه العقائد ويُرِدْ إخضاعنا لآرائه الخاصة يَصِلْ إلى ذات النقطة عن طريقٍ معاكسة، وهو يُعكِّرُ السلام من حيث إقامتُه النظامَ على نَمَطه، وهو

ينتصِبُ تُرْجمانًا للألوهية عن زهوٍ مُغامِر، وهو باسمها يُطالِب النَّاسَ بضُرُوبِ الطاعة والإجلال، وهو يجعلُ من نفسه إلهًا ما استطاع إلى هذا سبيلًا. وهذا الآدميُّ هو مَن يجبُ أن يُجازَى كمُدنِّسٍ للقُدْسيات إذا لم يُعاقَب كمتعصِّب.

ولذا فانْبِذوا جميعَ تلك العقائدِ الحافلةِ بالأسرار، والتي نَعُدُّها ألفاظًا بلا أفكار، انبِذوا جميعَ هذه المذاهبِ الغريبةِ التي تقوم دراستُها الباطلةُ مقامَ الفضائل لدى مَن يزاولونها والتي تنفَع لجعْلهم مجانينَ أكثرَ من جعْلهم صالحين. وأمسِكوا أولادَكم دائمًا ضِمنَ دائرةٍ وثيقةٍ من العقائدِ التي تتصل بالأخلاق، وأقنِعُوهم بأنه لا شيءَ تنفَعُ معرفتُه أكثرَ مما يُعلِّمُنا صُنعَ الخير. ولا تَجعلوا مِن بناتكم، مُطلَقًا، لاهوتياتٍ ولا مُبَرْهِنات، ولا تعلِّموهنَّ من أمور السماء شيئًا غيرَ ما ينفع للحكمة الإنسانية، وعوِّدوهنَّ الشعورَ بأنهنَّ تحت عينَي الربِّ دائمًا، وجَعْلَ اللهِ شاهدًا على أفعالهن وأفكارهن وفضائلهن وملاذِّهن، وعملَ الخيرِ بلا فَخْرٍ لأن الله يحبُّ هذا، واحتمالَ الأذى بلا تذمُّرٍ لأن الله سيُعوِّضُهنَّ من هذا. ثُمَّ أن يَكُنَّ في جميع أيام حياتهن ما تَقَرُّ به أعينُهن حين المُثول بين يديه؛ فهذا هو الدِّين الصحيح، وهذا هو الدِّين الوحيد الذي لا مكانَ فيه لسوء الاستعمال والإلحاد والتعصُّب، ودَعُوا بعضَهم يُبشِّرون بدينٍ أسمى منه ما شاءوا، وأمَّا أنا فلا أعترف بدِينٍ غيرِ هذا مُطلَقًا.

ومع ذلك يَحْسُنُ أن يلاحَظَ أنه، حتى العُمُر الذي يستنير فيه العقل، والذي يحمل الشعورُ الناشئُ فيه ضميرَ الإنسان على الكلام، يكون ما هو خيرٌ أو شَرٌّ لدى الفتياتِ هو ما يُقرِّرُ مَن يحيط بهن من النَّاس أنه هكذا، فما يُؤمرْن به هو خير، وما يُنهَينَ عنه هو شَر، ولا يُطالَبن بمعرفةِ ما هو أكثرُ من هذا؛ ومِنْ ثَمَّ يُرى ما يكون من أهميةٍ تكون عندهن أعظمَ مما عند الصِّبيان في اختيار الأشخاص الذين يجوز أن يعاشروهن وأن يمارسوا سلطانًا عليهن، ثُمَّ يأتي الوقتُ الذي يبدأن فيه بالحُكم في الأمور بأنفسهن، وهنالك يَحِلُّ الزَّمنُ الذي يُغَيَّرُ فيه مِنهاجُ تربيتهن.

ومن المحتمل أن أَفضْتُ في الكلام عن ذلك حتى الآن، وإلَامَ نَرُدُّ النساء إذا لم نجعل لهنَّ دستورًا غيرَ المُبْتَسَراتِ العامة؟ ولا نَخْفِضْ إلى هذه النقطة ذلك الجنسَ الذي يحكم فينا، والذي يُشرِّفنا إذا لم نُذِلَّه. ويُوجَد لجميع النوع البشري قاعدةٌ أقدمُ من الرأي العام، ويجب أن تُردَّ جميعُ المناحي الأخرى إلى هذا المُوجِّه الذي لا يَنثني، ويُعَدُّ هذا الموجِّهُ حَكَمًا حتى في المُبْتَسَر، ولا يكون لتقديرِ النَّاس سلطانٌ علينا إلا بمقدارِ ما يوافِق هذا التقديرُ ذاك المُوجِّه.

والشعورُ الباطنيُّ هو تلك القاعدة، ولا أُكرِّرُ مطلقًا ما قيلَ عنه فيما تقدَّم، ويكفيني أن أُلاحظ أن هاتَين القاعدتَين إذا لم تساعدا على تربية النساء كانت هذه التَّربية ناقصة؛ فما كان الشعور بغيرِ الرأي العامِّ ليُنْعِم عليهن مُطلقًا بلطافةِ الروح التي تُجَمِّل جَميلَ الطِّباع بإجلال النَّاس، وما كان الرأي العام بغيرِ الشعور ليُسفر عن غيرِ نساءٍ فاسداتٍ خبيثاتٍ يضعن الظاهرَ موضعَ الفضيلة.

ولذا فإن من المهمِّ عندهن تعهُّد موهبةٍ تصلُح حَكَمًا بين الدليلين، فلا تَدَعُ الشعورَ يَضِلُّ مطلقًا مُقوِّمة أضاليلَ المُبْتَسَرات، وهذه الموهبة هي العقل، ولكن ما أكثرَ المسائلَ التي تُثيرها هذه الكلمة! وهل يستطيع النساء أن يأتين ببُرهانٍ متين؟ وهل من المهمِّ أن يتعهَّدْنه؟ وهل يتعهَّدْنه بتوفيق؟ وهل هذا التعهُّد نافعٌ للوظائف المفروضة عليهن؟ وهل هو موافقٌ للبساطة التي تلائمهن؟

ومن شأن مختلفِ الأساليب التي تواجَه بها هذه المسائلُ وتُحَلُّ أن يُذهَب إلى الحدَّين المتناهيين المتناقضين، فيَقصُرَ بعضُهم المرأةَ على الخيطِ والغَزْل في منزلها مع خادماتها؛ فلا يجعلوا منها بهذا غيرَ خادمةِ السيدِ الأُولى، ولا يَرضى الآخرون بضمان حقوقها فيجعلونها تغتصب حقوقنا، وإلا فما يكون تركُها فوقنا في الصفات الخاصة بجنسها، وجعلُها مساويةً لنا في جميعِ الصفاتِ الأخرى، غيرَ نقلِ الصدارة التي تُنعِم الطبيعة بها على الزوج إلى المرأة؟

وليس العقلُ الذي يَسُوق الرجلَ إلى معرفةِ واجباته كثيرَ التعقيد، ويكون العقلُ الذي يسوقُ المرأة إلى معرفة واجباتها أكثرَ بساطةً أيضًا، ويكون الانقيادُ والإخلاصُ المُلزَمةُ بهما نحوَ زوجها، ويكون اللطفُ والرعايةُ المُلزَمةُ بهما نحوَ أولادها، نتائجَ تبلغ من ملاءمة الطبيعة ومن التأثُّر بحالها ما لا تستطيع معه بلا سوءِ نِيَّةٍ أن تَرفِض موافقتَها على الشعور الباطنيِّ الذي يُوَجِّهُها، ولا أن تُنكِرَ الواجبَ ضِمنَ مَيلِها الذي لم يَفْسُد بَعد.

ولا أعْذِلُ مِن غيرِ تمييز اقتصارَ المرأة على أشغال جنسها فقط، وأن تُترَكَ ضِمن جهلٍ عميقٍ بغير هذه الأشغال، ولكن هذا يتطلب طِباعًا عامةً كثيرةَ البساطةِ كثيرةَ السلامة أو طرازَ حياةٍ كثيرَ الاعتزال، وتكون هذه المرأة في المدن الكبيرة وبين الرجال الفاسدين سهلةَ الإغواء، ويكون طُهْرُها تابعًا للأحوال في الغالب، ولا بُدَّ لها من ابتلاءٍ في عصر الفلسفة الحاضر، فيجب أن تَعرف مُقدَّمًا ما يُمكِن أن يُقال لها وما يُمكِن أن يدور في خَلَدها حوْل ما يُقال لها.

وهي إذ كانت خاضعةً لحُكم الرجال فضلًا عن ذلك، وجبَ أن تستحقَّ تقديرهم، ولا سيَّما تقديرُ زوجها، ومن الواجب ألَّا تقتصرَ على تحبيب نفسها إلى زوجها، بل يجب أن

تجعله يستحسن سلوكها، ويجب أن تُسوِّغ أمامَ النَّاس ما أتتْ من اختيار، وأن تَحمِل على إكرام الزوج بالإكرام الذي تُحْبَى به المرأة. ولكن كيف تَقوم بجميع هذا إذا كانت تَجهل نُظُمَنا، وإذا كانت لا تَعرف شيئًا عن عاداتنا وآدابنا، وإذا كانت لا تَعرف مصدر أحكامنا البشرية ولا تَعرف الأهواء التي تقضي بها؟ وبما أنها تابعةٌ لضميرها وآراء الآخرين معًا، فإن من الواجب أن تتعلَّم كيف تقارنُ بين هاتَين القاعدتَين وأن تُوَفِّق بينهما، وألَّا تُرجِّحَ الأُولى إلا عند اختلافهما. وهي تَصيرُ قاضيةَ قضاتها، فتُقرِّرُ متى يجب أن تُذْعن لهم ومتى يجب رَفْضهم، وهي تَزِنُهم قبْل رفضِهم أو قبولهم، وهي تتعلَّم بلوغَ منبعهم وتحذيرَهم وجعلَهم ملائمين، وهي تُعنى بألَّا تَجلِب اللومَ إلى نفسها إذا ما سَمَح لها واجبُها باجتنابه، ولا شيءَ من جميع هذا يُمكِن أن يتمَّ جيِّدًا من غير تثقيف ذهنها وعقلها.

وأعودُ إلى المبدأ دائمًا؛ فهو يُزوِّدُني بحلِّ جميع مشاكلي، وأدرُس ما هو كائن وأبحث عن عِلَّته، ثُمَّ أجِدُ أن ما هو كائنٌ هو حَسَن، وأدخُل البيوتَ المفتوحة التي يقوم ربُّها وربَّتُها معًا بحُسنِ استقبال النَّاس، وقد نال كلٌّ منهما عينَ التَّربية، ويتصف كلٌّ منهما بأدبٍ متساوٍ، وكلٌّ منهما مُجهَّزٌ بذوْقٍ وذهنٍ على السواء، ويساور كلًّا منهما عينُ الرغبة في حُسن استقبال النَّاس وفي تشييع كلٍّ منهم راضيًا عنهما. ولا يألُ الزوج جُهدًا في التفاته إلى كلِّ واحدٍ ذاهبًا آيبًا طائفًا، محتملًا ألفَ عَناء، قاصدًا أن يَكونَ انتباهًا خالصًا. وتَظل الزوجة في مكانها، وتلتفُّ حولَها حلْقةٌ صغيرة، فيلوح أنها تحجُب عنها بقية المجلس، ومع ذلك فإنه لا يغيب عنها شيء، ولا يخرج أحدٌ لم تكن قد حادثته، وهي لم تُهمِل شيئًا يمكن أن يُمتِع كلَّ واحد، وهي لم تَقُل لأحدٍ شيئًا غيرَ مُستحَبٍّ لديه. ولم يُغْفَل أصغرُ مَن في المجلس أكثرَ من إغفال الأوَّل فيه، وقد أُعِدَّت المائدة، وقد جلس كلُّ واحدٍ في مكانه، وذلك أن الزوج المطَّلع على المتوافقين من الحضور وَضَعَهم وَفْقَ ما يَعْرِف، وأن المرأة التي لم تَعرف شيئًا من ذلك لم تُخادَعْ بذلك؛ فهي كانت قد قرأت في العيون والأطوار جميعَ الموافقات، فوجدت كلَّ واحدٍ جالسًا كما كان يَود. ولا أقول مطلَقًا إنه لم يُنْسَ أحدٌ من قِبَل الخَدَم، وكان يُمكِن ربَّ المنزلِ ألَّا يَنسى أحدًا حين طوافه حوْل الجميع، ولكن المرأة تُبصِر ما يُنظَر إليه برغبةٍ فتقدِّم إليكم منه، وبينما تُحدِّث المرأةُ جارَها تلاحِظ آخرَ المائدة، فتميزُ مَن لا يأكل مطلقًا لأنه غيرَ جائعٍ مِن الذي لا يجرؤ على تناول شيءٍ أو طلبِ شيءٍ عن خَرَقٍ أو حياء، وإذا ما تُرِكَت المائدةُ اعتقدَ كلُّ واحدٍ أنها لم تفكِّر في غيره، ورأى الجميع أنه لم يكن عندها من الوقت ما طَعِمَت فيه قطعةً واحدةً مع أنها أكلت أكثرَ مِن كلِّ واحدٍ في الحقيقة.

ومتى انصرف الضيوفُ حُدِّث عما وقع، ويروي الزوج ما قيلَ له وما قالوا وما تمَّ بينه وبين مَن حادثهم، وإذا لم تكن المرأةُ أصدقَ حديثًا في ذلك دائمًا فإنها بالمقابلة قد أبصرتْ ما قيل هَمسًا في الطَّرَف من البهو، فتعرف ما فكَّرَ فيه هذا أو ذاك كما تعرف معنى هذا القول أو مغزى تلك الإشارة، ولم تَكَدْ تقع حركةٌ ذاتُ دَلالةٍ لم تكُن مستعدةً لتفسيرها وفْق الحقيقة تقريبًا.

ومن شأن مرونة الذهن التي تجعل المرأةَ العصريةَ بارعةً في فنِّ القِرَى أن تجعل المِغْناج بارعةً في فنِّ إلهاء كثيرٍ من العشاق، حتى إن الغُنَاج يقتضي بصيرةً أدقَّ مما يقتضيه الأدب؛ وذلك لأن المرأة المهذَّبة تكون على شيءٍ من حُسْن الصُّنْع دائمًا إذا ما كانت ذاتَ أدبٍ واحدٍ نحوَ جميع النَّاس، وأمَّا المِغْناج فإنها لا تَلبث أن تَخسر سلطانَها بمثل هذه النمطية الخرقاء، فينفضُّ جميعُ عُشَّاقِها من حوْلها عن قصدِها إرضاءهم على السواء، وفي المجتمع لا تَترُك الأوضاعُ التي تُتَّخَذُ نحوَ جميع النَّاسِ قولًا لقائل، وفي المجتمع لا يُنظَرُ إلى التفضيلات عن كَثَبٍ بشرط حُسْنِ المعاملة، ولكنَّ المحاباة في الحُبِّ تُعَدُّ إهانةً إذا لم تكن حَصْرًا، ويُفضِّل الرجلُ الحسَّاسُ مائةَ مرةٍ أن يُؤذَى وحدَه على أن يُلاطَف مع الآخرين جميعًا، ويكون شَرُّ ما يُصابُ به هو ألَّا يُمازَ مطلقًا؛ ولذا فإنَّ من الواجب على المرأة الراغبة في الاحتفاظ بكثيرٍ من العشاق أن تُقنِعَ كلَّ واحدٍ منهم بأنها تُفضِّلُه، وأن يقعَ إقناعُها هذا على أعينِ الآخرين، فيقنَعَ كلُّ واحدٍ من هؤلاء بأنه المُفضَّل.

وإذا أردتم أن تَرَوا رجلًا حائرًا فضعوه بين امرأتَين تكون بينه وبين كلٍّ منهما علاقاتٌ سِرِّية، ثُمَّ لاحظوا أيُّ وجهٍ بليدٍ يكون له هنالك، وضَعوا في مثل ذات الحال امرأةً بين رجلين لتَرَوا أن العِبْرَةَ لا تكون أكثرَ نُدرَةً لا ريب، وذلك أنكم تَقضون العجبَ من البراعة التي تخادِع بها الاثنَين وتجعلُ كلًّا منهما يضحك من الآخَر، والواقع أن هذه المرأة إذا كانت تُظهِر لهما ذاتَ الثقة، وتَحبوهما بذاتِ الزُّلْفى، فكيف يُخدعان بها طَرْفةَ عين؟ وإذا كانت تعاملهما معاملةً متساوية، أفلا تدلُّ على وجودِ نفسِ الحقوق لهما عليها؟ ويْ! إنها أكثرُ حذَرًا من هذا! إنها بعيدةٌ من معاملتهما على وجهٍ واحد، إنها تتظاهر بجعْل تفاوتٍ بينهما، إنها تبلُغُ من الحِذْق ما يَعْتقد معه الذي تُداريه أن مداراتَه ناشئةٌ عن حُنوٍّ منها، وما يعتقد معه الذي تُسيء إليه أن إساءتها هذه واقعةٌ على الرغم منها، وهكذا فإن كلَّ واحدٍ راضٍ بنصيبه معتقِدًا أنها تَشغَل بالَها به مع أنها لا تُفكِّرُ في غيرِ نفسها بالحقيقة.

والدَّلال، من حيثُ الرغبةُ العامةُ في الرَّوَقان، يُوحي بوسائلَ مماثلة، والأهواءُ لا تُوجِبُ غيرَ الاستنكاف إذا لم تُدَارَ بحكمة، وهي إذا ما وُزِّعَت ببراعةٍ أَسْفرت عن سلاسلَ وثيقةٍ من العبيد.

«فالمرأةُ تتخذُ جميعَ الحِيَل حتى تنالَ بأشراكِها عاشقًا جديدًا، وهي لا تحافظُ على ذاتِ الوجهِ نحو الجميعِ ولا في كلِّ حين، ولكنها تُغَيِّرُ وضْعَها ومنْظرَها على حَسَبِ الأوقات.»

وما سَنَدُ هذا الفنِّ إذا لم يَقُم على ملاحظاتٍ دقيقةٍ دائمةٍ تُبصِرُ بها في كل ثانية ما يدور في خَلَد الرجال وتُعِدُّها عند كلِّ حركةٍ خفيةٍ تُدركها لحمْل ما يجب من قوةٍ لِعَوْق هذه الحركة أو تعجيلها؟ وهل يُتعَلَّمُ هذا الفن إذن؟ كلَّا، وإنما يُولد مع النساء، وجميعُ النساء حائزاتٌ له، ولم يَحُزه الرجالُ بهذا المقدار قَط، وهذا من خصائص الجنس النسوي البارزة؛ فحُضور الذهنِ والبصرُ النافذُ والملاحظاتُ الدقيقةُ أمورٌ تُعَدُّ عِلْمَ النساء، ويقوم نُبوغُ النساء على البراعة في الانتفاع بهذا العلم.

وهذا ما هو كائن، وقد رأينا السببَ في كينونةِ هذا، ويُقال لنا إن النساء زائفات، وهن يصرن زائفات، والشطارةُ لا الزيوفُ هي موهبتُهن الخاصة، وليس النساءُ زائفاتٍ في مُيُول جنسهنَّ الحقيقية، ولو كَذَبْن، ولِمَ تستشيرون فَمَ النساء، وهو الذي ليس له أن يتكلم؟ وإنما استشيروا عيونهن وسَحْنَتَهن وتنفُّسَهن وهَلَعَهن ومقاومتَهن الناعمة، وهذا هو اللسان الذي أنعمتْ به الطبيعة عليهن ليُجِيبَكم. أجلْ، إن الفمَ يقول: «كلَّا»، وهذا هو الذي يجب أن يقول، ولكنَّ النبرةَ التي تُضيفُها إلى هذه الكلمة ليست على وتيرةٍ واحدةٍ دائمًا، وهذه النبرة هي التي لا تَعْرِف الكَذِب مطلَقًا. أَوَليس لدى المرأة عينُ احتياجاتِ الرجل، وذلك من غيرِ أن يكون لها عينُ الحقِّ في إبدائها؟ يكون نصيبُها جائرًا جِدًّا لو كانت عاطلة، حتى في الرغائب المُحلَّلَة، من لسانٍ يَعْدِلُ الذي لا تَجْرؤ على استعماله، وهل يجب أن يجْعَلها حياؤها شَقِيَّة؟ أَوَلَا تحتاج إلى فنٍّ تُطْلِعُ به على مُيُولها من غيرِ أن تَكشِفَها؟ ويا لاحتياجها إلى براعةٍ تُخفي بها ما تتلظَّى شوْقًا إلى الموافقة عليه! وما أكثرَ ما يُهِمُّها أن تَعْرف مسَّ فؤادِ الرَّجل من غيرِ أن تَظْهَرَ أنها تُفكِّر فيه! ويا لَلْكلام الذي تنطوي عليه تُفَّاحةُ غَلَاتِه وفِرارِها الأخرق! وما كان عليها أن تُضيف إلى ذلك؟ وهل تَذهبُ لتقول للراعي الذي يَتعقَّبها بين الصَّفْصاف إنها لم تهْرُب إلا لاجتذابه؟ ولو قالت هذا لَكَذِبَت؛ وذلك لأنها تعود هنالك غيرَ مجتذِبةٍ له. وكلَّما كانت المرأة محتشمةً وجبَ أن تكون حاذقةً

حتى مع زوجها، نعَمْ إنني أذهب إلى أنها إذا وضعت الدَّلال ضِمْنَ حدوده كانت صادقةً خجْلَى، فجُعِلَ من هذا ناموسٌ في الحياء.

وقد أجاد أحدُ خصومي في ادعائه أن الفضيلة واحدة، فلا تُجزَّأ لقبول قسمٍ ونبذِ القسم الآخر. وهي إذا ما أُحِبَّت أُحِبَّتْ كاملة، ويُمنع القلبُ إذا ما أمكن، ويُحبس الفم دائمًا دون المشاعر التي لا ينبغي أن تكون مطلقًا. وليست الحقيقة الأدبية ما هو كائن، بل ما هو حَسَن، ولا ينبغي أن يكون ما هو سيئٌ مُطلَقًا، كما لا ينبغي أن يُعتَرَف به، ولا سيَّما إذا كان هذا الاعتراف يجعَل له من الأثر الذي لا يكون لولا وقوعُه. وإذا ما أُغرِيتُ بالسرقة فأَغرَيتُ آخرَ أن يكون شريكي باعترافي له بذلك، أفلا ينطوي تصريحي له بإغرائي على إذعانٍ لذاك الإغراء؟ ولِمَ تقولون إن الحياء يجعل النساء زائفات؟ وهل يكون اللائي يفقِدْنه أكثرَ من غيرهن أصدقَ من هؤلاء؟ كلَّا، وإنما يكنَّ أكثرَ زيوفًا منهن ألفَ مرة، ولا يُبلَغ هذا الحدُّ من فساد الأخلاق بغيرِ المعايب التي تُحْفَظُ كلُّها والتي لا تَسُود بغيرِ الدسائس والكَذِب.[١٣] وعلى العكس يكون اللاتي لا يَزَلْنَ ذواتِ حياء، واللائي لا يُفاخِرن بخطيئاتهن مطلقًا، واللواتي يَعْرِفْن كتْمَ رغائبِهن حتى عن الذين يوحون بها إليهن، ومَن لا يُنْزع منهن الاعترافُ إلا بأعظمِ عناء؛ أكثرَ النساءِ صِدقًا وإخلاصًا وثباتًا في جميع عهودهن، وأكثرَ مَن يُمكِن أن يُركَنَ إلى عهودهن على العموم.

ولا أَعرِف غيرَ الآنسة دُولَنْكلُو مَن أَمكن إيرادُها استثناءً معروفًا لهذه الملاحظات، ومع ذلك فقد عُدَّت الآنسةُ دُولَنْكلو نادرةَ زمانها، ويُروَى أنها حافظت على فضائل جنسنا عن ازدراءٍ لفضائلِ جنسها، فيُثنى على إخلاصها واستقامتها وضمان عِشْرَتها ووفائها في الصداقة، ثُمَّ أُتِمَّت صورةُ مجْدِها بأن تحوَّلت إلى رجل، حبَّذا، ولكنني ما كنت لأريد أن يكون هذا الرجلُ صديقًا لي أكثرَ من أن يكون خليلةً لي على ما يتمتع به من شهرة واسعة.

---

١٣ أعْرِف أن النساء اللائي التزمْن سلوكًا معيَّنًا علانيةً يزعمن أن جهرَهن هذا أثْبتُ لشأنهن، وهن يحلفْن أنهن حائزاتٌ لجميع الفضائل عدا واحدة، ولكنني أعْرِف جيِّدًا أيضًا أنهن لن يُقْنِعن بهذا غيرَ الأغبياء. وإذا زال أعظمُ زاجرٍ لجنسهن، فما الذي يبقى رادعًا لهن؟ وما الشرفُ الذي يُقام له وزنٌ عندهن بعد أن تَنزِلْن عن شرفِهن الخاص؟ لم يبقَ عندهن أيُّ سبب لضبط النفس بعد أن خضعن لأهوائهن؛ «فالمرأة إذا ما فقدت حياءها لم يبقَ عندها شيء تمنعه.» وهل عَرف أيُّ مؤلِّفٍ قلبَ الإنسانِ في الجنسين أحسنَ مما عَرف هذا المؤلِّف؟

وليس جميعُ هذا خارجًا عن الموضوع كما يَلوح، وأُبصِرُ أين تميلُ مبادئ الفلسفة الحديثة بتحويلها حياءَ الجنسِ النسوي وزُيوفَه المزعومَ إلى سُخْرية، وأُبصِرُ أن أثبَتَ أثرٍ لهذه الفلسفة هو أن يُنزَع من نساء عصرنا ما بقيَ لهن من شرفٍ قليلٍ.

وأعتقد، بعد النظر إلى هذه الاعتبارات، إمكانَ تعيينِ نوع الثقافة الملائم لذهن النساء، وما يُمكِنُ أن تُوجَّه إليه تأملاتُهن من موضوعاتٍ منذ فَتَائهن.

ومعرفةُ واجباتِ جنسهنَّ أسهلُ من إنجازها كما قُلتُ فيما تقدَّم، وأوَّلُ شيءٍ يجب أن يتعلمْنَه هو حُبُّهن لهذه الواجبات نظرًا إلى فوائدها، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لجعْلها سهلة. ولكلِّ حالٍ ولكلِّ سنٍّ واجباتُها، ونحن لا نلبث أن نعرف واجباتِنا إذا ما أحببناها، فأكرِموا حالَكن كامرأة، ومهما يَكُنِ المكانُ الذي يَضَعُكُن فيه الربُّ فإنكن تكنَّ نساءَ خيرٍ دائمًا، والمهمُّ أن تكنَّ كما صَنَعتكن الطبيعة، وليس النساء غيرَ كثيراتِ الاستعداد ليكُنَّ كما يريد الرجال.

وليس مِن نابضِ النساءِ بحثُهن عن الحقائقِ المجرَّدةِ والنظرية، وعن المبادئ والأوَّليات في العلوم، وعن كلِّ ما يميلُ إلى تعميم الأفكار، وإنما يجب أن تُرَدَّ دراساتهن إلى العمل؛ فعليهنَّ أن يَقُمْنَ بتطبيقِ ما وجَدَه الرَّجلُ من مبادئ، وهنَّ يأتين بالملاحظات التي تَسُوقُ الرجلَ إلى إقامة المبادئ. ويجب أن تهدف جميعُ تأمُّلات النساء في كلِّ ما لا يتعلَّق بواجباتهن المباشرة إلى دراسة الرجال والمعارف اللطيفة التي ليس لها موضوعٌ غير الذوق؛ وذلك لأن آثارَ العبقريةِ تُجاوِز متناولهن، ولأنه ليس لديهن من الإصابة والانتباه ما يُوَفَّقْن معه في العلوم الصحيحة. وأمَّا من حيث المعارفُ الفِزْيوية، فالجنسُ هو أكثرُ فَعَّاليةً وإقدامًا وبَصَرًا بالأمور، والذي هو أكثرُ قوةً وممارسةً لهذه القوة، هو الذي يَحكم في العلاقات بين الموجودات الحساسة وسُنن الطبيعة. والمرأة، وهي الضعيفة التي لا تَرى شيئًا في الخارج، تُقدِّرُ الدوافعَ التي تستطيع أن تتصرفَ فيها تَلافيًا لضَعفها، وهذه العوامل هي أهواءُ الرجل، ويُعَدُّ جهازُها أقوى من جهازنا، ويَهُزُّ الفؤادَ البشريَّ ما يشتمل عليه من عَتَلٍ جهازُها الذي هو أقوى من جهازنا، ويجب أن يكون لديها من الفن ما يجعلنا نريد معه كلَّ ما لا يستطيع جنسُها أن يَصنع بنفسه مع كونه ضروريًّا له مستحبًّا عنده؛ ولذا يجب أن تَدْرُس ذهنَ الرجل درسًا أساسيًّا لا ذهنَ الرجل على العموم مُجرَّدًا؛ أي أن تدْرُس ذهنَ الرجال الذين يحيطون بها؛ أي ذهنَ الرجال الذين أُخضِعَت لهم سواءٌ أبالقانون أم بالرأي العام، ومما يجب أن تَعرِف كيف تَنْفُذ مشاعرَهم من خلال أقوالهم وأفعالهم ونظراتهم وحركاتهم، ومما يجبُ أن تَحبُوَهم بأقوالها وأفعالها ونظراتها وحركاتها ما يَرُوقها من

المشاعرِ من غيرِ أن تَظهَرَ قاصدةً ذلك. أجلْ، إن الرجال يتفلسفون حوْل القلب البشري خيرًا مما تَصْنع، ولكنها خيرٌ منهم قراءةً في القلب البشريِّ. ومِنْ ثَمَّ يَلزَمُ النساءَ أن يَجِدن الأدبَ التَّجْرِبيَّ، ويَلزمُنا أن نَرُدَّه إلى نظام؛ فالنساء أكثرُ أرَبًا، والرجلُ أكثرُ عبقرية، والمرأةُ تلاحظ والرجل يَتعقَّل، وينشأ عن هذا التعاونِ أسْطَعُ ما يكون من نورٍ وأكملُ ما يكون من عِلمٍ يُمكِن الذهنَ البشريَّ أن يكتسب بنفسه؛ أي أثبتُ معرفةٍ ينالُها الإنسان عن نفسه وعن غيره، وتكون في متناوَل نوعنا؛ ومِنْ ثَمَّ تَرى كيف يستطيع الفنُّ أن يَميل بلا انقطاعٍ إلى إكمال الآلة التي مَنَحتْها الطبيعة.

والعالَمُ كتابُ النساء، ويَقع الذَّنب عليهن إذا ما أسأن قراءته، أو إذا أعماهن بعضُ الأهواء، ومع ذلك فإن أُمَّ الأُسْرةِ الحقيقيةَ بعيدةٌ من أن تكون امرأةَ دُنْيا، فلا تكون في منزلها أقلَّ اعتزالًا من الراهبة في دَيْرِها؛ ولِذا يجب أن يُصنَع للفتيات اللاتي يَصلُحن للزواج كما يُصنَع، أو كما يجبُ أن يُصنَع، لِلَّائي يُوضَعن في الأديار؛ أي أن يُطلَعنَ على الملاذِّ التي يَهْجُرن قبْل تَرْكهن هنالك يَعْدِلْن عنها، وذلك خشيةَ أن تؤدي صورةُ هذه الملاذِّ الزائفة التي يجهلنها إلى إغواء قلوبهن وتكدير صفوِ عُزلتِهن ذاتَ يوم. وفي فرنسة يعيش البناتُ في الأديار ويتمتَّع النساءُ بالدنيا، والعكسُ هو ما كان عند القدماء؛ فقد كان لدى البنات، كما قلت، ألعابٌ كثيرةٌ وأعيادٌ عامَّة. وقد كان النساء يَعِشْنَ معتزلات، وقد كانت هذه العادةُ أقربَ إلى الصواب وأكثرَ حفظًا للأخلاق، ويُباح للبنات الصالحات للزواج ضَربٌ من الدَّلَال، ويُعَدُّ لهوُهنَّ شغْلَهنَّ الأكبرَ، وللنساء أشاغيلُ أخرى في بيوتهن؛ فقد عُدنَ لا يبحثن عن أزواج، ولكنهن لا ينتفعن بهذا الإصلاح، ومن المؤسف أنهن لا يُعَيِّنَّ ضَرْبَ الغِناء. ويا أيتها الأمهات، اجعلْن من بناتكن رفيقاتٍ لَكُنَّ على الأقل، وامنحوهن حسًّا صادقًا وروحًا صالحًا، ثُمَّ لا تكتموا عنهن شيئًا يُمكِنُ أن تقعَ عليه عينٌ طاهرة، ويُمكِن أن يُعرَض على العيون السليمة بلا خَطَرٍ كلُّ ما يَفْتِنُ الشبيبةَ الغافلةَ عند النظر السيِّئ إليه من مراقصَ وولائمَ وألعاب، ومسارحَ أيضًا؛ فهنَّ كلَّما شاهدن هذه اللطائفَ الصاخبةَ زَهِدْنَ فيها.

وأسمعُ الضجيجَ الذي يرتفع ضدي، وأيةُ بنتٍ تقاوم هذا المثالَ الخَطِر؟ لم يَكَدْن يَرَيْن العالَم حتى تدورَ رءوسُهن جميعًا، فلا تريد أيةُ واحدةٍ منهن تَرْكَه. أجلْ، يمكن هذا، ولكن هل أعددتموهن لمشاهدته من غيرِ اهتزازٍ قبْل عرْض هذه الصورة الخادعة عليهن؟ وهل أنبأتموهنَّ جيِّدًا بما يَعْرِض من موضوعات؟ وهل أحسنتم تصويرها لهنَّ كما هي؟ وهل سلحتموهنَّ ضِدَّ أوهام الغُرور؟ وهل حملتُم إلى قلوبهنَّ الفتيَّةَ مِن ذوْق الملاذِّ الحقيقية ما لا يُوجَد في هذا الهَرْج والمَرْج مطلَقًا؟ وماذا اتخذتم من الاحتياطات والتدابير لوقايتهنَّ من

الذوق الفاسدِ الذي يُضِلُّهن؟ لقد غذَّيتم أذهانَهن بالمُبْتَسَرات العامة بدلًا من إقامة العوائق دونها، وقد حَمَلْتُموهن مقدَّمًا على حُبِّ جميعِ ما يَجِدن من لهوٍ طائش، وأنتم تجعلونهن يُحْبِبن هذا اللهوَ أيضًا بملازمتِكم إياه، ومِن الفتيات مَن إذا دخلن العالَم لم يجدن مُرَبِّيَاتٍ لهن غيرَ أمهاتهن اللاتي يَكُنَّ أكثرَ حماقةً منهن في الغالب، واللائي لا يستطعن إراءَتهن الأمورَ على غيرِ ما يَرَيْن. وبما أن مثالَ الأمِّ أقوى من العقل نفسه، فإنه يُسوِّغ هذه الأمورَ في عيون بناتها، ولا غَرو؛ فسلطانُ الأمِّ في نظر البنت مَعْذِرَةٌ لا تُرَد، وعندما أردتُ إدخالَ الأمِّ بِنتَها إلى العالَم افترضتُ إراءَتَه لها كما هو.

ويبدأ الشرُّ قبْلَ الأوان أيضًا؛ فالأديارُ مدارسُ حقيقيةٌ للغُنَاج، لا ذاك الغُنَاج الحلال الذي تكلمتُ عنه، بل الغُنَاج الذي يُسفِرُ عن جميع انحرافات النساء، ويؤدي إلى أكثر الشابات هوسًا. ومتى خرج فتياتُ النساء من هنالك للدخول في المجتمعات الصاخبة كان أوَّلَ ما يَشعُرن به كونُهن في منزلهن، وذلك أنهن نُشِّئن ليعِشن به. وهل يُعجَب من ملائمته لهن؟ ولا أتقدَّم، مطلقًا، بما كنت قد قلت، وذلك خشيةَ انتحال مُبْتَسَر على أنه مشاهدة، ولكن الذي يلوح لي أنه يوجَد في البلدان البروتستانتية على العموم أُسَرٌ أكثرُ عطفًا وزوجاتٌ أكثرُ جدارةً وأمهاتٌ أكثرُ حَنانًا مما في البلدان الكاثوليكية، وإذا كان الأمر هكذا لم يُشكَّ في كون هذا صادرًا قِسْمًا عن تربية الأديار.

وتقضي محبةُ الحياة المنزلية الهادئة بأن تكون معروفةً وبأن تُذاقَ حلاوتُها منذ الطفولة، وليس في غيرِ المنزل الأبويِّ ما نتذوَّق منزلنا الخاص، وما كانت المرأة التي لم تُنشِّئها أمُّها قَطُّ لتُحِبَّ تنشئةَ أولادِها مطلقًا. ومن دواعي الأسفِ أنه عاد لا يُوجَد في المدن الكبيرة تربيةٌ خاصَّة، وذلك أن المجتمع فيها بالغٌ من الشُّمُول والاختلاط ما لا يبقى معه مكانٌ للعزلة، حتى إن الإنسان فيها يَشعُر في منزله بأنه بين النَّاس، وعاد لا يوجد ما يُعَدُّ أُسْرةً بفعل العيش مع جميع النَّاس. ولا يكاد الإنسان يَعْرِف والديه، أي إنه ينظرُ إليهما كما يُنظَر إلى الغرباء، وتزول بساطةُ الطباع المنزلية مع الدَّالَّة الحُلوة التي تُوجِبُ فُتونَها، وهكذا يُرضَع مع اللبن ذوْقُ ملاذِّ العصر، وما يُرَى أنه يَسُود العصرَ من مبادئ.

ويُلزَم البنات بحَصْرٍ ظاهرٍ ليَجِدْن من البُلْه مَن يتزوَّجونهن استنادًا إلى وضعهن، ولكن ادرُسوا أمرَ هؤلاء الفتيات ساعةً من الزَّمن تَرَوْا أنهن يُخفين تحت ظاهرٍ من الحَصْرِ إخفاءً رديئًا ما يلتَهِمْن من هَوًى، ومما كان يُقرَأ في عيونهن رغبةٌ حارةٌ في تقليد أمهاتهن. وليس الزوجُ هو ما يَشْتهينَه، بل تحلُّلُ الزواج. وما الحاجةُ إلى الزواج مع وجودِ كثيرٍ من

السُّبل للاستغناء عنه؟ ولكنه يُحتاج إلى زوجٍ لسَتْرِ هذه السُّبُل؛[١٤] فالحياءُ في وجوههن، والخلاعةُ في صميم قلوبهن. ويُعَدُّ هذا الحياءُ المصنوعُ دليلًا عليها، وهنَّ لا يتظاهرنَ به إلا للخلاص منه سريعًا، وأطلُبُ عفوَكنَّ يا نساءَ باريس ولندن، فلا يخلو مكانٌ من مُعجزات، وأمَّا أنا فلا أعْرِف منها شيئًا مطلقًا، وإذا ما وُجِدَت بينكن واحدةٌ ذاتُ نفْسٍ نقيةٍ حقًّا، فإنني لا أفقهُ شيئًا من طرائقكن.

وتُسْلِمُ جميعُ هذه التربياتُ المُنوَّعة، على السواء، فَتياتِ البنات إلى تذوُّق ملاذِّ المجتمع وإلى الأهواء التي لا تَلْبث أن تنشأ عن هذا الذوق. ويبدأ الفساد مع الحياة في المدن الكبيرة، ويبدأ مع العقل في المدن الصغيرة، ومن فَتيات الأقاليم مَن يتعلَّمنَ ازدراءَ ما تنطوي عليه طِباعُهن من بساطةٍ مباركة، فيُبادرن إلى قصدِ باريسَ ليقاسمن فتياتِنا فسادَهن. وبما أن المعايب المُزوَّقة باسم المَناقب الرائعة هدفُ رِحلتهنَّ الوحيد، وبما أنه يعتريهن عند وصولهن خَجلٌ من ابتعادهن عن تَحلُّل نساء العاصمة النبيل، فإنهن لا يَلبثن أن يصِرْن جديراتٍ بهذه العاصمة أيضًا. وأين يبدأ السوء على رأيكم؟ أيُبدأ في الأمكنة التي يُرْسَم فيها أم في الأماكن التي يُنجَز فيها؟

ولا أُريد أن تأتي الأمُّ الرصينة بابنتها من الإقليم إلى باريس لتُطلِعَها على تلك المناظر البالغة الفساد لغيرها، وإنما أقول إن هذا إذا وَقَعَ فإن هذه البنتَ إمَّا أن تكون سيئةَ التنشئة، وإمَّا أن تكون تلك المناظرُ قليلةَ الخطر عليها، وإذا ما وُجِدَ ذوقٌ للأمور الصالحة وشعورٌ بها وحُبٌّ لها، لم تكن تلك المناظر من القدرة على الجذب بمقدار ما تؤثِّرُ فيمن يَدَعون أنفسَهم يُفتَنون بها. ومما يُلاحَظُ في باريس أن أولئك الفتياتِ الرُّعْنَ اللاتي يُبادِرن إلى انتحال طابع هذه المدينة، ويَسِرْن مع مُوضَتها لستة أشهر، يَشْخِرن بقيَّةَ حياتِهن، ولكن مَن ذا الذي يُلاحِظُ أن أولئك اللائي ينفِرن من ذلك الضجيج فيتحوَّلن عنه إلى إقليمهن راضياتٌ عن نصيبهن بعد مقابلته بالذي يَغارُ منه الأُخْرَيات؟ وما أكثرَ مَن رأيتُ من فَتَياتِ النساء اللائي أتى بهنَّ إلى العاصمة أزواجٌ قاصدون الاستقرار بها مع عزْم، فيُحوِّلنَهم عن ذلك بأنفسهن وتُغادَرُ بعزمٍ أكثرَ من الذي قُصِدَت به مع القول العاطفي

[١٤] كان سبيل الإنسان في شبابه أحدَ الأمور الأربعة التي لم يستطع الحكيم أن يدركها، وأمَّا الأمر الخامس فهو وقاحة المرأة الزانية، «كذلك طريق المرأة الفاسقة تأكل وتمسح فاهَا وتقول ما عملت إثمًا» (سفر الأمثال ٣٠: ٢٠).

عَشيَّةَ الرحيل: «وَيْ! لنَعُدْ إلى كوخنا حيث نقضي حياةً أسعدَ من التي تُقضى في القصور هنا!» ولا أعلمُ عددَ مَن بقيَ من الصالحات اللاتي لم يركعن أمام الصنم قَط، فيَزدرين عبادتَه المخالفةَ للصواب. ولا يوجد صاخباتٌ غيرُ الحُمْق، وأمَّا النساء العاقلات فلا تَسمع لهن صوتًا مُطلَقًا.

وإذا ما حافظ كثيرٌ على حُكمٍ في الأمورِ راسخٍ على الرغم من الفساد العام والمُبْتَسَرات الشاملة وتربية البنات السيئة، فما يحدُث إذا ما غُذِّيَ ذاك الحُكْم بمعارفَ مناسبة، وإن شئتَ فقُل إذا لم يُفسَد بمعارفَ داعرة؟ وذلك لأن كلَّ شيءٍ يقوم على حفْظ المشاعر الطبيعية أو تجديدها. ولا يقضي هذا بأن يُسأمَ الفتياتُ مطلقًا بمواعظكم الطويلة، ولا أن تَبيعوا منهن أخلاقياتِكم الجافية؛ فالأخلاقيات تنطوي على موتٍ لكلِّ تربيةٍ صالحةٍ لدى الجنسين، ولا تكون الدروس الكئيبة صالحةً لغير إثارة الحقد على مَن يُلْقونها وعلى كلِّ ما يقولونه. ولا يُقصَد عند مخاطبة الفتيات تخويفهن من واجباتهن، وتثقيلُ النِّير الذي فرضته الطبيعةُ عليهن، وكونوا عند عرضِ هذه الواجبات عليهن مدقِّقين هيِّنين، ولا تَدَعوهن يرين أنفسهن محزوناتٍ عند قيامهن بها، فلا كَدَرَ ولا عُبُوسَ مطلَقًا، وكلُّ ما يجب أن يدخُل في القلب يجب أن يخرُج منه. ويجب أن يكون كتابُهن الخُلُقيُّ مختصرًا واضحًا مثل كتابهن الديني، ولكن لا ينبغي أن يكون وَزِينًا، وأطلِعوهن في الواجبات عَينِها على مصدرِ لهوهن وأساسِ حقوقهن، وهل من الشاقِّ أن يُحِبَّ الإنسان حتى يُحَبَّ، وأن يَظهر أنيسًا ليكون سعيدًا، وأن يَصير جليلًا ليُطاع، وأن يُكرِم نفسَه ليُكرَم. ويا لروعةِ هذه الحقوق! ويا لكونها أهلًا للاحترام! ويا لكونها عزيزةً على قلب الرجل إذا ما عَرَفت المرأة أن تنتفع بها! ويجب ألَّا تُنتَظَرَ السِّنون ولا المشيبُ للتمتُّع بها؛ فسلطانُ المرأةِ يبدأ مع فضائلها، ولا تكاد جواذبُها تنمو حتى تَسُود بدَماثتها جاعلةً تواضعَها باهرًا. وأيُّ رجلٍ فظٍّ غليظٍ لا يُلينُ خُيَلاءَه، ولا يَتَّخذ من الأوضاع أدعاها إلى الانتباه بجانب فتاةٍ في السادسة عشرة من سِنِيها محبوبةٍ حكيمةٍ صَمُوتٍ قليلةِ الكلام ذاتِ احتشامٍ في أوضاعها وصلاحٍ في أحاديثها، فلا يُنسيها حُسنُها جنسَها وفتاءَها، فتَقِفُ بحيائها النظرَ وتَجلب إلى نفسِها ما تَحمِلُ إلى جميع النَّاس من إكرام.

ومع أن تلك الدلائلَ خارجية، فإنها ليست خاليةً من المعنى مُطلَقًا، وهي ليست قائمةً على جذب الحواسِّ وحدَها مطلَقًا، وهي تنشأ عن هذا الشعور الباطنيِّ الذي يساوِرُنا جميعًا، والقائلِ إن النساء قاضياتٌ طبيعياتٌ في مقدرة الرجال. ومن ذا الذي يريد أن يكون مُزْدَرًى من قِبَل النساء؟ لا أحدَ في العالَم، حتى الذي عاد راغبًا عن حُبِّه لهن. وهل

تَعتقدون أنني لا أكترث لأحكامهن مع أنني أخاطبهن بحقائقَ قاسيةٍ جِدًّا؟ كلَّا؛ فأصواتهن أعزُّ عليَّ من أصواتكم أيها القراء الذين هم أكثرُ منهن نِسْوِيَّةً، فإذا كنتُ أزدري أخلاقَهن فإنني لا أزال أريد إكرامَ عدْلِهن، وإذا كُنتُ مُلزِمًا لهن بإكرامي فلا أبالي بكُرهِهن لي إلا قليلًا.

وما أعظمَ الأمورَ التي تُصنَع بهذا النابض إذا ما عُرِف استعماله! وويلٌ للعصر الذي يَفقد النساءُ فيه نفوذَهن، فلا يكون لأحكامهن عملٌ في الرجال! وهذه هي آخرُ درجةٍ من الانحطاط، وقد أكرمَتِ النساءَ جميعُ الشعوبِ التي كانت على شيءٍ من الأخلاق، وانظُروا إلى إسبارطة، وانظروا إلى الجِرمان، وانظروا إلى رومة، إلى رومة التي كانت مقرَّ المجد والفضيلة، لترَوْا ما كان لهن عند هذه الأمم من مقام. وفي رومة كان النساءُ يُشِدْن بمفاخرِ أكابرِ القُوَّاد، وكن يبكين آباءَ الوطن جهْرًا، وكانت نذورهن أو حِداداتُهن الموقوفة عليهم أعظمَ ما في الجمهورية من حُكْمٍ احتفالي، وكانت جميعُ الثَّورات الكبيرة تَصدُر عن النساء، ومن ذلك أن نالت رومةُ الحريَّةَ بفضل امرأة، وأن نال العوامُّ القنصليةَ بفضل امرأة، وأن انتهى استبداد الحكام العشرة بفضل امرأة، وأن أَنْقَذَ النساءُ رومةَ المحاصَرَة من يدِ طليلٍ. ويا أيها الفرنسيون من ذوي الشهامة، ماذا كنتم تقولون عندما ترَوْن مرورَ هذا المَوْكِبِ المثيرِ للضحك كثيرًا في أعْينِكم الساخرة؟ كنتم تقابلونه بصرخات الهزوء. ويا لاختلافنا في النظر إلى عينِ الأشياء! ومن المحتمل أن يكون الحقُّ بجانبي وجانبكم، وألِّفوا هذا الموكِب من حِسَانِ الفرنسيات تجدوني لا أعْرِف ما هو أكثرُ حشمةً منه، ولكنكم إذا ما أَلَّفْتموه من رومانياتٍ كانت لكم كلكم عيونُ الفُولْسك وقلبُ كُورْيولان.

وأقول أكثرَ من ذاك، وأذهب إلى أن الفضيلة ليست أقلَّ ملاءمةً للحبِّ من حقوق الطبيعة الأخرى، وأن سلطان الخليلات ليس أقلَّ رِبْحًا بها مِن رِبْح سلطان الزوجات والأمهات، ولا يُوجَدُ حُبٌّ حقيقيٌّ بلا هِيام، ولا يوجد هِيامٌ بلا موضوعِ كمال، حقيقيًّا كان هذا الموضوع أو وهميًّا، ولكن مع وجوده في الخيال دائمًا. ولِمَ يَلْتهبن حوْل عُشَّاقٍ لا يُبالون بهذا الكمال ولا يرون فيمن يُحبُّون غيرَ موضوعِ لذةٍ للحواس؟ كلَّا، لا تَضْطَرِم النفسُ ولا تستسلم على هذا الوجه إلى هِياجٍ سَنيٍّ يوجِبُ هذيانَ العاشقين وفُتون هواهم، ولا شيءَ غيرُ وهمٍ في الغرام كما أعترف، ولكنَّ الحقيقيَّ هو ما يُنْعِشُنا بمشاعرَ حوْل الجمال الصحيح فيحمِلُنا على حُبِّه. وليس هذا الجمال في الشيء الذي يُحَبُّ مطلَقًا، وإنما هو من عَمَل تصورنا. وَيْ! وما الأمر؟ وهل نحن أقلُّ تضحيةً بجميع هذه المشاعر المنحطة في

سبيل ذاك النموذج الخيالي؟ وهل قلْبُنا أقلُّ تقبُّلًا للفضائل التي تُعزَى إلى مَن يُحِب؟ وهل نحن بذلك أقلُّ انفصالًا عن الذاتية البشرية؟ وأين هو العاشقُ الحقيقيُّ الذي لا يستعدُّ للتضحية بنفسه في سبيل خليلته؟ وأين هو الهوى الشهوانيُّ الغليظُ في الرجل الذي يَطْلبُ الموت؟ وإذا كُنَّا نستهزئ بأمراء البلاط القدماء؛ فلأنهم يَعْرِفون الحُب، ولأننا لا نَعْرِف غيرَ الفجور، وعندما أخذت هذه المبادئ الروائية تصير مهازئ كان هذا التحوُّل وليدَ سيئ الأخلاقِ أكثرَ من أن يكون من عمل العقل.

ومهما يَكُن العصر، فإن العلاقات الطبيعية لا تتغير مُطلَقًا، ويبقى ما ينشأ عنها من خيرٍ أو شرٍّ كما هو، ولا تُغيِّرُ المُبْتَسَرات منها غيرَ الظاهرِ مستترةً تحت اسمٍ فارغٍ للعقل. ومن أعظم الأمور وأجملها دائمًا أن يسيطر الإنسان على نفسه ولو خُضوعًا لآراءٍ وهمية، وستُخاطِب بواعثُ الشرف دائمًا قلبَ كلِّ امرأةٍ حول ما تطلُبُ من حُكمٍ في سعادة الحياة ضِمْن حالها، ويجب أن يكون الطُّهْرُ على الخصوص فضيلةً لذيذةً تتجمَّل بها المرأة الحسناء التي تكون على شيءٍ من سمو النفس، وبينما ترى جميع الأرض عند قدميها تفوز بنفسها وبكلِّ شيء، وهي تقيم في قلبها الخاص عرشًا يأتي الجميع لتكريمه، وما يكون من مشاعرَ ناعمةٍ أو غَيْرَى، ولكنْ مع توقيرٍ للجنسين، وما يكون من تقديرٍ عامٍّ وخاص، يُسلِفُها معاركَ لأُوَيقاتٍ ضريبةً. أجلْ، إن الحرمانَ أمرٌ عابر، غيرَ أن ثَمنه دائم، وأيةُ مُتعَةٍ تتَّفق للنفس الكريمة التي يُضاف زهو الفضيلة إلى جمالها! واجعلوا منها بطلةَ روايةٍ لتذوق من اللذات ما هو أطيبُ مما نالت لآييسُ وكليوباترة، وعندما يعود جمالُها غيرَ موجود يبقى لها مجدُها ونُعْماها، وهي تَعرِف أن تتمتَّع بالماضي وحدَها.

وكلَّما كانت الواجبات شاقةً عظيمةً وَجَبَ أن تكون الأسباب التي تقوم عليها واضحةً قوية، ويوجد من الكلام الوَرِع ما يَدُور حوْل أكثرَ الموضوعات جِدِّية، فيقرعُ آذان الشبيبة من غير أن يؤدِّي إلى إقناع، ومن هذا الكلام غيرِ المتناسب مع أفكارها، والذي لا تُقيم له في السرِّ وزنًا، تُولَدُ سهولةُ انقيادها لميولها، وذلك عن عدمِ وجودِ أسبابٍ لمقاومتها ناشئةٍ عن الأمورِ نفسِها. أجلْ، إن البنت التي نُشِّئَت تنشئةً حكيمةً تقيةً تكون مُجَهَّزةً بأسلحةٍ لمقاومة الشهوات، بَيْدَ أن البنت التي يُغذَّى قلبُها حَصْرًا — وإن شئت فقُل أُذُنها — برطانةِ التقوى، تذهب لا محالةَ فريسةَ أوَّلِ غاوٍ ماهرٍ يتصدَّى لها. ولا تزدري الفتاةُ الحسناءُ بَدَنها، ولا تأسف صادقةً على الذنوب الكبيرة التي حَمَلها جمالُها على اقترافها، ولا تبكي أمام الربِّ مُخلِصَةً عن كونها موضعَ اشتهاء، ولا تستطيع أن تقنع في نفسها بأن أحلى حِسٍّ

قلبيٍّ هو من صُنْع الشيطان، وأَعْطُوها أسبابًا أخرى في الداخل ومن أَجْلِ نفسِها، وذلك لعدم تأثير تلك. وأسوأ من ذلك أيضًا أن يُوضَع تناقضٌ في أفكارها كما يُصنَع غالبًا، وأن يُجعَل محلَّ إجلالٍ مِثْلَ هيكلِ يسوعَ المسيح، بَدنُها الذي ازدُريَ كثيرًا بعد أن أُذِلَّ بإرذاله. وتكون الأفكارُ البالغةُ السُّموِّ والوضيعةُ جِدًّا ناقصةً على السواء، ولا يُمكنها أن تتشارك، ولا بدَّ من عقلٍ يكون في متناوَل الجنس النِّسْوِيِّ وسِنِّه. ولا يكون لاعتبارات الواجب قوةٌ ما لم تُضَف إليها بواعثُ تَحْملُنا على القيام به.

«فالتي لا تَقترِف ذنْبًا إلا لأنها مُنِعَت منه تُعَدُّ ساقطةً في الذَّنب.»

ولا يُظَنُّ أن أُوفِيدَ هو الذي يُصدِر حُكمًا بالغًا هذه الشدة.

ولذا فإذا أردتم أن توحُوا بحبِّ حُسْنِ الأخلاقِ إلى الفتيات فلا تقولوا لهن: «كنَّ حَسَنات السلوك»، وإنما اجعلوا من مصلحتهن الكبيرة أن يكنَّ حَسَناتِ السلوك، واجعلوهن يَشعرن بقيمة حُسْن السلوك، وحينئذٍ تُحبِّبونه إليهن. ولا يكفي أن يُطلَعن على هذه المصلحة في المستقبل، وإنما أظهِروها لهن في الساعة الحاضرة، وذلك في صِلَات عُمُرهنَّ وفي أخلاق عُشَّاقهن، وصِفوا لهن رجلَ الخيرِ ورجلَ الفضل، وعلِّموهن أن يَعْرِفنه ويُحبِبنه، وأن يُحبِبنه من أجل أنفسهن، وأثْبِتوا لهن أن هذا الرجلَ وحدَه يمكنه أن يجعلهن سعيدات، صديقاتٍ كُنَّ أو زوجاتٍ أو خليلات، واجلِبوا الفضيلةَ بالعقل، واجعلوهن يَشعرن بأن سلطانَ جنسهن وجميعَ ما ينطوي عليه من منافعَ، أمورٌ لا تتوقَّف على حُسْن سلوك هذا الجنس وأخلاقه فقط، بل تتوقَّف على حُسْن سلوك الرجال وأخلاقهم أيضًا، وبأنه ليس لهن غيرُ سبيلٍ قليلٍ على النفوس الحقيرة الساقطة، وبأن العاشقَ لا يستطيع أن يقوم بخدمةِ خليلته إلا إذا كان يستطيع أن يقوم بخدمةِ الفضيلة. وهنالك ثِقوا بأنكم إذا ما قمتم بوصفِ أخلاق زماننا أوحيتم إليهن بنفورٍ صادقٍ منها، وإذا ما أريتموهن مَن هم على المُوضَة جعلتموهن يزدرينَهم، ولم تؤدُّوا إلى غير ابتعادهن عن مبادئهم وكُرْهٍ لإحساساتهم واحتقارٍ لمغازلاتهم، وبذرتم فيهن طموحًا أكثرَ نبلًا؛ أي طموحَ السيطرة على النفوس الكبيرة القوية؛ أي طموحَ نساء إسبارطة الذي كان قائمًا على قيادة الرجال. ومن عملِ المرأة الخالعةِ العِذارِ المتهتكةِ الأرَّاجةِ التي لا تقدِرُ أن تجتذبَ عُشَّاقَها إلا بالغُنَاج، ولا تحتفظ بهم إلا بالألطاف، أن تَحمِلهم على الطاعة كما يُحمَل الأُجَرَاء على الأمورِ الخسيسة المعتادة، وأمَّا في الأمور المهمة الرصينة فلا سلطانَ لها عليهم. ولكنَّ المرأةَ الصالحة اللطيفة العاقلة، ولكنَّ المرأة التي تُلزِم ذويها باحترامها، ولكنَّ المرأةَ الرَّزانَ وذاتَ الحياء؛ أي المرأة

التي تَدْعم الحُبَّ بالإكرام، تُرْسِلُهم بإشارةٍ منها إلى أقاصي الدنيا وإلى الحرب وإلى المجد وإلى الموت حيث تُريد؛[١٥] فهذا السلطان رائع، وهو يستحقُّ أن يُشتَرى.

وهذه هي الروحُ التي نُشِّئَت عليها صوفية، وذلك بعنايةٍ أكثرَ مما بمشقَّة، وباتِّباع ذوقها أكثرَ مما بحَصرِه، والآن لنَقُل كلمةً حوْل شخصها وَفْقَ ما وصفْتُها به لإميلَ ووَفْق ما يتمثَّل إميلُ بنفسه الزوجةَ التي يُمكن أن تجعله سعيدًا.

ولا أكرِّر كثيرًا ترْكي النادرين جانبًا؛ فليس إميلُ منهم، وكذلك صُوفيةُ ليست منهم، وإميلُ رجلٌ، وصوفيةُ امرأة، وعلى هذا يقوم فخرُهما، وفي زماننا الذي يختلط فيه الجنسان يُعَدُّ من المعجزات تقريبًا أن يَلْزَمَ الواحدُ جنسَه.

وصوفيةُ حسنةُ المولدِ ذاتُ موهبةٍ طبيعية، ولها قلبٌ حَسَّاسٌ جِدًّا، وهذه الحساسية المتناهية تُنعِم عليها أحيانًا بنشاطٍ في الخيال يَصْعُب تعديله، ولها ذهنٌ ثاقبٌ أكثرُ منه صائبًا، ولها مِزاجٌ ليِّنٌ مع تَقَلُّب، ولها وجهٌ معتادٌ ولكنه مُستحَب، ولها سِيما تَنِمُّ على رُوح ولا تَكْذِب، وهي يُمكن أن تُقابَل بلا اكتراث، ولكنها لا تُترَك بلا اهتزاز. ويُوجَد مَن هُنَّ ذواتُ صفاتٍ تُعْوِزُها، ويُوجَد مَن هُنَّ ذواتُ صفاتٍ كصفاتها على أوسعِ مقياس، ولكنك لا تجدُ واحدةً منهن ذاتَ صفاتٍ أحسنَ توافقًا مع صفاتها في تأليفِ طبعٍ سعيد، حتى إنها تستطيع الانتفاع من عيوبها، فلو كانت أكثرَ كمالًا لظهرتْ أقلَّ وقوعًا موقعَ الرِّضا.

وليست صُوفيةُ جميلة، ولكنَّ الرجال يَنسون الحِسانَ بجانبها، ولا يَرضى الحِسان عن أنفسهن إذا ما كُنَّ بالقرب منها، وهي لا تكاد تكون مليحةً عند أوَّل نظرة، ولكنها تزدان كلَّما نُظِرَ إليها، وهي تربح حيث يخسر غيرُها، وهي لا تخسر ما تربح. أجلْ، يمكن أن تكون إحدى النساءُ أجملَ منها عَينًا، وأحسنَ منها فَمًا، وأروعَ منها وجْهًا، ولكنك لا ترى مَن هي أفضل منها قامة، وألطفُ منها لونًا، وأبيضُ منها يدًا، وأصغرُ منها رِجلًا،

[١٥] روى برانتوم أن فتاةً في عهد فرنسوا الأوَّل كان لها عاشقٌ ثرثار، ففرضتْ عليه صمتًا مطلَقًا لا حدَّ له، فلزِمَه بإخلاصٍ مدةَ عامَيْن كاملَيْن، فظُنَّ أنه أبكمُ عن مرض، وفي ذلك الحين كان الغرامُ يتم في جوٍّ من الكتمان، فلم يَعْرِفْ أحدٌ أن تلك الفتاةَ خليلتُه، ومما حدثَ في أحد المجالس ذات يوم أن تبجَّحت بأنها تشفيه من فوره، فلم تقُل له غيرَ كلمة «تكلم». ألا يوجد شيء بَطَلي عظيم في ذلك الحب؟ وماذا كانت فلسفة فيثاغورس تصنعُ أكثرَ من هذا مع ما هي عليه من فخامة؟ أمَا كان الخيال يذهب إلى ربٍّ يُنْعِم على إنسانٍ بعضوِ الكلام؟ وأية امرأة تستطيع اليوم أن تعتمد على مثل هذا الصمت يومًا واحدًا مهما دفعتْ من ثَمنٍ تَقدِر عليه؟!

وأعذبُ منها نظرة، وأفعلُ منها مُحيًّا، وهي تَقِفُ النظرَ من غير أن تَبْهَر، وهي تَفتِن من غير أن يُعرَف السبب.

وتُحِبُّ صُوفيةُ الزينة، وهي تَعرِف أنْ تَزَّيَّنَ، ولا تَعرِف أمُّها لنفسها ماشطةً غيرَها، ولديها ذوقٌ كبيرٌ في حُسن اللباس، ولكنها تَكْره الثياب الفاخرة، وأنت تُبصِر في ثوبها بساطةً مع الأناقة دائمًا، وهي لا ترغب في الساطع، بل ترغب في اللائق، وهي تجهلُ أيَّ الألوان يكون على المُوضة، ولكنها تَعرف الألوان التي تلائمها بما يُثير العجب. ولا تجد فتاةً تَلوح لابسةً مع قليلِ تصنُّعٍ ومُزيَّنَةً مع كثيرِ تكلُّف، ولا تستعمل قطعةً مصادفة، ومع ذلك لا تُبْصِرُ في أيٍّ من ذلك تَعمُّلًا، وتكون زينتُها كثيرةَ البساطة ظاهرًا كثيرةَ الظرافةِ حقيقة، وهي لا تَعْرِض محاسنَها مطلَقًا، وهي تُخفيها، ولكنها إذ تُخفيها تَعرِفُ أن تَحمِلَ على تصوُّرِها، ويُقال عندما تُرى: «هذه فتاةٌ متواضعةٌ عاقلةٌ.» ولكنكم إذا ما بقيتم بجانبها جالت عيونكم وأفئدتكم في جميع شخصها من غير أن تستطيعوا فصلهما عنها، فيُقال إن هذه الزينةَ البسيطةَ بهذا المقدار لم تُوضَع في محلِّها إلا لُتنزَع منه قطعةٌ بعد الأخرى بالخيال.

ولصُوفْيَةَ مواهبُ طبيعية، وهي تَشعُر بها، ولم تُهمِلها، ولكن بما أنه لم يُتَح لها بذلُ كثيرِ حِذْقٍ في تثقيف هذه المواهب فقد اكتفت بتمرينِ صوتِها الجميلِ على الغناء مع الإحكام والذوق، وتمرينِ رجْليها الخفيفتَين على المشي برشاقةٍ وسهولةٍ ولطافة، كما مرَّنت نفسها على المجاملة في جميع الأوضاع بلا عُسْرٍ ولا جفاء. ثُمَّ إنه لم يَكُن لها مُعلِّمٌ للغناء غيرُ أبيها، ولم تكن لها مُعلِّمةٌ للرقص غير أمها، وقد تلقَّت من أُرْغُنِيٍّ جارٍ لها دروسَ مسايرةٍ في العزف على البِيَان، فأكَبَّتْ عليها وحدَها زمنًا طويلًا، وكان أوَّلُ ما فكَّرت فيه إظهارُ يدِها بتفوقٍ على تلك المفاتِح السُّود، ثُمَّ وجدت أن صوتَ البِيَان الحادَّ الجافَّ يجْعل رَنِينَ الصوتِ أكثرَ حلاوة، ثُمَّ صارت بالتدريج عارفةً بالإيقاع، وأخيرًا أخذتْ بعد أن كَبِرَت تشعُر بفُتون الأداء وتُحِبُّ الموسيقا لنفسها، ولكن هذا ذوقٌ أكثرُ من أن يكون نبوغًا، وهي لا تَعْرِف أن تقرأَ لحْنًا على النوتة مطلَقًا.

وأحسنُ ما تَعرِف صُوفيةُ وما عُلِّمَتْه بأعظمِ عنايةٍ هو أشغالُ جنسِها، حتى التي لا تَخطُر ببالكم مطلقًا، كتفْصيل ثيابها وخَيْطها، ولا يُوجَد شُغلٌ بالإبرة لا تَعْرفه ولا تأتيه بلذَّة، غيرَ أن التخريم هو الشُّغل الذي تُفضِّله على سواه؛ وذلك لأنه لا يوجدُ كالتخريم شُغْلٌ يَمْنحُ وضْعًا أعظمَ لطافةً وتُزَاوله الأصابعُ بظَرَافة وخِفَّة. وكذلك تعاطت جميعَ

أمورِ المنزل مُفَصَّلًا، وهي تَعْرف الطَّهْو وخِدْمة السُّفرة، وهي تَعْرف أثمانَ الموادِّ الغذائية وخواصَّها، وهي تَعْلم قيدَ الحسابات جيِّدًا، وهي تَصْلُح أن تكون رئيسةَ خَدَمٍ لأُمِّها، وهي إذْ كُوِّنت لتكون أمَّ أُسْرَةٍ ذات يوم، وهي إذ تتعلَّم إدارةَ منزلِ أبيها، تتعلَّمُ إدارةَ منزلها، وهي تستطيع أن تقومَ بوظائفِ الخَدَم فتفعَلُ هذا طَوْعًا، وما كنتم لتعرفوا أن تُحسِنوا الأمرَ بشيءٍ لا يُمكنكم أن تُنفِّذوه بأنفسكم، وهذا هو السببُ في شَغْلِ أمِّها إياها على هذا الوجه. وما كانت صُوفيةُ لتُبعِدَ في الموضوع بهذا المقدار؛ فواجبها الأوَّل هو واجب البنت، وهذا الواجب وحدَه هو الذي تَرى أن تقوم به في الوقت الحاضر، وكلُّ ما تنظُر إليه هو أن تخدُمَ أمَّها، وأن تُخفِّفَ عنها بعض أعمالها. ومع ذلك، فإن من الواقع أنها لا تقوم بجميع هذه الأعمال بلذَّةٍ متساوية، ومن ذلك مثلًا أنها لا تحبُّ الطهو مع أنها نَهِمَة، وذلك لما تنطوي عليه جزئياته من عواملِ نفورها؛ فما كانت لِتَجدَ فيه نظافةً كافية. وهي فوق ذلك ذاتُ لطافةٍ متناهية، فلما أفرطت في هذه اللطافة تحوَّلت إلى إحدى نقائصها، وهي تُفضِّل أن تأكل النارُ جميعَ الغداء على تلويث كُمِّها، وهي لم ترغب قَطُّ في تفقُّد الحديقة لذات السبب؛ فالترابُ يَلُوح لها أنه قَذِر، وهي إذا ما رأت الزِّبْل خُيِّلَ إليها أنها تَشَمُّ رائحته.

وهذه النقيصةُ نتيجةُ دروسِ أمِّها، وعندها أن النظافة من أوَّلِ واجبات المرأة، هذا الواجب الخاص اللازم المفروض من قِبَل الطبيعة، ولا يوجد في العالم شيءٌ أدعى إلى الاشمئزاز من امرأةٍ قَذِرة، ولا يكون الزوج الذي يشمئزُّ منها مخطئًا مطلَقًا. والأم قد أكثرت من وعظِ ابنتها بهذا الواجب منذ طفولتها، وهي قد استلزمت كثيرَ نظافةٍ لنفسها وثيابها وغرفتها وشغلها وزينتها، فتحوَّلت هذه العناية إلى عادةٍ وصارت تستوعب قِسمًا كبيرًا من وقتها مع السيطرة على القسم الآخر؛ فلا يأتي إتقانُ ما هي مُكلَّفةٌ بصنعه في غير المرتبة الثانية من جهودها، وأمَّا المرتبة الأُولى فهي وقفٌ على صُنْعه نظيفًا.

ومع ذلك، فإن جميع هذا لم ينحطَّ إلى تصنُّعٍ فارغ، ولا إلى نعيم؛ فلا محلَّ هناك لدقائق التَّرف، وما كان ليَدْخل منزلَها غيرُ الماء الزُّلال، وما كانت لتعرِفَ عِطْرًا غيرَ شذا الأزهار، وما كان زوجها ليَشَمَّ ما هو أحلى من نَكْهتها،[١٦*] ثُمَّ إن ما تُعيرُه المَظهَر من

١٦ * النَّكْهة: رائحة الفم.

عنايةٍ لا يُنسيها أنها مدينةٌ بحياتها وزمانها لعواملَ أكثرَ نُبْلًا؛ فهي تَجْهل أو تزدري هذا الإفراطَ في نظافة البدن التي تُدنِّس الرُّوح؛ فصُوفيةُ أكثرُ من نظيفة، هي طاهرة.

وقلتُ إن صُوفيةَ نَهِمة، ومن الطبيعي أن كانت نَهِمة، بَيْدَ أنها صارت قَنُوعًا عن عادة، والآن هي قَنُوعٌ عن فضيلة، ولا يُوجَد من البنات، كما يوجد من البنين، مَن يمكن أن يُسَيْطَر عليهن بالنَّهَم إلى حدٍّ ما، وليس هذا الميلُ بلا عواقبَ في الجنس النِّسْوي مطلَقًا؛ فمن الخطر الكبير أن يُترَك وشأنَه. وكانت صُوفيةُ الصغيرةُ في طفولتها إذا ما دخلت غرفةَ أمِّها وحدَها لا ترجِعُ منها فارغةً دائمًا؛ فهي لم تكن أمينةً عند كل امتحانٍ حول أقراص السُّكر والمُلَبَّسات، وقد فاجأتها أمُّها وعزَّرتها وعاقبتها وصوَّمتها، وأخيرًا وُفِّقَت أمُّها لإقناعها بأن المُلَبَّس يُفْسِد الأسنان، وبأن النَّهَم يُضخِّم القوام. وهكذا أصلحت صُوفيةُ نفسها، فلما كَبُرَت انتحلتْ من الأذواق ما حوَّلها عن تلك الحِسِّيَّة الوضيعة. والقلبُ إذا ما انتعش عند النساء كما عند الرجال عادَ النَّهَم لا يكون نقيصةً مسيطرة. وقد حافظت صُوفيةُ على الذوق الخاصِّ بجنسها؛ فهي تُحِبُّ الألبان والحلاوَى، وهي تُحِبُّ المَعْجونات والمأْدُومات، ولكن مع مَيلٍ قليلٍ إلى اللحم. وهي لم تَذُقْ قَطُّ خمرًا ولا مُسْكِرًا مُقَطَّرًا، وهي، فضلًا عن ذلك، معتدلةٌ كلَّ الاعتدال في طعامها. ولا غَرْو؛ فجنسُها أقلُّ كَدْحًا من جنسنا؛ ولذا فهو أقلُّ من هذا احتياجًا إلى تجديد النشاط، وهي في كلِّ شيءٍ تُحِبُّ ما هو طيِّبٌ وتَعرِف أن تذوقه، وهي تَعرِف أيضًا أن تكتفي بما هو غيرُ جيد، وذلك من غير أن يصعُب عليها هذا الحرمان.

وصوفيةُ مقبولةُ الذِّهنِ من غير تألُّق، وصوفيةُ قويةُ الذِّهنِ من غيرِ عُمْق، وصوفيةُ ذاتُ ذهنٍ لا يُحَدَّث عنه مُطلَقًا لِمَا لا تَبدو أكبرَ مما هي عليه أو أصغر، ولها من الذهن ما تَرُوقُ به مَن يُكلِّمونها دائمًا وإن لم يكن من التجميل ما يطابِق الفكرَ الذي يساورنا حوْل تهذيب ذهن النساء؛ وذلك لأن ذهنَها لم يُكوَّن بالقراءة قَط، بل كُوِّن بأحاديثِ أبيها وأمِّها وبتأمُّلاتها الخاصة، وما تم لها من ملاحظاتٍ فيمن رأت من أناسٍ قليلين. ومن الطبيعي أن ظهرت صُوفيةُ ذاتَ مَرَح، حتى إنها كانت لَعوبًا في طفولتها، غير أن أمَّها عُنِيَت بزَجرِ مناحيها الطائشة بالتدريج، وذلك خشيةَ أن يقع سريعًا من التغيير المفاجئ ما تَطَّلِعُ به على الوقت الذي تكون فيه مُبْتغاة؛ ولذا فقد صارت متواضعةً متحفِّظةً حتى قبل أن تبلغ ذلك، والآن حَلَّ ذلك الوقتُ فصار أسهلَ عليها أن تحافظ على الوضع الذي اتخذته من انتحاله مع عدم بيان السبب في هذا التحوُّل. ومن الأمور المستحبَّة أن تُرى في بعض الأحيان عاكفة، ببقيةٍ من العادة، على نشاط الطفولة، ثُمَّ أن تَعود إلى نفسها بغتةً

فتبدو صامتةً مُطرِقَةً مُحمَرَّة، ولا عجب؛ فلا بُدَّ في الدَّور الفاصل بين العُمُرَين من تَسَرُّب شيءٍ منهما فيه.

وصوفيةُ مِن فَرْط الإحساسِ ما لا تُحافِظ معه على اعتدالٍ كاملٍ في المِزاج، ولكنها من فرْط اللطف ما لا يكون هذا الإحساسُ معه كثيرَ الإزعاجِ للآخرين. وهي لا تُؤلِم غيرَ نفسِها بذلك، وإذا ما وُجِّهَت إليها كلمةٌ لاذعةٌ لم تُظْهِر استياءها، ولكنَّ قَلْبها ينتفخ، فتحاول أن تُفلِت لتذهبَ وتبكي. وإذا ما ناداها أبوها أو أمُّها بكلمةٍ واحدةٍ وهي تبكي أتت من فوْرها لاعبةً ضاحكةً مُكفكِفةً دموعَها بلباقةٍ محاولةً كَتْمَ زَفَراتها.

ثُمَّ إنها غيرُ خاليةٍ من النَّزوة، فإذا ما نُخِزَتْ مِزَاجًا تمرَّدت ونَسِيَت نفسَها، ولكن إذا ما تَرَكتُم لها وقتًا تَعُودُ فيه إلى نفسها عُدَّت لها فضيلةٌ تقريبًا بالوجه الذي تمحو فيه خطأها، وإذا ما عُوقِبَت بَدَت طائعةً خاضعة، وظَهَرَ أن حياءها يَصْدُرُ عن ذنْبِها أكثرَ مما عن عِقابها، وإذا لم تُقَل لها كلمةٌ لم يُعوِزْها أن تمحوَه بنفسها، ولكن بإخلاصٍ كبيرٍ ولطفٍ كثيرٍ يتعذَّر معهما أن يَتْرُك ذلك أثرًا للضغينة، وهي تُقبِّلُ الأرضَ أمام أحقرِ خادم، وذلك من غيرِ أن يُوجِب هذا الاتِّضاعُ أقلَّ ألَمٍ فيها، وهي إذا ما عُفي عنها نَمَّ فرَحُها واغتباطُها على مقدارِ الحِمْل الذي أُزيح عن فؤادها. والخلاصةُ أنها تحتمل خطأ الآخرين صابرة، وأنها تُصلِحُ خطأها مسرورة، وهذا هو طَبْعُ جنسِها الجميلُ قبْل أن نُفسِده، وقد صُنِعَت المرأة لتُذعِن للرجل، ولتحتمل حتى جَوْره، ولن تُحوِّلوا فتياتِكم إلى النقطة عينِها؛ فالشعور الباطنيُّ يرتفع ويثور ضدَّ الجَوْر، ولم تصنعهن الطبيعةُ للتسامح فيه.

«فذاك هو الغضبُ المشئومُ الناشئُ عن ابنِ بِيلِه الشَّرِس.»

ولِصُوفيةَ دِين، ولكنه دِينٌ معقولٌ بسيطٌ مع عقائدَ قليلةٍ وعباداتٍ أقلَّ منها، أو إنها لا تعرفُ من الشَّعائرِ الجوهريةِ غيرَ الأدبي؛ فهي تَقِفُ جميعَ حياتِها على عبادةِ الربِّ بصُنْعِ الخير. وقد عَوَّدها أبواها أن تُبديَ خضوعَ احترامٍ في جميعِ المعارفِ التي حَبَوَاها بها حَوْل هذا الموضوع؛ إذ يقولان لها: «يا بُنيَّة، إن هذه المعارفَ لا تناسِبُ سِنَّك، وسيُعلِّمُك زوجُك إياها في الوقتِ المناسب.» ثُمَّ إنهما بدلًا من الإسهابِ في الكلامِ عن التَّقوى يكتفيان بوعظِها على مثالهما، وهذا المِثالُ منقوشٌ على فؤادِها.

وتُحِبُّ صُوفيةُ الفضيلةَ، وصارَ هذا الحبُّ هواها المُهيمِنَ، وهي تُحِبُّ الفضيلةَ لأنه لا يوجدُ ما هو جميلٌ كالفضيلة، وهي تحب الفضيلةَ لأنها تؤدي إلى مجدِ المرأة، ولأن المرأةَ

الفاضلةَ تبدو لها كالملائكةِ تقريبًا، وهي تحب الفضيلة لأنها الطريقُ الوحيد للسعادة الحقيقية، وهي تحب الفضيلة لأنها لا ترى غيرَ البؤس والإهمال والشقاء والعار والخزي في حياة المرأة غيرِ المستقيمة. ثُمَّ إنها تحب الفضيلةَ لأن الفضيلةَ عزيزةٌ على أبيها الجليل وأمها الحنون الوقور، ولا يكتفي هذان الوالدان بأن يكونا سعيدين بفضيلتهما الخاصة، بل يريدان أن يَسْعدا بفضيلتها أيضًا، وهي تُبْصِر سعادتَها الأُولى في رجائها أن تجعلهما سعيدَين، وتوحي جميعُ هذه المشاعر إليها بحماسةٍ ترتفع بها روحًا وتُعَبِّدُ بها جميعَ ميولها الصغيرة لهوًى نبيلٍ جِدًّا. وستكون صُوفيةُ طاهرةً صالحةً حتى النفَسِ الأخيرِ من حياتها، وقد أقسمتْ على هذا في صميمِ فؤادها، وهي قد أقسمتْ على ذلك في وقتٍ كانت تُدرك فيه كلَّ ما ينطوي عليه البِرُّ من قيمة، وهي قد أقسمتْ على ذلك في وقتٍ كانت تَحْنَثُ فيه لو كانت حواسُّها قد كُوِّنت لتسيطر عليها.

ولم تَسْعَد صُوفيةُ بأن تكون فاتنةً فرنسية، فاترةً عن مِزاج، مِغْناجًا عن زهو، راغبةً أن تُشْرِق أكثرَ من أن تَرُوق، باحثةً عن اللهو لا عن السرور، وتُضنيها ضرورةُ الحبِّ الوحيدة، وتَشغلُها وتُقْلِق بالَها في الأعياد، وقد فَقَدَت مَرَحها السابق، وعادت الألعابُ المَرِحة لا تلائمها. وهي تبحث عن العُزلة بدلًا من أن تخشاها، وفي العُزلة تفكِّر فيمن يجب أن يجعلها حُلوة، ويُزعِجها جميعُ الأخلياء، وتحتاج إلى عاشقٍ لا إلى بِطانة، وتُفضِّل أن تروقَ رجلًا كريمًا واحدًا، وأن تقع موقعَ الرِّضا عنده دائمًا، على أن تنال استحسان مجتمعٍ يدوم يومًا ثُمَّ يتحوَّل إلى سخريةٍ في الغد.

ويتكوَّن الحُكم في النساء بأسرعَ مما في الرجال، وبما أن النساء يَكُنَّ في وضْع المُدافع منذ طفولتهن تقريبًا، وبما أنهن يَكُنَّ مُثْقَلاتٍ بوديعةٍ يَصعُب حفظُها، فإن الخير والشر يكونان معروفَيْن عندهن بأسرعَ مما عند الرجال بحُكم الضرورة، وكذلك صوفيةُ، الناضجةُ باكرًا في كل شيءٍ نتيجةً لِمزاجها، ذاتُ حُكمٍ أسرعَ تَكَوُّنًا مما عند البنات اللاتي هُنَّ في مثلِ عُمُرِها، ولا شيءَ خارقٌ للعادة في هذا؛ فالبلوغ في الوقت نفسِه لا يكون على وتيرةٍ واحدةٍ في كل مكان.

وتَعْرف صُوفيةُ واجباتِ الجنسين وحقوقَهما، وتَعْرف نقائصَ الرجال ومعايبَ النساء، وتَعْرف أيضًا ما تباينَ من الفضائل والصفات، وقد طبعتهما جميعًا في صميم قلبِها، ولا يمكن تكوينُ فكرٍ عن المرأة الصالحة أرفعَ من الذي تمثَّلَتْه عنها، وما كانت هذه الفكرة لتُرعبها مطلَقًا، ولكنها تُفكِّرُ بارتياحٍ أكثرَ من ذاك في الرجل الصالح، في الرجل

الفاضل، فتُحِسُّ أنها كُوِّنت لهذا الرجل الذي تليقُ به، فتستطيع أن تُعيدَ إليه السعادةَ التي تنالُها منه، وهي تشعُر بأنها ستعرفه جيِّدًا؛ فالأمر يتوقَّف على لُقيانها إياه.

ومن الطبيعي أن يكون النساءُ قاضياتٍ في مَزيَّة الرجال كما يكون الرجالُ قُضاةً في مَزِيَّة النساء، وتُعَدُّ هذه من حقوقهما المتبادَلة، ولا يجهَلُ هذا أيٌّ من الفريقين، وتَعرف صُوفيةُ هذه الحقوق وتُمارِسها، ولكن مع ما يلائم فتاءها وتجرِبتها ووضعها من التواضع، وهي لا تحكُم في غيرِ الأمور التي تكون في متناوَلها، وهي لا تحكُم فيها إلا عندما يَنْفَع هذا في تنوير بعض المبادئ المفيدة، وهي لا تتكلَّم عن الغائبين إلا بحَذَرٍ كبير، ولا سيَّما النساءُ إذا ما كنَّ غائبات، وهي ترى أن الذي يجعلهن مغتاباتٍ هاجياتٍ هو الحديثُ عن جنسهن، فإذا ما اقتصرن على الكلام عن جنسنا لم يَكُنَّ غيرَ منصفات؛ ولذا فإن صوفية تقتصر على هذا، وأمَّا النساءُ فإنها لا تتكلم عنهن مُطلَقًا إلا لتقول عنهن ما تعرف من خير، وهذا إكرامٌ يجب عليها أن تقوم به نحو جنسها على ما تعتقد، وأمَّا اللائي لا تَعْرِف خيرًا تقوله عنهن فلا تُحدِّثُ عنهن بشيء، وهذا يكفي.

وصوفيةُ قليلةُ المعرفة بالنَّاس، ولكنها ذاتُ مُرُوءة وانتباه، وتُظهِرُ لُطفًا في كلِّ ما تصنع، وما فُطِرَت عليه من طبْعٍ مبَاركٍ أنفعُ لها من كثيرِ شطارة، وهي ذاتُ أدبٍ خاصٍّ بها غيرِ تابعٍ للصِّيَغ، وغيرِ مُسخَّرٍ للمُوضات؛ فلا يتغيَّر بتغيُّرها، وغيرِ صانعٍ شيئًا عن عادة، بل صادرٌ عن رغبةٍ صادقةٍ في الوقوع موقعَ الرِّضا، فيروق فعلًا، وهي لا تَعْرف المجاملات المبتذَلة مُطلَقًا، ولا تبتكِر من المجاملات ما ينطوي على كبيرِ تكلُّف، وهي لا تقول إنها مَدينةٌ لفضلٍ، أو ذاك يُشرِّفها كثيرًا، أو لا يُتعِبُ ذلك نفسَه ... إلخ. وأقلُّ من هذا أيضًا أن يَخْطُر ببالها انتحالُ جُمَلٍ لنفسها، وهي تُجيبُ عن انتباهٍ أو أدبٍ معتادٍ بحنْوِ الرأس أو بكلمة «شكرًا» البسيطة، وذلك مع العلم بأن نُطقَها بهذه الكلمة يُجزئ عن غيرها. وإذا ما أُسدِيَ إليها بخدمةٍ دَعتْ قلبَها يتكلَّم، وليس كلامُ الفؤاد ضرْبًا من المجاملات، وهي لم تُطِق مطلَقًا أن تُعبِّدَها العاداتُ الفرنسية لنِيرِ المظهر، كأن تَمُدَّ يدَها عند مرورها بين غرفةٍ وأخرى إلى ذراعِ شيخٍ في الستين من عُمُره مساعدةً له، وإذا ما عَرض مِغْنَاجٌ مُعطَّرٌ عليها القيامَ بهذه الخدمةِ النابية تركت الذراعَ المتكرِّمة على السُّلَّم وطارت إلى الغرفة بوثبتَين قائلةً إنها ليست عَرْجاء. والواقع أنها، وإن لم تكن طويلة، لم تَرغبْ في الأعقاب العالية قَط؛ فهي مِن صِغَرِ الرِّجْلَيْن ما تستغني معه عنها.

ولا تلتزمُ جانبَ الصمت، وتقوم بالاحترام نحو السيدات فقط، بل تفعل ذلك نحو الرجال المتزوجين أيضًا، أو نحوَ مَن يكبُرونها في السِّن كثيرًا، وهي لا تَقْبل مُطلَقًا مكانًا فوقَهم إلا عن طاعة، ثُمَّ لا تَلْبث أن تتخذَ مقعدًا لها تحتهم عندما يُمكنها ذلك؛ فهي تعلَم أن حقوق السِّن فوق حقوق الجنس، وذلك لما يُفتَرَض من ملازمة الحكمة للمشيب، والحكمةُ هي ما يجب أن يُكرَم قبْل كلِّ شيء.

والأمر غيرُ ذلك تجاه الشباب؛ فهي تستلزم وضعًا مختلفًا عن ذاك نَيْلًا لاحترامهم، وهي تناله من غير أن تُغيِّر ما يناسبها من تواضع، وإذا ما كانوا متواضعين متحفِّظين، أمكنها أن تتخذَ نحوَهم ما يقتضيه الفَتَاءُ من دالَّةٍ مستحَبة، وقامت أحاديثُهم البريئة على المُزاح، ولكن مع الاحتشام، وإذا ما التزموا جانبَ الجِدِّ وَدَّتْ أن يكونوا نافعين، وإذا ما أَسَفُّوا لم تَلبَث أن تُسكِتَهم؛ وذلك لأن أخصَّ ما تزدريه هو رَطانةُ المغازلة المُهينةُ كثيرًا لجنسها، وهي تَعْلَمُ جيِّدًا أن الرجل الذي تبحث عنه خالٍ من هذه الرَّطانة، فلا تحتمل عن اختيارٍ أن يَصدُر عن آخرَ ما لا يناسبُ الرجلَ المطبوعةَ أخلاقُه في صميمِ فؤادها، وما عندها من رأيٍ عالٍ عن حقوق جنسِها، وما يُسفِر عن صفاء مشاعرها من زهوٍ في النفس وما تُحِسُّه من فضيلةٍ في نفسها فيجعلها محترمةً في نظرها الخاص؛ أمورٌ تَحمِلُها على الإصغاء مع الغيظ إلى الأحاديثِ التافهةِ الحلاوة التي يُزعَم أنها تُسلِّيها، أجلْ، إنها لا تتلقَّاها بغيظٍ ظاهر، ولكن بهُتافٍ ساخرٍ يُفحِم، أو بفتورٍ غيرِ منتظَر. ولو بَرَزَ لها رجلٌ جميلٌ مِثلُ فِيبُوسَ فأظهَرَ لها ظرَافته، وأبدى لها من المَلاحة ما مَدَحَ معه جمالَها وألطافَها نَيْلًا لشرف الوقوع عندها موقعَ الرِّضا، لوَجَد فيها فتاةً تُسكِتُه بقولها المؤدَّبِ له: «أخشى كثيرًا يا سيِّدي أن أكون عارفةً بهذه الأمورِ أكثرَ مما تَعرِف، فإذا لم يَكُن لدينا ما هو أمتَعُ من هذا للكلام، فإنني أظنُّ أننا نستطيع أن نَضَع حدًّا لهذا الحديث.» وليس إرفاقُ هذه الكلمات باحترامٍ كبيرٍ ثُمَّ الابتعادُ عنه عشرين خُطوةً غيرَ عملٍ ثانية، واسألوا فاتِني النساءِ لديكم هل من السهل أن يُداوَم على الهَذْر مع نَفْسٍ غيرِ هَيِّنةٍ كتلك.

ومع ذلك، فإن ذلك لا يَعني أنها لا تُحِبُّ أن تُمْدَح مُطلَقًا، وإنما تريد الإخلاص في المدح، فيُمكنها أن تعتقد أن المادح مؤمنٌ بما يقول لها من خيرٍ في الحقيقة، وقد يلاطِفُ الولاءُ القائمُ على التقدير فؤادَها الأبيَّ، ولكنَّ كلَّ غَزَلٍ خادعٍ يُقابَل بالرفض دائمًا؛ فلمْ تُكوَّنْ صُوفيةُ لِتُمارِسَ مواهبَ حقيرةً كمواهب البَهْلَوَان.

وما كانت صُوفيةُ لِتُعامَل مِن قِبَل والديها كما يُعامَل الأولاد بعد ذاك النُّضج في الحُكم وذاك التكوين الخليق من كلِّ ناحيةٍ بفتاةٍ في العشرين من عُمُرها مع أنها في الخامسة عشرة من سِنيها، وهما لا يكادان يُبصِران فيها أوَّلَ هموم الشباب حتى يُبادرا إلى تلافيها فيخاطباها بكلامٍ ليِّنٍ رَصين، والكلامُ الليِّنُ الرصينُ مما يلائم سِنَّها وطبْعَها، وإذا كان طبعُها كما أتصوَّرُ فلِمَ لا يخاطِبُها أبوها كما يأتي تقريبًا:

«أيْ صوفية، لقد كَبِرْتِ كما نرى، وستصبحين امرأةً عما قليل، ونريد أن تكوني سعيدة، ونُريدُ هذا من أجْل أنفسنا؛ وذلك لأن سعادتنا تتوقَّف على سعادتك، وتقوم سعادة البنت الصالحة على صنْع سعادة الرجل الصالح؛ ولذا فلا بُدَّ من التفكير في تزويجك، ويجب أن يُفكَّر في ذلك باكرًا؛ فعلى الزواج يتوقَّف مصيرُ الحياة، وليس لدينا وقتٌ كبيرٌ للتفكير في أمره.

ولا شيءَ أصعبُ من اختيار الزوج الصالح، إن لم تكن الصعوبة في اختيار الزوجة الصالحة على ما يُحْتَمل. أيْ صوفية، ستكونين هذه المرأة النادرة، وستكونين تاجَ حياتنا وسعادةَ أيامنا الآفلة، ولكن مهما تَكن المَزِيَّةُ التي تتصفين بها فإنه لا يُعْوِزُ الأرضَ رجالٌ يكونون أعظمَ مَزِيَّةً منك، ولا يُوجَدُ في الأرض رجلٌ لا يُشَرِّفه أن يفوزَ بك، وفي الأرض رجالٌ تفوزين بشرفٍ منهم أكثرَ مما يفوزون، ويَدورُ الأمرُ حولَ لُقيانِ رجلٍ يلائمكِ، وأن يُعرَفَ، وأن يُعرَّف بك.

ويتوقَّف أعظمُ سعادةٍ في الزواج على كثيرٍ من الموافَقات التي يُعَدُّ من الحماقة أن يُرادَ جمعُها كلُّها، وأوَّل ما يَجِبُ هو أن يُضمَن أهمُّها، فإذا ما وُجِدَت الأخرى بينها كان هذا خيرًا، وإذا لم تُوجَد استُغْنيَ عنها. أجلْ، إن السعادة الكاملة غيرُ موجودة في العالَم، ولكن أعظم المصائب، وهي التي يُمكِنُ اجتنابُها دائمًا، أن يكون الإنسان شقيًّا بخطأ منه.

ومن الموافقات ما هو طبيعي، ومنها ما هو وضعي، ومنها ما هو تابعٌ للرأي العامِّ وحدَه، فأمَّا النوعان الأخيران فالأبَوان قاضيان فيهما، وأمَّا النوع الأوَّل فالأولادُ قضاةٌ فيه، ويُستَنَدُ إلى الموافقات الوضعية وإلى الموافقات التابعة للرأي العام حَصْرًا في الزواجات التي تَتمُّ بسلطان الآباء. والأحوالُ والأموالُ لا الأشخاص هي التي تُزوَّج هنا، غير أن جميعَ هذا يُمكن أن يتغيَّر، والأشخاصُ وحدَهم هم الذين يبقَون دائمًا، والأشخاص يكونون حيث هم في كلِّ مكان، وليس بغير الصِّلات الشخصية ما يُمكِنُ أن يكون الزواجُ سعيدًا أو سيِّئًا، وذلك على الرغم من الثراء.

وكانت أمُّك حسيبة، وكنتُ غنيًّا، وهذان العاملان وحدَهما هما اللذان حَمَلا وَالِدَيْ كُلٍّ مِنَّا على جمْع ما بيننا، وقد أضعتُ أموالي، وقد أضاعت اسمَها، وما فائدتها اليوم من كَوْنها قد وُلِدَت آنسةً بعد أن نُسيَت من قِبَل أُسْرتها؟ لقد أسْلانا اتحادُنا عن كلِّ شيءٍ في جميع مصائبنا، وكان من تَوافُق أذواقنا أن اخترنا هذه العزلة، فنعيش فيها سعداء مع الفقر، وكلٌّ مِنَّا كلُّ شيءٍ في نظر الآخَر، وصوفيةُ هي كنزُنا المشترَك بيننا، ونشكُر لله إنعامَه علينا بها ونَزْعَه مِنَّا كلَّ شيءٍ غيرَها. وانظري يا بنيتي إلى أين ساقتنا العنايةُ الربَّانية؛ فقد زالت الموافقات التي جعلتنا نتزوج، ولسنا سعيدَين بغير الموافقات التي لم يُؤبَه لها.

ويجب على الزوجين أن يختار كلٌّ منهما الآخر، ويجب أن يكون مَيلُهما المتبادَلُ أوَّلَ رابطةٍ بينهما، ويجب أن تكون عيونُهما وقلوبُهما أدلَّاءهما الأُولى، وذلك بما أن واجبهما الأوَّل بعد أن يتزوَّجا هو أن يتحابَّا، وبما أن الحُبَّ أو عدم الحُبِّ أمرٌ لا يتوقَّف علينا مُطلَقًا، فإن هذا يستلزم واجبًا آخَر بحكم الضرورة، وهو أن يُبدأ بالتحابِّ قبْل الاقتران، وهذا هو حَقُّ الطبيعة الذي لا يستطيع شيء أن يَنْقُضه، وقد عُنيَ الذين ضايقوا هذا الحقَّ — بكثيرٍ من القوانين المدنية — بالنظام الظاهر أكثرَ مما بسعادة الزواج وطِباع المواطنين؛ ومِنْ ثَمَّ تَرين يا صوفية أننا لا نَعِظُكِ بأدبٍ صَعْب، وهذا الأدب لا يهدِفُ إلى غيرِ جعْلِ أمْرِك بيدك، تاركين لكِ أمرَ اختيار زوجك بنفسك.

وإنَّا بعد أن حدَّثناكِ عن الأسباب في تركنا لكِ كلَّ الحرية، يُعَدُّ من الصواب أن نُحدِّثك أيضًا عما لديك من أسبابٍ في استعمال هذه الحرية بحكمة. فيا بُنيَّتي، أنت صالحةٌ رشيدة، وعندك إنصافٌ وتقْوَى، ولديكِ من المواهب ما يناسب النساء الصالحات، ولستِ خاليةً من الألطاف، ولكنك فقيرة، وأنت حائزةٌ لأكثرِ المحاسن أهلًا للتقدير، ويُعْوِزُك أكثرُ ما يُقدَّر منها، ولا تبتغي إذن غيرَ ما تقدِرين على نَيله، ونَظِّمي طموحك وَفْقَ رأيِ الرجال، لا على حَسَبِ أحكامِك وأحكامِنا، وإذا ما دار الأمر حوْل تساوي المزايا فإنني لا أدري عَلَامَ يجِبُ أن أجعل آمالَك قاصرة، ولكن حَذَارِ أن تَرفعيها إلى ما فوق نصيبك مطلقًا، ولا تنسي أنه من المرتبة الدنيا، ومع أن الرجلَ الخليقَ بكِ لا يَعُدُّ هذا التفاوتَ عائقًا، فإنه لا يجوز لك أن تصنعي إذ ذاك ما لا يَصنع، فعلى صوفية أن تسير على غِرار أمِّها، وأن تدخُلَ أُسْرَةً تُفاخِر بها، وأنتِ لم تَرَيْ يُسرَنا قَط، وأنتِ قد وُلِدْتِ في دَوْر عُسْرِنا فقط، وأنتِ قد جعلتِ فقرنا حُلوًا لدينا، وأنت تقاسميننا إياه بلا عناء، وثِقِي بي يا صوفية، ولا تطلبي أموالًا نحْمدُ الله على أنه أنقذنا منها؛ فنحن لم نَذُقْ طعمَ السعادة إلا بعد أن خسرنا الثراء.

أنتِ من كثرةِ اللُّطف ما تَروقين معه كلَّ إنسان، وليس بؤسُك من الحال ما ينقبِضُ معه صدرُ الرجل الصالح منك. وستُخْطَبين، وقد تقعُ خِطْبَتُك من قِبَل أناسٍ لا نرغب فيهم، وهم إذا ما أظهروا أنفسَهم على حقيقتهم أمكنك أن تقدِّريهم بقيمتهم، فما كان مظهرُهم ليَخدَعَك زمنًا طويلًا، ولكن مهما يَكُنْ من صلاحِ حُكْمِك ومن حُسْن معرفتِك بالمَزِيَّة، فإن التجربة تُعْوِزُك ولا تعرفين مدى قدرة الرجال على التَّنكُّر، ومن ذلك أن الماكر الماهر يستطيع أن يَدرُس أذواقك لإغوائك وأن يُظْهِر أمامَك ما ليس فيه من الفضائل مُطلَقًا، فيكون سببَ ضياعكِ يا صوفية قبْل أن تعرفي، ولا تعرفين خطأك إلا للبكاء. وأشدُّ الأشراك خَطَرًا، وهو الذي لا يستطيع العقل اتِّقاءَه، هو شَرَكُ الحواس، وإذا كنتِ من الشقاء ما تَقَعين فيه لم تُبْصِري غيرَ الأحلام والأوهام، فستُسْحَرُ عيناك، وسيختلُّ حُكمُك، وسيفسُد عزْمُك، حتى إن خطأك سيكون عزيزًا عليك. وعندما يُتاح لك بعد ذلك أن تَريه لا يُروقُك أن تترُكيه. فيا بُنيتي، أسلِّمُكِ إلى عقلِ صوفية، ولا أُسلِّمُك إلى مَيْلِ قلبِها مطلقًا، وابقَي قاضيةَ نفسِك ما دُمتِ رابطة الجأش، فإذا ما أحببتِ فأعيدي إلى أمِّك أمرَ العناية بك.

وأقترحُ عليكِ وَضْعَ اتفاقٍ يُبيِّنُ لك تقديرَنا ويُعيدُ النظامَ الطبيعيَّ بيننا، ومن مُقتضى العادةِ أن يختار الأبوان زوجَ البنتِ وألَّا يستشيراها إلا شكْلًا، وسنصنع غيرَ هذا بيننا؛ فستختارين وسنُسْتَشَار، فمارسي حقَّكِ في ذلك يا صوفية بحريَّةٍ وحكمة، فيجب أن يكون اختيارُ الزوج الذي يلائمكِ من حقِّك لا من حقِّنا، ولكن من حقِّنا أن نحكُم في كونكِ قد خُدِعْتِ في الموافَقات، وفي كونكِ تأتين أمرًا غيرَ ما تريدين من غيرِ أن تعرفي ذلك، ولا يدخل الأصلُ والمال والمقام والرأي العام في بواعثنا مطلَقًا، واتخذي لك رجلًا صالحًا يروقُكِ شخْصُه وتلائمك أخلاقُه، وليكُن بعد ذلك مَن شاء، فسنَرضى به صهرًا لنا، وسيكون ذا رزقٍ كافٍ دائمًا إذا ما كان ذا ذراعين وأخلاق، وكان مُحِبًّا لأسرته، وسيكون ذا مقامٍ مرموقٍ دائمًا إذا ما شرَّفه بالفضيلة، وما يُهِمُّنا إذا ما لامنا جميعُ العالَم؟ فنحن لا ننشُد موافقةَ النَّاس، ونحن نكتفي بسعادتك.»

ويا أيها القراء، إنني أجهل أيُّ أثرٍ يكون لمثل هذا الكلام في البنات اللائي يُنشَّأن على طريقتكم، وأمَّا صوفية فيُمكِنُها ألَّا تُجيب عنه بالأقوال، فما تتصل به من حياءٍ ورِقَّةٍ يمنعُها من التعبير عما في نفسها بسهولة، ولكنني مطمئنٌّ إلى أنه سيبقى منقوشًا في قلبها ما دامت حيَّة. وإذا كان من الممكن أن يُعتمَد على حُكمٍ بشريٍّ فهو الحُكْمُ الذي تكون به أهلًا لتقدير أبويها.

ولْنأتِ بأسوأ احتمالٍ فنفترض لها مِزاجًا أجُوجًا يجعل الانتظار الطويل شاقًّا عليها، فأقول إن حُكمها ومعارفها وذوقها ولطفها، ولا سيَّما مشاعرُها التي غُذِّيَ بها فؤادُها في صِباها، أمورٌ تُعارضُ فَوَران حواسِّها بثِقَلٍ يكفيها لقهْرِ هذه الحواس أو مقاومتها زمنًا طويلًا على الأقل، وهي تُفضِّل أن تموت شهيدةَ حالها على أن تُحْزِن أبويها بتزوُّجِ رجلٍ خالٍ من الفضل وتعريضِ نفسِها لشقاءِ زواجٍ غيرِ مُوفَّق، حتى إن الحرية التي فازت بها لم تُوجِبْ غيرَ عُلُوٍّ جديدٍ في النفس وغيرَ جعْلها أصعبَ مِراسًا في اختيار مولاها، وهي على ما فيها من مِزاجِ الإيطالية وحساسية الإنكليزية، حائزةٌ لزهو الإسبانية التي إذا ما بحثتْ حتى عن عاشقٍ لم يَسْهُل عليها أن تجدَ مَن تُقدِّر أنه كُفءٌ لها.

وليس كلُّ واحدٍ قادرًا أن يُدرِك أيُّ نابضٍ يُمكِن حُبَّ الأمورِ الصالحة أن يُورِثَ النفسَ إياه، وأيُّ قوةٍ يمكن الواحدَ أن يَجِدها في نفسه إذا ما أراد أن يكون فاضلًا بإخلاص. ومن النَّاس مَن تبدو لهم كلُّ عَظَمةٍ وَهْمًا، ومَن لا يَعْرِفون بعقْلهم السافل المنحط ما يُمكِن أن يكون حتى لجنون الفضيلة من تأثيرٍ في أهواء البشر، ولا يَجوز أن يُخاطَب هؤلاء النَّاس بغيرِ الأمثلة، ويقعُ اللومُ عليهم إذا ما أَصَرُّوا على إنكارِها. وإذا قلتُ لهم إن صُوفيةَ ليست إنسانًا خياليًّا، وإن اسمها وحدَه هو مِن اختراعي، وإن تربيتَها وطِباعها وأخلاقها وهيئتها أيضًا قد وُجِدَت حقًّا، وإن ذكْراها لا تزال تُسيل عَبَراتِ كلِّ أُسْرةٍ صالحة، لم يُصدِّقوا شيئًا من هذا لا ريب، لكن لِمَ لا أجازفُ فأُتِمَّ بلا التواء قصةَ فتاةٍ كثيرةِ الشَّبه بصوفيةَ، فيُمكن أن تكون هذه القصةُ قصَّتَها من غيرِ أن يَحَارَ منها أحد؟ وليس من المهمِّ أن يُعتَقد أن القصةَ واقعيةٌ أو لا، ولْيُقَلْ — إذا أُريد — إنِّي أقُصُّ أوهامًا، فلا يُهِمُّ هذا، وإنما الذي يُهِمُّ هو أن أشرح منهاجي فأَبْلُغَ غاياتي دائمًا.

إن الفتاة التي حَمَّلْتُ صوفيةَ مِزاجَها حائزةٌ لجميع الموافقات التي يُمكن أن تجعلها أهلًا لهذا الاسم فأتركه لها، وإن أباها وأمَّها رأيا، بعد الحديث الذي رويته آنفًا، أنَّ طالبي الزواج لا يأتون لعَرْض أنفسِهم في الكُوخ الذي يقيمان به، فأرسلاها إلى المِصْرِ لتقضي فيه شتاءً عند خالةٍ لها أطلعاها سِرًّا على سبب الرحلة؛ وذلك لأن صوفيةَ المختالةَ كانت تحمل في قرارة قلبِها من الزهو الكريم ما تَعْرف معه أن تضبط نفسها، ولأنها مهما يكن من احتياجها إلى زوجٍ تُفضِّل الموتَ على الذهاب للبحث عنه.

وقد عَمِلَتْ خالتُها بوجهاتِ نظرِ أبويها؛ فقدَّمتها في البيوت، وأتت بها إلى المجتمعات، وأحضرتها إلى الولائم والأعياد، وعرَّفتها بالنَّاس، وإن شئتَ فقُل عَرَّفت بها النَّاس، وذلك

مع كونِ صوفيةَ قليلةَ المبالات بهذه القَرْقَعات، ومع ذلك فقد لُوحظ أن صوفيةَ لم تجتنب مَن يَبْدون متواضعين ذوي احتشامٍ من وُسَماء الشُّبَّان، حتى إن احترازها ينطوي على فنٍّ في اجتذابهم مشابهٍ للدَّلال، ولكنها ارتدَّتْ عنهم بعد أن حادثتهم مرتَين أو ثلاث مرات، وذلك أنها لم تلبث أن اتخذت وضعًا أكثرَ تواضعًا، وأدبًا أكثرَ دفعًا بدلًا من ظاهرِ السلطان الذي يتقبَّل المجاملات كما يلوح، وذلك أنها كانت دائمةَ الانتباه إلى نفسها، فعادت لا تَدَعُ لهم فرصةَ تقديمِ أيةِ خدمةٍ لها، وهذا يعني أنها لم تُرِدْ أن تكون خليلةً لهم.

وما كانت القلوب الحساسة لتُحبَّ الملاهي الصاخبة ولا السعادة الباطلة الماحلة عند أناسٍ لا يُحِسُّون شيئًا، معتقدين أن تمتُّع الإنسان بحياته قائمٌ على خُمارِها. وبما أن صوفيةَ لم تَجِد ضالتَها مطلقًا، وبما أنها يئست مِن لُقيانها؛ فقد سئمتْ من المِصْر، وقد كانت تُحِبُّ أبويها حُبَّ حَنان، فلم تَجد ما يُعوِّضها منهما، ولم يظهر لها شيءٌ تنساهما به، فعادت لِتلحَق بهما قبل الوقت المعيَّن لرجوعها بزمنٍ طويلٍ.

وهي لم تَكَدْ تَعُودُ إلى واجباتها في منزل والديها حتى رُئيَ أنها غيَّرت مِزاجها مع المحافظة على سلوكها، وذلك أنها بَدَت ذاتَ ذهولٍ ومَلَلٍ وغَمٍّ ووهْم، فتتوارى لتبكي. وقد ظُنَّ في البُداءة أنها تحبُّ وأنها خَجْلى من ذلك، فكلَّمَاها في ذلك فردَّته عنها محتجةً بأنها لم تَرَ رجلًا أمكنه أن يَمَسَّ فؤادَها، وصوفيةُ لا تَكذِبُ مطلقًا.

ومع ذلك، فإن الذُّبول كان يزيد بلا انقطاع، وأخذت صحتُها تَفسُد، فعزمتْ أمُّها التي ساورها الهمُّ من هذا التحوُّل على معرفةِ العلة، فخلَت إليها، واتخذت نحوها لهجةً مؤثِّرة، وأظهرتْ لها من الألطاف التي لا تُرَدُّ ما لا يَصْدُر عن غيرِ عاطفة الأم، قالت لها أمُّها: «بُنيتي، لقد حملتُك في بطني، ولا أفتأ أحمِلُك في فؤادي، فأَفْضِي بأسرارِ قلبِك إلى ضميرِ أمِّك، وما هذه الأسرار التي لا تَقدِر الأمُّ أن تعرفها، ومَن ذا الذي يتوجَّع لكروبك، ومَن ذا الذي يُقاسِمك إياها، ومَن ذا الذي يريد أن يكشِفَها عنك، إن لم يكن والدكِ ووالدتكِ؟ آه! يا بنيَّتي، أتَوَدِّين أن أموتَ بسببِ ألمكِ من غيرِ أن أعْرِفه؟»

لم تكتُم البنتُ همومَها عن أمِّها، ولم تطلُبْ ما هو أحسنُ من أن تكونَ أُمُّها مُفرِّجةً لِغُمَّتها محلًّا لأسرارها، غيرَ أن الحياء كان يَمنعها من الكلام، وما هي عليه من حِشمةٍ كان لا يجدُ لسانًا لوصفِ حالٍ غيرِ خليقٍ بها كالهَيَجان الذي يُبلبلُ حواسَّها على الرغم من جميع جهودها، وأخيرًا اتخذت أمُّها من حيائها نفسِه دليلًا، فانتزعت منها هذه الاعترافات الفاضحة، ولم تُحزِنْها أمُّها بتعزيرٍ جائر، بل أسْلَتها وتوجَّعتْ لها، وبكتْ عليها، وهي

من الحكمة البالغة ما لا تجعَلُ لها معه جريمةً من سوءٍ قَسَا عليها بسبب عفافها وحدَه. ولكن لِمَ احتمالُها، بلا ضرورةٍ، سوءًا سهلًا دواؤه شرعيًّا علاجُه؟ ولِمَ لا تستعينُ بحريةٍ كانت قد مُنِحَتْها؟ ولِمَ لا تَقبَلُ زوجًا؟ ولِمَ لا تختارُ بعْلًا؟ أَلَا تعلمُ أن مصيرَها يتوقَّف عليها وحدَها، وأنه مهما يكن من اختيارها يُوافَق عليه ما دام هذا الاختيار لا يقع على غيرِ صالح؟ لقد أُرْسِلت إلى المِصر، ولم تُرِدِ البقاءَ فيه مطلقًا، وقد قُدِّم إليها كثيرٌ من طالبي الزواج فرفضتْهم جميعًا. وما تنتظرْ إذنْ؟ وما تريد؟ يا له من تناقضٍ غامض!

وكان الجوابُ بسيطًا؛ فلم يَدُرِ الأمرُ على غيرِ إغاثةٍ للشباب، ولا يَلْبَث الاختيارُ أن يَقَع، ولكن لا يسهُلُ اختيارُ سَيِّدٍ لِمدَى الحياة. وبما أنه لا يُمكِن فصلُ أحد الاختيارين عن الآخر، فإنه لا بُدَّ من الانتظار، ولا بُدَّ من ضياع الشباب في الغالب قبلَ لُقْيان الرجل الذي يُراد قضاءُ الحياة معه. وكان هذا حالَ صوفيةَ التي كانت محتاجةً إلى عاشقٍ على أن يكون زوجًا لها، ومن الصَّعب أن تجِد قلبًا كما تريد، سواءٌ أكان قلبَ زوج أم قلبَ عاشق، ولم يَقُم ما بينها وبين أولئك الشبان النضراء من موافقةٍ على غيرِ السِّن، وأمَّا الموافقاتُ الأخرى فتُعْوِزُهم دائمًا، وما كانوا عليه من ذهنٍ سطحي، ومن خُيَلاء ورَطانة، ومن طِباعٍ بلا نظام، ومن تقليدٍ طائش، كان يورثُها نفورًا منهم، وكانت تبحث عن رجلٍ فلا تجدُ غيرَ قِرَدَة، وكانت تبحث عن روحٍ فلا تجد منه شيئًا.

قالت لأمِّها: «يا لشقائي! إنني محتاجةٌ إلى الحُب، ولا أرى أحدًا يَرُوقُني، ويَرفِض فؤادي كلَّ مَن يُخاطب حواسِّي، ولا أجِد واحدًا لا يُثيرُ رغائبي، ولا أُبْصرُ واحدًا لا يَرْدعُ مُيولي، ولا يُكتبُ بقاءٌ لذوقٍ بلا احترام. آه! ليس هنالك مَن هو أهلٌ لابنتك صوفية! إن مثالَها الفاتنَ منقوشٌ في صميم فؤادها، وهي لا تستطيع حُبَّ غيرِه، وهي لا تستطيع أن تجعل سعيدًا سواه، وهي لا تستطيع أن تكونَ سعيدةً مع غيره، وهي تُفضِّل أن تضْنَى وتناضل بلا انقطاع، وأن تموت شقيةً حُرَّة، على أن تكون يائسةً بجانبِ رجلٍ لا تُحِبُّه فتجعله شقيًّا أيضًا، وأفضلُ لها أن تَهْلِك من أن تبقى لِتَأْلَم.»

ووَقَفتْ هذه الغراباتُ نَظَرَ الأمِّ فوجدتها من الشذوذ البالغ ما لم يُخامِرها معه شكٌّ في وجود سِرٍّ في الأمر، ولم تكن صُوفيةُ متصنِّعةً ولا مثيرةً للسخرية. وكيف أمكَنَ هذه الرقةَ المتناهيةَ أن توافقها، وهي التي لم تتعلَّم منذ طفولتها غيرَ الاكتفاءِ بأناسٍ كان عليها أن تعيشَ معهم وأن تقومَ نحوهم بمقتضى الفضيلة؟ إن هذا المثالَ للرجل المحبوب الذي فُتِنَت به كثيرًا، والذي تُردِّد اسمه في جميع أحاديثها غالبًا، قد جعل أمَّها تظُنُّ أن لهذا الهوى

أساسًا آخرَ لا تزال جاهلةً له، وأن صوفيةَ لم تقُل كلَّ شيء، ولم تحاول هذه الشقية المُثْقلة بكَرْبها الخفي غيرَ الكلامِ بثقةٍ تامة. وتُلِحُّ أمُّها، وتتردَّد، ثُمَّ تُذعن، وتَخرُج من غيرِ أن تقول كلمة، وتعود بعد هُنيهةٍ حاملةً كتابًا بيدها، وتقول: «اشفقي على ابنتكِ الشقية، فلا دواءَ لكَرْبها، ولا يُمكِن أن تَكُفَّ عن البكاء، وأنت تريدين معرفةَ العلة، حسنًا، ها هي ذي.» قالت هذه الكلمة وطَرَحَت الكتابَ على المِنضدة، وتتناول الأمُّ الكتابَ وتفتحه، فإذا هو: «مغامرات تِلِماك»، ولم تُدرِكْ شيئًا من هذا اللغز في البُداءة، وتدور أسئلةٌ مبهمةٌ وأجوبةٌ غامضة، فترى الأمُّ في آخرِ الأمر، مع دَهَشٍ يمكن تصوُّره، أن ابنتها منافِسةٌ لأُوكَارِيس.

وكانت صوفيةُ تُحِبُّ تِلِماك، وكانت تحِبُّه بهوًى لم يستطِع شيءٌ أن يشفيَها منه، ولمَّا عَلِم أبوها وأمُّها هُيامَها ضَحِكا منه، ورأيا أن يَرُدَّاها عنه بالعقل، وقد كانا على خطأ في ذلك؛ فلم يكنِ العقلُ كلُّه بجانبهما؛ فقد كان لصوفيةَ عقلُها أيضًا، وكانت تَعرف أن تنتفعَ به، وما أكثرَ ما حملَتْهما على السكوتِ بتوجيهها إليهما براهينَهما الخاصة، وبإثباتها لهما أنهما أساسُ العِلَّة لِمَا كان من عدمِ إعدادِهما إياها لرجلٍ من رجال عصرها، وأن الضرورةَ كانت تقضي بأن تعتنق أوجُهَ تفكيرِ زوجها أو أن تَمْنَحه أوجُهَ تفكيرها، وأنهما جَعَلَا الوسيلةَ الأُولى أمرًا متعذِّرًا عليها بالأسلوبِ الذي نشَّآها عليه، فتبحثُ عن الوسيلة الأخرى تمامًا، وقد قالت: «أعطياني رجلًا مُشْبَعًا من مبادئي، أو رجلًا أستطيعُ تعليمه إياها، حتى أتزوجه. ولكن لِمَ تؤنِّبانني حتى ذلك الحين؟ ارحماني؛ فأنا شقية، لا حمقاء. وهل القلبُ تابعٌ للإرادة؟ ألم يَقُل والدي ذلك بنفسه؟ وهل يقع الذَّنب عليَّ إذا كنتُ أُحِبُّ مَن هو غيرُ ميْسُور؟ ولستُ تخيُّلِيَّة؛ فلا أريد أميرًا مطلقًا، ولا أبحث عن تِلِماك مطلقًا، وأعلم أنه ليس إلا وهمًا، وإنما أنشد له شبيهًا. ولِمَ يتعذَّر وجودُ هذا الرجل ما دمتُ موجودة، أنا التي تَشعُر بقلبٍ يشابه كثيرًا؟ كلَّا، لا ينبغي أن نَشِين البشريةَ هكذا، ولا يجوز أن نذهبَ إلى أن الرجل الفاضل المحبوب ليس إلا وهمًا، إنه موجود، إنه حي، وقد يكون باحثًا عني؛ فهو يبحث عن نفْسٍ تَعرف أن تُحِبَّه، ولكن مَن هو؟ وأين هو؟ أجهل ذلك. ولا غَرْو؛ فهو ليس ممن رأيت، وليس واحدًا ممن أرى. أمَّاه! لِمَ جعلتِ الفضيلةَ مُحبَّبة إليَّ كثيرًا؟ إذا كنتُ عاجزةً عن حُبِّ غيرها، فالذَّنْبُ يَقَعُ عليك أكثرَ مما يقع عليَّ.»

وهل أَسُوقُ هذه القصة الشجية حتى آخرها؟ وهل أذكرُ المناقشاتِ الطويلةَ التي سبقَتْها؟ وهل أعْرِض أُمًّا هَلوعًا تُغيِّرُ بصرامةٍ ألطافَها الأُولى؟ وهل أَدُلُّ على أبٍ غَضُوبٍ نَسِيَ عهودَه الأُولى معاملًا أفضلَ البناتِ مِثلَ مجنونة؟ ثُمَّ هل أَصِفُ الشقيةَ التي صارت

أكثرَ ارتباطًا في وهْمها بفعلِ الاضطهاد الذي آلمها ماشيةً إلى الموت مشيًا وئيدًا، ونازلةً إلى القبر حين يُظَنُّ أنها تُجَرُّ إلى الهيكل؟ كلَّا، إنني أبتعد عن هذه الأمور السيئة؛ فلا أحتاج إلى المغالاة حتى أُبيِّنَ بمثالٍ بارزٍ بما فيه الكفاية على ما يلوحُ لي أنَّ حرارةَ الصلاح والجمال عادت لا تكون أكثرَ غرابةً عن النساء مما عن الرجال، وأنه لا يُوجَدُ بتوجيهٍ من الطبيعة ما لا يُستطاعُ نَيلُه مِنَّا ومنهنَّ، وذلك على الرغم من المُبْتَسَرات التي تنشأ عن طبائع العصر.

وأُوقَفُ هنا ليُسأل منِّي عن كوْن الطبيعةِ هي التي تَفْرِض علينا أن نُعانيَ كثيرًا من المتاعبِ لزجرِ الرغائبِ الجامحة، فأُجيب بالنفي، ولكنني أقول إن الطبيعة أيضًا ليست هي التي تُعطينا كثيرًا من الرغائب الجامحة مُطلَقًا، والواقع أن كلَّ شيءٍ ليس من الطبيعة مخالفٌ لها، وقد أثبتُّ هذا ألفَ مرة.

ولْنَرُدَّ صوفيةَ إلى إميل، ولْنَبعَثْ هذه الابنةَ المحبوبة لِنُوحي إليها بخيالٍ أقلَّ شِدَّةً وبنصيبٍ أكثرَ سعادة، وقد أردتُ وصفَ امرأةٍ مألوفة، وقد بَلْبَلْتُ عقلَها من حيث رَفْعُ روحها، فضللْت، فدَعْنا نَعُودُ إلى خُطانا؛ فليس لدى صوفية غيرُ طَبْعٍ صالحٍ في رُوحٍ معروف، وكلُّ ما لديها أكثرَ مما عند النساء الأُخَرِ هو أثرُ تربيتها.

لقد نَوَيْتُ في هذا الكتاب أن أقولَ كلَّ ما يُمكِنُ عملُه، تاركًا لكلِّ واحدٍ اختيارَ ما هو في متناوَله في الأمور التي استطعتُ أن أقول عنها خيرًا. وقد رأيت منذ البُداءة أن أُكوِّن قرينةَ إميلَ وأن أُنشِّئ كُلًّا منهما للآخر ومع الآخر، ولكنني حين فَكَّرْتُ في ذلك وجدتُ أن جميعَ هذه التدابيرِ التي تُتَّخَذ قبلَ الأوان عادمةُ الفِطْنة، وأن مما يخالف الصوابَ إعدادَ ولدَيْن للاقتران قبل أن يكونَ من الممكن معرفةُ ملاءمةِ هذا الزواجِ لنظام الطبيعة أو لا، وهل يكون بينهما من المصاحبات ما يناسب تكوين هذا الزواج أو لا، ولا يجوز أن يُخلَط بين ما هو ملائمٌ للحال الوحشية وما هو ملائمٌ للحال المدنية؛ ففي الحال الأُولى يلائم جميعُ النساءِ جميعَ الرجال، وذلك لِمَا لا يزال يكون بين هذين الفريقين من طَوْرٍ ابتدائيٍّ مشتركٍ فقط. وفي الحال الثانية حيث ينمو كلُّ طبعٍ بالنُّظم الاجتماعية، وحيث ينال كلُّ ذهنٍ طَوْرَه الخاصَّ المُعيَّنَ بتعاون الطبيعيِّ والتَّربية تعاوُنًا حسنَ الترتيب أو سيئ التنظيم، لا من التَّربية وحدَها، عاد لا يُمكِن جمعُ ما بينهما قبْل تقديمِ كلٍّ منهما إلى الآخر ليُرى هل يتوافقان من كلِّ ناحيةٍ أو أنهما يلتزمان اختيارًا يتضمن مُعظَم هذه الموافقات.

والسوءُ في أن الحياة الاجتماعية، إذ تُنمي الطِّباع، تَمِيزُ بين الطبقات، وأن كلًّا من الفريقين إذ لا يُشابه الآخر مُطْلَقًا يُخْلَط بين الطِّباع كُلَّما فُرِّق بين الطبقات، وهذا هو مصدرُ الزواجاتِ غيرِ المتجانسةِ ومصدرُ جميعِ ما ينشأ عنها من ارتباكات. ومِنْ ثَمَّ يُرى كنتيجةٍ جليةٍ أنه كلَّما ابتُعِدَ عن المساواة فسَدَت المشاعر، وأنه كلَّما زادت المسافةُ بين الكُبراء والصُّغراء فَتَرت العلاقةُ الزوجية، وأنه كلَّما وُجِدَ أغنياءُ وفقراءُ قَلَّ وجودُ الآباء والزوجات، وقد عاد لا يكون للسادةِ والعبيد أُسرَة، فلا يَرى كلٌّ منهما غيرَ طبقته.

وإذا أردتم أن تَحُولوا دون سوء الاستعمال، وأن تَنْتَهوا إلى زواجاتٍ موَفَّقة، فاقضُوا على المُبْتَسَرات وانسَوُا النُّظُمَ البشرية، وشاوروا الطبيعة، ولا تجمَعوا بالزواج بين أناسٍ لا يتوافقون إلا وَفْقَ شرطٍ معلوم، فإذا تغيَّر هذا الشرطُ عادوا لا يتوافَقون، وإنما زاوِجوا بين أناسٍ يتوافقون في أيِّ وضعٍ يكونون فيه وفي أي بلدٍ يقيمون به ومن أية طبقةٍ يُمكِن أن يكونوا. ولا أقول بعدم الاكتراث للمصاحبات التقليدية في الزواج، وإنما أقول إن تأثيرَ المصاحبات الملائمة للطبيعة هو من عِظَمِ الأهميةِ ما يُقرِّرُ وحدَه مصيرَ الحياة، وإنه يُوجَدُ من تَوافُق الأذواق والمشارب والمشاعر والطِّباع ما يجب أن يَحْفِزَ الأبَ العاقل، ولو كان أميرًا أو ملِكًا، إلى تزويج ابنه من غير تردُّد، بابنةٍ تجْمعه بها جميعُ الموافقات، ولو كانت هذه البنت قد وُلِدَت في أُسرةٍ قبيحة، ولو كانت ابنةَ جلَّاد. أجلْ، إنني أذهب إلى أن جميعَ ما لا يُتَصَوَّرُ من المصائب لو صُبَّ على زوجين حسَنَي الاقتران لوجدا ببكائهما معًا من السعادة ما لا يَحُوزانه بجميع أموال الأرض المُسَمَّمة باختلاف القلوب.

ولذا، فإنني انتظرتُ معرفةَ الزوجة التي تلائم إميلَ بدلًا من إعدادها له منذ الطفولة، والطبيعة، لا أنا، هي التي قامت بهذا الإعداد، ويقومُ عملي على لقاء هذا الاختيار الذي أتاه. وأقول عملي لا عملَ الأب؛ وذلك لأنه بتفويضه إليَّ أمرَ ولدِه يكون قد تنزَّل لي عن مكانه، فأقام حقِّي مقامَ حقِّه؛ فأنا أبو إميل الحقيقي، وأنا الذي جعله رجلًا، وقد كُنْت أرْفِض تنشئته لو لم أغْدُ مسيطرًا على أمرِ تزويجه وَفْقَ خياره، أي خياري، ولا أجدُ غيرَ لذَّة صُنعي رجلًا سعيدًا ما يمكن أن يُعَدُّ أجرًا على عملي.

ولكن لا تَظنُّوا كذلك أنني قصدتُ كيما أجِدُ زوجةً لإميلَ أن أُلقي عليه واجبَ البحث عنها، وليس هذا البحثُ المصنوعُ غيرَ ذريعةٍ لجعله عارفًا بالنساء حتى يشعرَ بقيمة التي تلائمه. أجلْ، إن صوفيةَ وُجِدَت منذ زمن طويل، ومن المحتمل أن يكون إميلُ قد رآها، ولكنه لن يَعْرِفها قبل الوقت المناسب.

ومع أن تساويَ الأحوال غيرُ ضروري للزواج، فإن هذه المساواة إذا ما ضُمَّت إلى الموافقات الأخرى منحتها قيمةً جديدة، وهي وإن لم تدخُل في الميزان مع أية موافقةٍ أخرى تُمِيلُه عند تساوي الجميع.

والرجل، ما لم يكُن مَلِكًا، لا يستطيع أن يبحث عن المرأة في جميع الطبقات؛ وذلك لأن ما ليس عنده من مُبْتَسَرات يجده عند الآخرين، ومن المحتمل أن يجد البنت التي تلائمه، فلا ينالها لتلك العلة؛ ولذا يوجد للحَذَر مبادئُ يجب أن تُحَدَّد بها مباحثُ الأب الحصيف. ولا ينبغي لهذا الأب أن يُريدَ منْحَ تلميذه زواجًا فوقَ طبقته مُطلَقًا؛ فهذا أمرٌ لا يدخل ضِمن نطاق قدْرته، وهو إذا ما استطاعه لا ينبغي له أن يريده أيضًا، وإلا فما أهمية الطبقة لدى الشاب، ولا سيَّما شابِّي؟ ومع ذلك، فإنه إذا ما صعد عَرَّض نفسه لألفِ بلاءٍ حقيقيٍّ يشعُر به مدى حياته، حتى إنني أقول إنه لا ينبغي له أن يُريدَ الموازنة بين أمورٍ مختلفةٍ طبيعةً كالشرف والثراء مثلًا؛ وذلك لأن كُلًّا منهما يَنتقص قيمةَ الآخر بما لا يقبَلُ تعديلًا، فضلًا عن أنه لا يُتَّفَقُ على تقديرٍ شامل، والخلاصةُ أن ما يَمْنَحُ كلٌّ منهما رأسَماله من تفضيلٍ يُعِدُّ شقاقًا بين الأسرتَين، وبين الزوجين غالبًا.

ثُمَّ إن هنالك اختلافَ اعتبارٍ في نظام الزواج من حيث اقتران الرجل بمَن فوقه أو بمن تحته؛ فأمَّا الحالُ الأُولى فمخالِفةٌ للعقل تمامًا، وأمَّا الحال الثانية فأكثرُ ملاءمةً له. وبما أن الأسرة لا ترتبط في المجتمع إلا برئيسها، فإن مقام هذا الرئيس هو الناظمُ لمقامها بأسْرِه، فإذا ما اقترن من مرتبةٍ دون مرتبته فإنه لا يَهبِط مطلقًا، وإنما يَرْفَع زوجَه. وعلى العكس، إذا ما تزوَّج امرأةً تعلوه مرتبةً فإنه يَخْفِضها من غير أن يرفعها، وهكذا فإنه يوجد في الحال الأُولى خيرٌ بلا شَر، ويُوجَدُ في الحال الثانية شَرٌّ بلا خير. وفضلًا عن ذلك، فإن من نظام الطبيعة أن تُطيع المرأة الرجل؛ ولذا فإنه إذا ما أخذها من طبقةٍ دون طبقته تَوَافقَ النظام الطبيعيُّ والنظام المدني، وسار كلُّ شيءٍ على ما يُرام، وعكسُ هذا ما يَقَعُ إذا ما اقترن الرجلُ بمَن هي من طبقةٍ تعلوه، وذلك أنه يكون بين أمرين: بين حقٍّ له مُتقَلِّصٍ أو شُكرانٍ منه ناقص، وبين جُحُودٍ منه أو ازدراءٍ له، وهنالك تدَّعي المرأةُ السلطانَ فتغدو طاغيةَ رئيسها، وهنالك يكون سيِّدُها الذي صار عبدًا أدعى النَّاس إلى السخرية وأكثرَهم بؤسًا، وهذا هو حال المُقرَّبين التُّعساء الذين يُكرمهم ملوكُ آسية ويؤذونهم في زواجهم، والذين لا يجرءون عند النوم مع نسائهم أن يدخلوا السرير إلا من رِجْلِه.

وأتوقَّع أن يتهمني كثيرٌ من القراء بأنني أناقض نفسي هنا حين يذكرون أنني أحبو المرأة بموهبةٍ طبيعيةٍ تُسيطر بها على الرجل، ومع ذلك فهم مخطئون؛ فيوجد فرقٌ كبيرٌ

بين الادِّعاء بحقِّ الأمر والسيطرة على مَن يأمر، وذلك أن سلطانَ المرأة سلطانُ رِفْقٍ وحِذْقٍ وملاطفة، وأن أوامر المرأةِ مُلامَساتٌ وأن تهديداتها عَبَرَات، وعلى المرأة أن تحْكم في المنزل كما يَحْكُم الوزيرُ في الدولة، وذلك أن تُحْمَل على صُنْع ما تريد، ومن الثابت في هذه الناحية أن أحسنَ تدبيرٍ منزليٍّ هو ما يكون للمرأة فيه أعظمُ سلطان، ولكنها إذا ما أنكرتْ صوتَ الرئيس وأرادت غصْب حقوقه وانتحالَ القيادة لنفسها لم ينشأ عن هذا الاختلال غيرُ الشقاء والعار والشَّنار.

وقد بقيَ أمرُ اختياره ممن هن مساوياتٌ له أو ممن هن دُونَه، وأظنُّ أنه لا يزال يُوجَد من القيود ما يَجِبُ أن يُؤتى حوْل هؤلاء الأخيرات؛ وذلك لأن من الصعب أن تُوجَد في الطبقة الدنيا زوجةٌ قادرةٌ على جعْل الرجل الصالح سعيدًا، وليس سببُ هذا كونَ العيبِ في الطبقات الدنيا أكثرَ مما في الطبقات العليا، بل لأنه يُساور هذه الطبقةَ قليلُ فكرٍ حوْل ما هو صالحٌ جميل، ولأن جوْرَ الطبقاتِ الأخرى أدَّى إلى عَدِّ الطبقة الدنيا ما هي عليه من عيوب عَدْلًا.

ومن الطبيعيِّ ألَّا يفكِّر الرجل مطلقًا؛ فالتفكير فنٌّ يتعلَّمه كجميع الفنون الأخرى، وهو فنٌّ يتعلمه بأصعب مما يتعلَّم الفنون الأخرى، ولا أعْرِف للجنسين غيرَ طبقتَين مختلفتَين: فأمَّا إحداهما فمؤلَّفةٌ من أناسٍ مفكِّرين، وأمَّا الأخرى فمؤلَّفةٌ من أناسٍ لا يفكِّرون مُطلقًا، وينشأ هذا الاختلاف عن التَّربية حصْرًا تقريبًا. ولا ينبغي للرجلِ من أُولَى هاتَين الطبقتَين أن يُصاهِرَ في الأخرى مُطلَقًا؛ وذلك لأن أكبرَ فُتُونٍ في المجتمع يُعْوِز مجتمعَه إذا ما قُصِرَ بزواجه على التفكير وحدَه، ولا يكون عند مَن يَقْضون الحياةَ بأكملها قضاءً تامًّا في العمل من أجلِ المعيشة فكرةٌ أخرى غيرُ فكرةِ عملهم أو مصلحتهم، فيَلوح أن ذهنَهم مستقرٌّ بطَرَف ذُرْعانهم. وليس هذا الجهلُ بضائرٍ صلاحِهم وأخلاقهم، حتى إنه يكون نافعًا لهما غالبًا. ومما يقع في الغالب أن نكتفي بواجباتنا عند تأمُّلنا فيها، فنضَع موضعَ الأشياءِ رطانةً في نهاية الأمر. والشعورُ أكثرُ ما ألقَى الفلاسفةُ عليه نورًا، ولا نحتاج إلى الاطلاع على «واجبات» شيشرون حتى نكون أهلَ خيرٍ. وقد تكون أصلحُ نساء العالم أقلَّ النَّاس علمًا بمعنى الصلاح، ولكن ليس أقلَّ من هذا حقيقةً كونُ الذهنِ المُثقَّفِ وحدَه يجعل المعاشرةَ أمرًا مُستحَبًّا. ومن الأمور المؤسفة أن يُضطرَّ رَبُّ الأسرة الذي يُسَرُّ في منزله أن ينطوي على نفسه، فلا يستطيع أن يَجْعَلَ نفسه مُدرَكًا من قِبَل أحدٍ فيه.

ثُمَّ كيف تُربِّي المرأةُ التي لم تَتَعوَّدِ التفكيرَ قَطُّ أولادَها؟ وكيف تَميزُ ما يلائمهم؟ وكيف تُعِدُّهم للفضائلِ التي لا تَعْرفُها وللمزايا التي لا يساورها أيُّ فكرٍ عنها؟ لن تَعْرِف غيرَ مداراتِهم أو تهديدِهم، وغيرَ جعْلهم سُفهاء أو جُبناء، وستَجْعل منهم قِردةً متصنِّعين أو فجرةً طائشين، لا أولادًا أذكياء أو محبوبين.

ولذا لا يلائم الرجلَ الذي تَلقَّى تربيةً أن يختار زوجةً لم تَنَلْها مُطلَقًا، ومِنْ ثَمَّ أن يأخذها من طبقةٍ لا يُمكِنُ تَلقِّيها فيها، ولكنني أُفضِّلُ مائةَ مرةٍ فتاةً بسيطةً ذاتَ تنشئةٍ خَشِنةٍ على فتاةٍ عالمةٍ أريبةٍ تأتي لتُقيم في منزلي مَحْكَمَةَ آدابٍ تحت رئاستها؛ فالمرأةُ الأريبة تكون آفةَ زوجها وأولادها وأصدقائها وخَدَمِها وجميعِ النَّاس؛ وذلك لأن ما تكون عليه من نبوغٍ رفيعٍ يؤدي إلى استهانتها بواجبات المرأة، فتحاول أن تنتحل دائمًا طوْرَ الرجل على غِرار الآنسة دُولَنْكلُو، وهي في خارجِ منزلها تكون مثيرةً للسُّخْرية دائمًا، عُرضةً للنقد بإنصاف، شأنُ الرجلِ الذي يُلاقي ذلك عندما يهْجُرُ حالَه من غيرِ أن يكون أهلًا للحال التي يريد اتخاذَها، وما كان جميعُ هؤلاء النساء من ذوات النبوغ الكبير لِيُمَوِّهن على غيرِ الأغبياء، ونَعْرف دائمًا مَن هو المتفنن أو الصديق الذي يُمسِك القلمَ أو الريشةَ حينما يشتغلن، ونَعْرف مَن هو رجلُ الأدبِ الكتُومُ الذي يُملي عليهن آياتهن؛ فجميع هذا الخداع غيرُ جديرٍ بالمرأة الصالحة، ومتى كانت المرأة ذات نبوغٍ صادقٍ أدَّى ادِّعاؤها إلى إرْذالها، ويقوم شرفُها على كوْنها مجهولة، ويقوم مجْدُها على تقديرِ زوجها، ويقوم سرورُها على سعادة أُسرتِها. فيا أيها القراء، إنني أَحْتكم إليكم، فأجيبوا عن سؤالي الآتي بإخلاص، وهو: أيُّ الأمرين يوحي إليكم بأحسنِ رأيٍ عن المرأة إذا ما دخلْتم غرفتَها، وأيُّ الأمرين يحْمِلُكم على مقابلتها بأكبرِ احترامٍ: أن ترَوْها قائمةً بأعمالِ جنسها وبتدبيرِ أمور منزلها محاطةً بثياب أولادها، أو أن تجدوها تكتب أشعارًا عن زينتها محاطةً بأنواع الكراريس وبرِقاعٍ صغيرةٍ من جميع الألوان؟ إن كلَّ بنتٍ أديبةٍ تبقى بنتًا مدَى حياتها إذا لم يوجد على الأرض غيرُ العقلاء من الرجال.

«تسألين، يا غَلا، عن السبب»
«في عدم زواجي بك؛ فأنت»
«مدقِّقةٌ في اللغة كثيرًا.»

ويأتي باعثُ الوجهِ بعد تلك البواعث، وهو أوَّل ما يَقِفُ النظرَ، وهو آخرُ ما يجب أن يكون، ولكن مع عدم الذهاب إلى عَدِّه شيئًا غيرَ مذكور. ويَلوح لي في الزواج أن اجتنابَ الجمالِ الباهرِ أفضلُ من نِشدانِه؛ فالجمالُ يُبتذَل سريعًا بالحيازة. فإذا ما مرَّت ستةُ أسابيعَ عاد لا يُعَدُّ شيئًا عند الحائز، ولكنَّ أخطاره تدوم بدوامه، ويكون زوج الحسناء أشقى الرجال ما لم تكن هذه الحسناء من الملائكة، وهي إذا ما كانت من الملائكة فكيف تَحول دون إحاطتها بالأعداء بلا انقطاع؟ وإذا لم يُورِثْ أقصى البَشَع نفورًا فإنني أُفضِّلُه على أقصى الجمال؛ وذلك لأن هذا وذاك إذ يكونان في حُكم العَدَم لدى الزوج بعد زمنٍ قليل، فإن الجمال يصير عُسْرًا والبَشَعَ يصير يُسرًا، ولكن البَشَع الذي يؤدِّي إلى النفور هو أعظم المصائب، ومن البعيد أن يزول هذا الحس، وهو يزيد بلا انقطاع، ويتحوَّل إلى بغضاء، ويكون مثل هذا الزواج جحيمًا؛ فالموت خيرٌ من القِران في مثل هذه الحال.

واطلبُوا الاعتدالَ في كلِّ حال، ولا تَستَثنُوا منه حتى الجمالَ، والوجهُ الوضيءُ المقبولُ الذي لا يوحي بالغرام، بل يوحي بحسن الالتفات، هو ما يجب أن يُفضَّل، فلا خطرَ منه على الزوج، ويتحوَّل خيرُه إلى نفعِ الزوجين، ولا تَبْلى الألطافُ كما يَبْلى الجمال، وهي ذاتُ حياة، وهي تتجدَّد بلا انقطاع، وإذا ما مضَى عشرون عامًا على الزواج راقَت المرأةُ الصالحةُ زوجَها بألطافها كما راقته في اليوم الأوَّل من قِرانِهما.

وهذه هي التأمُّلات التي جعلتني أعْزِم على اختيار صوفيةَ، وهي إذْ كانت تلميذةَ الطبيعة كإميلَ فقد كُوِّنَت له أكثرَ من أيةِ واحدةٍ أخرى، وهي ستكون امرأة الرجل، وهي مساويةٌ له مولدًا ومَزِيَّة، وهي أقلُّ منه نصيبًا، وهي لا تَفْتِن أوَّلَ وهلة، وهي تقَع موقعَ الرِّضا كلَّ يوم أكثرَ من قبل، ولا يؤثِّر فُتُونُها الأكبرُ إلا بالتدريج، ولا يَظْهر هذا الفُتون إلا عند الاجتماع القائم على الصداقة، وسيَشعر زوجُها بهذا أكثرَ من جميعِ النَّاس. وليست تربيتُها ساطعةً ولا مُهْمَلة، ولها ذوقٌ بلا دَرْس، ومواهبُ بلا فن، وحُكمٌ بلا معارفَ، وذهنُها خالٍ من العِلم، ولكنه هُذِّبَ ليتعلَّم، وهذه هي أرضٌ أُعِدَّت جيِّدًا، فلا تَنتظرْ غيرَ الحَبِّ لِتُغِلَّ، وهي لم تقرأْ غيرَ كتابِ بَرِّيمَ، وكتاب تِلماك الذي وقع في يدها مصادفة، ولكن هل يكون لدى البنت التي تُولَع بتِلِماك قلبٌ بلا إحساسٍ وذهنٌ بلا رِقَّة؟ فيا لَلْجهلِ المحبوب! طوبى لمن قُدِّر له أن يُعلِّمَها! لن تكون مُعلِّمَةَ زوجها مطلقًا، بل تلميذَه، وهي ستنتحل أذواقه بدلًا من إخضاعه لأذواقها، وهي ستكون عنده أفضلَ مما لو كانت عالمة، وسيطيبُ له أن يُعلِّمَها كلَّ شيء، وأخيرًا حان وقتُ تعارفهما، فلنُقَرِّب بينهما.

ونغادِرُ باريسَ حزَانًا غارقين في الأوهام؛ فليس مكانُ الهَذْرِ هذا مركزًا لنا، ويُلقي إميلُ نظرةَ ازدراء على هذه المدينة العظيمة، ويقول غاضبًا: «يا للوقت الذي أضعناه في البحث على غيرِ جدْوَى! وَيْ! ليست هنالك زوجةُ فؤادي، أيْ صديقي، أنت كنت تَعرف باريسَ، ولكن لا قيمةَ لوقتي عندك مطلقًا، ولستَ بالذي يألَمَ لآلامي.» وأُحدِّقُ إليه، وأقول له بصوتٍ ثابت: «أتَعني ما تقول يا إميل؟» وهنالك يعانقني من فوْرِه خَجِلًا ويَضُمُّني إلى صدره بلا جواب، وهذا هو جوابُه في كلِّ وقتٍ إذا كان مخطئًا.

والآن نجوبُ الحقولَ كالفرسان الحقيقيين التائهين، لا كالذين يَنشُدُون المغامرات، وقد هَرَبْنا منها بمغادرتنا باريسَ، ولكننا في تَجْوَابنا نسيرُ سيرًا غيرَ متساوٍ على غِرار الفرسان التائهين، فنُسْرِعُ تارةً ونُبْطِئ تارةً أخرى. وإنه لِمَا كان من اتِّباع عادتي اكتُسِبَ روحُها أخيرًا، فلا أتصوَّر قارئًا عارفًا بمثلها يَفْترض نومَنا على كرسيٍّ فاخرٍ في عَرَبةِ بريدٍ مُحْكمةِ الإغلاق، فلا نرى شيئًا أو نلاحظ شيئًا، ولا نشْعُر بالفاصلة بين الذهابِ والوصولِ خاسرين في سرعةِ سفرِنا ما نقتصد من الوقت.

ويقول النَّاسُ إن الحياةَ قصيرة، وأراهم لا يألُون جُهدًا في جعْلها قصيرة، وذلك أنهم إذ كانوا لا يَعرِفون كيف يستعملونها فإنهم يتوجَّعون من سرعة الوقت، والوقت ما أرى مروره ببطء كما يريدون، وذلك بما أنهم مُشبَعون دائمًا من الغرض الذي يميلون إليه، فإنهم يُبصِرون قسرًا ما يفصلُهم عنه من فترة، فيَنْظُر أحدُهم إلى الغد، ويَنْظُر آخرُ إلى الشهر القادم، وينظر ثالثٌ إلى ما بعدِ عشرِ سنين، ولا يريد أحدٌ منهم أن يعيش اليوم، ولا يرضى أحدٌ منهم بالساعةِ الحاضرة، وكلٌّ منهم يجِدُها تمضي بطيئةً جِدًّا. وهم يَكذِبون حينما يقولون إن الوقت يَمُرُّ مسرعًا جِدًّا، وإنما هم يفضِّلون ابتياعَ سلطةِ تعجيله مختارين، وإنما هم يستخدمون ثراءهم مختارين إفناءً لحياتهم كلِّها، ومن المحتمل أنك لا تَجِد واحدًا لا يَوَدُّ أن يُحوِّل سِنِيه إلى ساعاتٍ قليلةٍ جِدًّا لو كان قادرًا أن يتخلص بطَوْعه من الساعات المرهقةِ له، ومن الساعات التي تَفْصِله عن الساعة المنشودة. ومن النَّاس مَن يقضي نصفَ حياته في الذهاب من باريس إلى فِرْساي، ومن فِرساي إلى باريس، ومن المصر إلى الأرياف، ومن الأرياف إلى المصر، ومن حيٍّ إلى آخر، فكان يضيقُ بساعاته ذَرْعًا لو لم يكن عنده سِرُّ إنفاقها على هذا الوجه، وذلك بابتعاده عن أعماله عَمْدًا، حتى يَعود باحثًا عنها، وهو يَظُنُّ أنه يَكسِب الوقتَ الذي يُنفِقُ في ذلك فلا يَعرِف ما يَصنع لولا ذلك، أو إنه على العكس يطوف للطواف، ويأتي بعربةِ البريد لا لسببٍ غيرِ الرجوعِ إلى حيث كان. فيا أيها النَّاس، ألَا تَكُفُّون عن الافتراء على الطبيعة؟ ولِمَ تألمون من كون الحياة قصيرةً لأنها ليست كما

تريدون؟ إذا ما عَرَف أحدُكم أن يُلزِم رغائبه بالاعتدال، لكيلا يتمنَّى انقضاءَ الوقت مُطلَقًا، فإنه لا يَعُدُّ الوقتَ قصيرًا مُطلَقًا، فتكونُ الحياة والتمتُّع أمرًا واحدًا عنده، فلو مات شابًّا لم يَمُت إلا بعد شِبَعٍ من الأيام.

ولو لم يكُن لمنهجي غيرُ تلك المنفعة لوجب تفضيلُه على كلِّ منهاجٍ آخَر. ولم أُنَشِّئْ إميلَ للرغبة ولا للانتظار قَط، بل للتمتُّع، وهو إذا ما أَجَّلَ رغائبَه إلى ما بعد الساعة الحاضرة لم يكُن هذا قَطُّ مع وجودِ حرارةٍ صائلةٍ فيه كيما يُزعَج ببطء الوقت؛ فهو لن يتمتع بملاذِّ الرغبة فقط، بل يتمتع أيضًا بلذة الذهاب إلى الغَرَض الذي يَرْغَب فيه، وهو من اعتدال الأهواء ما يعيش معه في اليوم الذي يكون فيه أكثرَ من اليومِ الذي سيكون فيه.

ولِذا فإننا لا نَسيحُ مِثْلَ سُعاة، بل مثلَ رُوَّاد، ولا نُفكِّرُ في الحدَّيْن فقط، بل نُفكِّر في الفاصلة بينهما أيضًا، حتى إن الرِّحْلَةَ نفسَها لذةٌ عندنا، ونحن لا نقوم بالرحلة جالسين جلوسَ الحزينِ ومثلَ السجينِ في قَفَصٍ صغيرٍ مُحْكَمِ الإغلاق، ولا نسيحُ في مثلِ تَرَف النساء وراحتهن مُطلَقًا، ونحن لا نَحْرِم أنفسنا الهواءَ الطَّلْق، ولا منظرَ الأشياءِ التي تحيط بنا، ولا فرصةَ تأمُّلها كما يطيبُ لنا. وما كان إميلُ ليدخُلَ عربة، ولا أن يسافر بها ولو كان مُستعجِلًا، ولكنْ أيُّ شيءٍ يستعجل إميل؟ إنه يستعجل شيئًا واحدًا، وهو التمتُّع بالحياة، وهل أُضيفُ إلى هذا صُنْعَ الخيرِ ما استطاع إليه سبيلًا؟ كلَّا؛ وذلك لأن هذا تمتُّعٌ بالحياة أيضًا.

ولا أتصوَّر غيرَ نَمَطٍ واحدٍ للسياحة ألطفَ من ركوبِ الخيل، وهو السيرُ على الأقدام، وذلك أننا نسافر متى نريد، وأننا نقِفُ كما نشاء، وأننا نبذُل من العَناء ما هو قليلٌ أو كثيرٌ مثلما نَهْوَى، وأننا نشاهدُ جميعَ البلد، ونلتفتُ يُمْنى ويُسْرَى، وأننا نفْحَص كلَّ شيءٍ يحلو لنا، وأننا نَقِفُ عند جميع وجهات النظر، وإذا ما رأيتُ نهرًا سِرْتُ وإياه، وإذا ما رأيتُ غابةً كثيفةً مَشَيْتُ تحت ظِلِّها، وإذا ما أبصرتُ مغارةً زُرْتُها، وإذا ما أبصرتُ مَقْلَعًا بحثتُ عن الجمادات، وفي كلِّ مكانٍ أبقى حيث يَرُوقُني، ثُمَّ أنصرف حينما يعتريني سأَمٌ، ولا أكون تابعًا لحُصُنٍ ولا لحُوذي، ولا أضطرُّ إلى اختيار الطُّرق المُعبَّدة ولا السُّبل السَّهلة، وأمُرُّ من كلِّ مكانٍ يمكن الإنسانَ أن يَمُرَّ منه. وبما أنني لستُ تابعًا لأحدٍ غيرِ نفسي فإنني أتمتَّع بكلِّ ما يُمكن الإنسانَ أن يتمتَّع به من حرية، وإذا ما وقفتْني رداءةُ الجو وسَئمتُ رِكِبتُ خيلًا، وإذا ما تَعِبْت … ولكنَّ إميلَ لا يَتْعبُ مُطلَقًا؛ فهو عُصْلُبي. ولِمَ يَتْعب؟ فهو لا

يُضغَطُ مُطلَقًا، وهو إذا ما وقف فكيف يَسأم؟ فهو يحمل في كلِّ مكانٍ ما يتلهَّى به، وهو يقصد مُعلِّمًا ويشتغل، فيُمَرِّن ذراعيه ليُريحَ رجليه.

والسَّفَر سيرًا على الأقدام هو مِثلُ سَفرِ تالِيسَ وأفلاطون وفيثاغُورس، ومن الصعب عليَّ أن أدركَ أن الفيلسوف يُمكن أن يُزمِعَ السفرَ على وجهٍ آخَر، فيسلُب نفسَه درسَ ثَرواتٍ يَدُوسُها تحت قدميه وتَعْرِضها الأرض على عينيه. ومَن ذا الذي لا يحب الزراعةَ بعضَ الحُبِّ فلا يريد الاطِّلاعَ على المنتجات الخاصةِ بإقليمِ الأماكنِ التي يجاوزها وطريقةِ زراعتها؟ ومَن ذا الذي يكون على شيءٍ من الميلِ إلى التَّارِيخ الطبيعي، فيُمكِن أن يَمُرَّ على أرضٍ من غيرِ أن يَدرُسَها، وعلى صخرةٍ من غيرِ أن يَكْسِرَ شيئًا من أطرافها، وعلى جبالٍ من غيرِ أن يفحصَ نباتها، وعلى حصباءَ من غيرِ أن يبحثَ عن مُسْتَحَاثاتٍ بينها؟ ويدرُس فلاسفةُ الأزِقَّةِ عندكم التَّارِيخَ الطبيعيَّ في غُرَفٍ للمطالعة، ولديهم نماذجُ صغيرة، وهم يَعرِفون الأسماء، وليس عندهم أيُّ فكرٍ عن الطبيعة، غيرَ أن غرفة إميلَ للمطالعة أغنى من غُرَف الملوك؛ فهي الأرضُ بأسْرِها، وكلُّ شيءٍ فيها في مكانه، وقد عُنيَ العالِمُ الطبيعيُّ بترتيب جميع ذلك وَفْقَ نظامٍ متينٍ رائع، وما كان دوبنتون ليصنع خيرًا من ذلك.

وما أكثرَ ما يُجمَع من ملاذَّ مُنوَّعةٍ بهذا النَّمط المستحبَّ من السياحة! فالمِزاج يبتهج، دَعِ الصحةَ التي تتقوَّى. وممن شاهدتُ دائمًا أولئك الذين يسافرون في عرباتٍ جميلةٍ مُريحةٍ فيَبْدون حالِمين أو مُكتئبين أو مُهَمهِمين أو متوجِّعين. وممن شاهدتُ أولئك الذين يسافرون ماشين فيبدُون دائمًا نُشَطاء فرِحين راضين بكلِّ شيء، وما أكثرَ ما يَطْرَب القلبُ عند الاقترابِ من البيت! وما أكثرَ ما تظهَر الوجبةُ الغليظةُ لذيذة! ويا لَلَّذةِ التي تكونُ عند الاستقرارِ حوْل المائدة! ويا للنومِ المستطابِ في سريرٍ رديءٍ! إذا لم يُرغَبْ في غيرِ الوصولِ أمكَنَ العدْوُ بعربةِ بريد، وإذا ما أُريدت الرحلةُ وجب السيرُ مشيًا.

وإذا لم تُنسَ صوفيةُ قبْلَ قَطْعِنا خمسين فرْسخًا على الوجه الذي أتصوَّر وَجَبَ أن أكونَ فاقدَ اللَّباقةِ أو أن يكون إميلُ قليلَ الفُضول؛ وذلك لأن من الصعب مع تلك المعارفِ الابتدائيةِ الكثيرةِ ألَّا يحاول نيْلَ معارفَ أكثرَ مما اكتسب، والإنسانُ لا يكون ذا فُضولٍ إلا بنسبةِ ما تَعلَّم، ولدى إميلَ من العرفان الكافي ما يريد معه أن يتعلَّم.

ومع ذلك، فإن الشيء يسوق إلى شيءٍ آخر، ونحن نتقدَّم دائمًا، وقد جعلتُ لجَوْلتنا الأُولى حَدًّا بعيدًا، والذريعةُ سهلة، فلما غادرنا باريسَ وجبَ البحثُ عن امرأةٍ في مكانٍ قاصٍ.

وقد ضللْنا طريقَنا بعد بضعةِ أيامٍ قضيناها، زيادةً على العادةِ، بين الأودية والجبال؛ حيث لا يُرى أيُّ طريقٍ كان، ولا ضَيْر؛ فكلُّ طريقٍ صالحٌ بشرط الوصول، ولكن لا بُدَّ من بلوغ مكانٍ ما عند وقوع الجوع. ومن حُسْن الحظ أن وجَدْنا فلَّاحًا أتى بنا إلى كُوخِه، فأكلنا بشهوةٍ كبيرةٍ ما قدَّم من غَداءٍ هزيل، وقد قال لنا إذ رآنا كثيري التعب والجوع: «لو ساقكم الرَّب الكريم إلى الناحية الأخرى من التَّل لقُبِلْتُم بأحسنَ مما قُبِلْتُم هنا، ولوجدْتم منزلًا مُريحًا، وأناسًا كثيري الإحسان، كثيري اللطف! أجلْ، إنهم ليسوا أطيبَ منِّي جَنانًا، ولكنهم أكثرُ منِّي غِنًى، وإن قيل إنهم كانوا في الماضي أفضل حالًا، وهم لم يفتقروا والحمد لله، وجميعُ البلد يَعْلَمُ ما بقيَ لهم.»

سمِع إميلُ هذه الكلمةَ التي تَصدُر عن الصالحين فانشرح صدره، وقد قال وهو ينظر إليَّ: «لنذهبْ يا صديقي إلى ذلك المنزلِ الذي يُبَارِك لأصحابه جميعُ الجِوار، فيَسُرُّني كثيرًا أن نراهم، وقد يُسَرُّون بأن يَرَونا، وإني لواثقٌ بأنهم يُحسِنون قبولَنا، وسيُلائموننا كما نلائمهم.»

ونَذهب بعد أن نُدَلَّ على الطريق جيِّدًا، ونَضِلُّ في الغاب؛ فقد فاجأَنا مطرٌ غزيرٌ ونحن سائرَين، ويعوقُنا المطرُ من غير أن يَقِفَنا، وأخيرًا نَجِدُ سبيلَنا، ونَصِلُ مساءً إلى المنزل المُعيَّن لنا؛ ولهذا المنزلِ الوحيدِ مع البساطةِ بعضُ المنظر في الضَّيْعة التي تحيط به، ونُقدِّم أنفسَنا، ونطلُب الضِّيافة، ونُكلَّف بمكالمة صاحب المنزل، ويسألُنا بأدب، ونُخْبره بسبب سلوكنا الطريقَ الأطولَ من غيرِ أن نُبيِّنَ له غَرَضَ رِحلتنا، وكان قد احتفظ من سابقِ يُسْرِه بسهولةِ معرفته لحال النَّاس من خِلال أوضاعهم. ولا عَجَب؛ فإن من النادر أن يُخْدَعَ بها مَن عاش معاشِرًا للناس في مجتمعاتهم، فكان لنا بجواز السفر ذاك ما أسفَر عن قبولنا.

ونُدَلُّ على غُرْفةٍ صغيرةٍ جِدًّا، ولكنها نظيفةٌ مُريحة، وتُوقَد النار، ونجد فيها بَيَاضاتٍ وثيابًا وكلَّ ما نحتاج إليه، ويقول إميلُ دَهِشًا: «ماذا! يَظُنُّ الإنسانُ أنهم كانوا ينتظروننا! حقًّا كان الفلَّاح على حَقٍّ! يا للانتباه! يا للصلاح! يا للحذَر! حتى نحو الغرباء! أراني في زمنِ أُومِيرُس.» وأقول له: «يسرُّني شعورُك بجميع هذا، ولكن لا تعجب منه؛ ففي كلِّ مكانٍ يَندُر فيه الغرباء يُحسَن قبولُهم، ولا شيءَ يجعَل الرجلَ أكثرَ قِرًى من عدم الاحتياج إلى قِراه غالبًا؛ فكثرةُ الضيوف هي التي تقضي على القِرى، فالنَّاس في زمن أُومِيرس كانوا لا يسافرون مُطلَقًا، وهم إذا ما سافروا تُقُبِّلوا قبولًا حسنًا في كل مكان، وقد نكون وحدَنا

كلَّ مَن رُئيَ هنا من المسافرين في العام كلِّه.» ويقول إميل: «لا ضَيْرَ، إن من دواعي الثناء أن يُستغنَى عن الضيوف وأن يُحسَن قبولُهم دائمًا.»

ونُجفِّفُ أنفسنا ونُقوِّم ثيابنَا، ونذهب لِلقاء رَبِّ البيت، ويُقدِّمنا إلى زوجته، وتستقبلنا بأدبٍ ودَعَة، وتُوجِّه نظراتِها إلى إميل، ومن النادرِ أن تَرى أمٌّ في مِثل حالها دخولَ شابٍّ بيتَها من غيرِ أن يعتريها هَمٌّ أو فُضُولٌ على الأقل.

ويُعَجَّلُ تقديمُ العَشاء إكرامًا لنا، وندخل غرفة الطعام، ونرى خمسة كراسٍ مُعَدَّة، ونجلس ويبقى أحدُ المقاعد خاليًا، وتدخل فتاة، وتحنو رأسَها احترامًا، وتجلس جلوسَ حَياءٍ من غيرِ أن تتكلم. ويكون إميلُ مُفكِّرًا في جوعه أو في أجوبته، فيُسلِّم عليها ويتكلَّمُ ويأكل، ولا يزال غرضُ رحلته الرئيسُ بعيدًا من ذهنه بُعْدًا يَعتقدُ معه أنه ناءٍ عن المقصود. ويدور الحديثُ حوْل تَيَهان المسافرَيْن، ويقول ربُّ المنزل لإميلَ: «يلوح لي أيها السيد أنك فتًى لطيفٌ عاقل، ويُذكِّرُني وصولُك أنت ومُعلِّمُك إلى هنا تَعِبَيْن مُبلَّلَيْن بتِلماك والمرشد في جزيرة كَلِبْسُو.» ويُجيب إميلُ بقوله: «حقًّا أننا نَجِدُ هنا قِرَى كَلِبْسُو.» ويضيف مرشدُه إلى هذا القول: «وفُتون أُوكارِيس.» بَيْدَ أن إميلَ يَعْرِف الأُوذيسة، ولم يَقرأ تِلماك قَط، فلا يَعْلم شيئًا عن أُوكارِيس. وأمَّا الفتاةُ فقد احمَرَّ وجهُها حتى العينَين، وتَغُضُّ طَرْفَها على الطَّبق، ولا تكاد تتنفَّس، وتلاحظُ أمُّها ارتباكَها، وتُوعِزُ إلى الأب بإشارةٍ فيُغيِّرُ الحديث. وهو إذ يتكلم عن عُزلته يأخذ في الحديث من حيث لا يشعُر حول الحوادثِ التي أدَّت إلى التزامه إياها، وحول ما كان من مصائبِ حياته، وما كان من ثباتِ زوجته، وما وَجَد من سُلْوانٍ في قِرانهما، وما يَجِدان من حياةٍ حُلوةٍ هادئةٍ في عُزْلتهما، وذلك من غيرِ أن يقولَ كلمةً عن الفتاة. وتتألَّف من جميع هذا قصةٌ لطيفة مؤثِّرة لا تُسمَع من غيرِ اهتمام، ويهتزُّ إميلُ ويَرِقُّ ويَنْقَطع عن الطعام ليستمع، ثُمَّ لَمَّا تكلَّم ذلك الذي هو أصلحُ الرجال مُغْتبطًا عن حُبِّ أفضلِ النساء ساوَرَ الفتى المسافر وَجْدٌ فأمسك بإحدى يدي الزوج وصافحها وتناول بيده الأخرى يدَ الزوجة ومال إليها هائجًا مُبلِّلًا إياها بدموعه، ويؤثِّر الشابُّ في الجميع بهياجِه الساذج، وتكون البنتُ أكثرَ مَن تأثَّر بهذا الدليلِ على قلبه الطيب، فتظنُّ أنها تُشاهدُ تِلماك حزينًا على مصائبِ فِيلوكْتيت، وتَنظُرُ إليه خُلْسَةً لتفحصَ وجهه جيِّدًا فلا تَجِد شيئًا يُكذِّب المقارنةَ، وتَنِمُّ طلاقةُ وجهه على الحرية بلا عُنْجُهيَّة، وتَنِمُّ أوضاعُه على النشاط بلا طيش، وتجعل حساسيتُه نظراتِه أكثرَ عذوبةً وتجعلُ سِيماه أكثرَ تأثيرًا، وتَكاد الفتاة تمزُجُ دمعَها بدمعِه حينما رأته باكيًا، ويُمسِكها حياءٌ خفيٌّ مع وجودِ عُذْرٍ

رائعٍ لها إذا ما بَكَت، وقد لامت نفسَها على سَكْبِ عَبَراتٍ كادت تُفلِت من عينيها كما لو كان ذَرْفُها شُؤمًا على آلِها.

وتُبصِرُ أمُّها التي ما فتئت تَرْقُبُها منذ البُداءة كرْبَها، فتُنْقِذُها منه بإرسالها للقيام بأمر، وتَمُرُّ دقيقةٌ فتعُود الفتاة، ولكن مع سوءِ شفاءٍ ظهر معه اضطرابُها لجميع الأعين، وتقول لها أمُّها برفقٍ: «أيْ صوفية، اضبطي نفسَك، وكُفِّي عن البكاء على مصائبِ أبوَيْك، ولا تكوني أكثرَ تأثُّرًا منهما حوْل بلاياهما وأنت التي تُسْلِيهما عنها.»

ويا ليتكم رأيتم ارتعاشَ إميلَ عند ذكر اسم صوفية؛ فقد قَرَع سمْعَه هذا الاسمُ العزيزُ كثيرًا، وانتبه مرتجفًا، وألقى نظرةَ وَلَعٍ على تلك التي تجرؤ على حَمْله؛ صوفية! واهًا لصوفية! أأنتِ التي ينشُدُها فؤادي؟ أأنت التي يُحبُّها قلبي؟ وينظر إليها ويتأملها مع شيء من الهلع والحذَر، ولا يَرى الوجْهَ الذي رسَمَه لنفسه تمامًا، ولا يَدْري هل الذي يَرى يشابهه كثيرًا أو قليلًا، وهو يدرُس جميعَ ملامحها ويَرْقُبُ كلَّ حركةٍ وإشارةٍ منها، فيَجِدُ لكلٍّ من هذه الأمور ألفَ تفسيرٍ غامض، ويَوَدُّ أن يَهَبَ نصفَ حياته لو تنطِق بكلمة، وهو يَنظر إليَّ جَزُوعًا مضطربًا، وتُلقي عيناه عليَّ مائةَ سؤال ومائةَ عتابٍ معًا، فكأنه يقول لي عند كلِّ نظرةٍ: «أرْشِدني، فلا يزال يوجد وقت، فإذا ما أذعن فؤادي وزَلَّ فلا شفاء لي منه مُطلَقًا.»

وإميلُ أقلُّ مَن في العالَم قدرةً على التنكُّر، وكيف يتنكَّر وقد اعتراه أعظمُ اضطرابٍ في حياته بين أربعة نُظَّارٍ يفحصونه، فيكون أكثرُهم تشاغُلًا عنه أكثرَهم انتباهًا إليه بالحقيقة؟ وما كان ارتباكُه ليخفَى على عينَيْ صوفيةَ النفَّاذتَين مطلقًا، ومع ذلك فإن عينيه تُخبرانها بأنها هي المقصودة، وهي تبصرُ أن هذا الهلع ليس من الحب، ولكن ما أهمية ذلك؟ فهو يَشْغَل بالَه بها، وهذا يكفي. ومن شقائها الشديد أن يَصرِف همَّه إليها بلا عِقاب.

وللأمهات عيونٌ كبناتهن فضلًا عن التجرِبة، وتبتسم أمُّ صوفيةَ لنجاح خِططنا، وهي تقرأ ما يدور في خَلَد الشابَّيْن، وهي تبصِر أن الوقت حَلَّ لثبات فؤاد تِلماك الجديد، فتحمل ابنتها على الكلام، وتُجِيب ابنتُها، مع دَعَتِها الفطرية، بصوتٍ ينِمُّ على الحياء فيكون له أبلغُ الأثر. ويستسلم إميلُ عند أوَّل رَنَّةٍ لهذا الصوت؛ فهذه هي صوفية، ولا يشُكُّ في هذا، ولو كان الأمرُ غيرَ هذا لجاء إنكاره متأخِّرًا جِدًّا.

وهنالك يتدفَّق فُتُون هذه البنتِ الساحرةِ إلى فؤاده كالسَّيْل، وهنالك يأخذ في ابتلاع السُّمِّ الذي تُسْكِرُه به على جَرَعاتٍ طويلة، وعاد لا يتكلَّم، وعاد لا يُجيب، وصار لا يرى غيرَ صوفية، وصار لا يسمع غيرَ صوفية، فإذا ما نطقت بكلمةٍ فتح فاه، وإذا ما كَسَرتْ من طَرْفِها غضَّ من طَرْفِه، وإذا ما أبصرها تتأوَّه تأوَّه، فيظهر أن رُوحَ صوفية هو الذي يُحرِّكه. ويا لَتغيُّر رُوحها في أُويقات! والآن أتى دورُ إميلَ في الارتعاش، لا دورها، والآن وداعًا أيتها الحرية والسذاجة وسلامة القلب، وقد عاد لا يَنْظُر إلى مَن حوْله عن اضطرابٍ وارتباكٍ وجَزَع، وخشيةَ أن يَرَى أنه يُنظَر إليه، ويَسْتَحِي أن يُنفَذَ إلى سريرته فيَوَدُّ لو يَخْفَى على جميع النَّاس حتى يَشبْعَ من تأمُّلِها بإحكامٍ بعيدًا من العيون، وعكسُ هذا حالُ صوفية التي اطمأنَّت إلى وَجَل إميلَ فأبصرتْ نَصْرَها وسُرَّت به.

«هي لا تبديه، وإن كانت تُسَرُّ به في فؤادها.»

أجلْ، إنها لم تُغيِّر سِيماها، بَيْدَ أن فؤادها مع هذا الوَضْعِ المتواضِعِ وخفْضِ طَرْفها، يَخفِقُ فرَحًا فيُخبِرها بأن تِلماك قد وُجِد.

وإذا ما تناولتُ هنا قصةَ هواهما العُذْري الساذج البسيط إلى الغاية عُدَّت هذه التفصيلات من التُّرَّهات على غيرِ حَق، وذلك أنه لا يُنظَر بما فيه الكفاية إلى ما يجب أن يكون لأوَّلِ اتصالٍ بين الرجل والمرأة من تأثيرٍ في مجرى حياةِ كُلٍّ منهما، ولا يُرى أنه يَكون للانطباع الأوَّل القويِّ، كانطباع الحُبِّ أو المَيلِ الذي يقوم مقامَ الحُب، من التأثير الطويل ما لا يُبصَر معه تسلسلُه بمرور السِّنين مُطلَقًا، ولكنه لا يَنقطع عن العمل حتى الموت. ويُعْرَضُ علينا في كتبِ التَّربية حَشْوٌ كبيرٌ غيرُ مُجْدٍ، وقائمٌ على الحذْلقة، حوْل واجبات الأولاد الوهمية، فلا تُذْكرُ لنا كلمةٌ فيها عن أهمِّ أقسام التَّربية وأصعبها، أيْ عن أزْمة الانتقال من دَوْرِ الوَلُودِية إلى دَوْر الرجولة. وإذا كنتُ قد استطعتُ أن أجعل موضوعاتي مفيدةً فذلك لتوسُّعي في هذا القسم الأساسيِّ الذي أَهمله الآخرون، ولأنني لم أرتدَّ عن عملي بالدقائق الزائفة ولا بمصاعبِ التعبير، وإذا كنتُ قد قلتُ ما يجِبُ أن يُصنَع فإنني قلتُ ما وَجَبَ عليَّ أن أقول، ولا يُهِمُّني أن أكتب روايةً إلا قليلًا، وتُعَدُّ روايةُ الطبيعة البشرية رائعة، وهل يقعُ الذنبُ عليَّ إذا لم تُوجَد في غيرِ هذا الكتاب؟ ويجب أن تَكون هذه قصةَ نَوعي، وأنتم إذ تُفسِدون هذا النوعَ تَجعلون من كتابي رواية.

ويُوجَدُ باعثٌ آخَرُ يؤيِّد الأوَّل، وذلك أن الأمرَ هنا لا يَدورُ حوْل فتًى أُسلِمَ منذ دَوْر الطفولة إلى الخوف والطمع والحسد والزَّهو وجميع الأهواء التي تَصلح أن تكون وسائلَ للتربيات الشائعة، وإنما يَدور حوْل فتًى يساوِرُه هنا أوَّلُ حُبٍّ فضلًا عن أوَّلِ هَوًى من كلِّ نوع، ويتوقَّف آخرُ طَورٍ يكتسبه طبْعُه على هذا الهوى الوحيد الذي سيشعُر به شعورًا قويًّا ما دام حَيًّا على ما يحتمل، وستنال طُرُزُ تفكيرِه ومشاعرُه وأذواقُه، الراسخةُ بهوًى دائم، ثباتًا لا يَدَعُ لها مجالًا تفسُدُ فيه.

ويُدْرَكُ أن الليلة التي تَعقُب مِثلَ تلك السهرة لا تُقْضى كلُّها في النوم من قِبَلي وقِبَل إميل، وهل يُوجِب تَوافُقُ الاسمِ وحدَه مِثلَ ذلك التأثيرِ في رَجُلٍ عاقل؟ ألَا يوجد غيرُ صوفيةٍ واحدةٍ في العالَم؟ وهل يتشابه جميعُهن رُوحًا واسمًا؟ وهل كلُّ صوفيةٍ يَرَاها هي صوفيَتُه؟ وهل بَلغ من الجنون ما يُولَع معه بمجهولةٍ لم يُكلِّمها قَط؟ انتَظِر أيها الرَّجل وافحص، ولاحظ، حتى إنك لا تعرف مَن هو مُضَيِّفُك، ومَن يَسمعُك يَظن أنك في منزلك.

وليس هذا وقتَ الدروس، ولم تُوضَع هذه الدروس لِتُسمَع، وهي لا تَصْنع غيرَ إثارتها لدى الفتى رَغبةً جديدةً في صُوفيةَ تَسويغًا لميله إليها، ولم يؤدِّ هذا التوافق في الأسماء وهذا اللقاء الذي يَعْتقد وقوعَه اتفاقًا، حتى تَحفُّظي، إلى غيرِ تحريك حُمَيَّاه، وقد بدتْ صوفيةُ له من جدارتِها بالتقدير البالغ ما شَعَرَ معه باستطاعته أن يُحَبِّبَها إليَّ.

وفي الصباح ساورني شَكٌّ في محاولةِ إميلَ أن يَجْعلَ نفسَه زاهيًا بثيابِ رِحْلتِه الرديئة، ولم يُعْوِزه الأمر، ولكنني ضَحِكتُ من اكتفائه بثياب المنزل، وأنفُذُ في أفكاره، وأقرأ فيها مسرورًا محاولتَه القيامَ بمبادلاتٍ حين إعداده وسائلَ للإعادة، وإقامتَه ضَرْبًا من المراسَلة يَجْعل له حقًّا في الردِّ والعَوْدِ إلى هنالك.

وقد انتظرتُ أن أجِدَ صوفيةَ أحسنَ لباسًا من ناحيتها أيضًا، فكنت مخطئًا في ذلك، وذلك أن الدَّلَال المبتذَل صالحٌ لمن يُرِدن الوقوعَ موقعَ الرِّضا، وأمَّا دَلالُ الحبِّ الحقيقي فأكثرُ دِقَّة، وهو ذو مزاعمَ كثيرةٍ أخرى، وبَدَتْ صوفيةُ أبسطَ ثيابًا مما كانت عليه عَشيَّة، حتى إنها ظَهرت أكثرَ تهاونًا مع نظافةٍ بالغةٍ دائمًا، ولا أرى دلالًا في هذا التهاون إلا لأنني أرى فيه تظاهُرًا. أجَلْ، إن صوفيةَ تَعْرِف جَيِّدًا أن الإفراط في الزينة يَنْطوي على تصريح، ولكنها لا تَعْرف أن التهاونَ بالزينة ينطوي على تصريحٍ آخر، وهي تَدلُّ على أنه لا يُكْتَفى في الرَّوَقان بحُسْن الثياب، بل يُوقَعُ بالشخص موقِعَ الرِّضا، والآن ما أَرَبُ العاشقِ بثيابها إذا ما رأى أنها تُفكِّر فيه؟ وتَطمئنُّ صُوفْيَةُ إلى سلطانها على إميلَ فلا تقتصر على وقْف

عينيه بفُتونها إذا لم يبحث فؤادُه عن هذا الفُتون، وقد عادت لا تكتفي بأن يلحظَ هذا الفُتون، وإنما تريد أن يَفترِضه، أَوَلَم يُبْصِر منه ما فيه الكفاية حتى يُضطَرَّ إلى التَّنبُّؤ بالبقية؟

ويُظَنُّ أن صُوفيةَ وأمَّها لم تَبْقيا صامتتَين في أثناء حديثنا في تلك الليلة؛ فهنالك اعترافاتٌ قد نُزِعَت وأوامرُ قد صدرتْ، وفي الغد يُحْسَن إعدادُ الاجتماع، ومنذ اثنتي عشرةَ ساعةً لم يجتمع الفَتَيان، ولم يُكلِّم أحدُهما الآخرَ بكلمةٍ حتى الآن، وكان قد رُئي توافقُهما، وليس تقابلُهما مألوفًا؛ فهو مشوبٌ بالحياء والارتباك، ولا يَنطقان مطلقًا، ويظهر أن عينَيْ كلٍّ منهما مُجانِبتَين لعينَي الآخر، حتى إن هذا دليلٌ على التفاهم. أجلْ، ذاك تَجانُبٌ، ولكن مع اتفاق. ويَشعُران بحاجةٍ إلى الكِتْمان قبْل قولِهما كلمة، ولَمَّا انصرفنا طَلَبْنا أن يُؤذَن لنا في العَوْد بأنفسنا لإعادة ما نأخذ معنا، ويَطلُب إميلُ هذا الإذنَ من الأبِ والأمِّ بفَمِه، على حينِ كانت عيناه الجَزُوعَان مُوجَّهتَين إلى الفتاة طالبتَين منها بإلحاح، ولا تَنْطِق صوفيةُ بكلمة، ولا تأتي بإشارة، ولا تَظْهرُ أنها ترى شيئًا أو تسمع قولًا، ولكنها تحمَرُّ خجلًا، وهذا الحياءُ جوابٌ أوضحُ من جواب الأبوين.

ويُسمَحُ لنا بالرجوعِ من غيرِ أن نُدْعى إلى البقاء، وهذا سلوكٌ ملائم، فإذا أُذِن للمسافرين الذين دَهَمَهم الظلامُ في المَبَاتِ فإن من غيرِ اللائق أن ينام عاشقٌ في بيت خليلته.

ولم نَكَدْ نغادرُ هذا المنزلَ العزيزَ حتى رأى إميلُ أن نُقيمَ بالجِوار، ويَلوحُ له أن أقربَ منزلٍ بعيدٌ جِدًّا، فوَدَّ لو يَنامُ في خندقِ القصر، فأقول له عاطفًا: «أيها الفتى الطائش! ماذا! هل أعماك الهوى؟ أراك لا تُراعي اللياقةَ والعقل! يا لك من تَعِس! تعتقد أنك تُحِبُّ ثُمَّ تُريدُ فَضْحَ خليلتك! ما يُقال عنها إذا عُلِم أن فَتًى خَرَج من منزلها ونام في جوارها؟ أنت تقول إنك تحبُّها! فهل تريد القضاءَ على سُمْعتها إذَنْ؟ أهذا ثَمنُ القِرَى الذي حبَانا به والداها؟ أتُلحِقُ عارًا بتلك التي تَنْتظرُ سعادتَك منها؟» ويجيب بحرارةٍ قائلًا: «والآن! ما أهميةُ هَذْرِ النَّاس وريَبِهم الجائرة؟ ألم تُعلِّمْني ألَّا أُقيمَ لذلك وَزْنًا؟ ومَن يَعْرِف أكثرَ منِّي مقدارَ ما أُجِلُّ صوفيةَ وما أريدُ لها من إكرام؟ لن يَكونَ وَلعي بها عارًا، بل يوجِب لها افتخارًا، وسيكون جديرًا بها. وإذا ما قام فؤادي وجهودي في كلِّ مكانٍ بما تستحقُّ من تبجيل، فبأي شيءٍ أكون قد أَهَنْتُها؟» وأرُدُّ إلى إميلَ معانقًا: «أيْ إميل العزيز، أنت تتعلَّلُ بالأمر من حيث وِجهة نظرك، فتعلَّمْ تقليبَ الأمرِ من أجْلِها، ولا تَقْرِن شرفَ أحد الجنسين بشرف الجنس الآخر مُطلَقًا؛ فلكلٍّ منهما مبادئُ تختلف عن مبادئِ الآخرِ كلَّ الاختلاف،

وهذه المبادئ متينةٌ صائبةٌ على السواء لاشتقاقها من الطبيعة على السواء، وما عندك من فضيلةٍ تَحْمِلُك على ازدراء كلام النَّاس يُلزِمُك باحترام هذا الكلام من أجْل خليلتك، فإذا كان شَرَفُك قائمًا فيك وحدَك فإن شرفَها يتعلَّق بالآخرين؛ فإهمالُ هذا الشرف ينطوي على إهانةٍ لشرفِك أيضًا، وليس سوى امتهانٍ منك لِمَا هو واجبٌ عليك ألا تَصنع ما هي أهلٌ له من الاحترام.»

وهنالك فَصَّلتُ له أسبابَ هذه الفروق؛ فأشعَرْتُه بما يكون من بَغيٍ في عدم الاكتراث لها، ومَنْ قال له إنه سيكون زوجًا لصوفيةَ، وهي التي يَجْهل مشاعرَها، وهي التي قد يكون قلبُها وأبواها مرتبطَيْن بعهودٍ سابقة، وهي التي قد لا يكون بينه وبينها من الموافقات ما يُمكن أن يجعل قِرانَهما سعيدًا؟ وهل يجهل أن كلَّ عارٍ يُصيبُ البنت دَنَسٌ لا يُمحَى، وأنه لا يَزول حتى بتزوُّجِها الذي أوجبَ هذا العارَ لها؟ والآن! مَن هو الرجل الحسَّاس الذي يريد أن يَفقد مَن يُحِب؟ وأيُّ رجلٍ صالحٍ يُريد أن يُوجِبَ إلى الأبد بكاءَ شقيَّةٍ تَعَسَ وقوعِها موقعَ الرِّضا لديه؟

ويَخشى الفتى ما أطلعتُه عليه من النتائج، وبما أنه يَلْزم أقصى حدٍّ لأفكاره دائمًا، فإنه يُبصِرُ أنه لا يزال غيرَ بعيدٍ من منزل صوفية بما فيه الكفاية، فيضاعف خَطْوَه إمعانًا في الفِرار، ويَنظُر حوْلنا ليرى هل يَسمعنا أحد. ولا غَرْو؛ فهو يُضحِّي بسعادته ألفَ مرة في سبيلِ شرفِ مَن يُحِب، وهو يُفضِّلُ ألَّا يراها ثانيةً مدَى حياته على أن يُكدِّرَ صفوَها مرةً واحدة، وهذه هي الثمرة الأُولى للعناية التي حَبَوْتُه بها منذ صباه كيما أجعَلُ له قلبًا يَعرِف أن يُحِب.

ولذا فإن الأمرَ يَدُورُ حوْل وجودِ ملجأ بعيدٍ على ألَّا يكون كثيرَ البُعد، ونبحث ونستعلم، ونَعلم وجودَ مدينةٍ بعيدةٍ فرسخَيْن، ونحاول أن نجِدَ لنا مسكنًا فيها، مُفضِّلين إياه على مسكنٍ في القُرى الأكثرِ قُرْبًا حيث تكون إقامتُنا محلَّ شُبْهة، وأخيرًا يصل إلى هناك عاشقٌ جديدٌ مملوءٌ حُبًّا وأملًا وسرورًا، ومشاعرَ طيبةً على الخصوص؛ ومِنْ ثَمَّ ترى كيف وَجَّهتُ بالتدريج هواه الناشئ نحوَ ما هو صالحٌ شريف، وكيف أعددتُ جميعَ مُيولِه لسلوك ذاتِ القصد.

وأدْنو من آخرِ عملي، وأُبصِرُ ذلك من بعيد، وقد ذُلِّلَت جميعُ المصاعب الكبيرة، وقد اقتُحِمَت جميعُ العقبات العظيمة، ولم يبقَ لديَّ من المشاقِّ ما أُسَوِّي غيرُ عدمِ إفسادِ صُنْعي بإسراعي في إنجازه، ولْننظُرْ إلى ما تنطوي عليه حياةُ الإنسان من قلقلة، فنَجْتنِبَ على الخصوص ذاك الحَذَرَ الزائفَ القائلَ بأن يُضحَّى بالحاضر في سبيلِ المستقبل، وذلك

لِمَا يَعني هذا غالبًا من التضحية بما هو كائنٌ في سبيلِ ما لا يكون مُطلَقًا، ولنجعلِ الإنسانَ سعيدًا في جميعِ أدوارِ عُمُره، وذلك خشيةَ أن يموت قبْل أن ينالها مع كلِّ ما يُبذَل من جهودٍ. والواقع أنه إذا وُجِدَ وقتٌ يُتمتَّعُ فيه بالحياة، فذاك لا ريب هو دَور الشباب حيث تكون قُوَى الروح والبدن أعظَمَ نشاطٍ فيها، وحيث يُبصِرُ الإنسانُ في وَسَط سباقه من بعيدٍ ما يُشعِرُه بِقِصَرِها من حدَّيْن، وإذا ما خُدِع الشبابُ الغافلُ لم ينشأ هذا عن كونه يُريدُ أن يتمتَّع، بل عن كونه يبحثُ عن التمتُّع حيث لا يكون مطلقًا، وهو إذ يُعِدُّ نفسَه لمستقبلٍ بائسٍ لم يَعْرِفْ حتى الاستمتاعَ بالساعة الحاضرة.

واحسُبُوا إميلَ بعد إتمامِه العشرين من عُمُره، حَسَنَ التنشِئة، حَسَنَ التكوين رُوحًا وبَدَنًا، قويًّا سليمًا نشيطًا رشيقًا عُضْلُبيًّا، مملوءًا إحساسًا وعقلًا وصلاحًا وإنسانية، صاحبَ أخلاقٍ وذوق، مُحِبًّا للجمال، فاعلًا للخير، خاليًا من الأهواء الجامحة، بريئًا من نِيرِ المُبْتَسَر، ولكن مع خُضوعٍ لسلطانِ العقل، مجيبًا لداعي الصداقة، حائزًا لجميع المواهب النافعة، ولكثيرٍ من المواهب المستحبَّة، قليلَ المبالاة بالثروات، معتمدًا في عيشه على ذراعيه، غيرَ خائفٍ أن يُعْوِزَه الخبزُ مهما حَدَث، والآن تَراه نَشْوانَ بِهوًى ناشئ، فيتفتَّح فؤادُه لأُولَى نيرانِ الغرام، وتصنَعُ له أوهامه الحُلوة عالمًا جديدًا من النعيم والاستمتاع، ويُحِبُّ بُغْيَةً مُبْتَغاةً، وهي تُبتَغى بأخلاقها أكثرَ مما بشخصها، وهو يأمُل وينتظر ما يُحِسُّ استحقاقَه له من ثواب.

ومِن تواصُلِ القلوب وتسابُقِ المشاعر الصالحة تألَّف ميلُهما الأوَّل، وهذا المَيْلُ هو ما يجب أن يظلَّ باقيًا، ويَسْتسلِم هذا المَيْلُ مطمئنًّا، ومُحِقًّا أيضًا إلى هَذيانٍ بالغ، وذلك بلا وجَلٍ وأسفٍ وندم، وبلا هَلَعٍ آخرَ غيرِ الذي لا يَنفصِلُ حِسُّ السعادة عنه، وما يُمكِن أن يُعْوِزَه هنالك؟ انظروا واستعلِموا وتصوَّروا كلَّ ما يحتاج إليه بعدُ، وكلَّ ما يُمكِنُ أن يُمنَح زيادةً على ما لديه، وهو يَجمَع جميعَ الخيرات التي يُمكن أن تُنال معًا، ولا يُمكِن أن يُضاف إليها شيءٌ إلا على حساب شيءٍ آخر، وهو سعيدٌ بأقصَى ما يستطيع الإنسان، وهل أَختَصِرُ الآن نصيبًا بالغَ الحلاوة؟ وهل أُكَدِّرُ صفوَ شهوةٍ بالغةِ النقاء؟ آه! إن كلَّ قيمةٍ للحياةِ قائمةٌ ضِمْنَ ما يَذوق من سعادة، وما أستطيع أن أُعيدَ إليه في مقابلِ ما أكون قد نَزَعْتُ منه؟ حتى إنني لو أطْفَحْتُه سعادةً لعُدِدْتُ بذلك مُقوِّضًا أعظمَ فُتُونٍ عنده، وهذه السعادةُ العليا هي أحْلَى مائة مرةٍ بأن تُؤْمَل مما بأن تُنال، وهي يُتَمتَّع بها عندما تُنتظر بأفضلَ من أن تُذاق. ويا إميلُ الصالح، أَحِبَّ وكُن محبوبًا، وتمتَّع زمنًا طويلًا قبْل أن تَحُوز، وتمتَّعْ

بالغرام والطُّهر معًا، واجعلْ جنَّتك في الأرض منتظرًا الجَنَّة الأخرى، ولن أختَصِرَ هذا الدَّورَ السعيد من حياتك مُطلَقًا، وسأغزِلُ لك منه فُتُونًا، وسأُطيل مداه ما أمكنني ذلك. واهًا! يجب أن ينتهي، وأن ينتهي في وقتٍ قصير، ولكنني سأبذل من الجهد ما يبقى معه قائمًا في ذاكرتك على الأقل، فلا تندمُ على ذوقك إياه مُطلَقًا.

ولم يَنسَ إميلُ أن لدينا ما نُعيد، فإذا ما أُعِدَّ تناوَلْنا خَيْلًا وانطلقنا عَدْوًا، وإميلُ في هذه المرة يُريد الوصولَ، ومتى فُتِحَ الفؤادُ للهوى انفتح لسَأَم الحياة، وإذا لم أُضِعْ وقتي لم يَقْضِ حياتَه هكذا.

ومن المؤسفِ أن يكون الطريقُ مشتبكًا والبلدُ صعبًا، فنَضِلُّ، ويَكون أوَّلَ مَن يُدْرِك ذلك، ولا يَجْزَع ولا يَتوجَّع، وإنما يَصرِف جميعَ انتباهه في لُقيان الطريق، ويَجُول طويلًا قَبْلَ أن يَعْرِف أين هو، وذلك مع ضبْطٍ للنَّفسِ دائمٍ. أجلْ، إن هذا أمرٌ لا يستحقُّ الذِّكر عندكم، ولكنه أمرٌ مهمٌّ عندي، أنا الذي يَعرِف مقدارَ اهتمامه عن طَبْع، وأُبصِرُ ثمرةَ الجهودِ التي بَذَلْتُ منذ صباه لِجعْلِه يَحتمِل ضربات الضرورة.

وأخيرًا نَصِل، ويكون استقبالُنا أكثرَ بساطةً ولطفًا مما في المرة الأُولى؛ وذلك لأننا عُدِدْنا من المعارف، ويُسَلِّمُ كلٌّ من إميلَ وصوفيةَ على الآخر مع شيء من الارتباك، ومن غيرِ أن يتحادثا، وما يتحادثان عنه أمامنا؟ لا يحتاج الحديثُ الذي يَرْغبان فيه إلى شهود. ونتنزَّه في الحديقة، وقد أُفْرِز من هذه الحديقة قسمٌ للخُضَر حَسَنُ التنظيم. وتشتمل هذه الحديقة على روضةٍ مستورةٍ بأشجارٍ كبيرةٍ رائعةٍ مثمرةٍ من كلِّ نوع، وتقطَعُ هذه الروضةَ جداولُ جميلةٌ من جهاتٍ مختلفة، ولهذه الروضةِ حواشٍ زاخرةٌ بالزهور، ويقول صارخًا إميلُ الذي استحوذ عليه أُومِيرُس وكان هائجَ النَّفْس دائمًا: «يا لَحُسن المكان! يُخيَّلُ إليَّ أنني أرى جنَّةَ أَلْسِينُوس.» وتُريد البنت أن تَعْلم مَن هو أَلْسِينُوس، وتسأل الأم، وأقول: «كان أَلْسِينُوسُ مَلِكَ كُورْسِير الذي وصف أُومِيرُسُ حديقته وانتقدها رجالُ الذوق لكثرة بساطتها وقلَّة زينتها.[١٧] وكان لأَلْسِينُوسَ هذا ابنةٌ لطيفةٌ تلقَّى غريبٌ قِرًى من أبيها، فرأَتْ في منامها قبلَ ذلك بليلةٍ أنها ستتزوج عمَّا قليل.» وتُبْهَت صوفية، ويَحمرُّ وجْهُها،

[١٧] «إذا ما خرجتم من القَصْر أبصرتم حديقةً واسعةً مؤلَّفةً من أربعة أفدنة، مُسيَّجةً من جهاتها الأربع، مغروسةً فيها أشجارٌ كبيرةٌ مزهرة، فتنتج كُمَّثرى وتفاحًا ورمانًا وفواكهَ أخرى من أطيبِ الأنواع، كما أنها تشتمل على أشجارِ تينٍ ذاتِ ثمر حلو، وعلى أشجار زيتون ناضرة، وما كانت هذه الأشجار الرائعة

وتَكْسِر من طَرْفها، وتَعضُّ بَنَانَها، ويبدو من اضطرابها ما لا يُتصَوَّر، ويَروقُ الأبَ أن يزيد ارتباكَها، فيتناول الحديثَ ويقول إن الأميرة الفتاة كانت تذهب إلى النهر لتغسل البياضات بنفسها، ويداوم على الحديث بقوله: «أَوَتَظنُّون أنها كانت تَزْدري مَسَّ الخِرَق القَذِرَة قائلةً إن رائحة الصراصير تنتشر منها؟» وتنسى صوفية، التي تُوجَّهُ إليها الطعنة، حياءها الطبيعي، وتعتذر بحماسة، ويَعْرِف أبوها جيِّدًا أنه لا يُوجَد غيرُها مَن يَغسِل البياضات الصغيرةَ إذا ما تُرِكَ لها القيامُ بذلك،[١٨] وأنها تقوم بأعظمَ مِن هذا إذا ما أُمِرَتْ به، وكانت في أثناء هذا الكلام تنظُر إليَّ من طَرْفٍ خَفيٍّ مع قَلَقٍ لم أستطِع أن أمنعَ معه نفسي من الضَّحِك، قارئًا في فؤادها البسيط ضُرُوبَ الذُّعر الذي يحملها على الكلام. وكان من القسوة ما يزيدُ معه هذا الطيش بأن يسألها ساخِرًا عن سببِ حديثها عن نفسها، وعن وجود علاقة بينها وبين ابنة أَلْسِينُوس، ويعتريها خَجلٌ وارتجافٌ فلا تجرؤ بعد ذلك على النطقِ بكلمة، ولا على النظر إلى أحد. فيا أيتها الفتاة الفاتنة! ليس هذا وقتَ التنكُّر؛ فقد أظهرتِ نفسَكِ على الرغم منكِ.

ولم يلبث هذا المنظرُ الصغير أن نُسيَ أو ظهرَ أنه نُسيَ، ومن حُسْنِ حظٍّ صوفيةَ أن إميلَ وحدَه هو الذي لم ينتبه إلى ما وقع. وتَدوم النُّزهة، وقد شَقَّ على الفتَيَيْن، اللذين كانا بجانبنا في البُداءة، أن يُنظِّما نفسَهما وَفْقَ بُطء سيرنا؛ فهما يسبقاننا من حيث لا يشعران، ويتدانيان ويتقاربان في آخرِ الأمر، ونراهما على شيء من البُعدِ أمامنا، وتظهَرُ صوفيةُ

لتبقى بلا ثَمرٍ في جميعِ السَّنة، وفي الشتاء والصيف يُوجِب ما يأتي من الغرب من النسيم اللطيف ترنُّحَ الأشجار ونُضْجَ الثمار معًا، ويُرى ذبول الكُمَّثْرى والتفاح والتين مع الجفاف على الأشجار. ويُرى ذبول العناقيد على الدوالي، ولا تفتأ الكَرْمة التي لا تنفد تحمل عنبًا جديدًا، ويُترك بعضُ العنب على الجُرن لينضج ويتحوَّل إلى زبيبٍ تحت الشمس، على حين يُقتطف آخَرُ منه ويُترك على الكرْمة ما لا يزال في دَوْر الازدهار أو ما لا يزال حِصْرِمًا، أو ما يأخذ في الاسوداد. ويُرى في أحد الطَّرَفَين مربَّعان مزروعان جيِّدًا مستوران بأزهارٍ في جميع السَّنة، مزينان بِبِرْكَتَيْن يُوزع ماءُ إحداهما في جميع الحديقة، ويُساق ماءُ الأخرى بعد أن يقطع القصرَ إلى بناءٍ قائمٍ في المصر ليسقي المواطنين.»

فذلك هو وصْفُ حديقةِ أَلْسِينُوس الملكية في الجزء السابع من الأوذيسة؛ حيث لا تُرى عرش ولا تماثيل ولا شلالات ولا خِيام من أزهار، وإن كان هذا لا يروق ذلك الشائب الحالم بأوميرس وأمراء عصره.

[١٨] أعترف بالجميل لأم صوفيةَ التي لم تصنع ما تُفْسَد به في الصابون يدا صوفية الجميلتان اللتان سيقبِّلهما إميلُ كثيرًا.

منتبهةً رزينة، ويتكلَّم إميلُ مع نشاطٍ في الحركات، ويلُوح أن الحديث لا يُورِثُهما ملالًا. ونَعود بعد ساعة تامة، ونناديهما، ويأتيان، ولكن مع بطءٍ بدورِهما. ويُرى أنهما يقضيان وقتًا ممتعًا. وأخيرًا ينقطع حديثُهما بغتةً قبل أن يكون سماعُه في متناولنا، ويضاعفان الخطوَ ليلحقا بنا، ويدنو إميلُ منَّا طليقَ الوجهِ لطيفَ المحيَّا، وتلمع عيناه سرورًا، ومع ذلك فإنه يديرهما نحوَ أمِّ صوفيةَ مع شيءٍ من الجَزَع ليرى كيف يكون قَبُولُها له. ولا تَظهر صوفيةُ في مِثل تلك الطَّلاقة، وهي إذ تدْنو تَلُوح مرتبكةً بظهورها مُخْتليةً بفتًى، وهي التي حَدَث كثيرًا أن وُجِدَت مع آخرين في مِثلِ هذه الحالِ من غيرِ أن ترتبك، ومن غيرِ أن تُرى في وضْعٍ سيئ مطلقًا. وتَسير عَدْوًا إلى أمِّها، وتقول، وهي تَلْهث قليلًا، بعضَ ألفاظٍ لا تَدلُّ على كبيرِ شيء، وذلك كما لو كانت تَدُلُّ على وجودها هناك منذ وقتٍ غيرِ قصير.

ويَظهرُ من طلاقة مُحيًّا هذين الفَتيَيْن اللطيفَيْن أن هذا الحديثَ ألقى حِمْلًا ثقيلًا عن قَلْبَيْهما الفَتِيَّيْن، وليس أقلَّ من هذا تَحفُّظُ كلٍّ منهما نحوَ الآخر، غيرَ أن تحفُّظَهما أقلُّ ارتباكًا، وقد عاد هذا التحفُّظ لا يصدر عن غيرِ احترامِ إميلَ وحياءِ صوفيةَ وعن صلاح الاثنَين. أجلْ، إن إميلَ يجرؤ أن يوجِّه إليها بعض الكلمات، وإنها تجرؤ على الجواب أحيانًا، بَيْدَ أنها لا تَفتح فمَها للجواب من غيرِ أن تَنظر إلى أمِّها. وأكثرُ ما يُشعَرُ به من تغيُّرٍ فيها، كما يلوح، هو شعورها نحوي، وهي تُظهِرُ لي أعظمَ احترام، وهي تنظر إليَّ باهتمام، وهي تكلِّمني بمودة، وهي تبذل جُهدها للوقوع مني موقعَ الرِّضا، وأرى أنها تُكرِمُني عن تقديرٍ منها، وأنها ليست ممن لا يبالي بنَيْلِ تقديري. وأُدْرِك أن إميلَ حدَّثها عني، فيُمكن أن يُقال إنهما تآمرَا على الفوْز بي، ومع ذلك فليس الأمر كذلك؛ فليست صوفيةُ نفسُها ممن يُنال بسرعة، ومن المحتمل أن يكون إميلُ مُحتاجًا إلى زُلْفاي عندها أكثرَ من زُلْفاها عندي، ويا لهما من اثنَين فاتنَيْن! إنِّي أتمتَّع بجائزة عنائي حينما أُبصِر أنَّ ما لدى صديقي الشابِّ من فؤادٍ حسَّاسٍ قد أدخلني كثيرًا إلى أوَّل حديثٍ بينه وبين خليلته؛ فلي بصداقته كلُّ مكافأة.

وتُكرَّرُ زياراتُنا، ويصير ما يدور بين الفَتيَيْن من أحاديثَ أكثرَ وقوعًا، ويبلُغ إميلُ من ثَمَل الحُبِّ ما يعتقد معه أنه يَلمِس سعادته، ومع ذلك فإنه لا يظفر باعترافٍ صريحٍ من صوفية؛ فهي تُصغي إليه ولا تقول له شيئًا. ويَعْرِف إميلُ جميعَ حيائها؛ ولذلك فإنه لا يُدهَش من صمتها إلا قليلًا، وهو يشعر بأنه ليس سيئ الوضع عندها، وهو يَعْرِف أن الآباء هم الذين يزوِّجون الأولاد، وهو يفترض أن صوفية تنتظر أمرًا من والديها، فيطلُب منها أن

تَسمح له بأن يلتمسه، فلا تُعارض في هذا. ويخاطبني إميلُ في الموضوع، وأتكلم باسمه، حتى حين حضوره، ويا لَدَهَشه إذ عَلِم أن أمرَ صوفية بيدِها، وأنه ليس عليها إلا أن تُرِيدَه حتى تجعله سعيدًا! ويأخذ في عدم إدراك شيءٍ من سلوكها، وتنقُص ثقتُه ويُذعَر، ويُبْصِرُ أنه أقلُّ تقدُّمًا مما كان يَنتظر، وهنالك يَستعمل الغرامُ الأرقُّ لغتَه الأعظمَ تأثيرًا حتى تَلِين صوفية.

ولم يُصْنَع إميلُ ليتنبَّأ بما يَضُرُّه، وهو إذا لم يُخبَرْ به لم يَعْرِفه في جميع أيامه. وصوفيةُ فخورٌ كثيرًا بأن تُنبِئه إياه، وما يَعُوقُها من مصاعبَ تَعُدُّها غيرُها عاملَ استعجال، وهي لم تنسَ دروسَ والديها، وهي تَعْلم أنها فقيرةٌ وأن إميلَ غني، وما أكثر احتياجَه إلى جعْلها تُقدِّرُه! وأيةُ مَزِيَّةٍ لا بُدَّ له منها حتى يمحُوَ هذا التفاوت! ولكن كيف تَخْطُر بباله هذه العوائق؟ وهل يَعْرِف إميلُ أنه غني؟ وهل يتنازل فيسْتعلِمَ عنها؟ حمْدًا لله على أنه غيرُ محتاج إلى الثراء مطلقًا؛ فهو يَعْرِف أن يكون محسنًا بلا غِنًى، وهو يستخرج الخيرَ الذي يصنعُ من قلبه لا من جيبه، وهو يبذل للبائسين وقتَه وجهوده وعواطفه ونفسه، وهو لا يكاد يجرؤ في تقدير حُسْنَيَاته على حساب المال الذي أنفقه على الفقراء.

وبما أنه لا يَعْرِف وجْهًا لِلَّوْم على بَلْواه فإنه يَعْزوها إلى خطأ منه؛ وذلك لأنه مَن يجرؤ على اتهامِ مَوْضعِ عبادتِه بالشذوذ؟ ويَزِيدُ خِزْيُ حبِّ الذات حَسراتِ الغرامِ المصروفِ بغلظة، وعاد لا يَدْنو من صوفيةَ بذلك الاعتمادِ المُسْتَحبِّ لقلبٍ يَشْعُر بأنه جديرٌ به، ويكون جَزوعًا مرتجِفًا أمامها، وعاد لا يأمُل أن يَلمِسَها بالرِّقة، وإنما يحاول أن يُلِينها بالاستعطاف. ويَنْفَد صبرُه أحيانًا، فيكاد يُغاضِب. ويلوح أن صوفيةَ تشعُر بما يساوره من أحاسيس، فتنتظر إليه، وهذه النظرة وحدَها هي التي تُسكِّن غضبه وتلقي فيه الرعب، فيكون خاضعًا أكثرَ من قبل.

ويُكدَّر صفوُه بهذه المقاومة القائمة على العناد، وبهذا السكوت الذي لا يُقوَى عليه، فيَفتح قلبَه لصديقه، ويُودِع صديقه آلامَ فؤاده المكلومِ كَرْبًا، ويَضرَع إليه أن يُعِينه وأن يَنْصَحه، ويا له من سِرٍّ خَفيٍّ! «هي تكترث لنصيبي، ولا يمكنني الشك في هذا، ومن البعيد أن تبتعد عني، ويَروقُها أن تكون معي، وتُبدي سرورَها عند وصولي، وتُظهِر أسفَها عند انصرافي، وتتلقَّى عنايتي بلطف، ويَلوح أن خِدَمي تقع منها موقعَ القبول، وتتفضَّل فتحْبُوني بآراء، حتى إنها تُصْدِر إليَّ أوامرَ في بعض الأحيان، ومع ذلك فإنها تَرُدُّ التماسي ورجائي، وإذا ما جرؤتُ على الكلام حول القِران ألزمتني بالسكوت قسرًا، وإذا ما أضفتُ كلمةً تركتني فورًا. وبأيِّ حقٍّ عجيبٍ تريد أن أكون لها من غير أن تُريد إسماعي كلمةً عن

كونها لي؟ تكلَّم واحمِلها على الكلام، أنت الذي تُجِلُّه وتُحِبُّه ولا تجرؤ على إسكاته، واخدِم صديقك، وأكملْ عملك، ولا تجعلْ جهودك شؤمًا على تلميذك. آه! إنك إذا لم تُتِمَّ سعادته كان ما اكتسبَ منك سببَ شقائه.»

وأكلِّم صوفيةَ، وأنزِع منها مع قليلِ جُهدٍ سِرًّا كنتُ أعْرِفُه قبْل أن تقوله لي، وأصعَبُ من هذا نَيلي منها إذنًا في إطلاعِ إميلَ عليه، وأفوز به أخيرًا، وأعمل وَفْقَ مقتضاه، ويُلقيه هذا الإيضاح في دَهَشٍ لا يمكن أن يُشفى منه، وهو لا يُدرك شيئًا من هذه الدِّقة، وهو لا يتصوَّر ما قد يكون للدنانير — قليلةً كانت أو كثيرةً — من عملٍ في الخُلُق والمَزِيَّة. ولمَّا أسمعته بما يكون لها من فعلٍ في مُبْتَسَرات النَّاس أخذ يضحك، وقد تهلل وجهُه سرورًا، فأراد أن يذهبَ من فوْره ليمزِّق كلَّ شيءٍ ويرمي كلَّ شيءٍ ويَعْدِل عن كلِّ شيء نَيْلًا لشرفِ الفقر مثلَ صوفية، وكَيما يعودُ ليكونَ زوجَها.

وأَقِفُه، وأقولُ له ضاحكًا بدوري من اندفاعه: «ماذا! ألَا يَنضَجُ هذا الرأسُ الفتيُّ مطلقًا؟ ألَا تتعلَّم التعقُّل مطلقًا بعد أن تفلسفتَ في جميع حياتك؟ وكيف لا تَرى أنك باتِّباعك خِطَّتَك السخيفةَ تكون قد زِدْتَ حالك سوءًا وجعلت صوفيةَ شَمُوسًا؟ ومن المفيد بعضَ الفائدة أن يكون عندك من المال أكثرُ مما عندها، ومن العظيم جِدًّا أن تضحِّيَ بجميعه من أجْلها، وإذا كانت من الزهو ما لا تُطيقُ معه أن تكون مدينةً لك بإحسانٍ قليلٍ فكيف تحتملُ أن تكون مدينةً لك بفضلٍ كبير؟ وإذا كانت لا تطيق إمكانَ تعييرِ الزوج إياها بأنه أغناها، فهل تَحتمل إمكانَ تعييرِه إياها بأنه افتقر في سبيلها؟ ويا أيها التَّعِس! احترِزْ من أن يَلوح لها أنك تفكِّر في هذه الخِطة، وعلى العكس كُن مقتصدًا يَقِظًا حُبًّا لها، وذلك خشيةَ أن تتهمك بأنك تريد نَيْلها بالحيلة، وبأنك تضحِّي طَوعًا بما ستبذِّره إهمالًا.

وهل تعتقد أن الأموال الكبيرة تُخيفها حقيقةً، وأن معارضاتِها تنشأ عن الثروات ضبطًا؟ كلَّا يا إميل العزيز، إن لمعارضتها سببًا أكثرَ قوةً وأعظمَ شِدَّةً بالأثر الذي تُوجِبه هذه الثروات في نفسِ صاحبها، وهي تَعرف أن جميع منافع الثراء مفضَّلةٌ على كلِّ شيء عند مَن هم حائزون لها، وجميعُ الأغنياء يَعُدُّون الذَّهب قبْلَ المَزِيَّة، وإذا ما وُضع المالُ بجانب الخِدَم وجدوا دائمًا أن الخِدَم لا تُوفِي المالَ حقَّه مطلَقًا، وظنُّوا أن مَن قَضَوْا حياتهم في خدمتهم آكلين خبزَهم مدينون لهم بالبقية. ولِذا فما عليك أن تعمل يا إميلُ لتسكين مخاوفها؟ دَعْها تعرِفُك جيِّدًا، وليس هذا عملَ يومٍ واحد، وأثبِتْ لها أنَّ في كنوز رُوحك الكريم ما يوازن ثراءً كان من سوء حظِّك نَيلُك إياه، وتَغلَّبْ على مقاومتها بالثبات ومع الزَّمن، واجعلها تنسى ثراءَك بمشاعرك الجليلة النبيلة، وأَحِبَّها، واخْدِمها، وقُم بخدمة

وَالدَيْها المحترمَيْن، وأقِم لها الدليلَ على أن هذه العنايات ليست نتيجةَ هَوَى سَعِرٍ عابر، بل هي مبادئُ لا تُطمَسُ منقوشةٌ في صميم فؤادك، وبَجِّلْ ما يُهينه الثراءُ من مَزِيَّةٍ تبجيلًا لائقًا؛ فهذه هي الوسيلة الوحيدة لمسألة المَزِيَّة التي تُعِزُّها.»

ويُدرَك مقدارُ الفرح الذي يوجبه هذا الكلام في الفتى، ومقدارُ ما يورثه إياه من ثقةٍ وأمل، ومقدارُ ما يَستبشر به فؤادُه الشريف فيما يَصنع ليقعَ موقعَ القبول عند صوفية، أو فيما يَصنع من تلقاء نفسِه عند عدم وجود صوفية، أو عندما لا يكون عاشقًا لها، ومهما يكن من قلة إدراكٍ لخُلُقه فمن ذا الذي لا يَتصوَّر سلوكَه في مثل هذه الحال؟

وها أنا ذا، إذنْ، نَجِيُّ فَتَيَيَّ الصالحَيْن وواسطةُ حُبِّهما! ويا له من صُنعٍ رائعٍ يقوم به المُرَبِّي! وقد بلغ هذا العمل من الجمال ما لم أصنعْ معه في حياتي شيئًا رفعني في عينيْ نفسي بهذا المقدار، وجعلني راضيًا عن نفسي بهذا المقدار، ومع ذلك فإن لهذا العمل ملاذَّه، وذلك أنني لم أُقبَل في المنزل قبولًا سيئًا، وأنه أُركِن إليَّ في إمساك العاشقَيْن ضِمن النظام، فلمْ يَظهر إميلُ ذَلولًا ظُهورَه في هذه المرة مرتجِفًا دائمًا من إمكانِ عدم وقوعه موقعَ الرِّضا، وقد غمرتني الفتاةُ بصداقةٍ صادقة لا أتناول غيرَ حصتي منها، وهكذا فإنها تُعوِّض نفسها تعويضًا غيرَ مباشرٍ من شِدَّةٍ تُخيفُ بها إميلَ، وهي تقوم له في شخصي بألفِ وُدٍّ رقيقٍ مُفضِّلَةً الموتَ على إبدائه له بنفسه. وهو يَعْرِف أنني لا أريد الإضرارَ بمصالحه، فيسُرُّه أن أكون على وئامٍ معها، وله سُلْوان عند رفضها ذراعَه في أثناء النزهة بأن يقوم هذا الرفضُ على ترجيحها ذراعي، وهو يبتعد من غير أن يتذمَّر مصافحًا إياي قائلًا لي مخافتًا بالصوت والعين: «تكلَّمْ من أجْلي يا صديقي.» وهو يَتْبعنا بعينيه مع الاهتمام، وهو يحاول أن يقرأ مشاعرنا على وَجْهنا، وأن يُفسِّرَ كلامَنا بحركاتنا، وهو يَعْرِف أنه لا شيءَ فيما يدور بيننا من حديثٍ خارجٌ عن نطاق الاكتراث له. ويا صوفية العزيزة، ما أكثرَ ما يكون فؤادُك المخلصُ مرتاحًا عندما يمكنك أن تحادثي مرشدَ تِلِمَاك من غير أن يسمعك تِلِمَاك! ويا لسلامة الطوية التي تَدَعينه يقرأ بها في هذا القلب الحنون جميعَ ما يدور فيه! ويا للَّذةَ التي تُطلعينه بها على ما تحملين من إعزازٍ جامعٍ لتلميذه! ويا للإخلاص المؤثِّر الذي تَدَعينه يَنفُذُ به أحلى المشاعر؟ ويا لَتَكلُّفِ الغضبِ في صرْف اللَّجُوج عندما يَحمِله عدمُ الصبر على قطْع حديثك! ويا لتكلُّفِ الأسف الفاتن الذي تلومينه به على عدم الرَّصانة عندما يجيء لمنعك من قول الخير عنه وسماعه عنه مستخرجةً من أجوبتي دائمًا سببًا جديدًا لحُبِّه!

وهكذا فإن إميلَ بَلَغ مرحلةً أُذِنَ له فيها أن يَتخذ وضْعَ العاشق المعروف، فصار يتمتَّع بجميع حقوقه، فيتكلم ويُلِحُّ ويلتمس ويُلحِف. وصار لا يبالي أن يُخاطَب بشدَّةٍ وأن يُعامَل بسوءٍ على أن يَسمع، وأخيرًا يحظى، ولكن مع صعوبة، بأن تتفضَّل صوفية من ناحيتها فتنتحل سلطانَ الخطيبة جَهْرًا، فتُمْلِي عليه ما يجب أن يَفعل، وتأمره بدلًا من أن ترجو منه، وتَقبل بدلًا من الشُّكر، وتُنظِّم عددَ الزيارات وأوقاتها، وتمنعه من المجيء حتى اليوم الفلاني، ومن البقاء بعد الساعة الفلانية. ولم يُصنَع جميعُ هذا عن لهو، بل عن جِدٍّ بالغٍ. وهي إذا كانت قد قبلت هذه الحقوق بصعوبة، فإنها تُبدي من التدقيق في استعمالها ما يجعَلُ إميلَ المسكين يأسَفُ في الغالب على منْحها إياها، ولكنها مهما تأمرْ لا يتأخر عن الامتثال. ومما يَحدُث غالبًا أنه إذا ما ذهب عن إطاعةٍ نظرَ إليَّ بعينَين طافحتَين سرورًا قائلتَين لي: «إنها مَلَكتني كما ترى.» ومع ذلك فإن صوفية المُختَالة تنظُر إليه من طَرْفٍ خفي، وتبتسم سرًّا من زهوِ عبدِها.

أعيراني يا ألبانُ ويا رفائيلُ ريشةَ اللذَّة! وعَلِّمْ قلمي الغيظ، يا مِلْتون السَّماوي، ملاذَّ الحبِّ والعفاف! ولكن كلَّا، أَخْفُوا فُنونَكم الكاذبةَ أمام حقيقة الطبيعة المقدَّسة، وكونوا ذوي قلوبٍ حسَّاسةٍ ونفوسٍ شريفة، ثُمَّ دَعُوا خيالَكم يجول بلا قَسْرٍ حول هِيام العاشقَيْن الشابَّيْن اللذين يُسلِّمان نفسَهما على أعينِ وَالِدَيْهما ومُرْشديهما، ومن غير كَدَر، إلى الوهم العَذْب الذي يَفْتِنُهما، وهما إذْ يتقدَّمان في نشوة الرغائب إلى الغاية على مَهْلٍ يَشْبِكان بالأزهار والأكاليل تلك الرابطةَ السعيدةَ التي يجب أن تَجْمَع بينهما حتى القبر. وهنالك صُوَرٌ ساحرة تُسْكِرُني، وأجمعها بلا ترتيب ولا نظام، وما تُوجبه من هذيان فيَّ يحول دون ربط بعضهما ببعض. وَيْ! مَن الذي يكون ذا قَلْبٍ ولا يستطيع أن يَصنع في نفسه لوحةً لطيفةً لمختلف الأوضاع التي يتخذها الأبُ والأمُّ والبنت والمُرَبِّي والتلميذ، ولِتعاوُنِ هؤلاء على قِرَانِ أكثرِ الأزواجِ فُتُونًا، فيُمكِن الحُبَّ والفضيلةَ أن يُسفِرا عن سعادتهما؟

والآن، حين صار إميلُ يبادر إلى الوقوعِ موقعَ القبولِ في الحقيقة، أخذَ يشعرُ بقيمةِ المواهبِ اللطيفةِ التي حُبِيَ بها، وتحِبُّ صوفيةُ الغِناء، فيُغنِّي معها، ويَفْعل أكثرَ من هذا، أي يُعلِّمها الموسيقا، وهي نشيطةٌ رشيقةٌ فتحب الوثوب، وهو يرقُص معها، ويُحوِّل وَثَبَاتِها إلى خُطًا، ويسيرُ بها نحوَ الإتقان. وهذه الدروس فاتنة، ويُنعِشها المرح اللعوب الذي يُلطِّف حُرِمَةَ الحبِّ القائمة على الحياء، ويُباح للعاشق أن يُعطي هذه الدروسَ مع اللذة، ومن المباح أن يكون العاشقُ أستاذَ خطيبته.

ويوجَدَ بِيَانٌ قديمٌ مختلٌّ تمامًا، ويُصلِحه إميلُ ويُهيِّئه، وإميل صانعٌ ومصحِّحٌ للآلات الموسيقية كما أنه نجَّار، ويقوم مبدؤه الدائمُ على تعلُّم الاستغناء عن عوْن الآخرين في كلِّ ما يستطيع عملَه بنفسه. ويقع المنزل في موضعٍ رائع، فيرسُم له عدة صُوَر، فتضعُ صوفيةُ يدَها عليها أحيانًا وتُزَيِّن بها غرفة أبيها، وليست أُطُرُ هذه الصور مزخرفةً مُطلَقًا، وهي غيرُ محتاجة إلى الزخرفة، وهي تتكامل إذ تَرى إميلَ يرسُم فتقلِّدُه، وهي تُثقِّف جميعَ مواهبها على مثال إميل، ويُزيِّن فُتُونُها جميعَ ما تصنع. ويَذْكر أبوها وأُمُّها سابِقَ يُسرهما حينما يشاهدان حولهما ثانيةً إشراقَ الفنون الجميلة التي تُنعِم وحدَها على الثَّراء بقيمة، وقد جَمَّلَ الحُبُّ جميعَ منزلهما. والحبُّ وحدَه هو الذي أوجب بلا نفقةٍ ولا مشقَّة، تَجلِّيَ ذاتِ الملاذِّ التي كانا لا يَجْمعانها فيه سابقًا إلا بالمال والمَلَال.

ويُحِبُّ العاشقُ إحاطةَ الكمالِ بصاحبته، فيريدُ إضافةَ زخارفَ جديدةٍ إليها بلا انقطاع، شأنُ الوثنيِّ الذي يُزَوِّق من الذخائر ما يُقَدِّر أنه موضع عبادته، ويُجمِّلُ فوق المذبحِ الإلهَ الذي يَعبُد. والصاحبة لا تحتاج إلى شيء من ذلك لتروقه، وإنما هو يحتاج إلى تزيينها، وهذا إكرامٌ جديدٌ يَرى أنه يقوم به نحوَها، وهذا اهتمامٌ جديدٌ يَنفَحُ به لذَّة مشاهدتها، ويَلوح أنه لا شيءَ جميلَ يكون في موضعه إذا لم يُزيِّن الجمالَ الأسمَى. ومن المناظر المؤثِّرة المضحِكة معًا أن يُرى إميلُ وهو يبادرُ إلى تعليم صوفيةَ جميعَ ما يَعْلَم، وذلك من غيرِ أن يَنظُر هل يلائم ذوقَها ما يُريد تعليمَها إياه، أو هل هذا الأمرُ يناسبها، وهو يُحدِّثها عن كلِّ شيء، وهو يُوضِحُ لها كلَّ شيء بنشاطٍ صبياني، وهو يَظُنُّ أنَّ عليه أن يتكلَّم، فتَفْقهُ ما يقول من فوْرِها، وهو يَتمثَّل مُقدَّمًا ما يتَّفق له من لذةٍ في البرهنة والتفلسُف معها، وهو يَعُدُّ من الأمور غيرِ المُجْدية كلَّ شيء حصَّلَه، فلا يستطيع عرْضَه على عينيها مطلقًا، ويَحمَرُّ وجهُه خجلًا تقريبًا من معرفتِه شيئًا لا تَعرِفه.

وها هو ذا إذنْ يُلْقي عليها درسًا في الفلسفة والفيزياء والرياضيات والتَّاريخ وكلِّ شيءٍ آخر، وتراعيه صوفيةُ في غَيرَته طيِّبَةَ الخاطر، وتحاول الاستفادة منه. وما أكثرَ ما يَطيبُ لإميلَ أن تسمح له بأن يُلقيَ دروسَه عليها وهو جاثٍ أمامها! فهو يعتَقِدُ أن السموات قد فُتِّحَتْ أبوابُها، ومع ذلك فإن هذا الوضع الذي هو أكثرُ مضايقةً للتلميذ مما للمُعلِّم ليس أكثرَ ما يناسِب التعليم؛ وذلك لأنه لا يُعْرَف حينئذٍ ما يَصْنَعُ أحدُهما بعينيه اجتنابًا للعينَين الأخريين اللتَين تتعقَّبانهما، فإذا ما تلاقت العيونُ لم يَسِرِ الدرسُ سيرًا حسنًا.

أجلْ، إن فنَّ التفكيرِ ليس غريبًا عن النساء، بَيْدَ أنه لا ينبغي لهن أن يَصْنَعن غيرَ لَمْسِ العلوم العقلية لَمْسًا خفيفًا. وتَفْهَم صوفيةُ كلَّ شيء، ولا تَحفظُ كبيرَ شيء، وأعظمُ ما يكون تقدُّمها في علوم الأخلاق وأمورِ الذوق، وأمَّا الفيزياء فلا تَحْفظ منها غيرَ قليلٍ من النواميس العامة ونظام الكون. ومما يَحْدُثُ في أثناء نُزَهِهما أحيانًا أن يتأمَّلا عجائبَ الطبيعة، فيجرؤ فؤادُهما البريءُ على الارتقاء إلى صانعها؛ فَهُمَا لا يخشيان حضوره، وهما يَبوحان بأسرار قلبهما أمامه.

ماذا! عاشقان في زهرةِ العُمُر يَبْحثان في الدين على انفراد، ويَقضيان وقتَهما في الكلام حوْل كتابهما في الدين! وما فائدةُ الحظِّ مما هو عالٍ؟ أجلْ، لا ريْب، إنهما يتكلَّمان حوْله حين سبْحِهما في الخيال الذي يَفْتِنُهما، فيَرَيان أنهما كاملان، ويتحابَّان، ويتحادثان بحماسةٍ فيما يَجعَلُ للعفافِ قيمة، وما يَبْذلان في سبيله من تضحياتٍ يجعله عزيزًا عليهما. وهما في أثناء الهِياج الذي يَجِبُ أن يتغلَّبا عليه يَسْكُبان في بعض الأحيان من الدموع ما هو أصفى من نَدَى السماء، فتكون هذه العَبَراتُ الحُلْوة فتنةَ حياتهما؛ وذلك أنهما يكونان في أعظم ما تُبْتَلَى به نفسٌ بشريةٌ من هذيانٍ ساحر، ويَزيد حِرمانُهما نفسُه في سعادتهما ويُشرِّفُ تضحيتَهما في أعينهما. أجلْ، إنهما سيَعْرفان ملاذَّكم ذاتَ يومٍ أيها النَّاس، أيتها الأبدانُ بلا روح، فيأسفان مدَى حياتِهما على الأوقات المباركة التي امتنعا فيها عن التمتُّع بهذه المَلاذِّ!

ومع ما هو واقعٌ بينهما من اتفاقٍ رائع، فإنه يَحْدُث بينهما في الحينِ بعد الحين خلاف، ونزاعٌ أيضًا؛ فليست الصاحبةُ بلا جماح، وليس العاشقُ بلا حِدَّة، غير أن هذه العواصفَ الصغيرةَ تَمُرُّ بسرعة، ولا تؤدي إلى غيرِ تثبيت الاتحاد، حتى إن التجرِبة علَّمت إميلَ ألَّا يخشاها؛ فالإصلاح في كلِّ وقتٍ أنفعُ له من شقاقٍ يَخسرُ به، وما كان للخلاف الأوَّل من نتائجَ جَعَلَه ينتظر نتيجةً مماثلةً من جميع الخلافات. أجلْ، إنه مخطئٌ في هذا، ولكنه حتى عند عدمِ نَيْله فائدةً ظاهرةً كتلك دائمًا، يكون له كَسْبٌ دائمٌ بما يَرَى من توكيدِ صوفيةَ لاهتمامها بحُبِّه، ويُرادُ أن تُعْرَف هذه الفائدة، وهذا ما أقومُ به مُختارًا ما دام هذا المثالُ يُتيحُ لي فرصةَ عرضِ مبدأ مفيد جدًّا وفرصةَ مكافحةِ مبدأ كثيرِ الشؤم.

وإميلُ يُحِب؛ ولذا فهو ليس مغامرًا، وأحسنُ من هذا تمثُّلًا أن يُدرِك أن صوفية الآمرة ليست بالفتاة التي تَمُنُّ عليه بأُلْفَاتٍ، وبما أن للحكمة حَدَّها في كلِّ شيء، فإن صوفية تُنسَبُ إلى الشدةِ أكثرَ مما إلى المساهلة، حتى إن أباها يخشى في بعض الأحيان أن يتحوَّل زهوُها

المتناهي إلى كبرياء. وما كان إميلُ في أكثرِ الخَلَوات خفاءً ليلتمس من الألطاف حتى أخفَّها، ولا ليَظهَر بمَظهر الراغب في ذلك أيضًا، وهي إذا ما تفضَّلَت في أثناء النزهة بأن تجعَل ذراعَها تحت ذراعِه لم يَنِمَّ هذا على تغييرٍ في الحقوق؛ فلا يكاد أحيانًا يضغط بذراعها صدرَه تلهُّفًا، ومع ذلك فإنه يخاطرُ بعد حَصْرٍ طويلٍ فيُقبِّل ثوبَها خِفيَة، وما أكثرَ ما يكون سعيدًا إذا ما منَّت عليه بعدم التفاتها إلى ذلك. وإذا حدث ذات مرةٍ أن أراد انتحالَ ذات الحريَّة بشيء من العلانية عَنَّ لها أن تجدَه سيِّئًا جِدًّا، ويُصِر، وتغضب، ويُملي الغضبُ عليها بعضَ الألفاظ اللاذعة، ولا يحتملُها إميلُ بلا جواب، فتمرُّ بقيةُ النهار منغَّصة، ثُمَّ يفترقان مستاءَيْن.

وتعتَلُّ صوفيةُ على مَهْلِها، وأمُّها نَجيَّةٌ لها، وكيف تكتم عنها كرْبَها؟ وهذا أوَّلُ شقاقٍ وقع بينهما، وشقاقُ ساعةٍ أمرٌ جَلَلٌ! وتندم على ما صدرَ عنها من خطأ، وتأذنُ أمُّها لها في إصلاحه، ويأمرها أبوها بإصلاح ذات البَيْن.

وفي الغدِ يَعودُ إميلُ هَلُوعًا قبْلَ الساعةِ المعتادة، وتكون صوفيةُ في مَخدَعِ أمِّها، ويكون أبوها في هذه الغرفةِ أيضًا، ويَدخل إميلُ محترِمًا، ولكنْ مكتئبًا. ولم يَكدِ الأبُ والأمُّ يُسلِّمان عليه حتى عادت صوفيةُ وهي تُقدِّم إليه يدَها وتسأله عن صحته. ومن الجلي أن هذه اليدَ الجميلةَ لم تُمَد إلا لِتُقبَّل، ويتناولها ولا يُقَبِّلُها، وتستردُّها صوفية التي كانت على شيءٍ من الخجل بأقصى ما يُمكنها من اللطف، وما كان إميل لينسى بسهولةٍ ولا ليهدأ بسرعة. وإميل هو الذي لم يُنشَّأ وَفْقَ أطوار النساء، وإميلُ هو الذي لا يَعْرِف وجه الحُسن في اتِّباع الإنسان هواه. ويراها أبوها مرتبكةً فيُتِمُّ ارتباكها بسُخريات، لا تعرف الفتاةُ المسكينة المضطربة الخجلى ما تفعل، فتكاد تبكي، وهي كُلَّما ضَبطت نفسَها انتفخ قلبُها، وأخيرًا تُفلِتُ منها دمعةٌ على الرغم منها، ويُبصِرُ إميلُ هذه العَبْرَةَ فيبادر إلى صوفيةَ راكعًا ويتناول يدَها ويُقبِّلُها غيرَ مرةٍ تقبيلًا مؤثِّرًا، ويقول الأب ضاحكًا: «حقًّا أنك رجلٌ طيبٌ جِدًّا، ولو كنتُ في مكانك لكنتُ أقلَّ تسامُحًا تجاه جميع هذه الحماقات، ولعاقبتُ الفمَ الذي أهانني.» ويجترئ إميلُ بهذه الكلمة فيُدير عينًا ضارعةً إلى الأم، ويَظُنُّ أنه يُبصِرُ إشارةَ موافقةٍ منها، فيدنو مرتجفًا من وجه صوفية التي تُدير رأسَها إنقاذًا لفمها، فتَعْرِض خدًّا ورديًّا، ولا يكتفي عادمُ الفطنة بهذا؛ فالمقاومةُ ضعيفة، وأيةُ قُبْلةٍ تكون لو لم تُؤخذ على مرأًى من أمِّها! ويا صوفيةُ الشديدة، احترزي، فسيُطلَبُ ثوبُك ليُقبَّل غالبًا على أن تَرفِضي ذلك أحيانًا.

ويَخرج الأب لبعض الشئون، وتُرسِلُ الأمُّ صُوفيةَ لبعض المعاذير، ثُمَّ تُوجِّه الكلامَ إلى إميلَ وتقول له جادَّةً:

«أظنُّ أن شابًّا حسنَ المولدِ حسنَ المنشأ مثلَك أيها السيد، فيكون صاحبًا لمشاعرَ وأخلاق، لا يُقابِل بِهَتْك السِّتر أسرةً حَبَتْه بصداقتها، ولستُ شرِسةً مُفرِطةً في الاحتراس، وأعرِفُ جميعَ ما يُمكِن أن يَمُرَّ على الشباب اللَّعوب، وما اصطبرْتُ عليه أمامي يُثْبِتُ لك ذلك بما فيه الكفاية، وشاوِرْ صديقك في واجباتك؛ فهو سيُخبِرُك بالفرْق بين اللَّعِب الذي يبيحه حضورُ الأب والأم، والحريةِ التي تُتَّخَذ في غيابهما مع إساءةِ استعمالٍ لِثقتِهما وتحويلٍ إلى حبائلَ ما ليس غيرَ طُهرٍ في حضرتهما من الألطاف عينِها. وهو سيُخبرك أيها السيد بأنه لا ذنبَ لابنتي معك غيرُ كونها لم تَرَ منذ المرة الأُولى ما لا ينبغي أن تُعانيه مطلَقًا، وهو سيخبرك بأن كلَّ ما يُعَدُّ من الألطاف هو من الألطاف، وبأنه لا يليق برجلِ الشَّرفِ أن يسيء استعمالَ بساطةِ فتاةٍ فيغتصب سِرًّا عينَ الحرية التي يُمكِنُها أن تعانيها أمام جميع النَّاس؛ وذلك لأنه يُعرَف ما يُمكِن أن تسمح به اللياقة جهرًا، ولكنه يجهل أين يَقِفُ في ظِلِّ الخفاء ذاك الذي يكون وحدَه قاضيًا في أهوائه.»

تتركنا هذا الأمُّ الحكيمةُ بعد قيامها بهذا اللومِ الصائبِ الموجَّهِ إليَّ أكثرَ مما إلى تلميذي، وتَدَعُني مُعجَبًا بفِطنتِها النادرةِ التي تَعُدُّ بها لَثْمَ فمِ ابنتها أمامها أمرًا لا يُؤبه له، فتُذعَرُ من الإقدام على تقبيل ثوب هذه البنت على انفراد. وإني حين أُنْعِم النظرَ في سخافة مبادئنا التي تُضحِّي دائمًا بالصلاح الحقيقي باسم الحشمة أدركُ السببَ في أن اللسان يكون عفيفًا بنسبةِ ما تكون الأفئدةُ أكثرَ فسادًا، وفي أن الأوضاع تكون صحيحةً بنسبة ما يكون أصحابُها أكثرَ عدم استقامة.

وإني حين أنْفُذُ في هذه النُّهْزَةِ فؤادَ إميلَ حوْل الواجبات التي كان يجب أن أُمْليَها عليه يَرِدُ خاطري فِكرٌ جديدٌ يحتملُ أنه أكثرُ ما يكون تشريفًا لصوفية، فأحترزُ مع ذلك من إطلاعِ عاشقِها عليه، وذلك أن من الواضح أن ذاك الزهوَ المزعومَ الذي تُلامَ عليه ليس غيرَ احتياطٍ بالغِ الحكمة لوقاية نفسها من نفسها؛ فهي إذ كانت من الشقاء ما تشعُر معه بمِزاجها الملتهب ذُعِرَت من الشرارة الأُولى فصرفتها عنها بما أُوتِيَت من قوة، وهي ليست شديدةً عن زهوٍ بل عن تواضع، وهي تتخذ من السلطان على إميلَ عن خشيةِ عدمِ اتخاذه نحوَ نفسها، وهي تنتفعُ بسلطانٍ لمقاومةِ الآخر، ولو كانت أكثرَ اعتمادًا على نفسِها لظهرت أقلَّ زهوًا، وأيةُ فتاةٍ في العالم تكون أكثرَ دماثةً وأعظمَ لطفًا إذا ما عَدَوْتَ هذه

الناحية؟ ومَنْ يكون أكثرَ احتمالًا للإهانة؟ ومَن يكون أكثر فَزَعًا من إهانة غيره؟ وإذا عَدَوْت الفضيلةَ فمن يكون أقلَّ زَعْمًا؟ ثُمَّ إنها لا تَزْهو بفضيلتها، وهي إذا ما زَهَت لم يكن هذا إلا لحفظِ فضيلتها، ولو كانت تستطيع أن تستسلم إلى مَيْلِها بلا خَطَرٍ لَلَاطفتْ حتى عاشِقَها، ولكنَّ أمَّها الرَّزانَ لا تبوح بهذه الجزئيات حتى إلى أبيها؛ فلا يَنْبغي للرجال أن يَعْرِفوا كلَّ شيء.

وقد صارت صوفيةُ البعيدةُ حتى من الظهور بمظهر الفَخُور بنصره، أكثرَ أُنسًا وأقلَّ تطلُّبًا تجاه جميع العالم، وذلك مع استثناء ذاك الذي أوجب هذا التحوُّل على ما يحتمل، وعاد حِسُّ الاستقلال لا ينفُخُ فؤادَها النبيل؛ فهي تنال مع التواضع نَصْرًا يُكلِّفُها حريَّتها، وأصبحت أقلَّ طلاقةً في الهيئة وأكثرَ حياءً في اللهجة منذ عادت لا تَسْمَع كلمةَ «العاشق» من غير أن يحمرَّ وجهُها خجلًا، بَيْدَ أن الرِّضا يَظْهر من خلال ضِيقها، وليس هذا الخجلُ نفسُه شعورًا مُكدِّرًا، وأكثرُ ما يكون الفارقُ في سلوكها تجلِّيًا هو عند اجتماعها بالطارئين من الشُّبَّان؛ فهي إذ عادت لا تخشاهم زال كثيرٌ من سابقِ تحفُّظِها المتناهي نحوهم، وهي إذ قطعتْ في أمرِ اختيارها ظهرت مؤنسةً للأخْلياء من غيرِ تردُّد، وهي إذ غدت أقلَّ تشدُّدًا حوْل مَزِيتهم منذ عادت لا تبالي بهم وجدتهم دائمًا على شيءٍ من اللطف لدى أُناسٍ لا يُعَدُّون عندها شيئًا غيرَ مذكور مُطلَقًا.

وإذا كان الحبُّ الحقيقيُّ يَحتمل الدَّلالَ ظننتُ أنني أرى آثارًا له في الوجه الذي تتصرَّف فيه صوفيةُ مع أولئك في حضرة عاشقها، فيُقال إنها لم تكتفِ بالهوى الحارِّ الذي تُلهِبُه فيه بمزيجٍ لذيذٍ من الحشمة والملاطفة؛ فصار لا يؤسِفُها أن تزيد هذا الهوى سعيرًا بقليلٍ من الهم، ويُقال إنها حين تَسُرُّ ضيوفها من الشبان عَمْدًا، تَقصِد أن تُعذِّبَ إميلَ بألطافِ دُعابةٍ لا تبيحُ لنفسها أن تصنعها معه، بَيْدَ أن صوفية هي من الانتباه والصلاح والحصافة ما لا تُعذِّبه معه حقيقةً؛ فالحبُّ والشرف يَقومان مقام الفطنة في تلطيف ذاك المُغري الخطِر، وهي تعرف أن تُذْعِرَه وتُسكِّن رَوْعَه تمامًا عند الاقتضاء، وهي إذا ما أورثته غَمًّا أحيانًا لم تُورِثه حُزنًا مطلقًا، ولنغفرْ لها ذلك الهمَّ الذي تلقيه في ذلك الذي تُحِبُّ مع خوفها ألَّا يكون مرتبطًا فيها ارتباطًا كافيًا.

ولكن ما يكون تأثيرُ هذه الحيلة الصغيرة في إميل؟ ألَا تأكله الغَيرةُ أم لا؟ يجب دَرْسُ هذا؛ وذلك لأن مثل هذه الاستطرادات تدخل ضِمْن مادة كتابي أيضًا، وتُبعِدُني من موضوعي قليلًا.

لقد بيَّنتُ سابقًا كيف يَجِد هوَى الغَيرةِ إلى قلبِ الإنسان سبيلَه في الأمور التابعة للرأي العام، ولكنَّ الأمرَ غيرُ هذا في الغرام؛ فهنالك تكون الغَيرةُ من قُرْبها إلى الطبيعة ما يَصْعُب معه أن يُعتَقد عدمُ صدورها عنها، ويَلوح أن مثالَ الحيوانات التي بلغت الغَيرةُ في كثيرٍ منها درجة الجنون، يؤيِّد هذا الإحساسَ تأييدًا لا يُرَد، وهل رأيُ النَّاس هو الذي يُعلِّم الديوكَ تمزيقَ بعضها بعضًا؟ وهل ذاك الرأي هو الذي يُعَلِّمُ الثِّيران الاصطراعَ حتى الموت؟

ولا جِدالَ في أن ما يساورُنا من نفورٍ حوْل كلِّ ما يُكدِّرُ ملاذَّنا ويقاومها دافعٌ طبيعي، وقُلْ مِثْلَ هذا إلى حدٍّ ما عن الرغبة في حيازتنا ما يَرُوقُنا حيازةً مطلقة، ولكن هذه الرغبة إذا ما أصبحت هَوًى، فتحولت إلى صَولةٍ أو إلى خيالٍ جافلٍ ذي اكتئابٍ اسمه «الغَيْرة» تَغيَّر الأمر، فأمكَن أن يكون ذلك الهوى طبيعيًّا أو لا يكون، فلا بُدَّ من التمييز.

وكنتُ قد عالجتُ في رسالتي عن «التفاوت» مثالَ الحيوانات، والآن أُنْعم النظرَ في هذا المثال مُجدَّدًا، فيَظْهر لي أنه من المتانة ما أجْرُؤ معه على ردِّ القرَّاء إليه، وإنما أضيفُ إلى الإيضاحات التي قُمتُ بها في ذلك الكتاب كَوْنَ الغيرةِ التي تَصدُر عن الطبيعة كثيرةَ الاتِّباع لقوة الجنس، وأن هذه القوة إذا كانت، أو بَدَتْ، لا حَدَّ لها طَفَحَ كيْلُها؛ وذلك لأن الذَّكرَ إذ يَزِنُ إذ ذاك حقوقَه بأوطاره فإنه لا يُطيقُ مطلَقًا أن يَرى ذكرًا آخرَ منافسًا مزعجًا له. وبما أن الإناثَ في هذه الأنواع تُطيع أوَّلَ مُقبلٍ فإنها لا تكون تابعةً للذكور إلا بحقِّ الفتح، وتكون سببًا لِمَا لا ينتهي من صِراعٍ بينهم.

والأنثى على العكس، إذ كانت في الأنواع التي يقترن الواحدُ فيها بواحدة، وحيث السِّفادُ يُسفِرُ عن ضرْبٍ من الرابطة الأدبية، أي يُسفِرُ عن ضرْبٍ من الزواج خاصةً بالذَّكر الذي وَهَبَت نفسَها له عن اختيارٍ منها، فإنها تمنعُ نفسَها من أيِّ ذَكَرٍ آخرَ على العموم. وإذْ إن للذَّكر ضمانًا لوفائها بهذا الحُبِّ عن ترجيح، فإن هذا الذَّكر يكون أقلَّ غمًّا بمنظر الذكور الآخرين، ويعيش معهم عيشًا أكثرَ سلامًا، والذَّكرُ في هذه الأنواع يشترك في رعاية الصِّغار، ويَلوح بسُنَن الطبيعة التي لا تُلاحَظ من غيرِ تَحنُّنٍ أن الأنثى تُظهِرُ للأب حُبًّا كالذي تُظهِر لأولادها.

والواقعُ أننا إذا نظَرْنا إلى النوع البشريِّ في بساطته الابتدائية سَهُلَ علينا أن نرى، بقدْرة الذَّكرِ المحدودةِ وباعتدال رغائبه، أنه أُعِدَّ من قِبَل الطبيعة للاكتفاء بأنثى واحدة، وهذا ما تؤيده المساواةُ العددية بين أفراد الجنسين في أقاليمنا على الأقل، هذه المساواة التي

لا محلَّ لها غالبًا في الأنواع التي تكون قوَّةُ الذكورِ فيها من القدرة العظيمة ما يجمع الواحدُ منهم معها بين إناثٍ كثيرٍ. ومع أن الرَّجل لا يَرْخُم كالحَمَام، وليست له ثُدِيٌّ للإرضاع، فإنه يُعَدُّ من ذوات الأربع من هذه الناحية، ويَظَلُّ الأولاد من الزَّحْف والضَّعف لزمنٍ طويلٍ ما يَصْعُب عليهم وعلى أُمِّهم أن يستغنوا معه عن عطفِ الأب وعن رعايته التي هي نتيجةُ هذا العطف.

وتتسابق جميعُ المشاهدات إذن في إثباتها أن صوْلةَ الغَيرَة في ذكور بعض الحيوانات لا تَدُلُّ على شيءٍ في الإنسان، حتى إن استثناء الأقاليم الجنوبية القائلة بتعدُّد الزوجات لا يُعَدُّ إلا مؤيِّدًا للمبدأ ما دام احترازُ الأزواج الاستبداديُّ لا ينشأ عن غير كثرة النساء، وما دام شعورُ الرجل بضَعْفه الخاصِّ يَحْمله على الاستعانة بالقهر تخلُّصًا من سُنَن الطبيعة.

وتَجِدُ الغَيرةُ بينَنَا — حيث تكون هذه السُّننُ نفسُها أقلَّ تجنُّبًا من هذه الناحية، ولكن مع كونها أكثرَ تجنُّبًا من الناحية الأخرى، وذلك على وجهٍ أدعى إلى المَقْت — عوامِلَها في أهواء المجتمع أكثرَ مما في الغريزة الابتدائية، ويكون العاشقُ في معظَم روابط الدَّلال أكثرَ مقتًا لمنافسيه من حُبِّه لصاحبته، وهو إذا كان يَخشى ألَّا يُسْتَمَعَ إليه وحدَه فذاك لأنه نتيجةُ حُبِّ النفس الذي بَيَّنْتُ أصلَه، ولأن الزهوَ أكثرُ من الحُبِّ إثارةً له، وذلك فضلًا عن كون نُظُمنا السخيفة قد جعلت النساء من المداجاة،[١٩] وقد بلغت من إشعال شهواتهن ما لا يكاد الواحدُ يعتمد معه على أكثرِ مَودَّاتهن ثبوتًا؛ فعُدْن لا يستطعن الإشارةَ إلى التفضيلات التي تُلقِي السكينةَ في القلب تجاه الخوف من المنافسين.

وأمَّا الحُبُّ الحقيقيُّ فأمرٌ آخرُ، وقد بَيَّنتُ في الكتاب المذكور آنفًا أن هذا الإحساس ليس من الطبيعة بالمقدار الذي يَظُنُّ النَّاس؛ فيوجد فرقٌ كبيرٌ بين العادة المستحبَّة التي يُحِبُّ بها الرجلُ رفيقتَه، والحرارةِ الجامحةِ التي تُسكِرُه بجواذبَ وهميةٍ حوْل شيءٍ يَعود لا يراه كما هو، ولا يختلف عن الزَّهْوِ هذا الهوى الذي لا يَتنسَّم غيرَ استثناءاتٍ وتفضيلاتٍ إلا بكون الزَّهْو، الذي يَطلُب كلَّ شيء ولا يَحْبو بشيء، جائرًا دائمًا، وذلك بدلًا من الحبِّ الذي يُعْطي بمقدارِ ما يَطْلُب فيكون بذاته إحساسًا مملوءًا إنصافًا، وذلك فضلًا عن أن

[١٩] يخالف نوعُ المداجاة التي أقصد هنا ذلك النوعَ الذي يلائمهن، والذي يأتيهن من الطبيعة؛ فأحدهما يقوم على إخفاء ما عندهن من مشاعرَ، ويقوم الآخر على إظهار ما ليس عندهن منها، ويقضي جميعُ نساء المجتمع حياتهن في الافتخار المزعوم بإحساسهن، مع أنهن لا يُحببن غيرَ أنفسهن في الحقيقة.

الحُبَّ كلَّما كان طَلُوبًا كان مِيقَانًا،[٢٠*] ومن شأن الوهم الذي يُوجِبه أن يجعل إقناعَه سَهْلًا، وإذا كان الحُبُّ هَلُوعًا فإن الاعتبار يكون مؤتَمَنًا، وما كان الحُبُّ بلا اعتبارٍ لِيوجَدَ في قلبٍ شريف؛ وذلك لأنه لا أحدَ يُحِبُّ فيمن يُحِبُّ غيرَ الصفات التي يقيم لها وزنًا.

ويمكننا، بعد إيضاح جميع ما تقدَّم، أن نُبيِّنَ واثقينَ نوعَ الغَيرة التي يَقْدِر عليها إميل، وذلك بما أن جُرثومة هذا الهوى تكاد تكون في قلب الإنسان، فإن التَّربية هي التي تُعيِّن شكلَه حَصْرًا. ولن يكونَ إميلُ العاشقُ الغيورُ غَضُوبًا جَفُولًا ظَنُونًا، ولكنه سيكون رَقيقًا حسَّاسًا هَيُوبًا، وهو سيكون جَزُوعًا أكثرَ منه مَغِيظًا، وهو سيُعني بنيل خليلته أكثرَ مما بتهديد مُنَافسه، وهو سيُقْصيه إذا ما استطاع كما يُقْصَى المانع، وذلك من غيرِ أن يُبغِضَه كما يُبغَضُ العدو، وهو إذا ما أَبْغضه فلن يكون هذا لأنه أبدى من الجُرأة ما يُنازعه به فؤادًا يَدَّعيه، بل لخطرٍ حقيقيٍّ يَحمِله عليه فيؤدي إلى ضَياعه له، ولا يَكون من الحماقة ما يَثور به عُجْبُه العَسُوف من جُرأةٍ على منافسته، وبما أنه يُدْرِك أن حَقَّ الأفضلية قائمٌ على المَزِيَّة وحدَها وأن العِزَّ في الفَوْز فإنه سيضاعِفُ جهودَه ليكون محبوبًا، ومن المحتمل أن يُكْتب له النجاح. وسَتَعْلم صوفيةُ الكريمةُ حيث تُثِيرُ ذُعْرَه أن تُسوِّي هذا الذُّعرَ وأن تُعَوِّضه منه. ولا يَلبثُ المنافسون الذين لم يألَموا إلا ليَبْتلوه أن يُرَدُّوا.

ولكن إلى أين أُساقُ من حيث لا أدري؟ وَيْ، إميلُ! ماذا أصبحت؟ وهل يمكنني أن أعرِف فيك تلميذي؟ ما أكثرَ ما أراك قد سقطتَ من مرتبتك! وأين هذا الشابُّ الذي كُوِّن تكوينًا خَشِنًا جِدًّا، والذي كان لا يُبالي بمكاره الفصول، والذي كان يُسْلِمُ بدنَه لأشدِّ الأعمال ويُسْلِم روحَه لقوانين الحكمة فقط، والذي كانت المُبْتَسَرات والأهواء لا تجِدُ إليه سبيلًا، والذي كان لا يحبُّ سوى الفضيلةِ ولا يُذعِن لغيرِ العقل، فلا يأبَه لِمَا لا يأتي منه؟ والآن قد أُتْرِف بالفراغ فيَرْضى أن يُسيطر عليه النساء، وتقوم أشاغيلُه على لهوهن فتكون عزائمُهنَّ دساتيرَ له، وتَظْهَرُ فتاةٌ حَكَمًا في مصيره، ويزحَفُ وينحني أمامها، ويَبدو إميلُ الرزينُ أُلعوبةَ ولدٍ!

وهكذا تتحوَّل مناظرُ الحياة؛ فلكلِّ عُمُر نوابضُه التي تُحرِّكه، ولكنَّ الرَّجلَ هو هو دائمًا، والرَّجلُ إذا كان في العاشرة من سِنِيه سِيق بالحلْوى، وإذا كان في العشرين سِيق بخَليلة، وإذا كان في الثلاثين سِيق باللَّذات، وإذا كان في الأربعين سِيق بالطُّموح، وإذا كان

[٢٠*] الميقان: الذي لا يسمع شيئًا إلا أيقنَ به.

في الخمسين سِيق بالطَّمع، فمتى يسعى في طلب الحكمةِ حَصْرًا؟ طُوبى لمن يُساق إليها على الرغم منه! وليكُن المرشِدُ من أيِّ قبيلٍ كان على أن يسوقه إلى الغاية، وقد أدَّى الأبطال والحكماء أنفُسهم هذه الجِزْيَة إلى الضَّعْف البشري، وليس مَن أدارتْ أصابعُهم مَبَارِمَ أقلَّ من هؤلاء عظمةً لهذا السبب.

وإذا أردتم أن تَبسُطُوا على الحياة كلِّها عَمَلَ تربيةٍ مُوفَّقة، فأطيلوا في دَور الشباب عاداتِ دَوْر الصِّبا الصالحة، ومتى كان تلميذُكم ما يَجبُ أن يكون فافعلوا ما يكون عَيْنَه في جميع الأوقات، وهذا هو آخرُ ما يبقى عليكم أن تكملوا به صُنْعكم؛ ولهذا فإنه يكون من المهمِّ على الخصوص ترْكُ مُرَبٍّ للشبان؛ وذلك لأنه يُخشى بعضَ الشيء ألَّا يَعْرِفوا القيامَ بالحبِّ بغيره. ويتطرَّق الخطأ إلى المُرَبِّين، ولا سيَّما الآباء، مِن ظنِّهم أن طرازًا للحياة يجعل طرازًا آخرَ لها أمرًا متعذرًا؛ فمتى كَبِرَ الولدُ وَجَب أن يُعْدَل عن كلِّ ما كان يُصنَع له في صِغَره، وإذا كان هذا صحيحًا فما نَفْعُ العنايةِ بدَور الصِّبا ما دام يَزُول بزواله ما يُصنَع من صالحه وطالحه، وما دامت تُتَّخَذُ طُرُزٌ للتفكيرِ أخرى باتخاذِ طُرُزٍ للحياة مختلفةٍ عن تلك كلَّ الاختلاف؟

وكما أنه لا يَحُلُّ الذاكرةَ غيرُ الأمراض الكبيرة، فإنه لا يوجد غيرُ الأهواء الكبيرة ما يَحُلُّ الأخلاقَ، ومع أن أذواقَنا ومُيُولَنا تتغيَّر فإن هذا التغيُّر الذي يكون مفاجئًا أحيانًا، يُلطَّفُ بالعادات، ويجب على المتفننِ الماهرِ أن يَجعَلَ الانتقالاتِ في تَعاقُب ميولنا أمرًا لا يُشعَرُ به، كما يُتدَرَّج في الألوان تدَرُّجًا صالحًا، فيخلِط بين الأصباغ ويَمْزُج بعضَها ببعض، وأن يَبسُطَ كثيرًا منها على أثره لكيلا يَنفصل أيٌّ منها، وقد أيَّدَت التجربة هذه القاعدةَ؛ فمن يُجاوِزون حَدَّ الاعتدال يُغيِّرون في كلِّ يوم عواطفَهم وأذواقهم ومشاعرهم، فلا شيءَ ثابتٌ عندهم غيرَ عادةِ التغيير، وأمَّا الرَّجل المتَّزِن فيعودُ إلى عاداته السابقة دائمًا ولا يَفْقِد حتى في مَشِيبه ذوْقَ الملاذِّ التي كان يُحِبُّها وهو صبي.

وإذا ما صنعتم عند الانتقالِ إلى دَوْرٍ جديدٍ من العُمُر ما لا يزدري الشُّبَّانُ معه دَوْرَ العُمُرِ السابق مطلقًا، وما لا يتركون معه سابق العادات عند إيلافِهم عاداتٍ جديدة، وما يُحِبُّون معه فِعْلَ الخيرِ دائمًا غيرَ ناظرين إلى الوقت الذي بَدَءوا فيه؛ فهنالك فقط تُنقِذون عملَكم وتَطْمئنون إليهم حتى آخرِ أيامهم؛ وذلك لأن أكثرَ ما يُخشَى من ثورةٍ هو ثورةُ العُمُر الذي تَرقُبونه الآن، وبما أنه يُؤسَف عليه دائمًا فإن من الصعب أن يُقضى على الأذواق التي يُؤتى بها إليه من دَوْر الصِّبا، ولكنها لا تَعُود إذا ما قُطِعت.

وليس من العادات الحقيقية معظمُ العادات التي تَظُنُّون أنكم تُلقِّنون الأولادَ والشُّبانَ إياها؛ وذلك لأنهم إذْ لم يَتلقَّوْها إلا كُرْهًا، ولأنهم إذ يتَّبِعونها على الرغم منهم، لا ينتظرون غيرَ فرصةِ التخلُّص منها، فلا يُعتَنَق ذوقُ البقاء في السجن عن فِعْل الإقامة به؛ فالعادةُ هنالك تزيد النفورَ بدلًا من نقصه. وليس هذا حالَ إميلَ الذي لم يصنع شيئًا في صباه إلا طوعًا وبلذة، فلما صار رجلًا داومَ على عيْنِ الفعل، ولم يعملْ غيرَ إضافة سلطان العادة إلى ألطاف الحرية، وقد بَلَغ من احتياجه إلى الحياة الفعَّالة وإلى عمل الذراعين وإلى التمرين والحركة ما لا يَترُك معه هذه الأمورَ من غير أن يألم، وينطوي إلزامُه من فوْره بحياةٍ ناعمةٍ حضريةٍ على سجْنه وتقييده وإلقائه في حالٍ من الشدة والقهر. ولا رَيْبَ عندي في فسادٍ يُصابُ به، مِزاجًا وصحةً على السواء. وهو إذا ما كاد يكون قادرًا على التنفُّس هنيئًا في غُرْفةٍ مُقْفَلةٍ تمامًا احتاج إلى الهواء الطَّلْق وإلى الحركة والعَناء، حتى إنه إذا ما كان راكعًا أمام صوفيةَ لم يستطِع أن يمنع نفسه من إلقاءِ نظرةٍ إلى الحقول في الحين بعد الحين مع رغبةٍ في أن يجوبَها معها، ومع ذلك فإنه يَبقى حينما يجب البقاء، ولكنْ مع غمٍّ واضطراب، ويلوح أنه يَنْتفِض بقَصْد التملُّص، وهو يَبْقى لأنه مُوثَقٌ بالقيود، وسوف تقولون: «إذنْ، هذه احتياجاتٌ قد أخضعتَه لها، وهذه عبوديَّاتٌ قد حبوْتَه بها.» وجميعُ هذا صحيح، وإنما جعلتُه خاضعًا لحال الرجولة.

أجلْ، إن إميلَ يُحبُّ صوفية، ولكن ما الفُتُون الأوَّل الذي ربَطه بها؟ الحُنو والفضيلة وحُب الأمور الصالحة، وهو إذا أحبَّ هذا الحُبَّ في صاحبته فهل يفقده في نفسه؟ وما الثَّمَن الذي تَضَعُ صوفيةُ لنفسها بدَوْرها؟ إنها تضع جميعَ المشاعر التي تُسَاور قلبَ عاشقها من تقدير الأمور الصالحة والقناعة والبساطة والخُلوِّ من الغَرَض وازدراء البذخ والثراء، وكانت هذه الفضائلُ موجودةً في إميل قبْل أن يَفْرِضه الحبُّ عليه، وفيمَ يكون إميل قد تغيَّر في الحقيقة؟ لديْه أسبابٌ جديدةٌ يكون بها إياه، وهذه هي النقطة الوحيدة التي يَخْتلف بها عمَّا كان عليه.

ولا أتصوَّر استطاعةَ أحدٍ حين يقرأ هذا الكتابَ بشيءٍ من الدِّقة أن يعتقد أن جميع الأحوال التي تكتنِف الوضعَ الذي يكون عليه قد تجمَّعَت حوْله مصادفةً على ذاك الوجه، وهل من المصادفة أن توجَد هذه الفتاةُ التي تروقُه في صميمِ مكانٍ منعزلٍ ناءٍ مع تقديم المدن كثيرًا من البنات اللطيفات؟ وهل لَقِيَها مصادفة؟ وهل توافقَا مصادفة؟ وهل من المصادفة ألَّا يستطيعا الإقامةَ بعيْن المكان؟ وهل من المصادفة ألَّا يَجِدَ ملجأً إلا في مكانٍ بعيدٍ منها؟ وهل من المصادفة ألَّا يراها إلا نادرًا، وأن يُضطَرَّ إلى اشتراء نِعمَةِ رؤيتها أحيانًا

بمتاعبَ كبيرة؟ أنتم تقولون إنه يتخنَّث، وهو على العكس يتخشَّن، ويجب كذلك أن يكون من الاشتداد كما نشَّأتُه حتى يقاومَ المشاقَّ التي تَحْمِلُه صوفيةُ على احتمالها.

هو يَسكُن منزلًا بعيدًا فرسخَيْن منها، وهذه المسافةُ هي كِيرُ الحدَّاد، وبهذه المسافة أُسَقِّي سهامَ الحُبِّ، ولو كان كلٌّ منهما جارًا للآخر، أو لو كان قادرًا على الذهاب لرؤيتها، جالسًا على فراشٍ وثيرٍ داخل عربةٍ فاخرةٍ لأحبَّها حُبًّا مُريحًا؛ أيْ لأحبَّها على الطريقة الباريسية. وهل كان لِيانْدِرُ يَطلُب الموتَ من أجْل هِيرو لو لم يَفْصِله البحرُ عنها؟ فيا أيها القارئ، اكْفِني مئونةَ الكلام، فإذا كنتَ قد كُوِّنْتَ لإدراكي اتَّبَعتَ بما فيه الكفاية مبادئي كما فصَّلتُ.

وكُنَّا في المرات الأُولى التي ذهبنا فيها لرؤية صوفيةَ قد رَكِبْنا خيلًا للسير بسرعة، ونجد هذه الوسيلةَ ملائمة، ونداوم على ركوب الخيل حتى المرة الخامسة، وكُنَّا ننتظر، ونشاهد أناسًا في الطريق على مسافةِ نصفِ فرسخٍ من البيت. ويلاحظ إميلُ، ويَخْفِق قلبُه، ويدنو، ويَعْرِف صوفيةَ، ويترجَّل بسرعة، وينطلق، ويطير، ويصل إلى الأسرة المحبوبة، ويحب إميلُ جيادَ الخيل، ويكون جوادُه رشيقًا، ويشعر بأنه طليق، ويَهرُب عدْوًا من خلال الحقول، وأتبَعه وأبْلُغُه بعناء وأُعِيده. ومن المؤسِف أن صوفيةَ تخاف الخيلَ، فلا أجرؤ على الاقتراب منها، ولا يُبْصر إميلُ شيئًا، ولكن صوفية تُسِرُّ إليه في أُذُنِه بما تَرَك لصديقه من مشقة، ويُسرع إميلُ خَجِلًا ويتسلَّم الخيل، ويفترق عنَّا ويكون أوَّلَ مَن يذهب للخلاص من مطايانا، وهو إذ تركَ صوفيةَ وراءه على هذا الوجه عادَ لا يجد الحِصانَ مَرْكبًا مُريحًا، ويعود لاهثًا، ويلاقينا في منتصف الطريق.

وفي الرحلة الآتية يعود إميلُ راغبًا عن الخيل، وأقول له: «لماذا؟ ليس علينا إلَّا أن نأخذ خادمًا للالتفات إليها.» ويقول: «آه! أَوَنُرهِقُ الأسرةَ الكريمةَ مصروفًا على هذا الوجه؟ وأنت ترى جيِّدًا أنها تريد إطعامَ الجميعِ من خيلٍ وآدميين.» وأردُّ عليه بقولي: «أجلْ، إن عندهم نُبلَ قِرَى الفقراء. أجلْ، إن الأغنياء البخلاء في أُبَّهتِهم لا يُؤوون غيرَ الأصدقاء، ولكن الفقراء يُؤوون أيضًا خيلَ الأصدقاء.» ويقول: «لِنَسِرْ على الأقدام، ألَا تُقدِمُ على هذا أنت الذي يُقاسِم مَسارَّ ابنِهِ المُتعِبةَ طيِّبَ الخاطر؟» وأقول معقِّبًا من فوري: «أذهبُ عن رضًا، وكذلك الحب لا يُريد كما يَلوح لي أن يقع مع كثيرٍ من الضوضاء.»

وندنو فنجِدُ الأمَّ والبنتَ أبعدَ مما كانتا عليه في المرة الأُولى، وقد أتينا كالسهم، ويكون إميلُ غارقًا في عَرَقه، وتتفضَّل يدٌ عزيزة بإمرارِ منديلٍ على خدَّيه، فستوجَد خيلٌ كثيرٌ في العالَم قبل أن نُغوَى بالانتفاع بها بعد الآن.

ومع ذلك، فإن من القسوة ألَّا نستطيع قضاء السهرة معًا؛ فقد أخذ الصيف ينقضي، وقد أخذت النُّهُرُ تنقُص، ومهما يمكننا من قولٍ فإنه لا يُسمَحُ لنا بالرجوع من هناك ليلًا مُطلَقًا، وإذا لم نَفِدْ منذ الصباح وجب العودُ حين وصولِنا تقريبًا. وأخيرًا يَعِنُّ للأم عن توجُّعٍ لنا وقلقٍ من أجلنا أنه وإن كان من غير اللائق أن نقيم بالمنزل، يُمكِن أن يُوجَد لنا مَسكنٌ في القرية كيما ننامُ فيه أحيانًا، ويُصفِّقُ إميلُ عند سماع هذه الكلمة، ويَطْرَب، وتُقبِّل صوفيةُ أمَّها أكثرَ من المعتاد لهذه الوسيلة التي وجدَتْها.

ويقوم لطفُ الصداقة ودَلُّ الطُّهْر ويَثْبُتان بيننا مقدارًا فمقدارًا، وأجيءُ عادةً مع صديقي في الأيام التي تُعَيَّنُ من قِبَل صوفية أو أمِّها، وأدَعه يذهب وحدَه أحيانًا، والاعتماد يرفَع الرُّوح، وعاد لا ينبغي أن يُعامَل الرجلُ مثلَ ولد، وما أكون قد أنجزت حتى الآن إذا كان تلميذي لا يستحقُّ إكرامي؟ ومما يحدُث أن أذهب من غير أن يكون معي، وهنالك يغتمُّ ولا يتذمَّر، وما فائدتُه من التذمُّر؟ ثُمَّ إنه يَعْرِف جيِّدًا أنني لا أصنعُ ما يؤذي مصالحه، واعْلَمْ أنه لا جوَّ يعوقُنا، سواءٌ علينا أذهبنا معًا أم على انفراد، وكلٌّ مِنَّا فخورٌ بالوصول في حالٍ يُرْثى لها. ومن دواعي الأسف أن تَحرِمنا صوفيةُ هذا الشرف؛ فهي تمنعنا من المجيء إذا كان الجوُّ رديئًا، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي تتمرَّد فيها على القواعدِ التي أُمليها عليها سِرًّا.

ومما وقعَ ذاتَ يومٍ أن ذهب وحدَه وأنني لم أنتظر رجوعَه إلا في الغد، فأراه يعود في ذات المساء، وأقول له معانقًا: «ماذا! أراك ترجعُ إلى صديقك!» ولكنه بدلًا من أن يجيبَ عن ملاطفاتي قال لي مع قليلِ مِزاجٍ: «لا تَظُنَّ أنني أعود بهذه السرعة مختارًا، بل أعود على الرغم منِّي؛ فقد أرادت أن أجيء، وإني أجيءُ من أجْلها لا من أجْلك.» وأتأثَّر من هذه السذاجة، وأعانقه ثانيةً قائلًا له: «أيتها النفسُ الصدوق، أيها الصديق المخلِص، لا تكتم عني شيئًا يتعلَّق بي، إذا كنتَ قد أتيتَ من أجْلها فإنك تقول هذا من أجْلي. أجلْ، إن رجوعك مِن عملِها، ولكنَّ صراحتَك من عملِي، فحافظْ على هذه السَّريرةِ الجديرةِ بالنفوس الطيبة إلى الأبد. أجلْ، يمكن أن يُترَك للأخلياء أن يُفكِّروا كما يشاءون، ولكنَّ من الإجرام أن يُطاقَ جعْلُ الصديقِ لنا مَزِيَّةً عن شيءٍ لم نَصنعْه من أجْله.»

وأحترزُ من تنزيل قيمةِ هذا الاعتراف في نظره بأن وَجَدْتُ فيه غرامًا أكثرَ من أن أجِد كَرَمًا، وبأن أقول له إنه يريد أن يُجرِّد نفْسه من شَرف هذه العودة أقلَّ من أن يحبوَ به صوفية، ولكنه يَكشِف لي عن سريرته من حيث لا يدري ببيانه أنه إذا ما جاء على مَهْلٍ

وبخطًى ضيقة حالِمًا بحبه لم يكن غيرَ عاشقٍ لصوفية، ولكنه إذا ما وصل بخُطًى واسعةٍ نَزِقًا مع هَمْهَمةٍ كان صديقًا لمُرشده.

وتَروْن بهذه التدابير أن فتايَ بعيدٌ من قضاء حياته بجانب صوفية ومن رؤيتها بمقدارِ ما يُريد، وكلُّ ما يُسمَحُ له به هو أن يقومَ برحلةٍ أو رِحلتَين إليها في الأسبوع الواحد، وفي الغالب تَدوم زياراتُه نصفَ نهار، ومن النادر أن تمتدَّ إلى الغد. ويقضي وقتَه في رجائه أن يَراها أو في تهنئته نفسَه بأنه رآها أكثرَ مما في رؤيتها فِعلًا، حتى إنه في الوقت الذي يُخصِّصُ لرحلاته يقضي من الزَّمن في ذهابه وإيابه أكثرَ مما يقضي بجانبها. والواقع أن لهوَه الصحيحَ الطاهرَ اللذيذَ، ولكن مع كونه حقيقيًّا أقلَّ منه خياليًّا، يُثير حبَّه أكثرَ من أن يُخنِّث قلبَه.

ولا يكونُ في الأيام التي لا يراها فيها متعطِّلًا ولا مُتحضِّرًا مُطلَقًا، بل يكون إميل أيضًا؛ أيْ إنه لا يكون متحوِّلًا قطعًا؛ فهو يجوب الأرياف المجاورة غالبًا، فيتتبَّع التَّارِيخَ الطبيعي، فيلاحظ الأرَضين ويفحَصُها، ويفحص محصولاتها وزراعتها، وهو يُقارِن بين الأعمال التي يرى والأعمال التي يَعْرِف، وهو يبحثُ عن أسباب الفروق، فمتى أبصرَ أساليبَ أخرى أفضلَ من التي في المكان أطلَع الزُّرَّاعَ عليها، وإذا اقترح شكلًا أصلحَ للمِحراث حَمَلَ على صُنْع ما يلائم رسمه، وإذا وجدَ مَقْلَعًا من سِجِّيلٍ[٢١*] علَّمَهم كيف يستعملونه في البلد. وما أكثرَ ما يباشر العملَ بنفسه، فيُدهَشون كلهم من استعماله آلاتهم بأسهلَ مما يفعلون بأنفسهم، ومن شَقِّه أتلامًا أعمقَ من أتلامهم وأضيقَ وأكثرَ استقامةً، ومن إلقائه البَذْرَ إلقاءً أكثرَ تساويًا، ومن توجيهه التربةَ المنقولةَ بلصْقِ حائطٍ على شكلٍ مُنحدرٍ للزَّرْع توجيهًا أكثرَ لقانةً. وهم لا يَسْخرون من كونه كثيرَ الحديثِ في أمرِ الزراعة؛ فهم يرون أنه يَعْرِفها حقيقةً. والخلاصة أنه يُوسِّع مدى هِمَّته وجهوده في كلِّ ما تأتي فائدته في المرتبة الأُولى وتكون عامَّة، حتى إنه لا يقتصر على ذلك؛ فهو يزور بيوتَ الفلاحين ويقفُ على أحوالهم وعلى شئون أُسَرِهم وعدد أولادهم، وعلى مقدارِ أرَضيهم وطبيعةِ محصولهم، وعلى أسواقِهم وأرزاقهم، وعلى أعبائهم وديونهم ... إلخ. وهو يُعطي نقدًا قليلًا عارفًا سوءَ استعماله عادة، ولكنه يُدير أمرَ استعماله بنفسه جاعلًا إياه نافعًا لهم مع وجود نَقْدٍ لديهم، وهو يزوِّدُهم بعُمَّال، وهو في الغالب يدفع إليهم أجورَهم اليومية عن الأعمال التي

[٢١*] السِّجِّيل: الطين اليابس المؤلَّف من كربونات الكلس والصلصال والرمل.

يحتاجون إليها، فيحمِلُ الواحدَ منهم على إقامةِ كُوخه نصفِ الهابطِ أو على سَقْفه، ويحمل آخَرَ على إحياء أرضه المهجورة عن فَقْر، ويُقدِّم إلى آخرَ بقرةً أو فرسًا أو ماشيةً بدلًا مما فَقَد، وإذا أوشك جاران أن يتقاضيا توجَّه إليهما وأصلحَ بينهما، وإذا مَرِضَ فلَّاحٌ حمل على معالجته، أو داواه بنفْسِه،[٢٢] وإذا ظَلَمَ جارٌ قويٌّ جارَه الضَّعيفَ حَماه وأوصى به، وإذا ما تحابَّ شابَّان ساعدَهما على الاقتران، وإذا ما فَقَدَت أمٌّ ولدَها العزيز زارها وعزَّاها ولم يخرُج من عندها بُعَيْدَ دخوله، وهو لا يزدري المُعْوِزين مطلَقًا، وهو لا يُسْرِع في ترْكِ البائسين مُطلَقًا، وهو يتناول طعامَه في الغالبِ عند مَن يساعد من الفلاحين، وهو يَقْبَل كذلك دعوةَ مَن ليسوا محتاجين إليه، وهو إذ يصيرُ مُحسِنًا إلى بعضهم وصديقًا لآخرين لا يَنْفَكُّ يكون مساويًا لهم، والخلاصة أنه يصنع الخيرَ بشخصه كما يصنعه بماله.

ومما يَحْدُث أحيانًا أن يُوجِّه جولاتِه نحوَ البيت السعيد، فيمكنه أن يرجو مشاهدة صوفية خِفيةً وأن يراها من غيرِ أن تراه، بَيْدَ أن إميل لا ينحرف في سلوكه، وهو لا يَعْرِف المواربةَ ولا يُريدها، وهو يتصف بتلك اللطافة السائغة التي تُداري حُبَّ الذات وتُغذِّيه بحُسْن الشعور. وهو يتقيَّد بحدود الإقامة تقيُّدًا وثيقًا، وهو لا يدنو دُنوًّا كافيًا ليظفر مصادفةً بما يرغب في نَيْله من صوفية نفسها، وهو عِوَضًا من ذلك يَجول في الجِوار طيِّبَ الخاطرِ باحثًا عن آثارِ خُطَى صاحبتِه، راقًّا لما تُلاقي من مَشَاقَّ وللجَوْلات التي تفضَّلتْ فقامت بها لمجاملته. وهو يذهب عشيَّةَ الأيام التي يجب أن يراها فيها إلى مزرعةٍ مجاورةٍ ليوصي بوجبةٍ خفيفةٍ للغد، وتسير النزهة إلى تلك الناحية من غير أن يُشعَر بذلك، ويُدْخَلُ هنالك كما لو وَقَع هذا مصادفةً. وتُوجَد فواكه وحلوى وقِشْدة، وتُحِبُّ صوفية الأطعمة اللذيذة فلا تكون غيرَ مكترثةٍ لهذه الالتفاتات، فتبتهج بما كان من استعدادنا. وأنالُ نصيبي من المجاملة وإن لم أشترِكْ في الجُهْد الذي استوجبها، وهذا أسلوبٌ تتخذه فتاةٌ صغيرةٌ لكيلا تجدَ حَرَجًا في الشكر. ونأكل أنا والأب من الحلوى ونشرب من الخمر، ولكنَّ إميلَ من حصة النساء، فيترقَّب ليسترِقَ طبقًا من القشدة التي غُمِسَت فيها مِلعقةُ صوفية.

[٢٢] لا تَعني مداواةُ الفلاحِ المريضِ إعطاءه مُسهِّلًا، أو تقديمَ عقاقيرَ إليه، أو إرسالَ طبيب إليه، وليس هذا ما يحتاج إليه هؤلاء المساكين في أثناء مرضهم، وإنما يحتاجون إلى غذاءٍ أحسنَ مما عندهم وأوفر. والصومُ خيرُ ما تصنعون عندما تُصابون بالحمَّى، ولكنَّ فلاحيكم إذا ما أُصيبوا بالحمَّى أعْطُوهم لحمًا وخمرًا؛ فجميع أمراضهم تنشأ عن البؤس والضنى، ويكون خيرُ شراب لهم في قَبْوكم، ويكون جزارُكم صيدليَّهم الوحيد.

وتَسُوقني الحَلوى إلى الكلام عن مبارياتِ إميلَ السابقة، ويُرادُ أن يُعْرَف ما هذه المباريات، وأُوضِحها ويضحكون، ويُسأل عن كوْنه لا يزال قادرًا على العَدْو، ويجيب بقوله: «أحسن مما في أيِّ وقتٍ كان، ومما يَغِيظُني كثيرًا أن أنساه.» ويرغب أحدُ الأصحاب أن يراه، ولا يجرؤ على قول هذا، ويأخذ آخرُ على عاتقه أن يقترح هذا، ويَقْبَل، ويُجمع له اثنان أو ثلاثةٌ من الجِوار، وتُعْرَض جائزة، وتُوضَعُ قطعةٌ من الحلوى على الهدف كما كُنَّا نصنع في الألعاب السابقة، ويستعِدُّ كلُّ واحد، ويُعطي أبو صوفية الإشارةَ بتصفيقه، ويُسابِقُ إميلُ الرشيقُ الريحَ، ويَبْلُغ الهَدفَ قبْل أن يأخذَ الثلاثة الغِلاظ في الانطلاق، ويتناول إميلُ الجائزةَ من يدِ صوفية، ولا تكون أقلَّ كَرَمًا من إنْياسَ، فتُقدِّمُ هدايا إلى جميع المغلوبين.

وفي أثناءِ سَناءِ هذا الفوز تَجرؤ صوفية على تحدي الفائز، فتتبجَّحُ بأنها تستطيع العدوَ جيِّدًا مثله، ولا يرفِض خوضَ الوغَى معها مُطلَقًا، وبينا هي تستعد للقيام بهذا الأمرِ الصعبِ فتُشمِّرُ ثوبَها من الناحيتين، وتكون أحْرَص على إظهارِ ساقٍ دقيقةٍ لإميلَ مما على قهْره في هذه المبارزة، فتنظر هل تَنُّورَتها[٢٣]* قصيرةٌ بما فيه الكفاية. ويُسِرُّ إلى الأمِّ بكلمة، فتبتسم وتُبدي إشارةَ استحسان، وهنالك يضع نفْسه بجانب منافِسته، ولم تَكد الإشارةُ تُعطى حتى يُرى انطلاقها كالعُصفور.

ولم يُخلَق النساءُ للعَدْو، وهنَّ إذا ما هَرَبْن فلكي يُدرَكْنَ. وليس العَدوُ هو الشيء الوحيد الذي لا يُتقِنَّه، ولكنه الشيء الوحيد الذي يَقُمْن به مع عدم لباقة، وذلك أن مَرافقهن، إذ تكون مُلصَقةً ببدنِهن نحوَ الخلف، تَمنحُهن وضْعًا موجِبًا للضَّحِك، وأن كعوبهن العالية التي يَقُمْنَ عليها تُظهِرُهن كالجراد الذي يحاول العَدْوَ من غير أن يَثِب.

ولا يَتَصوَّر إميلُ أن صوفية تَعْدو خيرًا من النساء، فلا يتنازل أن يَخرُج من مكانه، وهو يراها تنطلق مُتبَسِّمًا ساخرًا، ولكن صوفية خفيفةٌ وتَلْبَس كعبَين وطيئَين، وهي لا تحتاج إلى حيلةٍ حتى تَظهَرَ ذاتَ رِجْلٍ صغيرة، وهي تبلُغُ من سرعةِ العَدْوِ ما لم يكن لديه غيرُ ما يحتاج إليه من الوقت لإدراك أتَلَنْتَة الجديدة التي يُبصِرُها بعيدةً كثيرًا منه، وينطلق بدوره إذن مشابهًا للنَّسْر الذي ينقضُّ على فريسته، ويتعقَّبها ويطاردها، وأخيرًا يُدرِكُها ضيِّقةَ النَّفس، ويضع ذراعه اليُسرى حولها برفقٍ ويرفعها كريشةٍ ويَضُمُّ هذا

---

[٢٣] * Jupe.

الحِمْل اللطيفَ إلى فؤاده، ويُتِمُّ العَدْوَ هكذا، ويجعلُها أَوَّلَ مَن يَمَسُّ الهدف، ثُمَّ يهتف قائلًا: «الفوزُ لصوفية!» ويركع على ركبةٍ واحدةٍ أمامها ويعترف بأنه المغلوب.

وتُضاف إلى هذه الأشاغيل المختلفة أُشْغُولةُ الحِرْفة التي تعلمناها، فإذا ما عَدَوتَ يومًا واحدًا في الأسبوع على الأقل مع جميع الأيام التي لا يَسْمَحُ لنا الجوُّ الرديءُ بأن نسعى في الحقول، فإننا نذهب، أنا وإميلُ، للعملِ عند مُعَلِّم، ونحن لا نشتغل شكلًا كما يشتغل مَن يَعْلُون هذه الحرفة، ولكننا نشتغل جِدِّيًّا مثلَ عُمَّالٍ حقيقيين. ويأتي أبو صوفية ليرانا فيجدنا جادَّيْن في العمل، فلا يُعوِزُه أن يَروي لزوجته وابنته ما رأى روايةَ المُعجَب، وهو يقول لهما: «اذهبا وانظرا هذا الشابَّ في المصنع لترَيا هل يزدري حال الفقير!» ومن الممكن أن يُتصوَّر ما تَسمع به صوفيةُ هذه الكلمةَ مع الارتياح! ويتكلمون في الموضوع ثانية، وتُرادُ مباغتته في أثناء عمله، وأُسْأَل من غير وجودِ غرضٍ خاصٍّ ظاهرًا، وتَتثبَّت الأمُّ والبنتُ في أمرِ يومٍ من أيامنا، ويركبان عربة، ويأتيان إلى المِصْر في ذات النهار.

وتَدخل صوفية المصنع فتشاهد في الطَّرَف الآخر شابًّا لابسًا سُترة، مُهمِلًا تسريحَ شَعْره، بالغًا من الجِدِّ في عمله ما لم يُبصِرها معه قَط. وتقف، وتأتي بإشارةٍ لأمِّها، ويكون إميلُ حاملًا إزميلًا بيدٍ ومِطرَقةً باليد الأخرى، فيُتِمُّ فرضَ خشبة، ثمَّ يَنشُر لوحًا ويضعُ قطعةً منه تحت المِلْزَمة لِصَقْلها، ولا يُثيرُ هذا المنظرُ ضَحِكَ صوفية مطلقًا، بل يُؤثِّر فيها ويستوجب احترامها. فيا أيتها المرأة، أكرمي زوجك؛ فهو يعمل من أجْلك ويكسِب خبزَك ويُطعِمُك، وهذا هو الرجل.

وبينما كانتا تُلاحظانه بدقةٍ أُبصِرُهما، فأجُرُّ إميلَ من كُمِّه، ويلتفت ويراهما، ويَطرَحُ الآلات جانبًا، ويطير إليهما هاتفًا مسرورًا، ويُقعِدُهما بعد أن أسلَم نفْسَه إلى فرحِه الأوَّل، ويستأنفُ عمله، ولكن صوفية لا تَصْبِرُ على البقاء جالسة، فتنهضُ برشاقةٍ وتجوب المعملَ وتفحَص الآلات، وتَمَسُّ الألواح المصقولة، وتلُمُّ نُشارَةً من الأرض، وتنظُر إلى أيدينا وتقول إنها تُحِبُّ هذه الحِرفة لأنها نظيفة، حتى إن هذه اللَّعوبَ تحاول تقليدَ إميل، فتدفع مِنْحَتًا على اللوْح، ويَزْلَقُ المِنْحَتُ ولا يَقرِضُ مُطلَقًا، ويلوح لي أن الحُبَّ نفسه يُحلِّق فوقنا ويُصفِّق بجناحيه، ويلوح لي أنني أسمعه يهتِفُ ابتهاجًا قائلًا: «أُخِذَ ثأرُ هِرْكول.»

ومع ذلك، فإن الأمَّ تسأل المُعلِّمَ: «ما أجرةُ هذين العاملَين يا مُعلِّم؟» «أدفَعُ إلى كلٍّ منهما عشرين دانقًا عن كلِّ يوم يا سيِّدتي، فضلًا عن طعامهما، ولكن هذا الشابَّ يكسِب أكثرَ مما يأخذ بدرجاتٍ لو أراد؛ فهو أحسنُ عاملٍ في البلد.» وتقول الأمُّ وهي تنظر إلينا بحنان: «عشرون دانقًا في اليوم وتُطعِمُهما!» ويَرُدُّ المُعلِّم عليها بقوله: «أجلْ، إن الأمر هكذا

يا سيِّدتي.» وتُهْرَع إلى إميلَ عند سماع هذه الكلمة وتعانقه وتَضمُّه إلى صدرها وهي تُفِيض عليه من دمْعها، فلا تستطيع أن تقول له شيئًا آخرَ غيرَ تكرارِها كثيرًا كلمة «ابني! ابني!»

وتقول الأمُّ لبنتها بعد قضائهما بعضَ الوقت في الحديث معنا، ولكن من غيرِ أن تَقْطعا عملنا: «لِننصرِفْ من هنا؛ فقد تأخَّرنا، ولا يجوز أن نَحْمِلَ الأبَ على انتظارنا.» ثُمَّ تدنو من إميلَ وتضربه ضربةً خفيفةً على خدِّه وهي تقول له: «حسنًا! أيها العامل الصالح، ألَا ترغب في المجيء معنا؟» ويجيبها بلهجة الملهوف: «إنني مُتقَبِّلٌ لعمل، فاسألي المُعلِّم.» ويُسأل المُعلِّمُ عن إمكانِ تَفضُّلِه بالاستغناءِ عنَّا، فيجيب بأنه لا يستطيع ذلك، وقد قال: «يُوجَد عملٌ مستعْجَلٌ يجب أن أنجِزه بعد يومين، وقد اعتمدت على هذين السيدَين فرفضتُ عُمَّالًا عَرَضوا أنفسهم، فإذا أعْوَزني هذان العاملان لم أدْرِ أين أجِد مَن يقوم مقامهما، ولم أستطِع تسليم العمل في اليوم الموعود.» ولم تُجب الأم بشيء، وتنتظر قولًا من إميل، ويَخفِضُ إميل رأسه ويَسكت، وتقول له مع بعض الحَيرة من هذا الصمت: «أليس عندك ما تقول لهذا؟» ويَنظر إميلُ نظرَ حنانٍ إلى ابنتها، ولا يَنطِق بغير كلمة: «يجب أن أبقى كما تَرَيْن.» وهنالك تَنْصرِف السيدتان، ويُشيِّعهما إميلُ حتى الباب، ويُتبِعهما بعينيه ما استطاع، ويتأوَّه، ويعود إلى العمل من غير أن يَنبِس بكلمة.

وتألَم الأم، فتُحدِّث ابنتَها في الطريق عن غرابة هذا الأسلوب، وتقول: «ماذا! أكان من الصعب كثيرًا إقناعُ المُعلِّم فلا يُضطرُّ إلى البقاء؟ أفلا يَجِدُ هذا الفتى المِتْلافُ الذي يُنفِق المالَ بلا ضرورة، ما يَستعمِل منه في الأحوال المناسبة؟» وتجيب صوفية بقولها: «أُمَّاه! معاذَ اللهِ أن يَعتمد إميلُ على المال وأن يَنتفعَ به فينقُضَ عهدًا شخصيًّا ويُخلِفَ قولَه بلا عقابٍ ويَحْمِلَ آخرَ على نَقْضِه! أجلْ، إنني أعْرِف أنه يَسهُلُ عليه أن يُعوِّض المُعلِّمَ من ضررٍ طفيفٍ ينشأُ عن غيابه، ولكنه يُعبِّدُ نفسَه بذلك للثراء، فيتعوَّدُ وضْعَه في مكانِ واجباته، ويعتقد أنه يُعفَى من كلِّ شيءٍ إذا ما دفع مالًا. يُوجَدُ لإميلَ أساليبُ أخرى في التفكير، فأرجو ألَّا أكون سببَ تغييره لها. أَوَتظنين أن بقاءه لا يكلِّفه شيئًا؟ أمَّاه، لا تركبي متنَ الخطأ؛ فهو قد بقيَ من أجْلي، وقد أبصرتُ ذلك في ناظريه.»

ولا يَعني ذلك كونَ صوفيةَ متساهلةً في دلائلِ الحبِّ الحقيقية؛ فعلى العكس تجدُ صوفيةَ متجبِّرةً طَلوبًا، فُتفضِّلُ ألَّا تُحَبَّ على أن تُحَبَّ باعتدال، وهي تتصف بزَهْوِ المَزيَّةِ النبيلِ الشاعرِ بنفسِه والمُقدِّرِ لذاته والذي يُريد أن يُكرَم كما يُكرِم نفسَه، وهي تزدري قلبًا لا يَعْرِف قيمةَ قلبها ولا يُحِبُّها من أجْل فضائلها حُبًّا يَعدِل فُتُونها أو يزيد، قلبًا لا يُفضِّل

عليها واجبه الخاص، قلبًا لا يُفضِّلها على كلِّ شيءٍ آخر، وهي لا ترغب مُطلَقًا في عاشقٍ لا يَعْرِف سلطانًا غيرَ سلطانها، وهي تريد أن تهيمن على رجلٍ لم يُفسدْ بها قَط؛ فعلى هذا الوجه ازدرتْ سِيرْسِه أصحابَ أُوليسَ بعد إذلالها لهم، فوَهَبَتْ نفسَها له وحدَه لعدم استطاعتها أن تُغيِّرَه.

ولكنك إذا عَدوتَ هذا الحقَّ المَصونَ المُقدَّسَ وجدتَ صوفيةَ غيورًا على جميع حقوقها؛ فهي تَرقُب، مع التدقيق، مقدارَ احترامِ إميل لهذه الحقوق، ومقدارَ ما يَبذلُ من هِمَّةٍ في تنفيذ رغائبها، ومقدارَ حِذْقه في حَزْرِه لهذه الرغائب، ومقدارَ انتباهه إلى الوصول في الدقيقة المقرَّرة؛ فهي لا تريد أن يتأخَّر أو يتقدَّم، وإنما تريدُ أن يكون مُدَقِّقًا. إهمالُ صوفية هذا لا يقع مرتين، وكلُّ شكٍّ جائرٍ يساورها يقضي على كلِّ شيء، ولكن صوفية مُنصِفة، ولكن صوفية تَعرف كيف تُصلح خطأها.

ونُنتَظَر ذاتَ مساء؛ فقد تلقَّى إميلُ الأمر، ويُؤتَى لاستقبالنا، ولا نَصِل مُطلَقًا، وماذا حدث لنا؟ وأيةُ بليةٍ أُصِبنا بها؟ لا أحدَ من ناحيتنا، ويُقضى المساء في انتظارنا، وتَظنُّ صوفية المسكينة أننا مِتْنا، ويعتريها حزنٌ شديد، ويضيق صدرُها، وتُحيي ليلتها بالبكاء، ويُرسَلُ في المساء رسولٌ للبحث عنَّا، ولِيَأتيَ في صباح الغد بخبرٍ عنَّا، ويعود الرسولُ مع آخَرَ مِن قِبَلنا ليُبَلِّغ اعتذارَنا ويقولَ إننا في حالٍ جيدة، ويمضي وقتٌ قصيرٌ فنظهر بأنفسنا، وهنالك يتغيَّر المنظر، فتُكَفْكف صوفيةُ دموعَها، وهي إذا ما سَكَبَتْ منها كان ذلك عن غضب؛ فلمْ يكن فؤادُها المختالُ لينالَ شيئًا من اطمئنانه إلى حياتنا؛ فإميل حي، وقد أوجب انتظارَه على غيرِ جَدْوَى.

ونَصِل، فتُريد أن تُقفِلَ عليها البابَ، ويُراد أن تبقى، فتبقى، ولكنها إذ تنقاد من فوْرها تُظهِر من الهدوء والرِّضا ما يُموِّه على الآخرين. ويأتي الأب أمامنا، ويقول لنا: «لقد أقلقتما بالَ أصدقائِكما، ويوجد هنا مَن لا يَسهُل عليهم أن يَعفوا عنكما.» وتقول صوفية بأعذبِ ما يُمكنها مِن تَبَسُّم: «مَن هم إذن يا أبي؟» ويجيب الأب بقوله: «وما يُهِمُّك على ألَّا تكوني منهم؟» فلا تَردُّ صوفية على هذا، وتَطرِقُ على شُغلها، وتستقبلُنا الأمُّ ببرودةٍ وتَكَلُّف، ويرتبك إميل فلا يجرؤ على الدُّنُوِّ من صوفية، فتكون أوَّلَهما كلامًا، فتسأله عن صحَّته، وتدعوه إلى الجلوس، وتُظْهِرُ من التنكُّر ما يُخدَع معه بذاك الفُتورِ هذا الشابُّ المسكينُ الذي لا يزال غيرَ مُدرِكٍ للغة الأهواء العنيفة، فيُوشِكُ أن يَغضب.

وأريدُ أن أُزيلَ الغِشاوة عنه، فأبادر إلى يدِ صوفية وأوَدُّ أن أرفعها إلى شَفتيَّ كما أفعل أحيانًا، فتَسحبُها من فوْرها مع كلمة «سيِّدي» التي كان نُطقُها بها من الغرابة ما كَشفتْها معه هذه الحركةُ غيرُ الإرادية لعينَي إميلَ حالًا.

وتُبصِرُ صوفية أنها كشفتْ سِرَّها، فيقِلُّ ضبطُها لنفسها، وتتحوَّل رباطةُ جأشِها الظاهرةُ إلى ازدراءٍ تَهكُّمِيٍّ، وتُجيبُ عن كلِّ ما يُقال لها بكلماتٍ ذاتِ مقطع واحد تَنطِق بها بتؤدةٍ وتَردُّدٍ كأنها تخاف أن يَنِمَّ كلامُها على غيظِها كثيرًا. ويَظهَرُ إميلُ نصفَ ميِّتٍ ذُعْرًا ويَنظُر إليها متألِّمًا، ويحاوِل أن يَحْمِلها على إلقاءِ نظراتٍ عليه، فتلتقي أعينُهما، فيقرأ في عينيها مشاعرَها الحقيقية. وتكون صوفية أكثرَ غيْظًا من اعتداده بنفسه، فتُلْقي عليه نظرةً تَنزِعُ منه كلَّ رغبةٍ في الفوْز بنظرةٍ أخرى منها، ويُلْجَمُ إميلُ ويَرتجف، وعاد لا يَجرؤ لحُسْن حظِّه على مخاطبتها ولا على النظر إليها؛ وذلك لأنها ما كانت لِتَصفحَ عنه ولو لم يكن مذنبًا، ولو استطاع أن يَحتمل غضبَها.

وأرى أن دَوْري قد أتى، وأن وقتَ الإيضاحِ قد حَلَّ، فأعودُ إلى صوفية، وأتناول يدَها ثانية، ولا تخطَفُها، وإن كانت مستعِدَّةً للظهورِ سيئةَ الحال، وأقول لها برقَّة: «نحن تعساء يا صوفية العزيزة، ولكنَّكِ عاقلةٌ عادلة، فسوف لا تَحكُمِين في أمْرِنا من غيرِ أن تَسمعينا، فاسْتمِعي إلينا.» ولا تُجيب بكلمة، وأقول ما يأتي:

«لقد انطلقنا أمسِ في الساعة الرابعة، وقد أُشيرَ علينا بأن نَصِلَ في الساعة السابعة، ونحن نحتاط لأنفسنا بوقتٍ أطولَ مما نحتاجُ إليه كيما نستريحُ عندما ندنو من هنا، ونقطع ثلاثةَ أرباعِ الطريق، فتَقْرعُ أسماعَنا نياحاتٌ مؤلِمةٌ صادرةٌ عن مضيقٍ بجانبِ التَّلِّ بعيدٍ بعضَ البُعد مِنَّا، ونُهْرَع إلى مكانِ الصُّراخ، فنجِدُ فلَّاحًا تَعِسًا راجعًا من المِصْر مجترعًا بعضَ الخمر على حِصانه، فسَقطَ منه سقوطًا شديدًا كُسِرَتْ منه ساقُه. ونَصيحُ ونَطلُب العون، ولا نَجِدُ مَن يُجيب، ونحاول وضْعَ الجريح على حِصانه فلا نستطيع صُنْع ذلك؛ فهذا التَّعِسُ يعاني من الآلام أعظمَها هَوْلًا عند أقلِّ حركة. ونُزمِع على ربْط الحِصان في مكانٍ منحرفٍ من الغابة، ثُمَّ نَجعل من أذْرعنا مَحْمِلًا، ونَضعُ الجريحَ عليه، ونَحْمِله بأعظمِ ما يُمكن من الرِّفق عاملَيْن بإشارته في الطريق التي يجبُ السيرُ عليها لبلوغ منزله، وتكون المسافةُ طويلة، ونُلزَم بالاستراحةِ مراتٍ كثيرة، وأخيرًا نصل منهوكَين تَعَبًا. وكان من دَهَشِنا المُرِّ أنْ كُنَّا نَعرِف البيت، وأنْ كان هذا البائسُ الذي نَقلناه بجُهْدٍ عظيمٍ هو عينَ

الرجلِ الذي تَقبَّلَنا بقبولٍ ودِاديٍّ يوم وصولنا الأوَّل إلى هنا، وما كان يساورنا من كَدَرٍ جميعًا حالَ دون تعارفنا حتى تلك الساعة.

ولم يكن عنده غيرُ طفلَين، وكانت زوجةُ قريبةً من منحه طفلًا ثالثًا، وبَلَغ ما عانته من التأثُّر حين رأت وصولَه ما شعرتْ معه بأوجاعٍ حادَّة ووضعتْ بعد ساعاتٍ قليلة. وما يُصنَع في هذه الحال في كُوخٍ بعيدٍ حيث لا يُرجى أيُّ عون؟ عزَمَ إميلُ على أخذِ الحِصان الذي تركناه في الغابة فيركبه ويَعْدو بأقصى ما يُمكن من السرعة لإحضار جَرَّاحٍ من المِصر، ويُعطي الجرَّاحَ الحِصانَ، وبما أنه لم يستطِع أن يجدَ ممرِّضةً على عَجَلٍ فقد عاد سائرًا على قدمَيه مع خادمٍ بعد أن أرسلَ إليكم ساعيًا. وبينما كنتُ مرتبكًا، كما يمكن أن يَلوحَ لكم، بين رَجلٍ مكسورِ السَّاقِ وامرأةٍ في دَوْر الطَّلْق، كنتُ أُعِدُّ في البيت كلَّ ما كان يمكنني أن أبصرَه ضروريًّا لمساعدة الاثنَين.

ولن أُفصِّلَ البقيةَ مطلَقًا؛ فهي ليست موضعَ بحث، وقد حَلَّت الساعةُ الثانية بعد منتصف الليل قبل أن تُتاحَ لكلٍّ مِنَّا، نحن الاثنَين، دقيقةُ راحة. والخلاصةُ أننا عُدنا إلى مأوانا القريبِ من هنا قبْل طلوعِ الشمس، فانتظرنا فيه ساعةَ انتباهِكم من النوم كيما نُخبِرُكم بما حدثَ لنا.»

وأَسْكُتُ من غيرِ إضافةِ شيء، ولكنَّ إميلَ يدنو من صاحبته قبْلَ أن يتكلَّم أحدٌ، ويرفعُ صوتَه ويقول لها برصانةٍ لم أتوقَّعْها: «أيْ صوفية، أنت حَكَمٌ في مصيري الذي تعرفين جيِّدًا، أجلْ، إنك قادرةٌ أن تحكمي عليَّ بالموت ألَمًا، ولكنْ لا تأمُلي أن تحمليني على نسيانِ حقوق الإنسانية؛ فهذه الحقوق أَقْدَسُ من حقوقك، ولن أتنزَّل عنها من أجْلِك.»

سَمِعتْ صوفية هذه الكلمات، فنهضَتْ من غير أن تُجيب، ووضعتْ ذراعَها حوْل عُنُقه، وطبعتْ قُبْلةً على خدِّه، ثُمَّ مَدَّت إليه يَدَها بلطفٍ منقطعِ النظير، وقالت له: «أيْ إميل، تناولْ هذه اليد فهي لك، وكن متى شئتَ زوجي أو مُعلِّمي، فسأحاول أن أكون أهلًا لهذا الشرف.»

ولم تَكَدْ صوفيةُ تُقبِّلُه حتى صَفَّق أبوها المسرورُ هاتفًا: «مرةً أخرى، مرةً أخرى.» ولم تلبثْ صوفية أن قبَّلَتْ خَدَّه الآخرَ مرتَين من غيرِ استعجال، ولكنها لم تَنْشَبْ أن اعتراها وَجَلٌ في ذات اللحظة تقريبًا، فالتجأتْ إلى ذراعَي أُمِّها وأخفَتْ وجْهَها الملتهِبَ خَجَلًا في صدرِ أمِّها.

ولن أَصِفَ سرورَنا الشاملَ مطلقًا؛ فجميعُ النَّاسِ يَشعرون به. ونتناول الغداء، فتطلب صوفية أن يُزارَ ذانك المريضان الفقيران، وتَرْغب صوفية في ذاك العمل الصالح، ويُذْهب إلى هناك، ويُشَاهَدان على فِراشَين منفصلَين. وكان إميلُ قد جَلَبَ فِراشًا لهما، ويُرى حولهما أناسٌ لتسليتهما، وإميل هو الذي قام لهما بهذا، ولكنهما مع ذلك يألَمان به من سوءِ وضعهما أكثرَ من حالهما. وتتناول صوفيةُ وِزْرَةً من الزوجة الصالحة، وتُرتِّبها على فراشها، ثُمَّ تَصْنع مثلَ ذلك للزوج، وتعرف أن تَبحث بيدها اللطيفة الخفيفة عن كلِّ ما يؤلمهما، وأن تجعلَ أعضاءهما المتألِّمَة في وضعٍ أكثرَ إراحةً. وسَبَقَ أن شَعَرَا بسكونٍ في الوَجَع عند دُنُوِّها، فكأنها تتنبَّأ بكلِّ ما يؤلمُها. وما كانت هذه الفتاةُ البالغةُ الرِّقة لِترتدَّ أمام القذارة ولا أمام الرائحة الكريهة، وهي تَعرِف كيف تُزيلُ هذه وتلك من غيرِ استعانةٍ بأحدٍ ومن غيرِ إزعاجٍ للمريضَين. وتعود هذه الفتاةُ التي تُرى ذاتَ حياءٍ دائمًا، ومُزدريةً أحيانًا، والتي لم تَمَسَّ بطَرَفِ إصبعِها فراشَ رجل، وتُغيِّر بَياضاتِ الجريح بلا تَردُّد، وتجعله في وضعٍ مريحٍ يستطيع أن يبقى عليه وقتًا طويلًا، وحَميَّةُ الإحسان خيرٌ من الحياء. وما تفعلُ تصنعُه بخِفَّةٍ ومهارة يُحِسُّ بهما سكونَ وَجعِه من غيرِ أن يَعْرِف أنها مسَّتْه. ويتَّفق الزوج والزوجة على شكرهما للفتاة اللطيفة التي تخدمهما وتتوجَّع لهما وتُفرِّج الغمَّ عنهما، وهي من ملائكة السماء الذين يُرْسلهم الله، ولا عَجَب؛ فلها وجهُ مَلَكٍ ولُطْفُه ورِفقُه ودَعَتُه، ويكون لهذا أبلغُ الأثرِ في نفْس إميلَ فيتأمَّلُها صامتًا. فيا أيها الرجل أَحِبَّ قرينتك؛ فقد أعطاك الله إياها لتفريج كَرْبِك في آلامك، وكشْفِ هَمِّك في أوصابك، وهذه هي المرأة.

ويُعَمَّدُ المولودُ حديثًا، وبينَا كانا العاشقان يقدِّمانه إلى جُرْن العِماد كانا يَتُوقان من صميم فؤادهما إلى الوقت الذي يُرزَقان فيه ولدًا فيُعمَّد، وكانا يَتُوقان إلى اليوم المرغوب فيه، وكانا يشعران باقترابه، وقد زالت جميعُ وساوس صوفية، ولكن وساوسي أتت؛ فَهُما ليسا بعدُ حيث يُفكِّران، ولا بُدَّ من أن يكون لكلٍّ دَوْرُه.

مَرَّ — ذات مرَّةٍ — يومان من غيرِ أن يرى أحدهما الآخر، فدخلتُ غرفةَ إميل حاملًا كتابًا بيدي وسألتُه مُحدِّقًا إليه: «ما تصنع إذا ما أخبرك أحدُ النَّاس بأن صوفية ماتت؟» ويصيح ويضرب يدًا بيد، وينظر إليَّ بعينَين حائرتَين من غير أن ينبس بكلمة، وأداوم على قولي هادئًا: «أجبْ إذن.» ويُسَاوره غضبٌ ويتميَّز من الغيظ إذ يراني رابطَ الجأش هادئًا، ويتَّخذ من الوضع ما يَنِمُّ على الوعيد تقريبًا، ويقول: «ما أصنع؟ لا أدري، وإنما

الذي أعْرِف هو أنني لن أُلقي نظرةً على الذي يَنقُلُ إليَّ هذا الخبر ما دمتُ حيًّا.» وأقول له مُتبسِّمًا: «قَرَّ عينًا؛ فصوفيةُ حيةٌ وتتمتع بصحة جيدة، وهي تفكِّر فيك، وهم ينتظروننا في المساء، ولكن لنقمْ بجولةٍ قصيرة، وسنتكلَّم.»

وما يَشغَل بالَه من هَوًى عاد لا يَسمحُ له كما في الماضي بمحادثاتٍ قائمةٍ على العقل الخالص؛ فلا بُدَّ من استمالته بهذا الهوى نفسِه إلى انتباهه لدروسي، وهذا ما فعلتُ بهذا المدخل الهائل؛ فأنا الآن مطمئنٌّ إلى أنه سيستمع لي.

«لا بُدَّ من السعادة يا إميلُ العزيز؛ فالسعادة غايةُ كلِّ موجودٍ حسَّاس، وهي الرغبة الأُولى التي طبعتها الطبيعة فينا، والتي لا تفارقنا مُطلقًا، وكلٌّ يطلبُها، ولا أحدَ يجِدُها، وكلٌّ يُفني حياتَه في البحث عنها فيموت من غيرِ أن يَصِلَ إليها. ويا صديقي الشابَّ، هل كنتُ أعْرِفُ ما ألزمتُ نفسي به عندما تناولتُك بين ذراعيَّ عند ولادتك وأشهدتُ الربَّ العليَّ على العهد الذي أقدمتُ على عَقْده، فوقفتُ أيامي على سعادة أيامك؟ كلَّا، وإنما كنتُ أعْرِف أنني إذا ما جعلتك سعيدًا اطمأننتُ إلى سعادةِ نفسي؛ فكنتُ إذا ما قمتُ بهذا البحثِ المفيدِ في سبيلك جعلتُه مشتركًا بيني وبينك.

وتقومُ الحكمةُ على البِطالة ما دُمْنا نَجْهَل ما يجب أن نَصْنع، وهذا أكثرُ ما يحتاج إليه الإنسان من المبادئ، وهذا أقلُّ ما يَعْرف اتِّباعَه. ويَعْني البحثُ عن السعادة من غيرِ أن يُعْرَف أين هي تَعريضَ الإنسانِ نفسَه للفِرار منها، يَعني تعريضَ الإنسانِ نفسَه لأخطارٍ كثيرةٍ مختلفةٍ بمقدارِ ما يُوجَد من طُرُقٍ يَضِلُّ عنها، ولكن ليس من شأن جميع النَّاس أن يُستطاع عدمُ السَّيرِ مُطلَقًا؛ ففي غَمٍّ من سَوْرة النعيم يُساوِرنا نُفضِّلُ أن نَخْدع أنفسنا في نِشدانِه على عدمِ عملِ شيءٍ للبحث عنه، ونحن إذا ما خرجنا مرَّةً من الموضع الذي نستطيع أن نعرفَه فيه عُدنا غيرَ قادرين على العودِ إليه.

وقد حاولتُ اجتنابَ عينِ الخطأ عن عينِ الجهْل، وإني إذ أخذتُ على عاتقي أن أُعْنَى بك، عزمتُ ألَّا أقومَ بخُطوةٍ غيرِ مُجديةٍ كما عَزَمتُ أن أَحُول دونَ اتخاذِك مثلَ هذه الخُطوة، فالتزمتُ سبيلَ الطبيعةِ التي لا تبديل لها، والتي كنتُ أَتَّبِعُها من غيرِ أن تَخْطُر ببالي.

وكنْ شاهدي وحاكمي، فلن أرْفِضك مطلَقًا؛ فلم يُضَحَّ بأعوامِك الأُولى في سبيل جميع الأعوام التي يجب أن تعقُبَها، وقد تمتعتَ بجميع المواهب التي أنعمتْ بها الطبيعةُ عليك، وما أخضعتْك له الطبيعةُ من شرور، فقد استطعتُ أن أَقِيكَ منه، ولم تشعُر بغيرِ الشرور التي تستطيع أن تُقوِّيَكَ على سواها، ولم تُعانِ قَطُّ من الشرور ما عانيتَ إلا لاجتنابِ ما

هو أعظمُ منها، وأنت لم تَعرِف الحقدَ ولا العبودية، وقد بَقِيتَ، وأنت الحرُّ القانع، عادلًا صالحًا؛ وذلك لأن الألمَ والعيبَ أمران ملازمٌ أحدُهما للآخر، ولا يصيرُ الإنسان شَرِيرًا إلا إذا كان شقيًّا. ولْتستطِعْ ذِكرى صِباك أن تطُول حتى أواخر أيامك! ولا أخشى مُطلَقًا أن يَذكُر قلبُك الطيبُ هذا الصِّبا من غيرِ أن يبارك لليدِ التي رَبَّته.

ولما بلغتَ سِنَّ الرُّشد صُنْتُك من مُبْتَسَراتِ النَّاس، ولما صار فؤادُك حَسَّاسًا حَفِظْتك من سلطان الأهواء، ولو استطعتُ إطالةَ هذا السكونِ الباطنيِّ إلى آخرِ حياتك لوضعتُ عملي في مأمن، ولحُزتَ من السعادة الدائمة أقصى ما يستطيع إنسانٌ أن يَحوزَه، ولكنني غمستُ رُوحك في مياه ستِيكْس يا إميلُ العزيز، فلم أستطِع أن أجعلها معصومةً من الجروح في كلِّ مكان، وذلك أنه يَنْهَضُ عدوٌّ جديدٌ لم تتعلَّم أن تَقهَرَه بعدُ، ولم أَقْدِرْ أن أصونَك منه، وهذا العدوُّ هو نفسُك، وقد تركتْك الطبيعةُ والنصيب، فيُمكِنُك أن تحتمل البؤسَ وأن تَصْبِرَ على آلام البدن، وأمَّا آلامُ النفس فقد كانت مجهولةً لديك، وأنت لم تكُ تابعًا لشيءٍ غيرِ الحالِ البشري، والآن تَتْبَعُ جميعَ ما جعلتَ لنفسك من روابط؛ فأنت إذ تعلمتَ الرغبةَ جعلْتَ نفسَك عبدًا لرغائبك، وأنت من غيرِ أن يتغيَّر فيك شيء، ومن غيرِ أن يَمَسَّ وجودَك شيء، ما أكثرَ الآلامَ التي يُمكِن أن تُغِيرَ على نفسِكَ، وما أكثرَ المضارَّ التي يُمكن أن تشعُرَ بها من غيرِ أن تكون مريضًا! وما أكثرَ المَوْتات التي يُمكن أن تُعانيها من غيرِ أن تموت! أجلْ، يُمكِن أن يُوقِعَك في القنوط كَذِبٌ أو خطأٌ أو شَكٌّ.

وقد رأيتَ في المسْرح أبطالًا يُقاسُون آلامًا متناهية؛ فتُدَوِّي دارُ التمثيل بصَرَخاتهم الجافية، ويَنْتَحِبون كالنساء، ويَبْكون كالأولاد، فيَستوْجبون هُتافات الحُضُور. واذكُرْ ما تورثه إياك من الفضائحِ هذه النياحاتُ والصَّرَخاتُ والأنَّاتُ في رجالٍ لا يُنتَظَر منهم غيرُ الرَّصانة والجَلَد، وتقول ساخطًا: «إن هذه أمثلةٌ تُلْقَى علينا لاتِّباعها، وهذه نماذجُ تُعْرَض علينا للاقتداء بها، وهل يُخْشى ألَّا يكون الرجلُ صغيرًا شقيًّا ضعيفًا بما فيه الكفاية إذا لم يُكرَم ضعفُه بمظهرٍ من الفضيلة زائف؟» فيا صديقي الشاب، كن أكثرَ تسامُحًا نحوَ المسرح بعد الآن؛ فقد أصبحتَ أحدَ أبطاله.

وتَعْرِف أن تألَم وأن تموتَ، وتَعْرِف أن تصبِرَ على سُنَّة الوُجُوب في الأمراض البدنية، ولكنك لم تفرضْ قوانينَ على شهواتِ قلْبك بعدُ؛ فعن عواطفنا لا عن احتياجاتنا ينشأ اضطرابُ حياتنا، ومدى رغائبنا واسعٌ، ولا تُعَدُّ قُوَّتُنا شيئًا مذكورًا تقريبًا، ويَتْبَع الرَّجلُ برغائبه ألفَ شيء، ولا يَتْبَع شيئًا بنفسه، حتى حياتَه الخاصَّةَ. وكلَّما زاد الرجلُ ارتباطاتِه زادَ آلامه. وكلُّ شيءٍ في الأرض عابر، وكلُّ ما نُحبُّ يُفلِتُ مِنَّا عاجلًا أو آجلًا، ونحن نتصرَّف

في الأمر كما لو وجب أن يدوم إلى الأبد. ويا للذُّعرِ الذي حدث عند الظن بأن صوفيةَ ماتت! أَوَتذهب إذن إلى أنها ستعيش أبدًا؟ أَلَا يموتُ إنسانٌ في مِثلِ سِنِّها؟ لا بُدَّ من موتِها يا ولدي، وقد تَموتُ قبلك، ومَن يَعْرِف أنها حيَّةٌ الآن؟ إن الطبيعة لم تُخضِعك لغيرِ موتةٍ واحدة، وأنت تُخضِعُ نفسَك لموتةٍ ثانية، وهكذا تَضعُ نفسَك في حالٍ تموتُ بها مرتين.

وهكذا أراك، إذ تَخضع لأهوائك الجامحة، مَحلًّا للتوجُّع! حِرمانٌ دائم، خُسْرانٌ دائم، هَمٌّ دائم، حتى إنك لا تتمتَّع بما يُترَك لك، وما يُساوِرُك من خَوْفِك أن تَخْسَرَ كلَّ شيء يمنعُك من حيازةِ أيِّ شيء. ولن تستطيع قضاء أهوائك لرغبتك في عدم اتِّباع شيءٍ غيرِ أهوائك، وأنت تَطلُب الرَّاحة، والرَّاحةُ ستَفِرُّ منك دائمًا، وستكون بائسًا، وستصير شَرِيرًا، وكيف يمكنك أَلَّا تكون هكذا وأهواؤك الجامحة هي التي تسيطر عليك؟ وإذا كنت لا تستطيع احتمالَ الحرمانِ غيرِ الإرادي، فكيف يُمكِنك أن تُلزِم نفسَك بحرمانٍ إرادي؟ وكيف يُمْكنك أن تُضحِّي بالمَيْل في سبيلِ الواجب فتقاوم فؤادَك لتُصغي إلى عقْلِك؟ أنت تقول إنك لا تريد أن ترى مَن يُخبِرُك بموتِ صاحبتك، فكيف ترى مَن يُريد نَزْعَها منك حَيَّةً فيجرؤ على قوله لك: «هي ميِّتةٌ نظرًا إليك؛ فالفضيلةُ تَفصِلُك عنها؟» وإذا كان لا بُدَّ من العيش مع صوفية مهما وقع، فلا أهميَّةَ في كونها متزوجةً أو غيرَ متزوجة، وفي كونها طليقةً أو غيرَ طليقة، وفي كونها تُحِبُّك أو تَكْرَهُك، وفي إعطائك إياها أو رَفْضِ ذلك، فأنت تريدها، ولا بُدَّ من حيازتها بأيِّ ثَمنٍ كان. فأخبرني إذن عن الجريمة التي تَقِفُ رجلًا لا سلطانَ لغير أمانيِّ قلبِه عليه، فلا يستطيع أن يقاومَ شيئًا يَرغب فيه.

ويا بنيَّ، لا سعادةَ بلا شجاعة، ولا فضيلةَ بلا كفاح، وتأتي كلمة الفضيلة vertu من كلمة القوة force، والقوةُ أساسُ كلِّ فضيلة، ولا تَخُصُّ الفضيلةُ غيرَ مخلوقٍ ضعيفٍ بطبيعته قويٍّ بإرادته، وعلى هذا وحدَه تقوم مَزِيَّةُ الرجل العادل. ومع أننا ندعو الربَّ صالحًا، فإننا لا نَدْعوه فاضلًا؛ وذلك لأنه لا يحتاج إلى جهودٍ لصُنْع الخير. وقد انتظرتُ بلوغَك من الحال ما تفهمني معه حتى أفسِّر لك هذه الكلمة التي انتُهِكَت حُرمتُها كثيرًا، ولا كبيرَ احتياجٍ إلى معرفةِ الفضيلة إذا كانت ممارستُها لا تُكلِّف شيئًا، ويأتي هذا الاحتياج عند تنبُّه الأهواء، وقد أتاك منذ حين.

وإني حين نشَّأتُك بكلِّ ما في الطبيعة من بساطةٍ وقيْتُك العيوبَ التي تجعل الواجبات شاقَّةً بدلًا من أن أوصيك بالواجبات الشاقة، وجعلتُ الكَذِبَ أقلَّ مَقتًا لديك من أن يكون غيرَ مفيد، وكنتُ أقلَّ تعليمًا لك بأن تَرُدَّ لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه من عدم اكتراثك لحقِّك، وصنعتُ

منك صالحًا أكثرَ من أن أجعل منك فاضلًا، ولكنَّ الذي ليس غيرَ صالحٍ لا يبقى صالحًا إلا ببقاء رغبته في أن يكون هكذا، ويتحطَّم الصلاح ويزول بصدمةٍ من الأهواء البشرية؛ فالرجلُ الذي لا يكون غيرَ صالحٍ ليس صالحًا إلا من أجْلِ نفْسه.

ومَنِ الرَّجلُ الفاضلُ إذَن؟ هو الرجلُ الذي يَعْرف أن يَقْهَر عواطفَه؛ وذلك لأنه يَتْبَع عقلَه وضميرَه إذ ذاك، فيقومُ بواجباته، ويَلْزَم نظامًا لا يستطيع شيءٌ أن يُبْعِده منه. ولم تَكُن حتى الآن حُرًّا إلا في الظاهر، ولم يَكن عندك غيرُ حريةٍ مؤقَّتةٍ كحرية العبد الذي لم يُؤمَر بشيء، والآن كُن حُرًّا حقيقيًّا، وتعلَّمْ أن تكونَ سيدَ نفسِك ومُرْ فؤادك، تكُن فاضلًا يا إميل.

وإليك إذنْ تدَرُّبًا آخرَ أمامك، وهذا التدرُّب أصعبُ من الأوَّل؛ وذلك لأن الطبيعة تُنقِذُنا من الشرور التي تَفْرِضها علينا أو تُعلِّمُنا احتمالَها، ولكنها لا تقول لنا شيئًا عما يأتينا من أنفسنا؛ فهي تَكِلُنا إلى أنفسنا، وهي تتركنا ضحايا لأهوائنا، وهي تَدَعنا نَرْزَح تحت آلامنا الباطلة، فنُباهي بدُموعٍ يجب أن تحَمَرَّ وجوهُنا منها خجلًا.

وأعْلَمُ جيِّدًا أن هذا الهوى ليس جُرْمًا؛ فهو نَقيٌّ نقاءَ النفوس التي تُحِسُّه، والشَّرفُ يُكوِّنه والطُّهْرُ يُغذِّيه. ويا أيها العاشقان السعيدان! لا يُسْفِرُ فُتُون الفضيلة عن غيرِ زيادةٍ في فُتُون الحُب، وليس القِرانُ المُباركُ الذي ينتظركما أقلَّ مكافأةً لكما على حِكْمَتكما مما على ارتباطكما. ولكن قُل لي أيها الرجل المخلِص، هل أنت أقلُّ خضوعًا لسلطان هذا الهوى الخالص؟ وهل أنت أقلُّ مَن يكون عبدًا له؟ وهل تخنُقُه منذ الغد إذا ما عاد في الغد لا يكون بريئًا؟ والآن هو وقتُ تجرِبة قُواك، فإذا ما وَجَب استعمالُها كان الوقتُ قد مضى، ويَجِب وقوعُ هذه التَّجارِبِ الخَطِرةِ بعيدةً من الخطر؛ فما كان ليُمرَّن على القتال أمامَ العدو مُطلَقًا، وإنما يُستعَدُّ له قبْلَ الحرب، فتُخاضُ المعركةُ بعد إعدادِ كلِّ شيء.

ومن الخطأ أن يُفرَّق بين الأهواء المُباحة والأهواء المحظورة تعاطيًا للأُولى وامتناعًا عن الأخرى؛ فجميعُ الأهواء حسنةٌ إذا ما بقينا مسيطرِين عليها، وجميعُ الأهواء سيئةٌ إذا ما تركناها تسيطر علينا، ويقوم ما حَرَّمتْه الطبيعةُ على توسيع مدى صِلاتنا إلى ما هو أبعدُ من قُوَانا. ويقوم ما حرَّمه العقلُ على الرغبةِ فيما لا نَقْدِر على نَيْله ويَقُوم ما حَرَّمه الضميرُ على ترْكِ أنفسنا تُغلَب بالإغواء لا على إغوائها، ولا يتوقَّف علينا أن نكون ذوي أهواءٍ أو لا نكون، وإنما يتوقَّف علينا أن نسيطر عليها، وجميعُ المشاعرِ التي نهيمن عليها شرعية، وجميعُ المشاعر التي تهيمن علينا إجرامية. ولا يكون الرجلُ الذي يُحِبُّ امرأةَ غيرِه مذنبًا

إذا ما جعل هذا الهوى المؤسفَ خاضعًا لقانون الواجب، وهو يكون مذنبًا إذا ما أحبَّ امرأتَه الخاصَّةَ فيُضَحِّي بكلِّ شيءٍ في سبيلِ حُبِّها.

ولا تَنْتَظِرْ منِّي مبادئَ طويلةً عن الأخلاق، وليس لديَّ غيرُ مبدأ واحدٍ أُلقيه عليك شاملٍ لجميع المبادئ الأخرى، وهو: كُن رجلًا ورُدَّ قلبَك إلى حدودِ رجولتك، فادرُس هذه الحدودَ واعرِفْها، ومهْمَا تكن هذه الحدود ضيقةً فإننا لا نكون تُعَساء ما أحطنا أنفسنا بها، ونحن لا نشقى إلا إذا أردنا مجاوزتَها، ونحن نجاوزُها إذا ما وضعنا برغائبنا المخالِفةِ للصوابِ غيرَ الممكِن في مرْتبة الممكنات، ونحن نجاوزُها إذا ما نسينا رُجولَتنا، لنصنعَ رجولاتٍ وهميةً فنَزْلَقَ منها إلى رُجولتنا دائمًا، ويكون المتاعُ الذي يؤثِّرُ فينا ضياعُه وحدَه هو ما نعتقد أنه حقٌّ لنا، وما يَكون من تعذُّرِ نَيْله تعذُّرًا جليًّا يَصْرِفُ الذهنَ عنه، وما كانت الرغائبُ بلا أملٍ لتُؤلِمَ مُطلَقًا، وما كان الصُّعْلوكُ لِيَأْلَم من رغبته في أن يكون مَلِكًا، ويُريدُ الملِكُ أن يكون إلهًا عندما يعتقد أنه عاد لا يكون رجلًا.

وأوهامُ الزَّهْوِ هي مصدرُ أعظمِ شرورنا، ولكنَّ إنعامَ النظرِ في بؤس النَّاس يجعَلُ الحكيمَ معتدلًا دائمًا، فيَلزَم مكانَه ولا يحاول أن يخرُج منه مُطلَقًا، وهو لا يستعمل قُوَاه على غيرِ جدوَى حتى يتمتَّع بما لا يستطيع حِفْظَه، وهو إذا ما استعملها كلَّها ليتصرَّف تصرُّفًا حسنًا في كلِّ ما يملِك كان — في الحقيقة — بالغَ القوةِ بالغَ الغِنَى بنسبةِ ما يكون أقلَّ رغبةً مِنَّا، وهل أكوِّن لنفسي، وأنا الموجود الهالكُ الفاني، سلاسلَ أبديةً فوق هذه الأرض حيث يتغيَّر كلُّ شيء، وينقضي كلُّ شيء وسأزول غدًا؟ وَيْ إميل! وَيْ بُنيَّ! ما يبقى لي من نفسي إذا ما خسِرتُك؟ ومع ذلك فإنه يجب أن أعْرِف افتقادَك؛ وذلك لأنه مَن يَعلمُ متى تُنْزَعُ منِّي؟

وإذا كنتَ تُريدُ أن تعيش سعيدًا حكيمًا إذنْ، فلا تَرْبط فؤادَك بغيرِ الجمال الذي لا يزول أبدًا، ولْتُحدِّدْ رغائبَك بوضعِك، ولْتسبِقْ واجباتُك ميولَك، واجعلْ دستورَ الضرورة شاملًا للأمور الأدبية، وتَعلَّم افتقادَ ما يُمكن أن يُنزَع منك، وتَعلَّمْ ترْكَ كلِّ شيءٍ عندما تأمرُك الفضيلةُ بذلك، وتَعلَّمْ وضْعَ نفْسِك فوق الحوادث فتَفْصِل عنها فؤادَك قبْل أن تمزِّقه، وتعلَّمْ أن تكون جسورًا في الضراء لكيلا تكون بائسًا أبدًا، وتعلَّمْ أن تكون ثابتًا في واجبك لكيلا تكون مُجرِمًا أبدًا، وهنالك تكون سعيدًا على الرغم من الثراء وحكيمًا على الرغم من الأهواء، وهنالك تَجدُ حتى في حيازة الأموال السريعة الزوال لذةً لا يستطيع شيءٌ أن يُكدِّرَها، فتتصرَّفُ في هذه الأموال من غيرِ أن تتصرَّف فيك، وتشعُر بأن الرَّجلَ الذي تفلَّتَ منه كلُّ شيء لا يتمتَّع بغيرِ ما يَعْرِف أن يُضيع. أجلْ، لن يساورَك وهمٌ في الملاذِّ

الخيالية مطلقًا، أجلْ لا تُصاب بآلامٍ تنشأ عنها مطلقًا، وستربح كثيرًا من هذه المبادلة؛ وذلك لأن هذه الآلامَ منتشِرةٌ حقيقية، ولأن تلك الملاذَّ نادرةٌ باطلة. وأنت إذ تَقْهَر كثيرًا من الآراء الخادعة تَقْهرُ الذي يُعطي الحياةَ قيمةً عظيمة، وستقضي حياتك بلا كَدَرٍ وستختمها بلا ذُعْر، وستفارقها كما تفارق كلَّ شيء، ولْيستولِ الهولُ على الآخرين حين يُفكِّرون في انقطاعهم عن الوجود بترْكِهم الحياةَ، ولكنك إذ تَعْلم أن الحياةَ عَدَمٌ تعتقِد أنك بادئٌ لها؛ فالموتُ خاتمةُ الحياةِ الخبيثةِ وفاتحةُ الحياةِ الطيبة.»

ويَستَمِع إميلُ إليَّ بانتباهٍ ممزوجٍ بجَزَع؛ فهو يخشى أن تكون لهذه الديباجة نتيجةٌ مشئومة، وهو تُحدِّثه نفسُه، حين بياني له ضرورةَ ممارسةِ قوَّة الروح، بأنني أريد إخضاعَه لهذا النظام القاسي، ومَثَلُه في هذا كَمَثَلِ الجريحِ الذي يرتَجِفُ عندما يُبصِرُ اقترابَ الجِراحِيِّ فيَسْبِقُ إلى ظنِّه شعورُه باليدِ المُوجِعَة على جُرْحه، ولكن مع السلامة، لأنها تَحُولُ دونَ فساده.

ويبدو حائرًا مضطربًا مستعجلًا معرفةَ الموضعِ الذي أريد أن آتي به إليه، فيسألني بدلًا من الجواب، ولكن مع الخوف: «وما يجب أن أصنع؟» هذا ما يقوله مرتجفًا تقريبًا، ومن غير أن يجرؤَ على رفْع عينيه، وأجيب بصوتٍ رصين: «إن الذي يجِبُ أن تصنعَ هو أن تَتركَ صوفية! أَتْرُكها! أَخْدَعُها! أكون خائنًا! أكون مُداجيًا! أكون ناقضًا للعهد! ...» وأتناول الكلام قاطعًا قوله: «ماذا! أَمِنِّي يخافُ إميلُ أن أُعَلِّمَه استحقاقَه لمثلِ هذه النعوت؟» ويداوم على كلامه بعين الصَّوْلة: «كلَّا، لا منك ولا من غيرك، ويمكنني أن أحْفَظَ عملَك على الرغم منك، ويُمكِنني ألَّا أستحِقَّ تلك النعوت.»

وكنتُ منتظرًا هذا الاندفاعَ الأوَّل، وأدَعُه يَمُرُّ من غيرِ أن أثور، ولو لم يكن عندي اعتدالٌ أوصيه به لكان عندي لطْفٌ أَعِظُه به! ويَعْرِفني إميلُ كثيرًا فلا يعتقدُ إمكان مطالبته بشيء يكون سيِّئًا، وهو يَعْرِف جيِّدًا أنه يصنع سوءًا إذا ما تَرَك صوفية ضِمْنَ المعنى الذي يُطلِقُه على هذه الكلمة. والخلاصةُ أنه ينتظر منِّي إيضاحًا، وهناك أستأنف كلامي:

«أَوَتظنُّ يا إميلُ العزيزُ وجودَ رجلٍ من أيِّ حالٍ كان يستطيع أن يكون أكثرَ سعادةً منك منذ ثلاثة أشهر؟ إذا كنت تَظُنُّ هذا فأزِلْ ضلالك؛ فقد استنفدت سعادةَ الحياةِ قبْل أن تذوق ملاذَّها، ولا يُوجَد شيءٌ يزيدُ على ما اختبرتَ، وسعادةُ الحواسِّ عابرة، وبها تخسَرُ حال الفؤادِ المعتادة دائمًا، وقد تمتعتَ بالأملِ أكثرَ مما ستتمتَّع به في الحقيقة، وما يُزيِّنه الخيالُ من المرغوب فيه يَترُكه بالحيازة، وإذا عَدَوْتَ الموجودَ بذاته وحدَه لم يُوجَد جميلٌ

سوى غير الموجود، وإذا ما أمكن دوامُ هذه الحال في كلِّ وقتٍ وجدتَ السعادةَ العُليا، ولكنَّ كلَّ ما يتعلَّق بالإنسانِ يُشعَرُ بمصيره إلى الزوال، وكلُّ شيءٍ في حياة الإنسان عابرٌ له نهاية، ومتى دامت الحالُ التي تجعلُنا سعداء دوامًا متصلًا نَزَعَتْ عادةُ التمتُّع بها ذوقَها، وإذا لم يتغيَّر شيءٌ في الخارجِ تغيَّرَ القلبُ؛ فالسعادةُ تتركنا أو نحن نتركها.

وفي أثناء هذيانك كان يَمُرُّ الوقتُ الذي لم تَلتفِتْ إليه، وقد انتهى الصيف، والشتاء يَدنو، حتى إننا إذا ما استطعنا أن نداومَ على جَوْلاتنا في فصلٍ بالغِ القسوة كالشتاء لم تُطَقْ على الإطلاق، ولا بُدَّ من تغيير طراز الحياة على الرغم مِنَّا، فلا يُمكِن دوام هذا الطراز، وأُبصِرُ في عينيك الجزوعَين أن هذا المانع لا يعوقك مُطلَقًا؛ فما كان من اعترافِ صوفيةَ ومن رغائبك الخاصة يوحي إليك بوسيلةٍ سهلةٍ لاتقاء الثلج وللعدول عن السَّفر في سبيل رؤيتها، ولا ريبَ في سهولةِ هذه الوسيلة، ولكن الربيع إذا جاء ذابَ الثلجُ وبقي الزواج، ولا بُدَّ من التفكير في أمرِه من أجْلِ جميعِ الفصول.

وتُريد أن تتزوَّج صوفية، ولمَّا تمضِ خمسةُ أشهر على معرفتك إياها! وتُريد أن تتزوجها لأنها تُعجبك، لا لأنها تلائمك، كأنَّ الحبَّ لا يُخدَع حوْل الملاءمات مطلقًا، فلا يَتباغض في آخرِ الأمرِ مَن يبدءون بالتَّحاب! أجلْ، إنني أعلم أنها فاضلة، ولكن أيكفي هذا؟ وهل يكفي أن يكون بعضُ النَّاس من الصالحين حتى يتوافقوا؟ وطبعُها لا فضلُها هو الذي أضعُه موضعَ الشك، وهل تُظْهِر المرأةُ طبْعَها في يومٍ واحد؟ وهل تَعرف مقدار ما يَجب أن تبدو به من الأوضاع حتى يُعرَف مِزاجُها معرفةً أساسية؟ وهل حُبُّ أربعة أشهرٍ ضمانٌ كافٍ لبقية الحياة؟ قد يجعلك غيابُ شهرين تنساها، وقد يَنتظر غيرُك غيابَك فيمحوك من قلْبها، وقد تجدُها عند عودتك خليَّةً بمقدار ما وجدتَها حنونًا حتى الآن، ولا يتوقَّف أمرُ المشاعر على المبادئ؛ فقد تبقى صالحةً جِدًّا مع زوال حُبِّها إياك، وأَمِيلُ إلى اعتقادِ ثباتها ووفائها، ولكن مَن يكفُلُك ومَن يكفُلُها مع عدمِ اختباركما مُطلَقًا؟ وهل تُؤجِّل هذا الاختبار حتى يفوت وقته؟ وهل تَنتظِر لتعارفكما تعارفًا صادقًا حتى الحين الذي يتعذَّر فيه افتراقُكما؟

لم تَبلُغ صوفيةُ الثامنةَ عشرةَ من سِنِيها، وأنت لم تَكَدْ تُجاوز الثاني والعشرين من عُمُرك، وهذه السِّن هي سِنُّ الغرام لا سِنُّ الزواج، ويا لربِّ الأسرة، ويا لأمِّها! وَيْ! انتظرا مجاوزةَ دَوْر الوَلُودِية على الأقلِّ حتى تَعرفا تربيةَ الأولاد، وهل تَعْرف عددَ الفتيات اللائي

احتملن متاعبَ الحَبَل قبْل الأوان فأضعفتْ هذه المتاعبُ بِنيتَهن وقوَّضتْ صحتَهن وقصَّرَتْ حياتهن؟ وهل تَعرِف عددَ الأولاد الذين بَقَوا ضعفاء واهين لعدم تغذيتهم في جسمٍ مُكوَّنٍ تكوينًا كافيًا؟ ومتى نَما الولدُ والأمُّ معًا، وقُسِّمَت المادةُ اللازمة لنموِّ كلٍّ منهما، فلم يَنَلْ هذا ولا ذاك ما قَدَّرَتْه له الطبيعة، فكيف يُمكن ألَّا يتأذَّيا بهذا؟ ولا يَعدو الأمرُ حدَّ كوني سيئَ المعرفة بإميلَ أو حدَّ كوْنه سيُفضِّل حيازةَ امرأةٍ وأولادٍ أقوياءَ بعد حينٍ على إشباع هَلَعِه ضَرًّا بحياته وصحَّته.

ولْنتكلَّمْ عنك، فإذا كنتَ ترْنو إلى حالِ الزوج والأب، فهل أنعمتَ النظر في واجباته؟ متى أصبحتَ ربًّا لأسرةٍ صِرْتَ عُضوًا في الدولة؟ وما معنَى عضوٍ في الدولة؟ أتَعرِف ذلك؟ لقد درسْتَ واجباتِك كرجل، ولكن أتَعْرِفُ واجباتِ المواطن؟ وهل تَعرِف ما الحكومةُ والقوانينُ والوطن؟ وهل تَعرف ثَمَن السَّماح لك بالحياة، وفي سبيلِ مَن يجبُ أن تموت؟ أنت تَظُنُّ أنك تعلَّمتَ كلَّ شيء، ولا تزال غيرَ عارفٍ شيئًا. وتَعلَّمْ معرفةَ النظامِ المدنيِّ والمكانِ الذي يلائمك فيه قبْل اتخاذك هذا المكان.

ويجب أن تَترك صوفيةَ يا إميل، ولا أقول أن تتخلَّى عنها، فإذا كنتَ قادرًا على ذلك كانت سعيدةً جِدًّا بعدم الزواج بك الآن، ويجب أن تتركها لتعودَ جديرًا بها، ولا تكن من الاغترارِ ما تَظُنُّ معه أنك تستحقُّها. وَيْ! ما أكثرَ ما بَقِيَ عليك أن تَصْنع! فتَعالَ وقُم بهذا العملِ النبيل، وتَعالَ واصبِرْ على الغِياب، وتعالَ واكْسِبْ ثَمَن الوفاء، فإذا ما رجعْتَ أمكنَك أن تُكْرِمَ نفْسَك بشيءٍ لديها، وأن تطْلُب يدَها طلبَ مكافأةٍ لا لُطْفٍ.»

ولا يُذْعِنُ الفتى، وهو يقاوم ويناضل، ولَمَّا يُمرَّنْ على مكافحة نفسه، ولَمَّا يُعَوَّدْ أن يَرْغَبَ في شيءٍ وأن يُريدَ شيئًا آخر، ولِمَ يَرْفِضُ سعادةً تنتظره؟ ألَا يعني تأخيرُ قبولِ اليد التي قُدِّمَت إليه ازدراءً لهذه اليد؟ وما الضرورةُ إلى الابتعاد عنها ليتعلَّم ما يَجِبُ أن يَعْرِف؟ وإذا كان هذا ضروريًّا، فلِمَ لا يُترَك له عهدُه المُوَكِّدُ لعَوْدِه بالعُرَى الوثقى التي لا انفصامَ لها؟ وليَكُن زوجًا لها وهو يَكون مستعدًّا لاتِّباعي وليقترنا، وهو يتركها بلا وَجَل، وأقول له: «يا للتناقضِ في تزوُّجها وتركِها يا إميلُ العزيز! إن من الجميل أن يقدِرَ العاشقُ على العيش من غير خليلته، وأمَّا الزوجُ فلا يجوز له أن يترك زوجته بلا ضرورةٍ مطلقًا، وأرى لشفاءِ وساوسِك أن تكون مُهَلُك غيرَ إرادية، فتستطيعَ أن تقول لصوفية إنك تتركها على الرغم منك. حسنًا! كُن راضيًا، واعرِف لك مُعلِّمًا آخرَ ما دمتَ لا تُطيعُ العقل، وأنت لم تنسَ العهدَ الذي قطعتَه لي، ولا بُدَّ من ترْك صوفية يا إميل، وهذا ما أريد.»

سَمِع هذه الكلمة، فخَفَضَ رأسَه وسَكَتَ، وسَبَحَ في الخيال دقيقة، ثُمَّ قال لي وهو ينظر إليَّ مطمئنًّا: «ومتى يجب أن نرحل؟» وأقول: «في مدة أسبوع، ولا بدَّ من إعداد صوفية لهذا الرحيل؛ فالنساء أكثرُ ضَعْفًا، ولا بُدَّ من مداراتهن، وبما أن هذا الغياب ليس واجبًا عليها كما هو علينا فإنه يُباح لها أن تحتمله بشجاعة قليلة.»

ولم أبلُغ من الإغواء بالتطويل حتى فَصْلي عن فِتْياني يوميةَ مَعَاشقهم، ولكنني ما فتئتُ منذ زمنٍ طويلٍ أُغَرُّ بمسامحة القرَّاء، فلْألتزِمْ جانبَ الاختصار حتى أنتهي من القصة مرة، وهل يجرؤ إميلُ أن يُبديَ لصاحبته ما أبداه لصديقه من يقين؟ أمَّا أنا، فأذهب إلى هذا؛ فمن حقيقةِ حُبِّه نفسِها ما يجب أن يستنبط هذا اليقين، وهو يَكون أكثرَ ارتباكًا أمامها لو كان أقلَّ اكتراثًا لترْكِها، وذلك أنه يَتركها مذنبًا ما رَبَكَ هذا الدَّورُ الفؤادَ الصالحَ دائمًا. بَيْدَ أن التضحية كلَّما كلَّفَتْه كثيرًا باهَى بها أمام تلك التي جعلتها له أمرًا شاقًّا، وهو لا يَخشى أن تُخطِئ في فهْم الباعث الحافز له على عزْمه، فيلوح أنه يقول لها عند كلِّ نظرةٍ: «أيْ صوفية! اقرئي في فؤادي، وكوني وفيَّةً لي؛ فليس عاشقُك بلا فضيلة.»

وتحاول صوفيةُ الأَنُوفُ من ناحيتها أن تحتمل، مع الوقار، ما وُجِّهَ إليها من ضَربةٍ غيرِ منتظَرة، وتبذل جُهْدَها أن تبدوَ غيرَ متأثِّرةٍ بها، ولكن بما أنه لم يَكُن لها، كما كان لإميلَ، شرفُ المبارزة والفوز، فإنها لم تُطِق الصدمة، فتبكي وتئنُّ على الرغم منها، وما يُخامرها من خشيةِ نسيانها يزيد ألمَ الفِراق، وليس أمام عاشقها ما تبكي، وليس له ما تُبدي مخاوفَها، وهي تُفضِّل أن تَختنق على أن تَدَع أنَّةً تُفلِتُ منها أمامه، وإنما أنا الذي يتلقَّى شكواها ويرى دموعها، وإنما أنا الذي تُظهِرُ اتخاذَه نجيًّا لها، ومن خصائص النساء أن يَكُنَّ حاذقاتٍ فيَعْرِفن أن يتنكَّرْن، فكلَّما كانت تتذمَّر من استبدادي خِفيةً كانت تُعنَى بمداراتي. ولا عَجَب؛ فهي تشعر بأنني قابضٌ على مصيرها.

وأُسْليها، وأُسَكِّن رَوْعَها، وأجْعَل نفسي مسئولًا عن عاشقها، وإن شِئتَ فقُلْ عن زوجها، فلتحفظْ له عينَ الوفاء الذي سيحْمِلُه لها، وسيكون لها في عامين، وسيكون زوجًا لها في عامين كما أُقسِم، وهي تَحمِل لي من التقدير ما يكفي لاعتقادها أنني لا أريد مخادعتَها، وأنا ضامنٌ لكلٍّ منهما نحو الآخر، وما عندهما من فؤادٍ وفضيلة، وما عندي من نزاهة، وما عند والديها من ثقة، أمورٌ تُلقي الطُّمأنينةَ فيهما، ولكن ما نَفعُ العقلِ أمام الضعف؟ فهما يفترقان كأنَّه قُدِّر على كُلٍّ منهما ألَّا يَرى الآخر أبدًا.

وهنالك تَذكُر صوفيةُ حَسَراتِ أُوكاريسَ، وتَظُنُّ أنها في مكانها، ولا نُثِرْ أمرَ هذه المعاشقِ الخيالية في أثناء الغياب مطلقًا، وأقول ذاتَ يومٍ لِصوفيةَ: «أيْ صوفية، تَبادلي الكتب أنتِ وإميل، فأَعْطيه كتاب «تِلِماك» كيْما يتعلَّمُ كيف يشابهه، وليُعْطِك كتابَ «الناظر» الذي تُحبِّين قراءته، وادرُسي فيه واجبات النساء الصالحات، واذكري أن هذه الواجبات ستكون واجباتك في عامين.» ويَروق هذا التبادلُ الاثنَين ويُنْعِم عليهما بالثقة، وأخيرًا يَحِلُّ اليومُ الكئيب، فيجبُ الافتراق.

وحين الوداع يعانقني أبو صوفية الوقورُ الذي اتفقتُ معه على كل شيء، ثُمَّ يختلي بي ويقول لي هذه الكلمات بصوتٍ رصينٍ مع لهجةٍ مُوَكَّدة: «لقد صنعتُ كلَّ شيءٍ يُرضيك، وقد عَرَفتُ أنني أُعامِل رجلًا شريفًا، ولم يبقَ عندي غيرُ كلمةٍ أقولها لك، وهي: ذكِّر تلميذك بأنه وقَّعَ عقدَ الزواج على فم ابنتي.»

ويا لَلْفَرْق في هيئة العاشقَين! فأمَّا إميلُ الصائلُ المشتعلُ الهائجُ المضطرب فيبكي بصوتٍ عالٍ ويَسكُب سيولًا من الدموع على أيدي الأب والأم والبنت، ويعانق منتحِبًا جميعَ من في البيت، ويُكرِّرُ ذاتَ الأمورِ ألفَ مرةٍ بشيءٍ من الاختلال يوجِب الضَّحك في كلِّ مناسبةٍ أخرى. وأمَّا صوفيةُ العبوسُ المتقَعةُ الكابيةُ العينِ القاتمةُ الناظر، فتبقى ساكنةً ولا تنبس بكلمة، ولا تبكي مطلقًا، ولا ترى أحدًا حتى إميلَ، ومن العبث أن يتناول يديها وأن يعانقها؛ فقد بقيتْ فاقدةَ الحركة غيرَ متأثِّرَةٍ بدموعه وملامساته وكلِّ ما يَفْعَل، ولا غَرْو؛ فهو في نظرها قد ذهب، وما أكثرَ ما يكون هذا المنظرُ أعظمَ تأثيرًا من عويل عاشقها المزعج وحسراتِه الصاخبة! وهو يراه، وهو يَشعُر به، وهو محزونٌ منه، وأجُرُّه بمشقة، ولو تركته دقيقةً أخرى ما رَضيَ الانصراف، وقد سَرَّني أن حَمَلَ معه هذه الصورة المحزنة، فإن سوَّلَت له نفسه أن ينسى ما يَجِبُ عليه نحوَ صوفية ذَكَرَها كما شاهدها حين انصرافه، فوَجَبَ أن يكون أَخْبَلَ الفؤاد إذا لم أستطِع ردَّه إليها.

السِّيَاحات

يُسْألُ هل من الحَسَن أن يَسيحِ الشُّبَّان، ويُجادَل حوْل هذا كثيرًا، ولو اقترُح أن يكون السؤالُ غيرَ هذا، فسُئِلَ هل من الحَسَن أن يَسِيحَ الرجال، لكان الجِدالُ حَوْل هذا أقلَّ مما حَوْل ذاك.

فسوءُ استعمال الكتب يَقتل العلم، وذلك أنَّ النَّاس إذ يعتقدون معرفة ما يقرءون يعتقدون أنَّهم في غِنًى عن تعلُّمه، ولا ينفعُ كثيرٌ من القراءة لغير صُنْع جاهلين مُعجَبين بأنفسهم، ولو نُظِرَ إلى جميع عصور الأدب ما وُجِدَ عصرٌ يُطالَعُ فيه بمقدار ما يُطالَعُ في هذا العصر، وما وُجِدَ عصرٌ يُسفِرُ فيه ذاك عن قليلِ علمٍ كما في هذا العصر، ولا تَجِدُ في جميع أوروبة بلدًا تُطْبَعُ فيه كتبٌ في التَّارِيخ والرحلات كما يُطبع في فرنسة، ولا تجد مع ذلك بلدًا أقلَّ من فرنسة معرفةً بعبقرية الأمم الأخرى وطبائعها، وكثيرٌ من الكتب ما يَحْمِلُنا على إهمالِ كتابِ العالَم، أو إننا إذا ما قرأناه استمسك كلُّ واحدٍ مِنَّا بصحيفته، ولو كانت كلمة «أيُمكنُ الإنسانَ أن يكون فارسيًّا؟» مجهولةً لديَّ لانصرف ذهني عند سماعها إلى صدورها عن البلد الذي هو أكثرُ البلدان خضوعًا للمُبْتَسَرات القومية وعن أكثر الجنسين نشرًا لها.

ويَظُنُّ الباريسيُّ أنه يَعْرِف النَّاس مع أنه لا يَعْرِف غيرَ نفسه، وهو يَعُدُّ في مدينته الزاخرة بالأجانب دائمًا كلَّ أجنبيٍّ حادثًا عجيبًا لا مثيلَ له في العالم، ويجب أن يُنظَرَ إلى بُرجوازية هذه المدينة الكبرى عن كَثَب، ولا بُدَّ من العيش معهم، ليُرى كيف يُمْكِن الواحدَ أن يكون غبيًّا بمقدارِ ما هو ذكيٌّ، ووجهُ الغرابةِ في الأمر هو أن كلَّ واحدٍ منهم قرأ عشرَ مراتٍ على ما يحتمل وصفًا للبلد الذي يُثيرُ الواحدُ من سُكَّانه عَجَبَه.

ومن الأمور الشاقة كثيرًا كشفُ مُبْتَسَرات المؤلفين ومُبْتَسَراتنا معًا للوصول إلى الحقيقة، وقد قضيتُ حياتي في مطالعة كتب السياحة فلم أجد اثنَين منها قَطُّ قد أعطياني عينَ الفكرة عن عينِ الشعب، وإني حين قابلتُ بين القليل الذي استطعتُ ملاحظته بما كنت قد قرأت، انتهيتُ إلى ترْكِ السُّيَّاح هنالك آسفًا على الوقت الذي أنفقتُ في التعلُّم من كتبهم، معتقدًا أنه يجب أن يُرى الشيءُ لا أن يُقرَأ في الأمور القائمة على الملاحظة من كلِّ نوع، ويكون هذا صحيحًا في مثل هذه الحال حين يكون جميع السُّيَّاح مخلصين فلا يَرَوْن غيرَ ما يَرَوْن أو ما يعتقدون، ولا يُنَكِّرون الحقيقة بما تَتَّخِذ في عيونهم من ألوان زائفة، وما يكون ذلك إذا ما وَجَبَ تمييزُ الحقيقة من خلال أكاذيبهم وسوء نيتهم!

ولنترُكْ إذنْ وسيلةَ الكتبِ التي يُباهَى بها عندكم لِمَن كُوِّنوا للاكتفاء بها؛ فهي صالحةٌ صلاح فنِّ ريمون لُول، لِتَعلُّم الهَذْر حوْل ما لا يُعْرَفُ مطلقًا، وهي صالحةٌ لتعليم الأفْلَاطُونِين البالغين من العُمُر خمسة عشر عامًا أن يتفلسفوا في الأندية ولإطلاع النَّاس على عادات مصرَ والهندِ وَفْقَ ما قرَّره بول لُوقا أو تافِرْنيه.

ومن المبادئ المُسلَّم بها عندي أن مَن لم يَرَ غيرَ أُمَّةٍ لا يَعْرِفُ سِوى مَن عاش معهم بدلًا من أن يَعْرِف الرجال، وإليك إذنْ وجهًا آخرَ لِوضع عين المسألة عن السياحات، وهي: أيكفي الرجلَ الحسنَ التنشئةِ ألَّا يَعْرِف غيرَ مواطنيه، أم إن من المهمِّ أن يَعْرِف النَّاسَ على العموم؟ عاد لا يكون هناك شكٌّ ولا جدال، ورَوْا مقدارَ ما يتوقَّف حلُّ المسألة الصَّعبة أحيانًا على الوجه الذي تُوضَعُ به.

ولكنْ أيجب أن يُطاف في جميع الأرض لدراسة النَّاس؟ وهل يجِب الذهاب إلى اليابان لملاحظة الأوروبيين؟ وهل من الواجب معرفةُ جميع الأفراد لمعرفة النوع؟ كلَّا، وإنما يوجد من النَّاس مَن يتشابهون كثيرًا، فلا ضرورةَ لدرْسهم على انفراد، ومن رأى عشرة فرنسيين فكأنما رأى الفرنسيين جميعًا. ومع أنه لا يُمكن أن يُقال عن الإنكليز وبعضِ الأمم الأخرى ما يُقال عن أولئك، فإن من الثابت أن لكلِّ أمةٍ سجيتَها الخاصة بها المميزةَ لها، والتي تُستَنبَط بالاستقراء القائم على ملاحظةِ كثيرٍ من أفرادها، لا على فردٍ واحدٍ منها، ومَن يقارن بين عشرِ أممٍ يَعْرِفِ الرجال، كما أن الذي يَرى عشرةَ فرنسيين يَعْرِفُ الفرنسيين.

ولا يكفي الطوافُ في البلدان للوقوف عليها، وإنَّما يجب أن يُعْرَف كيف تكون السِّياحة، وتستلزم الملاحظةُ وجودَ عيونٍ وتوجيهَ هذه العيون نحوَ الموضوع الذي تُراد معرفتُه، ويُوجَدُ كثيرٌ من النَّاس مَن تُعَلِّمُهم الرحلاتُ أقلَّ ممن تُعلِّمهم الكتب؛ وذلك لأنَّهم يجهلون فنَّ التفكير، ولأن ذهنهم يُوجَّه في المطالعة من قِبَل المؤلِّف على الأقل، ولأنهم لا يَعْرِفون أن يَرَوا في الرحلات شيئًا بأنفسهم. ويوجَدُ آخرون لا يتعلَّمون شيئًا لأنهم لا يريدون أن يتعلَّموا، ويبلُغُ موضوعهم من الاختلاف عن ذلك ما لا يَقِفُ نظرَهم معه مُطلَقًا، ومن المصادفة العظيمة إذا ما رأَوا تمامًا ما لا يبالون برؤيته مطلقًا، والفرنسيُّ بين جميع أمم الأرض هو أكثرُ مَن يسيح، ولكن بما أنه طافحٌ بعاداته، فإنه يخلِط بين جميع ما لا يشابهها. ويُوجَد فرنسيون في جميع زوايا العالم، ولا يُوجَدُ بلدٌ مشتملٌ على أناسٍ قاموا بسياحات كمن تشتمل عليهم فرنسة، ومع ذلك فإنك لا ترى بين جميع أمم أوروبة كالفرنسيين مَن تَقِلُّ معرفتهم للأمم على الرغم من كونهم أكثرَ الأمم مشاهدةً لها.

والإنكليزيُّ يسيحُ أيضًا، ولكنْ على طرازٍ آخَر، فوَجَبَ أن تكون هاتان الأمَّتان متناقضتَين في كلِّ شيء؛ فأشراف الإنكليز يسيحون، وأشراف الفرنسيين لا يسيحون مُطلَقًا، وأهلُ فرنسة يَسيحون وأهلُ إنكلترة لا يسيحون مُطلَقًا، وللإنكليز فخرٌ بهذا الاختلاف كما يَظهر لي، والغُنْم تقريبًا هو ما يهدف إليه الفرنسيون في سياحاتهم دائمًا، ولكن الإنكليز لا يبتغون الثراء لدى الأمم الأخرى مطلقًا، ما لم يكن هذا عن تجارةٍ ومع امتلاء يد؛ فهم إذا

ما ساحوا كان هذا لإنفاق مالهم، لا ليعيشوا بحيلة، وهم من الزَّهو ما لا يَتمسْكنون معه خارجَ بلادهم، ومن شأنِ هذا أن يكون تَعلُّمهم لدى الأجنبي أفضلَ مما يتفق للفرنسيين الذين يدور في رءوسهم غَرَضٌ آخَر، ومع ذلك فإن للإنكليز مُبْتَسَراتهم القومية، حتى إن لديهم منها أكثرَ مما لدى أيِّ إنسانٍ كان، غير أن هذه المُبْتَسَرات قائمةٌ على الهوى أكثر مما على الجهل، وللإنكليزيِّ مُبْتَسَراتُ الكبرياء وللفرنسي مُبْتَسَرات الخُيَلاء.

وبما أن أقلَّ الأمم ثقافةً أكثرُها حكمةً على العموم، فإن أقلَّها سياحةً أفضلُها سياحة، وذلك بما أنها أقلُّ مِنَّا تقدُّمًا في المباحث التافهة وأقلُّ اشتغالًا بأمور فُضُولنا الفارغ، فإنها تُوجِّه جميعَ انتباهها إلى ما هو مفيدٌ حقًّا، ولا أعْرِف غيرَ الإسبان مَن يَسيحون على هذا الطراز؛ فبينما يُهرَعُ الفرنسي إلى متفنني البلد، وبينما يحصل الإنكليزي على نُسخٍ عن العاديَّات، وبينما يحمل الألماني أَلْبُومَه[٢٤]* لدى جميع العلماء، يَدْرُس الإسباني صامتًا الحكومةَ والطِّباع والضابطة، والإسباني هو الوحيد بين الأربعة مَن إذا عاد نَقَلَ مما شاهَدَ بعضَ الملاحظات المفيدة لبلده.

وكان القدماءُ قليلي السياحة قليلي المطالعة قليلي التأليف، ومع ذلك فإنه يُرَى فيما بَقِيَ لنا منهم أنهم كانوا يلاحظون بعضَهم بعضًا ملاحظةً أفضلَ من ملاحظتنا مُعاصِرينا. وإنَّا من غير رجوعٍ إلى تآليف أُوميرس، هذا الشاعر الوحيد الذي ينقُلُنا إلى البلاد التي يصِفُها، لا نستطيع أن نحبِس عن هيرودتْس شرفَ تصويره الطبائعَ في تاريخه، ومع أن هذا كان بطريق الخبر أكثرَ مما بإنعام النظر، فإنه أفضلُ مما يَصنع مؤرخونا الذين يشحنون كتبهم بالرسوم والحروف. وقد وصف تاسيتُ جِرْمان زمنه بما لم يصف به كاتبٌ ألمانَ الوقت الحاضر. ولا مِراءَ في أن الذين يُكِبُّون على التَّاريخ القديم يَعْرِفون الأغارقةَ والقرطاجيين والرومان والغوليين والفرس معرفةً أحسنَ من معرفة أيةِ أُمَّةٍ في الوقت الحاضر لجاراتها.

ومما يَجب أن يُعتَرَفَ به أيضًا أن أخلاقَ الأممِ الأصليةَ تَزول يومًا بعد يوم، فيصير إدراكُها أكثرَ صعوبة، وكلَّما امتزجت العروقُ واختلطت الأممُ رُئي بالتدريج زوالُ هذه الفروقِ القومية التي كانت تَقِفُ النظرَ أوَّل وهلةٍ فيما مضى. وكانت كلُّ أمةٍ في الماضي أكثرَ اقتصارًا على نفسها؛ فقد كانت الأمم أقلَّ اتِّصالًا وأسفارًا ومصالحَ مشتركةً أو متباينة،

[٢٤] * Album.

وأقلَّ صلاتٍ سياسيةً وعلائقَ مدنية، وقد كانت أقلَّ عِلْمًا بهذه القَرْقعات المَلَكية التي تُسَمَّى مفاوضات، وكان لا يوجد سفراء عاديون أو مقيمون دائمون، وكان كِبارُ الملاحين نادرين، وكانت التجارةُ القاصيةُ قليلة، وما كان من هذه التجارة القليلة يَقوم به الأميرُ نفسُه، فيستخدِم فيها أناسًا من الأجانب أو أناسًا أذِلَّةً لا تأثير لهم في الآخرين ولا يكونون للأمم جامعين، وما بين أوروبة وآسية من صلاتٍ في الوقت الحاضر أكثرُ مائةَ مرةٍ مما كان بين إسبانية وبلادِ الغُول، وكانت أوروبة وحدَها أكثرَ تفرُّقًا من جميع الأرض في أيامنا.

وإلى ذلك أضيفوا أنَّ الأمم القديمة، إذ كانت تَعُدُّ نفسَها في الغالب سُكَّانًا أصليين لبلادها الخاصة، كانت تشغلُ هذه البلاد منذ زمنٍ طويلٍ محوًا لذكرى القرون البعيدة التي فيها استقرَّ أجدادُها بها، وتَرْكًا للإقليم من الوقت ما يجعلُ فيها انطباعاتٍ دائمة، وذلك بدلًا من كون مهاجرات البرابرة الحديثة قد مَزَجَت كلَّ شيءٍ وخَلَطَت كلَّ شيءٍ بيننا بعد غَزَوات الرومان، وعاد فرنسيو اليومَ لا يَكونون ذوي أجسام طويلة شُقْرٍ بَيض كما في الماضي، وعاد الأغارقةُ لا يَكونون أولئك الآدميين الحِسانَ الذين صُنِعوا ليَصلُحُوا نماذجَ للفن، وقد غيَّرَت وجوهُ الرومانِ أنفسِهم طابعَها كما غيَّروا طِباعَهم، ويفقدُ الفُرسُ الذين يرجع أصلهم إلى بلاد التتر، كلَّ يومٍ شيئًا من شناعتهم الأُولى باختلاط الدم الشَّركسي، وعاد الأوروبيون لا يَكونون غُوليِّين ولا جِرمانًا ولا إيبِريين ولا من الألُّوبُورْج، وإنما هم من الشِّيت الذين اختلفُوا تَحوُّلًا من حيث الوجوهُ والأخلاق.

وهذا هو السبب في كَوْنِ الفروق القديمة بين العروق، وفي كونِ خصائص الهواء والأرض كانت تَميزُ أقوى تمييزٍ بين أمَّةٍ وأمَّةٍ في الأمزجة والوجوه والطبائع والأخلاق؛ فلا يُمكِنُ أن يَظْهَرَ هذا في أيامنا التي لا يَدَعُ فيها تقلُّبُ الأمور في أوروبة لأيِّ داعٍ طبيعيٍّ من الوقت ما يَطبَعُ فيه طابعَه، والتي عادت فيها الغابات المُختبَطة والمستنقعاتُ المجففةُ والأرضُ المزروعة على نَمطٍ واحد، مع سوءِ فِلاحة، لا تَدَع حتى في المظهر الطبيعي عينَ الفرْق بين أرضٍ وأرضٍ وبين بلدٍ وبلدٍ.

ومن المحتمل أنَّه، إذا ما نُظِرَ إلى مِثل هذه التأمُّلات، يُتورَّع بعض الشيء عن تحويل هِيرُودُتْس وكتِيزياس وبليني إلى مَهْزَأةٍ لأنَّهم عَرَضوا سُكَّانَ مختلفِ البلدان بأوصافٍ أصليةٍ وفروقٍ بارزةٍ عُدْنا لا نَجِدها فيهم، ولا بُدَّ من العثور على عين الآدميين لتُعرَف فيهم عينُ الوجوه، ولا بُدَّ من عدمِ تغيير شيءٍ لهم حتى يكونوا قد بَقَوا عينَ النَّاس، وإذا ما

استطعنا أن ننظر في وقتٍ واحدٍ إلى جميعِ النَّاس الذين كانوا، فهل من الممكن أن نَشُكَّ في أننا نَجِدُ فروقًا بين قرنٍ وقرنٍ أعظمَ مما نَجِدُ اليومَ بين أُمَّةٍ وأخرى؟

وفي الوقت الذي تَغْدو فيه هذه الملاحظاتُ أكثرَ صعوبةً يتمُّ أمرُها تمامًا أكثرَ إهمالًا وأعظمَ سوءًا، وهذا سببٌ آخرُ لقلة نجاح مباحثنا في التَّارِيخ الطبيعي للجنس البشري. وتتوقَّف المعارفُ التي تُكتَسَب من السياحات على الغَرَض الذي أوجب هذه السياحات، فإذا كان هذا الغرض نظامًا فلسفيًّا لم يَرَ السائح غيرَ ما يريد أن يَرَى، وإذا كان هذا الغرضُ مصلحةً استغرقت جميعَ انتباه مَن يُكِبُّون عليها، ومن شأنِ التجارةِ والفنونِ التي تَمزُج الأمم وتَخلِط بينها أن تَحُولَ دون دراسة بعضها لبعض؛ فإذا عَرَفتْ هذه الأممُ كيف ينتفع بعضُها من بعض فما زيادة المعرفة التي تحتاج إليها؟

ومِمَّا يَنفَع الإنسانَ أن يَعْرِف جميعَ الأماكن التي يُمكن أن يعيش فيها حتى يَختار، فيما بعدُ، أيُّها يستطيع أن يعيش فيه بأكثرِ ما يكونُ سهولة، وإذا كان كلُّ واحدٍ يكفي نفسَه بكَدِّه لم يُهِمَّه غيرُ معرفة اتساع البلد الذي يُمكِن أن يُغذِّيَه. وأمَّا الهمجي الذي لا يحتاج إلى أحد ولا يتشوَّف إلى شيءٍ في الدنيا، فإنه لا يَعْرِف ولا يحاول أن يَعْرِف بلادًا أخرى غيرَ بلده، وهو إذا ما اضطرَّ إلى التوسُّع ليعيش تجنَّبَ الأماكن العامرة بالنَّاس وتَعَقَّب البهائم ولم يَحتَج إلى غيرها ليغتذي. وأمَّا نحن الذين يحتاجون إلى الحياة المدنية، والذين عادوا لا يَستغنون عن افتراس النَّاس، فإن من مصلحة كلِّ واحدٍ مِنَّا أن نتردَّد إلى البلاد التي يُوجَدُ فيها من الآدميين أكثرُ مما يُفتَرَس؛ ولذا فإن الجميع يتقاطرُ إلى رومة وباريس ولندن، وفي العواصم دائمًا يُباع الدمُ البشري بأبخسِ ما يكون ثمنًا، وهكذا فإنه لا يُعرَف غيرُ الأمم الكبرى، والأممُ الكبرى تتشابه كلُّها.

ويُقال إن عندنا من العلماء مَن يَسيحون ليَتثقَّفوا، وهذا خطأ؛ فالعلماء يَسيحون عن منفعةٍ كالآخرين، وعاد الأفلاطُونون والفيثاغُورون لا يُوجَدون، أو إنهم إذا وُجِدوا كانوا مِنَّا بعيدين. ولا يَسيح علماؤنا إلا بأمرٍ من البلاط، وهم يُرْسَلون على عَجَل وتُدْفَع إليهم نفقاتُ سفرهم، ويُؤدَّى إليهم مالٌ حتى يَرَوا هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي ليس موضوعًا خُلُقيًّا، وهم يَقضُون جميعَ وقتِهم في هذا الأمر الوحيد، وهم من الصلاح البالغ ما لا يَسرِقون معه ما يُعطَونه، وإذا حَدَثَ في بلدٍ ما أن ساح أناسٌ من مُحِبِّي الاطِّلاع على نفقتهم الخاصة كان هذا لتعليم النَّاس لا لدِراستهم مطلقًا. وليس العِلم هو ما يحتاجون إليه، بل الافتخار، وكيف يتعلَّمون في سياحاتهم أن يُلْقُوا نِيرَ المُبْتَسَر عنهم؟ والمُبْتَسَر هو الذي يقومون بسياحاتهم من أجْله.

ويُوجَد فرْقٌ بين السياحة من أجلِ مشاهدة البلد الأجنبي ومشاهدةِ الأمم الأجنبية؛ فالأمر الأوَّل هو ما يقوم به ذوو الفضول دائمًا، ولا يكون الأمر الثاني عندهم إلا ثانويًّا. وعكس هذا ما يجب أن يكون لمن يُريد أن يتفلسف، والولدُ يُلاحِظ الأشياءَ منتظرًا وقتَ قدْرته على ملاحظة النَّاس، ويجب أن يبدأ الرجلُ بملاحظة أمثاله، ثُمَّ يلاحِظ الأشياءَ إذا ما سَمَح له الوقتُ بذلك.

ومن سوء البرهنة، إذنْ، أن يُستَنْتج كونُ السياحاتِ غيرَ مفيدةٍ لأننا نسيء السياحة، ولكنه إذا سُلِّمَ بفائدة السياحات، فهل يَعني هذا ملاءمتَها لجميع النَّاس؟ كلَّا، وإنما تُلائم عددًا قليلًا جِدًّا من النَّاس، وإنما تلائم الرجالَ الذين يكونون من قوَّة النفس ما لا يُغْوَوْن معه إذا سَمِعوا دروسَ الخطأ، وما لا يُجذَبون معه لمثالِ العَيْب إذا ما رَأَوْه. والسياحاتُ تَدفع الجِبِلِّي إلى مَيْله وتُكمِل جعلَ الرجلِ صالحًا أو طالحًا. ومَن يَرجِع من الطَّواف في العالم يَكُن عند عَوْدته ما يَكُونه مَدى حياته؛ أيْ إنه يَرْجِع من الطواف أشرارٌ أكثرُ من الصالحين؛ وذلك لأن مَن يقومون بالسياحة يكونون عند انطلاقهم أكثرَ مَيلًا إلى الشرِّ مما إلى الخير. ومَن يَكُن من الشبان سيئ التنشئة سيئ السلوك فإنه يَقتبِس في سياحاته جميعَ عيوب الأمم التي يعاشِرُها، ولا يقتبس واحدةً من الفضائل التي تمازجُ هذه العيوب، ولكنَّ مَن هم سُعَداءُ مَوْلدًا، ومَن أُحْسِن بالتَّربية تَعَهُّدُ جِبِلَّتِهم الصالحة، فيَسيحون بقصدِ التثقُّف حقًّا، يعودون كلُّهم أكثرَ صلاحًا وأعظمَ مما كانوا عليه عند بدء سفرهم؛ فهكذا سيسيح إميل، وهكذا كان قد ساح ذلك الشابُّ الجديرُ بأفضل القرون، فأُعْجبتْ أوروبة الدَّهِشَةُ بمَزِيَّته، ذلك الشابُّ الذي مات في مَيْعَة شبابه من أجْل بلده، ولكن مع استحقاقه أن يعيش، ذلك الشابُّ الذي كان قبرُه المُزيَّنُ بفضائله وحدَها، ينتظر يدًا أجنبيةً تُكرِمه بنَثْرِ أزهارٍ عليه.

ويجب أن يكون لكلِّ ما يُفْعَل بالعقل قواعدُه، وإذا ما عُدَّت الرحلاتُ قِسْمًا من التَّربية وَجَبَ أن تكون لها قواعدُها. والسياحةُ للسياحة تَعني تَسكُّعًا وتشرُّدًا، وكذلك السياحة للتعلُّم تنطوي على أمرٍ غامضٍ جِدًّا، ولا تُعَدُّ السياحة الخالية من الغاية شيئًا مذكورًا، وكنت أَوَدُّ مَنْحَ الفتى غَرَضًا خاصًّا في التعلُّم، وهذا الغرض إذا ما أُحسِنَ اختيارُه قرَّر طبيعةَ التعلُّم أيضًا، وهذه تكملةٌ للمنهاج الذي حاولتُ مزاولتَه دائمًا.

والواقع أنَّه بَقيَ له أن يَنظُر إلى أمره من حيث علاقاتُه بمواطنيه بعد أن نَظَرَ إليه من حيث علاقاتُه الماديةُ بالموجودات الأخرى، ومن حيث علاقاتُه الأدبيةُ بالنَّاس الآخرين؛

ولذا فإنه يَجِبُ أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم، وبدراسة مختلف أشكال الحكومة، ثُمَّ بدراسة الحكومة الخاصة التي وُلِدَ في كَنَفِها، وذلك ليَعْرِف هل يلائمه العيش تحت ظِلِّها؛ وذلك لأن كلَّ إنسانٍ إذا ما بلغ سِنَّ الرُّشد وصار سيدَ نفسِه أصبح وَفْقَ حَقٍّ لا يستطيع شيءٌ أن يُلغيه، سيِّدًا أيضًا في العدول عن العَقْد الذي يرتبط به في المجتمع بتركِه البلدَ المستقِرَّ به، وليس بغير إقامته ببلده بعد سنِّ رشده ما يُعَدُّ مُؤيِّدًا تأييدًا ضمنيًّا للعهد الذي اتخذه أجدادُه، وهو يَكتسِب حقَّ التنزُّل عن وطنِه كما يَتنزَّل عن ميراث أبيه، ثُمَّ بما أن مكانَ المَوْلد هِبَةٌ من الطبيعة، فإنه إذا ما تَخلَّى عنه يكون قد تَخلَّى عن أمرٍ خاصٍّ به، وإذا ما نُظِرَ إلى الأمر من حيث الحقُّ الوثيقُ وُجِدَ أن كلَّ إنسانٍ يَظَلُّ حُرًّا على مسئوليته في أيِّ مكانٍ وُلِدَ فيه، وذلك ما لم يَخضع مختارًا للقوانين نَيْلًا لحقِّ حمايتها إياه.

ولذا فإنني أقول له مثلًا: «لقد عِشْتَ تحت إدارتي حتى الآن، وقد كنتَ عاجزًا عن تدبير أمرك بنفسك، بَيْدَ أنك تدنو من العُمُر الذي تترُك لك القوانينُ فيه حقَّ التصرُّف في مالك فتجعلُك وليَّ أمرك، وتُوشِك أن تجدَ نفسَك وحيدًا في المجتمع تابعًا لكلِّ شيء حتى لنفسك، وترغب في الزواج، وهذه الرغبة جديرةٌ بالثناء، وهي من واجبات الرجل، ولكن لا بُدَّ لك قبل أن تتزوج من أن تعرف أيَّ رجلٍ تريد أن تكون، وكيف تَقضي حياتك، وما التدابير التي تريد اتخاذَها لضمانِ عيشِك وعيشِ أُسْرتك؛ وذلك لأنه وإن كان لا ينبغي لنا أن نَجعل من هذا الأمرِ همَّنا الرئيسَ، يجب أن نُفكِّر فيه مرةً واحدة، وهل تُريد أن تكون تابعًا لأناسٍ تزدريهم؟ وهل تُريدُ توطيدَ ثروتِك وتثبيتَ وضْعِك بصِلاتٍ مدنيةٍ تجْعَلك تحت تصرُّف الآخرين بلا انقطاع، فيحمِلوك على أن تكون مَكَّارًا اجتنابًا للماكرين؟»

وفوق ذلك فإنني سأُبيِّنُ لك جميعَ الوسائل المكنة لاستغلال ماله سواء أفي التجارةِ أم في التكاليفِ أم في المالية، كما أنني سأُبيِّن له أنه لا يوجد في هذه الأمور ما لا ينطوي على خَطَرٍ يَناله، وما لا يَضَعُه في حالٍ تابعٍ غيرِ ثابت، وما لا يُنظِّم به طباعَه ومشاعرَه وسلوكَه على غِرار الآخرين ومُبْتَسَراتهم.

وسأقول له: «تُوجَدُ وسيلةٌ أخرى لاستعمال وقته وشخصه، وهي أن يلتحق بالجيش؛ أي أن يؤجِّر نفسَه بأجرٍ زهيدٍ ليذهبَ فيقتلَ أناسًا لم يصيبونا بأذًى قَط. ولهذه الحرفةِ اعتبارٌ كبيرٌ بين النَّاس، والنَّاس يُقِيمون وزنًا عجيبًا لمن لا يَصْلُحون لغير هذا، وفضلًا عن ذلك فإن هذه الحرفةَ تجْعلك مُضطرًّا كلَّ الاضطرار إلى الوسائل الأخرى بدلًا من إعفائك منها؛ وذلك لأنه يدخل ضِمن شرفِ هذه الحرفة بَوَارُ مَن يَحْبِسون أنفسَهم عليها. أجلْ، إن

البَوَار لا يُصيبُهم فيها جميعًا؛ فمن المُوضَة أن يُغْتنى فيها على وجهٍ غيرِ محسوسٍ كما في الحِرَف الأخرى، ولكنني أشُكُّ في أنني، إذا ما أوْضحتُ لك السُّبُل التي يتخذها مَن يَنْجَحون فيها، أجعلُك مُولَعًا بتقليدهم.

وستعلم كذلك أنَّ الأمرَ في هذه الحِرْفة نفسِها عاد لا يقوم على الشجاعة ولا على القيمة، ما لم يكن هذا لدى النساء على ما يحتمل، وعلى العكس يُرى أن الأنذلَ والأسفلَ والأذلَّ هو أكثرُ مَن يُكرَم دائمًا، فإذا ما عَنَّ لك أن تسلُكَ سبيلَ الصلاحِ والجِدِّ في حِرْفتك ازدُريتَ ومُقِتَّ وطُرِدتَ على ما يُحتمل، أو ذهبتَ ضحيةَ المحاباة فاغتصب زملاؤك مكانَك وحُمِلت على القيام بخدمتك في الخنادق على حين يقومون بخِدَمهم في تزيين أنفسهم.»

ومن المشكوك فيه أن تكون جميعُ هذه الخِدَم ملائمةً لذوقِ إميل، وسيقول لي: «ماذا! أنَسيتُ ألعابَ صِباي؟ وهل فقدْتُ ذراعيَّ؟ وهل نَفِدَت قُوَّتي؟ وهل عُدْتُ لا أعْرِف العمل؟ وما يُهِمُّني من جميع خِدَمِك الجميلة وجميعِ مُبْتَسَرات النَّاس؟ لا أعْرِف مجدًا غيرَ كوني مُحسِنًا مُنصِفًا، ولا أعرِف سعادةً غيرَ العيش مستقلًّا مع مَن أُحِبُّ كاسبًا كلَّ يوم صحةً وشهوةَ طعامٍ من عملي، وما كانت جميعُ الهموم التي تُكلِّفُني عنها لتؤثِّر فيَّ مُطلَقًا، ولا أرغبُ من الخيرِ في غيرِ مزرعةٍ صغيرةٍ في زاويةٍ من الدنيا، وسأبذل جهدي كلَّه في استغلالها، وسأعيش بلا هَم، وأعْطني صوفية وحقلي أكُ غنيًّا.»

«أجلْ يا صديقي، يكفي لسعادة الرجل الحكيم أن تكون له امرأةٌ وحقل، بَيْدَ أن هذه الكنوز غيرُ مألوفةٍ كما تظن، مع أنها معتدلة، وأندرُ الكنوز هو ما وجدتَ، فلنتكلمْ عن الآخَر.

حقلٌ لك يا إميل العزيز! ففي أيِّ مكان ستختاره؟ وهل تستطيع أن تقول في أية زاويةٍ من الأرض «إنني هنا سيدُ نفسي وسيدُ هذه الأرض الخاصة بي»؟ إننا نعرف الأماكن التي يسهُل على الرجل أن يصير غنيًّا فيها، ولكنْ مَن يَعْرِف المكانَ الذي يُستَغْنَى فيه عن الغِنى؟ ومَن يَعْرِف المكانَ الذي يُمكِنُ أن تُقضَى فيه حياةٌ مستقلةٌ طليقةٌ من غيرِ احتياجٍ إلى إيذاءِ أحدٍ ومن غيرِ أن يُخشى تلقِّي أذًى من أحد؟ وهل تَظنُّ أن من السهل كشفَ البلد الذي يُسمَح للرجل فيه دائمًا أن يكون صالحًا؟ وإذا وُجِدَتْ وسيلةٌ شرعيةٌ مضمونةٌ للعيش بلا مَكرٍ ولا خِصامٍ ولا خضوع، فإن هذا يَعني، كما أرى، عيشًا بكدِّ اليد، وذلك بزراعةِ الإنسانِ أرضَه الخاصَّة. ولكن أين الدولةُ التي يُمكن أن يُقال فيها «إن الأرض التي أطأُها خاصةٌ بي»؟ وتثبَّتْ قبْل اختيار هذه الأرض المبارَكة في أنك تَجِدُ فيها السلامَ الذي

تَنشُد، واحترِزْ من وجودِ حكومةٍ جافيةٍ ودِينٍ جائرٍ وأخلاقٍ فاسدةٍ تُنَغِّصُ عليك عيشَك في مكانك، واجعلْ نفسك في حِرْزٍ لها تستنفِد رأسَ مالك، واصنَعْ حين تقضي حياةً صالحةً ما لا تتزلَّف معه إلى المُدرَاء ومساعديهم وإلى القضاة والقساوسة والجيران الأقوياء، وإلى أصناف الخبثاء الذين يستعدُّون دائمًا لإيذائك إذا ما أهملتهم، وضعْ نفْسَك على الخصوص في مأمنٍ من جَنَف الكبراء والأغنياء. ولا يَغِبْ عن بالك إمكانُ مجاورة أرَضِيهم في كلِّ مكانٍ لكَرْمِ نابوتَ، وإذا قضى سوءُ حظِّك بأن يَشتري أو يبني رجلٌ في الحَوْزة بيتًا بالقرب من كوخك، فهلْ تجيب بأنه لن يَجِدَ وسيلةً يتذرَّع بها للاستيلاء على تُراثك ليُثرِي، أو أنك لن تراه يبلَعُ جميعَ مواردك توسيعًا لطريقٍ عامة؟ وإذا كان لك من الاعتبار ما تَحترِز به من جميعِ هذه المحاذير أمكنَك أن تَحفظ أرزاقَك لِمَا عاد حِفْظُها لا يُكلِّفُك شيئًا؛ فكلٌّ من الثراء والاعتبار يعتمد على الآخر تبادُلًا، ويكون تماسُك كلٍّ منهما من غير الآخرِ سيِّئًا.

وأنا أكثرُ منك تجرِبةً يا إميلُ العزيز، وأنا أحسنُ منك بصرًا بصعوبة مشروعك، ومع ذلك فإن مشروعَك رائع، ومع ذلك فإن مشروعك صالح، وهو يجعلك سعيدًا بالحقيقة، فلنبذُلْ جُهدَنا في تنفيذه، وإنما يُوجَد لديَّ اقتراحٌ أذكُره لك، وهو أن نُخصِّصَ العامَين اللذين انتحلناهما حتى رجوعك لاختيار ملجأ في أوروبة تستطيع أن تعيش فيه سعيدًا مع أُسرَتِك أمينًا من جميع الأخطار التي حدَّثْتُك عنها، وإذا ما وُفِّقنا وَجَدْتَ السعادة الحقيقية التي ينشدها أناسٌ كثيرون في الحقيقة، ولم تأسفْ على الوقت الذي بَذَلْتَ في هذا السبيل، وإذا لم نُوفَّق شُفِيتَ من وَهْم، وأسليتَ نفسَك عن مصيبةٍ لا مناصَ منها، وخضعتَ لسلطان الضرورة.»

ولا أدري هل يرى جميعُ قُرَّائي أين يَسوقنا هذا البحث المُقترَح هكذا، وإنَّما الذي أعْرِف جيِّدًا هو أن إميل إذا كان لا يعود من رحلاته، التي بُدِئت وأُديمت لهذا الغرض، مُطَّلِعًا على جميعِ أمورِ الحكومة والطبائع العامة وعلى جميع أنواع مبادئ الدولة، وجب أن يكون مُجرَّدًا من الذكاء، وأن أكون مُجرَّدًا من قوى التمييز.

ولَمَّا يُولَدِ الفِقْه السِّياسي، وقد يُفترَض أنه لن يُولَدَ مُطلَقًا، وليس غرُوسْيُوسُ — الذي هو أستاذُ جميعِ علمائنا في هذا الفَرْع — غيرَ ولدٍ، والأفظعُ من هذا أن يكون ولدًا سيئَ النية، وعندما أَسْمع رفعَ غروسيوسَ إلى الأَوْج الأعلى وغمْر هُوبْزَ باللعَنات أُبصِرُ مقدار قراءة ذوي الألباب لهما وإدراكهم إياهما. والواقعُ أن مبادئهما متشابهة تمامًا، وهما لا يختلفان في غير التعابير، وهما يختلفان في المِنْهاج أيضًا؛ فهُوبْز يعتمد على المغالطات،

وغروسْيُوس يعتمد على الشعراء، وإذا عدوْتَ هذا وجدتَ هذَين المؤلِّفين متفقَين في كل شيء.

ومُونْتِسْكيُو العصريُّ الشهيرُ وحدَه هو الذي استطاع وضعَ هذا العِلمِ العظيمِ غيرِ النافع، ولكنه لم يُراعِ مبادئَ الفقه السياسي، وإنَّما اكتفى بمعالجة الفقه الوَضْعي للحكومات القائمة، ولا شيءَ في العالَم أشدُّ اختلافًا من هاتَين الدراستَين.

ومع ذلك، فإنَّ الَّذي يريد أن يُصدِر حُكمًا صحيحًا في الحكومات القائمة مُلزَمٌ بجمْع ما بين الدراستَين؛ إذ لا بُدَّ من معرفة ما يجب أن يكون للحكم فيما هو كائن، وكلُّ الصعوبة في إلقاء نُورٍ في هذه الموضوعات المهمة هو في جَعْلِ الفردِ يناقش فيها فيُجيبُ عن هذين السؤالَين، وهما: ما يُهِمُّني؟ وما أستطيع أن أصنع؟ وقد وضَعْنا إميلَ في حالٍ يُجيبُ معه عن السؤالين.

وتأتي الصُّعوبةُ الثَّانية من مُبْتَسَرات الوَلُودِية، ومن المبادئ التي غُذِّينا بها، ولا سيَّما محاباةُ المؤلِفين الذين، إذ يُحدِّثون دائمًا عن الحقيقة التي لا يُبالون بها مطلقًا، لا يُفكِّرون في غيرِ مصلحتهم التي لا يتكلَّمون عنها مُطلَقًا. والواقع أن الشعب لا يمنح كراسيَّ ولا وظائفَ ولا أماكنَ في الأكاديمية، فليُحكَمْ في الوجه الذي يجب أن تقوم عليه حقوقُه من قِبَل أولئك النَّاس! وأمَّا أنا فقد صنعتُ ما تَكون به هذه الصعوبةُ أمرًا لا يُعتَدُّ به لدى إميل. وإميلُ لم يَكَد يَعرِفُ ما الحكومة، والشيء الوحيد الذي يُهِمُّه هو أن يَجِدَ أفضلَ الحكومات، وليس هدفُه أن يَضَعَ كتبًا، وهو إذا ما وَضَعَ منها فلن يكون هذا ليتزلَّف إلى السلطات، بل ليُوطِّد حقوقَ الإنسانية.

وبَقِيتْ صعوبةٌ ثالثة؛ فهذه الصعوبةُ مُموَّهةٌ أكثرُ منها متينة، ولا أرغبُ في حلِّها، ولا في تقديمها، وإنما أكتفي بألَّا تُرْهِب غَيْرَتي واثقًا في المباحث التي هي من هذا النوع، بأن المواهبَ الكبيرةَ أقلُّ لزومًا من حُبٍّ للعدلِ صادقٍ ومن إجلالٍ للحقيقة؛ ولذا فإن أمورَ الحكومة إذا ما أمكن أن تُعالَجَ الآن أو لم يُمكِن فذاك حظُّنا.

ولا بُدَّ من وضْعِ قواعدَ للملاحظة قبْل أن نلاحِظ، ولا بُدَّ من وضْعِ مقياسٍ يُرجَع إليه فيما يُتَّخَذُ من قياسات، ومبادئنا في الفقه السياسي هي هذا المقياس، وقياساتنا هي القوانين السِّياسيَّة لكلِّ بلد.

وستكون أصولُنا واضحةً بسيطةً مقتبسةً من طبيعة الأشياء مباشرة، وستتخذ شكلَ المسائل المُجادَل فيها بيننا، فلا نُحوِّلها إلى مبادئَ إلا بعْد حلِّها حلًّا كافيًا.

ومن ذلك أننا إذْ نَرْجِع في بدء الأمر إلى الحال الطَّبيعيَّة نبْحَث في هل يُولَدُ النَّاسُ عبيدًا أو أحرارًا، مشْتركين أو مستقلين، وهل يتَّحِدون طوْعًا أو كَرْهًا، وهل تستطيع القوة الأصلية التي تجمعهم تكوينَ حقٍّ دائمٍ تُلزِمهم به، حتى عند غَلَبها من قِبَل قوةٍ أخرى كالتي أَخْضعَ لها الملكُ نمرودُ الأممَ الأخرى على ما يُروى، فقوَّضتْ تلك، فغدتْ جائرةً أو غاصبة، وصار لا يُوجَد ملوكٌ شرعيون غيرُ أبناء نمرودَ أو مَن انتقلتْ إليهم حقوقُه، أو هل تُلْزِمُ القوةُ التي عَقَبَت القوةَ الأصليةَ بعد انقطاع هذه والقضاء على إلزامها، فلا يُجْبَرُ على إطاعتها إلا كَرْهًا، ويُحَلُّ منها عند إمكان مقاومتها؛ أي إن هذا الحقَّ لا يُضيف شيئًا إلى القوة كما يَلوح، ولا يكون غيرَ تلاعبٍ في الألفاظ.

وسنبحث في هل يأتي كلُّ مَرَضٍ من الرب، فيكونُ من الإجرام دعوةُ الطبيب.

وكذلك سنبحث في هل من مُقْتضَى الضميرِ تسليمُ كِيسِنا إلى قاطعِ طريقٍ يطلبه مِنَّا حتى عند استطاعتنا أن نخفيَه عنه؛ وذلك لأن الفَرْد[٢٥]* الذي يَحْمِل ينطوي على سلطانٍ أيضًا.

وهل كلمةُ السُّلطان هذه تَعْني في هذه المناسبة شيئًا آخَرَ غيرَ السلطان الشرعي، فيكون هذا السلطانُ خاضعًا للقوانين التي يَستَمِدُّ منها وجودَه؟

ولْنفترضْ نَبْذَ حقِّ القوة هذا جانبًا وانتحالَ حقِّ الطبيعةِ أو السلطانِ الأبويِّ كمبدأ للمجتمعات، فحينئذٍ نبحثُ عن مقياس هذا السلطان وعن كيفية قيامه في الطبيعة، وعن وجود سببٍ له غيرِ فائدةِ الولدِ وضَعْفِه وما يَحْمِل الأبُ من حُبٍّ طبيعيٍّ له، فإذا ما زال ضَعفُ الولد ونَضِجَ عقلُه أفلا يكون وحدَه قاضيًا طبيعيًّا فيما يلائم بقاءه؛ ومِنْ ثَمَّ ألَا يكون سيدَ نفسِه مستقلًّا عن أيِّ إنسانٍ آخَر، حتى عن أبيه؟ وذلك لأنَّ من الثابت أن الابن يُحبُّ نفسَه أكثرَ من حُبِّ الأبِ لابنه.

وإذا مات الأب، أفيُلزَم الأولادُ بإطاعة كبيرِهم أو بإطاعةِ آخرَ لا يَحمِلُ لهم حُبَّ الأبِ الطبيعي؟ وإذا ما كان الأمرُ بين سُلالةٍ وأخرى، أفيوجد رئيسٌ واحدٌ دائمًا؟ وهل يُبحث في مثلِ هذه الحال عن الوجهِ الذي يُمكِن أن يُقْسَم به السلطان، وعن الوجه الذي يَكون به في العالَم أكثرُ من رئيسٍ للسيطرة على النوع البشري؟

---

[٢٥] * Le pistolet.

ولْنفترِضْ أن الأقوامَ تَكوَّنوا باختيارهم، فهنالك نَميزُ بين الحقِّ والواقع، فنسأل قائلِين إنهم إذا كانوا قد خضعوا على هذا الوجه لإخوتهم أو أعمامهم أو أقربائهم طَوْعًا لا كَرْهًا، أفلا يَدخُل هذا النوعُ من المجتمع نطاقَ الجماعة القائمة على الحرية والاختيار.

ثُمَّ ننتقل إلى حقِّ الرِّق، فنبحثُ في هل يستطيع الإنسانُ أن يَبيعَ نفسه من آخرَ بلا قيدٍ ولا تَحَفُّظٍ ولا أيِّ نوعٍ من الشُّروط؛ أي هل يستطيع أن يتنزَّل عن شخصه وحياته وعقله وذاتيته وكلِّ خُلُقيَّةٍ في أفعاله، والخلاصةُ أن ينقطع عن الوجود قبْل موته على الرغم من الطبيعة التي تفرض عليه أمرَ حِفْظِ نفْسه حالًا، وعلى الرغم من ضميره وعقله اللذين يُلزِمانه بما يجب أن يَصنع وبما يَجب أن يَمتنع عنه.

وإذا ما وُجِد تحفُّظٌ أو قيدٌ في سَنَد الرِّق، فإننا نناقشُ في هل هذا السَّند لا يُصبح إذ ذاك عَقدًا حقيقيًّا لا يكون فيه لكلٍّ مِن المتعاقدَين مولًى مشترك،[٢٦] بهذه الصِّفة فيبقيان قاضِيَيْ نفسهما الخاصَّين من حيث شروط العَقد؛ ومِنْ ثَمَّ يكون كلٌّ منهما حُرًّا في هذا الاتفاق قادرًا على نقضِ العهدِ عندما يُقدِّر أنه ضارٌّ به.

وإذا كان العبدُ لا يستطيع أن يبيعَ نفْسَه من مولاه بلا تَحَفُّظ، فكيف تستطيع الأمَّة أن تبيع نفسها من رئيسها بلا تحفُّظ؟ وإذا كان العبد يبقى قاضيًا في أمر مراعاة مولاه للعَقد، فكيف لا يَبْقى الشعبُ قاضيًا في أمرِ مراعاة رئيسه للعَقد؟

ونحن، إذ نجِدُ أنفسَنا مُلْزَمِين بالعود إلى الوراء على هذا الوجه ناظرين إلى هذا المعنى الجماعيِّ لكلمة الأمة، نبحثُ لإقامة الأمة في هل يَجِبُ وجودُ عقدٍ ضمنيٍّ على الأقلِّ سابقٍ للذي نفترضه.

وما دامت الأمَّةُ أُمَّةً قبل أن تنتخب لها مَلِكًا، فما الذي جعلها أمَّةً إن لم يكن العَقد الاجتماعي؛ ولِذا فإن العقدَ الاجتماعيَّ أساسُ كلِّ مجتمع مدني؛ ففي طبيعة هذا العَقد يَجِبُ أن يُبحَث عن طبيعة المجتمع الذي يؤلِّفه.

وسنبحث في فَحوَى هذا العَقد، ونَرى هل من الممكنِ أن يُعبَّر عنه بالصيغة الآتية، وهي: «إن كلَّ واحدٍ مِنَّا يَضَعُ بالاشتراك أموالَه وشخصَه وحياتَه وجميعَ قُوَّته تحت الإدارة العليا للإرادة العامة، فنَقْبَلُ كهيئة، كلَّ عضوٍ جزءًا من المجموع لا يَتجزَّأ.»

---

[٢٦] إذا ما كان لهما مثل هذا المولى المشترك لم يكن هذا المولى غيرَ السيد، وهنالك لا يكون حقُّ الرِّق القائم على حق السيادة أصلًا له.

وإننا بعد افتراض هذا سنلاحظ لتعيين العباراتِ التي نحتاج إليها أن عَقْد الاجتماع هذا يُوجِبُ هيئةً أدبيةً جماعيةً مؤلَّفةً من أعضاءٍ بمقدارِ ما في المجلس من أصوات، وذلك بدلًا من ملاحظة الشخصية الخاصة لكلِّ متعاقِد، وعلى العموم يتَّخِذُ هذا الشخص العام اسم «الهيئة السِّياسيَّة» التي يُطلِقُ أعضاؤها عليها اسمَ «الدولة» إذا كانت منفعلةً، واسمَ «السيد» إذا كانت فاعلة، واسمَ «السلطان» إذا ما قُورِنت بنظيراتها، وأمَّا الأعضاء أنفسهم فإنهم يتخذون اسمَ «الأمَّة» جَمْعًا، واسمَ «مواطنين» أفرادًا، كأعضاءِ «الوطن» أو شركاءَ في السلطان ذي السيادة، واسمَ «رعايا» كخاضعين للسلطان عَيْنِه.

وسنلاحِظ أن عَقْد الاجتماع هذا ينطوي على عهدٍ متقابل بين الجمهور والأفراد، فيكون كلُّ فردٍ متعاقدٍ مع نفْسِه على هذا الوجه مُلزَمًا بصِلةٍ مضاعفة؛ أي كعضوٍ للسيد نحو الأفراد، وكعضوٍ للدولة نحو السيد.

وسنلاحِظ أيضًا أن كلَّ واحدٍ إذ لا يكون مُلزَمًا بغير التعهدات التي هو طَرَفٌ فيها، فإن التشاورَ العامَّ الذي يُلزِم جميعَ الرعايا نحو السيد، بسبب الصِّلتَين المختلفتَين اللتَين يُنظَر بهما إلى كلِّ واحدٍ منهم، لا يُمكِنُ أن يُلزِمَ الدولةَ نحو نفسها؛ ومِنْ ثَمَّ يُرَى أنه لا يُوجَد، ولا يُمكن أن يوجَدَ، قانونٌ أساسيٌّ آخرُ غيرُ الميثاق الاجتماعي وحدَه، وهذا لا يعني أن الهيئة السِّياسيَّة لا تستطيع من بعض الوجوه أن تُلزِم نفسَها نحوَ غيرِها؛ فهي تصيرُ نحوَ الأجنبيِّ كائنًا بسيطًا، تصيرُ فردًا.

وبما أنه لا يُوجَد للطَّرَفَين المتعاقدَين، أيْ للجمهور وكلِّ فرد، أيُّ رئيسٍ مشتركٍ قادرٍ على الحُكمِ في خصوماتهما؛ فإننا سنبحث في هل يبقى كلٌّ من الفريقين حُرًّا في نقض العقد متى شاء؛ أي أن يَعْدِل عنه من ناحيته إذا ما عَدَّه ضارًّا به.

وتنويرًا لهذه المسألة نلاحظ وَفْقَ الميثاق الاجتماعي أنَّ السَّيِّدَ إذ لا يستطيع أن يَسيرَ إلا بعزائمَ مشتركةٍ عامة، فإنَّه لا ينبغي أن يكون لأفعاله غيرُ أغراضٍ عامَّةٍ مشتركة، فينشأ عن هذا كونُ الفرد لا يُمكن أن يُضَرَّ مباشرةً من قِبَل السيد ما لم يُضَرَّ الجميع، ولا يُمكِنُ هذا أن يكون ما دام هذا يَعْني إصابةَ الواحدِ نفسَه بأذًى، وهكذا فإن العَقد الاجتماعي لا يحتاج إلى ضامنٍ آخرَ غيرِ السلطة العامة؛ وذلك لأنَّ الضَّررَ لا يُمكِن أن يصدُر عن غيرِ الأفراد، وهنالك لا يكون الأفرادُ مُعْفَوْن من عهدِهم، بل يُعاقَبون على نقضه.

وسنجتهد لتقرير جميع المسائل المشابهة في ذِكْرنا دائمًا أن الميثاقَ الاجتماعيَّ ذو طبيعةٍ خاصةٍ قاصرةٍ عليه وحدَه، وذلك من حيث كونُ الأمة لا تُعاقِدُ غيرَ نفسها؛ أي إنَّ الأُمَّة كهيئةٍ صاحبةٍ للسيادة تعاقِد الأفراد كرعايا، وعلى هذه الشروط يَقوم كِيان الجهاز

السياسي وسَيْره، وهذا الشرط وحدَه يجعل التعهُّدات شرعيةً معقولةً خاليةً من الخطر، ولولا هذه لكانت التعهداتُ خُرُقًا جائرةً عُرْضةً لأعظمِ ما يكون من سوء الاستعمال.

وبما أن الأفرادَ لا يَخضعون لغيرِ السيد، وبما أن السلطانَ صاحبَ السيادةِ ليس سوى الإرادة العامة، فإننا سنرى كيف أن كلَّ إنسانٍ إذْ يَخضع للسيد لا يخضع لغير نفسه، وكيف نكون في الميثاق الاجتماعي أكثرَ حُرِّيَّةً مِنَّا في الحال الطبيعية.

وإنَّا بعد أن قابلنا بين الحرية الطبيعية والحرية المدنية من حيث الأفراد، سنقابل من حيث الأموال بين حقِّ التملُّك وحقِّ السيادة؛ أي بين المِلْك الخاصِّ والمِلْك العام. وإذا كان السلطان ذو السيادة قائمًا على حقِّ التملُّك، فإن هذا الحقَّ يجب أن يكون أعظمَ ما يُحتَرَم من قِبَل ذاك السلطان، وهو يَبْقى مَصونًا مُقدَّسًا ما بَقِيَ حقٌّ فرديٌّ خاص، وهو إذا ما عُدَّ من فوْره مشتركًا بين جميع المواطنين خَضَع للإرادة العامة. وهذه الإرادة هي التي تستطيع أن تُبطِلَه. وهكذا فإنه لا يُوجَد للسيد أيُّ حقٍّ في مسِّ مالِ الفردِ ولا مالِ كثيرٍ من الأفراد، ولكنه يستطيع أن يستولي على مال الجميع استيلاءً شرعيًّا، وذلك كما وقع بإسبارطة في زمن ليكُورغَ، مع أن إلغاء الديون من قِبَل سولون عُدَّ عملًا غيرَ شرعي.

وبما أنه لا شيءَ يُكرِه الرعايا غيرُ الإرادة العامة فإننا سنبحث عن كيفية تجلِّي هذه الإرادة، وعن العلامات التي يُطمأنُّ إلى معرفتها بها، وعن معنى القانون، وعن صفاته الحقيقية، وهذا الموضوعُ تامُّ الجِدَّة، ولا يزال القانون يتطلَّب تعريفًا.

وإذا ما اعتبرت الأُمَّةُ واحدًا أو أكثرَ من أعضائها على انفرادٍ انقسمت من فوْرها، وتكوَّنت بين الكلِّ وجزئه صلةٌ تَجْعَلُ منهما موجودَين منفصلَين، فيكون الجزءُ أحدَ الموجودَين، ويكون الكلُّ بعد طرْح هذا الجزء منه ثانيَ الموجودَين، ولكن الكلَّ بعد طرْح جزءٍ منه لا يكون كُلًّا، ويَعُود لا يُوجَد كلٌّ إذنْ، ما بقيت هذه النسبة، بل يُوجَد قسمان متفاوتان.

وعلى العكس، إذا ما وضعت الأمةُ كلُّها قانونًا لجميعِ الأمة، فإنها لا تعتبر غيرَ نفسِها، وإذا ما تكوَّنت علاقةٌ كانت علاقةَ الموضوع كلِّه من وجهةِ نظرٍ بالموضوع كلِّه من وجهة نظرٍ أخرى، وذلك من غيرِ تقسيمٍ للكلِّ قَطْعًا، وهنالك يَكون الموضوعُ الذي يُوضَع له قانونٌ عامًّا، وتكون الإرادةُ التي تَضَع القانونَ عامَّةً أيضًا، وسنرى هل يُوجَدُ نَوعُ قرارٍ آخرُ يُمكِن أن يَحمِل اسمَ القانون.

وإذا كان السيد لا يستطيع أن يتكلَّم إلا بالقوانين، وإذا كان القانونُ لا يُمكِن أن يكون له غيرُ موضوعٍ عامٍّ شاملٍ لجميع أعضاء الدولة على السواء، فإن هذا يَعني عدمَ وجودِ سلطةٍ للسيد يَضَعُ بها قانونًا حوْل موضوعٍ خاص، وبما أن من المهم لبقاء الدولة مع ذلك تقريرَ أمورٍ خاصَّة، فإننا سنرى كيف يُمكن صنعُ هذا.

ولا يُمكِن أن تكونَ أعمالُ السيدِ غيرَ أعمالِ الإرادة العامة، غيرَ قوانين، ولا بُدَّ بعد ذلك من أعمال البتِّ أو أعمال القوة أو الحكومة تنفيذًا لهذه القوانين نفسِها، وعلى العكس لا يُمكِن أن يكون لهذه الأعمال غيرُ موضوعاتٍ خاصَّة، وهكذا فإن المرسوم الذي يَصْدُر عن السيد لانتخاب رئيس يكون قانونًا، وإن المرسومَ الذي يُنتخَبُ به هذا الرئيسُ تنفيذًا للقانون ليس سوى مرسومِ حكومة.

وهذه إذنْ صِلَةٌ ثالثةٌ تُعَدُّ بها الأمة المجتمعة حاكمةً أو مُنفِّذةً للقانون الذي وضعته صاحبةً للسيادة.[٢٧]

وسنبحث في إمكانِ تَجرُّدِ الأمةِ من حقِّها في السيادة مُوَلِّيَةً به رجلًا أو أكثر، وذلك بما أن عملَ الانتخاب ليس قانونًا، وبما أن الأمةَ بهذا العمل ليست سيِّدًا بعينه، فإنه لا يُرى مطلقًا كيف تستطيع الأمة إذ ذاك أن تنقُل حقًّا ليس لها.

وبما أن كُنْه السيادة يقوم على الإرادة العامة فإنه لا يُرى كيف يُمكِن أن يُوقَنَ بأن الإرادة الخاصة تكون على اتِّفاقٍ مع الإرادة العامة دائمًا، ومن الجدير وجوبُ افتراضِ كَوْن الأمرِ على العكس غالبًا؛ وذلك لأن المصلحة الخاصة تَميلُ إلى الامتيازات دائمًا، وأن المصلحة العامة تميلُ إلى المساواة، ومتى كان هذا الاتفاق ممكنًا كفى ألَّا يكون ضروريًّا ممتنعَ الزوال لكيلا ينشأ عنه الحقُّ ذو السيادة.

وسنبحث في هل رؤساء الأمة الذين يُختَارون تحت أيِّ اسمٍ كان، يُمكِنهم من غيرِ نقضٍ للميثاق الاجتماعي أن يكونوا شيئًا آخَرَ غيرَ ضُبَّاطٍ لدى الأمة التي تأمرهم بتنفيذ القوانين، وفي هل هؤلاء الرؤساء غيرُ مُلزَمين بتقديمِ حسابٍ إليها عن إدارتهم وغيرُ خاضعين للقوانين المُفَوض إليهم أن يحافظوا عليها.

[٢٧] استخلصتُ هذه المسائل والقضايا من كتاب «العقد الاجتماعي» الذي استُخْلِص بدوره من كتابٍ أضخمَ منه كنتُ قد أقدمتُ عليه من غيرِ تقديرٍ لمقدرتي فتركته منذ زمن طويل، وسيُنْشر على حدةٍ ذاك الكتاب المستخلَص من هذا فلخصتُه هنا.

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تبيع حقَّها الأعلى، فهل تستطيع أن تُودِعَه لوقتٍ معيَّن؟ وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تَجعلَ لنفسها مولًى، فهل تستطيع أن تجْعل لنفسها ممثلين؟ فهذه المسألة مهمةٌ وتستحقُّ النِّقاش.

وإذا كانت الأمةُ لا تستطيع أن تكون ذاتَ سيِّدٍ ولا ممثلين، فإننا سنبحث عن كيفية قيامها بقوانينها، وعن وجوبِ وجودِ قوانينَ كثيرةٍ لها أوْ لا، وعن وجوبِ تغييرِ هذه القوانين غالبًا أوْ لا، وعن أنه يَسهُلُ على الأمة الكبيرة أن تكون مشترعةً لنفسها بنفسها أوْ لا.

وسنبحث في هل الرُّومان أمةٌ كبيرة.

وسنبحث في هل من الصالحِ وجودُ أممٍ عظيمة.

ويَظهر من الاعتبارات السابقة أنه يُوجَد في الدولة هيئةٌ متوسطةٌ بين الرعايا والسيد، وأن هذه الهيئةَ المتوسطة المؤلَّفة من عضوٍ واحدٍ أو أكثرَ مُفوَّضٌ إليها أمرُ القيام بالإدارة العامة، وتنفيذ القوانين، والمحافظة على الحرية المدنية والسِّياسيَّة.

ويُسمَّى أعضاءُ هذه الهيئة وُلاةً أو ملوكًا، أي حُكَّامًا، وتُسمَّى الهيئةُ بأَسْرِها أميرًا عند النظر إلى الذين تتألَّفُ منهم، وتُسمَّى حكومةً عند النظر إلى عملها.

وإذا نَظرْنا إلى عمل الهيئة بأسْرِها، وهي تعْمَل في نفسِها؛ أي إلى نسبة الكلِّ إلى الكل، أو السيد إلى الدولة، أمكننا أن نقارِنَ هذه النِّسبةَ بطرَفَي النِّسبة المتَّصلة التي تكون الحكومةُ وسطَها الجامع. ويتلقَّى الحاكم من السيد ما يُلقِي على الأمة من الأوامر، وهو إذ يُعَوَّض تمامًا، يكون حاصلُه أو سلطانُه على ذات المستوى لحاصل المواطنين أو سلطانهم، هؤلاء المواطنين الذين هم رعايا من ناحيةٍ وسادةٌ من ناحيةٍ أخرى، وما كان لِيُمْكِنَ إفسادُ أيِّ طَرَفٍ من الأطراف الثلاثة من غيرِ أن يُقضَى على النسبة حالًا، وإذا أراد السيد أن يحكُمَ، وإذا أراد الأمير أن يضع قوانين، وإذا رفض التابع أن يُطيع، عَقَبَ الاختلالُ النظامَ وسقطتِ الدولةُ المنحلةُ في الاستبداد أو وقعت في الفوضى.

ولْنَفْرِضْ أن الدولة مؤلَّفةٌ من عشرة آلاف مواطن، فلا يُمكنُ اعتبارُ السيد إلا جماعيًّا أو هيئة، ولكنَّ لكلِّ واحدٍ كتابعٍ وجودًا فرديًّا مستقلًّا، وهكذا فإن نسبة السيد إلى التابع كنسبة الآلاف العشرة إلى الواحد؛ أي إنه لا يكون لكلِّ عضوٍ في الدولة من النصيب غيرُ جزءٍ من عشرة آلافٍ من السلطان ذي السيادة، وإن كان خاضعًا للكل، وإذا كانت الأمةُ مؤلَّفةً من مائة ألف إنسان لم يتغيرْ وضعُ الرعايا، واستمرَّ كلُّ واحدٍ على حَمْلِ عِبءِ القوانين، مع أن صوتَه الذي نُزِّلَ إلى واحدٍ من مائةِ ألفٍ صار له من النفوذ عند وضْعِ القوانين أقل مما

كان له عشرَ مرات، وهكذا فإن التابع إذْ يبقى واحدًا دائمًا تزيد نسبةُ السيد بنسبة زيادة عدد المواطنين، وينشأ عن هذا أن الدولة كلَّما كَبُرَت قلَّت الحرية.

والواقعُ أنه كلَّما قلَّ تعلُّقُ الإرادات الخاصة بالإرادة العامة؛ أي تعلُّقُ الطبائع بالقوانين، زادت قوَّةُ الردع، وتَرى من ناحيةٍ أخرى أن اتساع الدولة، إذ يوجب في أمناء السلطة العامة زيادةَ مَيْلٍ إلى الشهوات وزيادةً في وسائل سوء الاستعمال، فإنه كلَّما كان لدى الحكومة من القوة ما تردع به الأمة وجب أن يكون لدى السيد بدوْره من القوة ما يردَعُ به الحكومة.

ويُرَى من هذه الصلة المضاعفة أن النسبة الدائمة بين السيد والأمير والأمَّة ليست فكرةً مُرادِيةً مُطلَقًا، بل نتيجةٌ لطبيعة الدولة، ويُرَى أيضًا أن الأمة التي هي أحد الأطراف إذ كانت ثابتة، فإن النسبة المضاعفة كلَّما زادت أو نَقَصَت زادت النسبةُ البسيطةُ أو نقصت بدورها، وهذا لا يُمكِن أن يَقَع من غيرِ أن يتغيَّر الطَّرَفُ المتوسطُ في كلِّ مرة، ومِنْ ثَمَّ يمكننا أن نستخرج النتيجةَ القائلةَ إنه لا يُوجَد نظامٌ للحكومة وحيدٌ مُطلَق، وإنَّما يجب أن يكون موجودًا من الحكومات المختلفة طبيعةً بمقدارِ ما يُوجَد من الدول المختلفة اتِّساعًا.

وإذا كانت الأمةُ كلَّما كَثُرَ عددُها قلَّ تَعلُّقُ الطبائع بالقوانين، فإنَّ مِمَّا نبحث فيه هو هل يُمكننا، بقياسٍ على شيءٍ من الوضوح، أن نقول: إنَّ الْحُكَّام كلَّما كَثُرَ عددُهم زادت الحكومة ضَعْفًا.

ولإلقاء نورٍ على هذا المبدأ نَميزُ في شخصِ كلِّ حاكمٍ ثلاثَ إراداتٍ مختلفةٍ اختلافًا جوهريًّا، وذلك أوَّلًا: إرادةُ الفردِ الخاصةُ التي لا تَهْدف إلى غيرِ مصلحتِهِ الخاصة. ثانيًا: إرادةُ الحكامِ المشتركةُ التي تهدف إلى مصلحة الأمير، هذه الإرادةُ التي يُمكن أن تُدْعى إرادةَ الهيْئة، فتكون عامةً نظرًا إلى الحكومة، وخاصَّةً نظرًا إلى الدولة التي تُعَدُّ الحكومةُ جزءًا منها. ثالثًا: إرادةُ الأمة أو الإرادةُ ذاتُ السيادة؛ فهذه الإرادةُ تكون عامةً بالنسبة إلى الدولة التي تُعَدُّ الكلَّ، وبالنسبة إلى الحكومة التي تُعَدُّ جُزءًا من الكل. وفي الاشتراع الكامل يجب أن تكون الإرادة الخاصة صِفْرًا تقريبًا، وأن تكون إرادةُ الهيئة الخاصة بالحكومة تابعةً جِدًّا، وأن تكون الإرادةُ العامةُ ذاتُ السيادة قاعدةَ كلِّ إرادةٍ من حيث النتيجة، وعلى العكس تكون هذه الإراداتُ مختلفةً وَفْقَ النظام الطبيعي أكثرَ فِعْلًا كلَّما تركَّزت، فتكون الإرادةُ العامةُ أكثرَ ضَعفًا دائمًا، وتكون المرتبةُ الثانية لإرادة الهيئة، وتكون الإرادةُ الخاصةُ مفضَّلةً على الجميع، وبذلك يكون الفردُ أوَّل مَن يأتي، ثُمَّ يأتي الحاكم، ثُمَّ يأتي المواطن؛ أي يُرى تدرُّجٌ معاكسٌ توًّا لِمَا يقتضيه النظام الاجتماعي.

ولْنفترِضْ بعد وضْع ذلك أن الحكومةَ غَدَتْ قبضةَ رجلٍ واحد؛ فبهذا تكون الإرادةُ الخاصةُ وإرادةُ الهيئةِ قد اتحدتا اتِّحادًا تامًّا، وبذا تكون هذه الإرادةُ في أقصى ما يُمكِن شِدَّةً، والواقعُ أن استعمالَ القوة إذ يتوقَّف على هذه الدرجة من الشِّدة، وأن قوةَ الحكومةِ المطلقةَ إذْ تكون قوةَ الأمةِ دائمًا فلا تتغيَّر مُطلَقًا، فإنه يَنْجُم عن هذا كونُ أكثر الحكومات فعَّاليةً هي حكومةَ الفرد.

وعلى العكس، إذا ما وحَّدنا بين الحكومة والسلطة العليا، فجعلنا السيدَ أميرًا، وجعلنا المواطنين حُكَّامًا، فهنالك لا يكون لإرادة الهيئة الممزوجة بالإرادة العامة مزجًا تامًّا، فعَّاليةٌ أكثرُ مما لهذه، وتَدَعُ الإرادةَ الخاصة في كمال قوَّتها، وهكذا فإن الحكومةَ الصاحبةَ لذات القوة المطلقة دائمًا تكون في الحدِّ الأدنى من فعَّاليَّتها.

ولا جِدالَ في هذه القواعد، ويُوجَدُ من الاعتبارات الأخرى ما يؤيدها، ومن ذلك أن الحكامَ يكونون أكثرَ فعَّاليةً في هيئتهم من المواطنِ في هيئته، فيكون للإرادة الخاصة من النفوذِ أكثرُه في ذلك؛ وذلك لأن كلَّ حاكمٍ يكون مُفوَّضًا إليه دائمًا تقريبًا ببعض الوظائف الخاصة في الحكومة، وذلك بدلًا من كلِّ مواطنٍ يخلو من أيةِ وظيفةٍ من وظائف السيادة إذا ما أُخِذَ على انفراد، ثُمَّ إن الدولة كلَّما اتسعت زادت قوَّتُها الحقيقية، وإن كانت هذه القوة لا تزيد تبعًا لاتساعها، ولكن الدولة إذا ما بقيت على ما هي عليه وزاد عددُ الحكام على غيرِ طائلٍ لم تَنَل الحكومةُ من وراء ذلك قوةً حقيقيةً أعظمَ من تلك؛ وذلك لأنها مُستودِعةٌ لقوة الدولة التي نفترض تَساويَها دائمًا، وهكذا فإن فعَّاليَّة الحكومة تَنقُص من غيرِ أن تُمْكِن زيادةُ قوَّتِها.

وإنَّا بعد أن وجدنا أن الحكومة ترتخي بنسبة زيادة الحكام، وأن الأمة كلَّما زادت عددًا وَجَبَ أن تزيد قوةُ الحكومة الزاجرة، ننتهي إلى أن علاقةَ الحكَّام بالحكومةِ يجب أن تكونَ على عكس علاقة الرعايا بالسيد؛ أي إن الدولة كلَّما اتسعت وجب أن تضيق الحكومة، فينقُصَ عددُ الرؤساء تبعًا لزيادة الأمة.

وإنَّا، لكي نُعَيِّنَ فيما بعْدُ هذا التنوُّعَ في الأشكالِ بأسماءٍ أكثرَ ضبطًا، سنلاحِظ في أوَّل الأمرِ أن السيد يستطيع أن يُفوِّض وديعةَ الحكومة إلى الأمة أو إلى أعظم قسمٍ من الأمة، فيكون من المواطنين الحكام مَن هم أكثرُ من المواطنين الخاصِّين؛ فعلى شكلِ الحكومةِ هذا يُطلَق اسمُ الديموقراطية.

أو إن السيد يستطيع أن يُضيِّق نطاقَ الحكومة، فيجعله قبضةَ عددٍ أقلَّ من ذاك، فيكون من المواطنين الخاصِّين مَن همُ أكثرُ من الحكام، فعلى شكلِ الحكومةِ هذا يُطلق اسمُ الأريستوقراطية.

وأخيرًا يستطيع السيدُ أن يَجمعَ جميعَ الحكومةِ في يدِ حاكمٍ واحد، وهذا الشكلُ الثالث هو الأكثرُ شيوعًا، وهو يُسمَّى المَلَكِيَّة أو الحكومةَ المَلَكِيَّة.

وسنلاحظ أن جميعَ هذه الأشكال، أو الشكلَين الأوَّلَين على الأقل، تَحْتمل الزيادةَ والنقصان، وأن لها من اتساع المدى ما هو كافٍ أيضًا؛ وذلك لأن من الممكن أن تشتمل الديموقراطيةُ على جميعِ الأمةِ أو أن تنقبِض حتى النصفِ، ولأن من الممكن أن تنقبِض الأريستوقراطية بدورها من نصف الأمة حتى أصغرِ الأعدادِ انقباضًا غيرَ مُحدَّد، حتى إن المَلَكية تقبل التقسيم أحيانًا، سواءٌ أبينَ الأبِ والابنِ أم بين الأخوين أم على وجهٍ آخَر، وكان يوجد مَلِكان في إسبارطة دائمًا، وقد شُوهد في الإمبراطورية الرومانية من الأباطرةِ مَن بلَغ عددُهُم حتى الثمانيةِ معًا، وذلك من غيرِ أن يُقال إنَّ الإمبراطورية قُسِّمَت، وتوجدُ نقطةٌ يختلط فيها كلُّ شكلٍ للحكومة بالشكل الذي يليه، فتقبلُ الدولة تحت الأشكال الثلاثة النوعية، من الأشكال بمقدار ما في الدولة من مواطنين بالحقيقة.

وليس ذاك كلَّ ما في الأمر؛ فبما أن كلَّ واحدةٍ من هذه الحكومات تستطيع من بعض الوجوه أن تنقسم إلى أقسامٍ مختلفةٍ يُدارُ قسمٌ منها على وجهٍ ويُدارُ قسمٌ آخَرُ منها على وجهٍ آخَر، فإنه يُمكن أن ينشأ عن هذه الأشكال الثلاثة المختلطة عددٌ وافرٌ من الأشكال المُركَّبة التي يُمكِن كلَّ واحدٍ منها أن يُكَثَّرَ بجميع الأشكال البسيطة.

وقد وقع في كلِّ وقتٍ جدالٌ كثيرٌ حوْل أفضل شكل للحكومة، وذلك من غيرِ نظرٍ إلى أنَّ كلَّ شكلٍ هو أفضلُ الأشكال في بعض الأحوال، وأن أسوأها يكون في أحوالٍ أخرى. وأمَّا نحن فنرى على العموم أن عدد الحكام[٢٨] في مختلف الدول إذا ما وَجَبَ أن يكون على العكس من عدد المواطنين، فإن الحكومة الديموقراطية تلائم الدولَ الصغيرة، وإن الحكومة الأريستوقراطية تلائم الدولَ المتوسطة، وإنَّ الحكومة المَلَكية تلائم الدولَ الكبيرة.

[٢٨] اذكروا أنني أقصد الكلامَ هنا عن الحكام الأعلين أو رؤساء الأمة، ما دام الحكام الآخرون نائبين عنهم في هذا القسم أو ذاك.

فبِسِياق هذه المباحثِ ننتهي إلى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم، ومعرفةِ إمكانِ فصلِ هذه عن تلك، ومعرفةِ الوطن وما يَقوم عليه ضَبْطًا، وكيف يُمكِن كلَّ واحدٍ أن يَعْرف هل له وطنٌ أَوْ لا.

وإنَّا بعد النظرِ على هذا الوجه إلى كلِّ نوعٍ من المجتمع المدني بنفسه، سنقابل بينها لملاحظة ما بينها من صلات، فنَرى بعضَها كبيرًا والأخرى صغيرة، ونَرى بعضَها قويًّا والأخرى ضعيفة، فتَتَهاجم وتَتَشاتم وتَتَهادم، موجبةً بهذا الفعلِ ورَدِّه الدائمَين من بؤسِ كثيرٍ من النَّاس والقضاء على حياتهم ما هو أعظم مما لو حافظوا على حريتهم، وسنبحث في هل صُنِعَ شيءٌ كثيرٌ أو قليلٌ في النظام الاجتماعي، وفي هل يبقى الأفراد الخاضعون للقوانين والآدميين، على حين تحتفظ المجتمعاتُ فيما بينها بالاستقلال الطبيعي، عُرْضَةً لشرورِ الدولتَين من غيرِ أن يفوزوا بمنافعهما، وفي هل يكون عدمُ وجودِ أيِّ مجتمعٍ مدنيٍّ في العالم مطلقًا أفضلَ من عدم وجود مجتمعات كثيرة فيها، أَوَليست هذه الدولة المركَّبة تشترك في الاثنتَين ولا تَضْمَن هذه وتلك «لا تَدَع مجالًا لإعداد العُدَّة لزمن الحرب ولا لأَمْن زمن السَّلْم»؟ أَوَليست هذه الجمعية الجزئية الناقصة هي التي تؤدي إلى الطغيان والحرب؟ أَوَليس الطغيانُ والحربُ أعظمَ آفات الإنسانية؟

وأخيرًا سندرُس نوعَ الأدوية التي بُحِثَ عنها لمعالجة تلك الأضرار، وذلك بالتعاهُد والاتحاد، فتَدَعُ كلَّ دولةٍ سيِّدةً داخلًا وتُسَلِّحُها خارجًا دفعًا لكلِّ مُعتدٍ ظالم، وسنبْحثُ عن الوجه الذي يُمكِن أن تُقام به جمعية اتحادية صالحة، والذي يُمكِن أن تدوم به، وعن المدى الذي يُمكن أن يُوسَّعَ به حقُّ الاتحاد من غيرِ أن يُؤذَى حقُّ السيادة.

وكان رئيسُ ديرِ القديسِ بطرس قد اقترح تأليفَ جمعيةٍ شاملةٍ لجميع دول أوروبة كيما تَحفظ بينها سَلْمًا دائمة، وهل هذه الجمعيةُ عملية؟ وإذا ما افترِض قيامُ هذه الجمعية، فهل يُقدَّرُ لها البقاء؟[٢٩] إنَّ هذه المباحث تسوقُنا توًّا إلى جميع مسائل الفقه العام التي يُمكِن أن تُنير مسائلَ الفقه السياسي.

وأخيرًا سنضع المبادئَ الصحيحة لِفقْه الحرب، وسندرُس السببَ في كونِ غُروسْيوسَ وغيرِه لم يُقدِّموا سوى مبادئَ فاسدةٍ عنها.

---

[٢٩] تمَّ، بعد كتابتي هذا، عرضُ الأسبابِ الموافقة في خلاصة هذا المشروع، وتجد الأسباب المخالفة أو الأسباب التي بدت لي متينةً في مجموعة كتبي، وذلك عقب هذه الخلاصة.

ولن يُدهِشَني، في وَسَط جميع براهيننا، أن يقول لي مقاطعًا فتاي ذو الذوق السليم: «يُخيَّلُ إلى الإنسان أننا نقيم بناءنا من الخشب، لا من النَّاس، ما دمنا نَصُفُّ قِطَعَنا على خطٍّ مستقيمٍ وَفْقَ القاعدة!» وأقول له: «هذا صحيحٌ يا صديقي، ولكن اذكر أن الفِقهَ لا ينحني أمام أهواء النَّاس، وعلينا تتوقَّف إقامةُ مبادئ الفقه السياسيِّ الحقيقية. والآن، وقد وُضِعَت أُسُسُنا، تعالَ لِنبْحثَ فيما أقام النَّاسُ فوقها، وهنالك ترى أمورًا غُرًّا!»

وهنالك حملْتُه على قراءة «تِلِماك»، وعلى سلوك طريقه، ونبحث عن سالَنْتَة السعيدةِ وإيدُومِينِه الصالحِ الذي جعلتْه المصائبُ حكيمًا. وبَيْنَا نحن سائرَين لاقَيْنا كثيرًا من طراز برُوتِيزِيلاس، ولم نُلاقِ أحدًا من نوع فِيلُوكْلِيس، وكذلك لم تُمْكِن ملاقاةُ مَلِك الدُّونْيان: أدْرَاسْت. ولكنْ لِنَتْرُكِ القراء يتمثَّلون رِحلاتنا أو يقومون بها في مكاننا، و«تِلِماك» في يدهم، ولا نُوحِ إليهم مطلقًا بتطبيقاتٍ مُحْزِنةٍ يَتجنَّبُها المؤلِّف نفسه أو يأتيها على الرغم منه.

ثُمَّ بما أن إميلَ ليس مَلِكًا، وبما أنني لستُ إلهًا، فإننا لن نُقلِقَ بالَنا مُطلَقًا في تقليد تِلِماكَ، والمرشدِ، في الخبرِ الذي كانا يقومان به نحو النَّاس، ولا أحدَ أحسنُ مِنَّا عِلْمًا في البقاء حيث هو، ولا أحدَ أقلُّ مِنَّا رغبةً في الخروج من مكانه، ومما نَعْرف أن عيْنَ العملِ قد عُيِّنَ للجميع؛ فمَن يُحِبُّ خيرَ الجميعِ من صميم فؤاده، ويصنعُه بما أُوتِيَ من قوةٍ يكون قد قام بذاك العمل. ومما نعرفُ أن تِلِماكَ والمرشدَ هما من الأوهام، ولا يَسيح إميلُ مثلَ رجلٍ بَطَّال، وهو يفعلُ من الخيرِ أكثرَ مما لو كان أميرًا، ولو كُنَّا مَلِكَيْن ما كُنَّا أكثرَ حُبًّا للإحسان، ولو كُنَّا مَلِكَيْن ومحسنَيْن لأتينا من حيث لا ندري ألفَ شرٍّ حقيقيٍّ في مقابل خيرٍ ظاهرٍ نَظُنُّ أننا نفعله، ولو كُنَّا مَلِكَيْن وحكيمَيْن لكان أوَّلُ خيرٍ نرغب في صنْعه نحو أنفسنا ونحو الآخرين هو أن نتنزَّل عن المَلَكِية وأن نعود إلى ما نحن عليه الآن.

وقد قلتُ كلَّ ما يَجعلُ السِّيَاحاتِ غيرَ مُجديةٍ لجميع النَّاس، والذي يجعلُها أقلَّ جدْوَى للشباب هو الوجهُ الذي يُحمَلُ به على القيام بها؛ فالمُرَبُّون يكونون أكثرَ حُبًّا للَهْوِ أنفسهم مما لتثقيف الشباب، فيَجْلِبونه من مدينةٍ إلى أخرى، ومن قصرٍ إلى آخَر، ومن نطاقٍ إلى آخَر، وهم إذا ما كانوا علماءَ أو أدباءَ جعلوه يقضي وقتَه في الطواف بين المكتبات وفي زيارة الخبراء بالعاديَّات، وفي فحْص قديم الآثار واستنساخ قديم الكتابات، وهم في كلِّ بلدٍ يُعْنَون بعصرٍ آخَر، وذلك كما لو كانوا يُعْنَون ببلدٍ آخر، فإذا ما جابوا أوروبة بنفقاتٍ عظيمةٍ وتجرَّدوا للتُّرَّهات أو أسلموا أنفسهم إلى السَّأَم، عادوا من غيرِ أن يكونوا قد رأوا شيئًا يمكن أن ينفعهم، أو من غيرِ أن يكونوا قد تعلَّموا شيئًا يُمكِن أن يفيدَهم.

وتتشابه جميعُ العواصم، وفيها تختلط جميعُ الأمم، وفيها تَمْتزج جميعُ الطِّباع، وليس إليها ما يجب أن يُذْهب لدراسة الأمم، وليست باريسُ ولندنُ غيرَ عيْنِ المدينة في نظري، أجلْ، إن لسكانهما مُبْتَسراتٍ مختلفة، ولكنْ لا يُوجَد عند إحداهما من المُبْتَسرات ما هو أقلُّ مما عند الأخرى، وجميعُ مبادئهما العملية هي هي، ويُعرَف أيُّ نوعٍ من الآدميين يجتمع في البلاطات، ويُعرَف أيُّ نوعٍ من الطِّباع يُسْفِرُ في كلِّ مكانٍ عن ازدحامِ الأمةِ وتفاوتِ الثَّروات، وإذا ما حُدِّثْتُ عن مدينةٍ مؤلَّفةٍ من مائتي ألفِ نَفْسٍ عَرَفتُ مُقدَّمًا كيف يعيش النَّاس فيها، وما لا أعْرِف فيها من أمورٍ لا يستحقُّ أن أذهب لأتعلَّمه هناك.

وإلى الأقاليم القاصية؛ حيث يُوجَد قليلُ حركةٍ وتجارة، وحيث تَقِلُّ سياحةُ الأجانب، وحيث يَقِلُّ انتقالُ الأهلين، وحيث يَقِلُّ تبديلُ السُّكَّان لثروتهم ووضعهم، يجبُ أن يُذهَب لدراسة عبقرية الأمة وأخلاقها. وألْقُوا نظرةً إلى العاصمة حين تمُرُّون، ولكن اذهبوا للبحث عن البلد في مكانٍ بعيد؛ فالفرنسيون هم في تُورينَ لا في باريس، ويكون الإنكليز في مِرْسِي أكثرَ مما في لندن، ويكون الإسبانُ في جَلِّيقيَّة أكثرَ مما في مدريد، وفي هذه الأماكن النائية تُمازُ الأمةُ وتَبْدو خالصةً كما هي، وفيها خيرُ ما يُشْعِرُ بأثرِ الحكومة السيِّئ أو الرديء، وذلك كما تستطيع أن تَقِيسَ القوسَ قياسًا أكثرَ دقَّةً بنصفِ قطرٍ أكثرَ طولًا.

وقد عُرِضَتْ علائقُ الطبائع بالحكومة في كتاب «روح الشرائع» عرضًا بَلَغَ من الإجادة ما لا يُمكِنُني أن أرى معه أفضلَ من الالتجاء إلى هذا السِّفْر لدراسة تلك العلاقات، ولكن يُوجَدُ على العموم قاعدتان سَهْلَتان بسيطتان للحُكْم في صلاح الحكومات النسبي، والأهلون هم إحدى هاتَين القاعدتَين؛ فالدولة تميلُ إلى خرابها في كلِّ بلدٍ يُقفِر. ولا مِراء في أن البلد الذي يزيد سكانه أكثرَ من غيره يكون أفضلَ البلادِ حكومة،[٣٠] ولو كان أفقرَها.

ولكنْ يجب لهذا أن يكون هؤلاء الأهلون نتيجةً طبيعيةً للحكومة والطِّباع؛ وذلك لأن هذا إذا ما تمَّ بمستعمراتٍ أو بسُبُلٍ أخرى عارضةٍ أو عابرةٍ دَلَّ الدواءُ على الدَّاء. ولمَّا جاء أُغُسطُس بقوانينَ لمكافحة العُزُوبة، نَمَّتْ هذه القوانينُ على أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد أخذت في الزوال. ويجب أن يكون صلاح الحكومة حافزًا للمواطنين إلى الزواج، لا أن يكون القانونُ مُكرِهًا إياهم عليه، ولا نُكلِّفُ أنفسنا بالبحث فيما يُصنَع بالقوة؛ وذلك لأن

[٣٠] لا أعْرِف غيرَ الصين بلدًا يشذُّ عن هذه القاعدة.

القانون الذي يُكافِح النظامَ يتملَّصُ منه ويغدو فارغًا، وإنما نبحث فيما يتمُّ بفعلِ الأخلاق وميلِ الحكومة الطبيعي؛ فهذه الوسائلُ وحدَها هي ذات الأثرِ المستمر. وتقوم سياسةُ الرئيسِ الصالحِ لديرِ القدِّيس بطرس على البحثِ الدائمِ عن دواءٍ قليلٍ لكلِّ داءٍ خاص، وذلك بدلًا من الرجوعِ إلى المنبعِ الجامعِ ليُرَى أنه لا يُمكن الشِّفاءُ من هذه الأدْواء إلا دفعةً واحدة، ولا يقوم الأمرُ على معالجةِ كلِّ قرحةٍ تظهرُ على جسمِ المريضِ على انفراد، بل على تصفيةِ مجموعِ الدم الذي يُحدِث القُرُحات جميعًا. ويُقال إنَّه يُوجَدُ جوائزُ للزِّرَاعة في إنكلترة، فلا أطلبُ دليلًا أعظمَ من هذا ليَثْبُتَ عندي أنَّ الزِّراعة لن تزدهرَ في إنكلترة زمنًا طويلًا.

وفي الأهلين أيضًا تتجلَّى العلامةُ الثانيةُ لصلاحِ الحكومةِ والقوانين النسبي، ولكنْ على وجهٍ آخَر؛ أي إن هذه الأمارةَ تُستخْرَج من توزيعهم لا من عددهم، وقد تتساوى الدولتان اتساعًا وسُكَّانًا، ولكن مع تفاوتهما قوة، وتكون أقوى هاتَين الدولتَين دائمًا هي التي يكون أهلوها منتشرين انتشارًا متساويًا على أرَضيها، والدولةُ التي لا تشتمل منهما على مُدُنٍ كبيرةٍ كثيرة؛ ومِنْ ثَمَّ تكون أقلَّهما ازدهارًا، تَقْهرُ الأخرى دائمًا. والمدن الكبيرة هي التي تستنزف الدولة وتُوجِبُ ضَعفَها، وما تنتجه من ثراءٍ فهو ثراءٌ ظاهرٌ خادع، وهو كثيرُ نقدٍ وقليلُ خير، ويُقال إنَّ مدينة باريس تَعْدِل ولايةً قِيمَةً لدى ملك فرنسة، ولكنني أعتقد أنها تُكلِّفه عدة ولايات، وذلك أن الولايات تُغذِّي باريس من وجوهٍ كثيرة، وأن مُعظم دخلها يَصُبُّ في هذه المدينة ويبقى فيها من غير أن يَعود على الأمة أو على الشعب مُطلقًا، ومما لا جدال فيه في عصر الحاسبين هذا أنه لا يوجد واحدٌ يُبصر أن فرنسة تكون أكثر قوةً إذا ما دُمِّرَت باريسُ تدميرًا. ولا يقتصرُ الأمرُ على كونِ الأمَّةِ السيئةِ التوزيعِ غيرَ نافعةٍ للدولة، بل هو أدعى إلى الخرابِ من الإقفار، وذلك من حيث إن الإقفارَ لا يُسفِرُ عن غيرِ إنتاجِ صِفر، وإن الاستهلاكَ غيرَ المرتَّب يُسفِر عن إنتاجٍ سلبي، ومتى سمعتُ فرنسيًّا وإنكليزيًّا فخورَين بعظمة عاصمتيهما، فيتجادلان حول أيَّتهما أكثرُ سكَّانًا، كان هذا في نظري مساويًا لتَجَادلهما حولَ أي الشعبين له شرفُ كونه أكثَرهما سوءَ حكومةٍ.

وادرُسوا الأمَّةَ خارجَ مُدُنها، فلن تَعرِفوها بغير هذا الوجه، ولا يَدُلُّ على شيءٍ أن يُرى شكلُ الحكومةِ الظاهرُ المُزوَّقُ بجهاز الإدارة وبرطانة المديرين إذا لم تُدْرَس طبيعتُه بالأثر الذي يُحدِثه في الأمَّة وفي جميع درجات الإدارة، وفي الأساسِ إذ يُوجَدُ فرقُ الشكل مقسومًا بين جميع هذه الدرجات، فإن هذا الفرقَ لا يُعْرَفُ إلا باكتنافِها جميعًا. وفي بلدٍ ما يُؤخذُ في

الشعورِ بروحِ الوزارةِ بدسائِسِ وكلائها، وفي بلدٍ آخَر يجب أن تَطَّلِعوا على انتخابِ أعضاءِ البرلمانِ للحكمِ في هل من الصحيحِ كوْنُ الأمَّة حُرَّة، وفي بلدٍ ثالث — أيًّا كان — يتعذَّر على مَن لم يَرَ غيرَ مُدُنها أن يَطَّلع على الحكومة لِمَا لا يكون الروح واحدًا في المدن والأرياف مُطلَقًا. والحقُّ أن الأرياف هي التي تُوجِدُ البلد، وأن أهل الأرياف هم الذين يُوجِدون الأمَّة.

ومن شأن هذه الدراسة للأمم في أقاليمها القاصية وفي بساطة مواهبها الأصلية مَنْحُ ملاحظةٍ عامةٍ كثيرةِ الملاءمة لِمَا أكتبُ، كثيرةِ السُّلْوان لقلب الإنسان؛ وذلك أن جميع الأمم إذا ما لُوحِظَت على هذا الوجه ظهرت أجدَر بالملاحظة. وكلَّما دنت الأممُ من الطبيعة ساد الصلاحُ أخلاقَها، وليس بغير الاحتباس في المدن، وليس بغير التغيُّر بفعل الثقافة ما تَفسُد الأمم، وما تُحوِّل بعضَ النقائص، التي هي أكثرُ غِلظَةً منها ضررًا، إلى معايبَ مستعذبةٍ مؤذية.

وينشأ عن هذه الملاحظة نفْعٌ جديدٌ في طراز السياحة التي أقْتَرح، وذلك من حيث إنَّ الشُّبَّان الذين هم قليلو الإقامة في المدن الكبيرة، حيث يسود فسادٌ هائل، أقلُّ إصابةً بهذا الفساد، فيحفظون بين الرجال الذين هم أكثرُ بساطة، وفي المجتمعات الأقلِّ عددًا، حُكْمًا أعظمَ صوابًا، وذوْقًا أرفعَ سَدادًا، وأخلاقًا أشدَّ صلاحًا، ومع ذلك فإنه لا يُوجَدُ في هذه العَدْوى ما يُخشى منه على إميلَ الذي لديه كلُّ ما يلزم لوقايته منها، وأعتمد، بين جميع الاحتياطات التي اتخذتُها في هذا السبيل، اعتمادًا بالغًا على الحُبِّ الذي يَحمِلُ في فؤاده.

ولا يُعْرَف ما يُمكِن أن يكون للحبِّ من فعلٍ في ميول الشباب؛ وذلك لأنَّ القائمين بتربيتهم، إذ لا يَعْرِفونه خيرًا منهم، يُحوِّلونهم عنه، ومع ذلك فإنه لا بُدَّ للشابِّ من أن يُحِبَّ أو أن يكونَ داعرًا، ومن السهلِ أن يُخدَعَ بالظواهر. أجلْ، قد يُذكَر لي ألفُ شابٍّ يُقال إنهم يَقْضُون حياةَ طُهْرٍ كبيرٍ بلا غرام، ولكن ليُذْكَر رجلٌ نامٍ، ليُذكَر لي رجلٌ صادق، يقول إنه قضى شبابَه على هذا الوجهِ حقيقةً. والواقع أنه لا يُطلَب غيرُ الظاهرِ في جميعِ الفضائلِ وجميعِ الواجبات، وأمَّا أنا فلا أطلبُ غيرَ الحقيقة، وأكون قد خُدِعْتُ إذا كان يُوجَدُ من الوسائل غير التي أقدِّم لبلوغ ذلك.

ولستُ صاحبًا لفكرة جعلِ إميلَ عاشقًا قبْل حَمْلِه على السياحة، وإليك الحادثَ الذي أوحى إليَّ بها:

كنتُ أقوم في البندقية بزيارةِ مُرَبٍّ لفتًى إنكليزي، وكان هذا في فصل الشتاء، وكُنَّا حوْل النار، ويتناول المربِّي رسائلَه من البريد، ويُلقي نظرةً عليها، ثُمَّ يَتلو إحداها على تلميذه بصوتٍ عالٍ، وقد كانت باللغة الإنكليزية التي لا أفهم منها شيئًا، ولكنني رأيت في

أثناء التلاوة أن الفتى يُمزِّق كُمَّيْه الجميلَيْن من أطرافهما ويُلْقي في النار قطعةً بعد الأخرى بأقصى ما يستطيع من تُؤَدَة لكيلا يَشعُر أحدٌ بذلك، ويَعْتريني دَهَشٌ من هذا الهَوَس، وأنظُر إلى وجهه، وأظُنُّ أنني أرى اضطرابَه، بَيْدَ أن العلامات الخارجية للأهواء، وإن كانت متشابهةً لدى جميع النَّاس، ذاتُ فُروقٍ قوميةٍ يَسهُل أن يُخدَع بها، وللأمم على الوجه من مختلف اللغات ما يَعْدِل التي في الأفواه، وأنتظر ختام التلاوة، فأُطْلِع المُربِّي على مِعصَمَي تلميذه العاريَين اللذين كان يُخْفيهما بأقصى ما يُمْكنه، وأقول له: «أيُمكنني أن أعْرِف ما يَعني هذا؟»

ويُبْصِرُ المُربِّي ما وقعَ فيأخذُ في الضَّحِك، ويعانقُ تلميذَه عِناقَ رِضًا، ويُوضِحُ لي ما أرغبُ فيه بعْد نَيْل موافقتِه.

ويقول لي: «إن الكُمَّيْنِ اللذين مَزَّقَهما مِسْتر جُون هما هديَّتان قدَّمتْهما إليه سيدةٌ من هذه المدينةِ منذ زمنٍ طويل، والواقع أن مستر جُون خاطبٌ في بلدِه لفتاةٍ يُحِبُّها حُبًّا جمًّا، وهي جديرةٌ بهذا الحُبِّ كثيرًا، وهذا الكتاب من أمِّ صاحبته، وسأترجِم إليك العبارةَ التي أوجبت ما شاهدتَ من تمزيق:

> لا تَتركُ لوسي كُمَّيْ لُورْد جُون مُطلَقًا، وأمسِ أتت مِسْ بِتِّي رُولْدَام لقضاءِ ما بعدَ الظهرِ عندها، فأرادت، مع الإصرار، أن تَقوم بشُغْلِها، وإني إذ علمتُ أن لوسي نَهَضَت اليومَ مُبكِّرَةً زيادةً على العادة، أردتُ أن أرى ما تَصْنع، فوجدتُها جادَّةً في نَقضِ جميعِ ما عَمِلتْه مِس بِتِّي أمس؛ فهي لا تُريد أن تَرى في هَديَّتها أيةَ نقطةٍ من صُنْعِ غيرها.

وقد خرج جُونُ بعد دقيقةٍ ليتناول كُمَّيْنِ آخَرين، فقلتُ لمُرَبِّيه: «لديك تلميذٌ ذو طَبْعٍ رائعٍ. ولكنْ قُل لي: أليس كتابُ أمِّ مِسْ لوسي عَمَلَ ترتيبٍ مطلقًا؟ أليستْ هذه وسيلةً اتَّخذْتَها ضِدَّ صاحبة الكُمَّين؟» ويقول لي: «كلَّا؛ فالأمر حقيقي، ولا أسلُك سبيلَ الحِيَلِ في أعمالي، وتقوم جهودي على البساطةِ والهِمَّة، وقد بارك الله لي في عملي.»

ولم أنسَ حادثَ هذا الفتى قَط، وليس من شأنِه ألَّا يتركَ أثَرًا في رأسِ حالِمٍ مثلي.

وقد حان وقتُ الختام، فلنأتِ بلُورد جُون إلى مِسْ لوسي، أي بإميلَ إلى صوفية، وهو يأتيها بقلبٍ ليس أقلَّ رِقَّةً مما كان عليه قبْل سفره، وهو يأتيها بذهنٍ أكثرَ وضوحًا، وهو يأتي بلدَه مُزوَّدًا بفائدةِ معرفتِه الحكوماتِ من ناحيةِ معايبها، والأممَ من ناحية جميع

فضائلها، حتى إنني عُنيتُ في كلِّ أمَّةٍ بأن يَرتبط في رجالٍ من أصحاب المزايا بعَهْدٍ من القِرَى على طريقة القدماء، ولن يَغيظَني أن يتعهَّد هذه المعارفَ بتبادُلِ الرسائل. وإذا عدوتَ ما يُمكن أن يكون من فائدةٍ ومن مُتعَةٍ دائمةٍ في المراسلات بالبلدان البعيدة، وَجَدتَ هذا من الاحتياط الجميل تجاه سلطان المُبْتَسَرات القومية التي تسيطر علينا عاجلًا أو آجلًا بهجومها علينا مدى الحياة، ولا شيءَ أصلحُ لنزْع هذا السلطان منها من معاشرة ذوي الرشاد الخالين من الغرض والذين هم موضعُ إجلالنا، والذين هم، إذ عَطِلوا من مُبْتَسَراتنا، يكافحون هذه بمُبْتَسَراتهم فيُعطوننا من الوسائل ما نعارض معه هذه بتلك بلا انقطاعٍ واقين أنفسنا منها كلِّها على هذا الوجه. ولا يُعَدُّ أمرًا واحدًا مطلقًا أن يعاشرَ الأجانب في بلدنا أو في بلدهم؛ وذلك أنهم في الحال الأُولى يَقُومون في البلد الذي يقيمون به بضرْبٍ من المجاملة يُخفون معه رأيَهم عنه، أو أنه يَحْمِلهم على إبدائهم نحْوه من الرأي ما يكون ملائمًا له ما داموا فيه، فإذا ما عادوا إلى بلدهم رَجَعوا عنه ولم يَبْدوا غيرَ عادلين. ومما يَسُرُّني كثيرًا أن يكون الأجنبيُّ الذي أستشيرُ قد زار بلدي، ولكنني لن أسألَه رأيَه عنه إلا في بلده.

وقد فَرَغَ صَبْرُ إميلَ بعد قضاء نحوِ عامين في جَوْب بعض الدول الكبيرة بأوروبة، وكثيرٍ من دولها الصغيرة، وبعد تَعَلُّمِ اثنتَين أو ثلاثٍ من لغاتها المهمَّة، وبعدِ مشاهدةِ ما يستوقفُ النظرَ فيها حقًّا، سواءٌ أفي التَّاريخِ الطبيعيِّ أم في الحكومةِ أم في الفنونِ أم في الرِّجال، فأخْبَرَني بأن الأجَلَ قد حان، وهنالك أقول له: «حسنًا يا صديقي، إنك تَذْكرُ الغايةَ الرئيسةَ من رِحْلاتنا؛ فقد رأيتَ، وقد لاحظتَ، فما نتيجةُ ملاحظاتك؟ وما الذي أنت عازمٌ عليه؟» إمَّا أن أكونَ قد خُدِعْتُ بمِنْهاجي، وإمَّا أن يكون جوابُه كما يأتي تقريبًا:

«وعَلَام أعزم؟ لقد عزمتُ على أن أظلَّ كما كَوَّنْتَني، وعلى عدمِ إضافتي، بطوْعي، أيَّ قيدٍ آخرَ غيرِ الذي تُحَمِّلُني إياه الطبيعةُ والقوانين، وكلَّما دَرَسْتُ عملَ النَّاس في نُظمهم أبصرتُ أنهم يَجْعَلون أنفسَهم عبيدًا من حيث يَرْغَبُون أن يكونوا مستقلِّين، وأنهم يستعملون حريَّتهم نفسَها في جهودهم الفارغة توطيدًا لها، وهم يقومون بألْف كَلَفٍ لكيلا يُذْعنوا لسيْل الأمور، وهم إذا ما أرادوا أن يتقدَّموا خُطوةً بعد ذلك لم يستطيعوا، واعتراهم دَهَشٌ من تعلُّقهم بكلِّ شيء. ويلوح لي أنه ليس علينا أن نصنع شيئًا لنكون أحرارًا، وإنما يكفي ألَّا نُريد الانقطاعَ عن أن نكون أحرارًا، وأنت الذي جعلني، يا مُعلِّمي، حُرًّا بتعليمي الخضوعَ للضرورة، ودَعْها تأتي متى تريد، وسأتتبَّعها بلا إكراه، وبما أنني لا أريد مناهضتَها فإنني لا أتشبَّثُ بشيءٍ يُمسِكُني، وقد حاولتُ في سياحاتنا أن أجدَ في الأرض زاويةً أكون فيها

مالكًا لنفسي على الإطلاق، ولكن ما المكان الذي يستطيع الإنسان اتخاذه بين النَّاس من غيرِ أن يَتْبَع أهواءهم؟ وقد بحثتُ كثيرًا فوجدتُ أن بُغيَتي نفسَها متناقضة، وذلك أنني إذا ما قَضَيْتُ بألَّا أتعلَّق بأيِّ شيءٍ آخرَ تعلَّقْتُ على الأقل بالأرضِ التي أستقرُّ بها، وستتعلَّق حياتي بهذه الأرض كتعلُّق الحوريات بأشجارهن. وإني، إذْ وجدتُ أن السُّلْطة والحرية كلمتان متناقضتان، لم أستطِع أن أكون صاحب كُوخٍ إلا بعُدُولي عن كَوْني مالكَ نفسي.

أَمَانِيَّ؟ هذه هي: أرضٌ متوسطةُ الاتساع.

وأذكر أن أموالي كانت سببَ استقصائنا، وقد أقمتَ دليلًا بالغَ القوة على أنني لا أستطيع الاحتفاظَ بثروتي وحريتي معًا، ولكنك عندما أردتَ أن أكونَ حُرًّا خاليًا من الاحتياجاتِ معًا أردتَ أمرَين متباينَين؛ وذلك لأنني ما كنتُ لأستطيعَ الخلاصَ من اتِّباعِ النَّاسِ إلا باتِّباعي الطبيعة. وما أصْنعُ إذنْ بالثروةِ التي تَرَكها لي والديَّ؟ سأبدأ بعدمِ اتِّباعي لها مطْلقًا، وسأُرْخي جميعَ الروابطِ التي تَرْبِطني بها، وهي إذا تُرِكتْ لي بقيتْ لي، وهي إذا ما حُرِمتُها لم أجُرَّ نفسي وراءها، ولن أُقلِقَ بالي في إمساكها مطلقًا، ولكنني سأبقى ثابتًا حيث أنا، وسأكون حُرًّا سواءٌ أكنتُ غنيًّا أم فقيرًا، ولن أكونَ ذلك في هذا البلد أو تلك البقعة فقط، بل أكونه في جميع الأرض، وتَرى جميعَ قيود المُبْتَسَر قد كُسِرَت بالنسبة إليَّ، ولا أعْرِف غيرَ قيود الضرورة، وقد تعلمتُ حَمْلَها منذ ولادتي، وسأحملها حتى مماتي؛ وذلك لأنني رجل. ولِمَ لا أحمِل هذه القيودَ كرجلٍ حُرٍّ ما دُمت أحمِلُها وأنا عبدٌ مضافةً إلى قيود العبودية؟

وما أهميةُ مُقامي في الأرض في نظري؟ وما أهميةُ المكان الذي أكون فيه؟ أكون في منزل إخوتي حيث يُوجَد آدميون، وأكون في منزلي حيث لا يوجد آدميون، ولديَّ مالٌ للعيش، وسأعيش ما استطعتُ أن أبقى مستقلًّا مُوسِرًا، فإذا كان مالي يُعَبِّدُني فإنني أتْركه بلا عناء، فلديَّ ذراعان للعمل، وسأعيش، وإذا ما أعْوَزَتني الذراعان عِشتُ ما غُذِّيت، وسأموت إذا ما هُجِرْت، وسأموت أيضًا وإن لم أُهْجَرْ؛ وذلك لأنَّ الموت ليس عِقابًا على الفقر، بل هو قانونٌ للطبيعة، وأتحدَّى الموتَ في أي وقتٍ يأتي، وهو لن يُباغتني وأنا أُعِدُّ عُدَدًا للحياة، وهو لن يَحُول دون ما كان من حياتي.

ذاك ما أنا عازمٌ عليه يا أبَت، ولو كنتُ خاليًا من الأهواء لكنتُ في رُجُولتي مستقلًّا مثل الإله نفسِه، وذلك من حيث إنني لا أريدُ أن أكونَ غيرَ ما أنا عليه؛ فلا أكافحُ المصيرَ

مطْلقًا، وليس لديَّ غيرُ قيدٍ واحدٍ على الأقل، وهو الوحيدُ الذي سأحمله دائمًا، وهو الذي أستطيعُ أن أُباهيَ به، فتعالَ إذن وأعْطِني صوفية؛ فأنا حُر.»

«أيْ إميلُ العزيز، حقًّا أنه يَسُرُّني سماعي من فَمِك كلامَ رَجُل، وأن أُبْصِر مشاعرَ في فؤادك، وليس هذا التجرُّدُ من الهوى المتناهي مما لا يَرُوقني صدورُه عمن هو في عُمُرك، وهو سيَقِلُّ متى صِرتَ ذا ولد، وهنالك تكون، ضبطًا، ما يكونه رَبُّ الأُسْرة الصالحُ والرجلُ الحكيم. وكنتُ أعرِف ما تكون النتيجةُ قبْل رحلاتك، وكنتُ أعرِف عند النظر إلى نُظُمنا عن كَثَب أنك تكون بعيدًا من أن تُعيرها اعتمادًا لا تستحقُّها. ومن العبثِ أن نَطْمَح إلى الحرية تحت ظلِّ القوانين. ألقوانين؟ أين هي؟ وأين تكون مُحترَمة؟ لم تَرَ تحت هذا الاسم في أيِّ مكانٍ كان غيرَ سيادةِ المصلحةِ الشخصية وأهواء النَّاس، ولكن قوانينَ الطبيعة والنظام الأبديةَ موجودة، وهي تَقوم مقامَ القانون الوضعيِّ لدى الحكيم، وهي مكتوبةٌ في صميم فؤاده بالعقل والضمير، وعليه أن يُعبِّدَ نفسَه لها كيما يكون حُرًّا ولا يُوجَدُ عبدٌ غيرُ الذي يصنع الشر؛ وذلك لأنه يَفْعلُه على الرغم منه دائمًا. وليست الحرية في أيِّ شكلٍ من أشكال الحكومة، وإنما هي في فؤاد الرجل الحُر، وهو يحمِلُها معه في كلِّ مكان، والرجل النذل يحمِلُ العبوديةَ في كلِّ مكان، وأحدُهما يكونُ عبدًا في جنيف، ويكون الآخر حُرًّا بباريس.

وإذا ما حدَّثتُكَ عن واجباتِ المواطن سألتَني، على ما يحتمل، عن مكان الوطن، وظننتَ أنك تَرْبُكني، ومع ذلك فإنك تخدع نفسك يا إميل العزيز؛ وذلك لأنه يُوجَد بَلَدٌ على الأقل لمن ليس له وطن، وفي كلِّ وقتٍ توجدُ حكومة مع أشباحٍ للقوانين عاش تحت ظِلِّها بهدوء. وهل من المهمِّ ألَّا يكون العقدُ الاجتماعيُّ قد رُوعيَ إذا ما حَمَتْه المصلحةُ الخاصةُ كما كان على الإرادة العامة أن تَصْنَع، وإذا ما صانته الصَّوْلةُ العامة من الصولات الخاصة، وإذا كان الشرُّ الذي أَبْصَر وقوعَه قد حَبَّبَ إليه ما كان حَسَنًا، وإذا كانت نُظُمُنا نفسُها قد أطْلَعَته على أوزارها الخاصة فجعلته يُبْغِض هذه الأوزار؟ أيْ إميل! أين رجلُ الخيرِ غيرُ المَدِين لبلده بشيء؟ ومهما يكن من أمرِ هذا البلد فإنه مَدينٌ له بأثمنِ شيءٍ للإنسان، مَدينٌ له بمكارمِ أعمالِه وبحبِّ الفضيلة. أجلْ، إنه إذا ما وُلِدَ في وَسَط غابةٍ عاشَ أكثرَ سعادةً وأعظمَ حرية، ولكنه إذ لا يكون لديه شيءٌ يكافحه تبعًا لميوله فإنه يكون صالحًا بلا فضيلة، وإنه لا يكون فاضلًا مطلقًا، وأمَّا الآن فإنه يَعْرِف أن يكون فاضلًا على الرغم من أهوائه، وما يكون من ظاهر النظام وحدَه يحمله على معرفة ذلك وحُبِّه. ويكون الخيرُ العام، الذي لا

يصلُح أن يكون غيرَ ذريعةٍ لدى الآخرين، باعثًا حقيقيًّا عنده؛ فهو يتعلَّم مقاومةَ نفسِه وقهْرَها والتضحيةَ بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، وليس من الصحيح أنه لا يستفيد شيئًا من القوانين؛ فالقوانين تُنعِم عليه بشجاعةٍ يكون بها عادلًا حتى بين الأشرار، وليس من الصحيح أنها لم تَجْعلْه حُرًّا؛ فهي قد علَّمته أن يسيطر على نفسه.

ولِذا لا تَقُلْ: ما أهميةُ المكان الذي أكون فيه؟ فمما يُهِمُّك أن تكونَ حيث تستطيع القيامَ بجميع واجباتك، ومن هذه الواجبات أن تُحِبَّ مَسْقط رأسك، وقد حماك مواطنوك صغيرًا، فيجب أن تُحِبَّهم كبيرًا، ويجب عليك أن تعيش بينهم، أو على الأقل في المكان الذي تستطيع أن تكون نافعًا لهم فيه ما أمْكنك، وفي المكان الذي يَعْرِفون أن يجدوك فيه إذا ما احتاجوا إليك. وتوجد أحوالٌ كثيرةٌ يستطيع الرجل أن يكون فيها أكثرَ نفعًا لمواطنيه خارجَ وطنه مما لو كان يعيش في سوائه، وهنالك يجب عليه ألَّا يُلبِّيَ غير داعي غَيْرته، وأن يصبِرَ على غُرْبته بلا تذمُّر؛ فهذا الاغتراب من جملة واجباته. وأنت يا إميلُ الصالح، الذي لا شيء يَفرِض عليه هذه التضحيات الأليمة، وأنت الذي لم يَنتحِل وظيفةَ قول الحقيقة للناس، اذهبْ وعِشْ بينهم، وتعهَّدْ صداقتَهم بصحبةٍ ليِّنة، وكُنْ مُحسِنًا إليهم وقُدْوةً لهم؛ فمثالُك يكون نافعًا لهم أكثرَ من جميع كتبنا، وسيكون المعروفُ الذي يرونك صانعًا إياه أعظمَ تأثيرًا فيهم من جميع كلامنا الفارغ.

ولا أُحرِّضُك على الذهاب للعَيش في المدن الكبيرة، وعلى العكس فإن من الأمثلة التي يجب على الصالحين أن يُلْقُوها على الآخرين هو مثالُ الحياةِ الأبوية الحقلية؛ أي حياةِ الإنسان الأُولى التي هي أهدأ ما يكون لدى صاحبِ القلبِ غيرِ الفاسدِ وأقربُ إلى الطبيعة وأحلى. وطُوبى يا صديقي الفتى للبلد الذي لا يُحتاج فيه إلى الذهاب للبحث عن السَّلْم في الصحراء! ولكن أين هذا البلد؟ بَلى، لا يُرْضي الرجلُ المحسنُ مَيْلَه بين المدن حيث لا يجِدُ تقريبًا ما يمارس من أجْلِه هِمَّتَه إلا الأرَّاجين والماكرين، وما يَجِدُ الكُسالى الذين يأتونها للبحث عن الثراء من حُسنِ قبولٍ لا يُسْفِرُ عن غيرِ اجتياحِ البلدِ الذي يجب إعمارُه ثانيةً على حساب المُدُن كما يَقْضي الحق. ويُعَدُّ جميعُ مَن يَنْزَوُون من المجتمع الأكبر نافعين لأنهم يعتزلونه تمامًا، وما دامت جميعُ عيوبه تأتيه من كثرة عدده، ومما يجعلهم نافعين أيضًا استطاعتُهم أن يَجلُبُوا إلى الأماكن المُقفِرَة ما هو خاصٌّ بحالهم الأُولى من الحياةِ والحرْثِ والحُب، وأَحِنُّ حين يَعِنُّ لي مقدارُ ما يستطيع إميلُ وصوفية أن يَنشُرا من الحسنات حوْلهما في أثناء عزلتهما، ومقدارُ ما يَقْدران على إنعاشه من الرِّيف ويُحْيِيَان من هِمَّة

القَرَويِّ الشقي الخامدة. ويُخيَّلُ إليَّ أنني أرى الشعبَ يتكاثر، وأن الحقولَ تُعمَر، وأن الأرض تلبَسُ حِليةً جديدة، وأن الجُمهور والوُفُور يُحوِّلان الأشغالَ إلى أعياد، وأن البركات وهُتَافات الفرح تتصاعد بين الألعاب الحقلية وحوْل الزوجين المحبوبين اللذين أعادا إليها الحياة. ويُعَدُّ العصر الذهبي من الأوهام، وهذا يكون دائمًا عند مَن هو ذو قلبٍ وذوقٍ فاسدَيْن، حتى إنه ليس من الصحيح أن يُؤسَف عليه ما دامت هذه الحَسَرات لا طائل فيها دائمًا، وما يجب أن يُصْنَع لبعث هذا العصر إذن؟ أمرٌ واحدٌ متعذِّر، وهو أن يُحَب.

وكان قد لاح لي بعْثُه حوْل مَنزل صوفية، وليس عليك إلا أن تُكمِلَ معًا ما بدأ أبواها الوَقوران، ولكن يا إميل العزيز لا تَدَع الحياةَ البالغةَ الدَّعَة تَحْمِلك على كراهية الواجبات الشاقة إذا ما فُرِضَت عليك، واذْكُر أن الرومان كانوا ينتقلون من المِحْراث إلى القنصلية. وإذا ما دعاك الأميرُ أو الدولة إلى خدمة الوطن فاترُكْ كلَّ شيءٍ واذهبْ لتقوم بوظيفة الوطنيِّ المَجيدَة في المركز الذي يُعيَّن لك، وإذا كانت هذه الوظيفةُ ثقيلةً عليك فإنه يوجدُ وسيلةٌ شريفةٌ أمينةٌ للتخلُّص منها، وذلك أن تقوم بها بإخلاصٍ كافٍ حتى لا تُترك على عاتِقك زمنًا طويلًا، ثُمَّ لا تَفْزع من عُسْرِ مثل هذا العبء، فلستَ بالذي يُطلَب لخدمة الدولة ما وُجِدَ رجالٌ من أهل هذا العصر.»

ولِمَ لا أُبيحُ لنفسي وصفَ رجوعِ إميلَ إلى صوفية وخاتمة مَعَاشقهما، وإن شئت فقُلْ بدءَ غرامهما الزَّواجي الذي يَجْمع بينهما! هذا الغرام القائم على الإكرام الذي يدوم مدَى الحياة، وعلى الفضائل التي لا تُمْحى مع الجمال، وعلى توافُق الأخلاق الذي يَجعلُ الصحبةَ مُحبَّبَةً والذي يُطيل في المِشيب فُتُون الوِصال الأوَّل، ولكن جميع هذه التفاصيل قد تَرُوقُ من غير أن تكون نافعة، وقد أَبحتُ لنفسي حتى الآن أمرَ القيام بتفاصيلَ مُستحبَّةٍ كالتي اعتقدتُ فائدتَها، وهل أَترك هذه القاعدةَ عند ختام عملي؟ كلَّا، وإني أشعر بمَلَالٍ اعترى قلمي، وإني وأنا البالغُ من الضَّعْف ما لا أقُوم معه بأعمالٍ تقتضي نفَسًا طويلًا، كنتُ أترك هذا العملَ لو كان أقلَّ تقدُّمًا، وإذا كان من غيرِ الجائز تركُ هذا العمل ناقصًا فإن وقتَ الفراغ منه قد أنَى.

وأخيرًا أُبْصِرُ أكثرَ أيام إميل سِحْرًا، وأكثرَ أيامي سعادةً، وأُبصِرُ تمامَ جهودي، وأبدأ بذواق ثمرتِها، ويتَّحِدُ الزوجان الكريمان بقيدٍ لا انفصامَ له، ويَلْفِظ فمُهما، ويؤيد فؤادُهما، وعودًا لن تكون باطلةً مطلقًا؛ فهما عروسان، ويَعودان من المَعْبد، ويُسَيَّران، ولا يَعْرِفان أين هما وأين يَذهبان، ولا ما يُصنَع حوْلهما، وهما لا يَنتبهان مُطلَقًا، وهما لا يُجيبان بغيرِ

كلماتٍ غامضة، وعادت أعينُهما الحائرةُ لا تَرى شيئًا. ويا للهذيان! ويا للضَّعف البشري! إن حِسَّ السعادة يَسْحق الإنسان، وليس الإنسانُ من القوة ما يحتمله معه.

وقليلٌ مِن النَّاس مَن يَعْرِفون اتخاذَ لهجةٍ ملائمةٍ مع الزوجين يومَ قِرانهما، ويَلوح لي أنَّ من غير المناسب على السواء ما يَكون عليه بعضُهم من احتشامٍ عابسٍ وما يصدر عن الآخرين من لغوِ الكلام. وأُفضِّلُ أن يُترك الفؤادان الفَتِيَّان عاكفَين على نفسِهما، وأن يستسلما إلى اضطرابٍ لا يخلو من فُتُون، على أن يُمعَنَ في شَغْلهما عنه بأن يُرْبكا باحتشامٍ زائفٍ مُغِمٍّ لهما، أو بأن يُلْبَكا بدُعاباتٍ لاذعةٍ تُزْعجهما في مثل ذاك اليوم، وإن كانت تَروقهما في وقتٍ آخَر.

وأُبصِر الفَتَيَين في ذُبولهما العَذْب الذي يضطربان به، فلا يسمعان ما يُوجَّهُ إليهما من كلام. وأمَّا أنا، الذي يُريد أن يُتمتَّع بالحياةِ كلَّ يوم، فهل أَدَعُ يومًا عزيزًا كذاك يَضيع عليهما؟ كلَّا، وإنما أريد أن يَذوقاه، وأن يتنعَّما فيه، وأن يتمتَّعا بملاذِّه، وأنْزِعُهما من الجَمْعِ غيرِ الرَّصينِ المُتْعِبِ لهما، وآتي بهما للنزهة في مكانٍ منحرف، وأردُّهما إلى نفسهما بالحديث عنهما، وليست أذناهما ما أريد أن أخاطب، بل فؤادُهما، ولا أجهل الموضوع الوحيد الذي يُمكن أن يَشْغل بالَهما في ذلك اليوم.

وأُمسِكُ بيدِ كُلٍّ منهما وأقول: «أيْ ولديَّ، لقد رأيتُ منذ ثلاث سنين ظهورَ هذه الشُّعْلة المُضطرِمة الطاهرة التي تنطوي على سِرِّ سعادتكما اليوم، وهي ما فتئتْ تزيد بلا انقطاع، وأُبصِرُ في أعينكما أنها في آخرِ درجاتِ حِدَّتها، وعاد لا يُمْكن غيرُ وَهْنِها.» أَوَلَا ترون أيها القراء هَيَجانَ إميل وهِيَامَه وأيْمانَه، ومظهرَ الازدراء الذي استخلصتْ صوفيةُ به يَدَها من يدي، والتصريحاتِ الناعمةَ التي كانا يتبادلانها بأعينهما دلالةً على عبادةِ كلٍّ منهما للآخر حتى النَّفَس الأخير؟ وأتغاضى عنهما، ثُمَّ أرجع إلى الكلام فأقول: «ما أكثَرَ ما أبصرتُ أنه إذا ما أمْكنتْ إطالةُ سعادةِ الحُبِّ في الزواج مُلِكَت الجنةُ فوق الأرض، وهذا هو الذي لم يُرَ حتى الآن، ولكنَّ الأمرَ إذا لم يتعذَّر تمامًا كنتما جديرَين بأن تكونا قُدوَةً لم تتلقَّياها من أحدٍ ولم يستطع غيرُ أزواجٍ قليلين أن يُقلِّدوها، وهل تريدان يا ولديَّ أن أُحدِّثَكما عن وسيلةٍ أتمثلُها في هذا السبيل معتقدًا أنها ممكنةٌ وحدَها؟»

ويتبادلان النظراتِ مُتَبسِّمَين ويَسْخَران من بساطتي، ويَشكُر لي إميلُ إرشادي بجلاءٍ قائلًا إنه يعتقد أن صوفيةَ تَكْنُّ لي أكثرَ من هذا، مكتفيًا بما قاله عن نفسه، وتُوافق صوفيةُ على هذا وتبدو مطمئنة، ومع ذلك فإنني أَمِيزُ من خلال وضْعِها الساخرِ شيئًا من الفُضول،

وأُنعِمُ النظرَ في إميلَ فأجدُه يلتهم فُتُون زوجِه بعينَيْه الملتهبتَين، وهذا هو الأمرُ الوحيدُ الذي يَظهَرُ به فُضوله، وما كانت أقوالي لِتثيرَ انتباهَه، وأتبسَّم بدَوْري قائلًا في نفسي: «سأَعْلم من فوْري كيف أجعلُكَ مُنتبِهًا لي.»

وما بين هذه الحركات الخفية من فَرْقٍ غيرِ محسوسٍ تقريبًا يَنِمُّ على الفارق بين الجنسين المخالفِ لما هو سائدٌ من مُبْتَسَرات، وذلك أن الرجالَ أقلُّ ثباتًا من النساء على العموم؛ فتفتُر همَّتُهم بأسرعَ منهن في حقلِ الحُبِّ المبارَك، وتُبصِرُ المرأةُ عدمَ ثبات الرجل من بعيدٍ فتجزَع[٣١] من هذا، وهذا ما يجعلها أشدَّ غَيْرةً أيضًا، وهو إذا ما أخذ يفتُر واضطُرَّت لحفظِه إلى بذْلِ جميعِ الجهود التي كانت تقوم بها للوقوع عنده موقعَ الرِّضا، بَكَت وتذلَّلت بدورها، ولكن مع نُدرة النجاح. أجلْ، إن الأفئدة تُكسَب بالمودة والجهود، ولكنها لا تُستَردُّ بهما مطلقًا، وأعود إلى إرشادي حوْل فتور الغرام في القِران.

وأعود إلى الكلام، فأقول: «والأمرُ بسيطٌ سهل، وذلك أن يستمرَّ الزوجان على كوْنهما عاشقَين.»

ويقول إميلُ ضاحكًا سِرًّا: «إننا لن نَجِدَ في ذلك عُسْرًا.»

«قد يكون أعسرَ مما تتصور أنت الذي يتكلم، فأرجو أن تترك لي من الوقت ما أُوضِح فيه ما أرى.

إنَّ العُرَى التي يُراد شَدُّها كثيرًا تَنْفَصِم، وهذا ما يحدثُ لعُقْدَةِ النكاح التي يُرادُ مَنْحُها من القوة أكثرَ مما يَنبغي. والوفاءُ الذي يَفْرضه النكاح على الزوجين هو أقدسُ من جميع الواجبات، ولكنه يَمنح كُلًّا منهما سلطانًا كبيرًا، ولا يَتساوق القسْر والغرام، ولا يُوصَى باللذة. ولا تَخْجلي يا صوفية، ولا تُفكِّري في الفِرار، ومعاذَ اللهِ أن أُريد الإساءةَ إلى حيائك! ولكنَّ الأمرَ خاصٌّ بمصيرك؛ ففي موضوعٍ بالغِ الأهميةِ احتَملي حديثًا بين الأب والزوج لا تَحْتملينه في موضعٍ آخَر.

[٣١] يكون النساء في فرنسة أوَّل مَن ينفصل؛ وذلك لأنهن إذ كن أقلَّ مِزاجًا ولم يرغبن في غيرِ التكريم فإنهن لا يبدين غيرَ قليلِ مبالاة بالزوج الذي يَعْدِل عن إكرامهن. وأمَّا في البلدان الأخرى، فيكون الزوجُ أوَّل مَن ينفصل؛ وذلك لأن النساء الوفيات، ولكن مع عدم رصانة، يزعجنهم برغائبهن، فيورثنهم نفورًا منهن. أجلْ إن من الممكن أن يكون لهذه الحقائق العامة كثيرٌ من الاستثناءات، ولكنني أعتقد الآن أنَّها من الحقائق العامة.

وليست الحيازةُ كإخضاعٍ يُرْوِي الغليل، ويُحْفَظ للفتاة التي تُحظِي من الحُب ما هو أطولُ من الذي تُحبَى به الزوجة. وكيف يُمكِن أن يُجعَل واجبٌ من أنْعَم الألطاف وحقٌّ من أحلى آيات الغرام؟ إن تَبادُلَ الرغبةِ هو الذي يَصْنع الحقَّ، ولا تَعْرِف الطبيعةُ حقًّا آخرَ مطلقًا، أجلْ يستطيع القانون تضييق هذا الحق، ولكنه لا يَقدِر أن يُوسِّع مداه. ويا لَحَلاوةِ الشهوةِ بنفسها! وهل تَنال بالضَّنْك الكئيب من القوةِ ما لا تستطيع نَيْله بجواذبها الخاصة؟ كلَّا يا ولديَّ، إن القلوب تتحد بالزواج، ولكن الأبدان لا تُعبَّدُ مطلقًا، وكلٌّ منكما مُلزَم بالوفاء نحو الآخر، لا بالمسايرة، ولا يُمكِن كُلًّا من الاثنَين إلا أن يكون للآخر، ولكن لا يَنبغي أن يكون أيٌّ من الاثنَين للآخر إلا إذا راقه.

وإذا كنتَ يا إميلُ العزيزُ تريد أن تكون عاشقًا لزوجتك حقًّا، وَجَبَ أن تكون خليلةً لك ولنفسِها دائمًا، وكُن عاشقًا سعيدًا، ولكن مُكْرِمًا، وفُزْ بالغرام كلِّه من غيرِ أن تَطْلُب شيئًا من الواجب، ولا تجعلْ من أقلِّ الحُظُوات حقوقًا لك مطلقًا، وإنما دَعْهَا تكون ألطافًا. وأعْرِفُ أن الحياءَ يَحتَرِزُ من الاعترافات الصريحة، ويَقضي بأن يُقْهَر، ولكن هل العاشقُ مع الرِّقةِ والغرامِ الحقيقي يُخدَع حوْل البُغيةِ الخفية؟ وهل يَجهَلُ عند موافقةِ القلبِ والعينَينِ ما يُظْهِرُ الفمُ مِن رفض؟ ودَعْ كلَّ واحدٍ من الاثنَين مالكًا لشخصه وملامساته، فيحقُّ له ألَّا يَمُنَّ بهما على الآخرِ إلا حينَ يُريد. واذكُرْ في الزواج دائمًا أن اللَّذَّة لا تكونُ شرعيةً إلا عند تبادُلِ الرغبة، ولا تخافا يا وَلدَيَّ أن تَفْصِل هذه السُّنَّةُ أحدَكُما عن الآخر، بل هي على العكسِ تجعلُ كُلًّا منكما أكثرَ انتباهًا كيما يَروقُ الآخَر، وتَحُول دون الكِظَّة، وليقتصِرْ كلٌّ منكما على الآخر؛ فالطبيعة والحُبُّ يُقرِّبان بينكما بما فيه الكفاية.»

تُثِير هذه الكلماتُ وما ماثلها غضبَ إميلَ، فيصيحُ معترضًا، ويعتري صوفيةَ حياءٌ فتضعُ مِرْوحتَها على عينيها ولا تَنْبِس بكلمة، وقد لا يكون أكثرُ الاثنَين سخطًا أكثرَهما شكاية، وأُصِرُّ بلا رحمة، وأجْعل إميلَ يَحْمَرُّ خجلًا من قلَّة لطافتِه، وأضْمَنُ أن تَقْبَل صوفية البحثَ من ناحيتها، وأَحُضُّها على الكلام، ومما يُشَكُّ فيه أن تجْرُؤ على تكذيبي. ويُشاوِر إميلُ المشغولُ البالِ عينَيْ زوجتِه الفتاة، ويراهما من خلال ارتباكهما مملوءتَين كَدَرًا شهْوانيًّا مُطَمْئنًا إياه حوْل خَطَرِ اعتماده عليها، ويُلْقي نفسَه على رجلَيْها ويُقبِّل اليدَ التي تَمُدُّها إليه هائجًا مُقْسِمًا أنه يتنزَّل عن كلِّ حقٍّ عليها خلا الوفاءَ الموعود، ويقول لها: «أيْ زوجتي العزيزة، كوني حَكَمًا في ملاذِّي كما أنكِ حَكَمٌ في أيامي ومصيري، ولو قَضَتْ

قسوتُك بتكليفي الحياةَ لسلَّمتُ إليكِ أعزَّ حقوقي، ولا أريد أن أكون مَدِينًا لملاطفتك، وإنما أريد نَيْلَ كلِّ شيءٍ من فؤادك.»

ويا إميلُ الصالح، قرَّ عَينًا؛ فصوفية من الكَرَم البالغ ما لا تَدَعُك تَموتُ معه ضحيةَ كرمِك.

وفي المساء، عندما أوشكتُ أن أترُكَهما، قلتُ لهما بأقصى ما يُمكِنني من لهجةٍ رصينة: «ليَذْكُرْ كلٌّ منكما أنه طليقٌ وأنه لا محلَّ للبحث في واجبات الأزواج الآن، وصدِّقاني أنه لا إكرامَ كاذبٌ. فيا إميل، أتريد المجيءَ معي؟ فصوفية تأذن في هذا.» ويكاد إميلُ يَضْرِبني غضبًا. «وأنتِ يا صوفية، ما تقولين؟ هل آخذه؟» وتقول الكاذبة وقد احمرَّ وجهُها خجلًا: «نعم.» فهذا الكَذِبُ العذبُ الفاتنُ أفضلُ من الحقيقة!

وفي اليوم التالي تَعُود صورةُ السعادةِ لا تُجَامِلُ الرِّجال؛ فما كان فسادُ العيبِ أقلَّ إفسادًا لذوْقِهم ممَّا لقلوبهم، وهم يَعُودُون لا يَشْعُرون بما هو مؤثِّرٌ، ولا يَرَون ما هو سَارٌّ. وأنتم أيُّها الذين لا يتمثَّلون لتصويرِ الشهوةِ غيرَ عاشقين سعيدين غارقين في سواء الملاذِّ؛ تكونُ ألواحُكم ناقِصة! فلا يَكون لديكم منها غيرُ أغلظِ النِّصْفَين، وأمَّا أعذبُ جَواذبِ اللذَّة فلا تشْتملُ عليها مطلقًا. ومَن منكم لم يَرَ قَطُّ زوجَين شابَّين جَمَع بينهما أسعدُ طالع، فخرجا من الحَجَلَةِ[٣٢] * حاملَين في نظراتهما الذَّابلةِ الطاهرةِ نشوةَ الملاذِّ العَذْبة التي تمتَّعا بها وضمانَ العَفافِ واليقينَ الفاتنَ بأن يَقضيا بقيَّةَ أيامِهما معًا؟ فها هو ذا أسحرُ ما يُمكِن أن يُقدَّم إلى قلبِ الرجل، وها هو ذا لوحُ الشهوةِ الحقيقي، ولقد رأيتموه مائةَ مرَّةٍ من غيرِ أن تعرفوه، وقد عادت قلوبُكم القاسيةُ لا تكونُ قد صُنِعَتْ لتُحِبَّه. وتقضي صوفيةُ السعيدةُ الوديعةُ نَهارَها بين ذِراعَي أُمِّها الحنُون، وهذه استراحةٌ حُلْوةٌ تنالُها بعدَ أن قضت الليلةَ بين ذراعَيْ زوجها.

وفي اليوم الثالث، أُبْصِرُ تَغيُّرًا في المنظر، وذلك أن إميلَ يُريد إظهارَ شيءٍ من الاستياء، ولكنني أُلاحِظُ من خلال هذا التظاهُر نشاطًا رقيقًا، حتى إذعانًا كثيرًا، لا أتوقَّعُ منه ما يُغِم. وأمَّا صوفية، فهي أعظمُ مَرَحًا مما كانت عليه عَشِيَّة، وأرى في عينيْها التماعَ ظاهرِ مُرْضٍ، وهي تبدو مع إميلَ فاتنة، وهي تُبدي له من الدَّلال تقريبًا ما يعود منه غيرَ غاضب.

[٣٢] * الحَجَلة: سِتْرُ العروسِ في جوْف البيت.

ولا تكاد هذه التحولاتُ تكون ظاهرة، ولكنها لا تَفوتني، وهي تشغل بالي. وأسأل إميل على انفراد، فأعلمُ أنه على ما أبدى من لَهَفٍ كبير، ومع كلِّ ما أظهرَ من إلحافٍ كثير، لم يُسمَح له بأن يشاطِرَ صوفيةَ فراشَها في الليلة الماضية؛ فقد بادرت هذه المتكبِّرة إلى استعمال حقِّها. ويُصارُ إلى التفسير، ويألَم إميلُ ألمًا مُرًّا، وتضحك صوفية، ولكنها إذ تُبصر على أثرِ ذلك أنَّ إميل يُوشِك أن يَحْرَد، تُلْقي عليه نظرةً مملوءةً لطافةً وغرامًا، ولا تنطِق، وهي تصافحني، ولكن بلهجةٍ تنفُذ في الفؤاد بغير كلمة: «كَنُود!» ويكون إميلُ من الغباوة ما لا يُدْرِكها معه، وأمَّا أنا فأدْرِك، وأُبعِد إميل، وأتناول صوفيةَ بدوْرها على انفراد.

وأقول لها: «أُبصِرُ سببَ هذه النَّزْوة، ولا أحدَ يكون أكثرَ لطافة، ولا أحدَ يستعمل هذه اللطافة بما هو أكثرُ سوءًا. فيا صُوفية العزيزة قَرِّي عينًا؛ فهذا رجلٌ أعطيتك إياه، ولا تخافي أن تعامليه هكذا، وقد اقتطفتِ بواكيرَ شبابه، وهو لم يَجُدْ بشبابه على أحد، وهو سيحتفظ به من أجلك زمنًا طويلًا.

ويجب يا بِنْتي العزيزة أن أُوضِح لك ما أبديتُ من آراء في أثناء الحديث الذي دار بيننا منذ ثلاثة أيام، ومن المحتمل ألَّا تكوني قد أبصرْتِ فيه غيرَ وسيلةٍ دارَيتُ بها ملاذَّكما إدامةً لها. أيْ صوفية! كان لذلك الحديث من الأغراض ما هو أكثرُ جدارةً بجهودي؛ فإميلُ إذ صار زوجًا لك أصبح قوَّامًا عليك، فعليك أن تطيعيه، وهذه هي مشيئة الطبيعة، ومتى شابهتِ المرأةُ صُوفيةَ كان من الصالح مع ذلك أن يُقاد بها، وهذه هي سُنَّة الطبيعة أيضًا، وقد جعلتُك حَكَمًا في أمرِ ملاذِّه كيما يكون لكِ من السلطان على فؤاده ما يَعْدِل السلطانَ الذي منحه جنسُه إياه على شخصك. أجلْ، سيُكلِّفك هذا حِرْماناتٍ شاقة، ولكنك ستسيطرين عليه إذا عَرَفتِ أن تسيطري على نفسك، وما وَقَع يدلُّني على أن هذا الحِذْقَ البالغَ الصعوبةِ ليس فوقَ قوَّة جَنَانك، وستسيطرين بالحبِّ زمنًا طويلًا إذا ما جعلتِ ألطافَك نادرةً ثمينةً وإذا ما عَرَفتِ حُسْن استثمارها. وإذا أردتِ أن تَرَيْ زوجَك عند قدميك بلا انقطاع، فاجعلي بينه وبين شخصِك بعضَ المسافة دائمًا، ولكن لِتكُنْ شِدَّتُكِ نتيجةَ اعتدالٍ لا نتيجةَ نزْوة، ولْيَجِدْكِ فَطُونًا لا جَمُوحًا، واحترزي حينَ مُداراتِه لحُبِّه أن يرتابَ مِن حُبِّك، وغالي بنفسِك في ألطافِك، وأكْرِمي نفسَك عندَ منْعك حُظُواتك، وليُجِلَّ عفافَ زوجِه غيرَ متوجِّعٍ من فُتُورها.

وهكذا يَمْنحُكِ ثِقتَه يا بُنيَّتي، ويُصْغي إلى آرائك، ويستشيرُك في شئونه، ولا يَقطعُ أمرًا قبْلَ أن يُذاكرَك فيه. وهكذا يُمكنُك أن تَدْعِيه إلى سبيلِ الحكمةِ إذا ما ضَل، وأن تَرُدِّيه إلى هذه السبيلِ بالإقناعِ اللَّيِّن، وأن تُحبِّبي نفسَك لتكوني نافعة، وأن تَلوذي بالدَّلالِ من أجْلِ الفضيلة، وأن تَعُوذِي بالغرامِ مِن أجْلِ العقْل.

ولا تظُنِّي، مع جميع هذا، أن هذا الحِذْقَ يستطيع أن يكون خادمًا لمقاصدك دائمًا؛ فمهما يُمكِن اتخاذُه من احتياطٍ فإن التمتُّع يُوهِنُ الملاذَّ، والحُبَّ قبْل غيره، ولكنَّ الحُبَّ إذا ما دام زمنًا طويلًا ملأت فراغَه عادةٌ حُلوة، وعَقَبتْ جاذبيةُ الثقة فائرَ الهوى. ويتألَّف من الأولاد، بين مَن أنْعَموا عليهم بالوجود، رابطةٌ لا تَقِلُّ حلاوةً عن الحُب نفسه، وهي تكون أقوى منه غالبًا، ومتى عُدتِ غيرَ خليلةٍ لإميلَ غدوتِ امرأتَه وصديقتَه وكنتِ أمًّا لأولاده، وهنالك أقيمي بينكما أعظمَ ما يكون من أُلْفةٍ بدلًا من الاحتراز الأوَّل؛ فلا سريرَ منفصلٌ، ولا امتناعَ ولا نزوات، وابْلُغي من كونك نِصفًا له ما لا يستطيع معه أن يستغنيَ عنكِ مطلقًا، فإذا ما تركك شَعَر بأنه بعيدٌ من نفسه. واجعلي سرَّ الحياة المنزلية يُهيمن على بيتكما بعد أن جَعَلْتِه يهيمن على بيت أبيك؛ فكلُّ رجلٍ يطيب له أن يُقيم بمنزله يُحبُّ امرأتَه، واذكُري أن زوجَك إذا ما عاش سعيدًا في بيته كنتِ زوجةً سعيدة.

وأمَّا الآن، فلا تكوني كثيرةَ القسوة على عاشقك؛ فقد يستحقُّ أعظم ملاطَفة، ومما يُسيء إليه ما يكون من مخاوفك، ولا تبالغي في مداراة صحَّته على حساب سعادته، وتمتَّعي بسعادتك، ولا ينبغي لك انتظارُ نُفورٍ ولا رفضُ رغبة، بل مغالاةٌ بحُظْواتك.»

ثُمَّ أجْمَعُهما وأقول لزوجِها الشابِّ أمامَها: «لا بُدَّ من احتمالِ النِّيرِ الذي يُفرَض، واصْنَعْ ما تَستحِقُّ معه أن يكونَ خفيفَ الوطْأةِ عليك، وضَحِّ في سبيلِ الألطافِ على الخصوص، ولا يَبْدُ لك أنك تكونُ أكثرَ حُظوةً إذا ما أبديتَ استياءك.» ولا يَصْعُب إقرارُ السلام، وكلٌّ يَسْهُل عليه أن يرتاب من الأحوال، وتُمضَى المعاهدةُ بقُبلَة. ثُمَّ أقول لتلميذي: «أيْ إميل العزيز، يحتاج كلُّ إنسانٍ في حياته إلى مستشارٍ ودليل، ولم آلُ جُهدًا حتى الآن في القيام بهذا الواجب نحوك، وهنا ينتهي عملي الطويل ويبدأ عملُ غيري، واليوم أتخلَّى عن السلطان الذي عهدتَ به إليَّ، وها هي ذي مُربِّيتُك من الآن فصاعدًا.»

ويسكُن الهذيان الأوَّل مقدارًا فمقدارًا، ويدعُهما يذوقان فُتُون حالهما الجديدة بسلام، ويا للعاشقَين السعيدَين! ويا للزوجَين الفاضلين! تقضي الإشادة بفضائلهما، ويقضي وصفُ سعادتهما وضعَ تاريخٍ عن حياتهما، وما أكثرَ ما خَفَق قلبي عندما أُبْصِرُ تتويجَ أثَري بهما! وما أكثرَ ما جمعتُ يديهما في يدي شاكرًا للربِّ مُتنفِّسًا الصُّعَداء بحرارة! وما أكثرَ ما طبعتُ من قُبُلاتٍ على تينك اليدَين المتصافحتَين! وما أكثرَ ما بلَّلتْ دموعُ فرحِهما يدي! ويَرِقَّان بدَوْرهما حينما يُقاسمانني هَيَمَاني، دَعْ والديهما الجليلَين اللذين يتمتَّعان بشبابهما مرةً أخرى في صورة ولدَيهما؛ ومِنْ ثَمَّ يستأنفان الحياةَ فيهما، وإن شئتَ فقُل

إنهما يَعْرِفان قيمةَ الحياةِ للمرة الأُولى، فيلْعَنان ثراءهما الأوَّل الذي حال دون تمتُّعهما، وهما في مثلِ ذلك الدَّور من العُمُر، بنصيبٍ بالغٍ ذاك المقدارَ من الفُتُون، وإذا ما وُجِدَتْ في الأرض سعادةٌ وجبَ البحثُ عنها في المأوى الذي نعيش فيه.

وتمضي بضعةُ أشهر، فيدخُلُ إميلُ غرفتي ذاتَ صباحٍ ويقول لي وهو يعانقني: «هنِّئ ولدَك يا مُعلِّمي؛ فهو يأملُ أن ينالَ شرفَ كونه أبًا عما قليل. آه! يا للجهود التي تُفرَض على نشاطنا! ويا لكثرةِ ما نحتاج إليك! ومعاذَ اللهِ أن أتركَ لك تربيةَ الابن بعد أن قُمْتَ بتربية الأب، ومعاذَ اللهِ أن يقوم غيري بواجبٍ مُقدَّسٍ عَذْبٍ كذاك، ولو قُضي بأن اختارَ له مثلَما اختِيرَ لي! ولكنْ دُمْ مُعلِّمًا لشُبَّان المُعلِّمين، وانصحْنا وسيْطِر علينا تجدْنا طائعَين، وسأحتاج إليك ما دمتُ حيًّا. والآن، حين تَبدأ واجباتي مثلَ رجلٍ أحتاج إليك أكثرَ مما في أيِّ زمنٍ كان. أجلْ، لقد قُمتَ بواجباتك، فوجِّهني حتى أسيرَ على غِرارك، واسترِح؛ فقد حلَّ الوقت.»

هنداوي